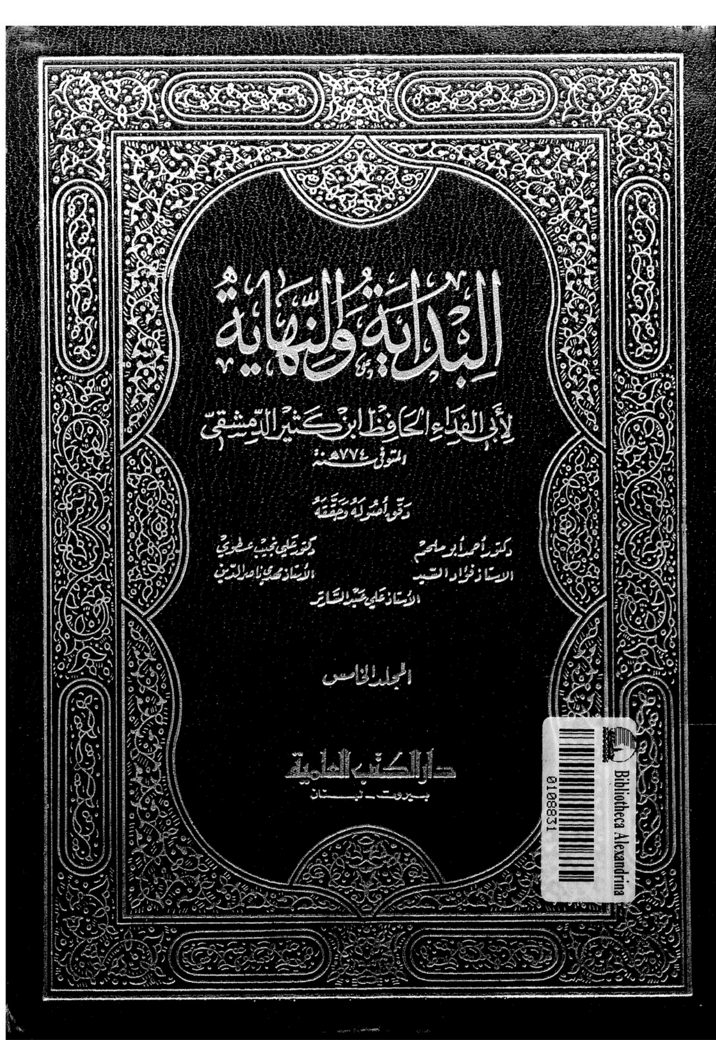

البداية والنهاية
لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ
دقق أصوله وحققه
دكتور أحمد أبو ملحم
دكتور علي نجيب عطوي
الأستاذ فؤاد السيد
الأستاذ مهدي ناصر الدين
الأستاذ علي عبد الساتر
المجلد الخامس
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

البداية والنهاية

تأليف

أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤ هجرية

دقق أصوله وحققه

دكتور أحمد أبو ملحم
دكتور علي نجيب عطوي
الأستاذ فؤاد السيد
الأستاذ مهدي ناصر الدين
الأستاذ علي عبد الساتر

المجلد الخامس
الجزء التاسع

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦

الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

فيها عزل عبد الملك طارق بن عمرو عن إمارة المدينة وأضافها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي ، فقدمها فأقام بها أشهراً ثم خرج معتمراً[1] ثم عاد إلى المدينة في صفر فأقام بها ثلاثة أشهر ، وبنى في بني سلمة مسجداً ، وهو الذي ينسب إليه اليوم ، ويقال إن الحجاج في هذه السنة وهذه المدة شتم جابرا وسهل بن سعد وقرعهما لم لا نصرا عثمان بن عفان ، وخاطبهما خطاباً غليظاً قبحه الله وأخزاه ، واستقضى أبا إدريس الخولاني أظنه على اليمن والله أعلم . قال ابن جرير : وفيها نقض الحجاج بنيان الكعبة الذي كان ابن الزبير بناه وأعادها على بنيانها الأول ، قلت : الحجاج لم ينقض بنيان الكعبة جميعه ، بل إنما هدم الحائط الشامي حتى أخرج الحجر من البيت ثم سده وأدخل في جوف الكعبة ما فضل من الأحجار ، وبقية الحيطان الثلاثة بحالها ، ولهذا بقي البنيان الشرقي والغربي وهما ملصقان بالأرض كما هو المشاهد إلى يومنا هذا ، ولكن سد الغربي بالكلية وردم أسفل الشرقي حتى جعله مرتفعاً كما كان في الجاهلية ، ولم يبلغ الحجاجَ وعبدَ الملك ما كان بلغ ابن الزبير من العلم النبوي الذي كانت أخبرته به خالته عائشة عن رسول الله (ﷺ) كما تقدم ذلك من قوله : «لولا أن قومك حديث عهدهم بكفر ـ وفي رواية ـ بجاهلية لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الحجر ، وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً ، ولألصقتهما بالأرض : فإن قومك تضرب بهم النفقة فلم يدخلوا فيها الحجر ولم يتمموها على قواعد إبراهيم ورفعوا بابها ليدخلوا من شاؤ وا ويمنعوا من شاؤ وا » . فلما تمكّن ابن الزبير بناها كذلك ، ولما بلغ عبد الملك هذا الحديث بعد ذلك قال : وددنا لو تركناه وما تولى من ذلك .

وفي هذه السنة ولي المهلب بن أبي صفرة حرب الأزارقة عن أمر عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أن يجهز المهلب إلى الخوارج في جيوش من البصرة والكوفة ، ووجد بشر على المهلب في

---

(١) معتمراً : تعمَّم بالعمامة .
وهي هنا بمعنى أدّى فريضة العُمْرَة .

نفسه حيث عينه عبد الملك في كتابه . فلم يجد بدأ من طاعته في تأميره على الناس في هذه الغزوة ، وما كان له من الأمر شيء ، غير أنه أوصى أمير الكوفيين عبد الله بن مخنف أن يستبد بالأمر دونه ، وأن لا يقبل له رأياً ولا مشورة ، فسار المهلب بأهل البصرة وأمراء الأرباع معه على منازلهم حتى نزل برامهرمز ، فلم يقم عليها إلا عشراً حتى جاء نعي بشر بن مروان ، وأنه مات بالبصرة واستخلف عليها خالد بن عبد الله ، فأرخى بعض الجيش ورجعوا إلى البصرة فبعثوا في آثارهم من يردهم ، وكتب خالد بن عبد الله إلى الفارين يتوعدهم إن لم يرجعوا إلى أميرهم ، ويتوعدهم بسطوة عبد الملك ، فعدلوا يستأذنون عمرو بن حريث في المصير إلى الكوفة فكتب إليهم : «إنكم تركتم أميركم وأقبلتم عاصين مخالفين ، وليس لكم إذن ولا إمام ولا أمان » ، فلما جاءهم ذلك أقبلوا إلى رحالهم فركبوها ثم ساروا إلى بعض البلاد فلم يزالوا مختفين بها حتى قدم الحجاج والياً على العراق مكان بشر بن مروان كما سيأتي بيانه قريباً .

وفي هذه السنة عزل عبد الملك بكير بن وشاح التميمي عن إمرة خراسان وولاها أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد القرشي ليجتمع عليه الناس فانه قد كادت الفتنة تتفاقم بخراسان بعد عبد الله بن خازم ، فلما قدم أمية بن عبد الله خراسان عرض على بكير بن وشاح أن يكون على شرطته فأبى وطلب منه أن يوليه طخارستان فخوفوه منه أن يخلعه هنالك فتركه مقيماً عنده . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها الحجاج وهو على إمرة المدينة ومكة واليمن واليمامة . قال ابن جرير : وقد قيل إن عبد الملك اعتمر في هذه السنة ولا نعلم صحة ذلك .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

رافع بن خديج بن رافع الأنصاري ، صحابي جليل شهد أُحُداً وما بعدها ، وصفين مع علي وكان يتعانا[1] المزارع والفلاحة ، توفي وهو ابن ست وثمانين سنة ، وأسند ثمانية وسبعين حديثاً . وأحاديثه جيدة ، وقد أصابه يوم أحدسهم في ترقوته فخيره رسول الله (ﷺ) بين أن ينزعه منه وبين أن يترك فيه العطبة ويشهد له يوم القيامة ، فاختار هذه ، وانتقض عليه في هذه السنة فمات منه رحمه الله .

أبو سعيد الخدري

هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي ، صحابي جليل من فقهاء الصحابة استصغر يوم أحد ، ثم كان أول مشاهده الخندق ، وشهد مع رسول الله ﷺ إثنتي عشرة غزوة ، وروى عنه

(١) يتعانا : يتعاطى .

أحاديث كثيرة ، وعن جماعة من الصحابة ، وحدث عنه خلق من التابعين وجماعة من الصحابة ، كان من نجباء[1] الصحابة وفضلائهم وعلمائهم . قال الواقدي وغيره : مات سنة أربع وسبعين وقيل قبلها بعشر سنين فالله أعلم .

قال الطبراني : حدّثنا المقدام بن داود ثنا خالد بن نزار ثنا هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري . قال : قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : « النبيون قلت : ثم أي ؟ قال ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلي بالفقر حتى ما يجد الا السترة ـ وفي رواية ـ إلا العباءة أو نحوها ، وإن أحدهم ليبتلي بالقمل حتى ينبذ القمل ، وكان أحدهم بالبلاء أشد فرحاً منه بالرخاء » . وقال قتيبة بن سعيد : ثنا الليث بن سعد عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي سعيد الخدري : أن أهله شكوا إليه الحاجة فخرج إلى رسول الله ﷺ يسأل لهم شيئاً ، فوافقه على المنبر وهو يقول : «أيها الناس قد آن لكم أن تستغنوا عن المسألة[2] فإنه من يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ، والذي نفس محمد بيده ما رزق الله عبداً من رزق أوسع له من الصبر ، ولئن أبيتم إلا أن تسألوني لأعطينكم ما وجدت » . وقد رواه الطبراني عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد نحوه .

عبد الله بن عمر

ابن الخطاب القرشي العدوي . أبو عبد الرحمن المكي ثم المدني أسلم قديماً مع أبيه ولم يبلغ الحلم وهاجرا وعمره عشر سنين ، وقد استصغر يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق أجازه وهو ابن خمس عشرة سنة فشهدها وما بعدها ، وهو شقيق حفصة بنت عمر أم المؤمنين ، أمهما زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون ، وكان عبد الله بن عمر ربعة من الرجال آدم له جمة[3] تضرب إلى منكبيه جسيماً يخضب بالصفرة ويحفى شاربه ، وكان يتوضأ لكل صلاة ويدخل الماء في أصول عينيه ، وقد أراده عثمان على القضاء فأبى ذلك ، وكذلك أبوه ، وشهد اليرموك والقادسية وجلولاء وما بينهما من وقائع الفرس ، وشهد فتح مصر ، واختط بها داراً ، وقدم البصرة وشهد غزو فارس وورد المدائن مراراً وكان عمره يوم مات النبي ﷺ أثنتين وعشرين سنة ، وكان إذا أعجبه شيء من ماله يقرب به إلى الله عز وجل ، وكأن عبيده قد عرفوا ذلك منه ، فربما لزم أحدهم المسجد فاذا رآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه ، فيقال له : إنهم يخدعونك ، فيقول : من خدعنا الله انخدعنا له ، وكان له جارية يحبها كثيراً فأعتقها وزوجها لمولاه نافع ، وقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى

(١) نجباء : مفردها : نجيب ، وهو الفاضل النفيس في نوعه .

(٢) المسألة : الحاجة والمطلب .

(٣) جُمَّة : جمعها جُمم ، مجتمع شعر الرأس .

تُنفِقُوا مما تحبُّون ﴾[1] واشترى مرة بعيراً فأعجبه لما ركبه فقال : يا نافع أدخله في إبل الصدقة ، وأعطاه ابن جعفر في نافع عشرة آلاف فقال : أو خيراً من ذلك ؟ هو حر لوجه الله ، واشترى مرة غلاماً بأربعين ألفاً وأعتقه فقال الغلام : يا مولاي قد أعتقتني[2] فهب لي شيئاً أعيش به فأعطاه أربعين ألفاً ، واشترى مرة خمسة عبيد فقام يصلي فقاموا خلفه يصلون فقال : لمن صليتم هذه الصلاة ؟ فقالوا : لله ! فقال : أنتم أحرار لمن صليتم له ، فاعتقهم . والمقصود أنه ما مات حتى أعتق ألف رقبة ، وربما تصدَّق في المجلس الواحد بثلاثين ألفاً ، وكانت تمضي عليه الأيام الكثيرة والشهر لا يذوق فيه لحماً إلاّ وعلى يديهْ يتيم ، وبعث اليه معاوية بمائة ألف لما أراد أن يبايع ليزيد ، فما حال عليه الحول وعنده منها شيء ، وكان يقول : إني لا أسأل أحداً شيئاً ، وما رزقني الله فلا أرده . وكان في مدة الفتنة لا يأتي أمير إلا صلى خلفه ، وأدى إليه زكاة ماله ، وكان أعلم الناس بمناسك الحج ، وكان يتتبع آثار رسول الله ﷺ يصلي فيها ، حتى أن النبي ﷺ نزل تحت شجرة وكان ابن عمر يتعاهدها ويصب في أصلها الماء ، وكان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا تلك الليلة ، وكان يقوم أكثر الليل ، وقيل إنه مات وهو في الفضل مثل أبيه ، وكان يوم مات خير من بقى ، ومكث ستين سنة يفتي الناس من سائر البلاد ، وروى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة ، وروى عن الصديق وعن عمر وعثمان وسعد وابن مسعود وحفصة وعائشة وغيرهم ، وعنه خلق منهم بنوه حمزة وبلال وزيد وسالم وعبد الله وعبيد الله وعمر إن كان محفوظ ، وأسلم مولى أبيه وأنس بن سيرين والحسن وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وطاووس وعروة وعطاء وعكرمة ومجاهد وابن سيرين والزهري ومولاه نافع .

وثبت في الصحيح عن حفصة أن رسول الله ﷺ قال : «إن عبد الله رجل صالح لو كان يقوم الليل » . وكان بعد يقوم الليل ، وقال ابن مسعود : إن من أَمْلَك شباب قريش لنفسه عن الدنيا ابن عمر . وقال جابر : ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها ، إلا ابن عمر ، وما أصاب أحد من الدنيا شيئاً إلاّ نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً ، وقال سعيد بن المسيب : مات ابن عمر يوم مات وما من الدنيا أحد أحب أن لقي الله بمثل عمله منه ، وقال الزهري : لا يعدل برأيه فإنه أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة ، فلم يخف عليه شيء من أمره ولا من أمر أصحابه رضي الله عنهم ، وقال مالك : بلغ ابن عمر ستا وثمانين سنة وأفتى في الإسلام ستين سنة ، تقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض ، قال الواقدي وجماعة : توفي ابن عمر سنة أربع وسبعين ، وقال الزبير بن بكار وآخرون : توفي سنة ثلاث وسبعين والأول أثبت والله أعلم .

عبيد بن عمير

ابن قتادة بن سعد بن عامر بن خندع بن ليث ، الليثي ثم الخندعي ، أبو عاصم المكي قاضي

---

(١) سورة آل عمران ، الآية / ٩٢ .

(٢) اعتقتني : أخرجتني من الرِّقِّ والعبودية .

أهل مكة ، قال مسلم بن الحجاج . ولد في حياة النبي ﷺ ، وقال غيره ورآه أيضاً ، وروى عن أبيه ، وله صحبة ، وعن عمر وعلي وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمر وأم سلمة وغيرهم ، وعنه جماعة من التابعين وغيرهم ، ووثقه ابن معين وأبو زرعة وغير واحد . وكان ابن عمر يجلس في حلقته ويبكي وكان يعجبه تذكيره ، وكان بليغاً ، وكان يبكي حتى يبل الحصى بدموعه . قال مهدي بن ميمون عن غيلان بن جرير قال : كان عبيد بن عمير إذا آخى[1] أحداً في الله استقبل به القبلة فقال : «اللهم اجعلنا سعداء بما جاء به نبيك ، واجعل محمداً شهيداً علينا بالإيمان ، وقد سبقت لنا منك الحسنى غير متطاول علينا الأمد ، ولا قاسية قلوبنا ولا قائلين ما ليس لنا بحق ، ولا سائلين ما ليس لنا به علم » . وحكى البخاري عن ابن جريج أن عبيد بن عمير مات قبل ابن عمر رضي الله عنه .

ابو جحيفة

وهب بن عبد الله السوائي ، صحابي رأى النبي ﷺ ، وكان دون البلوغ عند وفاة النبي ﷺ لكن روى عنه عدة أحاديث ، وعن علي والبراء بن عازب ، وعنه جماعة من التابعين ، منهم إسماعيل بن أبي خالد ، والحكم وسلمة بن كهيل والشعبي وأبو إسحاق السبيعي ، وكان قد نزل الكوفة وابتنى بها داراً وتوفي في هذه السنة ، وقيل في سنة أربع وتسعين فالله أعلم . وكان صاحب شرطة علي ، وكان علي إذا خطب يقوم أبو جحيفة تحت منبره .

سلمة بن الأكوع

ابن عمرو بن سنان الأنصاري وهو أحد من بايع تحت الشجرة ، وكان من فرسان الصحابة ومن علمائهم ، كان يفتي بالمدينة ، وله مشاهد معروفة في حياة النبي ﷺ : وبعده ، توفي بالمدينة وقد جاوز السبعين سنة .

مالك بن أبي عامر

الأصبحي المدني وهو جد الامام مالك بن أنس ، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم وكان فاضلاً عالماً ، توفي بالمدينة .

ابو عبد الرحمن السلمي

مقرىء أهل الكوفة بلا مدافعة واسمه عبد الله بن حبيب ، قرأ القرآن على عثمان بن عفان وابن مسعود ، وسمع من جماعة من الصحابة وغيرهم ، وأقرأ الناس القرآن بالكوفة من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج ، قرأ عليه عاصم بن أبي النجود وخلق غيره ، توفي بالكوفة .

---

(١) آخى : اعتبره بمنزلة الأخ .

أبو معرض الأسدي

اسمه مغيرة بن عبد الله الكوفي ، ولد في حياة النبي ﷺ ، ووفد على عبد الملك بن مروان وامتدحه ، وله شعر جيد ، ويعرف بالأقطشي ، وكان أحمر الوجه كثير الشعر ، توفي بالكوفة في هذه السنة ، وقد قارب الثمانين سنة .

بشر بن مـــروان

الأموي أخو عبد الملك بن مروان ، ولِّي إمرة العراقين لأخيه عبد الملك ، وله دار بدمشق عند عقبة اللباب ، وكان سمحاً جواداً ، وإليه ينسب دير مروان عند حجير ، وهو الذي قتل خالد بن حصين الكلابي يوم مرج راهط ، وكان لا يغلق دونه الأبواب ويقول : إنما يحتجب النساء ، وكان طليق الوجه ، وكان يجيز على الشعر بألوف ، وقد امتدحه الفرزدق والأخطل ، والجهمية تستدل على الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء ببيت الأخطل .

قـد استـوى بشـرٌ على العـراقِ　　　من غيــر سيفٍ ودمٍ مهــراقِ[1]

وليس فيه دليل ، فإن هذا استدلال باطل من وجوه كثيرة ، وقد كان الأخطل نصرانياً ، وكان سبب موت بشر أنه وقعت القرحة في عينه فقيل له يقطعها من المفصل فجزع فما أحس حتى خالطت الكتف ، ثم أصبح وقد خالطت الجوف ثم مات ولما احتضر جعل يبكي ويقول : والله لوددت أني كنت عبداً أرعى الغنم في البادية لبعض الأعراب ولم أل مـا وليت ، فذكـر قولـه لأبي حازم ـ أو لسعيد بن المسيب ـ، فقال : الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يفرون إلينا ولم يجعلنا نفر إليهم ، إنا لنرى فيهم عبراً ، وقال الحسن : دخلت عليه فإذا هو يتململ على سريره ثم نزل عنه الى صحن الدار ، والأطباء حوله . مات بالبصرة في هذه السنة وهو أول أمير مات بها ، ولما بلغ عبد الملك موته حزن عليه وأمر الشعراء أن يرثوه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

ففيها غزا محمد بن مروان ـ أخو عبد الملك بن مروان وهو والد مروان الحمار ـ صائفة الروم حين خرجوا من عند مرعش ، وفيها ولِّي عبد الملك نيابة المدينة ليحيى بن أبي العـاص ، وهو عمه ، وعزل عنها الحجاج . وفيها ولي عبد الملك الحجاج بن يوسف نيابة العراق والبصرة والكوفة وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار ، وذلك بعد موت أخيه بشر ، فرأى عبد الملك أنه لا يسد عنه أهل العراق غير الحجاج لسطوته وقهره وقسوته وشهامته ، فكتب إليه وهو بالمدينة ولاية العراق ، فسار من

---

(١) مهراق : مصبوب .

المدينة الى العراق في اثني عشر راكباً ، فدخل الكوفة على حين غفلة من أهلها وكان تحتهم النجائب[(١)] ، فنزل قريب الكوفة فاغتسل واختضب ولبس ثيابه وتقلد سيفه وألقى عذبة العمامة[(٢)] بين كتفيه ، ثم سار فنزل دار الامارة ، وذلك يوم الجمعة وقد أذن المؤذن الأول لصلاة الجمعة ، فخرج عليهم وهم لا يعلمون ، فصعد المنبر وجلس عليه وأمسك عن الكلام طويلاً ، وقد شخصوا إليه بأبصارهم وجثوا[(٣)] على الركب وتناولوا الحصى ليحذفوه بها ، وقد كانوا حصبوا الذي كان قبله ، فلما سكت أبهتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ، والله إن كان أمركم ليهمني قبل أن آتي إليكم ، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بي ، ولقد سقط مني البارحة سوطي الذي أؤدبكم به ، فاتخذت هذا مكانه ـ وأشار إلى سيفه . ، ثم قال : والله لآخذن صغيركم بكبيركم ، وحركم بعبدكم ، ثم لأرصعنكم رصع الحداد الحديدة ، والخباز العجينة . فلما سمعوا كلامه جعل الحصى يتساقط من أيديهم ، وقيل إنه دخل الكوفة في شهر رمضان ظهراً فأتى المسجد وصعد المنبر وهو معتجر[(٤)] بعمامة حمراء متلثم بطرفها ، ثم قال : علي بالناس ! فظنه الناس وأصحابه من الخوارج فهموا به حتى إذا اجتمع الناس قام وكشف عن وجهه اللثام وقال :

أنا ابن جَلا وطلاّع الثنايا[(٥)] متى أضعُ العمامَة تَعرفوني

ثم قال : أما والله إني لأحمل الشيء بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأحزمه بفتله ، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وآن اقتطافها ، وإني لأنظر الى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى ، قد شمرت عن ساقها فشمري ، ثم أنشد :ـ

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدي زِيم[(٦)] قد لفّها الليلُ بسَواقٍ حُطَمْ[(٧)]
لست براعي إبلٍ ولا غنم ولا بجزّارٍ على ظهرِ وضمْ[(٨)]
قد لفّها الليلَ بعَصْلبيّ[(٩)] أروَعَ خرّاجٍ من الدوّيّ[(١٠)]

مهاجرٍ ليسَ بأعرابيّ

---

(١) النجائب : مفردها : نجيبة وهي ، الفاضلة النفيسة في نوعها .
(٢) عَذَبة العمامة : ما بين الكتفين من العمامة .
(٣) جثوا : مفردها : جَثا ، جلس على ركبتيه أو قام على أطراف أصابعه .
(٤) معتجر : عجر : حمل وشدَّ .
(٥) الثنايا : مفردها ثنيّة : وهي أسنان مقدم الفم اثنتان من فوق واثنتان من أسفل .
(٦) زيم : مفردها زيمة وهي القطعة من اللحم ونحوه .
(٧) حُطَم : الراعي الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض .
(٨) وضم : خشبة الجزّار التي يقطع عليها اللحم .
(٩) بعصلبيّ : القوي العظيم من الرجال .
(١٠) الدوّيّ : البرّيّة .

ثم قال : إني والله يا أهل العراق ما أغمز بغماز[1] ، ولا يقعقع لي بالشنان[2] ، ولقد فررت عن ذكاء وجربت من الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته [3] ثم عجم عيدانها عوداً عوداً فوجدني أمرَّها عوداً وأصلبها مغمزاً فوجهني إليكم ، فأنتم طالما رتعتم في أودية الفتن ، وسلكتم سبيل الغي [4] ، واخترتم جدد الضلال ، أما والله لألحونكم لحى العود [5] ، ولأعصبنكم عصب السلمة [6] ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، إني والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أحلق إلا فريت ، فاياي وهذه الجماعات وقيلاً وقالاً ، والله لتستقيمن على سبيل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده . ثم قال : من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب ـ يعني الذين كانوا قد رجعوا عنه لما سمعوا بموت بشر بن مروان كما تقدم ـ سفكت دمه وانتهبت ماله ، ثم نزل فدخل منزله ولم يزد على ذلك ، ويقال إنه لما صعد المنبر واجتمع الناس تحته أطال السكوت حتى أن محمد بن عمير أخذ كفا من حصى وأراد أن يحصبه بها ، وقال : قبحه الله ما أعياه وأذمه ! فلما نهض الحجاج وتكلم بما تكلم به جعل الحصى يتناثر من يده وهو لا يشعر به ، لما يرى من فصاحته وبلاغته. ويقال انه قال في خطبته هذه: شاهت الوجوه إن الله ضرب ﴿مثلاً قريةً كانتْ آمِنَةً مطمئنةً يأتيها رزقهَا رَغداً مِنْ كلِّ مكانٍ فكَفَرَتْ بأنعم الله فأذاقهَا الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانُوا يصنَعُون﴾ [7] وأنتم أولئك فاستووا واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تدروا ، ولأعصبنكم عصب السلمة حتى تنقادوا ، واقسم بالله لتقبلن على الأنصاف ولتدعن الأرجاف[8] وكان وكان ، وأخبرني فلان عن فلان ، وإيش الخبر وما الخبر ، أو لأهبرنكم[9] بالسيف هبراً يدع النساء أيامى والأولاد يتامى ، حتى تمشوا السمهى[10] وتقلعوا عن هاوها . في كلام طويل بليغ غريب يشتمل على وعيد شديد ليس فيه وعد بخير .

فلما كان في اليوم الثالث سمع تكبيراً في السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ، إني سمعت تكبيراً في الأسواق ليس بالتكبير الذي يراد به الترغيب ، ولكنه تكبير يراد به الترهيب . وقد عصفت عجاجة تحتها قصف ، يا بني اللكيعة[11] وعبيد العصا وأبناء الإماء[12] والأيامى ، ألا يربع كل رجل منكم على ظلعه ، ويحسن

---

(١) بغماز : من يحاول غمز القناة وتقويمها

(٢) الشنان : القِرَبُ البالية ، مثل يضرب عند العرب

(٣) كنانته : الكنانة : جعبة تحمل فيها السِّهام.

(٤) الغي : الضلال والفساد .

(٥) لحي العود : قشره .

(٦) السَّلَمة : جنس شجر ، ينمو في البلدان الحارة . ثمره أصفر يحوي حبَّة خضراء . يُستعمل ورقه في الدبغ .

(٧) سورة النحل ، الآية / ١١٢ .

(٨) الإرجاف : الخوض في الأخبار السيئة والفتن قصد ان يهيِّجوا الناس .

(٩) لأهبرنكم : لأقطعنكم قطعاً كبيرة .

(١٠) السمهى : الاستقامة .

(١١) اللكيعة : اللئيمة .

(١٢) الإماء : مفردها الأمَة وهي الجارية .

حقن دمه ويبصر موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها . قال فقام إليه عمير بن ضابىء التميمي ثم الحنظلي فقال : أصلح الله الأمير إنا في هذا البعث وأنا شيخ كبير وعليل ، وهذا ابني هو أشب مني . قال : ومن أنت ؟ قال عمير بن ضابىء التميمي ، قال : أسمعت كلامنا بالأمس ؟ قال : نعم ! قال : ألست الذي غزا عثمان بن عفان ؟ قال : بلى . قال : وما حملك على ذلك ؟ قال : كان حبس أبي وكان شيخاً كبيراً ، قال أوليس هو الذي يقول :

هممتُ ولمْ أفعلْ وَكِدْتُ وليتَني ... فعلتُ وولّيتَ البُكاءَ حلائِلاً

ثم قال الحجاج : إني لأحسب أن في قتلك صلاح المصرين ، ثم قال قم إليه يا حرسي فاضرب عنقه ، فقام إليه رجل فضرب عنقه وانتهب ماله ، وأمر منادياً فنادى في الناس ألا إن عمير بن ضابىء تأخر بعد سماع النداء ثلاثاً فأمر بقتله ، فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر فعبر عليه في ساعة واحدة أربعة آلاف من مدحج ، وخرجت معهم العرفاء حتى وصلوا بهم إلى المهلب ، وأخذوا منه كتاباً بوصولهم إليه ، فقال المهلب : قدم العراق والله رجل ذكر ، اليوم قوتل العدو . ويروى أن الحجاج لم يعرف عمير بن ضابىء حتى قال له عنبسة بن سعيد : أيها الأمير ! إن هذا جاء إلى عثمان بعد ما قتل فلطم وجهه ، فأمر الحجاج عند ذلك بقتله .

وبعث الحجاج الحكم بن أيوب الثقفي نائباً على البصرة من جهته، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله، وأقر على قضاء الكوفة شريحاً ثم ركب الحجاج إلى البصرة واستخلف على الكوفة أبا يعفور ، وولى قضاء البصرة لزرارة بن أوفى ، ثم عاد إلى الكوفة . وحج بالناس في هذه السنة عبد الملك بن مروان ، واقر عمه يحيى على نيابة المدينة ، وعلى بلاد خراسان أمية بن عبد الله . وفي هذه السنة وثب الناس بالبصرة على الحجاج ، وذلك أنه لما ركب من الكوفة بعد قتل عمير بن ضابىء قام في أهل البصرة فخطبهم نظير ما خطب أهل الكوفة من الوعيد والتشديد والتهديد الأكيد ، ثم اتى برجل من بني يشكر فقيل هذا عاص ، فقال : إن بي فتقا وقد عذرني الله وعذرني بشر بن مروان ، وهذا عطائي . مردود على بيت المال ، فلم يقبل منه وأمر بقتله فقتل ، ففزع أهل البصرة وخرجوا من البصرة حتى اجتمعوا عند قنطرة رامهرمز . وعليهم عبد الله بن الجارود ، وخرج إليهم الحجاج ـ وذلك في شعبان من هذه السنة ـ في أمراء الجيش فاقتتلوا هناك قتالاً شديداً ، وقتل أميرهم عبد الله بن الجارود في رؤوس من القبائل معه ، وأمر برؤوسهم فقطعت ونصبت عند الجسر من رامهرمز ، ثم بعث بها إلى المهلب فقوي بذلك وضعف أمير الخوارج ، وأرسل الحجاج إلى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف فأمرهما بمناهضة[1] الازارقة ، فنهضا بمن معهما إلى الخوارج الأزارقة فأجلوهم عن أماكنهم من رامهرمز بأيسر قتال ، فهربوا إلى أرض كازرون من أقليم سابور ، وسار الناس وراءهم فالتقوا في العشر الأواخر من رمضان ، فلما كان الليل بيت الخوارج المهلب من

---

(١) بمناهضة : بمحاربة ومنازلة .

الليل فوجدوه قد تحصن بخندق حول معسكره ، فجاؤا إلى عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه غير محترز ـ وكان المهلب قد أمره بالاحتراز بخندق حوله فلم يفعل ـ فاقتتلوا في الليل فقتلت الخوارج عبد الرحمن بن مخنف وطائفة من جيشه وهزموهم هزيمة منكرة ، ويقال إن الخوارج لما التقوا مع الناس في هذه الوقعة كان ذلك في يوم الأربعاء لعشرين بقين من رمضان ، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يعهد مثله من الخوارج ، وحملت الخوارج على جيش المهلب بن أبي صفرة فاضطروه إلى معسكره ، فجعل عبد الرحمن يمده بالخيل بعد الخيل ، والرجال بعد الرجال ، فمالت الخوارج إلى معسكر عبد الرحمن بعد العصر فاقتتلوا معه إلى الليل ، فقتل عبد الرحمن في أثناء الليل ، وقتل معه طائفة كثيرة من أصحابه الذين ثبتوا معه ، فلما كان الصباح جاء المهلب فصلّى عليه ودفنه وكتب إلى الحجاج بمهلكه ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يعزيه فيه فنعاه عبد الملك إلى الناس بمنى ، وأمّر الحجاج مكانه عتاب بن ورقاء ، وكتب إليه أن يطيع المهلب ، فكره ذلك ولم يجد بداً من طاعة الحجاج ، وكره أن يخالفه ، فسار إلى المهلب فجعل لا يطيعه إلا ظاهراً ويعصيه كثيراً ، ثم تقاولا فهم المهلب أن يوقع بعتاب ثم حجز بينهما الناس ، فكتب عتاب إلى الحجاج يشكو المهلب فكتب إليه أن يقدم عليه وأعفاه من ذلك ، وجعل المهلب مكانه ابنه حبيب بن المهلب .

وفيها خرج داود بن النعمان المازني بنواحي البصرة ، فوجه إليه الحجاج أميراً على سرية فقتله . قال ابن جرير : وفي هذه السنة تحرك صالح بن مسرح أحد بني امرىء القيس ، وكان يرى رأي الصفرية[1] ، وقيل إنه أول من خرج من الصفرية ، وكان سبب ذلك أنه حج بالناس في هذه السنة ومعه شبيب بن يزيد، والبطين وأشباههم من رؤوس الخوارج، واتفق حج أمير المؤمنين عبد الملك فهم شبيب بالفتك به ، فبلغ عبد الملك ذلك من خبره بعد انصرافه من الحج ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يتطلبهم ، وكان صالح بن مسرح هذا يكثر الدخول إلى الكوفة والإقامة بها ، وكان له جماعة يلوذون به ويعتقدونه ، من أهل دارا وأرض الموصل ، وكان يعلمهم القرآن ويقص عليهم وكان مصفراً كثير العبادة ، وكان إذا قص يحمد الله ويثني عليه ويصلّي على رسوله ، ثم يأمر بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ، ويحث على ذكر الموت ويترحّم على الشيخين أبي بكر وعمر ، ويثني عليهما ثناءً حسناً ، ولكن بعد ذلك يذكر عثمان فيسبه وينال منه وينكر عليه أشياء من جنس ما كان ينكر عليه الذين خرجوا وقتلوه من فجرة أهل الأمصار ، ثم يحض أصحابه على الخروج مع الخوارج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنكار ما قد شاع في الناس وذاع ، ويهون عليهم القتل في طلب ذلك ، ويذم الدنيا ذماً بالغاً ، ويصغّر أمرها ويحقره ، فالتفت عليه جماعة من الناس ، وكتب إليه شبيب بن يزيد الخارجي يستبطئه في الخروج ويحثه عليه ويندب إليه ، ثم قدم شبيب على صالح وهو بداراً فتواعدوا وتوافقوا على الخروج في مستهل صفر من هذه السنة الآتية ـ

---

(١) الصُّفْرِيَّة : فرقة من الخوارج أتباع زياد بن الأصفر .

وهي سنة ست وسبعين ـ وقدم على صالح شبيب وأخوه مضاد والمجلل والفضل بن عامر ، فاجتمع عليه من الأبطال وهو بداراً نحو مائة وعشرة أنفس ، ثم وثبوا على خيل لمحمد بن مروان فأخذوها ونفروا بها ثم كان من أمرهم بعد ذلك ما كان ، كما سنذكره في هذه السنة التي بعدها إن شاء الله تعالى .

وكان ممن توفي فيها في قول أبي مسهر وأبي عبيد العرباض بن سارية رضي الله عنه السلمي أبو نجيح سكن حمص وهو صحابي جليل ، أسلم قديماً هو وعمرو بن عنبسة ونزل الصفة[1] ، وكان من البكائين المذكورين في سورة براءة كما قد ذكرنا أسماءهم عند قوله : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾[2] الآية . وكانوا ، تسعة وهو راوي حديث « خطبنا رسول الله ﷺ خطبة وجلت منها القلوب وزرفت منها العيون » الحديث إلى آخره . ورواه أحمد وأهل السنن وصحّحه الترمذي وغيره ، وروى أيضاً أن النبي ﷺ « كان يصلي على الصف المقدم ثلاثاً وعلى الثاني واحدة » وقد كان العرباض شيخاً كبيراً ، وكان يحب أن يقبضه الله إليه ، وكان يدعو : اللهم كبرت سني ووهن عظمي فاقبضني إليك ، وروى أحاديث .

ابو ثعلبة الخشني

صحابي جليل شهد بيعة الرضوان وغزا حنيناً وكان ممن نزل الشام بداريا غربي دمشق إلى جهة القبلة ، وقيل ببلاط قرية شرقي دمشق فالله أعلم . وقد اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، والأشهر منها جرثوم بن ناشر ، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث وعن جماعة من الصحابة ، وعنه جماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب ومكحول الشامي وأبو إدريس الخولاني ، وأبو قلابة الجرمي ، وكان ممن يجالس كعب الأحبار ، وكان في كل ليلة يخرج فينظر إلى السماء فيتفكر ثم يرجع إلى المنزل فيسجد لله عز وجل ، وكان يقول : إني لأرجو أن لا يخنقني الله عند الموت كما أراكم تختنقون ، فبينما هو ليلة يصلي من الليل إذ قبضت روحه وهو ساجد . ورأت ابنته في المنام كأن أباها قد مات فانتبهت مذعورة فقالت لأمها أين أبي ؟ قالت : هو في مصلاه ، فنادته فلم يجبها ، فجاءته فحركته فسقط لجنبه فاذا هو ميت رحمه الله ، قال أبو عبيد ومحمد بن سعد وخليفة وغير واحد : كانت وفاته سنة خمس وسبعين ، وقال غيرهم : كانت وفاته في أول إمرة معاوية فالله أعلم ، وقد توفي في هذه السنة .

الأسود بن يزيد

صاحب ابن مسعود ، وهو الأسود بن يزيد النخعي من كبار التابعين ، ومن أعيان أصحاب ابن

---

(١) الصفة : إسم مكان بمكة ، والصفا والمروة : جبلان بمكة .

(٢) سورة التوبة ، الآية /٩٢ .

مسعود، ومن كبار أهل الكوفة، وكان يصوم الدهر، وقد ذهبت عينه من كثرة الصوم، وقد حج البيت ثمانين حجة وعمرة . وكان يهل من الكوفة ، توفي في هـذه السنة ، وكـان يصوم حتى يخضـر ويصفر ، فلما احتضر بكى فقيل له : ما هذا الجزع ؟ فقال : مالي لا أجزع ؟ ومن أحق بذلك مني ؟ والله لو أنبئت بالمغفرة من الله لأهابن الحياء منه مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيياً منه .

حمران بن أبان

مولى عثمان بن عفان كان من سبي عين النمر اشتراه عثمان ، وهو الذي كان يأذن الناس على عثمان توفي في هذه السنة والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ست وسبعين

كان في أولها في مستهل صفر منها ليلة الأربعاء اجتماع صالح بن مسرح أمير الصفرية ، وشبيب بن يزيد أحد شجعان الخوارج ، فقام فيهم صالح بن مسرح فأمرهم بتقوى الله وحثهم على الجهاد ، وأن لا يقاتلوا أحداً حتى يدعوه إلى الدخول معهم ، ثم مالوا إلى دواب محمد بن مروان نائب الجزيرة فأخذوها فنفروا بها ،وأقاموا بأرض داراً ثلاث عشرة ليلة ، وتحصن منهم أهـل دارا ونصيبين وسنجار ، فبعث إليهم محمد بن مروان نائب الجزيرة خمسمائة فارس عليهم عدي بن عدي بن عميرة ، ثم زاده خمسمائة أخرى فسار في ألف من حران إليهم ، وكأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، لما يعلموا من جلد الخوارج وقوتهم وشدة بأسهم ، فلما التقوا مع الخوارج هزمتهم الخوارج هزيمة شنيعة بالغة ، واحتووا على ما في معسكرهم ، ورجع فلهم إلى محمّد بن مروان ، فغضب وبعث إليهم ألفاً وخمسمائة مع الحارث بن جعونة ، وألفاً وخمسمائة مع خالد بن الحر ، وقال لهما : أيكمـا سبق إليهم فهو الأميـر على الناس ، فسـاروا إليهم في ثلاثـة آلاف مقاتـل ، والخوارج في نحو من مائة نفس وعشرة أنفس ، فلما انتهوا إلى آمد توجه صالح في شطر الناس إلى خالد بن الحر ، ووجه شبيباً في الباقي إلى الحارث بن جعونة ، فاقتتل الناس قتالاً شـديداً إلى الليل ، فلما كان المساء انكشف كل من الفريقين عن الآخر ، وقد قتل من الخوارج نحو السبعين وقتل من أصحاب ابن مروان نحو الثلاثين ، وهربت الخوارج في الليل فخرجوا من الجزيرة وأخذوا في أرض الموصل ومضوا حتى قطعوا الدسكرة ، فبعث إليهم الحجاج ثلاثة آلاف مع الحارث بن عميرة ، فسار نحوهم حتى لحقهم بأرض الموصل وليس مع صالح سوى تسعين رجلاً ، فالتقى معهم وقد جعل صالح أصحابه ثلاثة كراديس ، فهو في كردوس ، وشبيب عن يمينه في كردوس[1] ،

---

(١) كردوس : طائفة عظيمة من الخيل .

وسويد بن سليمان عن يساره في كردوس ، وحمل عليهم الحارث بن عميرة ،وعلى ميمنته أبو الرواع الشاكري ، وعلى ميسرته الزبير بن الاروح التميمي ، فصبرت الخوارج على قلتهم صبراً شديداً ، ثم انكشف سويد بن سليمان ، ثم قتل صالح بن مسرح أميرهم ، وصرع شبيب عن فرسه فالتف عليه بقية الخوارج حتى احتملوه فدخلوا به حصناً هنالك ، وقد بقي معهم سبعون رجلاً ، فأحاط بهم الحارث بن عميرة وأمر أصحابه أن يحرقوا الباب ففعلوا ، ورجع الناس إلى معسكرهم ينتظرون حريق الباب فيأخذون الخوارج قهراً ، فما رجع الناس واطمأنوا خرجت عليهم الخوارج على الصعب والذلول من الباب فبيتوا جيش الحارث بن عميرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وهرب الناس سراعاً إلى المدائن ، واحتاز شبيب وأصحابه ما في معسكرهم ، وكان جيش الحارث بن عميرة أول جيش هزمه شبيب ، وكان مقتل صالح بن مسرح في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفيها دخل شبيب الكوفة ومعه زوجته غزالة ، وذلك أن شبيباً جرت له فصول يطول تفصيلها بعد مقتل صالح بن مسرح ، واجتمعت عليه الخوارج وبايعوه ، وبعث إليه الحجاج جيشاً آخر فقاتلوه فهزموه ثم هزمهم بعد ذلك ،ثم سارفجازالمدائن فلم ينل منهم شيئاً ، فسار فأخذ وابا للحجاج من كلوذا ، وفي عزمه أن يبيت أهل المدائن فهرب من فيها من الجند إلى الكوفة ، فلما وصل فلهم إلى الحجاج جهز جيشاً أربعة آلاف مقاتل إلى شبيب ، فمروا على المدائن ثم ساروا في طلب شبيب فجعل يسير بين أيديهم قليلاً قليلاً وهو يريهم أنه خائف منهم ، ثم يكر في كل وقت على المقدمة فيكسرها وينهب ما فيها ، ولا يواجه أحداً إلا هزمه ، والحجاج يلح في طلبه ويجهز إليه السرايا والبعوث والمدد وشبيب لا يبالي بأحد وإن ما معه مائة وستون فارساً ، وهذا من أعجب العجب ، ثم سار من طريق أخرى حتى واجه الكوفة وهو يريد أن يحاصرها ، فخرج الجيش بكماله إلى السبخة لقتاله ، وبلغه ذلك فلم يبال بهم بل انزعج الناس له وخاف منه وفرقوا منه ، وهمَّ الجيش أن يدخل الكوفة خوفاً منه ويتحصنوا بها منه ، حتى قيل لهم إن سويد بن عبد الرحمن في آثارهم وقد اقترب منهم ،وشبيب نازل بالمدائن بالدير ليس عنده حبر منهم ولا خوف ، وقد أمر بطعام وشواء ان يصنع له فقيل له : قد جاءك الجند فأدرك نفسك ، فجعل لا يلتفت إلى ذلك ولا يكترث بهم ويقول للدهقان[1] الذي يصنع له الطعام : أجده وأنصجه وعجل به ، فلما استوى أكله ثم توضأ وضوءاً تاماً ثم صلى بأصحابه صلاة تامة بتطويل وطمأنينة ، ثم لبس درعه وتقلد سيفين وأخذ عمود حديد ثم قال : أسر جوالي البغلة ، فركبها فقال له أخوه مصاد : اركب فرساً ، فقال : لا احارس كل أمر أجله ، فركبها ثم فتح باب الدير الذي هو فيه وهو يقول : أنا أبو المدله لا حكم إلا الله ، وتقدم إلى أمير الجيش الذي يليه بالعمود الحديد فقتله ، وهو سعيد بن المجالد ، وحمل على الجيش الآخر

---

(١) الدهقان :الدِّهقان جمعها دهاقنة وهي فارسية معناها : رئيس الإقليم او التاجر .

الكثيف فصرع أميره وهرب الناس من بين يديه ولجأوا إلى الكوفة ، ومضى شبيب إلى الكوفة من أسفل الفرات ، وقتل جماعة هناك ، وخرج الحجاج من الكوفةهارباً إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة ، ثم اقترب شبيب من الكوفة يريد دخولها ، فأعلم الدهاقين عروة ابن المغيرةبذلك فكتب إلى الحجاج يعلمه بذلك فأسرع الحجاج الخروج من البصرة وقصد الكوفة فأسرع السير ، وبادره شبيب إلى الكوفة فسبقه الحجاج إليها فدخلها العصر ، ووصل شبيب إلى المربد[1] عند الغروب ، فلما كان آخر الليل دخل شبيب الكوفة وقصد قصر الامارة فضرب بابه بعموده الحديد فأثرت ضربته في الباب ، فكانت تعرف بعد ذلك ، يقال هذه ضربة شبيب ، وسلك في طرق المدينة وتقصد محال القتال ، وقتل رجالاً من رؤساء أهل الكوفة وأشرافهم ، منهم أبو سليم والدليث بن أبي سليم ، وعدي بن عمرو ، وأزهر بن عبد الله العامري ، في طائفة كثيرة . من أهل الكوفة ، وكان مع شبيب امرأته غزالة ، وكانت معروفة بالشجاعة ، فدخلت مسجد الكوفة وجلست على منبره وجعلت تذم بني مروان .

ونادى الحجاج في الناس يا خيل الله أركبي ، فخرج شبيب من الكوفة إلى مجال الطعن والضرب ، فجهز الحجاج في أثره ستة آلاف مقاتل ، فساروا وراءه وهو بين أيديهم ينعس ويهز رأسه ، وفي أوقات كثيرة يكر عليهم فيقتل منهم جماعة ، حتى قتل من جيش الحجاج خلقاً كثيراً ، وقتل جماعة من الأمراء منهم رائدة بن قدامة ، قتله شبيب ، وهو ابن عم المختار ، فوجه الحجاج مكانه لحربه عبد الرحمن بن الأشعث ، فلم يقابل شبيباً ورجع ، فوجه مكانه عثمان بن قطن الحارثي ، فالتقوا في أواخر السنة فقتل عثمان بن قطن وانهزمت جموعه بعد أن قتل من أصحابه ستمائة نفس ، فمن أعيانهم عقيل بن شداد السلولي ، وخالد بن نهيك الكندي ، والاسود بن ربيعة ، واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبد الملك بن مروان والحجاج وسائر الأمراء وخاف عبد الملك منه خوفاً شديداً ، فبعث له جيشاً من أهل الشام فقدموا في السنة الآتية ، وإن ما مع شبيب شرذمة قليلة ، وقد ملأ قلوب الناس رعباً » ، وجرت خطوب كثيرة له معهم ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم حتى استهلت هذه السنة .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة نقش عبد الملك بن مروان على الدراهم والدنانير وهو أول من نقشها ، وقال الماوردي في كتاب الاحكام السلطانية : اختلف في أول من ضربها بالعربية في الإسلام فقال سعيد بن المسيب : أول من ضرب الدراهم المنقوشة عبد الملك بن مروان ، وكانت الدنانير والدراهم رومية وكسروية ، قال أبو الزناد : وكان نقشه لها في سنة أربع وسبعين ، وقال المدائني : خمس وسبعين ، وضربت في الآفاق سنة ست وسبعين ، وذكر أنه ضرب على الجانب الواحد منها الله أحد ، وعلى الوجه الآخر الله الصمد ، قال : وحكى يحيى بن النعمان الغفاري عن

(١) المربد : ضاحية من ضواحي مدينة البصرة وهو في العصر الاموي كسوق عكاظ في الجاهلية .

أبيه أن أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير عن أمر أخيه عبد الله بن الزبير ، سنة سبعين على ضرب الأكاسرة ، عليها الملك من جانب ، والله من جانب ، ثم غيرها الحجَّاج وكتب اسمه عليها من جانب، ثم خلصها بعده يوسف بن هبيرة في أيام يزيد بن عبد الملك، ثم خلصها أجود منها خالد ابن عبد الله القسيري في أيام هشام، ثم يوسف بن عمر أجود منهم كلهم، ولذلك كان المنصور لا يقبل منها إلا الهبيريه والخالدية واليوسفية وذكر أنه قد كان للناس نقود مختلفة منها الدراهم البعلية ، وكان الدرهم منها ثمانية دوانق ، والطبرية وكان الدرهم منها أربعة دوانيق ، واليمني دانق ، فجمع عمر بن الخطاب بين البعلي والطبري ثم أخذ بنصفها فجعل الدرهم الشرعي وهو نصف مثقال وخمس مثقال ، وذكروا أن المثقال لم يغيروا وزنه في جاهلية ولا إسلام ، وفي هذا نظر والله أعلم .

وفيها ولد مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وهو مروان الحمار آخر من تولى الخلافة من بني أمية ، ومنه أخذها بنو العباس . وفيها حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان نائب المدينة ، وعلى امرة العراق الحجاج وعلى خراسان أمية بن عبد الله والله أعلم .

وممن توفي فيها من الأعيان أبو عثمان النهدي القضاعي اسمه عبد الرحمن بن مل أسلم على عهد النبي (ﷺ) وغز اجلولاء والقادسية وتستر ، ونهاوند ، وأذربيجان وغيرها ، وكان كثير العبادة زاهداً عالماً يصوم النهار ويقوم الليل ، توفي وعمره مائة وثلاثين سنة بالكوفة .

صلة بن اشيم العدوي

من كبار التابعين من أهل البصرة ، وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد ، كنيته أبو الصبهاء ، كان يصلي حتى ما يستطيع أن يأتي الفراش إلا حبوا ، وله مناقب كثيرة جداً ، منها أنه كان يمر عليه شباب يلهون ويلعبون فيقول : أخبروني عن قوم أرادوا سفراً فحادوا في النهار عن الطريق وناموا الليل فمتى يقطعون سفرهم؟ فقال لهم يوماً هذه المقالة، فقال شاب منهم : والله يا قوم إنه ما يعني بهذا غيرنا، نحن بالنهار نلهو، وبالليل ننام. ثم تبع صلة فلم يزل يتعبد معه حتى مات. ومر عليه فتى يجر ثوبه فهم أصحابه أن يأخذوه بألسنتهم فقال: دعوني أكفكم أمره، ثم دعاه فقال: يا ابن أخي لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك؟ قال أن ترفع إزارك، قال: نعم، ونعمت عين، فرفع إزاره، فقال صلة: هذا أمثل مما أردتم لو شتمتموه لشتمكم. ومنها ما حكاه جعفر بن زيد قال: خرجنا في غزاة وفي الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فقلت لأرمقن عمله الليلة ، فدخل غيضة ودخلت في أثره فقام يصلي وجاء الأسد حتى دنا منه وصعدت أنا في شجرة ، قال فتراه التفت أوعده جرواً حتى سجد فقلت : الآن يفترسه ، فجلس ثم سلم فقال : أيها السبع إن كنت أمرت بشيء فافعل وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر ، فولى الأسد وإن له لزئيراً تصدع منه الجبال ، فلما كان عند الصباح جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها ثم قال : اللهم إني أسالك أن تجيرني من النار ، أو مثلي يجترىء أن يسألك

الجنة . ثم رجع إلى الجيش فأصبح كأنه بات على الحشا ، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عليم . قال : وذهبت بغلته بثقلها فقال : اللهم إني أسألك أن ترد عليَّ بغلتي بثقلها ، فجاءت حتى قامت بين يديه ، قال : فلما التقينا العدو حمل هو وهشام بن عامر فصنعنا بهم طعنا وضربا ، فقال العدو : رجلان من العرب صنعا بنا هذا فكيف لو قاتلونا كلهم ؟ اعطوا المسلمين حاجتهم ـ يعني انزلوا على حكمهم ـ وقال صله : جعت مرة في غـزاة جوعـاً شديـداً فبينما أنـا أسير أدعـو ربي وأستطعمه ، إذ سمعت وجبة من خلفي فالتفت فإذا أنا بمنديل أبيض فإذا فيه دوخلة[1] ملآنة رطباً فأكلت منه حتى شبعت ، وأدركني المساء فملت إلى دير راهب فحدثته الحديث فاستطعمني من الرطب فأطعمته ، ثم إني مررت على ذلك الراهب بعد زمان فإذا نخلات حسان فقال : إنهن لمن الرطبات التي أطعمتني ، وجاء ذلك المنديل إلى امرأته فكانت تريه للناس ، ولما أهديت معاذة إلى صلة أدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله بيت العروس بيتاً مطيباً فقام يصلي فقامت تصلي معه ، فلم يزالا يصليان حتى برق الصبح ، قال : فأتيته فقلت له : أي عم أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقمت تصلي وتركتها ؟ قال : إنك أدخلتني بيتاً أول النهار أذكرتني به النـار ، وأدخلتني بيتاً آخـر النهار أذكرتني به الجنة ، فلم تزل فكرتي فيهما حتى أصبحت ، البيت الذي أذكره به النار هو الحمام ، والبيت الذي أذكره به الجنة هو بيت العروس . وقال له رجل : أدعو الله لي : فقال رغبك الله فيما يبقى ، وزهدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين الذي لا يركن إلا إليه ، ولا يعول في الدين إلا عليه . وكان صلةٌ في غزاة ومعه ابنه فقال له : أي بني تقدم فقاتل حتى احتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم صلة فقاتل حتى قتل ، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت : إن كنتن جئتن لتهنينني فمرحباً بكنَّ ، وإن كنتن جئتن لتعزينني فارجعن ، توفي صلة في غزاة هو وابنه نحو بلاد فارس في هذه السنة .

زهير بن قيس البلوي

شهد فتح مصر وسكنها ، له صحبة ، قتلته الروم ببرقة من بلاد المغرب ، وذلك أن الصريخ أتى الحاكم بمصر وهو عبد العزيز بن مروان أن الروم نزلوا برقة ، فأمره بالنهوض إليهم ، فساق زهير ومعه أربعون نفساً فوجد الروم فأراد أن يكف عن القتال حتى يلحقه العسكر ، فقالوا : يا أبا شداد احمل بنا عليهم ، فحملوا فقتلوا جميعاً المنذر بن الجارود مات في هذه السنة . تولى بيت المال ووفد على معاوية والله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

فيها أخرج الحجاج مقاتلة أهل الكوفة وكانوا أربعين ألفاً ، وانضاف عليهم عشرة آلاف ،

---

(١) دوخلة : نوع من الأوعية .

فصاروا خمسين ألفاً ، وأمر عليهم عتاب بن ورقاء وأمره أن يقصد لشبيب أين كان ، وأن يصمم على قتاله ـ وكان قد اجتمع على شبيب ألف رجل ـ وأن لا يفعلوا كما كانوا يفعلون قبلها من الفرار والهزيمة . ولما بلغ شبيباً ما بعث به الحجاج إليه من العساكر والجنود ، ولم يعبأ بهم شيئاً . بل قام في أصحابه خطيباً فوعظهم وذكرهم وحثهم على الصبر عند اللقاء ومناجزة الأعداء ، ثم سار شبيب بأصحابه نحو عتاب بن ورقاء ، فالتقيا في آخر النهار عند غروب الشمس ، فأمر شبيب مؤذنه سلام بن يسار الشيباني فأذن المغرب ثم صلى شبيب بأصحابه المغرب صلاة تامة الركوع والسجود ، وصف عتاب أصحابه ـ وكان قد خندق حوله وحول جيشه من أول النهار ـ فلما صلى شبيب بأصحابه المغرب انتظر حتى طلع القمر وأضاء ثم تأمل الميمنة والميسرة ثم حمل على أصحاب رايات عتاب وهو يقول : أنا شبيب أبو المد له لا حكم إلا لله ، فهزمهم وقتل أميرهم قبيصة بن والق وجماعة من الأمراء معه ، ثم كر على الميمنة وعلى الميسرة ففرق شمل كل واحدة منهما ، ثم قصد القلب فما زال حتى قتل الأمير عتاب بن ورقاء وزهرة بن جونة ، وولى عامة الجيش مدبرين وداسوا الأمير عتاب وزهرة فوطئته الخيل . وقتل في المعركة عمار بن يزيد الكلبي . ثم قال شبيب لأصحابه : لا تتبعوا منهزماً ، وانهزم جيش الحجاج عن بكرة أبيهم راجعين إلى الكوفة ، وكان شبيب لما احتوى على المعسكر أخذ ممن بقي منهم البيعة له بالامارة وقال لهم إلى أي ساعة تهربون ؟ ثم احتوى على ما في المعسكر من الأموال والحواصل ، واستدعى بأخيه مصاد من المدائن ، ثم قصد نحو الكوفة ، وقد وفد إلى الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذ حج في ستة آلاف فارس ومعهما خلق من أهل الشام ، فاستغنى الحجاج بهم عن نصرة أهل الكوفة ، وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى ، فلا يقاتلن معنا إلا من كان عاملاً لنا ، ومن لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء ، وعزم الحجاج على قتال شبيب بنفسه وسار شبيب حتى بلغ الصراة ، وخرج إليه الحجاج بمن معه من الشاميين وغيرهم ، فلما تواجه الفريقان نظر الحجاج إلى شبيب وهو في ستمائة فخطب الحجاج أهل الشام وقال : يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأراجس حقكم ، غضوا الأبصار واجثوا على الركب ، واستقبلوا بأطراف الأسنة[1] ، ففعلوا ذلك ، وأقبل شبيب وقد عبى أصحا به ثلاث فرق ، واحدة معه ، وأخرى مع سويد بن سليم ، وأخرى مع المجلل بن وائل . وأمر شبيب سويداً أن يحمل فحمل على جيش الحجاج فصبروا له حتى إذا دنا منهم وثبوا إليه وثبة واحدة فانهزم عنهم ، فنادى الحجاج : يا أهل السمع والطاعة هكذا فافعلوا ، ثم أمر الحجاج فقدم كرسيه الذي هو جالس عليه إلى الامام ، ثم أمر شبيب المجلل أن يحمل فحمل فثبتوا له وقدم الحجاج كرسيه إلى أمام ، ثم إن شبيباً

---

(١) الأسنة : الرّماح .

حمل عليهم في كتيبته فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف الأسنة وثبوا في وجهه فقاتلهم طويلاً ، ثم إن أهل الشام طاعنوه حتى ألحقوه بأصحابه ، فلما رأى صبرهم نادى : يا سويد احمل في خيلك على أهل هذه السرية لعلك تزيل أهلها عنها فأت الحجاج من ورائه ، ونحمل نحن عليه من أمامه . فحمل فلم يفد ذلك شيئاً ، وذلك أن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة في ثلاثمائة فارس رداً له من ورائه لئلا يؤتوا من خلفهم ، وكان الحجاج بصيراً بالحرب أيضاً ، فعند ذلك حرض شبيب أصحابه على الحملة وأمرهم بها ففهم ذلك الحجاج ، فقال : يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة ، ثم ورب السماء والأرض ما شيء دون الفتح ، فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه ؛ فلما غشيهم نادى الحجاج بجماعة الناس فوثبوا في وجهه ، فما زالوا يطعنون ويطعنون وهم مستظهرون على شبيب وأصحابه حتى ردوهم عن مواقفهم إلى ما ورائها ، فنادى شبيب في أصحابه يا أولياء الله الأرض الأرض، ثم نزل ونزلوا ونادى الحجاج يا أهل الشام يا أهل السمع والطاعة ، هذا أول النصر والذي نفسي بيده ، وصعد مسجداً هنالك وجعل ينظر إلى الفريقين ، ومع شبيب نحو عشرين رجلاً معهم النبل ، واقتتل الناس قتالاً شديداً عامة النهار من أشد قتال في الأرض ، حتى أقر كل واحد منهم لصاحبه ، والحجاج ينظر إلى الفريقين من مكانه ، ثم إن خالد بن عتاب استأذن الحجاج في أن يركب في جماعة فيأتي الخوارج من خلفهم ، فأذن له ، فانطلق في جماعة معه نحو من أربعة آلاف ، فدخل عسكر الخوارج من ورائهم فقتل مصاداً أخا شبيب ، وغزالة امرأة شبيب ، قتلها رجل يقال له فروة بن دقاق الكلبي ، وخرق في جيش شبيب ، ففرح بذلك الحجاج وأصحابه وكبروا ، وانصرف شبيب وأصحابه كل منهم على فرس ، فأمر الحجاج أن ينطلقوا في طلبهم ، فشدوا عليهم فهزموهم ، وتخلف شبيب في حامية الناس ، ثم انطلق واتبعه الطلب فجعل ينعس وهو على فرسه حتى يخفق برأسه ، ودنا منه الطلب فجعل بعض أصحابه ينهاه عن النعاس في هذه الساعة فجعل لا يكترث بهم ويعود فيخفق رأسه ، فلما طال ذلك بعث الحجاج إلى أصحابه يقول دعوه في حرق النار ، فتركوه ورجعوا .

ثم دخل الحجاج الكوفة فخطب الناس فقال في خطبته . إن شبيباً لم يهزم قبلها ، ثم قصد شبيب الكوفة فخرجت إليه سرية من جيش الحجاج فالتقوا يوم الأربعاء فلا زالوا يتقاتلون إلى يوم الجمعة .

وكان على سرية الحجاج الحارث بن معاوية الثقفي في ألف فارس معه ، فحمل شبيب على الحارث بن معاوية فكسره ومن معه ، وقتل منهم طائفة ، ودخل الناس الكوفة هاربين ، وحصن الناس السكك فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج في طائفة من الجيش فقاتل حتى قتل ، ثم هرب أصحابه ودخلوا الكوفة ، ثم خرج إليه أمير آخر فانكسر أيضاً ، ثم سار شبيب بأصحابه نحو السواد فمروا بعامل الحجاج على تلك البلاد فقتلوه ، ثم خطب أصحابه وقال : اشتغلتم بالدنيا عن

الآخرة ، ثم رمى بالمال في الفرات ، ثم سار بهم حتى افتتح بلاداً كثيرة ولا يبرز له أحد إلا قتله ، ثم خرج إليه بعض الأمراء الذين على بعض المدن فقال له : يا شبيب ابرز إليَّ وأبرز إليك ، ـ وكان صديقه ـ فقال له شبيب : إني لا أحب قتلك ، فقال له : لكني أحب قتلك فلا تغرنك نفسك وما تقدم من الوقائع ، ثم حمل عليه فضربه شبيب على رأسه فهمس رأسه حتى اختلط دماغه بلحمه وعظمه ، ثم كفنه ودفنه ، ثم إن الحجاج أنفق أموالاً كثيرة على الجيوش والعساكر في طلب شبيب فلم يطيقوه ولم يقدروا عليه ، وإنما سلط الله عليه موتاً قدراً من غير صنعهم ولا صنعه في هذه السنة .

مقتل شبيب عند ابن الكلبي

وكان سبب ذلك أن الحجاج كتب إلى نائبه على البصرة ـ وهو الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل وهو زوج ابنة الحجاج ـ يأمره أن يجهز جيشاً أربعة آلاف في طلب شبيب ، ويكونون تبعاً لسفيان بن الأبرد ، ففعل وانطلقوا في طلبه فالتقوا معه . وكان ابن الأبرد معه خلق من أهل الشام ، فلما وصل جيش البصرة إلى ابن الأبرد التقوا معه جيشاً واحداً هم وأهل الشام ، ثم ساروا إلى شبيب فالتقوا به فاقتتلوا قتالاً شديداً وصبر كل من الفريقين لصاحبه ، ثم عزم أصحاب الحجاج فحملوا على الخوارج حملة منكرة والخوارج قليلون ففروا بين أيديهم ذاهبين حتى اضطروهم إلى جسر هناك ؛ فوقف عنده شبيب في مائة من أصحابه ، وعجز سفيان بن الأبرد عن مقاومته ، ورده شبيب عن موقفه هذا بعد أن تقاتلوا نهاراً طويلاً كاملاً عند أول الجسر أشد قتال يكون ، ثم أمر ابن الأبرد أصحابه فرشقوهم بالنبال رشقاً واحداً ، ففرت الخوارج ثم كرت على الرماة فقتلوا نحواً من ثلاثين رجلاً من أصحاب ابن الأبرد ، وجاء الليل بظلامه فكف الناس بعضهم عن بعض ، وبات كل من الفريقين مصراً على مناهضة الآخر ، فلما طلع الفجر عَبَر شبيب وأصحابه على الجسر ، فبينما شبيب على متن الجسر راكباً على حصان له وبين يديه فرس أنثى إذ نزا[1] حصانه عليها وهو على الجسر فنزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط في الماء ، فقال ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، ثم انغمر في الماء ثم ارتفع وهو يقول [ذلك تقدير العزيز العليم] فغرق . فلما تحققت الخوارج سقوطه في الماء كبّروا وانصرفوا ذاهبين متفرقين في البلاد ، وجاء أمير جيش الحجاج فاستخرج شبيباً من الماء وعليه درعه ، ثم أمر به فشق صدره فاستخرج قلبه فإذا هو مجتمع صلب كأنه صخرة ، وكانوا يضربون به الأرض فيرتفع قامة الإنسان . وقيل إنه كان معه رجال قد أبغضوه لما أصاب من عشائرهم ، فلما تخلف في الساقة اشتوروا[2] وقالوا نقطع الجسر به ففعلوا ذلك فمالت السفن بالجسر ونفر فرسه فسقط في الماء فغرق ، ونادوا غرق أمير المؤمنين ، فعرف جيش الحجاج

---

(١) نزا : وثب ونزا الذكر على الانثى : سفدها .

(٢) اشتوروا : شاور بعضهم بعضاً .

ذلك فجاؤ وا فاستخرجوه .

ولما نعى شبيب إلى أمه قالت : صدقتم إني كنت رأيت في المنام وأنا حامل به أنه قد خرج منها شهاب من نار فعلمت أن النار لا يطفئها إلا الماء ، وأنه لا يطفئه إلا الماء ، وكانت أمه جارية اسمها جهبرة ، وكانت جميلة ، وكانت من أشجع النساء ، تقاتل مع ابنها في الحروب . وذكر ابن خلكان أنها قتلت في هذه الغزوة ، وكذلك قتلت زوجته غزالة ، وكانت أيضاً شديدة البأس تقاتل قتالاً شديداً يعجز عنه الأبطال من الرجال ، وكان الحجاج يخاف منها أشد خوف حتى قال فيه بعض الشعراء :

أسـدٌ عليَّ وفي الحـروبِ نعـامـة ... فتخـاء[1] تنفرَ من صفيـرِ الصافـرِ
هـلا بـرزتَ إلى غـزالـة في الـوغا ... بـل كـان قلبُـكَ في جنـاحيْ طـائـر

قال : وقد كان شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت بن قيس بن شراحيل بن صبرة بن ذهل بن شيبان الشيباني ، يدعي الخلافة ويتسمى بأمير المؤمنين ، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره به من الغرق لنال الخلافة إن شاء الله ، ولما قدر عليه أحد ، وإنما قهره الله على يدي الحجاج لما أرسل إليه عبد الملك بعسكر الشام لقتاله ، ولما ألقاه جواده على الجسر في نهر دجيل قال له رجل : أغرقا يا أمير المؤمنين ؟ قال ﴿ ذلكَ تَقْدِيرُ العَزيزِ العَلِيمِ ﴾[2] قال ثم أخرج وحمل إلى الحجاج فأمر فنزع قلبه من صدره فإذا هو مثل الحجر ، وكان شبيب رجلاً طويلاً أشمط جعداً ، وكان مولده في يوم عيد النحر سنة ست وعشرين ، وقد أمسك رجل من أصحابه فحمل إلى عبد الملك بن مروان فقال له أنت القائل :

فـان يـكُ منكم كـانَ مـروان وابنـه ... وعـمـروٌ منكـم هـاشـم وحبيـبب
فـمنـا حَـصَيـنٌ والـبـطـينُ وقـعنـبُ ... ومـنّـا أمـيـرُ الـمـؤمـنـيـنَ شـبـيـبُ

فقال : إنما قلت ومنا يا أمير المؤمنين شبيب . فأعجبه اعتذاره وأطلقه والله سبحانه أعلم .

وفي هذه السنة كانت حروب كثيرة جداً بين المهلب بن أبي صفرة نائب الحجاج ، وبين الخوارج من الأزارقة وأميرهم قطري بن الفجاءة ، وكان قطري أيضاً من الفرسان الشجعان المذكورين المشهورين وقد تفرق عنه أصحابه ونفروا في هذه السنة ، وأما هو فلا يدري أحد أين ذهب فإنه شرد في الأرض وقد جرت بينهم مناوشات ومجاولات يطول بسطها ، وقد بالغ ابن جرير في ذكرها في تاريخه . قال ابن جرير : وفي هذه السنة ثار بكير بن وشاح الذي كان نائب خراسان على نائبها أمية بن عبد الله بن خالد وذلك أن بكيراً استجاش عليه الناس وغدر به وقتله ، وقد جرت

---

(١) فتخاء : العُقاب اللينة الجناح .

(٢) سورة الانعام ، الآية / ٩٦ .

بينهما حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير في تاريخه . وفي هذه السنة كانت وفاة شبيب بن يزيد كما قدمنا ، وقد كان من الشجاعة والفروسة على جانب كبير لم يرَ بعد الصحابة مثله ، ومثل الأشتر وابنه إبراهيم ومصعب بن الزبير وأخيه عبد الله ومن يناط بهؤلاء في الشجاعة مثل قطري بن الفجاءة من الأزارقة والله أعلم .

وفيها توفي من الأعيان **كثير بن الصلت** بن معدي كرب الكندي ، كان كبيراً مطاعاً في قومه ، وله بالمدينة دار كبيرة بالمصلى ، وقيل إنه كان كاتب عبد الملك على الرسائل ، توفي بالشام .

محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله كانت أخته تحت عبد الملك وولاه سجستان ، فلما سار إليها قيل له إن شبيباً في طريقك وقد أعيا الناس فاعدل إليه لعلك أن تقتله فيكون ذكر ذلك وشهرته لك إلى الأبد ، فلما سار لقيه شبيب فاقتتل معه فقتله شبيب . وقيل غير ذلك والله أعلم .

عياض بن غنم الأشعري

شهد اليرموك ، وحدث عن جماعة من الصحابة وغيرهم توفي بالبصرة رحمه الله .

مطرف بن عبد الله

وقد كانوا إخوة ، عروة ومطرف وحمزة ، وقد كانوا يميلون إلى بني أمية فاستعملهم الحجاج على أقاليم ، فاستعمل عروة على الكوفة ، ومطرف على المدائن ، وحمزة على همدان .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ففيها كانت غزوة عظيمة للمسلمين ببلاد الروم افتتحوا إرقيلية ، فلما رجعوا أصابهم مطر عظيم وثلج وبرد ؛ فأصيب بسببه ناس كثير . وفيها ولى عبد الملك موسى بن نصير غزو بلاد المغرب جميعه فسار إلى طنجة وقد جعل على مقدمته طارقاً فقتلوا ملوك تلك البلاد ، وبعضهم قطعوا أنفه ونفوه ، وفيها عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن إمرة خراسان وأضافها إلى الحجاج مع سجستان أيضاً ؛ وركب الحجاج بعد فراغه من شأن شبيب من إمرة الكوفة إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن عبد الله بن عامر الحضرمي ، فقدم المهلب على الحجاج وهو بالبصرة وقد فرغ من شأن الأزارقة أيضاً ، فأجلسه معه على السرير واستدعى بأصحاب البلاء من جيشه ، فمن أثنى عليه المهلب أجزل الحجاج له العطية ، ثم ولى الحجاج المهلب إمرة سجستان ، وولى عبد الله بن أبي بكرة إمرة خراسان ، ثم ناقل بينهما قبل خروجهما من عنده ؛ فقيل كان ذلك باشارة المهلب ، وقيل إنه استعان بصاحب الشرطة وهو عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي ، حتى أشار على الحجاج بذلك فأجابه إلى ذلك ، وألزم المهلب بألف ألف درهم ، لأنه اعترض على ذلك .

قال أبو معشر : وحج بالناس فيها الوليد بن عبد الملك وكان أمير المدينة أبان بن عثمان ، وأمير العراق وخراسان وسجستان وتلك النواحي كلها الحجاج ، ونائبه على خراسان المهلب بن أبي صفرة ، ونائبه على سجستان عبد الله بن أبي بكرة الثقفي ، وعلى قضاء الكوفة شريح ، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك الأنصاري . وقد توفي في هذه السنة من الأعيان جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، أبو عبد الله الأنصاري السلمي ، صاحب رسول الله (ﷺ) وله روايات كثيرة ، وشهد العقبة وأراد أن يشهد بدراً فمنعه أبوه وخلفه على إخوانه وأخواته ، وكانوا تسعة ، وقيل إنه ذهب بصره قبل موته . توفي جابر بالمدينة وعمره أربع وتسعون سنة ، وأسند إليه ألف وخمسمائة وأربعين حديثاً .

شريح بن الحارث

ابن قيس أبو أمية الكندي ، وهو قاضي الكوفة ، وقد تولى القضاء لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، ثم عزله علي ، ثم ولاه معاوية ثم استقل في القضاء إلى أن مات في هذه السنة ، وكان رزقه على القضاء في كل شهر مائة درهم ، وقيل خمسمائة درهم ، وكان إذا خرج إلى القضاء يقول : سيعلم الظالم حظ من نقص ، وقيل إنه كان إذا جلس للقضاء قرأ هذه الآية ﴿ يا داودُ إنّاجَعَلْنَاكَ خَليفةً في الأرضِ فَاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بالحقِّ ولا تَتَّبعِ الهَوَى ﴾[1] الآية ، وكان يقول : إن الظالم ينتظر العقاب والمظلوم ينتظر النصر ، وقيل إنه مكث قاضياً نحو سبعين سنة . وقيل إنه استعفى من القضاء قبل موته بسنة فالله أعلم . وأصله من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن ، وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ ، توفي بالكوفة وعمره مائة وثمان سنين .

وقد روى الطبراني قال : حدّثنا علي بن عبد العزيز ثنا عارم أبو النعمان حدّثنا حماد بن زيد عن شعيب بن الحبحاب عن إبراهيم التيمي . قال : كان شريح يقول : سيعلم الظالمون حق من نقصوا . إن الظالم ينتظر العقاب ، وإن المظلوم ينتظر النصر . ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن ابن عون عن إبراهيم به . وقال الأعمش : اشتكى شريح رجله فطلاها بالعسل وجلس في الشمس فدخل عليه عواده فقالوا : كيف تجدك ؟ فقال : صالحاً . فقالوا : ألا أريتها الطبيب ؟ قال : قد فعلت ، قالوا : فماذا قال لك ؟ قال : وعد خيراً : وفي رواية أنه خرج بابهامه قرحة فقالوا : ألا أريتها الطبيب ؟ قال : هو الذي أخرجها . وقال الأوزاعي : حدّثني عبدة بن أبي لبابة قال : كانت فتنة ابن الزبير تسع سنين وكان شريح لا يختبر ولا يستخبر . ورواه ابن ثوبان عن عبدة عن الشعبي عن شريح قال : لما كانت الفتنة لم أسأل عنها . فقال رجل لو كنت مثلك ما باليت متى مت ، فقال شريح : فكيف بما في قلبي . وقد رواه شقيق بن سلمة عن شريح قال : في الفتنة ما استخبرت ولا أخبرت ولا ظلمت مسلماً ولا معاهداً ديناراً ولا درهماً ، فقال أبو وائل : لو كنت على

---

(١) سورة ص ، الآية / ٢٦ .

حالك لأحببت ان أكون قدمت ، فأوى إلى قلبه فقال : كيف يهدأ ، وفي رواية : كيف بما في صدري تلتقي الفتيتان وإحداهما أحب إليَّ من الأخرى . وقال لقوم رآهم يلعبون : مالي أراكم تلعبون ؟ قالوا : فرغنا ! قال : ما بهذا أمر الفارغ . وقال سوار بن عبد الله العنبري : حدّثنا العلاء بن جرير العنبري حدّثني سالم أبو عبد الله أنه قال : شهدت شريحاً وتقدم إليه رجل فقال : أين أنت ؟ فقال : بينك وبين الحائط ، فقال : إني رجل من أهل الشام ، فقال : بعيد سحيق ، فقال : إني تزوجت امرأة ، فقال : بالرفاء والبنين ، قال : إني اشترطت لها دارها ، قال : الشرط أملك ، قال : اقض بيننا ، قال : قد فعلت . وقال سفيان : قيل لشريح بأي شيء أصبت هذا العلم ؟ قال : بمعاوضة العلماء ، آخذ منهم وأعطيهم . وروى عثمان بن أبي شيبة عن عبد الله بن محمد بن سالم عن إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق عن هبيرة أنه سمع علياً يقول : يا أيها الناس ! يأتوني فقهاؤكم يسألوني وأسألهم ، فلما كان من الغد غدونا إليه حتى امتلأت الرحبة ، فجعل يسألهم : ما كذا ما كذا، ويسألونه ما كذا ما كذا فيخبرهم ويخبرونه حتى إذا ارتفع النهار تصدعوا غير شريح فانه جاث على ركبتيه لا يسأله عن شيء إلا أخبره به ، قال : سمعت علياً يقول : قم يا شريح فأنت أقضى العرب . وأتت شريحاً امرأتان جدة صبي وأمه يختصمان فيه كل واحدة تقول : أنا أحق به .

أبا أمية أتيناكَ وأنتَ المستعانُ بهِ	أتاكَ جدةُ ابنٍ وأمٌ وكلتانا تفديه[1]
فلو كنتِ تأيمتِ لما نازعتكي فيهِ	تزوجتِ فهاتيه ولا يذهب بكِ القيهِ

* ألاَ أيها القاضي فهذهِ قصتي فيهِ *

قالت الأم :-

ألا أيها القاضي قد قالت لك الجدة	قولا فاستمع منى ولا تطردنى ردهْ
تعزى النفسَ عن ابني	وكبدي حملتْ كَبدَةْ
فلما صارَ في حجري[2]	يتيماً مفرداً وحدهْ
تُزوجت رجاء الخيرِ	منْ يكفينَي فقدهْ
ومن يُظهرُ لي الودَ	ومنْ يحسنُ لي رفدهْ[3]

فقال شريح : -

قد سمَع القاضي ما قلتما ثمَ قضى	وعلى القاضي جهدٌ إنْ غفلْ
قال للجدةِ بيني بالصبي	وخذي ابنكِ من ذاتِ العللْ

---

(١) هذه الابيات طبق الأصل ولم نجد لها نظيراً .

(٢) حجري : حضني .

(٣) رِفْدَه : المعونة والعطاء .

إنهـا لـو صبـرتْ كـانَ لهـا   قبلَ دعـوى مـا تبتغيـه للبـدلْ

فقضى به للجدة . وقال عبد الرزاق : حدّثنا معمر بن عون عن إبراهيم عن شريح أنه قضى على رجل باعترافه فقال : يا أبا أمية قضيت عليّ بغير بيِّنة[1] ، فقال شريح : أخبرني ابن أخت خالتك . وقال علي بن الجعد : أنبأنا المسعودي عن أبي حصين قال : سئل شريح عن شاة تأكل الذباب فقال : علف مجان ولبن طيب . وقال الامام أحمد : حدّثنا يحيى بن سعيد عن أبي حيان التيمي حدّثنا أبي قال : كان شريح إذا مات لأهله سنور أمر بها فألقيت في جوف داره ، ولم يكن له مشعب «شارع» إلا في جوف داره يفعل ذلك اتقاء أن تؤذى المسلمين ـ يعني أنه يلقي السنور في جوف داره لئلا تؤذي بنتن ريحها المسلمين ـ، وكانت مياذيب[2] أسطحة داره في جوف الدار لئلا يؤذى بها المارة من المسلمين . وقال الرياشي : قال رجل لشريح : إن شأنك لشوين[3] . فقال له شريح : أراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها في نفسك . وقال الطبراني : حدّثنا أحمد بن يحيى تغلب النحوي حدّثنا عبد الله بن شبيب قـال حدثني عبـد الرحمن بن عبـد الله بن زياد بن سمعان . قال : كتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون : أما بعد فانك والمكان الذي أنت فيه والمكان الذي خرجت منه بعين من لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب ، والمكان الذي خلفته لم يعد أمراً لكمامه ومن تظلمه أيامه . وإنك وإياهم لعلى بساط واحد ، وإن المنتجع من ذي قدرة لقريب .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدّثنا علي بن مسهر عن الشيباني عن الشعبي عن شريح أن عمر كتب إليه : إذا جاءك الشيء من كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه رجاء ما ليس في كتاب الله ، وانظر في سنة رسول الله ﷺ فاقض بها ، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولا في سُنَّة رسوله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، وفي رواية : فانظر فيما قضى به الصالحون ، فإن لم يكن فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ، وما أرى التأخر إلا خيراً والسلام .

وقال شريح : كنت مع علي في سوق الكوفة فانتهى إلى قاص يقص فوقف عليه وقال : أيها القاص ! تقص ونحن قريبو العهد ؟ أما إني سائلك فـإن تجب فما سـألتك وإلا أدبتـك ، فقال القاص : سل يا أمير المؤمنين عما شئت ، فقال علي : ما ثبات الإيمان وزواله ؟ قال القاص : ثبات الايمان الورع وزواله الطمع . قـال علي : فذلـك فقص . قيل إن هـذا القاص هـو نوف البكالي . وقال رجل لشريح : إنك لتذكر النعمة في غيرك وتنساها في نفسك ، قال : إني والله لأحسدك على ما أرى بك . قال : ما نفعك الله بهذا ولا ضرني .

---

(١) بيِّنة : الدليل والحجة .

(٢) مياذيب : مفردها ميذاب . وهي القناة يجري فيها الماء (فارسية) .

(٣) شوين : كريه .

وروى جرير عن الشيباني عن الشعبي قال : اشترى عمر فرساً من رجل على أن ينظر إليه ، فأخذ الفرس فسار به فعطب ، فقال لصاحب الفرس : خذ فرسك ، فقال : لا ! قال : فاجعل بيني وبينك حكماً ، قال الرجل نعم ! شريح ، قال عمر : ومن شريح ؟ قال : شريح العراقي ، قال : فانطلقا إليه فقصا عليه القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين رد كما أخذت أو خذ بما ابتعته ، فقال عمر : وهل القضاء إلا هذا ؟ سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها ، فإنه لأول يوم عرفه يومئذ .

وقال هشام بن محمد الكلبي : حدّثني رجل من ولد سعد بن وقاص قال : كان لشريح ابن يدعو الكلاب ويهارش بين الكلاب ، فدعا بدواة وقرطاس فكتب إلى مؤدبه فقال : ـ

تـركَ الصلاةَ لأكلبٍ يسعى بهـا ... طلبَ الهراشَ مع الغواةِ الرجّسِ[1]

فـاذا أتـاكَ فعفـهُ بمـلامـة ... وعظهَ من عظَةِ الأديبِ الأكيسِ[2]

فـإذا هممتَ بضـربـهِ فبـدرةٍ[3] ... فـإذا ضربتَ بهـا ثلاثـاً فاحبسِ

واعلم بـأنـكَ مـا أتيتَ فنفسـهُ ... مـعَ مـا تجـرعني أعـزُ الأنفس

وروى شريح عن عمر عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها : «يا عائشة ﴿ إنَّ الذين فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيعاً ﴾[4] . إنهم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ، إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب الأهواء والبدع ، أنا منهم بريء وهم مني بـراء » . وهذا حـديث ضعيف غريب رواه محمد بن مصفي عن بقية عن شعبة ـ أو غيره ـ عن مجالد عن الشعبي ، وإنما تفرد به بقية بن الوليد من هذا الوجه وفيه علة ايضاً . وروى محمد بن كعب القرظي عن الحسن عن شريح عن عمر بن الخطاب . قـال : قال رسـول الله ﷺ : «إنكم ستغر بلون حتى تصيـروا في حثالة[5] من الناس قد مزجت عهودهم وخربت أمانتهم ، فقال قائل : فكيف بنا يـا رسول الله ؟ فقال : تعملون بما تعرفون وتتركون ما تنكرون ، وتقولون : أحد أحد ، انصرنا على من ظلمنا وأكفنا من بغانا » . وروى الحسن بن سفيان عن يحيى بن أيوب عن عبد الجبار بن وهب عن عبد الله السلمي عن شريح ، قال : حدّثني البدريون منهم عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : «ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ويستقبل بشبابه طاعة الله تعالى إلا أعطاه الله تعالى أجر اثنين وسبعين صديقاً ، ثم قال : يقول الله تعالى : أيها الشاب التارك شهوته من أجلي ، المبتذل شبابه لي ، أنت عندي كبعض ملائكتي » . وهذا حديث غريب .

وقال أبو داود : حدّثنا صدقة بن موسى حدثنا أبو عمران الجوني عن قيس بن زيد ـ وقال أبو

---

(١) الرِّجْس : العمل القبيح وسوسة الشيطان .
(٢) الأكيس : الأظرف والأفطن .
(٣) فبدرة : اللؤلؤة .
(٤) سورة الانعام ، الاية / ١٥٩ .
(٥) حثالة : حُثَالة الناس : رذالتهم .

داود أو عن زيد بن قيس ـ عن قاضي المصرين شريح عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أن النبي ﷺ قال : «إن الله تعالى يدعو صاحب الدين يوم القيامة فيقول : يا ابن آدم فيم أضعت حقوق الناس ؟ فيم أذهبت أموالهم ؟ فيقول : يا رب لم أفسده ولكن أصبت إما غرقاً وإما حرقاً ، فيقول الله سبحانه أنا أحق من قضى عنك اليوم ، فترجح حسناته على سيئاته فيؤمر به الى الجنة » . لفظ أبي داود ورواه يزيد بن هارون عن صدقة به وقال فيه : «فيدع الله بشيء فيضعه في ميزانه فيثقل » ورواه الطبراني من طريق أبي نعيم عن صدقة به ، ورواه الطبراني أيضاً عن حفص بن عمر وأحمد بن داود المكي قالا : حدّثنا مسلم بن إبراهيم حدّثنا صدقة به ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

عبد الله بن غنم

الأشعري نزيل فلسطين وقد روى عن جماعة من الصحابة وقيل إن له صحبة وقد بعثه عمر بن الخطاب الى الشام ليفقه أهلها في الدين وكان من العباد الصالحين .

جنادة بن أمية الأزدي

شهد فتح مصر وكان أميراً على غزو البحر لمعاوية ، وكان موصوفاً بالشجاعة والخير ، توفي بالشام وقد قارب الثمانين .

العلاء بن زياد البصري

كان من العباد الصالحين من أهل البصرة ، وكان كثير الخوف والورع ، وكان يعتزل في بيته ولا يخالط الناس ، وكان كثير البكاء ، لم يزل يبكي حتى عمي ، وله مناقب كثيرة ، توفي بالبصرة في هذه السنة . قلت : إنما كان معظم بكاء العلاء بن زياد بعد تلك الرؤ يا التي رآها له رجل من أهل الشام أنه من أهل الجنة ، فقال له العلاء : أما أنت يا أخي فجزاك الله عن رؤ ياك لي خيراً ، وأما أنا فقد تركتني رؤ ياك لا أهدأ بليل ولا نهار ، وكان بعدها يطوي الأيام لا يأكل فيها شيئاً ويبكى حتى كاد يفارق الدنيا ، ويصلّي لا يفتر ، حتى جاء أخوه إلى الحسن البصري فقال : أدرك أخي فانه قاتل نفسه ، يصوم لا يفطر ، ويقوم لا ينام ، ويبكي الليل والنهار لرؤ يا رآها بعض الناس له أنه من أهل الجنة ، فجاء الحسن فطرق عليه بابه فلم يفتح ، فقال له : افتح فاني أنا الحسن ، فلما سمع صوت الحسن فتح له ، فقال له الحسن : يا أخي الجنة وما الجنة للمؤمن ، إن للمؤمن عند الله ما هو أفضل من الجنة ، فقاتل أنت نفسك ؟ فلم يزل به حتى أكل وشرب وقصر عما كان فيه قليلاً . وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه أتاه آت في مقامه فأخذ بناصيته[1] وقال : يا غلام قم فاذكر الله يذكرك . فما زالت تلك الشعرات التي أخذ بها قائمة حتى مات ، وقد قيل : إنه كان يرفع له إلى الله كل يوم من

---

(١) بناصيته : الناصية : مقدَّم الرأس أو شَعر مقدَّم الرأس إذا طال ، سُمِّيَتْ بذلك لارتفاع منبتها .

العمل الصالح بقدر أعمال خلق كثير من الناس كما رأى ذلك بعض أصحابه في المنام . وقال العلاء : نحن قوم وضعنا أنفسنا في النار فإن شاء الله أن يخرجنا منها أخرجنا . وقال : كان رجل يرائي بعمله فجعل يشمر ثيابه ويرفع صوته إذا قرأ ، فجعل لا يأتي على أحد إلا سبَّه ، ثم رزقه الله الاخلاص واليقين فخفض من صوته وحعل صلاحه بينه وبين الله ، فجعل لا يأتي على أحد بعد ذلك إلا دعا له بخير.

سراقة بن مرداس الأذدي

كان شاعراً مطبقاً ، هجا الحجاج فنفاه إلى الشام فتوفي بها.

النابغة الجعدي

الشاعر . السائب بن يزيد الكندي ، توفي في هذه السنة . سفيان بن سلمة الأسدي . معاوية بن قرة البصري . زر بن حبيش .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ففيها وقع طاعون عظيم بالشام حتى كادوا يفنون من شدته ، ولم يغز فيها أحد من أهل الشام لضعفهم وقلتهم ، ووصلت الروم فيها انطاكية فأصابوا خلقاً من أهلها لعلمهم بضعف الجنود والمقاتلة . وفيها غزا عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل ملك الترك حتى أوغل في بلاده ، ثم صالحه على مال يحمله إليه في كل سنة ، وفيها قتل عبد الملك بن مروان الحارث بن سعيد المتنبي الكذاب ، ويقال له الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي ، مولى أبي الجلاس العبدري ، ويقال مولى الحكم بن مروان ، كان أصله من الجولة فنزل دمشق وتعبَّد بها وتنسك وتزهد ثم مكر به ورجع القهقرى على عقبيه ، وانسلخ من آيات الله تعالى ، وفارق حزب الله المفلحين ، واتبع الشيطان فكان من الغاوين ولم يزل الشيطان يزج في قفاه حتى أخسره دينه ودنياه ، وأخزاه وأشقاه . فإنا لله وحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا عبد الوهاب نجدة الجولي حدّثنا محمد بن مبارك ثنا الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن حسان قال . كان الحارث الكذاب من أهل دمشق ، وكان مولى لأبي الجلاس ، وكان له أب بالجولة ، فعرض له إبليس ، وكان رجلاً متعبداً زاهداً لو لبس جبة من ذهب لرؤ يت عليه الزهادة والعبادة ، وكان إذا أخذ بالتحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده ولا أحسن من كلامه ، فكتب إلى أبيه وكان بالجولة : يا أبتاه أعجل عليَّ فإني قد رأيت أشياء أتخوف أن يكون الشيطان قد عرض لي ، قال فزاده أبوه غيا على غيه ، فكتب إليه أبوه : يا بني أقبل على ما أمرت به

فإن الله تعالى يقول : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[1] ولست بأفاك ولا أثيم ، فامض لما أمرت به ، وكان يجيء إلى أهل المسجد رجلاً رجلاً فيذاكرهم أمره ويأخذ عليهم العهد والميثاق إن هو يرى ما يرضى وإلا كتم عليه .

قال : وكان يريهم الأعاجيب . كان يأتي إلى رخامة في المسجد فينقرها بيده فتسبح تسبيحاً بليغاً حتى يضج من ذلك الحاضرون . قلت : وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول كان ينقر هذه الرخامة الحمراء التي في المقصورة فتسبح ، وكان زنديقاً[2] . قال ابن أبي خيثمة في روايته . وكان الحارث يطعمهم فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، وكان يقول لهم : اخرجوا حتى أريكم الملائكة ، فيخرج بهم إلى دير المراق فيريهم رجالاً على خيل فيتبعه على ذلك بشر كثير ، وفشا أمره في المسجد وكثر أصحابه وأتباعه ، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة ، قال فعرض على القاسم أمره وأخذ عليه العهد إن هو رضي أمراً قبله ، وإن كرهه كتم عليه ، قال فقال له : إني نبي ، فقال القاسم : كذبت يا عدو الله ، ما أنت نبي ، وفي رواية ولكنك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ : «إن الساعة لا تقوم حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي » وأنت أحدهم ولا عهد لك . ثم قام فخرج إلى أبي إدريس ـ وكان على القضاء بدمشق ـ فأعلمه بما سمع من الحارث فقال أبو إدريس نعرفه ، ثم أعلم أبو إدريس عبد الملك بذلك . وفي رواية أخرى أن مكحولاً وعبد الله بن أبي زائدة دخلا على الحارث فدعاهما إلى نبوته فكذباه وردا عليه ما قال ، ودخلا على عبد الملك فأعلماه بأمره ، فتطلبه عبد الملك طلباً حثيثاً ، واختفى الحارث وصار إلى دار بيت المقدس يدعو إلى نفسه سراً واهتم عبد الملك بشأنه حتى ركب إلى النصرية فنزلها فورد عليه هناك رجل من أهل النصرية ممن كان يدخل على الحارث وهو ببيت المقدس فأعلمه بأمره وأين هو ، وسأل من عبد الملك أن يبعث معه بطائفة من الجند الأتراك ليحتاط عليه ، فأرسل معه طائفة وكتب إلى نائب القدس ليكون في طاعة هذا الرجل ويفعل ما يأمره به ، فلما وصل الرجل إلى النصرية ببيت المقدس بمن معه انتدب نائب القدس لخدمته ، فأمره أن يجمع ما يقدر عليه من الشموع ويجعل مع كل رجل شمعته فإذا أمرهم باشعالها في الليل أشعلوها كلهم في سائر الطرق والأزقة حتى لا يخفى أمره ، وذهب الرجل بنفسه فدخل الدار التي فيها الحارث فقال لبوابه استأذن على نبي الله ، فقال : في هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح ، فصاح النصري أسرجوا ، فأشعل الناس شموعهم حتى صار الليل كأنه النهار ، وهم النصري على الحارث فاختفى منه في سرب هناك فقال أصحابه هيهات يريدون أن

---

(١) سورة الشعراء ، الآية / ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(٢) زنديقاً : الزنديق : الخبيث الداهية ، ومن لا يراعي حرمة ولا يحفظ مودة . وهو الكافر باطناً والمؤمن ظاهراً .

يصلوا إلى نبي الله ، إنه قد رُفِعَ الى السماء ، قال فأدخل النصري يده في ذلك السرب فإذا بثوبه فاجتره فأخرجه ، ثم قال للفرعانين من أتراك الخليفة قال فأخذوه فقيدوه ،فيقال إن القيود والجامعة سقطت من عنقه مراراً ويعيدونها ، وجعل يقول : ﴿ قلْ إنْ ضَلَلْتُ فإنما أَضِلُّ على نَفْسِي ، وإنْ اهتديتُ فيما يُوحِي إليّ ربِّي إنه سميعٌ قريبٌ ﴾[1] وقال لأولئك الأتراك : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربيَ الله ﴾[2] ؟ فقالوا له بلسانهم ولغتهم : هذا كراننا فهات كرانك ، أي هذا قرآننا فهات قرآنك ، فلما انتهوا به إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة وأمر رجلاً فطعنه بحربة فانثنت في ضلع من أضلاعه ، فقال له عبد الملك : ويحك أذكرت اسم الله حين طعنته ؟ فقال : نسيت ، فقال : ويحك سم الله ثم اطعنه ، قال فذكر اسم الله ثم طعنه فأنفذه ، وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجالاً من أهل الفقه والعلم أن يعظوه ويعلموه أن هذا الذي به من الشيطان ، فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك ، وهذا من تمام العدل والدين .

وقد قال الوليد بن مسلم عن ابن جابر فحدثني من سمع الأعور يقول : سمعت العلاء بن زياد العدوي . يقول : ما غبطت عبد الملك بشيء من ولايته إلا بقتله حارثاً حيث إن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي ، فمن قاله فاقتلوه ، ومن قتل أحداً فله الجنة » . وقال الوليد بن مسلم : بلغني أن خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك لو حضرتك ما أمرتك بقتله ، قال : ولم ؟ قال : إنه إنما كان به المذهب فلو جوعته لذهب ذلك عنه ، وقال الوليد عن المنذر بن نافع سمعت خالد بن الجلاخ يقول لغيلان : ويحك يا غيلان ، ألم تأخذك في شبيبتك ترا من النساء في شهر رمضان بالتفاح ، ثم صرت حارثياً تحجب امرأته وتزعم أنها أم المؤمنين ثم تحولت فصرت قدرياً زنديقاً .

وفيها غزا عبيد الله بن أبي بكرة رتبيل ملك الترك الأعظم فيهم ، وقد كان يصانع المسلمين تارة ويتمرد أخرى ، فكتب الحجاج إلى ابن أبي بكرة تأخذه بمن معك من المسلمين حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعه وتقتل مقاتلته ، فخرج في جمع من الجنود من بلاده وخلق من أهل البصرة والكوفة ثم التقى مع رتبيل ملك الترك فكسره وهدم أركانه بسطوة بتارة ، وجاس ابن أبي بكرة وجنده خلال ديارهم ، واستحوذ على كثير من أقاليمه ومدنه وأمصاره ، وتبر[3] ما هنالك تتبيراً ، ثم إن رتبيل تقهقر منه وما زال يتبعه حتى اقترب من مدينته العظمى ، حتى كانوا منها على ثمانية عشر فرسخاً ، وخافت الأتراك منهم خوفاً شديداً ، ثم إن الترك أخذت عليهم الطرق والشعاب وضيقوا عليهم المسالك حتى ظن كل من المسلمين أنه لا محالة هالك ، فعند ذلك طلب عبيد الله أن يصالح رتبيل

---

(١) سورة سبأ ، الآية/ ٥٠ .
(٢) سورة المؤمن ، الآية / ٢٨ .
(٣) تبَّر : أهلك ودمّر .

على أن يأخذ منه سبعمائة ألف ، ويفتحوا للمسلمين طريقاً يخرجون عنه ويرجعون عنهم إلى بلادهم ، فانتدب شريح بن هانىء ـ وكان صحابياً ، وكان من أكبر أصحاب علي وهو المقدم على أهل الكوفة ـ فندب الناس إلى القتال والمصابرة والنزال والجلاد بالسيوف والرماح والنبال ، فنهاه عبيد الله بن أبي بكرة فلم ينته ، وأجابه شرذمة من الناس من الشجعان وأهل الحفائظ ، فما زال يقاتل بهم الترك حتى فني أكثر المسلمين رضي الله عنهم ، قالوا وجعل شريح بن هانىء يرتجز ، ويقول :

أصبحتُ ذابتَ أقاسي الكِبرا قدْ عِشتُ بينَ المشركينَ أعصُرا
ثمَّ أدركتُ النبيَ المُنْذِرا وبَعدَهُ صِديقَهُ وعمرا
ويومَ مهرانَ ويومَ تَسْتُرَا والجَمْعَ في صِفّينِهِمْ والنَّهرَا
هَيْهاتِ ما أطولَ هذا عُمُرا

ثم قاتل حتى قتل رضي الله عنه ، وقتل معه خلق من أصحابه ، ثم خرج من خرج من الناس صحبة عبيد الله بن أبي بكرة من أرض رتبيل ، وهم قليل ، وبلغ ذلك الحجاج فأخذ ما تقدم وما تأخر ، وكتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك ويستشيره في بعث جيش كثيف الى بلاد رتبيل لينتقموا منه سبب ما حل بالمسلمين في بلاده ، فحين وصل البريد إلى عبد الملك كتب إلى الحجاج بالموافقة على ذلك ، وأن يعجل ذلك سريعاً ، فحين وصل البريد إلى الحجاج بذلك أخذ في جمع الجيوش فجهز جيشاً كثيفاً لذلك على ما سيأتي تفصيله في السنة الآتية بعدها . وقيل إنه قتل من المسلمين مع شريح بن هانىء ثلاثون ألفاً وابتيع الرغيف مع المسلمين بدينار وقاسوا شدائد ، ومات بسبب الجوع منهم خلق كثير أيضاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد قتل المسلمون من الترك خلقاً كثيراً أيضاً قتلوا أضعافهم ويقال إنه في هذه السنة استعفى شريح من القضاء فأعفاه الحجاج من ذلك وولى مكانه أبا بردة بن أبي موسى الأشعري ، وقد تقدمت ترجمة شريح عند وفاته في السنة الماضية والله أعلم .

قال الواقدي وأبو معشر وغير واحد من أهل السير : وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان أمير المدينة النبوية ، وفيها قتل قطري بن الفجاءة التميمي أبو نعامة الخارجي ، وكان من الشجعان المشاهير ، ويقال إنه مكث عشرين سنة يسلم عليه أصحابه بالخلافة ، وقد جرت له خطوب وحروب مع جيش المهلب بن أبي صفرة من جهة الحجاج وغيره ، وقد قدمنا منها طرفاً صالحاً في أماكنه ، وكان خروجه في زمن مصعب بن الزبير ، وتغلب على قلاع كثيرة وأقاليم وغيرها ، ووقائعه مشهورة وقد أرسل إليه الحجاج جيوشاً كبيرة فهزمها ، وقيل إنه برز إليه رجل من بعض الحرورية وهو على فرس أعجف وبيده عمود حديد ، فلما قرب منه كشف قطري عن وجهه فولى الرجل هارباً فقال له قطري إلى أين ؟ أما تستحي أن تفر ولم تر طعناً ولا ضرباً ؟ فقال إن الانسان لا يستحي أن يفر من مثلك ، ثم إنه في آخر أمره توجه اليه سفيان بن الأبرد الكلبي في جيش فاقتتلوا بطبرستان ، فعثر

بقطري فرسه فوقع إلى الأرض فتكاثروا عليه فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحجاج ، وقيل إن الذي قتله سودة بن الحر الدارمي ، وكان قطري بن الفجاءة مع شجاعته المفرطة وإقدامه من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة وجودة الكلام والشعر الحسن ، فمن مستجاد شعره قوله يشجع نفسه وغيره ومن سمعها انتفع بها :

أقولُ لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطالِ ويحكِ لن تراعي
فإنكِ لو طلبتِ بقاءَ يومٍ ... على الأجَلِ الذي لكِ لم تطاعي
فصبراً في مجالِ الموتِ صبراً ... فما نَيْلُ الخلودِ بمستطاعِ
ولا ثوبَ الحياةِ بثوبِ عزٍ ... فيُطوى عن أخي الخنعَ اليراعِ

سبيلُ الموتِ غايةُ كلِ حيٍ ... وداعيهِ لأهلِ الأرضِ داعِ
فمن لا يغتبطْ يسأم ويهزم ... وتسلمهُ المنونُ إلى انقطاعِ
وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ ... إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاعِ

ذكرها صاحب الحماسة واستحسنها ابن خلكان كثيراً .

وفيها توفي عبيد الله بن أبي بكرة رحمه الله وهو أمير الجيش الذي دخل بلاد الترك وقاتلوا رتبيل ملك الترك ، وقد قتل من جيشه خلق كثير مع شريح بن هانىء كما تقدم ذلك ، وقد دخل عبيد الله بن أبي بكرة على الحجاج مرة وفي يده خاتم فقال له الحجاج : وكم ختمت بخاتمك هذا ؟ قال على أربعين ألف ألف دينار . قال ففيم أنفقتها ؟ قال : في اصطناع المعروف . ورد الملهوف والمكافأة بالصناع وتزويج العقائل . وقيل إن عبيد الله عطش يوماً فأخرجت له امرأة كوز ماء بارد فأعطاها ثلاثين ألفاً ، وقيل إنه أهدى إليه وصيف ووصيفة وهو جالس بين أصحابه فقال لبعض أصحابه خذهما لك ، ثم فكر وقال : والله إن إيثار بعض الجلساء على بعض لشح قبيح ودناءة رديئة : ثم قال يا غلام ادفع إلى كل واحد من جلسائي وصيفاً ووصيفة ، فأحصى ذلك فكانوا ثمانين وصيفاً ووصيفة . توفي عبيد الله بن أبي بكرة ببست وقيل بذرخ والله سبحانه وتعالى أعلم وأحلم ، والحمد لله رب العالمين .

ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة النبوية

ففيها كان السيل الحجاف[1] بمكة لأنه حجف على كل شيء فذهب به ، وحمل الحجاج من بطن مكة الجمال بما عليها ، والرجال والنساء لا يستطيع أحد أن ينقذهم منه ، وبلغ الماء إلى الحجون[2] ، وغرق خلق كثير ، وقيل إنه ارتفع حتى كاد أن يغطي البيت والله أعلم .

وحكى ابن جرير عن الواقدي أنه قال : كان بالبصرة في هذه السنة الطاعون ، والمشهور أنه

---

(١) الحَجاف : المدمّر .

(٢) الحجون : موضع بمكّة ناحية البيت .

كان في سنة تسع وستين كما تقدم . وفيها قطع المهلب بن أبي صفرة نهر ، وأقام بكش سنتين صابراً مصابراً للاعداء من الأتراك ، وجرت له معهم هناك فصول يطول ذكرها ، وفد عليه في غضون هذه المدة كتاب ابن الأشعث بخلعه الحجاج ، فبعثه المهلب برمته إلى الحجاج حتى قرأه ثم كان ما سيأتي بيانه وتفصيله فيما بعد من حروب ابن الأشعث ، وفي هذه السنة جهز الحجاج الجيوش من البصرة والكوفة وغيرهما لقتال رتبيل ملك الترك ليقضوا منه ما كان من قتل جيش عبيد الله بن أبي بكرة في السنة الماضية ، فجهز أربعين ألفاً من كل من المصرين عِشرين ألفاً ، وأمَّر على الجميع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث مع أنه كان الحجاج يبغضه جداً ، حتى قال ما رأيته قط إلا هممت بقتله ، ودخل ابن الأشعث يوماً على الحجاج وعنده عامر الشعبي فقال : انظر إلى مشيته والله لقد هممت أن أضرب عنقه ، فأسرها الشعبي إلى ابن الأشعث فقال ابن الأشعث : وأنا والله لأجهدت أن أزيله عن سلطانه إن طال بي وبه البقاء . والمقصود أن الحجاج أخذ في استعراض هذه الجنود وبذل فيهم العطاء ثم اختلف رأيه فيمن يؤمر عليهم ، ثم وقع اختياره على عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقدَّمه عليهم ، فأتى عمه إسماعيل بن الأشعث فقال للحجاج : إني أخاف أن تؤمره فلا ترى لك طاعة إذا جاوز جسر الصراه ، فقال : ليس هو هنالك هو لي حبيب ، ومتى أرهب أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي ، فأمضاه عليهم ، فسار ابن الأشعث بالجيوش نحو أرض رتبيل ، فلما بلغ رتبيل مجيء ابن الأشعث بالجنود إليه كتب إليه رتبيل يعتذر مما أصاب المسلمين في بلاده في السنة الماضية ، وأنه كان لذلك كارها ، وأن المسلمين هم الذين ألجأوه إلى قتالهم ، وسأل من ابن الأشعث أن يصالحه وأن يبذل للمسلمين الخراج ، فلم يجبه ابن الأشعث إلى ذلك ، وصمم على دخول بلاده ، وجمع رتبيل جنوده وتهيأ له ولحربه ، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلداً أو مدينة أو أخذ قلعة من بلاد رتبيل استعمل عليها نائباً من جهته يحفظها له ، وجعل المشايخ على كل أرض ومكان مخوف ، فاستحوذ على بلاد ومدن كثيرة من بلاد رتبيل ، وغنم أموالاً كثيرة جزيلة ، وسبى خلقاً كثيرة ، ثم حبس الناس عن التوغل في بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهم من البلاد ، ويتقووا بما فيها من المغلات والحواصل ، ثم يتقدمون في العام المقبل إلى أعدائهم فلا يزالون يجوزون الأراضي والأقاليم حتى يحاصروا رتبيل وجنوده في مدينتهم مدينة العظماء على الكنوز والأموال والذراري حتى يغنموها ثم يقتلون مقاتلتهم ، وعزموا على ذلك ، وكان هذا هو الرأي ، وكتب ابن الاشعث إلى الحجاج يخبره بما وقع من الفتح وما صنع الله لهم ، وبهذا الرأي الذي رآه لهم ، وقال بعضهم كان الحجاج قد وجه هميان بن عدي السدوسي الى كرما مسلحاً لأهلها ليمد عامل سجستان والسند إن احتاجا إلى ذلك ، فعصى هميان ومن معه على الحجاج ، فوجه الحجاج إليه ابن الأشعث فهزمه وأقام ابن الأشعث بمن معه ، ومات عبيد الله بن أبي بكرة فكتب الحجاج الى ابن الأشعث بإمرة سجستان مكان ابن أبي بكرة وجهز إلى ابن الأشعث جيشاً أنفق عليه ألفي ألف سوى أعطياتهم ، وكان يدعى هذا الجيش جيش الطواويس ، وأمره بالاقدام على رتبيل فكان من أمره معه ما تقدم .

قال الواقدي وأبو معشر : وحج بالناس في هذه السنة أبان بن عثمان ، وقال غيرهما : بل حج بهم سليمان بن عبد الملك ، وكان على الصائفة في هذه السنة الوليد بن عبد الملك ، وعلى المدينة أبان بن عثمان ، وعلى المشرق بكماله الحجاج ، وعلى قضاء الكوفة أبو بردة بن أبي موسى ، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك .

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

اسلم مولى عمر بن الخطاب

وهو أبو زيد بن أسلم أصله من سبي عين النمر اشتراه عمر بمكة لما حج سنة إحدى عشرة ، وتوفي وعمره مائة وأربع عشرة سنة ، وروى عن عمر عدة أحاديث ، وروى عن غيره من أصحابه أيضاً وله مناقب كثيرة رحمه الله .

جبير بن نفير

ابن مالك الحضرمي له صحبة ورواية ، وكان من علماء أهل الشام وكان مشهوراً بالعبادة والعلم توفي بالشام وعمره مائة وعشرون سنة ، وقيل أكثر وقيل أقل .

عبد الله بن جعفر بن ابي طالب

ولد بأرض الحبشة وأمه أسماء بنت عميس ، وهو آخر من رأى النبي ﷺ من بني هاشم وفاة ، سكن المدينة ، ولما استشهد أبوه جعفر بمؤتة « أتى النبي ﷺ إلى أمهم فقال : ائتوني ببني أخي ، فأتى بهم كأنهم أفرخ[1] ، فدعا بالحلاق فحلق رؤوسهم ثم قال : اللهم أخلف جعفراً في أهله وبارك لعبد الله في صفقته ، فجاءت أمهم فذكرت للنبي ﷺ أنه ليس لهم شيء ، فقال : أنا لهم عوضاً من أبيهم » وقد بايع النبي ﷺ عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعمرهما سبع سنين ، وهذا لم يتفق لغيرهما ، وكان عبد الله بن جعفر من أسخى الناس ، يعطي الجزيل الكثير ويستقله ، وقد تصدق مرة بألفي ألف ، وأعطى مرة رجلاً ستين ألفاً ، ومرة أعطى رجلاً أربعة آلاف دينار ، وقيل إن رجلاً جلب مرة سكرا إلى المدينة فكسد عليه فلم يشتره أحد فأمر ابن جعفر قيمه أن يشتريه وأن يهديه للناس . وقيل : إن معاوية لما حج ونزل في دار مروان قال يوماً لحاجبه : انظر هل ترى بالباب الحسن أو الحسين أو ابن جعفر أو فلاناً ـ وعد جماعة ـ فخرج فلم ير أحداً ، فقيل له : هم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون ، فأتى معاوية فأخبره فقال : ما أنا إلا كأحدهم ، ثم أخذ عصا فتوكأ عليها ثم أتى باب ابن جعفر فاستأذن عليه ودخل فأجلسه في صدر فراشه ، فقال له معاوية : أين غداؤك يا ابن جعفر ؟ فقال : وما تشتهي من شيء فأدعو به ؟ فقال معاوية : أطعمنا مخاً ، فقال يا غلام هات مخاً ، فأتى بصحيفة فأكل معاوية ، ثم قال ابن جعفر لغلامه : هات مخاً ، فجاء بصحيفة

(١) أفرخ : مفردها فَرْخ وهو كل صغير من النبات والحيوان والرجل الذليل الضعيف المطرود .

أخرى ملآنة مخا إلى أن فعل ذلك ثلاث مرات ، فتعجب معاوية وقال : يا ابن جعفر ما يشبعك إلا الكثير من العطاء ، فلما خرج معاوية أمر له بخمسين ألف دينار ، وكان ابن جعفر صديقاً لمعاوية وكان يفد عليه كل سنة فيعطيه ألف ألف درهم ، ويقضي له مائة حاجة . ولما حضرت معاوية الوفاة أوصى ابنه يزيد ، فلما قدم ابن جعفر على يزيد قال له : كم كان أمير المؤمنين يعطيك كل سنة ؟ قال ألف ألف . فقال له : قد أضعفناها لك ، وكان يعطيه ألفي ألف كل سنة ، فقال له عبد الملك ابن جعفر: بأبي أنت وأمي ما قلتها لأحد قبلك ، ولا أقولها لأحد بعدك ، فقال يزيد : ولا أعطاكها أحد قبلي ولا يعطيكها أحد بعدي ، وقيل إنه كان عند ابن جعفر جارية تغنيه تسمى عمارة ، وكان يحبها محبة عظيمة ، فحضر عنده يزيد بن معاوية يوماً فغنت الجارية ، فلما سمعها يزيد افتتن بها ولم يجسر على ابن جعفر أن يطلبها منه ، فلم يزل في نفس يزيد منها حتى مات أبوه معاوية ، فبعث يزيد رجلاً من أهل العراق وأمره أن يتطلع في أمر هذه الجارية ، فقدم الرجل المدينة ونزل جوار ابن جعفر وأهدى إليه هدايا وتحفاً كثيرة ، وأنس به ، ولا زال حتى أخذ الجارية وأتى يزيد . وكان الحسن البصري يذم ابن جعفر على سماعه الغنى واللهو وشرائه المولدات ، ويقول : أما يكفيه هذا الأمر القبيح المتلبس به من هذه الأشياء وغيرها ؟ حتى زوج الحجاج بنت رسول الله ﷺ ،وكان الحجاج يقول : إنما تزوجتها لأذل بها آل أبي طالب ، وقيل إنه لم يصل إليها ، وقد كتب عبد الملك إليه أن يطلقها فطلقها . أسند عبد الله بن جعفر ثلاثة عشر حديثاً .

أبو ادريس الخولاني

اسمه عائذ الله بن عبد الله ، له أحوال ومناقب ، كان يقول : قلب نقي في ثياب دنسة خير من قلب دنس في ثياب نقية ، وقد تولى القضاء بدمشق ، وقد ذكرنا ترجمته في كتابنا التكميل .

معبد الجهني القدري

يقال إنه معبد بن عبد الله بن عليم ، راوي حديث : « لا تنتفعوا من الميتة باهاب ولا عصب » . وقيل غير ذلك في نسبه ، سمع الحديث من ابن عباس وابن عمر ومعاوية وعمران بن حصين وغيرهم . وشهد يوم التحكيم ، وسأل أبا موسى في ذلك ووصاه ثم اجتمع بعمرو بن العاص فوصاه في ذلك فقال له : أيها يا تيس جهنة ما أنت من أهل السر والعلانية ، وإنه لا ينفعك الحق ولا يضرك الباطل . وهذا توسم فيه من عمرو بن العاص ، ولهذا كان هو أول من تكلم في القدر ، ويقال إنه أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق يقال له سوس ، وأخذ غيلان القدر من معبد ، وقد كانت لمعبد عبادة وفيه زهادة ، ووثقه ابن معين وغيره في حديثه ، وقال الحسن البصري : إياكم ومعبداً فإنه ضال مضل ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله . وقال سعيد بن عفير : بل صلبه عبد الملك بن مروان في سنة ثمانين بدمشق ثم

قتله ، وقال خليفة بن خياط . مات قبل التسعين فالله أعلم ، وقيل إن الأقرب قَتْلُ عبد الملك له والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة احدى وثمانين

ففيها فتح عبيد الله بن عبد الملك بن مروان مدينة قاليقلا وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة ، وفيها قتل بكير بن وشاح ، قتله بجير بن ورقاء الصريمي ، وكان بكير من الأمراء الشجعان ، ثم ثار لبكير بن وشاح رجل من قومه يقال له صعصعة بن حرب العوفي الصريمي ، فقتل بجير بن ورقاء الذي قتل بكيرا ، طعنه بخنجر وهو جالس عند المهلب بن أبي صفرة فحمل إلى منزله وهو بآخر رمق ، فبعث المهلب بصعصعة إليه ، فلما تمكن منه بجير بن ورقاء قال ضعوا رأسه عند رجلي ، فوضعوه فطعنه بجير بحربته حتى قتله ومات على إثره . وقد قال له أنس بن طارق : اعف عنه فقد قتلت بكير بن وشاح ، فقال : لا والله لا أموت وهذا حي ثم قتله . وقد قيل إنه إنما قتل بعد موته فالله أعلم .

فتنة ابن الأشعث

قال أبو مخنف : كان ابتداؤها في هذه السنة ، وقال الواقدي : في سنة اثنتين وثمانين، وقد ساقها ابن جرير في هذه السنة فوافقناه في ذلك ، وكان سبب هذه الفتنة أن ابن الأشعث كان الحجاج يبغضه وكان هو يفهم ذلك ويضمر له السوء وزوال الملك عنه ، فلما أمره الحجاج على ذلك الجيش المتقدم ذكره ، وأمره بدخول بلاد رتبيل ملك الترك ، فمضى وصنع ما قدمناه من أخذه بعض بلاد الترك ، ثم رأى لأصحابه أن يقيموا حتى يتقووا إلى العام المقبل ، فكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج يستهجن[1] رأيه في ذلك ويستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنكول[2] عن الحرب ، ويأمره حتما بدخول بلاد رتبيل ، ثم أردف ذلك بكتاب ثان ثم ثالث مع البريد ، وكتب في جملة ذلك يا ابن الحائك الغادر المرتد، امض إلى ما أمرتك به من الايغال[3] في أرض العدو وإلا حل بك ما لا يطاق . وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث : ويقول هو أهوج أحمق حسود ، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقاتله ، ودل عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله ، وجده الأشعث ارتد عن الاسلام وما رأيته قط إلا هممت بقتله ، ولما كتب الحجاج الى ابن الأشعث بذلك وترادفت إليه البرد بذلك ، غضب ابن الأشعث وقال : يكتب إلي بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي ولا من بعض خدمي لخوره وضعف قوته ؟ أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غزالة ـ

---

(١) يستهجن : يستغرب .

(٢) النكول: النكوص والجُبْن .

(٣) الايغال: الإمعان والدخول والذهاب .

يعني أن غزالة زوجة شبيب حملت على الحجاج وجيشه فانهزموا منها وهي امرأة لما دخلت الكوفة ـ ثم إن ابن الأشعث جمع رؤوس أهل العراق وقال لهم : إن الحجاج قد ألح عليكم في الايغال في بلاد العدو ، وهي البلاد التي قد هلك فيها إخوانكم بالأمس ، وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد ، فانظروا في أمركم أما أنا فلست مطيعه ولا أنقض رأيا رأيته بالأمس ، ثم قام فيهم خطيباً فأعلمهم بما كان رأى من الرأي له ولهم ، وطلب في ذلك من إصلاح البلاد التي فتحوها ، وأن يقيموا بها حتى يتقووا بغلّاتها[1] وأموالها ويخرج عنهم فصل البرد ثم يسيرون في بلاد العدو فيفتحونها بلداً بلداً إلى أن يحصروا رتبيل ملك الترك في مدينة العظماء ، ثم أعلمهم بما كتب إليه الحجاج من الأمر بمعاجلة رتبيل . فثار إليه الناس وقالوا : لا بل نأبى على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع . قال أبو مخنف: فحدثني مطرف بن عامر بن واثلة الكناني أن أباه كان أول من تكلم في ذلك ، وكان شاعراً خطيباً ، وكان مما قال : إن مثل الحجاج في هذا الرأي ومثلنا كما قال الأول لأخيه احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك ، أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء ، ثم قال : اخلعوا عدو الله الحجاج ـ ولم يذكر خلع عبد الملك ـ وبايعوا لأميركم عبد الرحمن بن الأشعث فاني أشهدكم أني أول خالع للحجاج . فقال الناس من كل جانب : خلعنا عدو الله ، ووثبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضاً عن الحجاج ، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن مروان ، وبعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبداً . ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلاً من سجستان إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق ، فلما توسطوا الطريق قالوا : إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان فخلعوهما وجددوا البيعة لابن الأشعث فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين ، فاذا قالوا نعم بايعهم . فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان ، كتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك ويستعجله في بعثه الجنود إليه ، وجاء الحجاج حتى نزل البصرة ، وبلغ المهلب خبر ابن الأشعث ، وكتب إليه يدعوه إلى ذلك فأبى عليه ، وبعث بكتابه إلى الحجاج ، وكتب المهلب إلى ابن الأشعث يقول له : إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل ، ابق على أمه محمد ﷺ ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تنكثها ، فإن قلت أخاف الناس على نفسي فالله أحق أن تخافه من الناس ، فلا تعرضها لله في سفك الدماء ، أو استحلال محرم والسلام عليك » . وكتب المهلب إلى الحجاج : « أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علو ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره ، وإن لأهل العراق شدة في أول مخرجهم ، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم ،فليس شيءيردهم حتى يصلوا إلى أهليهم وينبسطوا إلى نسائهم ويشموا أولادهم . ثم واقعهم عندها فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله » . فلما قرأ الحجاج كتابه قال : فعل الله به وفعل ، لا والله مالي نظر ولكن لابن

---

(١) بغلّاتها: محاصيلها .

عمه نصح . ولما وصل البريد بكتاب الحجاج إلى عبد الملك هاله ذلك ثم نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه كتاب الحجاج فقال : يا أمير المؤمنين إن كان هذا الحدث من قبل خراسان فخفه ، وإن كان من قبل سجستان فلا تخفه ، ثم أخذ عبد الملك في تجهيز الجنود من الشام إلى العراق في نصرة الحجاج وتجهيزه في الخروج إلى ابن الأشعث ، وعصى رأي المهلب فيما أشار به عليه ، وكان في شوره النصح والصدق ، وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع عن عبد الملك بخبر ابن الأشعث صباحاً ومساء ، أين نزل ومن أين ارتحل ، وأي الناس إليه أسرع . وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل جانب ، حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل ، وخرج الحجاج في جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث ، فنزل تستر وقدم بين يديه مطهر بن حيي الكعبي أميراً على المقدمة ، ومعه عبد الله بن زميت أميراً آخر ، فانتهوا إلى دجيل فاذا مقدمة ابن الأشعث في ثلاثمائة فارس عليها عبد الله بن أبان الحارثي ، فالتقوا في يوم الأضحى عند نهر دجيل ، فهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقاً كثيراً نحو ألف وخمسمائة ، واحتازوا ما في معسكرهم من خيول وقماش وأموال . وجاء الخبر إلى الحجاج بهزيمة أصحابه وأخذه مادب ودرج . وقد كان قائماً يخطب فقال : أيها الناس ارجعوا إلى البصرة فانه أرفق بالجند ، فرجع الناس وتبعهم خيول ابن الأشعث لا يدركون منهم شاذاً إلا قتلوه ، ولا فاذاً[1] إلا أهلكوه ، ومضى الحجاج هارباً لا يلوي على شيء حتى أتى الزاوية فعسكر عندها وجعل يقول : لله در المهلب أي صاحب حرب هذا ، قد أشار علينا بالرأي ولكنا لم نقبل ، وأنفق الحجاج على جيشه وهو بهذا المكان مائة وخمسين ألف ألف درهم ، وخندق حول جيشه خندقاً ، وجاء أهل العراق فدخلوا البصرة واجتمعوا بأهاليهم وشموا أولادهم ، ودخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بهم وبايعهم وبايعوه على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج بن يوسف ، وقال لهم ابن الأشعث : ليس الحجاج بشيء ، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله ، ووافقه على خلعهما جميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب ، ثم أمر ابن الأشعث بخندق حول البصرة فعمل ذلك ، وكان في أواخر ذي الحجة من هذه السنة .

وحج بالناس فيها إسحاق بن عيسى فيما ذكره الواقدي وأبو معشر والله سبحانه وتعالى أعلم . وفيها غزا موسى بن نصير أمير بلاد المغرب من جهة عبد الملك بلاد الاندلس فافتتح مدناً كثيرة ، وأراضٍ عامرة ، وأوغل في بلاد المغرب إلى أن وصل إلى الرقاق المنبثق من البحر الأخضر المحيط والله أعلم .

وممن توفي فيها من الأعيان بجير بن ورقاء الصريمي أحد الأشراف بخراسان ، والقواد والأمراء الذي حارب ابن خازم وقتله ، وقتل بكير بن وشاح ثم قتل في هذه السنة .

---

(١) فاذاً : هارباً .

سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر

أبو أمية الجعفي الكوفي ، شهد اليرموك وحدث عن جماعة من الصحابة ، وكان من كبار المخضرمين ويقال إنه رأى النبي ﷺ ، وكان مولده عام ولد النبي ﷺ وصلّى معه ، والصحيح أنه لم يره ، وقيل إنه ولد بعده بسنتين ، وعاش مائة وعشرين سنة لم ير يوماً محتنياً ولا متسانداً ، وافتض بكرا عام وفاته في سنة إحدى وثمانين ، قاله أبو عبيد وغير واحد ، وقيل إنه توفي في سنة اثنتين وثمانين فالله أعلم .

عبد الله بن شداد ابن الهاد

كان من العباد الزهاد ، والعلماء ، وله وصايا وكلمات حسان ، وقد روى عدة أحاديث عن الصحابة وعن خلق من التابعين .

محمد بن علي بن ابي طالب

أبو القاسم وأبو عبد الله أيضاً ، وهو المعروف بابن الحنفية ، وكانت سوداء سندية من بني حنيفة اسمها خولة . ولد محمد في خلافة عمر بن الخطاب ، ووفد على معاوية وعلى عبد الملك بن مروان وقد صرع مروان يوم الجمل وقعد على صدره وأراد قتله فناشده مروان بالله وتذلل له فأطلقه ، فلما وفد على عبد الملك ذكره بذلك فقال عفواً يا أمير المؤمنين فعفا عنه وأجزل له الجائزة ، وكان محمد بن علي من سادات قريش ، ومن الشجعان المشهورين ، ومن الاقوياء المذكورين ، ولما بويع لابن الزبير لم يبايعه ، فجرى بينهما شر عظيم حتى هم ابن الزبير به وبأهله كما تقدم ذلك ، فلما قتل ابن الزبير واستقر أمر عبد الملك وبايعه ابن عمر تابعه ابن الحنفية ، وقدم المدينة فمات بها في هذه السنة وقيل في التي قبلها أو في التي بعدها ، ودفن بالبقيع . والرافضة يزعمون أنه بجبل رضوى ، وأنه حي يرزق ، وهم ينتظرونه ، وقد قال كُثَيِّر عزَّة في ذلك :

إلا إنَّ الأئمةَ من قريشٍ ... ولاةَ الحقِ أربعةٌ سَواءُ
عليٌّ والثلاثةُ مِنْ بَنيهِ ... همُ الاسباطُ ليس بهم خَفاءُ
فسبطٌ[1] سبطُ إيمانٍ وبرٍ ... وسبطٌ غيَّبتهُ كربلاءُ
وسبطٌ لا تراهُ العينُ حتى ... تعودَ الخيلُ يقدُمُها لواءُ

ولما همَّ ابن الزبير بابن الحنفية كتب ابن الحنفية إلى شيعتهم بالكوفة مع أبي الطفيل واثلة بن الأسقع وعلى الكوفة المختار بن عبيد الله ، وقد كان ابن الزبير جمع لهم حطباً كثيراً على أبوابهم

---

(١) فسبط : جمعها أسباط . ولد الولد ويغلب على ولد البنت مقابل الحفيد الذي هو ولد الإبن . وهو مشتق من السَّبط أي الشجرة .

ليحرقهم بالنار ، فلما وصل كتاب ابن الحنفية إلى المختار ، وقد كان المختار يدعو إليه ويسميه المهدي ، فبعث المختار أبا عبد الله الجدلي في أربعة آلاف فاستنقذوا بني هاشم من يدي ابن الزبير ، وخرج معهم ابن عباس فمات بالطائف وبقي ابن الحنفية في شيعته ، فأمره ابن الزبير أن يخرج عنه فخرج إلى أرض الشام بأصحابه وكانوا نحو سبعة آلاف ، فلما وصل إلى أيلة كتب إليه عبد الملك : إما أن تبايعني وإما أن تخرج من أرضي ، فكتب إليه ابن الحنفية : أبايعك على أن تؤمِّن أصحابي ، قال نعم فقام ابن الحنفية في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه فقال : الحمد لله الذي حقن دماءكم وأحرز دينكم فمن أحب منكم أن يأتي مأمنه إلى بلده محفوظاً فليفعل ، فرحل عنه الناس إلى بلادهم حتى بقي في سبعمائة رجل ، فأحرم بعمرة وقلد هديا وسار نحو مكة ، فلما أراد دخول الحرم بعث إليه ابن الزبير خيلاً فمنعه أن يدخل ، فأرسل إليه : إنا لم نأت لحرب ولا لقتال ، دعنا ندخل حتى نقضي نسكنا ثم نخرج عنك ، فأبى عليه وكان معه بدن قد قلدها فرجع إلى المدينة فأقام بها محرماً حتى قدم الحجاج وقتل ابن الزبير ، فكان ابن الحنفية في تلك المدة محرماً فلمّا سار الحجاج إلى العراق مضى ابن الحنفية إلى مكة وقضى نسكه وذلك بعد عدة سنين ، وكان القمل يتناثر منه في تلك المدة كلها ، فلما قضى نسكه رجع إلى المدينة أقام بها حتى مات ، وقيل إن الحجاج لما قتل ابن الزبير بعث إلى ابن الحنفية : قد قتل عدو الله فبايع ، فكتب إليه إذا بايع الناس كلهم بايعت ، فقال الحجاج : والله لاقتلنك ، فقال ابن الحنفية : إن لله في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ ، في كل نظرة ثلاثمائة وستون قضية ، فلعل الله تعالى أن يجعلني في قضية منها فيكفينيك . فكتب الحجاج إلى عبد الملك بذلك فأعجبه قوله وكتب إليه قد عرفنا أن محمداً ليس عنده خلاف فارفق به فهو يأتيك ويبايعك ، وكتب عبد الملك بكلامه ذلك - ان لله ثلاثمائة وستين نظرة - إلى ملك الروم ، وذلك أن ملك الروم كتب إلى عبد الملك يتهدده بجموع من الجنود لا يطيقها أحد ، فكتب بكلام ابن الحنفية فقال ملك الروم : إن هذا الكلام ليس من كلام عبد الملك ، وإنما خرج من بيت نبوة ، ولما اجتمع الناس على بيعة عبد الملك قال ابن عمر لابن الحنفية : ما بقي شيء فبايع ، فكتب بيعته الى عبد الملك ووفد عليه بعد ذلك .

توفي ابن الحنفية في المحرم بالمدينة وعمره خمس وستون سنة ، وكان له من الولد عبد الله وحمزة وعلي وجعفر الأكبر والحسن وإبراهيم والقاسم وعبد الرحمن وجعفر الأصغر وعون ورقية ، وكلهم لأمهات شتى . وقال الزبير بن بكار : كانت شيعته تزعم أنه لم يمت وفيه يقول السيد :

ألاقُلْ للوصيِ فدتكَ نفسي	أطلتَ بذلكَ الجبلِ المقاما
أضرَّ بمعشرٍ والوكَ منا	وسموكَ الخليفةَ والاماما
وعادَوا فيكَ أهلُ الأرض طراً	مقامكَ فيهمُ ستينَ عاما
وما ذاقَ ابن خولةَ طعمَ موتٍ	ولا وارتْ لهُ أرضٌ عظاما
لقدْ أمسى بمورقَ شعبِ رضوى	تراجعهُ الملائكةُ الكلاما

وإنَّ لـهُ بـهِ لـمقيـلَ صـدقٍ * وأنـديـةً تـحـدثـهُ كـرامـا
هـدانـا الله ادخـرتـمْ لامـرٍ * بـهِ عليـهِ يلتـمسُ التـمـامـا
تـمـامٌ نـورهُ المـهـديُّ حتـى * تـروا رايـاتِـه تتـرى[1] نـظامـا

وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته وأنه ينتظر خروجه في آخر الزمان ، كما ينتظر طائفة أخرى منهم الحسن بن محمد العسكري ، الذي يخرج في زعمهم من سرداب سامرا ، وهذا من خرافاتهم وهذيانهم وجهلهم وضلالهم وترهاتهم ، وسنزيد ذلك وضوحاً في موضعه وإن شاء الله .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين

ففي المحرم منها كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج في آخره ، وكان أول يوم لأهل العراق على أهل الشام ، ثم تواقفوا يوماً آخر فحمل سفيان بن الابرد أحد أمراء أهل الشام على ميمنة ابن الأشعث فهزمها وقتل خلقاً كثيراً من القراء[2] من أصحاب ابن الأشعث في هذا اليوم ، وخر الحجاج لله ساجداً بعد ما كان جثا على ركبتيه وسل شيئاً من سيفه وجعل يترحَّم على مصعب بن الزبير ويقول : ما كان أكرمه حتى صبر نفسه للقتل ، وكان من جملة من قتل من أصحاب ابن الأشعث أبو الطفيل بن عامر بن وائلة الليثي ، ولما فر أصحاب ابن الاشعث رجع ابن الأشعث بمن بقي معه ومن تبعه من أهل البصرة ، فسار حتى دخل الكوفة فعمد أهل البصرة إلى عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعوه ، فقاتل الحجاج خمس ليالٍ أشد القتال ، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ، وتبعه طائفة من أهل البصرة ، فاستناب الحجَاج على البصرة أيوب بن الحكم بن أبي عقيل ، ودخل ابن الأشعث الكوفة فبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان ، وتفاقم الأمر وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك ، واشتد الحال ، وتفرقت الكلمة جداً وعظم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع .

قال الواقدي : ولما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرة بعد مرة ، فقال القراء ـ وكان عليهم جبلة بن زحر ـ : أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منكم فقاتلوا على دينكم ودنياكم . وقال سعيد بن جبير نحو ذلك ، وقال الشعبي : قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة ، ثم حملت القراء ـ وهم العلماء ـ على جيش الحجاج حملة صادقة فبرعوا فيهم ثم رجعوا فاذا هم بمقدمهم جبلة بن زحر صريعا ، فهدهم ذلك فناداهم جيش الحجاج يا أعداء الله قد قتلنا طاغيتكم ، ثم حمل سفيان بن الأبرد وهو على خيل الحجاج على ميسرة ابن الأشعث وعليها الأبرد بن مرة التميمي ، فانهزموا ولم يقاتلوا

---

(١) تترى : تتوالى .
(٢) القرَّاء : الناسكون المتعبدون .

كثير قتال ؛ فأنكر الناس منهم ذلك ، وكان أمير ميسرة ابن الأشعث الأبر: شجاعاً لا يفر ، وظنوا أنه قد خامر ، فنقضت الصفوف وركب الناس بعضهم بعضاً ، وكان ابن الأشعث يحرض الناس على القتال ، فلما رأى ما الناس فيه أخذ من اتبعه وذهب إلى الكوفة فبايعه أهلها ، ثم كانت وقعة دير الجماجم في شعبان من هذه السنة .

وقعة دير الجماجم

قال الواقدي : وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها فتلقوه وحفوا به ودخلوا بين يديه ، غير أن شرذمة قليلة أرادت أن تقاتله دون مطر بن ناجية نائب الحجاج فلم يمكنهم من ذلك ، فعدلوا إلى القصر ، فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة أمر بالسلالم فنصبت على قصر الامارة فأخذه واستنزل مطر بن ناجية وأراد قتله فقال له : استبقني فاني خير من فرسانك ، فحبسه ثم استدعاه فأطلقه وبايعه واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة وانضم إليه من جاء من أهل البصرة ، وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب ، وأمر بالمسالح من كل جانب ، وحفظت الثغور[1] والطرق والمسالك . ثم إنَّ الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية من البصرة في البر حتى مر بين القادسية والعذيب وبعث إليه ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس في خيل عظيمة من المصرين فمنعوا الحجاج من دخول القادسية ، فسار الحجاج حتى نزل دير قره ، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى نزل دير الجماجم ، ومعه جنود كثيرة ، وفيهم القراء وخلق من الصالحين، وكان الحجاج بعد ذلك يقول : قاتل الله ابن الأشعث ، أما كان يزجر الطير حيث رآني قد نزلت دير قره ، ونزل هو بدير الجماجم . وكان جملة من اجتمع مع ابن الأشعث مائه ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، وقدم على الحجاج في غبون ذلك أمداد كثيرة من الشام ، وخندق كل من الطائفتين على نفسه وحول جيشه خندقاً يمتنع به من الوصول إليهم ، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض في كل يوم فيقتتلون قتالاً شديداً في كل حين ، حتى أصيب من رؤوس الناس خلق من قريش وغيرهم ، واستمر هذا الحال مدة طويلة ، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقالوا له : إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم ، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ومعهما جنود كثيرة جداً ، وكتب معهما كتاباً إلى أهل العراق يقول لهم : إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم ، وبعثت عليكم أعطياتكم[2] مثل أهل الشام ، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت ، وتكون إمرة

---

(١) الثغور : مفردها الثغر وهو المكان الذي يُخاف منه هجوم العدو وهو مأخوذ من ثغر الجدار .

(٢) أعطياتكم : أعطيات مفردها : العطا والعطاء .

العراق لمحمد بن مروان ، وقال في عهده هذا : فإن لم تجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ما هو عليه وإليه إمرة الحرب ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره .

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلى أهل العراق من عزله إن رضوا به شق عليه ذلك مشقة عظيمة جداً وعظم شأن هذا الرأي عنده ، وكتب إلى عبد الملك : يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي عنهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك ، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعي على ابن عفان ؟ فلما سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ وإن الحديد بالحديد يُفْلَح ، كان الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك .

قال : فأبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق كما أمر ، فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله : يا معشر أهل العراق ، أنا عبّد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وإنه يعرض عليكم كيت وكيت ، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال ، وقال محمد بن مروان : وأنا رسول أخي أمير المؤمنين إليكم بذلك ، فقالوا : ننظر في أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية ، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم وبيعة عبد الملك وإبقاء الأعطيات وإمرة محمد ابن مروان على العراق بدل الحجاج ، فنفر الناس من كل جانب وقالوا : لا والله لا نقبل ذلك ، نحن أكثر عدداً وعدداً ، وهم في ضيق من الحال وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا ، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً . ثم جددوا خلع عبد الملك ونائبه ثانية ، واتفقوا على ذلك كلهم .

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمداً الخبر قالا للحجاج : شأنك بهم إذاً ، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين ، فكانا إذا لقياه سلما عليه بالامرة ويسلم هو أيضاً عليهم بالامرة ، وتولى الحجاج أمر الحرب وتدبيرها كما كان قبل ذلك ، فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب ، فجعل الحجاج على ميمنته عبد الرحمن بن سليمان ، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمي ، وعلى الخيل سفيان بن الأبرد وعلى الرجالة عبد الرحمن بن حبيب الحكمي . وجعل ابن الأشعث على ميمنته الحجاج بن حارثة الجشمي ، وعلى الميسرة الأبرد بن قرة التميمي ، وعلى الخيالة عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة ، وعلى الرجالة محمد بن سعد بن أبي وقاص الزهري ، وعلى القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي ، وكان فيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكميل بن زياد ـ وكان شجاعاً فاتكاً على كبر سنه ـ وأبو البحتري الطائي وغيرهم ، وجعلوا يقتتلون في كل يوم ، وأهل العراق تأتيهم الميرة[1] من

---

(١) الميرة : جمعها : مِيَرٌ : الطعام الذي يدّخره الانسان .

الرساتيق[1] والأقاليم ، من العلف والطعام ، وأما أهل الشام الذين مع الحجاج فهم في أضيق حال من العيش ، وقلة من الطعام ، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه ، وما زالت الحرب في هذه المدة كلها حتى انسلخت هذه السنة وهم على حالهم وقتالهم في كل يوم أو يوم بعد يوم ، والدائرة لأهل العراق على أهل الشام في أكثر الأيام . وقد قتل من أصحاب الحجاج زياد بن غنم ، وكسر بسطام بن مصقلة في أربعة آلاف جفون سيوفهم واستقتلوا وكانوا من أصحاب ابن الأشعث .

وفي هذه السنة كانت وفاة المهلب بن أبي صفرة ، وهو المهلب بن أبي صفرة ظالم أبو سعيد الأزدي أحد أشراف أهل البصرة ووجوههم ودهاتهم وأجوادهم وكرمائهم ، ولد عام الفتح ، وكانوا ينزلون فيما بين عمان والبحرين ، وقد ارتد قومه فقاتلهم عكرمة بن أبي جهل فظفر بهم ، وبعث بهم إلى الصديق وفيهم أبو صفرة وابنه المهلب غلام لم يبلغ الحنث[2] ، ثم نزل المهلب البصرة وقد غزا في أيام معاوية أرض الهند سنة أربع وأربعين ، وولى الجزيرة لابن الزبير سنة ثمان وستين ، ثم ولي حرب الخوارج أول دولة الحجاج ، وقتل منهم في وقعة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة ، فعظمت منزلته عند الحجاج . وكان فاضلاً شجاعاً كريماً يحب المدح ، وله كلام حسن ، فمنه : نعم الخصلة السخاء تستر عورة الشريف وتلحق خسيسة الوضيع ، وتحبب المزهود فيه . وقال : يعجبني في الرجل خصلتان أن أرى عقله زائداً على لسانه ، ولا أرى لسانه زائداً على عقله .

توفي المهلب غازياً بمرو الروذ وعمره ست وسبعون سنة رحمه الله . وكان له عشرة من الولد وهم : يزيد ، وزياد ، والمفضل ، ومدرك ، وحبيب ، والمغيرة ، وقبيصة ، ومحمد ، وهند ، وفاطمة . توفي المهلب في ذي الحجة منها ، وكان من الشجعان وله مواقف حميدة ، وغزوات مشهورة في الترك والأزارقة وغيرهم من أنواع الخوارج ، وجعل الأمر من بعده ليزيد بن المهلب على إمرة خراسان فأمضى له ذلك الحجاج وعبد الملك بن مروان .

اسماء بن خارجة الفزاري الكوفي

وكان جواداً ممدحاً ، حكي أنه رأى يوماً شاباً على باب داره جالساً فسأله عن قعوده على بابه فقال : حاجة لا أستطيع ذكرها ، فألح عليه فقال : جارية رأيتها دخلت هذه الدار لم أر أحسن منها وقد خطفت قلبي معها ، فأخذ بيده وأدخله داره وعرض عليه كل جارية عنده حتى مرت تلك الجارية فقال : هذه ، فقال له : اخرج فاجلس على الباب مكانك ، فخرج الشاب فجلس

---

(١) الرساتيق : مفردها الرستاق وهي الاقليم .

(٢) الحِنث : الإدراك .

مكانه ، ثم خرج إليه بعد ساعة والجارية معه قد ألبسها أنواع الحلى ، وقال له : ما منعني أن أدفعها إليك وأنت داخل الدار إلا أن الجارية كانت لأختي ، وكانت ضنينة[1] بها ، فاشتريتها لك منها بثلاثة آلاف ، وألبستها هذا الحلي ، فهي لك بما عليها ، فأخذها الشاب وانصرف .

المغيرة بن المهلب

ابن أبي صفرة ، كان جواداً ممدحاً شجاعاً ، له مواقف مشهورة .

الحارث بن عبد الله

ابن ربيعة المخزومي المعروف بقباع ، ولى إمرة البصرة لابن الزبير .

محمد بن اسامة بن زيد بن حارثة

كان من فضلاء أبناء الصحابة وأعقلهم ، توفي بالمدينة ودفن بالبقيع .

عبد الله بن أبي طلحة بن ابي الأسود

والد الفقيه إسحاق حملت به أمه أم سليم ليلة مات ابنها فأصبح أبو طلحة فأخبر النبي ﷺ ، فقال ﷺ : « عرستم بارك الله لكما في ليلتكما » ولما ولد حنكه بتمرات .

عبد الله بن كعب بن مالك

كان قائد كعب حين عمي ، له روايات ، توفي بالمدينة هذه السنة .

عفان بن وهب

أبو أيمن الخولاني المصري له صحبة ورواية ، وغزا المغرب ، وسكن مصر وبها مات .

جميل بن عبد الله

ابن معمر بن صباح بن ظبيان بن الحسن بن ربيعة بن حرام بن ضبة بن عبيد بن كثير بن

---

(١) ضنينة : بخيلة .

عـذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سرهد بن أسلم بن الحـاف بن قضاعـة . أبو عمرو الشـاعر صاحب بثينة ، كان قد خطبها فمنعت منه ، فتغزل فيها واشتهر بها ، وكان أحـد عشاق العرب ، كانت إقامته بوادي القرى ، وكان عفيفاً حيياً ديناً شاعراً إسلامياً ، من أفصح الشعراء في زمانه ، وكان كُثَيِّر عـزة راويته ، وهـو يروي عن هـدبة بن خشـرم عن الحطيئـة عن زهير بن أبي سلمى ، وابنه كعب ، قال كُثَيِّر عزة كان جميل أشعر العرب حيث يقول : ـ

وأخبـرتمـانـي أنّ تيـمـاءَ منـزلٌ ... لليلى إذا ما الصيفُ ألقى المراسيـا
فهذي شهورُ الصيفِ عنا قد انقضتْ ... فما للنوى[1] تـرمي بليلى المراميـا

ومنها قوله :

ومـا زلت بي يـابثن حتى لـو انني ... من الشوقِ أستبكى الحمامَ بكى ليا
ومـا زادني الـواشـونَ إلا صبابـةً ... ولا كثـرةُ النـاهـينَ إلا تـمـاديـا
ومـا أحـدثَ النـأيُ المفـرقُ بيننـا ... سلوًا ولا طـولُ اجتمـاعٍ تقـاليـا
ألم تعلمي يـا عـذبـةَ الـريقِ أنني ... أظـل إذا لم ألقِ وجهكَ صـاديـا[2]
لقـد خفتَ أن ألقى المنيـةَ بغتـةً ... وفي النفسِ حاجاتٌ إليكَ كما هيا

وله أيضاً :

إنـي لأحفظُ غـيـبـكـمْ ويـسـرني ... لـو تعلمينَ بصـالـحٍ أنْ تـذكـري

إلى أن قال :

مـا أنتِ والـوعـدُ الـذي تعـدينني ... إلاّ كـبـرقِ سحـابـةٍ لـم تـمـطرِ

وقوله وروي لعمرو بن أبي ربيعة :

مـا زلتُ أبغي الحيَّ أتبـعُ فـلهمْ ... حـتى دفعتَ إلـى ربيبـةَ هـودج
فـدنـوتُ مختـفيـاً ألـمُّ ببيتـهـا ... حتى ولجتُ إلى خفيِ المـولـجِ

فيما نقله ابن عساكر :

قـالتْ وعيشُ أخي ونعمـةُ والـدي ... لأنبـهـنَ الـحـيَ إنْ لـم تـخـرجِ
فتنـاولـتْ رأسي لـتعـرفَ مـسـهُ ... بمخضبِ الاطـرافِ غيـرِ مشنـجِ
فخـرجتُ خيفـة أهلهـا فتبسمتْ ... فعلمتُ أنَّ يمينهـا لم تـحـرجِ
فلثمتُ[3] فـاهـاً آخـذاً بقـرونهـا ... فـرشـفتُ ريقـاً بـارداً متـثلجِ

---

(١) للنوى : للبعد .
(٢) صاديا : عطشاناً .
(٣) فلثمتُ : قبّلتُ .

قال كثير عزة : لقيني جميل بثينة فقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من عند هذه الحبيبة ، فقال : وإلى أين ؟ فقلت : وإلى هذه الحبيبة - يعني عَزَّة - فقال : أقسمت عليك لما رجعت إلى بثينة فواعدتها لي فإن لي من أول الصيف ما رأيتها ، وكان آخر عهدي بها بوادي القرى ، وهي تغسل هي وأمها ثوباً فتحادثنا إلى الغروب ، قال كُثَيِّر : فرجعت حتى أنخت بهم . فقال أبو بثينة : ما ردك يا ابن أخي ؟ فقلت : أبيات قلتها فرجعت لأعرضها عليك . فقال : وما هي ؟ فأنشدته وبثينة تسمع من وراء الحجاب : -

فقلتُ لها يا عزُّ أرْسلَ صاحبي ... إليكِ رسولاً والرسولُ موكلُ
بأنْ تجعلي بيني وبينكِ موعداً ... وأن تأمريني ما الذي فيهِ أفعلُ
وآخرُ عهدي منكِ يومَ لقيتني ... بأسفلِ وادي الدومِ والثوبُ يغسلُ

فلما كان الليل أقبلت بثينة إلى المكان الذي واعدته إليه ، وجاء جميل وكنت معهم فما رأيت ليلة أعجب منها ولا أحسن منادمات ، وانفض ذلك المجلس وما أدري أيهما أفهم لما في ضمير صاحبه منه .

وذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدي أنه دخل على جميل وهو يموت فقال له : ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ، ولم يزن قط ، ولم يسرق ولم يقتل النفس وهو يشهد إن لا إله إلا الله ؟ قال : أظنه قد نجا وأرجو له الجنة ، فمن هذا ؟ قال : أنا ، فقلت : الله ما أظنك سلمت وأنت تشبب بالنساء منذ عشرين سنة ، ببثينة . فقال : لا نالتني شفاعة محمد ﷺ ، وإني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدي عليها بريبة ، قال : فما برحنا حتى مات . قلت : كانت وفاته بمصر لأنه كان قد قدم على عبد العزيز ابن مروان فأكرمه وسأله عن حبه بثينة فقال: شديداً، واستنشده من أشعاره ومدائحه فأنشده فوعده أن يجمع بينه وبينها فعاجلته المنية في سنة اثنتين وثمانين رحمه الله آمين .

وقد ذكر الأصمعي عن رجل أن جميلاً قال له : هل أنت مبلغ عني رسالة إلى حي بثينة ولك ما عندي ؟ قال: نعم، قال: إذا أنامت فاركب ناقتي والبس حلتي هذه وأمره أن يقول أبياتاً منها قوله :

قومي بُثَيْنَةُ فآندُبي بِعَويلِ ... وابكِي خَليلاً دونَ كُلِّ خَليلِ

فلما انتهى إلى حيهم أنشد الأبيات فخرجت بثينة كأنها بدر سرى في جنة وهي تتثنى في مرطها[1] فقالت له : ويحك إن كنت صادقاً فقد قتلتني ، وإن كنت كاذباً فقد فضحتني . فقلتُ : بلى والله صادق وهذه حلته وناقته ، فلما تحققت ذلك أنشدت أبياتاً ترثيه بها وتتأسف عليه فيها ،

---

(١) مرطها : المِرْط : كل ثوبٍ غير مخيط . وكساء من صوف ونحوه يُؤْتَزَر به .

وأنه لا يطيب لها العيش بعده ، ولا خير لها في الحياة بعد فقده ، ثم ماتت من ساعتها : قال الرجل : فما رأيت أكثر باكياً ولا باكية من يومئذ .

وروى ابن عساكر عنه أنه قيل له بدمشق : لو تركت الشعر وحفظت القرآن ؟ فقال : هذا أنس بن مالك يخبرني عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من الشعر لحكمة » .

عمر بن عبيد الله

ابن معمر بن عثمان أبو حفص القرشي التميمي أحد الأجواد والأمراء والأمجاد ، فتحت على يديه بلدان كثيرة ، وكان نائباً لابن الزبير على البصرة ، وقد فتح كابل مع عبد الله بن خازم ، وهو الذي قتل قطري بن الفجاءة ، روى عن ابن عمر وجابر وغيرهما ، وعن عطاء بن أبي رباح ، وابن عون ، ووفد على عبد الملك فتوفي بدمشق سنة اثنتين وثمانين . قاله المدائني . وحكى أن رجلاً اشترى جارية كانت تحسن القرآن والشعر وغيره فأحبها حباً شديداً وأنفق عليها ماله كله حتى أفلس ولم يبق له شيء سوى هذه الجارية ، فقالت له الجارية : قد أرى ما بك من قلة الشيء . فلو بعتني وانتفعت بثمني صلح حالك ، فباعها لعمر بن عبيد الله هذا - وهو يومئذ أمير البصرة - بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال ندم وندمت الجارية ، فأشارت تخاطب سيدها بأبيات شعر وهي : -

هنيئاً لكَ المالُ الذي قدْ أخذتهُ ... ولم يبقَ في كفيَّ الا تفكُّري
أقولُ لنفسي وهيَ في كربِ عيشةٍ ... أقلي فقدْ بانَ الخليطُ أو اكثري
إذا لمْ يكنْ في الأمرِ عندكِ حيلةٌ ... ولم تجدي بداً مِنَ الصبرِ فاصبري

فأجابها سيدها فقال :

ولولا قعودٌ الدهرِ بي عنكِ لم يكنْ ... لفرقتنا شيءٌ سوى الموتِ فاصبري
أأوبُ[1] بحزنٍ من فراقكِ موجعٌ ... أناجي بهِ قلباً طويلَ التذكرِ
عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننا ... ولا وصلَ ألاّ أنْ يشاء ابنُ معمرِ

فلما سمعهما ابن معمر قد شببت قال : والله لا فرقت بين محبين أبداً ، ثم أعطاه المال - وهو مائة ألف - والجارية لما رأى من توجعهما على فراق كل منهما صاحبهْ ، فأخذ الرجل الجارية وثمنها وانطلق . توفي عمر بن عبيد الله بن معمر هذا بدمشق بالطاعون ، وصلى عليه عبد الملك بن مروان ، ومشى في جنازته وحضر دفنه وأثنى عليه بعد موته ، وكان له من الولد طلحة وهو من

(١) أأوب : أعُود .

سادات قريش تـزوج فاطمـة بنت القاسم بن محمـد بن جعفر على صـداق أربعين ألف دينار ، فأولدها إبراهيم ورملة ، فتزوج رملة إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس على صداق مائة ألف دينار رحمهم الله .

كمُيَل بن زياد

ابن نهيـك بن خيثم النخعي الكـوفي . روى عن عمـر وعثمـان وعلي وابن مسعـود وأبي هريرة ، وشهد مع علي صفين ، وكان شجاعـاً فاتكـاً ، وزاهداً عـابداً ، قتله الحجـاج في هذه السنة ، وقد عاش مائة سنة قتله صبراً بين يديه ، وإنما نقم عليه لأنه طلب من عثمـان بن عفان القصاص من لطمة لطمها إياه . فلما أمكنه عثمان من نفسه عفا عنه ، فقال له الحجاج : أو مثلك يسأل من أمير المؤمنين القصاص ؟ ثم أمر فضربت عنقه ، قالوا : وذكر الحجاج عليا في غبون ذلك فنال منه وصلى عليه كميل ، فقال له الحجاج : والله لأبعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه أنت ، فأرسل إليه ابن أدهم ، وكان من أهل حمص ، ويقال أبا الجهم بن كنـانـة فضرب عنقه ، وقد روى عن كميل جماعة كثيرة من التابعين وله الأثر المشهور عن علي بن أبي طالب الذي أوله «القلوب أوعية فخيرها أوعاها» وهو طويل قد رواه جماعة من الحفاظ الثقات وفيه مواعظ وكلام حسن رضي الله عن قائله .

ذاذان أبو عمرو الكندي

أحد التابعين كان أولاً يشرب المسكر ويضرب بالطنبور ، فرزقه الله التوبة على يد عبد الله بن مسعود وحصلت له إنابة ورجوع إلى الحق ، وخشية شديدة ، حتى كان في الصلاة كأنه خشبة .

قال خليفة : وفيها توفي زر بن حبيش أحد أصحاب ابن مسعود وعائشة ، وقد أتت عليه مئة وعشرون سنة . وقال ابو عبيد : مات سنة إحدى وثمانين ، وقد تقدمت له ترجمة (شقيق بن سلمة) أبو وائل ، أدرك من زمن الجاهلية سبع سنين ، وأسلم في حياة النبي ﷺ .

أم الدرداء الصغرى

اسمها هجيمة ويقال جهيمة تابعية عابدة عالمة فقيهة كان الرجال يقرأون عليها ويتفقهون في الحائط الشمالي بجامع دمشق ، وكان عبد الملك بن مروان يجلس في حلقتها مع المتفقهة يشتغل عليها وهو خليفة ، رضي الله عنها .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

استهلت هذه السنة والناس متواقفـون لقتال الحجـاج وأصحابـه بدير قرة ، وابن الأشعث

وأصحابه بدير الجماجم ، والمبارزة في كل يوم بينهم واقعة ، وفي غالب الأيام تكون النصرة لأهل العراق على أهل الشام ، حتى قيل إن أصحاب ابن الأشعث وهم أهل العراق كسروا أهل الشام وهم أصحاب الحجاج بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم ، ومع هذا فالحجاج ثابت في مكانه صابر ومصابر لا يتزحزح عن موضعه الذي هو فيه ، بل إذا حصل له ظفر في يوم من الأيام يتقدم بجيشه إلى نحو عدوه ، وكان له خبرة بالحرب ، وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القراء ، لأن الناس كانوا تبعاً لهم ، وهم الذين يحرضونهم على القتال والناس يقتدون بهم ، فصبر القراء لحملة جيشه ، ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم ، وما انفك حتى قتل منهم خلقاً كثيراً ، ثم حمل على ابن الأشعث وعلى من معه من الجيش فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا في كل وجه ، وهرب ابن الأشعث بين أيديهم ومعه فل قليل من الناس ، فأتبعه الحجاج جيشاً كثيفاً مع عمارة بن غنم اللخمي ومعه محمد بن الحجاج والامرة لعمارة ، فساقوا وراءهم يطردونهم لعلهم يظفرون به قتلاً أو أسراً ، فما زال يسوق ويخترق الأقاليم والكور والرساتيق[1] ، وهم في أثره حتى وصل إلى كرمان ، واتبعه الشاميون فنزلوا في قصر كان فيه أهل العراق قبلهم ، فإذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل الكوفة من أصحاب ابن الأشعث الذين فروا معه من شعر أبي خلدة اليشكري يقول :

أيا لَهَفاً ويا حُزناً جميعاً ... ويا حرّ الفُؤادِ لِمَا لَقِينا
تركنا الدينَ والدنيا جميعاً ... وأسلمنا الحلائلَ[2] والبَنِينا
فما كنا أناساً أهلَ دنيا ... فنمنعها ولو لم نرجُ دِينا
تركنَا دورَنا لطغامِ عكٍّ ... وأنباطِ القرى والأشْعَرِينا

ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه من الفل إلى بلاد رتبيل ملك الترك ، فأكرمه رتبيل وأنزله عنده وأمنه وعظمه .

قال الواقدي : ومر ابن الأشعث وهو ذاهب إلى بلاد رتبيل على عامل له في بعض المدن كان ابن الأشعث قد استعمله على ذلك عند رجوعه إلى العراق ، فأكرمه ذلك العامل وأهدى إليه هدايا وأنزله ، فعل ذلك خديعة به ومكراً ، وقال له : ادخل إلى عندي إلى البلد لتتحصن بها من عدوك ولكن لا تدع أحداً ممن معك يدخل المدينة ، فأجابه إلى ذلك ، وإنما أراد المكر به ، فمنعه أصحابه فلم يقبل منهم ، فتفرق عنه أصحابه ، فلما دخل المدينة وثب عليه العامل فمسكه واوثقه بالحديد وأراد أن يتخذ به يداً عند الحجاج ، وقد كان الملك رتبيل سر بقدوم ابن الأشعث ، فلما بلغه ما حدث له من جهة ذلك العامل بمدينة بست ، سار حتى أحاط ببست ، وأرسل إلى عاملها يقول له : والله لئن آذيت ابن الأشعث لا أبرح حتى أستنزلك وأقتل جميع من في بلدك ، فخافه ذلك

---

(١) الرساتيق : مفردها رستاق . وهو الاقليم من الارض .
(٢) الحلائل : مفردها : حليلة وهي الزوجة لأنها تحلُّ مع زوجها ويحلُّ معها .

العامل وسير إليه ابن الأشعث فأكرمه رتبيل ، فقال ابن الأشعث لرتبيل : إن هذا العامل كان عاملي ومن جهتي ، فغدر بي وفعل ما رأيت ، فأذن لي في قتله ، فقال : قد أمنته . وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان هو الذي يصلي بالناس هنالك في بلاد رتبيل ، ثم إن جماعة من الفل الذين هربوا من الحجاج اجتمعوا وساروا وراء ابن الأشعث ليدركوه فيكونوا معه ـ وهم قريب من ستين ألفاً ـ فلما وصلوا إلى سجستان وجدوا ابن الأشعث قد دخل إلى عند رتبيل فتغلبوا على سجستان وعذبوا عاملها عبد الله بن عامر النعار وإخوته وقرابته ، واستحوذوا على ما فيها من الأموال ، وانتشروا في تلك البلاد وأخذوها ، ثم كتبوا إلى ابن الأشعث : أن اخرج إلينا حتى نكون معك ننصرك على من يخالفك ، ونأخذ بلاد خراسان ، فإن بها جنداً ومنعة كثيرة منا ، فنكون بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك ، فنرى بعد ذلك رأينا . فخرج إليهم ابن الأشعث وسار بهم قليلاً إلى نحو خراسان فاعتزله شرذمة من أهل العراق مع عبيد الله بن سمرة ، فقام فيهم ابن الأشعث خطيباً فذكر غدرهم ونكولهم عن الحرب ، وقال : لا حاجة لي بكم ، وأنا ذاهب إلى صاحبي رتبيل فأكون عنده . ثم انصرف عنهم وتبعه طائفة منهم وبقي معظم الجيش . فلما انفصل عنهم ابن الأشعث بايعوا عبد الرحمن بن عياش بن أبي ربيعة الهاشمي ، وساروا معه إلى خراسان فخرج إليهم أميرها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، فمنعهم من دخول بلاده ، وكتب إلى عبد الرحمن بن عياش يقول له : إن في البلاد متسعاً فاذهب إلى أرض ليس بها سلطان فإني أكره قتالك ، وإن كنت تريد مالاً بعثت إليك . فقال له : إنا لم نجىء لقتال أحد ، وإنما جئنا نستريح ونريح خيلنا ثم نذهب وليست بنا حاجة إلى شيء مما عرضت . ثم أقبل عبد الرحمن على أخذ الخراج مما حوله من البلاد من كور خراسان ، فخرج إليه يزيد بن المهلب ومعه أخوه المفضل في جيوش كثيفة ، فلما صادفوهم اقتتلوا غير كثير ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن عياش ، وقتل يزيد منهم مقتلة كبيرة ، واحتاز ما في معسكره ، وبعث بالأسارى وفيهم محمد بن سعد بن أبي وقاص إلى الحجاج ، ويقال إن محمد بن سعد قال ليزيد بن المهلب : أسألك بدعوة أبي لأبيك لما أطلقتني ، فأطلقه .

قال ابن جرير : ولهذا الكلام خبر فيه طول ، ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم ، وقد كان الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث نادى مناديه في الناس : من رجع فهو آمن ومن لحق بمسلم بن قتيبة بالري فهو آمن ، فلحق بمسلم خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث فأمنهم الحجاج ، ومن لم يلحق به شرع الحجاج في تتبعهم ، فقتل منهم خلقاً كثيراً حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبير على ما سيأتي بيانه .

وكان الشعبي من جملة من صار إلى مسلم بن قتيبة فذكره الحجاج يوماً فقيل له . إنه سار إلى مسلم بن قتيبة ، فكتب إلى مسلم : أن ابعث لي بالشعبي قال الشعبي : فلما دخلت عليه سلمت عليه بالأمرة ثم قلت : أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق ، وايم

الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق كائناً في ذلك ما كان ، قد والله تمردنا عليك ، وخرجنا وجهدنا كل الجهد فما ألونا[1] ، فما كنا بالأقوياء الفجرة ، ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليك أيدينا ، وإن عفوت عنا فبحلمك ، وبعد فلك الحجة علينا . فقال الحجاج : أنت والله يا شعبي أحب إليَّ ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول : ما فعلت ولا شهدت ، قد أمنت عندنا يا شعبي . قال : فانصرفت فلما مشيت قليلاً قال : هلم يا شعبي ، قال : فوجل لذلك قلبي ، ثم ذكرت قوله قد أمنت يا شعبي فاطمأنت نفسي ، فقال : كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي ؟ - قال: وكان لي مكرماً قبل الخروج عليه - فقلت : أصلح الله الأمير ، قد اكتحلت بعدك السهر ، واستوعرت السهل ، واستوخمت الجناب[2] ، واستحلست[3] الخوف ، واستحليت الهم ، وفقدت صالح الاخوان ، ولم أجد من الأمير خلفاً . قال : انصرف يا شعبي ، فانصرفت . ذكر ذلك ابن جرير وغيره . ورواه أبو مخنف عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدي عن الشعبي .

وروى البيهقي أنه سأله عن مسألة في الفرائض وهي أم زوج وأخت وما كان يقوله فيها الصديق وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ، وكان لكل منهم قول فيها ، فنقل ذلك كله الشعبي في ساعة فاستحسن قول علي وحكم بقول عثمان ، وأطلق الشعبي بسبب ذلك . وقيل إن الحجاج قتل خمسة آلاف أسير ممن سيرهم إليه يزيد بن المهلب كما تقدم ذلك ، ثم سار إلى الكوفة فدخلها فجعل لا يبايع أحداً من أهلها إلا قال : أشهد على نفسك أنك قد كفرت ، فإذا قال نعم بايعه ، وإن أبى قتله ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أبى أن يشهد على نفسه بالكفر ، قال فأتى برجل فقال الحجاج : ما أظن هذا يشهد على نفسه بالكفر لصلاحه ودينه - وأراد الحجاج مخادعته - فقال : أخادعي أنت عن نفسي ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون وهامان ونمروذ . قال : فضحك الحجاج وخلى سبيله .

وذكر ابن جرير من طريق أبي مخنف أن أعشى همدان أتى به إلى الحجاج - وكان قد عمل قصيدة هجا فيها الحجاج وعبد الملك بن مروان ويمدح فيها ابن الأشعث وأصحابه - فاستنشده إياها فأنشده قصيدة طويلة دالية ، فيها مدح كثير لعبد الملك وأهل بيته ، فجعل أهل الشام يقولون : قد أحسن أيها الأمير ، فقال الحجاج : إنه لم يحسن ، إنما يقول هذا مصانعة ، ثم ألح عليه حتى أنشده قصيدته الأخرى ، فلما أنشدها غضب عند ذلك الحجاج وأمر به فضربت عنقه صبراً بين يديه . واسم الأعشى هذا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث أبو المصبح الهمداني الكوفي

---

(١) ألونا : تعبنا

(٢) الجناب : التهاب غلاف الرئة فيحدث منه سعال وحُمَّى ونخس في الجنب يزداد عند التنفس .

(٣) واستحلستُ : لازمني ولم يفارقني .

الشاعر ، أحد الفصحاء البلغاء المشهورين ، وقد كان له فضل وعبادة في مبتداه ، ثم ترك ذلك وأقبل على الشعر فعُرِفَ به ، وقد وفد على النعمان بن بشير وهو أمير بحمص فامتدحه ، وكان محصوله في رحلته إليه منه ومن جند حمص أربعين ألف دينار ، وكان زوج أخت الشعبي ، كما أن الشعبي كان زوج أخته أيضاً ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث ، فقتله الحجاج كما ذكرنا رحمه الله .

وقد كان الحجاج وهو مواقف لابن الأشعث بعث كمينا يأتون جيش ابن الأشعث من ورائه ، ثم تواقف الحجاج وابن الأشعث وهرب الحجاج بمن معه وترك معسكره ، فجاء ابن الأشعث فاحتاز ما في المعسكر وبات فيه ، فجاءت السرية إليهم ليلاً وقد وضعوا أسلحتهم فمالوا عليهم ميلة واحدة ، ورجع الحجاج بأصحابه فأحاطوا بهم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل من أصحاب ابن الأشعث خلق كثير وغرق خلق كثير منهم في دجلة ودجيل ، وجاء الحجاج إلى معسكرهم فقتل من وجده فيه ، فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف ، منهم جماعة من الرؤساء والأعيان ، واحتازوه بكماله ، وانطلق ابن الأشعث هارباً في ثلاثمائة فركبوا دجيلاً في السفن وعقروا دوابهم وجازوا إلى البصرة ، ثم ساروا من هنالك إلى بلاد الترك ، وكان في دخوله بلاد رتبيل ما تقدم ، ثم شرع الحجاج في تتبع أصحاب ابن الأشعث فجعل يقتلهم مثنى وفرادى ، حتى قيل إنه قتل منهم بين يديه صبراً مئة ألف وثلاثين ألفاً ، قاله النضر بن شميل عن هشام بن حسان ، منهم محمد بن سعد بن أبي وقاص ، وجماعات من السادات الأخيار ، والعلماء الأبرار ، حتى كان آخرهم سعيد بن جبير رحمهم الله ورضي عنهم كما سيأتي ذلك في موضعه .

بناء واسط

قال ابن جرير : وفي هذه السنة بنى الحجاج واسط ، وكان سبب بنائه لها أنه رأى راهباً على أتان[1] قد أجاز دجلة ، فلما مر بموضع واسط وقفت أتانه فبالت ، فنزل عنها وعمد إلى موضع بولها فاحتفره ورمى به في دجلة ، فقال الحجاج : عليَّ به ، فأُتي به فقال له : لِمَ صنعت هذا ؟ قال : إنا نجد في كتبنا أنه يبنى في هذا الموضع مسجد يعبد الله فيه ما دام في الأرض أحد يوحده . فعند ذلك اختط الحجاج مدينة واسط في ذلك المكان وبنى المسجد في ذلك الموضع . وفيها كانت غزوة عطاء بن رافع صقلية . وممن توفي فيها من الأعيان :

عبد الرحمن بن جحيرة

الخولاني المصري ، روى عن جماعة من الصحابة وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد جمع له بين القضاء والقصص وبيت المال ، وكان رزقه في العام ألف دينار ، وكان لا يدخر منها شيئاً .

---

(١) أتان : جمعها أُتُن وأُتْن : الحِمارة .

طارق بن شهاب

ابن عبد شمس الأحمسي ممن رأى النبي ﷺ وغزا في خلافة الصديق وعمر رضي الله عنهما بضعاً وأربعين غزاة ، توفي بالمدينة هذه السنة .

عبيد الله بن عدي

ابن الخيار أدرك النبي ﷺ ، وحدث عن جماعة من الصحابة عبد الله بن قيس بن مخرمة ، كان قاضي المدينة . وكان من فقهاء قريش وعلمائهم وأبوه عدي ممن قتل يوم بدر كافراً .

وتوفي بها في هذه السنة مرثد بن عبد الله أبو الخير اليزني . وفيها فقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع الأشعث ،منهم من هرب ومنهم من قتل في المعركة ، ومنهم من أسر فضرب الحجاج عنقه ، ومنهم من تتبعه الحجاج حتى قتله ، وقد سمى منهم خليفة بن خياط طائفة من الأعيان ، فمنهم مسلم بن يسار المزني ، وأبو مرانة العجلي قتل ، وعقبة بن عبد الغفار قتل ، وعقبة بن وشاح قتل ، وعبد الله بن خالد الجهضمي قتل ، وأبو الجوزاء الربعي قتل ، والنضر بن أنس ، وعمران والد أبي حمزة الضبعي ، وأبو المنهال سيار بن سلامة الرياحي ، ومالك بن دينار ، ومرة بن ذباب الهدادي وأبو نجيد الجهضمي ، وأبو سبيج الهنائي ، وسعيد بن أبي الحسن ، وأخوه الحسن البصري قال أيوب : قيل لابن الأشعث : إن أحببت أن يقتل الناس حولك كما قتلوا حول هودج عائشة يوم الجمل فأخرج الحسن معك ، فأخرجه . ومن أهل الكوفة سعيد بن جبير ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعبد الله بن شداد ، والشعبي ، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، والمعرور بن سويد ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، وأبو البختري ، وطلحة بن مصرف ، وزبيد بن الحارث اليامي ، وعطاء بن السائب . قال أيوب : فما منهم صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه ، ولا نجا أحد منهم إلا حمد الله الذي سلمه . ومن أعيان من قتل الحجاج عمران بن عصام الضبعي ، والد أبي حجزة ، كان من علماء أهل البصرة ، وكان صالحاً عابداً ، أتي به أسيراً إلى الحجاج فقال له : اشهد على نفسك بالكفر حتى أطلقك ، فقال : والله إني ما كفرت بالله منذ آمنت به ، فأمر به فضربت عنقه . عبد الرحمن بن أبي ليلى ، روى عن جماعة من الصحابة ، ولأبيه أبي ليلى صحبة ، أخذ عبد الرحمن القرآن عن علي بن أبي طالب ، حرج مع ابن الأشعث فأتي به الحجاج فضرب عنقه بين يديه صبراً .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين

قال الواقدي : فيها افتتح عبد الله بن عبد الملك المصيصة ، وفيها غزا محمد بن مروان ارمينية فقتل منهم خلقاً وصرف كنائسهم وضياعهم وتسمى سنة الحريق ، وفيها استعمل الحجاج على فارس محمد بن القاسم الثقفي ، وأمره بقتل الأكراد . وفيها ولى عبد الملك الأسكندرية

عياض بن غنم البجيني وعزل عنها عبد الملك بن أبي الكنود الذي كان قد وليها في العام الماضي . وفيها افتتح موسى بن نصير طائفة من بلاد المغرب من ذلك بلد أرومة ، وقتل من أهلها بشراً كثيراً جداً ، وأسر نحواً من خمسين ألفاً . وفيها قتل الحجاج أيضاً جماعة من أصحاب ابن الأشعث ، منهم :

أيوب بن القرية

وكان فصيحاً بليغاً واعظاً ، قتله صبراً بين يديه ، ويقال إنه ندم على قتله . وهو أيوب بن زيد ابن قيس أبو سليمان الهلالي المعروف بابن القرية . وعبد الله بن الحارث بن نوفل . وسعد بن إياس الشيباني ، وأبو غنينما الخولاني . له صحبة ورواية، سكن حمص وبها توفي وقد قارب المائة سنة . عبد الله بن قتادة ، وغير هؤلاء جماعة منهم من قتلهم الحجاج ، ومنهم من توفي . أبو زرعة الجذامي الفلسطيني ، كان ذا منزلة عند أهل الشام ، فخاف منه معاوية ففهم منه ذلك أبوزرعة فقال يا أمير المؤمنين لا تهدم ركناً بنيته ، ولا تحزن صاحباً سررته ، ولا تشمت عدواً كبته[1] ، فكف عنه معاوية .

وفيها توفي عتبة بن منذر السلمي صحابي جليل ، كان يعد في أهل الصفة . عمران بن حطان الخارجي ، كان أولاً من أهل السُّنَّة والجماعة فتزوج امرأة من الخوارج حسنة جميلة جداً فأحبها . وكان هو دميم الشكل ، فأراد أن يردها إلى السُّنَّة فأبت فارتد معها إلى مذهبها . وقد كان من الشعراء المفلقين ، وهو القائل في قتل علي وقاتله :

يا ضربة مِنْ تقيٍ ما أرادَ بها ... إلا ليبلغَ مِنْ ذي العرشِ رضوانا
إني لأذكرهُ يوماً فأحسَبهُ ... أوفَى البريةِ عندَ الله ميزانا
أَكْرِمْ بقومٍ بطونُ الطَّيرِ قَبرُهُم ... لمْ يَخْلِطوا دِينهمْ بغياً وعدوانا

وقد كان الثوري يتمثل بأبياته هذه في الزهد في الدنيا وهي قوله :ـ

أرى أشقياء الناسِ لا يسأمونها ... على أنهم فيها عُراة وجوَّعُ
أراها وإن كانتَ تُحِبُ فأنها ... سَحابةُ صيفٍ عنْ قليلٍ تقشَّعُ
كركبٍ قَضَوا حاجاتِهم وترحَّلوا ... طريقهم بادي العَلامَةِ مَهْيَعُ[2]

مات عمران بن حطان سنة أربع وثمانين . وقد رد عليه بعض العلماء في أبياته المتقدمة في قتل علي رضي الله عنه بأبيات على قافيتها ووزنها :

---

(١) كبته : صرعته .

(٢) مهيع : جمعها مَهَايع : الطريق الواسع البيِّن .

بـــل ضـربــةٌ مِنْ شقيٍ مـا أرادَ بهــا ... إلّا ليبلغَ مِنْ ذي الـعــرش خســرانــاً
إن لأذكــرهُ يــومــاً فــأحـــســبــهُ ... أشقى الـبــريــة عنــدَ الله مـيــزانــاً

روح بن زنباع الجذامي

كان من أمراء الشام وكان عبد الملك يستشيره في أموره .

وفيها كان مهلك عبد الرحمن بن الأشعث الكندي وقيل في التي بعدها فالله أعلم . وذلك أن الحجاج كتب إلى رتبيل ملك الترك الذي لجأ إليه ابن الأشعث يقـول له : والله الـذي لا إله إلا هـو لئن لم تبعث إليَّ بابن الأشعث لأبعثن إلى بـلادك ألف ألف مقاتـل ، ولأخربنهـا . فلما تحقق الوعيد من الحجـاج استشار في ذلـك بعض الأمراء فـأشار عليـه بتسليم ابن الأشعث إليه قبل أن يخرب الحجاج دياره ويأخذ عامة أمصاره ، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتل عشر سنين ، وأن لا يؤدي في كل سنـة منها إلا مـائة ألف من الخـراج ، فأجـابه الحجـاج إلى ذلك ، وقيل إن الحجاج وعده أن يطلق له خراج أرضه سبع سنين ، فعند ذلك غدر رتبيـل بابن الأشعث فقيل إنه أمر بضرب عنقه صبراً بين يديه ، وبعث برأسه إلى الحجاج ، وقيل : بل كان ابن الأشعث قـد مرض مرضـاً شـديداً فقتله وهـو بآخـر رمق ، والمشهور أنـه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيـدهم في الأصفاد وبعث بهم مـع رسل الحجـاج إليه ، فلمـا كانـوا ببعض الطريق بمكان يقال له الـرجح ، صعـد ابن الأشعث وهو مقيـد بالحـديد إلى سـطح قصر ومعـه رجل موكل به لئـلا يفر ، وألقى نفسـه من ذلك القصـر وسقط معه المـوكل بـه فماتا جميعـاً ، فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزه[1] ، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث وبعث برؤ وسهم الى الحجاج فأمر فطيف برأسه في العراق ، ثم بعثه إلى عبد الملك فطيف برأسه في الشام ، ثم بعث به إلى أخيه عبد العـزيز بمصـر فطيف بـرأسه هنـالك ، ثم دفنـوا رأسه بمصـر وجثته بالرجح ، وقد قال بعض الشعراء في ذلك :ـ

هيهـــاتَ مـوضــعَ جثـةٍ من رأسهـــا ... رأس بـمـصــرَ وجـثــةٌ بـــالــرجــحِ

وإنما ذكر ابن جرير مقتل ابن الأشعث في سنة خمس وثمانين فالله أعلم .

وعبد الرحمن هذا هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس ، ومنهم من يقـول عبد الـرحمن بن قيس بن محمـد بن الأشعث بن قيس الكندي الكـوفي ، قد روى لـه أبو داود والنسـائي عن أبيه عن جده عن ابن مسعود : حديث «إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقول مـا قال البـائع أو تشاركا » . وعنه أبو العميس ويقال إن الحـجاج قتله بعد التسعين سنة فالله أعلم . والعجب كل

---

(١) فاحتزه: فقطعه .

العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالامارة وليس من قريش ، وإنما هو كندي من اليمن ، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش ، واحتج عليهم الصديق بالحديث في ذلك ، حتى أن الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين فأبى الصديق عليهم ذلك ، ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذي دعا الى ذلك أولاً ثم رجع عنه ، كما قررنا ذلك فيما تقدم ، فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويبايعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد ؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير فإنا لله وإنا إليه راجعون .

ايوب بن القرية

وهي أمه واسم أبيه يزيد بن قيس بن زرارة بن مسلم النمري الهلالي ، كان أعرابياً أمياً ، وكان يضرب به المثل في فصاحته وبيانه وبلاغته ، صحب الحجاج ووفد على عبد الملك ، ثم بعثه رسولاً إلى ابن الأشعث فقال له ابن الأشعث : لئن لم تقم خطيباً فتخلع الحجاج لأضربن عنقك ، ففعل وأقام عنده ، فلما ظهر الحجاج استحضره وجرت له معه مقامات ومقالات في الكلام ، ثم آخر الأمر ضرب عنقه وندم بعد ذلك على ما فعل من ضرب عنقه ، ولكن ندم حيث لا ينفعه الندم . كما قيل : وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل * وقد ذكره ابن عساكر في تاريخه وابن خلكان في الوفيات وأطال ترجمته وذكر فيها أشياء حسنة ، قال : والقرية بكسر القاف وتشديد الباء وهي جدته واسمها جماعة بنت جشم قال ابن خلكان : ومن الناس من أنكر وجوده ووجود مجنون ليلى ، وابن أبي العقب صاحب الملحمة ، وهو يحيى بن عبد الله بن أبي العقب والله أعلم .

روح بن زنباع

ابن سلامة الجذامي أبو زرعة ويقال أبو زنباع الدمشقي داره بدمشق في طرف البزوريين عند دار ابن عقب صاحب الملحمة . وهو تابعي جليل ، روى عن أبيه ـ وكانت له صحبة ـ وتميم الداري ، وعبادة بن الصامت ومعاوية وكعب الأحبار وغيرهم ، وعنه جماعة منهم عبادة بن نسي . كان روح عند عبد الملك كالوزير لا يكاد يفارقه ، وكان مع أبيه مروان يوم مرج راهط ، وقد أمره يزيد بن معاوية على جند فلسطين ، وزعم مسلم بن الحجاج أن روح بن زنباع كانت له صحبة ، ولم يتابع مسلم على هذا القول ، والصحيح أنه تابعي وليس بصحابي ، ومن مآثره التي تفرد بها أنه كان كلما خرج من الحمام يعتق نسمة ، قال ابن زيد : مات سنة أربع وثمانين بالاردن ، وزعم بعضهم أنه بقي إلى أيام هشام بن عبد الملك ، وقد حج مرة فنزل على ماء بين مكة والمدينة فأمر فأصلحت له أطعمة مختلفة الألوان ، ثم وضعت بين يديه ،

فبينما هو يأكل إذ جاء راع من الرعاة يرد الماء ، فدعاه روح بن زنباع إلى الأكل من ذلك الطعام ، فجاء الراعي فنظر إلى طعامه وقال : إني صائم ، فقال له روح : في مثل هذا اليوم الطويل الشديد الحر تصوم يا راعي ؟ فقال الراعي : أفأغبن أيامي من أجل طعامك ؟ ثم إن الراعي ارتاد لنفسه مكاناً فنزله وترك روح بن زنباع ، فقال روح بن زنباع :ـ

لقد ضننت(١) بأيامكَ يا راعي إذْ جادَ بها روحُ بن زنباعِ

ثم إن روحاً بكى طويلاً وأمر بتلك الأطعمة فرفعت ، وقال : انظروا هل تجدون لها آكلاً من هذه الأعراب أو الرعاة ؟ ثم سار من ذلك المكان وقد أخذ الراعي بمجامع قلبه وصغرت إليه نفسه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

فيها كما ذكر ابن جرير كان مقتل عبد الرحمن بن الأشعث فالله أعلم ، وفيها عزل الحجاج عن إمرة خراسان يزيد بن المهلب وولى عليها أخاه المفضل بن المهلب ، وكان سبب ذلك أن الحجاج وفد مرة على عبد الملك فلما انصرف مر بدير فقيل له إن فيه شيخاً كبيراً من أهل الكتاب عالماً ، فدعى فقال : يا شيخ هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه وما نحن فيه ؟ قال : نعم . قال له فما تجدون صفة أمير المؤمنين ؟ قال : نجده ملكاً أقرع ، من يقم في سبيله يصرع ، قال : ثم من ؟ قال : ثم رجل يقال له الوليد ، قال : ثم ماذا ؟ قال ثم رجل اسمه اسم نبي يفتح به على الناس ، قال : فتعرفني له قال : قد أخبرت بك . قال : أفتعرف مآلي ؟ قال : نعم ! قال : فمن يلي العراق بعدي؟ قال رجل يقال له يزيد ، قال أفي حياتي أو بعد موتي ؟ قال لا أدري ، قال : أفتعرف صفته ؟ قال يغدر غدرة لا أعرف غيرها قال : فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب ، وسار سبعا وهو وجل من كلام الشيخ ، ثم بعث الى عبد الملك يستعفيه من ولاية العراق ليعلم مكانته عنده ؟ فجاء الكتاب بالتقريع والتأنيب والتوبيخ والأمر بالثبات والاستمرار على ما هو عليه . ثم إن الحجاج جلس يوماً مفكراً واستدعى بعبيد بن موهب فدخل عليه وهو ينكت في الأرض فرفع رأسه إليه فقال : ويحك يا عبيد ، إن أهل الكتاب يذكرون أن ما تحت يدي سيليه رجل يقال له يزيد ، وقد تذكرت يزيد بن أبي كبشة ويزيد بن حصين بن نمير ويزيد بن دينار وليسوا هناك ، وما هو إلا يزيد بن المهلب . فقال عبيد : لقد شرفهم وعظمت ولايتهم وإن لهم لقدراً وجلداً وحظاً فأخلق به . فأجمع رأي الحجاج على عزل يزيد بن المهلب ، فكتب الى عبد الملك يذمه ويخوفه غدره ويخبره بما أخبره به ذلك الشيخ الكتابي ، فجاء البريد بكتاب فيه قد أكثرت في شأن يزيد فسم رجلاً

---

(١) ضننتَ : بخلت .

يصلح لخراسان ، فوقع اختيار الحجاج على المفضل بن المهلب فولاه قليلاً تسعة أشهر ، فغزا بلاد عبس وغيرها وغنم مغانم كثيرة ، وامتدحه الشعراء ثم عزله بقتيبة بن مسلم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل موسى بن عبد الله بن خازم بترمذ ، ثم ذكر سبب ذلك وملخصه أنه بعد مقتل أبيه لم يبق بيده بلد يلجأ إليه بمن معه من أصحابه ، فجعل كلما اقترب من بلدة خرج إليه ملكها فقاتله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى نزل قريباً من ترمذ وكان ملكها فيه ضعف ، فجعل يهادنه ويبعث إليه بالألطاف والتحف ، حتى جعل يتصيد هو وهو ، ثم عنَّ للملك فعمل له طعاماً وبعث إلى موسى بن عبد الله بن خازم أن ائتني في مائة من أصحابك ، فاختار موسى من جيشه مائة من شجعانهم ، ثم دخل البلد فلما فرغت الضيافة اضطجع موسى في دار الملك وقال : والله لا أقوم من هنا حتى يكون هذا المنزل منزلي أو يكون قبري : فثار أهل القصر إليه فحاجف[1] عنه أصحابه ، ثم وقعت الحرب بينهم وبين أهل ترمذ ، فاقتتلوا فقتل من أهل ترمذ خلق كثير وهرب بقيتهم ، واستدعى موسى ببقية جيشه إليه واستحوذ موسى على البلد فحصنها ومنعها من الأعداء ، وخرج منها ملكها هارباً فلجأ إلى إخوانه من الأتراك فاستنصرهم فقالوا له : هؤلاء قوم نحو من مائة رجل أخرجوك من بلدك ، لا طاقة لنا بقتال هؤلاء . ثم ذهب ملك ترمذ الى طائفة أخرى من الترك فاستصرخهم فبعثوا معه قصاداً نحو موسي ليسمعوا كلامه ، فلما أحس بقدومهم - وكان ذلك في شدة الحر - أمر أصحابه أن يؤججوا ناراً ويلبسوا ثياب الشتاء ويدنوا أيديهم من النار كأنهم يصطلون[2] بها ، فلما وصلت إليهم الرسل رأوا أصحابه وما يصنعون في شدة الحر فقالوا لهم : ما هذا الذي نراكم تفعلون ؟ فقالوا لهم : إنا نجد البرد في الصيف والكرب في الشتاء ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : ما هؤلاء بشر ، ما هؤلاء إلا جن ثم عادوا إلى ملكهم فأخبروه بما رأوا فقالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء . ثم ذهب صاحب ترمذ فاستجاش[3] بطائفة أخرى فجاؤوا فحاصرهم بترمذ وجاء الخزاعي فحاصرهم أيضاً ، فجعل يقاتل الخزاعي أول النهار ويقاتل آخره العجم ، ثم إن موسى بيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة وأفزع ذلك عمر الخزاعي فصالحه وكان معه ، فدخل يوماً عليه وليس عنده أحد ، وليس يرى معه سلاحاً فقال له على وجه النصح أصلح الله الأمير ، إن مثلك لا ينبغي أن يكون بلا سلاح ، فقال : إن عندي سلاحاً ، ثم رفع صدر فراشه فإذا سيفه منتضى فأخذه عمر فضربه به حتى برد وخرج هارباً ، ثم تفرق أصحاب موسى بن عبد الله بن خازم .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة عزم عبد الملك على عزل أخيه عبد العزيز بن مروان عن

---

(١) فحاجف: عارض ودافع .

(٢) يصطلون : بالنار يستدفئون .

(٣) فاستجاش : استجار .

إمرة الديار المصرية ، وحسن له ذلك روح بن زنباع الجذامي ، فبينما هما في ذلك إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب في الليل ، وكان لا يحجب عنه في أي ساعة جاء من ليل أو نهار ، فعزاه في أخيه عبد العزيز فندم على ما كان منه من العزم على عزله ، وإنما حمله على إرادة عزله أنه أراد أن يعهد بالأمر من بعده لأولاده الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام ، وذلك عن رأي الحجاج وترتيبه ذلك لعبد الملك ، وكان أبوه مروان عهد بالأمر إلى عبد الملك ثم من بعده إلى عبد العزيز ، فأراد عبد الملك أن ينحيه عن الأمرة من بعده بالكلية ، ويجعل الأمر في أولاده وعقبه ، وأن تكون الخلافة باقية فيهم والله أعلم .

عبد العزيز بن مروان

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أبو الأصبغ القرشي الأموي ولد بالمدينة ثم دخل الشام مع أبيه مروان ، وكان ولي عهده من بعد أخيه عبد الملك ، وولاه أبوه إمرة الديار المصرية في سنة خمس وستين فكان والياً عليها إلى هذه السنة ، وشهد قتل سعيد بن عمرو بن العاص كما قدمنا ، وكانت له دار بدمشق وهي دار الصوفية اليوم ، المعروفة بالخانقاه السميساطية ثم كانت من بعده لولده عمر بن عبد العزيز ، ثم تنقلت إلى أن صارت خانقاها للصوفية ، وقد روى عبد العزيز بن مروان الحديث عن أبيه وعبد الله بن الزبير وعقبة بن عامر وأبي هريرة ، وحديثه عنه في مسند أحمد وسنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال : « شر ما في الرجل جبن خالع وشح[1] هالع » . وعنه ابنه عمر والزهري وعلي بن رباح وجماعة . قال محمد بن سعد : كان ثقة قليل الحديث ، وقال غيره : كان يلحن في الحديث وفي كلامه ، ثم تعلم العربية فأتقنها وأحسنها فكان من أفصح الناس ، وكان سبب ذلك أنه دخل عليه رجل يشكو ختنه ـ وهو زوج ابنته ـ فقال له عبد العزيز : من خَتَنَكَ ؟ فقال الرجل : ختني الخاتن الذي يختن الناس ، فقال لكاتبه ويحك بماذا أجابني ؟ فقال الكاتب : يا أمير المؤمنين كان ينبغي أن تقول من خِتنُك ، فآلى على نفسه أن لا يخرج من منزله حتى يتعلم العربية ، فمكث جمعة واحدة فتعلمها فخرج وهو من أفصح الناس ، وكان بعد ذلك يجزل عطاء من يعرب كلامه وينقص عطاء من يلحن فيه ، فتسارع الناس في زمانه الى تعلم العربية . قال عبد العزيز يوماً إلى رجل : ممن أنت ؟ قال : من بنو عبد الدار ، فقال : تجدها في جائزتك ، فنقصت جائزته مائة دينار :

وقال أبو يعلى الموصلي : حدّثنا مجاهد بن موسى ثنا إسحاق بن يوسف أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم قال : كتب عبد العزيز بن مروان إلى عبد الله بن عمر :

---

(١) شحٌ : بُخلٌ .

ارفع إليّ حاجتك . فكتب إليه ابن عمر: إن رسول الله ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول». ولست أسألك شيئاً ولا أرد رزقاً رزقنيه الله عز وجل منك . وقال ابن وهب: حدّثني يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس قال: بعثني عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلى ابن عمر قال: فجئت فدفعت إليه الكتاب فقال: أين المال ؟ فقلت: لا أستطيعه الليلة حتى أصبح ، قال: لا والله لا يبيت ابن عمر الليلة وله ألف دينار، قال: فدفع اليَّ الكتاب حتى جئته بها ففرقها رضي الله عنه .

ومن كلامه رحمه الله : عجباً لمؤمن يؤمن ويوقن أن الله يرزقه ويخلف عليه ، كيف يحبس مالاً عن عظيم أجر وحسن ثناء . ولما حضرته الوفاة أحضر له مالٌ يحصيه وإذا هو ثلاثمائة مدٍّ من ذهب ، فقال : والله لوددت أنه بعر خائل[1] بنجد ، وقال : والله لوددت أني لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولوددت أن أكون هذا الماء الجاري ، أو نباتة بأرض الحجاز ، وقال لهم : ائتوني بكفني الذي تكفنوني فيه ، فجعل يقول : أف لك ما أقصر طويلك ، وأقل كثيرك .

قال يعقوب بن سفيان عن ابن بكير عن الليث بن سعد قال : كانت وفاته ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين ، قال ابن عساكر : وهذا وهم من يعقوب بن سفيان والصواب سنة خمس وثمانين ، فانه مات قبل عبد الملك أخيه ، ومات عبد الملك بعده بسنة سنة ست وثمانين . وقد كان عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء كريماً جواداً ممدحاً ، وهو والد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، وقد اكتسى عمر أخلاق أبيه وزاد عليه بأمور كثيرة . وكان لعبد العزيز من الأولاد غير عمر ، عاصم وأبو بكر ومحمد والأصبغ ـ مات قبله بقليل فحزن عليه حزناً كثيراً ومرض بعده ومات . وسهيل وكان له عدة بنات ، أم محمد وسهيل وأم عثمان وأم الحكم وأم البنين وهن من أمهات شتى ، وله من الأولاد غير هؤلاء ، مات بالمدينة التي بناها على مرحلة من مصر وحمل إلى مصر في النيل ودفن بها ، وقد ترك عبد العزيز من الأموال والإناث والدواب من الخيل والبغال والإبل وغير ذلك ما يعجز عنه الوصف ، من جملة ذلك ثلاثمائة مدٍّ من ذهب غير الورق ، مع جوده وكرمه وبذله وعطاياه الجزيلة ، فإنه كان من أعطى الناس للجزيل رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أخيه عبد العزيز وهو بالديار المصرية يسأله أن ينزل عن العهد الذي له من بعده لولده الوليد أو يكون ولي العهد من بعده، فانه أعز الخلق عليَّ . فكتب إليه عبد العزيز يقول : إني أرى في أبي بكر بن عبد العزيز ما ترى في الوليد . فكتب إليه عبد الملك يأمره . بحمل خراج مصر ـ وقد كان عبد العزيز لا يحمل إليه

---

(١) خائل: يقال : هو خائل مال أي راعيه ومصلحه .

شيئاً من الخراج ولا غيره ، وإنما كانت بلاد مصر بكمالها وبلاد المغرب وغير ذلك كلها لعبد العزيز ، مغانمها وخراجها وحملها ـ فكتب عبد العزيز الى عبد الملك : إني وإياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سناً لا يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً ، وإني لا أدري ولا تدري أينا يأتيه الموت أولاً ، فان رأيت أن لا تعتب عليَّ بقية عمري فافعل ، فرق له عبد الملك وكتب إليه : لعمري لا أعتب عليك بقية عمرك ، وقال عبد الملك لابنه الوليد : إن يرد الله أن يعطيكها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك عنك ، ثم قال لابنه الوليد وسليمان : هل فارقتما محرماً أو حراماً قط ؟ فقالا : لا والله ، فقال : الله أكبر ، نلتماها ورب الكعبة . ويقال إن عبد الملك لما امتنع أخوه من إجابته إلى ما طلب منه في بيعته لولده الوليد دعا عيه وقال : اللهم إنه قطعني فاقطعه ، فمات في هذه السنة كما ذكرنا ، فلما جاءه الخبر بموت أخيه عبد العزيز ليلاً حزن وبكى وبكى أهله بكاء كثيراً على عبد العزيز ، ولكن سره ذلك من جهة ابنيهُ فانه نال فيها ما كان يؤمله لهما من ولايته إياهما بعده . وقد كان الحجاج بعث إلى عبد الملك يحسن له ولاية الوليد ويزينها له من بعده ، وأوفد إليه وفداً في ذلك عليهم عمران بن عصام العنري ، فلما دخلوا عليه قام عمران خطيباً فتكلم وتكلم الوفد في ذلك وحثوا عبد الملك على ذلك وأنشد عمران بن عصام في ذلك :

أميرَ المؤمنينَ إليكَ نَهدي ... على النأي التحيةَ والسلاما
أجبني في بنيكَ يكن جوابي ... لهمْ عاديةً ولنا قواماً
فلوا أنَّ الوليدَ أطاعَ فيهِ ... جعلت لهُ الخلافةَ والذماما
شبيهكَ حولَ قبتهِ قريشٌ ... بهِ يستمطرُ الناسُ الغماما
ومثلكَ في التقى لم يصْبُ يوماً ... لَدُنْ خلع القلائد[1] والتماما[2]
فإن تؤثر أخاكَ بها فأنا ... وجدّكَ لا نطيقُ لها اتهاما
ولكنا نحاذرُ من بنيهِ ... بني العلاتِ مأثرةً سماما
ونخشى إن جعلت الملكَ فيهم ... سحاباً أن تعودَ لهم جهاما
فلا يكُ ما حلبتَ غداً لقومٍ ... وبعدَ غدٍ بنوكَ هُمَ العباما
فاقسمُ لو تخطّاني عصامٌ ... بذلكَ ما عذرت بهِ عصاما
ولوْ أني حبوتُ أخاً بفضلٍ ... أريد بهِ المقالةَ والمقاما
لعقّبَ في بنيَّ على بنيهِ ... كذلكَ أوْ لرمتَ لهُ مراما
فمن يكُ في أقاربهِ صدوعٌ ... فصدعُ الملكِ أبطؤهُ التئاما

---

(١) القلائد : مفردها القِلّادة : ما جُعِل في العُنق من الحِليِّ .

(٢) التماما : وصوابها التمائماوخففت الهمزة للضرورة الشعرية . والتميمة خُرزَة أو ما يشبهها كان الاعراب يضعونها على أولادهم للوقاية من العين ودفع الأرواح .

قال : فهاجه ذلك على أن كتب لأخيه يستنزله عن الخلافة للوليد فأبى عليه ، وقدر الله سبحانه موت عبد العزيز قبل موت عبد الملك بعام واحد ، فتمكن حينئذ مما أراد من الوليد وسليمان والله سبحانه وتعالى أعلم .

بيعة عبد الملك لولده الوليد ثم من بعده لولده سليمان

وكان ذلك في هذه السنة بعد موت عبد العزيز بن مروان ، بويع له بدمشق ثم في سائر الأقاليم ثم لسليمان من بعده ، ثم لما انتهت البيعة الى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع في حياة عبد الملك لأحد ، فأمر به هشام بن إسماعيل نائب المدينة فضربه ستين سوطاً ، وألبسه ثياباً من شعر وأركبه جملاً وطاف به في المدينة ، ثم أمر به فذهبوا به إلى ثنية ذباب - وهي الثنية التي كانوا يصلون عندها ويقيلون - فلما وصلوا إليها ردوه إلى المدينة فأودعوه السجن ، فقال لهم : والله لو أعلم أنكم لا تقتلونني لم ألبس هذا الثياب . ثم كتب هشام بن إسماعيل المخزومي إلى عبد الملك يعلمه بمخالفة سعيد في ذلك ، فكتب إليه يعنفه في ذلك ويأمره بإخراجه ويقول له : إن سعيداً كان أحق منك بصلة الرحم مما فعلت به ، وإنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف ، ويروى أنه قال له : ما ينبغي إلا أن يبايع فإن لم يبايع ضربت عنقه أو خليت سبيله . وذكر الواقدي أن سعيداً لما جاءت بيعة الوليد امتنع من البيعة فضربه نائبها في ذلك الوقت - وهو جابر بن الأسود بن عوف - ستين سوطاً أيضاً وسجنه فالله أعلم .

قال أبو مخنف وأبو معشر والواقدي : وحج بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل المخزومي نائب المدينة ، وكان على العراق والمشرق بكماله الحجاج ، قال شيخنا الحافظ الذهبي : وتوفي في هذه السنة أبان بن عثمان بن عفان أمير المدينة ، كان من فقهاء المدينة العشرة ، قاله يحيى بن القطان ، وقال محمد بن سعد كان ثقة وكان به صمم[1] ووضح كثير[2] ، وأصابه الفالج قبل أن يموت ، عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عمرو بن حريث . عمرو بن سلمة . واثلة بن الأسقع . شهد واثلة تبوك ثم شهد فتح دمشق ونزلها ، ومسجده بها عند حبس باب الصغير من القبلة . قلت : وقد احترق مسجده في فتنة تمرلنك ولم يبق منه إلا رسومه ، وعلى بابه من الشرق قناة ماء . خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ، كان أعلم قريش بفنون العلم ، وله يد طولى في الطب ، وكلام كثير في الكيمياء ، وكان قد استفاد ذلك من راهب اسمه مريانش ، وكان خالد فصيحاً بليغاً شاعراً منطقياً كأبيه ، دخل يوماً على عبد الملك بن مروان بحضرة الحكم بن أبي العاص ، فشكى إليه

---

(١) صمم : طرش .

(٢) وضح : الوضح : البرص .

أن ابنه الوليد يحتقر أخاه عبد الله بن يزيد ، فقال عبد الملك : ﴿ إنَّ الملوكَ إذا دَخَلُوا قريةً أفْسدُوها وَجَعَلوا أَعِزَّة أَهْلِها أَذِلَّة ﴾[1] فقال له خالد : ﴿ وإذا أردنَا أنْ نُهلكَ قريةً أمرنَا مُتْرفيها فَفَسقُوا فيها فحَقَّ عَلَيها القَوْلَ فدمَّرْنَاهَا تَدْميراً ﴾[2] فقال عبد الملك : والله لقد دخل عليَّ أخوك عبد الله فإذا هو لا يقيم اللحن ، فقال خالد : والوليد لا يقيم اللحن ، فقال عبد الملك : إن أخاه سليمان لا يلحن ، فقال خالد : وأنا أخو عبد الله لا ألحن ، فقال الوليد ـ وكان حاضراً ـ لخالد بن يزيد : اسكت ، فوالله ما تعد في العير ولا في النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين ثم أقبل خالد على الوليد فقال : ويحك وما هو العير والنفير غير جدي أبي سفيان صاحب العير ، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وجبيلات والطائف، ورحم الله عثمان ، لقلنا صدقت ـ يعني أن الحكم كان منفياً بالطائف يرعى غنماً و يأوي إلى جبلة الكرم حتى آواه عثمان بن عفان حين ولي ـ فسكت الوليد وأبوه ولم يحيرا جواباً ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ست وثمانين

ففيها غزا قتيبة بن مسلم نائب الحجاج على مرو وخراسان ، بلاداً كثيرة من أرض الترك وغيرهم من الكفار ، وسبى وغنم وسلم وتسلم قلاعاً وحصوناً وممالك ، ثم قفل فسبق الجيش ، فكتب إليه الحجاج يلومه على ذلك ويقول له : إذا كنت قاصداً بلاد العدو فكن في مقدمة الجيش ، وإذا قفلت راجعاً فكن في ساقة الجيش ـ يعني لتكون ردءاً لهم من أن ينالهم أحد من العدو وغيرهم بكيد ـ وهذا رأي حسن وعليه جاءت السُّنَّة ، وكان في السبي امرأة برمك ـ والد خالد بن برمك ـ فأعطاها قتيبة أخاه عبد الله بن مسلم فوطئها فحملت منه ، ثم إن قتيبة منَّ على السبي وردَّتْ تلك المرأة على زوجها وهي حبلى من عبد الله بن مسلم ، وكان ولدها عندهم حتى أسلموا فقدموا به معهم أيام بني العباس كما سيأتي . ولما رجع قتيبة إلى خراسان تلقاه دهاقين[3] بلغار بهدايا عظمة ، ومفتاح من ذهب .

وفيها كان طاعون بالشام والبصرة وواسط ويسمى طاعون الفتيات ، لأنه أول ما بدأ بالنساء فسُمِّيَ بذلك . وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل وسبى وغنم وسلم وافتتح حصن بولق وحصن الأخرم من أرض الروم ، وفيها عقد عبد الملك لابنه عبد الله على مصر وذلك بعد موت أخيه عبد العزيز فدخلها في جمادى الآخرة ، وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة . وفيها هلك ملك الروم الأخرم لورى لا رحمه الله . وفيها حبس الحجاج يزيد بن المهلب . وحج

---

(١) سورة النمل ، الآية/ ٣٤ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية / ١٦ .

(٣) دهاقين : مفردها دُهقان رئيس الإقليم .

بالناس فيها هشام بن إسماعيل المخزومي . وفي هذه السنة توفي أبو أمامة الباهلي وعبد الله بن أبي أوفى ، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي في قول ، شهد فتح مصر وسكنها وهو آخر من مات من الصحابة بمصر . وفيها في شوالها توفي أمير المؤمنين .

عبد الملك بن مروان والد الخلفاء الأمويين

وهو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبو الوليد الأموي أمير المؤمنين وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية . سمع عثمان بن عفان ، وشهد الدارمع أبيه وهو ابن عشر سنين ، وهو أول من سار بالناس في بلاد الروم سنة اثنتين وأربعين ، وكان أميراً على أهل المدينة ، وله ست عشرة سنة ، ولاه إياها معاوية ، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبريرة مولاة عائشة . وروى عنه جماعة منهم خالد بن معدان وعروة والزهري وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجرير بن عثمان . ذكر عن محمد بن سيرين أن أباه كان قد سماه القاسم وكان يكنى بأبي القاسم ، ثم غير اسمه فسماه عبد الملك ، قال ابن أبي خيثمة عن مصعب بن الزبير : وكان أول من سُمِّيَ في الإسلام بعبد الملك ، قال ابن أبي خيثمة : وأول من سُمِّيَ في الإسلام بأحمد والد الخليل بن أحمد العروضي . وبويع له بالخلافة في سنة خمس وستين في حياة أبيه في خلافة ابن الزبير ، وبقي على الشام ومصر مدة سبع سنين ، وابن الزبير على باقي البلاد ، ثم استقل بالخلافة على سائر البلاد والأقاليم بعد مقتل ابن الزبير ، وذلك في سنة ثلاث وسبعين إلى هذه السنة كما ذكرنا ذلك ، وكان مولده ومولد يزيد بن معاوية في سنة ست وعشرين ، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالين للقرآن ، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر . وكانت أسنانه مشبكة بالذهب ، وكان أفوه مفتوح الفم ، فربما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب ، ولهذا كان يقال له أبو الذباب . وكان أبيض ربعة ليس بالنحيف ولا البادن ، مقرون الحاجبين أشهل[1] كبير العينين دقيق الأنف مشرق الوجه أبيض الرأس واللحية حسن الوجه لم يخضب ، ويقال إنه خضب بعد . وقد قال نافع : لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان ، وقال الأعمش عن أبي الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة بن ذويب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الامارة . وعن ابن عمر أنه قال : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً ـ يعني عبد الملك ـ ورآه يوماً وقد ذكر اختلاف الناس ، فقال : لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه ، وقال عبد

---

(١) أشهل : كانت في عينه شُهْلَة أي يخالط سوادها زرقة .

الملك : كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لي يوماً : يا عبد الملك إن فيك خصالاً ، وإنك لجدير أن تلي أمر هذه الأمة ، فاحذر الدماء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق » . وقد أثنى عليه قبل الولاية معاوية وعمرو بن العاص في قصة طويلة ،

وقال سعيد بن داود الزبيري عن مالك عن يحيى بن سعيد بن داود الزبيري قال : كان أول من صلى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه ، فقال سعيد بن المسيب : ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكر في أمر الله والورع عن محارم الله . وقال الشعبي : ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني منه ، ولا شعراً إلا زادني فيه . وذكر خليفة بن خياط أن معاوية كتب إلى مروان وهو نائبه على المدينة سنة خمسين أن أبعث ابنك عبد الملك على بعث المدينة إلى بلاد المغرب مع معاوية بن خديج ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً . ولم يزل عبد الملك مقيماً بالمدينة حتى كانت وقعة الحرة ، واستولى ابن الزبير على بلاد الحجاز ، وأجلى بني أمية من هنالك ، فقدم مع أبيه الشام ، ثم لما صارت الامارة مع أبيه وبايعه أهل الشام كما تقدم أقام في الامارة تسعة أشهر ثم عهد إليه بالامارة من بعده ، فاستقل عبد الملك بالخلافة في مستهل رمضان أو ربيع الأول من سنة خمس وستين ، واجتمع الناس عليه بعد مقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين في جمادى الأولى إلى هذه السنة .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي : لما سلم على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف فأطبقه وقال : هذا فراق بيني وبينك . وقال أبو الطفيل : صنع لعبد الملك مجلس توسع فيه ، وقد كان بنى له فيه قبة قبل ذلك ، فدخله وقال : لقد كان حثمة الأحوازي ـ يعني عمر بن الخطاب ـ يرى أن هذا عليه حرام ، وقيل إنه لما وضع المصحف من حجره قال : هذا آخر العهد منك . وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء ، وكان حازماً فهماً فطناً سائساً لأمور الدنيا ، لا يكل أمر دنياه إلى غيره وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، وأبوها معاوية هو الذي جدع أنف حمزة عم النبي ﷺ يوم أحد ، وقال سعيد بن عبد العزيز : لما خرج عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير خرج معه يزيد بن الأسود الجرشي ، فلما التقوا قال : اللهم احجز بين هذين الجبلين ، وول الأمر أحبهما إليك . فظفر عبد الملك ـ وقد كان مصعب من أعز الناس على عبد الملك ـ وقد ذكرنا كيفية قتله مصعباً . وقال سعيد بن عبد العزيز : لما بويع لعبد الملك بالخلافة كتب إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن عمر إلى عبد الملك أمير المؤمنين! سلام عليك فإني أحمد ليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإنك راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته ﴿ اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ

ليجمعنَّكُمْ إلى يوم القِيَامةِ لاَ رَيْبَ فيهِ وَمَنْ أَصْدَقَ من الله حَدِيثاً ﴾ [1] لا أحد والسلام . وبعث به مع سلام فوجدوا عليه إذ قدم إسمه على اسم أمير المؤمنين ، ثم نظروا في كتبه إلى معاوية فوجدوها كذلك ، فاحتملوا ذلك منه .

وقال الواقدي : حدثني ابن أبي ميسرة عن أبي موسى الخياط عن أبي كعب قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول : يا أهل المدينة أنا أحق الناس أن يلزم الأمر الأول ، وقد سالت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ولا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن ، فالزموا ما في مصحفكم الذي حملكم عليه الامام المظلوم ، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها إمامكم المظلوم رحمه الله ، فإنه قد استشار في ذلك زيد بن ثابت ونعم المشير كان للإسلام رحمه الله ، فأحكما ما أحكما ، واستقصيا ما شذ عنهما . وقال ابن جريج عن أبيه : حج علينا عبد الملك سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين ، فخطبنا فقال : أما بعد فإنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون من المال ويوكلون ، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا الخليفة المأبون[2] ـ يعني يزيد بن معاوية ـ أيها الناس إنا نحتمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر ، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه ، قرابته وابنه ، قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا ، وإن الجامعة التي خلعها من عنقه عندي ، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها في رأس أحد إلا أخرجها الصعداء ، فليبلغ الشاهد الغائب . وقال الأصمعي : ثنا عباد بن سلم بن عثمان بن زياد عن أبيه عن جده . قال : ركب عبد الملك بن مروان بكراً[3] فأنشأ قائده يقول :

يا أيها البكرُ الذي أراكا ... عليكَ سهلُ الأرضِ في ممشاكا
ويحكَ هل تعلمَ من علاكا ... خليفةُ اللّهِ الذي امتطاكا
لم يحبُ بكراً مثلَ ما حباكا

فلما سمعه عبد الملك قال : أيها يا هناه ، قد أمرت لك بعشرة آلاف . وقال الأصمعي : خطب عبد الملك فحصر فقال : إن اللسان بضعة من الإنسان ، وإنا نسكت حصراً ولا ننطق هذراً ، ونحن أمراء الكلام ، فينا رسخت عروقه ، وعلينا تدلت أغصانه ، وبعد مقامنا هذا مقام ، وبعد عينا هذا مقال ، وبعد يومنا هذا أيام ، يعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب . قال الأصمعي : قيل لعبد الملك أسرع إليك الشيب ، فقال : وكيف لا وأنا

---

(١) سورة النساء ، الآية / ٨٦ .
(٢) المأبون : المرذول والمنقوص
(٣) البَكْر : الفتيُّ من الإبل .

أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين ؟ وقال غيره قيل لعبد الملك : أسرع إليك الشيب ، فقال : وتنسى ارتقاء المنبر ومخافة اللحن ؟ ولحن رجل عند عبد الملك - يعني أسقط من كلامه ألفاً - فقال له عبد الملك زد ألف ، فقال الرجل : وأنت فزد ألفاً ، وقال الزهري : سمعت عبد الملك يقول في خطبته : إن العلم سيقبض قبضاً سريعاً ، فمن كان عنده علم فليظهره غير غال فيه ولا جاف عنه ، وروى ابن أبي الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره في سفره : إذا رفعت له شجرة ، سبحوا بنا حتى نأتي تلك الشجرة ، كبروا بنا حتى نأتي تلك الحجرة ، ونحو ذلك .

وروى البيهقي أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها ؛ فقيل له في ذلك فقال : إنه كان عليه اسم الله عز وجل . وقال غير واحد : كان عبد الملك إذا جلس للقضاء بين الناس يقوم السيافون على رأسه بالسيف فينشد ، وقال بعضهم : يأمر من ينشد فيقول :

إنــا إذا نــالـت دواعـي الـهـوى	وانـصـتَ الـسـامـعَ لـلقـائـلِ
واصـطرعَ الـنـاسُ بـألـبـابـهـم	نقضي بحكمٍ عـادلٍ فـاصـلِ
لا نـجـعـلَ الـبـاطـلَ حـقـاً ولا	نـلفظُ دونَ الـحـقِ بـالـبـاطـلِ
نـخـافُ أن تـسـفـهُ أحـلامـنـا	فنجهـلُ الحقَ مـعَ الجـاهـلِ

وقال الأعمش : أخبرني محمد بن الزبير أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول في كتابه : لو أن رجلاً خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصارى أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم ، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة ، ولعرفوا له ذلك ، ولو أن رجلاً خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا ، وإني خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ورأيته وأكلتُ معه ، ودخلتُ وخرجتُ وجاهدتُ معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضربي وفعل وفعل ، قال : أخبرني من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكي وبلغ به الغضب ما شاء الله ، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ ، فجاء إلى الحجاج فقرأه فتغير ثم قال إلى حامل الكتاب : انطلق بنا إليه نترضّاه . وقال أبو بكر بن دريد : كتب عبد الملك إلى الحجاج في أيام ابن الأشعث : إنك أعز ما تكون بالله أحوج ما تكون إليه ، وأذل ما تكون للمخلوق أحوج ما تكون إليهم ، وإذا عززت بالله فاعف له ، فإنك به تعزو وإليه ترجع . قال بعضهم : سأل رجل من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف ، فلما خلا به وأراد الرجل أن يتكلم قال له عبد الملك : احذر في كلامك ثلاثاً ، إياك أن تمدحني فإني أعلم بنفسي منك ، أو تكذبني فإنه لا رأي لكذوب ، أو تسعى إليَّ بأحد من الرعية فإنهم إلى عدلي وعفوي أقرب منهم إلى جوري وظلمي ، وإن شئت أقلتك . فقال الرجل : أقلني

فأقاله . وكذا كان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق : اعفني من أربع وقل ما شئت ، لا تطرني ، ولا تجبني فيما لا أسألك عنه ،ولا تكذبني ،ولا تحملني على الرعية فإنهم إلى رأفتي ومعدلتي أحوج . وقال الأصمعي عن أبيه قال : أتى عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال : اضربوا عنقه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك ، فقال : وما جزاؤك ؟ فقال : والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك ، وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم ، وقد بان لك صحة ما ادعيت ، وكنت عليك خيراً من مائة ألف معك تنصحك ، لقد كنت مع فلان فكسر وهزم وتفرق جمعه ، وكنت مع فلان فقتل ، وكنت مع فلان فهزم ـ حتى عد جماعة من الأمراء ـ فضحك وخلى سبيله . وقيل لعبد الملك : أي الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وترك النصرة عن قوة . وقال أيضاً لا طمأنينة قبل الخبرة ، فإن الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم . وقال : خير المال ما أفاد حمداً ودفع ذماً ، ولا يقولن أحدكم أبداً بمن تعول ، فإن الخلق كلهم عيال الله ، وينبغي أن يحمل هذا على غير ما ثبت به الحديث . وقال المدائني : قال عبد الملك لمؤدب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ـ : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فإنهم اسوأ الناس رغبة في الخير وأقلهم أدباً ، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضاً ، ويمصوا الماء مصاً ، ولا يعبوا عبا ، وإذا احتجت أن تتناولهم فتناولهم بأدب فليكن ذلك في سر لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهونوا عليهم .

وقال الهيثم بن عدي : أذن عبد الملك للناس في الدخول عليه إذناً خاصاً ، فدخل شيخ رث الهيأة لم يأبه له الحرس ، فألقى بين يدي عبد الملك صحيفة وخرج فلم يدر أين ذهب ، وإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا أيها الإنسان إن الله قد جعلك بينه وبين عباده فاحكم بينهم : ﴿ بالحق و لاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[1] . ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[2] . ﴿ ذلك يومٌ مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾[3] . ﴿ ومَا نؤخِّرهُ إلا لأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾[4] . إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك ، ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾[5] . وإني أحذرك يوم ينادي المنادى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾[6]. ﴿ ألا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالمينَ﴾ [7].قال فتغير وجه عبد

(١) سورة ص ، الآية/ ٢٦ .
(٢) سورة المطففين ، الآية/ ٤ ـ ٦ .
(٣) سورة هود ، الآية/ ١٠٤ .
(٤) سورة هود ، الآية/ ١٠٥ .
(٥) سورة النمل ، الآية / ٥٢ .
(٦) سورة الصافات ، الآية / ٢٢ .
(٧) سورة هود ، الآية / ١٨ .

الملك فدخل دار حرمه ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أياماً . وكتب زر بن حبيش إلى عبد الملك كتاباً وفي آخره : ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك فأنت أعلم بنفسك واذكر ما تكلم به الأولون :

إذا الرجالَ ولدت أولادها | وبَلِيت من كِبَرٍ أجسادُها
وجعلت أسقامُها تعتادُها | تلك زروعٌ قد دَنا حَصادِها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بل طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زر ، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق . وسمع عبد الملك جماعةً من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب فقال : أنهى عن ذكر عمر فإنه مرارة للأمراء مفسدة للرعية . وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى القباني عن أبيه عن جده قال : كان عبد الملك يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق ، فقالت له : بلغني أنك شربت الطلا بعد العبادة والنسك ، فقال : إي والله ، والدما أيضاً قد شربتها . ثم جاءه غلام كان قد بعثه في حاجة فقال : ما حبسك لعنك الله ؟ فقالت أم الدرداء : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإني سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة لعّان » . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : ثنا الحسين بن عبد الرحمن قال قيل لسعيد بن المسيب : إن عبد الملك بن مروان قال قد صرت لا أفرح بالحسنة أعملها ، ولا أحزن على السيئة أرتكبها ، فقال سعيد : الآن تكامل موت قلبه . وقال الأصمعي عن أبيه عن جده قال خطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاء شديداً ثم قال : يا رب إن ذنوبي عظيمة ، وإن قليل عفوك أعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي . قال : فبلغ ذلك الحسن فبكى وقال : لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام ، وقد روي عن غير واحد نحو ذلك ، أي أنه لما بلغه هذا الكلام قال مثل ما قال الحسن . وقال مسهر الدمشقي : وضع سماط عبد الملك يوماً بين يديه فقال لحاجبه : ائذن لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال: مات يا أمير المؤمنين، قال: فلأبيه عبد الله بن خالد بن أسيد، قال: مات ، قال : فلخالد بن يزيد بن معاوية ، قال : مات ، قال فلفلان وفلان ـ حتى عد أقواماً قد ماتوا وهو يعلم ذلك قبلنا ـ فأمر برفع السماط وأنشأ يقول :

ذَهَبتْ لِداتي[1] وانقضَتْ أيامُهمْ | وغبرتُ بعدَهُم ولستَ بخالدِ

وقيل : إنه لما احتضر دخل عليه ابنه الوليد فبكى فقال له عبد الملك : ما هذا ؟ أتحن حنين الجارية والأمة ؟ إذا أنا مت فشمر واتزر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها ، واحذر قريشاً . ثم قال له : يا وليد اتق الله فيما استخلفك فيه ، واحفظ وصيتي ، وانظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه ، وانظر إلى أخي محمد فأمِّره على الجزيرة ولا تعزله

---

(١) لداتي : رفقائي وأصحابي الذين هم في سني .

عنها ، وانظر إلى ابن عمنا علي بن عباس فإنه قد انقطع إلينا بمودّته ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمه واعرف حقه ، وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه فإنه هو الذي مهّد لك البلاد وقهر الأعداء وخلص لكم الملك وشتّت الخوارج ، وأنهاك وإخوتك عن الفرقة وكونوا أولاد أم واحدة ، وكونوا في الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها ، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه ويميل القلوب بالمحبة ، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل ، ولله در القائل :

إنَّ الأمورَ إذا اجتمعنْ فرامَها ... بالكسرِ ذو حَنَقٍ وبطشٍ مفندِ
عزّت فلم تكسرْ وإن هي بُدِّدَتْ ... فالكسرَ والتوهين للمتبدِّدِ[1]

ثم قال : إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك فمن أبى فالسيف ، وعليك بالاحسان إلى أخواتك فأكرمهن وأحبهن إليَّ فاطمة ـ وكان قد أعطاها قرطي مارية والدرة اليتيمة ـ ثم قال : اللهم احفظني فيها . فتزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها .

ولما احتضر سمع غسالاً يغسل الثياب فقال : ما هذا ؟ فقالوا غسال ، فقال : يا ليتني كنت غسالاً أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ، ولم أل الخلافة . ثم تمثل فقال : ـ

لعمري لقد عمرتُ في الملكِ برهةً ... ودانت لي الدنيا بوقعِ البواترِ[2]
واعطيتُ حمرَ المالِ والحكمُ والنهى ... ولي سلّمت كل الملوكِ الجبابرِ
فأضحى الذي قدْ كانَ مما يسرني ... كحلمٍ مضى في المزمناتِ الغوابرِ
فياليتني لم أعنِ بالملكِ ليلةً ... ولم أسعَ في لذاتِ عيشٍ نواضرِ

وقد أنشد هذه الأبيات معاوية بن أبي سفيان عند موته .

وقال أبو مسهر : قيل لعبد الملك في مرض موته : كيف تجدك ؟ فقال أجدني كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كما خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مرَّةٍ وتركْتُمْ مَا خوَّلناكُمْ وراءَ ظُهُورِكُمْ ﴾[3] . الآية . وقال سعيد بن عبد العزيز : لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره ، فلما فتحت سمع قصاراً بالوادي فقال : ما هذا ؟ قالوا قصّار[4] ، فقال : يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي ، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال : الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم . وقال : لما حضره الموت جعل يندم ويندب

---

(١) للمتبدّد : تبدّد القوم : تفرّقوا .
(٢) البواتر : مفردها الباتر أي السيف القاطع .
(٣) سورة الأنعام ، الآية / ٩٤.
(٤) قصّار : محوّر الثياب ومبيّضها . كلمة فارسية .

ويضرب بيده على رأسه ويقول : وددت أني اكتسبت قوتي يوماً بيوم واشتغلت بعبادة ربي عز وجل وطاعته . وقال غيره : لمّا حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم ثم قال : الحمد لله الذي لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً ثم ينشد : ـ

فهلْ من خالدٍ إمّا هلَكْنا ... وهلْ بالموتِ للباقينِ غارُ

ويروى أنه قال : ارفعوني ، فرفعوه حتى شم الهواء وقال : يا دنيا ما أطيبك ! إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لحقير ، وإنا كنا بك لفي غرور ، ثم تمثل بهذين البيتين :

إن تناقش يكن نقاشُكَ يا ربُّ ... عذاباً لا طوقَ لي بالعذابِ
أو تجاوز فأنتَ رب صفوحٌ ... عن مسيءٍ ذنوبُهُ كالترابِ

قالوا : وكانت وفاته بدمشق يوم الجمعة وقيل يوم الأربعاء وقيل الخميس ، في النصف من شوال سنة ست وثمانين ، وصلى عليه ابنه الوليد وليُّ عهده من بعده ، وكان عمره يوم مات ستين سنة . قاله أبو معشر وصححه الواقدي ، وقيل ثلاثاً وستين سنة . قاله المدائني ، وقيل ثماني وخمسين . ودفن بباب الجابية الصغير ، قال ابن جرير : ذكر أولاده وأزواجه منهم الوليد وسليمان ومروان الأكبر درج وعائشة ، وأمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض ، ويزيد ومروان الأصغر ومعاوية درج وأم كلثوم وأمهم عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وهشام وأمه أم هشام عائشة ـ فيما قاله المدائني ـ بنت هشام بن إسماعيل المخزومي . وأبو بكر واسمه بكار وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمي ، والحكم درج وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان الأموي ، وفاطمة وأمها المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي . وعبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعد الخير والحجاج لأمهات أولاد شتى ، فكان جملة أولاده تسعة عشر ذكوراً وإناثاً ، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة ،منها تسع سنين مشاركاً لابن الزبير ، وثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف مستقلاً بالخلافة وحده . وكان قاضيه أبو إدريس الخولاني ، وكاتبه روح بن زنباع ، وحاجبه يوسف مولاه ، وصاحب بيت المال والخاتم قبيصة بن ذؤيب . وعلى شرطته أبو الزعيزعة . وقد ذكرنا عماله فيما مضى . قال المدائني : وكان له زوجات أخر ، شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائي ، وابنة لعلي بن أبي طالب ، و أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر . وممن يذكر أنه توفي في هذه السنة تقريباً .

ارطأة بن زفر

ابن عبد الله بن مالك بن شداد بن ضمرة بن غقعان بن أبي حارثة بن مرة بن شبة بن نميط بن

مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان الوليد المري ، ويعرف بابن شهبة ، وهي أمه بنت رامل بن مروان بن زهير بن ثعلبة بن خديج بن جشم بن كعب بن عون بن عامر بن عوف ـ سبية من كلب ـ وكانت عند ضرار بن الأزور ، ثم صارت إلى زفر وهي حامل فأتت بأرطأة على فراشه ، وقد عمر أرطأة دهراً طويلاً حتى جاوز المائة بثلاثين سنة ، وقد كان سيداً شريفاً مطاعاً ممدحاً شاعراً مطبقاً قال المدائني : ويقال إن بني غقعان بن حنظلة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث دخلوا في بني مرة بن شبة فقالوا بني غقعان بن أبي حارثة بن مرة . وقد وفد أبو الوليد أرطأة بن زفر هذا على عبد الملك فأنشده أبياتاً :

رأيتَ المرءَ تأكلهُ الليالي ... كأكلِ الأرضِ ساقطةِ الحديدِ
وما تبقى المنيةُ حينَ تأتي ... على نفسِ ابن آدمَ مِنْ مزيدِ
وأعلم أنها ستكرُّ حتى ... توفي نذرها بأبي الوليدِ

قال : فارتاع عبد الملك وظن أنه عناه بذلك فقال يا أمير المؤمنين إنما عنيت نفسي ، فقال عبد الملك : وأنا والله سيمر بي ما الذي يمر بك ، وزاد بعضهم في هذه الأبيات :

خلقنا أنفساً وبني نفوسٍ ... ولسنا بالسلامِ ولا الحديدِ
لئن أفجعتَ بالقرناء يوماً ... لقد متعتَ بالأملِ البعيدِ

وهو القائل :

وإني لقوام لدى الضيفِ موهناً ... إذا أسبلَ السترُ البخيلَ المواكلَ
دعا فاجابتهُ كلابٌ كثيرةٌ ... على ثقةٍ مني بأنيَ فاعلُ
وما دونَ ضيفي من تلادٍ تحوزهُ ... لي النفسُ إلا أن تصانَ الحلائلُ (1)

مطرف بن عبد الله بن الشخير

كان من كبار التابعين ، وكان من أصحاب عمران بن حصين ، وكان مجاب الدعوة ، وكان يقول ما أوتي أحد أفضل من العقل ، وعقول الناس على قدر زمانهم . وقال : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله هذا عبدي حقاً . وقال : إذا دخلتم على مريض فان استطعتم أن يدعو لكم فإنه قد حرّك ـ أي قد أوقظ من غفلته بسبب مرضه ـ فدعاؤه مستجاب من أجل كسره ورقة قلبه . وقال : إن أقبح ما طلبت به الدنيا عمل الآخرة .

---

(1) الحلائل : مفردها حليلة وهي الزوجة لأنها تحلُّ مع زوجها ويحلُّ معها .

خلافة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق

لما رجع من دفن أبيه خارج باب الجابية الصغير ـ وكان ذلك في يوم الخميس وقيل الجمعة للنصف من شوال من هذه السنة ـ لم يدخل المنزل حتى صعد المنبر ـ منبر المسجد الأعظم بدمشق ـ فخطب الناس فكان مما قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله المستعان على مصيبتنا في أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة ، قوموا فبايعوا . فكان أول من قـام إليه عبد الله بن همام السلولي وهو يقول :

الله أعطاكَ التي لا فوقها	وقد أرادَ الملحدونَ عوقها
عنكَ ويأبى الله إلا سوقها	إليكَ حتى قلدوكَ طوقها

ثم بايعه وبايع الناس بعده . وذكر الواقدي أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه لا مُقدم لما أخر الله ، ولا مؤخر لما قدم الله ، وقد كان من قضاء الله وسابقته ما كتبه على أنبيائه وحملة عرشه وملائكته الموت ، وقد صار إلى منازل الأبرار بما لاقاه في هذه الأمة ـ يعني بالذي يحق لله عليه ـ من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وإعلائه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارات على أعداء الله عز وجل فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً ، أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد ، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه . ثم نزل فنظر ما كان من دواب الخلافة فحازها . وكان جباراً عنيداً . وقد ورد في ولاية الوليد حديث غريب ، وإنما هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك كما سيأتي ، وكما تقدم تقريره في دلائل النبوة في باب الاخبار عن الغيوب المستقبلة ، فيما يتعلق بدولة بني أمية ، وأما الوليد بن عبد الملك هذا فقد كان صيناً في نفسه حازماً في رأيه ، يقال إنه لا تعرف له صبوة [1] ، ومن جملة محاسنه ما صح عنه أنه قال : لولا أن الله قص لنا قصة قوم لوط في كتابه ما ظننا أن ذكراً كان يأتي ذكراً كما تؤتى النساء ، كما سيأتي ذلك في ترجمته عند ذكر وفاته ، وهو باني مسجد جامع دمشق الذي لا يعرف في الآفاق أحسن بناء منه ، وقد شرع في بنائه في ذي القعدة من هذه السنة ، فلم يزل في بنائه وتحسينه مدة خلافته وهي عشر سنين ، فلما أنهاه انتهت أيام خلافته كما سيأتي بيان ذلك مفصلاً . وقد كان موضع هذا المسجد كنيسة يقال لها كنيسة يوحنا ، فلما فتحت الصحابة دمشق جعلوها مناصفة ، فأخذوا منها الجانب الشرقي فحوّلوه مسجداً ، وبقي الجانب الغربي كنيسة بحاله من لدن سنة أربع عشرة إلى هذه السنة ، فعزم الوليد على أخذ بقية الكنيسة منهم وعوضهم عنها كنيسة مريم لدخولها في جانب السيف ، وقيل عوضهم عنها كنيسة توما ، وهدم بقية هذه الكنيسة وأضافها إلى مسجد الصحابة ، وجعل الجميع مسجداً





(١) صَبْوَة : جهلة الفُتُوَّة .

واحداً على هيئة بديعة لا يعرف كثير من الناس أو أكثرهم لها نظيراً في البنيان والزينات والآثار والعمارات ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين

ففيها عزل الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل عن إمرة المدينة وولى عليها ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت عبد الملك عمرَ بن عبد العزيز ، فدخلها على ثلاثين بعيراً في ربيع الأول منها ، فنزل دار مروان وجاء الناس للسلام عليه ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبوبكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ،وخارجة بن زيد بن ثابت .فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق ، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة ، فأحرِّج على من بلغه ذلك إلا أبلغني . فخرجوا من عنده يجزونه خيراً ، وافترقوا على ذلك . وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بأن يوقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان ـ وكان يسيء الرأي فيه ـ لأنه أساء إلى أهل المدينة في مدة ولايته عليهم ، وكان نحواً من أربع سنين ، ولا سيما إلى سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين . قال سعيد بن المسيب لابنه ومواليه : لا يعرض منكم أحد لهذا الرجل فيّ ، تركت ذلك لله وللرحم . وأما كلامه فلا أكلمه أبداً ، وأما علي بن الحسين فإنه مر به وهو موقوف فلم يتعرض له وكان قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض أحد منهم له ، فلما اجتاز به وتجاوزه ناداه هشام الله يعلم حيث يجعل رسالاته .

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفتح حصوناً كثيرة وغنم غنائم جمة ، ويقال إن الذي غزا بلاد الروم في هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بولق ، وحصن الأخرم ، وبحيرة الفرمسان ، وحصن بولس ، وقميقم ، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وسبى ذراريهم [1] . وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك وصالحه ملكهم نيزك على مال جزيل ، وعلى أن يطلق كل من ببلاده من أسارى المسلمين ، وفيها غزا قتيبة بيكند فاجتمع له من الأتراك عندها بشر كثير وجم غفير ، وهي من أعمال بخارى ، فلما نزل بأرضهم استنجدوا عليه بأهل الصغد ومن حولهم من الأتراك ، فأتوهم في جمع عظيم فأخذوا على قتيبة الطرق والمضايق ، فتواقف هو وهم قريباً من شهرين وهو لا يقدر أن يبعث إليهم رسولاً ولا يأتيه منهم رسول ، وأبطأ خبره

(١) ذراريهم : أهل الرجل ونسله .

على الحجاج حتى خاف عليه وأشفق على من معه من المسلمين من كثرة الأعداء من الترك ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار ، وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الترك في كل يوم ، وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر ، فأعطاه أهل بخارى مالاً جزيلاً على أن يأتي قتيبة فيخذله عنهم ، فجاء إليه فقال له : أخلني ، فأخلاه فلم يبق عنده سوى رجل يقال له ضرار بن حصين ، فقال له تندر : هذا عامل يقدم عليك سريعاً بعزل الحجاج ، فلو انصرفت بالناس إلى مرو ، فقال قتيبة لمولاه سياه اضرب عنقه فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد سمع هذا غيري وغيرك وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا حتى ينقضي حربنا ألحقتك به ، فاملك علينا لسانك ، فإن انتشار هذا في مثل هذا الحال ضعف في أعضاد[1] الناس ونصرة للأعداء ، ثم نهض قتيبة فحرض الناس على الحرب ، ووقف على أصحاب الرايات يحرضهم ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً ثم أنزل الله على المسلمين الصبر فما انتصف النهار حتى أنزل الله عليهم النصر فهزمت الترك هزيمة عظيمة ، واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون ما شاؤ وا ، واعتصم من بقي منهم بالمدينة ، فأمر قتيبة الفعلة بهدمها فسألوه الصلح على مال عظيم فصالحهم ، وجعل عليهم رجلاً من أهله وعنده طائفة من الجيش ثم سار راجعاً ، فلما كان منهم على خمس مراحل نقضوا العهد وقتلوا الأمير وجدعوا أنوف من كان معه ، فرجع إليها وحاصرها شهراً ، وأمر النقابين والفعلة فعلقوا سورها على الخشب وهو يريد أن يضرم النار فيها ، فسقط السور فقتل من الفعلة أربعين نفساً ، فسألوه الصلح فأبى ، ولم يزل حتى افتتحها فقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم الأموال ، وكان الذي ألب على المسلمين رجل أعور منهم ، فأسر فقال أنا أفتدي نفسي بخمسة أثواب صينية قيمتها ألف ألف ، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول ذلك منه ، فقال قتيبة : لا والله لا أروع بك مسلماً مرة ثانية ، وأمر به فضربت عنقه . وهذا من الزهد في الدنيا ، ثم إن الغنائم سيدخل فيها ما أراد أن يفتدي به نفسه فإن المسلمين قد غنموا من بيكند شيئاً كثيراً من آنية الذهب والفضة والأصنام من الذهب ، وكان من جملتها صنم سبك فخرج منه مائة ألف وخمسون ألف دينار من الذهب ، ووجدوا في خزائن الملك أموالاً كثيرة وسلاحاً كثيراً وعدداً متنوعة ، وأخذوا من السبي شيئاً كثيراً ، فكتب قتيبة إلى الحجاج يسأله أن يعطى ذلك للجند فأذن له فتمول المسلمون وتقووا على قتال الأعداء ، وصار لكل واحد منهم مال مستكثر جداً ، وصارت لهم أسلحة وعدد وخيول كثيرة فقووا بذلك قوة عظيمة ولله الحمد والمنة .

وقد حج بالناس في هذه السنة عمر بن عبد العزيز نائب المدينة ، وقاضيه بها أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وعلى العراق والمشرق بكماله الحجاج ، ونائبه على البصرة الجراح بن عبد الله الحكمي وقاضيه بها عبد الله بن أذينة ، وعامله على الحرب بالكوفة زياد بن جرير بن عبد

(١) أعضاد : مفردها عَضُد وَهي : الناصر والمُعين .

الله البجلي ، وقاضيه بها أبو بكر بن أبي موسى الأشعري ، ونائبه على خراسان وأعمالها قتيبة بن مسلم . وفيها توفي من الأعيان :

عتبة بن عبد السلمي

صحابي جليل ، نزل حمص ، يروى أنه شهد بني قريظة ، وعن العرباض أنه كان يقول هو خير مني أسلم قبلي بسنة . قال الواقدي وغيره : توفي في هذه السنة ، وقال غيره بعد التسعين والله أعلم .

قال أبو سعيد بن الأعرابي : كان عتبة بن عبد السلمي من أهل الصفة . وروى بقية عن بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن عتبة بن عبد السلمي أن النبي ﷺ قال : « لو أن رجلاً يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله لحقره يوم القيامة » . وقال إسماعيل بن عياش عن عقيل بن مدرك عن لقمان بن عامر عن عتبة بن عبد السلمي قال : اشتكيت إلى رسول الله ﷺ العُرى فكساني خيشتين فلقد رأيتني وأنا أكسي الصحابة .

المقدام بن معدي كرب

صحابي جليل ، نزل حمص أيضاً ، له أحاديث ، وروى عنه غير واحد من التابعين . قال محمد بن سعد والفلاس وأبو عبيدة : توفي في هذه السنة ، وقال غيرهم : توفي بعد التسعين فالله أعلم .

أبو امامة الباهلي

واسمه صدَى بن عجلان ، نزل حمص ، وهو راوي حديث « تلقين الميت بعد الدفن » رواه الطبراني في الدعاء ، وقد تقدم له ذكر في الوفيات .

قبيصة بن زؤيب

أبو سفيان الخزاعي المدني ، ولد عام الفتح وأتى به النبي ﷺ ليدعو له ، روى عن جماعة كثيرة من الصحابة ، وأصيبت عينه يوم الحرة ، وكان من فقهاء المدينة ، وكانت له منزلة عند عبد الملك ، ويدخل عليه بغير إذن ، وكان يقرأ الكتب إذا وردت من البلاد ثم يدخل على عبد الملك فيخبره بما ورد من البلاد فيها ، وكان صاحب سره ، وكان له دار بدمشق بباب البريد وتوفي بدمشق .

عروة بن المغيرة بن شعبة

وُلِّيَ إمرة الكوفة للحجاج ، وكان شريفاً لبيباً مطاعاً في الناس ، وكان أحول . توفي بالكوفة

(يحيى بن يعمر) ، كان قاضي مرو ، وهو أول من نقط المصاحف ، وكان من فضلاء الناس

وعلمائهم وله أحوال ومعاملات ، وله روايات ، وكان أحد الفصحاء ، أخذ العربية عن أبي الأسود الدؤلي .

شريح بن الحارث بن قيس القاضي

أدرك الجاهلية ، واستقضاه عمر على الكوفة فمكث بها قاضياً خمساً وستين سنة ، وكان عالماً عادلاً كثير الخير ، حسن الأخلاق ، فيه دعابة كثيرة ، وكان كوسجاً [1] لا شعر بوجهه ، وكذلك كان عبد الله بن الزبير ، والأحنف بن قيس ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وقد اختلف في نسبه وسنه وعام وفاته على أقوال ، ورجح ابن خلكان وفاته في هذه السنة .

قلت : قد تقدمت ترجمة شريح القاضي في سنة ثمان وسبعين بما فيها من الزيادة الكثيرة غير ما ذكره المؤلف هنا وهناك .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حصن طوانة في جمادى من هذه السنة ـ وكان حصيناً منيعاً ـ اقتتل الناس عنده قتالاً عظيماً ثم حمل المسلمون على النصارى فهزموهم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجت النصارى فحملوا على المسلمين فانهزم المسلمون ولم يبق أحد منهم في موقفه إلا العباس بن الوليد ومعه ابن محيريز الجمحي ، فقال العباس لابن محيريز : أين قراء القرآن الذين يريدون وجه الله عز وجل ؟ فقال : نادهم يأتوك ، فنادى يا أهل القرآن ، فتراجع الناس فحملوا على النصارى فكسروهم ولجأوا إلى الحصن فحاصروهم حتى فتحوه .

وذكر ابن جرير أنه في شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي وإضافة حجر أزواج رسول الله ﷺ ، وأن يوسعه من قبلته وسائر نواحيه ، حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع ، فمن باعك ملكه فاشتره منه وإلا فقوِّمه له قيمة عدل ثم اهدمه وادفع إليهم أثمان بيوتهم ، فإن لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان . فجمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد ، فشق عليهم ذلك وقالوا : هذه حجر قصيرة السقوف ، وسقوفها من جريد [2] النخل ، وحيطانها من اللبن ، وعلى أبوابها المسوح [3] ، وتركها على حالها أولى لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون ، وإلى بيوت النبي ﷺ ، فينتفعوا بذلك ويعتبروا به ، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا ، فلا يعمرون

---

(١) كوسجاً : خفيف اللحية .
(٢) جريد : قضبان النخل المجرَّدة من خُوصها .
(٣) المسوح : مفردها المِسْح : وهو الكساء من شَعَر .

فيها إلا بقدر الحاجة ، وهو ما يستر ويُكن ، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة ، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها . فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة المتقدم ذكرهم ، فأرسل إليه يأمره بالخراب وبناء المسجد على ما ذكر ، وأن يعلي سقوفه . فلم يجد عمر بداً من هدمها ، ولما شرعوا في الهدم صاح الاشراف ووجوه الناس من بني هاشم وغيرهم ، وتباكوا مثل يوم مات النبي ﷺ ، وأجاب من له ملك متاخم للمسجد للبيع فاشترى منهم ، وشرع في بنائه وشمر عن إزاره واجتهد في ذلك ، وأرسل الوليد إليه فعولاً [1] كثيرة ، فأدخل فيه الحجرة النبوية ـ حجرة عائشة ـ فدخل القبر في المسجد ، وكانت حده من الشرق وسائر حجر أمهات المؤمنين كما أمر الوليد ، وروينا أنهم لما حفروا الحائط الشرقي من حجرة عائشة بدت لهم قدم فخشوا أن تكون قدم النبي ﷺ ، حتى تحققوا أنها قدم عمر رضي الله عنه ، ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد ـ كأنه خشي أن يُتَّخَذَ القبر مسجداً ـ والله أعلم .

وذكر ابن جرير أن الوليد كتب إلى ملك الروم يسأله أن يبعث له صناعاً للبناء ، فبعث إليه بمائة صانع وفصوص[2] كثيرة من أجل المسجد النبوي ، والمشهور أن هذا إنما كان من أجل مسجد دمشق فالله أعلم . وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة ، وأن يجري ماءها ففعل ، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا[3] ، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة ، والفوارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته .

وفيها غزا قتيبة بن مسلم ملك الترك كور بُغانون ابن أخت ملك الصين ، ومعه مائتا ألف مقاتل ، من أهل الصغد وفرغانة وغيرهم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكان مع قتيبة نيزك ملك الترك مأسوراً فكسرهم قتيبة بن مسلم وغنم من أموالهم شيئاً كثيراً ، وقتل منهم خلقاً وسبى وأسر .

وفيها حج بالناس عمر بن عبد العزيز ومعه جماعات من أشراف قريش ، فلما كان بالتنعيم لقيه طائفة من أهل مكة فأخبروه عن قلة الماء بمكة لقلة المطر ، فقال لأصحابه : ألا نستمطر ؟ فدعا ودعا الناس فما زالوا يدعون حتى سقوا ودخلوا مكة ومعهم المطر ، وجاء سيل عظيم حتى خاف أهل مكة من شدة المطر ، ومطرت عرفة ومزدلفة ومنى ، وأخصبت الأرض هذه السنة خصباً عظيماً بمكة وما حولها ، وذلك ببركة دعاء عمر ومن كان معه من الصالحين . وكان النواب على البلدان في هذه السنة هم الذين كانوا قبلها .

وممن توفي فيها من الأعيان :

---

(١) فعولاً : عمالاً .

(٢) وفصوص : مفردها : فصٌ : ما يُرَكَّب في الخاتم من الحجارة الكريمة .

(٣) الثنايا : مفردها ثنية . وهي الطريق .

عبد الله بن بُسر بن أبي بُسر المازني

صحابي كأبيه ، سكن حمص ، وروى عنه جماعة من التابعين ، قال الواقدي : توفي في هذه السنة عن أربع وتسعين سنة ، زاد غيره وهو آخر من توفي من الصحابة بالشام ، وقد جاء في الحديث أنه يعيش قرناً ، فعاش مائة سنة .

عبد الله بن ابي أوفى

علقمة بن خالد بن الحارث الخزاعي ثم الأسلمي ، صحابي جليل ، وهو آخر من بقي من الصحابة بالكوفة ، وكانت وفاته فيما قاله البخاري سنة تسع أو ثمان وثمانين ، وقال الواقدي وغير واحد : سنة ست وثمانين ، وقد جاوز المائة ، وقيل قاربها رضي الله عنها .

وفيها توفي هشام بن إسماعيل

ابن هشام بن الوليد المخزومي المدني ، وكان حما عبد الملك بن مروان ونائبه على المدينة ، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب كما تقدم ، ثم قدم دمشق فمات بها ، وهو أول من أحدث دراسة القرآن بجامع دمشق فمات فيها في السبع .

عمير بن حكيم

العنسي الشامي ، له رواية ، ولم يكن أحد في الشام يستطيع أن يعيب الحجاج علانية إلا هو وابن محيريز أبو الأبيض ، قتل في غزوة طوانة من بلاد الروم في هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بلاد الروم فقتلا خلقاً كثيراً وفتحا حصوناً كثيرة ، منها حصن سورية وعمورية وهرقلة وقمودية . وغنما شيئاً كثيراً وأسرا جماً غفيراً . وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الصغد ونسف وكَش ، وقد لقيه هنالك خلق من الأتراك فظفر بهم فقتلهم ، وسار إلى بخارى فلقيه دونها خلق كثير من الترك فقاتلهم يومين وليلتين عند مكان يقال له خرقان ، وظفر بهم فقال في ذلك نهار بن توسعة :

وبـاتتْ لَهم منّـا بِخَـرقـانَ لَيْـلةٌ وَلَيلتُنـا كـانَتْ بِخَـرقـانَ أطْـولا

ثم قصد قتيبة وردان خذاه ملك بخارى فقاتله وردان قتالاً شديداً فلم يظفر به قتيبة ، فرجع عنه إلى مرو ، فجاءه البريد بكتاب الحجاج يعنفه على الفرار والنكول عن أعداء الإسلام ، وكتب إليه أن يبعث بصورة هذا البلد ـ يعني بخارى ـ فبعث إليه بصورتها فكتب إليه أن ارجع إليها وتب إلى الله من

ذنبك وائتها من مكان كذا وكذا ، ورد وردان خذاه ، وإياك والتحويط[1] ، ودعني وبنيات الطريق .

وفي هذه السنة ولى الوليد بن عبد الملك إمرة مكة لخالد بن عبد الله القسري ، فحفر بئراً بأمر الوليد عند ثنية طوى وثنية الحجون ، فجاءت عذبة الماء طيبة ، وكان يستقي منها الناس . وروى الواقدي : حدثني عمر بن صالح عن نافع مولى بني مخزوم . قال : سمعت خالد بن عبد الله القسري يقول على منبر مكة وهو يخطب الناس : أيها الناس ! أيهما أعظم خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقاه فسقاه ملحاً أجاجاً ، واستسقى الخليفة فسقاه عذباً فراتاً ـ يعني البئر التي احتفرها بالثنيتين ثنية طوى وثنية الحجون ـ فكان ينقل ماؤها فيوضع في حوض من أدم إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم . قال ثم غارت تلك البئر فذهب ماؤها فلا يدري أين هو إلى اليوم ، وهذا الاسناد غريب ، وهذا الكلام يتضمن كفراً إن صح عن قائله ، وعندي أن خالد بن عبد الله لا يصح عنه هذا الكلام ، وإن صح فهو عدو الله ، وقد قيل عن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام من أنه جعل الخليفة أفضل من الرسول الذي أرسله الله ، وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها .

وفي هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم الترك حتى بلغ باب الأبواب من ناحية أذربيجان ، وفتح حصوناً ومدائن كثيرة هنالك . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز . قال شيخنا الذهبي : وفي هذه السنة فتحت صقلية وميورقة وقيل ميرقة ، وهما في البحر بين جزيرة صقلية وخدرة من بلاد الأندلس . وفيها سيّر موسى بن نصير ولده إلى النقريس ملك الفرنج فافتتح بلاداً كثيرة . وفيها توفي من الأعيان عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير أحد التابعين العذري الشاعر ، وقد قيل إنه أدرك حياة النبي ﷺ ، ومسح على رأسه ، وكان الزهري يتعلم منه النسب . والعمال في هذه السنة هم المذكورون في التي قبلها .

ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بلاد الروم ، ففتحا حصوناً وقتلا خلقاً من الروم وغنما وأسرا خلقاً كثيراً . وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر ، وذهبوا به إلى ملكهم فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك . وفيها عزل الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك عن إمرة مصر وولّى عليها قرة بن شريك . وفيها قتل محمد بن القاسم ملك السند داهر بن صصَّة ، وكان محمد بن القاسم هذا على جيش من جهة الحجاج . وفيها فتح قتيبة بن مسلم مدينة بخارى وهزم جميع العدو من الترك بها ، وجرت بينهم فصول يطول ذكرها ، وقد تقصَّاها ابن جرير . وفيها طلب طرخون ملك الصغد بعد فتح بخارى من قتيبة أن يصالحه على مال يبذله في كل عام فأجابه

(١) التحويط : الغدر .

قتيبة إلى ذلك وأخذ منه رهناً عليه . وفيها استنجد وردان خذاه بالترك فأتوه من جميع النواحي - وهو صاحب بخارى بعد أخذ قتيبة لها - وخرج وردان خذاه وحمل على المسلمين فحطموهم ثم عاد المسلمون عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وصالح قتيبة ملك الصغد ، وفتح بخارى وحصونها ، ورجع قتيبة بالجند إلى بلاده فأذن له الحجاج ، فلما سار إلى بلاده بلغه أن صاحب الصغد قال لملوك الترك : إن العرب بمنزلة اللصوص فإن أعطوا شيئاً ذهبوا ، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك ، فإن أعطوه شيئاً أخذه ورجع عنهم ، وإن قتيبة ليس بملك ولا يطلب ملكاً . فبلغ قتيبة قوله فرجع إليهم فكاتب نيزك ملك الترك ملوك ما وراء النهر منهم ملك الطالقان ، وكان قد صالح قتيبة فنقض الصلح الذي كان بينه وبين قتيبة ، واستجاش[1] عليه بالملوك كلها ، فأتاه ملوك كثيرة كانوا قد عاهدوا قتيبة على الصلح فنقضوا كلهم وصاروا يداً واحدة على قتيبة ، واتعدوا إلى الربيع وتعاهدوا وتعاقدوا على أن يجتمعوا فيقاتلوا كلهم في فصل الربيع من السنة الآتية ، فقتل منهم قتيبة في ذلك الحين مقتلة عظيمة جداً لم يسمع بمثلها ، وصلب منهم سماطين[2] في مسافة أربعة فراسخ في نظام واحد ، وذلك مما كسر جموعهم كلهم .

وفي هذه السنة هرب يزيد بن المهلب وأخواه المفضل وعبد الملك من سجن الحجاج ، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمنهم من الحجاج ، وذلك أن الحجاج كان قد احتاط عليهم قبل ذلك وعاقبهم عقوبة عظيمة ، وأخذ منهم ستة آلاف ألف ، وكان أصبرهم على العقوبة يزيد بن المهلب ، كان لا يسمع له صوت ولو فعلوا به ما فعلوا نكاية لذلك ، وكان ذلك يغيظ الحجاج ، قال قائل للحجاج : إن في ساقه أثر نشابة بقي نصلها فيه ، وإنه متى أصابها شيء لا يملك نفسه أن يصرخ ، فأمر الحجاج أن ينال ذلك الموضع منه بعذاب ، فصاح فلما سمعت أخته هند بنت المهلب - وكانت تحت الحجاج - صوته بكت وناحت عليه فطلقها الحجاج ثم أودعهم السجن ، ثم خرج الحجاج إلى بعض المحال لينفذ جيشاً إلى الأكراد واستصحبهم معه ، فخندق حولهم ووكل بهم الحرس ، فلما كان في بعض الليالي أمر يزيد بن المهلب بطعام كثير فصنع للحرس ، ثم تنكر في هيأة بعض الطباخين وجعل لحيته لحية بيضاء وخرج فرآه بعض الحرس فقال : ما رأيت مشية أشبه بمشية يزيد بن المهلب من هذا ، ثم تبعه يتحققه ، فلما رأى بياض لحيته انصرف عنه ، ثم لحقه أخواه فركبوا السفن وساروا نحو الشام ، فلما بلغ الحجاج هربهم انزعج لذلك وذهب وهمه أنهم ساروا إلى خراسان ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يحذره قدومهم ويأمره بالاستعداد لهم ، وأن يرصدهم في كل مكان ، ويكتب إلى أمراء الثغور والكور بتحصيلهم . وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بهربهم ، وأنه لا يراهم هربوا إلا إلى خراسان ، وخاف الحجاج من يزيد أن يصنع كما صنع ابن الأشعث من الخروج عليه وجمع الناس له ، وتحقق عنده قول الراهب . وأما يزيد بن المهلب

---

(١) واستجاش : استعان واستنجد .

(٢) سماطين : السماط جمعها سُمُط : الشيء المصطف .

فإنه سلك على البطائح وجاءته خيول كان قد أعدها له أخوه مروان بن المهلب لهذا اليوم ، فركبها وسلك به دليل من بني كلب يقال له عبد الجبار بن يزيد، فأخذ بهم على السماوة ، وجاء الخبر إلى الحجاج بعد يومين أن يزيد قد سلك نحو الشام ، فكتب إلى الوليد يعلمه بذلك ، وسار يزيد حتى نزل الأردن على وهيب بن عبد الرحمن الأزدي ـ وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك ـ فسار وهيب إلى سليمان بن عبد الملك فقال له : إن يزيد بن المهلب وأخويه في منزلي ، قد جاؤوا مستعيذين بك من الحجاج ، قال : فاذهب فأتني بهم فهم آمنون ما دمت حياً ، فجاءهم فذهب بهم حتى أدخلهم على سليمان بن عبد الملك ، فأمنهم سليمان وكتب إلى أخيه الوليد : إن آل المهلب قد أمّنتهم ، وإنما بقي للحجاج عندهم ثلاثة آلاف ألف ، وهي عندي . فكتب إليه الوليد : لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إليَّ . فكتب إليه : ولا والله لا أبعثه حتى أجيء معه ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تفضحني أو تخفرني في جواري . فكتب إليه : لا والله لا تجيء معه وابعث به إليَّ في وثاق . فقال يزيد : ابعث بي إليه فما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحرباً ، فابعثني إليه وابعث معي ابنك واكتب إليه بألطف عبارة تقدر عليها فبعثه وبعث معه ابنه أيوب ، وقال لأبنه : إذا دخلت في الدهليز فادخل مع يزيد في السلسلة ، وادخلا عليه كذلك . فلما رأى الوليد ابن أخيه في السلسلة ، قال : والله لقد بلغنا من سليمان . ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه وقال : يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك لا تخفر ذمة أبي وأنت أحق من منعها ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك ، ولا تذل من رجا العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك . ثم قرأ الوليد كتاب سليمان بن عبد الملك فإذا فيه : أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إن كنت لأظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته أنك لا تذل جواري ولا تخفره ، بل لم أجر إلا سامعاً مطيعاً ، حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقد بعثت به إليك فإن كنت إنما تعد قطيعتي واخفار ذمتي والابلاغ في مساءتي فقد قدرت إن أنت فعلت ، وأنا أعيذك بالله من احتراد[1] قطيعتي وانتهاك حرمتي ، وترك برِّي وإجابتي إلى ما سألتك ، ووصلتي ، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك ، ولامتى يفرق الموت بيني وبينك ، فإن استطاع أمير المؤمنين أدام الله سروره أن لا يأتي أجل الوفاة علينا إلا وهو لي واصل ولحقي مؤد ، وعن مساءتي نازع فليفعل ، ووالله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشيء من أمر الدنيا بعد تقوى الله بأسر مني برضاك وسرورك ، وإن رضاك وسرورك أحب إليَّ من رضائي وسروري ، ومما ألتمس به رضوان الله عز وجل لصلتي ما بيني وبينك ، وإن كنت يا أمير المؤمنين يوماً من الدهر تريد صلتي وكرامتي وإعظام حقي فتجاوز لي عن يزيد ، وكل ما طلبته به فهو عليَّ .

فلما قرأ الوليد كتابه قال : لقد أشفقنا على سليمان ، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ، وتكلم

(١) احتراد : إعتزال .

يزيد بن المهلب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال : يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلسنا ننساه ، ومن يكفره فلسنا بكافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغارب ، ما أن المنة فيه علينا عظيمة . فقال له : اجلس فجلس فأمنه وكف عنه ورده إلى سليمان ، فكان عنده حسن الهيأة ، ويصف له ألوان الأطعمة الشهية ، وكان حظياً عنده لا يهدى إليه بهدية إلا أرسل له بنصفها ، وتقرب يزيد بن المهلب إلى سليمان بأنواع الهدايا والتحف والتقادم[1] ، وكتب الوليد إلى الحجاج إني لم أصل إلى يزيد بن المهلب وأهل بيته مع أخي سليمان ، فاكفف عنهم واله عن الكتاب إلى فيهم . فكف الحجاج عن آل المهلب وترك ما كان يطالبهم به من الأموال ، حتى ترك لأبي عيينة بن المهلب ألف ألف درهم ، ولم يزل يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك حتى هلك الحجاج في سنة خمس وتسعين ، ثم ولي يزيد بلاد العراق بعد الحجاج كما أخبره الراهب .
وفيها توفي من الأعيان :

يتاذوق الطبيب

الحاذق ، له مصنفات في فنه وكان حظياً عند الحجاج ، مات في حدود سنة تسعين بواسط .
وفيها توفي (عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة) وأبو العالية الرياحي وسنان بن سلمة بن المحبَّق أحد الشجعان المذكورين ، أسلم يوم الفتح ، وتولى غزو الهند ، وطال عمره . وتوفي في هذه السنة محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج ، وكان أميراً على اليمن ، وكان يلعن علياً على المنابر ، قيل إنه أمر حجر المنذري أن يلعن علياً فقال : بل لعن الله من يلعن علياً ، ولعنة الله على من لعنه الله . وقيل إنه ورى في لعنه فالله أعلم .

خالد بن يزيد بن معاوية

أبو هاشم الأموي الدمشقي ، وكانت داره بدمشق تلي دار الحجارة ، وكان عالماً شاعراً ، وينسب إليه شيء من علم الكيمياء ، وكان يعرف شيئاً من علوم الطبيعة ، روى عن أبيه ودحية الكلبي وعنه الزهري وغيره ، قال الزهري : كان خالد يصوم الأعياد كلها الجمعة والسبت والأحد - يعني يوم الجمعة وهو عيد المسلمين ، ويوم السبت وهو عيد اليهود ، والأحد للنصارى - وقال أبو زرعة الدمشقي : كان هو وأخوه معاوية من خيار القوم ، وقد ذكر للخلافة بعد أخيه معاوية بن يزيد ، وكان ولي العهد من بعد مروان فلم يلتئم[2] له الأمر ، وكان مروان زوج أمه ، ومن كلامه : أقرب شيء الأجل ، وأبعد شيء الأمل ، وأرجى شيء العمل ، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال :

---

(١) التقادم : بمعنى القِدَم .
(٢) يلتئم : يجتمع .

سألتُ الندا والجودَ حُرّانِ أنتما فردًا وقالا إننا لعبيدُ
فقلتُ ومن مولاكما فتطاولا عليّ وقالا خالدُ بنُ يزيدُ

قال : فأمر له بمائة ألف . قلت : وقد رأيتهما قد أنشدا في خالد بن الوليد رضي الله عنه . فقال : وقالا خالد بن وليد . والله أعلم . وخالد بن يزيد هذا كان أميراً على حمص ، وهو الذي بنى جامع حمص وكان له فيه أربعمائة عبد يعملون ، فلما فرغ منه أعتقهم . وكان خالد يبغض الحجاج ، وهو الذي أشار على عبد الملك لما تزوج الحجاج بنت جعفر أن يرسل إليه فيطلقها ففعل . ولما مات مشى الوليد في جنازته وصلى عليه ، وكان قد تجدد على خالد اصفرار وضعف ، فسأله عبد الملك عن هذا فلم يخبره فما زال حتى أخبره أنه من حب رملة أخت مصعب بن الزبير ، فأرسل عبد الملك يخطبها لخالد فقالت : حتى يطلق نساءه فطلقهن وتزوجها وأنشد فيها الشعر .

وكانت وفاته في هذا العام، وقيل في سنة أربع وثمانين وقد ذكر هناك ، والصحيح الأول .

عبد الله بن الزبير

ابن سليم الأسدي الشاعر أبو كثير ، ويقال أبو سعيد ، وهو مشهور ، وفد على عبد الله بن الزبير فامتدحه فلم يعطه شيئاً فقال : لعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال ابن الزبير : إنَّ وصاحبها ، يقال إنه مات في زمن الحجاج .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد ، وفيها غزا مسلمة بلاد الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصوناً كثيرة أيضاً ، وكان الوليد قد عزل عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان وولاهما أخاه مسلمة بن عبد الملك . وفيها غزا موسى بن نصير بلاد المغرب ففتح مدناً كثيرة ودخل في تلك البلاد وولج فيها حتى دخل أراضي غابرة قاصية فيها آثار قصور وبيوت ليس بها ساكن ، ووجد هناك من آثار نعمة أهل تلك البلاد ما يلوح على سماتها[1] أن أهلها كانوا أصحاب أموال ونعمة دارة سائغة ، فبادوا جميعاً فلا مخبر بها . وفيها مهد قتيبة بن مسلم بلاد الترك الذين كانوا قد نقضوا ما كانوا عاهدوه عليه من المصالحة ، وذلك بعد قتال شديد وحرب يشيب لها الوليد ، وذلك أن ملوكهم كانوا قد اتعدوا في العام الماضي في أول الربيع أن يجتمعوا ويقاتلوا قتيبة ، وأن لا يولوا عن القتال حتى يخرجوا العرب من بلادهم ، فاجتمعوا اجتماعاً هائلاً لم يجتمعوا مثله في موقف ، فكسرهم قتيبة وقتل منهم أمماً كثيرة ، ورد الأمور إلى ما كانت عليه ، حتى ذكر أنه صلب منهم في بعض المواضع من جملة من أخذه منهم سماطين طولهما أربعة

---

(١) سماتها : مفردها سمة وهي الهيئة .

فراسخ من ههنا وههنا ، عن يمينه وشماله ، صلب الرجل منهم بجنب الرجل ، وهذا شيء كثير ، وقتل في الكفار قتلاً ذريعاً ، ثم لا يزال يتتبع نيزك خان ملك الترك الأعظم من إقليم إلى إقليم ، ومن كورة إلى كورة ، ومن رستاق[1] إلى رستاق ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبه حتى حصره في قلعة هنالك شهرين متتابعين ، حتى نفد ما عند نيزك خان من الأطعمة ، وأشرف هو ومن معه على الهلاك ، فبعث إليه قتيبة من جاء به مستأمناً مذموماً مخذولاً ، فسجنه عنده ثم كتب إلى الحجاج في أمره فجاء الكتاب بعد أربعين يوماً بقتله ، فجمع قتيبة الأمراء فاستشارهم فيه فاختلفوا عليه ، فقائل يقول : اقتله . وقائل يقول لا تقتله فقال له بعض الأمراء : إنك أعطيت الله عهداً أنك إن ظفرت به لتقتلنه ، وقد أمكنك الله منه ، فقال قتيبة : والله إن لم يبق من عمري إلا ما يسع ثلاث كلمات لقتلته ، ثم قال : اقتلوه اقتلوه اقتلوه ، فقتل هو وسبعمائة من أصحابه من أمرائه في غداة واحدة ، وأخذ قتيبة من أموالهم وخيولهم وثيابهم وأبنائهم ونسائهم شيئاً كثيراً ، وفتح في هذا العام مدناً كثيرة ، وقرر ممالك كثيرة ، وأخذ حصوناً كثيرة مشحونة بالأموال والنساء ، ومن آنية الذهب والفضة شيئاً كثيراً ، ثم سار قتيبة إلى الطالقان ـ وهي مدينة كبيرة وبها حصون وأقاليم ـ فأخذها واستعمل عليها ، ثم سار إلى الفارياب وبها مدن ورساتيق ، فخرج إليه ملكها سامعاً مطيعاً ، فاستعمل عليها رجلاً من أصحابه ، ثم سار إلى الجوزجان فأخذها من ملكها واستعمل عليها ، ثم أتى بلخ فدخلها وأقام بها نهاراً واحداً ، ثم خرج منها وقصد نيزك خان ببغلان ، وقد نزل نيزك خان معسكراً على فم الشعب الذي منه يدخل إلى بلاده ، وفي فم الشعب قلعة عظيمة تسمى شمسية ، لعلوها وارتفاعها واتساعها . فقدم على قتيبة الرؤب خان ملك الرؤب وسمنجان ، فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة ، فأمنه وبعث معه رجالاً إلى القلعة فأتوها ليلاً ففتحوها وقتلوا خلقاً من أهلها وهرب الباقي ، ودخل قتيبة الشعب وأتى سمنجان ـ وهي مدينة كبيرة ـ فأقام بها وأرسل أخاه عبد الرحمن خلف ملك تلك المدن والبلاد نيزك خان في جيش هائل ، فسار خلفه إلى بغلان فحصره بها ، وأقام بحصاره شهرين حتى نفد ما عنده من الأقوات ، فأرسل قتيبة من عنده ترجمانا يسمى الناصح ، فقال له : اذهب فائتني بنيزك خان ولئن عدت إليَّ وليس هو معك ضربت عنقك . وأرسل قتيبة معه هدايا وأطعمة فاخرة ، فسار الترجمان إلى نيزك حتى أتاه وقدم إليه الأطعمة فوقع عليها أصحابه يتخاطفونها ـ وكانوا قد أجهدهم الجوع ـ ثم أعطاه الناصح الأمان وحلف له ، فقدم به على قتيبة ومعه سبعمائة أمير من أصحابه ومن أهل بيته جماعة . وكذلك استأمن قتيبة جماعة من الملوك فأمنهم وولَّى على بلادهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الواقدي وغيره : وحج بالناس في هذه السنة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فلما قرب من المدينة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه فرحب بهم وأحسن إليهم ، ودخل

(١) رستاق : إقليم .

المدينة النبوية فأخلى له المسجد النبوي ، فلم يبقَ به أحد سوى سعيد بن المسيب لم يتجاسر أحد أن يخرجه ، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم ، فقالوا له : تنح عن المسجد أيها الشيخ ، فإن أمير المؤمنين قادم ، فقال : والله لا أخرج منه ، فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه يصلّي ههنا وههنا ويدعو الله عز وجل ، قال عمر بن عبد العزيز : وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه ، فحانت منه التفاتة فقال : من هذا هو سعيد بن المسيب ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلم عليك . فقال : قد علمت بغضه لنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه وإنه ، وشرعت اثني عليه ، وشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر ـ وإنما قلت ذلك لأعتذر له ـ فقال : نحن أحق بالسعي إليه ، فجاء فوقف عليه فسلم عليه فلم يقم له سعيد ، ثم قال الوليد : كيف الشيخ ؟ فقال : بخير والحمد لله ، كيف أمير المؤمنين ؟ فقال الوليد : بخير والحمد لله وحده ، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز : هذا فقيه الناس . فقال : أجل يا أمير المؤمنين . قالوا : ثم خطب الوليد على منبر رسول الله ﷺ فجلس في الخطبة الأولى وانتصب في الثانية ، قال وقال : هكذا خطب عثمان ، ثم انصرف فصرف على الناس من أهل المدينة ذهباً كثيراً وفضة كثيرة ، ثم كسا المسجد النبوي كسوة من كسوة الكعبة التي معه ، وهي من ديباج غليظ .

وتوفي في هذه السنة السائب بن يزيد بن سعد بن ثمامة ، وقد حج به أبوه مع رسول الله ﷺ وكان عمر السائب سبع سنين ، رواه البخاري فلهذا قال الواقدي : إنه ولد سنة ثلاث من الهجرة ، وتوفي سنة إحدى وتسعين . وقال غيره : سنة ست وقيل ثمان وثمانين ، فالله أعلم .

سهل بن سعد الساعدي

صحابي مدني جليل ، توفي رسول الله ﷺ وله من العمر خمس عشرة سنة ، وكان ممن ختمه الحجاج في عنقه هو وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله في يده ، ليذلهم كيلا يسمع الناس مَن رأيهم ، قال الواقدي : توفي سنة إحدى وتسعين عن مائة سنة ، وهو آخر من مات في المدينة من الصحابة . قال محمد بن سعد : ليس في هذا خلاف ، وقد قال البخاري وغيره : توفي سنة ثمان وثمانين فالله أعلم .

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ففتحا حصونا كثيرة وغنما شيئاً كثيراً وهربت منهم الروم إلى أقصى بلادهم ، وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بلاد الأندلس في اثني عشر ألفا ، فخرج إليه ملكها اذريقون في جحافله وعليه تاجه ومعه سرير ملكه ، فقاتله طارق فهزمه وغنم ما في معسكره ، فكان من جملة ذلك السرير ، وتملك بلاد الأندلس بكمالها ، قال الذهبي : كان طارق بن زياد أمير طنجة وهي أقصى بلاد المغرب ، وكان نائباً لمولاه موسى بن

نصير ، فكتب إليه صاحب الجزيرة الخضراء يستنجد به على عدوه ، فدخل طارق إلى جزيرة الأندلس من زقاق[1] سبتة وانتهز الفرصة لكون الفرنج قد اقتتلوا فيما بينهم ، وأمعن طارق في بلاد الأندلس فافتتح قرطبة وقتل ملكها ادرينوق، وكتب إلى موسى بن نصير بالفتح ، فحسده موسى على الانفراد بهذا الفتح ، وكتب إلى الوليد يبشره بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده لكونه دخل بغير أمره ، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به ، ثم سار إليه مسرعاً بجيوشه فدخل الأندلس ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، فأقام سنين يفتح في بلاد الأندلس ويأخذ المدن والأموال ، ويقتل الرجال ويأسر النساء والأطفال ، فغنم شيئاً لا يحد ولا يوصف ولا يعد ، من الجواهر واليواقيت والذهب والفضة ، ومن آنية الذهب والفضة والأثاث والخيول والبغال وغير ذلك شيئاً كثيراً ، وفتح من الأقاليم الكبار والمدن شيئاً كثيراً . وكان مما فتح مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد من حصون بلاد الروم حصن سهوسنة وبلغا إلى خليج القسطنطينية .

وفيها فتح قتيبة بن مسلم شومان وكش ونسف ، وامتنع عليه أهل فرياب فأحرقها ، وجهز أخاه عبد الرحمن إلى الصغد إلى طرخون خان ملك تلك البلاد ، فصالحه عبد الرحمن وأعطاه طرخون خان أموالاً كثيرة ، وقدم على أخيه وهو ببخارى فرجع إلى مرو ، ولما صالح طرخون عبد الرحمن ورحل عنه اجتمعت الصغد وقالوا لطرخون : إنك قد بؤت بالذل ، وأديت الجزية ، وأنت شيخ كبير ، فلا حاجة لنا فيك ، ثم عزلوه وولوا عليهم غورك خان - أخاطرخون خان - ثم إنهم عصوا ونقضوا العهد ، وكان من أمرهم ما سيأتي .

وفيها غزا قتيبة سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم ، فلما انتهى إلى أول مملكة رتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة ، خيول ورقيق ونساء من بنات الملوك ، يحمل ذلك إليه ، فصالحه . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز نائب المدينة . وتوفي فيها من الأعيان **مالك بن أوس** بن الحدثان النضري ، أبو سعيد المدني ، مختلف في صحبته ، قال بعضهم : ركب الخيل في الجاهلية ورأى أبا بكر ، وقال محمد بن سعد : رأى رسول الله ﷺ ولم يحفظ منه شيئاً ، وأنكر ذلك ابن معين والبخاري وأبو حاتم ، وقالوا : لا تصح له صحبة والله أعلم . مات في هذه السنة وقيل في التي قبلها فالله أعلم .

طويس المغني

اسمه عيسى بن عبد الله أبو عبد المنعم المدني مولى بني مخزوم ، كان بارعاً في صناعته ، وكان طويلاً مضطرباً أحول العين ، وكان مشؤوماً ، لأنه ولد يوم مات رسول الله ﷺ ، وفطم يوم توفي الصديق ، واحتلم يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل الحسين بن علي ، وقيل ولد له يوم قتل علي . حكاه ابن خلكان وغيره . وكانت وفاته في هذه السنة عن اثنتين وثمانين سنة بالسويد - وهي على مرحلتين من المدينة - **الأخطل** كان شاعراً مطبقاً ، فاق أقرانه في الشعر.

---

(١) زقاق : مضيق .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين

وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك حصوناً كثيرة من بلاد الروم ، منها حصن الحديد وغزالة وماسة وغير ذلك . وفيها غزا العباس بن الوليد ففتح سمسطية . وفيها غزا مروان بن الوليد الروم حتى بلغ حنجرة . وفيها كتب خوارزم شاه إلى قتيبة يدعوه إلى الصلح وأن يعطيه من بلاده مدائن[1] ، وأن يدفع إليه أموالاً ورقيقاً كثيراً على أن يقاتل أخاه ويسلمه إليه ، فإنه قد أفسد في الأرض وبغى على الناس وعسفهم ، وكان أخوه هذا لا يسمع بشيء حسن عند أحد إلا بعث إليه فأخذه منه ، سواء كان مالاً أو نساء أو صبياناً أو دوابّ أو غيره ، فأقبل قتيبة نصره الله في الجيوش فسلم إليه خوارزم شاه ما صالحه عليه ، وبعث قتيبة إلى بلاد أخي خوارزم شاه جيشاً فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا أخاه ومعه أربعة آلاف أسير من كبارهم ، فدفع أخاه إليه ، وأمر قتيبة بالأسارى فضربت أعناقهم بحضرته ، قيل ألفا بين يديه وألفا عن يمينه وألفا عن شماله وألفا من وراء ظهره ، ليرهب بذلك الأعداء من الأتراك وغيرهم .

فتح سمرقند

وذلك أن قتيبة لما فرغ من هذا كله وعزم على الرجوع إلى بلاده ، قال له بعض الأمراء : إن أهل الصغد قد أمنّوك عامك هذا ، فإن رأيت أن تعدل إليهم وهم لا يشعرون ، فإنك متى فعلت ذلك أخذتها إن كنت تريدها يوماً من الدهر . فقال قتيبة لذلك الأمير : هل قلت هذا لأحد ؟ قال : لا ! قال فلأن يسمعه منك أحد أضرب عنقك . ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بين يديه في عشرين ألفا فسبقه إلى سمرقند ، ولحقه قتيبة في بقية الجيش ، فلما سمعت الأتراك بقدومهم إليهم انتخبوا من بينهم كل شديد السطوة من أبناء الملوك والأمراء ، وأمروهم أن يسيروا إلى قتيبة في الليل فيكبسوا جيش المسلمين ، وجاءت الأخبار إلى قتيبة بذلك فجرد أخاه صالحاً في ستمائة فارس من الأبطال الذين لا يطاقون ، وقال : خذوا عليهم الطريق ، فساروا فوقفوا لهم في أثناء الطريق وتفرقوا ثلاث فرق ، فلما اجتازوا بهم بالليل - وهم لا يشعرون بهم - نادوا عليهم فاقتتل المسلمون هم وإياهم ، فلم يفلت من أولئك الأتراك إلا النفر اليسير واحتزوا رؤوسهم وغنموا ما كان معهم من الأسلحة المجلاة بالذهب والأمتعة[2] ، وقال لهم بعض أولئك : تعلمون أنكم لم تقتلوا في مقامكم هذا إلا ابن ملك أو بطل من الأبطال المعدودين بمائة فارس أو بألف فارس ، فنفلهم[3] قتيبة جميع ما غنموه منهم من ذهب وسلاح ، واقترب من المدينة العظمى التي بالصغد - وهي سمرقند - فنصب عليها المجانيق[4] فرماها بها ، وهو مع ذلك يقاتلهم لا يقلع عنهم ، وناصحه من معه عليها من بخارى وخوارزم ، فقاتلوا أهل الصغد قتالاً شديداً ، فأرسل إليه غورك ملك الصغد : إنما تقاتلني

---

(١) مدائن : مفردها مدينة .

(٢) والامتعة : مفردها متاع وهي الحوائج والأغراض .

(٣) فنفلهم : وهبهم وأعطاهم .

(٤) المجانيق : مفردها المنجنيق وهي آلة لرمي الحجارة .

باخواني وأهل بيتي ، فأخرج إليَّ في العرب . فغضب عند ذلك قتيبة وميز العرب من العجم وأمر العجم باعتزالهم ، وقدم الشجعان من العرب وأعطاهم جيد السلاح ، وانتزعه من أيدي الجبناء ، وزحف بالأبطال على المدينة ورماها بالمجانيق ، فثلم فيها ثلمة[1] فسدها الترك بغرار الدخن ، وقام رجل منهم فوقها فجعل يشتم قتيبة فرماه رجل من المسلمين بسهم فقلع عينه حتى خرجت من قفاه . فلم يلبث أن مات قبحه الله ، فأعطى قتيبة الذي رماه عشرة آلاف ، ثم دخل الليل ، فلما أصبحوا رماهم بالمجانيق فثلم أيضاً ثلمة وصعد المسلمون فوقها ، وتراموا هم وأهل البلد بالنشاب ، فقالت الترك لقتيبة : ارجع عنا يومك هذا ونحن نصالحك غدا ، فرجع عنهم وصالحوه من الغد على ألفي ألف ومائة ألف يحملونها إليه في كل عام ، وعلى أن يعطوه في هذه السنة ثلاثين ألف رأس من الرقيق ، ليس فيهم صغير ولا شيخ ولا عيب ، وفي رواية مائة ألف من رقيق ؛ وعلى أن يأخذ حلية الأصنام وما في بيوت النيران ، وعلى أن يخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبني فيها قتيبة مسجداً ، ويوضع له فيه منبر يخطب عليه ، ويتغدى ويخرج . فأجابوه إلى ذلك ، فلما دخلها قتيبة دخلها ومعه أربعة آلاف من الأبطال ـ وذلك بعد أن بنى المسجد ووضع فيه المنبر ـ فصلى في المسجد وخطب وتغدى وأتى بالأصنام التي لهم فسلبت بين يديه ، وألقيت بعضها فوق بعض ، حتى صارت كالقصر العظيم ، ثم أمر بتحريقها ، فتصارخوا وتباكوا وقال المجوس : إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك ، وجاء الملك غورك فنهى عن ذلك ، وقال لقتيبة : إني لك ناصح ، فقام قتيبة وأخذ في يده شعلة نار وقال : أنا أحرقها بيدي فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل ، وألقى فيها النار فاحترقت ، فوجد من بقايا ما كان فيها من الذهب خمسون ألف مثقال من ذهب . وكان من جملة ما أصاب قتيبة في السبي جارية من ولد يزدجرد ، فأهداها إلى الوليد فولدت له يزيد بن الوليد ، ثم استدعى قتيبة بأهل سمرقند فقال لهم : إني لا أريد منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، ولكن لا بد من جند يقيمون عندكم من جهتنا . فانتقل عنها ملكها غورك خان فتلا قتيبة ﴿ وأَنَّهُ أَهلَك عَاداً الأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾[2] الآيات ثم ارتحل عنها قتيبة إلى بلاد مرو ، واستخلف على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم ، وقال له : لا تدع مشركاً يدخل باب سمرقند إلا مختوم اليد ، ثم لا تدعه بها إلا مقدار ما تجف طينة ختمه ، فإن جفت وهو بها فاقتله ، ومن رأيت منهم ومعه حديدة أو سكينة فاقتله بها ، وإذا أغلقت الباب فوجدت بها أحداً فاقتله ، فقال في ذلك كعب الأشقري ـ ويقال هي لرجل من جعفي ـ :

كلَّ يومٍ يحوي قتيبةُ نهباً	ويزيدُ الأموالَ مالاً جديدا
باهليٌّ قد ألبسَ التاجَ حتى	شابَ منه مفارقُ كنَّ سودا
دوّخَ الصُّغدَ بالكتائبِ[3] حتى	تركَ الصغدَ بالعراءِ قعودا
فوليدٌ يبكي لفقدِ أبيهِ	وأبٌ موجعٌ يبكّي الوليدا
كلما حلَّ بلدةً أو أتاها	تركتْ خيلُهُ بها أُخْدُودا

(١) ثلمة : فتحة .

(٢) سورة النجم ، الآية / ٥٠ ـ ٥١ .

(٣) الكتائب : مفردها الكتيبة وهي القطعة من الجيش أو الجماعة من الخيل .

وفي هذه السنة عزل موسى بن نصير نائب بلاد المغرب مولاه طارقاً عن الأندلس ، وكان قد بعثه إلى مدينة طليطلة ففتحها فوجد فيها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، وفيها من الذهب والجواهر شيء كثير جداً ، فبعثوا بها إلى الوليد بن عبد الملك ، فما وصلت إليه حتى مات وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ، فوصلت مائدة سليمان عليه السلام إلى سليمان على ما سيأتي بيانه في موضعه ، وكان فيها ما يبهر العقول ، لم يـر منظر أحسن منها . واستعمل موسى بن نصير مكان مولاه ولده عبد العزيز بن موسى بن نصير . وفيها بعث مـوسى بن نصير العسـاكر وبثهـا في بلاد المغرب ، فافتتحوا مدناً كثيرة من جزيرة الأندلس منها قرطبة وطنجة ، ثم سار موسى بنفسه إلى غرب الأندلس فافتتح مدينة باجة والمدينة البيضاء وغيـرهما من المـدن الكبار والأقـاليم ، ومن القرى والرساتيق شيء كثير ، وكان لا يأتي مدينة فيبرح عنها حتى يفتحها أو ينزلوا على حكمه ، وجهز البعوث[1] والسرايا[2] غرباً وشرقاً وشمالاً ، فجعلوا يفتتحون المغرب بلداً بلداً ، وإقليماً إقليماً ، ويغنمون الأموال ويسبون الذراري والنساء ، ورجع موسى بن نصير بغنائم وأموال وتُحَف لا تحصى ولا تعد كثرة .

وفيها قحط أهل إفريقية وأجدبوا جدباً شديداً ، فخرج بهم موسى بن نصير يستسقي بهم ، فما زال يدعو حتى انتصف النهار ، فلما أراد أن ينزل عن المنبر قيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ قال : ليس هذا الموضع موضع ذاك ، فلما قال هذه المقالة أرسل الله عليهم الغيث فأمطروا مطراً غزيراً وحسن حالهم ، وأخصبت بلادهم . وفيها ضرب عمر بن عبد العزيز خُبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له في ذلك ، وصب فوق رأسه قربة من ماء بارد في يوم شتاء بارد ، وأقامه علىَ باب المسجد يوم ذلك فمات رحمه الله . وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خبيب شديد الخوف لا يأمن ، وكان إذا بشر بشيء من أمر الآخرة يقول : وكيف وخبيب لي بالطريق ؟ وفي رواية يقول هذا إذا لم يكن خبيب في الطريق ، ثم يصيح صياح المرأة الثكلى[3] ، وكان إذا أثني عليه يقول : خبيب وما خبيب إن نجوت منه فأنا بخير . وما زال على المدينة إلى أن ضرب خبيباً فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذ ، وأخذ في الاجتهاد في العبادة والبكاء ، وكانت تلك هفوة منه وزلة ، ولكن حصل له بسببها خير كثير ، من عبادة وبكاء وحزن وخوف وإحسان وعدل وصدقة وبر وعتق وغير ذلك .

وفيها افتتح محمد بن القاسم ـ وهو ابن عم الحجاج بن يوسف ـ مدينة الدبيل وغيرها من بلاد الهند وكان قد ولاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة ، فسار في الجيوش فلقوا الملك داهر ـ وهو ملك الهند ـ في جمع عظيم ومعه سبعة وعشرون فيلا منتخبة ، فاقتتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر ، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جداً فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل الملك داهر وغالب من معه ، وتبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه ثم سار محمد بن القاسم فافتتح مدينة

---

(١) البعوث : مفردها البَعْث وهم الجيش أو كلُّ قوم بُعِثوا .

(٢) السَّرَايا : مفردها السَّرِيَّة : قطعة من الجيش سُمِّيَت بذلك لأنها تسري خفية .

(٣) الثكلى : المرأة التي فقدت ولدها .

الكبرج وبرها ورجع بغنائم كثيرة وأموال لا تحصى كثرة ، من الجواهر والذهب وغير ذلك . فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها ، وقد أذلوا الكفر وأهله ، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً ، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه ، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين ، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه . فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك ، يقتل ويسبي ويغنم ، حتى وصل إلى تخوم الصين ، وأرسل إلى [ملكه]يدعوه ، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفا وأموالاً كثيرة هدية ، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده ، بحيث أن ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفاً منه . ولو عاش الحجاج لما أقلع عن بلاد الصين ، ولم يبق إلا أن يلتقي مع ملكها ، فلما مات الحجاج رجع الجيش كما مر . ثم إن قتيبة قتل بعد ذلك ، قتله بعض المسلمين . ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر يفتحون في بلاد الروم ويجاهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية ، وبنى بها مسلمة جامعاً يعبد الله فيه ، وامتلأت قلوب الفرنج منهم رعباً . ومحمد بن القاسم ابن أخي الحجاج يجاهد في بلاد الهند ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم . وموسى بن نصير يجاهد في بلاد المغرب ويفتح مدنها وأقاليمها في جيوش الديار المصرية وغيرهم . وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الإسلام وتركوا عبادة الأوثان . وقبل ذلك كان الصحابة في زمن عمر وعثمان فتحوا غالب هذه النواحي ودخلوا في مبانيها ، بعد هذه الأقاليم الكبار ، مثل الشام ومصر والعراق واليمن وأوائل بلاد الترك ، ودخلوا إلى ما وراء النهر وأوائل بلاد المغرب ، وأوائل بلاد الهند . فكان سوق الجهاد قائماً في القرن الأول من بعد الهجرة إلى إنقضاء دولة بني أمية وفي أثناء خلافة بني العباس مثل أيام المنصور وأولاده ، والرشيد وأولاده ، في بلاد الروم والترك والهند . وقد فتح محمود سُبكتكين وولده في أيام ملكهم بلاداً كثيرة من بلاد الهند ، ولما دخل طائفة ممن هرب من بني أمية إلى بلاد المغرب وتملكوها أقاموا سوق الجهاد في الفرنج بها . ثم لما بطل الجهاد من هذه المواضع رجع العدو إليها فأخذ منها بلاداً كثيرة ، وضعف الإسلام فيها ، ثم لما استولت دولة الفاطميين على الديار المصرية والشامية ، وضعف الإسلام وقلّ ناصروه ، وجاء الفرنج فأخذوا غالب بلاد الشام حتى أخذوا بيت المقدس وغيره من البلاد الشامية ، فأقام الله سبحانه بني أيوب مع نور الدين ، فاستلبوها من أيديهم وطردوهم عنه ، فلله الحمد والمنة ، وسيأتي ذلك كله في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وفيها عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن إمرة المدينة ، وكان سبب ذلك ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد يخبره عن أهل العراق أنهم في ضيم وضيق مع الحجاج من ظلمه وغشمه ، فسمع بذلك الحجاج فكتب إلى الوليد : إن عمر ضعيف عن إمرة المدينة ومكة ، وهذا وهن[1] وضعف في الولاية ، فاجعل على الحرمين من يضبط أمرهما . فولى على المدينة عثمان بن حيان ، وعلى مكة خالد بن عبد الله القسري ، وفعل ما أمره به الحجاج . فخرج عمر بن عبد العزيز من

---

(١) وهن : ضعف .

المدينة في شوالٍ فنزل السويداء ، وقدم عثمان بن حيان المدينة لليلتين بقيتا من شوّال من هذه السنة .

وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . وممن توفي في هذه السنة من الأعيان :

أنس بن مالك

ابن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار ، أبو حمزة ويقال أبو ثمامة الأنصاري النجاري ، خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ، وأمه أم حرام مليكة بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام ، زوجة أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري . روى عن رسول الله ﷺ أحاديث جمة ، وأخبر بعلوم مهمة . وروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وغيرهم . وحدث عنه خلق من التابعين ، قال أنس : قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين ، وتوفي وأنا ابن عشرين سنة . وقال محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن ثمامة قال قيل لأنس : أشهدت بدراً ؟ فقال : وأين أغيب عن بدر لا أم لك ؟ قال الأنصاري : شهدها يخدم رسول الله ﷺ . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : لم يذكر ذلك أحد من أصحاب المغازي ، قلت : الظاهر أنه إنما شهد ما بعد ذلك من المغازي والله أعلم .

وقد ثبت أن أمه أتت به ـ وفي رواية عمه زوج أمه أبو طلحة ـ إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله هذا أنس خادم لبيب يخدمك ، فوهبته منه فقبله ، وسألته أن يدعو له فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . وثبت عنه أنه قال : كنّاني رسول الله ﷺ بنخلة كنت أجتنيها . وقد استعمله أبو بكر ثم عمر على عمالة البحرين وشكراه في ذلك ، وقد انتقل بعد النبي ﷺ فسكن البصرة ، وكان له بها أربع دور ، وقد ناله أذى من جهة الحجاج ، وذلك في فتنة ابن الأشعث ، توهم الحجاج منه أنه له مداخلة في الأمر ، وأنه أفتى فيه ، فختمه الحجاج في عنقه ، هذا عنق الحجاج ، وقد شكاه أنس كما قدمنا إلى عبد الملك، فكتب إلى الحجاج يعنفه ، ففزع الحجاج من ذلك وصالح أنساً . وقد وفد أنس على الوليد بن عبد الملك في أيام ولايته ، قيل في سنة اثنتين وتسعين، وهو يبني جامع دمشق ، قال مكحول : رأيت أنساً يمشي في مسجد دمشق فقمت إليه فسألته عن الوضوء من الجنازة فقال : لا وضوء . وقال الأوزاعي : حدثني إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر قال : قدم أنس على الوليد فقال له الوليد : ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنتم والساعة كهاتين » . ورواه عبد الرزاق بن عمر عن إسماعيل قال : قدم أنس على الوليد في سنة اثنتين وتسعين فذكره . وقال الزهري : دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ قال : لا أعرف مما كان رسول الله ﷺ وأصحابه إلا هذه الصلاة ، وقد صنعتم فيها ما صنعتم . وفي رواية وهذه الصلاة قد ضيعت ـ يعني ما كان يفعله خلفاء بني أمية من تأخير الصلاة إلى آخر وقتها الموسع ـ كانوا يواظبون[1] على التأخير إلا

(١) يواظبون : يداومون .

عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته كما سيأتي ، وقال عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس . قال : جاءت بي أمي إلى رسول الله ﷺ وأنا غلام فقالت : يا رسول الله خويدمك[1] أنيس فادع الله له . فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . قال : فقد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة ، وفي رواية قال أنس : فوالله إن مالي لكثير حتى نخلي وكرمي ليثمر في السنة مرتين ، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادّون على نحو المائة ، وفي رواية وإن ولدي لصلبي مائة وستة . ولهذا الحديث طرق كثيرة وألفاظ منتشرة جداً ، وفي رواية قال أنس : وأخبرتني بنتي آمنة أنه دفن لصلبي إلى حين مقدم الحجاج عشرون ومائة . وقد تقصى ذلك بطرقه وأسانيده وأورد ألفاظه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أنس ، وقد أوردنا طرفاً من ذلك في كتاب دلائل النبوة في أواخر السيرة ولله الحمد . وقال ثابت لأنس : هل مسّت يدُك كفَّ رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ! قال فأعطنيها أقبلها ، وقال محمد بن سعد عن مسلم بن إبراهيم عن المثنى بن سعيد الذراع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : ما من ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبي رسول الله ﷺ ثم يبكي . وقال محمد بن سعد عن أبي نعيم عن يونس بن أبي إسحاق عن المنهال بن عمرو . قال : كان أنس صاحب نعل رسول الله ﷺ وإداوته[2] ، وقال أبو داود : ثنا الحكم بن عطية عن ثابت عن أنس . قال : إني لأرجو أن ألقى رسول الله ﷺ فأقول : يا رسول الله خويدمك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ثنا حرب بن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس . قال : سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة : « قال أنا فاعل ، قلت فأين أطلبك يوم القيامة يا نبي الله ؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط[3] ، قلت : فإذا لم ألقك ؟ قال : فأنا عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال فأنا عند الحوض لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة » . ورواه الترمذي وغيره من حديث حرب بن ميمون أبي الخطاب صاحب الأعمش الأنصاري به وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال شعبة عن ثابت قال قال أبو هريرة : ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم - يعني أنس بن مالك - وقال ابن سيرين : كان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر . وقال أنس : خذ مني فأنا أخذت من رسول الله ﷺ عن الله عز وجل ، ولست تجد أوثق مني . وقال معتمر بن سليمان عن أبيه سمعت أنساً يقول : ما بقي أحد صلى إلى القبلتين غيري . وقال محمد بن سعد : حدثنا عفان حدثني شيخ لنا يكنى أبا جناب سمعت الحريري يقول : أحرم أنس من ذات عرق فما سمعناه متكلماً إلا بذكر الله عز وجل حتى أحل ، فقال لي : يا ابن أخي هكذا الاحرام . وقال صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف : دخل علينا أنس يوم الجمعة ونحن في بعض أبيات أزواج النبي ﷺ نتحدث فقال : مه ، فلما أقيمت الصلاة قال : إني لا أخاف أن أكون قد أبطلت جمعتي بقولي لكم مه . وقال ابن أبي الدنيا : ثنا بشار بن موسى الخفاف ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت قال : كنت مع أنس

---

(١) خويدمك : تصغير خادمك .

(٢) وإداوته : الإداوة جمعها أداوي : إناء صغير من جلد .

(٣) الصراط : الطريق .

فجاءت قهرمانة[1] فقالت يا أبا حمزة عطشت أرضنا ، قال فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب يلتئم ثم أمطرت حتى خيل إلينا أنها ملأت كل شيء ، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال : انظر أين بلغت السماء ، فنظر فلم تعدُ أرضه إلا يسيراً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاذ ثنا بن عون عن محمد قال : كان أنس إذا حدث عن رسول الله ﷺ حديثاً ففزع منه قال : او كما قال رسول الله ﷺ وقال الأنصاري عن ابن عوف عن محمد قال : بعث أمير من الأمراء إلى أنس شيئاً من الفيء[2] فقال أخمس ؟ قال : لا ، فلم يقبله : وقال النضر بن شداد عن أبيه : مرض أنس فقيل له ألا ندعو لك الطبيب ؟ فقال : الطبيب أمرضني . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا أبو عبد الله الرقاشي ثنا جعفر بن سليمان ثنا علي بن يزيد قال : كنت في القصر مع الحجاج وهو يعرض الناس ليالي ابن الأشعث ، فجاء أنس بن مالك فقال الحجاج : هي يا خبيث ، جوال في الفتن ، مرة مع علي ، ومرة مع ابن الزبير ، ومرة مع ابن الأشعث ، أما والذي نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة[3] ، ولأجردنك[4] كما تجرد الضب[5] . قال يقول أنس : إياي يعني الأمير ؟ قال إياك أعني ، أصم الله سمعك ، قال فاسترجع أنس ، وشغل الحجاج فخرج أنس فتبعناه إلى الرحبة ، فقال : لولا أني ذكرت ولدي ـ وفي رواية لولا أني ذكرت أولادي الصغار ـ وخفته عليهم ما باليت أي قتل أقتل ، ولكلمته بكلام في مقامي هذا لا يستخفني بعده أبداً . وقد ذكر أبو بكر بن عياش أن أنساً بعث إلى عبد الملك يشكو إليه الحجاج ويقول : والله لو أن اليهود والنصارى رأوا من خدم نبيهم لأكرموه ، وأنا قد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين . فكتب عبد الملك إلى الحجاج كتاباً فيه كلام جد وفيه : إذا جاءك كتابي هذا فقم إلى أبي حمزة فترضّاه وقبّل يده ورجله ، وإلا حلّ بك مني ما تستحقه . فلما جاء كتاب عبد الملك إلى الحجاج بالغلظة والشدة ، همّ أن ينهض إليه فأشار عليه إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، الذي قدم بالكتاب أن لا يذهب إلى أنس ، وأشار على أنس أن يبادر إلى الحجاج بالمصالحة ـ وكان إسماعيل صديق الحجاج ـ فجاء أنس فقام إليه الحجاج يتلقاه ، وقال : إنما مثلي ومثلك إياك أعني واسمعي يا جارة . أردت أن لا يبقى لأحد عليّ منطق .

وقال ابن قتيبة : كتب عبد الملك إلى الحجاج ـ لما قال لأنس ما قال ـ : يا ابن المستفرمة عجب الزبيب لقد هممت أن أركلك ركلة تهوي بها إلى نار جهنم ، قاتلك الله أخيفش العينين ، أفيتل الرجلين ، أسود العاجزين ـ ومعنى قوله المستفرمة عجب الزبيب ـ أي تضيق فرجها عند الجماع به ، ومعنى أركلك أي أرفسك برجلي ، وسيأتي بسط ذلك في ترجمة الحجاج في سنة خمس وتسعين . وقال أحمد بن صالح العجلي : لم يبتل أحد من الصحابة إلا رجلين ، معيقيب كان به الجذام[6] ، وأنس بن مالك كان به وضح . وقال الحميدي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار

---

(١) قهرمانة : الوكيلة أو أمينة الدخل والخرج .

(٢) الفيء : جمعها أفْيَاء وفُيُوْء : الخراج .

(٣) الصَّمْغَة : جمعها صُمُوغ : شيء ينضح من الشجرة ويجمد عليها .

(٤) ولأجردنك : نزع قشره أو شعره .

(٥) الضب : حيوان من الزحّافات شبيه بالحرذون ذنبه كثير العقد . (٦) الجذام : من الداء معروف لتجذّم الأصابع وتقطعها

عن أبي جعفر قال : رأيت أنساً يأكل فرأيته يلقم لقماً عظاماً ، ورأيت به وضحاً شديداً . وقال أبو يعلى : ثنا عبد الله بن معاذ بن يزيد عن أيوب قال : ضعف أنس عن الصوم فصنع طعاماً ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم . وذكره البخاري تعليقاً . وقال شعبة عن موسى السنبلاوي قلت لأنس : أنت آخر من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قال : قد بقي قوم من الأعراب ، فأما من أصحابه فأنا آخر من بقي ، وقيل له في مرضه : ألا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب أمرضني ، وجعل يقول : لقِّنوني لا إلّه إلا الله وهو محتضر ، فلم يزل يقولها حتى قبض . وكانت عنده عُصيَّة من رسول الله ﷺ فأمّر بها فدفنت معه .

قال عمر بن شبّة وغير واحد : مات وله مائة وسبع سنين ، وقال الإمام أحمد في مسنده : ثنا معتمر بن سليمان عن حميد أن أنسا عمّر مائة سنة غير ست ، قال الواقدي : وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة ، وكذا قال علي بن المديني والفلاس وغير واحد . وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقيل سنة تسعين ، وقيل إحدى وتسعين ،وقيل اثنتين وتسعين وقيل ثلاث وتسعين ، وهذا هو المشهور وعليه الجمهور والله أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثني أبو نعيم قال : توفي أنس بن مالك وجابر بن زيد في جمعة واحدة سنة ثلاث وتسعين . وقال قتادة : لما مات أنس قال مؤرق العجلي : ذهب اليوم نصف العلم ، قيل له وكيف ذاك يا أبا المعتمر ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفونا في الحديث عن رسول الله ﷺ قلنا لهم : تعالوا إلى من سمعه منه .

عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، الشاعر المشهور ، يقال إنه ولد يوم توفي عمر بن الخطاب ، وختن يوم مقتل عثمان ،وتزوج يوم مقتل علي ،فالله أعلم ، وكان مشهوراً بالتغزل المليح البليغ ، كان يتغزل في امرأة يقال لها الثريا بنت علي بن عبد الله الأموية ، وقد تزوجها سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة : -

أيها المنكِحُ الثريّا سُهَيلاً — عَمرَكَ اللّهُ كيفَ يلتقيان
هي شاميةٌ إذا ما استقلّت — وسهيلٌ إذا استقلَ يمانِ

ومن مستجاد شعره ما أورده ابن خَلكان :

حيّ طيفاً من الأحبةِ زارا — بعد ما برَّحَ الكرى[1] السُّمَّارا[2]
طارقاً في المنامِ بعدَ دجى — الليلِ خفيا بأن يزورَ نهارا
قلتَ ما بالَنا جُفينا وكنّا — قبلَ ذاكَ الأسماعِ والأبصارا
قال : إنا كما عهدت ولكنْ — شغلَ الحلي أهلهُ أنْ يُعارا

---

(١) الكرى : النوم .

(٢) السُّمَّار : مفردها السامر . وهو السَّاهر .

بلال بن أبي الدرداء

وُلِّيَ إمرة دمشق ثم ولى القضاء بها ، ثم عزله عبد الملك بأبي إدريس الخولاني . كان بلال حسن السيرة ، كثير العبادة ، والظاهر أن هذا القبر الذي بباب الصغير الذي يقال له قبر بلال ، إنما هو قبر بلال بن أبي الدرداء ، لا قبر بلال بن حمامة مؤذن رسول الله ﷺ ، فإن بلالاً المؤذن دفن بداريًا والله أعلم .

بشر بن سعيد

المزني السيد العابد الفقيه ، كان من العباد المنقطعين ، الزهاد المعروفين ، توفي بالمدينة .

زرارة بن أوفى

ابن حاجب العامري ، قاضي البصرة ، كان من كبار علماء أهل البصره وصلحائها ، له روايات كثيرة ، قرأ مرة في صلاة الصبح سورة المدثر فلما بلغ ﴿ فاذا نُقِرَ في النَّاقُورِ ﴾ [1] خرّ ميتاً . توفي بالبصرة وعمره نحو سبعين سنة .

خبيب بن عبد الله

ابن عبد الله بن الزبير ، ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد له في ذلك فمات ، ثم عزل عمر بعده بأيام قليلة ، فكان يتأسف على ضربه له ويبكي . مات بالمدينة .

حفص بن عاصم

ابن عمر بن الخطاب المدني ، له روايات كثيرة ، وكان من الصالحين . توفي بالمدينة .

سعيد بن عبد الرحمن

ابن عتاب بن أسيد الأموي ، أحد الأشراف بالبصرة ، كان جواداً ممدحاً ، وهو أحد الموصوفين بالكرم ، قيل إنه أعطى بعض الشعراء ثلاثين .

فروة بن مجاهد

قيل إنه كان من الأبدال ، أسر مرة وهو في غزوة هو وجماعة معه فأتوا بهم الملك فأمر بتقييدهم وحبسهم في المكان والاحتراز [2] عليهم إلى أن يصبح فيرى فيهم رأيه ، فقال لهم فروة : هل لكم في

---

(١) سورة المدثر ، الآية / ٨ .

(٢) الاحتراز : التضييق والتشديد .

المضي إلى بلادنا ؟ فقالوا : وما ترى ما نحن فيه من الضيق ؟ فلمس قيودهم بيده فزالت عنهم ، ثم أتى باب السجن فلمسه بيده فانفتح ، فخرجوا منه ومضوا ، فأدركوا جيش المسلمين قبل وصولهم إلى البلد .

ابو الشعثاء جابر بن زيد

كان لا يماكس [1] في ثلاث ، في الكري [2] إلى مكة ، وفي الرقبة يشتريها لتعتق ، وفي الأضحية . وقال : لا تماكس في شيء يُتَقَرَّب به إلى الله . وقال ابن سيرين : كان أبو الشعثاء مسلماً عند الدينار والدرهم ، قلت : كما قيل :

إني رأيتُ فلا تظنوا غيرهُ — أنّ التورع عندَ هذا الدرهمِ
فاذا قدرت عليهِ ثم تركتهُ — فاعلمْ بأن تقاكَ تقوى المسلمِ

وقال أبو الشعثاء : لأن أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين أحب إليَّ من حجة بعد حجة الإسلام . كان أبو الشعثاء من الذين أوتوا العلم ، وكان يفتي في البصرة ، وكان الصحابة مثل جابر بن عبد الله إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول : كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء ؟ وقال له جابر بن عبد الله : يا ابن زيد إنك من فقهاء البصرة وإنك ستستفتي فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سُنَّة ماضية ، فانك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت . وقال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر بن زيد . وقال إياس بن معاوية : أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان . وقال قتادة لما دفن جابر بن زيد : اليوم دفن أعلم أهل الأرض . وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال أبو الشعثاء : كتب الحكم بن أيوب نفراً للقضاء أنا أحدهم - أي عمرو- فلو أني ابتليت بشيء منه لركبت راحلتي وهربت من الأرض . وقال أبو الشعثاء : نظرت في أعمال البرِ فإذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن ، فرأيت أن الحج أفضل من ذلك . وأخذ مرة قبضة تراب من حائط ، فلما أصبح رماها في الحائط ، وكان الحائط لقوم قالوا : لو كان كلما مر به أخذ منه قبضة لم يبق منه شيء . وقال أبو الشعثاء : إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف على الباب وقل : اللهم اجعلني اليوم أوجه من توجَّه إليك ، وأقرب من تقرَّب إليك ، وأنجح من دعاك ورغب إليك . وقال سيار : حدّثنا حماد بن زيد ثنا الحجاج بن أبي عيينة . قال : كان جابر بن زيد يأتينافي مصلانا ، قال : فأتانا ذات يوم وعليه نعلان خلقان [3] ، فقال : مضى من عمري ستون سنة نعلاي هاتان أحب إليَّ مما مضى منه إلا أن يكون خير قدمته .

(١) يماكس : يجبي مال المكس .
(٢) الكرى : الرحيل والسفر .
(٣) خلقان : باليان .

وقال صالح الدهان : كان جابر بن زيد إذا وقع في يده ستوق كسره ورمى به لئلا يغر به مسلم . الستوق الدرهم المغاير او الدغل وقيل : هو المغشوش .

وروى الإمام أحمد : حدّثنا أبو عبد الصمد العمي حدّثنا مالك بن دينار قال : دخل عليَّ جابر بن زيد وأنا أكتب المصحف فقلت له : كيف ترى صنعتي هذه يا أبا الشعثاء ؟ قال : نعم الصنعة صنعتك ، تنقل كتاب الله ورقة إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به ، وقال مالك بن دينار : سألته عن قوله تعالى : ﴿ إذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ﴾ [1] . قال ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة : ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ [2] . وقال سفيان : حدّثني أبو عمير الحارث بن عمير قال : قالوا لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي وما تريد ؟ قال : نظرة إلى الحسن . وفي رواية عن ثابت قال : لما ثقل على جابر بن زيد قيل له : ما تشتهي ؟ قال نظرة إلى الحسن . قال ثابت : فأتيت الحسن فأخبرته فركب إليه ، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدوني ، فجلس فما زال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب .

وقال حماد بن زيد : حدثنا حجاج بن أبي عيينة قال : سمعت هنداً بنت المهلب بن أبي صفرة ـ وكانت من أحسن النساء ـ وذكروا عندها جابر بن زيد فقالوا : إنه كان إباضيا [3] ، فقالت : كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعاً إليَّ وإلى أمي ، فما أعلم عنه شيئاً ، وكان لا يعلم شيئاً يقربني إلى الله عز وجل إلا أمرني به ، ولا شيئاً يباعدني عن الله إلا نهاني عنه ، وما دعاني إلى الأباضية قط ولا أمرني بها ، وكان ليأمرني أين أضع الخمار [4] ـ ووضعت يدها على الجبهة ـ أسند عن جماعة من الصحابة ، ومعظم روايته عن ابن عمر وابن عباس .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد أرض الروم ، فقيل إنه فتح انطاكية ، وغزا أخوه عبد العزيز بن الوليد فبلغ غزالة ، وبلغ الوليد بن هشام المعيطي أرض برج الحمام ، وبلغ يزيد بن أبي كبشة أرض سورية . وفيها كانت الرجفة بالشام . وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك سندرة من أرض الروم . وفيها فتح الله على الاسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك ، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية/ ٧٥.

(٢) سورة الاسراء ، الآية/ ٧٥ .

(٣) إباضياً : خارجياً من الخوارج الذين ينتسبون إلى عبد الله بن إبَّاض التميمي .

(٤) الخِمار: ما تغطي به المرأة رأسها . وقيل : الستر عموماً .

وفيها افتتح القاسم بن محمد الثقفي أرض الهند وغنم أموالاً لا تعد ولا توصف ، وقد ورد في غزو الهند حديث رواه الحافظ ابن عساكر وغيره . وفيها غزا قتيبة بن مسلم الشاش وفرغانة حتى بلغ خُجَنْدة ، وكاشان مدينتي فرغانة ، وذلك بعد فراغه من الصغد وفتح سمرقند ، ثم خاض تلك البلاد يفتح فيها حتى وصل إلى كابل فحاصرها وافتتحها ، وقد لقيه المشركون في جموع هائلة من الترك فقاتلهم قتيبة عند خجندة فكسرهم مراراً وظفر بهم ، وأخذ البلاد منهم ، وقتل منهم خلقاً وأسر آخرين ، وغنم أموالاً كثيرة جداً . قال ابن جرير : وقد قال سحبان وائل يذكر قتالهم بخجندة التي هي قريبة من بلاد الصين أبياتاً في ذلك :

فسلِ الفوارسَ في خجنـ	ـدةَ تحتَ مرهفةٍ (١) العوالي (٢)
هلْ كنتُ أجمعُهم إذا	هُزموا وأُقدمُ في قتالي
أمْ كنت أضربُ هامةَ الـ	ـعاتي وأصْبِرُ للنِّزال
هذا وأنتَ قريعُ قيـ	ـسٍ كلها ضخمُ النوال
وفضلتُ قيساً في الندى	وأبوكَ في الحجج الخوالي (٣)
تمّت مروءتكم ونا	غى عزكمْ غلبْ الجبالِ
ولقدْ تبينَ عدلَ حكمكَ	فيهمُ في كلِ مالِ

هكذا ذكر ابن جرير هذا من شعر سحبان وائل في هذه الغزوة . وقد ذكرنا ما أورده ابن الجوزي في منظمه أن سحبان وائل مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان بعد الخمسين فالله أعلم .

مقتل سعيد بن جبير رحمه الله

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير ، وكان سبب ذلك أن الحجاج كان قد جعله على نفقات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث إلى قتال رتبيل ملك الترك ، فلما خلعه ابن الأشعث خلعه معه سعيد بن جبير ، فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث وأصحابه هرب سعيد بن جبير إلى اصبهان ، فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه ، فلما سمع بذلك سعيد هرب منها ، ثم كان يعتمر (٤) في كل سنة ويحج ، ثم إنه لجأ إلى مكة فأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القسري، فأشار من اشار على سعيد بالهرب منها فقال سعيد: والله لقد استحييت من الله مما أفر ولا مفر من قدره؟وتولى على المدينة عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز،فجعل

---

(١) مرهفة : سيوف مرققة .

(٢) العوالي: الرماح .

(٣) الخوالي : الماضية .

(٤) يعتمر : يؤدي فريضة العمرة .

يبعث من بالمدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج في القيود، فتعلم منه خالد بن الوليد القسري فعين من عنده من مكة سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وعمرو ابن دينار، وطلق بن حبيب. ويقال إن الحجاج أرسل إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواماً من أهل الشقاق ، فبعث خالد بهؤلاء إليه ثم عفا عن عطاء وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكة ، وبعث بأولئك الثلاثة ، فأما طلق فمات في الطريق قبل أن يصل ، وأما مجاهد فحبس فما زال في السجن حتى مات الحجاج ، وأما سعيد بن جبير فلما أوقف بين يدي الحجاج قال له : يا سعيد ألم أشركك في أمانتي ! ألم أستعملك ؟ ألم أفعل ، ألم أفعل ؟ كل ذلك يقول : نعم ، حتى ظن من عنده أنه سيخلي سبيله ، حتى قال له : فما حملك على الخروج عليَّ وخلعت بيعة أمير المؤمنين ؟ قال سعيد : إن ابن الأشعث أخذ مني البيعة على ذلك وعزم عليَّ ، فغضب عند ذلك الحجاج غضباً شديداً وانتفخ حتى سقط طرف ردائه عن منكبه، وقال له :ويحك ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : بلى ، قال : ثم قدمت الكوفة والياً على العراق فجددت لأمير المؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له ثانية ؟ قال : بلى ! قال فتنكث [1] بيعتين لأمير المؤمنين وتفي بواحدة للحائك ابن الحائك ؟ يا حرسي اضرب عنقه . قال : فضربت عنقه فبدر رأسه عليه لاطئة صغيرة بيضاء ، وقد ذكر الواقدي نحو هذا ، وقال له : أما أعطيتك مائة ألف ؟ أما فعلت أما فعلت .

قال ابن جرير فحدثت عن أبي غسان مالك بن إسماعيل قال : سمعت خلف بن خليفة يذكر عن رجل قال : لما قتل الحجاج سعيد بن جبير فندر رأسه هلل ثلاثاً ، مرة يفصح بها ، وفي الاثنتين يقول مثل ذلك لا يفصح بها . وذكر أبو بكر الباهلي قال : سمعت أنس بن أبي شيخ يقول : لما أتى الحجاج بسعيد بن جبير قال : لعن ابن النصرانية ـ يعني خالد القسري وكان هو الذي أرسل به من مكة ـ أما كنت أعرف مكانه ، بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة ، ثم أقبل عليه فقال : يا سعيد ما أخرجك عليَّ ؟ فقال : أصلح الله الأمير ، أنا امرؤ من المسلمين يخطىء مرة ويصيب أخرى ، فطابت نفس الحجاج وانطلق وجهه ، ورجا الحجاج أن يتخلص من أمره ، ثم عاوده في شيء فقال سعيد : إنما كانت بيعة في عنقي ، فغضب عند ذلك الحجاج فكان ما كان من قتله . وذكر عتاب بن بشر عن سالم الأفطس قال : أتى الحجاج بسعيد بن جبير وهو يريد الركوب وقد وضع إحدى رجليه في الغرز ، فقال : والله لا أركب حتى تتبوأ مقعدك من النار ، اضربوا عنقه ، فضربت عنقه . قال : والتبس الحجاج في عقله مكانه ، فجعل يقول : قيودنا قيودنا ، فظنوا أنه يريد القيود التي على سعيد ، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود :

وقال محمد بن أبي حاتم : ثنا عبد الملك بن عبد الله بن خباب ، قال : جيء بسعيد بن جبير

(١) فتنكث : فتحنث ، فتنقض .

إلى الحجاج فقال : كتبتُ إلى مصعب بن الزبير ؟ فقال : بلى كتبتُ إلى مصعب ، قال : لا والله لأقتلنك قال : إني إذاً لسعيد كما سمتني أمي . قال فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوماً ، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : مالي ولسعيد بن جبير ، مالي ولسعيد بن جبير ؟ قال ابن خلكان : كان سعيد بن جبير بن هشام الأسدي مولى بني والبة كوفياً أحد الأعلام من التابعين ، وكان أسود اللون ، وكان لا يكتب على الفتيا ، فلما عميَ ابن عباس كتب ، فغضب ابن عباس من ذلك ، وذكر مقتله كنحو ما تقدم ، وذكر أنه كان في شعبان ، وأن الحجاج مات بعده في رمضان ، وقيل قبل بستة أشهر . وذكر عن الإمام أحمد أنه قال : قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج ـ أو قال مفتقر ـ إلى علمه . ويقال إن الحجاج لم يسلط بعده على أحد ، وسيأتي في ترجمة الحجاج أيضاً شيء من هذا . قال ابن جرير : وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء ، لأنه مات فيها عامة فقهاء المدينة ، مات في أولها علي بن الحسين بن زين العابدين ، ثم عروة بن الزبير ، ثم سعيد بن المسيب ، وأبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن جبير من أهل مكة ، وقد ذكرنا تراجم هؤلاء في كتابنا التكميل ، وسنذكر طرفاً صالحاً ها هنا إن شاء الله تعالى .

قال ابن جرير : واستقضى الوليد بن عبد الملك في هذه السنة على الشام سليمان بن صرد . وحج بالناس فيها العباس بن الوليد ، ويقال مسلمة بن عبد الملك ، وكان على نيابة مكة خالد القسري ، وعلى المدينة عثمان بن حيان ، وعلى المشرق بكماله الحجاج ، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم ، وعلى الكوفة من جهة الحجاج زياد بن جرير ، وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى ، وعلى إمرة البصرة من جهة الحجاج الجزاح بن عبد الله الحكمي ، وعلى قضائها عبد الله بن أذينة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر من توفي فيها من المشاهير والأعيان

سعيد بن جبير الأسدي الوالبي مولاهم أبو محمد ، ويقال أبو عبد الله ، الكوفي المكي ، من أكابر أصحاب ابن عباس ، كان من أئمة الإسلام في التفسير والفقه وأنواع العلوم ، وكثرة العمل الصالح ، رحمه الله ، وقد رأى خلقاً من الصحابة ، وروى عن جماعة منهم ، وعنه خلق من التابعين ، يقال إنه كان يقرأ القرآن في الصلاة فيما بين المغرب والعشاء ختمة تامة ، وكان يقعد في الكعبة القعدة فيقرأ فيها الختمة ، وربما قرأها في ركعة في جوف الكعبة . وَرُوِيَ عنه أنه ختم القرآن مرتين ونصفاً في الصلاة في ليلة في الكعبة . وقال سفيان الثوري عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : لقد مات سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه . وكان في جملة من خرج مع ابن الأشعث على الحجاج، فلما ظفر [الحجاج]هرب سعيد إلى اصبهان ، ثم كان يتردد في كل سنة إلى مكة مرتين ، مرة للعمرة ومرة للحج ، وربما دخل الكوفة في بعض الأحيان فحدث

بها ، وكان بخراسان لا يتحدث لأنه كان لا يسأله أحد عن شيء من العلم هناك ، وكان يقول : إن مما يهمني ما عندي من العلم ، وددت أن الناس أخذوه . واستمر في هذا الحال مختفياً من الحجاج قريباً من اثنتي عشرة سنة ، ثم أرسله خالد القسري من مكة إلى الحجاج ، وكان من مخاطبته له ما ذكرناه قريباً .

وقال أبو نعيم في كتابه الحلية : ثنا أبو حامد بن جبلة ثنا محمد بن إسحاق ثنا محمد بن أحمد بن أبي خلف ثنا شعبان عن سالم بن أبي حفصة . قال : لما أتي بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له : أنت الشقي بن كسير ؟ قال : لا ! إنما أنا سعيد بن جبير ، قال لأقتلنك ، قال : أنا إذاً كما سمتني أمي سعيداً . قال : شقيت وشقيت أمك ، قال : الأمر ليس إليك . ثم قال : اضربوا عنقه ، فقال : دعوني أصلِّي ركعتين ، قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، قال : ﴿ فأينما تَوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ . قال : إني أستعيذ منك بما استعاذت به مريم ، قال : وما عاذت به ؟ قال : قالت : ﴿ إني أَعُوذُ بالرَّحْمَنِ منكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ [1] . قال سفيان : لم يقتل بعده إلا واحداً . وفي رواية أنه قال له : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً . وفي رواية أنه لما أراد قتله قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، فقال : ﴿ فأينما تَوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ [2] ، فقال اجلدوا به الأرض ، فقال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفيها نُعِيدُكُمْ ومنها نُخْرِجُكُمْ تارةً أُخْرَى ﴾ [3] فقال : اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم . فقال اللهم لا تسلطه على أحد بعدي . وقد ذكر أبو نعيم هنا كلاماً كثيراً في مقتل سعيد بن جبير ، أحسنه هذا والله أعلم] [4] .

وقد ذكرنا صفة مقتله إياه ، وقد رويت آثار غريبة في صفة مقتله ، أكثرها لا يصح ، وقد عوقب الحجاج بعده وعوجل بالعقوبة ، فلم يلبث بعده إلا قليلا ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما سنذكر وفاته في السنة الآتية ، فقيل إنه مكث بعده خمسة عشر يوماً ، وقيل أربعين يوماً ، وقيل ستة أشهر والله أعلم .

واختلفوا في عمر سعيد بن جبير رحمه الله حين قتل ، فقيل تسعاً وأربعين سنة ، وقيل سبعاً وخمسين فالله أعلم . قال أبو القاسم اللالكائي : كان مقتله في سنة خمس وتسعين ، وذكر ابن جرير مقتله في هذه السنة ـ سنة أربع وتسعين ـ فالله أعلم .

[قلت : ها هنا كلمات حسان من كلام سعيد بن جبير أحببت أن أذكرها . قال : إن أفضل الخشية أن تخشى الله خشية تحول بينك وبين معصيته ، وتحملك على طاعته ، فتلك هي الخشية النافعة . والذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر له ، وإن كثر منه

(١) سورة مريم ، الآية/ ١٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية/ ١١٥ .
(٣) سورة طه ، الآية / ٥٥ .
(٤) زيادة من المصرية

التسبيح وتلاوة القرآن . قيل له : من أعبد الناس ؟ قال : رجل اقترف من الذنوب ، فكلما ذكر ذنبه احتقر عمله ، وقال له الحجاج : ويلك ! فقال : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار ، فقال : اضربوا عنقه ، فقال : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أستحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة فأنا خصمك عند الله ، فذبح من قفاه ، فبلغ ذلك الحسن فقال : اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج ، فما بقي إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود فأنتن منه فمات . وقال سعيد للحجاج لما أمر بقتله وضحك فقال له : ما أضحكك ؟ فقال : أضحك من غيراتك عليَّ وحلم الله عنك] [1]

سعيد بن المسيب

ابن حزن بن أبي وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي أبو محمد المدنف ، سيد التابعين على الاطلاق ، ولد لسنتين مضتا وقيل بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل لأربع مضين منها ، وقول الحاكم أبي عبد الله إنه أدرك العشرة وهم منه والله أعلم . ولكن أرسل عنهم كما أرسل كثيراً عن النبي ﷺ ، وروى عن عمر كثيراً ، فقيل سمع منه ، وعن عثمان وعلي وسعيد وأبي هريرة ، وكان زوج ابنته ، وأعلم الناس بحديثه ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وحدّث عن جماعة من التابعين ، وخلق ممن سواهم ، قال ابن عمر : كان سعيد أحد المتقنبين ، وقال الزهري : جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علماً غيره ، وقال محمد بن إسحاق عن مكحول قال : طفت الأرض كلها في طلب العلم . فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب . وقال الأوزاعي : سئل الزهري ومكحول من أفقه من لقيتما ؟ قالا : سعيد بن المسيب . وقال غيره : كان يقال له فقيه الفقهاء . وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب : كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد ، قال مالك : وبلغني أن ابن عمر كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه ، وقال الربيع عن الشافعي أنه قال : إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن . وقال الإمام أحمد بن حنبل هي صحاح : قال : وسعيد بن المسيب أفضل التابعين . قال علي بن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه ، وإذا قال سعيد مضت السنة فحسبك به ، وهو عندي أجل التابعين . وقال أحمد بن عبد الله العجلي : كان سعيد رجلاً صالحاً فقيهاً ، كان لا يأخذ العطاء ، وكانت له بضاعة أربعمائة دينار ، وكان يتجر في الزيت ، وكان أعور . وقال أبو زرعة : كان مدنياً ثقة إماماً . وقال أبو حاتم : ليس في التابعين أنبل منه ، وهو أثبتهم في أبي هريرة ، قال الواقدي : توفي في سنة الفقهاء ، وهي سنة أربع وتسعين ، عن خمس وسبعين سنة ، رحمه الله .

وكان سعيد بن المسيب من أورع الناس فيما يدخل بيته وبطنه ، وكان من أزهد الناس في فضول الدنيا ، والكلام فيما لا يعني ، ومن أكثر الناس أدباً في الحديث ، جاءه رجل وهو مريض

---

(١) زيادة من المصرية .

فسأله عن حديث فجلس فحدثه ثم اضطجع ، فقال الرجل : وددت أنك لم تتعنّ [١] ، فقال : إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع ، وقال برد مولاه : ما نودي للصلاة منذ أربعين إلا وسعيد في المسجد . وقال ابن إدريس : صلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة . وقال سعيد : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم ، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة . وقال : ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَلِ النساء . وقال : ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله ، ولا أهانت أنفسها إلا بمعصية الله تعالى . وقال : كفى بالمرء نصرة من الله له أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله . وقال : من استغنى بالله افتقر الناس إليه . وقال : الدنيا نذلة [٢] وهي الى كل نذل أميل ، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها ووضعها في غير سبيلها . وقال : إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه . وقال : من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله .

وقد زوّج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين لكثير بن أبي وداعة ـ وكانت من احسن النساء وأكثرهم أدباً وأعلمهم بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، وأعرفهم بحق الزوج ـ وكان فقيراً ، فأرسل إليه بخمسة آلاف ، وقيل : بعشرين ألفاً ، وقال : استنفق هذه . وقصته في ذلك مشهورة ، وقد كان عبد الملك خطبها لابنه الوليد فأبى سعيد أن يزوجه بها ، فاحتال عليه حتى ضربه بالسياط كما تقدم ، لما جاءت بيعة الوليد إلى المدينة في أيام عبد الملك ، ضربه نائبه على المدينة هشام بن إسماعيل وأطافه المدينة ، وعرضوه على السيف فمضى ولم يبايع ، فلما رجفوا به رأته امرأة فقالت : ما هذا الخزي يا سعيد ؟ فقال : مِن الخزي فررنا إلى ما ترين ، أي لو أحببناهم وقعنا في خزي الدنيا والآخرة . وكان يجعل على ظهره إهاب [٣] الشاة ، وكان له مال يتجر فيه ويقول : اللهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلا ولا حرصاً عليه ، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بني مروان حتى ألقى الله فيحكم فيَّ وفيهم ، وأصل منه رحمي ، وأؤ دي منه الحقوق التي فيه ، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار . والله سبحانه وتعالى أعلم .

طلق بن حبيب العنزي

تابعي جليل ، روى عن أنس وجابر وابن الزبير وابن عباس ، وعبد الله بن عمر وغيرهم ، وعنه حميد الطويل والأعمش وطاووس ، وهو من أقرانه وأثنى عليه عمرو بن دينار ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ، ولكن تكلموا فيه من جهة أنه كان يقول بالأرجاء ، وقد كان ممن خرج مع ابن الأشعث ، وكان يقول تقوَّوا بالتقوى ، فقيل له : صف لنا التقوى ، فقال : التقوى هي العمل

(١) تتعنّ : تستقم .

(٢) نذلة : حقيرة .

(٣) إهاب : الاهاب الجلد أو ما لم يُدْبَغ منه .

بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله ، وترك معصية الله على نور من الله يخاف عقاب الله .
وقال أيضاً : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى ، أو يقوم بشكرها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين ، وأمسوا تائبين . وكان طلق لا يخرج إلى صلاة إلا ومعه شيء يتصدَّق به ، وإن لم يجد إلا بصلا ، ويقول : قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي نَجْوَاكُم صَدَقَةً ﴾[1] فتقديم الصدقة بين يدي مناجاة الله أعظم وأعظم . قال مالك : قتله الحجاج وجماعة من القراء منهم سعيد بن جبير . وقد ذكر ابن جرير فيما سبق أن خالد بن عبد الله القسري بعث من مكة ثلاثة إلى الحجاج ، وهم مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وطلق بن حبيب ، فمات طلق في الطريق وحبس مجاهد ، وكان من أمر سعيد ما كان والله أعلم .

عروة بن الزبير بن العوام

القرشي الأسدي أبو عبد الله المدني ، تابعي جليل ، روى عن أبيه وعن العبادلة ومعاوية والمغيرة وأبي هريرة ، وأمه أسماء ، وخالته عائشة ، وأم سلمة . وعنه جماعة من التابعين ، وخلق ممن سواهم . قال محمد بن سعد : كان عروة ثقة كثير الحديث عالماً مأموناً ثبتاً . وقال العجلي : مدني تابعي رجل صالح لم يدخل في شيء من الفتن . وقال الواقدي : كان فقيهاً عالماً حافظاً ثبتاً حجة عالماً بالسير ، وهو أول من صنف المغازي ، وكان من فقهاء المدينة المعدودين ، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه ، وكان أروى الناس للشعر ، وقال ابنه هشام : العلم لواحد من ثلاثة ، لذي حسب يزين به حسبه ، أو ذي دين يسوس به دينه ، أو مختلط بسلطان يتحفه بنعمه ويتخلص منه بالعلم ، فلا يقع في هلكة ، وقال : ولا أعلم أحداً اشترطه لهذه الثلاثة إلا عروة بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز . وكان عروة يقرأ كل يوم ربع القرآن ويقوم به في الليل ، وكان أيام الرطب[2] يثلم حائطه للناس فيدخلون ويأكلون ، فإذا ذهب الرطب أعاده ، وقال الزهري : كان عروة بحراً لا ينزف ولا تكدره الدلاء[3] . وقال عمر بن عبد العزيز : ما أحد أعلم من عروة وما أعلمه يعلم شيئاً أجهله ، وقد ذكره غير واحد في فقهاء المدينة السبعة الذين ينتهي إلى قولهم ، وكان من جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبد العزيز يرجع إليهم في زمن ولايته على المدينة [وقد ذكر غير واحد أنه وفد على الوليد بدمشق ، فلما رجع أصابته في رجله الأكلة فأرادوا قطعها ، فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يحس بالألم ويتمكنوا من قطعها ، فقال : ما ظننت أن أحداً يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل ، ولكن هلموا فاقطعوها فقطعوها من ركبته وهو صامت لا يتكلم ، ولا يعرف أنه أنّ ، وروى أنهم قطعوها وهو في الصلاة فلم يشعر لشغله بالصلاة فالله أعلم . ووقع في هذه الليلة التي قطعت فيها رجله ولد له يسمى محمداً كان أحب أولاده من سطح فمات ، فدخلوا عليه فعزوه فيه ، فقال : اللهم لك الحمد ، كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت ستة ، وكان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد

---

(١) سورة المجادلة ، الآية / ١٢ .
(٢) الرطب : الواحدة رُطَبَة . ما نضج من البُسر قبل أن يصير تمراً .
(٣) الدلاء : مفردها الدلو ، ما يُسْتَقى به .

أعطيت ، ولئن كنت قد ابتليت فقد عافيت [قلت : قد ذكر غير واحد أن عروة بن الزبير لما خرج من المدينة متوجهاً إلى دمشق ليجتمع بالوليد، وقعت الأكلة في رجله في واد قرب المدينة وكان مبدؤ ها هناك ، فظن أنها لا يكون منها ما كان ، فذهب في وجهه ذلك ، فما وصل إلى دمشق إلا وهي قد أكلت نصف ساقه ، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك ، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها وإلا أكلت رجله كلها إلى وركه . وربما ترقّت إلى الجسد فأكلته ، فطابت نفسه بنشرها وقالوا له : ألا نسقيك مرقّداً حتى يذهب عقلك منه فلا تحس بألم النشر ؟ فقال : لا ! والله ما كنت أظن أن أحداً يشرب شراباً أو يأكل شيئاً يذهب عقله ، ولكن إن كنتم لا بد فاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة ، فإني لا أحس بذلك ، ولا أشعر به . قال : فنشروا رجله من فوق الأكلة ، من المكان الحي ، احتياطاً أنه لا يبقى منها شيء ، وهو قائم يصلي ، فما تصوَّر ولا اختلج ، فلما انصرف من الصلاة عزاه الوليد في رجله ، فقال : اللهم لك الحمد ، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحداً فلئن كنت قد أخذت فقد أبقيت ، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت ، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت . قال : وكان قد صحب معه بعض أولاده من جملتهم ابنه محمد ، وكان أحبهم إليه ، فدخل دار الدواب فرفسته فرس فمات ، فأتوه فعزوه فيه ، فقال : الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة ، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت ، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت . فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة ، قال : فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده ، ولا شكا ذلك إلى أحد حتى دخل وادي القرى ، فلما كان في المكان الذي أصابته الأكلة فيه قال: ﴿ لقدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾[1] فلما دخل المدينة أتاه الناس يسلمون عليه ويعزونه في رِجْله وولده ، فبلغه أن بعض الناس قال : إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه . فأنشد عروة في ذلك والأبيات لمعن بن أوس : ـ

لعمـركَ مـا أهـويتُ كفي لـريبـةٍ	ولا حملتني نحـوَ فـاحشـةٍ رِجْلي
ولا قـادني سمعي ولا بصـري لهـا	ولا دلني رأيي عليهـا ولا عقـلي
ولست بمـاشٍ مـا حييتُ لمنكـرٍ	مِنَ الأمـرِ لا يمشي إلى مثلهِ مثلي
ولا مؤثـرٌ نفسي على ذي قـرابـةٍ	، وأوثـرُ ضيفي مـا أقـامَ على أهلي
وأعـلمُ أني لـم تصبني مصيبـة	من الدهرِ إلا قدْ أصابت فتى مثلي

وفي رواية : اللهم إنه كان لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة . كذا ذكر هذا الحديث فيه هشام . وقال مسلمة بن محارب : وقعت في رجل عروة الأكلة فقطعت ولم يمسكه أحد ، ولم يدع في تلك الليلة وردة . وقال الأوزاعي : لما نشرت رجل عروة قال : اللهم إنك تعلم أني لم أمش بها إلى سوء قط . وأنشد البيتين المتقدمين . رأى عروة رجلاً يصلّي صلاة خفيفة فدعاه فقال : يا أخي أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك ؟ إني لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح . قال عروة : رب كلمة ذل احتملتها أورثتني عزاً طويلاً . وقال لبنيه : إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، فإن

(١) سورة الكهف ، الآية/ ٦٣ .

الحسنة تدل على أختها ، والسيئة تدل على اختها . وكان عروة إذا دخل حائطه ردد هذه الآية : ﴿ وَلَولَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهِ لا قُوَّةَ إِلَّا بِالله ﴾[1] حتى يخرج منه والله سبحانه وتعالى أعلم][2] .

قيل إنه ولد في حياة عمر ، والصحيح أنه ولد بعد عمر في سنة ثلاث وعشرين ، وكانت وفاته في سنة أربع وتسعين على المشهور ، وقيل سنة تسعين ، وقيل سنة مائة ، وقيل إحدى وتسعين ، وقيل إحدى ومائة ، وقيل سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس وتسعين ، وقيل تسع وتسعين فالله أعلم .

(علي بن الحسين)

ابن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي المشهور بزين العابدين ، وأمه أم ولد اسمها سلامة ، وكان له أخ أكبر منه يقال له علي أيضاً ، قتل مع أبيه ، روى على هذا الحديث عن أبيه وعمه الحسن بن علي ، وجابر وابن عباس والمسور بن مخرمة وأبي هريرة وصفية وعائشة وأم سلمة ، أمهات المؤمنين . وعنه جماعة منهم بنوه زيد وعبد الله وعمر ، وأبو جعفر محمد بن علي بن قر ، وزيد بن أسلم ، وطاووس وهو من أقرانه ، والزهري ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وأبو سلمة وهو من أقرانه ، وخلق .

قال ابن خلكان : كانت أمْ سلمة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وذكر الزمخشري في ربيع الأبرار أن يزدجرد كان له ثلاث بنات سبين في زمن عمر بن الخطاب ، فحصلت واحدة لعبد الله بن عمر فأولدها سالماً ، والأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق فأولدها القاسم ، والأخرى للحسين بن علي فأولدها عليا زين العابدين هذا ، فكلهم بنو خالة . قال ابن خلكان : ولما قتل قتيبة بن مسلم فيروز بن يزدجرد بعث بابنتيه إلى الحجاج فأخذ إحداهما وبعث بالأخرى إلى الوليد ، فأولدها الوليد يزيد الناقص . وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف أن زين العابدين هذا كانت أمه سندية ، يقال لها سلامة ، ويقال غزالة ، وكان مع أبيه بكربلاء ، فاستبقى لصغره ، وقيل لمرضه ، فإنه كان ابن ثلاث وعشرين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وقد هم بقتلة عبيد الله بن زياد ، ثم صرفه الله عنه ، وأشار بعض الفجرة على يزيد بن معاوية بقتله أيضاً فمنعه الله منه ، ثم كان يزيد بعد ذلك يكرمه ويعظمه ويجلسه معه ، ولا يأكل إلا وهو عنده، ثم بعثهم إلى المدينة ، وكان علي بالمدينة محترماً معظماً . قال ابن عساكر : ومسجده بدمشق المنسوب إليه معروف . قلت : وهو مشهد علي بالناحية الشرقية من جامع دمشق . وقد استقدمه عبد الملك بن مروان مرة أخرى إلى دمشق فاستشاره في جواب ملك الروم عن بعض ما كتب إليه فيه من أمر السكة وطراز القراطيس[3] ، قال الزهري : ما رأيت قرشياً أورع منه ، ولا أفضل . وكان مع أبيه يوم قتل ابن ثلاث وعشرين سنة وهو مريض ، فقال عمر بن

---

(١) سورة الكهف ، الآية/ ٣٩ .

(٢) زيادة من المصرية .

(٣) القراطيس : مفردها قرطاس الصحيفة التي يُكْتَب فيها .

سعد : لا تعرضوا لهذا المريض . وقال الواقدي : كان من أورع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل ، وكان إذا مشى لا يخطر بيده ، وكان يعتم بعمامة بيضاء يرخيها من ورائه ، وكان كنيته أبا الحسن ، وقيل أبا محمد ، وقيل أبا عبد الله . وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأموناً كثير الحديث عالياً رفيعاً ورعاً ، وأمه غزالة خلف عليها بعد الحسين مولاه زبيد فولدت له عبد الله بن زبيد ، وهو على الأصغر ، فأما الأكبر فقتل مع أبيه . وكذا قال غير واحد ، وقال سعيد بن المسيب وزيد بن أسلم ومالك وأبو حازم : لم يكن في أهل البيت مثله . وقال يحيى بن سعيد الأنصاري : سمعت علي بن الحسين وهو أفضل هاشمي أدركته يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً . وفي رواية : حتى بغضتمونا إلى الناس . وقال الأصمعي : لم يكن للحسين عقب إلا من علي بن الحسين ، ولم يكن لعلي بن الحسين نسل إلا من ابن عمه الحسن ، فقال له مروان بن الحكم : لو اتخذت السراري[1] يكثر أولادك ، فقال : ليس ما أتسرى به ، فأقرضه مائة ألف فاشترى له السراري فولدت له وكثر نسله ، ثم لما مرض مروان أوصى أن لا يؤخذ من علي بن الحسين شيء مما كان أقرضه ، فجميع الحسينيين من نسله رحمه الله . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : أصح الأسانيد كلها الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده ، وذكروا أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلِّي ؛ فلما انصرف قالوا له : مالك لم تنصرف ؟ فقال : إني اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى ، وكان إذا توضأ يصفر لونه ، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد من الفرق[2] ، فقيل له في ذلك فقال :ألا تدرون بين يدي من أقوم ولمن أناجي؟ ولما حجَّ أراد أن يلبي فارتعد[3] وقال : أخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك ، فيقال لي : لا لبيك ، فشجعوه على التلبية ، فلما لبى غشي عليه حتى سقط عن الراحلة . وكان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة . وقال طاووس : سمعته وهو ساجد عند الحجر يقول : عبيدك بفنائك . سائلك بفنائك . فقيرك بفنائك ، قال طاووس : فوالله ما دعوت بها في كرب قط إلا كشف عني . وذكروا أنه كان كثير الصدقة بالليل ، وكان يقول صدقة الليل تطفىء غضب الرب ، وتنور القلب والقبر ، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة ، وقاسم الله تعالى ماله مرتين .

وقال محمد بن إسحاق : كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم في الليل بما يأتيهم به . ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب[4] إلى بيوت الأرامل والمساكين في الليل . وقيل إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولا يدرون بذلك حتى مات . ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد يعوده فبكى ابن أسامة فقال له ما يبكيك؟ قال: علي دين، قال: وكم هو قال خمسة عشر ألف دينار - وفي رواية سبعة عشر ألف دينار - فقال : هي علي . وقال علي بن الحسين : كان أبو بكر وعمر من رسول الله ﷺ في حياته بمنزلتهما منه بعد وفاته . ونال منه رجل يوماً

(١) السراري : الجواري .
(٢) الفرق : الخوف والاضطراب .
(٣) فارتعد : اضطرب واهتز .
(٤) الجراب : وعاء من جلد .

فجعل يتغافل عنه ـ يريه أنه لم يسمعه ـ فقال له الرجل : إياك أعني ، فقال لـه علي : وعنك أغضي . وخرجَ يوماً من المسجد فسبَّه رجل فانتدب الناسَ إليه ، فقال : دعوه ، ثم أقبـل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل فـألقى إليه خميصة(١) كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء . قالـوا : واختصم علي بن الحسين وحسن بن حسن ـ وكـان بينهما منـافسة ـ فنـال منه حسن بن حسن وهو ساكت، فلما كان الليل ذهب علي بن الحسين إلى منزله فقال : يا ابن عم إن كنت صادقاً يغفر الله لي ، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك والسلام عليك ، ثم رجع ، فلحقه فصالحه . وقيل له من أعظم الناس خطراً ؟ فقال : من لم يرَ الدنيا لنفسه قدراً ، وقال أيضاً : الفكرة مرآة ترى المؤمن حسناته وسيئاته ، وقال : فقد الأحبة غربة ، وكان يقول : إن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار ، وآخرون عبدوه محبة وشكراً فتلك عبادة الأحرار الأخيار . وقال لابنه : يا بني لا تصحب فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة وأقل منها يطمع فيها ثم لا ينالها ، ولا بخيلا فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه ، ولا كذاباً فإنه كالسراب يقرب منك البعيد ويباعد عنك القريب ، ولا أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولا قاطع رحم فإنه ملعون في كتاب الله . قال تعالى: ﴿ فهلْ عَسَيْتُمْ إنْ توليتمْ أنْ تُفْسِدُوا في الأرضِ وتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُمْ إولَئِكَ الذينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فأَصمَّهمْ وأعْمَى أبْصَارَهُم ﴾(٢) .

وكان علي بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم ، فقال له نافع بن جبير بن مطعم : غفر الله لك ، أنت سيد الناس تأتي تخطى حلق أهل العلم وقريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟ فقال له علي بن الحسين : إنما يجلس الرجل حيث ينتفع ، وإن العلم يطلب حيث كان . وقال الأعمش عن مسعود بن مالك قال قال لي علي بن الحسين : أتستطيع أن تجمع بيني وبين سعيد بن جبير ؟ فقلت : ما تصنع به ؟ قال أريد أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها ولا منقصة ، إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء ـ وأشار بيده إلى العراق ـ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن زر بن عبيد(٣) قال : كنت عند ابن عباس فأتى علي بن الحسين فقال ابن عباس : مرحبا بالحبيب ابن الحبيب . وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي : ثنا العلاء ثنا إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة عن أبي الزبير قال : كنا عند جابر بن عبد الله فدخل عليه علي بن الحسين فقال : كنت عنـد رسول الله ﷺ . فدخل عليه الحسين بن علي فضمه إليه وقبله وأقعده إلى جنبه ، ثم قال : « يولد لابني هذا ابن يقال له علي ، إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ليقم سيد العابدين ، فيقوم هو » هذا حديث غريب جداً أورده ابن عساكر . وقال الزهري : كان أكثر مجالستي مع علي بن الحسين ، وما رأيت أفقه منه ، وكان قليل الحديث ، وكان من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة ، وأحبهم إلى مروان وابنه

---

(١) خميصة: جمعها خمائص . ثوب أسود مربّع .

(٢) سورة محمد ، الآية / ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) لعله زر بن حبيش .

عبد الملك، وكان يُسَمَّى زين العابدين . وقال جويرية بن أسماء : ما أكل علي بن الحسين بقرابته من رسول الله ﷺ درهما قط . رحمه الله ورضي عنه . وقال محمد بن سعد : انبأ علي بن محمد عن سعيد بن خالد عن المقبري قال : بعث المختار إلى علي بن الحسين بمائة ألف فكره أن يقبلها وخاف أن يردها ، فاحتبسها عنده ، فلما قتل المختار كتب إلى عبد الملك بن مروان : إن المختار بعث إليَّ بمائة ألف فكرهت أن أقبلها وكرهت أن أردها ، فابعث من يقبضها . فكتب إليه عبد الملك : يا ابن عم ! خذها فقد طيبتها لك ، فقبلها . وقال علي بن الحسين : سادة الناس في الدنيا الأسخياء الأتقياء ، وفي الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم والأتقياء ، لأن العلماء ورثة الأنبياء . وقال أيضاً : إني لأستحي من الله عز وجل أن أرى الأخ من إخواني فأسأل الله له الجنة وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لي فإذا كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل ، وأبخل وأبخل . وذكروا أنه كان كثير البكاء فقيل له في ذلك فقال : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضَّت عيناه على يوسف ، ولم يعلم أنه مات ، وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة ، فترون حزنهم يذهب من قلبي أبداً ؟ وقال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ فسقط الابريق من يدها على وجهه فشجه[1] ، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله يقول: ﴿ والكَاظِمِينَ الغَيْظَ ﴾[2] ، فقال : قد كظمت غيظي ، قالت: ﴿ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾[3] فقال : عفا الله عنك . فقالت: ﴿ واللَّهُ يُحِبُّ المحسِنِينَ ﴾[4] . قال : أنت حرة لوجه الله تعالى .

وقال الزبير بن بكار : ثنا عبد الله بن إبراهيم بن قدامة اللخمي عن أبيه عن جده عن محمد بن علي عن أبيه قال : جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما ، ثم ابتدأوا في عثمان فقال لهم : أخبروني أأنتم من المهاجرين الأولين الذين﴿ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم وأَمْوَالِهِمْ يبتغونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضواناً وينصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[5] ؟ قالوا : لا قال : فأنتم من الذين ﴿ تبوَّؤُا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قبلهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إليهِمْ ﴾[6] ؟ قالوا لا ! فقال لهم : أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم :﴿ والذين جاؤ وا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ﴾[7] . الآية ، فقوموا عني لابارك الله فيكم ، ولاقرب دوركم ، أنتم مستهزئون بالإسلام ، ولستم من أهله . وجاء رجل فسأله متى يبعث علي ؟ فقال : يبعث والله يوم القيامة وتهمه نفسه . وقال ابن أبي الدنيا : حدثت عن سعيد بن سليمان عن علي بن هاشم عن أبي حمزة الثمالي أن علي بن الحسين كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إني أتصدق اليوم ـ أو أهب عرضي اليوم ـ من استحله . وروى ابن أبي الدنيا أن غلاماً سقط من يده سفود وهو يشوي شيئاً في

---

(١) فشجَّه : جرحه
(٢) سورة آل عمران ، الآية/ ١٣٤ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية/ ١٣٤ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية/ ١٣٤ .
(٥) سورة الحشر ، الآية/ ٨ .
(٦) سورة الحشر ، الآية / ٩ .
(٧) سورة الحشر ، الآية/ ١٠ .

التنور على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله ، فنهض علي بن الحسين مسرعاً ، فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حر ، ثم شرع في جهاز ابنه . وقال المدائني : سمعت سفيان يقول : كان علي بن الحسين يقول : ما يسرني أن لي بنصيبي من الذل حمر النعم : ورواه الزبير بن بكار من غير وجه عنه . ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه من أجل إسرافه ، فقال له علي بن الحسين : إن من وراء ابنك خلالا ثلاثاً ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وشفاعة رسول الله ، ورحمة الله عز وجل . وقال المدائني : قارف الزهري ذنباً فاستوحش منه وهام على وجهه وترك أهله وماله . فلما اجتمع بعلي بن الحسين قال له : يا زهري قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم من ذنبك ، فقال الزهري : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[1] وفي رواية أنه كان أصاب دماً حراماً خطأ فأمره علي بالتوبة والاستغفار وأن يبعث الدية إلى أهله ، ففعل ذلك . وكان الزهري يقول : علي بن الحسين أعظم الناس عليَّ منة .

وقال سفيان بن عيينة كان علي بن الحسين يقول : لا يقول رجل في رجل من الخير ما لا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشر ما لا يعلم ، وما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة . وذكروا أنه زوج أمه من مولى له وأعتق أمه فتزوجها فأرسل إليه عبد الملك يلومه في ذلك، فكتب إليه : ﴿ لقدْ كانَ لكمْ في رسولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لمنْ كانَ يَرجُو اللَّهَ واليومَ الآخِرَ وذكرَ اللَّهَ كثيراً ﴾[2] . وقد أعتق صفية فتزوجها ، وزوج مولاه زيد بن حارثة من بنت عمه زينب بنت جحش . قالوا : وكان يلبس في الشتاء خميصة[3] من خز بخمسين ديناراً ، فإذا جاء الصيف تصدَّق بها ، ويلبس في الصيف الثياب المرقعة ودونها ويتلو قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللَّهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[4] .

(وقد روى من طرق ذكرها الصولي والجريري وغير واحد أن هشام بن عبد الملك حج في خلافة أبيه وأخيه الوليد ، فطاف بالبيت ، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر فاستلم وجلس عليه ، وقام أهل الشام حوله ، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن الحسين ، فلما دنا من الحجر ليستلمه تنحى عنه الناس إجلالاً وهيبة واحتراماً ، وهو في بزة حسنة ، وشكل مليح ، فقال أهل الشام لهشام : من هذا ؟ فقال : لا أعرفه ـ استنقاصا به واحتقاراً لئلا يرغب فيه أهل الشام ـ فقال الفرزدق ـ وكان حاضراً ـ أنا أعرفه ، فقالوا : ومن هو ؟ فأشار الفرزدق يقول :

هـذا الذي تعـرفُ البطحاءُ[5] وطـأتـهُ * والبيتُ[6] يعـرفـهُ والحـلُ والحـرمُ
هـذا ابـنُ خيـرِ عبـادِ اللَّهِ كـلهـمِ * هـذا التقيَ النقيُ الـطاهـرُ الـعلمُ
إذا رأتـه قـريشٌ قـالَ قـائـلهـا * إلى مكـارمِ هـذا ينتـهِي الـكـرمُ
يُنْمَي إلى ذروةِ الـعـزِ التي قصـرتُ * عن نيلهـا عـربُ الإسـلامِ والعجمُ

(١) سورة الانعام ، الآية/ ١٢٤ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية/ ٢١ .
(٣) خميصة : : جمعها خمائص : ثوب أسود مربَّع .
(٤) سورة الأعراف ، الآية/ ٣١ .
(٥) البطحاء : أرض منبسطة ومسيل واسع في وسطها مكة .
(٦) والبيت : البيت العتيق ، الكعبة .

يكـادُ يمسكـهُ عـرفـان راحتـهِ ... رُكنُ الحـطيمِ [1] إذا ما جـاءَ يستلمُ

يُغضِي حيـاء ويغضى من مهـابتـهِ ... فمـا يكـلَّمُ إلا حيـنَ يبـتسـمُ

بكـفّـهِ خيـزرانٌ ريحـهـا عبـقٌ ... من كفِ أروعَ في عـرنينـةٍ[2] شممُ

مشتقـةٌ من رسـولِ الـلّهِ نبعتـهُ ... طابت عناصـرهـا والخيمُ والشيمُ[3]

ينجابَ نـورَ الهـدى مِن نـورِ غـرتـهِ ... كـالشمسِ ينجابُ عن إشـراقها الغيَمَ

حمـالُ أثقـالِ أقـوامٍ إذا فـدحـوا ... حـلوَ الشمـائـلِ تحلو عنـدهُ نـعمُ

هـذا ابنُ فـاطمـةٍ إن كنتَ جـاهلَهُ ... بـجـدهِ أنبـيـاءُ الله قـدْ ختـمـوا

مَنْ جـدهِ دانَ فضـلُ الأنبيـاءِ لـهُ ... وفـضـلُ أُمتـهِ دانـتَ لـهـا الأمـمُ

عمَ البـريـةَ بـالاحسانِ فـانقشعتْ[4] ... عنهـا الغوايةُ[5] والاملاقُ[6] والظلمُ

كلتـا يـديـهِ غيـاثٌ عـمَ نفعهـمـا ... يستـوكفـانِ ولا يعـروهمـا العـدمُ

سهـلُ الخـليقـةِ لا تـخشى بـوادرهُ ... يـزينهُ اثنتـانِ حُسْن الحلم والكـرمُ

لا يخلفُ الـوعـدُ ميمـونٌ بـغيبتـهِ ... رحـبُ الفنـاءِ أريبُ حيـن يعـتـزمُ

مـنْ معشـرٍ حبهم دينٌ وبغضهـم ... كـفـرُ وقـرٌ بهـم منجى ومعـتصـمُ

يستـدفـعُ الـسـوءَ والبـلوى بحبهـمُ ... ويستـزادُ بـهِ الاحسـانُ والنـعـمُ

مـقـدمُ بـعـدَ ذكـرِ الـلّهِ ذكـرهـمُ ... في كُـلِ حكمٍ ومختـومٌ بـهِ الكـلمُ

إنْ عـد أهـل التقى كـانـوا أئمتهم ... أو قيلَ: مِن خيرِ أهل الأرض ؟ قيلَ همُ

لا يستـطيـع جـوادٌ بـعـدَ غـايتهم ... ولا يـدانـيـهـمَ قـومٌ وإن كـرمـوا

هم الغيـوث[7] إذا مـا أزمـةٌ أزمتْ ... والأسد[8] أسد الشرى والبأسُ محتـدمُ

يـأبى لهم أن يحـلَّ الـذمُّ سـاحتهم ... خيم كـرام وايـدٍ بـالـنـدى هضـمُ

لا ينقصُ الـعـدمُ بسـطاً مِنْ أكفهمُ ... سيـانَ ذلـك إن أثـروا وإن عـدمـوا

أي الـخـلائق لـيست في رقـابهـم ... لأَوَّلـيـةِ هـذا أولـهُ نـعـمُ

فليسَ قـولـكَ من هـذا بـضـائـرهِ ... العـربُ تعـرفُ من أنكـرت والعجمُ

مـن يـعـرفُ الـلّهَ يـعـرف أوليـةَ ذا ... فـالـدينُ مِنْ بيت هـذا نـالـهُ الأممُ

قال : فغضب هشام من ذلك وأمر بحبس الفرزدق بعسفان ، بين مكة والمدينة ، فلما بلغ ذلك علي بن الحسين بعث إلى الفرزدق باثني عشر ألف درهم ، فلم يقبلها وقال : إنما قلت ما قلت لله عز وجل ونصرة للحق ، وقياماً بحق رسول الله ﷺ في ذريته ، ولست أعتاض عن ذلك بشيء . فأرسل إليه علي بن الحسين يقول : قد علم الله صدق نيتك في ذلك ، وأقسمت عليك بالله لتقبلنها فتقبلها منه ثم جعل يهجو هشاماً وكان مما قال فيه :

---

(١) الحطيم : ما بين ركن الكعبة والباب . وقيل : جدار الكعبة .
(٢) عرنينه : أنف الأسد .
(٣) الشّيم : الفضائل .
(٤) فانقشعت : انجلت .
(٥) الغواية : الضلالة .
(٦) الاملاق : الفقر .
(٧) الغيوث : الكرماء .
(٨) الأُسْد : مفردها الأسد .

تحبسني بينَ المدينةِ والتي إليها قلوبُ الناس تهوى منيبها
يقلِّبُ رأساً لم يكنْ رأس سيدٍ وعينينِ حولاوين بادٍ عيوبها

وقد روينا عن علي بن الحسين أنه كان إذا مرت به الجنازة يقول هذين البيتين :

نراعُ إذا الجنائزُ قابلتنا ونلهو حينَ نمضي ذاهباتِ
كروعةِ ثلّةٍ لمغارِ سبْعٍ فلمّا غابَ عادتْ راتعاتِ

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله المقري حدثني سفيان بن عيينة عن الزهري قال سمعت علي بن الحسين سيد العابدين يحاسب نفسه ويناجي ربه : ـ

يا نفس حتّام إلى الدنيا سكونك ، وإلى عمارتها ركونك ، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ومن وارته الأرض من ألّافك [1] ؟ ومن فجعت به من إخوانك ، ونقل إلى الثرى من أقرانك ؟ فهم في بطون الأرض بعد ظهورها ، محاسنهم فيها بوال دواثر .

خلت دورهم منهم وأقوت[2] عراصهم[3] وساقتهمُ نحوَ المنايا[4] المقادرُ
وخلوا عنَ الدنيا وما جمعوا لها وضمهُم تحتَ الترابِ الحفائرُ

كم خرمت أيدي المنون من قرون بعد قرون ، وكم غيرت الأرض ببلائها ، وغيبت في ترابها ، ممن عاشرت من صنوف وشيعتهم إلى الأمارس ، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الافلاس : ـ

وأنتَ على الدنيا مكبٌّ منافس لخطابها فيها حريصٌ مكاثرُ
على خطرٍ تمشي وتصبحُ لاهياً أتدري بماذا لو عقلتَ تخاطرُ
وإنّ امرءاً يسعى لدنياهُ دائباً ويذهلُ عن أخراهُ لا شكَ خاسرُ

فختام على الدنيا إقبالك؟ وبشهواتها اشتغالك ؟ وقد وخطك القتير ، وأتاك النذير ، وأنت عما يراد بك ساه وبلذة يومك وغدك لاه ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات ، وعاينت ما حل بهم من المصيبات ،

وفي ذكرِ ، هولِ الموتِ والقبرُ والبلى عَن اللهوِ واللذاتِ للمرءِ زاجرُ
أبعدَ اقترابِ الأربعينَ تربصٌ وشيبُ قذالٌ منذرٌ للكابرُ
كأنك معنيٌ بما هو ضائرُ لنفسكَ عمداً وعَنِ الرشدِ حائرُ

---

(١) الألّاف : اصدقاؤك ومحبُّوك .

(٢) وأقوت : خلت .

(٣) عراصهم : ساحاتهم .

(٤) المنايا : الموت .

انظر إلى الأمم الماضية والملوك الفانية كيف اختطفتهم عقبان الأيام ، ووافاهم الحمام[١] ، فانمحت من الدنيا آثارهم ، وبقيت فيها أخبارهم ، وأضحوا رمماً[٢] في التراب ، إلى يوم الحشر والمآب ،

أمسحوا رميماً في التـرابِ وعطلت ... مجالسهم منهم وأخلى مقاصرُ
وحلوا بدارٍ لا تزاورَ بينهم ... وأنى لسكانِ القبورِ التزاورُ
فما أن ترى إلا قبوراً قد ثووا بها ... مسطّحةً تُسفَى عليها الأعاصرُ[٣]

كم من ذي منعة وسلطان وجنود وأعوان ، تمكن من دنياه ، ونال فيها ما تمناه ، وبنى فيها القصور والدساكر[٤] ، وجمع فيها الأموال والذخائر ، وملح السراري والحرائر .

فما صرفتْ كف المنيةِ إذ أتت ... مبادرة تهوى إليهِ الذخائرُ
ولا دفعت عنه الحصونُ التي بنى ... وحفَ بها أنهارهُ والدساكرُ
ولا قارعت عنه المنية حيلة ... ولا طمعت في الذبِ عنه العساكرُ

أتاه من الله ما لا يرد ، ونزل به من قضائه مالا يصد ، فتعالى الله الملك الجبار ، المتكبر العزيز القهار ، قاصم الجبارين ، ومبيد المتكبرين ، الذي ذل لعزه كل سلطان ، وأباد بقوته كل ديان .

مليك عزيز لا يرد قضاؤهُ ... حكيمٌ عليمٌ نافذُ الأمرِ قاهرُ
عني كل ذي عز لعزةِ وجههِ ... فكم من عزيزٍ للمهيمنِ صاغرُ
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت ... لعزةِ ذي العرشِ الملوكُ الجبابرُ

فالبدار البدار والحذار الحذار من الدنيا ومكايدها ، وما نصبت لك من مصايدها ، وتحلت لك من زينتها ، وأظهرت لك من بهجتها ، وأبرزت لك من شهواتها ، وأخفت عنك من قواتلها وهلكاتها ،

وفي دونِ ما عاينتُ من فجعاتها ... إلى دفعها داعٍ وبالزهدِ آمرُ
فجدَّ ولا تغفل وكن متيقظاً ... فعما قليلٍ يتركَ الدارَ عامرُ
فشمرْ ولا تفترْ فعمركَ زائلٌ ... وأنتَ إلى دارِ الإقامةِ صائرُ
ولا تطلب الدنيا فإن نعيمها ... وإنْ نلتَ منها غبهُ لكَ ضائرُ

فهل يحرص عليها لبيب ، أو يسر بها أريب ؟ وهو على ثقة من فنائها ، وغير طامع في بقائها ،

---

(١) الحِمام : الموت .
(٢) رمماً : بقايا العظام .
(٣) الأعاصر : الدهور .
(٤) الدساكر : (فارسية) مفردها : دَسْكَرَة : وهي القرية العظيمة .

ام كيف تنام عينا من يخشى البيات ، وتسكن نفس من توقع في جميع أموره الممات .

ألا لا ولـكـنـا نـغـرُّ نـفـوسـنـا — وتـشـغلـنـا الـلذاتُ عـمـا نـحـاذرُ
وكـيفَ يـلذُ العـيشُ من هـو مُـوقفٌ — بمـوقفِ عـدلٍ يـومَ تبلى الـسرائرُ[1]
كـأنـا نـرى أن لا نـشـورَ وأنـنـا — سدى مـالنـا بعـد الممـاتِ مصادرُ

وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها ويتمتع به من بهجتها ، مع صنوف عجائبها وقوارع فجائعها ، وكثرة عذابه في مصابها وفي طلبها ، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها .

أمـا قـد نـرى في كـل يـومٍ وليلةٍ — يـروحُ عـلينـا صـرفـهـا ويبـاكـرُ
تـعـاورنَـا آفـاتُـهـا وهـمـومُـهـا — وكمْ قـد تـرى يبقىَ لهـا المتعـاورُ
فـلا هـوَ مـغـبـوطٌ بـدنـيـاهُ آمـنٌ — ولا هـوَ عنْ تَـطلابهـا النفسَ قـاصـرُ

كم قد غرت الدنيا من مخلد إليها ، وصرعت من مكب عليها ، فلم تنعشه من عثرته ، ولم تنقذه من صرعته ، ولم تشفه من ألمه ، ولم تبره من سقمه . ولم تخلصه من وصمه .

بـل أوردتـهُ بـعـد عـزٍ ومـنـعـةٍ — مـواردَ سـوءٍ مـا لـهـنَّ مـصـادرُ
فـلمـا رأى أن لا نـجـاةَ وأنـهُ — هـو الموت لا ينجيـهِ منه التحـاذرُ
تـنـدم إذ لـم تـغنِ عـنـه نـدامـةٌ — عليـهِ وأبكتـهُ الـذنـوبُ الكبـائـرُ

إذ بكى على ما سلف من خطاياه ، وتحسر على ما خلف من دنياه ، واستغفر حتى لا ينفعه الاستغفار ، ولا ينجيه الاعتذار ، عند هول المنية ونزول البلية .

أحـاطت بـه أحـزانـهُ وهـمـومـهُ — وأبـلسَ لـمـا أعـجـزتـهُ المـقـادرُ
فليسَ لـه من كـربـة المـوتِ فـارجٌ — وليـسَ لـه مـمـا يـحـاذرُ نـاصـرُ
وقـد جشأت[2] خـوفَ المنيةِ نفسـهُ — تـرددهـا منـهُ اللهـا[3] والحنـاجـرُ

هنالك خف عواده ، وأسلمه أهله وأولاده ، وارتفعت البرية بالعويل ، وقد أيسوا من العليل ، فغمضوا بأيديهم عينيه ، ومد عند خروج روحه رجليه ، وتخلى عنه الصديق ، والصاحب الشفيق

فكم مـوجـعٍ يبكـي عليـهِ مفجّـعٌ — ومستنجـدٍ صبراً ومـا هـو صـابـرُ
ومسترجـعٍ داعٍ لـه اللّهَ مخلصـاً — يـعـدد مـنـه كـلَ مـا هـوَ ذاكـرُ
وكـمْ شـامتٍ مـستـبـشـرٍ بـوفـاتـه — وعمّـا قليـلٍ للذي صـارَ صـائـرُ

فشقت جيوبها نساؤه ، ولطمت خدودها إماؤه ، وأعول لفقده جيرانه ، وتوجع لرزيته

---

(١) السَّرائر : الضمائر والنفوس .

(٢) جشأت : خرجت .

(٣) اللها : جمعها لَهوات : وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

إخوانه ، ثم أقبلوا على جهازه ، وشمروا لابرازه ، كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى ، ولا الحبيب المبدى .

وحلَّ أحبُّ القوم كانَ بقربهِ يحثُّ على تجهيزه ويبادرُ
وشمرَّ من قد أحضروه لغسلهِ ووجّه لما فاضَ للقبرِ حافرُ
وكفنَ في ثوبينِ واجتمعت لهُ مشيّعةً إخوانهُ والعشائرُ

فلو رأيت الأصغر من أولاده ، وقد غلب الحزن على فؤاده ، ويخشى من الجزع عليه ، وخضبت الدموع عينيه ، وهو يندب أباه ويقول : يا ويلاه واحرباه : -

لعاينتُ من قبحِ المنيةِ منظرا يهالُ لمرآةُ ويرتاعُ ناظرُ
أكابرُ أولادٍ يهيجُ اكتئابهم إذا ما تناساهُ البنونُ الأصاغرُ
وربَّة نسوانٍ عليهِ جوازعُ مدامعهم فوقَ الخدودِ غوازرُ

ثم أخرج من سعة قصره ، إلى ضيق قبره ، فلما استقر في اللحد وهيء عليه اللبن ، احتوشته أعماله وأحاطت به خطاياه ، وضاق ذرعاً بما رآه ، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب ، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب ، ثم وقفوا ساعة عليه ، وأيسوا من النظر إليه ، وتركوه رهناً بما كسب وطلب .

فولوا عليهِ معولينَ وكلهمْ لمثل الذي لاقى أخوهُ محاذرُ
كشاءٍ رتاعٍ آمنينَ بدا لها بمديته[1] بادي الذراعينِ حاسرُ
فريعْت ولم ترتع قليلاً وأجفلتْ فلما نأى عنها الذي هو جازرُ

عادت إلى مرعاها ، ونسيت ما في أختها دهاها ، أفبأفعال الأنعام اقتدينا ؟ أم على عادتها جرينا ؟ عد إلى ذكر المنقول إلى دار البلى ، واعتبر بموضعه تحت الثرى ، المدفوع إلى هول ما ترى .

ثوى مفرداً في لحده وتوزعت مواريثه أولادُه والأصاهرُ [2]
وأحنوا على أموالهِ يقسمونها فلا حامدٌ منهم عليها وشاكرُ
فيا عامرَ الدنيا ويا ساعياً لها ويا آمنا من أن تدورَ الدوائرُ

كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائر إليها لا محالة ؟ أم كيف ضيعت حياتك وهي مطيتك إلى مماتك ؟ أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظر حمامك ؟ أم كيف تهنأ بالشهوات ، وهي مطية الآفات .

ولم تتزوّدُ للرحيلِ وقد دنا وأنتَ على حالٍ وشيكٍ مسافرٌ

---

(١) بمديته : بسكّينه .

(٢) والأصاهر : مفردها الصهر : القرابة .

فيـا لهفَ نفسي كم أسوفَ تـوبتي * وعمـريَ فـانٍ والـردى ليَ نـاظـرُ
وكل الذي أسلفت في الصحف مثبتٌ * يجـازى عليـهِ عـادلُ الحكم قـادرُ

فكم ترقع بآخرتك دنياك ، وتركب غيك وهواك ، أراك ضعيف اليقين ، يا مؤثر الدنيا على الدين أبهذا أمرك الرحمن ؟ أم على هذا نزل القرآن ؟ أما تذكر ما أمامك من شدة الحساب ، وشر المآب ، أما تذكر حال من جمع وثمر ، ورفع البنـاء وزخرف وعمّـر ، أما صـار جمعهم بورا ، ومساكنهم قبورا :

تخـرّبُ مـا يبقى وتعمـرُ فـانيـاً * فـلا ذاكَ مـوفـورٌ ولا ذاكَ عـامـرُ
وهلْ لكَ إن وافاكَ حتفكَ بغتةً[1] * ولم تكتسب خيـراً لـدى الله عـاذرُ
أتـرضى بأن تفنى الحيـاةُ وتنقضي * ودينـكَ منقـوصٌ ومـالـكَ وافـرُ

وقـد اختلف أهل التـاريخ في السنـة التي توفي فيهـا علي بن الحسين، زين العابـدين ، فالمشهور عن الجمهور أنه توفي في هذه السنـة ـ أعني سنة أربـع وتسعين ـ في أولها عن ثمـان وخمسين سنة ، وصلى عليه بالبقيع ، ودفن به ، قال الفلاس : مات علي بن الحسين وسعيد بن المسيب وعروة وأبو بكر بن عبد الرحمن سنة أربع وتسعين ، وقال بعضهم : توفي سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين ، وأغرب المدائني في قوله : إنه توفي سنة تسع وتسعين والله أعلم انتهى ما ذكره المؤلف [من ترجمة علي بن الحسين ، وقد رأيت له كلاماً متفرقاً وهو من جيد الحكمة ، فأحببت أن أذكره لعل الله ينفع به من وقف عليه :

قال حفص بن غياث عن حجاج عن أبي جعفر عن علي بن الحسين قال : إن الجسد إذا لم يمرض أشر وبطر ، ولا خير في جسد يأشر ويبطر . وقال أبو بكر بن الانباري : حدثنا أحمد بن الصلت حدّثنا قاسم بن إبراهيم العلوي حدثنا أبي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال علي بن الحسين : فقد الأحبة غـربة . وكـان يقول : اللهم إني أعـوذ بك أن تحسن في لـوامع العيـون علانيتي ، وتقبح في خفيات الغيوب سريرتي ، اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ ، فاذا عدت فعد إليَّ . اللهم ارزقني مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت على من فضلك . وقال لابنه : يا بني اتخذ ثوباً للغائط فاني رأيت الذباب يقع على الشيء ثم يقع على الثوب . ثم انتبه فقال : وما كان لرسول الله ﷺ وأصحابه إلا ثوب واحد ، فرفضه . وعن أبي حمزة الثمالي قال : أتيت باب علي بن الحسين فكرهت أن أصوت فقعدت على الباب حتى خرج فسلمت عليه ودعوت له فرد عليَّ السلام ودعا لي ، ثم انتهى الى حائط فقال : يا حمزة ترى هذا الحائط ؟ قلت : نعم ! قال : فإني اتكأت عليه يوماً وأنا حزين فإذا برجل حسن الوجه حسن الثياب ينظر في تجاه وجهي ، ثم قال : يا علي بن

(1) بغتة : فجأة .

الحسين ! مالي أراك كئيباً حزيناً على الدنيا ! فهي رزق حاضر يأخذ منها البر والفاجر . فقلت : ما عليها أحزن لأنها كما تقول ، فقال : على الآخرة ؟ فهي وعد صادق ، يحكم فيها ملك قـادر ، فقلت : ما على هذا أحزن لأنه كما تقول . فقال : فعلامَ حزنك ؟ فقلت : ما أتخوف من الفتنة ـ يعني فتنة ابن الزبير ـ فقال لي : يا علي ! هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا ! قال ويخـاف الله فلم يكفـه ؟ قلت : لا ! ثم غاب عني فقيل لي : يا علي إن هذا الخضر الذي جاءك لفظ الخضر مزاد فيه من بعض الرواة .

وقال الطبراني : حدّثنا محمد بن عبد الله الخضري حدّثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن عمر بن حارث . قال : لما مات علي بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد في ظهره . فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جُرُب [1] الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة . وقال ابن عائشة : سمعت أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين .

وروى عبد الله بن حنبل عن ابن اشكاب عن محمد بن بشر عن أبي المنهال الطائي أن علي بن الحسين كان إذا ناول المسكين الصدقة قبله ثم ناوله . وقال الطبري : حدثنا يحيى بن زكريا الغلابي حدثنا العتبي حدثني أبي . قال : قال علي بن الحسين ـ وكان من أفضل بني هاشم الأربعة ـ يا بني اصبر على النوائب ولا تتعرض للحقوق ، ولا تخيِّب أخاك إلا في الأمر الذي مضرته عليك أكثر من منفعته لك . وروى الطبراني بإسناده عنه : أنه كان جالساً في جماعة فسمع داعية في بيته فنهض فدخل منزله ثم رجع إلى مجلسه ، فقيل له : أمن حدث كانت الداعية ؟ قال : نعم ! فعزُّوه وتعجبوا من صبره ، فقال : إنا أهل بيت نطيع الله عز وجل فيما نحبه ، ونحمـده على ما نكـره . وروى الطبراني عنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الفضل فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة . فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ! قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نحن أهل الفضل ، قالوا : وما كان فضلكم ؟ قالوا : كنا إذا جهل علينا حملنا ، وإذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسيء إلينا غفرنا ، قالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ثم ينادي مناد : ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس فيقـال لهم انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : فما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معصية الله ، وصبرناها على البلاء . فقالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ثم ينادي المنادى : ليقم جيران الله في داره ! فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك ، فيقولون : بم استحققتم مجاورة الله عز وجل في داره ؟ فيقولون : كنا نتزاور في الله ، ونتجالس في الله ، ونتباذل في الله عز وجل . فيقال لهم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

---

(١) جُرُب : مفردها جراب . وعاء من الجلد .

وقـال علي بن الحسين : إن الله يحب المؤمن المذنب التـواب . وقال : التـارك لـلأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره ، إلا أن يتقى منهم تقاة . قالوا : وما تقاه ؟ قال : يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يطغى . وقال رجل لسعيد بن المسيب : ما رأيت أحداً أورع من فلان . فقال له سعيد : هل رأيت علي بن الحسين ؟ قال : لا ! قال : ما رأيت أورع منه .

وروى سفيان بن عيينة عن الزهري . قـال : دخلت على علي بن الحسين فقال : يـا زهري فيم كنتم ؟ قلت : كنا نتذاكر الصوم ، فأجمع رأيي ورأي أصحـابي على أنه ليس من الصـوم شيء واجب ، إلا شهر رمضان ، فقال : يا زهري ليس كما قلتم ، الصوم على أربعين وجهاً ، عشرة منها واجب كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها حرام ، وأربعة عشر منها صاحبها بالخيار ، إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب ، قال الزهري قلت : فسِّرهن يا ابن رسول الله ﷺ ، قال : أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصوم شهرين متتابعين في قتل الخطأ لمن لم يجد العتق ، وصيام ثلاثة أيام كفارة اليمين لمن لم يجد إلا طعام ، وصيام حلق الرأس ، وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدي وصوم جزاء الصيد ، يقوِّم الصيد قيمته ثم يقسم ذلك الثمن على الحنطة . وأما الذي صاحبه بالخيار فصوم الإثنين والخميس ، وستة أيام من شوَّال بعد رمضان ، وصوم عرفة ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه بالخيار . أما صوم الأذن فالمرأة لا تصوم تطوعاً إلا بإذن زوجها ، وكذلك العبد والأمة [1] ، وأما صوم الحرام فصوم يوم الفطر والأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم الشك ، نهينا أن نصومه لرمضان . وصوم الوصال حرام ، وصوم الصمت حرام ، وصوم نذر المعصيـة حرام ، وصـوم الدهـر ، وصـوم الضيف لا يصـوم تـطوعـاً إلا بـاذن صـاحبـه ، قـال رسول الله ﷺ : « من نزل على قوم فلا يصومن تطوعاً إلا بأذنهم » . وأما صوم الاباحة فمن أكل أو شرب ناسياً أجزأه صومه ، وأما صوم المريض والمسافر فقال قوم : يصوم ، وقال قوم لا يصوم ، وقال قوم إن شاء صام وإن شاء أفطر » وأما نحن فنقول : يفطر في الحالين ، فان صام في السفر والمرض فعليه القضاء] [2] .

ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المدني أحد الفقهاء السبعة ، قيل اسمه محمد ، وقيل اسمه أبو بكر ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، والصحيح ان اسمه وكنيته واحد ، وله من الأولاد والأخوة كثير ، وهو تابعي جليل ، روى عن عمار وأبي هريرة وأسماء بنت أبي بكر ، وعائشة وأم سلمة وغيرهم ، وعنه جماعة منهم بنوه سلمة وعبد الله وعبـد الملك وعمر ، ومـولاه سمى ، وعامر الشعبي وعمر بن عبد العزيز ، وعمرو بن دينار ، ومجاهد ، والـزهري . ولـد في

---

(١) والأَمَة : الجارية .

(٢) زيادة من المصرية .

خلافة عمر ، وكان يقال له راهب قريش ، لكثرة صلاته ، وكان مكفوفاً ، وكان يصوم الدهر ، وكان من الثقة والأمانة والفقه وصحة الرواية على جانب عظيم ، قال أبو داود : وكان قد كف وكان إذا سجد يضع يده في طست لعلة كان يجدها . والصحيح أنه مات في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها . والله أعلم .

[قلت : ونظم بعض الشعراء بيتين ذكر فيهما الفقهاء السبعة فقال :

ألا كـلَ من لا يقتـدى بـأئمـةٍ   فقسمتـه حبـراً عنِ الحقِ خـارجـهْ
فخـذهم عبيـدَ الله عـروةَ قـاسمٍ   سعيـد أبو بكر سليمـانَ خـارجـهْ

وفيها توفي الفضل بن زياد الرقاشي ، أحد زهاد أهل البصرة ، وله مناقب وفضائل كثيرة جداً ؛ قال : لا يلهينك الناس عن ذات نفسك ، فإن الأمر يخلص إليك دونهم ، ولا تقطع نهارك بكيت وكيت ، فإنه محفوظ عليك ما قلت . وقال : لم أرَ شيئاً أحسن طلباً ، ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم .

أبو سلمة أبو عبد الرحمن بن عوف الزهري ، كان أحد فقهاء المدينة ، وكان إماماً عالماً ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وكان واسع العلم . توفي بالمدينة .

عبد الرحمن بن عائذ الأزدي ، له روايات كثيرة ، وكان عالماً ، وخلف كتباً كثيرة من علمه ، روى عن جماعة من الصحابة ، وأسر يوم وقعة ابن الأشعث فأطلقه الحجاج .

عبد الرحمن بن معاوية بن خزيمة ، قاضي مصر لعمر بن عبد العزيز بن مروان وصاحب شرطته ، كان عالماً فاضلاً ، روى الحديث وعنه جماعة] (١) .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد بلاد الروم ، وافتتح حصوناً كثيرة . وفيها فتح مسلمة بن عبد الملك مدينة في بلاد الروم ، ثم حرقها ثم بناها بعد ذلك بعشر سنين ، وفيها افتتح محمد بن القاسم مدينة المولينا (٢) من بلاد الهند ، وأخذ منها أموالاً جزيلة ، وفيها قدم موسى بن نصير من بلاد الأندلس إلى إفريقية ومعه الأموال على العجل تحمل من كثرتها ، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي ، وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الشاش ، ففتح مدناً وأقاليم كثيرة ، فلما كان هناك جاءه الخبر بموت الحجاج بن يوسف فقمعه ذلك ورجع بالناس إلى مدينة مرو وتمثل بقول بعض الشعراء :

---

(١) زيادة من المصرية .
(٢) كذا ولعلّها (الملتان) .

لعمري لنعم المرءُ من آلِ جعفرٍ بحورانَ أمسى أعلقتهُ الحبائلُ
فإن تحيى لا أملك حياتي وإن تمتْ فما في حياتي بعدَ موتكَ طائلُ

وفيها كتب الوليد إلى قتيبة بأن يستمر على ما هو عليه من مناجزة الأعداء ، ويعده على ذلك ويجزيه خيراً ، ويثني عليه بما صنع من الجهاد وفتح البلاد وقتال أهل الكفر والعناد . وقد كان الحجَّاج استخلف على الصلاة ابنه عبد الله ، فولى الوليد الصلاة والحرب بالمصرين - الكوفة والبصرة - يزيد بن أبي كبشة ، وولى خراجهما يزيد بن مسلم ، وقيل كان الحجاج يستخلفهما على ذلك فأقرهما الوليد ، واستمر سائر نواب الحجاج على ما كانوا عليه ، وكانت وفاة الحجاج لخمس ، وقيل لثلاث بقين من رمضان ، وقيل مات في شوال من هذه السنة .

وحج بالناس فيها بشر بن الوليد بن عبد الملك ، قاله أبو معشر والواقدي . وفيها قتل الوضاحي بأرض الروم ومعه ألف من أصحابه ، وفي هذه السنة كان مولد أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(وهذه ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي وذكر وفاته)

هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف، وهوقسي بن منبه بن بكر بن هوازن، أبو محمد الثقفي، سمع ابن عباس وروى عن أنس وسمرة بن جندب وعبد الملك بن مروان وأبي بردة بن أبي موسى ، وروى عنه أنس بن مالك ، وثابت البناني ، وحميد الطويل ، ومالك بن دينار ، وجواد بن مجالد ، وقتيبة بن مسلم ، وسعيد بن أبي عروبة. قاله ابن عساكر ، قال : وكانت له بدمشق دور منها دار الراوية بقرب قصر ابن أبي الحديد . وولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير ، ثم عزله عنها وولاه العراق . وقدم دمشق وافداً على عبد الملك ، ثم روى من طريق المغيرة بن مسلم ، سمعت أبي يقول : خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر ، فما زال يقول : إنه بيت الوحدة ، وبيت الغربة ، حتى بكى وأبكى من حوله ، ثم قال : سمعت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول : سمعت مروان يقول في خطبته : خطبنا عثمان بن عفان فقال في خطبته : « ما نظر رسول الله ﷺ إلى قبر أو ذكره إلا بكى » . وهذا الحديث له شاهد في سنن أبي داود وغيره ، وساق من طريق أحمد بن عبد الجبار : ثنا يسار عن جعفر عن مالك بن دينار قال : دخلت يوماً على الحجاج فقال لي : يا أبا يحيى ألا أحدثك بحديث حسن عن رسول الله ﷺ ؟ فقلت : بلى ! فقال : حدثني أبو بردة عن أبي موسى . قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له إلى الله حاجة فليدع بها في دبر صلاة مفروضة » . وهذا الحديث له شاهد عن فضالة بن عبيد وغيره في السنن والمسانيد والله أعلم .

قال الشافعي : سمعت من يذكر أن المغيرة بن شعبة دخل على امرأته وهي تتخلل - أي تخلل

أسنانها لتخرج ما بينها من أذى ـ وكان ذلك في أول النهار ، فقال : والله لئن كنت باكرت الغذاء إنك لرعينة دنية ، وإن كان الذي تخللين منه شيء بقي في فيك من البارحة إنك لقذرة ، فطلقها فقالت : والله ما كان شيء مما ذكرت ، ولكنني باكرت ما تباكره الحرة من السواك ، فبقيت شظية في فمي منه فحاولتها لأخرجها . فقال المغيرة ليوسف أبي الحجاج : تزوجها فانها لخليقة بأن تأتي برجل يسود ، فتزوجها يوسف ابو الحجاج . قال الشافعي : فأخبرت أن أبا الحجاج لما بنى بها واقعها فنام فقيل له في النوم : ما أسرع ما ألقحت بالمبير .

قال ابن خلكان : واسم أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي ، وكان زوجها الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب ، وذكر عنه هذه الحكاية في السواك . وذكر صاحب العقد أن الحجاج كان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف ، ثم قدم دمشق فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك ، فشكا عبد الملك إلى روح أن الجيش لا ينزلون لنزوله ولا يرحلون لرحيله ، فقال روح : عندي رجل توليه ذلك ، فولى عبد الملك الحجاج أمر الجيش ، فكان لا يتأخر أحد في النزول والرحيل ، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون فضربهم وطوف بهم وأحرق الفسطاط ، فشكا روح ذلك الى عبد الملك ، فقال للحجاج : لِمَ صنعت هذا ؟ فقال: لم أفعله إنما فعله أنت ، فإن يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما ضرك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه ، وبدل الغلام غلامين ، ولا تكسرني في الذي وليتني ؟ ففعل ذلك وتقدَّم الحجاج عنده . قال : وبنى واسط في سنة أربع وثمانين ، وفرغ منها في سنة ست وثمانين ، وقيل قبل ذلك قال : وفي أيامه نُقِّطَتْ المصاحف ، وذكر في حكايته ما يدل أنه كان أولاً يُسَمَّى كليباً ، ثم سُمِّيَ الحجاج . وذكر أنه ولد ولا مخرج له حتى فتق له مخرج ، وأنه لم يرتضع أياماً حتى سقوه دم جدي ثم دم سالح [1] ولطخ وجهه بدمه فارتضع ، وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء ، لأنه أول ما ارتضع ذلك الدم الذي لطخ به وجهه ، ويقال إن أمه هي المتمنية لنصر بن حجاج بن علاط ، وقيل إنها أم أبيه والله أعلم . وكانت فيه شهامة عظيمة ، وفي سيفه رهق [2] ، وكان كثير قتل النفوس التي حرمها الله بأدنى شبهة ، وكان يغضب غضب الملوك ، وكان فيما يزعم يتشبه بزياد بن أبيه ، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب فيما يُزعم أيضاً ، ولا سواء ولا قريب . وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة سليم بن عنز التجيبي قاضي مصر ، وكان من كبار التابعين . وكان ممن شهد خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، وكان من الزهادة والعبادة على جانب عظيم ، وكان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث ختمات في الصلاة وغيرها .

والمقصود أن الحجاج كان مع أبيه بمصر في جامعها فاجتاز بهما سليم بن عنز هذا

---

(١) سالح : حامل السلاح .

(٢) رهق : الاثم والتهمة و ـ الجهل والخفة .

فنهض إليه أبو الحجاج فسلَّم عليه ، وقال له : إني ذاهب إلى أمير المؤمنين ، فهل من حاجة لك عنده ؟ قال : نعم ، تسأله أن يعزلني عن القضاء . فقال : سبحان الله !! والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك. ثم رجع الى ابنه الحجاج فقال له ابنه: يا أبة أتقوم الى رجل من تجيب وأنت ثقفي ؟ فقال له : يا بني والله إني لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله . فقال : والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله ، فقال : ولم يا بنيَّ ؟ قال : لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبي بكر وعمر ، فيحقر الناس سيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئاً عند سيرتهما فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه ، ولا يرون طاعته ، والله لو خلص لي من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله . فقال له أبوه : يا بنيَّ والله إني لأظن أن الله عز وجل خلقك شقياً . وهذا يدل على أن أباه كان ذا وجاهة عند الخليفة ، وأنه كان ذا فراسة صحيحة ، فانه تفرَّس [1] في ابنه ما آل إليه أمره بعد ذلك .

قالوا : وكان مولد الحجاج في سنة تسع وثلاثين ، وقيل في سنة أربعين ، وقيل في سنة إحدى وأربعين ، ثم نشأ شاباً لبيباً فصيحاً بليغاً حافظاً للقرآن ، قال بعض السلف : كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة ، وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري ، وكان الحسن أفصح منه . وقال الدارقطني : ذكر سليمان بن أبي منيح عن صالح بن سليمان قال : قال عقبة بن عمرو : ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا الحجاج وإياس بن معاوية ، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس . وتقدم أن عبد الملك لما قتل مصعب بن الزبير سنة ثلاث وسبعين بعث الحجاج إلى أخيه عبد الله بمكة فحاصره بها وأقام للناس الحج عامئذٍ ، ولم يتمكن ومن معه من الطواف بالبيت ، ولا تمكن ابن الزبير ومن عنده من الوقوف ، ولم يزل محاصره حتى ظفر به في جمادى سنة ثلاث وسبعين ، ثم استنابه عبد الملك على مكة والمدينة والطائف واليمن ، ثم نقله إلى العراق بعد موت أخيه بشر ، فدخل الكوفة كما ذكرنا ، وقال لهم وفعل بهم ما تقدم إيراده مفصلاً ، فأقام بين ظهرانيهم عشرين سنة كاملة . وفتح فيها فتوحات كثيرة ، هائلة منتشرة ، حتى وصلت خيوله إلى بلاد الهند والسند ، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم ، ووصلت خيوله أيضاً إلى قريب من بلاد الصين ، وجرت له فصول قد ذكرناها . ونحن نورد هنا أشياء أخر مما وقع له من الأمور والجراءة والإقدام ، والتهاون في الأمور العظام ، مما يمدح على مثله ومما يذم بقوله وفعله ، مما ساقه الحافظ ابن عساكر وغيره :

فروى أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أيوب عن عبد الله بن كثير ابن أخي إسماعيل بن جعفر المديني ما معناه : أن الحجاج بن يوسف صلَّى مرة بجنب سعيد بن المسيب

(١) تفرَّس : نظر وحدَّق .

ـ وذلك قبل أن يلي شيئاً ـ فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود ، فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه ـ وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة ـ فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره ، ثم أقبل عليه سعيد فقال له : يا سارق يا خائن ، تصلي هذه الصلاة ، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك . فلم يرد عليه ثم مضى الحجاج إلى الحج ، ثم رجع فعاد إلى الشام ، ثم جاء نائباً على الحجاز . فلما قتل ابن الزبير كر راجعاً إلى المدينة نائباً عليها ، فلما دخل المسجد إذا مجلس سعيد بن المسيب ، فقصده الحجاج فخشي الناس على سعيد منه ، فجاء حتى جلس بين يديه فقال له : أنت صاحب الكلمات ؟ فضرب سعيد صدره بيده وقال : نعم ! قال : فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك . ثم قام ومضى . وروى الرياشي عن الأصمعي وأبي زيد عن معاذ بن العلاء ـ أخي أبي عمرو بن العلاء ـ قال : لما قتل الحجاج ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فأمر الناس فجمعوا في المسجد ثم صعد المنبر فقال بعد حمد الله والثناء عليه : يا أهل مكة ! بلغني إكباركم قتل ابن الزبير ، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ونازع فيها أهلها ، فنزع طاعة الله واستكن [1] بحرم الله ، ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله ، إن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأباح له كرامته ، وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ، اذكروا الله يذكركم .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا إسحاق بن يوسف ثنا عون عن أبي الصديق الناجي أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبي بكر بعدما قتل ابنها عبد الله فقال : إن ابنك ألحد [2] في هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم ، وفعل . فقالت : كذبت ، كان براً بوالديه ، صواماً قواماً ، والله لقد أخبرنا رسول الله ﷺ « أنه يخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول ، وهو مبير » [3] . ورواه أبو يعلى عن وهب بن بقية عن خالد عن عون عن أبي الصديق . قال : بلغني أن الحجاج دخل على أسماء فذكر مثله ، وقال أبو يعلى : ثنا زهير ثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد عن قيس بن الأحنف عن أسماء بنت أبي بكر . قالت : سمعت رسول الله ﷺ نهى عن المثلة . وسمعته يقول : « يخرج من ثقيف رجلان كذاب ومبير » . قالت فقلت للحجاج : أما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت هو يا حجاج . وقال عبيد بن حميد : أنبأ يزيد بن هارون أنبأ العوام بن حوشب حدثني من سمع أسماء بنت أبي بكر الصديق تقول للحجاج حين دخل عليها يعزيها في ابنها : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج من ثقيف رجلان مبير

(١) استكنّ : التجأ واطمأنّ .
(٢) أَلْحد : دُفِنَ .
(٣) مبير : مُهْلِك .

وكذاب » . فأما الكذاب فابن أبي عبيد ـ تعني المختار ـ وأما المبير فأنت . وتقدم في صحيح مسلم من وجه آخر أوردناه عند مقتل ابنها عبد الله ، وقد رواه غير أسماء عن النبي ﷺ فقال أبو يعلى : ثنا أحمد بن عمر الوكيعي ثنا وكيع حدثتنا أم عراب عن امرأة يقال لها عقيلة عن سلامة بنت الحر قالت : قال رسول الله ﷺ : « في ثقيف كذاب ومبير » . تفرد به أبو يعلى . وقد روى الإمام أحمد عن وكيع عن أم عراب ـ واسمها طلحة ـ عن عقيلة عن سلامة حديثاً آخر في الصلاة ، وأخرجه أبو داود وابن ماجة ، وروى من حديث ابن عمر ، فقال أبو يعلى : ثنا أمية بن بسطام ثنا يزيد بن ربيع ثنا إسرائيل ثنا عبد الله بن عصمة قال : سمعت ابن عمر « أنبأنا رسول الله ﷺ أن في ثقيف مبيراً وكذاباً » وأخرجه الترمذي من حديث شريك عن عبد الله بن عاصم ويقال عصمة . وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك .

وقال الشافعي : ثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج عن نافع أن ابن عمر اعتزل ليالي قتال ابن الزبير والحجاج بمنى ، فكان لا يصلي مع الحجاج . وقال الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر أنه دخل على الحجاج فلم يسلم عليه ولم يكن يصلي وراءه . وقال إسحاق بن راهويه : أنبأ جرير عن القعقاع بن الصلت قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير غير كتاب الله ، فقال ابن عمر : ما سلطه الله على ذلك ، ولا أنت معه ، ولو شئت أقول : كذبت لفعلت . وروى عن شهر بن حوشب وغيره أن الحجاج أطال الخطبة فجعل ابن عمر يقول : الصلاة الصلاة مراراً ، ثم قام فأقام الصلاة فقام الناس ، فصلى الحجاج بالناس ، فلما انصرف قال لابن عمر : ما حملك على ذلك ؟ فقال : إنما نجيء للصلاة فصل الصلاة لوقتها ثم تفتق [1] ما شئت بعد من تفتقه .

وقال الأصمعي : سمعت عمي يقول : بلغني أن الحجاج لما فرغ من ابن الزبير وقدم المدينة لقي شيخاً خارجاً من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة ، فقال : بشرٍّ حال ، قتل ابن حواري رسول الله ﷺ ، فقال الحجاج : ومن قتله ؟ فقال : الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن [2] الله وتهلكته ، من قليل المراقبة لله . فغضب الحجاج غضباً شديداً ثم قال : أيها الشيخ ! أتعرف الحجاج إذا رأيته ؟ قال : نعم ! فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضراً . فكشف الحجاج عن لثامه وقال : ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة . فلما تحقق الشيخ الجد قال : والله إن هذا لهو العجب يا حجاج ، لو كنت تعرفني ما قلت هذه المقالة ، أنا العباس بن أبي داود ، أصرع كل يوم خمس مرات ، فقال الحجاج : انطلق فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه .

---

(١) تفتق : تفتّق فلان بالكلام : أنطق به لسانه .

(٢) لعائن : مفردها لعنة .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عبد الصمد ثنا حماد بن سلمة عن ابن أبي رافع عن عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك : أتمكنه من ذلك ؟ فقال : وما بأس من ذلك . قال : أشد الناس والله ، قال : كيف ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما في صدري على آل الزبير منذ تزوجت [1] رملة بنت الزبير ، قال : وكأنه كان نائماً فأيقظه ، فكتب إلى الحجاج يعزم عليه بطلاقها فطلقها . وقال سعيد بن أبي عروبة : حج الحجاج مرة فمر بين مكة والمدينة فأتى بغذائه فقال لحاجبه : انظر من يأكل معي ، فذهب فاذا أعرابي نائم فضربه برجله وقال : أجب الأمير ، فقام فلما دخل على الحجاج قال له : اغسل يديك ثم تغدّ معي ، فقال : إنه دعاني من هو خير منك ، قال : ومن ؟ قال : الله دعاني إلى الصوم فأجبته ، قال : في هذا الحر الشديد ؟ قال : نعم صمت ليوم هو أشد حراً منه ، قال : فأفطر وصم غداً ، قال : إن ضمنت لي البقاء لغد . قال : ليس ذلك لي ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه ؟ قال : إن طعامنا طعام طيب ، قال : لم تطيِّبه أنت ولا الطَّباخ ، إنما طيبته العافية .

فصل

قد ذكرنا كيفية دخول الحجاج الكوفة في سنة خمس وسبعين وخطبته إياهم بغتة ، وتهديده ووعيده[2] إياهم ، وأنهم خافوه مخافة شديدة ، وأنه قتل عُمَيْر بن ضابىء ، وكذلك قتل كميل بن زياد صبرا ، ثم كان من أمره في قتال ابن الأشعث ما قدمنا ، ثم تسلط على من كان معه من الرؤساء والأمراء والعبَّاد والقراء ، حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبير . قال القاضي المعافي زكريا : ثنا أحمد بن محمد بن سعد الكلبي ثنا محمد بن زكريا الغلابي ثنا محمد ـ يعني ابن عبد الله بن عباس ـ عن عطاء ـ يعني ابن مصعب ـ عن عاصم قال : خطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم ، فقال : يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم ، والعصب[3] والمسامع ، والأطراف ، ثم أفضى إلى الاسماخ[4] والامخاخ ، والأشباح والأرواح ، ثم ارتع[5] فعشش ، ثم باض وفرخ ، ثم دب ودرج ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشعركم خلافاً ، اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤتمناً تشاورونه وتستأمرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز حيث منيتم المكر واجتمعتم على الغدر ، واتفقتم على الكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ،

---

(١) كذا بالأصول والظاهر ان في مواضع من هذا الخبر تحريفاً . (٢) الوعيد : التهديد .

(٣) العصب : يريد بها الأعصاب.

(٤) الأسماخ : جمع سماخ ، وهو والج الأذن عند الدماغ.

(٥) أرتع : أقام مرتاحاً .

وأنـا والله أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لـواذاً[١] ، وتنهزمـون سراعـا . ويوم الـزاويـة ومـا يـو الـزاوية ، ممـا كان من فشلكم وتنـازعكم وتخاذلكم وبـراءة الله منكم ، ونكـوس [٢] قلوبكم وليتم كـالإبل الشـاردة عن أوطانهـا النوازع ، لا يسـأل المرء منكم عن أخيـه ، ولا يلوي الشيء على بنيـه ، حين عضكم السـلاح ، ونخعتكم الـرمـاح . ويـوم ديـر الجمـاجم ومـا يـوم ديـر الجمـاجم ، بها كـانت المعارك والمـلاحم ، بضرب يـزيـل الهـام [٣] عن مقيله [٤] ، ويـذهـل الخليل عن خليله . يا أهـل العراق يـا أهل الكفـران بعد الفجـران ، والغدران بعـد الخذلان والنـزوة بعـد النـزوات ، إن بعثنـاكم إلى ثغـوركم غللتـم[٥] وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتم وإن خفتم نـافقتم ، لا تـذكـرون نعمـة ، ولا تشكـرون معـروفـاً ، مـا استخفكم نـاكث[٦] ولا استغـواكم غـاو ، ولا استنقـذكم عـاص ، ولا استنصـركم ظـالم ، ولا استعضـدكـم خالع ، إلا لبيتم دعوته ، وأجبتم صيحته ، ونفرتم إليه خفافاً وثقالاً ، وفرساناً ورجالاً . يـا أهل العراق هل شغب شاغب ، أو نعـب[٧] ناعب ، أو زفر زافر إلا كنتم أتبـاعه وأنصـاره ؟ يا أهـل العراق ألـم تنفعكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ ألم يشدد الله عليكم وطـأته ، ويـذقكم حر سيفـه ، وأليم بأسـه ومثلاتـه ؟. ثم التفت إلى أهل الشـام فقال : يـا أهل الشـام إنمـا أنـا لكم كـالظليم[٨] الـرامح[٩] عن فـراخه ينفي عنهـا القذر ، ويبـاعد عنهـا الحجـر ، ويكنُّها[١٠] من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذباب . يا أهل الشام ! أنتم الجُنة[١١] والبرد ، وأنتم الملاءة[١٢] والجلد ، أنتم الأولياء والأنصار ، والشعار والدثار ، بكم يذب عن البيضة[١٣] والحوذة[١٤] ، وبكم تُرْمَى كتائب الأعداء ويهزم من عاند وتولى .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن الحسين حدثنا عبيد الله بن محمد التميمي سمعت شيخاً من قريش يكنى أبا بكر التيمي قال : كان الحجاج يقول في خـطبته ـ وكـان لَسِناً ـ إن الله خلق آدم وذريته من الأرض فأمشـاهم على ظهرهـا ، فأكلوا ثمـارها وشـربوا أنهـارها وهتكـوها بالمساحي[١٥] والمرور ، ثم أدال[١٦] الله الأرض منهم فردهم إليهـا فأكلت لحـومهم كما أكلوا ثمارها ، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها ، وقطعتهم في جوفها وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحي والمرور .

---

(١) لواذاً : إلتجاءً واحتماءً.
(٢) نكوس : تراجع وخوف .
(٣) الهام : الرأس.
(٤) مقيله : مكانه .
(٥) غللتم : تراجعتم ولم تنفذوا ما عهد إليكم.
(٦) الناكث : الذي لا يفي بالعهد.
(٧) نعب : صاح وصوّت، من نعيب الغراب.
(٨) كالظليم : الذكر من النعام .
(٩) الرامح : ثور رامح : له قرنان . وهي هنا بمعنى المُدافع والحامي .
(١٠) ويكنُّها : يحميها ويسترها .
(١١) الجُنَّة : العُدَّة والذخيرة .
(١٢) الملاءة : العباءة .
(١٣) البيضة : الساحة والبلد .
(١٤) والحوذة : القبيلة والمجتمع .
(١٥) بالمساحي : الأرض المستوية ذات حصىً صغار لا نبات فيها .
(١٦) أدال : جعله متداولاً .

ومما رواه غير واحد عن الحجاج أنه قال في خطبته في المواعظ : الرجل وكلكم ذاك الرجل ، رجل خطم [1] نفسه وزمها فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وكفها بزمامها عن معاصي الله ، رحم الله امرءاً رد نفسه ، أمرءاً اتهم نفسه ، امرءاً اتخذ نفسه عدوة ، أمرءاً حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره ، أمرءاً نظر إلى ميزانه ، امرءاً نظر إلى حسابه ، أمرءاً وزن عمله ، أمرءاً فكر فيما يقرأ غداً في صحيفته ويراه في ميزانه ، وكان عند قلبه زاجراً ، وعند همه آمراً ، أمرءاً أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جمله ، فان قاده إلى طاعة الله تبعه ، وإن قاده الى معصية الله كف ، أمرءاً عقل عن الله أمره ، أمرءاً فاق واستفاق ، وأبغض المعاصي والنفاق ، وكان إلى ما عند الله بالأشواق . فما زال يقول أمرءاً أمرءاً ، حتى بكى مالك بن دينار .

وقال المدائني عن عوانة بن الحكم قال : قال الشعبي : سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد ، يقول : أما بعد فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء . فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل . وقال المدائني عن أبي عبد الله الثقفي عن عمه قال : سمعت الحسن البصري يقول : وقذتني [2] كلمة سمعتها من الحجاج سمعته يقول على هذه الأعواد : إن امرءاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحرى أن تطول عليها حسرته الى يوم القيامة . وقال شريك القاضي عن عبد الملك بن عمير قال : قال الحجاج يوماً : من كان له بلاء أعطيناه على قدره ، فقام رجل فقال : اعطني فاني قتلت الحسين ، فقال : وكيف قتلته؟ قال : دسرته [3] بالرمح دسراً ، وهبرته [4] بالسيف هبراً ، وما أشركت معي في قتله أحداً . فقال : اذهب فوالله لا تجتمع أنت وهو في موضع واحد ، ولم يعطه شيئاً . وقال الهيثم بن عدي : جاء رجل إلى الحجاج فقال : إن أخي خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمي في الديوان ومنعت العطاء وقد هدمت داري ، فقال الحجاج ، أما سمعت قول الشاعر :

حَنانَيْكَ من تَجنَّى عليكَ وَقَد ... تعدَّى الصِحاحَ مباركُ الجَرَبِ
ولربَّ مأخوذٍ بذنبِ قريبِهِ ... ونجا المُقارِفُ [5] صاحبُ الذنْبُ ؟

فقال الرجل : أيها الأمير ! إني سمعت الله يقول غير هذا ، وقول الله أصدق من هذا ، قال : وما قال ؟ قال : ﴿ قالوا يا أَيُّها العزيزُ إنَّ لهُ أَباً شَيْخَاً كَبِيراً فخذْ أَحدنَا مكانَهُ إنا نَراكَ مِنَ

---

(١) خطم : أسكت وقهر .
(٢) وقذتني : صرعتني . ضربتني ضرباً شديداً . حتى أشرفت على الموت .
(٣) دسرته : طعنته .
(٤) هبرته : قطعته .
(٥) المقارف : صاحب الذنوب .

المحسِنِينَ ، قَالَ مَعاذَ الله أَنْ نأخُذَ إلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمُونَ ﴾ [1] قال : يا غلام أعد اسمه في الديوان وابن داره ، واعطه عطاءه ، ومر منادياً ينادي صدق الله وكذب الشاعر . وقال الهيثم بن عدي عن ابن عباس : كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إليَّ برأس أسلم بن عبد البكري ، لما بلغني عنه ، فأحضره الحجاج فقال : أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب ، وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا إنْ جاءَكُمْ فَاسِقٌ بنبأٍ فتبيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قوماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [2] . وما بلغه باطل ، وإني أعول أربعاً وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيري وهن بالباب ، فأمر الحجاج باحضارهن ، فلما حضرن جعلت هذه تقول : أنا خالته ، وهذه أنا عمته ، وهذه أنا أخته ، وهذه أنا زوجته ، وهذه أنا بنته ، وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشر ، فقال لها الحجاج : من أنت ؟ فقالت : أنا ابنته ، ثم قالت : أصلح الله الأمير ، وجثت على ركبتيها وقالت :

أحجاجُ لم تشهدْ مقامَ بناتهِ	وعماتهِ يندبنهُ الليلَ أجمعا
أحجاجُ كم تقتل بهِ إن قتلته	ثماناً وعشراً واثنتينِ وأربعا
أحجاجُ منْ هذا يقومَ مقامهُ	علينا فمهلاً إن تزدنا تضعضعا
أحجاج إما أن تجودَ بنعمةٍ	علينا وإما أن تقتلنا معا

قال • فبكى الحجاج وقال : والله لا أعنت عليكن ولازدتكن تضعضعا ، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل ، وبما قالت ابنته هذه ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره باطلاقه وحسن صلته وبالاحسان إلى هذه الجارية وتفقدها في كل وقت ، وقيل إن الحجاج خطب يوماً فقال : أيها الناس الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك يا حجاج ما أصفق وجهك وأقل حياءك ، تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ خبث وضل سعيك ، فقال للحرس خذوه ، فلما فرغ من خطبته قال له : ما الذي جرأك عليَّ ؟ فقال : ويحك يا حجاج ، أنت تجترىء على الله ولا أجترىء أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترىء عليك ، وأنت تجترىء على الله رب العالمين ، فقال : خلوا سبيله ، فأطلق .

وقال المدائني : أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث فأمر بقتلهما ، فقال أحدهما : إن لي عندك يداً ، قال : وما هي ؟ قال : ذكر ابن الأشعث يوماً أمك فرددت عليه ، فقال : ومن يشهد لك ؟ قال : صاحبي هذا ! فسأله فقال : نعم ! فقال : ما منعك أن تفعل كما فعل ؟ قال : بغضك ، قال اطلقوا هذا لصدقه ، وهذا لفعله . فأطلقوهما . وذكر محمد بن زياد عن

---

(١) سورة يوسف ، الآية/ ٧٨- ٧٩ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية/ ٦ .

ابن الأعرابي فيما بلغه أنه كان رجل من بني حنيفة يقال له جحدر بن مـالك وكـان فاتكـاً بأرض اليمامة ، فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه ، فما زال نائبها في طلبه حتى أسره وبعث بـه إلى الحجاج ، فقـال له الحجـاج : ما حملك على مـا كنت تصنعه ؟ فقـال : جراءة الجنان[1] ، وجفاء السلطان ، وكلب الزمان ، ولو اختبرني الأمير لوجدني من صالـح الأعوان ، وشهم الفرسان ، ولوجدني من أصلح رعيته ، وذلك أني ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدراً ، فقال له الحجاج : إنا قاذفوك في حائر[2] فيه أسد عاقر فإن قتلك كفانا مؤنتك ، وإن قتلته خلينا سبيلك . ثم أودعه السجن مقيداً مغلولة يده اليمنى إلى عنقه ، وكتب الحجاج إلى نائبه بكسكر أن يبعث بأسد عظيم ضار ، وقد قال جحدر هذا في محبسه هذا اشعاراً يتحزن فيها على امرأته سليمى أم عمرو يقول في بعضها :

ألـيسَ الـليـلُ يـجمـعُ أم عـمـرو	وإيـانـا فـذاكَ بـنـا تـدانـي
بـلى وتـرى الـهـلالَ كـمـا نـراهُ	ويـعـلوهـا الـنـهـارُ إذا عـلانـي
إذا جـاوزتـمـا نـخـلاتِ نـجـدٍ	وأوديةَ الـيـمـامـةِ فـانـعـيـانـي
وقـولا جـحـدرٌ أمـسـى رهـيـنـاً	يحـاذرُ وقـعَ مصـقـولٍ[3] يمـانـي

* فلما قدم الأسد على الحجاج أمر به فجوع ثلاثة أيام ، ثم أبرز إلى حائر ـ وهو البستان ـ وأمر بجحدر فأخرج في قيوده ويده اليمنى مغلولة بحالها ، وأعطي سيفاً في يده اليسرى وخلى بينه وبين الأسد وجلس الحجاج وأصحابه في منظرة ، وأقبل جحدر نحو الأسد وهو يقول :

لـيثٌ ولـيثٌ فـي مجـالِ ضـنـكِ[4]	كـلاهـمـا ذو أنـفٍ ومـحـكِ
وشـدةٍ فـي نـفـسـهِ وفـتـكِ	إن يـكـشـفِ الـلّهُ قـنـاعَ الـشـكِ

* فهوَ أحقُ منزلٍ بتركِ *

فلما نظر إليه الأسد زأر زأرة شديدة وتمطى وأقبل نحوه فلما صار منه على قدر رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربة خالط ذباب السيف لهواته ، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح ، من شدة الضربة ، وسقط جحدر من شدة وثبة الأسد وشدة موضع القيود عليه ، فكبر الحجاج وكبر أصحابه وأشار جحدر يقول :

يـا جمـلُ إنـكِ لـو رأيتِ كـريهتي	في يـومِ هولٍ مسـدفٍ[5] وعجاجِ[6]
وتـقـدمـي لـليثِ أرسـفُ مـوثـقـاً	كـيـمـا أسـاورهُ عـلى الأخـراجِ
شـثـنٌ[7] بـراثـنـهُ كـأنَ نـيـوبـهُ	زرقُ الـمعـاولِ أو شـبـاةُ زجـاجِ
يسمـو بنـاظـرتينِ تحـسبُ فيهـمـا	لـهـبـاً أحـدّهـمـا شـعـاعُ سـراجِ

---

(١) الجنان : القلب .
(٢) حائر : مجتمع الماء .
(٣) مصقول : سيف قاطع .
(٤) ضنك : ضيق .
(٥) مسدف : مظلم .
(٦) وعجاج : الواحد عَجَاجَة : الغبار .
(٧) شثن : خشنت وغلظت .

وكأنما خيطتْ عليه عباءةٌ ... برقاء أو خرقاً مِنَ الديباجِ
لعلمتِ أني ذو حفاظٍ ماجدٍ ... من نسلِ أقوامٍ ذوي أبراجِ

فعند ذلك خيره الحجاج إن شاء أقام عنده ، وإن شاء انطلق الى بلاده، فاختار المقام عند الحجاج ، فأحسن جائزته وأعطاه أموالاً . وأنكر يوماً أن يكون الحسين من ذرية رسول الله ﷺ لأنه ابن بنته ، فقال له يحيى بن يعمر : كذبت ! فقال الحجاج : لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك ، فقال قال الله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وسليمانَ ﴾[1] إلى قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾[2] . فعيسى من ذرية إبراهيم ، وهو إنما ينسب إلى أمه مريم ، والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ . فقال الحجاج : صدقت ، ونفاه إلى خراسان .

وقد كان الحجاج مع فصاحته وبلاغته يلحن في حروف من القرآن أنكرها يحيى بن يعمر ، منها أنه كان يبدل إن المكسورة بان المفتوحة وعكسه ، وكان يقرأ: ﴿ قل إن كان أباؤكم وأبناؤكم ﴾ إلى قوله ﴿ أحب إليكم ﴾ فيقرأها برفع أحب . وقال الأصمعي وغيره : كتب عبد الملك إلى الحجاج يسأله عن أمس واليوم وغد ، فقال للرسول : أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنده ؟ قال : نعم ! فكتب الحجاج إلى عبد الملك : أما أمس فأجل ، وأما اليوم فعمل ، وأما غداً فأمل . وقال ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن أبي عبيدة معمر بن المثنى . قال : لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق ، وسع على الناس في العطاء ، فكتب إليه عبد الملك : أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق في اليوم ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الأسبوع وتنفق في الاسبوع ما لا ينفقه أمير المؤمنين في الشهر ، ثم قال منشداً :

عليك بتقوى اللّهِ في الأمر كلهِ ... وكن يا عبيدَ اللّهِ تخشى وتضرعُ
ووفرْ خراجَ المسلمينَ وفيأهم[3] ... وكنّ لهمُ حصناً تجيرُ وتمنعُ

فكتب إليه الحجاج :

لعمري لقد جاءَ الرسولُ بكتبكم ... قراطيسُ تملا ثم تطوى فتطبعُ
كتابٌ أتاني فيه لينٌ وغلظةٌ ... وذكرتُ والذكرى لذي اللبِ تنفعُ
وكانت أمورٌ تعتريني كثيرة ... فأرضخ أو اعتل حيناً فأمنعُ
إذا كنتَ سوطاً من عذابٍ عليهمُ ... ولم يك عندي بالمنافعِ مطمعُ
أيرضى بذاكَ الناسُ أو يسخطونهُ ... أم احمدَ فيهم أم ألام فأقذعُ
وكانَ بلادُ جئتها حينَ جئتها ... بها كلُ نيرانِ العداوةِ تلمعُ
فقاسيتُ منها ما علمتَ ولم أزل ... أصارعَ حتى كدتُ بالموتِ أصرعُ
وكم أرجفوا من رجفةٍ قد سمعتها ... ولو كانَ غيري طار مما يروعُ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية/ ٨٤.

(٢) سورة الأنعام ، الآية / ٨٥ .

(٣) وفيأهم : غنيمتهم وخراجهم .

وكنتُ إذا هموا بإحدى نهاتهم ... حسرت لهم رأسي ولا أتقنعُ
فلو لم يذد عني صناديد[1] منهمُ ... تقسمَ أعضائي ذئابٌ وأضبعُ

قال : فكتب إليه عبد الملك : أن أعمل برأيك . وقال الثوري عن محمد بن المستورد الجمحي قال : أتي الحجاج بسارق فقال له لقد كنت غنياً أن تكسب جناية فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل عليك عضواً من أعضائك ، فقال الرجل : إذا قلّ ذات اليد سخت النفس بالمتالف . قال : صدقت والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنت له موضعاً . يا غلام سيف صارم ورجل قاطع ، فقطع يده . وقال أبو بكر بن مجاهد عن محمد بن الجهم عن الفراء قال : تغدى الحجاج يوماً مع الوليد بن عبد الملك فلما انقضى غداؤ هما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ[2] فقال : يا أمير المؤمنين الحلال ما أحللت ، ولكني أنهى عنه أهل العراق وأهل عملي ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾[3] . وقال عمر بن شبة عن أشياخه قال : كتب عبد الملك إلى الحجاج يعتب عليه في إسرافه في صرف الأموال ، وسفك الدماء ، ويقول : إنما المال مال الله ونحن خزّانه ، وسيان منع حق أو إعطاء باطل . وكتب في أسفل الكتاب هذه الأبيات : ـ

إذا أنتَ لم تتركْ أموراً كرهتها ... وتطلبْ رضائي في الذي أنا طالبهْ
وتخشى الذي يخشاهُ مثلكَ هارباً ... إلى الله منهُ ضيعَ الدرَ حالبهُ
فإن تر مني غفلةً قرشيةً ... فيا ربما قد غص بالماء شاربهُ
وإن ترَ مني وثبةً أمويةً ... فهذا وهذا كلهُ أنا صاحبهُ
فلا تعدُ ما يأتيكَ مني فإن تعدْ ... تقمْ فاعلمن يوماً عليكَ نوادبهُ

فلما قرأه الحجاج كتب : أما بعد فقد جاءني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الأموال ، والدماء ، فوالله ما بالغت في عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حق أهل الطاعة ، فإن كان ذلك سرفاً فليحدّ لي أمير المؤمنين حداً انتهي إليه ولا أتجاوزه ، وكتب في أسفل الكتاب :

إذا أنا لم أطلب رضاكَ وأتقي ... أذاكَ فيومي لا توارت كواكبهُ
إذا قارفَ الحجاجَ فيك خطيئة ... فقامتْ عليهِ في الصباحِ نوادبهُ
أسالمُ من سالمتَ من ذي هوادةٍ ... ومن لا تسالمهُ فإني محاربهُ
إذا أنا لم أدنِ الشفيق لنصحهِ ... وأقصِ الذي تسري إليَّ عقاربهُ
فمن يتقي يومي ويرجو إذا غدي ... على ما أرى والدهرُ جمٌ[4] عجائبهُ

---

(١) صناديد : دواهي . و ـ جماعة العسكر .

(٢) ما يسمى في هذا العصر نبيذاً هو الخمر المحض ، وهوغير ما كان يسميه سلفنا نبيذاً . والنبيذ عندهم هو التمر أو الزبيب يترك عليه الماء ويسمونه بعد ذلك نبيذاً سواء أسكر أو لم يسكر . وفي كلتا الحالتين فإنه أشبه بعصير القصب اليوم إن لم يكن دونه .

(٣) سورة هود الآية / ٨٨ .

(٤) جم : غفير .

وعن الشافعي أنه قال قال الوليد بن عبد الملك للغاز بن ربيعة أن يسأل الحجاج فيما بينه وبينه : هل يجد في نفسه مما أصاب من الدنيا شيئاً ؟ فسأله كما أمره ، فقال : والله ما أحب أن لي لبنان أو سبير ذهباً أنفقه في سبيل الله مكان ما أبلاني الله من الطاعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

فيما روى عنه من الكلمات النافعة والجراءة البالغة

قال أبو داود : ثنا محمد بن العلاء ثنا أبو بكر عن عاصم قال سمعت الحجاج وهو على المنبر يقول : اتقوا الله ما استطعتم ، ليس فيها مثنوية ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك ، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لي دماؤهم وأموالهم ، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً ، وما عذيري من عبد هذيل يزعم أن قرآنه من عند الله ، والله ما هي الأرجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه ﷺ ، وعذيري من هذه الحمراء ، يزعم أحدهم يرمى بالحجر فيقول لي إن تقع الحجر حدث أمر ، فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر . قال : فذكرته للأعمش فقال : وأنا والله سمعته منه . ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة عن محمد بن يزيد عن أبي بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود والأعمش أنهما سمعا الحجاج قبحه الله يقول ذلك ، وفيه والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لي دماؤكم ، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه ، ولأحكّنها من المصحف ولو بضلع خنزير . ورواه غير واحد عن أبي بكر بن عياش بنحوه ، وفي بعض الروايات : والله لو أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه . وهذا من جراءة الحجاج قبحه الله ، وإقدامه على الكلام السيء ، والدماء الحرام . وإنما نقم على قراءة ابن مسعود رضي الله عنه لكونه خالف القراءة على المصحف الإمام الذي جمع الناس عليه عثمان ، والظاهر أن ابن مسعود رجع إلى قول عثمان وموافقيه والله أعلم .

وقال علي بن عبد الله بن مبشر عن عباس الدوري عن مسلم بن إبراهيم : ثنا الصلت بن دينار سمعت الحجاج على منبر واسط يقول : عبد الله بن مسعود رأس المنافقين ، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه . قال وسمعته على منبر واسط وتلا هذه الآية : ﴿ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾[1] . قال : والله إن كان سليمان لحسوداً . وهذه جراءة عظيمة تفضي به إلى الكفر : قبحه الله وأخزاه ، وأبعده وأقصاه .

[قال أبو نعيم : حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة . قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إني جئتك من عند رجل يملي المصاحف عن ظهر قلب ، ففزع عمر وغضب وقال : ويحك ، انظر ما تقول . قال : ما جئتك إلا بالحق ، قال : من هو ؟ قال عبد الله بن مسعود . قال : ما أعلم أحداً أحق بذلك منه ، وسأحدثك عن ذلك . « إنا سهرنا ليلة في بيت عند أبي بكر في بعض

---

(١) سورة ص ، الآية / ٣٥ .

ما يكون من حاجة النبي ﷺ ثم خرجنا ورسول الله ﷺ يمشي بيني وبين أبي بكر ، فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ فقام النبي ﷺ يستمع إليه ، فقلت : يا رسول الله اعتمت ، فغمزني بيده - يعني اسكت - قال : فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو ويستغفر ، فقال النبي ﷺ : سلّ نفطه[1] ثم قال : من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد ، فعلمت أنـا وصاحبي أنه عبد الله بن مسعود ، فلما أصبحت غدوت إليه لأبشره فقال : سبقك بها أبو بكر ، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه » وهذا الحديث قد رُوِي من طرق ، فرواه حبيب بن حسان عن زيد بن وهب عن عمر مثله ، ورواه شعبة وزهير وخديج عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله ، ورواه عاصم عن عبد الله ، ورواه الثوري وزائدة عن الأعمش نحوه . وقال أبو داود : حدثنا عمر بن ثابت عن أبي إسحاق عن حمير بن مالك قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : « أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لصبي مع الصبيان ، فأنا لا أدع ما أخذت من في رسول الله ﷺ » وقد رواه الثوري وإسرافيل عن أبي إسحاق به . وفي رواية ذكرها الطبراني عنه قال : « لقد تلقيت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة أحكمتهـا قبل أن يسلم زيـد بن ثابت ، ولـه ذؤابة[2] يلعب مع الغلمان » . وقد روى أبو داود عنه وذكر قصة رعيه الغنم لعقبة بن أبي معيط ، وأنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إنك غلام معلّم ، قال : فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد » . ورواه أبو أيوب الافريقي وأبو عوانة عن عاصم عن زر عنه نحوه . وقال له النبي ﷺ : « إذنك أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادي حتى أنهاك » . وقد رُوِيَ هذا عنه من طرق .

وروى الطبراني عن عبد الله بن شداد بن الهاد أن عبد الله كان صاحب الوساد والسواد والسواك والنعلين . وروى غيره عن علقمة قال : قدمت الشام فجلست إلى أبي الدرداء فقال لي : ممن أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة ، فقال : أليس فيكم صاحب الوساد والسواك ؟وقال الحارث بن أبي أسامة : حدثنا عبد العزيز بن أبان حدثنا قطر بن خليفة حدثنا أبو وائل قال سمعت حذيفة يقول ، وابن مسعود قائم : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ ، من أقربهم وسيلة يـوم القيامة . وقد رُوِيَ هذا عن حذيفة من طرق ، فرواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي وائل عن حذيفة ورواه عن أبي وائل فاضل الأحدب وجامع بن أبي راشد ، وعبيدة ، وأبو سنان الشيباني ، وحكيم بن جبير ، ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن حذيفة .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول : قلنا لحذيفة أخبرنا بـرجل قـريب الهدي[3] والسمت[4] من رسـول الله ﷺ حتى نلزمه ، فقال : ما أعلم أحداً أقرب هديا وسمتا من رسول الله ﷺ حتى يواريه جدار بيته من ابن أم عبد ، ولقد علم المحفوظون من أصحاب النبي ﷺ أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة . قلت : فهذا

---

(١) هذا الخبر في الاستيعاب لابن عبد البر، لكنه اختصر هذا الموضع منه .

(٢) ذؤابة : وهي الذؤابة . جمعها ذوائب : الشعر المضفور من شَعَر الرأس .

(٣) الهدي : الطريقة السيرة .

(٤) والسِّمت : الطريق والمحجّة .

حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ ، وهذا قوله في عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . فكذب الحجاج وفجر ، ولقم النار والحجر فيما يقوله فيه ، وفي رميه له بالنفاق ، وفي قوله عن قراءته : إنها شعر من شعر هذيل ، وإنه لا بد أن يحكَّها من المصحف ولو بضلع خنزير ، وأنه لو أدركه لضرب عنقه ، فحصل على إثم ذلك كله بنيته الخبيثة . وقال عفان : حدثنا حماد حدثنا عاصم عن زر عن عبد الله قال : كنت أجتني لرسول الله ﷺ سواكاً من أراك ، فكانت الريح تكفوه ، وكان في ساقة دِقّة ، فضحك القوم ، فقال النبي ﷺ : « ما يضحككم ؟ قالوا : من دقة ساقَيْه ، فقال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد » . ورواه جرير وعلي بن عاصم عن مغيرة عن أم موسى عن علي بن أبي طالب . وروى سلمة بن نهشل عن أبي الزعراء عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « تمسكوا بعهد عبد الله بن أم مسعود » ورواه الترمذي والطبراني .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق . قال : سمعت أبا الأحوص قال : شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين توفي ابن مسعود وأحدهما يقول لصاحبه : أتراه ترك بعده مثله . قال : إن قلت ذاك إنه كان ليؤذن له إذا حجبنا ، ويشهد إذا غبنا . وقال الأعمش : يعني عبد الله بن مسعود . وقال أبو معاوية : حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب . قال : أقبل عبد الله بن مسعود ذات يوم وعمر جالس فقال : كيف مليء فقها . وقال عمر بن حفص : حدثنا عاصم بن علي حدثنا المسعودي عن أبي حصين عن أبي عطية أن أبا موسى الأشعري قال : لا تسألونا عن شيء ما دام هذا الحبر بين أظهرنا من أصحاب محمد ﷺ - يعني ابن مسعود - وروى جرير عن الأعمش عن عمرو بن عروة عن أبي البختري قال : قالوا لعلي : حدثنا عن أصحاب محمد ﷺ ، قال : عن أيهم ؟ قالوا : حدثنا عن ابن مسعود . قال علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علماً . وفي رواية عن علي قال : علم القرآن ثم وقف عنده وكفى به . فهداتنا الصحابة العالمون به ، العارفون بما كان عليه ، فهم أَوْلَى بالاتباع وأصدق أقوالاً من أصحاب الأهواء الحائدين عن الحق ، بل أقوال الحجاج وغيره من أهل الأهواء : هذيانات وكذب وافتراء ، وبعضها كفر وزندقة ، فإن الحجاج كان عثمانياً أموياً ، يميل إليهم ميلاً عظيماً ، ويرى أن خلافهم كفر . ويستحل بذلك الدماء ، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم .

ومن الطامات[1] أيضاً ما رواه أبو داود : ثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني ثنا جرير . وحدثنا زهير بن حرب ثنا جرير عن المغيرة عن بُزَيع بن خالد الضبي قال : سمعت الحجاج يخطب فقال في خطبته : رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله ؟ فقلت في نفسي : لله عليَّ أن لا أصلِّي خلفك صلاة أبداً ، وإن وجدت قوماً يجاهدونك لأجاهدنك معهم . زاد إسحاق فقاتل في الجماجم حتى قُتِلَ . فإن صحَّ هذا عنه فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة ، أو أراد أن الخليفة من بني أمية أفضل من الرسول . وقال الأصمعي : ثنا أبو عاصم النبيل ثنا أبو حفص الثقفي قال : خطب الحجاج يوماً فأقبل عن يمينه فقال : ألا إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فقال : إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فأقبل عن يساره فقال : ألا إن الحجاج كافر ، فعل ذلك مراراً ، ثم قال :

---

(1) الطامات : المصائب والأهوال .

كافر يا أهل العراق باللّات والعزى . وقال حنبل بن إسحاق :ثنا هارون بن معروف ثنـا ضمرة بن شوذب عن مالك بن دينار قال : بينما الحجاج يخطبنا يوما إذ قال : الحجاج كافر ، قلنا : ماله ؟ أي شيء يريد ؟ قال : الحجاج كافر بيوم الأربعاء والبغلة الشهباء[1] . وقال الأصمعي قال عبد الملك يوماً للحجاج : ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف عيب نفسك ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، فأبى فقال : أنا لجوج حقود حسود ، فقال عبد الملك : ما في الشيطان شر مما ذكرت وفي رواية أنه قال : إذاً بينك وبين إبليس نسب .

وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة ، وخذلانهم لهم ، وعصيانهم ، ومخالفتهم ، والافتيات[2] عليهم ، قال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن شريح بن عبيد عمن حدثه قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فأخبره أن أهل العراق حصبوا أميرهم فخرج غضبان ، فصلى لنا صلاة فسها فيها ، حتى جعل الناس يقولون : سبحان الله سبحان الله ، فلما سلم أقبل على الناس فقال : من ههنا من أهل الشام ؟ فقام رجل ثم قام آخر ثم قمت أنا ثالثاً أو رابعاً ، فقال : يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق ، فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، اللهم إنهم قد لبسوا عليهم فالبس عليهم وعجل عليهم بالغلام الثقفي ، يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم . وقد رويناه في كتاب مسند عمر بن الخطاب من طريق أبي عذبة الحمصي عن عمر مثله . وقال عبد الرزاق : ثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن الحسن قال علي بن أبي طالب : اللهم كما ائتمنتهم فخانوني ، ونصحت لهم فغشوني فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال ، يأكل خضرتها ، ويلبس فروتها ، ويحكم فيها بحكم الجاهلية . قال يقول الحسن : وما خلق الحجاج يومئذ . ورواه معتمر بن سليمان عن أبيه عن أيوب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي أنه قال : الشاب الذيال أمير المصرين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ، ويقتل أشراف أهلها ، يشتد منه الفرق[3] ، ويكثر منه الأرق[4] ، ويسلطه الله على شيعته .

وقال الحافظ البيهقي في دلائل النبوة : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي : ثنا سعيد بن مسعود ثنا يزيد بن هارون أنبأ العوام بن حوشب حدثني حبيب بن أبي ثابت . قال قال علي لرجل : لامتّ حتى تدرك فتى ثقيف ، قال : وما فتى ثقيف ؟ قال : ليقالن له يوم القيامة : اكفنا زاوية من زوايا جهنم ، رجل يملك عشرين سنة ، أو بضعاً وعشرين سنة ، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها ، حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة ، وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها ، يقتل بمن أطاعه من عصاه . وقال الطبراني : حدثنا القاسم بن زكريا ثنا إسماعيل بن موسى السدوسي ثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن الشعبي عن أم حكيم بنت عمر بن سنان الجدلية

---

(١) الشهباء : مؤنث الأشهب . الأمر الصعب . القوي الشديد .

(٢) والافتيات : والتجريح .

(٣) الفرق : الخوف والفزع .

(٤) الأرق : السهاد ـ عدم النوم .

قالت : استأذن الأشعث بن قيس على علي فرده قنبر فادمى أنفه فخرج علي فقال : مالك وله يا أشعث ، أما والله لو بعبد ثقيف تحرشت لاقشعرت شعيرات استك[1] ، قيل له : يا أمير المؤمنين ومن عبد ثقيف ؟ قال : غلام يليهم لا يبقى أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلاً ، قيل كم يملك ؟ قال عشرين إن بلغ .

وقال البيهقي أنبأنا الحاكم أنبأ الحسن بن الحسن بن أيوب ثنا أبو حاتم الرازي ثنا عبد الله بن يوسف التنيسي ثنا ابن يحيى الغاني . قال قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها ، وجئنا بالحجاج لغلبناهم . وقال أبو بكر بن عياش : عن عاصم بن أبي النجود أنه قال : ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج .

وقد تقدم الحديث «إن في ثقيف كذاباً ومبيراً»[2] وكان المختار هو الكذاب المذكور في هذا الحديث ، وقد كان يظهر الرفض أولاً ويبطن الكفر المحض ، وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف هذا ، وقد كان ناصبيا يبغض عليا وشيعته في هوى آل مروان بني أمية ، وكان جباراً عنيداً ، مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة . وقد روى عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر كما قدمنا . فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها ، وإلا فهو باق في عهدتها ، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه ، فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه ، وربما حرَّفوا عليه بعض الكلم . وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات .

وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر ، وكان يكثر تلاوة القرآن ، ويتجنَّب المحارم ، ولم يشتهر عنه شيء من التلطخ بالفُرُوج[3] ، وإن كان متسرعاً في سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها ، وخفيات الصدور وضمائرها :

[قلت : الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء ، وكفى به عقوبة عند الله عز وجل ، وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد ، وكان فيه سماحة باعطاء المال لأهل القرآن فكان يعطي على القرآن كثيراً ، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلثمائة درهم . والله أعلم][4] .

وقال المعافي بن زكريا الجريري المعروف بابن طرار البغدادي : ثنا محمد بن القاسم الانباري ثنا أبي ثنا أحمد بن عبيد ثنا هشام أبو محمد بن السائب الكلبي ثنا عوانة بن الحكم الكلبي . قال : دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له إيه إيه يا أنيس ، يوم لك مع علي ، ويوم لك مع ابن الزبير ، ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة ، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة[5] . فقال أنس : إياي يعني الأمير أصلحه الله ؟ قال : إياك أعني صك الله سمعك . قال أنس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما

---

(١) استك : الاصل ـ السافلة .

(٢) ومبيراً : مُهْلِكاً .

(٣) بالفروج : مفردها : للفَرْج الخلل بين الشيئين . و ـ عورة الانسان .

(٤) زيادة من المصرية.

(٥) الصَّمغة : شيء يسيل من الشجرة ويجمد عليها .

باليت أي قتلة قتلت . ولا أي ميتة مت ، ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً ، وشفق عجباً ، وتعاظم ذلك من الحجاج ، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك ، أما بعد : فإن الحجاج قال لي هُجراً ، وأسمعني نكراً ، ولم أكن لذلك أهلاً ، فخذلي على يديه ، فإني أمتُّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ـ وكان مصادقاً للحجاج ـ فقال له : دونك كتابيّ هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فارفع كتابي إليه وأبلغه مني السلام ، وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أَمَتك[1] ، وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج . وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك ، فإن عاد لمثلها اكتب إلي بذلك به عقوبتي ، وتحسن لك معونتي . والسلام . فلما قرأ أنس كتاب أمير المؤمنين وأخبر برسالته قال : جزى الله أمير المؤمنين عني خيراً ، وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة ، فهذا كان ظني به والرجاء منه . فقال إسماعيل بن عبيد الله لأنس : يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين ، وليس بك عنه غنىً ، ولا بأهل بيتك ، ولو جعل لك في جامعة ثم دفع إليك ، فقاربه وداره تعش معه بخير وسلام . فقال أنس : افعل إن شاء الله . ثم خرج إسماعيل من عند أنس فدخل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاه ، فقال إسماعيل : أنا والله كنت أحب لقاءك في غير ما أتيتك به ، فتغير لون الحجاج وخاف وقال : ما أتيتني به ؟ قال : فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضباً عليك ، ومنك بعداً ، قال : فاستوى الحجاج جالساً مرعوباً ، فرمى إليه إسماعيل بالطومار[2] فجعل الحجاج ينظر فيه مرة ويعرق ، وينظر إلى إسماعيل أخرى ، فلما فضه قال : قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه ، فقال له إسماعيل : لا تعجل ! فقال : كيف لا أعجل وقد أتيتني بآبدة[3] ؟ وكان في الطومار :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد فإنك عبد طمت بك الأمور ، فسموت فيها وعدوت طورك ، وجاوزت قدرك ، وركبت داهية إدّاً[4] ، وأردت أن تبدو لي فإن سوغتكها مضيت قدماً ، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى ، فلعنك الله من عبد أخفش[5] العينين ، منقوص الجاعرتين[6] . أنسيت مكاسب آبائك بالطائف ، وحفرهم

---

(١) أَمَتك : جاريتك .
(٢) بالطومار : جمعها طَوَامير : الصحيفة .
(٣) بآبدة : جمعها أوابد : الداهية الخالدة الذكر .
(٤) إدًّا : قاسية شديدة .
(٥) أخفش : ضعيف .
(٦) الجاعرتين : مَضْرب الدابة .

الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم في المناهل[1] ، يا ابن المستفرية بعجم[2] الزبيب ، والله لاغمرنك غمر الليث الثعلب ، والصقر الأرنب . وثبت على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا ، فلم تقبل له إحسانه ، ولم تتجاوز له عن إساءته ، جرأة منك على الرب عز وجل ، واستخفافاً منك بالعهد ، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلاً خدم عزير بن عزرى ، وعيسى بن مريم ، لعظمتهُ وشرفته وأكرمته وأحبته ، بل لو رأوا من خدم حمار العزيز أو خدم حواري المسيح لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين ، يطلعه على سره ، ويشاوره في أمره ، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله ، وإلا أتاك مني سهم بكل حتف قاض ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون وقد تكلم ابن طرار على ما وقع في هذا الكتاب من الغريب ، وكذلك ابن قتيبة وغيرهما من أئمة اللغة . والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : ثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن الزبير - يعني ابن عدي - قال : أتينا أنس بن مالك [نشكو إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : «اصبروا فإنه لا يأتي عليكم عام أو زمان أو يوم إلا والذي بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم عز وجل ، سمعته من نبيكم ﷺ » . وهذا رواه البخاري عن محمد بن يوسف عن سفيان وهو الثوري عن الزبير بن عدي عن أنس قال : « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » الحديث . قلت : ومن الناس من يروي هذا الحديث بالمعنى فيقول : كل عام ترذلون . وهذا اللفظ لا أصل له ، وإنما هو مأخوذ من معنى هذا الحديث ، والله أعلم .

قلت : قد مر بي مرة من كلام عائشة مرفوعاً وموقوفاً : كل يوم ترذلون . ورأيت للإمام أحمد كلاماً قال فيه : وروى في الحديث كل يوم ترذلون نسماً خبيثاً . فيحتمل هذا أنه وقع للإمام أحمد مرفوعاً ، ومثل أحمد لا يقول هذا إلا عن أصل ، وقد روى عن الحسن مثل ذلك ، والله أعلم . فدل على أن له أصلاً إما مرفوعاً وإما من كلام السلف ، لم يزل يتناوله الناس قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، حتى وصل إلى هذه الأزمان ، وهو موجود في كل يوم ، بل في كل ساعة تفوح رائحته ، ولا سيما من بعد فتنة تمرلنك ، وإلى الآن نجد الرذالة في كل شيء ، وهذا ظاهر لمن تأمله ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد قال سفيان الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي . قال : يأتي على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج . وقال أبو نعيم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبي السفر . قال قال الشعبي : والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج . وقال الأصمعي : قيل للحسن : إنك تقول : الآخر شر من الأول ، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج . فقال الحسن : لا بد للناس من تنفيسات .

---

(١) المناهل : موارد الشرب . مواضع الشُّرْب على الطريق .

(٢) بعجم : بعُود .

وقال ميمون بن مهران : بعث الحجاج إلى الحسن وقد هم به ، فلما قام بين يديه قال : يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير ، قال : فأين هم ؟ قال : ماتوا قال : فنكس[1] الحجاج رأسه وخرج الحسن . وقال أيوب السختياني : إن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه ، وقد ذكر له معه مناظرات ، على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه ، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك ، وإنما خرج معهم مكرهاً كما قدمنا ، وكان الحسن يقول : إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف ، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع . وقال ابن دريد عن الحسن بن الحضر عن ابن عائشة . قال : أتي الوليد بن عبد الملك رجل من الخوارج فقيل له : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً ، قال فعثمان ؟ فأثنى خيراً ، قيل له : فما تقول في علي ؟ فأثنى خيراً ، فذكر له الخلفاء واحداً بعد واحد ، فيثني على كل بما يناسبه ، حتى قيل له : فما تقول في عبد الملك بن مروان ؟ فقال : الآن جاءت المسألة ، ما أقول في رجل الحجاج خطيئة من بعض خطاياه ؟][2] .

وقال الأصمعي عن علي بن مسلم الباهلي قال : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاماً ، فقال لها بعض الشرط : يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ؟ فقالت : إني لأستحي من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه ، فأمر بها فقتلت . وقد ذكرنا في سنة أربع وتسعين كيفية مقتل الحجاج لسعيد بن جبير ، وما دار بينهما من الكلام والمراجعة .

وقد قال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا أبو ظفر جعفر بن سليمان عن بسطام بن مسلم عن قتادة قال قيل لسعيد بن جبير : خرجت على الحجاج ؟ قال : إني والله ما خرجت عليه حتى كفر ، ويقال إنه لم يقتل بعده إلا رجلاً واحداً اسمه ماهان ، وكان قد قتل قبله خلقاً كثيراً ، أكثرهم ممن خرج مع ابن الأشعث . وقال أبو عيسى الترمذي : ثنا أبوداود سليمان بن مسلم البلخي ثنا النضر بن شميل عن هشام بن حسان قال : أحصوا ما قتل الحجاج صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا قال الأصمعي : ثنا أبو صم عن عباد بن كثير عن قحدم قال : أطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدا وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج ، وقيل إنه لبث في سجنه ثمانون ألفاً منهم ثلاثون ألف امرأة وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب ، وكان فيمن حبس أعرابي وجد يبول في أصل ربض مدينة واسط ، وكان فيمن أطلق فأنشأ يقول :

إذا نحنُ جاوزنا مدينة واسطٍ خرينا وصلينا بغيرِ حسابِ

---

(١) فنكّس : طأطأ رأسه إلى الأسفل .

(٢) زيادة من المصرية .

وقد كان الحجاج مع هذا العنف الشديد لا يستخرج من خراج العراق كبير أمر ، قال ابن أبي الدنيا وإبراهيم الحربي : ثنا سليمان بن أبي سنح ثنا صالح بن سليمان قال قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثهاوجئنا بالحجاج لغلبناهم ، وما كان الحجاج يصلح لدنيا ولا لآخرة لقد ولي العراق وهو أوفر ما يكون في العمارة ، فاخسّ به إلى أن صيَّره إلى أربعين ألف ألف ، ولقد أدى إليَّ عمالي في عامي هذا ثمانين ألف ألف ، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدى إليَّ ما أُدي إلى عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف . وقال أبو بكر بن المقري : ثنا أبو عروبة ثنا عمرو بن عثمان ثنا أبي سمعت جدي قال . كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة : بلغني أنك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسننه ، فإنه كان يصلي الصلاة لغير وقتها ، ويأخذ الزكاة من غير حقها وكان لما سوى ذلك أضيع . وقال يعقوب بن سفيان : ثنا سعيد بن أسد ثنا ضمرة عن الريان بن مسلم . قال : بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت أبي عقيل ـ أهل بيت الحجاج ـ إلى صاحب اليمن وكتب إليه : أما بعد فإني قد بعثت بآل أبي عقيل وهم شرّ بيت في العمل ، ففرقهم في العمل على قدر هوانهم[1] على الله وعلينا ، وعليك السلام . وإنما نفاهم . وقال الأوزاعي : سمعت القاسم بن مخيمرة يقول : كان الحجاج ينقض عُرَى الإسلام ، وذكر حكاية . وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم : لم يبق لله حرمة إلا ارتكبها الحجاج بن يوسف ، وقال يحيى بن عيسى الرملي عن الأعمش : اختلفوا في الحجاج فسألوا مجاهداً فقال : تسألون عن الشيخ الكافر .

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال : الحجاج مؤمن بالجبت[2] والطاغوت[3] ، كافر بالله العظيم . كذا قال والله أعلم . وقال الثوري عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : عجبا لاخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمناً ؟ ! وقال الثوري عن ابن عوف : سمعت أبا وائل يسأل عن الحجاج أتشهد أنه من أهل النار ؟ قال أتأمروني أن أشهد على[4] الله العظيم ، وقال الثوري عن منصور : سألت إبراهيم عن الحجاج أو بعض الجبابرة فقال : أليس الله يقول : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[5] وبه قال إبراهيم وكفى بالرجل عمى أن يعمى عن أمر الحجاج . وقال سلام بن أبي مطيع لانا بالحجاج أرجى مني لعمرو بن عبيد ، لأن الحجاج قتل الناس على الدنيا ، وعمرو بن عبيد أحدث للناس بدعة[6] شنعاء ، قتل الناس بعضهم بعضاً ، وقال الزبير : سببت الحجاج يوماً عند أبي وائل فقال : لا تسبه لعله قال يوماً اللهم ارحمني فيرحمه ، إياك ومجالسة من يقول أرأيت أرأيت . وقال عوف : ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال : مسكين أبو محمد ، إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه ، وإن يغفر له فهنيئاً له ، وإن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا ، وقد أصاب الذنوب

---

(١) هوانهم: ذلهم.
(٢) بالجبت : السِّحْر.
(٣) والطاغوت : الشيطان .
(٤) كذا بالأصول .
(٥) سورة هود ، الآية / ١٨ .
(٦) بدعة : ضلالة .

من هو خير منه . فقيل له ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم الله تعالى منه الحياء والايمان ، وأن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة حق قائمة ، وأن الله يبعث من في القبور .

وقال أبو قاسم البغوي : ثنا أبو سعيد ثنا أبو أسامة قال : قال رجل لسفيان الثوري : أتشهد على الحجاج وعلى أبي مسلم الخراساني أنهما في النار ؟ قال : لا ! إن أقرّا بالتوحيد . وقال الرياشي : حدثنا عباس الأزرق عن السري بن يحيى قال : مر الحجاج في يوم جمعة فسمع استغاثة فقال : ما هذا ؟ فقيل أهل السجون يقولون قتلنا الحر ، فقال : قولوا لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون . قال : فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة حتى قصمه الله قاصم كل جبار . وقال بعضهم : رأيته وهو يأتي الجمعة وقد كاد يهلك من العلة . وقال الأصمعي : لما مرض الحجاج أرجف[1] الناس بموته فقال في خطبته : إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فمه ؟ ! فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرني أن لا أموت وأن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، قال الله له : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾[2]،فأنظره إلى يوم الدين ، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال : ﴿ هَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾[3] فأعطاه الله ذلك إلا البقاء ، ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له أمره ، فقال : ﴿ توفَّني مُسْلِماً وألحقني بالصَّالِحِينَ ﴾[4] فما عسى أن يكون أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، كأني والله بكل حي منكم ميتاً ، وبكل رطب يابساً ، ثم نقل في أثياب أكفانه ثلاثة أذرع طولاً في ذراع عرضاً ، فأكلت الأرض لحمه ، ومصت صديده[5] ، وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعقلون ما أقول ، ثم نزل .

وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه ، وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل . وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا علي بن الجعد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر . قال : كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت : اللهم اغفر لي فانهم يزعمون أنك لا تفعل . قال : وحدثني بعض أهل العلم قال قيل للحسن : ان الحجاج قال عند الموت كذا وكذا ، قال : قالها ؟ قالوا : نعم ! قال فما عسى . وقال أبو العباس المري عن الرياشي عن الأصمعي قال : لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول :

يا ربُ قدّ حلفَ الأعداءَ واجتهدوا   بـأنني رجـلٌ مِنْ سـاكني النـارِ

---

(١) أرجف : خاض في الأخبار السيئة والفتن قصد أن يهيج الناس .

(٢) سورة الأعراف ، الآية / ١٤ .

(٣) سورة ص ، الآية / ٣٥ .

(٤) سورة يوسف ، الآية / ١٠١ .

(٥) صديده : القيح المختلط بالدم .

أيحلفــونَ على عميــاءَ ويحهمُ　　　مـا علمهمْ بعـظيمِ العفـوِ غفـارِ

قال فأخبر بذلك الحسن فقال : بالله إن نجا لينجون بهما . وزاد بعضهم في ذلك : ـ

إنّ المـوالي إذا شابتْ عبيـدهمَ　　　في رقهمّ عتقـوهمْ عتقَ أبـرارِ
وأنتَ يـا خالقي أولى بـذا كرمـاً　　　قد شبتُ في الرقِ فاعتقني مِنَ النارِ

وقال ابن أبي الدنيا : ثنا أحمد بن عبد الله التيمي قال : لما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته حتى أشرفت جارية فبكت فقالت : ألا إن مطعم الطعام ، وميتم الأيتام ، ومرمل النساء ، ومفلق الهام[1] ، وسيد أهل الشام قد مات ، ثم أنشأت تقول : ـ

اليـوم يرحمنـا من كـان يبغضنـا　　　واليـوم يأمننـا من كـان يخشـانـا

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه أنه أخبر بموت الحجاج مراراً فلما تحقق وفاته قال : ﴿ فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذينَ ظَلَمُوا وَالحمدُ لله ربِّ العَالَمينَ ﴾[2] وروى غير واحد أن الحسن لما بشر بموت الحجاج سجد شكراً لله تعالى ، وكان مختفياً فظهر ، وقال اللهم أمتّه فأذهب عنا سنته . وقال حماد بن أبي سليمـان : لما أخبـرت إبراهيم النخعي بمـوت الحجاج بكى من الفرح . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا سليمان بن أبي شيخ ثنا صالح بن سليمان قال : قال زياد بن الربيع بن الحارث لأهل السجن يموت الحجاج في مرضه هذا في ليلة كذا وكذا ، فلما كانت تلك الليلة لم ينم أهل السجن فرحاً ، جلسوا ينظرون حتى يسمعوا الناعية ، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان ، وقيل كان ذلك لخمس بقين من رمضان ، وقيل في شوّال من هذه السنة ، وكان عمره إذ ذاك خمساً وخمسين سنة ، لأن مولده كان عام الجماعة سنة أربعين ، وقيل بعدها بسنة ، وقيل قبلها بسنة ، مات بواسط وعفى قبره ، وأُجْرِيَ عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق والله أعلم .

وقال الأصمعي : ما كان أعجب حال الحجاج ، ما ترك إلا ثلاثمائة درهم . وقال الواقدي : ثنا عبد الله بن محمد بن عبيد حدثني عبد الرحمن بن عبيد الله بن فرق : ثنا عمي قال : زعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفاً وسيفاً وسرجاً ورحلاً ومائة درع موقوفة . وقال شهاب بن خراش : حدثني عمي يزيد بن حوشب قال : بعث إليَّ أبو جعفر المنصور فقال : حدثني بوصية الحجـاج بن يوسف ، فقـال : اعفني يا أميـر المؤمنين ، فقال : حـدثني بها ، فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك ، عليها يحيى ،

(١) الهام : مفردها هامة وهي الرأس .
(٢) سورة الانعام ، الآية/ ٤٥ .

وعليها يموت ، وعليها يبعث ، وأوصى بتسعمائة درع حديد ، ستمائة منها لمنافقي أهل العراق يغزون بها ، وثلاثمائة للترك . قال : فرفع أبو جعفر رأسه إلى أبي العباس الطوسي ـ وكان قائماً على رأسه ـ فقال : هذه والله الشيعة لا شيعتكم . وقال الأصمعي عن أبيه قال : رأيت الحجاج في المنام فقلت : ما فعل الله بك؟ فقال : قتلني بكل قتلة قتلت بها إنسانا ، قال : ثم رأيته بعد الحول فقلت : يا أبا محمد ما صنع الله بك؟ فقال : يا ماصّ بظر أمه[1] أما سألت عن هذا عام أول؟ وقال القاضي أبو يوسف : كنت عند الرشيد فدخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين رأيت الحجاج البارحة في النوم ، قال : في أي زي رأيته ؟ قال : في زي قبيح . فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما أنت وذاك يا ماصّ بظر أمه! فقال هارون : صدق والله ، أنت رأيت الحجاج حقاً ، ما كان أبو محمد ليدع صرامته حياً وميتاً . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا هارون بن معروف ثنا ضمرة بن أبي شوذب عن أشعث الخراز . قال : رأيت الحجاج في المنام في حالة سيئة فقلت : يا أبا محمد ما صنع بك ربك ؟ قال : ما قتلت أحداً قتلة إلا قتلني بها . قال ثم أمر بي إلى النار ، قلت ثم مه ، قال ثم أرجو ما يرجو أهل لا إلّه إلا الله . قال : وكان ابن سيرين يقول : إني لأرجو له ، فبلغ ذلك الحسن فقال : أما والله ليخلفن الله رجاءه فيه . وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان الداراني يقول : كان الحسن البصري لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه ، قال : فرآه في منامه فقال له : أنت الحجاج ؟ قال : أنا الحجاج ، قال : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلت بكل قتيل قتلته ثم عزلت مع الموحدين . قال : فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه والله أعلم .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا حمزة بن[العباس حدثنا عبد الله بن عثمان أنبأ ابن المبارك أنبأنا]سفيان . قال : قدم الحجاج على عبد الملك بن مروان وافداً ومعه معاوية بن قرة ، فسأل عبد الملك معاوية عن الحجاج فقال : إن صدقنا كم قتلتمونا ، وإن كذبنا كم خشينا الله عز وجل ، فنظر إليه الحجاج فقال له عبد الملك : لا تعرض له ، فنفاه إلى السند فكان له بها مواقف .

وممن توفي فيها من الأعيان

إبراهيم بن يزيد النخعي قال : كنا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميت عرف ذلك فينا أياماً ، لأنا قد عرفنا أنه نزل به أمر صيَّره إلى الجنة أو إلى النار ، وإنكم تتحدثون في جنائزكم بأحاديث دنياكم . وقال : لا يستقيم رأي إلا بروية ، ولا روية إلا برأي . وقال : إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك من فلاحه . وقال : إني لأرى الشيء مما يعاب فلا يمنعني من عيبه إلا مخافة أن أبتلي به . وبكى عند موته فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : انتظار ملك الموت ، ما أدري يبشرني بجنة أو بنار .

الحسن بن محمد بن الحنفية

كنيته أبو محمد ، كان المقدم على إخوته ، وكان عالماً فقيهاً عارفاً بالاختلاف والفقه ، قال

(١) بظر : نتؤ في حياء المرأة .

أيوب السختياني وغيره : كان أول من تكلم في الارجاء ، وكتب في ذلك رسالة ثم ندم عليها . وقال غيرهم : كان يتوقف في عثمان وعلي وطلحة والزبير ، فلا يتولاهم ولا يذمهم ، فلما بلغ ذلك أباه محمد بن الحنفية ضربه فشجه وقال : ويحك ألا تتولى أباك علياً ؟ وقال أبو عبيد : توفي سنة خمس وتسعين ، وقال خليفة : توفي في أيام عمر بن عبد العزيز والله أعلم .

حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري

وأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وهي أخت عثمان بن عفان لأمه ، وكان حميد فقيهاً نبيلاً عالماً ، له روايات كثيرة .

مطرف بن عبد الله بن الشخير

تقدمت ترجمته ، وهؤلاء كلهم لهم تراجم في كتاب التكميل . وفيها كان موت الحجاج بواسط كما تقدم ذلك مبسوطاً مستقصى ولله الحمد . وفيها كان مقتل سعيد بن جبير في قول علي بن المدائني وجماعة ، والمشهور أنه كان في سنة أربع وتسعين كما ذكره ابن جرير وغير واحد والله أعلم

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وفيها فتح قتيبة بن مسلم رحمه الله تعالى كاشغر من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين رسلا يتهدده ويتوعده ويقسم بالله لا يرجع حتى يطأ بلاده ويختم ملوكهم وأشرافهم ، ويأخذ الجزية[1] منهم أو يدخلوا في الإسلام . فدخل الرُسُل على الملك الأعظم فيهم ، وهو في مدينة عظيمة ، يقال إن عليها تسعين باباً في سورها المحيط بها ، يقال لها خان بالق ، من أعظم المدن وأكثرها ريعاً ومعاملات وأموالاً ، حتى قيل إن بلاد الهند مع اتساعها كالشامة في ملك الصين ، والصين لا يحتاجون إلى أن يسافروا في ملك غيرهم لكثرة أموالهم ومتاعهم ، وغيرهم محتاج إليهم لما عندهم من المتاع والدنيا المتسعة ، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدي إلى ملك الصين الخراج ، لقهره وكثرة جنده وعدده . والمقصود أن الرُسُل لما دخلوا على ملك الصين وجدوا مملكة عظيمة حصينة ذات أنهار وأسواق وحسن وبهاء ، فدخلوا عليه في قلعة عظيمة حصينة ، بقدر مدينة كبيرة ، فقال لهم ملك الصين : ما أنتم ؟ ـ وكانوا ثلاثمائة رسول عليهم هبيرة ـ فقال الملك لترجمانه : قل لهم : ما أنتم وما تريدون ؟ فقالوا : نحن رسل قتيبة بن مسلم ، وهو يدعوك إلى الاسلام ، فإن لم تفعل فالجزية ، فإن لم تفعل فالحرب . فغضب الملك وأمر بهم إلى دار ، فلما كان الغد دعاهم فقال لهم : كيف تكونون في عبادة إلهكم ؟ فصلوا الصلاة على عادتهم فلما ركعوا وسجدوا ضحك

---

(١) الجزية ما يُؤْخَذ من الذِّمِّيّ ، لأنها تجزي عنه أي تكفيه معاملة الحربيين .

منهم، فقال: كيف تكونون في بيوتكم؟فلبسوا ثياب مهنهم، فأمرهم بالانصراف، فلما كان من الغد أرسل إليهم فقال : كيف تدخلون على ملوككم ؟ فلبسوا الوشي[1] والعمائم والمطارف ودخلوا على الملك ، فقال لهم : ارجعوا فرجعوا ، فقال الملك لأصحابه : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا : هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك المرة الأولى ، وهم أولئك . فلما كان اليوم الثالث : أرسل إليهم فقال لهم كيف تلقون عدوكم ؟ فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا المغافر[2] والبيض[3] وتقلدوا السيوف ونكبوا القسي[4] وأخذوا الرماح وركبوا خيولهم ومضوا ، فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما قربوا منه ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوه مشمرين ، فقيل لهم : ارجعوا ـ وذلك لما دخل قلوب أهل الصين من الخوف منهم ـ فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم ثم ساقوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ فقالوا : ما رأينا كهؤلاء قط . فلما أمسوا بعث إليهم الملك أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له الملك حين دخل عليه : قد رأيتم عظم ملكي ، وليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن أمر فإن تصدقني وإلا قتلتك ، فقال : سل ! فقال الملك : لم صنعتم ما صنعتم من زي أول يوم والثاني والثالث ؟ فقال : أما زينا أول يوم فهو لباسنا في أهلنا ونسائنا وطيبنا عندهم ، وأما ما فعلنا ثاني يوم فهو زينا إذا دخلنا على ملوكنا ، وأما زينا ثالث يوم فهو إذا لقينا عدونا . فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم ـ يعني قتيبة ـ وقولوا له ينصرف راجعاً عن بلادي ، فاني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم . فقال له هبيرة : تقول لقتيبة هذا ؟ ! فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها ، وغزاك في بلادك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فانا نعلم أن لنا أجلاً إذا حضر فأكرمها عندنا القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه . فقال الملك : فما الذي يرضي صاحبكم ؟ فقال : قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضك ويختم ملوكك ويجبي الجزية من بلادك ، فقال أنا أبر يمينه وأخرجه منها ، أرسل إليه بتراب من أرضي ، وأربع غلمان من أبناء الملوك ، وأرسل إليه ذهباً كثيراً وحريراً وثياباً صينية لاتقوم ولا يدري قدرها ، ثم جرت لهم معه مقاولات كثيرة ، ثم اتفق الحال على أن بعث صحافا من ذهب متسعة فيها تراب من أرضه ليطأه قتيبة ، وبعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم ، وبعثَ بمال جزيل ليبر بيمين قتيبة ، وقيل إنه بعث أربعمائه من أولاده وأولاد الملوك ، فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قبل ذلك منه ، وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ، فانكسرت همته

---

(١) الوشي : نقش الثوب و ـ الثيات الموشِيَّة .

(٢) المغافر : مفردها مِغْفَرَة زَرَد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

(٣) والبيض : السيوف .

(٤) القسي : النبال .

لذلك ، وقد عزم قتيبة بن مسلم الباهلي على ترك مبايعة سليمان بن عبد الملك ، وأراد الدعوة إلى نفسه لما تحت يده من العساكر ، ولما فتح من البلاد والأقاليم فلم يمكنه ذلك ، ثم قتل في آخر هذه السنة رحمه الله تعالى ، فانه يقال إنه ما كسرت له راية ، وكان من المجاهدين في سبيل الله ، واجتمع له من العساكر ما لم يجتمع لغيره . وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الصائفة ، وغزا العباس ابن الوليد الروم ، ففتح طولس والمرزبانين من بلاد الروم .

وفيها تكامل بناء الجامع الأموي بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى وجزاه خيراً ، وكان أصل موضع هذا الجامع قديماً معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق ، وهم الذين وضعوها وعمروها أولاً ، فهم أول من بناها ، وقد كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتميزة ، وهي القمر في السماء الدنيا ، وعطارد في السماء الثانية ، والزهرة في السماء الثالثة ، والشمس في الرابعة ، والمريخ في الخامسة ، والمشتري في السادسة ، وزحل في السابعة . وقد كانوا صوروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلاً لكوكب من هذه الكواكب السبعة ، وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصداً لذلك ، فنصبوا هياكل سبعة لكل كوكب هيكل ، وكان لهم عند كل باب من أبواب دمشق عيد في السنة ، وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد[1] وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها ، وبنوا دمشق واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد من بين هذين الجبلين ، وصرفوه أنهاراً تجري إلى الاماكن المرتفعة والمنخفضة ، وسلكوا الماء في أفناء[2] ابنية الدور بدمشق ، فكانت دمشق في أيامهم من أحسن المدن ، بل هي أحسنها ، لما فيها من التصاريف العجيبة ، وبنوا هذا المعبد وهو الجامع اليوم في جهة القطب ، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي ، وكانت محاريبهم[3] إلى جهته ، وكان باب معبدهم يفتح إلى جهة القبلة ، خلف المحراب اليوم ، كما شاهدنا ذلك عياناً ، ورأينا محاريبهم إلى جهة القطب ، ورأينا الباب وهو باب حسن مبني بحجارة منقوشة ، وعليه كتاب بخطهم ،وعن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه ، وكان غربي المعبد قصر منيف[4] جداً تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد ، وشرقي المعبد قصر جيرون الملك ، الذي كان ملكهم ، وكان هناك داران عظيمتان معدتان لمن يتملك دمشق قديماً منهم ، ويقال إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة للملوك . ويحيط بهذه الدور والمعبد سور واحد عال منيف ، بحجارة كبار منحوتة ، وهن دار المطبق ، ودار الخيل ، ودار كانت تكون مكان الخضراء التي بناها معاوية .

قال ابن عساكر فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل : إن اليونان مكثوا يأخذون الطالع لبناء

---

(١) الأرصاد : القوم الذين يرصدون كالحرس والخَدم .

(٢) أفناء : ساحات .

(٣) محاريبهم : مفردها مِحْرَاب : صدر المجلس . ومحراب المسجد : مقام الإمام .

(٤) منيف : مرتفع ومشرف .

دمشق وهذه الأماكن ثماني عشرة سنة ، وقد حفروا أساس الجدران حتى واتاهم الوقت الذي طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن هذا المعبد لا يخرب أبداً ولا تخلو منه العبادة ، وأن هذه الدار إذا بُنِيَتْ لا تخلو من أن تكون دار الملك والسلطنة . قلت : أما المعبد فلم يخل من العبادة . قال كعب الأحبار : لا يخلو منها حتى تقوم الساعة ، وأما دار الملك التي هي الخضراء فقد جدد بناءها معاوية ، ثم أحرقت في سنة إحدى وستين وأربعمائة كما سنذكره ، فبادت وصارت مساكن ضعفاء الناس وأراذلهم في الغالب إلى زماننا هذا . والمقصود أن اليونان استمروا على هذه الصفة التي ذكرناها بدمشق مدداً طويلة ، تزيد على أربعة آلاف سنة ، حتى أنه يقال إن أول من بنى جدران هذا المعبد الأربعة هود عليه الصلاة والسلام ، وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدد طويلة ، وقد ورد إبراهيم الخليل دمشق ونزل شمالها عند برزة ، وقاتل هناك قوماً من أعدائه فظفر بهم ، ونصره الله عليهم ، وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة ، فهذا المكان المنسوب إليه بها منصوص عليه في الكتب المتقدمة ، يأثرونه كابراً عن كابر وإلى زماننا والله أعلم .

وكانت دمشق إذ ذاك عامرة آهلة بمن فيها من اليونان ، وكانوا خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، وهم خصماء الخليل ، وقد ناظرهم الخليل في عبادتهم الأصنام والكواكب وغيرها في غير موضع ، كما قررنا ذلك في التفسير ، وفي قصة الخليل من كتابنا هذا « البداية والنهاية » والله الحمد وبالله المستعان .

والمقصود أن اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق ويبنون فيها وفي معاملاتها من أرض حوران والبقاع وبعلبك وغيرها ، البنايات الهائلة الغريبة العجيبة ، حتى إذا كان بعد المسيح بمدة نحو من ثلاثمائة سنة تنصَّر أهل الشام على يد الملك قسطنطين بن قسطنطين ، الذي بنى المدينة المشهورة به ببلاد الروم وهي القسطنطينية ، وهو الذي وضع لهم القوانين ، وقد كان أولاً هو وقومه وغالب أهل الأرض يونانا ، ووضعت له بطاركته النصارى ديناً مخترعاً مركباً من أصل دين النصرانية ، ممزوجاً بشيء من عبادة الأوثان ، وصلوا به إلى الشرق ، وزادوا في الصيام ، وأحلوا الخنزير ، وعلموا أولادهم الأمانة الكبيرة فيما يزعمون ، وإنما هي في الحقيقة خيانة كبيرة ، وجناية كثيرة حقيرة ، وهي مع ذلك في الحجم صغيرة . وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف وبيناه . فبنى لهم هذا الملك الذي ينتسب إليه الطائفة الملكية من النصارى ، كنائس كبيرة في دمشق وفي غيرها ، حتى يقال إنه بنى اثني عشر ألف كنيسة ، وأوقف عليها أوقافاً دارّة ، من ذلك كنيسة بيت لحم ، وقمامة في القدس ، بنتها أم هيلانة الغندقانية ، وغير ذلك .

والمقصود أنهم ـ يعني النصارى ـ حوَّلوا بناء هذا المعبد الذي هو بدمشق معظماً عند اليونان فجعلوه كنيسة يوحنا ، وبنوا بدمشق كنائس كثيرة غيرها مستأنفة ، واستمر النصارى على دينهم بدمشق وغيرها نحواً من ثلاثمائة سنة ، حتى بعث الله محمداً ﷺ ، فكان من شأنه ما تقدم بعضه في

كتاب السيرة من هذا الكتاب ، وقد بعث إلى ملك الروم في زمانه ـ وهو قيصر ذلك الوقت ـ واسمه هرقل يدعوه إلى الله عز وجل ، وكان من مراجعته ومخاطبته إلى أبي سفيان ما تقدم ، ثم بعث أمراءه الثلاثة ، زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، إلى البلقاء من تخوم الشام ، فبعث الروم إليهم جيشاً كبيراً فقتلوا هؤلاء الأمراء وجماعة ممن معهم من الجيش ، فعزم النبي ﷺ على قتال الروم ودخول الشام عام تبوك ، ثم رجع عام ذلك لشدة الحر ، وضعف الحال ، وضيقه على الناس . ثم لما توفي بعث الصديق الجيوش إلى الشام بكمالها ، ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها ، وقد بسطنا القول في ذلك عند ذكر فتحها ، فلما استقرت اليد الاسلامية عليها وأنزل الله رحمته فيها ، وساق بره إليها ، وكتب أمير الحرب أبو عبيدة إذ ذاك ، وقيل خالد بن الوليد ، لأهل دمشق كتاب أمان ، أقروا أيدي النصارى على أربع عشرة كنيسة ، وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة مريحنا (١) ، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقي بالسيف ، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة ، وكان على باب الجابية الصلح ، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة ، فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقي فجعله أبو عبيدة مسجداً يصلي فيه المسلمون ، وكان أول من صلى في هذا المسجد أبو عبيدة ثم الصحابة بعده في البقعة الشرقية منه ، التي يقال لها محراب الصحابة . ولكن لم يكن الجدار مفتوحاً بمحراب محني ، وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة ، والظاهر أن الوليد هو الذي فتق المحازيب في الجدار القبلي [قلت : هذه المحاريب متجددة ليست من فتق الوليد ، وإنما فتق الوليد محراباً واحداً ، إن كان قد فعل ، ولعله لم يفعل شيئاً منها ، فكان يصلي فيه الخليفة ، وبقيتها فتقت قريباً ، لكل إمام محراب ، شافعي وحنفي ومالكي وحنبلي ، وهؤلاء إنما حدثوا بعد الوليد بزمان] (٢) وقد كره كثير من السلف مثل هذه المحاريب ، وجعلوه من البدع المحدثة ، وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد ، وهو باب المعبد الأعلى من جهة القبلة ، مكان المحراب الكبير الذي في المقصورة اليوم ، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب الى كنيستهم ، ويأخذ المسلمون يمنة إلى مسجدهم ، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ، ولا يضربوا بناقوسهم ، إجلالاً للصحابة ومهابة وخوفاً . وقد بنى معاوية في أيام ولايته على الشام دار الإمارة قبلي المسجد الذي كان للصحابة ، وبنى فيها قبة خضراء ، فعرفت الدار بكمالها بها ، فسكنها معاوية أربعين سنة كما قدمنا . ثم لم يزل الأمر على ما ذكرنا من أمر هذه الكنيسة شطرين بين المسلمين والنصارى ، من سنة أربع عشرة ، إلى سنة ست وثمانين في ذي القعدة منها ، وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك في شوال منها ، فعزم الوليد على أخذ بقية هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين منها ، وجعل الجميع مسجداً واحداً ، وذلك لأن بعض المسلمين كان يتأذى بسماع قراءة النصارى للانجيل ، ورفع أصواتهم في صلواتهم ، فأحب أن يبعدهم عن المسلمين ، وأن يضيف ذلك المكان إلى هذا ، فيصير كله معبداً

(١) مريحنا : ماريوحنا .
(٢) زيادة من المصرية .

للمسلمين ، ويتسع المسجد لكثرة المسلمين ، فعند ذلك طلب النصارى وسأل منهم أن يخرجوا له عن هذا المكان ، ويعوضهم إقطاعات كثيرة ، وعرضها عليهم ، وأن يبقي بأيديهم أربع كنائس لم تدخل في العهد ، وهي كنيسة مريم ، وكنيسة المصلبة داخل باب شرقي ، وكنيسة تل الجبن ، وكنيسة حميد بن درة التي بدرب الصقل ، فأبوا ذلك أشد الاباء ، فقال : ائتوني بعهودكم التي بأيديكم من زمن الصحابة ، فأتوا بها فقرئت بحضرةالوليد ، فإذا كنيسة توما ـ التي كانت خارج باب توما على حافة النهر ـ لم تدخل في العهد ، وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مريحنا ، فقال الوليد : أنا أهدمها وأجعلها مسجداً ، فقالوا : بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ونحن نرضى ونطيب له نفساً ببقية هذه الكنيسة ، فأقرهم على تلك الكنائس ، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة . هذا قول ، ويقال إن الوليد لما أهمه ذلك وعرض ما عرض على النصارى فأبوا من قبوله . دخل عليه بعض الناس فأرشده إلى أن يقيس من باب شرقي ومن باب الجابية ، فوجدوا أن الكنيسة قد دخلت في العنوة وذلك أنهم قاسوا من باب شرقي ومن باب الجابية فوجدوا منتصف ذلك عن سوق الريحان تقريباً ، فاذا الكنيسة قد دخلت في العنوة [1] ، فأخذها . وحكى عن المغيرة مولى الوليد قال : دخلت على الوليد فوجدته مهموماً فقلت : مالك يا أمير المؤمنين مهموماً ؟ فقال : إنه قد كثر المسلمون وقد ضاق بهم المسجد ، فأحضرت النصارى وبذلت لهم الأموال في بقية هذه الكنيسة لأضيفها الى المسجد فيتسع على المسلمين فأبوا ، فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين عندي ما يزيل همك ، قال : وما هو؟ قلت : الصحابة لما أخذوا دمشق دخل خالد بن الوليد من الباب شرقي بالسيف ، فلما سمع أهل البلد بذلك فزعوا إلى أبي عبيدة يطلبون منه الأمان فأمنهم ، وفتحوا له باب الجابية ، فدخل منه أبو عبيدة بالصلح ، فنحن نماسحهم إلى أي موضع بلغ السيف أخذناه ، وما بالصلح تركناه بأيديهم ، وأرجو أن تدخل الكنيسة كلها في العنوة ، فتدخل في المسجد . فقال الوليد : فرَّجت عني ، فتولَّ أنت ذلك بنفسك ، فتولاه المغيرة ومسح من الباب الشرقي إلى نحو باب الجابية إلى سوق الريحان فوجد السيف لم يزل عمالاً حتى جاوز القنطرة الكبيرة بأربعة أذرع وكسر، فدخلت الكنيسة في المسجد، فأرسل الوليد إلى النصارى فأخبرهم وقال: إن هذه الكنيسة كلها دخلت في العنوة فهي لنا دونكم ، فقالوا : إنك أولاً دفعت إلينا الأموال وأقطعتنا الاقطاعات فأبينا ، فمن إحسان أمير المؤمنين أن يصالحنا فيبقي لنا هذه الكنائس الأربع بأيدينا ، ونحن نترك له بقية هذه الكنيسة ، فصالحهم على إبقاء هذه الأربع الكنائس والله أعلم .

وقيل إنه عوضهم منها كنيسة عند حمام القاسم عند باب الفراديس داخله فسموها مريحنا [2] باسم تلك الكنيسة التي أخذت منهم ، وأخذوا شاهدها فوضعوه فوق التي أخذوها بدلها فالله أعلم .

ثم أمر الوليد بإحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء ، وجاء إليه أساقفة النصارى

---

(١) العنوة : الناحية والجانب الذي يؤخذ علناً .

(٢) مريحنا : مار يوحنا .

وقساوستهم فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن ، فقال الوليد : أنا أحب أن أجنَّ في الله ، ووالله لا يهدم فيها أحد شيئاً قبلي ، ثم صعد المنارة الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات ، وكانت صومعة هائلة فيها راهب عندهم ، فأمره الوليد بالنـزول منها فـأَكْبَر الراهب ذلك ، فأخذ الوليد بقفاه فلم يزل يدفعه حتى أنزله منها ، ثم صعد الوليد على أعلى مكان في الكنيسة فوق المذبح الأكبر منها ، الذي يسمونه الشاهد ، وهو تمثال في أعلى الكنيسة ، فقال له الرهبان : احذر الشاهد ، فقال : أنا أول ما أضع فأسي في رأس الشاهد ، ثم كبر وضربه فهدمه ، وكان على الوليد قباء [1] أصفر لونه سفرجليٌّ قد غرز أذياله في المنطقة ، ثم أخذ فأساً بيده فضرب بها في أعلى حجر فألقاه ، فتبادر الأمراء إلى الهدم ، وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات ، وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون ، وكانوا قد اجتمعوا هنالك ، فأمر الوليد أمير الشرطة وهو أبو نائل رياح الغساني ، أن يضربهم حتى يذهبوا من هنالك ، ففعل ذلك ، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى في تربيع هذا المعبد من المذابح والأبنية والحنايا [2] ، حتى بقي المكان صرحة مربعة ، ثم شرع في بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة الأنيقة ، التي لم يشتهر مثلها قبلها كما سنذكره .

وقد استعمل الوليد في بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والفعلة ، وكان المستحث على عمارته أخوه وولي عهده من بعده سليمان بن عبد الملك ، ويقال إن الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صناعاً في الرخام وغير ذلك ، ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على ما يريد ، وأرسل يتوعده لئن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش ، وليخربن كل كنيسة في بلاده ، حتى كنيسة القدس ، وهي قمامة ، وكنيسة الرها ، وسائر آثار الروم ، فبعث ملك الروم إليه صناعاً كثيرة جداً ، مائتي صانع ، وكتب إليه يقول : إن كان أبوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك ، وإن لم يكن فهمه وفهمت أنت لوصمة عليه ، فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك ، واجتمع الناس عنده لذلك ، فكان فيهم الفرزدق الشاعر فقال : أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله . قال الوليد : وما هو ويحك ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [3] وسليمان هو ابن داود ، ففهمه الله ما لم يفهمه أبوه . فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جواباً إلى ملك الروم . وقد قال الفرزدق في ذلك :

فُـرقتَ بينَ النصـارى في كنـائسهم   والعـابـدينَ مـعَ الأسحـارِ والعنمِ
وهمْ جميعـاً اذا صـلوا وأوجهـهم   شـتى إذا سـجـدوا لله والـصـنـمِ

---

(١) قباء : ثوب يُلْبَس فوق الثياب .
(٢) والحنايا : مفردها الحَنِيَّة : ما كان منحنياً كالقوس .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية/ ٧٩ .

وكيفَ يجتمعُ الناقوسُ يضربهُ	أهلُ الصليبِ معَ القراءِ لم تنمِ
فهمتُ تحويلها عنهم كما فهما	إذ يحكمانِ لهمْ في الحرثِ والغنمِ
داود والملكَ المهدى إذ جزآ	ولادها واجتزاز [1] الصوفِ بالجلمِ [2]
فهمك الله تحويلاً لبيعتهمْ	عن مسجدٍ فيه يتلى طيبُ الكلمِ
ما من أبٍ حملتهُ الأرضُ نعلمهُ	خيرٌ بنينٍ ولا خيرٌ مِنَ الحكمِ

قال الحافظ عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الدمشقي : بنى الوليد ما كان داخل حيطان المسجد وزاد في سمك الحيطان . وقال الحسن بن يحيى الخشني : إن هوداً عليه السلام هو الذي بنى الحائط القبلي من مسجد دمشق . وقال غيره : لما أراد الوليد بناء القبة التي وسط الرواقات [3] ـ وهي قبة النسر وهو اسم حادث لها ، وكأنهم شبهوها بالنسر في شكله ، لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها ـ حفر لأركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منه ماء عذباً زلالاً ، ثم إنهم وضعوا فيه زيادة الكرم ، وبنوا فوقها بالحجارة ، فلما ارتفعت الأركان بنوا عليها القبة فسقطت ، فقال الوليد لبعض المهندسين : أريد أن تبني لي أنت هذه القبة ، فقال : على أن تعطيني عهد الله وميثاقه على أن لا يبنيها أحد غيري ، ففعل . فبنى الأركان ثم غلفها بالبواري ، وغاب عنها سنة كاملة لا يدري الوليد أين ذهب ، فلما كان بعد السنة حضر ، فهمَّ به الوليد فأخذه ومعه رؤوس الناس ، فكشف البواري عن الأركان فاذا هي قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض ، فقال له : من هذا أتيت ، ثم بناها فانعقدت .

وقال بعضهم : أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن هذا البناء ، فقال له المعمار : إنك لا تقدر على ذلك ، فضربه خمسين سوطاً ، وقال له : ويلك ! أنا لا أقدر على ذلك وتزعم أني أعجز عنه ؟ وخراج الأرض وأموالها تجبى إليَّ ؟ قال : نعم أنا أبيِّن لك ذلك ، قال : فبيِّن ذلك ، قال : اضرب لبنة واحدة من الذهب وقس عليها ما تريد هذه القبة من ذلك ، فأمر الوليد فأحضر من الذهب ما ضرب منه لبنة فإذا هي قد دخلها ألوف من الذهب ، فقال : يا أمير المؤمنين إنا نريد مثل هذه اللبنة كذا وكذا ألف لبنة ، فإن كان عندك ما يكفي من ذلك عملناه ، فلما تحقق صحة قوله أطلق له الوليد خمسين ديناراً ، وقال إني لا أعجز عما قلت ، ولكن فيه إسراف وضياع مال في غير وجهه اللائق به ، ولأن يكون ما أردنا من ذلك نفقة في سبيل الله ، ورداً على ضعفاء المسلمين خير من ذلك . ثم عقدها على ما أشار به المعمار . ولما سقف الوليد الجامع جعلوا سقفه جملونات ، وباطنها مسطحاً مقرنصاً [4] بالذهب ، فقال له بعض أهله : أتعبت

---

(١) واجتزاز : قطع .

(٢) بالجلم : آلة كالمقص لجلم الصوف .

(٣) الرواقات : مفردها الرواق : سقف في مقدَّم البيت أو كساءٌ مُرْسَل على مقدَّم البيت من أعلاه إلى الأرض .

(٤) مقرنصاً : ما عُمِل على هيئة السُلَّم .

الناس بعدك في طين أسطحتهم ، لما يريد هذا المسجد في كل عام من الطين الكثير. يشير إلى أن التراب يغلو والفعلة تقل لأجل العمل في هذا المسجد في كل عام ـ فأمر الوليد أن يجمع ما في بلاده من الرصاص ليجعله عوض الطين،ويكون أخف على السقوف . فجمع من كل ناحية من الشام وغيره من الأقاليم ، فعازوا فإذا عند امرأة منه قناطير مقنطرة ، فساوموها فيه ، فقالت : لا أبيعه إلاّ بوزنه فضة ، فكتبوا إلى الوليد فقال : اشتروه منها ولو بوزنه فضة ، فلما بذلوا لها ذلك قالت :أما إذا قلتم ذلك فهو صدقة لله يكون في سقف هذا المسجد ، فكتبوا على ألواحها بطابع « لله » ويقال إنها كانت اسرائيلية ، وإنه كتب على الألواح التي أخذت منها : هذا ما أعطته الاسرائيلية .

وقال محمد بن عائذ : سمعت المشايخ يقولون : ما تم بناء مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة ، لقد كان يفضل عند الرجل من الصوم أو الفعلة الفلس ورأس المسمار فيأتي به حتى يضعه في الخزانة . وقال بعض مشايخ الدماشقة : ليس في الجامع من الرخام شيء إلا الرخامتان اللتان في المقام من عرش بلقيس والباقي كله مرمر . وقال بعضهم : اشترى الوليد العمودين الأخضرين اللذين تحت النسر ، من حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار . وقال دحيم عن الوليد بن مسلم : ثنا مروان بن جناح عن أبيه قال : كان في مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم ، وقال أبو قصي عن دحيم عن الوليد بن مسلم عن عمرو بن مهاجر الأنصاري : إنهم حسبوا ما أنفقه الوليد على الكرمة [1] التي في قبلى المسجد فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال ابو قصي : أنفق في مسجد دمشق أربعمائة صندوق من الذهب ، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار ، وفي رواية في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار . قلت : فعلى الأول يكون ذلك خمسة آلاف دينار ، وستمائة ألف دينار ، وعلى الثاني يكون المصروف في عمارة الجامع الأموي أحد عشر ألف ألف دينار ، ومائتي ألف دينار . وقيل إنه صرف أكثر من ذلك بكثير ، والله أعلم .

قال أبو قصي : وأتى الحرسي إلى الوليد فقال : يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون أنفق أمير المؤمنين بيوت الأموال في غير حقها . فنودي في الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس فصعد الوليد المنبر وقال : إنه بلغني عنكم أنكم قلتم أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها ، ثم قال : ياعمرو بن مهاجر ، قم فأحضر أموال بيت المال ، فحملت على البغال إلى الجامع ،ثم بسط لها الانطاع [2] تحت قبة النسر ، ثم أفرغ عليها المال ذهباً صبيباً ، وفضة خالصة ، حتى صارت كوماً ، حتى كان الرجل إذا قام من الجانب الواحد لا يرى الرجل من الجانب الآخر ، وهذا شيء كثير ، ثم جيء بالقبانين فوزنت

---

(١) هي فسيفساء على هيئة الكرم مؤلفة من قطع صغيرة من الزجاج المربع مبطن بالذهب او الألوان ، وكان منها بقايا إلى أيام الحريق الأخير سنة ١٣١٠ هـ ويوجد قريب منها في قبة الملك الظاهر بدمشق إلى اليوم .

(٢) الأنطاع : مفردها النطع : بساط من الجلد يُفْرَش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس .

الأموال فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة ، وفي رواية ست عشرة سنة مستقبلة ، لو لم يدخل للناس شيء بالكلية ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقت في عمارة هذا المسجد درهماً من بيوت المال ، وإنما هذا كله من مالي ، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ، ودعوا للخليفة وانصرفوا شاكرين داعين . فقال لهم الوليد : يا أهل دمشق ، والله ما أنفقت في بناء هذا المسجد شيئاً من بيوت المال ، وإنما هذا كله من مالي ، لم أرزأكم[1] من أموالكم شيئاً . ثم قال الوليد : يا أهل دمشق ، إنكم تفخرون على الناس بأربع ، بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا الجامع . وقال بعضهم : كان في قبلة جامع دمشق ثلاث صفائح مذهبة بلا زورد ، في كل منها : بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا نعبد إلا إياه ، ربنا الله وحده ، وديننا الإسلام ، ونبينا محمد ﷺ . أمر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد ، في ذي القعدة سنة ست وثمانين ، وفي صفيحة أخرى رابعة من تلك الصفائح : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم إلى آخر الفاتحة ، ثم النازعات ، ثم عبس ، ثم إذا الشمس كورت ، قالوا : ثم محيت بعد مجيء المأمون إلى دمشق . وذكروا أن أرضه كانت مفضضة كلها ، وأن الرخام كان في جدرانه إلى قامات ، وفوق الرخام كرمة عظيمة من ذهب ، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض ، قد صوروا بها سائر البلدان المشهورة ، الكعبة فوق المحراب ، وسائر الأقاليم يمنة ويسرة ، وصوروا ما في البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك ، وسقفه مقرنص بالذهب ، والسلاسل المعلقة فيها جميعها من ذهب وفضة ، وأنوار الشموع في أماكنه مفرقة . قال : وكان في محراب الصحابة برنية حجر من بلور ، ويقال بل كانت حجراً من جوهر وهي الدرة ، وكانت تسمى القليلة ، وكانت إذا أطفئت القناديل تضيء لمن هناك بنورها ، فلما كان زمن الأمين بن الرشيد ـ وكان يحب البلور وفيل الجوهر ـ بعث إلى سليمان والي شرطة دمشق أن يبعث بها إليه ، فسرقها الوالي خوفاً من الناس وأرسلها إليه ، فلما ولي المأمون ردها إلى دمشق ليشنع بذلك على الأمين . قال ابن عساكر : ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج ، قال : وقد رأيت تلك البرنية ثم انكسرت بعد ذلك فلم يجعل مكانها شيء ، قالوا : وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق ، وإنما كان عليها الستور مرخاة ، وكذلك الستور على سائر جدرانه إلى حد الكومة التي فوقها الفصوص المذهبة ، ورؤوس الأعمدة مطلية بالذهب الخالص الكثير ، وعملوا له شرفات تحيط به ، وبنى الوليد المنارة الشمالية التي يقال لها مأذنة العروس ، فأما الشرقية والغربية فكانتا فيه قبل ذلك بدهور متطاولة ، وقد كان في كل زاوية من هذا المعبد صومعة شاهقة جداً ، بنتها اليونان للرصد ، ثم بعد ذلك سقطت الشماليتان وبقيت القبليتان إلى الآن ، وقد أحرق بعض الشرقية بعد الأربعين وسبعمائة ، فنقضت وجدد بناؤها من أموال النصارى ، حيث اتهموا بحريقها ، فقامت على أحسن الأشكال ، بيضاء بذاتها

---

(١) ارزأكم : أنقصكم .

وهي والله أعلم الشرفة التي ينزل عليها عيسى بن مريم في آخر الزمان بعد خروج الدجال ، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان .

[قلت : ثم أحرق أعلى هذه المنارة وجددت ، وكان أعلاها من خشب فبنيت بحجارة كلها في آخر السبعين وسبعمائة ، فصارت كلها مبنية بالحجارة][1] .

والمقصود أن الجامع الأموي لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ، ولا أبهى ولا أجمل منه ، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه أو إلى جهة منه أو إلى بقعة أو مكان منه تحير فيها نظره لحسنه وجماله ، ولا يمل ناظره ، بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى ، وكانت فيه طلسمات[2] من أيام اليونان فلا يدخل هذه البقعة شيء من الحشرات بالكلية ، لا من الحيات ولا من العقارب ، ولا الخنافس ولا العناكيب ، ويقال ولا العصافير أيضاً تعشش فيه ، ولا الحمام ولا شيء مما يتأذى به الناس ، وأكثر هذه الطلسمات أو كلها كانت مودعة في سقف هذا المعبد ، مما يلي السبع ، فأحرقت لما أحرق ليلة النصف من شعبان بعد العصر ، سنة إحدى وستين وأربعمائة ، في دولة الفاطميين كما سيأتي ذلك في موضعه . وقد كانت بدمشق طلسمات وضعتها اليونان بعضها باق إلى يومنا هذا والله أعلم .

فمن ذلك العمود الذي في رأسه مثل الكرة في سوق الشعير عند قنطرة أم حكيم ، وهذا المكان يعرف اليوم بالعلبيين ، ذكر أهل دمشق أنه من وضع اليونان لعسر بول الحيوان ، فإذا داروا بالحيوان حول هذا العمود ثلاث دورات انطلق باطنه فبال ، وذلك مجرب من عهد اليونان .

[قال ابن تيمية عن هذا العمود : إن تحته مدفون جبار عنيد ، كافر يعذب ، فإذا داروا بالحيوان حوله سمع العذاب فراث[3] وبال من الخوف ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى قبور النصارى واليهود والكفار ، فإذا سمعت أصوات المعذبين انطلق بولها . والعمود المشار إليه ليس له سر ، ومن اعتقد أن فيه منفعة أو مضرة فقد أخطأ خطأً فاحشاً . وقيل إن تحته كنزاً وصاحبه عنده مدفون ، وكان ممن يعتقد الرجعة إلى الدنيا كما قال تعالى : ﴿ إن هي إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ ونَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾[4] . والله سبحانه وتعالى أعلم][5] .

وما زال سليمان بن عبد الملك يعمل في تكملة الجامع الأموي بعد موت أخيه مدة ولايته ، وجددت له فيه المقصورة ، فلما ولي عمر بن العزيز عزم على أن يجرده مما فيه من الذهب ، ويقلع

---

(1) زيادة من المصرية .

(2) طِلَّسْمَات : مفردها طِلَّسمْ : خطوط أو كتابة يستعملها الساحر ويزعم أنه يدفع بها كل مؤذٍ .

(3) فراث : أخرج ما في كرشه من الفَرث .

(4) سورة المؤمنون ، الآية/ ٣٧ .

(5) زيادة من المصرية .

السلاسل والرخام والفسيفساء ، ويرد ذلك كله إلى بيت المال ، ويجعل مكان ذلك كله طيناً ، فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم إليه ، وقال خالد بن عبد الله القسري : أنا أكلمه لكم ، فقال له : يا أمير المؤمنين بلغنا عنك كذا وكذا ، قال : نعم ! فقال خالد : ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ولم يا ابن الكافرة ؟ ـ وكانت أمه نصرانية رومية أمولد ـ فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت كافرة فقد ولدت رجلاً مؤمناً ، فقال : صدقت ، واستحيا عمر ثم قال له : فلم قلت ذلك ؟ قال : يا أمير المؤمنين لأن غالب ما فيه من الرخام إنما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم ، وليس هو لبيت المال ، فأطرق عمر . قالوا : واتفق في ذلك الزمان قدوم جماعة من بلاد الروم رسلاً من عند ملكهم ، فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذي تحت النسر ، ورأوا ما بهر عقولهم من حسن الجامع الباهر ، والزخرفة التي لم يسمع بمثلها ، صعق كبيرهم وخر مغشيا عليه ، فحملوه إلى منزلهم ، فبقي أياماً مدنفاً ، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال : ما كنت أظن أن يبني المسلمون مثل هذا البناء ، وكنت أعتقد أن مدتهم تكون أقصر من هذا ، فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال : أو إن الغيظ أهلك الكفار ، دعوه . وسألت النصارى في أيام عمر بن عبد العزيز أن يعقد لهم مجلساً في شأن ما كان أخذه الوليد منهم ، وكان عمر عادلاً ، فأراد أن يرد عليهم ما كان أخذه الوليد منهم فأدخله في الجامع ، ثم حقق عمر القضية ، ثم نظر فإذا الكنائس التي هي خارج البلد لم تدخل في الصلح الذي كتبه لهم الصحابة ، مثل كنيسة دير مران بسفح قاسيون ، وهي بقرية المعظمية ، وكنيسة الراهب ، وكنيسة توما خارج باب توما ، وسائر الكنائس التي بقرى الحواجز ، فخيرهم بين رد ما سألوه وتخريب هذه الكنائس كلها ، أو تبقى تلك الكنائس ويطيبوا نفساً للمسلمين بهذه البقعة ، فاتفقت آراؤهم بعد ثلاثة أيام على إبقاء تلك الكنائس ، ويكتب لهم كتاب أمان بها ، ويطيبوا نفساً بهذه البقعة فكتب لهم كتاب أمان بها .

والمقصود أن الجامع الأموي كان حين تكامل بناؤه ليس له في الدنيا مثيل في حسنه وبهجته ، قال الفرزدق : أهل دمشق في بلادهم في قصر من قصور الجنة ـ يعني الجامع ـ وقال أحمد بن أبي الحواري عن الوليد بن مسلم عن ابن ثوبان : ما ينبغي لأحد من أهل الأرض أن يكون أشد شوقاً إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يرون من حسن مسجدها . قالوا : ولما دخل أمير المؤمنين المهدي دمشق يريد زيارة القدس نظر إلى جامع دمشق فقال لكاتبه أبي عبيد الله الأشعري : سبقنا بنو أمية بثلاث ، بهذا المسجد الذي لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبنبل الموالي ، وبعمر بن عبد العزيز ، لا يكون والله فينا مثله أبداً . ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة ـ وكان عبد الملك بن مروان هو الذي بناها ـ قال لكاتبه : وهذه رابعة . ولما دخل المأمون دمشق فنظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم ، وقاضيه يحيى بن أكثم ، قال : ما أعجب ما فيه ؟ فقال أخوه : هذه الأذهاب التي فيه ، وقال يحيى بن أكثم : الرخام وهذه العقد ، فقال المأمون : إني إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم ، ثم قال المأمون لقاسم التمار : أخبرني باسم حسن أسمي به جاريتي هذه ، فقال : سمه

مسجد دمشق ، فإنه أحسن شيء . وقال عبد الرحمن عن ابن عبد الحكم عن الشافعي قال : عجائب الدنيا خمس : أحدها منارتكم هذه ـ يعني منارة ذي القرنين باسكندرية ـ والثانية أصحاب الرقيم وهم بالروم اثنا عشر رجلاً ، والثالثة مرآة بباب الأندلس على باب مدينتها ، يجلس الرجل تحتها فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ . وقيل ينظر من بالقسطنطينية ، والرابعة مسجد دمشق وما يوصف من الانفاق عليه ، والخامسة الرخام والفسيفساء ، فإنه لا يدري لها موضع ، ويقال إن الرخام معجون ، والدليل على ذلك أنه يذوب على النار .

قال ابن عساكر : وذكر إبراهيم بن أبي الليث الكاتب ـ وكان قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ـ في رسالة له قال : ثم أمرنا بالانتقال فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه ، ووافق ظاهره باطنه ، أزقته أرجة[1] ، وشوارعه فرجة ، فحيث ما مشيت شممت طيباً ، وأين سعيت رأيت منظراً عجيباً ، وإن أفضيت إلى جامعه شاهدت منه ما ليس في استطاعة الواصف أن يصفه ، ولا الرائي أن يعرفه ، وجملته أنه كنز الدهر ونادرة الوقت ، وأعجوبة الزمان ، وغريبة الأوقات ، ولقد أثبت الله عز وجل به ذكرا يدرس ، وخلف به أمراً لا يخفى ولا يدرس . قال ابن عساكر : وأنشدني بعض المحدثين في جامع دمشق عمره الله بذكره وفي دمشق فقال :

دمشقُ قد شاعَ حسنُ جامَعها	وما حوتهُ رُبى مرابعها
بديعةُ الحسنِ في الكمالِ لما	يدركهُ الطرفُ من بدائعها
طيبةٌ أرضها مباركةٌ	باليمنِ والسعدِ أخذُ طالعها
جامعها جامعُ المحاسنِ قدْ	فاقت به المدنُ في جوامعها
بنيّةٌ بالاتقانِ قد وضعتْ	لا ضيعَ اللّهُ سعيَ واضعها
تذكرُ في فضلهِ ورفعتهِ	آثارُ صدقٍ راقت لسامعها
قدْ كانَ قبلَ الحريقِ مدهشةً	فغيّرتْ نارهُ بلاقعها[2]
فأذهبت بالحريقِ بهجتهُ	فليسَ يرجى إيابُ راجعها
إذا تفكرتَ في الفصوصِ[3] وما	فيها تيقنتَ حذقَ راصعها
أشجارها لا تزالُ مثمرةً	لا ترهبُ الريحَ مِنْ مدافعها
كأنها من زمرّدٍ غرستْ	في أرضِ تبرٍ[4] تغشّى بنافعها
فيها ثمارٌ تخالها ينعت	وليسَ يخشى فسادُ يانعها

(١) أرجة : تفوح منها رائحة عطرية طيبة .

(٢) بلاقعها : مفردها بلقع : الأرض القفر .

(٣) الفصوص : مفردها فصٌّ : ما يُرَكَّب في الخاتم من الحجارة الكريمة .

(٤) تبر : ما كان من الذهب غير مضروب .

تقـطفُ بـاللحظِ لا بجـارحـةِ الـ أيـدي ولا تـجـتـنـى لـبـايـعـهـا
وتـحـتـهـا من رخـامـةٍ قـطعٌ لاقـطَعَ الـلَّهُ كـفَّ قـاطـعـهـا
احكم تـرخيمهـا المـرخـمُ قـدْ بـانَ عليهـا إحكـامُ صـانعهـا
وإن تـفـكـرتَ فـي قـنـاطـرهِ وسـقـفـهِ بـانَ حـذقَ رافـعـهـا
وإنْ تـبيَّـنـتَ حـسـنَ قـبـتـهِ تـحيَّـرَ الـلبُّ فـي أضـالـعـهـا
تختـرقُ الـريـحُ في منـافـذهـا عصفـاً فتقـوى عـلى زعـازعهـا
وأرضـهُ بـالـرخـامِ قـدْ فـرشتْ ينفسـحُ الـطرفُ في مـواضعهـا
مـجـالسُ العـلمِ فـيـهِ مؤنـقـةٌ ينشـرحُ الصـدرُ في مجـامعـهـا
وَكـلُّ بـابٍ عـليـهِ مـطهـرةٌ قـدْ أمنَ النـاسُ دفـعَ مـانعهـا
يـرتـفقُ الـنـاسُ من مـرافقـهـا ولا يـصـدّونَ عَـنْ مـنـافـعـهـا
ولا تـزالُ الـمـيـاهُ جـاريـةً فيهـا لـمـا شقَّ مـن مشـارعـهـا
وسـوقـهـا لا تـزالُ آهـلةً يـزدحمُ النـاسُ في شـوارعهـا
لـمـا يشـاؤونَ مِـنْ فـواكـهـهـا ومـا يـريـدونَ مِـنْ بضـائعـهـا
كـأنّـهـا جـنـةٌ مـعـجـلةٌ في الأرضِ لـولا مسرى فجـائعهـا
دامـت بـرغمِ الـعـدى مسلّمـةً وحـاطهـا اللَّهُ مِنْ قـوارعـهـا

فصل

فيما روي في جامع دمشق من الآثار وما ورد في فضله من الأخبار عن جماعة من السادة الأخيار

روى عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿ والتِّينِ ﴾[1] . قال: هو مسجد دمشق ﴿ والزَّيْتُونِ ﴾[2] . قال: هو مسجد بيت المقدس ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾[3] . حيث كلم الله موسى ﴿ وَهَذَا البَلَدِ الأمينِ ﴾[4] . وهو مكة[5] . رواه ابن عساكر. وقال صفوان بن صالح عن عبد الخالق بن زيد بن واقد عن أبيه عن عطية بن قيس الكلابي قال: قال كعب الأحبار: ليبنين في دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين عاماً. وقال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن زيد عن القاسم أبي عبد الرحمن قال: أوحى الله تعالى إلى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك إلى جبل بيت المقدس، قال ففعل فأوحى الله إليه أما إذا فعلت فإني سأبني لي في خطتك بيتاً اعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً، ولا تذهب الأيام والليالي حتى أرد عليك ظلك وبركتك، قال فهو عند

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) سورة التين، الآيات/ ١ ـ ٣.

(٥) في الاصل « قال دمشق ». وصححناه من حديث قتادة في تاريخ ابن عساكر ١ : ١٩٦.

الله بمنزلة الرجل الضعيف المتضرع . وقال دحيم : حيطان المسجد الأربعة من بناء هود عليه السلام ، وما كان من الفسيفساء إلىٰ فوق فهو من بناء الوليد بن عبد الملك ـ يعني أنه رفع الجدار فعلاه من حد الرخام والكرمة إلى فوق ـ وقال غيره : إنما بنى هود الجدار القبلي فقط . ونقل عثمان بن أبي العاتكة عن أهل العلم أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿ والتِّين ﴾ . قالوا : هو مسجد دمشق .

وقال أبو بكر أحمد بن عبد الله بن الفرج المعروف بابن البرامي الدمشقي : ثنا إبراهيم بن مروان سمعت أحمد بن إبراهيم بن مـلاس يقول : سمعت عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر قال : كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان ، فما تقبل منه جاءت نار فأكلته ، وما لم يتقبل منه بقي على حاله . قلت : وهذه الصخرة [نقلت إلى داخل باب الساعات ، وهي موجودة إلى الآن ، وبعض العامة يزعم أنها الصخرة] التي وضع عليها ابنا آدم قربانهما فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، والله أعلم .

وقال هشام بن عمار : ثنا الحسن بن يحيى الخشني أن رسول الله ﷺ ليلة أُسْرِيَ به « صلَّى في موضع مسجد دمشق » قال ابن عساكر : وهذا منقطع ومنكر جداً ، ولا يثبت أيضاً لا من هذا الوجه ولا من غيره . وقال أبو بكر البرامي : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المقري حدثني أبي عن أبيه أن الوليد بن عبد الملك تقدم إلى القوام ليلة من الليالي فقال : إني أريد أن أصلي الليلة في المسجد ، فلا تتركوا أحداً يصلي الليلة ، فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلِّي في المسجد في كل ليلة ، وفي رواية أنه قال لهم : لا تتركوا أحداً يدخله ، ثم إن الوليد أتى باب الساعات فاستفتح الباب ففتح له ، فإذا رجل قائم بين الساعات وباب الخضراء الذي يلي المقصورة يصلِّي ، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات ، فقال الوليد للقوام : ألم آمركم أن لا تتركوا أحداً الليلة يصلِّي في المسجد ؟ فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يصلِّي كل ليلة في المسجد » . في إسناد هذه الحكاية وصحتها نظر ، ولا يثبت بمثلها وجود الخضر بالكلية ، ولا صلاته في المكان المذكور والله أعلم .

وقد اشتهر في الأعصار المتأخرة أن الزاوية القبلية عند باب المئذنة الغربية تسمى زاوية الخضر ، وما أدري ما سبب ذلك ، والذي ثبت بالتواتر صلاة الصحابة فيه ، وكفى بذلك شرفاً له ولغيره من المساجد التي صلّوا فيها ، وأول من صلّى فيه إماماً أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير الأمراء بالشام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأمين هذه الأمة ، وصلَّى فيه خلق من الصحابة مثل معاذ بن جبل وغيره لكن قبل أن يغيره الوليد إلى هذه الصفة ، فأما بعد أن غيَّر إلى هذا الشكل فلم يره أحد من الصحابة كذلك إلا أنس بن مالك ، فإنه ورد دمشق سنة اثنتين وتسعين ، وهو يبني فيه الوليد ، فصلّى فيه أنس ورأى الوليد وأنكر أنس على الوليد تأخير الصلاة إلى آخر وقتها كما قدمنا ذلك في ترجمة أنس ، عند ذكر وفاته سنة ثلاث وتسعين، وسيصلِّي فيه عيسى بن مريم إذا نزل في آخر الزمان ، إذا خرج الدجال وعمت البلوى به ، وانحصر الناس منه بدمشق ، فينزل مسيح الهدى فيقتل مسيح الضلالة ، ويكون

نزوله على المنارة الشرقية بدمشق وقت صلاة الفجر ، فيأتي وقد أقيمت الصلاة فيقول له إمام الناس : تقدم يا روح الله ، فيقول : إنما أقيمت لك ، فيصلّي عيسى تلك الصلاة خلف رجل من هذه الأمة ، يقال إنه المهدي فالله أعلم .

ثم يخرج عيسى بالناس فيدرك الدجال عند عقبة أفيق ، وقيل بباب لد فيقتله بيده هنالك . وقد ذكرنا ذلك مبسوطاً عند قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾[1] . وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام » ..

والمقصود أن عيسى ينزل على المنارة الشرقية بدمشق ، والبلد محصور محصن من الدجال ، فينزل على المنارة ـ وهي هذه المنارة المبنية في زماننا من أموال النصارى ـ ثم يكون نزول عيسى حتفا لهم وهلاكاً ودماراً عليهم ، ينـزل بين ملكين واضعاً يديه على مناكبهما ، وعليه مهروذتان[2] ، وفي رواية ممصَّرتان[3] يقطر رأسه ماء كأنما خرج من ديماس ، وذلك وقت الفجر ، فينزل على المنارة وقد أقيمت الصلاة ، وهذا إنما يكون في المسجد الأعظم بدمشق ، وهو هذا الجامع . وما وقع في صحيح مسلم من رواية النواس بن سمعان الكلابي : فينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق ، كأنه والله أعلم مروي بالمعنى بحسب ما فهمه الراوي ، وإنما هو ينزل على المنارة الشرقية بدمشق ، وقد أخبرت ولم أقف عليه إلى الآن أنه كذلك ، في بعض ألفاظ هذا الحديث ، في بعض المصنفات ، والله المسؤ ول لمأمول أن يوفقني فيوقفني على هذه اللفظة ، وليس في البلد منارة تعرف بالشرقية سوى هذه ، وهي بيضاء بنفسها ، ولا يعرف في بلاد الشام منارة أحسن منها ، ولا أبهى ولا أعلى منها ، ولله الحمد والمنة .

[قلت : نزول عيسى على المنارة التي بالجامع الأموي غير مستنكر ، وذلك أن البلاء بالدجال يكون قد عم فينحصر الناس داخل البلد ، ويحصرهم الدجال بها ، ولا يتخلف أحد عن دخول البلد إلا أن يكون متبعاً للدجال ، أو مأسوراً معه ، فإن دمشق في آخر الزمان تكون معقل المسلمين وحصنهم من الدجال ، فإذا كان الأمر كذلك فمن يصلّي خارج البلد ، والمسلمون كلهم داخل البلد ، وعيسى إنما ينزل وقد أقيمت الصلاة فيصلّي مع المسلمين ، ثم يأخذهم ويطلب الدجال ليقتله ، وبعض العوام يقول : إن المراد بالمنارة الشرقية بدمشق ، منارة مسجد بلاشو ، خارج باب شرقي . وبعضهم يقول : إنها المنارة التي على نفس باب شرقي . فالله أعلم بمراد رسول الله ﷺ ، وهو سبحانه العالم بكل

---

(١) سورة النساء ، الآية / ١٥٨ .

(٢) مهروذتان : نوع من الأردية ،

(٣) ممصَّرتان : مصبوغتان بالتراب الأحمر . وقيل بل التي فيها صفرة خفيفة .

شيء ، المحيط بكل شيء القادر على كل شيء ، القاهر فوق كل شيء ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض][1] .

الكلام على ما يتعلق برأس

يحيى بن زكريا عليهما السلام

وروى ابن عساكر عن زيد بن واقد قال : وكلني الوليد على العمال في بناء جامع دمشق ، فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك ، فلما كان الليل وافانا وبين يديه الشمع ، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة ، ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع ، وإذا فيها صندوق ، ففتح الصندوق فإذا فيه سفط وفي السفط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام . مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن زكرياء ، فأمر به الوليد فرد إلى مكانه ، وقال : اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من بين الأعمدة ، فجعل عليه عمود مسفط[2] الرأس ، وفي رواية عن زيد بن واقد أن ذلك الموضع كان تحت ركن من أركان القبة - يعني قبل أن تُبْنَى - قال : وكان على الرأس شعر وبشر . وقال الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : حضرت رأس يحيى بن زكريا وقد أخرج من الليطة القبلية الشرقية التي عند مجلس بجيلة ، فوضع تحت عمود الكاسة ، قال الأوزاعي والوليد بن مسلم : هو العمود الرابع المسفط . وروى أبوبكر بن البرامي عن أحمد بن أنس بن مالك عن حبيب المؤذن عن أبي زياد وأبي أمية الشعنابيين عن سفيان الثوري أنه قال : صلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وهذا غريب جداً وروى ابن عساكر من طريق أبي مسهر عن المنذر بن نافع - مولى أم عمرو وبنت مروان - عن أبيه - وفي رواية عن رجل قد سماه - أن واثلة بن الأسقع خرج من باب المسجد الذي يلي باب جيرون فلقيه كعب الأحبار فقال : أين تريد ؟ قال واثلة : أريد بيت المقدس . فقال : تعال أريك موضعاً في المسجد من صلَّى فيه فكأنما صلى في بيت المقدس ، فذهب به فأراه ما بين الباب الأصفر الذي يخرج منه الوالي - يعني الخليفة - إلى الحنية - يعني القنطرة الغربية - فقال : من صلَّى فيما بين هذين فكأنما صلَّى في بيت المقدس ، فقال واثلة : إنه لمجلسي ومجلس قومي . قال كعب : هو ذاك . وهذا أيضاً غريب جداً ومنكر ولا يعتمد على مثله .

وعن الوليد بن مسلم قال : لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا في حائط المسجد القبلي لوحاً من حجر فيه كتاب نقش ، فبعثوا به إلى الوليد فبعثه إلى الروم فلم يستخرجوه ، ثم بعث إلى من كان بدمشق من بقية الأسبان فلم يستخرجوه ، فَدُلَّ على وهب بن منبه فبعث إليه ، فلما قدم عليه أخبره بموضع ذلك اللوح فوجدوه في ذلك الحائط - ويقال ذلك الحائط بناه هود عليه السلام - فلما نظر إليه وهب حرَّك رأسه وقرأ فإذا هو :

---

(١) زيادة من المصرية .

(٢) مُسَفَّط : مُسَفَّط الرأس : كبيره .

بسم الله الرحمن الرحيم ، ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك ، لزهدت في طول ما ترجو من
ملك ، وإنما تلقى ندمك لو قد زل بل قدمك . وأسلمك أهلك وحشمك ، وانصرف عنك الحبيب
أسلمك الصاحب والقريب ، ثم صرت تُدْعَى فلا تجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائد ، ولا إلى عملك
ائد ، فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة ، وقبل الحسرة والندامة ، قبل أن يحل بك أجلك ، وتنزع منك
وحك ، فلا ينفعك مال جمعته ، ولا ولد ولدته ، ولا أخ تركته ، ثم تصير إلى برزخ الثرى ، ومجاور
لموتى ، فاغتنم الحياة قبل الممات ، والقوة قبل الضعف ، والصحة قبل السقم ، قبل أن تؤخذ
الكظم ويحال بينك وبين العمل ، وكتب في زمن[1] داود عليهما السلام .

وقال ابن عساكر : قرأت على أبي محمد السلمي عن عبد العزيز التميمي أنبأ تمام الرازي ثنا ابن
لبرامي سمعت أبا مروان عبد الرحمن بن عمر المازني يقول : لما كان في أيام الوليد بن عبد الملك
بنائه المسجد احتفروا فيه موضعاً فوجدوا باباً من حجارة مغلقاً ، فلم يفتحوه وأعلموا به الوليد ، فخرج
تى وقف عليه ، وفتح بين يديه ، فإذا داخله مغارة فيها تمثال إنسان من حجارة ، على فرس من
جارة ، في يد التمثال الواحدة الدِّرة التي كانت في المحراب ، ويده الأخرى مقبوضة ، فأمر بها
كسرت ، فإذا فيها حبتان ، حبة قمح وحبة شعير ، فسأل عن ذلك فقيل له لو تركت الكف لم تكسرها
م يسوس في هذا البلد قمح ولا شعير . وقال الحافظ أبو حمدان الوراق ـ وكان قد عمَّر مائة سنة ـ :
سمعت بعض الشيوخ يقول : لما دخل المسلمون دمشق وجدوا على العمود الذي على
لمقسلاط ـ على السفود الحديد الذي في أعلاه ـ صنماً ماداً يده بكف مطبقة ، فكسروه فإذا في يده
حبة قمح ، فسألوا عن ذلك فقيل لهم : هذه الحبة قمح جعلها حكماء اليونان في كف هذا الصنم
للسما ، حتى لا يسوس القمح في هذه البلاد ، ولو أقام سنين كثيرة . قال ابن عساكر : وقد رأيت أنا
ي هذا السفود[2] على قناطر كنيسة المقسلاط كانت مبنية فوق القناطر التي في السوق الكبير ، عند
لصابونيين والعطارين اليوم ، وعندما اجتمعت جيوش الإسلام يوم فتح دمشق ، أبو عبيدة من باب
لجابية ، وخالد من باب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان من باب الجابية الصغير . وقال عبد العزيز
لتميمي عن أبي نصر عبد الوهاب بن عبد الله المري : سمعت جماعة من شيوخ أهل دمشق يقولون :
ن في سقف الجامع طلاسم[3] عملها الحكماء في السقف مما يلي الحائط القبلي ، فيها طلاسم
لصنونيات ، لا تدخله ولا تعشش فيه من جهة الأوساخ التي تكون منها ، ولا يدخله غراب ، وطلسم
لفأر والحيات والعقارب ، فما رأى الناس من هذا شيئاً إلا الفأر ، ويشك أن يكون قد عدم طلسمها ،
طلسم للعنكبوت حتى لا ينسج فيه ، وفي رواية فيركبه الغبار والوسخ . قال الحافظ ابن عساكر :
سمعت جدي أبا الفضل يحيى بن علي يذكر أنه أدرك في الجامع قبل حريقه طلسمات لسائر

---

(١) كذا بالأصول ، ولعله سقط منه لفظ «سليمان بن» .
(٢) السَّفُّود : جمعها سفافيد : حديدة يُشْوَى عليها اللحم .
(٣) طلاسم : مفردها الطِّلَسْم : خطوط أو كتابة يستعملها الساحر ويزعم انه يدفع بها كل مؤذٍ .

الحشرات ، معلقة في السقف فوق البطائن مما يلي السبع ، وأنه لم يكن يوجد في الجامع شيء من الحشرات قبل الحريق. فلما احترقت الطلمسات حين أحرق الجامع ليلة النصف من شعبان بعد العصر سنة إحدى وستين وأربعمائة ، وقد كانت بدمشق طلسمات كثيرة ، ولم يبق منها سوى العمود الذي بسوق العلبيين الذي في أعلاه مثل الكرة العظيمة ، وهي لعسر بول الدواب ، إذا داروا بالدابة حوله ثلاث مرات انطلق باطنها . وقد كان شيخنا ابن تيمية رحمه الله يقول : إنما هذا قبر مشرك مفرد مدفون هنالك يعذب ، فإذا سمعت الدابة صراخه فزعت فانطلق باطنها وطبعها ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى مقابر اليهود والنصارى إذا مغلت[1] فتنطلق طباعها وتروث ، وما ذاك إلا أنها تسمع أصواتهم وهم يعذبون والله أعلم .

ذكر الساعات التي على بابه

قال القاضي عبد الله بن أحمد بن زبر : إنما سمي باب الجامع القبلي باب الساعات لأنه عمل هناك بلشكار الساعات ، كان يعمل بها كل ساعة تمضي من النهار ، عليها عصافير من نحاس ، وحية من نحاس وغراب ، فإذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة في الطست فيعلم الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة ، وكذلك سائرها . قلت : هذا يحتمل أحد شيئين إما أن تكون الساعات كانت في الباب القبلي من الجامع ، وهو الذي يسمى باب الزيادة ، ولكن قد قيل إنه محدث بعد بناء الجامع ، ولا ينفي ذلك أن الساعات كانت عنده في زمن القاضي ابن زبر ، وإما أنه قد كان في الجامع في الجانب الشرقي منه في الحائط القبلي باب آخر في محاكاة باب الزيادة ، وعنده الساعات ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم ، وهو باب الجامع من الشرق والله أعلم .

[قلت : باب الوراقين قبلي أيضاً ، فيضاف إلى الجامع نسبة إلى من يدخل منه إلى الجامع والله أعلم ، أو لمجارته للجامع ولبابه][2].

قلت : فأما القبة التي في وسط صحن الجامع التي فيها الماء الجاري ، ويقول العامة لها قبة أبي نواس فكان بناؤها في سنة تسع وستين وثلاثمائة أرخ ذلك ابن عساكر عن خط بعض الدماشقة . وأما القبة الغربية العالية التي في صحن الجامع التي يقال لها قبة عائشة ، فسمعت شيخنا الذهبي يقول : إنها إنما بنيت في حدود سنة ستين ومائة في أيام المهدي بن منصور العباسي ؛ وجعلوها لحواصل الجامع وكتب أوقافه ، وأما القبة الشرقية التي على باب مسجد علي فيقال : إنها بنيت في زمن الحاكم العبيدي في حدود سنة أربع ومائة . وأما الفوارة التي تحت درج جيرون فعملها الشريف فخر الدولة أبو علي حمزة بن الحسن بن العباس الحسني ، وكأنه كان ناظراً بالجامع ، وجر إليها

---

(١) مغلت : مغلت الدابة : أكلت التراب مع البقل فأخذها وجعٌ في بطنها .

(٢) زيادة من المصرية .

قطعة من حجر كبير من قصر حجاج ، وأجرى منها الماء ليلة الجمعة لسبع ليال خلون من ربيع الأول سنة سبع عشرة وأربعمائة وعملت حولها قناطر ، وعقد عليها قبة ، ثم سقطت القبة بسبب جمال تحاكّت عندها وازدحمت ، وذلك في صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، فأعيدت ثم سقطت أعمدتها وما عليها من حريق اللبادين والحجارة في شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، ذكر ذلك كله الحافظ ابن عساكر .

قلت : وأما القصعة[1] التي كانت في الفوارة ، فما زالت وسطها ، وقد أدركتها كذلك ، ثم رفعت بعد ذلك . وكان بطهارة جيرون قصعة أخرى مثلها ، فلم تزل بها إلى أن تهدمت اللبادين بسبب حريق النصارى في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ثم استؤنف بناء الطهارة على وجه آخر أحسن مما كانت ، وذهبت تلك القصعة فلم يبق لها أثر ، ثم عمل الشاذروان الذي شرقي فوارة جيرون ، بعد الخمسمائة ـ أظنه ـ سنة أربع عشرة وخمسمائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ابتداء امر السبع بالجامع الأموي

قال أبو بكر بن أبي داود : ثنا أبو عباس موسى بن عامر المري ثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ قال قال أبو عمر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : الدراسة محدثة أحدثها هشام بن إسماعيل المخزومي ، في قدمة قدمها علي عبد الملك ، فحجبه عبد الملك فجلس بعد الصبح في مسجد دمشق فسمع قراءة فقال : ما هذا ؟ فأخبر أن عبد الملك يقرأ في الخضراء ، فقرأ هشام بن إسماعيل ، فجعل عبدا لملك يقرأ بقراءة هشام ، فقرأ بقراءته مولى له ، فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد فقرأوا بقراءته . وقال هشام بن عمار خطيب دمشق : ثنا أيوب بن حسان ثنا الأوزاعي ثنا خالد بن دهقان قال . أول من أحدث القراءة في مسجد دمشق هشام بن إسماعيل بن المغيرة المخزومي ، وأول من أحدث القراءة بفلسطين الوليد بن عبد الرحمن الجرشي . قلت : هشام بن إسماعيل كان نائباً على المدينة النبوية ، وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب لما امتنع من البيعة للوليد بن عبد الملك ، قبل أن يموت أبوه ، ثم عزله عنها الوليد وولىَّ عليها عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا .

وقد حضر هذا السبع جماعات من سادات السلف من التابعين بدمشق ، منهم هشام بن إسماعيل ومولاه رافع وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، وكان مكتباً لأولاد عبد الملك بن مروان ، وقد ولى إمرة إفريقية لهشام بن عبد الملك وابنيه عبد الرحمن ومروان . وحضره من القضاة أبو إدريس الخولاني ، ونمير بن أوس الأشعري ، ويزيد بن أبي الهمداني ، وسالم بن عبد الله المحاربي ، ومحمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي . ومن الفقهاء والمحدثين والحفاظ المقرئين أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى معاوية ، ومكحول ، وسليمان بن موسى الأشدق ،

(١) القصعة : الصَّحْفَة .

وعبد الله بن العلاء بن زبر ، وأبو إدريس الأصغر عبد الرحمن بن عراك ، وعبد الرحمن بن عامر اليحصبي ـ أخو عبد الله بن عامر ـ ويحيى بن الحارث الدماري ، وعبد الملك بن نعمان المري ، وأنس بن أنس العذري ، وسليمان بن بذيغ القاري ، وسليمان بن داود الخشني ، وعران ـ أو هران ـ بن حكيم القرشي ، ومحمد بن خالد بن أبي ظبيان الأزدي ، ويزيد بن عبيدة بن أبي المهاجر ، وعباس بن دينار وغيرهم . هكذا أوردهم ابن عساكر . قال : روى عن بعضهم أنه كره اجتماعهم وأنكره ، ولاوجه لانكاره . ثم ساق من طريق أبي بكر بن أبي داود : ثنا عمرو بن عثمان ثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الله بن العلاء قال : سمعت الضحاك بن عبد الرحمن بن عروب ينكر الدراسة ويقول : ما رأيت ولا سمعت ، وقد أدركت أصحاب النبي ﷺ . قال ابن عساكر : وكان الضحاك بن عبد الرحمن أميراً على دمشق في أواخر سنة ست وثمانين[1] في خلافة عمر بن عبد العزيز .

فصل

كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ست وثمانين ؛ هدمت الكنيسة التي كانت موضعه في ذي القعدة منها ، فلما فرغوا من الهدم شرعوا في البناء ، وتكامل في عشر سنين ، فكان الفراغ منه في هذه السنة ـ أعني سنة ست وتسعين ـ وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك ، وقد بقيت فيه بقايا فكملها أخوه سليمان كما ذكرنا . فأما قول يعقوب بن سفيان : سألت هشام بن عمار عن قصة مسجد دمشق وهذه الكنيسة قال : كان الوليد قال للنصارى : ما شئتم أنا أخذنا كنيسة توما عنوة وكنيسة الداخلة صلحاً ، فأنا أهدم كنيسة توما ـ قال هشام وتلك أكبر من هذه الداخلة ـ قال فرضوا أن يهدم كنيسة الداخلة وأدخلها في المسجد ، قال : وكان بابها قبلة المسجد اليوم ، وهو المحراب الذي يصلَّى فيه ، قال : وهدم الكنيسة في أول خلافة الوليد سنة ست وثمانين ، ومكثوا في بنائها سبع سنين حتى مات الوليد ولم يتم بناءه ، فأتمه هشام من بعده ففيه فوائد وفيه غلط ، وهو قوله إنهم مكثوا في بنائه سبع سنين ، والصواب عشر سنين ، فإنه لا خلاف أن الوليد بن عبد الملك توفي في هذه السنة ـ أعني سنة ست وتسعين ـ وقد حكى أبو جعفر بن جرير على ذلك إجماع أهل السير ، والذي أتم ما بقي من بنائه أخوه سليمان لا هشام والله سبحانه وتعالى أعلم .

[قلت : نقل من خط ابن عساكر وقد تقدم ، وقد جددت فيه بعد ذلك أشياء ، منها القباب الثلاث التي في صحنه . وقد تقدم ذكرها . وقيل إن القبة الشرقية عمرت في أيام المستنصر العبيدي في سنة خمسين وأربعمائة وكتب عليه اسمه واسم الاثني عشر الذين تزعم الرافضة أنهم أئمتهم ، وأما العمودان الموضوعان في صحنه فجعلا للتنوير ليالي الجمع ، وصنعا في رمضان سنة إحدى

(١) كذا بالأصول . والصواب في سنة تسع وتسعين .

وأربعين وأربعمائة ، بأمر قاضي البلد أبي محمد][1] .

وهذه ترجمة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق وذكر وفاته في هذا العام

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، أبو العباس الأموي ، بويع له بالخلافة بعد أبيه بعهد منه في شوّال سنة ست وثمانين ، وكان أكبر ولده ، والولي من بعده ، وأمه ولّادة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسي . وكان مولده سنة خمسين ، وكان أبواه يترفانه ، فشب بلا أدب ، وكان لا يحسن العربية ، وكان طويلاً أسمر به أثر جدري خفي ، أفطس الأنف سائله ، وكان إذا مشى يتوكف[2] في المشية ـ أي يتبختر ـ وكان جميلاً وقيل دميماً ، قد شاب في مقدم لحيته ، وقد رأى سهل بن سعد وسمع أنس بن مالك لما قدم عليه سأله ما سمع في أشراط الساعة ، كما تقدم في ترجمة أنس ، وسمع سعيد بن المسيب وحكى عن الزهري وغيره .

وقد روى أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه ثم توقف لأنه لا يحسن العربية فجمع الوليد جماعة من أهل النحو عنده فأقاموا سنة ، وقيل ستة أشهر ، فخرج يوم خرج أجهل مما كان ، فقال عبد الملك : قد أجهد وأعذر ، وقيل إن أباه عبد الملك أوصاه عند موته فقال له : لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك ، وتحن حنين الأمة[3] ، ولكن شمر واتزر ، ودلني في حفرتي ، وخلني وشأني ، وادع الناس إلى البيعة ، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا . وقال الليث : وفي سنة ثمان وتسعين[4] غزا الوليد بلاد الروم ، وفيها حج بالناس أيضاً . وقال غيره : غزا في التي قبلها وفي التي بعدها بلاد ملطية وغيرها ، وكان نقش خاتمه أومن بالله مخلصاً . وقيل كان نقشه يا وليد إنك ميت ، ويقال إن آخر ما تكلم به سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، وقال إبراهيم بن أبي عبلة قال لي الوليد بن عبدالملك يوماً : في كم تختم القرآن ؟ قلت في كذا وكذا ، فقال : أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث ، وقيل في كل سبع ، قال : وكان يقرأ في شهر رمضان سبع عشرة ختمة . قال إبراهيم رحمه الله : الوليد وأين مثله ؟ بنى مسجد دمشق ، وكان يعطيني قطع الفضة فأقسمها على قراء بيت المقدس .

وروى ابن عساكر باسناد رجاله كلهم ثقات عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبيه قال : خرج الوليد يوماً من الباب الأصغر فرأى رجلاً عند المئذنة الشرقية يأكل شيئاً ، فأتاه فوقف عليه فإذا

---

(١) زيادة من المصرية .

(٢) يتوكف : يتبختر .

(٣) الأمة : الجارية .

(٤) كذا بالأصول . وفيها تحريف ظاهر لأنه مات سنة ٩٦ هـ .

هو يأكل خبزاً وتراباً ، فقال له : ما حملك على هذا ؟ قال : القنوع يا أمير المؤمنين ، فذهب إلى مجلسه ثم استدعى به فقال : إن لك لشأنا فأخبرني به وإلا ضربت الذي فيه عيناك ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين كنت رجلاً حمالاً ، فبينما أنا أسير من مرج الصفر قاصداً إلى الكسوة ، إذ زرَّمني البول فعدلت إلى خربة لأبول ، فإذا سرب فحفرته فإذا مال صبيب ، فملأت منه غرائري[1] ، ثم انطلقت أقود برواحلي وإذا بمخلاة معي فيها طعام فألقيته منها ، وقلت : إني سآتي الكسوة ، ورجعت إلى الخربة لأملأ تلك المخلاة من ذلك المال فلم أهتد إلى المكان بعد الجهد في الطلب ، فلما أيست رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجد الطعام ، فآليت على نفسي أني لا آكل إلا خبزاً وتراباً . قال : فهل لك عيال ؟ قال نعم ، ففرض له في بيت المال .

قال ابن جرير : وبلغنا أن تلك الرواحل سارت حتى أتت بيت المال فتسلمها حارسه فوضعها في بيت المال ، وقيل إن الوليد قال له : ذلك المال وصل إلينا واذهب إلى إبلك فخذها ، وقيل إنه دفع إليه شيئاً من ذلك المال يُقيته وعياله . وقال نمير بن عبد الله الشعناني عن أبيه قال قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله ذكر قوم لوط في القرآن ما ظننت أن ذكرا يفعل هذا بذكر .

[قلت : فنفى عن نفسه هذه الخصلة القبيحة الشنيعة ، والفاحشة المذمومة ، التي عذَّب الله أهلها بأنواع العقوبات ، وأحلَّ بهم أنواعاً من المثلات ، التي لم يعاقب بها أحداً من الأمم السالفات ، وهي فاحشة اللواط التي قد ابتلى بها غالب الملوك والأمراء ، والتجار والعوام والكتاب ، والفقهاء والقضاة ونحوهم ، إلا من عصم الله منهم ، فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولهذا تنوعت عقوبات فاعليه ، ولأن يقتل المفعول به خير من أن يؤتى في دبره ، فإنه يفسد فساداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً، إلا أن يشاء الله ، ويذهب خير المفعول به . فعلى الرجل حفظ ولده في حال صغره وبعد بلوغه ، وأن يجنبه مخالطة هؤلاء الملاعين ، الذين لعنهم رسول الله ﷺ .

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين ، والصحيح في المسألة أن يقال إن المفعول به إذا تاب توبة صحيحة نصوحاً ، ورزق إنابة[2] إلى الله وصلاحاً ، وبدل سيئاته بحسنات . وغسل عنه ذلك بأنواع الطاعات ، وغض بصره وحفظ فرجه[3] ، وأخلص معاملته لربه ، فهذا إن شاء الله مغفور له ، وهو من أهل الجنة ، فإن الله يغفر الذنوب للتائبين إليه ﴿ وَمَنْ لم يَتُبْ فأولئكَ هُمُ الظَّالمونَ ﴾[4] ﴿ فمن تابَ مِنْ بعدِ ظلمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ الله يَتُوبُ عَلَيهِ إنَّ الله غَفورٌ

---

(١) غرائري : مفردها غِرارة وهي وعاء من الخيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق .

(٢) إنابة : رجوع .

(٣) فرجه : عورته .

(٤) سورة الحجرات ، الآية/ ١١ .

رَحيمٌ ﴾[1] وأما مفعول به صار في كبره شراً منه في صغره ، فهذا توبته متعذرة ، وبعيد أن يؤهل لتوبة صحيحة ، أو لعمل صالح يمحو به ما قد سلف ، ويخشى عليه من سوء الخاتمة ، كما قد وقع ذلك لخلق كثير ماتوا بأدرانهم وأوساخهم ، لم يتطهروا منها قبل الخروج من الدنيا ، وبعضهم ختم له بشر خاتمة ، حتى أوقعه عشق الصور في الشرك الذي لا يغفره الله . وفي هذا الباب حكايات كثيرة وقعت للوطية وغيرهم من أصحاب الشهوات يطول هذا الفصل بذكرها .

والمقصود أن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له ، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الايمان. فيقع في سوء الخاتمة . قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ للإِنْسَانِ خَذُولاً ﴾[2] بل قد وقع سوء الخاتمة لخلق لم يفعلوا فاحشة اللواط ، وقد كانوا متلبسين بذنوب أهون منها . وسوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا يقع فيها من صلح ظاهره وباطنه مع الله ، وصدق في أقواله وأعماله ، فإن هذا لم يسمع به كما ذكره عبد الحق الا شبيلي ، وإنما يقع سوء الخاتمة لمن فسد باطنه عقداً ، وظاهره عملاً ، ولمن له جرأة على الكبائر[3] ، وإقدام على الجرائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة .

والمقصود أن مفسدة اللواط من أعظم المفاسد ، وكانت لا تعرف بين العرب قديماً كما قد ذكر ذلك غير واحد منهم . فلهذا قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط في القرآن ما ظننتُ أن ذكراً يعلو ذكراً . وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره . وقد لعن النبي ﷺ من عمل عمل قوم لوط ثلاث مرات ، ولم يلعن على ذنب ثلاث مرات إلا عليه ، وإنما أمر بقتل الفاعل والمفعول به لأنه لا خير في بقائهما بين الناس ، لفساد طويتهما[4] ،وخبث بواطنهما ،فمن كان بهذه المثابة فلا خير للخلق في بقائه ،فاذا أراح الله الخلق منهما صلح لهم أمر معاشهم ودينهم . وأما اللعنة فهي الطرد والبعد ، ومن كان مطروداً مبعداً عن الله وعن رسوله وعن كتابه وعن صالح عباده فلا خير فيه ولا في قربه ، ومن رزقه اللهُ تعالى توسماً وفراسة ، ونوراً وفرقاناً عرف من سحن[5] الناس ووجوههم أعمالهم ، فإن أعمال العمال بائنة ولائحة على وجوههم وفي أعينهم وكلامهم .

وقد ذكر الله اللوطية وجعل ذلك آيات للمتوسمين فقال تعالى : ﴿ فأَخذتهُمُ الصَّيحةُ مُشْرِقِينَ ، فجعلنَا عاليهَا سافِلَهَا وأَمْطَرْنَا عليهِمْ حجارةً من سجِّيلٍ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمتَوَسِّمينَ ﴾[6] وما بعدها . وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذينَ في قلوبهمْ مرضٌ أَنْ لنْ يُخْرِجَ الله أَضْغَانَهُمْ ، ولو نَشَاءُ

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٣٩ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية/ ٢٩ .
(٣) الكبائر : مفردها الكبيرة وهي الإثم العظيم .
(٤) طويتهما : نيتهما وضميرهما .
(٥) سحن : مفردها سَحْنَة وهي الهيئة واللون .
(٦) سورة الحجر ، الآية/ ٧٣ ـ ٧٥ .

لأريناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بسيماهُمْ ولتعرفنّهُمْ في لَحْنِ القَوْلِ والله يعلمُ أَعْمَالكُمْ ، ولنبلونَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجَاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرينَ ونبلوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[1] ونحو ذلك من الآيات والأحاديث . فاللوطي قد عكس الفطرة ، وقلب الأمر ، فأتى ذكراً فقلب الله قلبه ، وعكس عليه أمره ، بعد صلاحه وفلاحه ، إلا من تَاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .

وخصال التائب قد ذكرها الله في آخر سورة براءة ، فقال : ﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ ﴾[2] فلا بد للتائب من العبادة والاشتغال بالعمل للآخرة ، وإلا فالنفس همَّامة متحركة ، إن لم تشغلها بالحق وإلاشغلتك بالباطل ، فلا بد للتائب من أن يبدل تلك الأوقات التي مرت له في المعاصي بأوقات الطاعات ، وأن يتدارك ما فرط فيها وأن يبدل تلك الخطوات بخطوات إلى الخير ، ويحفظ لحظاته وخطواته ، ولفظاته وخطراته . قال رجل للجنيد : أوصني ، قال : توبة تحل الاصرار ، وخوف يزيل العزة ، ورجاء مزعج إلى طرق الخيرات ، ومراقبة الله في خواطر القلب . فهذه صفات التائب . ثم قال الله تعالى : ﴿الحَامِدُون السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدون﴾[3] . الآية . فهذه خصال التائب كما قال تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ . فكأن قائلاً يقول : من هم ؟ قيل هم العابدون السائحون إلى آخر الآية ، وإلا فكل تائب لم يتلبس بعد توبته بما يقربه إلى من تاب إليه فهو في بعد وإدبار ، لا في قرب وإقبال ، كما يفعل من اغتر بالله من المعاصي المحظورات ، ويدع الطاعات ، فإن ترك الطاعات وفعل المعاصي أشد وأعظم من ارتكاب المحرمات بالشهوة النفسية . فالتائب هو من اتَّقى المحذورات ، وفعل المأمورات ، وصبر على المقدورات ، والله سبحانه وتعالى هو المعين الموفق ، وهو عليم بذات الصدور][4] .

قالوا : وكان الوليد لحانا كما جاء من غير وجه أن الوليد خطب يوماً فقرأ في خطبته (يا ليتها كانت القاضية) فضم التاء من ليتها ، فقال عمر بن عبد العزيز : يا ليتها كانت عليك وأراحنا الله منك ، وكان يقول : يا أهلُ المدينة . وقال عبد الملك يوماً لرجل من قريش : إنك لرجل لولا أنك تلحن ، فقال : وهذا ابنك الوليد يلحن ، فقال : لكن ابني سليمان لا يلحن ، فقال الرجل : وأخي أبو فلان لا يلحن . وقال ابن جرير : حدثني عمر ثنا علي ـ يعني ابن محمد المدائني ـ قال : كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفم ، بنى المساجد بدمشق ، ووضع المنائر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجذومين ، وقال لهم : لا تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ، وفتح في ولايته فتوحات كثيرة عظاماً ، وكان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم ،

---

(١) سورة محمد ، الاية / ٢٩ - ٣١ .
(٢) سورة التوبة ، الآية/ ١١٣ .
(٣) سورة التوبة ، الآية / ١١٣ .
(٤) زيادة من المصرية .

ففتح الهند والسند والاندلس وأقاليم بلاد العجم ، حتى دخلت جيوشه إلى الصين وغير ذلك ، قال : وكان مع هذا يمر بالبقال فيأخذ حزمة البقل بيده ويقول : بكم تبيع هذه ؟ فيقول : بفلس ، فيقول : زد فيها فانك تربح . وذكروا أنه كان يبر حملة القرآن ويكرمهم ويقضي عنهم ديونهم ، قالوا: وكانت همة الوليد في البناء ، وكان الناس كذلك يلقي الرجل الرجل فيقول : ماذا بنيت ؟ ماذا عمرت ؟ وكانت همة أخيه سليمان في النساء ، وكان الناس كذلك ، يلقي الرجل الرجل فيقول : كم تزوجت ؟ ماذا عندك من السراري ؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن ، وفي الصلاة والعبادة ، وكان الناس كذلك ، يلقي الرجل الرجل فيقول : كم وردك ؟ كم تقرأ كل يوم ؟ ماذا صليت البارحة ؟ .

[والناس يقولون : الناس على دين مليكهم ، إن كان خماراً كثر الخمر ، وإن كان لوطياً فكذلك وإن كان شحيحاً حريصاً كان الناس كذلك ، وإن كان جواداً كريماً شجاعاً كان الناس كذلك ، وإن كان طماعاً ظلوماً غشوماً فكذلك ، وإن كان ذا دين وتقوى وبر وإحسان كان الناس كذلك وهذا يوجد في بعض الأزمان وبعض الأشخاص ، والله أعلم][1] .

وقال الواقدي : كان الوليد جباراً ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب ، لجوجاً كثير الأكل والجماع مطلاقاً ، يقال إنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة غير الإماء[2]. قلت : يراد بهذا الوليد بن يزيد الفاسق لا الوليد بن عبد الملك باني الجامع والله أعلم .

قلت : بنى الوليد الجامع على الوجه الذي ذكرنا فلم يكن له في الدنيا نظير ، وبنى صخرة بيت المقدس عقد عليها القبة ، وبنى مسجد النبيّ ﷺ ، ووسعه حتى دخلت الحجرة التي فيها القبر فيه ، وله آثار حسان كثيرة جداً ، ثم كانت وفاته في يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة من هذه السنة ، قال ابن جرير : هذا قول جميع أهل السير ، وقال عمر بن على الفلاس وجماعة : كانت وفاته يوم السبت للنصف من ربيع الأول من هذه السنة ، عن ست وقيل ثلاث وقيل تسع وقيل أربع وأربعين سنة ، وكانت وفاته بدير مران ، فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بمقابر باب الصغير ، وقيل بمقابر باب الفراديس ، حكاه ابن عساكر . وكان الذي صلّى عليه عمر بن عبد العزيز [لأن أخاه سليمان كان بالقدس الشريف ، وقيل صلّى عليه ابنه عبد العزيز][3] . وقيل بل صلّى عليه أخوه سليمان ، والصحيح عمر بن عبد العزيز والله أعلم . وهو الذي أنزله إلى قبره وقال حين أنزله : لننزلنه غير موسد ولا ممهد ، قد خلفت الأسلاب وفارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، فقيراً إلى ما قدمت ، غنياً عما أخرت . وجاء من غير وجه عن عمر أنه أخبره أنه لما

(١) زيادة من المصرية .
(٢) الإماء : مفردها الأمة وهي الجارية .
(٣) زيادة من المصرية .

وضعه ـ يعني الوليد ـ في لحده ارتكض في أكفانه ، وجمعت رجلاه إلى عنقه . وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر على المشهور والله أعلم .

قال المدائني : وكان له من الولد تسعة عشر ولداً ذكراً ، وهم عبد العزيز ، ومحمد ، والعباس ، وإبراهيم ، وتمام وخالد وعبد الرحمن ومبشر ومسرور وأبو عبيدة وصدقة ومنصور ومروان وعنبسة وعمر وروح وبشر ويزيد ويحيى . فأم عبد العزيز ومحمد أم البنين بنت عمه عبد العزيز بن مروان ، وأم أبي عبيدة فزارية ، وسائرهم من أمهات أولاد شتى . قال المدائني : وقد رثاه جرير فقال : ـ

يا عينُ جودي بدمعٍ هاجُه الذِّكر ... فما لدمعكِ بعدُ اليومِ مدخرُ
إنَ الخليفةَ قدْ وارتْ شمائلهَ ... غبراءُ مُلْحَدَةٌ في جُولها زورُ
أضحى بنوهُ وقد جلتْ مصيبتهمْ ... مثلُ النجومِ هوى من بينها القمرُ
كانوا جميعاً فلم يدفعْ منيتهُ ... عبد العزيزِ ولا روحٌ ولا عمرُ

وممن هلك أيام الوليد بن عبد الملك زياد بن حارث التميمي الدمشقي ، كانت داره غربي قصر الثقفيين ، روى عن حبيب بن مسلمة الفهري في النهي عن المسألة لمن له ما يغديه ويعشيه ، وفي النفل[1] . ومنهم من زعم أنه له صحبة ، والصحيح أنه تابعي . روى عنه عطية بن قيس ومكحول ويونس بن ميسرة بن حلبس ، ومع هذا قال فيه أبو حاتم : شيخ مجهول ، ووثقه النسائي وابن حبان ، روى ابن عساكر أنه دخل يوم الجمعة إلى مسجد دمشق وقد أخرت الصلاة ، فقال : والله ما بعث الله نبياً بعد محمد ﷺ أمركم بهذه الصلاة هذا الوقت ، قال : فأخذ فأدخل الخضراء فقطع رأسه ، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك .

عبد الله بن عمر بن عثمان

أبو محمد ، كان قاضي المدينة ، وكان شريفاً كثير المعروف جواداً ممدحاً والله أعلم .

خلافة سليمان بن عبد الملك

بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الوليد يوم مات ، وكان يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وكان سليمان بالرملة ، وكان وُلِّيَ العهد من بعد أخيه عن وصية أبيهما عبد الملك .

---

(١) النفل : الغنيمة والهبة .

وقد كان الوليد قد عزم قبل موته على خلع أخيه سليمان ، وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبد العزيز بن الوليد ، وقد كان الحجاج طاوعه على ذلك وأمره به، وكذلك قتيبة بن مسلم وجماعة ، وقد أنشد في ذلك جرير وغيره من الشعراء قصائد ، فلم ينتظم ذلك له حتى مات ، وانعقدت البيعة إلى سليمان ، فخافه قتيبة بن مسلم وعزم على أن لا يبايعه ، فعزله سليمان وولى على إمرة العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب ، فأعاده إلى إمرتها بعد عشر سنين ، وأمره بمعاقبة آل الحجاج بن يوسف ، وكان الحجاج هو الذي عزل يزيد عن خراسان . ولسبع بقين من رمضان من هذه السنة عزل سليمان عن إمرة المدينة عثمان بن حيان وولّى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وكان أحد العلماء ، وقد كان قتيبة بن مسلم حين بلغه ولاية سليمان الخلافة كتب إليه كتاباً يعزيه في أخيه ، ويهنئه بولايته ، ويذكر فيه بلاءه وعناه وقتاله وهيبته في صدور الأعداء ، وما فتح الله من البلاد والمدن والأقاليم الكبار على يديه ، وأنه له على مثل ما كان للوليد من الطاعة والنصيحة ، إن لم يعزله عن خراسان ، ونال في هذا الكتاب من يزيد بن المهلب ، ثم كتب كتاباً ثانياً يذكر ما فعل من القتال والفتوحات وهيبته في صدور الملوك والأعاجم ، ويذم يزيد بن المهلب أيضاً ، ويقسم فيه لئن عزله وولّى يزيد ليخلعن سليمان عن الخلافة ، وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلع سليمان بالكلية ، وبعث بها مع البريد وقال له : ادفع اليه الكتاب الأول ، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثاني ، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثالث ، فلما قرأ سليمان الكتاب الأول ـ واتفق حضور يزيد عند سليمان ـ دفعه إلى يزيد فقرأه ، فناوله البريد الكتاب الثاني فقرأه ودفعه إلى يزيد ، فناوله البريد الكتاب الثالث فقرأه فاذا فيه التصريح بعزله وخلعه ، فتغير وجهه ، ثم ختمه وأمسكه بيده ولم يدفعه إلى يزيد ، وأمر بانزال البريد في دار الضيافة ، فلما كان من الليل بعث إلى البريد فأحضره ودفع إليه ذهباً وكتاباً فيه ولاية قتيبة على خراسان ، وأرسل مع ذلك البريد بريداً آخر من جهته ليقرره عليها ، فلما وصلا بلاد خراسان بلغهما أن قتيبة قد خلع الخليفة ، فدفع بريد سليمان الكتاب الذي معه إلى بريد قتيبة ، ثم بلغهما مقتل قتيبة قبل أن يرجع بريد سليمان .

مقتل قتيبة بن مسلم رحمه الله

وذلك أنه جمع الجند والجيوش وعزم على خلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة وترك طاعته ، وذكر لهم همته وفتوحه وعدله فيهم ، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم ، فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد منهم إلى مقالته ، فشرع في تأنيبهم وذمهم ، قبيلة قبيلة ، وطائفة طائفة ، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرقوا ، وعملوا على مخالفته ، وسعوا في قتله ، وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له وكيع بن أبي سود ، فجمع جموعاً كثيرة ، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذي الحجة من هذه السنة ، وقتل معه أحد عشر رجلاً من إخوته وأبناء إخوته ، ولم يبق منهم سوى ضرار بن مسلم ، وكانت أمه الغراء بنت ضرار بنت القعقاع بن معبد بن سعد بن زرارة ، فحمته أخوالهُ ، وعمرو بن

مسلم كان عامل الجوزجان وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح ويسار ، وهـؤلاء أبناء مسلم ، وأربعة من أبنائهم فقتلهم كلهم وكيع بن سود .

وقد كان قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة أبو حفص الباهلي ، من سادات الأمراء وخيارهم ، وكان من القادة النجباء الكبراء ، والشجعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة ، والآراء الحميدة ، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ، وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئاً كثيراً كما تقدم ذلك مفصلاً مبيناً ، والله سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيب تعبه وجهاده .

ولكن زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية ، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء ، وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان ، في ذي الحجة من هذه السنة ، وله من العمر ثمان وأربعون سنة ، وكان أبوه أبو صالح مسلم فيمن قتل مع مصعب بن الزبير ، وكانت ولايته على خراسان عشر سنين ، واستفاد وأفاد فيها خيراً كثيراً ، وقد رثاه عبد الرحمن بن جمانة الباهلي فقال : ـ

كـان أبـا حفصٍ قتيبـةَ لم يسـرْ ... بجيش إلى جيشٍ ولم يعلُ منبرا
ولمَ تخفقْ الراياتَ والقومُ حولـهُ ... وقوفُ ولم بشهد له الناسُ عسكرا
دعتْه المنايـا[1] فاستجـاب لربـهِ ... وراحَ إلى الجنـاتِ عفاً مـطهـرا
فمـا رزىءَ الاسلامَ بعـد محمدٍ ... بمثلِ أبي حفصٍ فبكّيهِ عَبْهَرا[2]

ولقد بالغ هذا الشاعر في بيته الأخير . وعبهر ولد له . وقال الطرماح في هذه الوقعة التي قتل فيها على يد وكيع بن سود :

لولا فوارسُ مذحجٍ ابنة مذحجٍ ... والأزدَ زعـزعَ واستبيحَ العسكـرُ
وتقـطعت بهمُ البلادُ ولم يؤب ... منهمْ إلى أهـلِ العـراقِ مخبـرُ
واستضلعتُ عقد الجماعةِ وازدرى ... أمـرَ الخليفـةِ واستحـلَ المنكـرُ
قـومٌ همـو قتلوا قتيبـةَ عنـوةً ... والخيل جامحـةٌ عليها العثيـرُ[3]
بالمرجِ مرجِ الصينِ حيثُ تبينتْ ... مضـرُ العـراقِ مِنَ الأعـزُّ الأكبـرُ
إذ حـالفتْ جـزعـاً ربيعـةُ كلُهـا ... وتفـرقتْ مضـرٌ ومنْ يتمـضـرُ

---

(١) المنايا : مفردها المنية أي الموت .
(٢) عَبْهَرَا : النرجس .وقيل : الياسمين .
(٣) العثير : الغبار .

وتقدمتْ ازدُ العراقِ ومذحجٌ — للموتِ يجمعها أبوها الأكبر
قحطانُ تضربُ رأسَ كلِ مدججٍ — تحمي بصائرهنَ إذْ لا تبصرُ
والازدُ تعلمُ أن تحتَ لوائها — مُلكاً قراسيةً وموتٌ أحمرُ
فبعزنا نصرَ النبيُّ محمدٌ — وبنا تثبتَ في دمشقَ المنبرُ

وقد بسط ابن جرير هذه القصيدة بسطاً كثيراً وذكر أشعاراً كثيرة جداً . وقال ابن خلكان وقال جرير يرثي قتيبة بن مسلم رحمه الله وسامحه ، وأكرم مثواه وعفا عنه :

ندمتمْ على قتلِ الأميرِ ابنِ مسلمٍ — وانتمْ إذا لا قيتمُ الله أندمُ
لقدْ كنتم منِ غزوهِ في غنيمةٍ — وأنتمْ لمنْ لاقيتمُ اليومَ مغنمُ
على أنهُ أفضى إلى حورِ جنةٍ — وتطبقُ بالبلوى عليكمْ جهنمُ

قال : وقد ولي من أولاده وذريته جماعة الأمرة في البلدان ، فمنهم عمر بن سعيد بن قتيبة بن مسلم وكان جواداً ممدحاً ، رثاه حين مات أبو عمرو أشجع بن عمرو السلمي المري نزيل البصرة يقول :

مضى ابنُ سعيدٍ حيثُ لم يبقَ مشرقٌ — ولا مغربٌ إلّا له فيهِ مادحُ
وما كنتُ أدرى ما فواضلُ كفهِ — على الناسِ حتى غيبتهُ الصفائحُ(١)
وأصبحَ في لحدِ من الأرضِ ضيقٍ — وكانتْ به حياً تضيقُ الضحاضحُ(٢)
سأبكيكَ ما فاضتْ دموعي فإن تغضْ — فحسبكَ منى ما تجرُ الجوانحُ
فما أنا منْ رزئي وإن جلّ جازعٌ — ولا بسرورٍ بعدَ موتكَ فارحُ(٣)
كأنْ لم يمتْ حيٌّ سواكَ ولم تقمْ — على أحدٍ إلا عليكَ النوائحُ
لئنْ حسنتْ فيكَ المراثي وذكرها — لقد حسنتْ مِنْ قبل فيكَ المدائحُ

قال ابن خلكان : وهي من أحسن المراثي وهي في الحماسة ، ثم تكلم على باهلة وأنها قبيلة مرذولة عند العرب ، قال : وقد رأيت في بعض المجاميع أن الأشعث بن قيس قال : يا رسول الله أتتكافأ دماؤ نا ؟ قال : « نعم ! ولو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك » . وقيل لبعض العرب : أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي ؟ قال : بشرط أن لا يعلم أهل الجنة بذلك . وسأل بعض الأعراب رجلاً ممن أنت ؟ فقال : من باهلة ، فجعل يرثي له قال : وأزيدك أني لست من الصميم وإنما أنا من مواليهم .فجعل يقبل يديه ورجليه ، فقال : ولم تفعل هذا ؟ فقال : لأن الله تعالى ما ابتلاك بهذه

---

(١) الصفائح : الحجارة العريضة .
(٢) الضحاضح : الماء اليسير أو القريب القعر .
(٣) فارح : بطر .

الرزية[1] في الدنيا إلا ليعوضك الجنة في الآخرة .

ثم قال ابن جرير : وفي هذه السنة توفي قرة بن شريك العبسي أمير مصر وحاكمها . قلت : هو قرة بن شريك أمير مصر من جهة الوليد ، وهو الذي بنى جامع الفيوم . وفيها حج بالناس أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وكان هو الأمير على المدينة ، وكان على مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى حرب العراق وصلاتها يزيد بن المهلب ، وعلى خراجها صالح بن عبد الرحمن ، وعلى نيابة البصرة ليزيد بن المهلب سفيان بن عبد الله الكندي ، وعلى قضائها عبد الرحمن بن أذينة ، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبي موسى ، وعلى حرب خراسان وكيع بن سود والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

وفيها جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية ، وفيها أمَّر ابنه داود على الصائفة ، ففتح حصن المرأة ، قال الواقدي : وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الوضاحية ففتح الحصن الذي [بناه] الوضاح صاحب الوضاحية . وفيها غزا مسلمة أيضاً برجمة ففتح حصوناوبرجمة وحصن الحديد وسررا ، وشتى[2] بأرض الروم . وفيها غزا عمر بن هبيرة الفزاري في البحر أرض الروم وشتى بها . وفيها قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وقدم برأسه على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، مع حبيب بن أبي عبيد الفهري ، وفيها ولي سليمان نيابة خراسان ليزيد بن المهلب مضافاً إلى ما بيده من إمرة العراق ، وكان سبب ذلك أن وكيع بن أبي سود لما قتل قتيبة بن مسلم وذريته ، بعث برأس قتيبة إلى سليمان فحظي عنده وكتب له بامرة خراسان ، فبعث يزيد بن المهلب عبد الرحمن بن الأهتم إلى سليمان بن عبد الملك ليحسن عنده أمر يزيد بن المهلب في إمرة خراسان ، وينتقص عنده وكيع بن سود ، فسار ابن الأهتم ـ وكان ذا دهاء ومكر ـ إلى سليمان بن عبد الملك ، فلم يزل به حتى عزل وكيعاً عن خراسان وولَّى عليها يزيد مع إمرة العراق ، وبعث بعهده مع ابن الأهتم ، فسار في سبع حتى جاء يزيد ، فأعطاه عهد خراسان مع العراق ، وكان يزيد وعده بمائة ألف فلم يف بها ، وبعث يزيد ابنه مخلداً بين يديه إلى خراسان ، ومعه كتاب أمير المؤمنين مضمونه أن قيساًزعمواأن قتيبة بن مسلم لم يكن خلع الطاعة ، فإن كان وكيع قد تعرض له وثار عليه بسبب أنه خلع ولم يكن خلع فقيده وابعث به إليَّ ، فتقدم مخلد فأخذ وكيعاً فعاقبه وحبسه قبل أن يجيء أبوه ، فكانت إمرة وكيع بن أبي سود الذي قتل قتيبة تسعة أشهر ، أوعشرة أشهر ، ثم قدم يزيد بن المهلب فتسلم خراسان وأقام بها ، واستناب في البلاد نوابا ذكرهم ابن جرير .

---

(١) الرزية : المصيبة والبليَّة .

(٢) وشتى : قضى فصل الشتاء .

قال : ثم سار يزيد بن المهلب فغزا جرجان ، ولم يكن يومئذ مدينة بأبواب وصور ، وإنما هي جبال وأودية ، وكان ملكها يقال له صول ، فتحول عنها إلى قلعة هناك ، وقيل إلى جزيرة في بحيرة هناك ، ثم أخذوه من البحيرة وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وأسروا وغنموا . قال : وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الملك ، ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها ، غير أن خراسان عزل عنها وكيع بن سود ، ووليها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة مع العراق . وممن توفي فيها من الأعيان :

الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب

أبو محمد القرشي الهاشمي ، روى عن أبيه عن جده مرفوعاً : « من عال أهل بيت من المسلمين يومهم وليلتهم غفر الله له ذنوبه » . وعن عبد الله بن جعفر عن علي في دعاء الكرب، وعن زوجته فاطمة بنت الحسين ، وعنه ابنه عبد الله وجماعة ، وفد على عبد الملك بن مروان فأكرمه ونصره على الحجاج ، وأقره وحده على ولاية صدقة علي ، وقد ترجمه ابن عساكر فأحسن ، وذكر عنه آثاراً تدل على سيادته ، قيل إن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة : إن الحسن بن الحسن كاتب أهل العراق ، فاذا جاءك كتابي هذا فاجلده مائة ضربة ، وقفه للناس ، ولا تراني إلا قاتله . فأرسل خلفه فعلمه علي بن الحسين [1] كلمات الكرب فقالها حين دخل عليه فنجاه الله منهم ، وهي : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض رُب العرش العظيم . توفي بالمدينة ، وكانت أمه خولة بنت منظور الفزاري . وقال يوماً لرجل من الرافضة : والله إن قتلك لقربة إلى الله عزّ وجلّ ، فقال له الرجل : إنك تمزح ، فقال : الله ما هذا مني بمزح ولكنه الجد . وقال له آخر منهم : ألم يقل رسول الله ﷺ : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ؟. فقال : بلى ، ولو أراد الخلافة لخطب الناس فقال : أيها الناس اعلموا أن هذا ولي أمركم من بعدي ، وهو القائم عليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله اختار علياً لهذا الأمر ثم تركه علي لكان أول من ترك أمر الله ورسوله ، وقال لهم أيضاً : والله لئن ولّينا من الأمر شيئاً لنقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لا نقبل لكم توبة ، ويلكم غررتمونا من أنفسنا ، ويلكم لو كانت القرابة تنفع بلا عمل لنفعت أباه وأمه ، لو كان ما تقولون فينا حقاً لكان آباؤ نا إذ لم يعلمونا بذلك قد ظلمونا وكتموا عنّا أفضل الأمور ، والله إني لأخشى أن يضاعف العذاب للعاصي منا ضعفين ، كما أني لأرجو للمحسن منّا أن يكون له الأجر مرتين ، ويلكم أحبونا إن أطعنا الله على طاعته ، وأبغضونا إن عصينا الله على معصيته .

موسى بن نصير ابو عبد الرحمن اللخمي

مولاهم ، كان مولى لإمرأة منهم ، وقيل كان مولى لبني أمية ،افتتح بلاد المغرب ، وغنم منها

---

(١) كذا بالأصول وقد تقدمت وفاة علي بن الحسين قبل هذا .

أموالاً لا تعد ولا توصف ، وله بها مقامات مشهورة هائلة ، ويقال إنه كان أعرج، ويقال إنه ولد في سنة تسع عشرة ، وأصله من حين التمر ، وقيل إنه من اراشة من بليّ ، سبى أبوه من جبل الخليل من الشام في أيام الصديق ، وكان اسم أبيه نصراً فصغر ، روى عن تميم الداري ، وروى عنه ابنه عبد العزيز ، ويزيد بن مسروق اليحصبي ، ووليّ غزو البحر لمعاوية ، فغزا قبرص ، وبنى هنالك حصوناً كالماغوصة وحصن بانس وغير ذلك من الحصون التي بناها بقبرص ، وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية في سنة سبع وعشرين ، وشهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس ، فلما قتل الضحاك لجأ موسى بن نصير لعبد العزيز بن مروان ، ثم لما دخل مروان بلاد مصر كان معه فتركه عند ابنه عبد العزيز ، ثم لما أخذ عبد الملك بلاد العراق جعله وزيراً عند أخيه بشر بن مروان .

وكان موسى بن نصير هذا ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب ، قال البغوي [١] . وُلِّيَ موسى بن نصير إمرة بلاد إفريقية سنة تسع وسبعين فافتتح بلاداً كثيرة جداً مدناً وأقاليم ، وقد ذكرنا أنه افتتح بلاد الأندلس ، وهي بلاد ذات مدن وقرى وريفَ ، فسبى منها ومن غيرها خلقاً كثيراً ، وغنم أموالاً كثيرة جزيلة ، ومن الذهب والجواهر النفيسة شيئاً لا يحصى ولا يعد ، وأما الآلات والمتاع والدواب فشيء لا يدرى ما هو ، وسبى من الغلمان الحسان والنساء الحسان شيئاً كثيراً ، حتى قيل إنه لم يسلب أحد مثله من الأعداء ، وأسلم أهل المغرب على يديه ، وبث فيهم الدين والقرآن ، وكان إذا سار إلى مكان تحمل الأموال معه على العجل لكثرتها وعجز الدواب عنها .

وقد كان موسى بن نصير هذا يفتح في بلاد المغرب ، وقتيبة يفتح في بلاد المشرق ، فجزاهما الله خيراً ، فكلاهما فتح من الأقاليم والبلدان شيئاً كثيراً ، ولكن موسى بن نصير خظي بأشياء لم يحظ بها قتيبة ، حتى قيل إنه لما فتح الاندلس جاءه رجل فقال له : ابعث معي رجالاً حتى أدلك على كنز عظيم ، فبعث معه رجالاً فأتى بهم إلى مكان فقال : احفروا ، فأفضى بهم الحفر إلى قاعة عظيمة ذات لواوين حسنة ، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبهتهم ، وأما الذهب فشيء لا يعبر عنه ، ووجدوا في ذلك الموضع الطنافس [٢] ، الطنفسة منها منسوجة بقضبان الذهب ، منظومة باللؤلؤ الغالي المفتخر ، والطنفسة منظومة بالجوهر المثمّن ، واليواقيت التي ليس لها نظير في شكلها وحسنها وصفاتها ، ولقد سمع يومئذ منادٍ ينادي لا يرون شخصه : أيها الناس ، إنه قد فتح عليكم باب من أبواب جهنم فخذوا حذركم . وقيل إنهم وجدوا في هذا الكنز مائدة سليمان بن داود التي كان يأكل عليها . وقد جمع أخباره وما جرى له في حروبه وغزواته رجل من ذريته يقال له أبو معاوية معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير النصيري .

---

(١) في المصرية الفسوي .
(٢) الطنافس : مفردها الطُّنْفُسَة وهي البساط أو الحصير وقيل هي الثوب .

وروى الحافظ ابن عساكر أن عمر بن عبد العزيز سأل موسى بن نصير حين قدم دمشق أيام الوليد عن أعجب شيء رأيت في البحر ، فقال : انتهينا مرة الى جزيرة فيها ست عشرة جرة مختومة بخاتم سليمان بن داود عليهما السلام ، قال : فأمرت بأربع منها فأخرجت ، وأمرت بواحدة منها فنقبت فاذا قد خرج منها شيطان ينفض رأسه ويقول : والذي أكرمك بالنبوّة لا أعود بعدها أفسد في الأرض ، قال : ثم إن ذلك الشيطان نظر فقال : إني لا أرى بهاء سليمان وملكه ، فانساخ في الأرض فذهب ، قال : فأمرت بالثلاث البواقي فرددن إلى مكانهن .

وقد ذكر السمعاني وغيره عنه أنه سار الى مدينة النحاس التي بقرب البحر المحيط الأخضر ، في أقصى بلاد المغرب ، وأنهم لما أشرفوا عليها رأوا بريق شرفاتها وحيطانها من مسافة بعيدة ، وأنهم لما أتوها نزلوا عندها ، ثم أرسل رجلاً من أصحابه ومعه مائة فارس من الأبطال ، وأمره أن يدور حول سورها لينظر هل لها باب أو منفذ إلى داخلها ، فقيل : إنه سار يوماً وليلة حول سورها ، ثم رجع إليه فأخبره أنه لم يجد باباً ولا منفذاً إلى داخلها ، فأمرهم فجمعوا ما معهم من المتاع [1] بعضه على بعض ، فلم يبلغوا أعلى سورها ، فأمر فعمل سلالم فصعدوا عليها ، وقيل إنه أمر رجلاً فصعد على سورها ، فلما رأى ما في داخلها لم يملك نفسه أن ألقاها في داخلها فكان آخر العهد به ، ثم آخر فكذلك ، ثم امتنع الناس من الصعود إليها ، فلم يحط أحد منهم بما في داخلها علماً ، ثم ساروا عنها فقطعوها إلى بحيرة قريبة منها ، فقيل : إن تلك الجرار المذكورة وجدها فيها ، ووجد عليها رجلاً قائماً ، فقال له : ما أنت ؟ قال : رجل من الجن وأبي محبوس في هذه البحيرة حبسه سليمان ، فأنا أجيء إليه في كل سنة مرة أزوره . فقال له : هل رأيت أحداً خارجاً من هذه المدينة أو داخلاً إليها ؟ قال : لا ، إلا أن رجلاً يأتي في كل سنة إلى هذه البحيرة يتعبد عليها أياماً ثم يذهب فلا يعود إلى مثلها ، والله أعلم ما هو . ثم رجع إلى إفريقية ، والله أعلم بصحة ذلك ، والعهدة على من ذكر ذلك أولاً .

وقد استسقى موسى بن نصير بالناس في سنة ثلاث وتسعين حين أقحطوا [2] بأفريقية ، فأمرهم بصيام ثلاثة أيام قبل الإستسقاء ، ثم خرج بين الناس وميز أهل الذمة عن المسلمين ، وفرق بين البهائم وأولادها ، ثم أمر بإرتفاع الضجيج والبكاء ، وهو يدعو الله تعالى حتى انتصف النهار ، ثم نزل فقيل له : ألا دعوت لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا موطن لا يذكر فيه إلا الله عزّ وجلّ ، فسقاهم عزّ وجلّ لما قال ذلك . وقد وفد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه ، فدخل دمشق في يوم جمعة والوليد على المنبر ، وقد لبس موسى ثياباً حسنة وهيئة حسنة ، فدخل ومعه ثلاثون غلاماً من أبناء الملوك الذين أسرهم ، والأسبان ، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم

---

(١) المتاع : جمعها أمتعة : كل ما يُنْتفع به من عروض الدنيا كثيرها وقليلها .

(٢) أقحطوا : أُصيبوا بالقحط أي الجفاف .

من الخدم والحشم والأبهة العظيمة ، فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق بهت إليهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة ، وجاء موسى بن نصير فسلّم على الوليد وهو على المنبر ، وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله ، فحمد الله الوليد وشكره على ما أيّده به ووسع ملكه ، وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة ، ثم نزل فصلّى بالناس ، ثم استدعى بموسى بن نصير فأحسن جائزته وأعطاه شيئاً كثيراً ، وكذلك موسى بن نصير قدم معه بشيء كثير ، من ذلك مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، التي كان يأكل عليها ، وكانت من خليطين ذهب وفضة ، وعليها ثلاثة أطواق لؤلؤ وجوهر لم يرَ مثله ، وجدها في مدينة طليطلة من بلاد الأندلس مع أموال كثيرة . وقيل إنه بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف رأس ، وبعث ابن أخيه في جيش فأصاب من السبي مائة ألف رأس أيضاً من البربر ، فلما جاء كتابه إلى الوليد وذكر فيه أن خُمس الغنائم أربعون ألف رأس قال الناس : إن هذا أحمق ، من أين له أربعون ألف رأس خُمس الغنائم ؟ فبلغه ذلك فأرسل أربعين ألف رأس وهي خُمْس ما غنم ، ولم يسمع في الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير أمير المغرب .

وقد جرت له عجائب في فتحه بلاد الأندلس وقال : ولو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية ـ وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج ـ ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى ، ولما قدم على الوليد قدم معه بثلاثين ألفاً من السبي غير ما ذكرنا ، وذلك خُمْس ما كان غَنِمه في آخر غزاة غزاها ببلاد المغرب ، وقدم معه من الأموال والتحف واللآلىء والجواهر ما لا يحد ولا يوصف ، ولم يزل مقيماً بدمشق حتى مات الوليد وتولى سليمان ، وكان سليمان عاتباً على موسى فحبسه عنده وطالبه بأموالٍ عظيمة . ولُم يزل في يده حتى حج بالناس سليمان في هذه السنة وأخذه معه فمات بالمدينة ، وقيل بوادي القرى ، وقد قارب الثمانين ، وقيل توفي في سنة تسع وتسعين فالله أعلم ورحمه الله وعفا عنه بمنه وفضله آمين .

ثم دخلت سنة ثمانٍ وتسعين

ففي هذه السنة جهّز سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين أخاه مسلمة بن عبد الملك لغزو القسطنطينية وراء الجيش الذين هم بها ، فسار إليها ومعه جيش عظيم ، ثم التفّ عليه ذلك الجيش الذين هم هناك وقد أمر كل رجل من الجيش أنْ يحمل معه على ظهر فرسه مدين من طعام ، فلما وصل إليها جمعوا ذلك فاذا هو أمثال الجبال ، فقال لهم مسلمة : أُتركوا هذا الطعام وكلوا مما تجدونه في بلادهم ، وازرعوا في أماكن الزرع واستغلوه ، وابنوا لكم بيوتاً من خشب ، فإنّا لا نرجع عن هذا البلد إلا أن نفتحها إن شاء الله . ثم إن مسلمة داخلَ رجلاً من النصارى يقال له اليون ، وواطأه [1] في الباطن ليأخذ له بلاد الروم ، فظهر منه نصح في بادىء الأمر ، ثم إنه توفي ملك

(١) وواطأه : وافقه وأيّده .

القسطنطينية ، فدخل إليون في رسالة من مسلمة وقد خافته الروم خوفاً شديداً فلما دخل إليهم إليون قالوا له : رده عنّا ونحن نُملكُك علينا فخرج فأعمل الحيلة في الغدر والمكر ، ولم يزل قبّحه الله حتى أحرق ذلك الطعام الذي للمسلمين ، وذلك أنه قال لمسلمة : إنهم ما داموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم في القتال ، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البلد سريعاً ، فأمر مسلمة بالطعام فأحرق ، ثم انشمر إليون في السفن وأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش في الليل ، وأصبح وهو في البلد محارباً للمسلمين ، وأظهر العداوة الأكيدة ، وتحصن واجتمعت عليه الروم ، وضاق الحال على المسلمين حتى أكلوا كل شيء إلا التراب ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءتهم وفاة سليمان بن عبد الملك وتولية عمر بن عبد العزيز ، فكروا راجعين الى الشام ، وقد جهدوا جهداً شديداً ، لكن لم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية شديد البناء محكماً ، رحب الفناء شاهقاً في السماء .

وقال الواقدي : لما ولي سليمان بن عبد الملك أراد الإقامة ببيت المقدس ، ثم يرسل العساكر الى القسطنطينية ، فأشار عليه موسى بن نصير بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق والحصون ، حتى يبلغ المدينة ، فلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها ووهنت [1] قوتها ، فاذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد ، ثم استشار أخاه مسلمة فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنوة ، فمتى ما فتحت فان باقي ما دونها من البلاد والحصون بيدك ، فقال سليمان : هذا هو الرأي ، ثم أخذ في تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة فجهز في البر مائة وعشرين ألفاً ، وفي البحر مائة وعشرين ألفاً من المقاتلة ، وأخرج لهم الأعطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو القسطنطينية والإقامة إلى أن يفتحوها ، ثم سار سليمان من بيت المقدس فدخل دمشق وقد اجتمعت له العساكر فأمّر عليهم أخاه مسلمة ، ثم قال : سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف . ثم سار سليمان حتى نزل مرج دابق ، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة المحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم يرَ مثله ، ثم أمر مسلمة أن يرحل بالجيوش وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ، ثم ساروا حتى نزلوا على القسطنطينية فحاصرها إلى أن برح بهم وعرض أهلها الجزية على مسلمة فأبى إلا أن يفتحها عنوة ، قالوا : فابعث إلينا إليون نشاوره ، فأرسله إليهم ، فقالوا له : رد هذه العساكر عنا ونحن نعطيك ونملكك علينا ، فرجع إلى مسلمة : فقال : قد أجابوا إلى فتحها غير أنهم لا يفتحونها حتى تتنحى عنهم ؛ فقال مسلمة : إني أخشى غدرك ، فحلف له أنه يدفع إليه مفاتيحها وما فيها ، فلما تنحى عنهم أخذوا في ترميم ما تهدم من أسوارها واستعدوا للحصار ، وغدر إليون بالمسلمين قبّحه الله .

---

(١) ووهنت : ضعفت .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة أخذ سليمان بن عبد الملك العهد لولده أيوب أنه الخليفة من بعده ، وذلك بعد موت أخيه مروان بن عبد الملك ، فعدل عن ولاية أخيه يـزيد إلى ولايـة ولده أيوب ، وتربص بأخيه الدوائر ، فمات أيوب في حياة أبيه ، فبايع سليمان الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز أن يكون الخليفة من بعده ، ونِعْمَ ما فعل . وفيها فتحت مدينة الصقالبة . قال الواقدي : وقد أغارت البرجان على جيش مسلمة وهو في قلة من الناس في هذه السنة . فبعث إليه سليمان جيشاً فقاتل البرجان حتى هزمهم الله عزّ وجلّ . وفيها غـزا يزيـد بن المهلب قهستان من أرض الصين فحاصرها وقاتل عندها قتالاً شديداً ، ولم يزل حتى تسلمها ، وقتل من الترك الذين بها أربعة آلاف صبراً ، وأخذ منها من الأموال والأثاث والأمتعة ما لا يحد ولا يوصف كثرة وقيمة وحسناً ، ثم سار منها إلى جرجان فاستجاش صاحبها بالديلم ، فقدموا لنجدته فقاتلهم يزيد بن المهلب وقاتلوه ، فحمل محمد بن عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي ـ وكان فارساً شجاعاً باهراً ـ على ملك الديلم فقتله وهزمهم الله ، ولقد بارز ابن أبي سبرة هذا يوماً بعض فرسان الترك ، فضربه التركي بالسيف على البيضة (١) فنشب فيها ، وضربه ابن أبي سبرة فقتله ، ثم أقبل إلى المسلمين وسيفه يقطر دماً وسيف التركي ناشب(٢) في خوذنه(٣) ، فنظر إليه يزيد بـن المهلب فقال : ما رأيت منظراً أحسن من هذا ، مَن هذا الرجل ؟ قالوا : ابن أبي سبرة . فقال : نِعْمَ الرجل لولا انهماكه في الشراب . ثم صمم يزيد على محاصرة جرجان ، وما زال يضيق على صاحبها حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف دينار ، ومائتي ألف ثوب ، وأربعمائة حمار موقرة (٤) زعفراناً ؛ وأربعمائة رجل على رأس كل رجل ترس ، على الترس طيلسان وجام (٥) من فضة وسرقة من حرير ، وهذه المدينة كان سعيد بن العاص فيها فتحها صلحاً على أن يحملوا الخراج في كل سنة مائة ألف ، وفي سنة مائتي ألف ، وفي بعض السنين ثـلاثمائـة ألف ، ويمنعون ذلـك في بعض السنين ، ثم امتنعوا جملة وكفروا ، فغزاهم يزيد بن المهلب وردها صلحاً على ما كانت عليه في زمن سعيد بن العـاص . قالوا : وأصاب يزيد بن المهلب من غيرها أموالاً كثيرة جداً ، فكان من جملتها تـاج فيه جـواهر نفيسة ، فقال : أترون أحداً يزهد في هذا ؟ قالوا : لا نعلمه ، فقال : والله إني لأعلم رجلاً لو عرض عليه هذا وأمثاله لزهد فيه ، ثم دعا بمحمد بن واسع ـ وكان في الجيش مغازيا ـ فعرض عليه أخذ التاج فقال : لا حاجة لي فيه ، فقال : أقسمت عليك لتأخذنه ، فأخذه وخرج به من عنده ، فأمر يزيد رجلاً أن يتبعه فينظر ماذا يصنع بالتاج ، فمر بسائل فطلب منه شيئاً فأعطاه [التاج] بكمـاله وانصرف ، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج وعوّضه عنه مالاً كثيراً .

---

(١) البيضة : الخوذة .

(٢) ناشب : عالق .

(٣) خوذته : ما يجعله المحارب على رأسه ليقيَهُ .

(٤) موقرة : محمولة .

(٥) وجام : كأس (فارسية) .

وقال علي بن محمد المدائني قال أبو بكر الهذلي : كان شهر بن حوشب على خزائن يزيد بن المهلب فرفعوا إليه أنه أخذ خريطة فيها مائة دينار ، فسأله عنها فقال : نعم وأحضرها ؛ فقال له يزيد : هي لك ، ثم استدعى الذي وشى به فشتمه ، فقال في ذلك القطامي الكلبي ، ويقال إنها لسنان بن مكمّل النميري :

لقد باعَ شهرُ دينهُ بخريطةٍ[1] فمنْ يأمنِ القراءَ بعدكَ يا شهرُ
أخذتُ بهِ شيئاً طفيفاً وبعتهُ من ابنِ جونبوذانَ هذا هو الغدرُ

وقال مرّة بن النخعي :

يا ابنَ المهلبِ ما أردتُ إلى امرئٍ لولاكَ كانَ كصالحِ القراءِ

قال ابن جرير: ويقال إن يزيد بن المهلب كان في غزوة جرجان في مائة ألف وعشرين ألفاً ، منهم ستون ألفاً من جيش الشام أثابهم الله ، وقد تمهدت تلك البلاد بفتح جرجان وسلكت الطرق ، وكانت قبل ذلك مخوفة جداً ، ثم عزم يزيد على المسير إلى خوزستان ، وقدم بين يديه سرية هي أربعة آلاف من سراة الناس ، فلما التقوا اقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل من المسلمين في المعركة أربعة آلاف إنّا لله وإنّا إليه راجعون . ثم إن يزيد عزم على فتح البلاد لا محالة ، وما زال حتى صالحه صاحبها ـ وهو الاصبهبذ ـ بمال كثير ، سبعمائة ألف في كل عام ، وغير ذلك من المتاع والرقيق . وممن توفي فيها من الأعيان :

عبد الله بن عبد الله بن عتبة

كان إماماً حجة ، وكان مؤدّب عمر بن عبد العزيز ، وله روايات كثيرة عن جماعات من الصحابة . أبو الحفص النخعي . عبد الله بن محمد بن الحنفية . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين

فيها كانت وفاة سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين يوم الجمعة لعشر مضين ، وقيل بقين من صفر منها ، عن خمس وأربعين سنة ، وقيل عن ثلاث وأربعين ، وقيل إنه لم يجاوز الأربعين . وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر ، وزعم أبو أحمد الحاكم أنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان منها ، وأنه استكمل في خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام ، وله من العمر تسع وثلاثون سنة ، والصحيح قول الجمهور وهو الأول ، والله أعلم .

---

(١) بخريطة : الخريطة : وعاء من جلد أو غيره يُشَدُّ على ما فيه.

وهو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي ، أبو أيوب . كان مولده بالمدينة في بني جذيلة ، ونشأ بالشام عند أبيه ، وروى الحديث عن أبيه عن جده عن عائشة أم المؤمنين في قصة الإفك ، رواه ابن عساكر من طريق ابنه عبد الواحد بن سليمان عنه ، وروى عن عبد الرحمن بن هنيدة أنه صحب عبد الله بن عمر إلى الغابة قال فسكت فقال لي ابن عمر : مالك ؟ فقال : إني كنت أتمنى . فقال ابن عمر : فما تتمنى يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال لي : لو أن لي أحداً هذا ذهباً أعلم عدده وأخرج زكاته ما كرهت ذلك ، أو قال : ما خشيت أن يضرَّ بي . رواه محمد بن يحيى الذهلي عن أبي صالح عن الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن الزهري عنه .

قال ابن عساكر : وكانت داره بدمشق موضع ميضأة جيرون الآن في تلك المساحة جميعها ، وبنى داراً كبيرة مما يلي باب الصغير ، موضع الدرب المعروف بدرب محرز ، وجعلها دار الامارة ، وعمل فيها قبة صفراء تشبيهاً بالقبة الخضراء ، قال : وكان فصيحاً مؤثراً للعدل محباً للغزو ، وقد أنفذ الجيش لحصار القسطنطينية حتى صالحوهم على بناء الجامع بها .

وقد روى أبو بكر الصولي أن عبد الملك جمع بنيه ، الوليد وسليمان ومسلمة ، بين يديه فاستقرأهم القرآن فأجادوا القراءة ، ثم استنشدهم الشعر فأجادوا ، غير أنهم لم يكملوا أو يحكموا شعر الأعشى ، فلامهم على ذلك ، ثم قال : لينشدني كل رجل منكم أرق بيت قالته العرب ولا يفحش ، هات يا وليد ، فقال الوليد :

ما مركبٌ وركوبُ الخيلِ يعجبني ... كمركبٍ بينَ دملوجٍ[1] وخلخالِ

فقال عبد الملك : وهل يكون من الشعر أرق من هذا ؟ هات يا سليمان ، فقال :

حبّذا رجعُها يديها إليها ... في يدي درعها تحلُّ الازارا

فقال : لم تصب ، هات يا مسلمة ، فأنشده قول امرىء القيس :

وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربي ... بسهميك في أعشارٍ[2] قلبٍ مقتَّل

فقال : كذب امروء القيس ولم يصب ، إذا ذرفت عيناها بالوجد فما بقي إلا اللقاء ، وإنما ينبغي للعاشق أن يغتضى[3] منها الجفاء ويكسوها المودة ، ثم قال : أنا مؤجلكم في هذا البيت

---

(١) دملوج : جمعها دَمَاليج : حليٌ يُلْبَس في المِعْصَم.
(٢) أعشار : لم يرد شرحها في الأصول .
(٣) يغتضى الجفاء أي يغضي عنه . ولعله « ينتضي » بمعنى يخلع .

ثلاثة أيام فمن أتاني به فله حكمه ، أي مهما طلب أعطيته ، فنهضوا من عنده فبينما سليمان موكب إذا هو بأعرابي يسوق إبله وهو يقول :

لـو ضـربـوا بـالسَّيفِ رأْسي في مـودَّتهـا　　　لمـالَ يهـوي سـريعـاً نحـوَهـا رأسي

فأمر سليمان بالأعرابي فاعتقل ، ثم جاء إلى أبيه فقال : قد جئتك بما سألت ، فقال : هات ، فأنشده البيت فقال : أحسنت ، وأنى لك هذا ؟ فأخبره خبر الأعرابي ، فقال : سَلْ حاجتك ولا تنسَ صاحبك . فقال : يا أمير المؤمنين إنك عهدت بالأمر من بعدك للوليد ، وإني أحب أن أكون وليَّ العهد من بعده ، فأجابه إلى ذلك ، وبعثه على الحج في إحدى وثمانين ، وأطلق له مائة ألف درهم . فأعطاها سليمان لذلك الأعرابي الذي قال ذلك البيت من الشعر ، فلما مات أبوه سنة ست وثمانين وصارت الخلافة الى أخيه الوليد ، كان بين يديه كالوزير والمشير ، وكان هو المستحث عـلى عمارة جامع دمشق ، فلما توفي أخوه الوليد يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، كان سليمان بالرملة ، فلما أقبل تلقَّاه الأمراء ووجوه الناس ، وقيل إنهم ساروا إليه الى بيت المقدس فبايعوه هناك ، وعزم على الإقامة بالقدس ، وأتته الوفود إلى بيت المقدس ؛ فلم يروا وفادة هناك ، وكان يجلس في قبة في صحن المسجد مما يلي الصخرة من جهة الشمال ، وتجلس أكابر الناس على الكراسي ، وتقسم فيهم الأموال ، ثم عزم على المجيء الى دمشق ، فدخلها وكمّل عمارة الجامع .

وفي أيامه جددت المقصورة واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشاراً ووزيراً ، وقال له : إنا قد ولِّينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به فليكتب ، وكان من ذلك عزل نواب الحجاج وإخراج أهل السجون منها ، وإطلاق الأسرا ، وبذل الأعطية بالعراق ، ورد الصلاة الى ميقاتها الأول ، بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها ، مع أمور حسنة كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز ، وأمر بغزو القسطنطينية فبعث اليها من أهل الشام والجزيرة والموصل في البر نحواً من مائة ألف وعشرين ألف مقاتل ، وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب في البحر عليهم عمر بن هبيرة ، وعلى جماعة الناس كلهم أخوه مسلمة ، ومعه ابنه داود بن سليمان بن عبد الملك في جماعة من أهل بيته ، وذلك كله عن مشورة موسى بن نصير ، حين قدم عليه من بلاد المغرب ، والصحيح أنه قدم في أيام أخيه الوليد والله أعلم .

قال ابن أبي الدنيـا : حدّثني محمـد بن إسماعيـل بن إبراهيم الكـوفي عن جابـر بن عون الأسدي . قال : أول كلام تكلَّم به سليمان بن عبد الملك حين وُلِّيَ الخلافة أن قال : الحمد لله الذي ما شاء صنع وما شاء رفع وما شاء وضع ، ومن شاء أعطى ومن شاء منع . إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، وزينة تقلب ، تضحك باكياً وتبكي ضاحكـاً ، وتخيف آمناً وتؤمن خـائفاً ، تفقـر مثريها ، وتثري فقيرها ، ميالة لاعبة بأهلها . يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إماماً ، وارضوا به حكماً ،

واجعلوه لكم قائداً ، فانه ناسخ لما قبله ، ولن ينسخه كتاب بعده . اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه (١) كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس أدبار الليل إذا عسعس (٢) . وقال يحيى بن معين عن حجاج بن محمد عن أبي معشر عن محمد بن قيس قال : سمعت سليمان بن عبد الملك يقول في خطبته : فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه . وقال حماد بن زيد عن يزيد بن حازم ، قال : كان سليمان بن عبد الملك يخطبنا كل جمعة لا يدع أن يقول في خطبته : وإنما أهل الدنيا على رحيل ، لم تمضِ لهم نية ولم تطمئن بهم حتى يأتي أمر الله ووعده وهم على ذلك ، كذلك لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجائعها ولا تبقى من شر أهلها ثم يتلو : ﴿ أفرأيتَ إنْ متَّعْنَاهُمْ سنينَ ثمَّ جاءَهُمْ مَا كانُوا يُوْعَدُونَ ، مَا أغْنَى عَنْهُمْ مَا كانوا يُمَتَّعُون ﴾ (٣) . وروى الاصمعي أن نقش خاتم سليمان [كان] : آمنت بالله مخلصاً ـ وقال أبو مسهر عن أبي مسلم سلمة بن العيار الفزاري . قال : كان محمد بن سيرين يترحم على سليمان بن عبد الملك ، ويقول : افتتح خلافته بخير وختمها بخير ، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها ، وختمها بإستخلافه عمر بن عبد العزيز .

قد أجمع علماء الناس والتواريخ أنه حج بالناس في سنة سبع وتسعين وهو خليفة ، قال الهيثم بن عدي قال الشعبي : حج سليمان بن عبد الملك فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز: ألا ترى هذاالخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله ، [ولا يسع رزقهم غيره ، فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم ، وهم غدا خصماؤك عند الله ،] فبكى سليمان بكاء شديداً ثم قال : بالله أستعين . وقال ابن أبي الدنيا : ثنا إسحاق بن إسماعيل ثنا جرير عن عطاء بن السائب . قال : كان عمر بن عبد العزيز في سفر مع سليمان بن عبد الملك فأصابهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة ، حتى فزعوا لذلك ، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك ، فقال له سليمان : ما يضحكك يا عمر ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين هذه آثار رحمته فيها شدائد ما ترى ، فكيف بآثار سخطه وغضبه ؟

ومن كلامه الحسن رحمه الله قوله : الصمت منام العقل والنطق يقظته ، ولا يتم هذا إلا بهذا . ودخل عليه رجل فكلمه فأعجبه منطقه ثم فتشه فلم يحمد عقله ، فقال : فضل منطق الرجل على عقله خدعة ، وفضل عقله على منطقه هجنة (٤) ، وخير ذلك ما أشبه بعضه بعضاً وقال : العاقل أحرص على إقامة لسانه منه على طلب معاشه ، وقال أيضاً : إن من تكلم فأحسن قادر على أن يسكت فيحسن ، وليس كل من سكت فأحسن قادراً على أن يتكلم فيحسن . ومن شعره يتسلى عن صديق له مات فقال :

---

(١) وضغائنه : احقاده .

(٢) عسعس : أظلم .

(٣) سورة الشعراء ، الآية/ ٢٠٥ .

(٤) هجنة : العيب والقبح أو ما يعيب الإنسان .

وهــوَّن وجــدي فـي شــراحيــل أنــني   متى شئت لاقيت امــرءاً مــات صــاحبــه

ومن شعره أيضاً :

ومــنْ شِيَــمي ألاّ أفــارقَ صــاحـبي   وإنْ مــلّنــي إلا ســألــتُ لــهُ رُشــدا
وإنْ دامَ لــي بــالــودِ دمــتُ ولــم أكــنْ   كــآخــرَ لا يــرعَــى ذِمــامــاً ولا عهــدا

وسمع سليمان ليلة صوت غناء في معسكره فلم يزل يفحص حتى أتى بهم ، فقال سليمان : إن الفرس ليصهل فتستودق له [1] الرَّمَكة ، وإن الجمل ليهدِر [2] فتضبَع له الناقة ، وإن التيس لينبّ [3] فتستخذي له العنز وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة ، ثم أمر بهم فقال : اخصوهم ، فيقال إن عمر بن عبد العزيز قال : يا أمير المؤمنين إنها مثلة ، ولكن انْفِهم ، فنفاهم . وفي رواية أنه خصي أحدهم ، ثم سأل عن أصل الغناء فقيل إنه بالمدينة ، فكتب إلى عامله بها وهو أبو بكر بن محمد بن حزم يأمره أن يخصي من عنده من المغنين المخنثين .

وقال الشافعي : دخل أعرابي على سليمان فدعاه الى أكل الفالوذج [4] وقال له : إن أكلها يزيد في الدماغ فقال : لو كان هذا صحيحاً لكان ينبغي أن يكون رأس أمير المؤمنين مثل [رأس] البغل . وذكروا أن سليمان كان نهماً في الأكل ، وقد نقلوا عنه أشياء في ذلك غريبة ، فمن ذلك أنه اصطبح في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية ، وأربع وثمانين كلوة بشحمها ، وثمانين جردقة [5] ، ثم أكل مع الناس على العادة في السماط العام [6] . ودخل ذات يوم بستاناً له وكان قد أمر قيّمه أن يجني ثماره ، فدخله ومعه أصحابه فأكل القوم حتى ملوا ، واستمر هو يأكل أكلاً ذريعاً من تلك الفواكه ، ثم استدعى بشاة مشوية فأكلها ثم أقبل على أكل الفاكهة ، ثم أتى بدجاجتين فأكلهما ، ثم عاد الى الفاكهة فأكل منها ، ثم أتى بقعب يقعد فيه الرجل مملوءاً سويقاً [7] وسمناً وسكراً فأكله ثم عاد إلى دار الخلافة ، وأتى بالسماط فما فقدوا من أكله شيئاً [8] . وقد روى أنه عرضت له حمى عقب هذا الأكل أدته إلى الموت ، وقد قيل إن سبب مرضه كان من أكل أربعمائة بيضة وسلتين تيناً فالله أعلم .

---

(١) فتستودق : تطلب ذات الحافر الفحل .
(٢) ليهدر : يتردَّد صوته في حنجرته .
(٣) : نبّ التيس : أي صاح عند الهياج .
(٤) الفالوذج : حلواء تُعْمَل من الدقيق والماء والعسل (فارسية) :
(٥) جردقة : ج جرادق : الرغيف (فارسية) .
(٦) هذا وأمثاله من مبالغات الأعاجم التي كانوا يتقربون بها إلى بني العباس .
(٧) سويقاً : الناعم من دقيق الحنطة والشعير .
(٨) الذي اخترع هذه الأكاذيب نسي أن المعدة لا تقبل زيادة على حجمها ، وقد قيل إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً .

وذكر الفضل بن أبي المهلب أنه لبس في يوم جمعة حلة صفراء ، ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء .

(١) هذا وأمثاله من مبالغات الأعاجم التي كانوا يتقربون بها إلى بني العباس . وسيأتي في ص ١٩١ أن سليمان رحمه الله أنه كان نحيفاً جميلاً ، وهي صفة لا تتفق مع ما نسبوه اليه (٢) الذي اخترع هذه الأكاذيب نسي أن المعدة لا تقبل زيادة على حجمها ، وقد قيل إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً . واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وقد بسط ما حوله بالخضرة ، ثم نظر في المرآة فأعجبه حسنه ، وشمر عن ذراعيه وقال : أنا الخليفة الشاب ، وقيل إنه كان ينظر في المرآة من فرقه إلى قدمه ويقول : أنا الملك الشاب ، وفي رواية أنه كان ينظر فيها ويقول : كان محمد نبياً ، وكان أبو بكر صديقاً وكان عمر فاروقاً ، وكان عثمان حيياً ، وكان علي شجاعاً ، وكان معاوية حليماً ، وكان يزيد صبوراً ، وكان عبد الملك سائساً ، وكان الوليد جباراً ، وأنا الملك الشاب . قالوا : فما حال عليه بعد ذلك شهر ، وفي رواية جمعة ، حتى مات قالوا : ولما حم شرع يتوضأ فدعا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته :

أنتَ نعمَ المتاعِ لو كنتَ تبقى ... غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسانِ
أنتَ خلوٌ من العيوبِ ومما ... يكرهُ الناسُ غيرَ أنكَ فانِ

قالوا : فصاح بها وقال : عزتني في نفسي ، ثم أمر خاله الوليد بن العباس القعقاع العنسي[1] أن يصب عليه وقال :

قرب وضوءكَ يا وليدُ فإنما ... دنياكَ هذي بلغةٌ ومتاعُ
فاعملْ لنفسكَ في حياتكَ صالحاً ... فالدهرُ فيهِ فرقةٌ وجماعُ

ويروى أن الجارية لما جاءته بالطست جعلت تضطرب من الحمى ، فقال : أين فلانة ؟ فقالت : محمومة ، قال : ففلانة ؟ قالت : محمومة ، وكان بمرج دابق من أرض قنسرين ، فأمر خاله فوضأه ثم خرج يصلي بالناس فأخذته بحة في الخطبة ، ثم نزل وقد أصابته الحمى فمات في الجمعة المقبلة ، ويقال : إنه أصابه ذات الجنب فمات بها رحمه الله .

وكان قد أقسم أنه لا يبرح بمرج دابق حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية ، أو يموت قبل ذلك ، فمات قبل ذلك رحمه الله وأكرم مثواه ، قالوا : وجعل يلهج في مرضه ويقول :

إنَّ بنيَّ صغارُ ... أفلحَ من كانَ لهُ كبارُ

فيقول له عمر بن عبد العزيز : قد أفلح المؤمنون يا أمير المؤمنين ، ثم يقول :

---

(١) في المصرية العبسي .

إن بـنـيَّ صـبـيـةٌ صـيـفـيـونَ قـد أفـلحَ من كـانَ لـهُ ربعيـونَ

ويروى أن هذا آخر ما تكلم به ، والصحيح أن آخر ما تكلم به أن قال : أسألك منقلباً كريماً ، ثم قضى . وروى ابن جرير عن رجاء بن حيوة ـ وكان وزير صدق لبني أمية ـ قال : استشارني سليمان بن عبد الملك وهو مريض أن يولي له ابنا صغيراً لم يبلغ الحلم ، فقلت : إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولي على المسلمين الرجل الصالح ، ثم شاورني في ولاية ابنه داود ، فقلت : إنه غائب عنك بالقسطنطينية ولا تدري أحي هو أو ميت ، فقال : من ترى ؟ فقلت : رأيك يا أمير المؤمنين ، قال : فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : أعلمه والله خيراً فاضلاً مسلماً يحب الخير وأهله ، ولكن أتخوف عليه إخوتك أن لا يرضوا بذلك ، فقال : هو والله على ذلك وأشار رجال[1] أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولي العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليرضى بذلك بنو مروان ، فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، إني قد ولَّيته الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم . وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي صاحب الشرطة ، فقال له : اجمع أهل بيتي فمرهم فليبايعوا على ما في هذا الكتاب مختوماً ، فمن أبى منهم ضرب عنقه . فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا على أمير المؤمنين ، فقال لهم : هذا الكتاب عهدي إليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا وبايعوا من ولَّيت فيه ، فبايعوا لذلك رجلاً رجلاً ، قال رجاء : فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال : أنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان كتب لي ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة ، فقلت : والله لا أخبرك حرفاً واحداً . قال : ولقيه هشام بن عبد الملك فقال : يا رجاء إن لي بك حرمة ومودة قديمة ، فأخبرني هذا الأمر إن كان إليَّ علمت ، وإن كان لغيري فما مثلي قصّر به عن هذا . فقلت : والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسرّه إلى أمير المؤمنين ، قال رجاء : ودخلت على سليمان فإذا هو يموت ، فجعلت إذا أخذته السكرة من سكرات الموت أحرفه إلى القبلة ، فإذا أفاق يقول : لم يأن لذلك بعد يا رجاء ، فلما كانت الثالثة قال : من الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئاً ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فحرفته إلى القبلة فمات رحمه الله . قال : فغطيته بقطيفة[2] خضراء وأغلقت الباب عليه وأرسلت إلى كعب بن حامد فجمع الناس في مسجد دابق ، فقلت : بايعوا لمن في هذا الكتاب ، فقالوا : قد بايعنا ، فقلت : بايعوا ثانية ، ففعلوا ، ثم قلت : قوموا إلى صاحبكم فقد مات ، وقرأت الكتاب عليهم ، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بني مروان ، فلما قرأت وإن هشام بن عبد الملك بعده ، تراجعوا بعض الشيء . ونادى هشام لا نبايعه أبداً ، فقلت : اضرب عنقك والله ، قم فبايع ، ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز وهو

---

(١) في المصرية : وأشار سليمان بن رجاء ولعله : وأشار رجا .

(٢) بقطيفة : دثارٌ مُخْمَلٌ يلقيه الرجل على نفسه .

في مؤخر المسجد ، فلما تحقق ذلك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولم تحمله رجلاه حتى أخذوا بضبعيه[1] فأصعدوه على المنبر ، فسكت حيناً ، فقال : رجاء بن حيوة : ألا تقوموا إلى أمير المؤمنين فتبايعوه ، فنهض القوم فبايعوه ، ثم أتى هشام فصعد المنبر ليبايع وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال عمر : نعم ! إنا لله وإنا إليه راجعون الذي صرت أنا وأنت نتنازع هذا الأمر . ثم قام فخطب الناس خطبة بليغة وبايعوه ، فكان مما قال في خطبته : أيها الناس ، إني لست بمبتدع ولكني متبع ، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم ، وإن هم أبوا فلست لكم بوال ، ثم نزل ، فأخذوا في جهاز سليمان ، قال الأوزاعي : فلم يفرغوا منه حتى دخل وقت المغرب ، فصلّى عمر بالناس صلاة المغرب ، ثم صلى على سليمان ودفن بعد المغرب ، فلما انصرف عمر أتى بمراكب الخلافة [فأبى أن يركبها] وركب دابته وانصرف مع الناس حتى أتوا دمشق ، فمالوا به نحو دار الخلافة فقال : لا أنزل إلا في منزلي[2] حتى تفرغ دار أبي أيوب ، فاستحسنوا ذلك منه ، ثم استدعى بالكاتب فجعل يملي عليه نسخة الكتاب الذي يبايع عليه الأمصار ، قال رجاء : فما رأيت أفصح منه .

قال محمد بن إسحاق : وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر ليال خلت من صفر سنة تسع وتسعين ، على رأس سنتين وتسعة أشهر وعشرين يوماً من متوفى الوليد ، وكذا قال الجمهور في تاريخ وفاته ، ومنهم من يقول : لعشر بقين من صفر ، وقالوا : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، زاد بعضهم إلا خمسة أيام والله أعلم . . وقول الحاكم أبي أحمد : إنه توفي يوم الجمعة لثلاث عشرة بقين من رمضان سنة تسع وتسعين، حكاه ابن عساكر ، وهو غريب جداً ، وقد خالفه الجمهور في كل ما قاله ، وعندهم أنه جاوز الأربعين فقيل بثلاث وقيل بخمس والله أعلم .

قالوا : وكان طويلاً جميلاً أبيض نحيفاً ، حسن الوجه ، مقرون الحاجبين ، وكان فصيحاً بليغاً ، يحسن العربية ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله ، واتباع القرآن والسنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله ، وقد كان الله آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق - ودابق قريبة من بلاد حلب - لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى المسماة بالقسطنطينية ، أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت ، فمات هنالك كما ذكرنا ،فحصل له بهذه النية أجر الرباط[3] في سبيل الله ، فهو إن شاء الله ممن يجري له ثوابه إلى يوم القيامة رحمه الله .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة شراحيل بن عبيدة بن قيس العقيلي ما مضمونه :إن مسلمة ابن عبد الملك لما ضيق بمحاصرته على أهل القسطنطينية ، وتتبع المسالك واستحوذ على ما هنالك من

---

(١) بضبعيه : وهو ما بين الإبط إلى نصف العضُدِ من أعلاه .

(٢) كان منزله في موضع مدرسة السميساطية الآن مما يلي باب مسجد بني أمية الشمالي . أما قصر الخلافة الذي يُسمَّى (الدار الخضراء) فكان وراء الجدار القبلي من مسجد بني أمية . ويسمى موضعه الآن المصبغة الخضراء .

(٣) الرباط : الحصن او المكان الذي يرابط فيه الجيش .

الممالك ، كتب إليون ملك الروم إلى ملك البرجان [1] يستنصره على مسلمة ، ويقول له : ليس لهم همة إلا في الدعوة إلى دينهم ، الأقرب منهم فالأقرب ، وإنهم متى فرغوا مني خلصوا إليك ، فمهما كنت صانعاً حينئذ فاصنعه الآن ، فعند ذلك شرع لعنه الله في المكر والخديعة ، فكتب إلى مسلمة يقول له : إن إليون كتب إليّ يستنصرني عليك ، وأنا معك فمرني بما شئت . فكتب إليه مسلمة : إني لا أريد منك رجالاً ولا عدداً ، ولكن أرسل إلينا بالميرة [2] فقد قلّ ما عندنا من الأزواد [3] . فكتب إليه : إني قد أرسلت إليك بسوق عظيمة إلى مكان كذا وكذا ، فأرسل من يتسلمها ويشتري منها . فأذن مسلمة لمن شاء من الجيش أن يذهب إلى هناك فيشتري له ما يحتاج إليه ، فذهب خلق كثير فوجدوا هنالك سوقاً هائلة ، فيها من أنواع البضائع والأمتعة والأطعمة ، فأقبلوا يشترون ، واشتغلوا بذلك ، ولا يشعرون بما أرصد لهم الخبيث من الكمائن بين تلك الجبال التي هنالك ، فخرجوا عليهم بغتة [4] واحدة فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين وأسروا آخرين ، وما رجع إلى مسلمة إلا القليل منهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، فكتب مسلمة بذلك إلى أخيه سليمان يخبره بما وقع من ذلك ، فأرسل جَيشاً كثيفاً صحبة شراحيل بن عبيدة هذا ، وأمرهم أن يعبروا خليج القسطنطينية أولا فيقاتلوا ملك البرجان ، ثم يعودوا إلى مسلمة ، فذهبوا إلى بلاد البرجان وقطعوا إليهم تلك الخلجان ، فاقتتلوا معهم قتالاً شديداً ، فهزمهم المسلمون بإذن الله ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً ، وخلّصوا أسرى المسلمين ، ثم تحيزوا الى مسلمة فكانوا عنده حتى استقدم الجميع عمر بن عبد العزيز خوفاً عليهم من غائلة الروم وبلادهم ، ومن ضيق العيش ، وقد كان لهم قبل ذلك مدة طويلة أثابهم الله .

خلافة عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه

قد تقدم أنه بويع له بالخلافة يوم الجمعة لعشر مضين ، وقد قيل بقين من صفر من هذه السنة ـ أعني سنة تسع وتسعين ـ يوم مات سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه إليه من غير علم من عمر كما قدمنا ، وقد ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة ، من أول حركة بدت منه ، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة ، وهي الخيول الحسان الجياد المعدة لها ، والاجتزاء بمركوبه الذي كان يركبه ، وسكنى منزله رغبة عن منزل الخلافة ، ويقال إنه خطب الناس فقال في خطبته : أيها الناس ، إن لي نفساً تواقة لا تعطي شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أعلى منه ، وإني لما أُعْطِيتُ الخلافة تاقت نفسي إلى ما هو

---

(١) الأرجح أنهم أمة البلغار ، وهم أقرب الأمم النصرانية إلى القسطنطينية .
(٢) بالميرة : جمعها مِيَر : الطعام الذي يذُخره الإنسان .
(٣) الأزواد : مفردها الزاد : ما يُتّخذ من الطعام للسفر .
(٤) بغتة : فجأة .

أعلى منها وهي الجنة ، فأعينوني عليها يرحمكم الله . وستأتي ترجمته عند وفاته إن شاء الله ، وكان مما بادر إليه عمر في هذه السنة أن بعث إلى مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين وهم بأرض الروم محاصرو القسطنطينية ، وقد اشتد عليهم الحال وضاق عليهم المجال ، لأنهم عسكر كثير ، فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع إلى الشام إلى منازلهم . وبعث إليهم بطعام كثير وخيول كثير عتاق ، يقال خمسمائة فرس ، ففرح الناس بذلك .

وفيها أغارت الترك على أذربيجان فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين ، فوجه إليهم عمرُ حاتمَ بن النعمان الباهلي فقتل أولئك الأتراك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وبعث منهم أسارى إلى عمر وهو بخناصرة . وقد كان المؤذنون يذكرونه بعد أذانهم باقتراب الوقت وضيقه لئلا يؤخرها كما كان يؤخرها من قبله ، لكثرة الأشغال ، وكان ذلك عن أمره لهم بذلك والله أعلم . فروى ابن عساكر في ترجمة جرير بن عثمان الرحبي الحمصي قال : رأيت مؤذني عمر بن عبد العزيز يسلمون عليه في الصلاة : السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، حي على الصلاة حي على الفلاح ، الصلاة قد قاربت .

وفي هذه السنة عزل عمر يزيد بن المهلب عن إمرة العراق وبعث عدي بن أرطأة الفزاري على إمرة البصرة ، فاستقضى عليها الحسن البصري ، ثم استعفاه فأعفاه ، واستقضى مكانه إياس بن معاوية الذكي المشهور ، وبعث على إمرة الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وضم إليه أبا الزناد كاتباً بين يديه ، واستقضى عليها عامراً الشعبي . قال الواقدي : فلم يزل قاضياً عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز ، وجعل على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى إمرة المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة ، وعزل عن إمرة مصر عبد الملك بن أبي وداعة وولّى عليها أيوب بن شرحبيل ، وجعل الفتيا إلى جعفر بن ربيعة ويزيد بن أبي حبيب وعبيد الله بن أبي جعفر ، فهؤلاء الذين كانوا يفتون الناس ، واستعمل على إفريقية وبلاد المغرب إسماعيل بن عبد الله المخزومي ، وكان حسن السيرة ، وأسلم في ولايته على بلاد المغرب خلق كثير من البربر والله سبحانه وتعالى أعلم . وممن توفي فيها من الأعيان :

الحسن بن محمد بن الحنفية

تابعي جليل ، يقال إنه أول من تكلم في الأرجاء ، وقد تقدم أن أبا عبيد قال : توفي في سنة خمس وتسعين . وذكر خليفة أنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز ؛ وذكر شيخنا الذهبي في الاعلام أنه توفي هذا العام ، والله أعلم .

عبد الله بن محيريز بن جنادة بن عبيد

القرشي الجمحي المكي ، نزيل بيت المقدس ، تابعي جليل ، روى عن زوج أم أبي محذورة المؤذن، وعبادة بن الصامت، وأبي سعيد، ومعاوية وغيرهم ، وعنه خالدبن معدان،ومكحول،وحسان بن عطية ، والزهري ، وآخرون . وقد وثقه غير واحد ، وأثنى عليه جماعة من الأئمة ، حتى قال رجاء بن حيوة : إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر ، فإنا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله بن محيريز . وقال بعض ولده : كان يختم القرآن كل جمعة ، وكان يفرش له الفراش فلا ينام عليه ، قالوا : وكان صموتا معتزلاً للفتن، وكان لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يذكر شيئاً من خصاله المحمودة، ورأى على بعض الأمراء حلة من حرير فأنكر عليه ، فقال : إنما ألبسها من أجل هؤلاء ـ وأشار إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ـ فقال له ابن محيريز : لا تعدل بخوفك من الله خوف أحد من المخلوقين . وقال الأوزاعي : من كان مقتدياً فليقتد بمثله ، فإن الله لا يضل أمة فيها مثله . قال بعضهم : توفي أيام الوليد ، وقال خليفة بن خياط : توفي أيام عمر بن عبد العزيز ، وذكر الذهبي في الأعلام أنه توفي في هذا العام ، والله سبحانه أعلم .

دخل ابن محيريز مرة حانوت بزاز ليشتري منه ثوباً فرفع في السوم ، فقال له جاره : ويحك هذا ابن محيريز ضع له ، فأخذ ابن محيريز بيد غلامه وقال : اذهب بنا ، وإنما جئت لنشتري بأموالنا لا بأدياننا ، فذهب وتركه .

محمود بن لبيد بن عقبة

أبو نعيم الأنصاري الأشهلي ولد في حياة النبي ﷺ ، وروى عنه أحاديث لكن حكمها حكم الارسال . وقال البخاري : له صحبة . وقال ابن عبد البر : هو أحسن من محمود بن الربيع . قيل إنه توفي سنة ست وقيل سبع وتسعين ، وذكر الذهبي في الاعلام أنه توفي في هذا العام والله أعلم باليقين .

نافع بن جبير بن مطعم

ابن عدي بن نوفل القرشي النوفلي المدني ، روى عن أبيه وعثمان وعلي والعباس وأبي هريرة وعائشة وغيرهم ، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، وكان ثقة عابداً يحج ماشياً ومركوبه يقاد معه ، قال غير واحد : توفي سنة تسع وتسعين بالمدينة .

كريب بن مسلم

مولى ابن عباس ، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان عنده حمل كتب ، وكان من الثقات المشهورين بالخير والديانة .

محمد بن جبير بن مطعم

كان من علماء قريش وأشرافها ، وله روايات كثيرة ، وكان يعقل مجة مجها النبي ﷺ في وجهه وعمره أربع سنين ، توفي وعمره ثلاث وتسعون سنة بالمدينة .

مسلم بن يسار

أبو عبد الله البصري ، الفقيه الزاهد ، له روايات كثيرة ، كان لا يفضل عليه أحد في زمانه ، وكان عابداً ورعاً زاهداً كثير الصلاة كثير الخشوع ، وقيل إنه وقع في داره حريق فأطفأه وهو في الصلاة لم يشعر به . وله مناقب كثيرة رحمه الله قلت : وانهدمت مرة ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها ، وإنه لفي المسجد في صلاته فما التفت . وقال ابنه : رأيته ساجداً وهو يقول : متى ألقاك وأنت عني راض ، ثم يذهب في الدعاء ، ثم يقول : متى ألقاك وأنت عني راض ، وكان إذا كان في غير صلاة كأنه في الصلاة ، وقد تقدمت ترجمته .

حنش بن عمرو الصنعاني

كان والي إفريقية وبلاد المغرب ، وبافريقية توفي غازياً ، وله روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة .

خارجة بن زيد

ابن الضحاك الأنصاري المدني الفقيه ، كان يفتي بالمدينة ، وكان من فقهائها المعدودين ، كان عالماً بالفرائض[1] وتقسيم المواريث ، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين مدار الفتوى على قولهم .

سنة مائة من الهجرة النبوية

قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن حفص أنبأ ورقاء عن منصور عن المنهال بن عمرو عن نعيم بن دجاجة قال : دخل ابن مسعود على علي فقال : أنت القائل قال رسول الله ﷺ : « لا يأتي على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة » ؟ إنما قال رسول الله ﷺ : « لا يأتي على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة ممن هو حي ، وإن رخاء هذه الأمة بعد المائة » . تفرد به أحمد . وفي رواية لابنه عبد الله أن علياً قال له : يا فروخ أنت القائل لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف ممن هو حي اليوم ، وإنما رخاء هذه الأمة وفرجها بعد المائة ؟ إنما قال رسول الله ﷺ : « لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض

(١) بالفرائض : علم الفرائض : علم تُعْرَف به كيفية قسمة التركة على مستحقيها .

عين تطرف ، أخطأت أستك[1] الحفرة ، وإنما أراد ممن هو اليوم حي » . تفرد به[2] وهكذا جاء في الصحيحين عن ابن عمر ، فوهل الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك ، وإنما أراد انخرام قرنه .

وفيها خرجت خارجة من الحرورية بالعراق فبعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد نائب الكوفة ، يأمره بأن يدعوهم إلى الحق ، ويتلطف بهم ، ولا يقاتلهم حتى يفسدوا في الأرض ، فلما فعلوا ذلك بعث إليهم جيشاً فكسرهم الحرورية ، فبعث عمر إليه يلومه على جيشه ، وأرسل عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك من الجزيرة إلى حربهم ، فأظفره الله بهم ، وقد أرسل عمر إلى كبير الخوارج - وكان يقال له بسطام - يقول له : ما أخرجك عليّ؟ فإن كنت خرجت غضباً لله فأنا أحق بذلك منك ، ولست أولى بذلك مني : وهلم أناظرك[3] ، فإن رأيت حقاً اتبعته ، وإن أبديت حقاً نظرنا فيه . فبعث طائفة من أصحابه إليه فاختار منهم عمر رجلين فسألهما : ماذا تنقمون ؟ فقالا : جعلك يزيد بن عبد الملك من بعدك ، فقال : إني لم أجعله أبداً وإنما جعله غيري . قالا : فكيف ترضى به أمينا للأمة من بعدك ؟ فقال : أنظراني ثلاثة ، فيقال أن بني أمية دست إليه سما فقتلوه خشية أن يخرج الأمر من أيديهم ويمنعهم الأموال والله أعلم .

وفيها غزا عمر بن الوليد بن هشام المعيطي ، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص ، الصائفة وفيها ولىَّ عمر بن عبد العزيز عمر بن هبيرة الجزيرة فسار إليها . وفيها حمل يزيد بن المهلب إلى عمر بن عبد العزيز من العراق ، فأرسله عدي بن ارطأة نائب البصرة مع موسى بن وجيه ، وكان عمر يبغض يزيد بن المهلب وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ، فلما دخل على عمر طالبه بما قبله من الأموال التي كان قد كتب إلى سليمان أنها حاصلة عنده ، فقال : إنما كتبت ذلك لأرهب الأعداء بذلك ، ولم يكن بيني وبين سليمان شيء ، وقد عرفت مكانتي عنده . فقال له عمر : لا أسمع منك هذا ، ولست أطلقك حتى تؤدي أموال المسلمين ، وأمر بسجنه . وكان عمر قد بعث على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي عوضه ، وقدم ولد يزيد بن المهلب ، مخلد بن يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قد مَنَّ على هذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكونن نحن أشقى الناس بك فعلام تحبس هذا الشيخ وأنا أقوم له أتصالحني عنه؟ فقال عمر : لا أصالحك عنه إلا أن تقوم بجميع ما يطلب منه ، ولا آخذ منه إلا جميع ما عنده من مال المسلمين . فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت لك بيّنة عليه بما تقول وإلّا فاقبل يمينه أو فصالحني عنه ، فقال : لا آخذ منه إلا جميع ما عنده . فخرج مخلد بن يزيد من عند

---

(١) أستك : أسفلك .

(٢) كذا بالأصول . ولعله سقط منه لفظ « عبد الله بن أحمد » .

(٣) أناظرك : أجادلك وأحاججك .

عمر ، فلم يلبث أن مات مخلد . وكان عمر يقول : هو خير من أبيه . ثم إن عمر أمر بأن يلبس يزيد بن المهلب جبة صوف ويركب على بعير إلى جزيرة دهلك التي كان يُنْفى إليها الفسَّاق ، فشفعوا فيه فرده إلى السجن ، فلم يزل به حتى مرض عمر مرضه الذي مات فيه ، فهرب من السجن ، وهو مريض ، وعلم أنه يموت في مرضه ذلك ، وبذلك كتب إليه كما سيأتي ، وأظنه كان عالماً أن عمر قد سُقِيَ سماً .

وفيها في رمضان منها عزل عمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الله الحكمي عن إمرة خراسان ، بعد سنة وخمسة أشهر ، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية[1] ممن أسلم من الكفار ويقول : أنتم إنما تسلمون فراراً منها . فامتنعوا من الإسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية ، فكتب إليه عمر : إن الله إنما بعث محمداً ﷺ داعياً ، ولم يبعثه جابياً . وعزله وولَّى بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيري على الحرب ، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج . وفيها كتب عمر إلى عماله يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر ، ويبيِّن لهم الحق ويوضحه لهم ويعظهم فيما بينه وبينهم ، ويخوّفهم بأس الله وانتقامه ، وكان فيما كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم القشيري :

أما بعد فكن عبداً لله ناصحاً لله في عباده ولا تأخذك في الله لومة لائم فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، ولا تولين شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم . وأدِّ الأمانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهبن عن الله مذهباً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه . وكتب مثل ذلك مواعظ كثيرة الى العمال . وقال البخاري في صحيحه : وكتب عمر إلى عدي بن عدي : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً ، من استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص .

وفيها كان بدوّ دعوة بني العباس

وذلك أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ـ وكان مقيماً بأرض الشراة ـ بعث من جهته رجلاً يقال له ميسرة ، إلى العراق ، وأرسل طائفة أخرى وهم محمد بن خُنَيس وأبو عكرمة السراج ، وهو أبو محمد الصادق ، وحيان العطار ـ خال إبراهيم بن سلمة ـ إلى خراسان ، وعليها يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمي قبل أن يعزل في رمضان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته ، فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب منهم إلى ميسرة الذي بالعراق ، فبعث بها إلى محمد بن علي ففرح بها واستبشر وسره أن ذلك أول مبادىء أمر قد كتب الله إتمامه ، وأول رأي قد أحكم الله إبرامه ، أن دولة بني أمية قد بان عليها مخايل

---

(١) الجزية : ما يُؤْخَذ من الذِّمِّيّ ، لأنها تجزي عنه أي تكفيه معاملة الحربيين .

الوهن والضعف ، ولا سيما بعد موت عمر بن عبد العزيز ، كما سيأتي بيانه . وقد اختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر نقيباً . وهم سليمان بن كثير الخزاعي ، ولاهز بن قريظ التميمي ، وقحطبة بن شبيب الطائي ، وموسى بن كعب التميمي ، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني عمرو بن شيبان بن ذهل ، والقاسم بن مجاشع التميمي ، وعمران بن إسماعيل أبو النجم ـ مولى لآل أبي مُعيط ـ ومالك بن الهيثم الخزاعي ، وطلحة بن زُريق الخزاعي ، وعمرو بن أعين أبو حمزة ـ مولى لخزاعة ـ ، وشبل بن طهمان أبو علي الهروي ـ مولى لبني حنيفة ـ وعيسى بن أعين مولى لخزاعة أيضاً . واختار سبعين رجلاً أيضاً . وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثالاً وسيرة يقتدون بها ويسيرون بها .

وقد حج بالناس في هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، نائب المدينة ، والنواب على الأمصار[1] هم المذكورون في التي قبلها ، سوى من ذكرنا ممن عزل وتولى غيره والله أعلم . ولم يحج عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته لشغله بالأمور ، ولكنه كان يبرد البريد إلى المدينة فيقول له : سلم على رسول الله ﷺ عني ، وسيأتي بأسناده إن شاء الله .

وممن توفي فيها من الأعيان

(سالم بن أبي الجعد الأشجعي) مولاهم الكوفي . أخو زياد وعبد الله وعبيد الله وعمران ومسلم ؛ وهو تابعي جليل ، روى عن ثوبان[2] وجابر وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، والنعمان بن بشير وغيرهم. وعنه قتادة والأعمش وآخرون ، وكان ثقة نبيلاً جليلاً .

أبو أمامة سهل بن حنيف

الأنصاري الأوسي المدني ، ولد في حياة النبي ﷺ ؛ ورآه وحدث عن أبيه وعمر وعثمان وزيد بن ثابت ومعاوية وابن عباس . وعنه الزهري وأبو حازم وجماعة ، قال الزهري : كان من علية الأنصار وعلمائهم ، ومن أبناء الذين شهدوا بدراً . وقال يوسف بن الماجشون عن عتبة بن مسلم ، قال : آخر خرجة خرجها عثمان بن عفان إلى الجمعة حصبه الناس وحالوا بينه وبين الصلاة ، فصلّى بالناس يومئذ أبو أمامة سهل بن حنيف . قالوا : توفي سنة مائة والله أعلم .

أبو الزاهرية حدير بن كريب الحمصي

تابعي جليل ، سمع أبا أمامة صدي بن عجلان ، وعبد الله بن بُسر ، ويقال إنه أدرك أبا الدرداء والصحيح أن روايته عنه وعن حذيفة مرسلة ، وقد حدث عنه جماعة من أهل بلده ، وقد وثقه ابن معين وغيره . ومن أغرب مارُوِيَ عنه قول قتيبة : ثنا شهاب بن خراش عن حميد عن أبي الزاهرية قال : أغفيت

---

(١) الأمصار : مفردها : المِصْر : المدينة والصقع .

(٢) في خلاصة تذهيب الكمال « قال أحمد : لم يلق ثوبان . وقال البخاري : لم يسمع منه » .

في صخرة بيت المقدس فجاءت السدنة فأغلقوا عليَّ الباب ، فما انتبهت إلا بتسبيح الملائكة فوثبت مذعوراً فإذا الملائكة صفوف ؛ فدخلت معهم في الصف . قال أبو عبيدة وغيره : مات سنة مائة .

أبو الطفيل عامر بن واثلة

ابن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني ، صحابي ، وهو آخر من رأى النبي ﷺ . وفاة بالاجماع قال : رأيت النبي ﷺ يستلم الركن بمحجنه[1] ، وذكر صفة النبي ﷺ ، وروى عن أبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود ، وحدث عنه الزهري وقتادة وعمرو بن دينار وأبو الزبير وجماعة من التابعين ، وكان من أنصار علي بن أبي طالب ، شهد معه حروبه كلها ، لكن نقم بعضهم عليه كونه كان مع المختار بن أبي عبيد ، ويقال إنه كان حامل رايته ، وقد روى أنه دخل على معاوية فقال : ما أبقى لك الدهر من ثكلك عليا ؟ فقال : ثكل العجوز المقلاة والشيخ الرقوب[2]، فقال : كيف حبك له؟ قال حب أم موسى لموسى ، وإلى الله أشكو التقصير . قيل إنه أدرك من حياة النبي ﷺ ثمان سنين ، ومات سنة مائة وقيل سنة سبع ومائة فالله أعلم . قال مسلمة بن الحجاج : وهو آخر من مات من الصحابة مطلقاً ومات سنة مائة .

أبو عثمان النهدي

واسمه عبد الرحمن بن مُل البصري ، أدرك الجاهلية وحج في زمن الجاهلية مرتين ، وأسلم في حياة النبي ﷺ . ولم يره ، وأدى في زمانه الزكاة ثلاث سنين إلى عمال النبي ﷺ ، ومثل هذا يسميه أئمة الحديث مخضرماً ، وهاجر إلى المدينة في زمان عمر بن الخطاب ، فسمع منه ومن علي وابن مسعود وخلق من الصحابة وصحب سلمان الفارسي اثنتي عشرة سنة حتى دفنه ، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، منهم أيوب ، وحميد الطويل ، وسليمان بن طرخان التيمي ، وقال عاصم الأحول : سمعته يقول : أدركت في الجاهلية يغوث صنماً من رصاص يحمل على جمل أجرد ، فإذا بلغ وادياً برك فيه فيقولون : قد رضي ربكم لكم هذا الوادي فينزلون فيه ، قال : وسمعته وقد قيل له أدركت النبي ﷺ ؟ فقال : نعم ! أسلمت على عهده ، وأديت إليه الزكاة ثلاث مرات ، ولم ألقه ، وشهدت اليرموك والقادسية وجلولاء ونهاوند . كان أبو عثمان صوَّاماً قوَّاماً ، يسرد الصوم ويقوم الليل لا يتركه ، وكان يصلّي حتى يغشى عليه ، وحج ستين مرة ما بين حجة وعُمْرَة ، قال سليمان التيمي : إني لأحسبه لا يصيب ذنباً ، لأنه ليله قائماً ونهاره صائماً ، وقال بعضهم : سمعت أبا عثمان النهدي يقول : أتت عليَّ ثلاثون ومائة سنة وما مني شيء إلا وقد أنكرته خلا أملي فإني أجده كما هو . وقال ثابت البناني عن أبي عثمان . قال : إني لأعلم حين يذكرني ربي عز وجل ، قال فيقول : من أين تعلم ذلك ؟ فيقول قال الله تعالى : ﴿ فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾[3] فإذا ذكرت الله ذكرني . قال : وكنا إذا دعونا الله قال : والله لقد استجاب الله لنا ، قال الله

---

(١) بمحجنه : المحجن : العصا المنعطفة الرأس . وقيل : كل معطوف الرأس على الاطلاق .

(٢) الرقوب : الذي لا يستطيع الكسب ولا كسب له .

(٣) سورة البقرة ، الآية/ ١٥٢ .

تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1] . قالوا : وعاش مائة وثلاثين سنة ، قاله هشيم وغيره . قال المدائني وغيره : توفي سنة مائة ، وقال الفلاس : توفي سنة خمس وتسعين ، والصحيح سنة مائة والله أعلم .

وفيها توفي عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، وكان يفضل على والده في العبادة والانقطاع عن الناس ، وله كلمات حسان مع أبيه ووعظه إياه .

ثم دخلت سنة إحدى ومائة

فيها كان هرب يزيد بن المهلب من السجن حين بلغه مرض عمر بن عبد العزيز ، فواعد غلمانه يلقونه بالخيل في بعض الأماكن ، وقيل بابل له ، ثم نزل من محبسه ومعه جماعة وامرأته عاتكة بنت الفرات العامرية ، فلما جاء غلمانه ركب رواحله وسار ، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز : إني والله ما خرجت من سجنك إلا حين بلغني مرضك ، ولو رجوت حياتك ما خرجت ، ولكني خشيت من يزيد بن عبد الملك فإنه يتوعدني بالقتل ، وكان يزيد يقول : لئن وليت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة ، وذلك أنه لما وُلي العراق عاقب أصهاره آل عقيل ، وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان يزيد بن عبد الملك مزوجاً ببنت محمد بن يوسف ، وله ابنه الوليد بن يزيد الفاسق المقتول كما سيأتي . ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أن يزيد بن المهلب هرب من السجن قال : اللهم إن كان يريد بهذه الأمة سوءاً فاكفهم شره واردد كيده في نحره ، ثم لم يزل المرض يتزايد بعمر بن عبد العزيز حتى مات وهو بخناصرة ، من دير سمعان بين حماه وحلب ، في يوم الجمعة ، وقيل في يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب من هذه السنة ـ أعني إحدى ومائة ـ عن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر فالله أعلم .

وكانت خلافته فيما ذكر غير واحد سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وكان حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً وورعاً ديناً ، لا تأخذه في الله لومة لائم رحمه الله تعالى .

وهذه ترجمة عمر بن عبد العزيز
الإمام المشهور رحمه الله

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو حفص القرشي الأموي المعروف أمير المؤمنين ، وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ويقال له أشج بني مروان ، وكان يقال : الأشج والناقص أعدلا بني مروان . فهذا هو الأشج وسيأتي ذكر الناقص . كان عمر تابعياً جليلاً ، روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد ، ويوسف بن عبد الله بن سلام ، ويوسف صحابي صغير . وروى عن خلق من التابعين . وعنه جماعة من

(١) سورة المؤمن ، الآية/ ٦٠ .

التابعين وغيرهم . قال الإمام أحمد بن حنبل : لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبدالعزيز . بويع له بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه له بذلك كما تقدم ، ويقال : كان مولده في سنة إحدى وستين ، وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي بمصر ، قاله غير واحد . وقال محمد بن سعد : ولد سنة ثلاث وستين ، وقيل سنة تسع وخمسين ، فالله أعلم .

وكان له جماعة من الأخوة ولكن الذين هم من أبويه أبوبكر وعاصم ومحمد ، وقال أبوبكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن معين عن يحيى بن بكير عن الليث . قال : بلغني أن عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة كان يحدث أن رجلاً رأى في المنام ليلة ولد عمر بن عبد العزيز - أو ليلة ولي الخلافة شك أو بكر - أن منادياً بين السماء والأرض ينادي : أتاكم اللّين والديّن وإظهار العمل الصالح في المصلّين ، فقلت : ومن هو ؟ فنزل فكتب في الأرض ع م ر . وقال آدم بن إياس : ثنا أبو علي ثروان مولى عمر بن عبد العزيز . قال : دخل عمر بن عبد العزيز إلى اصطبل أبيه فضربه فرس فشجه ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : إن كنت أشج بني أمية إنك إذا لسعيد . رواه الحافظ ابن عساكر من طريق هارون بن معروف عن ضمرة ، وقال نعيم بن حماد : ثنا ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير ، فبلغ أمه فأرسلت إليه فقالت : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت الموت ، فبكت أمه . وكان قد جمع القرآن وهو صغير ، وقال الضحاك بن عثمان الخزامي . كان أبوه قد جعله عند صالح بن كيسان يؤدبه ، فلما حج أبوه اجتاز به في المدينة فسأله عنه فقال : ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام وروى يعقوب بن سفيان أن عمر بن عبد العزيز تأخر عن الصلاة مع الجماعة يوماً فقال صالح بن كيسان : ما شغلك؟ فقال : كانت مرجِّلتي[1] تسكن شعري ، فقال له : قدَّمت ذلك على الصلاة ؟ وكتب إلى أبيه وهو على مصر يعلمه بذلك ، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه . وكان عمر بن عبد العزيز يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه ، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص علياً ، فلما أتاه عمر أعرض عبيد الله عنه وقام يصلي ، فجلس عمر ينتظره ، فلما سلم أقبل على عمر مغضباً وقال له : متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم ؟ قال ففهمها عمر وقال : معذرة إلى الله ثم إليك ، والله لا أعود ، قال : فما سمع بعد ذلك يذكر علياً إلا بخير . وقال أبوبكر بن أبي خيثمة : ثنا أبي ثنا المفضل بن عبد الله عن داود بن أبي هند . قال : دخل علينا عمر بن عبد العزيز من هذا الباب - وأشار إلى باب من أبواب مسجد النبي ﷺ فقال رجل من القوم : بعث الفاسق لنا بابنه هذا يتعلم الفرائض[2] والسنن[3] ، ويزعم أنه لن يموت حتى يكون خليفة ، ويسير سيرة عمر بن الخطاب . قال داود : والله ما مات حتى رأينا ذلك فيه .

وقال الزبير بن بكار : حدثني العتبي قال : إن أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على

---

(١) مرجِّلتي : مسرِّحة شعري .

(٢) الفرائض : علم الفرائض : علم تُعْرَف به كيفية قسمة التركة على مستحقيها .

(٣) والسنن : مفردها السُّنَّة وهي السيرة والشريعة .

العلم ورغبته في الأدب ، إن أباه ولي مصر وهو حديث السن يشك في بلوغه ، فأراد أبوه إخراجه معه إلى مصر من الشام ، فقال : يا أبة أو غير ذلك لعله يكون أنفع لي ولك ؟ قال : وما هو ؟ قال : ترحِّلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهائها وأتأدب بآدابهم ، فعند ذلك أرسله أبوه إلى المدينة ، وأرسل معه الخدام ، فقعد مع مشايخ قريش ، وتجنب شبابهم ، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره ، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة ، وهي التي يقول الشاعر فيها :

بنتُ الخليفةِ والخليفةُ جدها ... أختَ الخلائفِ والخليفةُ زوجها

قال : ولا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها .

قال العتبي : ولم يكن حاسد عمر بن عبد العزيز ينقم عليه شيئاً سوى متابعته في النعمة ، والاختيال في المشية ، وقد قال الأحنف بن قيس : الكامل من عُدت هفواته ولا تعد إلا من قلة . وقد ورث عمر من أبيه من الأموال والمتاع والدواب هو وإخوته ما لم يرثه غيره فيما نعلم ، كما تقدم ذلك ، ودخل يوماً على عمه عبد الملك وهو يتجانف في مشيته فقال : يا عمر مالك تمشي غير مشيتك ؟ قال : إن فيّ جُرحاً ، فقال : وأين هو من جسدك ؟ قال : بين الرانقة[1] والصفن[2] - يعني بين طرف الألية وجلدة الخصية - فقال عبد الملك لروح بن زنباع : بالله لو رجل من قومك سئل عن هذا ما أجاب بمثل هذا الجواب . قالوا : ولما مات عمه عبد الملك حزن عليه ولبس المسوح تحت ثيابه سبعين يوماً ، ولما ولِّي الوليد عامله بما كان أبوه يعامله به ، وولاَّه المدينة ومكة والطائف من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين ، وأقام للناس الحج سنة تسع وثمانين وسنة تسعين ، وحج الوليد بالناس سنة إحدى وتسعين ، ثم حج بالناس عمر سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين .

وبنى في مدة ولايته هذه مسجد النبي ﷺ ووسعه عن أمر الوليد له بذلك ، فدخل فيه قبر النبي ﷺ ، وقد كان في هذه المدة من أحسن الناس معاشرة ، وأعدلهم سيرة ، كان إذا وقع له أمر مشكل جمع فقهاء المدينة عليه ، وقد عين عشرة منهم ، وكان لا يقطع أمراً بدونهم أو من حضر منهم ، وهم عروة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد بن حزم ، وسالم بن عبد الله ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب ، وقد كان سعيد بن المسيب لا يأتي أحداً من الخلفاء ، وكان يأتي إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة ، وقال إبراهيم بن عبلة : قدمت المدينة وبها ابن المسيب وغيره ، وقد ندبهم عمر يوماً إلى رأي .

---

(١) الرانقة : طرف الإلية .

(٢) الصُّفن : جلدة الخصية .

وقال ابن وهب : حدثني الليث قادم البربري أنه ذاكر ربيعة بن أبي عبد الرحمن يوماً شيئاً من قضايا عمر بن عبدا لعزيز إذ كان بالمدينة ، فقال له الربيع : كأنك تقول : أخطأ ، والذي نفسي بيده ما أخطأ قط . وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك . قال : ما صلّيت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى - يعني عمر بن عبد العزيز - حين كان على المدينة . قالوا : وكان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود ، وفي رواية صحيحة أنه كان يسبّح في الركوع والسجود عشراً عشراً ، وقال ابن وهب : حدثني الليث عن أبي النضر المديني : قال : رأيت سليمان بن يسار خارجاً من عند عمر بن عبد العزيز فقلت له : من عند عمر خرجت ؟ قال : نعم ! قلت : تعلّمونه ؟ قال : نعم ، فقلت : هو والله أعلمكم . وقال مجاهد : أتينا عمر نعلّمه فما برحنا حتى تعلّمنا منه . وقال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة، وفي رواية قال ميمون: كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء. وقال الليث: حدثني رجل كان قد صحب ابن عمر وابن عباس ، مكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة ، قال: ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه ، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلّا تلامذة. وقال عبد الله بن طاووس: رأيت أبي تواقف هو وعمر ابن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا، فلما افترقا قالت: يا أبة من هذا الرجل ؟ قال هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو من صالحي هذا البيت - يعني بني أمية - وقال عبد الله بن كثير قلت لعمر بن عبد العزيز ما كان بدء إنابتك ؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال لي : أذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة(1) .

وقال الإمام مالك : لما عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة - يعني في سنة ثلاث وتسعين - وخرج منها التفت إليها وبكى وقال لمولاه : يا مزاحم ، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة - يعني أن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد - وينصع طيبها . قلت : خرج من المدينة فنزل بمكان قريب منها يقال له السويداء حيناً(2) ، ثم قدم دمشق على بني عمه . قال محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أبي حكيم . قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : خرجت من المدينة وما من رجل أعلم مني ، فلما قدمت الشام نسيت . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ثنا حماد بن زيد عن معمر عن الزهري قال : سهرت مع عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فحدثته ، فقال : كلُّ ما حدثت فقد سمعته ولكن حفظت ونسيتُ . وقال ابن وهب عن الليث عن عقيل عن الزهري قال قال عمر بن عبد العزيز : بعث إليّ الوليد ذات ساعة من الظهيرة ، فدخلت عليه فإذا هو عابس ، فأشار إليّ أن اجلس ، فجلست فقال : ما تقول فيمن يسب الخلفاء أيقتل ؟ فسكت ، ثم عاد فسكت ، ثم عاد فقلت : أَقَتَل يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، ولكن سب ، فقلت : يُنكّل

---

(1) بالأصول « يوما صبيحتها يعني يوم القيامة » وصححناه من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صفحة ١٤٩ .

(2) السويداء : أرض كان يملكها عمر بن عبد العزيز واستنبط فيها من عطائه عين ماء ، وله فيها قصر مبني . ولما تنازل لبيت المال عن جميع ما ورثه عن آبائه أبقى (السويداء) و(خيبر) لأنه اطمأن إلى انها حلال خالص ليس فيه اية شبهة. وكان وهو خليفة يأكل من غلّتها وينفق ما يزيد عن الضرورة .

به ، فغضب وانصرف إلى أهله وقال لي ابن الريان السياف : اذهب ، قال : فخرجت من عنده وما تهب ريح إلا وأنا أظن أنه رسول يردني إليه . وقال عثمان بن زبر : أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان ، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال ، فقال سليمان : ما تقول يا عمر في هذا ؟ فقال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً وأنت المسؤول عن ذلك كله، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ، ونعب نعبه ، فقال له سليمان : ما هذا يا عمر ؟ فقال : لا أدري ، فقال : ما ظنك أنه يقول ؟ قلت : كأنه يقول : من أين جاءت وأين يذهب بها ؟ فقال له سليمان : ما أعجبك ؟ فقال عمر : اعجبْ ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن إليها .

وتقدم أنه لما وقف سليمان وعمر بعرفة ورأى سليمان كثرة الناس فقال له عمر : هؤلاء رعيتك اليوم وأنت مسؤول عنهم غداً ، وفي رواية وهم خصماؤك يوم القيامة ، فبكى سليمان وقال : بالله نستعين . وتقدم أنهم لما أصابهم ذلك المطر والرعد فزع سليمان وضحك عمر فقال له : أتضحك ؟ فقال : نعم هذه آثار رحمته ونحن في هذه الحال ، فكيف بآثار غضبه وعقابه ونحن في تلك الحال ؟ وذكر الإمام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة فقال له سليمان في جملة الكلام : كذبت ، فقال : تقول كذبت ؟ والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله ، ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر ، فلم يمكنه سليمان ، ثم بعث إليه فصالحه وقال له : ما عرض لي أمر يهمني إلا خطرتَ على بالي . وقد ذكرنا أنه لما حضرته الوفاة أوصى بالأمر من بعده إلى عمر بن عبد العزيز فانتظم الأمر على ذلك ولله الحمد .

فصل
وقد كان منتظراً فيما يؤثر من الأخبار

قال أبو داود الطيالسي : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون ثنا عبد الله بن دينار قال قال ابن عمر : يا عجبا ! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر ، قال : وكانوا يرونه بلال بن عبد الله بن عمر ، قال : وكان بوجهه أثر ، فلم يكن هو ، وإذا هو عمر بن عبد العزيز ، وأمه ابنة عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وقال البيهقي : أنبأ الحاكم أنبأ أبو حامد بن علي المقري ثنا أبو عيسى الترمذي ثنا أحمد بن إبراهيم ثنا عفان ثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق عن جويرية بن أسماء عن نافع . قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب قال : إن من ولدي رجلاً بوجهه شجان يلي فيملأ الأرض عدلاً . قال نافع من قبله : ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز . ورواه مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن نافع . وقال : كان ابن عمر يقول : ليت شعري مَنْ هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً ؟ قال وهيب بن الورد : بينما أنا نائم رأيتُ كأن رجلاً دخل من باب بني شيبة وهو يقول : يا أيها الناس ! ولي عليكم كتاب الله . فقلت : من ؟ فأشار إلى ظفره فإذا مكتوب عليه ع م ر ، قال فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز . وقال بقية عن عيسى بن أبي رزين حدثني الخزاعي عن عمر بن عبد

العزيز أنه رأى رسول الله ﷺ في روضة خضراء فقال له : « إنك ستلي أمر أمتي فزع عن الدم فزع عن الدم[1] ، فإن اسمك في الناس عمر بن عبد العزيز ، واسمك عند الله جابر » . وقال أبوبكر بن المقري : ثنا أبو عروبة الحسين بن محمد بن مودود الحراني ثنا أيوب بن محمد الوزان ثنا ضمرة بن ربيعة ثنا السري بن يحيى عن رياح بن عبيدة . قال : خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكىء على يده ، فقلت في نفسي : إن هذا الشيخ جاف ، فلما صلَّى ودخل لحقته فقلت : أصلح الله الأمير ، من هذا الشيخ الذي أتكأته يدك ؟ فقال : يارياح رأيته ؟ قلت : نعم ! قال : ما أحسبك يارياح إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر هذه الأمة وأني سأعدل فيها .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو عمير ثنا ضمرة عن علي بن خولة عن أبي عنبس . قال : كنت جالساً مع خالد بن يزيد بن معاوية فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد، فقال: هل علينا من عين ؟ فقال أبو عنبس : فقلت عليكما من الله عين بصيرة ، وأذن سميعة ، قال : فترقرقت عينا الفتى . فأرسل يده من يد خالد وولى ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخي أمير المؤمنين ، ولئن طالت بك حياة لترينه إمام هدى . قلت : قد كان عند خالد بن يزيد بن معاوية شيء جيد من أخبار الأوائل وأقوالهم ، وكان ينظر في النجوم والطب . وقد ذكرنا في ترجمة سليمان بن عبد الملك أنه لما حضرته الوفاة أراد أن يعهد إلى بعض أولاده ، فصرفه وزيره الصالح رجاء بن حيوة عن ذلك ، ومازال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده وصوَّب ذلك رجاء فكتب سليمان العهد في صحيفة وختمها ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بني مَروان سوى سليمان ورجاء ، ثم أمر صاحب الشرطة باحضار الأمراء ورؤوس الناس من بني مروان وغيرهم ، فبايعوا سليمان على ما في الصحيفة المختومة ، ثم انصرفوا ، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة فبايعوا ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة ، ثم فتحها فقرأها عليهم ، فإذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز ، فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه فانعقدت له البيعة .

وقد اختلف العلماء في مثل هذا الصنيع في الرجل يوصي الوصية في كتاب ويشهد على مافيه من غير أن يقرأ على الشهود . ثم يشهدون على ما فيه فينفذ ، فسوغ ذلك جماعات من أهل العلم ، قال القاضي أبو الفرج المعافي بن زكريا الجريري: أجاز ذلك وأمضاه وأنفذ الحكم به جمهور أهل الحجاز ، وروى ذلك عن سالم بن عبد الله . وهو مذهب مالك ومحمد بن مسلمة المخزومي ومكحول ، ونمير بن أوس وزرعة بن إبراهيم ، والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ، ومن وافقهم من فقهاء الشام . وحكى نحو ذلك خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه وقضاة جنده ، وهو قول الليث بن سعد فيمن وافقه من فقهاء أهل مصر والمغرب ، وهو قول فقهاء أهل البصرة وقضاتهم . وروى عن قتادة وعن سوار بن عبد الله وعبيد الله بن الحسن ومعاذ بن العنبري فيمن سلك سبيلهم ، وأخذ بهذا عدد كثير من أصحاب الحديث ، منهم أبو عبيد وإسحاق بن راهويه . قلت : وقد اعتنى به البخاري في صحيحه . قال المعافي : وأبى ذلك جماعة

---

(١) وزعه يزعه فاتّزع : أي كفّ عنه .

من فقهاء العراق ، منهم إبراهيم وحماد والحسن ، وهو مذهب الشافعي وأبي ثور ، قال : وهو قول شيخنا أبي جعفر، وكان بعض أصحاب الشافعي بالعراق يذهب إلى القول الأول، قال الجريري : وإلى القول الأول نذهب . وتقدم أن عمر بن عبد العزيز لما رجع من جنازة سليمان أتى بمراكب الخلافة ليركبها فامتنع من ذلك وأنشأ يقول : ـ

فلولا التقى ثم النهى خشيـة الـردى | لعـاصيتَ في حبِ الصبـا كـل زاجـر
قضى مـا قضى فيما مضى ثم لا تـرى | لـه صـبوةً أخـرى الليالي الغـوابـرِ[1]

ثم قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . قدموا إليَّ بغلتي ، ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفية فيمن يزيد ، وكانت من الخيول الجياد المثمنة ، فباعها وجعل أثمانها في بيت المال . قالوا : ولما رجع من الجنازة وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه ، انقلب وهو مغتم مهموم ، فقال له مولاه : مالك هكذا مغتماً مهموماً وليس هذا بوقت هذا ؟ فقال : ويحك ومالي لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤ ديه إليه ، كتب إليَّ في ذلك أو لم يكتب ، طلبه مني أو لم يطلب . قالوا : ثم إنه خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها ، وبين أن تلحق بأهلها ، فبكت وبكى جواريها لبكائها ، فسمعت ضجة في داره ، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رحمها الله . وقال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين ، فأنشأ يقول :

قـد جـاءَ شـغـلٌ شـاغـلُ | وعـدلْـتَ عن طـرقِ الـسـلامـةِ
ذهـبَ الـفـراغُ فـلا فـرا | غَ لـنـا إلى يـومِ الـقـيـامـةِ

وقال الزبير بن بكار : حدثني محمد بن سلام عن سلام بن سليم قال : لما وُلي عمر بن عبد العزيز صعد المنبر وكان أول خطبة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا . يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه ، ولا يغتابن عندنا أحداً ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه . فانقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله . وقال سفيان بن عيينة : لما وُلِي عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله فقال لهم : قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي ، فما عندكم ؟ فقال محمد بن كعب : اجعل الشيخ أبا ، والشاب أخا ، والصغير ولدا ، وبر أباك وصل أخاك ، وتعطف على ولدك . وقال رجاء : إرضِ للناس ما ترضى لنفسك ، وما كرهت أن يؤتى إليك فلا تأته إليهم ، واعلم أنك أول خليفة تموت . وقال سالم : اجعل الأمر واحداً وصم فيه عن شهوات الدنيا ، واجعل آخر فطرك فيه الموت . فكأن قد . فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) الغوابر : الخوالي .

وقال غيره : خطب عمر بن عبد العزيز يوماً الناس فقال ـ وقد خنقته العَبْرَة ـ أيها الناس أصلحوا آخرتكم يصلح الله دنياكم ، وأصلحوا أسراركم يصلح لكم علانيتكم ، والله إن عبداً ليس بينه وبين آدم أب إلا قدمات ، إنه لمعرق له في الموت . وقال في بعض خطبه : كم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن[1] . فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس قرير العين فيها يانع[2] ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بسهم حتفه ، فسلبه اثارة دنياه ، وصير إلى قوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، تسر قليلاً وتحزن طويلاً . وقال إسماعيل بن عياش عن عمرو بن مهاجر قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس! إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد عليه السلام ، وإني لست بقاض ولكني منفذ ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم إلا أن الإمام الظالم هو العاصي ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل . وفي رواية أنه قال فيها : وإني لست بخير من أحد منكم ، ولكنني أثقلكم حملاً ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا هل أسمعت .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أحمد بن يحيى الحلواني ثنا محمد بن عبيد ثنا إسحاق بن سليمان عن شعيب بن صفوان حدثني ابن لسعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانياً بباق ، ونافداً بما لا نفاد له ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم للباقين ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله لا يرجع ، قد قضى نحبه حتى تغيبوه في صدع من الأرض ، في بطن صدع غير موسد ولا ممهد ، قد فارق الأحباب ، وواجه التراب والحساب ، فهو مرتهن بعمله ، غني عما ترك ، فقير لما قدم ، فاتقوا الله قبل القضاء ، راقبوه قبل نزول الموت بكم ، أما إني أقول هذا ، ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وفي رواية : وايم الله إني لأقول قولي هذا ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ، ولكنها سنن من الله عادلة ، أمر فيها بطاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، واستغفر الله ، ووضع كمه على وجهه فبكى حتى بلَّ لحيته ، فما عاد لمجلسه حتى مات رحمه الله .

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله ﷺ في النوم وهو

(١) يظعن : يرحل .
(٢) يانع : ثمر حان قطافه .

يقول : « ادن يا عمر ، فدنوت حتى خشيت أن أصيبه ، فقال : إذا ولّيت فاعمل نحوا من عمل هذين ، فإذا كهلان قد اكتنفاه ، فقلت : ومن هذان ؟ قال : هذا أبو بكر وهذا عمر » . وروينا أنه قال : لسالم بن عبد الله بن عمر : اكتب لي سيرة عمر حتى أعمل بها ، فقال له سالم : إنك لا تستطيع ذلك ، قال : ولم ؟ قال : إنك إن عملت بها كنت أفضل من عمر ، لأنه كان يجد على الخير أعواناً ، وأنت لا تجد من يعينك على الخير . وقد روى أنه كان نقش خاتمه لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، وفي رواية آمنت بالله ، وفي رواية الوفاء عزيز . وقد جمع يوماً رؤوس الناس فخطبهم فقال : إن فدك كانت بيد رسول الله ﷺ يضعها حيث أراه الله ، ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ، قال الأصمعي : وما أدري ما قال في عثمان ، قال : ثم إن مروان أقطعها فحصل لي منها نصيب ، ووهبني الوليد وسليمان نصيبهما ، ولم يكن من مالي شيء أرده أغلى منها ، وقد رددتها في بيت المال على ما كانت عليه في زمان رسول الله ﷺ . قال . فيئس الناس عند ذلك من المظالم ، ثم أمر بأموال جماعة من بني أمية فردها إلى بيت المال وسماها أموال المظالم ، فاستشفعوا إليه بالناس ، وتوسلوا إليه بعمته فاطمة بنت مروان فلم ينجع فيه شيء ، وقال لهم : لتدعني وإلا ذهبت إلى مكة فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به ، وقال : والله لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل ، وإني لأريد الأمر فما أنفذه إلا مع طمع من الدنيا حتى تسكن قلوبهم .

وقال الإمام أحمد عن عبد الرزاق عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال : إن كان في هذه الأمة مهدي فهو عمر بن عبد العزيز ، ونحو هذا قال قتادة وسعيد بن المسيب وغير واحد . وقال طاووس : هو مهدي وليس به ، إنه لم يستكمل العدل كله ، إذا كان المهدي ثبت على المسيء من إساءته ، وزيد المحسن في إحسانه ، سمح بالمال شديد على العمال رحيم بالمساكين . وقال مالك عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه قال : الخلفاء أبو بكر والعمران ، فقيل له : أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر الآخر ؟ قال : يوشك إن عشت أن تعرفه ، يريد عمر بن عبد العزيز ، وفي رواية أخرى عنه أنه قال : هو أشج بني مروان . وقال عباد السماك وكان يجالس سفيان الثوري ـ : سمعت الثوري يقول : الخلفاء خمسة ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز . وهكذا روى عن أبي بكر بن عياش والشافعي وغير واحد . وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين . وذكره غير واحد في الأئمة الاثني عشر ، الذين جاء فيهم الحديث الصحيح : « لا يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى يكون فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش » .

وقد اجتهد رحمه الله في مدة ولايته ـ مع قصرها ـ حتى رد المظالم ، وصرف إلى كل ذي حق حقه ، وكان مناديه في كل يوم ينادي : أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين

اليتامى ؟ حتى أغني كلا من هؤلاء . وقد اختلف العلماء أيهم أفضل هو أو معاوية بن أبي سفيان ؟ ففضل بعضهم عمر لسيرته ومعدلته وزهده وعبادته ، وفضل آخرون معاوية لسابقته وصحبته ، حتى قال بعضهم : ليوم شهده معاوية من رسول الله ﷺ . خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه وأهل بيته . وذكر ابن عساكر في تاريخه أن عمر بن عبد العزيز كان يعجبه جارية من جواري زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، فكان سألها إياها إما بيعاً أو هبة ، فكانت تأبى عليه ذلك ، فلما وُلي الخلافة ألبستها وطيبتها وأهدتها إليه ووهبتها منه ، فلما أخلتها به أعرض عنها ، فتعرضت له فصدف عنها ، فقالت له : يا سيدي فأين ما كان يظهر لي من محبتك إياي ؟ فقال : والله إن محبتك لباقية كما هي ، ولكن لا حاجة لي في النساء ، فقد جاءني أمر شغلني عنك وعن غيرك ، ثم سألها عن أصلها ومن أين جلبوها ، فقالت : يا أمير المؤمنين إن أبي أصاب جناية ببلاد المغرب فصادره موسى بن نصير فأخذت في الجناية ، وبعث بي إلى الوليد فوهبني الوليد إلى أخته فاطمة زوجتك ، فأهدتني إليك . فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك ، ثم أمر بردها مكرمة إلى بلادها وأهلها .

وقالت زوجته فاطمة : دخلت يوماً عليه وهو جالس في مصلاه واضعاً خده على يده ودموعه تسيل على خديه ، فقلت : مالك ؟ فقال : ويحك يا فاطمة ، قد ولِّيت من أمر هذه الأمة ما ولِّيت ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور . والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير ، والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ ، فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته ، فرحمت نفسي فبكيت . وقال ميمون بن مهران ولاَّني عمر بن عبد العزيز عمالة ثم قال لي : إذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الأرض . وكتب إلى بعض عماله : إذا دعتك قدرتك على الناس إلى مظلمة ، فاذكر قدرة الله عليك ونفاد ما تأتي إليهم ، وبقاء ما يأتون إليك . وقال عبد الرحمن بن مهدي عن جرير بن حازم عن عيسى بن عاصم قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي : إن للإسلام سننا وفرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش أبينها لكم لتعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص . وذكره البخاري في صحيحه تعليقاً مجزوماً به .

وذكر الصولي أن عمر كتب إلى بعض عماله : عليك بتقوى الله فإنها هي التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ، ولا يثاب إلا عليها ، وإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل . وقال : من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه ، ومن أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير . وقال : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه ، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه . وكلَّمه رجل يوماً حتى أغضبه فهم به عمر ثم أمسك نفسه ، ثم قال للرجل : أردت أن

يستفزني الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله مني غداً ؟ قم عافاك الله لا حاجة لنا في مقاولتك . وكان يقول : إن أحب الأمور إلى الله القصد في الجد ، والعفو في المقدرة ، والرفق في الولاية ، وما رفق عبد بعبد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة . وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبي منهم ، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه وجاؤوا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج إليهم ، فإذا مُرَيْئَة تقول : إنه ابني وإنه يتيم ، فقال له عمر : هوني عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء في الديوان ؟ قالت : لا ! قال : فاكتبوه في الذرية . فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هذا به وقد شج ابنك ؟ فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية . فقال : ويحك ، إنه يتيم وقد أفزعتموه . وقال مالك بن دينار : يقولون مالك زاهد ، أي زهد عندي؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز ، أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة . قالوا : ولم يكن له سوى قميص واحد فكان إذا غسلوه جلس في المنزل حتى ييبس ، وقد وقف مرة على راهب فقال له : ويحك عظني ، فقال له : عليك بقول الشاعر : ـ

تجــرَّد من الــدنيــا فــإنــكَ إنمــا خــرجتَ إلى الــدنيــا وأنتَ مجــرَّدُ

قال : وكان يعجبه ويكرره وعمل به حق العمل . قالوا : ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهماً أو فلوساً يشتري له بها عنباً ، فلم يجد عندها شيئاً ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنباً ؟ فقال : هذا أيسر من معالجة الأغلال(١) والأنكال(٢) غداً في نار جهنم . قالوا : وكان سراج بيته على ثلاث قصبات في رأسهن طين ، قالوا : وبعث يوماً غلامه ليشوي له لحمة فجاءه بها سريعاً مشوية ، فقال : أين شويتها ؟ قال : في المطبخ ، فقال : في مطبخ المسلمين ؟ قال : نعم . فقال : كلهافإني لم أرزقها ، هي رزقك . وسخنوا له الماء في المطبخ العام فرد بدل ذلك بدرهم حطباً . وقالت زوجته : ما جامع ولا احتلم وهو خليفة . قالوا : وبلغ عمر بن عبد العزيز عن أبي سلام الأسود أنه يحدث عن ثوبان بحديث الحوض فبعث إليه فأحضره على البريد وقال له ، كالمتوجع له : يا أبا سلام ما أردنا المشقة عليك ، ولكن أردت أن تشافهني بالحديث مشافهة ، فقال : سمعت ثوبان يقول قال رسول الله ﷺ : « حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وأول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤوساً ، الدنس ثياباً ، الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم السدد » . فقال عمر : لكني نكحت المتنعمات ، فاطمة بنت عبد الملك ، فلا جرم لا أغسل رأسي حتى يشعث ، ولا ألقي ثوبي حتى يتسخ . قالوا : وكان لـه سراج يكتب عليه حوائجه ، وسراج لبيت المـال يكتب عليه مصـالح

---

(١) الأغلال : الماء الذي يجري بين الاشجار .

(٢) الأنكال : القيود الشديدة من أيِّ شيءٍ كانت .

المسلمين ، لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفاً . وكان يقرأ في المصحف كل يوم أول النهار ، ولا يطيل القراءة ، وكان له ثلاثمائة شرطي ، وثلاثمائة حرسي ، وأهدى له رجل من أهل بيته تفاحاً فاشتمه ثم رده مع الرسول ، وقال له : قل له قد بلغت محلها ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية ، وهذا رجل من أهل بيتك ، فقال : إن الهدية كانت لرسول الله ﷺ هدية ، فأما نحن فهي لنا رشوة . قالوا : وكان يوسع على عماله في النفقة ، يعطي الرجل منهم في الشهر مائة دينار ، ومائتي دينار ، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين ، فقالوا له : لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك ؟ فقال : لا أمنعهم حقاً لهم ، ولا أعطيهم حق غيرهم . وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً من قبل ذلك ، وقال يوماً لرجل من ولد علي : إني لأستحي من الله أن تقف ببابي ولا يؤذن لك ، وقال لآخر منهم : إني لأستحي من الله وأرغب بك أن أدنسك بالدنيا لما أكرمكم الله به . وقال أيضاً : كنا نحن وبنو عمنا بنو هاشم مرة لنا ومرة علينا ، نلجأ إليهم ويلجأون إلينا ، حتى طلعت شمس الرسالة فأكسدت كل نافق ، وأخرست كل منافق ، وأسكتت كل ناطق .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أبو بكر ابن أخي خطاب ثنا خالد بن خداش ثنا حماد بن زيد عن موسى بن أيمن الراعي ـ وكان يرعى الغنم لمحمد بن عيينة ـ قال : كانت الأسد والغنم والوحش ترعى في خلافة عمر بن عبد العزيز في موضع واحد ، فعرض ذات يوم لشاة منها ذئب فقلت : إنا لله ، ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك . قال فحسبناه فوجدناه قد هلك في تلك الليلة . ورواه غيره عن حماد فقال : كان يرعى الشاة بكرمان فذكر نحوه ، وله شاهد من وجه آخر ، ومن دعائه : اللهم إن رجالاً أطاعوك فيما أمرتهم وانتهوا عما نهيتهم ، اللهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك ، فوفقني . ومنه : اللهم إن عمر ليس بأهل أن تناله رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر . وقال له رجل : أبقاك الله ما كان البقاء خيراً لك ، فقال : هذا شيء قد فرغ منه ، ولكن قل : أحياك الله حياة طيبة ، وتوفاك مع الأبرار . وقال له رجل : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أصبحت بطيئاً بطيناً ، متلوثاً بالخطايا ، أتمنى على الله عز وجل . ودخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين ، وأنت زين الخلافة ، وإنما مثلك يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

وإذا الدرُ زانَ حسنَ وجوهٍ ... كانَ للدر حسنُ وجهكَ زينا

قال : فأعرض عنه عمر . وقال رجاء بن حيوة : سمرت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فعشي السراج فقلت : يا أمير المؤمنين : ألا أنبه هذا الغلام يصلحه؟ فقال: لا! دعه ينام ، لا أحب أن أجمع عليه عملين . فقلت : أفلا أقوم أصلحه ؟ فقال : لا ! ليس من المروءة استخدام الضيف ، ثم قام بنفسه فأصلحه وصب فيه زيتاً ثم جاء وقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ،

وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز ، وقال : أكثروا ذكر النعم فإن ذكرها شكرها . وقال : إنه ليمنعني من كثرة ذكرها مخافة المباهاة ، وبلغه أن رجلاً من أصحابه توفي ، فجاء إلى أهله ليعزيهم فيه ، فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه ، فقال : مه ، إن صاحبكم لم يكن يرزقكم ، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت ، وإن صاحبكم هذا ، لم يسد شيئاً من حفركم ، وإنما سد حفرة نفسه ، ألا وإن لكل امرىء منكم حفرة لا بد والله أن يسدها، إن الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، وما امتلأت دار خبرة إلا امتلأت عبرة، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم باكياً فليبك على نفسه ، فإن الذي صار إليه صاحبكم كل الناس يصيرون إليه غداً .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر إلى القبور فقال لي : يا أبا أيوب ! هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات[1] ، واستحكم فيهم البلاء ؟ ثم بكى حتى غشي عليه ، ثم أفاق فقال : انطلقوا بنا فوالله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله ، ينتظر ثواب الله . وقال غيره : خرج عمر بن عبد العزيز في جنازة فلما دفنت قال لأصحابه : قفوا حتى آتي قبور الأحبة ، فأتاهم فجعل يبكي ويدعو ، إذ هتف به التراب فقال : يا عمر ألا تسألني ما فعلت في الأحبة ؟ قال قلت : وما فعلت بهم ؟ قال : مزقت الأكفان ، وأكلت اللحوم ، وشدخت المقلتين ، وأكلت الحدقتين ، ونزعت الكفين من الساعدين ، والساعدين من العضدين ، والعضدين من المنكبين ، والمنكبين من الصلب ، والقدمين من الساقين ، والساقين من الفخذين ، والفخذين من الورك ، والورك من الصلب . فلما أراد أن يذهب قال له : يا عمر أدلك على أكفان لا تبلى ؟ قال : وما هي ؟ قال : تقوى الله والعمل الصالح .

وقال مرة لرجل من جلسائه : لقد أرقت الليلة مفكراً ، قال : وفيم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث في قبره ، وما صار إليه ، لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته ، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام[2] ، وتخترق فيه الديدان ، ويجري فيه الصديد[3] ، مع تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، ونقاء الثوب ، قال : ثم شهق شهقة خر مغشياً عليه . وقال مقاتل بن حيان : صليت وراء عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ ﴾[4] . فجعل يكررها وما يستطيع أن يتجاوزها . وقالت امرأته فاطمة : ما

---

(١) المثلات : ما أصاب القرون الماضية من العذاب وهي عِبَرٌ يُعْتَبَر بها .

(٢) الهوام : الأسد .

(٣) الصديد : القَيْح المختلط بالدم .

(٤) سورة الصافات ، الآية / ٢٤ .

رأيت أحداً أكثر صلاة وصياماً منه ، ولا أحداً أشد فَرَقا من ربه منه ، كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه ، قالت : ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ، ويجلس يبكي ، فأطرح عليه اللحاف رحمة له ، وأنا أقول : يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها .

وقال علي بن زيد : ما رأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن وعمر بن عبد العزيز . وقال بعضهم : رأيته يبكي حتى بكى دماً ، قالوا : وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ : ﴿ إنَّ ربكُم الله الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ﴾ (1) الآية ، ويقرأ : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أنْ يأتيهُمْ بأسُنَا بياتا وهم نائِمونَ ﴾ (2) . ونحو هذه الآيات ، وكان يجتمع كل ليلة إليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بينهم جنازة ، وقال أبو بكر الصولي : كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بقول الشاعر :

فما تزودَ مما كان يجمعهُ ... سوى حنوطٍ غداة البينِ في خرقٍ (3)
وغيرَ نفحةِ أعوادٍ تشبُّ له ... وقلَّ ذلكَ من زادٍ لمنطلقِ
بأيما بلدٍ كانت منيتهُ ... إن لا يسر طائعاً في قصدها يُسقِ

ونظر عمر بن عبد العزيز وهو في جنازة إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل فبكى وأنشد :

من كانَ حينَ تصيبُ الشمسُ جبهتهُ ... أو الغبارُ يخافُ الشينَ والشعثا (4)
ويألفُ الظلَّ كي تبقى بشاشتهُ ... فسوفَ يسكنُ يوماً راغماً جدثا (5)
في قعرِ مظلمةٍ غبراءَ موحشةٍ ... يطيلُ في قعرها تحتَ الثرى (6) اللبثا
تجهزي بجهازٍ تبلغينَ بهِ ... يا نفسُ قبلَ الردى لم تخلقي عبثاً

هذه الأبيات ذكرها الآجري في أدب النفوس بزيادة فيها فقال : أخبرنا أبو بكر أنبأنا أبو حفص عمر بن سعد القراطيسي حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي الدنيا حدثني محمد بن صالح القرشي أخبرني عمر بن الخطاب الأزدي حدثني ابن لعبد الصمد بن عبد الأعلى بن أبي عمرة قال : أراد عمر بن عبد العزيز أن يبعثه رسولا إلى اليون طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام ، فقال له عبد الأعلى : يا أمير المؤمنين ! إئذن لي في بعض بني يخرج معي ـ وكان عبد الأعلى له

---

(1) سورة الاعراف الآية / ٥٣ .
(2) سورة الاعراف ، الآية / ٩٦ .
(3) خرق : مفردها خِرْقة وهي القطعة من الثوب .
(4) الشعثا : انتشار الأمر وخلله .
(5) جدثا : جمعها أجْداث وأجْدُث : القبر .
(6) الثرى : جمعها أثراء : الندى .

عشرة من الذكور ـ فقال له : انظر من يخرج معك من ولدك . فقال : عبد الله ، فقال له عمر : إني رأيت ابنك عبد الله يمشي مشية كرهتها منه ومقتّه عليها ، وبلغني أنه يقول الشعر . فقال عبد الأعلى : أما مشيته تلك فغريزة فيه ، وأما الشعر فإنما هو نواحة ينوح بها على نفسه ، فقال له : مر عبد الله يأتيني وخذ معك غيره ، فراح عبد الأعلى بابنه عبد الله إليه ، فاستنشده فأنشده ذلك الشعر المتقدم :

تجهزي بجهازٍ تبلغين به ... يا نفسُ قبلَ الردى لم تخلقي عبثا
ولا تكدي لمن يبقى وتفتقري ... إنّ الردى وارثُ الباقي وما ورثا
واخشى حوادث صرفِ الدهرِ في مهلٍ ... واستيقظي لا تكوني كالذي بحثا
عن مديةٍ كان فيها قطعُ مدتهِ ... فوافتْ الحرثَ موفوراً كما حرثا
لا تأمني فجعَ دهرٍ مترفٍ ختلٍ ... قد استوى عندهُ من طابَ أو خبثا
يا ربَ ذي أملٍ فيهِ على وجلٍ ... أضحى به آمناً أمسى وقد حدثا
من كانَ حين تصيبُ الشمسُ جبهتهُ ... أو الغبارُ يخافُ الشينَ والشعثا [1]
ويألفُ الظلَ كي تبقى بشاشتهُ ... فكيف يسكنُ يوماً راغماً جدثا [2]
قفراءَ موحشةٍ غبراءَ مظلمةٍ ... يطيلُ تحتَ الثرى مِن قعرها اللبثا

وقد ذكرها ابن أبي الدنيا فعمر أنشدها عنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وكان عمر يتمثّل بها كثيراً ويبكي .

وقال الفضل بن عباس الحلبي : كان عمر بن عبد العزيز لا يجف فوه من هذا البيت :

ولا خيرَ في عيشِ امرئٍ لم يكن له ... من الله في دارِ القرارِ نصيبُ

وزاد غيره معه بيتاً حسناً وهو قوله :

فإن تُعجبُ الدنيا أناساً فانها ... متاعٌ قليلٌ والزوالُ قريبُ

ومن شعره الذي أنشده ابن الجوزي :

أنا ميتٌ وعز من لا يموتُ ... قدْ تيقنتُ أنني سأموتُ
ليسَ ملك يزيله الموتُ ملكاً ... إنما الملكُ ملكَ من لا يموتُ

وقال عبد الله بن المبارك : كان عمر بن عبد العزيز يقول :

تسرُ بما يفنى وتفرحُ بالمنى ... كما اغترَ باللذاتِ في النومِ حالمُ

---

(١) الشين : العيب .

(٢) جدثا : جمعها أَجْدَاث وأَجْدُث : القبر .

نـهـارُكَ يـا مغـرورُ سـهـوٌ وغـفـلةٌ ... ولـيـلُكَ نـومٌ والردى لـكَ لازمُ
وسعيُـكَ فيمـا سـوفَ تـكـرهُ غبـهُ ... كـذلـكَ في الـدنيـا تعيشُ البهـائمُ

وقال محمد بن كثير : قال عمر بن عبد العزيز يلوم نفسه :

أيـقـظانُ أنتَ اليـومَ أم أنتَ نـائمُ ... وكيفَ يـطيقُ النـومَ حيـرانُ هـائمُ
فلو كنتَ يقـظان الـغـداةِ لحـرقـت ... محاجرَ عينيكَ الدمـوعُ السـواجمُ[1]
اصبحتَ في النـوم الطويـلِ وقد دنتْ ... إليـكَ أمـورٌ مـفـظعـاتُ عـظائمُ
وتكـدحُ فيـمـا سـوفَ تكـرهُ غبّـهُ ... كـذلـكَ في الـدنيـا تعيشُ البهـائمُ
فـلا أنتَ في النـوامِ يـومـاً بسـالمٍ ... ولا أنتَ في الايقـاظ يقـظانُ حـازمُ

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : انتبه عمر ذات ليلة وهو يقول : لقد رأيت الليلة رؤ يا عجيبة ، فقلت : أخبرني بها ، فقال : حتى نصبح ، فلما صلى بالمسلمين دخل فسألته : رأيت كأني دفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر كأنه الفضة فخرج منه خارج فنادى أين محمد بن عبد الله ، أين رسول الله ؟ إذ أقبل رسول الله ﷺ ، حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنادى : أين أبو بكر الصديق ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنادى أين عمر بن الخطاب ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنادى أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنادى أين علي بن أبي طالب ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنادى أين عمر بن عبد العزيز ؟ فقمت فدخلت فجلست إلى جانب أبي عمر بن الخطاب ، وهو عن يسار رسول الله ﷺ ، وأبو بكر عن يمينه ، وبينه وبين رسول الله ﷺ رجل ، فقلت : لأبي : من هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم ، ثم سمعت هاتفاً يهتف بيني وبينه نور لا أراه ، وهو يقول : يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه ، واثبت على ما أنت عليه ، ثم كأنه أذن لي في الخروج فخرجت ، فالتفت فإذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر وهو يقول : الحمد لله الذي نصرني ربي ، وإذا علي في إثره وهو يقول : الحمد لله الذي غفر لي ربي .

فصل

وقد ذكرنا في دلائل النبوة الحديث الذي رواه أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . فقال جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل فيما ذكره ابن الجوزي وغيره : إن عمر بن عبد العزيز كان على

(١) السواجم : المنهمرة .

رأس المائة الأولى ، وان كان هو أولى من دخل في ذلك وأحق ، لأمامته وعموم ولايته ، وقيامه واجتهاده في تنفيذ الحق ، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب ، وكان كثيراً ما تشبه به . وقد جمع الشيخ أبو الفرج بن الجوزي سيرة لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وقد أفردنا سيرة عمر بن الخطاب في مجلد على حدة ، ومسنده في مجلد ضخم ، وأما سيرة عمر بن عبد العزيز فقد ذكرنا منها طرفاً صالحاً هنا ، يستدل به على ما لم نذكره .

وقد كان عمر رحمه الله يعطي من انقطع إلى المسجد الجامع من بلده وغيرها ، للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن ، في كل عام من بيت المال مائة دينار ، وكان يكتب إلى عماله أن يأخذوا بالسنة ، ويقول : إن لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله ، وكتب إلى سائر البلاد أن لا يركب ذمي من اليهود والنصارى وغيرهم على سرج ، ولا يلبس قباءً ولا طيلساناً ولا السراويل ، ولا يمشين أحد منهم إلا بزنار من جلد ، وهو مقرون الناصية ، ومن وجد منهم في منزله سلاح أخذ منه . وكتب أيضاً أن لا يستعمل على الأعمال إلا أهل القرآن ، فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى أن لا يكون عنده خير . وكان يكتب إلى عماله : اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلاة ، فإن من أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشد تضييعاً . وقد كان يكتب الموعظة إلى العامل من عماله فينخلع منها ، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة وطوى البلاد من شدة ما تقع موعظته منه ، وذلك أن الموعظة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ . وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة ، وقد كتب إليه الحسن البصري بمواعظ حسان ولو تقصينا ذلك لطال هذا الفصل . ولكن قد ذكرنا ما فيه إشارة إلى ذلك . وكتب إلى بعض عماله ، أذكر ليلة تمخض بالساعة فصباحها القيامة ، فيا لها من ليلة ويا له من صباح ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً . وكتب إلى آخر : أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك ، وانقطاع الرجاء منك ، قالوا : فخلع هذا العامل نفسه من العمالة وقدم على عمر فقال له : مالك ؟ فقال : خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين ، والله لا أعود إلى ولاية أبداً .

فصل

وقد رد جميع المظالم كما قدمنا ، حتى انه رد فص خاتم كان في يده ، قال : أعطانيه الوليد من غير حقه ، وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم في الملبس والمأكل والمتاع ، حتى أنه ترك التمتع بزوجته الحسناء ، فاطمة بن عبد الملك ، يقال كانت من أحسن النساء ، ويقال إنه رد جهازها إلى بيت المال ، والله أعلم . وقد كان دخله في كل سنة قبل أن يلي الخلافة أربعين ألف دينار ، فترك ذلك كله حتى لم يبقَ له دخل سوى أربعمائة دينار في كل سنة ، وكان حاصله في خلافته ثلاثمائة درهم ، وكان له من الأولاد جماعة ، وكان ابنه

عبد الملك أجلهم ، فمات في حياته في زمن خلافته ، حتى يقال إنه كان خيراً من أبيه ، فلما مات لم يظهر عليه حزن ، وقال : أمر رضيه الله فلا أكرهه ، وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جداً فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه،فلما وُلِّيَ الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ولا يغسله حتى يتسخ جداً، ويقول: ما أحسنه لولا لينه. وكان يلبس الفروة الغليظة ، وكان سراجه على ثلاث قصبات في رأسهن طين ، ولم يبن شيئاً في أيام خلافته ، وكان يخدم نفسه بنفسه ، وقال : ما تركت شيئاً من الدنيا إلا عوَّضني الله ما هو خير منه ، وكان يأكل الغليظ ولا يبالي بشيء من النعيم ، ولا يتبعه نفسه ولا يوده . حتى قال أبو سليمان الداراني : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني ، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها ، ولا ندري حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟ ليس من جرب كمن لم يجرب . وتقدم قول مالك بن دينار : إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز . وقال عبد الله بن دينار : لم يكن عمر يرتزق من بيت المال شيئاً ، وذكروا أنه أمر جارية تروِّحه حتى ينام فروَّحته ، فنامت هي ، فأخذ المروحة من يدها وجعل يروِّحها ويقول : أصابك من الحر ما أصابني . وقال له رجل : جزاك الله عن الاسلام خيراً . فقال : بل جزى الله الاسلام عني خيراً . ويقال إنه كان يلبس تحت ثيابه مسحاً غليظاً من شعر ، ويضع في رقبته غلاً إذا قام يصلي من الليل ، ثم إذا أصبح وضعه في مكان وختم عليه فلا يشعر به أحد ، وكانوا يظنونه مالاً أو جوهراً من حرصه عليه ، فلما مات فتحوا ذلك الباب فإذا فيه غل ومسح .

وكان يبكي حتى يبكي الدم من الدموع ، ويقال إنه بكى فوق سطح حتى سال دمعه من الميزاب ، وكان يأكل من العدس ليرق قلبه وتغزر دمعته ، وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله ، وقرأ رجل عنده : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ ﴾ [1] الآية ، فبكى بكاءً شديداً ثم قام فدخل منزله وتفرّق الناس عنه ، وكان يكثر أن يقول : اللهم سلم سلم ، وكان يقول : اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة محمد ﷺ ، وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ ، وقال : أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم . وقال : لو ان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يحكم أمر نفسه لتواكل الناس الخير ، ولذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة . وقال : الدنيا عدوة أولياء الله ، وولية أعداء الله ، أما الأولياء فغمتهم وأحزنتهم ، وأما الأعداء فغرتهم وشتتتهم وأبعدتهم عن الله . وقال : قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع . وقال لرجل : من سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم تقله . وقال : أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب . وقال : لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها سؤال ربه ، أعطى أو

(١) سورة الفرقان ، الآية / ١٣ .

منع . وقال : قيدوا العلم بالكتاب ، وقال لرجل : علِّم ولدك الفقه الأكبر : القناعة وكف الأذى . وتكلم رجل عنده فأحسن فقال : هذا هو السحر الحلال . وقصته مع أبي حازم مطولة حين رآه خليفة وقد شحب وجهه من التقشف ، وتغير حاله ، فقال له : ألم يكن ثوبك نقيا ؟ ووجهك وضيا ؟ وطعامك شهيا ؟ ومركبك وطيا ؟ فقال له : ألم تخبرني عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن من ورائكم عقبة كؤودا[1] لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول » ؟ ثم بكى حتى غشي عليه ، ثم أفاق فذكر أنه لقي في غشيته تلك أن القيامة قد قامت ، وقد استدعى بكل من الخلفاء الأربعة ، فأمر بهم إلى الجنة ، ثم ذكر من بينه وبينهم فلم يدر ما صنع بهم ، ثم دعى هو فأمر به إلى الجنة ، فلما انفصل لقيه سائل فسأله عما كان من أمره فأخبره ، ثم قال للسائل : فمن أنت ؟ قال : أنا الحجاج بن يوسف ، قتلني ربي كل قتلة قتلة ، ثم ها أنا أنتظر ما ينتظره الموحدون . وفضائله ومآثره كثيرة جداً ، وفيما ذكرنا كفاية ولله الحمد والمنة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة لنا إلا به .

ذكر سبب وفاته رحمه الله

كان سببها السل ، وقيل سببها أن مولى له سمَّه في طعام أو شراب ، وأُعطِيَ على ذلك ألف دينار ، فحصل له بسبب ذلك مرض ، فأُخْبِرَ أنه مسموم ، فقال : لقد علمت يوم سقيت السّم ، ثم استدعى مولاه الذي سقاه ، فقال له : ويحك !! ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : ألف دينار أُعْطِيتُها . فقال : هاتها ، فأحضرها فوضعها في بيت المال ، ثم قال له : اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك . ثم قيل لعمر : تدارك نفسك ، فقال : والله لو أن شفائي أن أمسّ شحمة أذني أو أوتي بطيب فأشمه ما فعلت ، فقيل له : هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء ؟ فقال : ﴿ إنَّ وليِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[2] . والله لا أعطيتهم حق أحد وهم بين رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه . وفي رواية فلا أبالي في أي واد هلك . وفي رواية أفأدع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت ؟ ما كنت لأفعل . ثم استدعى بأولاده فودعهم وعزاهم بهذا ، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال : انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم . قال : فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرس في سبيل الله ، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك - مع كثرة ما ترك لهم من الأموال - يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز ، لأن عمر وكل ولده إلى الله عز وجل ، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى ما يدعون لهم ، فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات

---

(١) كؤودا : صعبة شديدة .

(٢) سورة الأعراف ، الآية / ١٩٥ .

أولادهم . وقال يعقوب بن سفيان : ثنا أبو النعمان ثنا حماد بن زيد عن أيوب قال : قيل لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة ، فإن قضى الله موتاً دفنت في القبر الرابع مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فقال : والله لأن يعذبني الله بكل عذاب ، إلا النار فإنه لا صبر لي عليها ، أحب إليّ من أن يعلم الله من قلبي أني لذلك الموضع أهل . قالوا : وكان مرضه بدير سمعان من قرى حمص وكانت مدة مرضه عشرين يوماً ، ولما احتضر قال : أجلسوني فأجلسوه فقال : إلهي أنا الذي أمرتني فقصرت ، ونهيتني فعصيت ، ثلاثاً ، ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر ، فقالوا : إنك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين ، فقال : إني لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جان ، ثم قبض من ساعته . وفي رواية أنه قال لأهله : اخرجوا عني ، فخرجوا وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة ، فسمعوه يقول : مرحباً بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان ثم قرأ : ﴿ تِلْكَ الدارُ الآخِرَةُ نجعَلُهَا للذينَ لا يُرِيدُون عُلواً في الأَرْضِ وَلا فَسَاداً والعَاقِبَةُ للمتَّقِينَ ﴾ (١) . ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه فوجدوه قد غمض وسوى إلى القبلة وقبض .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : ثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن الدراوردي عن عبد العزيز بن أبي سلمة أن عمر بن عبد العزيز لما وضع عند قبره هبت ريح شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب فقرأوها فإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . فأدخلوها بين أكفانه ودفنوها معه .

ورُوِيَ نحو هذا من وجه آخر ابن عساكر في ترجمة عبد الصمد بن إسماعيل بسنده عن عمير بن حبيب السلمي ، قال : أسرت أنا وثمانية في زمن بني أمية ، فأمر ملك الروم بضرب رقابنا ، فقتل أصحابي وشفع فيَّ بطريق من بطارقة الملك ، فأطلقني له ، فأخذني الى منزله ، وإذا له ابنة مثل الشمس ، فعرضها عليّ على أن يقاسمني نعمته وأدخل معه في دينه فأبيت ، وخَلَت بي ابنته فعرضت نفسها عليَّ فامتنعت ، فقالت : ما يمنعك من ذلك ؟ فقلت : يمنعني ديني ، فلا أترك ديني لامرأة ولا لشيء . فقالت : تريد الذهاب إلى بلادك ؟ قلت : نعم : فقالت : سر على هذا النجم بالليل واكمُنْ بالنهار ، فانه يلقيك إلى بلادك ، قال : فسرت كذلك ، قال فبينا أنا في اليوم الرابع مُكْمِن إذا بخيل مقبلة فخشيت أن تكون في طلبي ، فاذا أنا بأصحابي الذين قتلوا ومعهم آخرون على دواب شهب (٢) ، فقالوا : عمير ؟ فقلت : عمير . فقلت : لهم أوليس قد قتلتم ؟ قالوا : بلى ، ولكن الله عزّ وجلّ نشر الشهداء وأذن لهم أن يشهدوا جنازة عمر بن عبد العزيز ، قال : ثم قال لي بعضهم : ناولني يدك يا عمير ، فأردفني فسرنا يسيراً ثم قذف بي قذفة وقعت قرب منزلي بالجزيرة ، من غير أن يكون لحقني شر .

---

(١) سورة القصص ، الآية / ٨٣ .

(٢) شهب : كلُّ مضيءٍ متولِّد من النار . أو ـ ما يُرَى كأنه كوكبٌ انقضَّ .

وقال رجاء بن حيوة : كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إليَّ أن أغسله وأكفّنه ، فاذا حللت عقدة الكفن أن أنظر في وجهه فادلي ، ففعلت فاذا وجهه مثل القراطيس بياضاً ، وكان قد أخبرني أنه كل من دفنه قبله من الخلفاء وكان يحل عن وجوههم فاذا هي مسودّة . وروى ابن عساكر في ترجمة يوسف بن ماهك قال : بينما نحن نسوّي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا من السماء كتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . ساقه من طريق إبراهيم بن بشار عن عباد بن عمرو عن محمد بن يزيد البصري عن يوسف بن ماهك فذكره ، وفيه غرابة شديدة والله أعلم وقد رثيت له منامات صالحة ، وتأسّف عليه الخاصة والعامة ، لا سيما العلماء والزهّاد والعبّاد . ورثاه الشعراء ، فمن ذلك ما أنشده أبو عمرو الشيباني لكثير عزّة يرثي عمر : -

عمت صنائعُهُ فعمَّ هلاكه ... فالناسُ فيهِ كلهمْ مأجورُ
والناسُ مأتمهمْ عليهِ واحدٌ ... في كلِ دارٍ رنةٌ وزفيرُ
يثني عليكَ لسانُ منْ لم تولهِ ... خيراً لأنكَ بالثناءِ جديرُ
ردتْ صنائعهُ عليهِ حياتُه ... فكأنهُ مِنْ نشرها منشورُ

وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله : -

ينعي النعاةُ أميرَ المؤمنينَ لنا ... يا خيرَ منْ حج بيتَ اللهِ واعتمرا
حملتَ أمراً عظيماً فاضطلعتَ بهِ ... وسرتَ فيهِ بأمرِ اللهِ يا عمرا
الشمسُ كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ ... تبكي عليكَ نجومُ الليلِ والقمرا

وقال محارب بن دثار رحمه الله يرثي عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : -

لو أعظمَ الموتَ خلقاً أن يواقعهُ ... لعدلهِ لمْ يصبكَ الموتُ يا عمرُ
كمْ منْ شريعةِ عدلٍ قدْ نعشتَ لهمْ ... كادتْ تموتُ وأخرى منكَ تنتظرُ
يا لهفَ نفسي ولهفَ الواجدينَ معي ... على العدولِ التي تغتالها الحفرُ
ثلاثةٌ ما رأتْ عيني لهمْ شبهاً ... تضمُ أعظمهم في المسجد الحفرُ
وأنتَ تتبعهمْ لم تألُ مجتهداً ... سقياً لها سننٌ بالحقِ تفتقرُ
لوْ كنتُ أملكُ والأقدارُ غالبةٌ ... تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكرُ
صرفتُ عنْ عمرَ الخيراتِ مصرعهُ ... بديرِ سمعانَ لكنّ يغلبُ القدرُ

قالوا : وكانت وفاته بدير سمعان من أرض حمص ، يوم الخميس ، وقيل الجمعة لخمس مضين ، وقيل بقين من رجب ، وقيل لعشر بقين منه ، سنة إحدى وقيل اثنتين ومائة ، وصلَّى عليه ابن عمه مسلمة بن عبد الملك ، وقيل صلَّى عليه يزيد بن عبد الملك ، وقيل ابنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وكان عمره يوم مات تسعاً وثلاثين سنة وأشهراً ، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر ، وقيل بسنة . وقيل

بأكثر ، وقيل إنه عاش ثلاثاً وستين سنة ، وقيل ستاً وثلاثين ، وقيل سبعاً وثلاثين ، وقيل ثمانياً وثلاثين سنة ، وقيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين ولم يبلغها . وقال أحمد عن عبد الرزاق عن معمر : مات على رأس خمس وأربعين سنة . قال ابن عساكر : وهذا وهم ، والصحيح الأول تسعاً وثلاثين سنة وأشهراً . وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وقيل أربعة عشر يوماً ، وقيل سنتان ونصف .

وكان رحمه الله أسمر دقيق الوجه حسنه نحيف الجسم حسن اللحية غائر العينين ، بجبهته أثر شجَّة وكان قد شاب وخضّب رحمه الله ، والله سبحانه أعلم .

فَصْــــــلْ

لما وُلِّي عمر بن عبد العزيز الخلافة جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء قبله ، فقال له عمر : ما لي ولك؟تَنَحَّ عني ، إنما أنا رجل من المسلمين . ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال : أيها الناس ! إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون . فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ، ورضينا كلنا بك . فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف ، وأكثروا من ذكر الموت فانه هادم اللذات ، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في كتابها ولا في نبيّها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقاً ، ثم رفع صوته فقال : أيها الناس ! من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . ثم نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت والثياب التي كانت تبسط للخلفاء أمر بها فبيعت ، وأدخل أثمانها في بيت المال ، ثم ذهب يتبوأ مقيلا ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : يا بني أقيل ، قال : تقيل ولا ترد المظالم إلى أهلها ؟ فقال : إني سهرت البارحة في أمر سليمان ، فاذا صليت الظهر رددت المظالم . فقال له ابنه : ومن لك أن تعيش الى الظهر ؟ قال : ادْنُ [1] مني أي بني ، فدنا منه فقبّل بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعيْنني على ديني . ثم قام وخرج وترك القائلة وأمر مناديه فنادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه رجل ذميّ من أهل حمص [2] فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : ما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي . والعباس جالس ، فقال له عمر : يا عباس ما تقول ؟ قال : نعم ! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلاً ، فقال عمر : ما تقول يا ذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك

---

(١) أدن : اقترب .

(٢) في الأصل « من أهل خضر » وصححناه من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صفحة ١٠٤ .

كتاب الله تعالى . فقال عمر : نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ، قم فاردد عليه ضيعته ، فردَّها عليه . ثم تتابع الناس في رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردّها ، سواء كانت في يده أو في يد غيره حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم ، مما كان في أيديهم بغير استحقاق ، فاستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس ، فلم يفدهم ذلك شيئاً ، فأتوا عمتهم فاطمة بنت مروان ـ وكانت عمته ـ فشكوا إليها ما لقوا من عمر ، وأنه قد أخذ أموالهم ويُستنقصون عنده ، وأنه لا يرفع بهم رأساً ، وكانت هذه المرأة لا تحجب عن الخلفاء ، ولا ترد لها حاجة ، وكانوا يكرِّمونها ويعظمونها ، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة ، وقامت فركبت اليه ، فلما دخلت عليه عظّمها وأكرمها ، لأنها أخت أبيه ، وألقى لها وسادة ، وشرَّع يحادثها ، فرآها غضبى وهي على غير العادة ، فقال لها عمر : ياعمة مالك ؟ فقالت : بنو أخي عبد الملك وأولادهم يهانون في زمانك وولايتك ؟ وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم ، ويسبون عندك فلا تنكر ؟ فضحك عمر وعلم أنها متحملة ، وأن عقلها قد كبر ، ثم شرع يحادثها والغضب لا يتحيز عنها . فلما رأى ذلك أخذ معها في الجد ، فقال : يا عمة ! اعلمي أن النبي ﷺ مات وترك الناس على نهر مورود ، فولّى ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولّى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولّى ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه ، وايم الله لئن أبقاني الله لأردنّه إلى مجراه الأول ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، وإذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالي ، والوالي لا يزيل ذلك ، فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناءٍ [1] عنه في غيرهم ؟ فقالت : فلا يسبّوا عندك ؟ قال : ومن يسبهم ؟ إنما يرفع الرجل مظلمته فآخذ له بها . ذكر ذلك ابن أبي الدنيا وأبو نعيم وغيرهما ، وقد أشار إليه المؤلف إشارة خفية .

وقال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر في مرضه فاذا عليه قميص وسخ ، فقلت لفاطمة : ألا تغسلوا قميص أمير المؤمنين ؟ فقالت : والله ما له قميص غيره ، وبكى فبكت فاطمة فبكى أهل الدار ، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء ، فلما انجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : ما أبكاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إني ذكرت منصرف الخلائق من بين يدي الله ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، ثم صرخ وغشي عليه .

وعرض عليه مرة مسك من بيت المال فسدّ أنفه حتى وضع ، فقيل له في ذلك فقال : وهو ينتفع من المسك إلا بريحه ؟ ولما احتضر دعا بأولاده وكانوا بضعة عشر ذكراً ، فنظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال : بنفسي الفتية . وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل كثيراً بهذه الأبيات : ـ

يـرى مستكينـاً وهـوَ للقـولِ مـاقـتٌ ... بـهِ عنْ حديثِ القـومِ مـا هـوَ شـاغلهُ
وأزعـجـهُ علمٌ عَـنِ الـجـهـلِ كـلـهِ ... ومـا عـالـمٌ شيئـاً كـمنْ هـوَ جـاهـلهُ

---

(١) ناءٍ : بعيد .

عبوسٌ عنِ الجهالِ حينَ يراهُم ... فليسَ لهُ منهمْ خدينٌ يهازلهُ
تذكرَّ ما يبقى مِنَ العيشِ فارعوى ... فأشغلهُ عَنْ عاجلِ العيشِ آجلهُ

وروى ابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربري وهو ينشده شعراً ، فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات : ـ

فكمْ مِنْ صحيحٍ باتَ للموتِ آمناً ... أتتهُ المنايا[1] بغتةً بعدَ ما هجعْ[2]
فلمْ يستطعْ إذْ جاءهُ الموتُ بغتةً ... فراراً ولاَ منهُ بقُوّتهِ امتنعْ
فأصبحَ تبكيهِ النساءُ مقنعاً ... ولا يسمعُ الداعي وإنْ صوتَهُ رفعْ
وقرّبَ من لحدٍ[3] فصارَ مقيلهُ ... وفارقَ ما قدْ كانَ بالأمسِ قدْ جمعْ
فلا يتركُ الموتُ الغنيَّ لمالهِ ... ولا معدماً في المالِ ذا حاجةٍ يدعْ

وقال رجا بن حيوة : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة ، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد يا أمير المؤمنين ! إن هذا المرائي ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودرٍ ثمين ، في بيتين في داره مملوءين ، وهما مقفولان على ذلك الدر والجوهر . فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر : بلغني أن عمر خلف جوهراً ودراً في بيتين مقفولين . فأرسلت إليه : يا أخي ما ترك عمر من سبد ولا لبد ، إلاَّ ما في هذا المنديل . وأرسلت إليه به ، فحلّه فوجد فيه قميصاً غليظاً مرقوعاً ، ورداء قشبا ، وجبة محشوة غليظة واهية[4] البطانة . فقال يزيد للرسول : قل لها : ليس عن هذا أسأل ، ولا هذا أريد ، إنما أسأل عمّا في البيتين . فأرسلت تقول له : والذي فجعني بأمير المؤمنين ما دخلت هذين البيتين منذ وليّ الخلافة ، لعلمي بكراهته لذلك ، وهذه مفاتيحهما فتعال فحوِّل ما فيهما لبيت مالك . فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد حتى دخل الدار ففتح أحد البيتين فاذا فيه كرسي من أدم[5] وأربع آجرَّات[6] مبسوطات عند الكرسي ، وقمقم[7] . فقال عمر بن الوليد : أستغفر الله ، ثم فتح البيت الثاني فوجد فيه مسجداً مفروشاً بالحصا ، وسلسلة معلقة بسقف البيت ، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الانسان رأسه فيها الى أن تبلغ العنق ، كان إذا فتر[8] عن العبادة او ذكر بعض ذنوبه وضعها في رقبته ، وربما كان يضعها اذا نعس لئلا ينام ، ووجدوا صندوقاً مقفلاً ففتح فوجدوا فيه سفطاً ففتحه فاذا فيه دراعة وتبان ، كل ذلك من مسوح غليظ ، فبكى يزيد ومن معه وقال : يرحمك الله يا أخي ، إن كنت لنقي السريرة ، نقي العلانية . وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول وهو يقول : أستغفر الله ، إنما قلت ما قيل لي .

---

(١) المنايا : مفردها المنية أى الموت .
(٢) هجع : نام .
(٣) لحد : القبر .
(٤) واهية : ضعيفة .
(٥) أدم : جلد .
(٦) آجرَّات : مفردها الآجرَّة : ما يبنى به من الطين المشوي . وتسميّه العامة القرميد .
(٧) وقمقم : ابريق من نحاس .
(٨) فتر : سكن وضعف .

وقال رجاء : لما احتضر جعل يقول : اللهم رضّني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت . فلا زال يقول ذلك حتى مات . وكان يقول : لقد أصبحت ومالي في الأمور هوى إلَّا في مواضع قضاء الله فيها .

وقال شعيب بن صفوان : كتب سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الى عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة : أما بعد يا عمر فانه قد ولي الخلافة والمُلك قبلك أقوام ، فماتوا على ما قد رأيت ، ولقوا الله فرادى بعد الجموع والحفدة والحشم ، وعالجوا نزع الموت الذي كانوا منه يفرون ، فانفقأت عينهم التي كانت لا تفتأ تنظر لذاتها ، واندفنت رقابهم غير موسدين بعد لين الوسائد ، وتظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم ، وانشقت بطونهم التي كانت لا تشبع من كل نوع ولون من الأموال والأطعمة ، وصاروا جيفاً بعد طيب الروائح العطرة ، حتى لو كانوا إلى جانب مسكين ممن كانوا يحقرونه وهم أحياء لتأذى بهم ، ولنفر منهم ، بعد إنفاق الأموال على أغراضهم من الطيب والثياب الفاخرة اللينة ، كانوا ينفقون الأموال إسرافاً في أغراضهم وأهوائهم ، ويقترون في حق الله وأمره ، فان استطعت أن تلقاهم يوم القيامة وهم محبوسون مرتهنون بما عليهم ، وأنت غيرَ محبوس ولا مرتهن بشيء فافعل ، واستعن بالله ولا قوة إلا بالله سبحانه .

ومـا مـلك عـمـا قـليـل بسـالـمٍ	ولـو كـثـرت أحـراسـهُ ومـواكبـهُ
ومن كـان ذا بـابٍ شـديـد وحـاجبٍ	فعمـا قليـلٍ يهجـر البـابَ حـاجبـهُ
ومـا كـانَ غيرُ المـوتِ حتى تفـرقتْ	إلـى غـيـرهِ أعـوانـهُ وحـبـائبـهُ
فـأصبـحَ مسـروراً بـهِ كـلَ حـاسـدٍ	وأسـلمَـه أصحـابـهُ وحـبـائبـهُ

وقيل إن هذه الأبيات لغيره .

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص : حدّثنا عاصم بن عامر حدّثنا أبي عن عبد ربه بن أبي هلال عن ميمون بن مهران قال : تكلم عمر بن عبد العزيز ذات يوم وعنده رهط من إخوانه ففتح له منطق وموعظة حسنة ، فنظر إلى رجل من جلسائه وقد ذرفت عيناه بالدموع ، فلما رأى ذلك عمر قطع منطقه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين امضِ في موعظتك فاني أرجو أن يمنَّ الله به على من سمعه أو بلغه ، فقال إليك عني يا أبا أيوب ، فان في القول على الناس فتنة لا يخلص من شرها متكلم عليهم ، والفعال أولى بالمؤمن من المقال . وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : استعملنا أقواماً كنا نرى أنهم أبرار أخيار ، فلما استعملناهم إذا هم يعملون أعمال الفجار ، قاتلهم الله ، أما كانوا يمشون على القبور !!

وروى عبد الرزاق قال : سمعت معمراً يذكر قال : كتب عمر بن عبد العزيز الى عديّ بن أرطأة - وبلغه عنه بعض ما يكره -: أما بعد فانه غرَّني بك مجالستك القراء ، وعمامتك السوداء ، وإرسالك إياها من وراء ظهرك ، وإنك أحسنت العلانية فأحسنا بك الظن ، وقد أطلعنا الله على كثير مما تعملون .

وروى الطبراني والدارقطني وغير واحد من أهل العلم بأسانيدهم إلى عمر بن عبد العزيز أنه كتب

إلى عامل له : أما بعد فاني أوصيك بتقوى الله واتباع سنة رسوله ، والاقتصاد في أمره ، وترك ما أحدث المحدثون بعده ، ممن قد حارب سنته ، وكفوا مؤنته ، ثم اعلم أنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل على بطلانها - أو قال دليل عليها - فعليك لزوم السنة ، فانه إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الزيغ والزلل ، والحمق والخطأ والتعمق ، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وعلى العمل الشديد أشد ، وإنما كان عملهم على الأسد ، ولو كان فيما تحملون أنفسكم فضل لكانوا فيه أحرى ، وإليه أجرى ، لأنهم السابقون الى كل خير ، فان قلت : قد حدث بعدهم خير ، فاعلم أنه إنما أحدثه من قد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وحاد عن طريقهم، ورغبت نفسه عنهم ، ولقد تكلموا منه ما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فأين لا أين ، فمن دونهم مقصر ، ومن فوقهم غير محسن ، ولقد قصر أقوام دينهم فحفوا ، وطمح عنهم آخرون فغلوا ، فرحم الله ابن عبد العزيز . ما أحسن هذا القول الذي ما يخرج إلا من قلب قد امتلأ بالمتابعة ومحبة ما كان عليه الصحابة ، فمن الذي يستطيع أن يقول مثل هذا من الفقهاء وغيرهم ؟ فرحمه الله وعفا عنه .

وروى الخطيب البغدادي من طريق يعقوب بن سفيان الحافظ عن سعيد بن أبي مريم عن رشيد بن سعيد قال : حدّثني عقيل عن شهاب عن عمر بن عبد العزيز . قال : سنّ [1] رسول الله ﷺ وخلفاؤه بعده سنناً ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستعمال لطاعة الله ، ليس على أحد تغييرها ولا تبديلها ، ولا النظر في رأي من خالفها ، فمن اقتدى بما سبق هدى ، ومن استبصر بها أبصر ، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً .

وأمر عمر بن عبد العزيز مناديه ذات يوم فنادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخطبهم فقال في خطبته : إني لم أجمعكم إلا أن المصدق منكم بما بين يديه من لقاء الله والدار الآخرة ولم يعمل لذلك ويستعد له أحمق ، والمكذّب له كافر . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ [2] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [3] .

وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه أرسل أولاده مع مؤدب لهم في الطائف يعلمهم هناك ، فكتب اليه عمر : بئس ما علّمت ، إذ قدّمت إمام المسلمين صبياً لم يعرف النية - أولم تدخله النية - ذكره في كتاب النية له . وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الرقة والبكاء ، عن مولى لعمر بن عبد العزيز أنه قال له : يا بني ليس الخير أن يسمع لك وتطاع ، وإنما الخير أن تكون قد غفلت عن ربك عزّ وجلّ ثم أطعته ، يا بني لا تأذن اليوم لأحد عليَّ حتى أصبح ويرتفع النهار ، فاني أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عني ، فقال له مولاه : رأيتك البارحة بكيت بكاء ما رأيتك بكيت مثله ، قال فبكى ثم قال : يا بني إني والله ذكرت الوقوف

---

(١) سنَّ : شرَّع .
(٢) سورة فصِّلت ، الآية / ٥٤ .
(٣) سورة يوسف ، الآية / ١٠٦ .

بين يدي الله عزّوجلّ . قال : ثم غشي عليه فلم يفق حتى علا [1] النهار ، قال : فما رأيته بعد ذلك متبسماً حتى مات .

وقرأ ذات يوم : ﴿ وَمَا تَكُونُ في شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْه مِنْ قُرآنٍ ولا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً ﴾ [2] الآية ، فبكى بكاءً شديداً حتى سمعه أهل الدار ، فجاءت فاطمة فجلست تبكي لبكائه ويبكى أهـل الدار لبكائهما ، فجاء ابنه عبد الملك فدخل عليهم وهم على تلك الحال ، فقال له : يا أبة مايبكيك ؟ فقال : يابني خير ، ودّ أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه ، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك وأن أكون من أهل النار .

وروى ابن أبي الدنيا عن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنبري . قال : رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة ، ووراءه حبشي يمشي ، فلما انتهى الى الناس رجع الحبشي ، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال : هكذا رحمكما الله ، حتى صعد المنبر فخطب فقرأ : ﴿ إذَا الشمسُ كُوِّرَتْ ﴾ [3] فقال : وما شأن الشمس : ﴿ وإذا الجحيمُ سُعِّرتْ وإذَا الجنةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [4] فبكى وبكى أهل المسجد ، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت حيطان المسجد تبكي معه ، ودخل عليه أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين جاءت بي إليك الحاجة ، وانتهيت إلى الغاية ، والله سائلك عني . فبكى عمر وقال له : كم أنتم ؟ فقال : أنا وثلاث بنات . ففرض له على ثلثمائة ، وفرض لبناته مائة مائة ، وأعطاه مائة درهم من ماله ، وقال له : اذهب فاستنفقها حتى تخرج أعطيات المسلمين فتأخذ معهم .

وجاءه رجل من أهل آذربيجان فقام بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين اذكر بمقامي هذا بين يديك مقامك غداً بين يدي الله ، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق ، من يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب ، قال : فبكى عمر بكاءً شديداً ثم قال له : ما حاجتك ؟ فقال : إن عاملك بأذربيجان عدا عليَّ فأخذ مني اثني عشر ألف درهم فجعلها في بيت المال . فقال عمر : اكتبوا له الساعة إلى عاملها ، فليردّ عليه ، ثم أرسله مع البريد . وعن زياد مولى ابن عيّاش قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز في ليلة باردة شاتية ، فجعلت أصطلي [5] على كانون هناك ، فجاء عمر وهو أمير المؤمنين فجعل يصطلي معي على ذلك الكانون ، فقال لي : يا زياد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : قصَّ عليَّ ، قلت ما أنا بقاصٍّ ، فقال : تكلم ، فقلت زياد ، فقال : ما له ؟ فقلت : لا ينفعه من دخل الجنة إذا دخل النار ، ولا يضره من دخل النار إذا دخل الجنة ، فقال : صدقت ، ثم بكى حتى أطفأ الجمر الذي في الكانون .

---

(١) علا : ارتفع .
(٢) سورة يونس ، الآية/ ٦١ .
(٣) سورة كوّرت ، الآية/ ١ .
(٤) سورة كوّرت ، الآية/ ١٢ - ١٣ .
(٥) أصطلي : أتدفأ .

وقال له زياد العبدي : يا أمير المؤمنين لا تعمل نفسك في الوصف وإعملها في المخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرة فيك نطقت بحمد الله وشكره والثناء عليه ما بلغت كنه [1] ما أنت فيه ، ثم قال له زياد : يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد ما حاله ؟ قال : سيء الحال ، قال : فان كانا خصمين ألدين [2] ؟ قال : فهو أسوأ حالاً ، قال : فان كانوا ثلاثة ؟ قال : ذاك حيث لا يهنئه عيش . قال : فوالله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد ﷺ إلا وهو خصمك ، قال : فبكى عمر حتى تمنيت أني لم أكن حدثته ذلك . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن أرطاة وأهل البصرة : أما بعد فان من الناس من شاب في هذا الشراب ، ويغشون عنده أموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم ، وسفّه أحلامهم ، فسفكوا له الدم الحرام ، وارتكبوا فيه الفروج الحرام ، والمال الحرام ، وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من أشربة حلال ، فمن انتبذ فلا ينتبذ إلا من أسقية الأدم [3] ، واستغنوا بما أحلّ الله عما حرّم ، فانا من وجدناه شرب شيئاً مما حرم الله بعد ما تقدمنا إليه ، جعلنا له عقوبة شديدة ، ومن استخف بما حرّم الله عليه فالله أشد عقوبة له وأشد تنكيلاً .

خلافة يزيد بن عبد الملك

بويع له بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك أن يكون ولي الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز ، فلما توفي عمر في رجب من هذه السنة ـ أعني سنة إحدى ومائة ـ بايعه الناس البيعة العامة ، وعمره إذ ذاك تسع وعشرون سنة ، فعزل في رمضان منها عن إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وولّى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ، فجرت بينه وبين أبي بكر بن حزم منافسات وضغائن [4] ، حتى آل الأمر إلى أن استدرك عليه حكومة فحده حدين فيها .

وفيها كانت وقعة بين الخوارج ، وهم أصحاب بسطام الخارجي ، وبين جند الكوفة ، وكانت الخوارج جماعة قليلة ، وكان جيش الكوفة نحواً من عشرة آلاف فارس ، وكادت الخوارج أن تكسرهم ، فتذامروا بينهم فطحنوا الخوارج طحناً عظيماً ، وقتلوهم عن آخرهم ، فلم يبقوا منهم ثائرة . وفيها خرج يزيد بن المهلب فخلع يزيد بن عبد الملك واستحوذ على البصرة ، وذلك بعد محاصرة طويلة ، وقتال طويل ، فلما ظهر عليها بسط العدل في أهلها ، وبذل الأموال ، وحبس عاملها عدي بن أرطأة ، لأنه كان قد حبس آل المهلب الذين كانوا بالبصرة ، حين هرب يزيد بن المهلب من محبس عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا ، ولما ظهر على قصر الأمارة أتى بعدي بن أرطاة فدخل عليه وهو يضحك ، فقال يزيد بن المهلب : اني لأعجب من ضحكك ، لأنه هربت من

---

(١) كنه : جوهر . سِرّ .

(٢) ألدين : شديدين .

(٣) الأدم : الجلد .

(٤) ضغائن : مفردها ضغينة وهي الحقد .

القتال كما تهرب النساء ، وإنك جئتني وأنت تُتَلُّ[1] كما يُتَل العبد . فقال عدي : إني لأضحك لأن بقائي بقاء لك وأن من ورائي طالباً لا يتركني ، قال : ومن هو ؟ قال : جنود بني أمية بالشام ، ولا يتركونك ، فدارك نفسك قبل أن يرمي إليك البحر بأمواجه ، فتطلب الاقالة فلا تقال . فرد عليه يزيد جواب ما قال ، ثم سجنه كما سجن أهله ، واستقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة ، وبعث نوابه في النواحي والجهات ، واستناب في الأهواز ، وأرسل أخاه مدرك بن المهلب على نيابة خراسان ، ومعه جماعة من المقاتلة ، فلما بلغ خبره الخليفة يزيد بن عبد الملك جهز ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في أربعة آلاف ، مقدمة بين يدي عمه مسلمة بن عبد الملك ، وهو في جنود الشام ، قاصدين البصرة لقتاله ، ولما بلغ يزيد بن المهلب مخرج الجيوش إليه خرج من البصرة واستناب عليها أخاه مروان بن المهلب ، وجاء حتى نزل واسط ، واستشار من معه من الأمراء فيما ذا يعتمده ؟ فاختلفوا عليه في الرأي ، فأشار عليه بعضهم بأن يسير إلى الأهواز ليتحصن في رؤوس الجبال ، فقال : إنما تريدون أن تجعلوني طائراً في رأس جبل ؟ وأشار عليه رجال أهل العراق أن يسير إلى الجزيرة فينزلها بأحصن حصن فيها ، ويجتمع عليه أهل الجزيرة فيقاتل بهم أهل الشام ، وانسلخت هذه السنة وهو نازل بواسط وجيش الشام قاصده .

وحج بالناس في هذه السنة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس أمير المدينة ، وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعلى قضائها عامر الشعبي ، وعلى البصرة يزيد بن المهلب . قد استحوذ عليها وخلع أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك . وفيها توفي عمر بن عبد العزيز ، وربعي بن حراش ، وأبو صالح السمان وكان عابداً صادقاً ثبتاً ، وقد ترجمناه في كتابنا التكميل والله أعلم .

ثم دخلت سنة اثنتين ومائة

فيها كان اجتماع مسلمة بن عبد الملك مع يزيد بن المهلب ، وذلك أن يزيد بن المهلب ركب من واسط واستخلف عليها ابنه معاوية ، وسار هو في جيش ، وبين يديه أخوه عبد الملك بن المهلب ، حتى بلغ مكاناً يقال له العقر ، وانتهى إليه مسلمة بن عبد الملك في جنود لا قبل ليزيد بها ، وقد التقت المقدمتان أولاً فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزم أهل البصرة أهل الشام ، ثم تذامر أهل الشام فحملوا على أهل البصرة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة من الشجعان ، منهم المنتوف ، وكان شجاعاً مشهوراً ، وكان من موالي بكر بن وائل ، فقال في ذلك الفرزدق :

تبكي على المنتوف بكر بن وائل ... وتنهى عن ابني مسمع من بكاهما

فأجابه الجعد بن درهم مولى الثوريين من همدان ، وهذا الرجل هو أول الجهمية ، وهو الذي ذبحه خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى فقال الجعد :

---

(١) تُتَلّ : تُجَرّ .

نبكي على المنتوفِ في نصرِ قومهِ	وليتنا نبكي الشائدين أباهما
أرادا فناء الحي بكرُ بن وائلٍ	فعزَ تميمٌ لو أصيبَ فناهما
فلا لقيا روحاً من الله ساعةً	ولا رقأتْ عينا شجيٍ بكاهما
أفي الغش نبكي إن بكينا عليهما	وقد لقيا بالغشِ فينا رداهما

ولما اقترب مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد من جيش يزيد بن المهلب ، خطب يزيد بن المهلب الناس وحرضهم على القتال ـ يعني قتال أهل الشام ـ وكان مع يزيد نحو من مائة ألف ، وعشرين ألفاً ، وقد بايعوه على السمع والطاعة ، وعلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وعلى أن لا يطأ الجنود بلادهم ، وعلى أن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج ، ومن بايعنا على ذلك قبلنا منه ، ومن خالفنا قاتلناه .

وكان الحسن البصري في هذه الأيام يحرض الناس على الكف وترك الدخول في الفتنة ، وينهاهم أشد النهي ، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض في أيام ابن الأشعث ، وما قتل بسبب ذلك من النفوس العديدة ، وجعل الحسن يخطب الناس ويعظهم في ذلك ، ويأمرهم بالكف ، فبلغ ذلك نائب البصرة عبد الملك بن المهلب ، فقام في الناس خطيباً فأمرهم بالجد والجهاد ، والنفر إلى القتال ، ثم قال : ولقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي [1] ـ ولم يسمه ـ يثبط الناس ؛ أما والله ليكفن عن ذلك أو لأفعلن ولأفعلن ، وتوعد الحسن ، فلما بلغ الحسن قوله قال : أما والله ما أكره أن يكرمني الله بهوانه ، فسلَّمه الله منه حتى زالت دولتهم ، وذلك أن الجيوش لما تواجهت تبارز الناس قليلا ، ولم ينشب الحرب شديدا حتى فر أهل العراق سريعاً ، وبلغهم أن الجسر الذي جاؤ واعليه حرق فانهزموا ، فقال : يزيد بن المهلب : ما بال الناس ؟ ولم يكن من الأمر ما يفرّ من مثله ، فقيل له : إنه بلغهم أن الجسر الذي جاؤ ا عليه قد حرق . فقال : قبَّحهم الله ، ثم رام أن يرد المنهزمين فلم يمكنه ، فثبت في عصابة من أصحابه وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقي في شرذمة قليلة ، وهو مع ذلك يسير قدماً لا يمر بخيل إلا هزمهم ، وأهل الشام يتجاورون عنه يميناً وشمالاً ، وقد قتل أخوه حبيب بن المهلب ، فازداد حنقاً وغيظاً ، وهو على فرس له أشهب [2] ، ثم قصد نحو مسلمة بن عبد الملك لا يريد غيره ، فلما واجهه حملت عليه خيول الشام فقتلوه ، وقتلوا معه أخاه محمد بن المهلب ، وقتلوا السميذع ، وكان من الشجعان ، وكان الذي قتل يزيد بن المهلب رجل يقال له القحل بن عياش ، فقتل إلى جانب يزيد بن المهلب ، وجاؤ وا برأس يزيد إلى مسلمة بن عبد الملك ، فأرسله مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى أخيه أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ، واستحوذ مسلمة على ما في معسكر يزيد بن المهلب ، وأسر منهم نحواً من

---

(١) المرائي : المخادع ـ المحتال .
(٢) أشهب : قويٌ شديد .

ثلاثمائة ، فبعث بهم إلى الكوفة ، وبعث إلى أخيه فيهم ، فجاء كتابه بقتلهم ، فسار مسلمة فنزل الحيرة .

ولما انتهت هزيمة ابن المهلب إلى ابنه معاوية وهو بواسط ، عمد إلى نحو من ثلاثين أسيراً في يده فقتلهم ، منهم نائب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، عدي بن أرطأة رحمه الله وابنه ، ومالك وعبد الملك ابنا مسمع ، وجماعة من الأشراف ، ثم أقبل حتى أتى البصرة ومعه الخزائن من الأموال ، وجاء معه عمه المفضل بن المهلب إليه ، فاجتمع آل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا أتم الجهاز واستعدّوا للهرب ، فساروا بعيالهم وأثقالهم حتى أتوا جبال كرمان فنزلوها ، واجتمع عليهم جماعة ممن فل من الجيش الذي كان مع يزيد بن المهلب ، وقد أمروا عليهم المفضل بن المهلب ، فأرسل مسلمة جيشاً عليهم هلال بن ماجور المحاربي في طلب آل المهلب ، ويقال إنهم أمَّروا عليهم رجلاً يقال له مدرك بن ضب الكلبي ، فلحقهم بجبال كرمان فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً ، فقتل جماعة من أصحاب المفضل وأسر جماعة من أشرافهم وانهزم بقيتهم ، ثم لحقوا المفضل فقتلوه وحمل رأسه إلى مسلمة بن عبد الملك ، وأقبل جماعة من أصحاب يزيد بن المهلب فأخذوا لهم أماناً من أمير الشام منهم مالك بن ابراهيم بن الأشتر النخعي ، ثم أرسلوا بالأثقال والأموال والنساء والذرية فوردت على مسلمة بن عبد الملك ومعهم رأس المفضل ورأس عبد الملك بن المهلب ، فبعث مسلمة بالرؤوس وتسعة من الصبيان الحسان إلى أخيه يزيد ، فأمر بضرب أعناق أولئك ، ونصبت رؤوسهم بدمشق ثم أرسلها إلى حلب فنصبت بها ، وحلف مسلمة بن عبد الملك ليبيعن ذراري آل المهلب ، فاشتراهم بعض الأمراء إبراراً لقسمه بمائة ألف ، فأعتقهم وخلى سبيلهم ، ولم يأخذ مسلمة من ذلك الأمير شيئاً .

وقد رثا الشعراء يزيد بن المهلب بقصائد ذكرها ابن جرير .

ولاية مسلمة على بلاد العراق وخراسان

وذلك أنه لما فرغ من حرب آل المهلب كتب إليه أخوه يزيد بن عبد الملك بولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة ، فاستناب على الكوفة وعلى البصرة ، وبعث إلى خراسان ختنه - زوج ابنته - سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص ، الملقب بخُذَينة ، فسار إليها فحرض أهلها على الصبر والشجاعة ، وعاقب عمالاً ممن كان ينوب لآل المهلب ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة ، ومات بعضهم تحت العقوبة .

ذكر وقعة جرت بين الترك والمسلمين

وذلك أن خاقان الملك الأعظم ملك الترك ، بعث جيشاً إلى الصغد لقتال المسلمين ، عليهم رجل منهم يقال له كورصول ، فأقبل حتى نزل على قصر الباهلي ، فحصره وفيه خلق من

المسلمين ، فصالحهم نائب سمرقند ـ وهو عثمان بن عبد الله بن مطرف ـ على اربعين ألفاً ، ودفع إليهم سبعة عشر دهقاناً رهائن عندهم ، ثم ندب عثمان الناس فانتدب رجل يقال له المسيب بن بشر الرياحي في أربعة آلاف ، فساروا نحو الترك ، فلما كان في بعض الطريق [خطبهم] فحثهم على القتال وأخبرهم أنه ذاهب إلى الأعداء لطلب الشهادة ، فرجع عنه أكثر من ألف ، ثم لم يزل في كل منزل يخطبهم ويرجع عنه بعضهم ، حتى بقي في سبعمائة مقاتل ، فسار بهم حتى غـالق جيش الأتراك ، وهم محاصرون ذلك القصر ، وقد عزم المسلمون الذين هم فيه على قتل نسائهم وذبح أولادهم أمامهم ، ثم ينزلون فيقاتلون حتى يقتلوا عن آخرهم ، فبعث إليهم المسيب يثبتهم يومهم ذلك ، فثبتوا ومكث المسيب حتى إذا كان وقت السحر فكبر وكبر أصحابه ، وقد جعلوا شعارهم يا محمد ، ثم حملوا على الترك حملة صادقة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وعقروا دواب كثيرة ، ونهض إليهم الترك فقاتلوهم قتالاً شديداً ، حتى فر أكثر المسلمين ، وضربت دابة المسيب في عجزهـا فترجل وترجل معه الشجعان ، فقاتلوا وهم كذلك قتالاً عظيماً ، والتف الجماعة بالمسيب وصبروا حتى فتح الله عليهم ، وفر المشركون بين أيديهم هاربين لا يلوون على شيء، وقد كان الأتراك في غاية الكثرة ، فنادى منادي المسيب : أن لا تتبعوا أحـداً ، وعليكم بالقصـر وأهله ، فاحتملوهم وحازوا ما في معسكر أولئك الأتراك من الأموال والأشياء النفيسة وانصرفوا راجعين سالمين بمن معهم من المسلمين الذين كانوا محصورين ، وجاءت الترك من الغد فلم يجدوا به داعياً ولا مجيباً ، فقالوا في أنفسهم : هؤلاء الذين لقونا بالأمس لم يكونوا إنساً ، إنما كانوا جناً . وممن توفي فيهـا من الأعيان والسادة :

الضحاك بن مزاحم الهلالي

أبو القاسم ، ويقال أبو محمد ، الخراساني ، كان يكون ببلخ وسمرقند ونيسابور ، وهو تابعي جليل روى عن أنس وابن عمر وأبي هريرة ، وجماعة من التابعين ، وقيل إنه لم يصح له سماع من الصحابة حتى ولا من ابن عباس سماع ، وإن كان قد روى عنه أنه جاوره سبع سنين ، وكان الضحاك إماماً في التفسير ، قال الثـوري : خذوا التفسيـر عن أربعة ، مجـاهد وعكـرمة وسعيـد بن جبير والضحاك ، وقال الإمام أحمد : هو ثقة ، وأنكر شعبة سماعه من ابن عباس ، وقال : إنما أخذ عن سعيد عنه ، وقال ابن سعيد القطان : كان ضعيفاً . وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : لم يشافه أحداً من الصحابة ، ومن قال : إنه لقي ابن عباس فقد وهم ، وحملت به أمه سنتين ، ووضعته وله أسنان ، وكان يعلم الصبيان حسبة ، وقيل إنه مات سنة خمس وقيل سنة ست ومائة والله أعلم .

أبو المتوكل الناجي

اسمه علي بن البصري ، تابعي جليل ، ثقة ، رفيع القدر ، مات وقد بلغ الثمانين رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة

فيها عزل أمير العراق وهو عمر بن هبيرة سعيد ـ الملقب خذينة ـ عن نيابة خراسان ، وولي عليها سعيد بن عمرو الجريشي ، بإذن أمير المؤمنين ، وكان سعيد هذا من الأبطال المشهورين ، انزعج له الترك وخافوه خوفاً شديداً ، وتقهقروا من بلاد الصغد إلى ما وراء ذلك ، من بلاد الصين وغيرها ، وفيها جمع يزيد بن عبد الملك لعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس بين إمرة المدينة وإمرة مكة ، وولي عبد الرحمن الواحد بن عبد الله النضري نيابة الطائف . وحج بالناس فيها أمير الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس والله سبحانه وتعالى أعلم . وممن توفي فيها من الأعيان :

يزيد بن ابي مسلم

أبو العلاء المدني . عطاء بن يسار الهلالي ، أبو محمد القاص المدني ، مولى ميمونة ، وهو أخو سليمان ، وعبد الله ، وعبد الملك ، وكلهم تابعي . وروى هذا عن جماعة من الصحابة ، ووثقه غير واحد من الأئمة ، وقيل إنه توفي سنة ثلاث أو أربع ومائة ، وقيل توفي قبل المائة بالإسكندرية ، وقد جاوز الثمانين والله سبحانه أعلم .

مجاهد بن جبير المكي

أبو الحجاج القرشي المخزومي ، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ، أحد أئمة التابعين والمفسرين كان من أخصاء أصحاب ابن عباس ، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير ، حتى قيل إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وطاووس ، وقال مجاهد : أخذ ابن عمر بركابي وقال : وددت أن أبني سالماً وغلامي نافعاً يحفظان حفظك . وقيل إنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وقيل مرتين ، أقفه عند كل آية وأسأله عنها ، مات مجاهد وهو ساجد سنة مائة ، وقيل إحدى وقيل اثنتين وقيل ثلاث ومائة ، وقيل أربع ومائة ، وقد جاوز الثمانين والله أعلم .

فصـــل

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم ، عن ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وابن عمرو وأبي سعيد ورافع بن خديج . وعنه خلق من التابعين . قال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ثنا عبد الرزاق عن أبي بكر بن عياش قال : أخبرني أبو يحيى أنه سمع مجاهداً يقول : قال لي ابن عباس : لا تنامنَّ إلا على وضوء فإن الأرواح تُبْعَث على ما قبضت عليه .

وروى الطبراني عنه أنه قال في قوله تعالى : ﴿ إدْفَع بالتي هي أَحْسَنُ ﴾ [1] . قال : يسلم

(١) سورة المؤمنون الآية ٩٦ .

عليه إذا لقيه وقيل هي المصافحة .وروى عمرو بن مرة عنه أنه قال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : اتقِ لا يأخذك الله على ذنب لا ينظر فيه إليك فتلقاه حين تلقاه وليست لك حاجة . وروى ابن أبي شيبة عن أبي أمامة عن الأعمش عن مجاهد . قال : كان بالمدينة أهل بيت ذوي حاجة ، عندهم رأس شاة فأصابوا شيئاً ، فقالوا : لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا ، فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم أولاً . وروى ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص عن منصور عن مجاهد قال : ما من مؤمن يموت إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحاً . وقال : فلأنفسهم يمهدون . قال : في القبر . وروى الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبانة عن مجاهد قال : كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف ، فإذا بلغوا أرصاف الحرم خلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاة . وقال يحيى بن سعيد القطان قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ يا مريمُ اقْنُتِي لربِّكِ ﴾ (١) قال : اطلبي الركود . وفي قوله تعالى : ﴿ واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ منهمْ بِصوتِكَ ﴾ (٢) . قال المزامير . وقال في قوله تعالى : ﴿ أَنْكالاً وَجَحِيماً ﴾ (٣) . قال : قيود . وقال في قوله : ﴿ لَا حُجَّةَ بينَنَا وبينَكُمْ ﴾ (٤) . قال لا خصومة . وقال : ﴿ ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٥) . قال : عن كل لذة في الدنيا . وروى أبو الدبيع عن جرير بن عبد الحسيب عن منصور عن مجاهد . قال : رن إبليس أربع رنات ، حين لعن ، وحين أهبط ، وحين بعث النبي ﷺ وحين أنزلت ﴿ الحمدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٦) وأنزلت بالمدينة . وكان يقال : الرنة والنخرة من الشيطان ، فلعن من رن أو نخر . وروى ابن نجيح عنه في قوله تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تَعْبَثُون ﴾ (٧) قال : بروج الحمام . وقال في قوله تعالى : ﴿ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ (٨) . قال : التجارة . وروى ليث عن مجاهد قال : ﴿ إنَّ الذينَ قالوا ربُّنا الله ثم استَقَاموا ﴾ (٩) . قال : استقاموا فلم يشركوا حتى ماتوا . وروى يحيى بن سعيد عن سفيان عن ابن أبجر عن طلحة بن مصرف عن مجاهد ﴿ وَلَمْ يكن لهُ كفواً أحدٌ ﴾(١٠). قال : صاحبة . وقال ليث عن مجاهد قال : النملة التي كلمت سليمان كانت مثل الذئب العظيم .

وروى الطبراني عن أبي نجيح عن مجاهد . قال : كان الغلام من قوم عاد لا يحتلم حتى يبلغ مائتي سنة . وقال :﴿ سَأَلَ سَائلٌ ﴾(١١) دعا داع . وفي قوله : ﴿ مَاءً غَدَقاً لنفتِنَهُمْ فيه ﴾(١٢). حتى يرجعوا إلى علمي فيه ﴿ لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً ﴾(١٣). قال لا يحبون غيري . ﴿ والذينَ يمكرونَ

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٣ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٦٤ .
(٣) سورة المزمل الآية ١٢ .
(٤) سورة الشورى الآية ١٥ .
(٥) سورة التكاثر الآية ٨ .
(٦) سورة الفاتحة الآية / ٢ .
(٧) سورة الشعراء الآية / ١٢٨ .
(٨) سورة البقرة الآية / ٢٦٧ .
(٩) سورة فُصِّلت الآية / ٣٠ .
(١٠) سورة الإخلاص ، الآية / ٤
(١١) سورة المعارج الآية / ١ .
(١٢) سورة الجن الآيتان / ١٦ ـ ١٧ .
(١٣) سورة النور الآية / ٥٥ .

السَّيِّئَاتِ ﴾ (١) ـ قال هم المراؤ ون. وفي قوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ (٢) . قال هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم . ثم قرأ : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بأيامِ الله ﴾ (٣) قال : أيامه نعمه ونقمه . ﴿ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ ﴾ (٤) فردوه إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حياً ، فإذا مات فإلى سنته . ﴿ وَأَسْبَغَ عليكم نعمَهُ ظاهرةً وباطنة ﴾ (٥) قال : أما الظاهرة فالاسلام والقرآن والرسول والرزق ، وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب . وروى الحكم عن مجاهد قال : لما قدمت مكة نساء على سليمان عليه السلام رأت حطبا جزلا فقالت لغلام سليمان : هل يعرف مولاك كم وزن دخان هذا الحطب ؟ فقال الغلام : دعي مولاي أنا أعرف كم وزن دخانه ، فكيف مولاي ؟ قالت : فكم وزنه ؟ فقال الغلام : يوزن الحطب ثم يحرق الحطب ويوزن رماده فما نقص فهو دخانه . وقال في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لم يَتُبْ فأولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٦) قال : من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين . وقال ما من يوم ينقضي من الدنيا إلا قال ذلك اليوم : الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها ، ثم يطوى عليه فيختم إلى يوم القيامة ، حتى يكون الله عز وجل هو الذي يفض خاتمه . وقال في قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٧) . قال : العلم والفقه ، وقال إذا ولي الأمر منكم الفقهاء . وفي قوله تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرَّق بكمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٨) قال : البدع والشبهات . وقال : أفضل العبادة الرأي الحسن ـ يعني اتباع السنة ـ وقال : ما أدري أي النعمتين أفضل ، أن هداني للإسلام ، أو عافاني من الأهواء ؟ . وقال في رواية : أولو الأمر منكم ، أصحاب محمد ، وربما قال : أولو العقل والفضل في دين الله عز وجل ﴿ بما صنعوا قارعة ﴾ (٩) قال السرية . ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ (١٠) . قال : السوس في الثياب . ﴿ وهن العظم مني ﴾ (١١) . قال : الأضراس . [حفيا] قال رحيما . وروى عبد الله بن حنبل قال : وجدت في كتاب محمد بن أبي حاتم بخط يده : حدّثنا بشر بن الحارث حدثنا يحيى بن يمان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد . قال : لو أن رجلًا أنفق مثل أحد في طاعة الله عز وجل لم يكن من المسرفين . وفي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ ﴾ (١٢) . قال : العداوة ﴿ بينهما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَان ﴾ (١٣) قال : بينهما حاجز من الله فلا يبغي الحلو على المالح ولا المالح على الحلو .

وقال ابن منده : ذكر محمد بن حميد : حدّثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش قال :

---

(١) سورة فاطر الآية / ١٠ .
(٢) سورة الجاثية الآية / ١٣ .
(٣) سورة ابراهيم الآية / ٥ .
(٤) سورة النساء الآية / ٥٨ .
(٥) سورة لقمان الآية/ ٢٠ .
(٦) سورة الحجرات الآية / ١١ .
(٧) سورة البقرة الآية/ ٢٦٩ .
(٨) سورة الأنعام الآية/ ١٥٣ .
(٩) سورة الرعد الآية / ٣١ .
(١٠) سورة النحل الآية / ٨ .
(١١) سورة مريم الآية/ ٣ .
(١٢) سورة الرعد ، الآية/ ١٤ .
(١٣) سورة الرحمن ، الآية/ ٢٠ .

كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها ، قال : وذهب إلى حضرموت إلى بئر برهوت قال : وذهب إلى بابل ، قال : وعليها وال صديق لمجاهد : فقال مجاهد : تعرض على هاروت وماروت ، قال : فدعا رجلاً من السحرة فقال : اذهب بهذا فاعرض عليه هاروت وماروت . فقال اليهودي : بشرط أن لا تدعو الله عندهما ، قال مجاهد : فذهب بي إلى قلعة فقطع منها حجراً ثم قال : خذ برجلي ، فهوى بي حتى انتهى إلى حوبة [1] ، فإذا هما معلّقين منكسين كالجبلين العظيمين ، فلما رأيتهما قلت : سبحان الله خالقكما ، قال : فاضطربا فكأن جبال الدنيا قد تدكدت ، قال : فغشي عليَّ وعلى اليهودي ، ثم أفاق اليهودي قبلي ، فقال : قم ! كدت أن تهلك نفسك وتهلكني .

وروى ابن فضيل عن ليث عن مجاهد قال : يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر ، بالغني ، والمريض ، والعبد المملوك . قال : فيقول الله عز وجل للغني : ما شغلك عن عبادتي التي إنما خلقتك لها ؟ فيقول يا رب أكثرت لي من المال فطغيت . فيؤتى بسليمان عليه السلام في ملكه فيقول لذا : أنت كنت أكثر مالاً وأشد شغلاً أم هذا ؟ قال : فيقول : بل هذا يا رب ، فيقول الله له : فإن هذا لم يمنعه ما أُوتيَ من الملك والمال والشغل عن عبادتي . قال : ويؤتى بالمريض فيقول : ما منعك عن عبادتي التي خلقتك لها ؟ فيقول : يا رب شغلني عن هذا مرض جسدي ، فيؤتى بأيوب عليه السلام في ضره وبلائه ، فيقول له : أأنت كنت أشد ضراً ومرضاً أم هذا ؟ فيقول : بل هذا ، فيقول : إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتي . ثم يؤتى بالمملوك فيقول الله له : ما منعك عن عبادتي التي خلقتك لها ؟ فيقول رب فضلت عليَّ أرباباً فملكوني وشغلوني عن عبادتك . فيؤتى بيوسف عليه السلام في رقه وعبوديته فيقول الله له : أأنت كنت أشد في رقك وعبوديتك أم هذا ؟ فيقول : بل هذا يا رب ، فيقول الله : فإن هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتي . وروى حميد عن الأعرج عن مجاهد . قال : كنت أصحب ابن عمر في السفر فإذا أردت أن أركب مسك ركابي ، فإذا ركبت سوّى عليَّ ثيابي فرآني مرة كأني كرهت ذلك فيَّ ، فقال : يا مجاهد إنك لضيق الخلق ، وفي رواية : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا الثوري عن رجل عن مجاهد . قال : جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث شاء ، وجعل له أعواناً يتوفون الأنفس ثم يقبضها منهم . وقال : لما هبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولِّد للفناء . وروى قتيبة عن جرير عن منصور عن مجاهد . ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [2] قال : تلعن عصاة بني آدم دواب الأرض وما شاء الله حتى الحيات والعقارب ، : يقولون : منعنا القطر بذنوب بني آدم . وقال غيره : تسلط الحشرات

(١) حوبة : الاثم ، الحاجة والحالة .

(٢) سورة البقرة الآية/ ١٥٩ .

عليّ العصاة في قبورهم ، لما كان ينالهم منَ الشدة بسبب ذنوبهم ، فتلك الحشرات من العقارب والحيات هي السيئات التي كانوا يعملونها في الدنيا ويستلذونها ، صارت عذاباً عليهم . نسأل الله العافية . وقال : ﴿ إنَّ الإنسان لربِّهِ لكنودٌ ﴾ (١) لكفور . وقال الإمام أحمد : حدّثنا عمر بن سليمان حدثني مسلم أبو عبد الله عن ليث عن مجاهد قال : من لم يستحي من الحلال خفت مؤ ونته وأراح نفسه . وقال عمرو بن زروق حدثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد . قال : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (٢) أن لن نعاقبه بذنبه . وبهذا الاسناد قال : لم أكن أحسن ما الزخرف حتى سمعتها في قراءة عبد الله بيتا من ذهب . وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا خلف بن خليفة عن ليث عن مجاهد : إن الله عز وجل ليصلح بصلاح العبد ولده . قال : وبلغني أن عيسى عليه السلام كان يقول : طوبى للمؤمن كيف يخلفه الله فيمن ترك بخير . وقال الفضيل بن عياض عن عبيد المكتب عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وتقطَّعت بِهِمْ الأَسْبَابُ ﴾ (٣) الأوصال التي كانت بينهم في الدنيا . وروى سفيان بن عيينة عن سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ لا يرقبونَ في مُؤْمِنٍ إلاًّ ولا ذِمَّة ﴾ (٤) . قال : الألُّ الله عز وجل . وقال في قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّةُ الله خيرٌ لكمْ ﴾ (٥) طاعة الله عز وجل . وفي قوله تعالى : ﴿ ولمنْ خافَ مقامَ ربِّهِ جنَّتَانِ ﴾ (٦) . قال : هو الذي يذكر الله عند الهمّ بالمعاصي . وقال الفضيل بن عياض عن منصور عن مجاهد : ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ (٧) الخشوع . وفي قوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لله قانتينَ ﴾ (٨) . قال : القنوت الركود والخشوع وغض البصر ، وخفض الجناح من رهبة الله . وكان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره أو يلتفت أو يقلب الحصا ، أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا . إلا خاشعاً ما دام في صلاته .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عمرو حدثنا ابن إدريس حدثني عقبة بن إسحاق ـ وأثنى عليه خيراً ـ حدثنا ليث عن مجاهد . قال : كنت إذا رأيت العرب استخفيتها وجدتها من رواء دينها ، فإذا دخلوا في الصلاة فكأنما أجساد ليست فيها أرواح . وروى الأعمش عنه قال : إنما القلب منزلة الكف ، فإذا أذنب الرجل ذنباً قبض هكذا ـ وضم الخنصر حتى ضم أصابعه كلها اصبعاً اصبعاً ـ قال : ثم يطبع ، فكانوا يرون ذلك الران : قال الله تعالى : ﴿ كلاَّ بلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٩) . وروى قبيصة عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد : ﴿ بَلَى مَنْ كَسب سيئةَ وأحاطتْ بِهِ خطيئتُهُ ﴾ (١٠) . قال : الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبني على الشيء

---

(١) سورة العاديات الآية / ٦ .
(٢) سورة الأنبياء الآية/ ٨٧.
(٣) سورة البقرة الآية / ١٦٦ .
(٤) سورة التوبة الآية/ ١١.
(٥) سورة هود الآية / ٨٥ .
(٦) سورة الرحمن الآية / ٤٦ .
(٧) سورة الفتح الآية / ٢٩ .
(٨) سورة البقرة الآية/ ٢٣٨.
(٩) سورة المطففين الآية / ١٤ .
(١٠) سورة البقرةالآية / ٨١ .

المحيط ، كلما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغشي القلب حتى تكون هكذا ـ ثم قبض يده ـ ثم قال : هو الران . وفي قوله : ﴿ بما قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ (١) . قال : أول عمل العبد وآخره ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ (٢) قال : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فاجعل رغبتك إليه ، ونيتك له .

وعن منصور عن مجاهد ﴿ النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ﴾ (٣) قال : هي النفس التي قد أيقنت أن الله ربها وضربت حاشاً لأمره وطاعته . وروى عبد الله بن المبارك عن ليث عن مجاهد : قال : ما من ميت يموت إلا عرض عليه أهل مجلسه ، إن كان من أهل الذكر فمن أهل الذكر ، وإن كان من أهل اللهو فمن أهل اللهو . وقال أحمد : حدّثنا هاشم بن القاسم حدّثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن مجاهد . قال : قال إبليس : إن يعجزني ابن آدم فلن يعجزني من ثلاث خصال : أخذ مال بغير حق ، وإنفاقه في غير حقه (٤) .

وقال أحمد : حدثنا ابن نمير قال : قال الأعمش : كنت إذا رأيت مجاهداً ظننت أنه حر مندح قد ضل حماره فهو مهتم . وعن ليث عن مجاهد قال : من أكرم نفسه وأعزها أذل دينه ، ومن أذل نفسه أعز دينه . وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد قال : قال لي : يا أبا الغازي كم لبث نوح في الأرض ؟ قال : قلت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قال : فإن الناس لم يزدادوا في أعمارهم وأجسادهم وأخلاقهم إلا نقصاً . وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي علية عن ليث عن مجاهد قال : ذهبت العلماء فما بقي إلا المتعلمون ، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم . وروى ابن أبي شيبة ايضاً عن ابن إدريس عن ليث عن مجاهد قال : لو لم يصب المسلم من أخيه إلا أن حياء منه يمنعه من المعاصي لكان في ذلك خير . وقال : الفقيه من يخاف الله وإن قل علمه ، والجاهل من عصى الله وإن كثر علمه . وقال : إن العبد إذا أقبل على الله بقلبه أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه . وقال في قوله تعالى : ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾(٥) . قال : عملك فأصلح . ﴿ واسْأَلُوا الله مِنْ فضْلِهِ ﴾ (٦) . قال : ليس من عرض الدنيا ﴿ والذي جاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ (٧) قال : هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه وعملوا بما فيه . وقال : يقول القرآن للعبد إني معك ما اتبعتني ، فإذا لم تعمل بي اتبعتك . ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا ﴾ (٨) قال : خذ من دنياك لآخرتك ، وذلك أن تعمل فيها بطاعة الله عز وجل . وقال داود بن المحبر عن عباد بن كثير عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه مجاهد بن جبير قال : قلت لابن عمر : أي حجاج بيت الله أفضل وأعظم أجراً ؟ قال : من جمع ثلاث خصال ، نية صادقة ، وعقلاً وافراً ، ونفقة من حلال ، فذكرت ذلك لابن عباس فقال :

---

(١) سورة القيامة ، الآية ١٣/.
(٢) سورة الانشراح ، الآية/ ٨ .
(٣) سورة الفجر ، الآية/ ٢٧ .
(٤) كذا بالأصل .
(٥) سورة المدثر ، الآية/ ٤ .
(٦) سورة النساء ، الآية/ ٣١ .
(٧) سورة الزمر ، الآية/ ٣٣ .
(٨) سورة القصص ، الآية / ٧٧ .

صدق . فقلت : إذا صدقت نيته وكانت نفقته من حلال فماذا يضره قلة عقله ؟ فقال : يا أبا حجاج ، سألتني عما سألت عنه رسول الله ﷺ فقال : « والذي نفسي بيده ما أطاع العبد الله بشيء أفضل من حسن العقل ، ولا يقبل الله صوم عبد ولا صلاته ، ولا شيئاً مما يكون من عمله من أنواع الخير إن لم يعمل بعقل . ولو أن جاهلاً فاق المجتهدين في العبادة ، كان ما يفسد أكثر مما يصلح » . قلت : ذكر العقل في هذا الحديث ورفعه إلى النبي ﷺ من المنكرات والموضوعات ، والثلاث الخصال موقوفة على ابن عمر ، من قوله من جمع ثلاث خصال ، إلى قوله : قال ابن عباس صدق ، والباقي لا يصح رفعه ولا وقفه ، وداود بن المحبر كنيته أبو سليمان ، قال الحاكم : حدث ببغداد عن جماعة من الثقات بأحاديث موضوعة ، حدث بها عنه الحارث بن أبي أسامة ، وله كتاب العقل ، وأكثر ما أودع ذلك الكتاب موضوع على رسول الله ، وذكر العقل مرفوعاً في هذه الرواية لعله من جملتها ، والله أعلم . وقد كذبه أحمد بن حنبل] [1] .

مصعب بن سعد بن أبي وقاص

تابعي جليل القدر . موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمي ، كان يلقب بالمهدي لصلاحه ، كان تابعياً جليل القدر من سادات المسلمين رحمه الله .

ثم دخلت سنة أربع ومائة

فيها قاتل سعيد بن عمرو الحرشي نائب خراسان أهل الصغد وحاصر أهل خجندة وقتل خلقاً كثيراً ، وأخذ أموالاً جزيلة ، وأسر رقيقاً كثيراً جداً ، وكتب بذلك إلى يزيد بن عبد الملك ، لأنه هو الذي ولّاه . وفي ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك ، فألح عليها وتوعّدها ، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه ، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضري نائب الطائف فولّاه المدينة ، وأن يضرب عبد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكىء على فراشه بدمشق ، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار ، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب الى دمشق واستجار بمسلمة بن عبد الملك ، فدخل على أخيه فقال : إن لي إليك حاجة ، فقال : كل حاجة تقولها فهي لك إلا أن تكون ابن الضحاك ، فقال : هو والله حاجتي ، فقال : والله لا أقبلها ولا أعفو عنه ، فرده إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضرب به وأخذ ماله حتى تركه في جبة صوف ، فسأله الناس بالمدينة ، وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهراً ، وكان الزهري قد أشار عليه برأي سديد ، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ، ولم يفعل . فأبغضه الناس وذمّه الشعراء ثم كان هذا آخر أمره .

---

(١) من أول الفصل إلى هنا زيادة من المصرية .

وفيها عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشي ، وذلك أنه كان يستخف بأمر ابن هبيرة ، فلما عزله أحضره بين يديه وعاقبه وأخذ منه أموالاً كثيرة ، وأمر بقتله ثم عفا عنه ، وولى على خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي ، فسار إليها فاستخلص أموالاً كانت منكسرة في أيام سعيد بن عمرو الحرشي . وفيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمي نائب أرمينية وأذربيجان ، أرض الترك ، ففتح بلنجر وهزم الترك وغرقهم وذراريهم في الماء ، وسبى منهم خلقاً كثيراً ، وافتتح عامة الحصون التي تلي بلنجر ، وأجلى عامة أهلها ، والتقى هو الخاقان الملك فجرت بينهم وقعة هائلة آل الأمر فيها إلى أن انهزم خاقان ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير لا يحصون . وحج بالناس في هذه السنة عبد الواحد بن عبد الله النضري أمير الحرمين والطائف ، وعلى نيابة العراق وخراسان وعمر ، ونائبه على خراسان مسلم بن سعيد يومئذ . وفي هذه السنة ولد السَّفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسَّفاح، أول خلفاء بني العباس وقد بايع أباه في الباطن جماعة من أهل العراق . وفيها توفي من الأعيان :

خالد بن سعدان الكلاعي

[له روايات عن جماعة من الصحابة ، وكان تابعياً جليلاً ، وكان من العلماء وأئمة الدين المعدودين المشهورين ، وكان يسبِّح كل يوم أربعين ألف تسبيحة وهو صائم ، وكان إمام أهل حمص ، وكان يصلِّي التراويح في شهر رمضان ، فكان يقرأ فيها في كل ليلة ثلث القرآن ، وروى الجوزجاني عنه أنه قال : من اجترأ على الملاوم في مَراد الحق ، قلب الله تلك المحامد عليه ذما . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : ما من عبد إلا وله أربع أعين . عينان في وجهه يبصر بهما أمر دنياه ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر آخرته ، فإذا أراد الله بالعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما أمر آخرته وهما غيب ، فأمن الغيب بالغيب ، وإذا أراد الله بالعبد خلاف ذلك ترك العبد القلب على ما هو عليه ، فتراه ينظر فلا ينتفع ، فإذا نظر بقلبه نفع ، وقال : بصر القلب من الآخرة ، وبصر العينين من الدنيا وله فضائل كثيرة رحمه الله تعالى] (١) .

عامر بن سعد بن أبي وقاص الليثي

له روايات كثيرة عن أبيه وغيره ، وهو تابعي جليل ، ثقة مشهور .

عامر بن شراحيل الشعبي

توفي فيها في قول [كان الشعبي من شعب همدان ، كنيته أبو عمرو ، وكان علامة أهل

---

(١) زيادة من المصرية .

الكوفة ، كان إماماً حافظاً ، ذا فنون ، وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة من التابعين ، وعنه أيضاً روى جماعة من التابعين ، قال أبو مجلز : ما رأيت أفقه من الشعبي . وقال مكحول : ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية منه . وقال داود الأودي : قال لي الشعبي : قم معي ها هنا حتى أفيدك علماً ، بل هو رأس العلم . قلت : أي شيء تفيدني ؟ قال : إذا سُئِلْتَ عما لا تعلم فقل : الله أعلم ، فإنه علم حسن . وقال : لو أن رجلًا سافر من أقصى اليمين لحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره ما رأيت سفره ضائعاً ، ولو سافر في طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد ، لرأيت سفره عقوبة وضياعاً وقال : العلم أكثر من عدد الشعر ، فخذ من كل شيء أحسنه] [1] .

أبو بردة بن أبو موسى الأشعري

تولَّى قضاء الكوفة قبل الشعبي ، فان الشعبي تولَّى في خلافة عمر بن عبد العزيز ، واستمر إلى أن مات ، وأما أبو بردة فانه كان قاضياً في زمن الحجاج ، ثم عزله الحجاج وولَّى أخاه أبا بكر ، وكان أبو بردة فقيهاً حافظاً عالماً ، له روايات كثيرة .

ابو قلابة الجرمي

[عبد الله بن يزيد البصري ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان من كبار الأئمة والفقهاء ، وطلب للقضاء فهرب منه وتغرب ، قدم الشام فنزل داريَّا وبها مات رحمه الله . قال أبو قلابة : إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة ، ولم يكن همك ما تحدث به الناس ، فلعل غيرك ينتفع ويستغني وأنت في الظلمة تتعثر ، وإني لأرى هذه المجالس إنما هي مناخ البطالين . وقال : إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذراً جهدك ، فان لم تجد له عذراً فقل : لعل لأخي عذراً لا أعلمه] [2] .

ثم دخلت سنة خمس ومائة

فيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمي بلاد اللان ، وفتح حصوناً كثيرة ، وبلاداً متسعة الأكناف من وراء بلنجر ، وأصاب غنائم جمة ، وسبى خلقاً من أولاد الاتراك . وفيها غزا مسلم بن سعيد بلاد الترك وحاصر مدينة عظيمة من بلاد الصغد ، فصالحه ملكها على مال كثير يحمله إليه . وفيها غزا سعيد بن عبد الملك بن مروان بلاد الروم ، فبعث بين يديه سرية ألف فارس ، فأصيبوا جميعاً .

وفيها لخمس بقين من شعبان منها توفي أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بن مروان بإربد

---

(١) و (٢) زيادة من المصرية .

من أرض البلقاء ، يوم الجمعة ، وعمره ما بين الثلاثين والأربعين ، وهذه ترجمته :

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو خالد القرشي الأموي ، أمير المؤمنين ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، قيل إنها دفنت بقبر عاتكة فنسبت المحلة إليها والله أعلم . بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز في رجب من سنة إحدى ومائة بعهد من أخيه سليمان ، أن يكون الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز ، لخمس بقين من رجب ، قال محمد بن يحيى الذهلي : حدّثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان حدّثني الزهري قال : كان لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، فلما ولّي الخلافة معاوية ورّث المسلم من الكافر . ولم يورث الكافر من المسلم ، وأخذ بذلك الخلفاء من بعده ، فلما قام عمر بن عبد العزيز راجع السنة الأولى ، وتبعه في ذلك يزيد بن عبد الملك، فلما قام هشام أخذ بسنّة الخلفاء ـ يعني أنه ورّث المسلم من الكافر ـ وقال الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال : بينما نحن عند مكحول إذ أقبل يزيد بن عبد الملك فهممنا أن نوسّع له ، فقال مكحول : دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ، يتعلم التواضع .

وقد كان يزيد هذا يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلي الخلافة ، فلما ولي عزم على أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز ، فما تركه قرناء[1] السوء ، وحسنوا له الظلم ، قال حرملة عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما ولي يزيد بن عبد الملك قال سيروا بسيرة عمر ، فمكث كذلك أربعين ليلة ، فأتي بأربعين شيخاً فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب ، وقد اتهمه بعضهم في الدين ، وليس بصحيح ، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد كما سيأتي ، أما هذا فما كان به بأس ، وقد كتب إليه عمر بن عبد العزيز : أما بعد فاني لا أراني إلا ملمّا بي ، وما أرى الأمر الا سيفضي إليك ، فالله الله في أمة محمد ، فانك عما قليل ميت فتدع الدنيا إلى من لا يعذرك ، والسلام . وكتب يزيد بن عبد الملك الى أخيه هشام : أما بعد فان أمير المؤمنين قد بلغه ، أنك استبطأت حياته وتمنيت وفاته ورمت الخلافة ، وكتب في آخره :

تمنى رجالٌ أن أموتَ وإن أمتْ	فتلكَ سبيلٌ لستَ فيها بأوحدِ
وقد علموا لو ينفعُ العلمُ عندهمْ	متى متُ ما الباغي عليَّ بمخلدِ
منيتهُ تجري لوقتٍ وحتفهُ	يصادفهُ يوماً على غيرِ موعدِ
فقلْ للذي يبقى خلافَ الذي مضى	تهيأ لأخرى مثلها وكأنْ قدِ

فكتب إليه هشام : جعل الله يومي قبل يومك ، وولدي قبل ولدك ، فلا خير في العيش بعدك .

---

(١) قرناء : مفردها القَرين : المصاحب والعشير.

وقد كان يزيد هذا يحب حظية من حظاياه يقال لها حبَّابة ـ بتشديد الباء الأولى ـ والصحيح تخفيفها ـ واسمها العالية ، وكانت جميلة جدا ، وكـان قد اشتراها في زمن أخيـه بأربعـة آلاف دينار ، من عثمان بن سهل بن حنيف ، فقال له أخوه سليمان : لقد هممت أحجر على يديـك ، فباعها ، فلما أفضت إليه الخلافة قالت له امرأته سعـدة يومـاً : يا أميـر المؤمنين ، هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء ؟ قال : نعم ، حبابة ، فبعثت امرأتـه فاشتـرتها لـه ولبستها وصنعتهـا وأجلستها من وراء الستارة ، وقالت له أيضاً : يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من أمر الدنيا شيء ؟ قال : أو ما أخبرتك ؟ فقالت : هذه حبابة ـ وأبرزتها له وأخلته بها وتركته وإياها ـ فحظيت الجارية عنده ، وكذلك زوجته أيضاً ، فقال يوماً أشتهي أن أخلو بحبابة في قصر مدة من الدهر ، لا يكون عندنا أحد ، ففعل ذلك ، وجمع إليه في قصره ذلك حبابة ، وليس عنده فيه أحد ، وقد فرش له بأنواع الفرش والبسط الهائلة ، والنعمة الكثيرة السابغة ، فبينما هو معها في ذلك القصر على أسرِّ حال وأنعم بال ، وبين يديهما عنب يأكلان منه ، إذ رمـاها بحبـة عنب وهـي تضحك فشرقت بها فماتت ، فمكث أياماً يقبِّلها ويرشفها وهي ميتة حتى أنتنت وجيفت فأمر بدفنها ، فلما دفنها أقام أياماً عندها على قبرها هائماً ، ثم رجع الى المنزل ثم عاد الى قبرها فوقف عليـه وهو يقول :

فـإن تسـلُ عنـكَ النفسُ أو تـدعُ الصبـا	فبـاليـأسِ تسلو[1] عنـكَ لا بـالتـجلدِ
وكـلُ خـليـلٍ زارنـي فـهـوَ قـائـلٌ	من أجلكَ هـذا هـامـةَ اليـومِ أو غـدِ

ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج بنعشه وكان مرضه بـالسُّلِّ . وذلـك بالسـواد سواد الاردن يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من هذه السنة ـ أعني سنة خمس ومائة ـ.

وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور ، وقيل أقل من ذلك ، وكان عمـره ثلاثـاً وثلاثين سنة ، وقيل خمساً وقيل ستاً وقيل ثمانياً وقيل تسعاً وثلاثين ، وقيل إنه بلغ الأربعين فالله أعلم .

وكان طويلا جسيماً أبيض مدور الوجه أفقم الفم لم يشب ، وقيل إنه مات بالجولان ، وقيل بحوران وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد ، وعمره خمس عشرة سنة ، وقيـل بل صلَّى عليـه أخوه هشام بن عبد الملك ، وهو الخليفة بعده ، وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق ، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشـام ، ومن بعده لـولده الـوليد بن يزيد ، فبايع الناس من بعده هشاماً .

---

(١) تسلو : تنسى .

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة يوم الجمعة بعد موت أخيه لخمس بقين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة خمس ومائة - وله من العمر أربع وثلاثون سنة وأشهر ، لأنه ولد لما قتل أبوه عبد الملك مصعب بن الزبير في سنة اثنتين وسبعين، فسمّاه منصوراً تفاؤلاً ، ثم قدم فوجد أمه قد أسمته باسم أبيها هشام ، فأقره . قال الواقدي : أتته الخلافة وهو بالديثونة في منزل له ، فجاءه البريد بالعصا والخاتم ، فسلَّم عليه بالخلافة فركب من الرصافة حتى أتى دمشق ، فقام بأمر الخلافة أتم القيام ، فعزل في شوَّال منها عن إمرة العراق وخراسان عمر بن هبيرة ، وولى عليها خالد بن عبد الله القسري ، وقيل إنه إستعمله على العراق في سنة ست ومائة ، والمشهور الأول . وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال أمير المؤمنين ، أخو أمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل ، ولم تلد من عبد الملك سواه حتى طلقها ، لأنها كانت حمقاء . وفيها قوي أمر دعوة بني العباس في السر بأرض العراق ، وحصّل لدعاتهم أموالاً جزيلة يستعينون بها على أمرهم ، وما هم بصدده . وفيها توفي من الأعيان :

أبان بن عثمان بن عفان

تقدم ذكر وفاته سنة خمس وثمانين ، كان من فقهاء التابعين وعلمائهم ، قال عمرو بن شعيب ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقه ، وقال يحيى بن سعيد القطان : فقهاء المدينة عشرة ، فذكر أبان بن عثمان أحدهم ، وخارجة بن زيد ، وسالم بن عبد الله ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعروة ، والقاسم ، وقبيصة بن ذؤيب ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن . قال محمد بن سعد : كان به صمم ووضح ، وأصابه الفالج قبل أن يموت بسنة ، وتوفي سنة خمس ومائة . أبو رجاء العطاردي . عامر الشعبي . في قول وقد تقدم ، وكثيِّر عزّة في قول . وقيل في التي بعدها كما سيأتي :

ثم دخلت سنة ست ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك عن إمرة المدينة ومكة والطائف ، عبدَ الواحد بن عبد الله النضري ، وولّى على ذلك كله ابن خاله إبراهيم بن هشام بن إسْماعيل المخزومي ، وفيها غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة ، وفيها غزا مسلم بن سعيد مدينة فرغانة ومعاملتها ، فلقيه عندها الترك ، وكانت بينهم وقعة هائلة ، قتل فيها الخاقان وطائفة كبيرة من الترك ، وفيها أوغل الجراح الحكمي في أرض الخزر ، فصالحوه وأعطوه الجزية والخراج . وفيها غزا الحجاج بن عبد الملك اللان ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم وسلم . وفيها عزل خالد بن عبد الله القسري عن إمرة خراسان مسلم بن سعيد ، وولّى عليها أخاه أسد بن عبد الله القسري . وحج بالناس في هذه السنة أمير

المؤمنين هشام بن عبد الملك،وكتب الى أبي الزناد قبل دخوله المدينة ليتلقاه ويكتب له مناسك الحج ، ففعل فتلقاه الناس من المدينة إلى آثناء الطريق ، وفيهم أبو الزناد قد امتثل ما أمر به ، وتلقاه فيمن تلقاه سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن أهل بيتك في مثل هذه المواطن الصالحة لم يزالوا يلعنون أبا تراب ، فالعنه أنت أيضاً ، قال أبو الزناد : فشق ذلك على هشام واستثقله ، وقال : ما قدمت لشتم أحد ، ولا لعنة أحد ، إنما قدمنا حجاجاً . ثم أعرض عنه وقطع كلامه وأقبل على أبي الزناد يحادثه ولما انتهى الى مكة عرض له إبراهيم بن طلحة فتظلم إليه في أرض ، فقال له : أين كنت عن عبد الملك ؟ قال : ظلمني ، قال : فالوليد ؟ قال : ظلمني ، قال : فسليمان ؟ قال ظلمني ، قال فعمر بن عبد العزيز ؟ قال ردها عليَّ ، قال : فيزيد ؟ قال : انتزعها من يدي ، وهي الآن في يدك ، فقال له هشام : أما لو كان فيك مضرب لضربتك ، فقال : بلى فيَّ مضرب بالسوط والسيف ، فانصرف عنه هشام وهو يقول لمن معه : ما رأيت أفصح من هذا . وفيها كان العامل على مكة والمدينة والطائف ، إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وعلى العراق وخراسان خالد القسري والله سبحانه أعلم . وممن توفي فيها ، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عمرو الفقيه ، أحد الفقهاء وأحد العلماء وله روايات عن أبيه وغيره ، وكان من العباد الزهاد ، ولما حج هشام بن عبد الملك دخل الكعبة فاذا هو بسالم بن عبد الله ، فقال له : سالم [1] ؟ سلني حاجة ، فقال : إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره ، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له : الان قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة ، فقال سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ قال : من حوائج الدنيا ، فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ، وكان سالم خشن العيش ، يلبس الصوف الخشن ، وكان يعالج بيده أرضاً له وغيرها من الأعمال ،ولا يقبل من الخلفاء ، وكان متواضعاً وكان شديد الأدمة وله من الزهد والورع شيء كثير .

وطاوس بن كيسان اليماني

من أكبر أصحاب ابن عباس وقد ترجمناهم في كتابنا التكميل ولله الحمد انتهى وقد زدنا هنا في ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن بالخطاب ويأدة حسنة . فأما طاوس فهو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان اليماني ، فهو أول طبقة أهل اليمن من التابعين ، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن .

أدرك طاوس جماعة من الصحابة وروى عنهم ، وكان أحد الأئمة الأعلام ، قد جمع العبادة والزهادة ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، وقد أدرك خمسين من الصحابة ، وأكثر روايته عن ابن عباس ، وروى عنه خلق من التابعين وأعلامهم ، منهم مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار ،

(١) كذا بالأصل ولعل المراد يا سالم .

وإبراهيم بن ميسرة ، وأبو الزبير ومحمد بن المنكدر ، والزهري وحبيب بن أبي ثابت ، وليث بن أبي سليم والضحاك بن مزاحم . وعبد الملك بن ميسرة ، وعبد الكريم بن المخارق ووهب بن منبّه ، والمغيرة بن حكيم الصنعاني ، وعبد الله بن طاوس ، وغير هؤلاء .

توفي طاوس بمكة حاجاً ، وصلّى عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ، ودفن بها رحمه الله تعالى . قال الامام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق قال ، قال أبي : مات طاوس بمكة فلم يصلّوا عليه حتى بعث هشام ابنه بالحرس ، قال فلقد رأيت عبد الله بن الحسن واضعاً السرير على كاهله ، قال : ولقد سقطت قلنسوة كانت عليه ومزق رداؤه من خلفه ـ يعني من كثرة الزحام ـ فكيف لا وقد قال النبي ﷺ : « الايمان يمان » وقد خرج من اليمن خلق من هؤلاء المشار اليهم في هذا وغيره ، منهم أبو مسلم ، وأبو إدريس ، ووهب وكعب وطاوس وغير هؤلاء كثير . وروى ضمرة عن ابن شوذب قال : شهدت جنازة طاوس بمكة سنة خمس ومائة ، فجعلوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمن ، حج أربعين حجة .

وقال عبد الرزاق : حدّثنا أبي قال : توفي طاوس بالمزدلفة ـ أو بمنىً ـ حاجاً ، فلما حمل أخذ عبد الله بن الحسن بن علي بقائمة سريره . فما زايله حتى بلغ القبر . وقال الامام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق قال : قدم طاوس بمكة ، فقدم أمير المؤمنين ، فقيل لطاوس : إن من فضله ومن ، ومن ، فلو أتيته قال : ما لي إليه حاجة ، فقالوا : إنّا نخاف عليك ، قال : فما هو إذاً كما تقولون : وقال ابن جرير قال لي عطاء : جاءني طاوس فقال لي : يا عطاء إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل دونه حجابه . وعليك بطلب من بابه لك مفتوح الى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعوه ووعدك الاجابة . وقال ابن جريج عن مجاهد عن طاوس : ﴿ أُولئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مكانٍ بعيدٍ ﴾ [1] قال : بعيد من قلوبهم ، وروى الأحجري عن سفيان عن ليث قال ، قال لي طاوس : ما تعلّمت من العلم فتعلمه لنفسك ، فان الأمانة والصدق قد ذهبا من الناس . وقال عبد الرحمن بن مهدي عن حماد بن زيد عن الصلت بن راشدْ . قال : كنا عند طاوس فجاءه مسلم بن قتيبة بن مسلم ، صاحب خراسان ، فسأله عن شيء فانتهره طاوس ، فقلتْ : هذا مسلم بن قتيبة بن مسلم صاحب خراسان ، قال : ذاك أهون له علي . وقال لطاوس : إن منزلك قد استرم [2] ، فقال : أمسينا .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس في قوله تعالى : ﴿ وخُلِقَ الانسانُ ضَعِيفاً ﴾ [3] . قال : في أمور النساء ، ليس يكون في شيء أضعف منه في النساء . وقال أبو

---

(١) سورة فصّلت ، الآية / ٤٤ .

(٢) استرم : أُصْلِح.

(٣) سورة النساء ، الآية/ ٢٧ .

بكر بن أبي شيبة : حدّثنا يحيى بن بكير حدّثنا إبراهيم بن نافع عن ابن طاوس عن أبيه قال : لقي عيسى بن مريم عليه السلام إبليس فقال إبليس لعيسى : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك ؟ قال : نعم ، قال إبليس : فأوف بذروة هذا الجبل فتردَّ منه . فانظر أتعيش أم لا . قال عيسى : أما علمت أن الله تعالى قال : لا يجربني عبدي ، فإني أفعل ما شئت . وفي رواية عن الزهري عنه قال قال عيسى : إن العبد لا يختبر ربه ، ولكن الرب يختبر عبده ، وفي رواية أخرى : إن العبد لا يبتلي ربه ، ولكن الرب يبتلي عبده . قال : فخصمه عيسى عليه السلام . وقال فضيل بن عياض عن ليث عن طاوس قال : حج الأبرار على الرحال ، رواه عبد الله بن أحمد عنه .

وقال الامام أحمد : حدّثنا أبو ثميلة عن ابن أبي داود . قال : رأيت طاوساً وأصحاباً له إذا صلّوا العصر استقبلوا القبلة ولم يكلموا أحداً ، وابتهلوا إلى الله تعالى في الدعاء . وقال : من لم يبخل ولم يلِ مال يتيم لم ينله جهد البلاء . روى عنه أبو داود الطيالسي ، وقد رواه الطبراني عن محمد بن يحيى بن المنذر عن موسى بن إسماعيل عن أبي داود فذكره . وقال لابنه : يا بني صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، واعلم أن لكل شيء غاية . وغاية المرء حسن عقله . وسأله رجل عن مسألة فانتهره ، فقال : ـ يا أبا عبد الرحمن إني أخوك ، قال : أخي من دون الناس ؟ . وفي رواية أن رجلاً من الخوارج سأله فانتهره ، فقال : إني أخوك ، قال : أمن بين المسلمين كلهم ؟ . وقال عفان عن حماد بن زيد عن أيوب قال : سأل رجل طاوساً عن شيء فانتهره ، ثم قال : تريد أن تجعل في عنقي حبلاً ثم يطاف بي ؟ ورأى طاوس رجلاً مسكيناً في عينه عمش وفي ثوبه وسخ ، فقال له : عدِّ ! إن الفقر من الله ، فأين أنت من الماء ؟

وروى الطبراني عنه قال : إقرار ببعض الظلم خير من القيام فيه ، وعن عبد الرزاق عن داود بن إبراهيم أن الأسد حبس الناس ليلة في طريق الحج ، فدق الناس بعضهم بعضاً ، فلما كان السحر ذهب عنهم الأسد ، فنزل الناس يميناً وشمالاً فألقوا أنفسهم ، وقام طاووس يصلي ، فقال له رجل ـ وفي رواية فقال ابنه ـ : ألا تنام فانك قد سهرت ونصبت هذه الليلة ؟ فقال : وهل ينام السحر أحد ؟ وفي رواية : ما كنت أظن أحداً ينام السحر . وروى الطبراني من طريق عبد الرزاق عن أبي جريج وابن عيينة . قالا : حدّثنا ابن طاوس قال : قلت لأبي : ما أفضل ما يقال على الميت ؟ قال الاستغفار .

وقال الطبراني : حدّثنا عبد الرزاق قال سمعت النعمان بن الزبير الصنعاني يحدّث أن محمد بن يوسف ـ أو أيوب بن يحيى ـ بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار وقال للرسول : إن اخذها منك فان الأمير سيكسوك ويحسن إليك . قال : فخرج بها حتى قدم على طاوس الجند ، فقال :

يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها الأمير إليك . فقال : ما لي بها من حاجة ، فأراده على أخذها بكل طريق فأبى أن يقبلها ، فغفل طاوس فرمى بها الرجل من كوة في البيت ثم ذهب راجعاً الى الأمير ، وقال : قد أخذها ، فمكثوا حيناً ثم بلغهم عن طاوس ما يكرهون ـ أو شيء يكرهونه ـ فقالوا : ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا ، فجاءه الرسول فقال : المال الذي بعثه إليك الأمير ردَّه إلينا ، فقال : ما قبضت منه شيئاً ، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم ، فعرفوا أنه صادق ، فقالوا : انظروا الذي ذهب بها إليه ، فأرسلوه إليه ، فجاءه فقال : المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن ، قال : هل قبضت منك شيئاً ؟ قال : لا ! قال : فقام الى المكان الذي رمى به فيه فوجدها كما هي ، وقد بنت عليها العنكبوت ، فأخذها فذهب بها إليهم .

ولما حج سليمان بن عبد الملك قال : انظروا إليَّ فقيهاً أسأله عن بعض المناسك ، قال : فخرج الحاجب يلتمس له ، فمر طاوس فقالوا : هذا طاوس اليماني ، فأخذه الحاجب فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : اعفني ، فأبى ، فأدخله عليه ، قال طاوس : فلما وقفت بين يديه قلت : إن هذا المقام يسألني الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن صخرة كانت على شفير جهنم هوت فيها سبعين خريفاً حتى استقرت في قرارها ، أتدري لمن أعدَّها الله ؟ قال : لا !! ويلك لمن أعدها الله ؟ قال : لمن أشركه الله في حكمه فجار . وفي رواية ذكرها الزهري أن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت ، له جمال وكمال ، فقال : من هذا يا زهري ؟ فقلت : هذا طاوس ، وقد أدرك عدة من الصحابة ، فأرسل إليه سليمان فأتاه فقال : لو ما حدّثتنا ؟ فقال : حدّثني أبو موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون الخلق على الله عزّ وجلّ من وليَّ من أمور المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم » . فتغير وجه سليمان فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه فقال : لو ما حدّثتنا ؟ فقال : حدّثني رجل من أصحاب النبي ﷺ قال ابن شهاب : ظننت أنه أراد علياً ـ قال : دعاني رسولُ الله ﷺ إلى طعام في مجلس من مجالس قريش ، ثم قال : « إن لكم على قريش حقاً ، ولهم على الناس حق ، ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا ائتمنوا أدّوا ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » . قال : فتغير وجه سليمان وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه وقال : لو ما حدّثتنا ؟ فقال : حدّثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله : ﴿ واتَّقُوا يوماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ثم تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون ﴾ [1] .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدّثني أبو معمر عن ابن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة قال ، قال عمر بن عبد العزيز لطاوس : ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين ـ يعني سليمان ـ فقال طاوس ما لي إليه من حاجة ، فكأنه عجب من ذلك ، قال : سفيان وحلف لنا إبراهيم وهو مستقبل

(١) سورة البقرة ، الآية / ٢٨١ .

الكعبة : ورب هذا البيت ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة إلا طاوس . قال : وجاء ابن لسليمان بن عبد الملك فجلس إلى جنب طاوس فلم يلتفت اليه ، فقيل له : جلس إليك أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ؟ قال : أردت أن يعلم هو وأبوه أن لله عباداً يزهدون فيهم وفيما في أيديهم . وقد روى عبد الله بن أحمد عن ابن طاوس قال : خرجنا حجاجاً فنزلنا في بعض القرى ، وكنت أخاف أبي من الحكّام لشدته وغلظه عليهم ، قال : وكان في تلك القرية عامل لمحمد بن يوسف ـ أخي الحجاج بن يوسف ـ يقال له أيوب بن يحيى ، وقيل يقال له ابن نجيح ، وكان من أخبث عمالهم كبراً وتجبراً ، قال : فشهدنا صلاة الصبح في المسجد ، فاذا ابن نجيح قد أخبر بطاوس فجاء فقعد بين يدي طاوس ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم كلمه فأعرض عنه ، ثم عدّل الى الشق الآخر فأعرض عنه ، فلما رأيت ما به قمت إليه وأخذت بيده ثم قلت له : إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك ، فقال طاوس : بلى! إني به لعارف ، فقال الأمير : إنه بي لعارف ، ومعرفته بي فعلت بي ما رأيت . ثم مضى وهو ساكت لا يقول شيئاً ، فلما دخلت المنزل قال لي أبي : يا لكع [1] ، بينما أنت تقول أريد أخرج عليهم بالسيف لم تستطع أن تحبس عنهم لسانك .

وقال أبو عبد الله الشامي : أتيت طاوساً فاستأذنت عليه فخرج إلى ابنه شيخ كبير ، فقلت : أنت طاوس ؟ فقال : لا ! أنا ابنه ، فقلت : إن كنت أنت ابنه فان الشيخ قد خرف ، فقال : إن العالم لا يخرف ، فدخلت عليه فقال طاوس : سَلْ فأوجز ، فقلت : إن أوجزت أوجزت لك ، فقال تريد أن أجمع لك في مجلسي هذا التوراة والانجيل والفرقان ؟ قال : قلت نعم ! قال : خَفْ الله مخافة لا يكون عندك شيء أخوف منه ، وارْجُه رجاء هو أشد من خوفك إياه ، وأَحِبْ للناس ما تحب لنفسك .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه . قال : يجاء يوم القيامة بالمال وصاحبه فيتحاجان ، فيقول صاحب المال للمال : جمعتك في يوم كذا في شهر كذا في سنة كذا ، فيقول المال : ألم أقض لك الحوائج ؟ أنا الذي حلت بينك وبين أن تصنع فيما أمرك الله عز وجل من حبك إياي ، فيقول صاحب المال إن هذا الذي نفد على حبال أوثق بها وأقيد،وقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا أبي حدثنا يحيى بن الضريس عن أبي سنان عن حبيب بن أبي ثابت قال : اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم قط ، عطاء وطاووس ، ومجاهد وسعيد بن جبير ، وعكرمة . وقال سفيان : قلت لعبيد الله بن أبي يزيد : مع من كنت تدخل على ابن عباس ؟ قال : مع عطاء والعامة ، وكان طاووس يدخل مع الخاصة ،

---

(١) لكع : وَسِخ . أحمق . لئيم .

وقال حبيب : قال لي طاووس إذا حدثتك حديثاً قد أثبته فلا تسأل عنه أحـداً ـ وفي رواية ـ فـلا تسأل عنه غيري .

وقال أبو أسـامة ، حـدثنا الأعمش عن عبـد الملك بن ميسرة عن طـاووس قال : أدركت خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر أخبرني ابن طاووس قال : قلت لأبي : أريد أن أتزوج فلانة ، قال : اذهب فانظر إليها ، قال : فذهبت فلبست من صالح ثيابي ، وغسلت رأسي ، وادهنت ، فلما رآني في تلك الحال قال : اجلس فلا تذهب . وقال عبد الله بن طاووس : كان أبي إذا سار إلى مكة سار شهراً ، وإذا رجع رجـع في شهر ، فقلت له في ذلك ، فقال : بلغني أن الرجل إذا خرج في طاعة لا يزال في سبيل الله حتى يرجع إلى أهله . وقال حمزة عن هلال بن كعب . قال : كان طاووس إذا خرج من اليمن لم يشرب إلا من تلك المياه القديمة الجاهلية ، وقال له رجل : ادع الله لي ، فقال : ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه . قال : كان رجل فيما خلا من الزمان ، وكان عاقلاً لبيباً ، فكبر فقعد في البيت ، فقال لابنه يوماً : إني قد اغتممت في البيت ، فلو أدخلت عليَّ رجالاً يكلموني ؟ فذهب ابنـه فجمع نفـراً فقال : ادخلوا على أبي فحدثوه ، فإن سمعتم منه منكراً فاعذروه فإنه قد كبر ، وإن سمعتم منه خيراً فاقبلوه . قال : فدخلوا عليه فكان أول مـا تكلم به أن قـال : إن أكيس الكيس[1] التقي ، وأعجز العجز الفجور ، وإذا تزوج الرجل فليتزوج من معدن صالح ، فإذا اطلعتم على فجرة رجل فاحذروه فإن لها أخوات .

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا أحمد بن نصر بن مـالك حـدثنا عبـد الله بن عمر بن مسلم الجبيري عن أبيه قال: قال طاووس لابنه: إذا قبرتني فانظر في قبري ، فإن لم تجدني فاحمد الله تعالى ، وإن وجدتني فإنا لله وإنا إليه راجعون . قال عبد الله : فأخبرني بعض ولده أنه نظر فلم يره ولم يجد في قبره شيئاً ، ورؤى في وجهه السرور ، وقال قبيصـة : حدثنـا سفيان عن سعيـد بن محمد قال : كان من دعاء طاووس يدعو : اللهم احرمني كثرة المال والولد ، وارزقني الإيمـان والعمل . وقال سفيان عن معمر حدثنا الزهري قال : لو رأيت طـاووس بن كيسان علمت أنـه لا يكذب .

وقال عون بن سلام : حدثنا جابر بن منصور ـ أخو إسحاق بن منصور ـ السلولي عن عمران ابن خالد الخزاعي . قال كنت جالساً عند عطاء فجاء رجل فقال : أبا محمد إن طاووساً يزعم أن

---

(١) الكيِّس : الظريف والفَطِن .

من صلّى العشاء ثم صلّى بعدها ركعتين يقرأ في الأولى : آلم تنزيل السجدة ، وفي الثانية تبارك الذي بيده الملك كتب له مثل وقوف عرفة وليلة القدر . فقال عطاء : صدق طاووس ما تركتهما .

وقال ابن أبي السري : حدثنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه . قال : كان رجل من بني إسرائيل ، وكان ربما داوى المجانين ، وكانت امرأة جميلة ، فأخذها الجنون ، فجيء بها إليه ، فنزلت عنده فأعجبته ، فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : إن علم بها افتضحت ، فاقتلها وادفنها في بيتك ، فقتلها ودفنها ، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها ، قال : ماتت ، فلم يتهموه لصلاحه ومنزلته ، فجاءهم الشيطان فقال : إنها لم تمت ، ولكن قد وقع عليها فحملت فقتلها ودفنها في بيته ، في مكان كذا وكذا ، فجاء أهلها فقالوا : ما نتهمك ولكن أخبرنا أين دفنتها ، ومن كان معك ؟ فنبشوا بيته فوجدوها حيث دفنها ، فأخذوه فحبسوه وسجنوه ، فجاءه الشيطان فقال : أنا صاحبك ، فإن كنت تريد أن أخرجك مما أنت فيه فاكفر بالله فأطاع الشيطان فكفر بالله عز وجل ، فقتل فتبرأ منه الشيطان حينئذ . وقال طاووس : ولا أعلم أن هذه الآية نزلت إلا فيه وفي مثله : ﴿ كمثلِ الشيطانِ إذ قالَ للإنسانِ اكفرْ ، فلما كفرَ قالَ إني بريءٌ منكَ إني أخافُ اللَّهَ ربَّ العالمينَ ﴾[1] .

وقال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه . قال : كان رجل من بني إسرائيل له أربعة بنين ، فمرض ، فقال أحدهم : إما أن تمرضوا أبانا وليس لكم من ميراثه شيء ، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء ، فمرّضه حتى مات ودفنه ولم يأخذ من ميراثه شيئاً ، وكان فقيراً وله عيال، فأتى في النوم فقيل له: إيت مكان كذا وكذا فاحفره تجد فيه مائة دينار فخذها ، فقال للآتي في المنام : ببركة أو بلا بركة ؟ فقال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت : اذهب فخذها فإن من بركتها أن تكسوني منها ونعيش منها . فأبى وقال : لا آخذ شيئاً ليس فيه بركة . فلما أمسى أتى في منامه فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير ، فقال : ببركة أو بلا بركة ؟ قال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت له مثل ذلك فأبى أن يأخذها ، ثم أتى في الليلة الثالثة فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ منه ديناراً ، فقال : ببركة أو بلا بركة ؟ قال : ببركة ، قال ، نعم إذاً ، فلما أصبح ذهب إلى ذلك المكان الذي أشير إليه في المنام فوجد الدينار فأخذه ، فوجد صياداً يحمل حوتين فقال : بكم هما ؟ قال : بدينار، فأخذهما منه بذلك الدينار ثم انطلق بهما إلى امرأته فقامت تصلحهما ، فشقت بطن أحدهما فوجدت فيه درة لا يقوم بها شيء ، ولم يرَ الناس مثلها، ثم شقت بطن الآخر فإذا فيه درة مثلها ، قال : فاحتاج ملك ذلك الزمان درة فبعث يطلبها حيث كانت ليشتريها ، فلم توجد إلا عنده ، فقال الملك : إيت بها ، فأتاه بها ، فلما رآها حلّاها الله عز وجل في عينيه ، فقال : بعينها ، فقال : لا أنقصها عن وقر ثلاثين بغلاً ذهباً ، فقال الملك : ارضوه ،

---

(1) سورة الحشر ، الآية/ ١٦ .

فخرجوا به فوقروا له ثلاثين بغلاً ذهباً ، ثم نظر إليها الملك فأعجبته إعجاباً عظيماً، فقال : ما تصلح هذه إلا بأختها ، اطلبوا لي آختها ، قال: فأتوه، فقالوا له: هل عندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم . فأتى الملك بها ، فلما رآها أخذت بقلبه فقال أرضوه ، فأضعفوا له ضعف أختها ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا وهيب بن الورد حدثنا عبد الجبار بن الورد قال حدثني داود بن سابور قال قلنا لطاووس : أدع بدعوات ، فقال : لا أجد لذلك حسبة . وقال ابن جرير عن ابن طاووس عن أبيه قال : البخل أن يبخل الإنسان بما في يده ، والشح أن يحب أن له ما في أيدي الناس بالحرام لا يقنع : وقيل الشح هو ترك القناعة ، وقيل : هو أن يشح بما في يد غيره ، وهو مرض من أمراض القلب ينبغي للعبد أن يعزله عن نفسه وينفيه ما استطاع ، وهو يأمرنا بالبخل كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال : « اتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم [أمرهم] بالبخل فبخلوا وبالقطيعة فقطعوا وهذا هو الحرص على الدنيا وحبها » وقال ابن أبي شيبة : حدثنا المحاربي عن ليث عن طاووس قال : ألا رجل يقوم بعشر آيات من الليل فيصبح قد كتب له مائة حسنة أو أكثر من ذلك ، ومن زاد زيد في ثوابه ، وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاووس . قال : لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج . وعن سفيان عن إبراهيم بن ميسرة قال : قال لي طاووس : لتنكحن أو لأقولن لك ما قال عمر بن الخطاب لأبي الزوائد : ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور . وقال طاووس : لا يحرز دين المؤمن إلا حفرته . وقال عبد الرزاق عن معمر بن طاووس وغيره أن رجلاً كان يسير مع طاووس ، فسمع الرجل غراباً ينعب ، فقال : خير ، فقال طاووس : أي خير عند هذا أو شر لا تصحبني ولا تمش معي . وقال بشر بن موسى : حدثنا الحميدي حدثنا سفيان عن ابن طاووس عن أبيه . قال : إذا غدا الإنسان اتبعه الشيطان ، فإذا أتى المنزل فسلم نكص الشيطان وقال : لا مقيل ، فإذا أتي بغدائه فذكر اسم الله قال : ولا غداء ولا مقيل ، فإذا دخل ولم يسلم قال الشيطان : أدركنا المقيل ، فإذا أتي بغدائه ولم يذكر اسم الله عليه قال الشيطان : مقيل وغداء ، وفي العشاء مثل ذلك ، وقال : إن الملائكة ليكتبون صلاة بني آدم : فلان زاد فيها كذا وكذا ، وفلان نقص فيها كذا وكذا وذلك في الركوع والخشوع والسجود .

وقال : لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة ، فلما خلق آدم سكنت ، وكان إذا سمع صوت الرعد يقول : سبحان من سبَّحت له . وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح قال: قال مجاهد لطاووس يا أبا عبد الرحمن! رأيتك تصلي في الكعبة والنبي ﷺ على بابها يقول لك : اكشف قناعك ، وبيِّن[1] قراءتك . فقال له : اسكت لا يسمع هذا منك أحد . ثم تخيل

---

(١) بيِّن : أوضح .

إلى أن انبسط في الحديث . وقال أحمد أيضاً بهذا الإسناد : إن طاووساً قال لأبي نجيح : يا أبا نجيح !! من قال واتقى الله خير ممن صمت واتقى . وقال مسعر عن رجل إن طاووساً أتى رجلاًفي السحر فقالوا : هو نائم ، فقال : ما كنت أرى أن أحداً ينام في السحر . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن يزيد حدثنا ابن يمان عن مسعود ، فذكره . قال الثورى : كان طاووس يجلس في بيته ، فقيل له في ذلك فقال : حيث[1] الأئمة وفساد الناس .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال أخبرني أبي قال : كان طاووس يصلّي في غداة باردة معتمة ، فمر به محمد بن يوسف صاحب اليمن وحاجبها ـ وهو أخو الحجاج بن يوسف ـ وطاووس ساجد ، والأمير راكب في مركبه ، فأمر بساج أو ظيلسان مرتفع القيمة فطرح على طاووس وهو ساجد ، فلم يرفع رأسه حتى فرغ من حاجته ، فلما سلم نظر فإذا الساج عليه فانتفض فألقاه عنه ، ولم ينظر إليه ومضى إلى منزله وتركه ملقى على الأرض . وقال نعيم بن حماد : حدثنا حماد بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن طاووس عن ابن عباس : ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليه حتى أنينه في مرضه ، فلما مرض الإمام أحمد أنَّ فقيل له : إن طاووساً كان يكره أنين المرض فتركه . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن أبيه عن داود بن شابور . قال : قال رجل لطاووس : ادع الله لنا ، فقال : ما أجد بقلبي خشية فأدعو لك . وقال ابن طالوت : حدثنا عبد السلام بن هاشم عن الحسن بن أبي الحصين العنبري . قال : مرَّ طاووس بروَّاس قد أخرج رؤ وساً فغشى عليه . وفي رواية كان إذا رأى الرؤ وس المشوية لم يتعشَّ تلك الليلة .

وقال الإمام أحمد : ثنا هاشم بن القاسم حدثنا الأشجعي عن سفيان الثوري . قال: قال طاووس إن الموتى يفتنون في قبورهم سغبا ، وكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام . وقال ابن إدريس : سمعت ليثا يذكر عن طاوس وذكر النساء فقال : فيهن كفر من مضى وكفر من بقي . وقال أبو عاصم عن بقية عن سلمة بن وهرام عن طاوس قال : كان يقال : اسجد للقرد في زمانه ، أي أطعه في المعروف . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا أسامة حدثنا نافع بن عمر عن بشر بن عاصم . قال قال طاووس : ما رأيت مثل[2] أحد آمن على نفسه ، ولقد رأيت رجلاً لو قيل لي : من أفضل من تعرف ؟ لقلت : فلان ذلك الرجل ، فمكثت على ذلك حينا ثم أخذه وجع في بطنه ، فأصاب منه شيئاً استنضح بطنه عليه ، فاشتهاه، فرأيته في نطع[3] ما أدرى أي طرفيه أسرع حتى مات عرقاً . وروى أحمد حدثنا هشيم قال أخبرنا أبو بشر عن طاووس أنه رأى فِتيةً من

---

(١) حيف : ظلم وجور .

(٢) كذا بالأصل ، ولعلها : ما رأيت مثلي أحداً آمناً .

(٣) نطع : بساط من الجلد يُفْرَش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس.

قريش يرفلون في مشيتهم ، فقال : إنكم لتلبسون لبسة ما كانت آباؤكم تلبسها ، وتمشون مشية ما يحسن الزفافون أن يمشوها . وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر أن طاووساً قام على رفيق له مرض حتى فاته الحج ـ لعله هو الرجل المتقدم قبل هذا استنضح بطنه ـ وقال مسعر بن كدام عن عبد الكبير المعلم قال طاووس قال ابن عباس : سئل النبي ﷺ : من أحسن قراءة ؟ قال : «من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله عز وجل» . وقد روى هذا أيضاً من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار عن طاووس قال قال ابن عباس : إن النبي ﷺ قال : «إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به» . وعنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : رآني رسول الله ﷺ وعليَّ ثوبان معصفران فقال : «أمك أمرتك بهذا ؟ قلت : أغسلهما ؟ قال : بل أحدهما» رواه مسلم في صحيحه عن داود بن راشد عن عمر بن أيوب عن إبراهيم بن نافع عن سليمان الأحول عن طاووس به .

وروى محمد بن مسلمة عن إبراهيم بن ميسرة عن طاووس عن ابن عمرو قال قال رسول الله ﷺ : «الجلاوذة والشرط وأعوان الظلمة كلاب النار» . انفرد به محمد بن مسلم الطالقي .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن الحسن الأنماطي البغدادي حدثنا عبد المنعم بن ادريس حدثنا أبي عن وهب بن منبه عن طاووس عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب : «يا علي استكثر من المعارف من المؤمنين فكم من معرفة في الدنيا بركة في الآخرة» . فمضى علي فأقام حينا لا يلقى أحداً إلا اتخذه للآخرة ، ثم جاء من بعد ذلك فقال له رسول الله ﷺ : «ما فعلت فيما أمرتك به ؟ قال : قد فعلت يا رسول الله ، فقال له النبي ﷺ : إذهب فابلُ أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبي ﷺ وهو منكِّس رأسه ، فقال له النبي ﷺ : اذهب فابل أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبي ﷺ تبسم [فقال] : ما أحسب يا علي ثبت معك إلا أبناء الآخرة ؟ فقال له علي : لا والذي بعثك بالحق ، فقال له النبي ﷺ ﴿ الأَخِلاءُ يومئذٍ بعضهمْ لبعضٍ عدوٌ إلَّا المُتَّقِينَ يَا عبادِ لا خوفٌ عليكُمْ﴾[1] يا علي ! أقبل على شأنك ، واملك لسانك ، وأغفل من تعاشر من أهل زمانك تكن سالماً غانماً» لم يرو إلا من هذا الوجه فيما نعلم والله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع ومائة

فيها خرج باليمن رجل يقال له عباد الرعيني فدعا إلى مذهب الخوارج واتبعه فرقة من الناس وحلموا فقاتلهم يوسف بن عمر فقتله وقتل أصحابه ، وكانوا ثلاثمائة . وفيها وقع بالشام طاعون

(١) سورة الزخرف ، الآية/ ٦٧ ـ ٦٨ .

شديد ، وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة وعلى جيش أهل الشام ميمون بن مهران ، فقطعو البحر إلى قبرص وغزا مسلمة في البر في جيش آخر . وفيها ظفر أسد بن عبد الله القسري بجماعة من دعاة بني العباس بخراسان فصلبهم وأشهرهم . وفيا غزا أسد القسري جبال نمروذ ، ملك القرقيسيان ، مما يلي جبال الطالقان ، فصالحه نمروذ وأسلم على يديه . وفيها غزا أسد الغور - وهي جبال هراة - فعمد أهلها إلى حواصلهم وأموالهم وأثقالهم فجعلوا ذلك كله في كهف منيع ، لا سبيل لأحد عليه ، وهو مستعلٍ جداً ، فأمر أسد بالرجال فحملوا في توابيت ودلاهم إليه ، وأمر بوضع ما هنالك في التوابيت ورفعوهم فسلموا وغنموا ، وهذا رأي سديد[1] . وفيها أمر أسد بجمع ما حول بلخ إليها . واستناب عليها برمك والد خالد بن برمك وبناها بناءً جيداً جديداً محكماً وحصنها وجعلها معقداً للمسلمين . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين . وممن توفي فيها من الأعيان :

سليمان بن يسار أحد التابعين

وهو أخو عطاء بن يسار ، له روايات كثيرة ، وكان من المجتهدين في العبادة ، وكان من أحسن الناس وجهاً ، توفي بالمدينة وعمره ثلاث وسبعون سنة ، دخلت عليه امرأة من أحسن الناس وجهاً فأرادته على نفسها فأبى وتركها في منزله وخرج هارباً منها ، فرأى يوسف عليه السلام في المنام . فقال له : أنت يوسف ؟ فقال : نعم أنا يوسف الذي هممت ، وأنت سليمان الذي لم تهمّ . وقيل إن هذه الحكاية إنما وقعت في بعض منازل الحجاج ، وكان معه صاحب له ، فبعثه إلى سوق الحجاج ليشتري شيئاً فانحطت على سليمان امرأة من الجبل حسناء فقالت له : هيت لك ، فبكى واشتد بكاؤه فلما رأت ذلك منه ارتفعت في الجبل ، وجاء صديقه فوجده يبكي فقال له : مالك تبكي ؟ فقال خير ، فقال : لعلك ذكرت بعض ولدك أو بعض أهلك ؟ فقال : لا ! فقال : والله لتخبرني ما أبكاك أنت . قال : أبكاني حزني على نفسي ، لو كنت مكانك لم أصبر عنها ، ثم ذكر أنه نام فرأى يوسف في منامه كما تقدم والله أعلم .

عكرمة مولى ابن عباس

أحد التابعين ، والمفسرين المكثرين والعلماء الربانيين ، والرحالين الجوالين . [وهو أبو عبد الله ، وقد روى عن خلق كثير من الصحابة ، وكان أحد أوعية العلم ، وقد أفتى في حياة مولاه ابن عباس ، قال عكرمة : طلبت العلم أربعين سنة ، وقد طاف عكرمة البلاد ، ودخل إفريقية واليمن والشام والعراق وخراسان ، وبث علمه هنالك ، وأخذ الصِلات[2] وجوائز الأمراء ، وقد

---

(١) سديد : ذو السداد القاصد إلى الحق .

(٢) الصِّلات : مفردها الصلة وهي الجائزة والعطيَّة .

روى ابن أبي شيبة عنه قال : كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل يعلمني القرآن والسنن ، وقال حبيب بن أبي ثابت : اجتمع عندي خمسة لا يجتمع عندي مثلهم أبداً ، عطاء ، وطاووس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد فأقبل سعيد ومجاهد يلقيان على عكرمة التفسير فلم يسألاه عن آية إلافسرها لهما ، فلما نفد ما عندهما جعل يقول : أنزلت آية كذا في كذا ، قال : ثم دخلوا الحمام ليلاً . قال جابر بن زيد : عكرمة أعلم الناس وقال الشعبي ، ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة . وروى الإمام أحمد عن عبد الصمد عن سلام بن مسكين سمعت قتادة يقول : أعلمهم بالتفسير عكرمة . وقال سعيد بن جبيرنحوه ، وقال عكرمة : لقد فسرت ما بين اللوحتين . وقال ابن علية عن أيوب : سأل رجل عكرمة عن آية فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل ـ وأشار إلى سلع ـ وقال عبد الرزاق عن أبيه : لما قدم عكرمة الجند حمله طاووس على نجيب فقال : ابتعت علم هذا الرجل ، وفي رواية أن طاووساً حمله على نجيب ثمنه ستون ديناراً وقال : ألا نشتري علم هذا العبد بستين ديناراً !

ومات عكرمة وكثير عزة في يوم واحد فأخرجت جنازتهما فقال الناس : مات أفقه الناس وأشعر الناس ، وقال عكرمة : قال لي ابن عباس : انطلق فأفت الناس فمن سألك عما يعنيه فأفته ، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته ، فإنك تطرح عني ثلثي مؤنة[1] الناس . وقال سفيان عن عمرو وقال: كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف يصنعون ويقتتلون . وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق قال سمعت معمراً يقول : سمعت أيوب يقول : كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفق من الآفاق ، قال فإني لفي سوق البصرة فإذا رجل على حمار ، فقيل : هذا عكرمة ، قال : واجتمع الناس إليه فما قدرت أنا على شيء أسأله عنه ، ذهبت مني المسائل ، وشردت عني فقمت إلي جنب حماره فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظه . وقال شعبة عن خالد الحذاء قال قال عكرمة لرجل وهو يسأله : مالك أخبلت ؟ أي فتنت . وقال زياد بن أبي أيوب : حدثنا أبوثميلة حدثنا عبد العزيز بن أبي رواد قال قلت لعكرمة بنيسابور : الرجل يريد الخلاء وفي إصبعه خاتم فيه اسم الله ، قال : يجعل فصه في باطن يده ثم يقبض عليه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد قال : سمعت شعبة يقول قال خالد الحذاء : كل شيء فيه محمد بن سيرين : ثبت عن ابن عباس ، إنما سمعه من عكرمة ، لقيه أيام المختار بالكوفة . وقال سفيان الثوري : خذوا المناسك[2] عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة . وقال أيضاً : خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك . وقال

---

(١) مؤنة : مشقة .

(٢) المناسك : مفردها المَنْسك المكان المألوف . ومناسك الحج : عباداته .

عكرمة : أدركت مئتين من أصحاب رسول الله ﷺ في هذا المسجد . وقال محمد بن يوسف الفريابي : حدثنا إسرائيل عن سعيد بن مسروق عن عكرمة : قال : كانت الخيل التي شغلت سليمان بن داوود عليه السلام عشرين ألفاً فمقرها ، وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا معمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن عكرمة: ﴿ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثم يتوبونَ من قريبٍ ﴾[1] . قال : الدنيا كلها قريب وكلها جهالة . وفي قوله : ﴿ للذينَ لا يريدونَ علوًّا في الأرضِ ﴾[2] . قال : عند سلاطينها وملوكها . ﴿ ولا فَسَاداً ﴾[3] . لا يعلمون بمعاصي الله عز وجل . ﴿ والعاقبةُ ﴾[4] . هي الجنة . وقال في قوله تعالى: ﴿ فلما نَسُوا ما ذُكِّروا بهِ ﴾[5] أي تركوا ما وعظوا ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾[6] أي شديد ﴿ فلما عَتَوا عمَّا نُهُوا عنه ﴾[7] أي تمادوا وأصرّوا . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾[8] . صاغرين . ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لما بين يَدَيْهَا ﴾[9] . أي من الأمم الماضية ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾[10] من الأمم الآتية ، من أهل زمانهم وغيرهم ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ . تقِيَ مَن اتعظ بها الشركَ والمعاصي .

وقال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة بعث الله الذين اعتدوا ويحاسب الذين تركوا الأمر والنهي كان المسخ لهم عقوبة في الدنيا حين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقال عكرمة : قال ابن عباس : هلك والله القوم جميعاً ، قال ابن عباس فالذين أمروا ونهوا نجوا ، والذين لم يأمروا ولم ينهوا هلكوا فيمن هلك من أهل المعاصي . قال : وذلك أهل ايلة ـ وهي قرية على شاطىء البحر ـ وكان الله قد أمر بني إسرائيل أن يتفرغوا ليوم الجمعة فقالوا : بل نتفرع ليوم السبت ، لأن الله فرغ من الخلق يوم السبت ، فأصبحت الأشياء مسبوتة . وذكروا قصة أصحاب السبت ، وتحريم الصيد عليهم ، وأن الحيتان كانت تأتيهم يوم السبت ولا تأتيهم في غيره من الأيام ، وذكروا احتيالهم على صيدها في يوم السبت فقال قوم: لا ندعكم تصيدون في يوم السبت ووعظوهم، فجاء قوم آخرون مداهنون فقالوا : ﴿ لِمَ تعظونَ قوماً الله مُهلكهمْ أو معذبهمْ عذاباً شديداً ؟ ﴾[12] . قال الناهون: ﴿ معذرة إلى رَبِّكُمْ ولعلَّهُمْ يتَّقون ﴾[13] . أي ينتهون عن الصيد في يوم السبت . وقد ذكر عكرمة أنه لما قال لابن عباس إن المداهنين هلكوا مع الغافلين ، كساه ثوبين . وقال حوثرة عن مغيرة عن عكرمة قال : كانت القضاة ثلاثة ـ يعني في بني إسرائيل ـ فمات واحد فجعل الآخر مكانه ، فقضوا ما شاء الله أن يقضوا فبعث الله ملكاً على فرس فمر على رجل يسقي بقرة معها عجل ، فدعا الملك

---

(1) سورة النساء ، الآية/ ١٧ .
(2) سورة القصص ، الآية /٨٣ .
(3) سورة القصص ، الآية/ ٨٣ .
(4) سورة القصص ، الآية/ ٨٣ .
(5) سورة الأعراف ، الآية/ ١٦٤ .
(6) سورة الأعراف ، الآية / ١٦٤ .
(7) سورة الأعراف ، الآية / ١٦٤ .
(8) سورة الأعراف ، الآية / ١٦٤ .
(9) سورة البقرة ، الآية / ٦٦ .
(10) سورة البقرة ، الآية/ ٦٦ .
(11) سورة البقرة ، الآية/ ٦٦ .
(12) سورة الأعراف ، الآية / ١٦٣ .
(13) سورة الأعراف ، الآية/ ١٦٣ .

العجل فتبع العجل الفرس ، فجاء صاحبه ليردّه فقال : يا عبد الله ! عجلي وابن بقرتي ، فقال الملك : بل هو عجلي وابن فرسي ، فخاصمه حتى أعيا ، فقال : القاضي بيني وبينك ، قال : لقد رضيت ، فارتفعا إلى أحد القضاة فتكلم صاحب العجل فقال له : مربي على فرس فدعا عجلي فتبعه فأبى أن يرده ، قال : ومع الملك ثلاث درات لم يرَ الناس مثلها ، فأعطى القاضي درة وقال : اقض لي ، فقال : كيف يسوغ هذا ؟ فقال : نرسل العجل خلف الفرس والبقرة فأيهما تبعها فهو ابنها ، ففعل ذلك فتبع الفرس فقضى له . فقال صاحب العجل : لا أرضى ، بيني وبينك القاضي الآخر ، ففعلا مثل ذلك ، ثم أتيا الثالث فقصّا عليه قصتهما ، وناوله الملك الدرة الثالثة فلم يأخذها ، وقال لا أقضي بينكما اليوم فقالا : ولم لا تقضي بيننا ؟ فقال : لأني حائض[1] ، فقال الملك : سبحان الله !! رجل يحيض !؟ فقال القاضي : سبحان الله ! وهل تنتج الفرس عجلاً ؟ فقضى لصاحب البقرة . فقال الملك : إنكم إنما ابتليتم ، وقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك .

وقال أبو بكر بن عياش عن أبي حمزة الثمالي عن عكرمة أن ملكاً من الملوك نادى في مملكته : إني إن وجدت أحداً يتصدق بصدقة قطعت يده ، فجاء سائل إلى إمرأة فقال : تصدقي عليَّ بشيءٍ فقالت : كيف أتصدَّق عليك والملك يقطع يد من يتصدق ؟ قال : أسألك بوجه الله إلا تصدقت عليَّ بشيءٍ ، فتصدقت عليه برغيفين ، فبلغ ذلك الملك فأرسل إليها فقطع يديها ، ثم إن الملك قال لأمه : دليني على امرأة جميلة لأتزوجها ، فقالت : إن ههنا امرأة ما رأيت مثلها ، لولا عيب بها ، قال : أي عيب هو ؟ قالت مقطوعة اليدين ، قال: فأرسلي اليها ، فلما رآها أعجبته ـ وكان لها جمال ـ فقالت : إن الملك يريد أن يتزوجك : قالت : نعم إن شاء الله ، فتزوجها وأكرمها ، فنهد[2] إلى الملك عدو فخرج إليهم ، ثم كتب إلى أمه : انظري فلانة فاستوصى بها خيراً وافعلي وافعلي معها ، فجاء الرسول فنزل على بعض ضرائرها فحسدنها فأخذن الكتاب فغيرنه وكتبن إلى أمه : انظري فلانة فقد بلغني أن رجالاً يأتونها فأخرجيها من البيت وافعلي وافعلي ، فكتبت إليه الأم إنك قد كذبت ، وإنها لأمرأة صدق ، فذهب الرسول إليهن فنزل بهن فأخذن الكتاب فغيرنه فكتبن إليه : إنها فاجرة وقد ولدت غلاماً من الزنا ، فكتب إلى أمه : انظري فلانة فاجعلي ولدها على رقبتها واضربي على جيبها واخرجيها . قال : فلما جاءها الكتاب قرأته عليها وقالت لها : اخرجي ، فجعلت الصبي على رقبتها وذهبت ، فمرت بنهر وهي عطشانة فنزلت لتشرب والصبي على رقبتها فوقع في الماء فغرق ، فجلست تبكي على شاطىء النهر ، فمر بها رجلان فقالا : ما يبكيك ؟ فقالت : ابني كان على رقبتي وليس لي يدان فسقط في الماء فغرق . فقالا لها : أتحبين أن يرد الله عليك يديك كما كانتا ؟ قالت : نعم ! فدعوا الله ربهما لها فاستوت يداها ، ثم قالا لها : أتدرين من

---

(١) حائض : اي في فترة الحيض .

(٢) فنهد : نهض .

نحن ؟ قالت : لا قالا : نحن الرغيفان اللذان تصدقت بهما . وقال في قوله : ﴿ طَيراً أبابِيل ﴾[١] قال : طير خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع فلم تزل ترميهم حتى جدرت جلودهم ، وما رؤى الجدري قبل يومئذ وما رؤى الطير قبل يومئذ ولا بعد . وفي قوله تعالى : ﴿ وويلٌ للمشركينَ الذينَ لا يؤتونَ الزكاة ﴾[٢] قال : لا يقولون لا إله إلا الله ، وفي قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾[٣] قال : من يقول لا إله إلا الله ، وفي قوله : ﴿ هَلْ لَكَ إلى أَنْ تَزَكَّى ﴾[٤] إلى أن تقول لا إله إلا الله ، وفي قوله : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم اسْتَقَامُوا ﴾[٥] على شهادة أن لا إله إلا الله . وفي قوله : ﴿ أليس منكمْ رجلٌ رشِيدٌ ﴾[٦] أليس منكم من يقول : لا إله إلا الله ، وفي قوله : ﴿ وقال صواباً ﴾[٧] قال : لا إله إلاّ الله ، وفي قوله : ﴿ إنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعادَ ﴾[٨] لمن قال : لا إله إلا الله . وفي قوله : ﴿ فلا عُدْوانَ إلاَّ على الظالمين ﴾[٩] على من لا يقول : لا إله إلا الله . وفي قوله : ﴿ واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيت ﴾[١٠] قال : إذا غضبت ﴿ سيماهُمْ في وجوهِهِمْ ﴾[١١] قال :السهر وقال : إن الشيطان ليزين للعبد الذنب ، فإذا عمله تبرأ منه ، فلا يزال يتضرع إلى ربه ويتمسكن له ويبكي حتى يغفر الله له ذلك وما قبله . وقال قال جبريل عليه السلام : إن ربي ليبعثني إلى الشيء لامضيه فأجد الكون قد سبقني إليه . وسئل عن الماعون قال : العارية . قلت : فإن منع الرجل غربالاً أو قدراً أو قصعة أو شيئاً من متاع البيت فله الويل ؟ قال : لا ! ولكن إذا نهى عن الصلاة ومنع الماعون فله الويل . وقال : البضاعة المزجاة التي فيها تجوز . وقال: السائحون ، هم طلبة العلم وقال : ﴿ كما يَئِسَ الكُفَّارُ من أَصْحابِ القُبُورِ ﴾[١٢]، قال : إذا دخل الكفار القبور وعاينوا ما أعد الله لهم من الخزي ، يئسوا من نعمة الله . وقال غيره . ﴿ يَئِسُ الكُفَّارُ من أَصْحَابِ القُبُورِ ﴾[١٣]أي من حياتهم وبعثهم بعد موتهم . وقال : كان إبراهيم عليه السلام يدعى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد ، وقال : أنكالاً ، أي قيوداً . وقال في كاهن سبأ : إنه قال لقومه لما دنا منهم العذاب : من أراد سفراً بعيداً وحملاً شديداً ، فعليه بعمان ، ومن أراد الخمر والخمير ، وكذا وكذا والعصير ، فعليه ببصرى - يعني الشام - ومن أراد الراسخات في الوحل ، والمقيمات في المحل فعليه بيثرب ذات النخل . فخرج قوم إلى عمان وقوم إلى الشام ، وهم غسان ، وخرج الأوس والخزرج - وهم بنو كعب بن عمرو - وخزاعة حتى نزلوا يثرب ، ذات النخل ، فلما كانوا ببطن مرّ قالت خزاعة : هذا موضع صالح لا نريد به بدلاً ، فنزلوا ، فمن ثم سميت خزاعة ، لأنهم تخزعوا

---

(١) سورة الفيل ، الآية/ ٣ .
(٢) سورة فصلت ، الآية/٦ - ٧ .
(٣) سورة الأعلى ، الآية / ١٤ .
(٤) سورة النازعات ، الآية / ١٨ .
(٥) سورة فُصِّلَت الآية/ ٣٠ .
(٦) سورة هود ، الآية / ٧٨ .
(٧) سورة النبأ ، الآية/ ٣٨ .
(٨) سورة آل عمران ، الآية / ١٩٤ .
(٩) سورة البقرة ، الآية / ١٩٣ .
(١٠) سورة الكهف ، الآية/ ٢٤ .
(١١) سورة الفتح ، الآية / ٢٩ .
(١٢) سورة الممتحنة ، الآية/ ١٣ .
(١٣) سورة الممتحنة ، الآية / ١٣ .

من أصحابهم . وتقدمت الأوس والخزرج حتى نزلوا بيثرب ، فقال الله عز وجل ليوسف عليه السلام يا يوسف ! بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك مع الذاكرين . وقال : قال لقمان لأبنه : قد ذقت المرار فلم أذق شيئاً أمرّ من الفقر . وحملت كل حمل ثقيل فلم أحمل أثقل من جار السوء . ولو أن الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . رواه وكيع بن الجراح عن سفيان عن أبيه عن عكرمة : ﴿ وما رمَيْتَ إذ رميت ولكنَّ الله رمى ﴾.[1] قال : ما وقع شيء منها إلا في عين رجل منهم . وقال : في قوله تعالى : ﴿ زنيم ﴾[2] هو اللئيم الذي يعرف اللؤمة كما يعرف الشاة بذنمتها . وقال في قوله تعالى : ﴿ الذين يؤذون الله ورسوله ﴾[3] قال : هم أصحاب التصاوير ، ﴿ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ﴾[4] قال : لو أن القلوب تحركت أو زالت لخرجت نفسه ، وإنما هو الخوف والفزع . ﴿ فتنتمْ أنفسكمْ ﴾[5] أي بالشهوات ﴿ وتَرَبَّصْتُمْ ﴾[6] بالتوبة ﴿ وغَرَّتْكُمْ الأماني ﴾[7] أي التسويف ﴿ حَتَّى جاءَ أمرُ الله ﴾[8] الموت : ﴿ وغرَّكمْ بالله الغرورُ ﴾[9] الشيطان . وقال : من قرأ يس والقرآن الحكيم لم يزل ذلك اليوم في سرور حتى يمسي .

قال سلمة بن شعيب : حدّثنا إبراهيم بن الحكم عن أبان عن أبيه . قال : كنت جالساً مع عكرمة عند البحر فذكروا الذي يغرقون في البحر فقال عكرمة : الذين يغرقون في البحر تقتسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شيء إلا العظام ، حتى تصير حائلاً نخرة فتمر بها الإبل فتأكلها ، ثم تسير الإبلُ فتبعرها ، ثم يجيء بعدهم قوم فينزلون ذلك المنزل فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ثم يصير رماداً فتجيء الريح فتأخذه فتذريه في كل مكان من الأرض حيث يشاء الله من بره وبحره ، فإذا جاءت النفخة ـ نفخة المبعث ـ فيخرج أولئك وأهل القبور المجموعين سواء . وبهذا الإسناد عنه قال : إن الله أخرج رجلين ، رجلاً من الجنة ورجلاً من النار ، فقال لصاحب الجنة : عبدي ! كيف وجدت مقيلك ؟ قال خير مقيل . ثم قال لصاحب النار : عبدي كيف وجدت مقيلك ؟ فقال : شرّ مقيل قاله القائلون ، ثم ذكر من عقاربها وحياتها وزنابيرها ، ومن أنواع ما فيها من العذاب وألوانه ، فيقول الله تعالى لصاحب النار : عبدي ! ماذا تعطيني إن أنا أعفيتك من النار ، فيقول العبد : إلهي وماذا عندي ما أعطيك ، فقال له الرب تعالى : لو كان لك جبل من ذهب أكنت تعطيني فأعفيك من النار ؟ فقال نعم ، فقال له الرب : كذبت لقد سألتك في الدنيا ما هو أيسر من ذلك ! تدعوني فاستجيب لك ، وتستغفرني فأغفر لك ، وتسألني فأعطيك ، فكنت تتولى ذاهباً .

وبهذا الإسناد قال : ما من عبد يقربه الله عز وجل يوم القيامة للحساب إلا قام من عند الله

---

(١) سورة الأنفال ، الآية/ ١٧ .
(٢) سورة القلم ، الآية / ١٣ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية / ٥٧ .
(٤) سورة الأحزاب ، الآية /١٠ .
(٥) سورة الحديد ، الآية / ١٤ .
(٦) سورة الحديد ، الآية / ١٤ .
(٧) سورة الحديد ، الآية / ١٤ .
(٨) سورة الحديد ، الآية / ١٤ .
(٩) سورة الحديد ، الآية/ ١٤ .

بعفوه ، وبه عنه : لكل شيء أساس ، وأساس الاسلام الخلق الحسن . وبه عنه قال : شكا نبي من الأنبياء إلى ربه عز وجل الجوع والعرى ، فأوحى الله إليه : أما ترضى أني سددت عنك باب الشر الناشيء عنها ؟ . وبه عنه قال : إن في السماء ملكاً يقال له إسماعيل لو أذن الله له بفتح أذن من آذانه يسبح الرحمن عز وجل لمات من في السموات والأرض . وبه عنه قال : سعة الشمس سعة الأرض وزيادة ثلاث مرات ، وسعة القمر سعة الأرض مرة ، وإن الشمس إذا غربت دخلت بحراً تحت العرش تسبّح الله حتى إذا أصبحت استعفت ربها تعالى من الطلوع فيقول لها : ولم ذاك ـ وهو أعلم ـ فتقول: لئلا أعبد من دونك ، فيقول لها: اطلعي فليس عليك شيء من ذلك، حسبهم جهنم أبعثها إليهم مع ثلاثة عشر ألف ملك تقودها حتى يدخلوهم : وهذا خلاف ما ثبت في الحديث الصحيح « إن جهنم يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » . وقال مندل عن أسد بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس . قال قال رسول الله ﷺ . «لا يقفن أحدكم على رجل يضرب ظلماً فإن اللعنة تنزل من السماء على من يحضره إذا لم تدفعوا عنه . ولا يقفن أحدكم على رجل يقتل ظلماً فإن اللعنة تنزل من السماء على من يحضره إذا لم تدفعوا عنه » . لم يرفعه إلا مندل هذا .

وروى شعبة عن عمارة بن حفصة عن عكرمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ «كان إذا عطس غطى وجهه بثوبه ، ووضع يديه على حاجبيه » ، هذا حديث عال من حديث شعبة ، وروى بقية عن إسحاق بن مالك الخضري عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من حلف على أحد يميناً ، وهو يرى أنه سيبره فلم يفعل ، فإنما أثمه على الذي لم يبره » . تفرد بـه بقية بن الـوليد مرفوعاً . وقال عبد الله بن أحمد في مسند أبيه : حدّثنا عبيد بن عمر القواريري حدّثنا يزيد بن ربيع حدّثنا عمارة بن أبي حفصة حدّثنا عكرمة حدّثتنا عائشة أن النبي ﷺ كان عليه بردان قطريان خشنان غليظان ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، إن ثوبيك هذين غليظان خشنان ، ترشح فيهما فيثقلان عليك ، فأرسل إلى فلان فقد أتاه برد من الشام فاشتر منه ثوبين الى ميسرة ، فأرسل إليه فأتاه الرسول فقال : إن رسول الله ﷺ بعث إليك لتبيعه ثوبين الى ميسرة . فقال : قد علمت والله ، ما يريد نبي الله إلا أن يذهب بثوبيَّ ويمطلني بثمنهما، فرجع الرسول إلى رسـول الله ﷺ فأخبـره فقال ﷺ : « كذب ! قد علموا أني أتقاهم لله ، وآداهم للأمانة » . وفي هذا اليوم قال النبي ﷺ : « لأن يلبس أحدكم من رقاع شتى خير له من أن يستدين ما ليس عنده » والله سبحانه أعلم[1] .

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق

كان أحد الفقهاء المشهورين ، له روايات كثيرة ، عن الصحابة وغيرهم ، وكان من أفضل أهل

(١) زيادة من المصرية .

المدينة ، وأعلم أهلِ زمانه ، قتل أبوه بمصر وهو صغير ، فأخذته خالته فنشأ عندها ، وساد وله مناقب كثيرة . أبو رجاء العطاردي .

وفيها توفي كثير عزة الشاعر المشهور

وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر ، أبو صخر الخزاعي الحجازي ، المعروف بابن أبي جمعة ، وعزة هذه المشهور بها المنسوب إليها ، لتغزله فيها، هي أم عمرو عزة بالعين المهملة ، بنت جميل بن حفص ، من بني حاجب بن غفار ، وإنما صغر إسمه فقيل كثير ، لأنه كان دميم الخلق قصيراً ، طوله ثلاثة أشبار . قال ابن خلكان : كان يقال له رب الدبان ، وكان إذا مشى يظن أنه صغير من قصره ، وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان يقول له : طأطىء رأسك لا يؤ ذيك السقف ، وكان يضحك إليه ، وكان يفد على عبد الملك ، ووفد على عبدالملك بن مروان مرات ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان يقال إنه أشعر الاسلاميين ، على أنه كان فيه تشيع ، وربما نسبه بعضهم الى مذهب التناسخية ، وكان يحتج على ذلك من جهله وقلة عقله إن صح النقل عنه ، في قوله تعالى : ﴿ في أيِّ صورةٍ ما شاءَ ركَّبك﴾[1] وقد أستأذن يوماً على عبد الملك فلما دخل عليه قال عبد الملك : لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، فقال : حَيَّهلا يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان ، وإن قاتل قاتل بجنان ، وأنا الذي أقول .

وجـربـتُ الأمـورَ وجـربـتـنـي	وقـدْ ابـدتْ عـريـكـتـي الأمـورُ
ومـا تـخـفـى الـرجـالُ عـلـى أنـي	بـهـم لاخـو مـشـاقـفـةٍ[2] خـبـيـرُ
تـرى الـرجـلَ النحيف فـتـزدريـهِ	وفـي أثـوابـهِ أسـدٌ زئـيـرُ[3]
ويـعـجـبـكَ الـطـريـرُ[4] فـتـخـتـبـرهُ	فـيـخـلفُ ظنـكَ الـرجـلُ الـطـريـرُ
ومـا هـامُ الـرجـالِ لـهـا بـزينٍ	ولـكـنْ زيـنـهـا ديـنٌ وخـيـرُ
بغـاثُ الـطـيـرَ أطـولهـا جـسـومـاً	ولـم تـطـلْ الـبـزاةُ ولا الـصـقـورُ[5]
وقـدْ عـظـمَ الـبـعـيـرُ بـغـيـرِ لـبٍ	فـلمْ يـسـتـغـنَ بـالـعـظـمِ الـبـعـيـرُ
فـيـركـبُ ثـم يـضـربُ بـالـهـراوي	ولا عـرفٌ لـديـهِ ولا نـكـيـرُ
وعـودُ الـنـبـعِ يـنـبـت مـسـتـمـراً	ولـيـسَ يـطـولُ والـعـضـبـاءُ حـورُ

وقد تكلم أبو الفرج بن طرار على غريب هذه الحكاية وشعرها بكلام طويل ، قالوا : ودخل

---

(١) سورة الانفطار ، الآية/ ٨ .

(٢) مشاقفة : مجادلة ومغالبة .

(٣) زئير : صوت الأسد .

(٤) الطرير : طرَّ شاربُهُ أي طلع .

(٥) بغاث : طائر أبغث ، أصغر من الرخم بطيء الطيران .

كثير عزة يوماً على عبد الملك بن مروان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها : ـ

على ابن أبي العاصي دروع حصينة ... أجاد المسدى سردها وأدالها

قال له عبد الملك : أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معد يكرب : ـ

وإذا تجيء كتيبةٌ ملمومةٌ ... شهباً يخشى الذائدونَ صيالها[١]
كنتَ المقدمَ غيرَ لابسِ جُبةً ... بالسيفِ يضربُ معلماً أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفه بالخرق ووصفتك بالحزم . ودخل يوما على عبد الملك وهو يتجهز للخروج الى مصعب بن الزبير فقال : ويحك يا كثير ، ذكرتك الآن بشعرك فان اصبته أعطيتك حكمك ، فقال : يا أمير المؤمنين كأنك لما ودعت عاتكة بنت يزيد بكت لفراقك فبكى لبكائها حشمها فذكرت قولي :

إذا ما أرادَ الغزوَ لم تثنِ عزمهُ ... حَصان عليها نظمُ درٍ يزينها
نهتهُ فلمّا لم ترَ النهى عاقهُ ... بكت فبكى مما عراها قطينها

قال : أصبت فاحتكم ، قال : مائة ناقة من نوقك المختارة ، قال : هي لك ، فلما سار عبد الملك إلى العراق نظر يوماً إلى كثير عزة وهو مفكر في أمره فقال : عليَّ به ، فلما جيء به قال له : أرأيت إن أخبرتك بما كُنت تفكر به تعطيني حكمي ؟ قال : نعم ، قال : والله ؟ قال : والله ، قال له عبد الملك إنك تقول في نفسك : هذا رجل ليس هو على مذهبي ، وهو ذاهب إلى قتال رجل ليس هو على مذهبي ، فإن أصابني سهم غرب من بينهما خسرت الدنيا والآخرة ، فقال : أي والله يا أمير المؤمنين فاحتكم ، قال : أحتكم حكمي أن أردك إلى أهلك وأحسن جائزتك ، فأعطاه مالاً وأذن له بالإنصراف وقال حماد الراوية عن كثير عزة : وفدت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة ، ونحن نمتّ بصحبتنا إياه ومعاشرتنا له ، لما كان بالمدينة ، وكل منا يظن أنه سيشركه في الخلافة ، فنحن نسير ونختال في رحالنا ، فلما انتهينا إلى خُناصرة ولاحت لنا أعلامها ، تلقانا مسلمة بن عبد الملك فقال : ما أقدمكم ؟ أو ما علمتم أن صاحبكم لا يحب الشعر ولا الشعراء ؟ قال : فوجمنا[٢] لذلك ، فأنزلنا مسلمة عنده وأجرى علينا النفقات وعلف دوابنا ، وأقمنا عنده أربعة أشهر لا يمكنه أن يستأذن لنا على عمر ، فلما كان في بعض الجمع[٣] دنوت منه لأسمع خطبته فأسلم عليه بعد الصلاة ، فسمعته يقول في خطبته : لكل سفر زاد ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من عذابه وثوابه فترغبوا وترهبوا ، ولا

---

(١) صيالها : وثوبها .
(٢) فوجمنا : فحزنا .
(٣) الجمع : مفردها الجمعة أي صلاة الجمعة المفروضة .

يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ، فانه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يمسي بعد إصباحه ولا يصبح بعد إمسائه ، وربما كانت له كامنة بين ذلك خطرات الموت والمنايا ، وإنما يطمئن من وثق بالنجاة من عذاب الله وأهوال يوم القيامة ، فأما من لا يداوي من الدنيا كلماً إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يطمئن، أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتبدو مسكنتي في يوم لا منفع فيه إلا الحق والصدق، ثم بكى حتى ظننا أنه قاض نحبه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل : قال : فانصرفت إلى صاحبي فقلت : خذ سرحاً من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه فإنه رجل آخرة ليس برجل دنيا. قال : ثم استأذن لنا مسلمة عليه يوم الجمعة فلما دخلنا عليه سلَّمت عليه ثم قلت : يا أمير المؤمنين طال الثواء وقلت الفائدة ، وتحدث بجفائك إيانا وفود العرب . فقال : ﴿ إنما الصَّدقاتُ للفقراءِ والمسَاكِينَ ﴾[1] وقرأ الآية ، فإن كنتم من هؤلاء أعطيتم وإلا فلا حق لكم فيها ، فقلت : يا أمير المؤمنين إني مسكين وعابر سبيل ومنقطع به ، فقال : ألستم عند أبي سعيد ؟- يعني مسلمة بن عبد الملك - فقلنا : بلى ! فقال : إنه لا ثواب على من هو عند أبي سعيد ، فقلت : أتأذن لي يا أمير المؤمنين بالأنشاد ، قال : نعم ولا تقل إلا حقاً ، فأنشدته قصيدة فيه .

وليتَ فلمْ تشتم علياً ولم تخفْ ... بريئاً ولم تقبل إشارة مجرمِ
وصدقتُ بالفعلِ المقالَ معَ الذي ... أتيتُ فأمسى راضياً كل مسلمِ
ألا إنما يكفي الفتى بعدَ زيغهِ ... من الأودِ النادي ثقافُ المقومِ
وقد لبستْ تسعى اليك ثيابها ... تراءى لكَ الدنيا بكفٍ ومعصمِ
وتومضَ أحياناً بعينٍ مريضة ... وتبسمُ عن مثلِ الجمانِ المنظم
فأعرضتَ عنها مشمئزاً كأنما ... سقتكَ مذوقاً من سمامٍ وعلقمِ[2]
وقد كنتَ من أحبالها في ممنعٍ ... ومنْ بحرها في مزبدِ الموجِ مفعمِ
وما زلتَ تواقاً إلى كل غايةٍ ... بلغتَ بها أعلى البناءِ المقدمِ
فلما أتاكَ الملكُ عفواً ولم تكنِ ... لطالبِ دنيا بعدهُ في تكلمِ
تَركت الذي يفنى وإن كان مونقاً ... وآثرتَ ما يبقى برأي مصممِ
وأضررتَ بالفاني وشمرتَ للذي ... أمامكَ في يومٍ من الشرِ مظلمِ
ومالكَ إذا كنتَ الخليفةَ مانعٌ ... سوى الله من مالٍ رعيتَ ولادمِ
سما لك همٌ في الفؤادِ مؤرقٌ ... بلغتَ بهِ أعلى المعالي بسلمِ
فما بينَ شرقِ الأرضِ والغربِ كلها ... منادٍ ينادي من فصيحٍ وأعجمِ
يقولُ أميرُ المؤمنينَ ظلمتني ... بأخذكَ ديناري وأخذكَ درهمي

---

(1) سورة التوبة ، الآية/ ٦١ .

(2) علقم : الحنظل . وقيل : كل شيء مُرّ .

ولا بسطُ كفٍ لامرىءٍ غيرِ مجرمٍ ... ولا السفكُ منهُ ظالماً ملءُ محجمِ
ولو يستطيعُ المسلمونَ لقسموا ... لكَ الشطرَ من أعمارهمْ غيرَ ندَّمِ
فعشتَ بها ما حجَ لله راكبٌ ... ملبٍ مطيفٌ بالمقامِ وزمزمِ
فاربح بها من صفقةٍ لمبايعٍ ... وأعظمُ بها أعظمْ بها ثمَ أعظمِ

قال : فأقبل عليٌّ عمر بن عبد العزيز وقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة ، ثم استأذنه الأحوص فأنشده قصيدة أخرى فقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة . ثم استأذنه نصيب فلم يأذن له وأمر لكل واحد منهم بمائة وخمسين درهماً ، وأغزى نصيباً إلى مرج دابق . وقد وفد كُثَيِّر عزة بعد ذلك على يزيد بن عبد الملك فامتدحه بقصائد فأعطاه سبعمائة دينار . وقال الزبير بن بكار : كان كُثَيِّر عزة شيعياً خبيثاً يرى الرجعة ، وكان يرى التناسخ ويحتج بقوله تعالى : ﴿ في أيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبكَ ﴾[1] . وقال موسى بن عقبة هوّل كثير عزة ليلة في منامه فأصبح يمتدح آل الزبير ويرثي عبد الله بن الزبير ، وكان يسيء الرأي فيه :

بمفتضحِ البطحا تأولَ أنهُ ... أقامَ بها ما لم ترمها الأخاشبُ
سرحنا سروباً آمنينَ ومن يخف ... بوائقَ ما يخشى تنبهُ النوائبُ[2]
تبرأتُ من عيبِ ابن أسماءَ إنني ... إلى الله من عيبِ ابنِ أسماءَ تائبُ
هوَ المرءُ لا ترزى بهِ أمهاتهُ ... وآباؤهُ فينا الكرامُ الأطايبُ

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري : قالت عائشة بنت طلحة لكُثَيِّر عزة : ما الذي يدعوك إلى ما تقول من الشعر في عزَّة وليست على نصف من الحسن والجمال ؟ فلو قلت ذلك فِيَّ وفي أمثالي فأنا أشرف وأفضل وأحسن منها ـ وكانت عائشة بنت طلحة قد فاقت النساء حسناً وجمالاً وأصالة ـ وإنما قالت له ذلك لتختبره وتبلوه فقال :

ضحى قلبهُ يا عزُ أو كادَ يذهلُ ... وأضحى يريدُ الصومَ أو يتبدلُ
وكيفَ يريدُ الصومَ من هُوَ وامقٌ ... لعزةَ لا قالٌ ولا متبذلُ
إذا واصلتنا خلةٌ كي تزيلنا ... أبينا وقلنا الحاجبيةُ أولُ
سنوليكَ عرفاً إن أردتَ وصالنا ... ونحنُ لتيكَ الحاجبيةِ أوصلُ
وحدثها الواشونَ أني هجرتها ... فحملها غيظاً عليَّ المحملُ

فقالت له عائشة : قد جعلتني خلة[3] ولست لك بخلة ، وهلا قلت كما قال جميل فهو والله

---

(١) سورة الانفطار ، الآية/ ٨ .

(٢) النوائب : مفردها نائبة وهي المصيبة .

(٣) خلَّة : صديقة ودودة .

أشعر منك حيث يقول :

يا ربَّ عارضةٍ[1] علينا وصلَها ... بالجدِ تخلطهُ بقولِ الهازلِ
فأجبتها بالقولِ بعدَ تسترٍ ... حبي بثينةَ عن وصالك شاغلي
لو كانَ في قلبي بقدرِ قُلامةٍ[2] ... فضل وصلتكِ أو أتتكِ رسائلي

فقال : والله ما أنكر فضل جميل ، وما أنا إلا حسنة من حسناته ، واستحيا . ومما أنشده ا الأنباري لكُثَيِّر عزَّة :

بأبي وأمي أنتِ من معشوقةٍ ... طبن العدوُ لها فغيَّر حالها
ومشى إليَّ بعيبِ عزةَ نسوةٌ ... جعلَ الآلهُ خدودهنُ نعالها
الله يعلم لوْ جمعنَ ومثلت ... لأخذتَ قبلَ تأملٍ تمثالها
ولو أنّ عزةَ خاصمت شمسَ الضُّحى ... في الحسنِ عندَ موفّقٍ لقضى لها

وأنشد غيره لكُثَيِّر عزَّة :

فما أحدثَ النأيُ الذي كانَ بيننا ... سلوا ولا طولَ اجتماعٍ تقاليا
وما زادني الواشون[3] إلا صبابةً ... ولا كثرة الناهينَ إلاَّ تماديا

غيره له: فقلتُ لها يا عز كلُّ مصيبةٍ ... إذا وطنت يوماً لها النفسُ ذلتِ
هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مخامرٍ ... لعزةَ من أعراضنا ما استحلت

وقال كُثَيِّر عزَّة أيضاً وفيه حكمة أيضاً :

من لا يغمضُ عينهُ عن صديقهِ ... وعن بغضِ ما فيهِ يمتْ وهوَ عاتبُ
ومن يتتبعْ جاهداً كلَ عثرةٍ ... يجْدها ولا يَبقى له الدهر صاحب

وذكروا أن عزة بنت جميل بن حفص أحد بني حاجب بن عبد الله بن غفار أم عمرو الضمرية وفدت على عبد الملك بن مروان تشكو إليه ظلامة فقال : لا أقضيها لك حتى تنشديني شيئاً من شعره ، فقالت : لا أحفظ لكُثَيِّر شعراً ، لكني سمعتهم يحكون عنه أنه قال فيَّ هذه الأبيات :

قضى كلُّ ذي دينٍ علمتُ غريمهُ ... وعزةُ ممطولٌ معني غريمها

فقال : ليس عن هذا أسألك ولكن أنشديني قوله :

وقد زعمت أني تغيرتُ بعدها ... ومن ذا الذي يا عزُّ لا يتغيرُ

---

(١) عارضة : صفحة الخد .

(٢) قلامة : قلامة الظفر : ما سقط من طرفه . ويضرب بها المثل في الخسيس الحقير .

(٣) الواشون : مفردها الواشي وهو النَّمام العذول .

تغيـرَ جسمي والمحبـةُ كـالـذي عـهـدتِ ولمْ يـخبـرْ بـذاكَ مـخبـرُ

قال فاستحيت وقالت : أما هذا فلا أحفظه ولكن سمعتهم يحكونه عنه ، ولكن أحفظ له قوله :

كـأني أنـادي صخـرة حينَ أعـرضتْ مِنَ الظلمِ لو تمشي بهـا العصمُ زلتِ
صـفـوحٌ فـمـا تـلقـاكَ إلا بـخيـلةٌ ومنْ مـلَّ منهـا ذلـكَ الـوصـلَ ملتِ

قال فقضى لها حاجتها وردها ورد عليها ظلامتها وقال : أدخلوها الحرم ليتعلموا من أدبها . وروى عن بعض نساء العرب قالت : اجتازت بنا عزَّة فاجتمع نساء الحاضر إليها لينظرن حسنها ، فإذا هي حميراء حلوة لطيفة ، فلم تقع من النساء بذاك الموقع حتى تكلمت فإذا هي أبرع النساء وأحلاهن حديثاً ، فما بقي في أعيننا امرأة تفوقها حسناً وجمالاً وحلاوة . وذكر الأصمعي عن سفيان بن عيينة قال : دخلت عزَّة على سُكَيْنة بنت الحسين فقالت لها : إني أسألك عن شيء فاصدقيني ، ما الذي أراد كُثَيِّر في قوله لك :

قضى كـلَّ ذي دينٍ فـوفى غـريمـهُ وعـزةُ ممـطولٌ[1] معنَّى غـريـمَهـا

فقالت : كنت وعدته قبلة فمطلته بها ، فقالت : أنجزيها له وإثمها عليَّ ، وقد كانت سكينة بنت الحسين من أحسن النساء حتى كان يضرب بحسنها المثل ، وروى أن عبد الملك بن مروان أراد أن يزوج كثيراً من عزة فأبت عليه وقالت : يا أمير المؤمنين أبعد ما فضحني بين الناس وشهرني في العرب ؟ وامتنعت من ذلك كل الامتناع ، ذكره ابن عساكر . وروى أنها اجتازت مرة بكثير وهو لا يعرفها فتنكرت عليه وأرادت أن تختبر ما عنده ، فتعرض لها فقالت : فأين حبك عزة ؟ فقال : أنا لك الفداء لو أن عزة أمة لي لوهبتها لك ، فقالت : ويحك لا تفعل ألست القائل :

إذا وصـلتنـا خـلةٌ كي تـزيـلنـا أبينـا وقـلنـا الحـاجبيـةُ أولُ ؟

فقال : بأبي أنت وأمي ، أقصري عن ذكرها واسمعي ما أقول :

هـل وصـل عـزةَ إلا وصـلَ غـانيـةٍ[2] في وصـلِ غـانيـةٍ من وصلهـا بـدلُ

قالت : فهل لك في المجالسة ؟ قال : ومن لي بذلك ؟ قالت : فكيف بما قلت في عزة ؟ قال : أقلبه فيتحول لك ، قال فسفرت عن وجهها وقالت : أغدراً وتناكثاً يا فاسق ، وإنك لها هنا يا عدو الله ، فبهت وأبلس ولم ينطق وتحير وخجل ، ثم قالت : قاتل الله جميلاً حيث يقول : ـ

محـا الله من لا يـنفـعَ الـودُ عـنـدهُ ومـن حبـلهِ إن صـدّ غـيـرُ مـتـيـنِ

---

(١) ممطول : من المماطلة وهي التسويف .

(٢) غانية : هي المرأة الغنية بحسنها وجمالها عن الزينة . . و ـ المتزوجة .

ومنْ هو ذو وجهينِ ليسَ بدائمٍ على العهدِ حلافاً بكلِ يمينِ

ثم شرع كثير يعتذر ويتنصل مما وقع منه ويقول في ذلك الأشعار ذاكراً وآثراً . وقد ماتت عزَّة بمصر في أيام عبد العزيز بن مروان، وزار كثير قبرها ورثاها وتغير شعره بعدها ، فقال له قائل : ما بال شعرك تغيَّر وقد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة ولا أطرب ، وذهب الشباب فلا أعجب ، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب ، وإنما ينشأ الشعر عن هذه الخلال .

وكانت وفاته ووفاة عكرمة في يوم واحد ، ولكن في سنة خمسٍ ومائة على المشهور . وإنما ذكره شيخنا الذهبي في هذه السنة ـ أعني سنة سبع ومائة ـ والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان ومائة

(ففيها افتتح مسلمة بن عبد الملك قيسارية من بلاد الروم ، وفتح إبراهيم بن هشام بن عبد الملك حصناً من حصون الروم أيضاً ، وفيها غزا أسيد بن عبد الله القسري أمير خراسان فكسر الأتراك كسرة فاضحة . وفيها زحف خاقان إلى أذربيجان وحاصر مدينة ورثان ورماها بالمناجيق[1] ، فسار إليه أمير تلك الناحية الحارث بن عمرو نائب مسلمة بن عبد الملك ، فالتقى مع خاقان ملك الترك فهزمه وقتل من جيشه خلق كثير ، وهرب الخاقان بعد أن كان قتل في جملة من قتل من جيشه ، وقتل الحارث بن عمرو شهيداً ، وذلك بعد أن قتلوا من الأتراك خلقاً كثيراً . وفيها غزا معاوية بن هشام بن عبد الملك أرض الروم ، وبعث البطال على جيش كثيف فافتتح جنجرة وغنم منها شيئاً كثيراً)[2] .

وفيها توفي من الأعيان بكر بن عبد الله المزني البصري . (كان عالماً عابداً زاهداً متواضعاً قليل الكلام ، وله روايات كثيرة عن خلق من الصحابة والتابعين ، قال بكر بن عبد الله : إذا رأيت من هو أكبر منك من المسلمين فقل : سبقته إلى المعاصي فهو خير مني ، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل : هذا من فضل ربي ، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل : هذا بذنب أحدثته . وقال : من مثلك يا ابن آدم ؟ خلى بينك وبين الماء والمحراب متى شئت تطهرت ودخلت على ربك عز وجل ليس بينك وبينه ترجمان ولا حاجب . وقال : لا يكون العبد تقياً حتى يكون تقي الطمع تقي الغضب . وقال : إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس ناسياً لعيبه فاعلموا أنه قد مُكر به . وقال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا بلغ المبلغ الصالح من العمل فمشى في الناس تظلله غمامة ، قال : فمر رجل قد أظلته غمامة على رجل فأعظمه لما رآه مما آتاه الله ، فاحتقره صاحب الغمامة فأمرها الله

---

(١) بالمناجيق : مفردها منجنيق وهي آلة لرمي الحجارة والنار .

(٢) زيادة من المصرية .

آن تتحول عن رأسه إلى رأس الذي احتقره ، وهو الذي عظم أمر الله عز وجل ، وقال : ما سبقهم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ، ولكن بشيء قرّ في صدره . وله كلام حسن كثير يطول ذكره)[1].

راشد بن سعد المقراني الحمصي

عمّر دهراً ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وقد كان عابداً صالحاً زاهداً ، رحمه الله تعالى ، وله ترجمة طويلة .

محمد بن كعب القرظي

توفي فيها في قول [وهو أبو حمزة ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وكان عالماً بتفسير القرآن ، صالحاً عابداً ، قال الأصمعي : حدثنا أبو المقدام ـ هشام بن زياد ـ عن محمد بن كعب القرظي أنه سُئِلَ : ما علامة الخذلان ؟ قال : أن يقبح الرجل ما كان يستحسن ، ويستحسن ما كان قبيحاً . وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا عبد الله بن عبد الله بن موهب قال : سمعت ابن كعب يقول : لأن أقرأ في ليلة حتى أصبح إذا زلزلت والقارعة لا أزيد عليهما وأردد فيهما الفكر ، أحب إليَّ من أن أهذّ القرآن هذاً ـ أو قال أنثره نثراً ـ وقال : لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ آيتك أن لا تكلمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلا رمزاً واذكرْ ربَّكَ كثيراً وسبِّح بالعشيِّ والأبكار ﴾[2] فلو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص له ، ولرخص للذين يقاتلون في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[3] . وقال في قوله تعالى : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾[4] . قال : اصبروا على دينكم وصابروا لوعدكم الذي وعدتم ، ورابطوا عدوّكم الظاهر والباطن ، واتقوا الله فيما بيني وبينكم ، لعلكم تفلحون إذا لقيتموني . وقال في قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ ربه ﴾[5] : علم ما أحل القرآن مما حرّم ﴿ منها قَائِمٌ وحَصِيدٌ ﴾[6] . قال : القائم ما كان من بنائهم قائماً ، والحصيد ما حصد فهدم . ﴿ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾[7] . قال : غرموا ما نعموا به من النعم في الدنيا ، وفي رواية سألهم ثمن نعمة فلم يقدروا عليها ولم يؤدوها ، فأغرمهم ثمنها . فأدخلهم النار .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالى قال : سمعت محمد بن كعب في هذه الآية ﴿ وما آتيتم مِنْ رِبًا ليربو في أموالِ الناسِ فلا يربوا عندَ اللَّهِ ﴾[8] قال : هو الرجل يعطي الآخر من ماله ليكافئه به أو يزداد ، فهذا الذي لا يربو عند الله ، والمضعفون هم الذين يعطون لوجه

(١) زيادة من المصرية .
(٢) سورة آل عمران ، الآية/ ٤١ .
(٣) سورة الأنفال ، الآية/ ٤٦ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية/ ٢٠٠ .
(٥) سورة يوسف ، الآية/ ٢٤ .
(٦) سورة هود ، الآية / ١٠١ .
(٧) سورة الفرقان ، الآية/ ٦٥ .
(٨) سورة الروم ، الآية/ ٣٩ .

الله لا يبتغي مكافأة أحد . وفي قوله تعالى : ﴿ أدخلني مُدْخَلِ صِدْقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [1] قال : اجعل سريرتي وعلانيتي حسنة . وقيل : أدخلني مدخل صدق في العمل الصالح ، أي الاخلاص ، وأخرجني مخرج صدق أي سالماً . ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [2] . أي يسمع القرآن وقلبه معه في مكان آخر . ﴿ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [3] . قال : السعي العمل ليس بالشد . وقال : الكبائر ثلاثة ، أن تأمن مكر الله ، وأن تقنط من رحمة الله ، وأن تيأس من روح الله .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خصال ، فقهاً في الدين ، وزهادة في الدنيا ، وبصراً بعيوب نفسه . وقال : الدنيا دار قلق ، رغب عنها السعداء ، وانتزعت من أيدي الأشقياء ، فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها ، وأزهد الناس فيها أسعد الناس بها ، هي الغاوية لمن أضاعها ، المهلكة لمن اتبعها ، الخائنة لمن انقاد لها ، علمها جهل ، وغناؤها فقر ، وزيادتها نقصان ، وأيامها دول . وروى ابن المبارك عن داود بن قيس قال سمعت محمد بن كعب يقول : إن الأرض لتبكي من رجل وتبكي على رجل ، تبكي على من كان يعمل على ظهرها بطاعة الله ، وتبكي ممن كان يعمل على ظهرها بمعصية الله ، قد أثقلها . ثم قرأ: ﴿ فَمَا بَكَتْ عليهِم السَّماءُ والأَرْضُ ﴾ [4] وقال في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾[5] من يعمل مثقال ذرة خيراً من كافر يرى ثوابها في نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له خير . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، من مؤمن يرى عقوبتها في نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له شر ، وقال : ما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع عليَّ في بعض ما يكره فمقتني ، وقال : اذهب لا أغفر لك ، مع أن عجائب القرآن تردني على أمور حتى أنه لينقضي الليل ولم أفرغ من حاجتي .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن كعب يسأله أن يبيعه غلامه سالماً ـ وكان عابداً خيراً زاهداً ـ فكتب إليه : ـ إني قد دبرته ، قال : فازدد فيه ، فأتاه سالم فقال له عمر : إني قد ابتليت بما ترى ، وأنا والله أتخوف أن لا أنجو ، فقال له سالم : إن كنت كما تقول فهذا نجاته ، وإلا فهو الأمر الذي يخاف . قال : يا سالم عظني ، قال : آدم عليه السلام أخطأ خطيئة واحدة خرج بها من الجنة ، وأنتم مع عمل الخطايا ترجون دخول الجنة ، ثم سكت . قلت : والأمر كما قيل في بعض كتب الله : تزرعون السيئات وترجون الحسنات ، لا يجتني من الشوك العنب .

تصلُ الذنوبُ إلى الذنوبِ وترتُجَى ... دَرَجَ الجنانِ وطيبَ عيشِ العابدِ
ونسيتَ أن اللَّهَ أخرجَ آدماً ... منها إلى الدنيا بذنْبٍ واحدِ

---

(1) سورة الإسراء ، الآية/ ٨٠ .
(2) سورة ق ، الآية / ٣٧ .
(3) سورة الجمعة ، الآية / ٩ .
(4) سورة الدخان، الآية/ ٢٩ .
(5) سورة الزلزال، الآيتان / ٧ ـ ٨ .

وقال : من قرأ القرآن متع بعقله وإن بلغ من العمر مائتي سنة . وقال له رجل : ما تقول في التوبة ؟ قال : لا أحسنها ، قال : أفرأيت إن أعطيت الله عهداً أن لا تعصيه أبداً ؟ قال : فمن أعظم جرماً منك ، تتألى على الله أن لا ينفذ فيك أمره .

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني : حدثنا ابن عبد العزيز حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا عباد بن عباد عن هشام بن زياد أبي المقدام . قالوا كلهم : حدثنا محمد بن كعب القرظي قال : حدثنا ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده ، ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده ، أفأنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنباً ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره ، إن عيسى بن مريم قام في بني إسرائيل خطيباً فقال : يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها - وقال مرة فتظلموهم - ولا تظلموا ظالماً ، ولا تطاولوا ظالماً فيبطل فضلكم عند ربكم ، يا بني إسرائيل الأمور ثلاثة ، أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله » . وهذه الألفاظ لا تحفظ عن النبي ﷺ بهذا السياق إلا من حديث محمد بن كعب عن ابن عباس ، وقد روى أول الحديث إلى ذكر عيسى من غير طريقه ، وسيأتي أن هذا الحديث تفرد به الطبراني بطوله والله سبحانه وتعالى أعلم[1] .

وفيها توفي أبو نضرة المنذر بن مالك بن قِطْعة العبدي ، وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل .

ثم دخلت سنة تسع ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك أسد بن عبد الله القسري عن إمرة خراسان وأمره أن يقدم إلى الحج ، فأقبل منها في رمضان ، واستخلف على خراسان الحكم بن عوانة الكلبي ، واستناب هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمي ، وأمره أن يكاتب خالد بن عبد الله القسري ، وكان أشرس فاضلاً خيراً ، وكان سُمِّيَ الكامل لذلك ، وكان أول من اتخذ المرابطة بخراسان ، واستعمل المرابطة عبد الملك بن زياد الباهلي ، وتولى هو الأمور بنفسه كبيرها وصغيرها ، ففرح بها أهلها ، وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين .

سنة عشر ومائة من الهجرة النبوية

فيها قاتل مسلمة بن عبدالملك ملك الترك الأعظم خاقان ، فزحف إلى مسلمة في جموع

(١) زيادة من المصرية .

عظيمة فتواقفوا نحواً من شهر ، ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء ، ورجع مسلمة سالماً غانماً ، فسلك على مسلك ذي القرنين في رجوعه إلى الشام ، وتسمَّى هذه الغزاة غزاة الطين ، وذلك أنهم سلكوا على مغارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة ، وتوحل فيها خلق كثير ، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالاً صعاباً وشدائد عظاماً ، وفيها دعا أشرس بن عبد الله السلمي نائب خراسان أهل الذمة بسمرقند ومن وراء النهر إلى الدخول في الإسلام ، ويضع عنهم الجزية فأجابوه إلى ذلك ، وأسلم غالبهم ، ثم طالبهم بالجزية فنصبوا له الحرب وقاتلوه ، ثم كانت بينه وبين الترك حروب كثيرة ، أطال ابن جرير بسطها وشرحها فوق الحاجة . وفيها أرسل أمير المؤمنين هشام بن عبيدة إلى إفريقية متولياً عليها ، فلما وصل جهز ابنه وأخاه في جيش فالتقوا مع المشركين فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا بطريقهم وانهزم باقيهم ، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً . وفيها افتتح معاوية بن هشام حصنين من بلاد الروم ، وغنم غنائم جمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام ، وعلى العراق خالد القسري ، وعلى خراسان أشرس السلمي .

ذكر من توفي فيها من الأعيان :

جرير الشاعر

وهو جرير بن الخطفي ويقال ابن عطية بن الخطفي واسم الخطفي حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ، أبو حرزة الشاعر البصري ، قدم دمشق مراراً ، وامتدح يزيد بن معاوية والخلفاء من بعده ووفد على عمر بن عبد العزيز ؛ وكان في عصره من الشعراء الذين يقارنونه الفرزدق والأخطل ، وكان جرير أشعرهم وأخيرهم ، قال غير واحد : هو أشعر الثلاثة ، قال ابن دريد ثنا الاشناندانى ثنا الثوري عن أبي عبيدة عن عثمان البتّي قال : رأيت جريراً وما تضم شفتاه من التسبيح ، فقلت : وما ينفعك هذا ؟ فقال : سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر ولله الحمد إن الحسنات يذهبن السيئات ، وعد من الله حق . وقال هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال : دخل رجل من بني عذرة على عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة وعنده الشعراء الثلاثة ، جرير والفرزدق والأخطل ، فلم يعرفهم الأعرابي ، فقال عبد الملك للأعرابي : هل تعرف أهجى بيت قالته العرب في الإسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

فَغَضِّ الطرفَ إنك من نُمَيْرٍ ... فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

فقال : أحسنت ، فهل تعرف أمدح بيت قيل في الإسلام ؟ قال نعم ! قول جرير :

ألستمْ خيرَ من ركبَ المطايا[1] ... وأندى العالمين بطونَ راحِ

---

(1) المطايا : مفردها المطية وهي الراحلة وسميت كذلك لأن الراكب يمتطيها .

فقال : أصبت وأحسنت ، فهل تعرف أرق بيت قيل في الإسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

إن العيونَ التي في طَرْفِها مَرَضٌ قَتَلْنَنا ثُمَّ لم يُحيينَ قَتلانا
يصرعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حَراكَ به وهنَّ أضعفُ خلْقِ الله أرْكانا

فقال : أحسنت ، فهل تعرف جريراً ؟ قال : لا والله ، وإني إلى رؤيته لمشتاق ، قال : فهذا جرير وهذا الفرزدق وهذا الأخطل ، فأنشأ الأعرابي يقول : -

فحيَّا الإلَهُ أبا حِزْرَةٍ وأرغَمَ أنفكَ يا أخطلُ
وجدَّ الفرزدقِ أتْعِسْ بِهِ ورقّ خياشيمهُ الجندلُ

فأنشأ الفرزدق يقول :

يا أرغمَ اللَّهُ أنفاً أنتَ حاملُهُ يا ذا الخنا[1] ومقالِ الزُّورِ والخطَلِ[2]
ما أنتَ بالحكمِ الترضي حكومتهُ ولا الأصيلُ ولا ذي الرأيِ والجدلِ

ثم أنشأ الأخطل يقول : -

يا شر من حملتْ ساقٌ على قدمٍ ما مثلُ قولكَ في الأقوامِ يحتملُ
ان الحكومة ليست في أبيكَ ولا في معشرٍ أنت منهمْ انهمْ سفلُ

فقام جرير مغضباً وقال : -

أتشتمانِ سَفاهاً خَيْرَكُمْ حَسَباً ففيكما - وإلَهي - الزورُ والخطل
شتمتاهُ على رفعي ووضْعِكما لا زِلتما في سَفالٍ أيها السَّفَل

ثم وثب جرير فقبَّل رأس الأعرابي وقال : يا أمير المؤمنين جائزتي له ، وكانت خمسة آلاف . فقال عبدالملك : وله مثلها من مالي ، فقبض الأعرابي ذلك كله وخرج . وحكى يعقوب بن السكيت أن جريراً دخل على عبد الملك مع وفد أهل العراق من جهة الحجاج فأنشده مديحه الذي يقول فيه :

ألستمْ خيرُ مَن ركبَ المطايا وأندى العالمينَ بُطونَ راحِ

فأطلق له مائة ناقة وثمانية من الرعاء أربعة من النوبة وأربعة من السبي الذين قدم بهم من الصغد قال جرير : وبين يدي عبد الملك جامان[3] من فضة قد أهديت له ، وهو لا يعبأ بها شيئاً ،

---

(١) الخنا : الذل .

(٢) الخطل : الفساد والرذيلة .

(٣) جامان : كأسان (فارسية) .

فهو يقرعها بقضيب في يده ، فقلت : يا أمير المؤمنين المحلب ، فألقى إليَّ واحداً من تلك الجامات ، ولما رجع إلى الحجاج أعجبه إكرام أمير المؤمنين له فأطلق الحجاج له خمسين ناقة تحمل طعاماً لأهله .

وحكى نفطويه أن جريراً دخل يوماً على بشر بن مروان وعنده الأخطل ، فقال بشر لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ومن هذا أيها الأمير ؟ فقال : هذا الأخطل ، فقال الأخطل : أنا الذي قذفت عرضك ، وأسهرت ليلك ، وآذيت قومك ، فقال جرير : أما قولك شتمت عرضك فما ضر البحر أن يشتمه من غرق فيه ، وأما قولك وأسهرت ليلك ، فلو تركتني أنام لكان خيراً لك ، وأما قولك آذيت قومك فكيف تؤذي قوماً أنت تؤدي الجزية إليهم ؟ وكان الأخطل من نصارى العرب المتنصرة ، قبَّحه الله وأبعد مثواه ، وهو الذي أنشد بشر بن مروان قصيدته التي يقول فيها :

قدْ استوى بشرُ على العراقِ مِن غيرِ سيفٍ ودمٍ مهراقِ

وهذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه ، وليست في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك ، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه ، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً ، فإنه إنما يقال استوى على الشيء إذا كان ذلك الشيء عاصياً عليه قبل استيلائه عليه ، كاستيلاء بشر على العراق ، واستيلاء عبد الملك* على المدينة بعد عصيانها عليه، وعرش الرب لم يكن ممتنعاً عليه نفساً واحداً ، حتى يقال استوى عليه ، أو معنى الاستواء الاستيلاء ، ولا تجد أضعف من حجج الجهمية ، حتى أداهم الافلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح وليس فيه حجة والله أعلم .

وقال الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أياماً لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم ، فساءهم ذلك وهمّوا بالرجوع إلى بلادهم ، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير : ـ

يا أيها الرجلُ المرخي عمامتهُ هذا زمانكَ فاستأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئاً ، فمرَّ بهم عدي بن أرطأة فقال له جرير منشداً :

يا أيها الراكبُ المرخي مطيتهُ هذا زمانُك إني قدْ مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنتَ لاقيهُ أني لدى البابِ كالمصفودِ في قرنِ(١)
لا تنسَ حاجتنا لاقيتَ مغفرةً قد طالَ مكثي عنْ أهلي وعن وطني

فدخل عدي على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة

(١) كالمصفود : الموثوق والمقيد .

(*) وردت في الاصل : الملك والاصح عبد الملك.

وأقوالهم نافذة ، فقال : ويحك يا عدي ، مالي وللشعراء ، فقال : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد كان يسمع الشعر ويجزي عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحه فأعطاه حلة ، فقال له عمر : أتروي منها شيئاً ؟ قال : نعم فأنشده : -

رأيتكَ يا خيرَ البريةِ كلها نشرتَ كتاباً جاءَ بالحقِ معلما
شرعتَ لنا دينَ الهدى بعدَ جوْرنا عَنِ الحقِ لما أصبحَ الحقُ مظلما
ونوّرتَ بالبرهانِ أمراً مدلّساً[1] واطفأتَ بالقرآنِ ناراً تضرّما
فمن مبلغٍ عنّي النبيَّ محمداً وكلُ امرىءٍ يجزي بما كانَ قدّما
أقمتَ سبيلَ الحقِ بعدَ اعوجاجهِ وكانَ قديماً ركنهُ قدْ تهدّما
تعالى علواً فوقَ عرشٍ إلهنا وكانَ مكانُ اللّهِ أعلا وأعظَما

فقال عمر : من بالباب منهم ؟ فقال : عمر بن أبي ربيعة ، فقال أليس هو الذي يقول :

ثم نبهتها فهبتْ كعابا[2] طفلةٌ ما تبينُ رجعَ الكلامِ
ساعة ثم إنها بعدُ قالتْ ويلنا قد عجلتَ يا ابنَ الكرامِ
أعلى غيرِ موعدٍ جئتَ تسري تتخطى إلى رؤوس النيامِ
ما تجشمت[3] ما تريدُ من الأمرِ ولا حيتَ طارقاً لخصامِ

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم وستر على نفسه ، لا يدخل والله أبداً ، فمن بالباب سواه ؟ قال : همام بن غالب - يعني الفرزدق - فقال عمر : أو ليس هو الذي يقول في شعره :

هما دلّياني من ثمانينَ قامةً كما انقض بازٍ أقتمُ الريش كاسره
فلما استوتْ رجلايَ بالأرضِ قالتا أحيٌّ أم قتيلٌ نحاذرهْ

لا يطأ والله بساطي وهو كاذب ، فمن سواه بالباب ؟ قال : الأخطل ، قال : أو ليس هو الذي يقول :

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طوعاً ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي
ولستُ بزاجرٍ عِيساً بكورٍ[4] إلى بَطْحَاء[5] مكّةَ للنجاحِ
ولستُ بزائرٍ بيتاً بعيداً بمكةَ أبتغي فيهِ صَلاحي

---

(١) مدلساً : مخادعاً - كاذباً .
(٢) كعاباً : هي التي نهدَ ثديُها .
(٣) تجشمت : قاسيت وتعبت .
(٤) عيساً : الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف .
(٥) بطحاء : مسيل واسع فيه رمل ودُقاق الحصى .

ولستُ بقائمٍ كالعيرِ[1] أدعو قبيلَ الصبحِ حيَّ على الفلاحِ
ولكني سأشربها شمولاً وأسجدُ عندَ منبلجِ الصباحِ

والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً ، فهل بالباب سوى من ذكرت ؟ قال : نعم الأحوص ، قال : أليس هو الذي يقول :

اللَّهُ بيني وبينَ سيِّدها يفرُّ منّي بها وأتبعهُ

فما هو دون من ذكرت ، فمن ههنا غيره ؟ قال جميل بن معمر ، قال : الذي يقول : ـ

ألا ليتَنا نحيا جَميعاً وإن نَمُتْ يوافقُ في الموتى خريجي خريجها
فما أنا في طولِ الحياةِ براغبٍ إذا قيلَ سوّى عَلَيْها صَفيحُها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحاً ويتوب ، والله لا يدخل عليَّ أبداً ، فهل بالباب أحد سوى ذلك ؟ قلت : جرير ، قال أما إنه الذي يقول :

طرقتكِ صائدةَ القلوبِ وليس ذا حينَ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

فإن كان لا بد فأذن لجرير ، فأذن له فدخل على عمر وهو يقول :

إن الذي بعثَ النبيَّ محمداً جعلَ الخلافةَ للإمامِ العادلِ
وسعَ الخلائقَ عدلُهُ ووفاؤهُ حتى ارعوى وأقامَ ميلَ المائلِ
إني لأرجو منكَ خيراً عاجلاً والنفسُ مولعةٌ بحبِ العاجلِ

فقال له : ويحك يا جرير ، اتق الله فيما تقول ، ثم إن جريراً استأذن عمر في الانشاد فلم يأذن له ولم ينهه ، فأنشده قصيد طويلة يمدحه بها ، فقال له : ويحك يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقاً ، فقال : إني مسكين وابن سبيل ، قال : إنا ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلاثمائة درهم ، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد بقيت مائة ، فأمر له بها ، فخرج على الشعراء فقالوا : ما وراءك يا جرير ؟ فقال : ما يسوءكم ، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :

رأيتُ رقى الشيطانِ لا تستفزُّه وقد كانَ شيطاني مِنَ الجنِ راقيا

وقال بعضهم فيما حكاه المعافي بن زكريا الجريري قالت جارية للحجاج بن يوسف : إنك تدخل هذا علينا ، فقال : إنه ما علمت عفيفا ، فقالت : أما إنك لو أخليتني وإياه سترى ما يصنع ، فأمر باخلائها مع جرير في مكان يراهما الحجاج ولا يريانه ، ولا يشعر جرير بشيء من ذلك ، فقالت

---

(١) كالعير : قافلة الحمير . وقد أُطْلِقَتْ على كلِّ قافلة .

له : يا جرير ، فأطرق رأسه ، وقال : هأنذا ، فقالت : أنشدني من قولك كذا وكذا ـ لشعر فيه رقة ـ فقال : لست أحفظه ولكن أحفظ كذا وكذا ـ ويعرض عن ذاك وينشدها شعراً في مدح الحجاج ـ فقالت : لست أريد هذا ، إنما أريد كذا وكذا ـ فيعرض عن ذاك وينشدها في الحجاج ـ حتى انقضى المجلس فقال الحجاج : لله درك ، أبيت إلا كرماً وتكرماً . وقال عكرمة أنشدت أعرابياً بيتاً لجرير الخطفي :

أبـدلَ الليـلُ لا تجـري كـواكبـهُ أو طالَ حتى حسبتُ النجمَ حيرانـا

فقال الأعرابي : إن هذا حسن في معناه وأعوذ بالله من مثله ، ولكني أنشدك في ضده من قولي :

ولـيـلٌ لـم يـقـصـرهُ رقـاد وقـصـرهُ لـنـا وصـلُ الـحـبـيـبِ
نـعـيـمُ الـحـبِ أورقَ فـيـهِ حتى تنـاولنـا جنـاهُ[1] من قـريبِ
بـمـجلسِ لـذةٍ لـم نـقـفِ فـيـهِ على شكـوى ولاعيبِ الـذنـوبِ
فـخـشـيـنـا أنْ نـقـطـعـهُ بـلفظٍ فتـرجمتْ العيـون عن القلوبِ[2]

فقلت له : زدني ، قال : أما من هذا فحسبك ولكن أنشدك غيره فأنشدني :

وكـنتُ إذا عـقـدتُ حِبـال قـومٍ صـحـبـتُـهـمُ وشـيـمـتـيَ الـوفـاءُ
فـأحسنُ حينَ يحسنُ مُحسِنـوهـمْ وأجـتـنـبُ الإسـاءةَ إن أسـاءوا
أشـاءُ سـوى مـشيئتـهـمْ فـآتـي مـشـيـئـتَـهـمْ وأتـركُ مـا أشـاءُ

قال ابن خلكان : كان جرير أشعر من الفرزدق عند الجمهور ، وأفخر بيت قاله جرير :

إذا غـضـبت عليـكَ بـنـو تميـمٍ حسبـتَ النـاسَ كـلَّهمُ غِـضَـابـا

قال وقد سأله رجل : من أشعر الناس ؟ فأخذ بيده وأدخله على ابنه ، وإذا هو يرتضع من ثدي عنز ، فاستدعاه فنهض واللبن يسيل على لحيته ، فقال جرير للذي سأله : أتبصر هذا ؟ قال : نعم ، قال : أتعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا أبي ، وإنما يشرب من ضرع العنز لئلا يحلبها فيسمع جيرانه حس الحلب فيطلبوا منه لبنا ، فأشعر الناس من فاخر بهذا ثمانين شاعراً فغلبهم ، وقد كان بين جرير والفرزدق مقاولات ومهاجاة كثيرة جداً يطول ذكرها ، وقد مات في سنة عشر ومائة ، قاله خليفة بن خياط وغير واحد ، قال خليفة : مات الفرزدق وجرير بعده بأشهر ، وقال الصولي : ماتا في سنة إحدى عشرة ومائة ، ومات الفرزدق قبل جرير بأربعين يوماً ، وقال الكريمي عن الأصمعي عن أبيه

(1) جناه : كل ما يُجنى .
(2) في هذه الأبيات تحريف ، ولم نقف عليها في مرجع آخر .

قال : رأى رجل جريراً في المنام بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، فقيل : بماذا ؟ قال بتكبيرة كبرتها بالبادية ، قيل له : فما فعل الفرزدق ،؟ قال أيهات أهلكه قذف المحصنات . قال الأصمعي لم يدعه في الحياة ولا في الممات .

وأما الفرزدق

واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن حنظلة بن زيد بن مناة بن مر بن أد بن طابخة أبو فراس بن أبي خطل التميمي البصري الشاعر المعروف بالفرزدق ، وجده صعصعة بن ناجية صحابي ، وفد إلى رسول الله ﷺ ، وكان يحيى المؤ ودة في الجاهلية ، حدث الفرزدق عن علي أنه ورد مع أبيه عليه ، فقال من هذا ؟ قال ابني وهوشاعر ، قال علمه القراءة فهو خير له من الشعر . وسمع الفرزدق الحسين بن علي ورآه وهو ذاهب إلى العراق وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري وعرفجة بن أسعد ، وزرارة بن كرب ، والطرماح بن عدي الشاعر ، وروى عنه خالد الحذاء ومروان الأصغر وحجاج بن حجاج الأحول ، وجماعة ، وقد وفد على معاوية يطلب ميراث عمه الحباب ، وعلى الوليد بن عبد الملك وعلى أخيه ، ولم يصح ذلك ، وقال أشعث بن عبد الله عن الفرزدق قال نظر أبو هريرة إلى قدمي فقال : يا فرزدق إني أرى قدميك صغيرين فاطلب لهما موضعاً في الجنة ، فقلت : إن ذنوبي كثيرة ، فقال : لا بأس فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » . وقال معاوية بن عبد الكريم عن أبيه قال : دخلت على الفرزدق فتحرك فإذا في رجله قيد ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : حلفت أن لا أنزعه حتى أحفظ القرآن . وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت بدوياً أقام بالحضر إلا فسد لسانه إلا رؤ بة بن العجاج والفرزدق فإنهما زادا على طول الإقامة جدة وحدة ، وقال راويته أبو سفعل طلق الفرزدق امرأته النَّوَّار ثلاثاً ثم جاء فأشهد على ذلك الحسن البصري ، ثم ندم على طلاقها وإشهاده الحسن على ذلك فأنشأ يقول : -

فلو أني مَلَكتُ يدي وقَلْبي ... لَكانَ عليَّ للقَدَرِ الخِيارَ
ندمتُ ندامةَ الكسعي لما ... غدتْ مني مطلقةٌ نوارُ
وكانتْ جنتي فخرجتُ منها ... كآدمَ حينَ أخرجهُ الضرارُ

وقال الأصمعي وعير واحد : لما ماتت النوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي امرأة الفرزدق - وكانت قد أوصت أن يصلي عليها الحسن البصري - فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن والحسن على بغلته ، والفرزدق على بعيره ، فسار فقال الحسن للفرزدق : ماذا يقول الناس ؟ قال : يقولون شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس - يعنونك - وشر الناس - يعنوني - فقال له : يا أبا فراس لست أنا بخير الناس ولست أنت بشر الناس ، ثم قال له الحسن : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال :

شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فلما أن صلّى عليها الحسن مالوا إلى قبرها فأنشأ الفرزدق يقول :

أخافَ وراءَ القبرِ انْ لم يعافني	أشدُّ مِنَ القبرِ التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يومَ القيامةِ قائد	عنيف وسواقٌ يسوقُ الفرزدقا
لقد خابَ مِن أولادِ دارمَ مَنْ مشى	إلى النارِ مغلولَ[1] القلادةِ أزرقا
يساق الى نارِ الجحيمِ مسربلاً	سرابيلَ قطرانٍ لباساً مخرقاً
إذا شربوا فيها الصديدَ رأيتهم	يذوبونَ مِنْ حرِّ الصديدِ[2] تمزقا

قال : فبكى الحسن حتى بلَّ الثرى ثم التزم الفرزدق ، وقال : لقد كنت من أبغض الناس إليَّ ، وإنك اليوم من أحب الناس إليَّ . وقال له بعض الناس : ألا تخاف من الله في قذف المحصنات ، فقال : والله لله أحب إليَّ من عينيَّ اللتين أبصر بهما ، فكيف يعذبني ؟ وقد قدمنا أنه مات سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوماً ، وقيل بأشهر فالله أعلم .

وأما الحسن وابن سيرين فقد ذكرنا ترجمة كل منهما في كتابنا التكميل مبسوطة وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فأما الحسن بن ابي الحسن

فاسم أبيه يسار وأبرد هو أبو سعيد البصري مولى زيد بن ثابت ، ويقال مولى جابر بن عبد الله وقيل غير ذلك ، وأمه خيرة مولاة لأم سلمة كانت تخدمها ، وربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع ، فتشاغله أم سلمة بثدييها فيدران عليه فيرتضع منهما ، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدي المنسوب إلى رسول الله ﷺ ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له ، وكان في جملة من يدعو له عمر بن الخطاب ، قال : اللهم فقهه في الدين ، وحببه إلى الناس . وسئل مرة أنس بن مالك عن مسألة فقال : سلوا عنها مولانا الحسن ، فإنه سمع وسمعنا ، فحفظ ونسينا ، وقال أنس مرة : إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين ـ الحسن وابن سيرين ـ وقال قتادة : ما جالست رجلاً فقيهاً إلا رأيت فضل الحسن عليه ، وقال أيضاً : ما رأت عيناي أفقه من الحسن ، وقال أيوب : كان الرجل يجالس الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن مسألة هيبة له ، وقال الشعبي لرجل يريد قدوم البصرة : إذا نظرت إلى رجل أجمل أهل البصرة وأهيبهم فهو الحسن ، فأقرأه مني السلام . وقال يونس بن

---

(١) مغلول : مقيَّد .

(٢) الصديد : القَيْح المختلط بالدم .

عبيد : كان الرجل إذانظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله ولم يسمع كلامه ، وقال الأعمش : ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها ، وكان أبو جعفر إذا ذكره يقول : ذاك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء .

وقال محمد بن سعد : قالوا كان الحسن جامعاً للعلم والعمل ، عالماً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً زاهداً ناسكاً كثير العلم والعمل فصيحاً جميلاً وسيماً ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، وجلس العلماء حوله ، واجتمع الناس إليه فحدّثهم . قال أهل التاريخ : مات الحسن عن ثمانٍ وثمانين سنة ، عام عشر ومائة في رجب منها ، بينه وبين محمد بن سيرين مائة يوم .

وأما ابن سيرين

فهو محمد بن سيرين أبو بكر بن أبي عمرو الأنصاري . مولى أنس بن مالك النضري ، كان أبو محمد من سبي عين التمر ، أسره خالد بن الوليد في جملة السبي ، فاشتراه أنس ثم كاتبه ، ثم ولد له من الأولاد الأخيار جماعة ، محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعبد ويحيى وحفصة وكريمة ، وكلهم تابعيون ثقات أجلّاء رحمهم الله . قال البخاري : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ، وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأموناً عالماً رفيعاً فقيهاً إماماً كثير العلم ورعاً . وكان به صمم ، وقال مؤرق العجلي : ما رأيت رجلاً أفقه في ورعه ، وأورع في فقهه منه ، قال ابن عون : كان محمد بن سيرين أرجى الناس لهذه الأمة ، وأشد الناس إزاراً على نفسه ، وأشدهم خوفاً عليها . قال ابن عون : ما بكى في الدنيا مثل ثلاثة ، محمد بن سيرين في العراق ، والقاسم بن محمد في الحجاز ، ورجاء بن حيوة بالشام . وكانوا يأتون بالحديث على حروفه ، وكان الشعبي يقول : عليكم بذاك الأصم ـ يعني محمد بن سيرين ـ وقال ابن شوذب : ما رأيت أحداً أجرأ على تعبير الرؤ يا [1] منه . وقال عثمان البتي : لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء منه . قالوا : ومات في تاسع شوّال من هذه السنة بعد الحسن بمائة يوم .

فَصْــــــلْ

كان اللائق ، بالمؤلف أن يذكر تراجم هؤلاء العلماء الأخيار قبل تراجم الشعراء المتقدم ذكرهم فيبدأ ثم يأتي بتراجم الشعراء ، وأيضاً فانه أطال القول في تراجم الشعراء واختصر تراجم العلماء ، ولو كان فيها حسن وحكم جمة ينتفع بها من وقف عليها ، ولعلها أفيد من مدحهم والثناء عليهم ، ولا سيما كلام الحسن وابن سيرين ووهب بن منبه ـ كما ذكره بعد وكما سيأتي ذكر ترجمته في هذه الزيادة ـ فانه قد اختصرها جداً وإن المؤلف أقدر وأوسع علماً ، فما ينبغي أن يخل ببعض كلامهم وحكمهم ، فان النفوس

---

(١) الرُّؤْيَا : ما تراه في المنام .

مستشرفة الى معرفة ذلك والنظر فيه ، فان أقوال السلف لها موقع من القلوب ، والمؤلف غالباً في التراجم يحيل على ما ذكره في التكميل الذي صنفه في أسماء الرجال ، وهذا الكتاب لم نقف عليه نحن ولا من سألناه عنه من العلماء ، فانا قد سألنا عنه جماعة من أهل الفن فلم يذكر غير واحد أنه اطّلع عليه . فكيف حال غيرهم . ؟ وقد ذكرت في غالب التراجم زيادات على ما ذكره المؤلف مما وصلت إليه معرفتي واطّلعنا عليه ، ولو كان عندي كتب لأشبعت القول في ذلك ، إذ الحكمة هي ضالة [1] المؤمن . ولعل أن يقف على هذا راغب في الآخرة ، طالب ما عند الله عزّ وجلّ فينتفع به أعظم مما ينتفع به من تراجم الخلف والملوك والأمراء ، وإن كانت تلك أيضاً نافعة لمعتبر ومزدجر ، فان ذكر أئمة العدل والجور بعد موتهم فيها فضل أولئك ، وغم هؤلاء ، ليعلم الظالم أنه وإذ مات لم يمت ما كان متلبساً به من الفساد والظلم ، بل هو مدوّن في الكتب عند العلماء . وكذلك أهل العدل والصلاح والخير ، فان الله قد قصّ في القرآن أخبار الملوك والفراعنة والكفار والمفسدين ، تحذيراً من أحوالهم وما كانوا يعملون ، وقصّ أيضاً أخبار الأتقياء والمحسنين والأبرار والأخيار والمؤمنين ، للاقتداء والتأسّي بهم والله سبحانه أعلم . فنقول وبالله التوفيق :

أما الحسن

فهو أبو سعيد البصري الامام الفقيه المشهور ، أحد التابعين الكبار الأجلاء علماً وعملاً وإخلاصاً فروى ابن أبي الدنيا عنه قال : كان الرجل يتعبد عشرين سنة لا يشعر به جاره ، وأحدهم يصلّي ليلة أو بعض ليلة فيصبح وقد استطال على جاره ، وإن كان القوم ليجتمعون فيتذاكرون فتجيء الرجل عبرته [2] فيردها ما استطاع ، فان غلب قام عنهم . وقال الحسن : تنفس رجل عند عمر بن عبد العزيز فلكزه عمر ـ أو قال : لكمه ـ وقال : إن في هذا لفتنة . وقد ذكره ابن أبي الدنيا عن الحسن عن عمر بن الخطاب . وروى الطبراني عنه أنه قال : إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة ، يقول أحدهم : إني لحسن الظن بالله ، وأرجو رحمة الله . وكذب ، لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله ، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة ، يوشك من دخل المفازة [3] من غير زاد ولا ماء أن يهلك . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : حادثوا هذه القلوب فانها سريعة الدثور [4] ، واقذعوا هذه الأنفس فانها تنزع الى شر غاية .

وقال مالك بن دينار : قلت للحسن : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ؟ قال : موت القلب ، فاذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه . وروى الفتني عن

---

(١) ضالة : هدف .

(٢) عبرته : دمعته .

(٣) المفازة : الصحراء .

(٤) الدثور : الاندثار والزوال .

أبيه قال : عاد الحسن عليلاً فوجده قد شفي من علّته ، فقال : أيها الرجل إن الله قد ذكرك فاذكره ، وقد أقالك فاشكره ، ثم قال الحسن : إنما المرض ضربة سوط من ملك كريم ، فأما أن يكون العليل بعد المرض فرساً جواداً ، وإما أن يكون حماراً عثوراً معقوراً . وروى العتبي عن أبيه أيضاً قال : كتب الحسن إلى فرقد :

أما بعد فاني أوصيك بتقوى الله ، والعمل بما علمك الله ، والاستعداد لما وعد الله ، مما لا حيلة لأحد في دفعه ، ولا ينفع الندم عند نزوله ، فاحسر عن رأسك قناع الغافلين ، وانتبه من رقدة الجاهلين ، وشمّر الساق ، فان الدنيا ميدان مسابقة ، والغاية الجنة أو النار ، فان لي ولك من الله مقاماً يسألني وإياك فيه عن الحقير والدقيق ، والجليل والخافي ، ولا آمن أن يكون فيما يسألني وإياك عنه وساوس الصدور ، ولحظ العيون ، وإصغاء الأسماع . وما أعجز عنه .

وروى ابن قتيبة عنه أنه مر على باب ابن هبيرة فرأى القراء ـ وكانوا هم الفقهاء ـ جلوساً على باب ابن هبيرة فقال : طفحتم نعالكم ، وبيضتم ثيابكم . ثم أتيتم الى أبوابهم تسعون ؟ ثم قال لأصحابه : ما ظنكم بهؤلاء الحذاء ؟ ليست مجالسهم من مجالس الأتقياء ، وإنما مجالسهم مجالس الشرط . وروى الخرائطي عن الحسن أنه كان إذا اشترى شيئاً وكان في ثمنه كسر جبره لصاحبه . ومر الحسن بقوم يقولون : نقص دانق أي عن الدرهم الكامل والدينار الكامل ـ إما أن يكون درهماً ينقص نصفاً أو ربعاً والعشرة تسعة ونصف ، وقس على هذا ، فكان الحسن يستحب جبران هذه الأشياء ، وإن كان اشترى السلعة بدرهم ينقص دانقاً كمله درهماً ، أو بتسعة ونصف كملها عشرة ، مروءة وكرماً . وقال عبد الأعلى السمسار ، قال الحسن : يا عبد الأعلى ! أما يبيع أحدكم الثوب لأخيه فينقص درهمين أو ثلاثة ؟ قلت لا والله ولا دانق واحد ، فقال الحسن : إن هذه الأخلاق فما بقي من المروءة إذاً ؟ . قال : وكان الحسن يقول : لا دين إلا بمروءة . وباع بغلة له فقال له المشتري : أما تحط لي شيئاً يا أبا سعيد ؟ قال لك خمسون درهماً ، أزيدك ؟ قال : لا ! رضيت ، قال : بارك الله لك .

وروى ابن أبي الدنيا عن حمزة الأعمى قال : ذهبت بي أمي الى الحسن فقالت : يا أبا سعيد : ابني هذا قد أحببت أن يلزمك فلعل الله أن ينفعه بك ، قال : فكنت أختلف إليه ، فقال لي يوماً : يا بني أدم الحزن على خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه ، وابكِ في ساعات الليل والنهار في الخلوة لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين ، قال : وكنت أدخل على الحسن منزله وهو يبكي ، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوماً : إنك تكثر البكاء فقال يا بني ! ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبكِ ؟ يا بني إن البكاء داعٍ الى الرحمة ، فان استطعت أن تكون عمرك باكياً فافعل لعله تعالى أن يرحمك ، فاذا أنت نجوت من النار ، وقال : ما هو إلا حلول الدار إما الجنة وإما النار ، ما هناك منزل ثالث . وقال : بلغنا أن الباكي من خشية الله لا تقطر من دموعه قطرة حتى تعتق رقبته من النار . وقال : لو أن باكياً بكى في ملأ من خشية الله لرحموا جميعاً ، وليس شيء من الأعمال إلا له وزن إلا البكاء من

خشية الله فانه لا يقوّم الله بالدمعة منه شيئاً وقال : ما بكى عبد إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب .

وروى ابن أبي الدنيا عنه في كتاب اليقين قال : من علامات المسلم قوة دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وحكم في علم ، وحبس في رفق ، وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتحمل في فاقة [1] وإحسان في قدرة ، وطاعة معها نصيحة ، وتورع في رغبة ، وتعفّف وصبر في شدة ، لا ترديه رغبته ، ولا يبدره لسانه ، ولا يسبقه بصره ، ولا يغلبه فرجه ، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه لسانه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته . كذا ذكر هذه الألفاظ عنه[2] . قال : حدّثنا عبد الرحمن بن صالح عن الحكم بن ظهير عن يحيى بن المختار عن الحسن فذكره ، وقال فيه أيضاً عنه : يا ابن آدم إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يدي الله عزّ وجلّ .

وقال ابن أبي الدنيا : حدّثنا علي بن إبراهيم اليشكري حدّثنا موسى بن إسماعيل الجبلي حدّثنا حفص بن سليمان أبو مقاتل عن عون بن أبي شداد عن الحسن قال ، قال لقمان لابنه : يا بني !! العمل لا يستطاع إلا باليقين ، ومن يضعف يقينه يضعف عمله . وقال : يا بني إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريب فاغلبه باليقين والنصيحة ، وإذا جاءك من قبل الكسل والسآمة فاغلبه بذكر القبر والقيامة ، وإذا جاءك من قبل الرغبة والرهبة فاخبره أن الدنيا مفارقة متروكة . وقال الحسن : ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع وذبل واستقام واقتصد حتى يأتيه الموت . وقال : باليقين طلبت الجنة ، وباليقين هربت من النار ، وباليقين أديت الفرائض على أكمل وجهها ، وباليقين أصبر على الحق وفي معافاة الله خير كثير ، قد والله رأيناهم يتعاونون في العافية ، فاذا نزل البلاء تفارقوا . وقال : الناس في العافية سواء ، فاذا نزل البلاء تبين عنده الرجال . وفي رواية : فاذا نزل البلاء تبين من يعبد الله وغيره ، وفي رواية فاذا نزل البلاء سكن المؤمن إلى ايمانه ، والمنافق الى نفاقه .

وقال الفريابي في فضائل القرآن : حدّثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، لم يأتوا الأمر من قبل أوله ، قال الله عزّ وجلّ ﴿كِتَابٌ أَنزلناهُ إليك مُبَارَكٌ ليدَّبَّرُوا آياتِهِ وليتذكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[3] وماتدبر آياته إلا أتباعه ، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفاً واحداً ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى له القرآن في خلَق ولا عمل ، حتى إن أحدهم ليقول : والله إني لأقرأ السورة في نفس ، لا والله ما هؤلاء بالقرّاء ولا بالعلماء ولا الحكماء ولا الورعة ، ومتى كانت القراءة هكذا أو يقول مثل هذا ، لا أكثر الله في الناس مثل هؤلاء . ثم روى الحسن عن جندب قال : قال لنا حذيفة : هل تخافون من شيء ؟ قال : قلت والله إنك وأصحابك لأهون الناس عندنا ، فقال : أما والذي

---

(١) فاقة : فقر وعوز .

(٢) كذا في الأصل ولم يعينّ إسم الذاكر .

(٣) سورة ص ، الآية / ٢٩ .

نفسي بيده لا تؤتون إلا من قبلنا ، ومع ذلك نشء آخر يقرأون القرآن يكونون في آخر هذه الأمة ينثرونه نثر الدقل ، لا يجاوز تراقيهم ، تسبق قراءتهم إيمانهم .

وروى ابن أبي الدنيا عنه في ذم الغيبة له قال : والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده . وكان يقول . ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لا تصيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، فاذا فعلت ذلك كان ذلك شغلك في طاعة نفسك ، وأحب العباد إلى الله مَن كان هكذا . وقال الحسن : ليس بينك وبين الفاسق حرمة . وقال : ليس لمبتدع غيبة . وقال أصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال : إذا ظهر فجوره فلا غيبة له . وقال : ثلاثة لا تحرم عليك غيبتهم : المجاهر بالفسق ، والامام الجائر [1] ، والمبتدع [2] . وقال له رجل : إن قوماً يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلاً ، فقال : هوِّن عليك يا هذا فاني أطمعت نفسي في الجنان فطمعت ، وأطمعتها في النجاة من النار فطمعت ، وأطمعتها في السلامة من الناس فلم أجد الى ذلك سبيلاً ، فان الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم ؟ وقال : كانوا يقولون : من رمى أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يصيب ذلك الذنب . وقال الحسن : قال لقمان لابنه : يا بنيَّ إياك والكذب فانه شهي كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال الحسن : اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فان الله عزّ وجلّ لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه ، فان سمعت قولاً حسناً فرويداً بصاحبه ، فان وافق قول عملاً فنعم ونعمت عين أخته وأخيه ، وإذا خالف قول عملاً فماذا يشبه عليك منه ، أم ماذا يخفى عليك منه ؟ إياك وإياه لا يخدعنك كما خدع ابن آدم ، إن لك قولاً وعملاً ، فعملك أحق بك من قولك ، وإن لك سريرة وعلانية ، فسريرتك أحق بك من علانيتك ، وإن لك عاجلة وعاقبة ، فعاقبتك أحق بك من عاجلتك .

وقال ابن أبي الدنيا : حدّثنا حمزة بن العباس أنبأ عبدان بن عثمان أنبأ معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إذا شبت لقيت الرجل أبيض حديد اللسان حديد النظر ميت القلب والعمل ، أنت أبصر به من نفسه ، ترى أبداناً ولا قلوباً ، وتسمع الصوت ولا أنيس ، أخصب ألْسِنَة وأجدب [3] قلوباً ، يأكل أحدهم من غير ماله ويبكي على عماله ، فاذا كهضته [4] البطنة قال : يا جارية أو يا غلام أيتني بهاضم ، وهل هضمت يا مسكين إلا دينك ؟ . وقال : من رق ثوبه رق دينه ، ومن سمن جسده هزل دينه ، ومن طاب طعامه أنتن كسبه . وقال فيما رواه عنه الآجري : رأس مال المؤمن دين حيث ما زال زال معه ، لا يخلفه في

---

(١) الجائر : المستبد الظالم .
(٢) المبتدع ، صاحب البدعة الضال .
(٣) أجدب : أكثر جدباً وفقراً .
(٤) كهضته : أوجعته .

الرحال ، ولا يأتمن عليه الرجال . وقال في قوله تعالى : ﴿ ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [1] قال : لا تلقى المؤمن إلا يلوم نفسه ، ما أردت بكلمة كذا ، ما أردت بأكلة كذا ، ما أردت بمجلس كذا ، وأما الفاجر فيمضي قدماً قدماً لا يلوم نفسه . وقال : تصبروا وتشددوا فانما هي ليالٍ تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم ، إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما يصبر على هذا الحق من عرف فضله وعاقبته . وقال : لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته .

وقال ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس : حدّثنا عبد الله حدّثنا إسماعيل بن زكريا حدّثنا عبد الله بن المبارك عن معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه لله عزّ وجلّ ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجأه الشيء ويعجبه فيقول : والله إنك لمن حاجتي وإني لأشتهيك ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا أبداً إن شاء الله : إن المؤمنين قوم قد أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عزّ وجلّ ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه ، وفي جوارحه كلها . وقال : الرضا صعب شديد ، وإنما معوّل المؤمن الصبر . وقال : ابن آدم عن نفسك فكايس ، فانك إن دخلت النار لم تجبر بعدها أبداً . وقال ابن أبي الدنيا : أنبأ إسحاق بن إبراهيم قال : سمعت حماد بن زيد يذكر عن الحسن قال : المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في غيرها ولا يجزع من ذلها ، للناس حال وله حال ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في شغل . وقال : لولا البلاء ما كان في أيام قلائل ما يهلك المرء نفسه . وقال : أدركت صدر هذه الأمة وخيارها وطال عمري فيهم ، فوالله إنهم كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم ، أدركتهم عاملين بكتاب ربهم ، متبعين سنّة نبيّهم ، ما طوى أحدهم ثوباً ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً ، ولا أمر أهله بصنع طعام ، كان أحدهم يدخل منزله فان قُرِّب إليه شيء أكل وإلا سكت فلا يتكلم في ذلك . وقال إن المنافق إذا صلّى صلّى رياء أو حياء من الناس أو خوفاً ، وإذا صلّى صلّى فقرأهم الدنيا ، وإن فاتته الصلاة لم يندم عليها ولم يحزنه فواتها .

وقال الحسن فيما رواه عنه صاحب كتاب النكت : من جعل الحمد لله على النعم حصناً وحابساً وجعل أداء الزكاة على المال سياجاً وحارساً ، وجعل العلم له دليلاً وسائساً ، أمن العطب ، وبلغ أعلى الرتب . ومن كان للمال قانصاً ، وله عن الحقوق حابساً ، وشغله وألهاه عن طاعة الله كان لنفسه ظالماً ولقلبه بما جنت يداه كالماً ، وسلّطه الله على ماله سالباً وخالساً ، ولم يأمل العطب في سائر وجوه الطلب وقيل : إن هذا لغيره ، والله أعلم .

---

(1) سورة القيامة ، الآية / ٢ .

وقال الحسن : أربع من كنّ فيه ألقى الله عليه محبته . ونشر عليه رحمته : من رق لوالديه ، ورق لمملوكه ، وكفل اليتيم ، وأعان الضعيف . وسُئِلَ الحسن عن النفاق فقال : هو اختلاف السر والعلانية والمدخل والمخرج ، وقال : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق ـ يعني النفاق ـ وحلف الحسن : ما مضى مؤمن ولا بقي إلا وهو يخاف النفاق ، وفي رواية : إلا وهو من النفاق مشفق ، ولا مضى منافق ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : كيف حبك الدينار والدرهم ؟ قال : لا أحبهما ، فكتب إليه : تولّ فانك تعدل . وقال إبراهيم بن عيسى : ما رأيت أطول حزناً من الحسن ، وما رأيته قط إلا حسبته عهد بمصيبة ، وقال مسمع : لو رأيت الحسن لقلت : قد بث عليه حزن الخلائق . وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أحزن من الحسن وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تخلق إلا لهما . وقال ابن أسباط : مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وأربعين سنة لم يمزح . وقال : ما سمع الخلائق بعورة بادية ، وعين باكية مثل يوم القيامة وقال : ابن آدم ! إنك ناظر غداً إلى عملك يوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه ، فإنك إذا رأيته غداً في ميزانك سرك [1] مكانه . وقال : ذهبت الدنيا وبقيت أعمالكم قلائد [2] في أعناقكم وقال : ابن آدم ! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، وهذا مأثور عن لقمان أنه قاله لولده .

وقال الحسن : تجد الرجل قد لبس الأحمر والأبيض وقال : هلموا فانظروا إليَّ ، قال الحسن : قد رأيناك يا أفسق الفاسقين فلا أهلاً بك ولا سهلاً ، فأما أهل الدنيا فقد اكتسبوا بنظرهم إليك مزيد حرص على دنياهم ، وجرأة على شهوات الغنى في بطونهم وظهورهم . وأما أهل الآخرة فقد كرهوك ومقتوك . وقال : إنهم وإن هملجت [3] بهم البراذين [4] ، وزفرت بهم البغال ، ووطئت أعقابهم الرجال ، إن ذل المعاصي لا يفارق رقابهم ، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه .

وقال فرقد : دخلنا على الحسن فقلنا : يا أبا سعيد : ألا يعجبك من محمد بن الأهتم ؟ فقال : ماله ؟ فقلنا : دخلنا عليه آنفا وهو يجود بنفسه فقال : انظروا إلى ذاك الصندوق ـ وأومأ إلى صندوق في جانب بيته ـ فقال : هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار ـ أو قال : درهم ـ لم أؤد منها زكاة ، ولم أصِل منها رحماً ، ولم يأكل منها [محتاج] . فقلنا : يا أبا عبد الله ، فلمن كنت تجمعها ؟ قال : لروعة الزمان ، ومكاثرة الأقران ، وجفوة السلطان . فقال : انظروا من أين أتاه شيطانه فخوفه روعة زمانه ، ومكاثرة أقرانه ، وجفوة سلطانه ؟ ثم قال : أيها الوارث : لا تخدعن كما

(١) كذا بالأصل وفيه نقص يظهر بالتأمل .
(٢) قلائد : مفردها قلادة .
(٣) هملجت : مشت بسرعة .
(٤) البراذين : مفردها برذونة دابّة الحمل الثقيلة .

خدع صويحبك بالأمس ، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه يمين ، ولم يعرق لك فيه جبين ، جاءك ممن كان له جموعاً منوعاً ، من باطل جمعه ، من حق منعه ، ثم قال الحسن : إن يوم القيامة لذو حسرات ، الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره فيرزقه الله فيه الصلاح والانفاق في وجوه البر ، فيجد ماله في ميزان غيره . وكان الحسن يتمثل بهذا البيت في أول النهار يقول :

وما الدنيا بباقية لحيٍ ولا حيَ على الدنيا بباقِ

وبهذا البيت في آخر النهار :

يسرُ الفتى ما كانَ قدمَ مِنْ تقى إذا عرفَ الداء الذي هو قاتله

ولد الحسن في خلافة عمر بن الخطاب وأتى به إليه فدعا له وحنكه . ومات بالبصرة في سنة عشر ومائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

محمد بن سيرين

أبو بكر بن أبي عمرو الأنصاري ، مولى أنس بن مالك النضري ، كان أبوه من سبي عين التمر أسره في جملة السبي خالد بن الوليد فاشتراه أنس ثم كاتبه . وقد ولد له من الاخيار جماعة ، محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعبد ، ويحيى ، وحفصة ، وكريمة ، وكلهم تابعيون ثقات أجلاء ، رحمهم الله تعالى .

قال البخاري : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان . وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر . وقد تقدم هذا كله فيما ذكر المؤلف .

كان ابن سيرين إذا ذكر عنده رجل بسوء ذكره بأحسن ما يعلم . وقال خلف بن هشام : كان محمد بن سيرين قد أعطى هدياً وسمتاً وخشوعاً ، وكان الناس إذا رأوه ذكروا الله . ولما مات أنس بن مالك أوصى أن يغسله محمد بن سيرين ـ وكان محمد محبوساً ـ فقالوا له في ذلك ، فقال : أنا محبوس فقالوا : قد استأذنا الأمير في إخراجك : قال : إن الأمير لم يحبسني ، إنما حبسني من له الحق ، فأذن له صاحب الحق فغسله . وقال يونس : ما عرض لمحمد بن سيرين أمران إلا أخذ بأوثقهما في دينه ، وقال : إني لأعلم الذنب الذي حملت بسببه ، إني قلت يوماً لرجل : يا مفلس ، فذكر هذا لأبي سليمان الداراني فقال : قلّت ذنوبهم فعرفوا من أين أتوا . ومثلنا قد كثرت ذنوبنا فلم ندر من أين نؤتى ، ولا بأي ذنب نؤخذ . وكان إذا دُعِيَ إلى وليمة يدخل منزله فيقول : إيتوني بشربة سويق [1] فيشربها ويقول : إني أكره أن أحمل جوعي إلى موائدهم وطعامهم : وكان يدخل السوق

(١) سويق : الخمر .

نصف النهار فيكبر الله ويسبحه ويذكره ويقول : إنها ساعة غفلة الناس ، وقال : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه . وقال : ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه وتكتم خيره .

وقال : العزلة عبادة ، وكان إذا ذكر الموت مات منه كل عضو على حدته . وفي رواية كان يتغير لونه وينكر حاله ، حتى كأنه ليس بالذي كان ، وكان إذا سُئِلَ عن الرؤ يا قال للسائل : اتق الله في اليقظة ولا يغرك ما رأيت في المنام . وقال له رجل : رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون ، فقال : فتش على امرأتك فانها أمك ، ففتش فإذا هي أمه. وذلك أن الرجل أخذ من بلاده صغيراً سبياً ثم مكث في بلاد الإسلام إلى أن كبر ، ثم سبيت أمه فاشتراها جاهلاً أنها أمه ، فلما رأى هذه الرؤ يا وذكرها لابن سيرين فأمره أن يفتش على ذلك ، ففتش فوجد الأمر على ما ذكره . وقال له آخر : رأيت كأني دست ـ أو قال وطئت ـ تمرة فخرجت منها فأرة ، فقال له : تتزوج امرأة ـ أو قال : تطأ امرأة ـ صالحة تلد بنتاً فاسقة ، فكان كما قال . وقال له آخر : رأيت كأن على سطح بيتي حبات شعير فجاء ديك فلقطها ، فقال له : إن سرق لك شيء في هذه الأيام فأتني . فوضعوا بساطاً على سطحهم فسرق ، فجاء إليه فأخبره ، فقال : اذهب إلى مؤذن محلتك فخذه منه ، فجاء إلى المؤذن فأخذ البساط منه . وقال له رجل : رأيت الحمام تلقط الياسمين . فقال : مات علماء البصرة . وأتاه رجل فقال : رأيت رجلاً عرياناً واقفاً على مزبلة وبيده طنبور يضرب به ، فقال له ابن سيرين : لا تصلح هذه الرؤ يا في زماننا هذا إلا للحسن البصري ، فقال : الحسن هو والله الذي رأيت . فقال : نعم ، لأن المزبلة الدنيا وقد جعلها تحت رجليه ، وعريه تجرده عنها ، والطنبور يضرب به هي المواعظ التي يقرع بها آذان الناس. وقال له آخر : رأيت كأني أستاك والدم يسيل . فقال له : أنت رجل تقع في أعراض الناس وتأكل لحومهم وتخرج في بابه وتأتيه (١) .

وقال له آخر : رأيت كأني أرى اللؤلؤ في الحمأة فقال له : أنت رجل تضع القرآن والعلم عند غير أهله ومن لا ينتفع به. وجاءته امرأة فقالت: رأيت كأن سنوراً أدخل رأسه في بطن زوجي فأخذ منه قطعة، فقال لها ابن سيرين: سرق لزوجك ثلاثمائة درهم، وستة عشر درهماً، فقالت: صدقت من أين أخذته ؟ فقال : من هجاء حروفه وهي حساب الجمل ، فالسين ستون ، والنون خمسون ، والواو ستة والراء مائتان ، وذلك ثلاثمائة وستة عشر ، وذكرت السنور أسود فقال : هو عبد في جواركم ، فالزموا عبداً أسود كان في جوارهم وضرب فأقر بالمال المذكور ، . وقال له رجل : رأيت لحيتي قد طالت وأنا أنظر إليها . فقال له أمؤذن أنت ؟ قال : نعم ! قال له : اتق الله ولا تنظر إلى دور الجيران . وقال له آخر : رأيت كأن لحيتي قد طالت حتى جززتها ونسجتها كساء وبعته في السوق . فقال له : اتق الله فانك شاهد زور . وقال له آخر : رأيت كأني آكل أصابعي ، فقال له تأكل من عمل

(١) كذا بالأصل وفيه تحريف .

يدك . وقال لرجل انظر هل ترى في المسجد أحداً ؟ فذهب فنظر ثم رجع إليه فقال : ليس في المسجد أحد ، فقال : أليس أمرتك أن تنظر هل ترى أحداً قد يكون في المسجد من الأمراء [1] ؟ . وقال عن رجل ذكر له ذلك الأسود ، ثم قال : أستغفر الله ! ما أراني إلا قد أغتبت الرجل ـ وكان الرجل أسود ـ وقال : اشترك سبعة في قتل امرأة فقتلهم عمر ، فقال لو أن أهل صنعاء اشتركوا في قتلها لأبدت خضراءهم .

وهيب بن منبه اليماني

تابعي جليل ، وله معرفة بكتب الأوائل ، وهو يشبه كعب الأحبار ، ولهُ صلاح وعبادة ، ويروى عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ ، وقد بسطنا ترجمته في كتابنا التكميل ولله الحمد . قال الواقدي : توفي بصنعاء سنة عشر ومائة ، وقال غيره : بعدها بسنة ، وقيل بأكثر ، والله أعلم . ويزعم بعض الناس أن قبره غربي بصرى بقرية يقال لها عصم ، ولم أجد لذلك أصلاً ، والله أعلم . انتهى ما ذكره المؤلف .

فصـــل

أدرك وهب بن منبه عدة من الصحابة ، وأسند عن ابن عباس وجابر والنعمان بن بشير . وروى عن معاذ بن جبل وأبي هريرة ، وعن طاوس . وعنه من التابعين عدة . وقال وهب : مثل من تعلم علماً لا يعمل به كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به . وعن منير مولى الفضل بن أبي عياش قال : كنت جالساً مع وهب بن منبه فأتاه رجل فقال له : إني مررت بفلان وهو يشتمك ، فغضب وقال : ما وجد الشيطان رسولاً غيرك ؟ فما برحت من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم فسلم على وهب فرد عليه السلام ، ومد يده إليه وصافحه وأجلسه على جنبه . وقال ابن طاوس : سمعت وهباً يقول : ابن آدم احتل لدينك فان رزقك سيأتيك . وقال وهب : كسي أهل النار والعري كان خيراً لهم ، وطعموا والجوع كان خيراً لهم ، وأعطوا الحياة والموت كان خيراً لهم . وقال : قال داود عليه السلام : اللهم أيما فقير سأل غنياً فتصامّ عنه ، فأسألك إذا دعاك فلا تجبه ، وإذا سألك فلا تعطه . وقال : قرأت في بعض كتب الله : ابن آدم ، لا خير لك في أن تعلم ما لم تعلم ، ولم تعمل بما قد علمت ، فإن مثلك كمثل رجل احتطب حطباً فحزم حزمة فذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى . وقال : إن لله ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد ، وما العمارة في الخراب إلا كفسطاط [2] في الصحراء .

وروى الطبراني عنه أنه قال : إذا أردت أن تعمل بطاعة الله عز وجل فاجتهد في نصحك

---

(١) كذا بالأصل ، وفيه تحريف .

(٢) كفسطاط : جمعها فساطيط : بَيْتٌ من شَعَرٍ .

وعملك لله ، فإن العمل لا يقبل ممن ليس بناصح ، والنصح لله لا يكمل إلا بطاعة الله ، كمثل الثمرة الطيبة ريحها وطعمها ، كذلك مثل طاعة الله ، النصح ريحها ، والعمل طعمها ، ثم زين طاعتك بالحلم والعقل ، والفقه والعمل ، ثم أكبر نفسك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا ، وعبّدها على أخلاق الأنبياء والعلماء العاملين ، وعوّدها فعل الحكماء ، وامنعها عمل الأشقياء ، وألزمها سيرة الأتقياء ، واعز بها عن سبل الخبثاء ، وما كان لك من فضل فأعن به من دونك ، وما كان فيمن دونك من نقص فأعنه عليه حتى يبلغه ، فإن الحكيم من جمع فواضله وعاد بها على من دونه ، وينظر في نقائص من دونه فيقويها ويرجيها حتى يبلغه ، إن كان فقيهاً حمل من لا فقه له إذا رأى أنه يريد صحابته ومعونته وإذا كان له مال أعطى منه من لا مال له ، وإذا كان مصلحاً استغفر للمذنب ورجا توبته ، وإذا كان محسناً أحسن إلى من أساء إليه واستوجب بذلك أجره ، ولا يعتر بالقول حتى يحسن منه الفعل ، فاذا أحسن الفعل نظر الى فضل الله وإحسانه إليه ، ولا يتمنى الفعل حتى يفعله ، فإذ بلغ من طاعة الله مبلغاً حمد الله على ما بلغ منها ثم طلب ما لم يبلغ منها ، وإذا ذكر خطيئة سترها عن الناس واستغفر الله الذي هو قادر على أن يغفرها ، وإذا علم من الحكمة شيئاً لم يشبعه بل يطلب ما لم يبلغ منها ، ثم لا يستعين بشيء من الكذب ، فإن الكذب كالأكلة في الجسد تكاد تأكله ، أو كالأكلة في الخشب ، يرى ظهرها حسنا وجوفها نخر تغر من يراها حتى تنكسر على ما فيها وتهلك من اغتر بها . وكذلك الكذب في الحديث لا يزال صاحبه يغتر به ، يظن أنه معينه على حاجته ورائد له في رغبته ، حتى يعرف ذلك منه ، ويتبينْ لذوي العقول غروره ، فتستنبط الفقهاء ما كان يستخفي به عنه ، فإذا اطلعوا على ذلك من أمره وتبين لهم ، كذبوا خبره ، وأباروا شهادته ، واتهموا صدقه ، وحقروا شأنه ، وأبغضوا مجلسه ، واستخفوا منه بسرائرهم ، وكتموه حديثهم ، وصرفوا عنه أماناتهم ، وغيبوا عنه أمرهم ، وحذروه على دينهم ومعيشتهم ؛ ولم يحضروه شيئاً من محاضرتهم ، ولم يأمنوه على شيء من سرِّهم ، ولم يحكموه فيما شجر بينهم .

وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال لقمان لابنه : إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة . وقال : قرأت في التوراة أربعة أسطر متواليات : من قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله ، ومن شكا مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه عز وجل ، ومن أسف على ما فاته من الدنيا سخط قضاء ربه عز وجل ، ومن تضعضع لغني ذهب ثلث دينه . وقال وهب : قرأت في التوراة : أيما دار بنيت بقوة الضعفاء جعلت عاقبتها إلى الخراب ، وأيما مال جمع من غير حله أسرع الفقر إلى أهله .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا معمر عن محمد بن عمرو قال : سمعت وهب بن منبه يقول : وجدتُ في بعض الكتب : يقول الله تعالى : إذا أطاعني عبدي استجبت له من قبل أن يدعوني ، وأعطيته من قبل أن يسألني ، وإن عبدي إذا أطاعني لو أن أهل السموات وأهل الأرض أجلبوا عليه جعلت له المخرج من ذلك ، وإن عبدي إذا عصاني قطعت يديه من أبواب السماء ،

وجعلته في الهواء فلا يمتنع من شيء أراده من خلقي . وقال ابن المبارك أيضاً : حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال الله تعالى فيما يعيب به أحبار [1] بني إسرائيل : تفقهون لغير الدين ، وتتعلمون لغير العمل ، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة ، وتلبسون جلود الضأن ، وتحملون نفس الذباب ، وتتغذون الغذاء من شرابكم ، وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام ، وتثقلون الدين على الناس أمثال الجبال ، ثم لا تعينوهم برفع الخناصر ، تطيلون الصلاة وتبيضون الثياب ، تنتقصون بذلك مال اليتيم والأرملة ، فبعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم .

وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد الصنعاني حدثنا همام بن مسلمة حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله ليس يحمد أحداً على طاعة ، ولا ينال أحد من الله خيراً إلا برحمته ، وليس يرجو الله خير الناس ولا يخاف شرهم ، ولا يعطف الله على الناس إلا برحمته إياهم ، إن مكروا به أباد مكرهم ، وإن خادعوه رد عليهم خداعهم ، وإن كاذبوه كذب بهم ، وإن أدبروا قطع دابرهم ، وإن أقبلوا قبل منهم ولا يقبل منهم شيئاً من حيلة ، ولا مكر ولا خداع ولا سخط ولا مشادة ، وإنما يأتي بالخير من الله تعالى رحمته ، ومن لم يبتغ الخير من قبل رحمته لا يجد باباً غير ذلك يدخل منه ، فإن الله تعالى لا ينال الخير منه إلا بطاعته ، ولا يعطف الله على الناس شيء إلا تعبدهم له ، وتضرعهم إليه حتى يرحمهم ، فإذا رحمهم استخرجت رحمته منه حاجتهم ، وليس ينال الخير من الله من وجه غير ذلك ، وليس إلى رحمة الله سبيل تؤتى من قبله إلا تعبد العباد له وتضرعهم إليه ، فإن رحمة الله عز وجل باب كل خير يبتغي من قبله ، وإن مفتاح ذلك الباب التضرع إلى الله عز وجل والتعبد له ، فمن ترك المفتاح لم يفتح له ، ومن جاء بالمفتاح فتح له به ، وكيف يفتح الباب بغير مفتاح ، ولله خزائن الخير كله ، وباب خزائن الله رحمته ، ومفتاح رحمة الله التذلل والتضرع والافتقار إلى الله ، فمن حفظ ذلك المفتاح فُتِحَتْ له الخزائن ودخل ، فله فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وفيها ما تشاؤ ون وما تدعون في مقام أمين ، لا يحولون عنه ولا يخافون ولا ينصبون ولا يهرمون ولا يفتقرون ولا يموتون ، في نعيم مقيم ، وأجر عظيم ، وثواب كريم ، نزلا من غفور رحيم .

وقال سفيان بن عيينة : قال وهب : أعون الأخلاق على الدين الزهادة في الدنيا ، وأسرعها رداً اتباع الهوى وحب المال والشرف ، ومن حب المال والشرف تنتهك المحارم ، ومن انتهاك المحارم يغضب الرب ، وغضب الله ليس له دواء . وقال : يقول الله تعالى في بعض كتبه يعتب به بني إسرائيل : إني إذا أطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وليس لبركتي نهاية ، وإذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ، وإن اللعنة مني تبلغ السابع من الولد . وقال : كان في بني إسرائيل رجل عصى

---

(١) احبار : مفردها الحَبْر : العالِم الصالح وهو مأخوذ من تحبير العلم وتحسينه .

الله عز وجل مائتي سنة ، ثم مات فأخذوا برجله فألقوه على مزبلة ، فأوحى الله إلى موسى : أن صلِّ عليه ، فقال : يا رب إن بني إسرائيل شهدوا أنه قد عصاك مائتي سنة ، قال الله له : نعم هكذا كان ، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ورأى اسم محمد ﷺ قبَّله ووضعه على عينيه وصلَّى عليه ، فشكرت ذلك له فغفرت له ذنوبه وزوجته سبعين حوراء . كذا روى وفيه علل ، ولا يصح مثله ، وفي إسناده غرابة وفي متنه نكارة شديدة . وروى ابن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال موسى : يا رب احبس عني كلام الناس ، فقال الله له : يا موسى ما فعلت هذا بنفسي ، وقال لما دعي يوسف إلى الملك وقف بالباب وقال : حسبي ديني من دنياي ، حسبي ربي من خلقه ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ثم دخل على الملك ، فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره وخر له ساجداً ثم أقعده الملك معه على السرير ، وقال : ﴿ إنكَ اليومَ لدينا مَكِينٌ أَمينٌ ﴾ (١) . فقال : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيم ﴾ (٢) . حفيظ بهذه السنين وما استودعتني فيها ، عليم بلغة من يأتيني .

وقال الإمام أحمد : حدثنا منذر بن النعمان الأفطس أنه سمع وهباً يقول : لما أمر الله الحوت أن لا يضره ولا يكلمه - يعني يونس - قال : ﴿ فلولا أَنَّـهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِـينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِـهِ إِلى يوم يُبْعَثُون ﴾ (٣) . قال : من العابدين قبل ذلك ، فذكره الله بعبادته المتقدمة ، فلما خرج من البحر نام فأنبت الله شجرة من يقطين - وهو الدباء - فلما رآها قد أظلته ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام فاستيقظ فإذا هي قد يبست ، فجعل يتحزن عليها ، فقيل له : أنت لم تخلق ولم تسق ولم تنبت وتحزن عليها ، وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشق ذلك عليك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد الغساني حدثنا رباح حدثني عبد الملك بن عبد المجيد بن خشك عن وهب قال : لما أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين ، قال : يا رب كيف أصنع بالأسد والبقر ؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب ؟ وكيف أصنع بالحمار والهر ؟ قال : من ألقى بينهم العداوة ؟ قال : أنت يا رب ، قال : فإني أؤلِّف بينهم حتى لا يتضررون .

وقال وهب لعطاء الخراساني : ويحك يا عطاء ، ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا ، وأبواب الأمراء ؟ ويحك يا عطاء ، أتأتي من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويوارى عنك غناه ، وتترك باب من يقول : ﴿ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ (٤) ؟ ويحك يا عطاء ، إن كان يغنيك ما يكفيك فأوهى ما في الدنيا يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس في الدنيا شيء يكفيك ، ويحك يا عطاء ، إنما بطنك بحر من البحور ، وواد من الأودية ، لا يملؤه شيء إلا التراب . وسُئِلَ وهب عن

---

(١) سورة يوسف ، الآية / ٥٤ .

(٢) سورة يوسف، الآية / ٥٥ .

(٣) سورة الصافات ، الآية/ ١٤٣ - ١٤٤ .

(٤) سورة غافر ، الآية/ ٦٠ .

رجلين يصليان ، أحدهما أطول قنوتاً وصمتاً ، والآخر أطول سجوداً ، فأيها أفضل ؟ فقال : أنصحهما لله عز وجل . وقال : من خصال المنافق أن يحب الحمد ويكره الذم ، أي يحب أن يحمد على ما لم يفعل ، ويكره أن يذم بما فيه . قال : وقال لقمان لابنه : يا بني اعقل عن الله فإن أعقل الناس من عقل عن الله ، وإن الشيطان ليفر من العاقل ما يستطيع أن يكايده . وقال لرجل من جلسائه : ألا أعلمك طباً لا يتعايا [1] فيه الأطباء ، وفقهاً لا يتعايا فيه الفقهاء، وحلماً لا يتعايا فيه الحلماء ، قال : بلى يا أبا عبد الله ، قال : أما الطب فلا تأكل طعاماً إلا سميت الله على أوله وحمدته على آخره ، وأما الفقه فإن سُئِلْتَ عن شيء عندك فيه علم فأخبر بما تعلم وإلا فقل : لا أدري ، وأما الحلم فأكثر الصمت إلا أن تَسْأل عن شيء ، وقال : إذا كان في الصبي خلقان ، الحياء والرهبة ، طمع في رشده .

وقال : لما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس قال له ملك هناك : صف لي الناس ، فقال محادثتك من لا يعقل كمن يغني الموتى ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يبل الصخر الأصم كي يلين ، وكمن يطبخ الحديد يلتمس أدمه ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يضع المائدة لأهل القبور ، ونقل الحجارة من رؤوس الجبال أيسر من محادثة من لا يعقل . وقال : قرأت في بعض الكتب أن منادياً ينادي من السماء الرابعة كل صباح : أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده ، أبناء الخمسين ماذا قدمتم ؟ أبناء الستين لا عذر لكم ، ليت الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، قد أتتكم الساعة فخذوا حذركم . وقال : قال دانيال : يا لهفي على زمن يلتمس فيه الصالحون فلا يوجد منهم أحد ، إلا كالسنبلة في أثر الحاصد ، أو كالخصلة في أثر القاطف ، يوشك نوائح أولئك وبواكيهم أن تبكيهم .

وروى عبد الرزاق عن عبد الصمد بن معقل . قال : سمعت وهباً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ لِيومِ القِيامَةِ ﴾ [2] . قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وإذا أراد الله بعبد خيراً ختم له خير عمله ، وإذا أراد الله بعبد شراً ختم له بشر عمله . وقال وهب : إن الله تعالى لما فرغ من الخلق نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض فقال : أنا الله لا إله إلا أنا الذي خلقتكم وأفنيكم بحكمي حق قضائي ونافذ أمري ، أنا أعيدكم كما خلقتكم ، وأفنيكم حتى أبقى وحدي ، فإن الملك والخلود لا يحق إلا لي ، أدعو خلقي وأجمعهم بقضائي ، يوم أحشر أعدائي ، وتجل القلوب من هيبتي ، وتتبرأ الآلهة ممن عبدها دوني .

قال : وذكر وهب أن الله لما فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت فمدح نفسه بما هو أهله وذكر عصمته وجبروته وكبرياءه ، وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته ، فأنصت كل شيء وأطرق له ،

---

(١) يتعايا : من أعيا عليه الأمر أي صعب.

(٢) سورة الانبياء ، الآية/ ٤٧ .

فقال : أنا الملك لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى ، أنا الله لا إله إلا أنا ذو العرش المجيد والأمثال العلا ، أنا الله لا إله إلا أنا ذو الطول والمن والآلاء والكبرياء ، أنا الله لا إله إلا أنا بديع السموات والأرض ، ملأت كل شيء عظمتي ، وقهر كل شيء ملكي ، وأحاطت بكل شيء قدرتي ، وأحصى كل شيء علمي ، ووسعت كل شيء رحمتي ، وبلغ كل شيء لطفي ، فأنا الله يا معشر الخلائق فاعرفوا مكاني ، فليس شيء في السموات والأرضين إلا أنا ، وخلقي كلهم لا يقوم ولا يدوم إلا بي ، ويتقلب في قبضتي ، ويعيش برزقي ، وحياته وموته وبقاؤه وفناؤه بيدي ، فليس له محيص ولا ملجأ غيري ، لو تخليت عنه طرفة عين لدمر كله ، وكنت أنا على حالي لا ينقصني ذلك شيئاً ، ولا ينقص ذلك ملكي شيئا ، وأنا مستغن بالعز كله في جبروتي وملكي ، وبرهان نوري ، وشديد بطشي ، وعلو مكاني ، وعظمة شأني ، فلا شيء مثلي ، ولا إله غيري ،وليس ينبغي لشيء خلقته أن يعدل بي ولا ينكرني ، وكيف ينكرني من خلقته يوم خلقته على معرفتي ؟ ، أم كيف يكابرني من قهر قهره ملكي ؟ أم كيف يعجزني من ناصيته بيدي ؟ أم كيف يعدل بي من أعمره وأسقم جسمه وأنقص عقله وأتوفى نفسه وأخلقه وأهرمه فلا يمتنع مني ؟ أم كيف يستنكف عن عبادتي عبدي وابن عبدي وابن أمتي ، ومن لا ينسب إلى خالق ولا وارث غيري ؟ أم كيف يعبد دوني من تخلقه الأيام ، ويفنى أجله اختلاف الليل والنهار ؟ وهما شعبة يسيرة من سلطاني ؟ فاليَّ إليَّ يا أهل الموت والفناء ، لا إلى غيري ، فإني كتبت الرحمة على نفسي وقضيت العفو والمغفرة لمن استغفرني ، أغفر الذنوب جميعاً ، صغيرها وكبيرها لمن استغفرني ، ولا يكبر ذلك علي ولا يتعاظمني ، فلا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ولا تقنطوا من رحمتي ، فإن رحمتي سبقت غضبي ، وخزائن الخير كلها بيدي ، ولم أخلق شيئا مما خلقت لحاجة كانت مني إليه ، ولكن لأبينّ به قدرتي ، ولينظر الناظرون في ملكي ، ويتدبروا حكمتي ، وليسبحوا بحمدي ويعبدوني لا يشركوا بي شيئاً ، ولتعنو [1] الوجوه كلها إلي .

وقال أشرس عن وهب قال : قال داود : إلهي أين أجدك ؟ قال عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي . وقال كان رجل من بني إسرائيل صام سبعين أسبوعاً يفطر في كل أسبوع يوماً وهو يسأل الله أن يريه كيف يغوي الشيطان الناس ، فلما أن طال ذلك عليه ولم يجب ، قال في نفسه : لو أقبلت على خطيئتي وعلى ذنوبي وما بيني وبين ربي لكان خيراً من هذا الأمر الذي أطلب ، ثم أقبل على نفسه فقال : يا نفس من قبلك أتيت ، لو علم الله فيك خيراً لقضى حاجتك . فأرسل الله ملكاً إلى نبيهم : أن قل لفلان العابد : إزراؤك على نفسك وكلامك الذي تكلمت به ، أعجب إليَّ مما مضى من عبادتك ، وقد أجاب الله سؤالك ، وفتح بصرك فانظر الآن ، فنظر فإذا أحبولة لإبليس قد أحاطت بالأرض ، وإذا ليس أحد من بني آدم إلا وحوله شياطين مثل الذباب ، فقال : إي رب ، ومن ينجو من هؤلاء ؟ قال : صاحب القلب الوادع اللين .

---

(١) ولتعنو : ولتخضع .

وقال وهب : كان رجل من السائحين فأتى على أرض فيها قثاء فدعته نفسه إلى أخذ شيء منه ، فعاقبها فقام مكانه يصلي ثلاثة أيام ، فمرّ به رجل وقد لوَّحته الشمس والريح ، فلما نظر إليه قال : سبحان الله !! لكأنما أحرق هذا الإنسان بالنار ، فقال السائح : هكذا بلغ مني ما ترى خوف النار ، فكيف بي لو قد دخلتها ؟! .

وقال : كان رجل من الأولين أصاب ذنباً فقال : لله عليَّ أن لا يظلني سقف بيت أبداً حتى تأتيني براءة من النار ، فكان بالصحراء في الحر والقر ، فمر به رجل فرأى شدة حاله فقال : يا عبد الله ما بلغ بك ما أرى ؟ فقال : بلغ ما ترى ذكر جهنم ، فكيف بي اذا أنا وقعت فيها !؟ . وقال : لا يكون البطال من الحكماء أبداً ، ولا يرث الزناة من ملكوت السماء . وقال وهب في موعظته : اليوم يعظ السعيد ، ويستكثر من منافعه اللبيب ، يا ابن آدم إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجهالة عنك ، وإنما أوقدت فيه مصابيح الهدى لتنبه لحزبك ، فلم أر كاليوم ضل مع نوره متحير داع لمداواة سليم ، يا ابن آدم ! إنه لا أقوى من خالق ، ولا أضعف من مخلوق ، ولا أقدر ممن طلبته في يده ، ولا أضعف ممن هو في يد طالبه ، يا ابن آدم إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام عندك ما سيذهب ، فما الجزع مما لا بد منه ؟ وما الطمع فيما لا يرتجى ؟ وما الحيلة في بقاء ما سيذهب ؟ يا ابن آدم اقصر عن طلب ما لا تدرك ، وعن تناول ما لا تناله ، وعن ابتغاء ما لا يوجد ، واقطع الرجاء عنك كما قعدت به عنك الأشياء ، واعلم أنه رُبّ مطلوب هو شر لطالبه ، يا ابن آدم إنما الصبر عند المصيبة ، وأعظم من المصيبة سوء الخلق منها ، يا ابن آدم أي أيام الدهر ترتجي ؟ يوم يجيء في عتم أو يوم تستأخر عاقبته عن أوان مجيئه ؟ فانظر الى الدهر تجده ثلاثة أيام ، يوم مضى لا ترجوه ، ويوم لا بد منه ،ويوم يجيء لا تأمنه ، فأمس شاهد عليك مقبول ، وأمين مؤد ، وحكيم مؤدب ، قد فجعك بنفسه ، وخلف فيك حكمته . واليوم صديق مودع ، كان طويل الغيبة عنك ، وهو سريع الظعن إياك ولم يأته ، وقد مضى قبله شاهد عدل ، فإن كان فيه لك فاشفعه بمثله أوثق لك باجتماع شهادتها عليك . يا ابن آدم إنما أهل الدنيا سفر لا يحلون عقد رحالهم إلا في غيرها ، وإنما يتبلغون بالعواري فما أحسنه - يعني الشكر - للمنعم والتسليم للمعاد ، يا ابن آدم إنما الشيء من مثله وقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله ؟! إنما يقر الفرع بعد الأصل . يا ابن آدم إنه لا أعظم رزية في عقله ممن ضيع اليقين وأخطأ العمل . أيها الناس ! إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خلقنا ولم نكن ، وسنبلى ثم نعود ، ألا وإنما العواري (١) اليوم والهنات (٢) غداً ، ألا وإنه قد تقارب منا سلب فاحش ، أو عطاء جزيل ، فأصلحوا ما تقدمون عليه بما تظعنون عنه . أيها الناس !! إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، وإن ما أنتم فيه من دنياكم نهب للمصائب ، لا تنالون فيها نعمة إلا بفراق الأخرى ، ولا يستقبل منكم معمر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا يتخذ له زيادة في ماله إلا بنفاد ما قبله من رزقه ، ولا يحيي له

---

(١) العواري : القبائح والعورات .

(٢) والهنات : الدواهي .

أثر إلا مات له أثر .نسأل الله أن يبارك لنا ولكم فيما مضى من هده العظة .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن مروان عن وهب بن منبه . عن الطريق ولم تستقم [1] لسائقها ، وإن فتر سائقها حزنت ، ولم تتبع قائدها : فإذا اجتمعا استقامت طوعاً أو كرهاً ، ولا تستطيع الدين إلا بالطوع والكره ، وإن كان كلما كره الانسان شيئاً من دينه تركه ، أوشك أن لا يبقى معه من دينه شيء . وقال وهب : إن من حكمة الله عز وجل أنه خلق الخلق مختلفاً خلقه ومقاديره ، فمنه خلق يدوم ما دامت الدنيا ، لا تنقصه الأيام ولا تهرمه وتبليه ويموت ، ومنه خلق لا يطعم ولا يرزق ،ومنه خلق يطعم ويرزق ،خلقه الله وخلق معه رزقه،ثم خلق الله من ذلك خلقاً في البر وخلقاً في البحر ، ثم جعل رزق ما خلق في البحر وفي البر ، ولا ينفع رزق دواب البر دواب البحر ، ولا رزق دواب البحر دواب البر ، لو خرج ما في البحر إلى البر هلك ، ولو دخل ما في البر إلى البحر هلك ، ففي ذلك ممن خلق الله في البر والبحر عبرة لمن أهمته قسمة الأرزاق والمعيشة فليعتبر ابن آدم فيما قسم الله من الأرزاق ، فإنه لا يكون فيها شيء إلا كما قسمه سبحانه بين خلقه ، لا يستطيع أحد أن يغيرها ولا أن يخلطها ، كما لا تستطيع دواب البر أن تعيش بأرزاق دواب البحر ، ولا دواب البحر بأرزاق دواب البر ، ولو اضطرت اليه هلكت كلها ، فإذا استقرت كل دابة منها فيما رزقت أصلحها ذلك وأحياها ، وكذلك ابن آدم إذا استقر وقنع بما قسم الله له من رزقه أحياه ذلك وأصلحه ، فإذا تعاطى رزق غيره نقصه ذلك وضره وفضحه .

وقال لعطاء الخراساني : كان العلماء قبلكم قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانـوا لا يلتفتون إلى أهل الدنيا ، ولا إلى ما في أيديهم ، فكان أهل الدنيا يبذلون إليهم دنياهم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في الدنيا ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم ، فإياك يا عطاء وأبواب السلطان فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك [2] الابل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلاّ أصابوا من دينك مثله .

وقال إبراهيم الجنيد : حدثنا عبد الله بن أبي بكر المقدمي حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عمر بن عبد الرحمن الصنعاني قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم ، فقال : كيف صلاتك ؟ فقال : ما أحسب أحداً سمع بذكر الجنة والنار يأتي عليه ساعة لا يصلي فيها ، قال : فكيف ذكرك للموت ؟ قال : ما أرفع قدماً ولا أضع أخرى إلا رأيت أني ميت . فقال : فكيف صلاتك أنت أيها الرجل ؟ فقال : إني لأصلي وأبكي حتى ينبت العشب من دموعي ، فقال العالم : أما إنك إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خير لك من أن تبكي وأنت مدل بعلمك ، فإن المدل لا يرفع له عمل فقال : أوصني فإني أراك حكيماً ، فقال ازهد في الدنيا ولا تنازع أهلها فيها ، وكن فيها كالنخلة ، إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقعت على عدو لم تكسره ، وانصح لله نصح

(١) كذا بالأصل وفيه نقص أو تحريف فليحرر .

(٢) كَمَبَارِك : مفردها المَبْرَك : وهو موضع البُرُوك .

الكلب لأهله ، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويضربونه وهو يأبى إلا أن يحوطهم ويحفظهم ، وينصح لهم . فكان وهب إذا ذكر هذا الحديث قال : واسوأتاه إذا كان الكلب أنصح لأهله منك يا ابن آدم لله عز وجل . وفي رواية أنه قال : إني لأصلي حتى ترم قدماي ، فقال له : إنك إن تبت تائباً ، وتصبح نادماً ، خير لك من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً ، إلى آخره . وروى سفيان عن رجل من أهل صنعاء عن وهب فذكر الحديث كما تقدم .

وقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى حدثنا الصلت بن عاصم المرادي عن أبيه عن وهب قال : لما أهبط آدم من الجنة استوحش لفقد أصوات الملائكة ، فهبط عليه جبريل فقال : يا آدم ألا أعلمك شيئاً تنتفع به في الدنيا والآخرة ؟ قال : بلى . قال قل : اللهم تمم لي النعمة حتى تهنيني المعيشة ، اللهم اختم لي بخير حتى لا تضرني ذنوبي ، اللهم اكفني مؤ نة الدنيا وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة في عافية .

وقال عبد الرزاق : حدثني بكار بن عبد الله عن وهب قال : قرأت في بعض الكتب فوجدت الله تعالى يقول : يا ابن آدم ما أنصفتني ، تذكر بي وتنساني ، وتدعو إليَّ وتفر مني ، خيري إليك نازل ، وشرك إليَّ صاعد ، ولا يزال ملك كريم قد نزل إليك من أجلك ، يا ابن آدم إن أحب ما تكون إليَّ وأقرب ما تكون مني إذا رضيت بما قسمت لك . وأبغض ما تكون إليَّ ، وأبعد ما تكون مني إذا سخطت بما قسمت لك . يا ابن آدم أطعني فيما أمرتك ، ولا تعلمني بما يصلحك ، إني عالم بخلقي ، وأنا أعلم بحاجتك التي ترفعك من نفسك ، إني إنما أكرم من أكرمني ، وأهين ما هان عليه أمري ، لست بناظر في حق عبدي حتى ينظر العبد في حقي . وقال وهب : قرأت نيفاً وتسعين كتاباً من كتب الله تعالى فوجدت في جميعها : ان من وكل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر . وقال : لا يسكن ابن آدم ، إن الله هو قسم الأرزاق متفاضلة ومختلفة ، فإن تقلل ابن آدم شيئاً من رزقه فليزدد إلى الله رغبة ، ولا يقولن : لو اطلع الله على هذا من حالي ، أو شعر به غيره ؟ فكيف لا يطلع على شيء الذي خلقه وقدره ؟ أو يعتبر ابن آدم في غير ذلك مما يتفاضل فيه الناس ، كأن الله فاضل بينهم في الأجسام والأموال والألوان والعقول والأحلام ، فلا يكبر على ابن آدم أن يفضل عليه في الرزق والمعيشة ، ولا يكبر عليه أن يفضل عليه في الحلم والعلم والعقل والدين ، أو لا يعلم ابن آدم ان الذي رزقه في ثلاثة أزمان من عمره لم يكن له في واحد منها كسب ولا حيلة ، أنه سوف يرزقه في الزمن الرابع . أول زمان من أزمانه حين كان في بطن أمه ، يخلق فيه ويرزق من غير مال كسبه ، وهو في قرار مكين ، لا يؤذيه فيه حرّ ولا برد ، ولا شيء ولا هم ولا حزن ، وليس له هناك يد تبطش ، ولا رِجْل تسعى ، ولا لسان ينطق . فساق الله عز وجل إليه رزقه هناك على أتم الوجوه وأهناها وأمراها . ثم إن الله عز وجل أراد أن يحوله من تلك المنزلة إلى غيرها . ويحدث له في الزمن الثاني رزقاً من أمه يكفيه ويغنيه ، من غير حول منه ولا قوة ، ولا بطش ولا سعي ، بل تفضلاً من الله وجوداً ، ورزقاً أجراه وساقه إليه ، ثم أراد الله سبحانه أن ينقله من الزمن الثاني إلى الزمن الثالث من ذلك اللبن الى الرزق يحدثه له من كسب أبويه ، بأن يجعل له الرحمة في قلوبهما

حتى يؤثراه على نفسهما بكسبهما ، ويغنياه ويغذياه بأطيب ما يقدران عليه من الأغذية ، وهو لا يعينهما على شيء من ذلك بكسب ولا حيلة ، حتى إذا عقل حدث نفسه بأنه إنما يرزق بحيلته ومكسبه وسعيه ، ثم يدخل عليه الزمن الرابع إساءة الظن بربه عز وجل ، فيضيع أوامر الله في طلب المعاش وزيادة المال وكثرته ، وينظر إلى أبناء الجنس وما عليه من التنافس في طلب الدنيا ، فيكسب بذلك ضعف اليقين والايمان ، ويمتلىء قلبه فقراً وخوفاً منه مع المتاع ، ويُبتلى بموت القلب وعدم العقل ، ولو نظر ابن آدم نظر معرفة وعقل لعلم أنه لن يغنيه في الزمن الرابع إلا من أغناه ورزقه في الأزمان الثلاثة قبل ، فلا مقال له ولا معذرة مما سلط عليه في الزمان الرابع إلا برحمة الله ، فإن ابن آدم كثير الشك يقصر به حكمه وعلمه عن علم الله والتفكر في أمره ، ولو تفكر حتى يفهم ، وتفهم حتى يعلم ، علم أن علامة الله التي بها يعرف ، خلقه الذي خلق ، ثم رزقه لما خلق ، وقدره لما قدر .

وقال عطاء الخراساني : لقيت وهباً في الطريق فقلت : حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز . فقال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : يا داود ، أما وعزتي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي أعلم ذلك من نيته ، فتكيا،ه السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون (1) السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجاً ومخرجاً ، أما وعزتي وجلالي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني أعلم ذلك من نيته ، الا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخت (2) الأرض من تحته ولا أبالي في أي واد هلك .

وقال أبو بلال الأشعري عن أبي هشام الصنعاني قال : حدثني عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : كفاني للعبد مآلا ، إذا كان عندي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني ، وأستجيب له من قبل أن يدعوني ، فإني أعلم بحاجته التي أرفق به من نفسه . وقال : قرأت في بعض الكتب أن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل لأنه إذا كان مؤمناً عاقلاً ذا بصيرة فهو أثقل على الشيطان من الجبال الصم ، إنه ليزالل المؤمن العاقل فلا يستطيعه ، فيتحول عنه إلى الجاهل فيستأمره ويتمكن من قياده . وقال : قام موسى عليه السلام فلما رآه بنو إسرائيل قاموا ، فقال : على مكانكم ، ثم ذهب الى الطور فإذا هو بنهر أبيض فيه مثل رؤوس الكثبان (3) كافور محفوف بالرياحين ، فلما رآه أعجبه فدخل عليه فاغتسل وغسل ثوبه ، ثم خرج وجفف ثوبه ، ثم رجع إلى الماء فاستنضح فيه إلى أن جف ثوبه ، فلبسه ثم أخذ نحو الكثيب الآخر الذي فوق الطور ، فإذا هو برجلين يحفران قبراً ، فقام عليهما فقال : ألا أعينكما ؟ قالا : بلى فنزل فحفر ، فقال لهما : لتحدثاني مثل من الرجل ؟ فقالا : على طولك وهيئتك ، فاضطجع فيه لينظروا فالتأمت عليه الأرض ، فلم ينظر إلى قبر

---

(1) والأرضون : مفردها الأرض ، وهي الكرة السيَّارة التي نحن عليها .

(2) وأسخت : لانت .

(3) الكثبان : مفردها الكثيب : وهو التلة من الرمل .

موسى عليه السلام إلا الرخم (١) ، فأصمها الله وأبكمها . وقال : يقول الله عز وجل : لولا أني كتبت النتن على الميت لحبسه الناس في بيوتهم ، ولولا أني كتبت الفساد على اللحم لحرمه الأغنياء على الفقراء .

وقال : مرَّ عابد براهب فقال له : منذ كم أنت في هذه الصومعة ؟ قال : منذ ستين سنة ، قال : وكيف صبرت فيها ستين سنة ؟ قال : مر فان الزمان يمر ، وإن الدنيا تمر ، ثم قال له : يا راهب كيف ذكرك للموت ؟ قال : ما أحسب عبداً يعرف الله تأتي عليه ساعة إلا يذكر الموت فيها ، وما أرفع قدماً إلا وأنا أظن أن لا أضعها حتى أموت ، وما أضع قدماً إلا وأنا أظن أن لا أرفعها حتى أموت ، فجعل العابد يبكي ، فقال له الراهب : هذا بكاؤ ك إذا خلوت ؟ ـ أو قال : كيف أنت إذا خلوت ؟ ـ فقال العابد : إني لأبكي عند إفطاري فأشرب شرابي بدموعي ، ويصرعني النوم فأبل متاعي بدموعي ، فقال له الراهب : إنك إن تضحك وأنت معترف بذنبك خير لك من أن تبكي وأنت مدل على الله بعلمك . فقال : أوصني بوصية ، قال : كن في الدنيا بمنزلة النخلة ، إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت طيباً ، وإن سقطت على شيء لم تضره ، ولا تكن في الدنيا بمنزلة الحمار إنما همته أن يشبع ثم يرمي بنفسه في التراب ، وانصح لله نصح الكلب لأهله ، فإنهم يجيعونه ويطردونه ، وهو يأبى إلا أن يحرسهم ويحفظهم . قال أبو عبد الرحمن أشرس : وكان طاوس إذا ذكر هذا الحديث بكى وقال : عز علينا أن تكون الكلاب أنصح لأهلها منا لمولانا عز وجل . وقد تقدم نحو هذا المتن .

وقال وهب : تخلى راهب في صومعته في زمن المسيح : فأراد إبليس أن يكيده فلم يقدر عليه ، فأتاه بكل مراد فلم يقدر عليه ، فأتاه متشبهاً بالمسيح فناداه : أيها الراهب اشرف عليَّ أكلمك فأنا المسيح ، فقال : إن كنت المسيح فما لي إليك من حاجة ، أليس قد أمرتنا بالعبادة ؟ ووعدتنا القيامة ؟ انطلق لشأنك فلا حاجة لي فيك . قال : فذهب عنه الشيطان خاسئاً (٢) وهو حسير ، فلم يعد إليه . ومن طريق أخرى عنه قال : أتى إبليس راهباً في صومعته فاستفتح عليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا المسيح ، فقال الراهب ، والله لئن كنت إبليس لأخلون بك ، ولئن كنت المسيح فما عسى أن أصنع بك اليوم شيئاً ، لقد بلغتنا رسالة ربك عز وجل فقبلناها عنك ، وشرعت لنا الدين فنحن عليه ، فاذهب فلست بفاتح لك فقال : صدقت ، أنا إبليس ولا أريد إضلالك بعد اليوم أبداً فسلني عما بدا لك أخبرك به . قال : وأنت صادق ؟ قال : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك فيه . قال : فأخبرني أي أخلاق بني آدم أوثق في أنفسكم أن تضلوهم به ؟ قال ثلاثة أشياء : الحدة ، والشح ، والشكر .

وقال وهب : قال موسى : يا رب أي عبادك قال : من لا تنفعه موعظة ، ولا يذكرني إذا خلا ، قال : إلهي فما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال : يا موسى أظله يوم القيامة بظل عرشي ،

---

(١) الرخم : طائر من فصيلة النسريات ورتبة الجوارح . ريشه أبيض ممزوج بسواد وشقرة .
(٢) خاسئاً : مهزوماً ـ مخذولاً .

وأجعله في كنفي . وقال وهب : لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم فقال له : رحمك الله ما هذا البناء الذي لا إسراف فيه ؟ قال : ما سترك من الشمس ، وأكنك [1] من الغيث [2] . قال : فما هذا الطعام الذي لا إسراف فيه ؟ قال : فوق الجوع ودون الشبع من غير تكلف . قال : فما هذا اللباس الذي لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما ستر العورة ومنع الحر والبرد من غير تنوع ولا تلون . قال : فما هذا الضحك الذي لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما أسفر وجهك ولا يسمع صوتك . قال : فما هذا البكاء الذي لا إسراف فيه ؟ قال : لا تمل من البكاء من خشية الله عز وجل ، ولا تبك على شيء من الدنيا . قال : كم أخفي من عملي ؟ قال : ما أظن بك أنك لم تعمل حسنة . قال : ما أعلن من عملي ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يأتم بك الحريص ، واحذر النظر إلى الناس . وقال : لكل شيء طرفان ووسط ، فإذا أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسكت بالوسط اعتدلا ، فعليكم بالوسط من الأشياء . وقال : أربعة أحرف في التوراة : من لم يشاور يندم ، ومن استغنى استأثر ، والفقر الموت الأحمر ، وكما تدين تدان ، ومن تجر فجر .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول : كان رجل من أفضل أهل زمانه ، وكان يُزار فيعظهم ، فاجتمعوا إليه ذات يوم فقال : إنا قد خرجنا عن الدنيا وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان ، وقد خفنا أن يكون قد دخل علينا في حالنا هذه من الطغيان أعظم وأكثر مما يدخل على أهل الأموال في أموالهم ، وعلى الملوك في ملكهم ، أرانا يحب أحدنا ان تقضى له الحاجة ، وإذا اشترى شيئاً أن يحابى لمكان دينه ، وأن يعظم إذا لقي الناس لمكان دينه ، وجعل يعدد آفات العلماء والعباد الذين يدخل عليهم في دينهم من حب الشرف والتعظيم . قال : فشاع ذلك الكلام عنه حتى بلغ ملك تلك البلاد ، فعجب منه الملك وقال لرؤوس دولته : ينبغي لهذا أن يُزار ، ثم اتعدوا لزيارته يوماً ، فركب إليه الملك ليسلم عليه ، فأشرف العابد - وكان عالماً جيد العلم بآفات العلوم والأعمال ودسائس النفوس - فرأى الأرض التي تحت مكانه قد سدت بالخيل والفرسان ، فقال ما هذا ؟ فقيل له : هذا الملك قاصد إليك يسلم عليك لما بلغه من حسن كلامك فقال : إنا لله ، وما أصنع به ؟ هلكنا والله إن لم نلقن الحجة من عند الله مع هذا الرجل ، وينصرف عنا وهو ماقت لنا ، ثم سأل خادمه : هل عندك طعام ؟ قال : نعم . قال : فأت به فضعه بين أيدينا ، قال : هو شيء من ثمر الشجر ، وهو شيء من بقل وزيتون ، قال : فأت به ، فأتى به ، ثم أمر بجماعته فاجتمعوا حول ذلك الطعام ، فقال : إذا دخل عليكم هذا الرجل فلا يلتفت أحد منكم إليه ، ولا يقم له أحد ، وأقبلوا على الأكل العنيف ، ولا يرفع أحد منكم رأسه ، لعل الله أن يصرفه عنا وهو كاره لنا فإني أخاف الفتنة والشهرة وامتلاء القلب منهما ، فلا نخلص إلا بنار جهنم . قال : فبكى القوم وبكى ذلك الرجل العالم ، فلما اقترب الملك من جبلهم الذي هم فيه ، ترجل الملك

---

(1) وأكنّك : أسترك وأخفيك .

(2) الغيث : المطر .

ومن معه من أعيان دولته وصعد في الجبل ، فلما وصل إلى قرب مكانهم أخذوا في الأكل العنيف ، فدخل عليهم الملك وهم يأكلون فلم يرفعوا رؤوسهم إليه ، وجعل ذلك العالم الفاضل يلف البقل مع الزيتون مع الكسرة الكبيرة من الخبز ويدخلها في فمه ، فسلم عليهم الملك وقال : أيكم العابد ؟ فأشاروا إليه ، فقال له الملك : كيف أنت أيها الرجل ؟ فقال له : كالناس ـ وهو يأكل ذلك الأكل العنيف ـ فقال الملك : ليس عند هذا خير ، ثم أدبر الملك خارجاً عنه ، وقال : ما عند هذا من علم . فلما نزل الملك من الجبل نظر إليه العابد من كوة وقال : أيها الملك !الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي كاره ـ أو قال : الحمد لله الذي صرفك عني بما صرفك به ـ وفي رواية ذكر ابن المبارك انه قال : الحمد لله الذي صرفه عني وهو لي لائم .

وفي رواية أن هذا العابد كان ملكاً ، وكان قد زهد في الدنيا وتركها ، لأنه كان قد دخل عليه رجل من بقايا أهل الجنة والعمل الصالح فوعظه ، فاتعد معه أن يصحبه ، وأنه يخرج عن الملك طلباً لما عنده في الدار الآخرة ، وأنه وافقه جماعة من بنيه وأهله ورؤوس دولته ، فخرجوا برمّتهم ، لا يدري أحد أين ذهبوا ، وكان هذا الملك من أهل العدل والخير والخوف من الله عز وجلّ ، وكان متسع الملك والمملكة ، كثير الأموال والرجال ، فساروا حتى أتوا جبلاً في أطراف مملكته ، كثير الشجر والمياه ، فأقاموا به حينا ، فقال الملك : إن نحن طال أمرنا ومقامنا في هذا الجبل ، سمع بنا الناس من أهل مملكتنا فلا يدعونا ، وإني أرى أن نذهب إلى غير مملكتنا فننزل مكاناً بعيداً عن الناس ، لعل أن نسلم منهم ويسلموا منا ، فساروا من ذلك الجبل طالبين بلاداً لا يعرفون ، فوجدوا بها جبلاً نائياً عن الناس ، كثير الأشجار والمياه ، قليل الطوارق [١] ، وإذا في ذروته عين ماء جارية وأرض متسعة ، تزرع لمن أراد الزرع بها ، فنزلوا به وبنوا بها أماكن للعبادة والسكنى ، وزرعوا لهم على ماء تلك العين بعض بقول يأتدمون [٢] بها ، وأشجار زيتون ، وجعلوا يزرعون بأيديهم ويأكلون ثم شاع أمرهم في بعض تلك البلاد القريبة من جبلهم ، فجعلوا يأتونهم ويزورونهم ، إلى أن شاع ذلك الكلام المتقدم عن ذلك العالم ، فبلغ ملك تلك البلاد فقصدهم للزيارة ، فذكر القصة كما تقدم ، والله أعلم .

وقال وهب : أزهد الناس في الدنيا ـ وإن كان عليها حريصاً ـ من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب ، مع حفظ الأمانات ، وأرغب الناس فيها وإن كان عنها معرضاً ، من لم يبال من أين كسبه منها حلالاً كان أو حراماً ، وإن أجود الناس في الدنيا من جاد بحقوق الله عز وجل ، وإن رآه الناس بخيلاً فيما سوى ذلك ، وإن أبخل الناس في الدنيا من بخل بحقوق الله عز وجل وإن رآه الناس جواداً فيما سوى ذلك .

وقال الطبراني : حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا علي بن المديني حدثنا محمد بن عمرو بن مقسم قال :

---

(١) الطوارق : الطروق ، المجيء والدخول .
(٢) يأتدمون : يأكلون الخبز مع الإدام .

سمعت عطاء بن مسلم يقول : سمعت وهب بن منبه يقول : إن لله تعالى كلَّم موسى عليه السلام في ألف مقام ، وكان إذا كلمه رُؤيَ النور على وجه موسى ثلاثة أيام ، ولم يمس موسى امرأة منذ كلَّمه ربه عز وجل . وقال عثمان بن أبي شيبة : حدثنا عبد الله بن عامر بن زرارة حدثنا عبد الله بن الأجلح عن محمد بن إسحاق قال : حدثني ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال : سمعت ابن منبه اليماني يقول : إن للنبوة أثقالاً ومؤنة لا يحملها إلا القوي ، وإن يونس بن متى كان عبداً صالحاً ، وكان في خلقه ضيق ، فلما حملت عليه النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل ، فرفضها من يده وخرج هارباً ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [1] . وقال : ﴿ فَاصْبِرْ لحكمِ رَبِّكَ ولا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ إذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [2] الآية . وقال يونس بن بكير عن أبي إسحاق بن وهب بن منبه عن أبيه قال : أمر الله الريح أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء في الأرض إلا ألقته في أذن سليمان ، فلذلك سمع كلام النملة .

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن وهب قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا ساح أربعين سنة أُرِيَ شيئاً ، كأن يرى علامة القبول ، قال : فساح رجل من ولد ربيعة أربعين سنة فلم ير شيئاً ، فقال : يا رب إذا أحسنت وأساء والداي فما ذنبي ؟ قال : فأُرِيَ ما كان يرى غيره . وفي رواية انه قال : يا رب إذا كان والداي قد أكلا أضرس أنا ؟ وفي رواية عنه أنه قال : يا رب إذا كان والداي قد أساءا أحرم أنا إحسانك وبرك ؟ فأظلته غمامة .

وروى عبد الله بن المبارك عن رباح بن زيد عن عبد العزيز بن مروان . قال : سمعت وهب بن منبه يقول : مَثَلُ الدنيا والآخرة مثل ضرتين ، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وقال : إن أعظم الذنوب عند الله بعد الشرك بالله السحر . وروى عبد الرزاق قال : أخبرني أبي عن وهب قال : إذا صام الانسان زاغ بصره ، فإذا أفطر على حلاوة عاد بصره . وقال ابن المبارك عن بكر بن عبد الله قال سمعت وهباً يقول : مرَّ رجل عابد على رجل عابد فرآه مفكراً ، فقال له : مالك ؟ فقال له : أعجب من فلان ، إنه كان قد بلغ من عبادته ما بلغ ، ثم مالت به الدنيا . فقال : لا تعجب ممن مال كيف مال ، ولكن اعجب ممن استقام كيف استقام .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل : حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن بني إسرائيل أصابتهم عقوبة وشدة ، فقال النبي ﷺ : وددنا أن نعلم ما الذي يرضى ربنا فنتبعه ، فأوحى الله عز وجل إليه : إن قومك يقولون : إذا أرضوهم رضيت ، وإذا أسخطوهم أسخطت . وقال عبد الله بن أحمد أيضاً : حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن خالد حدثني عمر بن عبد الرحمن قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن عيسى عليه السلام كان واقفاً على قبر ومعه

(١) سورة الاحقاف ، الآية/ ٣٥ .

(٢) سورة القلم ، الآية/ ٤٨ .

الحواريون ـ أو نفر من أصحابه ـ قال : وصاحب القبر يُدَلَّى فيه ، قال : فذكروا من ظلمة القبر وضيقه ، فقال عيسى: قد كنتم فيما هو أصبق من ذلك ، في أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يوسع وسع ، أو كما قال . .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول :كان رجل عابد من السياح أراده الشيطان من قبل الشهوة والرغبة والغضب ، فلم يستطع منه شيئاً من ذلك ، فتمثل له حية وهو يصلّي ، فمضى ولم يلتفت إليه ، فالتوى على قدميه فلم يلتفت إليه ، فدخل ثيابه وأخرج رأسه من عند رأسه فلم يلتفت ولم يستأخر ، فلما أراد أن يسجد التوى في موضع سجوده ، فلما وضع رأسه ليسجد فتح فاه ليلتقم رأسه ، فوضع رأسه فجعل يعركه حتى استمكن من السجود على الأرض . ثم جاءه على صورة رجل فقال له : أنا صاحبك الذي أخوفك ، أتيتك من قبل الشهوة والغضب والرغبة ، وأنا الذي كنت أتمثل لك بالسباع والحيات فلم أستطع منك شيئاً ، وقد بدا لي أن أصادقك ولا آتيك في صلاتك بعد اليوم . فقال له العابد : لا يوم خوفتني خفتك ، ولا اليوم بي حاجة في مصادقتك . قال : سلني عما شئت أخبرك به . قال : فما عسيت أن أسألك ؟ قال : ألا تسألني عن مالك ما فعل به بعدك ؟ قال : لو أردت ذلك ما فارقته . قال : أفلا تسألني عن أهلك من مات منهم ومن بقي ؟ قال : أنا مت قبلهم . قال أفلا تسألني عما أضل به الناس ؟ قال : أنت أضلهم . فأخبرني عن أوثق ما في نفسك تضل به بني آدم . قال : ثلاثة أخلاق ، الشح ، والحدَّة والسكر . فإن الرجل إذا كان شحيحاً قللنا ماله في عينه ورغبناه في أموال الناس ، وإذا كان حديداً تداولناه بيننا كما يتداول الصبيان الكرة ، ولو كان يحيي الموتى بدعوته لم نيأس به ، وكل ما يبنيه نهدمه ، لنا كلمة واحدة . وإذا سكر قدناه الى كل شر وفضيحة وخزي وهوان كما تقاد القط إذا أخذ بأذنها كيف شئنا .

وقال وهب : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف في السجن سبع سنين ، ومسخ بختنصر في السباع سبع سنين . وسُئِلَ وهب عن الدنانير والدراهم فقال : هي خواتيم رب العالمين ، فالأرض لمعايش بني آدم لا تؤكل ولا تُشْرَب ، فأينما ذهبت بخاتم رب العالمين قضيت حاجتك ، وهي أزمة المنافقين بها يقادون الى الشهوات . وروى داود بن عمر الضبي عن ابن المبارك عن معمر عن سماك بن المفضل وعن وهب قال : مثل الذي يدعو بغير عمل مثل الذي يرمي بغير وتر . وقال ابن المبارك : أخبرني عمر بن عبد الرحمن بن مهرب قال : سمعت وهباً يقول : قال حكيم من الحكماء : إني لأستحي من الله عزّ وجلّ أن أعبده رجاء ثواب الجنة فقط ، فأكون كالأجير السوء ، إن أُعْطِيَ عمل وإن لم يُعْطَ لم يعمل ، وإني لأستحي من الله أن أعبده مخافة النار فقط ، فأكون كالعبد السوء إن رهب عمل وإن ترك لم يعمل ، وإني ليستخرج مني حب الله ما لا يستخرج مني غيره .

وقال السري بن يحيى : كتب وهب إلى مكحول : إنك قد أصبت بما ظهر من علم الاسلام عند الناس محبة وشرفاً ، فاطلب بما بطّن من علم الانسان عند الله محبة وزلفى ، واعلم أن إحدى

المحبتين تمنع الأخرى ـ أو قال : سوف تمنعك الأخرى ـ وقال زافر بن سليمان عن أبي سنان الشيباني قال : بلغنا أن وهب بن منبّه قال ، قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تريد بها ربح الدنيا والآخرة ، والايمان سفينتك التي تُحْمَل عليها ، والتوكل على الله شراعها ، والدنيا بحرك ، والايام موجك ، والأعمال الصالحة تجارتك التي ترجو ربحها ، والنافلة [1] هي هديتك التي ترجو بها كرامتك ، والحرص عليها يسيرها ويزجيها ، ورد النفس عن هواها مراسيها ، والموت ساحلها ، والله ملكها وإليه مصيرها . وأحب التجار الى الله وأفضلهم وأقربهم منه أكثرهم بضاعة وأصفاهم نية ، وأخلصهم هدية . وأبغضهم إليه أقلهم بضاعة ، وأردأهم هدية ، وأخبثهم طوية [2] ، فكلما حسنت تجارتك ازداد ربحك ، وكلما خلصت هديتك تكرم . وفي رواية عنه أنه قال : قال لقمان لابنه : يا بني اتخذ طاعة الله بضاعة تأتِك الأرباح من كل مكان ، واجعل سفينتك تقوى الله ، وحشوها التوكل على الله ، وشراعها الايمان بالله ، وبحرك العلم النافع والعمل الصالح لعلك أن تنجو ، وما أراك بناجٍ . وقال عبد الله بن المبارك عن رباح بن زيد عن رجل قال : إن للعلم طغياناً كطغيان المال .

وقال الطبراني : حدّثنا عبيد بن محمد الصنعاني حدّثنا أبو قدامة همّام بن مسلمة بن عقبة حدّثنا غوث بن جابر حدّثنا عقيل بن منبّه قال : سمعت عمي وهب بن منبّه يقول : الأجر من الله عزّ وجلّ معروض ، ولكن لا يستوجبه من لا يعمل ، ولا يجده من لا يبتغيه ، ولا يبصره من لا ينظر إليه ، وطاعة الله قريبة ممن يرغب فيها ، بعيدة ممن زهد فيها ، ومن يحرص عليها يصل إليها ، ومن لا يحبها لا يجدها ، لا تسبق من سعى إليها ، ولا يدركها من أبطأ عنها ، وطاعة الله تشرّف من أكرمها وتهين من أضاعها ، وكتاب الله يدل عليها ، والايمان بالله يحضُّ عليها .

وقال الامام أحمد : حدّثنا إبراهيم بن خالد حدّثنا عمر بن عبد الرحمن سمعت وهب بن منبّه يقول قال داود عليه السلام : يا رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة حسن العمل . قال : يا رب أي عبادك أبغض إليك ؟ قال : كافر حسن الصورة كفر أو شكر ، هذان . وفي رواية ذكرها أحمد بن حنبل : أي عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارني في أمر فخرت له فلم يرضَ به .

وقال إبراهيم بن الجنيد : حدّثني إبراهيم بن سعيد عن عبدالمنعم بن إدريس حدّثنا عبد الصمد بن معقل عن وهب بن منبّه قال : كان سائح يعبد الله تعالى ، فجاءه إبليس أو شيطان فتمثل بانسان فجعل يريه أنه يعبد الله تعالى ، وجعل يزيد عليه في العبادة ، فأحبه ذلك السائح لما رأى من اجتهاده وعبادته ، فقال له الشيطان ـ والسائح في مصلاه ـ : لو دخلنا إلى المدينة فخالطنا الناس وصبرنا على أذاهم وأمرنا ونهينا ، كان أعظم لأجرنا ، فأجابه السائح الى ذلك ، فلما أخرج السائح إحدى رِجْلَيْه من باب مكانه لينطلق معه ، هتف به هاتف فقال : إن هذا شيطان أراد أن يفتنك . فقال السائح .

---

(١) والنافلة : الغيمة . العطيّة .

(٢) طوية : ضمير .

رجل خرجت في معصية الله وطاعة الشيطان لا تدخل معي . فما حولها من موضعها ذلك حتى فارق الدنيا ، فأنزل الله تعالى ذكره في بعض كتبه فقال : وذو الرِّجْل .

وقال وهب : أتى رجل من أفضل أهل زمانه الى ملك كان يفتن [1] الناس على أكل لحم الخنزير ، فأعظم الناس مكانه ، وهالهم أمره ، فقال له صاحب شرطة الملك ـ سراً بينه وبينه ـ: أيها العالم ، اذبح جدياً مما يحل لك أكله ثم ادفعه إليَّ حتى أصنعه لك على حدته ، فاذا دعا الملك بلحم الخنزير أمرت به فوضع بين يديك ، فتأكل منه حلالا ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنزير ، فذبح ذلك العالم جدياً ، ثم دفعه إلى صاحب الشرطة فصنعه له ، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدم الى هذا العالم لحم الخنزير ، أن يضعوا بين يديه لحم هذا الجدي واجتمع الناس ، لينظروا أمر هذا العالم فيه أيأكل أم لا ، وقالوا إن أكل أكلنا وإن امتنع امتنعنا ، فجاء الملك فدعا لهم بلحوم الخنازير فوضعت بين أيديهم ، ووضع بين يدي ذلك العالم لحم ذلك الجدي الحلال المذكّى ، فألهم الله ذلك العالم فألقى في روعه وفكره ، فقال : هب أني أكلت لحم الجدي الذي أعلم حله أنا ، فماذا أصنع بمن لا يعلم ؟ والناس إنما ينتظرون أكلي ليقتدوا بي ، وهم لا يعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير فيأكلون اقتداءً بي ، فأكون ممن يحمل أوزارهم يوم القيامة ، لا أفعل والله وإن قتلت وحرقت بالنار ، وأبى أن يأكل ، فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويومي إليه ويأمره بأكله ، أي إنما هو لحم الجدي ، فأبى أن يأكل ، ثم أمره الملك أن يأكل فأبى ، فألحوا عليه فأبى ، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله ، فلما ذهبوا به ليقتلوه . قال له صاحب الشرطة : ما منعك أن تأكل من اللحم الذي ذكيته أنت ودفعته إليَّ ؟ أظننت أني أتيتك بغيره وخنتك فيما ائتمنتني عليه ؟ ما كنت لأفعل والله . فقال له العالم قد علمت أنه هو ، ولكن خفت أن يتأسى الناس بي ، وهم إنما ينتظرون أكلي منه ، ولا يعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير ، وكذلك كل من أريد على أكله فيما يأتي من الزمان يقول : قد أكله فلان ، فأكون فتنه لهم . فقتل رحمه الله . فينبغي للعالم أن يحذر المعايب ، ويجتنب المحذورات ، فان زلته وناقصته منظورة يقتدي بها الجاهل . وقال معاذ بن جبل : اتقوا زيغة الحكيم ، وقال غيره : اتقوا زلة العالم ، فانه إذا زلّ زلّ بزلته عالم كبير . ولا ينبغي له أن يستهين بالزلة وإن صغرت ، ولا يفعل الرخص التي اختلف فيها العلماء ، فان العالم هو عصاة كل أعمى من العوّام ، بها يصول على الحق ليدحضه ، ويقول : رأيت فلاناً العالم ، وفلاناً وفلاناً يفعلون ويفعلون . وليجتنب العوائد النفسية ، فانه قد يفعل أشياء على حكم العادة فيظنها الجاهل جائزة أو سنّة أو واجبة ، كما قيل : سَلْ العالم يصدقك ولا تقتد بفعله الغريب ، ولكن سَلْهُ عنه يصدقك إن كان ذا دين ، وكم أفسد النظر إلى غالب علماء زمانك هذا من خلق ، فما الظن بمخالطتهم ومجالستهم ولكن : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فهوَ المهتدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فلنْ تَجِدَ لَهُ وليّاً مُرْشِداً ﴾ [2] .

---

(١) يفتن : يوقعهم في الفتنة أي الضلال والكفر والفضيحة .

(٢) سورة الكهف ، الآية/ ١٧ .

وقال محمد بن عبد الملك بن زنجويه : حدّثنا عبد الرزاق عن أبيه قال : قلت لوهب بن منبّه : كنت ترى الرؤ يا فتخبرنا بها، فلا نلبث أن نراها كما رأيتها، قال: ذهب ذلك عني منذ وليت القضاء. قال عبد الرزاق : فحدّثت به معمراً فقال : والحسن بعد ما رأى العلماء لم يحمدوا فهمه ، فمن يأمن القرّاء بعدك يا شهر؟ فكيف حال من قد غرق في قاذورات الدنيا من علماء زمانك هذا ، ولا سيما من بعد فتنة تمرلنك ؟ فان القلوب قد امتلأت بحب الدنيا ، فلا يجد العلم فيها موضعاً ، فجالس من شئت منهم لتنظر مبادىء مجالستهم وغاياتها ، ولا تستخفك البدوات ، فانما الأمور بعواقبها وخواتيمها ونتائجها ، وغاياتها . ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [1] . وقال وهب : البلاء للمؤمن كالشكال للدابة . وقال أبو بلال الأشعري عن أبي شهاب الصنعاني عن عبد الصمد عن وهب قال : من أصيب بشيء من البلاء فقد سلك به طريق الأنبياء . وقال عبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل : حدّثنا عبد الرزاق قال : أنبأنا منذر قال : سمعت وهباً يقول : قرأت في كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك طريق ـ أو قال سبيل ـ أهل البلاء فطب نفساً ، فقد سلك بك طريق الأنبياء والصالحين .

وقال الامام أحمد : حدّثنا أحمد بن جعفر حدّثنا إبراهيم بن خالد حدّثني أمية بن شبل عن عثمان بن بزدويه قال : كنت مع وهب وسعيد بن جبير يوم عرفة تحت نخيل ابن عامر ، فقال وهب لسعيد : يا أبا عبد الله ! كم لك منذ خفت من الحجاج ؟ قال : خرجت عن امرأتي وهي حامل فجاءني الذي في بطنها وقد خرج [شعر] وجهه ، فقال له وهب : إن من كان قبلكم كان إذا أصابه بلاء عده رجاء ، وإذا أصابه رجاء عده بلاء . وروى عبد الله بن أحمد بسنده عن وهب قال : قرأت في بعض الكتب : ليس من عبادي من سحر أو سحر له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو تطير أو تطير له ، فمن كان كذلك فليدع غيري ، فانما هو أنا وخلقي كلهم لي . وقال الامام أحمد : حدّثنا إبراهيم بن خالد حدّثنا رباح عن جعفر بن محمد عن التيمي عن وهب أنه قال : دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الأغنياء الجنة . قلت : هذا إنما هو لشدة الحساب وطول وقوف الاغنياء في الكرب ، كما قد ضربت الأمثال للشدائد . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الامام أحمد : حدّثنا عبد الرزاق حدّثنا بكار قال سمعت وهباً يقول : ترك المكافأة من التطفيف [2] . وقال الامام أحمد : حدّثنا الحجاج وأبو النصر قالا : حدّثنا محمد بن طلحة عن محمد بن جحادة عن وهب قال : من يتعبد يزدَدْ قوة ، ومن يتكسل يزدَدْ فترة [3] . وقد قال غيره : إن حوراء جاءته في المنام في ليلة باردة فقالت له : قم إلى صلاتك فهي خير لك من نومة توهن بدنك .

---

(١) سورة الطلاق ، الآية/ ٢ ـ ٣ .

(٢) التطفيف : التنقيص .

(٣) فترة : ضعفاً وتراخياً .

ورأيت في ذلك حديثاً لم يحضرني الآن . وهذا أمر مجرب أن العبادة تنشط البدن وتلينه ، وأن النوم يكسل البدن فيقسيه ، وقد قال بعض السلف لما تبع ضلة بن أشيم حين دخل تلك الغيضة ، وأنه قام ليلته إلى أن أصبح ، قال فأصبح كأنه بات على الحشايا ، وأصبحت ولي من الكسل والفتور ما لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ .

وقد قيل للحسن : ما بال المتعبدين أحسن الناس وجوهاً ؟ قال : لأنهم خلّوا بالجليل فألبسهم نوراً من نوره . وقال يحيى بن أبي كثير : والله ما رجل يخلو بأهله عروساً أقر ما كانت نفسه وآنس ، بأشد سروراً منهم بمناجاة ربهم تعالى إذا خلوا به . وقال عطاء الخراساني : قيام الليل محياة للبدن ، ونور في القلب ، وضياء في الوجه ، وقوة في البصر والأعضاء كلها ، وإن الرجل إذا قام بالليل أصبح فرحاً مسروراً ، وإذا نام عن حزبه أصبح حزيناً مكسور القلب كأنه قد فقد شيئاً ، وقد فقد أعظم الأمور له نفعاً .

وقال ابن أبي الدنيا ، حدّثنا أبو جعفر أحمد بن منيع حدّثنا هاشم بن القاسم أبو النصر حدّثنا بكر بن حبيش عن محمد القرشي عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن بلال قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الاثم ، وتكفير عن السيئات ، ومطردة للشيطان عن الجسد » وقد رواه غيره من طرق : « عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم » ويكفي في هذا الباب ما رواه أهل الصحيح والمسانيد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد . فاذا استيقظ وذكر الله انحلت عقدة ، وإذا توضأ انحلت عقدة ، فان صلّى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » . وهذا باب واسع . وقد قال هود فيما أخبر الله عنه : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلَـهٍ غيْرُهُ ﴾ (١) . ثم قال : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ (٢) . وهذه القوة تشمل جميع القوى ، فيزيد الله عابديه قوة في إيمانهم ويقينهم ودينهم وتوكلهم ؛ وغير ذلك مما هو من جنس ذلك ، ويزدهم قوة في أسماعهم وأبصارهم وأجسادهم وأموالهم وأولادهم وغير ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الامام أحمد : حدّثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدّثني عبد الصمد أنه سمع وهباً يقول : تصدق صدقة رجل يعلم أنه إنما قدم بين يديه ماله وما خلف مال غيره .

قلت : وهذا كما في الحديث « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ فقالوا : كلنا ماله أحب إليه من مال وارثه ، فقال : إن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » . قال : وسمعت وهباً على المنبر يقول :

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية/ ٣٢ .

(٢) سورة هود ، الآية/ ٥٢ .

احفظوا عني ثلاثاً ، إياكم وهوى متبعاً ،وقرين [1] سوء ، وإعجاب المرء بنفسه . وقد رويت هذه الألفاظ في حديث . وقال الامام أحمد : حدّثنا يونس بن عبد الصمد بن معقل حدّثنا إبراهيم بن الحجاج قال : سمعت وهباً يقول : أحب بني آدم إلى الشيطان النؤ وم [2] الأكول [3] .

وقال الامام أحمد : حدّثنا غوث بن جابر حدّثنا عمران بن عبد الرحمن أبو الهذيل أنه سمع وهباً يقول : إن الله عزّ وجلّ يحفظ بالعبد الصالح القيل من الناس . وقال أحمد أيضاً : حدّثنا إبراهيم بن عقيل حدّثنا عمران أبو الهذيل من الأنباء عن وهب بن منبه قال : ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان موكل به ، فأما الكافر فيأكل معه ويشرب معه ، وينام معه على فراشه . وأما المؤمن فهو مجانب له ينتظر متى يصيب منه غفلة أو غرّة . وأحب الآدميين الى الشيطان الأكول النؤ وم . وقال محمد بن غالب : حدّثنا أبو المعتمر ابن أخي بشر بن منصور عن داود بن أبي هند عن وهب . قال : قرأت في بعض الكتب الذي أنزلت من السماء على بعض الأنبياء : أن الله تعالى قال لابراهيم عليه الصلاة والسلام : أتدري لِمَ اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يا رب ، قال : لِذُلّ مقامك بين يدي في الصلاة .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدّثنا محمد بن أيوب حدّثنا أبوبكر بن عياش عن إدريس بن وهب بن منبّه قال : حدّثني أبي قال : كان لسليمان بن داود ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد فركب الريح يوماً فمر بحراث فنظر إليه الحرّاث فاستعظم ما أُوتيَ سليمان من المُلك ، فقال : لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً ، فحملت الريح كلام الحرّاث فألقته في أذن سليمان ، قال : فأمر الريح فوقفت ، ثم نزل يمشي حتى أتى الحرّاث فقال له : إني قد سمعت قولك ، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه مما أقدرني الله عليه تفضلاً وإحساناً منه عليَّ ، لأنه هو الذي أقامني لهذا وأعانني . ثم قال : والله لتسبيحة واحدة يقبلها الله عزّ وجلّ منك أو من مؤمن خير مما أوتي آل داود من الملك ، لأن ما أُوتي آل داود من مُلك الدنيا يفنى ، والتسبيحة تبقى ، وما يبقى خير مما يفنى . فقال الحراث : أذهب الله همك كما أذهبت همي .

وقال الامام أحمد : حدّثنا إبراهيم بن عقيل بن معقل حدّثني أبي عن وهب بن منبه . قال : إن الله عزّ وبجلّ أعطى موسى عليه السلام نوراً ، فقال له هارون : هِبْه لي يا أخي ، فوهبه له ، فأعطاه هارون ابنه ، وكان في بيت المقدس آنية تعظمها الأنبياء والملوك ، فكان ابنا هارون يسقيان في تلك الآنية الخمر ، فنزلت نار من السماء فاختطفت ابني هارون فصعدت بهما ، ففزع هارون لذلك فقام مستغيثاً متوجهاً بوجهه الى السماء بالدعاء والتضرع ، فأوحى الله إليه : يا هارون هكذا أفعل بمن عصاني من أهل طاعتي ، فكيف فعلي بمن عصاني من أهل معصيتي ؟ . وقال الحكم بن أبان : نزل بي ضيف من أهل صنعاء فقال : سمعت وهب بن منبّه يقول : إن لله عزّ وجلّ في السماء السابعة

---

(١) وقرين : صاحب .

(٢) النؤ وم : الكثير النوم .

(٣) الأكول : الكثير الأكل .

داراً يقال لها البيضاء يجمع فيها أرواح المؤمنين ، فاذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح فيسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم . وقال : من جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظلمه ، فمن غلب علمه هواه فذلك العالم الغلّاب . وقال فضيل بن عياض : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي ، وما يكابدون في طلب مرضاتي ، فكيف بهم إذا صاروا إلى داري ، وتبحبحوا في رياض نعمتي ؟ هنالك فليبشر المضعفون لله أعمالهم بالنظر العجيب من الحبيب القريب ، أتراني أنسى لهم عملاً ؟ وكيف وأنا ذو الفضل العظيم أجود على المولين المعرضين عني ، فكيف بالمقبلين عليَّ ؟ وما غضبت على شيء كغضبي على من أخطأ خطيئة فاستعظمها في جنب عفوي ، ولو تعاجلت بالعقوبة أحداً ، أو كانت العجلة من شأني ، لعاجلت القانطين من رحمتي . ولو رآني عبادي المؤمنون كيف أستوهبهم ممن اعتدوا عليه ، ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم ، اتهموا فضلي وكرمي ، أنا الديان الذي لا تحل معصيتي ، والذي أطاعني أطاعني برحمتي ، ولا حاجة لي بهوان من خاف مقامي . ولو رآني عبادي يوم القيامة كيف أرفع قصوراً تحار فيها الأبصار فيسألوني : لمن ذا ؟ فأقول : لمن وهب لي ذنباً ما لمَ يوجب على نفسه معصيتي والقنوط من رحمتي ، وإني مكافىء على المدح فامدحوني .

وقال سلمة بن شبيب : حدّثنا سلمة بن عاصم حدّثنا عبد الله بن محمد بن عقبة حدّثنا عبد الرحمن أبو طالوت حدّثني مهاجر الأسدي عن وهب . قال : مرَّ عيسى بن مريم ومعه الحواريون بقرية قد مات أهلها ، إنسها وجنها ، وهوامها وأنعامها وطيورها ، فقام عليها ينظر إليها ساعة ثم أقبل على أصحابه فقال : إنما مات هؤلاء بعذاب من عند الله ، ولولا ذلك لماتوا متفرقين . ثم ناداهم عيسى : يا أهل القرية ، فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله ، فقال ما كانت جنايتكم وسبب هلاككم ؟ قال عبادة الطاغوت وحب الدنيا ، قال : وما كانت عبادتكم للطاغوت ؟ قال : طاعة أهل المعاصي هي عبادة الطاغوت . قال : وما كان حبكم للدنيا ؟ قال : كحب الصبيِّ لأمه ، كنا إذا أقبلت فرحنا ، وإذا أدبرت حزنا ، مع أمل بعيد ، وإدبار عن طاعة الله ، وإقبال على مساخطه . قال : فكيف كان هلاككم ؟ قال : بتنا ليلة في عافية وأصبحنا في هاوية ، قال : وما الهاوية ؟ قال : سجين ، قال : وما السجين ؟ قال : جمرة من نار مثل أطباق الدنيا كلها دفنت أرواحنا فيها ، قال : فما بال أصحابك لا يتكلمون ؟ قال : لا يستطيعون أن يتكلموا . قال : وكيف ذلك ؟ قال : هم ملجمون بلجم من نار . قال : وكيف كلمتني أنت من بينهم ؟ قال : كنت فيهم لما أصابهم العذاب ولم أكن منهم ولا على أعمالهم ، فلما جاء البلاء عمَّني معهم ، وأنا معلق بشعرة في الهاوية لا أدري أكردس [1] فيها أم أنجو . فقال عيسى عليه السلام عند ذلك لأصحابه : بحق أقول لكم : لخبز الشعير وشرب الماء القراح [2] والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة .

---

(١) أكردس : أمشي وانا مقارب الخطو كالمقيَّد .

(٢) القراح : الماء الخالص .

وروى الطبراني عنه أنه قال : لا يكون المرء حكيماً حتى يطيع الله عزّ وجلّ ، وما عصى الله حكيم ، ولا يعصي الله إلا أحمق ، وكما لا يكمل النهار إلا بالشمس ، ولا يعرف الليل إلا بالظلام ، كذلك لا تكمل الحكمة إلا بطاعة الله عزّ وجلّ ، ولا يعصي الله حكيم ، كما لا يطير الطير إلا بجناحين ، ولا يستطيع من لا جناح له أن يطير ، كذلك لا يطيع الله من لا يعمل له ، ولا يطيق عمل الله من لا يطيعه . وكما لا مكث للنار في الماء حتى تطفأ ، كذلك لا مكث لعمل الرياء حتى يبور . وكما يبدي سرّ الزانية وفضيحتها فعلها ، كذلك يفتضح بالفعل السيء من كان يقرأ لجليسه بالقول الحسن ولم يعملّ به . وكما تكذب معذرة السارق بالسرقة إذا ظهر عليها عنده ، كذلك تكذب معصية القارىء لله قراءته إذا كان يقرأها لغير الله تعالى .

وقال الطبراني : حدّثنا محمد بن النضر حدّثنا علي بن بحر حدّثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدّثنا عبد الصمد بن معقل . قال سمعت وهباً يقول : في مزامير آل داود : طوبى لمن يسلك سبيل الحطابين ولا يجالس البطّالين ، وطوبى لمن يسلك طريق الأئمة ويستقيم على عبادة ربه ، فمثله كمثل شجرة نابتة على ساقية لا تزال فيها الحياة ، ولا تزال خضراء . وروى الطبراني أيضا عنه قال : إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء ، وقطرت العضاة دماً . وروى عنه أنه قال : ما من شيء إلا يبدو صغيراً ثم يكبر ، إلا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر . وروى عنه أيضاً أنه قال : وقف سائل على باب داود عليه السلام ، فقال : يا أهل بيت النبوة تصدَّقوا علينا بشيء رزقكم الله رزق التاجر المقيم في أهله . فقال داود : اعطوه ، فوالذي نفسي بيده إنها لفي الزبور . وقال : من عرف بالكذب لم يجز صدقه ، ومن عرف بالصدق ائتمن على حديثه ، ومن أكثر الغيبة والبغضاء لم يوثق منه بالنصيحة ، ومن عرف بالفجور والخديعة لم يؤمن إليه في المحنة ، ومن انتحل فوق قدره جحد قدره ، ولا تستحسن فيك ما تستقبح في غيرك . هذه الآثار رواها الطبراني عنه من طرق .

وروى داود بن عمرو عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عثمان بن خيثم . قال : قدم علينا وهب مكة فطفق لا يشرب ولا يتوضأ إلا من زمزم ، فقيل له : ما لك في الماء العذب ؟ فقال : ما أنا بالذي أشرب وأتوضأ إلا من زمزم حتى اخرج منها ، إنكم لا تدرون ما ماء زمزم ، والذي نفسي بيده إنها لفي كتاب الله طعام طعم ، وشفاء سقم ، ولا يعمد أحد إليها يتضلع منها رياً ، إبتغاء بركتها ، إلا نزعت منه داء وأحدثت له شفاء . وقال : النظر في زمزم عبادة . وقال : النظر فيها يحط الخطايا حطًّا . وقال وهب : مسخ بختنصر أسداً فكان ملك السباع ، ثم مسخ نسراً فكان ملك الطيور ، ثم مسخ ثوراً فكان ملك الدواب ، وهو في كل ذلك يعقل عقل الانسان ، وكان ملكه قائماً يدبر ، ثم رد الله عليه روحه إلى حالة الانسان ، فدعا الى توحيد الله وقال : كل إله باطل إلا إله السماء . قيل له : أمات مؤمناً؟ فقال : وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : آمن قبل أن يموت ، وقال بعضهم : قتل الأنبياء ، وحرق الكتب ، وحرق بيت المقدس ، فلم يقبل منه التوبة . هكذا رواه الطبراني عن محمد بن

أحمد بن الفرج عن عباس بن يزيد عن عبد الرزاق عن بكار بن عبد الله . قال : سمعت وهب بن منبه يقول ، فذكره .

وقال وهب : كان رجل بمصر فسألهم ثلاثة أيام أن يطعموه فلم يطعموه ، فمات في اليوم الرابع فكفنوه ودفنوه ، فأصبحوا فوجدوا الكفن في محرابهم مكتوب عليه : قتلتموه حياً وبررتموه ميتاً ؟ قال يحيى : فأنا رأيت القرية التي مات فيها ذلك الرجل ، وما بها أحد إلا وله بيت ضيافة ، لا غني ولا فقير هكذا رواه يحيى بن عبد الباقي عن علي بن الحسن عن عبد الله بن أخي وهب ، قال : حدّثني عمي وهب بن منبّه فذكره . قال : وأهل القرية يعترفون بذلك . فمن ثم اتخذوا بيوتاً للضيفان والفقراء خوفاً من ذلك . وقال عبد الرزاق عن بكار عن وهب . قال : إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوة . وقال إبراهيم بن الجنيد : حدّثنا إبراهيم بن سعيد عن عبد المنعم بن إدريس عن عبد الصمد عن وهب بن منبّه قال : مرّ نبي من الأنبياء على عابد في كهف جبل ، فمال إليه فسلم عليه وقال له : يا عبد الله منذ كم أنت ها هنا ؟ قال : منذ ثلثمائة سنة . قال : من أين معيشتك ؟ قال : من ورق الشجر ، قال : فمن أين شرابك ؟ قال : من ماء العيون ، قال : فأين تكون في الشتاء ؟ قال : تحت هذا الجبل ، قال : فكيف صبرك على العبادة ؟ قال : وكيف لا أصبر وإنما هو يومي الى الليل ، وأما أمس فقد مضى بما فيه ، وأما غد فلم يأتِ بعد . قال فعجب النبي من قوله : إنما هو يومي إلى الليل . وبهذا الإسناد أن رجلاً من العباد قال لمعلمه : قطعت الهوى فلست أهوى من الدنيا شيئاً . فقال له معلمه : أتفرق بين النساء والدواب إذا رأيتهن معاً ؟ قال : نعم ، قال أتفرق بين الدنانير والدراهم والحصا ؟ قال نعم ، قال : يا بني إنك لم تقطع الهوى عنك ولكنك قد أوثقته فاحذر انفلاته وانقلابه .

وقال غوث بن جابر بن غيلان بن منبّه : حدّثني عقيل بن معقل عن وهب قال : اعمل في نواحي الدين الثلاث ، فان للدين نواحي ثلاثاً ، هنّ جماع الأعمال الصالحة لمن أراد جمع الصالحات « أولاهن » تعمل شكراً لله على الأنعم الكثيرات الغاديات [١] الرائحات [٢] ، الظاهرات الباطنات ، الحادثات القديمات ، يعمل المؤمن شكراً لهن ورجاء تمامهن « والناحية الثانية من الدين » رغبة في الجنة التي ليس لها ثمن وليس لها مثل ، ولا يزهد فيها وفي العمل لها إلا سفيه فاجر ، أو منافق كافر « والناحية الثالثة من الدين » أن يعمل المؤمن فراراً من النار التي ليس لأحد عليها صبر ، ولا لأحد بها طاقة ولا يدان ، وليست مصيبتها كالمصيبات ، ولا حزن أهلها كالأحزان ، نبأها عظيم ، وشأنها شديد ، والآخرة وحزنها فظيع ، ولا يغفل عن الفرار والتعوّذ بالله منها إلا سفيه أحمق خاسر : ﴿ خَسِرَ الدُّنيا والآخِرَةَ ذَلِكَ هو الخُسْرانُ المُبِينُ ﴾ [٣] .

---

(١) الغاديات : مفردها الغادية وهي السحابة تنشأ غُدْوَة .

(٢) الرائحات : هي الأمطار أو السُّحب التي تجيء رَوَاحاً أي عند العشيّ .

(٣) سورة الحج ، الآية/ ١١ .

وقال إسحاق بن راهويه : حدّثنا عبد الملك بن محمد الدمادي قال أخبرني محمد بن سعيد بز رمانة قال أخبرني أبي قال قيل لوهب : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان ، فمن أتى الباب بمفتاح بأسنانه فتح له ، ومن لم يأتِ الباب بمفتاح بأسنانه لم يفتح له . وقال محمد : حدّثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدّثنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول : ركب ابن ملك في جند من قومه وهو شاب ، فصرع عن فرسه فدق عنقه فمات في أرض قرية من القرى ، فغضب أبوه وحلف أن يقتل أهل تلك القرية عن آخرهم ، وأن يطأهم بالأفيال ، فما أبقت الأفيال وطئته الخيل ، فما أبقت الخيل وطئته الرجال ، فتوجه إليهم بعد أن سقى الأفيال والخيل الخمر وقال : طأوهم بالأفيال ، وإلا فما أبقت الأفيال فلتطأه الخيل ، فما أخطأته الخيل فلتطأه الرجال فلما سمع بذلك أهل تلك القرية وعرفوا أنه قد قصدهم لذلك ، خرجوا بأجمعهم فجأروا إلى الله سبحانه وعجُّوا إليه وابتهلوا يدعونه تعالى ليكشف عنهم شر هذا الملك الظالم ، وما قصده من هلاكهم . فبينما الملك وجيشه سائرون على ذلك ، وأهل القرية في الابتهال والدعاء والتضرّع الى الله تعالى ، إذ نزل فارس من السماء فوقع بينهم ، فنفرت الأفيال فطغت على الخيل وطغت الخيل على الرجال ، فقتل الملك ومن معه وطأ بالافيال والخيل ، ونجى الله أهل تلك القرية من بأسهم وشرهم .

وروى عبد الرزاق عن المنذر بن النعمان أنه سمع وهباً يقول : قال الله تعالى لصخرة بيت المقدس : لأضعنّ عليك عرشي ، ولأحشرن عليك خلقي ، وليأتينك داود يومئذ راكباً . وروى سماك بن المفضل عن وهب قال : إني لأتفقد أخلاقي وما فيها شيء يعجبني . وروى عبد الرزاق عن أبيه قال : قال وهب : ربما صليت الصبح بوضوء العتمة . وقال بقية بن الوليد : حدّثنا زيد بن خالد عن خالد بن معدان عن وهب قال : كان نوح عليه السلام من أجمل أهل زمانه ، وكان يلبس البرقع فأصابهم مجاعة في السفينة ، فكان نوح إذا تجلَّى لهم شبعوا . وقال ، قال عيسى : الحق أقول لكم : إن أشدكم جزعاً على المصيبة أشدكم حباً للدنيا . وقال جعفر بن برقان : بلغنا أن وهباً كان يقول : طوبى لمن نظر في عيبه عن عيب غيره ، وطوبى لمن تواضع لله من غير مسكنة ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وتصدق من مال جمعه من غير معصية ، وجالس أهل العلم والحلم والحكمة ؛ ووسعته السنة ولم يتعدّها إلى البدعة . وروى سيار عن جعفر عن عبد الصمد بْن معقل عن وهب قال : وجدت في زبور داود : يا داود هل تدري من أسرع الناس مرّا على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمي ؛ وألسنتهم رطبة بذكري . وقيل إن عابداً عبد الله تعالى خمسين سنة فأوحى الله إلى نبيهم : إني قد غفرت له ، فأخبره ذلك النبي ، فقال : أي رب ، وأي ذنب تغفر لي ؟ فأمر عرقا في عنقه فضرب عليه ، فلم ينم ولم يهدأ ولم يصلِ ليلته ، ثم سكن العرق ، فشكا ذلك الى النبي ، فقال : ما لاقيت من عرق ضرب علي في عنقي ثم سكن . فقال له النبي : إن الله يقول : إن عبادتك خمسين سنة ما تعدل سكون هذا العرق . وقال وهب : رؤ وس النعم ثلاثة « إحداها » نعمة الاسلام التي لا تتم نعمة إلا بها . « والثانية » نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها . « والثالثة » نعمة الغنى التي لا يتم العيش

إلا بها . ومر وهب بمبتلي أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهويقول : الحمد لله على نعمه ، فقال له رجل كان مع وهب : أي شيء بقي عليك من النعمة تحمد الله عليه ؟ فقال المبتلي ، أدم بصرك إلى أهل المدينة وانظر الى كثرة أهلها ، أولاً أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيري ؟. وقال وهب : المؤمن يخالط ليعلم ، ويسكت ليسلم ، ويتكلم ليفقههم ، ويخلو ليقيم . وقال : المؤمن مفكر مذكّر مدخّر ، تذكر فغلبته السكينة ، سكن فتواضع فلم يتهم ، رفض الشهوات فصار حراً ، ألقى عنه الحسد فظهرت له المحبة ، زهد في كل فان فاستكمل العقل ، رغب في كل باقٍ فعقل المعرفة ، قلبه متعلق بهمه ، وهمه موكل بمعاده ، لا يفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه عليه سرمد ، وفرحه إذا نامت العيون يتلو كتاب الله ويردده على قلبه ، فمرة يفزع قلبه ومرة تدمع عينه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالخلوة والعزلة ، مفكراً في ذنوبه ، مستصغراً لأعماله . وقال وهب : فهذا ينادي يوم القيامة في ذلك الجمع العظيم على رؤوس الخلائق : قم أيها الكريم فادخل الجنة .

وقال إبراهيم بن سعيد عن عبد الرحمن بن مسعود عن ثور بن يزيد . قال ، قال وهب بن منبه : الويل لكم إذا سمّاكم الناس صالحين ، وأكرموكم على ذلك . وقال الطبراني : حدّثنا عبيد بن محمد الكشوري حدّثنا همّام بن سلمة بن عقبة حدّثنا غوث بن جابر حدّثنا عقيل بن معقل بن منبّه قال : سمعت عمي وهب بن منبّه يقول : يا بني ! إخلص طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق بها فعلك في العلانية ، فان من فعل خيراً ثم أسرّه الى الله فقد أصاب مواضعه ، وأبلغه قراره ، ووضعه عند حافظه وإن من أسرّ عملاً صالحاً لم يطلّع عليه إلا الله ، فقد أطلع عليه من هو حسبه ، واستحفظه واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره ، فلا تخافن يا بني على من عمل صالحاً أسرّه إلى الله عزّ وجلّ ضياعاً ، ولا تخافنّ ظلمة ولا هضمة ، ولا تظنن أن العلانية هي أنجح من السريرة ، فان مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجرة مع عرقها ، العلانية ورقها السريرة أصلها ، إن يحرق العرق هلكت الشجرة كلها ، وإن صلح الأصل صلحت الشجرة ، ثمرها وورقها ، والورق يأتي عليه حين يجف ويصير هباء[1] تذروه الرياح ، بخلاف العرق ، فانه لا يزال ما ظهر من الشجرة في خير وعافية ما كان عرقها مستخفياً لا يرى منه شيء ، كذلك الدين والعلم والعمل ، لا يزال صالحاً ما كان له سريرة صالحة يصدق الله بها علانية العبد ، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة ، ولا تنفع العلانية مع السريرة الفاسدة ، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها ، وإن كان حياته من قبل عرقها ، فان فرعها زينتها وجمالها ، وإن كانت السريرة هي ملاك الدين ، فإن العلانية معها تزين الدين وتجمله إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه عز وجل .

وقال الهيثم بن جميل : حدّثنا صالح المري عن أبان عن وهب قال : قرأت في الحكمة : الكفر أربعة أركان ، ركن منه الغضبة ، وركن منه الشهوة ، وركن منه الطمع ، وركن منه الخوف . وقال :

(١) هباء : غباراً .

أوحى الله تعالى إلى موسى : إذا دعوتني فكن خائفاً مشفقاً وجلاً ، وعفّر خدك بالتراب ، واسجد لي بمكارم وجهك ويديك ، وسلني حين تسألني بخشية من قلبك ووجل ، واخشني أيام الحياة ، وعلم الجهال آلائي ، وقل لعبادي لا يتمادوا في غي ما هم فيه فان أخذي أليم شديد . وقال وهب : إذا هم الوالي بالجور أو عمل به دخل النقص على أهل مملكته ، وقلّت البركات في التجارات والزراعات والضروع والمواشي ، ودخل المحق في ذلك ، وأدخل الله عليه الذل في ذاته وفي ملكه . وإذا هم بالعدل والخير كان عكس ذلك ، من كثرة الخير ونمو البركات . وقال وهب : كان في مصحف إبراهيم عليه السلام أيها الملك المبتلي ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولا لتبني البنيان ، وإنما بعثتك لترفع لي دعوة المظلوم فاني لا أردها ولو كانت من كافر .

وروى ابن أبي الدنيا عن محمد بن إسحاق عن وهب بن منبّه أن ذا القرنين قال لبعض الملوك : ما بال ملتكم واحدة ، وطريقتكم مستقيمة ؟ قال : من قبل أنا لا نخادع ولا يغتاب بعضنا بعضاً . وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : ثلاث من كنّ فيه أصاب البر ، سخاوة النفس ، والصبر على الأذى ، وطيب الكلام . وقال ابن أبي الدنيا : حدّثني سلمة بن شبيب حدّثنا سهل بن عاصم عن سلمة بن ميمون عن المعافى بن عمران عن إدريس قال : سمعت وهباً يقول : كان في بني إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أنهما مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان على البحر إذا هما برجل يمشي في الهواء ، فقالا له : يا عبد الله بأي شيء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسيرٍ من البر فعلته ، ويسيرٍ من الشر تركته ، فطمت نفسي عن الشهوات ، وكففت لساني عما لا يعنيني ، ورغبت فيما دعاني إليه خالقي ، ولزمت الصمت فان أقسمت على الله عزّ وجلّ أبرّ قسمي ، وإن سألته أعطاني . وقال : حدّثني أبو العباس البصري الأزدي عن شيخ من الأزد . قال : جاء رجل إلى وهب بن منبّه فقال : علّمني شيئاً ينفعني الله به ، قال : أكثر من ذكر الموت ، وأقصِر أملك ، وخصلة ثالثة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى ، وظفرت بالعبادة الكبرى قال : وما هي ؟ قال : التوكل

وممن توفي فيها من الأعيان .

سليمان بن سعد

كان جميلاً فصيحاً عالماً بالعربية ، وكان يعلمها الناس هو وصالح بن عبد الرحمن الكاتب ، وتوفي صالح بعده بقليل ، وكان صالح فصيحاً جميلاً عارفاً بكتابة الديوان ، وبه يخرج أهل العراق من كتابة الديوان وقد ولّاه سليمان بن عبد الملك خراج العراق .

ام الهذيل

لها روايات كثيرة ، وقد قرأت القرآن وعمرها اثنتي عشرة سنة ، وكانت فقيهة عالمة ، من خيار النساء ، عاشت سبعين سنة .

عائشة بنت طلحة بن عبد الله التميمي

أمها أم كلثوم بنت أبي بكر ، تزوجت بابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، ثم تزوجت بعده بمصعب بن الزبير ، وأصدقها مائة ألف دينار ، وكانت بارعة الجمال ، عظيمة الحسن لم يكن في زمانها أجمل منها . توفيت بالمدينة .

عبيد الله بن سعيد بن جبير

له روايات كثيرة ، وكان من أفضل أهل زمانه .

عبد الرحمن بن أبان

ابن عثمان بن عفان . له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة .

ثم دخلت سنة احدى عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى [1] ، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى [2] ، حتى بلغ قيسارية من بلاد الروم . وفيها عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله السلمي عن إمرة خراسان وولّى عليها الجنيد بن عبد الرحمن ، فلما قدم خراسان تلقّته خيول الأتراك منهزمين من المسلمين ، وهو في سبعة آلاف فتصافوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، وطمعوا فيه وفيمن معه لقلتهم بالنسبة إليهم ، ومعهم ملكهم خاقان ، وكاد الجنيد أن يهلك ، ثم أظفره الله بهم فهزمهم هزيمة منكرة ، وأسر ابن أخي ملكهم ، وبعث به الى الخليفة . وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام المخزومي ، وهو أمير الحرمين والطائف ، وأمير العراق خالد القسري ، وأمير خراسان الجنيد بن عبد الرحمن المري .

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح حصوناً من ناحية ملاطية . وفيها سارت الترك من اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمي فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان ، فاقتتلوا قبل أن يتكامل إليه جيشه ، فاستشهد الجراح رحمه الله وجماعة معه بمرج أردبيل ، وأخذ العدو أردبيل . فلما بلغ ذلك هشام بن عبد الملك بعث سعيد بن عمرو الجرشي بجيش وأمره بالاسراع إليهم ، فلحق الترك وهم يسيرون بأسارى المسلمين نحو ملكهم خاقان ، فاستنقذ منهم الأسارى ومن كان معهم من نساء المسلمين ، ومن أهل الذمة أيضاً ، وقتل من الترك

---

(١) اي البلاد الواقعة في ساحل بلاد الأناضول

(٢) أي بر الأناضول من جهة البلاد الداخلية .

مقتلة عظيمة جداً ، وأسر منهم خلقاً كثيراً فقتلهم صبراً ، وشفى ما كـان تغلث[1] من القلوب ، ولم يكتف الخليفة بذلك حتى أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك في أثر التـرك ، فسار إليهم في برد شديد وشتاء عظيم ، فوصـل إلى باب الأبـواب واستخلف عنه أميـراً وسار هـو بمن معه في طلب الأتراك وملكهم خاقان ، وكان من أمره معهم ما سنذكره . ونهض أمير خراسـان في طلب الأتراك أيضاً في جيش كثيف ، فوصل إلى نهر بلخ ووجه إليهم سرية ثمانية عشر ألفا ، وأخرى عشرة آلاف يمنة ويسرة ، وجاشت الترك وجيشت ، فأتوا سمرقند فكتب أميرها إليه يعلمه بهم ، وأنه لا يقدر على صون سمرقند منهم ، ومعهم ملكهم الأعظم خاقان ، فالغوث الغـوث . فسار الجنيد مسرعاً في جيش كثيف هو نحو سمرقند حتى وصل الى شعب سمـرقند وبقي بينـه وبينها أربعة فراسخ ، فصبحه خاقان في جمع عظيم ، فحمل خاقان على مقدمة الجنيد فـانحازوا إلى العسكـر والترك تتبعهم من كـل جانب ، فتـراءى الجمعـان والمسلمون يتغـدون ولا يشعـرون بـانهزام مقـدمتهم وانحيازهـا إليهم ، فنهضوا إلى السـلاح واصطفـوا على منازلهم ، وذلـك في مجال واسع ، ومكان بارز ، فالتقوا وحملت الترك على ميمنة المسلمين وفيها بنو تميم والأزد ، فقتـل منهم ومن غيرهم خلق كثيـر ، ممن أراد الله كرامتـه بالشهـادة ، وقد بـرز بعض شجعـان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم ، فناداه منادي خاقان : إن صرت إلينا جعلناك ممن يـرقص الصنم الأعظم فنعبـدك ، فقال : ويحكم ، إنمـا أقـاتلكم على أن تعبـدوا الله وحـده لا شريك له ، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله . ثم تنـاخى المسلمون وتـداعت الأبطال والشجعـان من كل مكان ، وصبروا وصابـروا ، وحملوا على الترك حملة رجـل واحد ، فهـزمهم الله عـز وجلَّ ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم عطفت التـرك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقاً حتى لم يبق سوى ألفين ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، وقتـل يومئـذ سودة بن أبجـر واستأسـروا من المسلمين جماعة كثيرة فحملوهم إلى الملك خاقـان فأمـر بقتلهم عن آخرهم ، فـانا لله وإنـا إليه راجعـون وهذه الوقعة يقال لها وقعة الشعب . وقد بسطها ابن جرير جداً ، وممن توفي فيها من الأعيان :

رجاء بن حيوة الكندي

أبو المقدام ، ويقال أبو نصر ، وهو تابعي جليل ، كبير القدر ، ثقة فاضـل عادل ، وزيـر صدق لخلفاء بني أمية ، وكان مكحـول إذا سئل يقـول : سلوا شيخنا وسيـدنا رجـاء بن حيوة . وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه في الرواية ، وله روايات وكلام حسن رحمه الله .

شهر بن حوشب الأشعري الحمصي

ويقال إنه دمشقي ، تابعي جليل ، روى عن مولاته أسماء بنت يزيد بن السكن وغيرهـا ،

---

(١) تغلث : تقاتلوا بشدّة .

وحدث عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، وكان عالماً عابداً ناسكاً ، لكن تكلم فيه جماعة بسبب أخذه خريطة من بيت المال بغير اذن ولي الأمر ، فعابوه وتركوه عرضة ، وتركوا حديثه وأنشدوا فيه الشعر ، منهم شعبة وغيزه ، ويقال إنه سرق غيرها فالله أعلم . وقد وثقه جماعات آخرون وقبلوا روايته وأثنوا عليه وعلى عبادته ودينه واجتهاده ، وقالوا : لا يقدح في روايته ما أخذه من بيت المال إن صح عنه ، وقد كان واليا عليه متصرفاً فيه فالله أعلم . قال الواقدي : توفي شهر في هذه السنة ـ أعني سنة اثنتي عشرة ومائة وقيل قبلها بسنة وقيل سنة مائة فالله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش ، وفيها صار جماعة من دعاة بني العباس إلى خراسان وانتشروا فيها ، وقد أخذ أميرهم رجلاً منهم فقتله وتوعد غيره بمثل ذلك ، وفيها وغل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الترك فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ودانت له تلك الممالك من ناحية بلنجر وأعمالها . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هاشم المخزومي : فالله أعلم . ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وممن توفي فيها من الأعيان قال ابن جرير : فيها كان مهلك .

الأمير عبد الوهاب بن بخت

وهو مع البطال عبد الله بأرض الروم قتل شهيداً وهذه ترجمته هو عبد الوهاب بن بخت أبو عبيدة ويقال أبو بكر ، مولى آل مروان مكي ، سكن الشام ثم تحول إلى المدينة ، روى عن ابن عمر وأنس وأبي هريرة وجماعة من التابعين . وعنه خلق منهم أيوب ومالك بن أنس . ويحيى بن سعيد الأنصاري وعبيد الله العمري ، حديثه عن أنس مرفوعاً «نضر الله امرأ سمع مقالتي هذه فوعاها ثم بلغها غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن صدر مؤمن ، بإخلاص العمل لله ، ومناصحة أولي الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، كأن دعوتهم تحيط من ورائهم » . وروى عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه فإن حالت بينهما شجرة ثم لقيه فليسلم عليه » . وقد وثق عبد الوهاب هذا جماعات من أئمة العلماء . وقال مالك : كان كثير الحج والعمرة والغزو ، حتى استشهد ولم يكن أحق بما في رحله من رفقائه ، وكان سمحاً جواداً ، استشهد ببلاد الروم مع الأمير أبي محمد عبد الله البطال ، ودفن هناك رحمه الله . توفي في هذه السنة قاله خليفة وغيره ، وذلك أنه لقي العدو ففر بعض المسلمين ، فجعل ينادي ويركض فرسه نحو العدو : أن هلموا إلى الجنة ، ويحكم أفراراً من الجنة ؟ أتفرون من الجنة ؟ إلى أين ويحكم لا مقام لكم في الدنيا ولا بقاء ؟ ثم قاتل حتى قتل رحمه الله .

مكحول الشامي

تابعي جليل القدر ، إمام أهل الشام في زمانه ، وكان مولى لأمرأة من هذيل ، وقيل مولى امرأة من آل سعيد بن العاص ، وكان نوبياً ، وقيل من سبي كابل ، وقيل كان من الأبناء من سلالة الأكاسرة وقد ذكرنا نسبه في كتابنا التكميل . وقال محمد بن إسحاق : سمعته يقول : طفت الأرض كلها في طلب العلم : وقال الزهري : العلماء أربعة ، سعيد بن المسيب بالحجاز ، والحسن البصري بالبصرة ، والشعبي بالكوفة ، ومكحول بالشام . وقال بعضهم : كان لا يستطيع أن يقول قل ، وإنما يقول كل وكان له وجاهة عند الناس ، مهما أمر به من شيء يفعل . وقال سعيد بن عبد العزيز : كان أفقه أهل الشام ، وكان أفقه من الزهري . وقال غير واحد : توفي في هذه السنة : وقيل بعدها فالله أعلم :

(مكحول الشامي هو ابن أبي مسلم ، واسم أبي مسلم شهزاب بن شاذل . كذا نقلته من خط عبد الهادي ، وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زيد في عقله . وقال مكحول في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يومئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[1] قال : بارد الشراب ، وظلال المساكن وشبع البطون ، واعتدال الخلق ، ولذاذة النوم . وقال : إذا وضع المجاهدون أثقالهم عن دوابهم أتتها الملائكة ، فمسحت ظهورها ودعت لها بالبركة ، إلا دابة في عنقها جرس)[2] .

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وعلى اليمنى سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام : وفيها التقى عبد الله البطال وملك الروم المسمى فيهم قسطنطين ، وهو ابن هرقل الأول الذي كتب إليه النبي ﷺ فأسره البطال ، فأرسله إلى سليمان بن هشام ، فسار به إلى أبيه . وفيها عزل هشام عن إمرة مكة والمدينة والطائف إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وولّى عليها أخاه محمد بن هشام فحج بالناس في هذه السنة في قول ، وقال الواقدي وأبو معشر : إنما حج بالناس خالد بن عبد الملك بن مروان والله أعلم . وممن توفي فيها من الأعيان :

عطاء بن أبي رباح

الفهري مولاهم أبو محمد المكي ، أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء ، يقال إنه أدرك

---

(١) سورة التكاثر ، الآية ٨.

(٢) زيادة من المصرية .

مائتي صحابي وقال ابن سعد : سمعت بعض أهل العلم يقول : كان عطاء أسود أعور أفطس أشل أعرج ، ثم عمي بعد ذلك ، وكان ثقة فقيها عالماً كثير الحديث ، وقال أبو جعفر الباقر وغير واحد : ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه ، وزاد بعضهم ، وكان قد حج سبعين حجة ، وعمر مائة سنة ، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف ويفدي عن إفطاره ، ويتأول الآية : ﴿ وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾[1] وكان ينادي منادى بني أمية في أيام منى : لا يفتي الناس في الحج إلا عطاء بن أبي رباح ، وقال أبو جعفر الباقر : ما رأيت فيمن لقيت أفقه منه ، وقال الأوزاعي : مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عندهم . وقال ابن جريج : كان في المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس به صلاة . وقال قتادة : كان سعيد بن المسيب والحسن وإبراهيم وعطاء هؤلاء أئمة الأمصار . وقال عطاء إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أكن سمعته ، وقد سمعته قبل أن يولد ، فأريه أني إنما سمعته الآن منه . وفي رواية : أنا أحفظ منه له فأريه أني لم أسمعه . الجمهور على أنه مات في هذه السنة رحمه الله تعالى والله أعلم .

فصـــــل

اسند أبو محمد عطاء بن أبي رباح ـ واسم أبي رباح أسلم ـ عن عدد كثير من الصحابة ، منهم ابن عمر وابن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو هريرة ، وزيد بن خالد الجهني ، وأبو سعيد . وسمع من ابن عباس التفسير وغيره . وروى عنه من التابعين عدة ، منهم الزهري ، وعمرو بن دينار ، وأبو الزبير ، وقتادة ، ويحيى بن كثير ، ومالك بن دينار ، وحبيب بن أبي ثابت ، والأعمش ، وأيوب السختياني ، وغيرهم من الأئمة والأعلام كثير . قال أبو هزان : سمعت عطاء بن أبي رباح يقول : من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل . قال أبو هزار قلت لعطاء : ما مجلس الذكر ؟ قال : مجالس الحلال والحرام ، كيف تصلي ، كيف تصوم ، كيف تنكح وتطلق وتبيع وتشتري .

وقال الطبراني : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة الصنعاني . قال : سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى : ﴿ وكان في المدينة تسعةُ رهطٍ يفسدونَ في الأرض وَلا يُصْلِحُونَ ﴾[2] . قال : كانوا يقرضون الدراهم ، قيل كانوا يقصون منها ويقطعونها . وقال الثوري عن عبد الله بن الوليد ـ يعني الوصافي ـ قال : قلت لعطاء : ما ترى في صاحب قلم إن هو كتب به عاش هو وعياله في سعة ، وإن هو تركه افتقر ؟ قال : من الرأس ؟ قلت القسري لخالد . قال عطاء : قال العبد الصالح : ﴿ ربِّ بما أَنْعَمْتَ

(١) سورة البقرة ، الآية/ ١٨٤ .

(٢) سورة النمل ، الآية/ ٤٨ .

عَليَّ فلنْ أكـونَ ظَهيـراً للمُجْـرمينَ ﴾[1] . وقـال : أفضـل مـا أوتي العبـاد العقـل عن الله وهـو الدين .. وقال عطاء : ما قال العبد : يـا رب ، يا رب ، ثـلاث مرات إلا نـظر الله إليه ، قـال : فذكرت ذلك للحسن فقال : أما تقرأون القرآن : ﴿ ربنا إنَّنا سمِعْنَا مُنادياً يُنَادِي للإيمـانِ أنْ آمنوا بربِّكم ، فآمنَّـا ، ربَّنا فـاغْفِرْ لنا ذُنُوبَنَـا وَكَفِّرْ عَنَّـا سيئَاتِنَـا ﴾[2] إلى قولـه : ﴿ فـاسْتَجَـابَ لهُمْ ربُّهُمْ ﴾[3] الآيات .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حـدّثنا أبـو عبد الله السلمي حـدّثنا ضمـرة عن عمر بن الورد قال: قال عطاء : إن استطعت أن تخلو بنفسك عشيـة عرفـة فافعـل . وقال سعيـد بن سلام البصري : سمعت أبا حنيفة النعمان يقول : لقيت عطاء بمكة فسألتـه عن شيء فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة . قال : أنت من أهل القرية الذين فـارقوا دينهم وكـانوا شيعـاً ؟ قلت : نعم ! قال : فمن أي الأصناف أنت ؟ قلت : ممن لا يسب السلف ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب : فقال عطاء : عرفت فالـزم . وقال عـطاء : ما اجتمعت عليـه الأمة أقوى عنـدنا من الاسنـاد . وقيل لعـطاء : إن ها هنـا قومـاً يقولـون : الإيمان لا يـزيد ولا ينقص ، فقال : ﴿ والذينَ اهتَـدُوا زادَهُمْ هُدىً ﴾[4] . فمـا هذا الهـدى الذي زادهم ؟ قلت : ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله ، فقال : قال تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا إلا ليعبُدُوا الله مخلصينَ لـهُ الدينَ حنفـاءَ ويقيمُوا الصـلاةَ ويؤتُوا الـزكاةَ وذلـكَ دينُ القيِّمةِ ﴾[5] . فجعـل ذلك ديناً . وقال يعلى بن عبيـد : دخلنا على محمـد بن سوقـة فقال : ألا أحـدثكم بحديث لعله أن ينفعكم ، فـانـه نفعني ، قـال لي عـطاء بن أبي ربـاح : يـا ابن أخي إن من كـان قبلكم كـانـوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكـلام إثماً ، مـا عدا كتـاب الله أن يقرأ ، وأمـر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو ينطق العبد بحاجته في معيشته التي لا بد لـه منها ، أتنكـرون : ﴿ وإن عليكم لحافظينَ كراماً كاتبينَ ﴾[6] . و : ﴿ عَنِ اليمينِ وعن الشمالِ قعيدٌ ، ما يلفظُ من قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ ﴾[7] أما يستحي أحدكم . لو نشرت عليه صحيفته التي أمـلاها صـدر نهاره فرأى أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ وقال : إذا أنت خفت الحر من الليل فاقـرأ بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

وروى الطبراني وغيره أن الحلقة في المسجد الحرام كـانت لابن عباس ، فلمـا مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبي رباح . وروى عثمـان بن أبي شيبة عن أبيـه عن الفضل بن دكين عن سفيان عن سلمة بن كهيل قال : ما رأيت أحداً يطلب بعمله ما عند الله تعالى إلا ثلاثة ، عطاء ،

---

(١) سورة القصص ، الآية/ ١٧ .
(٢) سورة آل عمران ، الايـة/ ١٩٣ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية/ ١٩٥ .
(٤) سورة محمد ، الآية / ١٧ .
(٥) سورة البيِّنة ، الآية/ ٥ .
(٦) سورة الإنفطار ، الآية/ ١١ .
(٧) سورة ق ، الآية/ ١٧ ـ ١٨ .

وطاوس ، ومجاهد ، وقال الامام أحمد : حدّثنا ابن نمير حدّثنا عمر بن ذر قال : ما رأيت مثل عطاء قط ، وما رأيت على عطاء قميصاً قط ، ولا رأيت عليه ثوباً يساوي خمسة دراهم . وقال أبو بلال الأشعري : حدّثنا قيس عن عبد الملك بن جريج عن عطاء : أن يعلى بن أمية كانت له صحبة ، وكان يقعد في المسجد ساعة ينوي فيها الاعتكاف ، وروى الأوزاعي عن عطاء قال : إن كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ لتعجن ، وإن كانت قصتها لتضرب بالجفنة . وعن الأوزاعي عنه قال : ﴿ ولا تَأْخُذْكُمْ بهما رَأْفَةٌ في دِينِ الله ﴾[1] قال : ذلك في إقامة الحد عليهما .

وقال الأوزاعي : كنت باليمامة وعليها رجل وال يمتحن الناس من أصحاب رسول الله ﷺ إنه منافق وما هو بمؤمن ، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتاق أن يسمى المسيء منافقاً وما يسميه مؤمناً ، فأطاعوه على ذلك وجعلوه له ، قال : فلقيت عطاء فيما بعد فسألته عن ذلك فقال : ما أرى بذلك بأساً يقول الله تعالى : ﴿ إلاَّ أَنْ تَتَّقوا مَنهُمْ تقاةً ﴾[2] .

وقال الامام أحمد : حدّثنا سفيان بن عيينة حدّثنا إسماعيل بن أمية قال : كان عطاء يطيل الصمت فإذا تكلم تخيل الينا أنه يؤيد . وقال في قوله تعالى : ﴿ لا تُلْهِيهِمْ تجارَةٌ ولا بَيْعٌ عنْ ذِكْرِ الله ﴾[3] قال : لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله تعالى التي افترضها عليهم أن يؤدوها في أوقاتها وأوائلها . وقال ابن جرير : رأيت عطاء يطوف بالبيت فقال لقائده : امسكوا احفظوا عني خمسا : القدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله عز وجل ، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض . وأهل قبلتنا مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها . وقتال الفئة الباغية بالأيدي والنعال والسلاح ، والشهادة على الخوارج بالضلالة . وقال ابن عمر : تجمعون لي المسائل وفيكم عطاء بن أبي رباح .

وقال معاذ بن سعد : كنت جالساً عند عطاء فحدث بحديث ، فعرض رجل له في حديثه فغضب عطاء وقال : ما هذه الأخلاق ؟ وما هذه الطبائع ؟ والله إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه أني لا أحسن شيئاً منه ، وكان عطاء يقول : لأن أرى في بيتي شيطاناً خير من أن أرى فيه وسادة ، لأنها تدعو إلى النوم . وروى عثمان بن أبي شيبة عن علي بن المديني عن يحيى بن سعيد عن ابن جرير قال : كان عطاء بعدما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتي آية من سورة البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك . وقال ابن عيينة : قلت لابن جرير : ما رأيت مصلياً مثلك ، فقال : لو رأيت عطاء ؟. وقال عطاء : إن الله لا يحب الفتى يلبس الثوب المشهور ، فيعرض الله عنه حتى يضع ذلك الثوب . وكان يقال : ينبغي للعبد أن

---

(١) سورة النور ، الآية/ ٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية / ٢٨ .

(٣) سورة النور ، الآية / ٣٧ .

يكون كالمريض لا بد له من قوت ، وليس كل الطعام يوافقه ، وكان يقال : الدعوة تعمى عين الحكيم فكيف بالجاهل ؟ ولا تغبطن ذا نعمة بما هو فيه فانك لا تدري الى ماذا يصير بعد الموت)[1] .

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة

ففيها وقع طاعون بالشام ، وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل وهو نائب الحرمين والطائف . والنواب في سائر البلاد هم المذكورون في التي قبلها والله أعلم . وممن توفي فيها من الأعيان .

ابو جعفر الباقر

وهو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبو جعفر الباقر ، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن علي ، وهو تابعي جليل ، كبير القدر كثيراً ، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً ، وهو أحد من تدَّعي فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر ، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم ، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر ، وذلك عنده صحيح في الأثر ، وقال أيضاً : ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما رضي الله عنهما . وقد روى عن غير واحد من الصحابة ، وحدّث عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم . فممن روى عنه ابنه جعفر الصادق ، والحكم بن عتيبة ، وربيعة ، والأعمش ، وأبو إسحاق السبيعي ، والأوزاعي والأعرج ، وهو أسن منه ، وابن جريج وعطاء وعمرو بن دينار والزهري . وقال سفيان بن عيينة عن جعفر الصادق قال : حدّثني أبي وكان خير محمدي يومئذ على وجه الأرض ، وقال العجلي : هو مدني تابعي ثقة ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وكانت وفاته في هذه السنة في قول وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها أو في التي هي بعدها وبعد بعدها والله أعلم ، وقد جاوز السبعين وقيل لم يجاوز الستين فالله أعلم .

فصـــــل

أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، كان أبوه علي زين العابدين ، وجده الحسين قتلا شهيدين بالعراق ، وسمي الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم ، كان ذاكراً خاشعاً صابراً وكان من سلالة النبوة ، رفيع النسب عالي الحسب ، وكان عارفاً بالخطرات ، كثير البكاء والعبرات معرضاً عن الجدال والخصومات .

---

(١) زيادة من المصرية .

قال أبو بلال الأشعري . حدثنا محمد بن مروان عن ثابت عن محمد بن علي بن الحسين في قوله تعالى : ﴿ أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَة بما صَبَرُوا ﴾[1] قال : الغرفة الجنة بما صبروا على الفقر في الدنيا . وقال عبد السلام بن حرب عن زيد بن خيثمة عن أبي جعفر قال : الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولا تصيب الذاكر . قلت : وقد روي نحو هذا عن ابن عباس قال: لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذاكر . وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي: يا جابر إني لمحزون ، وإني لمشتغل القلب. قلت: وما حزنك وشغل قلبك ؟ قال : يا جابر إنه من دخل قلبه صافي دين الله عز وجل شغله عما سواه ، يا جابر ما الدنيا ؟ وما عسى أن تكون ؟ هل هي إلا مركباً ركبته ؟ أو ثوباً لبسته ؟ أو امرأة أصبتها ؟ يا جابر ! إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار . إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة ، وأكثرهم لك معونة ، إن نسيت ذكروك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوَّالين بحق الله ، قوَّامين بأمر الله ، قطعوا لمحبة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم ، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكماء أصبته في منامك فلما استيقظت إذا ليس في يدك منه شيء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته .

وقال خالد بن يزيد : سمعت محمد بن علي يقول : قال عمر بن الخطاب : إذا رأيتم القارىء يحب الأغنياء فهو صاحب الدنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص . وكان أبو جعفر يصلِّي كل يوم وليلة بالمكتوبة . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال: سلاح اللئام قبيح الكلام . وروى أبو الأحوص عن منصور عنه قال : لكل شيء آفة ، وآفة العلم النسيان . وقال لابنه : إياك والكسل والضجر فانهما مفتاح كل خبيثة ، إنك إذا كسلت لم تؤد حقاً ، وإن ضجرت لم تصبر على حق . وقال : أشد الأعمال ثلاثة ذكر الله على كل حال ، وإنصافك من نفسك ، ومواساة الأخ في المال . وقال خلف بن حوشب : قال أبو جعفر : الإيمان ثابت في القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر[2] الحديد ، ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلب عبد شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه .

وقال لجابر الجعفي : ما يقول فقهاء العراق في قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ

---

(١) سورة الفرقان ، الآية/٧٥ .

(٢) زُبَر : القطعة الضخمة من الحديد .

رَبِّه ﴾[1] ؟ قال : رأى يعقوب عاضاً على إبهامه . فقال : لا ! حدّثني أبي عن جدي علي بن أبي طالب أن البرهان الذي رآه أنها حين همت به وهم بها أي طمع فيها ، قامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض خشية أن يراها ، أو استحياء منه . فقال لها يوسف : ما هذا ؟ فقالت إلهي أستحي منه أن يراني على هذه الصورة ، فقال يوسف : تستحين من صنم لا ينفع ولا يضر ، ولا يسمع ولا يبصر ، أفلا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال : والله لا تنالين مني أبداً . فهو البرهان . وقال بشر بن الحارث الحافي : سمعت سفيان الثوري يقول : سمعت منصوراً يقول : سمعت محمد بن علي يقول : الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أوطناه . وقال : إن الله يلقي في قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا ، وظهر مدينا كان الرجل منهم أجرأ من ليث وأمضى من سيف . وقال : شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه ، وقال : إياكم والخصومة فانها تفسد القلب ، وتورث النفاق ، وقال : ﴿ الذينَ يَخُوضونَ في آياتِنا ﴾[2] هم أصحاب الخصومات .

وقال عروة بن عبد الله : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيف فقال : لا بأس به ، قد حلى أبو بكر الصديق سيفه . قال : قلت : وتقول الصديق ؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق ، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة . وقال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي : يا جابر ! بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبونا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك ، فأبلغهم عني أني إلى الله منهم بريء ، والذي نفس محمد بيده ـ يعني نفسه ـ لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم ، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما ، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما ، فأبلغهم أني بريء منهم وممن تبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وقال : من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة . وقال في قوله تعالى : ﴿ إنما وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ والذين آمنُوا ﴾[3] الآية . قال : هم أصحاب محمد ﷺ ، قال : قلت : يقولون : هو علي قال : علي من أصحاب محمد ﷺ .

وقال عبد الله بن عطاء : ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي ، قال : رأيت الحكم عنده كأنه متعلم ، وقال : كان لي أخ في عيني عظيم ، وكان الذي عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، وقال جعفر بن محمد : ذهبت بغلة أبي فقال : لئن ردَّها الله

---

(١) سورة يوسف ، الآية/ ٢٤ .
(٢) سورة الانعام ، الآية/ ٦٨ .
(٣) سورة المائدة ، الآية/٥٥ .

عليٌّ لأحمدنه بمحامد يرضاها ، فما كان بأسرع من أن أتى بها بسرجها لم يفقد منها شيء ، فقام فركبها ، فلما استوى عليها وجمع إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء وقال : الحمد لله ، لم يزد على ذلك ، فقيل له في ذلك ، فقال : فهل تركت أو أبقيت شيئاً ؟ جعلت الحمد كله لله عز وجل . وقال عبد الله بن المبارك : قال محمد بن علي : من أعطى الخلق والرفق فقد أعطى الخير والراحة ، وحسن حاله في دنياه وآخرته ، ومن حرمهما كان ذلك سبيلاً إلى كل شر وبلية ، إلا من عصمه الله . وقال : أيدخل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه فيأخذ ما يريد تاماً إلا قال : فلستم إخواناً كما تزعمون ، وقال : اعرف مودة أخيك لك بماله في قلبك من المودة فإن القلوب تتكافأ . وسمع عصافير يصحن فقال : أتدري ماذا يقلن ؟ قلت : لا ! ! قال : يسبحن الله ويسألنه رزقهن يوماً بيوم . وقال : تدعو الله بما تحب ، وإذا وقع الذي تكره لم تخالف الله عز وجل فيما أحب .

وقال : ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج ، وما من شيء أحب إلى الله عزَّ وجلَّ من أن يسأل . وما يدفع القضاء إلا الدعاء . وإن أسرع الخير ثواباً البر ، وأسرع الشر عقوبة البغي ، ويكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمي عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله ، وينهي الناس بما لا يستطيع أن يتحول عنه . وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه . هذه كلمات جوامع موانع لا ينبغي لعاقل أن يفعلها . وقال القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ غير مخلوق . وقال أبو جعفر : صحب عمر بن الخطاب رجل إلى مكة فمات في الطريق ، فاحتبس عليه عمر حتى صلَّى عليه ودفنه ، فقل يوم إلا كان عمر يتمثل بهذا البيت :

وبالغُ أمرٍ كانَ يأملُ دونهُ ... ومختلجٌ مِنْ دونِ ما كانَ يأملُ

وقال أبو جعفر: والله لموت عالم أحب إلى ابليس من موت ألف عابد. وقال: ما اغرورقت عين عبد بمائها إلا حرَّم الله وجه صاحبها على النار ، فإن سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر [1] ولا ذلة ، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة فإن الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو أن باكياً بكى من خشية الله في أمة رحم الله تلك الأمة . وقال : بئس الأخ أخ يرعاك غنياً ويقطعك فقيراً . قلت : البيت الذي كان يتمثل به قبله بيتان وهو ثالثها ، وهذه الأبيات تتضمن حكماً وزهداً في الدنيا قال :

لقد غرتْ الدنيا رجالاً فأصبحوا ... بمنزلةٍ ما بعدها متحولُ
فساخطُ أمرٍ لا يبدلُ غيرهُ ... وراضٍ بأمرٍ غيرهُ سيبدلُ
وبالغٍ أمرٍ كانَ يأملُ دونهُ ... ومختلجٌ مِنْ دونِ ما كانَ يأملُ [2]

---

(١) قتر : غبار .

(٢) زيادة من المصرية .

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة ، وفيها وقع طاعون عظيم بالشام والعراق ، وكان معظم ذلك في واسط . وفي المحرم منها توفي الجنيد بن عبد الرحمن المري أمير خراسان من مرض أصابه في بطنه ، وكان قد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فتغضب عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فعزله وولى مكانه عاصم بن عبد الله على خراسان ، وقال له : إن أدركته قبل أن يموت فأزهق روحه . فلما قدم عاصم بن عبد الله خراسان حتى مات الجنيد في المحرم منها بمرو ، وقال فيه أبو الجرير عيسى بن عصمة يرثيه :

هلك الجود والجنيد جميعا ... فعلى الجود والجنيد السلام
أصبحا ثاوِيين [1] في بطنِ مروٍ ... ما تغنّى على الغصونِ الحمامُ
كنتما نزهةَ الكرامِ فلما ... متَ ماتَ الندى وماتَ الكرامُ

ولما قدم عاصم خراسان أخذ نواب الجنيد بالضرب البليغ وأنواع العقوبات ، وعسفهم في المصادرات والجنايات ، فخرج عن طاعته الحارث بن شريح فبارزه بالحرب ، وجرت بينهما أمور يطول ذكرها ، ثم آل الأمر إلى أن انكسر الحارث بن شريح وظهر عاصم عليه . قال الواقدي : وفيها حج بالناس الوليد بن يزيد وهو ولي الأمر من بعد عمه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وسليمان بن هشام الصائفة اليمنى ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام . وفيها بعث مروان بن محمد ـ وهو مروان الحمار ـ وهو على أرمينية بعثين ففتح حصوناً من بلاد اللان ، ونزل كثير منهم على الايمان : وفيها عزل هشام عاصم بن عبد الله الهلالي الذي ولّاه في السنة قبلها خراسان مكان الجنيد ، فعزله عنها وضمها إلى عبد الله بن خالد القسري مع العراق معادة إليه جرياً على ما سبق له من العادة ، وكان ذلك عن كتاب عاصم بن عبد الله الهلالي المعزول عنها ، وذلك أنه كتب إلى أمير المؤمنين هشام : إن ولاية خراسان لا تصلح إلا مع ولاية العراق ، رجاء أن يضيفها إليه ، فانعكس الأمر عليه فأجابه هشام إلى ذلك قبولاً إلى نصيحته ، وأضافها إلى خالد القسري . وفيها توفي .

قتادة بن دعامة السدوسي

أبو الخطاب البصري الأعمى ، أحد علماء التابعين ، والأئمة العاملين ، روى عن أنس بن

(1) ثاويين : مقيمَيْن .

مالك وجماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب ، والمصري ، وأبو العالية ، وزرارة بن أوفى . وعطاء ومجاهد ، ومحمد بن سيرين ، ومسروق ، وأبو مجلز وغيرهم ، وحدث عنه جماعات من الكبار كأيوب وحماد بن مسلمة وحميد الطويل ، وسعيد بن أبي عروبة ، والأعمش ، وشعبة ، والأوزاعي ، ومسعر ، ومعمر ، وهمام . قال ابن المسيب : ما جاءني عراقي أفضل منه . وقال بكر المزني : ما رأيت أحفظ منه . وقال محمد بن سيرين : هو من أحفظ الناس ، وقال مطر : كان قتادة إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزويل حتى يحفظه ، وقال الزهري : هو أعلم من مكحول . وقال معمر : ما رأيت أفقه من الزهري وحماد وقتادة . وقال قتادة : ما سمعت شيئاً إلا وعاه قلبي . وقال أحمد بن حنبل : هو أحفظ أهل البصرة ، لا يسمع شيئاً إلا حفظه . وقرأ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها . وذكر يوماً فأثنى على علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك ، وقال أبو حاتم : كانت وفاته بواسط في الطاعون ـ يعني في هذه السنة ـ وعمره ست أو سبع وخمسون سنة .

[قال قتادة : من وثق بالله كان الله معه ، ومن يكن الله معه تكن معه الفئة التي لا تغلب ، والحارس الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل ، والعالم الذي لا ينسى . وقال : في الجنة كوة إلى النار فيقولون : ما بال الأشقياء دخلوا النار ، وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم ، فقالوا : إنا كنا نأمركم ولا نأتمر ، وننهاكم ولا ننتهي . وقال : باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه وصلاح دينه وصلاح الناس ، أفضل من عبادة حول كامل . وقال قتادة : لو كان يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى عليه السلام بما عنده ، ولكنه طلب الزيادة] (١) .

وفيها توفي : أبو الحباب سعيد بن يسار والأعرج ، وابن أبي مليكة ، وعبد الله بن أبي زكريا الخزاعي ، وميمون بن مهران بن موسى بن وردان .

فصل

فأما سعيد بن يسار فكان من العباد الزهاد ، روى عن جماعة من الصحابة ، وكذلك الأعرج وابن أبي مليكة . وأما ميمون بن مهران فهو من أجلاء علماء التابعين وزهادهم وعبادهم وأئمتهم . كان ميمون إمام أهل الجزيرة . روى الطبراني عنه أنه قيل له : مالك لا يفارقك أخ لك عن قلى ؟ قال : لأني لا أماريه ولا أشاريه . قال عمر بن ميمون : ما كان أبي يكثر الصلاة ولا الصيام ، ولكن كان يكره أن يعصى الله عز وجل . وروى ابن أبي عدي عن يونس عنه قال : لا تمارين عالماً ولا جاهلاً ، فإنك إن ماريت عالماً خزن عنك علمه ، وإن ماريت جاهلاً

(١) زيادة من المصرية .

خشن بصدرك . وقال عمر بن ميمون : خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة ، فمررنا بجدول فلم يستطع الشيخ أن يتخطاه ، فاضطجعت له فمر على ظهري ، ثم قمت فأخذت بيده . ثم دفعنا إلى منزل الحسن فطرقت الباب فخرجت إلينا جارية سداسية . فقالت : من هذا ؟ فقلت : هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ؟ فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ قلت لها : نعم ! قالت : يا شقي ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟ : قال : فبكى الشيخ فسمع الحسن بكاءه فخرج إليه فاعتنقا ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد ! إني قد أنست من قلبي غلظة فاستكن لي منه ، فقرأ الحسن : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ (١) . فسقط الشيخ مغشياً عليه ، فرأيته يفحص برجليه كما تفحص الشاة إذا ذبحت ، فأقام طويلاً ثم جاءت الجارية فقالت : قد أتعبتم الشيخ ، قوموا تفرقوا ، فأخذت بيد أبي فخرجت فقلت : يا أبت أهذا هو الحسن ؟ قال : نعم . قلت : قد كنت أحسب في نفسي أنه أكبر من هذا ، قال : فوكز في صدري وكزة ثم قال : يا بني لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كلوماً .

وروى الطبراني عنه أنه قال : ما أحب أني أعطيت درهماً في لهو وأن لي مكانه مائة ألف ، أخشى أن تصيبني هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٢) الآية . وقال جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : كنت عند عمر بن عبد العزيز فلما قمت قال عمر : إذا ذهب هذا وأضرابه لم يبق من الناس إلا مجاجة .

وروى الإمام أحمد عن معمر بن سليمان الرقى عن فرات بن سليمان عن ميمون بن مهران قال : ثلاث لا تبلون نفسك بهن : لا تدخل على سلطان وإن قلت آمره بطاعة الله ، ولا تدخل على امرأة وإن قلت أعلمها كتاب الله ، ولا تصغين بسمعك إلى ذي هوى فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك من هواه . وروى عبدالله بن أحمد عنه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ﴾ (٣) . و﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٤) . فقال : التمسوا هذين المرصادين جوازاً . وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥) . فيها وعيد شديد للظالم ، وتعزية للمظلوم . وقال : لو أن أهل القرآن صلحوا لصلح الناس . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا عيسى بن سالم الشاشي حدثنا أبو المليح قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : لا خير في الدنيا إلا رجلين ، رجل تائب ـ أو قال : يتوب ـ من الخطيئات ، ورجل يعمل في الدرجات ، فلا خير في العيش

---

(١) سورة الشعراء ، الآية/ ٢٠٥ ـ ٢٠٧ .

(٢) سورة لقمان ، الآية/ ٦.

(٣) سورة النبأ ، الآية/ ٢١.

(٤) سورة الفجر ، الآية/ ١٤.

(٥) سورة ابراهيم ، الآية/ ٤٢ .

والبقاء في الدنيا إلا لهذين الرجلين ، رجل يعمل في الكفارات ورجل يعمل في الدرجات ، وبقاء ما سواهما وبال عليه . وقال جعفر بن برقان : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن هذا القرآن قد خلق في صدور كثير من الناس فالتمسوا ما سواه من الأحاديث ، وإن فيمن يتبع هذا العلم قوماً يتخذونه بضاعة يلتمس بها الدنيا ، ومنهم من يريد أن يماري به ، وخيرهم من يتعلمه ويطيع الله عزَّ وجلَّ به . وقال : من اتبع القرآن قاده القرآن حتى يحل به الجنة ، ومن ترك القرآن لم يدعه القرآن يتبعه حتى يقذفه في النار .

وقال الإمام أحمد : حدثنا خالد بن حيان حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال . وقال ميمون : من كان يريد أن يعلم ما منزلته عند الله فلينظر في عمله فإنه قادم عليه كائناً ما كان . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن عثمان الحربي حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران . قال : نظر رجل من المهاجرين إلى رجل يصلِّي فأخفى الصلاة فعاتبه ، فقال : إني ذكرت ضيعة لي . فقال : أكبر الضيعة أضعته . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا جعفر بن محمد الدسعني حدثنا أبو جعفر النفيلي حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن طلحة بن زيد قال : قال ميمون : لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه . وروى عبد الله بن أحمد عنه أيضاً قال : لأن أؤتمن على بيت مال أحب إليَّ من أن أؤتمن على امرأة . وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا هاشم بن الحارث حدثنا أبو المليح الرقى عن حبيب بن أبي مرزوق قال ، قال ميمون : وددت أن إحدى عيني ذهبت وبقيت الأخرى أتمتع بها ، وأني لم أل عملاً قط . قلت : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ولا لعمر بن عبد العزيز ، لا خير في العمل لا لعمر ولا لغيره .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا سفيان حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : ما عرضت قولي على عملي إلا وجدت من نفسي اعتراضاً . وقال الطبراني : حدثنا المقدام بن داود حدثنا علي بن معبد حدثنا خالد بن حيان حدثنا جعفر عن ميمون قال : قال لي ميمون : قل لي في وجهي ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره . وروى عبد الله بن أحمد عنه في قوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ [1] ، قال : تخفض أقواماً وترفع آخرين . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثني عيسى بن سالم حدثنا أبو المليح حدثنا بعض أصحابي قال : كنت أمشي مع ميمون فنظر فرأى عليَّ ثوب كتان فقال : أما بلغك أنه لا يلبس الكتان إلا غني أو غاو ؟ وبهذا الاسناد سمعت ميمون بن مهران يقول : أول من مشت الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس الكندي ، ولقد أدركت السلف وهم إذا نظروا إلى رجل راكب ورجل يحضر معه ، قالوا : قاتله جبار .

وقال عبد الله بن أحمد : بلغني عن عبد الله بن كريم بن حبان ـ وقد رأيته ـ حدّثنا أبو

(١) سورة الواقعة ، الآية/ ٣ .

المليح قال قال ميمون : ما أحب أن لي ما بين باب الرُّها إلى حوران بخمسة دراهم . وقال ميمون : يقول أحدهم : اجلس في بيتك واغلق عليك بابك وانظر هل يأتيك رزقك ؟ نعم والله لو كان له مثل يقين مريم وإبراهيم عليهما السلام ، وأغلق عليه بابه ، وأرخى عليه ستره ، لجاءه رزقه . وقال : لو أن كل إنسان منا يتعاهد كسبه فلم يكسب إلا طيباً ، فأخرج ما عليه ، ما احتيج إلى الأغنياء ، ولا احتاج الفقراء . وقال أبو المليح عن ميمون قال: ما بلغني عن أخ لي مكروه قط إلا كان إسقاط المكروه عنه أحب إليَّ من تخفيفه عليه ، فان قال : لم أقل ، كان قوله لم أقل أحب إليَّ من ثمانية يشهدون عليه ، فإن قال : قلت ولم يعتذر ، أبغضته من حيث أحببته . وقال : سمعت ابن عباس يقول : ما بلغني عن أخ لي مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل ، إن كان فوقي عرفت له قدره ، وإن كان نظيري تفضلت عليه ، وإن كان دوني لم أحفل به ، هذه سيرتي في نفسي ، فمن رغب عنها فان أرض الله واسعة .

وقال أبان بن أبي راشد القشيري ،كنت إذا أردت الصائفة أتيت ميمون بن مهران أودعه . فما يزيدني على كلمتين . اتق الله ولا يغرنك طمع ولا غضب . وقال أبو المليح عن ميمون قال : العلماء هم ضالتي في كل بلدة، وهم أحبتي في كل مصر ، ووجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء وقال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] قال : عزقا . وقال : لأن أتصدق بدرهم في حياتي أحب إليَّ من أن اتصدق بمائة درهم بعد موتي . وقال : كان يقال : الذكر ذكران ، ذكر الله باللسان ، وأفضل من ذلك أن تذكره عند ما أحل وحرم ، وعند المعصية فتكف عنها وقد أشرفت . وقال : ثلاث الكافر والمؤمن فيهن سواء ، الأمانة تؤديها الى من ائتمنك عليها من مسلم وكافر ، وبر الوالدين وإن كانا كافرين ، والعهد تفي به للمؤمن والكافر . وقال صفوان عن خلف بن حوشب عن ميمون قال : أدركت من لم يكن يملأ عينيه من السماء فرقاً من ربه عزَّ وجلَّ .

وقال أحمد بن بزيغ : حدثنا يعلى بن عبيد حدَّثنا هارون أبو محمد البربري أن عمر بن عبد العزيز استعمل ميمون بن مهران على الجزيرة وعلى قضائها وخراجها ، فمكث حينا ثم كتب إلى عمر يستعفيه عن ذلك ، وقال : كلَّفتني ما لا أطيق ، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق فكتب إليه عمر : اجب من الخراج الطيب ، واقض بما استبان لك ، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إليَّ ، فإن الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام لهم دين ولا دنيا .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب محيت من قلبه فترى قلب المؤمن مجلياً مثل المرآة ، ما يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره ، وأما الذي يتتابع في

---

(١) سورة الزمر ، الآية/ ١٠ .

الذنوب فإنه كلما أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فلا يبصر الشيطانَ من أين يأتيه . وقال الإمام أحمد : حدَّثنا علي بن ثابت حدَّثنا جعفر عن ميمون قال : ما أقل أكياس الناس : ألا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أدّوابه ، وإلى ما قد أكبوا عليه من الدنيا ، فيقول : ما هؤلاء إلا أمثال الأباعر ، لا هم لها إلا ما تجعل في أجوافها ، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه فقال : والله إني لأراني من شرهم بعيراً واحداً . وبهذا الاسناد عنه : ما من صدقة أفضل من كلمة حق عند إمام جائر . وقال : لا تعذب المملوك ولا تضر به على كل ذنب ، ولكن احفظ ذلك له ، فإذا عصى الله عز وجل فعاقبه على معصية الله وذكره الذنوب التي أذنب بينك وبينه . وقال قتيبة : حدثنا جعفر بن برقان سمعت ميمون بن مهران يقول : لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه ، حتى يعلم من أين مطعمه ، ومن أين مشربه ، أمن حلال ذلك أم من حرام ؟ .

وقال أبو زرعة الدارمي : حدثنا سعيد بن حفص النفيلي حدثنا أبو المليح عن ميمون قال : الفاسق بمنزلة السبع فإذا كلمت فيه فخليت سبيله فقد خليت سبعاً على المسلمين . وقال جعفر بن برقان : قلت لميمون بن مهران : إن فلانا يستبطىء نفسه في زيارتك ، قال : إذا ثبتت المودة في القلوب فلا بأس وإن طال المكث . وقال أحمد : حدثنا ميمون الرقي حدثنا الحسن أبو المليح عن ميمون قال : لا تجد غريماً أهون عليك من بطنك أو ظهرك . وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الله بن ميمون حدَّثنا الحسن عن حبيب بن أبي مرزوق قال : رأيت على ميمون جبة صوف تحت ثيابه فقلت له : ما هذا ؟ قال : نعم ! فلا تخبر به أحداً . وقال عبد الله بن أحمد : حدَّثني يحيى بن عثمان حدثنا أبو المليح عن ميمون قال : من أساء سراً فليتب سراً ، ومن أساء علانية فليتب علانية ، فإن الله يغفر ولا يعير ، وإن الناس يعيرون ولا يغفرون .

وقال جعفر قال ميمون : في المال ثلاث آفات ، إن نجا صاحبه من واحدة لم ينج من اثنتين، وإن نجا من اثنتين كان قمينا أن لا ينجو من الثالثة ، ينبغي أن يكون حلالاً طيباً ، فأيكم الذي يسلم كسبه فلم يدخله إلا طيباً ؟ فإن سلم من هذه فينبغي أن يؤدي الحقوق التي تلزمه في ماله ، فإن سلم من هذه فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتر . وقال : سمعت ميموناً يقول : أهون الصوم ترك الطعام والشراب . وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا يحيى بن عثمان الحربي حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران قال : ما نال رجل من جسيم الخير نبي أو غيره إلا بالصبر . وبهذا الاسناد قال : الدنيا حلوة خضرة قد حفت بالشهوات ، والشيطان عدو حاضر ، فيظن أن أمر الآخرة آجل ، وأمر الدنيا عاجل . وقال يونس بن عبيدة : كان طاعون قبل بلاد ميمون بن مهران فكتبت إليه أسأله عن أهله ، فكتب إليَّ : بلغني كتابك تسألني عن أهلي ، وأنه مات من أهلي وخاصتي سبعة عشر إنساناً ، وإني أكره البلاء إذا أقبل ،

فإذا أدبر لم يسرني أنه لم يكن ، وأما أنت فعليك بكتاب الله ، فإن النـاس قد بهتـوا عنه ـ يعني أيسوا ـ واختاروا الأحاديث ، أحاديث الـرجال ، وإيـاك والمرائي في الـدين . قال أبـو عبيد في الغريب بهئوا به مهموزاً ، ومعناه أنسوا به .

وقال عمر بن ميمون : كنت مع أبي ونحن نطوف بالكعبـة فلقي أبي شيخ فعـانقه ، ومـع الشيخ فتى نحو مني ، فقال له أبي : من هذا ؟ قال : ابني . فقال : كيف رضاك عنه ؟ فقال : ما بقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه ، إلا واحدة . قـال : وما هي ؟ قال : أن يموت فأوجر فيه ـ أو قال فأحتسبه ـ ثم فارقه أبي ، فقلت : من هذا الشيخ ؟ فقـال : مكحول . وقال : شر الناس العيابون ، ولا يلبس الكتان إلا غني أو غوي .

وروى الإمام أحمد عنه قال : يا ابن آدم خفف عن ظهرك فـإن ظهرك لا يـطيق كل هـذا الذي يحمل ، من ظلم هـذا ، وأكل مـال هذا ، وغشم هـذا ، وكل هـذا على ظهرك تحمله ، فخفف عن ظهرك . وقال : إن أعمـالكم قليلة فأخلصـوا هذا القليـل . وقال : مـا أتى قوم في ناديهم المنكر إلا حق هلاكهم . وروى عبد الله بن أحمـد عنه أنـه قرأ : ﴿ وَامْتَـازُوا الْيَوْمَ أَيُّهـا المجرِمُونَ ﴾[1] . ثم فارق حتى بكى ، ثم قال : ما سمع الخـلائق بنعت قط أشد منـه . وقال أبو عوَّانة : حدَّثنا إبراهيم بن عبد الله حدَّثنا محمد بن إسحاق حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا خالـد عن حصين بن عبد الرحمن عن ميمون قال : أربع لا تكلم فيهم : علي ، وعثمان ، والقـدر ، والنجوم . وقال : احذروا كل هوى يسمى بغير الإسلام .

وروى شبابة عن فـرات بن السائب قـال : سألت ميمـون أعلي أفضل عنـدك أم أبو بكـر وعمر ؟ فارتعد حتى سقطت عصاه من يده ثم قال : ما كنت أظن أن أبقى إلى زمان يعدل بهمـا غيرهما ، إنهما كانا رداءي الإسلام ، ورأس الإسلام ، ورأس الجماعة . فقلت: فأبو بكر كـان أول إسلاماً أم علي ؟ فقال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبي ﷺ زمن بحيرا الـراهب حين مرّ بـه ، وكان أبو بكـر هو الـذي يختلف بينه وبين خـديجة حتى أنكحهـا إياه . وذلـك كله قبل أن يـولد علي ، وكـان صاحبـه وصديقـه قبـل ذلـك . وروى ميمـون بن مهـران عن ابن عمـر قـال قـال رسول الله ﷺ : « قل ما يوجد في آخر الزمان درهم من حـلال ، أو أخ يوثق بـه » . وروى عن ابن عمـر أيضاً عن النبي ﷺ قـال : « شر المـال في آخر الـزمان الممـاليك » . وروى ابن أبي الـدنيا عنـه قال : من طلب مـرضاة الأخـوان بلا شيء فليصـادق أهل القبـور . وقال : من ظلم أحداً ففاته أن يخرج من مظلمته فاستغفر له دبر كل صلاة خرج من مظلمته . وهذا إن شـاء الله يدخل فيه الأعراض والأموال وسائر المظالم . وقـال ميمون : القـاتل والآمـر والمأمـور والظالم

---

(١) سورة يسٓ ، الآية/ ٥٩ .

والراضي بالظلم ، كلهم في الوزر سواء . وقال : أفضل الصبر الصبر على ما تكره نفسك من طاعة الله عز وجل .

روى ميمون عن جماعة من الصحابة ، وكان يسكن الرقة ، رحمه الله تعالى[1] .

نافع مولى ابن عمر

أبو عبد الله المدني أصله من بلاد المغرب ، وقيل من نيسابور ، وقيل من كابل ، وقيل غير ذلك . روى عن مولاه عبد الله بن عمر وجماعة من الصحابة ، مثل رافع بن خديج ، وأبي سعيد وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة وغيرهم : وروى عنه خلق من التابعين وغيرهم ، وكان من الثقات النبلاء ، والأئمة الأجلاء ، قال البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، وقال غيره .كان عمر بن عبد العزيز قد بعثه إلى مصر يعلم الناس السنن ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه ومات في هذه السنة على المشهور .

ذو الرمة الشاعر

واسمه غيلان بن عتبة بن بهيس ، من بني عبد مناة بن أدّ بن طابخة بن الياس بن مضر ، أبو الحارث أحد فحول الشعراء ، وله ديوان مشهور ، وكان يتغزل في ميٍّ بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقري ، وكانت جميلة ، وكان هو دميم الخلق أسود اللون ، ولم يكن بينهما فحش ولا خنا ولم يكن رآها قط ولا رأته ، وإنما كانت تسمع به ويسمع بها ، ويقال : إنها كانت تنذر إن هي رأته أن تذبح جزوراً ، فلما رأته قالت : واسوأتاه واسوأتاه ، ولم تبد له وجهها قط إلا مرة واحدة ، فأنشأ يقول :

على وجهِ ميٍ لمحةٌ من حلاوةٍ ... وتحتُ الثياب العارُ لو كانَ باديا

قال فانسلخت من ثيابها فقال :

ألم ترَ أنَّ الماءَ يخبثُ طعمهُ ... وإنْ كانَ لونُ الماءِ أبيض صافياً

فقالت : تريد أن تذوق طعمه ؟ فقال : إي والله ، فقالت: تذوق الموت قبل أن تذوقه فأنشأ يقول :

فواضيعةُ الشعرِ الذي راحَ وانقضى ... بميٍ ولم أملك ضلالَ فؤاديا

قال ابن خلكان : ومن شعره السائر بين الناس ما أنشده :

---

(١) زيادة من المصريه .

إذا هبت الأريـاحُ مِنْ نحـو جـانـبٍ بـهِ أهـلُ مي ٍ هـاجَ شـوقي هبـوبهـا
هـوى تـذرفُ العينـانِ منـهُ وإنمـا هـوى كـلِ نفسٍ أينَ حـلَ حبيبهـا

وأنشد عند الموت :

يا قابضَ الارواح في جسمي إذا احتضرتْ وغافرَ الذنب زحزحني عَنِ النارِ

ثم دخلت سنة ثماني عشرة ومائة

فيها غزا معاوية وسليمان ابنا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بلاد الروم ، وفيها قصد شخص يقال له : عمار بن يزيد ، ثم سمي بخداش ، إلى بلاد خراسان ودعا الناس إلى خلافة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاستجـاب له خلق كثيـر ، فلما التفّوا عليه دعـاهم إلى مذهب الخرمية* الزنادقة ، وأبـاح لهم نساء بعضهم بعضـاً ، وزعم لهم أن محمد بن علي يقـول ذلك ، وقد كذب عليه فأظهر الله عليه الدولة فأخذ فجيء به إلى خالد بن عبد الله القسري أميـر العراق وخراسان ، فأمر به فقـطعت يده وسـل لسانـه ثم صلب بعد ذلـك . وفيها حـج بالنـاس محمـد بن هشام بن إسمـاعيل أميـر المدينـة ، وقيل إن إمـرة المدينـة كانت مـع خالـد بن عبـد الملك بن مـروان ، والصحيح أنـه كان قـد عزل وولَّى مكـانـه محمـد بن هشام بن إسمـاعيل ، وكان أمير العراق القسري . وفيها كانت وفاة :

علي بن عبد الله بن عباس

ابن عبـد المطلب القـرشي الهاشمي أبـو الحسن ، ويقال أبـو محمد ، وأمـه زرعـة بنت مسرح بن معديكرب الكندي ، أحد الملوك الأربعة الأقيال المذكـورين في الحديث الـذي رواه أحمد ، وهم مسرح ، وحمل ، ومخولس ، وأبضعة : وأختهم العمرَّدة وكان مولد علي هذا يوم قتل علي بن أبي طالب ، فسماه أبوه بـاسمه، وكنـاه بكنيته ، وقيـل إنه ولـد في حياة علي وهـو الذي سمَّاه وكنَّاه ولقَّبه بـأبي الأملاك ، فلمـا وفد على عبـد الملك بن مروان أجلسـه معه على السرير وسأله عن اسمه وكنيته فـأخبره فقـال له : ألـك ولد ؟ نعم ولـد لي ولد سميتـه محمداً ، فقال له : أنت أبو محمد ، وأجزل عطيته ، وأحسن إليه . وقـد كان علي هـذا في غايـة العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل والعدالة والثقة كان يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة ، قال عمرو بن علي الفلاس : كان من خيار الناس ، وكانت وفاتـه بالجهمـة من أرض البلقاء في هذه السنة ، وقد قارب الثمانين . وقد ذكر ابن خلكان أنه تزوج لبـابة بنت عبـد الله بن جعفر ، التي كانت تحت عبد الملك بن مروان ، فطلقها ، وكان سبب طلاقه إيـاها أنـه عض تفاحـة ثم رمى بهـا إليها فـأخذت السكين فحـزت[1] من التفاحـة ما مس فمـه منها ، فقـال : ولم تفعلين

---

(١) فحزَّتْ : قطعتْ .

(*)وردت في الاصل: الحزمية والصحيح الخرمية.

هذا ؟ فقالت : أزيل الأذى عنها ـ وذلك لأن عبد الملك كان أبخر[1] ـ فطلقها عبد الملك ، فلما تزوجها علي بن عبد الله بن عباس هذا نقم عليه الوليد بن عبد الملك لأجل ذلك ، فضربه بالسياط ، وقال إنما أردت أن تذل بنيها من الخلفاء ، وضربه مرة ثانية لأنه اشتهر عنه أنه قال : الخلافة صائرة إلى بيته ، فوقع الأمر كذلك . وذكر المبرد أنه دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابناه السفاح والمنصور وهما صغيران ، فأكرمه هشام وأدنى مجلسه ، وأطلق له مائة وثلاثين ألفاً ، وجعل علي بن عبد الله يوصيه بابنيه خيراً ، ويقول : إنهما سيليان الأمر ، فجعل هشام يتعجب من سلامة باطنه وينسبه في ذلك إلى الحمق ، فوقع الأمر كما قال . قالوا : وقد كان علي في غاية الجمال وتمام القامة ، كان بين الناس كأنه راكب ، وكان إلى منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس ، وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب ، وقد بايع كثير من الناس لابنه محمد بالخلافة قبل أن يموت علي هذا قبل هذه السنة بسنوات ، ولكن لم يظهر أمره حتى مات فقام بالأمر من بعده ولده عبد الله أبو العباس السفاح ، وكان ظهوره في سنة اثنتين وثلاثين كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

عمرو بن شعيب ، وعبادة بن نُسَيّ ، وأبو صخرة جامع بن شداد ، وأبو عياش المعافري .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

ففيها غزا الوليد بن القعقاع بلاد الروم . وفيها قتل أسد بن عبد الله القسري ملك الترك الأعظم خاقان ، وكان سبب ذلك أن أسد بن عبد الله أمير خراسان عمل نيابة عن أخيه خالد بن عبد الله على العراق ، ثم سار بجيوشه إلى مدينة خُتَّل فافتتحها ، وتفرقت في أرضها جنوده يقتلون ويأسرون ويغنمون ، فجاءت العيون إلى ملك الترك خاقان أن جيش أسد قد تفرق في بلاد خُتَّل ، فاغتنم خاقان هذه الفرصة فركب من فوره في جنوده قاصداً إلى أسد ، وتزود خاقان وأصحابه سلاحاً كثيراً ، وقديداً وملحاً ، وساروا في حنق عظيم ، وجاء إلى أسد فأعلموه بقصد خاقان له في جيش عظيم كثيف ، فتجهز لذلك وأخذ أهبته ، فأرسل من فوره إلى أطراف جيشه ، فلمها وأشاع بعض الناس أن خاقان قد هجم على أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه ، ليحصل بذلك خذلان لأصحابه فلا يجتمعون إليه ، فردّ الله كيدهم في نحورهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الإسلام وازدادوا حنقاً على عدوهم ، وعزموا على الأخذ بالثار ، فقصدوا الموضع الذي فيه أسد ، فإذا هو حي قد اجتمعت عليه العساكر من كل جانب ، وسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح ، وأراد أن يخوض نهر بلخ ، وكان معهم أغنام كثيرة ، فكره أسد أن يتركها وراء ظهره ، فأمر كل فارس

---

(١) أبخر : من كان له رائحة فم منتنة .

أن يحمل بين يديه شاة وعلى عنقه شاة ، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد ، وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر ، فما خلصوا منه جيداً حتى دهمهم خاقان من ورائهم في خيل دهم ، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر وبعض الضعفة ، فلما وقفوا على حافة النهر أحجموا وظن المسلمون أنهم لا يقطعون إليهم النهر ، فتشاور الأتراك فيما بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحملوا حملة واحدة - وكانوا خمسين ألفاً - فيقتحمون النهر ، فضربوا بكؤساتهم ضرباً شديداً حتى ظن المسلمون أنهم معهم في عسكرهم ، ثم رموا بأنفسهم في النهر رمية واحدة ، فجعلت خيولهم تنخر أشد النخير ، وخرجوا منه إلى ناحية المسلمين فثبت المسلمون في معسكرهم ،وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً لا يخلصون إليهم منه ، فبات الجيشان تتراءى ناراهما ، فلما أصبحا مال خاقان على بعض الجيش الذي للمسلمين فقتل منهم خلقاً وأسر أمماً وإبلاً موقرة[1] ، ثم إن الجيشين تواجهوا في يوم عيد الفطر حتى خاف جيش أسد أن لا يصلّوا صلاة العيد ، فما صلوها إلا على وجل ، ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ ، حتى انقضى الشتاء ، فلما كان يوم عيد الأضحى خطب أسد الناس واستشارهم في الذهاب إلى مرو أو في لقاء خاقان ، أو في التحصن ببلخ . فمنهم من أشار بالتحصن ، ومنهم من أشار بملتقاه والتوكل على الله ، فوفق ذلك رأي أسد الأسد ، فقصد بجيشه نحو خاقان ، وصلّى بالناس ركعتين أطال فيهما ، ثم دعا بدعاء طويل ، ثم انصرف وهو يقول : نصرتم إن شاء الله ، ثم سار بمن معه من المسلمين فالتقت مقدمته بمقدمة خاقان ، فقتل المسلمون منهم خلقاً وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه ، ثم ساق أسد فانتهى إلى أغنامهم فاستاقها ، فإذا هي مائة ألف وخمسون ألف شاة ، ثم التقى معهم ، وكان خاقان إنما معه أربعة آلاف أو نحوها ، ومعه رجل من العرب قد خامر إليه ، يقال له الحارث بن شريح ، فهو يدلهم على عورات المسلمين ، فلما أقبل الناس هربت الأتراك في كل جانب ، وانهزم خاقان ومعه الحارث بن شريح يحميه ويتبعه ، فتبعهم أسد ، فلما كان عند الظهيرة انخذل خاقان في أربعمائة من أصحابه ، عليهم الخز[2] ومعهم الكؤوسات [3]، فلما أدركه المسلمون أمر بالكؤوسات فضربت ضرباً شديداً ضرب الانصراف ثلاث مرات فلم يستطيعوا الإنصراف، فتقدم المسلمون فاحتاطوا على معسكرهم فاحتازوه بما فيه من الأمتعة العظيمة ، والأواني من الذهب والفضة ، والنساء والصبيان ، من الأتراك ومن معهم من الأسارى[4] من المسلمات وغيرهم ، مما لا يحد ولا يوصف لكثرته وعظمه وقيمته وحسنه . غير أن خاقان لما أحس بالهلاك ضرب امرأته بخنجر فقتلها ، فوصل المسلمون إلى المعسكر وهي في آخر رمق تتحرك ، ووجدوا قدورهم تغلي باطعماتهم ، وهرب خاقان بمن

(١) موقرة : حملت حملاً ثقيلاً .

(٢) الخز : الحرير وهو مشتق من المَخَز أي موضع الأرانب باعتبار نعومته كأوبارها .

(٣) الكؤوسات : الاناء يشرب فيه .

(٤) الأسارى : الأسرى .

معه حتى دخل بعض المدن فتحصن بها ، فاتفق أنه لعب بـالنرد مـع بعض الأمراء فغلبـه الأمير فتوعده خاقان بقـطع اليد ، فحنق عليـه ذلك الأميـر ثم عمل على قتله فقتله ، وتفـرقت الأتراك يعدو بعضهم على بعض ، وينهب بعضهم بعضاً ، وبعث أسد إلى أخيه خـالد يعلمـه بما وقـع من النصر والظفر بخاقان ، وبعث إليه بطبول خاقان ـ وكانت كباراً لهـا أصوات كـالرعـد وبشيء كثيرمن حواصله وأمتعته ، فأوفدها خالد إلى أمير المؤمنين هشام ففرح بذلـك فرحـاً شديـداً ، وأطلق للرسل أموالاً جزيلة كثيرة من بيت المـال وقد قـال بعض الشعراء في أسـد يمدحـه على ذلك :

لـو سرتَ في الأرضِ تقيسُ الأرضـا ... تـقيسُ مـنهـا طـولـهَـا والـعـرضـا
لـم تـلقَ خـيـراً إمـرة ونـقـضـا ... مِـنَ الأمـيـر أسـدٌ وأمـضـى
أفضى إلـيـنـا الـخيـرَ حـتى افـضـا ... وجـمـعَ الـشـمـلَ وكـانَ ارفـضـا
مـا فـاتـهُ خـاقـانِ إلا ركـضـاً ... قـد فضَ مِـنْ جمـوعـهِ مـا فـضـا
يـا ابنَ شـريـحٍ قـد لقيتَ حمضـا ... حمضـاً بـهِ تشفى صـداعَ المـرضى

وفيها قتل خالد بن عبد الله القسري المغيرة بن سعيد وجماعة من أصحابه الذين تابعوه على باطله ، وكان هذا الرجل ساحراً فاجراً شيعياً خبيثاً ، قال ابن جرير : ثنا ابن حميد ثنا جرير عن الأعمش قال : سمعت المغيرة بن سعيد يقول : لـو أراد أن يحيى عادا وثمـودا وقرونـاً بين ذلك لأحياهم . قال الأعمش : وكان المغيرة هـذا يخرج إلى المقبـرة فيتكلم فيرى مثـل الجراد على القبور . أو نحو هذا من الكلام . وذكر ابن جرير له غير ذلك من الأشياء التي تدل على سحـره وفجوره . ولما بلغ خالداً أمره أمر باحضاره فجيء به في ستة نفر أو سبعة نفر ، فأمر خالد فأبرز سريره الى المسجد ، وأمر باحضار أطناب القصب والنفط فصب فوقها ، وأمر المغيرة أن يحتضن طنبا منها ، فامتنع فضرب حتى احتضن منها طنبا واحداً وصب فوق رأسه النفط ، ثم أضرم بـالنار . وكذلك فعل ببقية أصحابه .

وفي هذه السنة خرج رجل يقال له بهلول بن بشر ويلقب بكثارة ، واتبعه جماعات من الخوارج دون المائة ، وقصدوا قتل خالد القسري ، فبعث إليهم البعوث فكسروا الجيوش واستفحل أمرهم جـداً لشجاعتهم وجلدهم ، وقلة نصـح من يقاتلهم من الجيـوش ، فردوا العسـاكر من الألـوف المؤلفة ، ذوات الأسلحة والخيل المسومة[1] ، هذا وهم لم يبلغوا المائة ، ثم إنهم راموا قدوم الشام لقتل الخليفة هشام ، فقصدوا نحوها ، فاعترضهم جيش بأرض الجزيرة فاقتتلوا معهم قتالاً عظيماً ، فقتلوا عامة أصحاب بهلول الخارجي . ثم إن رجلاً من جديلة يكنى أبا الموت ضـرب

---

(١) المسوَّمة : الخيل المُرْسَلَة وعليها فُرسانها .

بهلولاً ضربة فصرعه وتفرقت عنه بقية أصحابه ، وكانوا جميعهم سبعين رجلاً ، وقد رثاهم بعض أصحابهم[1] فقال :

بُـدِّلتُ بعـد أبي بِشْـرٍ وصُحبتِـهِ ... قـوماً عليّ مـع الأحزابِ أعـوانـاً
بـانـوا كـأنْ لم يكـونـوا من صحـابتنـا ... ولم يكـونـوا لنـا بـالأمسِ خِـلّانـا
يـا عينُ أذري دُمـوعـاً منـكِ تَهنـانـا[2] ... وأبكـي لنـا صُحبـةً بـانُـوا وجيـرانـاً
خلّوا لنـا ظـاهـرَ الـدُّنيـا وبـاطنهـا ... وأصبحـوا في جِنـانِ الخلْدِ جيـرانـاً

ثم تجمع طائفة منهم أخرى على بعض أمرائهم فقاتلوا وقتلوا وقتلوا ، وجهزت إليهم العساكر من عند خالد القسري ، ولم يزل حتى أباد خضراءهم ولم يبق لهم باقية ، وفيها غزا أسد القسري بلاد الترك ، فعرض عليه ملكهم طرخان خان ألف ألف فلم يقبل منه شيئاً ، وأخذه قهراً فقتله صبراً بين يديه ، وأخذ مدينته وقلعته وحواصله ونساءه وأمواله . وفيها خرج الصحاري بن شبيب الخارجي واتبعه طائفة قليلة نحو من ثلاثين رجلاً ، فبعث إليهم خالد القسري جندا فقتلوه وجميع أصحابه ، فلم يتركوا منهم رجلاً واحداً . وحج بالناس في هذه السنة أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وحج معه ابن شهاب الزهري ليعلمه مناسك الحج ، وكان أمير مكة والمدينة والطائف محمد بن هشام بن إسماعيل ، وأمير العراق والمشرق وخراسان خالد القسري ، ونائبه على خراسان بكمالها أخوه أسد بن عبد الله القسري ، وقد قيل إنه توفي في هذه السنة ، وقيل في سنة عشرين فالله أعلم ، ونائب أرمينية وآذربيجان مروان الحمار والله أعلم .

سنة عشرين ومائة من الهجرة

فيها غزا سليمانُ بن هشام بلاد الروم وافتتح فيها حصوناً ، وفيها غزا إسحاق بن مسلم العقيلي تومان شاه ، وافتتحها وخرب أراضيها . وفيها غزا مروان بن محمد بلاد الترك ، وفيها كانت وفاة أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان ، وكانت وفاته بسبب أنه كانت له دُبيلة[3] في جوفه ، فلما كان مهرجان هذه السنة قدمت الدهاقين [4] - وهم أمراء المدن الكبار - من سائر البلدان بالهدايا والتحف على أسد ، وكان فيمن قدم نائب هراة ودهقانها ، واسم دهقانها خراسان شاه ، فقدم بهدايا عظيمة وتحف عزيزة ، وكان من جملة ذلك قصر من ذهب ، وقصر من فضة ، وأباريق من ذهب ، وصحاف من ذهب وفضة ، وتفاصيل من جرير تلك البلاد ألوان ملونة ، فوضع ذلك كله بين يدي أسد حتى امتلأ المجلس ، ثم قام الدهقان خطيباً فامتدح أسداً بخصال حسنة ، على عقله ورياسته وعدله

(١) هو الضحاك بن قيس . انظر الطبري (٢ : ١٦٢٧) طبع أوروبا .
(٢) تهنانا : الدمع المتتابع .
(٣) دُبَيْلة : تصغير دبلة وهي الكتلة من كلّ شيء .
(٤) الدهاقين : رؤساء الأقاليم .

ومنعه أهله وخاصته أن يظلموا أحداً من الرعايا بشيء قل أو كثر ، وأنه قهر الخان الأعظم ، وكان في مائة ألف فكسره وقتله ، وأنه يفرح بما يفد إليه من الأموال ، وهو بما خرج من يده أفرح وأشد سروراً ، فأثنى عليه أسد وأجلسه ، ثم فرق أسد جميع تلك الهدايا والأموال وما هناك أجمع على الأمراء والأكابر بين يديه ، حتى لم يبق منه شيء ، ثم قام من مجلسه وهو عليل من تلك الدبيلة ، ثم أفاق إفاقة وجيء بهدية كمثرى فجعل يفرقها على الحاضرين واحدة واحدة ، فألقى إلى دهقان خراسان واحدة فانفجرت دبيلته وكان فيها حتفه ، واستخلف على عمله جعفر بن حنظلة البهراني ، فمكث أميراً أربعة أشهر حتى جاء عهد نصر بن سيار في رجب منها ، فعلى هذا تكون وفاة أسد في صفر من هذه السنة ، وقد قال فيه ابن عرس العبدي يرثيه .

نـعـى أسـدَ بـن عـبـد الله نـاعٍ ... فـريـعَ الـقـلبُ لـلملكِ الـمـطاعِ
بـبـلـخ وافـقَ الـمـقـدارُ يـسـرى ... ومـا لـقـضـاءِ ربـكَ مـن دفـاعِ
فـجـودي عيـنُ بـالعبـراتِ سـحّـاً ... ألـم يحـزنـكِ تـفـريـقُ الـجـمـاعِ
أتـاه حِـمـامـةُ في جـوفِ ضيـعٍ ... وكم بـالضيـعِ من بـطلٍ شجـاعِ
أتـاهُ حـمـامـه في جـوف صيـغٍ ... وكم بـالصِّيـغ من بـطل شجـاعِ
كـتـائبُ قـد يـجيبـونَ الـمنـادي ... على جـردٍ[1] مـسـوَّمـةٍ[2] سـراعِ
سُـقيـت الغيـثُ إنـك كـنتَ غيـثـاً ... مـريعـاً عنـدَ مـرتـادِ النِّجـاعِ[3]

وفيها عزل هشام خالد بن عبد الله القسري عن نيابة العراق ، وذلك أنه انحصر منه لما كان يبلغه من إطلاق عبارة فيه ، وأنه كان يقول عنه ابن الحمقاء ، وكتب إليه كتاباً فيه غلظة ، فرد عليه هشام رداً عنيفاً ، ويقال إنه حسده على سعة ما حصل له من الأموال والحواصل والغلات ، حتى قيل إنه كان دخله في كل سنة ثلاثة عشر ألف ألف دينار ، وقيل درهم ، ولولده يزيد بن خالد عشرة آلاف ألف ، وقيل إنه وفد إليه رجل من ألزام أمير المؤمنين من قريش يقال له ابن عمرو ، فلم يرحب به ولم يعبأ به ، فكتب إليه هشام يعنفه ويبكته على ذلك ، وأنه حال وصول هذا الكتاب إليه يقوم من فوره بمن حوله من أهل مجلسه فينطلق على قدميه حتى يأتي باب ابن عمرو صاغراً ذليلاً مستأذناً عليه ، متنصلاً إليه مما وقع ، فأن أذن لك وإلا فقف على بابه حولاً[4] غير متحلل من مكانك ولا زائل ، ثم أمرك إليه إن شاء عزلك وإن شاء أبقاك ، وإن شاء انتصر ، وإن شاء عفا . وكتب إلى ابن عمرو يعلمه بما كتب إلى خالد ، وأمره إن وقف بين يديه أن يضربه عشرين سوطاً على رأسه ، إن رأى ذلك مصلحة . ثم إن هشاماً عزل خالداً وأخفى ذلك ، وبعث البريد إلى نائبه على اليمن وهو يوسف بن

(١) جُرَد : الخيل التي لا رجالة فيها .
(٢) مسوَّمة : الخيل المُرْسَلَة وعليها فُرْسانها .
(٣) النجاع : المقصد والمطلب او المكان يرتاده الناس للحاجة .
(٤) حولاً : سنة .

عمر فولاه إمرة العراق ، وأمره بالمسير إليها والقدوم عليها في ثلاثين راكباً ، فقدموا الكوفة وقت السحر ، فدخلوها ، فلما أذن المؤذن أمره يوسف بالاقامة : فقال : إلى أن يـأتي الامام ـ يعني خالداً ـ فانتهره وأمره بالاقامة وتقـدم يوسف فصلّى وقـرأ : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾[1] و﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾[2]. ثم انصرف فبعث إلى خالد وطارق وأصحابهما ، فاحضروا فأخذ منهم أمـوالاً كثيرة ، صادر خالداً بمائة ألف ألف درهم ، وكانت ولاية خالد في شوال سنة خمس ومائة ، وعزل عنها في جمادى الأولى من هذه السنة ـ أعني سنة عشرين ومائة ـ وفي هذا الشهر قدم يوسف بن عمر على ولاية العراق مكان خالد بن عبد الله القسري ، واستناب على خراسان جديع بن علي الكر ٰني ، وعزل جعفر بن حنظلة الذي كان استنابه أسد ، ثم إن يوسف بن عمر عزل جديعاً في هذه السنة عن خراسان ، وولّى عليها نصر بن سيار ، وذهب جميع ما كان اقتناه وحصّله خالد من العقار والأملاك وهلة واحدة ، وقد كان أشار عليه بعض أصحابه لما بلغهم عتب هشام عليه أن يبعث إليه يعرض عليه بعض أملاكه ، فما أحب منها أخذه وما شاء ترك ، وقالوا له : لأن يذهب البعض خير من أن يذهب الجميع مع العزل والأخراق فامتنع من ذلك واغتر بالدنيا وعزت نفسه عليه أن يذل ، ففجأه العزل ، وذهب ما كان حصله وجمعه ومنعه ، واستقرت ولاية يـوسف بن عمر على العـراق وخراسـان ، واستقرت نيابة نصر بن سيار على خراسان ، فتمهدت البلاد وأمن العباد ولله الحمد والمنة ، وقد قال سوار بن الأشعري في ذلك :

أضحتْ خـراسانُ بعـد الخـوفِ آمنـةً ... من ظلم كـل غشـومِ الحكم جبـارِ
لمـا أتى يـوسفـاً اخبـارَ مـا لقيتْ ... اختـارَ نصـراً لهـا نصْـر بـنِ سيـارِ

وفي هذه السنة استبطأت شيعة آل العباس كتاب محمد بن علي إليهم ، وقد كان عتب عليهم في اتباعهم ذلك الزنديق الملقب بخداش ، وكان خُرمِّياً ، وهو الذي أحل لهم المنكرات ودنّس المحارم والمصاهرات ، فقتله خالد القسري كما تقدم ، فعتب عليهم محمد بن علي في تصديقهم له واتباعهم إياه على الباطل ، فلما استبطأوا كتابه إليهم بعث إليهم رسولاً يخبر لهم أمره ، وبعثوا هم أيضاً رسولاً ، فلما جاء رسولهم أعلمه محمد بماذا عتب عليهم بسبب الخُرَّمي ، ثم أرسل مع الرسول كتاباً مختوماً ، فلما فتحوه لم يجدوا فيه سوى : بسم الله الرحمن الرحيم ، تعلَّموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرمي . ثم أرسل رسولاً إليهم فلم يصدقه كثير منهم وهمّوا به ، ثم جاءت من جهته عصى ملوياً عليها حديد ونحاس ، فعلموا أن هذا إشارة لهم إلى أنهم عصاة ، وأنهم مختلفون كاختلاف ألوان النحاس والحديد . قال ابن جرير ، وحج بالناس فيها محمد بن هشام المخزومي فيما قاله أبو معشر ، قال : وقد قيل إن الذي حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقيل ابنه يزيد بن هشام فالله سبحانه وتعالى أعلم ،

---

(١) سورة الواقعة ، الآيـة/١ .

(٢) سورة المعارج ، الآية/ ١ .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

ففيها غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح مطامير وهو حصن ، وافتتح مروان بن محمد بلاد صاحب الذهب ، وأخذ قلاعه وخرب أرضه ، فأذعن له بالجزية في كل سنة بألف رأس يؤديها إليه ، وأعطاه رهناً على ذلك ، وفيها في صفر قتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الذي تنسب إليه الطائفة الزيدية ، في قول الواقدي ، وقال هشام الكلبي : إنما قتل في صفر من سنة ثنتين وعشرين فالله أعلم . وقد ساق محمد بن جرير سبب مقتله في هذه السنة تبعاً للواقدي ، وهو أن زيداً هذا وفد على يوسف بن عمر فسأله هل أودع خالد القسري عندك مالاً ؟ فقال له زيد بن علي : كيف يودعني مالاً وهو يشتم آبائي على منبره في كل جمعة ؟ فأحلفه أنه ما أودع عنده شيئاً ، فأمر يوسف بن عمر باحضار خالد من السجن فجيء به في عباءة ، فقال : أنت أودعت هذا شيئاً نستخلصه منه ؟ قال : لا ، وكيف وأنا أشتم أباه كل جمعة ؟ فتركه عمر وأعلم أمير المؤمنين بذلك فعفا عن ذلك ، ويقال بل استحضرهم فحلفوا بما حلفوا . ثم إن طائفة من الشيعة التفت على زيد بن علي ، وكانوا نحواً من أربعين ألفاً ، فنهاه بعض النصحاء عن الخروج ، وهو محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ، وقال له : إن جدك خير منك ، وقد التفت على بيعته من أهل العراق ثمانون ألفاً ، ثم خانوه أحوج ما كان إليهم ، وإني أحذرك من أهل العراق . فلم يقبل بل استمر يبايع الناس في الباطن في الكوفة ، على كتاب الله وسنة رسوله حتى استفحل أمره بها في الباطن ، وهو يتحول من منزل إلى منزل ، وما زال كذلك حتى دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائة ، فكان فيها مقتله كما سنذكره قريباً . وفيها غزا نصر بن سيار أمير خراسان غزوات متعددة في الترك ، وأسر ملكهم كور صول في بعض تلك الحروب وهو لا يعرفه ، فلما تيقنه وتحققه ، سأل منه كورصول أن يطلقه على أن يرسل له ألف بعير من إبل الترك ـ وهي البخاتي ـ وألف برذون[1] ، وهو مع ذلك شيخ كبير جداً ، فشاور نصر من بحضرته من الأمراء في ذلك ، فمنهم من أشار باطلاقه ، ومنهم من أشار بقتله . ثم سأله نصر بن سيار كم غزوت من غزوة ؟ فقال : اثنتين وسبعين غزوة ، فقال له نصر : ما مثلك يطلق ، وقد شهدت هذا كله ، ثم أمر به فضربت عنقه وصلبه ، فلما بلغ ذلك جيشه من قتله باتوا تلك الليلة يجعرون ويبكون عليه ، وجذّوا لحاهم وشعورهم وقطعوا آذانهم وحرقوا خياماً كثيرة ، وقتلوا أنعاماً كثيرة ، فلما أصبح امر نصر باحراقه لئلا يأخذوا جثته ، فكان حريقه أشد عليهم من قتله ، وانصرفوا خائبين صاغرين خاسرين ، ثم كرنصر على بلادهم فقتل منهم خلقاً وأسر أمماً لا يحصون كثرة ، وكان فيمن حضر بين يديه عجوز كبيرة جداً من الأعاجم أو الأتراك ، وهي من بيت مملكة ، فقالت لنصر بن سيار : كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء فهو ليس بملك ، وزير صادق يفصل خصومات الناس ويشاوره ويناصحه ، وطباخ يصنع له ما يشتهيه ، وزوجة حسناء إذا دخل

---

(١) برذون : دابّة الحمل الثقيلة .

عليها مغتماً فنظر إليها سرته وذهب غمّه ، وحصن منيع إذا فزع رعاياه لجأوا إليه فيه ، وسيف إذا قارع به الأقران لم يخش خيانته ، وذخيرة إذا حملها فأين ما وقع من الأرض عاش بها .

وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل نائب مكة والمدينة والطائف ، ونائب العراق يوسف بن عمر ، ونائب خراسان نصر بن سيار ، وعلى أرمينية مروان بن محمد .

ذكر من توفي فيها من الأعيان :

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

والمشهور أنه قتل في التي بعدها كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

مسلمة بن عبد الملك

ابن مروان القرشي الأموي ، أبو سعيد وأبو الأصبغ الدمشقي ، قال ابن عساكر : وداره بدمشق في حجلة القباب عند باب الجامع القبلي ، ولي الموسم أيام أخيه الوليد ، وغزا الروم غزوات وحاصر القسطنطينية ، وولاّه أخوه يزيد إمرة العراقين ، ثم عزله وتولى أرمينية ، وروى الحديث عن عمر بن عبد العزيز ، وعنه عبد الملك بن أبي عثمان ، وعبيد الله بن قزعة ، وعيينة والد سفيان بن عيينة وابن أبي عمران ، ومعاوية بن خديج ، ويحيى بن يحيى الغساني .

قال الزبير بن بكار : كان مسلمة من رجال بني أمية ، وكان يلقب بالجرادة الصفراء ، وله آثار كثيرة ، وحروب ونكاية في العدو من الروم وغيرهم . قلت : وقد فتح حصوناً كثيرة من بلاد الروم . ولما ولي أرمينية غزا الترك فبلغ باب الأبواب فهدم المدينة التي عنده ، ثم أعاد بناءها بعد تسع سنين . وفي سنة ثمان وتسعين غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصقالبة ، وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية . قال الأوزاعي : فأخذه وهو يغازيهم صداع عظيم في رأسه ، فبعث ملك الروم اليه بقلنسوة[1] وقال : ضعها على رأسك يذهب صداعك ، فخشي أن تكون مكيدة فوضعها على رأس بهيمة فلم ير إلا خيراً ، ثم وضعها على رأس بعض أصحابه فلم ير إلا خيراً ، فوضعها على رأسه فذهب صداعه ، ففتقها فإذا فيها سبعون سطراً هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ ﴾[2] الآية مكررة لا غير ، رواه ابن عساكر .

وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة ، وجاع المسلمون عندها جوعاً شديداً ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع الى الشام ، فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعاً ومنارة ، فهو بها إلى الآن يصلّي فيه

(١) بقلنسوة : نوع من ملابس الرأس وهو على هيئات متعدِّدة .
(٢) سورة فاطر ، الآية/ ٤١ .

المسلمون الجمعة والجماعة ، قلت : وهي آخر ما يفتحه المسلمون قبل خروج الدجال في آخر الزمان ، كما سنورده في الملاحم والفتن من كتابنا هذا إن شاء الله . ونذكر الأحاديث الواردة في ذلك هناك ، وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساعٍ مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصوناً وقلاعاً ، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعاً ، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه ، في كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه ، وشدة بأسه ، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة ، وقال يوماً لنصيب الشاعر : سلني : قال ، لا ، قال : ولم ؟ قال : لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتي باللسان . فأعطاه ألف دينار . وقال أيضاً : الأنبياء ﴿ لا يتنابون كما يتناب الناس ما ناب نبي قط﴾ وقد أوصى بثلث ماله لأهل الأدب ، وقال : إنها صنعة جحف أهلها . وقال الوليد بن مسلم وغيره : توفي يوم الأربعاء لسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل في سنة عشرين ومائة ، وكانت وفاته بموضع يقال له الحانوت ، وقد رثاه بعضهم ، وهو ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقال :

أقولُ وما البعدُ إلا الردىٰ[1] أمسلمُ لا تبعدن مسلمةْ
فقدْ كنتَ نوراً لنا في البلادِ مضيئاً فقد أصبحت مظلمةْ
ونكتمْ[2] موتك نخشى اليقينَ فأبدى اليقينَ لنا الجمجمة

نمير بن قيس

الأشعري قاضي دمشق ، تابعي جليل ، روى عن حذيفة مرسلاً وأبي موسى مرسلاً وأبي الدرداء وعن معاوية مرسلاً وغير واحد من التابعين ، وحدث عنه جماعة كثيرون ، منهم الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز ويحيى بن الحارث الذماري . ولاّه هشام بن عبد الملك القضاء بدمشق بعد عبد الرحمن بن الخشخاش العذرى ، ثم استعفى هشاماً فعفاه وولي مكانه يزيد بن عبد الرحمن بن أبي ملك ، وكان نمير هذا لا يحكم باليمين مع الشاهد ، وكان يقول : الأدب من الآباء ، والصلاح من الله . قال غير واحد : توفي سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقيل سنة خمس عشرة ومائة ، وهو غريب والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائة

ففيها كان مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة ، أمرهم في أول هذه السنة بالخروج والتأهب له ، فشرعوا في أخذ الأهبة لذلك . فانطلق رجل يقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره ـ وهو

(١) الردى : الموت .
(٢) ونكتم : نستر ـ نخبيء .

بالحيرة يومئذ - خبر زيد بن علي هذا ومن معه من أهل الكوفة ، فبعث يوسف بن عمر يتطلبه ويلح في طلبه ، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له : ما قولك يرحمك الله في أبي بكر وعمر ؟ فقال : غفر الله لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما ، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً ، قالوا : فلم تطلب إذا بدم أهل البيت ؟ فقال : إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر ، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً ، قد ولوا فعدلوا ، وعملوا بالكتاب والسنة . قالوا : فلم تقاتل هؤلاء إذا ؟ قال : إن هؤلاء ليسوا كأولئك ، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم ، وإني أدعو الى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وإحياء السنن وإماتة البدع ، فان تسمعوا يكن خيراً لكم ولي ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل . فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه ، فلهذا سموا الرافضة من يومئذ ، ومن تابعه من الناس على قوله سموا الزيدية ، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة ، وغالب أهل مكة الى اليوم على مذهب الزيدية ، وفي مذهبهم حق ، وهو تعديل الشيخين ، وباطل وهو اعتقاد تقديم علي عليهما ، وليس علي مقدماً عليهما ، بل ولا عثمان على أصح قولي أهل السنة الثابتة ، والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة ، وقد ذكرنا ذلك في سيرة أبي بكر وعمر فيما تقدم . ثم إن زيداً عزم على الخروج بمن بقي معه من أصحابه ، فواعدهم ليلة الأربعاء في مستهل صفر من هذه السنة ، فبلغ ذلك يوسف بن عمر ، فكتب الى نائبه على الكوفة وهو الحكم بن الصلت يأمره بجمع الناس كلهم في المسجد الجامع ، فجمع الناس لذلك في يوم الثلاثاء سلخ المحرم ، قبل خروج زيد بيوم ، وخرج زيد ليلة الأربعاء في برد شديد ، ورفع أصحابه النيران ، وجعلوا ينادون يا منصور يا منصور ، فلما طلع الفجر إذا قد اجتمع معه مائتان وثمانية عشر رجلاً ، فجعل زيد يقول : سبحان الله !! أين الناس ؟ فقيل : هم في المسجد محصورون ، وكتب الحكم الى يوسف يعلمه بخروج زيد بن علي ، فبعث إليه سرية الى الكوفة ، وركبت الجيوش مع نائب الكوفة ، وجاء يوسف بن عمر أيضاً في طائفة كبيرة من الناس ، فالتقى بمن معه جرثومة[1] منهم فيهن خمسمائة فارس ، ثم أتي الكناسة فحملت على جمع من أهل الشام فهزمهم ، ثم اجتاز بيوسف بن عمر وهو واقف فوق تل ، وزيد في مائتي فارس ولو قصد يوسف بن عمر لقتله ، ولكن أخذ ذات اليمين ، وكلما لقي طائفة هزمهم ، وجعل أصحابه ينادون : يا أهل الكوفة اخرجو الى الدين والعز والدنيا ، فانكم لستم في دين ولا عز ولا دنيا ، ثم لما أمسوا انضاف اليه جماعة من أهل الكوفة ، وقد قتل بعض أصحابه في أول يوم ، فلما كان اليوم الثاني اقتتل هو وطائفة من أهل الشام فقتل منهم سبعين رجلاً ، وانصرفوا عنه بشر حال ، وأمسوا فعبأ يوسف بن عمر جيشه جداً ، ثم أصبحوا فالتقوا مع زيد فكشفهم حتى أخرجهم إلى السبخة ، ثم شد عليهم حتى أخرجهم الى بني سليم ، ثم تبعهم في خيله ورجله حتى أخذوا على الساه ، ثم اقتتلوا هناك قتالاً شديداً جداً ، حتى كان جنح الليل رمي زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى ، فوصل إلى

(١) جرثومة : الجماعة .

دماغه ، فرجع ورجع أصحابه ، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا لأجل المساء والليل ، وأدخل زيد في دار في سكة البريد ، وجيء بطبيب فانتزع ذلك السهم من جبهته ، فما عدا أن انتزعه حتى مات من ساعته رحمه الله .

فاختلف أصحابه أين يدفنونه ، فقال بعضهم : ألبسوه درعه وألقوه في الماء ، وقال بعضهم : احتزوا رأسه واتركوا جثته في القتلى ، فقال ابنه : لا والله لا تأكل أبي الكلاب . وقال بعضهم : ادفنوه في العباسية ، وقال بعضهم : ادفنوه في الحفرة التي يؤخذ منها الطين ، ففعلوا ذلك وأجروا على قبره الماء لئلا يعرف ، وانفتل[1] أصحابه حيث لم يبق لهم رأس يقاتلون به ، فما أصبح الفجر ولهم قائمة ينهضون بها ، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى هل يجد زيداً بينهم ، وجاء مولى لزيد سندي قد شهد دفنه فدل على قبره فأخذ من قبره ، فأمر يوسف بن عمر بصلبه عل خشبة بالكناسة ، ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري ، وزياد النهدي ، ويقال إن زيداً مكث مصلوباً أربع سنين ، ثم أنزل بعد ذلك وأحرق فالله أعلم . وقد ذكر أبو جعفر ابن جرير الطبري أن يوسف بن عمر لم يعلم بشيء من ذلك حتى كتب له هشام بن عبد الملك : إنك لغافل ، وإن زيد بن علي غارز ذنبه بالكوفة يبايع له ، فألح في طلبه واعطه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله ، فتطلبه يوسف حتى كان من أمره ما تقدم ، فلما ظهر على قبره حز رأسه وبعثه الى هشام ، وقام من بعده الوليد بن يزيد فأمر به فأنزل وحرق في أيامه قبح الله الوليد بن يزيد . فأما ابنه يحيى بن زيد بن علي فاستجار بعبد الملك بن بشر بن مروان ، فبعث إليه يوسف بن عمر يتهدده حتى يحضره ، فقال له عبد الملك بن بشر : ما كنت لآوي مثل هذا الرجل وهو عدونا وابن عدونا . فصدقه يوسف بن عمر في ذلك ، ولما هدأ الطلب عنه سيَّره إلى خراسان فخرج يحيى بن زيد في جماعة من الزيدية إلى خراسان فأقاموا بها هذه المدة .

قال أبو مخنف : ولما قتل زيد خطب يوسف بن عمر أهل الكوفة فتهددهم وتوعدهم وشتمهم وقال لهم فيما قال : والله لقد استأذنت أمير المؤمنين في قتل خلق منكم ، ولو أذن لي لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم[2] ، وما صعدت لهذا المنبر إلا لأسمعكم ما تكرهون .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة قتل عبد الله البطال في جماعة من المسلمين بأرض الروم ، ولم يزد ابن جرير على هذا ، وقد ذكر هذا الرجل الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير فقال :

---

(١) وانفتل : انثنى .

(٢) ذراريكم : نساءكم

عبد الله أبو يحيى المعروف بالبطال

كان ينزل إنطاكية ، حكى عنه أبو مروان الأنطاكي ، ثم روى بإسناده أن عبد الملك بن مروان حين عقد لابنه مسلمة على غزو بلاد الروم ، ولي على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطال ، وقال لابنه : سيّره على طلائعك ، وامره فليعس[1] بالليل العسكر ، فانه أمين ثقة مقدام شجاع . وخرج معهم عبد الملك يشيعهم الى باب دمشق . قال : فقدم مسلمة البطال على عشرة آلاف يكونون بين يديه ترساً من الروم أن يصلوا إلى جيش المسلمين . قال محمد بن عائذ الدمشقي : ثنا الوليد بن مسلمة حدّثني أبو مروان ـ شيخ من أهل انطاكية ـ قال : كنت أغازي مع البطال وقد أوطأ الروم ذلاً ، قال البطال فسألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمري في مغازي فيهم ، فقلت له : خرجت في سرية ليلاً فدفعنا الى قرية فقلت لأصحابي : ارخوا لجم خيلكم ولا تحركوا أحداً بقتل ولا بشيء حتى تستمكنوا من القرية ومن سكانها ، ففعلوا وافترقوا في أزقتها ، فدفعت في أناس من أصحابي الى بيت يزهر سراجه ، وإذا امرأة تسكت ابنها من بكائه ، وهي تقول له : لتسكتن أو لأدفعنك الى البطال يذهب بك ، وانتشلته من سريره وقالت : خذه يا بطال ، قال : فأخذته .

وروى محمد بن عائذ عن الوليد بن مسلم عن أبي مروان الأنطاكي عن البطال قال : انفردت مرة ليس معي أحد من الجند ، وقد سمطت خلفي مخلاة فيها شعير ، ومعي منديل فيه خبز وشواء ، فبينا أنا أسير لعلي ألقى أحداً منفرداً ، أو أطلع على خبر ، إذا أنا ببستان فيه بقول حسنة ، فنزلت وأكلت من ذلك البقل بالخبز والشواء مع النقل ، فأخذني إسهال عظيم قمت منه مراراً ، فخفت أن أضعف من كثرة الاسهال ، فركبت فرسي والإسهال مستمر على حاله ، وجعلت أخشى إن أنا نزلت عن فرسي أن أضعف عن الركوب ، وأفرط بي الإسهال في السير حتى خشيت أن أسقط من الضعف ، فأخذت بعنان الفرس ونمت على وجهي لا أدري أين يسير الفرس بي ، فلم أشعر إلا بقرع نعاله على بلاط ، فأرفع رأسي فإذا دير ، وإذا قد خرج منه نسوة صحبة امرأة حسناء جميلة جداً ، فجعلت تقول بلسانها : أنزلنه ، فأنزلنني فغسلن عني ثيابي وسرجي وفرسي ، ووضعنني على سرير وعملن لي طعاماً وشراباً ، فمكثت يوماً وليلة مستوياً ، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى ترد إلي حالي ، فبينا أنا كذلك إذ أقبل البطريق وهو يريد أن يتزوجها ، فأمرت بفرسي فحول وعلق على الباب الذي أنا فيه ، وإذا هو بطريق كبير فيهم ، وهو إنما جاء لخطبتها ، فأخبره من كان هنالك بأن هذا البيت فيه رجل وله فرس ، فهم بالهجوم علي فمنعته المرأة من ذلك ، وأرسلت تقول له : إن فتح عليه الباب لم أقض حاجته ، فثناه ذلك عن الهجوم علي ، وأقام البطريق إلى آخر النهار في ضيافتهم ، ثم ركب فرسه وركب

---

(١) فليعس: يطوف بالليل.

معه أصحابه وانطلق . قال البطال : فنهضت في أثرهم فهمّت أن تمنعني خوفا علي منهم فلم أقبل ، وسقت حتى لحقتهم ، فحملت عليه فانفرج عنه أصحابه ، وأراد الفرار فألحقه فأضرب عنقه واستلبته وأخذت رأسه مسمطاً على فرسي ، ورجعت الى الدير ، فخرجن إلي ووقفن بين يدي ، فقلت : اركبن ، فركبن ما هنالك من الدواب وسقت بهن حتى أتيت أمير الجيش فدفعتهن إليه ، فنفلني[1] ما شئت منهن ، فأخذت تلك المرأة الحسناء بعينها ، فهي أم أولادي . والبطريق في لغة الروم عبارة عن الأمير الكبير فيهم ، وكان أبوها بطريقاً كبيراً فيهم - يعني تلك المرأة - وكان البطال بعد ذلك يكاتب أباها ويهاديه . وذكر أن عبد الملك بن مروان لما ولّاه المصيصة بعث البطال سرية الى أرض الروم ، فغاب عنه خبرها فلم يدر ما صنعوا ، فركب بنفسه وحده على فرس له وسار حتى وصل عمورية ، فطرق بابها ليلاً فقال له البواب : من هذا ؟ قال البطال : فقلت أنا سيّاف الملك ورسوله إلى البطريق ، فأخذ لي طريقاً إليه ، فلما دخلت عليه إذا هو جالس على سرير فجلست معه على السرير إلى جانبه ، ثم قلت له : إني قد جئتك في رسالة فمر هؤلاء فلينصرفوا ، فأمر من عنده فذهبوا ، قال : ثم قام فاغلق باب الكنيسة عليَّ وعليه ، ثم جاء فجلس مكانه ، فاخترطت سيفي وضربت به رأسه صفحاً وقلت له : أنا البطال فأصدقني عن السرية التي أرسلتها إلى بلادك وإلا ضربت عنقك الساعة ، فأخبرني ما خبرها ، فقال : هم في بلادي ينتهبون ما تهيأ لهم ، وهذا كتاب قد جاءني يخبر أنهم في وادي كذا وكذا ، والله لقد صدقتك . فقلت : هات الأمان ، فأعطاني الأمان ، فقلت : إيتني بطعام ، فأمر أصحابه فجاؤوا بطعام فوضع لي ، فأكلت فقمت لأنصرف فقال لأصحابه : اخرجوا بين يدي رسول الملك ، فانطلقوا يتعادون بين يدي ، وانطلقت الى ذلك الوادي الذي ذكر فإذا أصحابي هنالك ، فأخذتهم ورجعت إلى المصيصة ، فهذا أغرب ما جرى .

قال الوليد : وأخبرني بعض شيوخنا أنه رأى البطال وهو قافل من حجته ، وكان قد شغل بالجهاد عن الحج ، وكان يسأل الله دائماً الحج ثم الشهادة ، فلم يتمكن من حجة الاسلام إلا في السنة التي استشهد فيها رحمه الله تعالى ، وكان سبب شهادته أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس ، فبعث البطريق - الذي البطال متزوج بابنته التي ذكرنا أمرها - إلى البطال يخبره بذلك ، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك ، وكان الأمير مالك بن شبيب ، وقال له : المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران ، فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الاسلامية ، فأبى عليه ذلك ودهمهم الجيش ، فاقتتلوا قتالاً شديداً والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفاً عليه من الروم ،

---

(١) فنفلني : وهبني وأعطاني .

فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطاً منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة ، فاقتلعوه من سرجه برماحهم فالقوه الى الأرض ، ورأى الناس يقتلون ويأسرون ، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب ، وانكسر المسلمون وانطلقوا الى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها ، وأصبح ليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق فقال له ليون : ما هذا يا أبا يحيى ؟ فقال : هكذا تقتل الأبطال ، فاستدعى ليون بالأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت الى مقاتله ، فقال له ليون : هل من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، فأمر من معك من المسلمين أن يلوا غسلي والصلاة علي ودفني ، ففعل الملك ذلك وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى ، وانطلق ليون الى جيش المسلمين الذين تحصنوا فحاصرهم ، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذا جاءتهم البرد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الاسلامية ، ففر ليون في جيشه الخبيث هارباً راجعاً إلى بلاده ، قبَّحه الله ، فدخل القسطنطينية وتحصن بها .

قال خليفة بن خياط : كانت وفاة البطال ومقتله بأرض الروم في سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقال ابن جرير : في سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقال ابن حسان الزيادي : قتل في سنة ثلاث عشرة ومائة ، قيل وقد قاله غيره وإنه قتل هو والأمير عبد الوهاب بن بخت في سنة ثلاث عشرة ومائة كما ذكرنا ذلك فالله أعلم ، ولكن ابن جرير لم يؤرخ وفاته إلا في هذه السنة فالله أعلم .

قلت : فهذا ملخص ابن عساكر في ترجمة البطال مع تفصيله للأخبار واطلاعه عليها ، وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة الى دلهمة والبطال والأمير عبد الوهاب والقاضي عقبة ، فكذب وافتراء ووضع بارد ، وجهل وتخبط فاحش ، لا يروج ذلك إلا على غبي أو جاهل ردي . كما يروج عليهم سيرة عنترة العبسي المكذوبة ، وكذلك سيرة البكري والدنف وغير ذلك ، والكذب المفتعل في سيرة البكري أشد إثماً وأعظم جرماً من غيرها ، لأن واضعها يدخل في قول النبي ﷺ : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ[1] مقعده من النار » . وممن توفي في هذه السنة من الأعيان :

أياس الذكي

وهو إياس بن معاوية بن مرة بن إياس بن هلال بن رباب بن عبيد بن دريد بن أوس بن سواه بن عمرو بن سارية بن ثعلبة بن ذبيان بن ثعلبة بن أوس بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، هكذا نسبه خليفة بن خياط ، وقيل غير ذلك في نسبه ، وهو أبو واثلة المزني قاضي البصرة ، وهو تابعي ولجده صحبة ، وكان يضرب

(١) فليتبوأ : فليقم .

المثل بذكائه ، روى عن أبيه عن جده مرفوعاً في الحياء عن أنس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ونافع وأبي مجلز ، وعنه الحمادان وشعبة والأصمعي وغيرهم . قال عنه محمد بن سيرين : إنه لفهم إنه لفهم ، وقال محمد بن سعد والعجلي وابن معين والنسائي : ثقة . زاد ابن سعد وكان عاقلاً من الرجال فطناً ، وزاد العجلي وكان فقيها عفيفاً . وقدم دمشق في أيام عبد الملك بن مروان ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، ومرة أخرى حين عزله عدى بن أرطأة عن قضاء البصرة . قال أبو عبيدة وغيره : تحاكم إياس وهو صبي شاب وشيخ إلى قاضي عبد الملك بن مروان بدمشق ، فقال له القاضي : إنه شيخ وأنت شاب فلا تساوه في الكلام ، فقال إياس : إن كان كبيراً فالحق أكبر منه ، فقال له القاضي : اسكت ، فقال : ومن يتكلم بحجتي إذا سكت ؟ فقال القاضي : ما أحسبك تنطق بحق في مجلسي هذا حتى تقوم ، فقال إياس : أشهد أن لا إله إلا الله ، زاد غيره فقال القاضي : ما أظنك إلا ظالماً له ، فقال : ما على ظن القاضي خرجت من منزلي . فقام القاضي فدخل على عبد الملك فأخبره خبره فقال : اقض حاجته وأخرجه الساعة من دمشق لا يفسد على الناس .

وقال بعضهم : لما عزله عدي بن أرطأة عن قضاء البصرة فرّ منه إلى عمر بن عبد العزيز فوجده قد مات ، فكان يجلس في حلقة في جامع دمشق ، فتكلم رجل من بني أمية فرد عليه إياس ، فأغلظ له الأموي فقام إياس ، فقيل للأموي : هذا إياس بن معاوية المزني ، فلما عاد من الغد اعتذر له الأموي وقال : لم أعرفك ، وقد جلست إلينا بثياب السوقة وكلمتنا بكلام الاشراف فلم نحتمل ذلك .

وقال يعقوب بن سفيان : حدّثنا نعيم بن حماد ثنا ضمرة عن أبي شوذب قال : كان يقال يولد في كل مائة سنة رجل تام العقل ، فكانوا يرون أن إياس بن معاوية منهم . وقال العجلي : دخل على إياس ثلاث نسوة فلما رآهن قال : أما إحداهن فمرضع ، والأخرى بكر ، والأخرى ثيب[1] فقيل له بم علمت هذا ؟ فقال : أما المرضع فكلما قعدت أمسكت ثديها بيدها ، وأما البكر فكلما دخلت لم تلتفت إلى أحد ، وأما الثيب فكلما دخلت نظرت ورمت بعينها وقال : يونس بن صعلب[2] : ثنا الأحنف بن حكيم بأصبهان ثنا حماد بن سلمة سمعت إياس بن معاوية يقول : أعرف الليلة التي ولدت فيها ، وضعت أمي على رأسي جفنة . وقال المدائني قال إياس بن معاوية لأمه : ما شيء سمعتيه وأنت حامل بي وله جلبة شديدة ؟ قالت : ذاك طست من نحاس سقط من فوق الدار إلى أسفل ، ففزعت فوضعتك تلك الساعة . وقال أبو بكر الخرائطي عن عمر بن شيبة النميري قال : بلغني أن إياساً قال : ما يسرني أن أكذب كذبة يطلع

(١) ثيِّب : نقيض البِكْر ، المتزوجة .
(٢) كذا . ولم نجد له ترجمة .

عليها أبي معاوية . وقال : ما خاصمت أحداً من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية ، قلت لهم أخبروني عن الظلم ما هو ؟ قالوا : أخذ الانسان ما ليس له ، قلت : فإن الله له كل شيء . قال بعضهم عن إياس قال : كنت في الكتّاب وأنا صبي فجعل أولاد النصارى يضحكون من المسلمين ويقولون : إنهم يزعمون أنه لا فضلة لطعام أهل الجنة ، فقلت للفقيه ـ وكان نصرانياً ـ ألست تزعم أن في الطعام ما ينصرف في غذاء البدن ؟ قال : بلى ، قلت فما ينكر أن يجعل الله طعام أهل الجنة كله غذاء لأبدانهم ؟ فقال له معلمه : ما أنت إلا شيطان .

وهذا الذي قاله إياس وهو صغير بعقله قد ورد به الحديث الصحيح كما سنذكره إن شاء الله في أهل الجنة أن طعامهم ينصرف جشاء وعرقاً كالمسك ، فإذا البطن ضامر . وقال سفيان : وحين قدم إياس واسط فجاءه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها ، فقال له : أتأذن لي أن أسألك ؟ قال : سل وقد ارتبت حين استأذنت ، فسأله عن سبعين مسألة يجيبه فيها ؛ ، ولم يختلفا إلا في أربع مسائل ، رده إياس إلى قوله ، ثم قال له إياس : أتقرأ القرآن ؟ قال : نعم ؟ قال أتحفظ قوله : ﴿ اليومَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] ؟ قال : نعم ! قال : وما قبلها وما بعدها؟ قال : نعم ! قال : فهل أبقت هذه الآية لآل شبرمة رأياً ؟

وقال عباس عن يحيى بن معين : حدّثنا سعيد بن عامر بن عمر بن علي قال : قال رجل لاياس بن معاوية : يا أبا واثلة حتى متى يبقى الناس ؟ وحتى متى يتوالد الناس ويموتون ؟ فقال لجلسائه : أجيبوه فلم يكن عندهم جواب ، فقال إياس : حتى تتكامل العدتان ، عدة أهل الجنة ، وعدة أهل النار . وقال بعضهم : اكترى إياس بن معاوية من الشام قاصداً الحج ، فركب معه في المحارة غيلان القدري ، ولا يعرف أحدهما صاحبه ، فمكثا ثلاثاً لا يكلم أحدهما الآخر ، فلما كان بعد ثلاث تحادثا فتعارفا وتعجب كل واحد منهما من اجتماعه مع صاحبه ، لمباينة ما بينهما في الاعتقاد في القدر ، فقال له إياس : هؤلاء أهل الجنة يقولون حين يدخلون الجنة : ﴿ الحمدُ لله الذي هَدَانَا لهذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا الله ﴾[2] ويقول أهل النار : ﴿ ربَّنا غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنَا ﴾[3]. وتقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾[4]. ثم ذكر له من أشعار العرب وأمثال العجم ما فيه إثبات القدر ثم اجتمع مرة أخرى إياس وغيلان عند عمر بن عبد العزيز فناظر بينهما فقهره إياس ، وما زال يحصره في الكلام حتى اعترف غيلان بالعجز وأظهر التوبة ، فدعا عليه عمر بن عبد العزيز إن كان كاذباً ، فاستجاب الله منه فأمكن من غيلان فقتل وصلب بعد ذلك ولله الحمد والمنة .

---

(١) سورة المائدة ، الآية/٣ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية/٤٣ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية/١٠٦ .

(٤) سورة البقرة ، الآية/٣٢ .

ومن كلام إياس الحسن : لأن يكون في فعال الرجل فضل عن مقاله خير من أن يكون في مقاله فضل عن فعاله . وقال سفيان بن حسين : ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية فنظر في وجهي وقال : أغزوت الروم ؟ قلت : لا ! قال : السند والهند والترك ؟ قلت : لا . قال : أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟ قال : فلم أعد بعدها . وقال الأصمعي عن أبيه : رأيت إياس بن معاوية في بيت ثابت البناني ، وإذا هو أحمر طويل الذراع غليظ الثياب ، يلون عمامته ، وهو قد غلب على الكلام فلا يتكلم معه أحد إلا علاه ، وقد قال له بعضهم : ليس فيك عيب سوى كثرة كلامك ، فقال : بحق أتكلم أم بباطل ؟ فقيل بل بحق ، فقال : كلما كثر الحق فهو خير ، ولامه بعضهم في لباسه الثياب الغليظة فقال : إنما ألبس ثوباً يخدمني ولا ألبس ثوباً أخدمه ، وقال الأصمعي قال إياس بن معاوية : إن أشرف خصال الرجل صدق اللسان ، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فجع بأكرم أخلاقه . وقال بعضهم : سأل رجل إياساً عن النبيذ فقال : هو حرام ، فقال الرجل : فأخبرني عن الماء فقال : حلال ، قال : فالكسور ، قال : حلال ، قال فالتمر قال حلال ، قال فما باله إذا اجتمع حرم ؟ فقال إياس : أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك ؟ قال : لا ، قال : فهذه الحفنة من التبن ؟ قال لا توجعني ، قال : فهذه الغرفة من الماء ؟ قال لا توجعني شيئاً ، قال : أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طيناً ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك أيوجعك ؟ قال : إي والله وتقتلني ، قال : فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت . وقال المدائني : بعث عمر بن عبد العزيز عدي بن أرطأة على البصرة نائباً وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجوشني ، فأيهما كان أفقه فليوله القضاء ، فقال إياس وهو يريد أن لا يتولى : أيها الرجل سل فقيهي البصرة ، الحسن وابن سيرين ، وكان إياس لا يأتيهما ، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به - يعني بالقاسم - لأنه كان يأتيهما ، فقال القاسم لعدي : والله الذي لا إله إلا هو إن إياساً أفضل مني وأفقه مني ، وأعلم بالقضاء ، فإن كنت صادقاً فوله ، وإن كنت كاذباً فما ينبغي أن تولي كاذباً القضاء . فقال إياس : هذا رجل أوقف على شفير جهنم فافتدى منها بيمين كاذبة يستغفر الله ، فقال عدي : أما اذا فطنت إلى هذا فقد وليتك القضاء . فمكث سنة يفصل بين الناس ويصلح بينهم ، وإذا تبين له الحق حكم به ، ثم هرب إلى عمر بن عبد العزيز بدمشق فاستعفاه القضاء ، فولى عدي بعده الحسن البصري .

قالوا : لما تولى إياس القضاء بالبصرة فرح به العلماء حتى قال أيوب : لقد رموها بحجرها ، وجاءه الحسن وابن سيرين فسلّما عليه ، فبكى إياس وذكر الحديث « القضاة ثلاثة ، قاضيان في النار وواحد في الجنة » . فقال الحسن : ﴿ وَدَاوُدَ وسليمانَ إذ يحكُمَان في الحَرْثِ ﴾ [1] إلى قوله :

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية/ ٧٨ .

﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [1] قالوا : ثم جلس للناس في المسجد واجتمع عليه الناس للخصومات ، فما قام حتى فصل سبعين قضية ، حتى كان يشبه بشريح القاضي . وروي أنه كان إذا أشكل عليه شيء بعث إلى محمد بن سيرين فسأله منه . وقال إياس : إني لأكلم الناس بنصف عقلي ، فاذا اختصم إليّ اثنان جمعت لهما عقلي كله . وقال له رجل : إنك لتعجب برأيك ، فقال : لولا ذلك لم أقض به ، وقال له آخر : إن فيك خصالاً لا تعجبني ، فقال : ما هي ؟ فقال : تحكم قبل أن تفهم ، ولا تجالس كل أحد ، وتلبس الثياب الغليظة . فقال له : أيها أكثر الثلاثة أو الاثنان ؟ قال : الثلاثة . فقال : ما أسرع ما فهمت وأجبت ، فقال أو يجهل هذا أحد ؟ فقال : وكذلك ما أحكم أنا به ، وأما مجالستي لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لي قدري أحب إلي من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدري ، وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا . قالوا ، وتحاكم إليه اثنان فادعى أحدهما عند الآخر مالاً ، وجحده الآخر ، فقال إياس للمودع : أين أودعته ؟ قال : عند شجرة في بستان . فقال : انطلق إليها فقف عندها لعلك تتذكر ، وفي رواية أنه قال له : هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتي بورق منها ؟ قال : نعم ! قال فانطلق ، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه ، ثم استدعاه فقال له : أوصل صاحبك بعد إلى المكان ؟ فقال : لا بعد أصلحك الله . فقال له : قم يا عدو الله فأدِ إليه حقه ، وإلا جعلتك نكالاً . وجاء ذلك الرجل فقام معه فدفع إليه وديعته بكمالها . وجاء آخر فقال له : إني أودعت عند فلان مالاً وقد جحدني ، فقال له : اذهب الآن وائتني غداً ، وبعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحد فقال له : إنه قد اجتمع عندنا ههنا مالٌ فلم نرَ له أميناً نضعه عنده إلا أنت ، فضعه عندك في مكان حريز . فقال له سمعاً وطاعة ، فقال له إذهب الآن وائتني غداً ، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء فقال له : إذهب الآن إليه فقل له أعطني حقي وإلا رفعتك إلى القاضي ، فقال له ذلك فخاف أن لا يودع إذا سمع الحاكم خبره ، فدفع إليه ماله بكماله ، فجاء إلى إياس فأعلمه ، ثم جاء ذلك الرجل من الغد رجاء أن يودع فانتهره إياس وطرده وقال له : أنت خائن . وتحاكم إليه اثنان في جارية فادعىّ المشتري أنها ضعيفة العقل ، فقال لها إياس : أي رجليك أطول ؟ فقالت : هذه ، فقال لها : أتذكرين ليلة ولدتِ ؟ فقالت نعم . فقال للبائع ردرد .

وروى ابن عساكر أن إياساً سمع صوت امرأة من بيتها فقال : هذه امرأة حامل بصبي ، فلما ولدت ، ولدت كما قال ، فسئل بم عرفت ذلك ؟ قال : سمعت صوتها ونفسها معه فعلمت أنها حامل ، وفي صوتها ضحل [2] فعلمت أنه غلام . قالوا ثم مر يوماً ببعض المكاتب فاذا صبي هنالك فقال : إن كنت أدري شيئاً فهذا الصبي ابن تلك المرأة ، فاذا هو ابنها . وقال مالك عن الزهري عن

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية / ٧٩ .

(٢) ضحل : رقّة .

أبي بكر قال شهد رجل عند إياس فقال له : ما اسمك ؟ فقال أبو العنفر فلم يقبل شهادته . وقال الثوري عن الأعمش : دعوني إلى إياس فاذا رجل كلما فرغ من حديث أخذ في آخر . وقال إياس : كل رجل لا يعرف عيب نفسه فهو أحمق ، فقيل له : ما عيبك ؟ فقال كثرة الكلام . قالوا : ولما ماتت أمه بكى عليها فقيل له في ذلك فقال : كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة فغلق أحدهما . وقال له أبوه : إن الناس يلدون أبناء وولدت أنا أبا . وكان أصحابه يجلسون حوله ويكتبون عنه الفراسة ، فبينما هم حوله جلوس إذ نظر إلى رجل قد جاء فجلس على دكة حانوت ، وجعل كلما مر أحد ينظر إليه ، ثم قام فنظر في وجه رجل ثم عاد ، فقال لأصحابه : هذا فقيه كتاب قد أبَقَ له غلام أعور فهو يتطلبه ، فقاموا إلى ذلك الرجل فسألوه فوجدوه كما قال إياس ، فقالوا لايـاس : من أين عرفت ذلك ؟ فقال : لما جلس على دكة [1] الحانوت علمت أنه ذو ولاية ، ثم نظرت فاذا هو لا يصلح إلا لفقهاء المكتب ، ثم جعل ينظر إلى كل من مرّ به فعرفت أنه قد فقد غلاماً ، ثم لما قام فنظر الى وجه ذلك الرجل من الجانب الآخر ، عرفت أن غلامه أعور . وقد أورد ابن خلكـان أشياء كثيـرة في ترجمته ، من ذلك أنه شهد عنده رجل في بستان فقال له : كم عدد أشجاره ؟ فقال له : كم عدد جذوع هذا المجلس الذي أنت فيه من مدة سنين ؟ فقلت : لا أدري وأقررت شهادته .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرين ومائة

ذكر المدائني عن شيوخه أن خاقان ملك الترك لما قتل في ولاية أسد بن عبد الله القسري على خراسان ، تفرق شمل الأتراك ، وجعل بعضهم يُغير على بعض، وبعضهم يقتل بعضاً ، حتى كادت أن تخرب بلادهم ، واشتغلوا عن المسلمين . وفيها سأل أهل الصغد من أمير خراسان نصر بن سيار أن يردهم إلى بلادهم ، وسألوه شروطاً أنكـرها العلمـاء ، منها أن لا يعـاقب من ارتد منهم عن الاسلام ، ولا يؤخذ أسير المسلمين منهم ، وغير ذلك ، فأراد أن يوافقهم على ذلك لشدة نكايتهم في المسلمين ، فعاب عليه الناس ذلك ، فكتب إلى هشام في ذلك فتوقف ، ثم لما رأى أن هؤلاء إذا استمروا على معاندتهم للمسلمين كان ضررهم أشد ، أجابهم إلى ذلك ، وقد بعث يوسف بن عمر أمير العراق وفداً الى أمير المؤمنين يسأل منه أن يضم إليه نيابة خراسان ، وتكلموا في نصر بن سيار بأنه وإن كان شهماً شجاعاً ، إلا أنه قد كبر وضعف بصره فلا يعـرف الرجـل إلا من قريب بصوته ، وتكلموا فيه كلاماً كثيراً ، فلم يلتفت إلى ذلك هشـام ، واستمر بـه على إمرة خـراسان وولايتها . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها يزيد بن هشام بن عبد الملك ، والعمال فيها من تقدم ذكرهم في التي قبلها . وتوفي في هذه السنة ربيعة بن يزيد القصير من أهل دمشق ، وأبو يونس سليمان بن جبير ، وسماك بن حرب ، ومحمد بن واسع بن حيّان ، وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل ولله الحمد .

---

(١) دكّة : مصطبة .

[قال محمد بن واسع : أول من يدعى يوم القيامة إلى الحساب القضاة . وقال : خمس خصال تُميت القلب : الذنب على الذنب ، ومجالسة الموتى ، قيل له : ومن الموتى ؟ قال : كل غني مترف ، وسلطان جائر . وكثرة مشاقةً [1] النساء ، وحديثهن ، ومخالطة أهله . وقال مالك بن دينار : إني لأغبط الرجل يكون عيشه كفافاً فيقنع به . فقال محمد بن واسع : أغبط منه والله عندي من يُصبح جائعاً وهو عن الله راضٍ . وقال : ما آسى عن الدنيا إلا على ثلاث : صاحب إذا اعوججت قومني ، وصلاة في جماعة يحمل عني سهوها وأفوز بفضلها ، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منّة ، ولا لله على فيه تبِعة . وروى رواد بن الربيع قال : رأيت محمد بن واسع بسوق يزور وهو يعرض حماراً له للبيع ، فقال له رجل : أترضاه لي ؟ فقال لو رضيته لم أبعْهُ .

ولما ثقل محمد بن واسع كثُر عليه الناس في العيادة ، قال بعض أصحابه : فدخلت عليه فاذا قوم قعود وقوم قيام ، فقال : ماذا يغني هؤلاء عني إذا أخذ بناصيتي وقدمي غداً وأُلْقِيت في النار ؟! وبعث بعض الخلفاء مالاً مستكثراً إلى البصرة ليفرق في فقراء أهلها ، وأمر أن يدفع الى محمد بن واسع منه فلم يقبله ولم يلتمس منه شيئاً ، وأما مالك بن دينار فانه قبل ما أمر له به ، واشترى به أرِقاء وأعتقهم ولم يأخذ لنفسه منه شيئاً ، فجاءه محمد بن واسع يلومه على قبوله جوائز السلطان . فقال له : يا مالك قبلت جوائز السلطان ؟ فقال له مالك : يا أبا عبد الله ! سَلْ أصحابي ماذا فعلت منه ، فقالوا له : إنه اشترى به أرِقاء وأعتقهم ، فقال له : سألتك بالله أقلبك الآن لهم مثل ما كان قبل أن يصلوك . فقام مالك وحثا [2] على رأسه التراب وقال : إنما يعرف الله محمد بن واسع ، إنما مالك حمار إنما مالك حمار ، وكلام محمد بن واسع كثير جداً رحمه الله] [3] .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة

فيها غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم فلقي ملك الروم اليون فقاتله فسلم سليمان وغنم . وفيها قدم جماعة من دعاة بني العباس من بلاد خراسان قاصدين الى مكة فمروا بالكوفة فبلغهم أن في السجن جماعة من الأمراء من نواب خالد القسري ، قد حبسهم يوسف بن عمر ، فاجتمعوا بهم في السجن فدعوهم الى البيعة لبني العباس ، وإذا عندهم من ذلك جانب كبير ، فقبلوا منهم ووجدوا عندهم في السجن أبا مسلم الخراساني ، وهو إذ ذاك غلام يخدم عيسى بن مقبل العجلي ، وكان محبوساً فأعجبهم شهامته وقوته واستجابته مع مولاه إلى هذا الأمر ، فاشتراه بكر بن ماهان منه بأربعمائة درهم وخرجوا به معهم فاستندبوه لهذا الأمر ، فكانوا لا يوجهونه إلى مكان إلا ذهب ونتج ما يوجهونه إليه ، ثم كان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى فيما بعد .

---

(١) مشاقة : الخلاف والعداوة.

(٢) حثا : صبَّ .

(٣) زيادة من المصرية.

قال الواقدي : ومات في هذه السنة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهو الذي يدعو إليه دعاة بني العباس ، فقام مقامه ولده أبو العباس السفاح ، والصحيح أنه إنما توفي في التي بعدها . قال الواقدي وأبو معشر : وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، ومعه امرأته أم مسلم بن هشام بن عبد الملك ، وقيل إنما حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل قاله الواقدي ، والأول ذكره ابن جرير والله أعلم . وكان نائب الحجاز محمد بن هشام بن إسماعيل يقف على باب أم مسلم ويهدي إليها الألطاف والتحف ويعتذر إليها من التقصير ، وهي لا تلتفت إلى ذلك ، ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي :

القاسم بن أبي بَزّة (١)

أبو عبد الله المكي القارىء ، مولى عبد الله بن السائب ، تابعيّ جليل ، روي عن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، وعنه جماعة ، ووثقه الأئمة . توفي في هذه السنة على الصحيح ، وقيل بعدها بسنة ، وقيل سنة أربع عشرة ، وقيل سنة خمس عشرة فالله أعلم .

الزهري

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرّة ، أبو بكر القرشي الزهري أحد الأعلام من أئمة الاسلام ، تابعي جليل ، سمع غير واحد من التابعين وغيرهم .

روى الحافظ ابن عساكر عن الزهري قال : أصاب أهل المدينة جهد شديد فارتحلت الى دمشق ، وكان عندي عيال كثيرة ، فجئت جامعها فجلست في أعظم حلقة ، فاذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، فقال : إنه قد نزل بأمير المؤمنين مسألة ـ وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئاً وقد شذ عنه في أمهات الأولاد يرويه عن عمر بن الخطاب ـ فقلت : إني أحفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ، فأخذني فأدخلني على عبد الملك : فسألني ممن أنت ؟ فانتسبت له ، وذكرت له حاجتي وعيالي ، فسألني هل تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم والفرائض والسُنن ، فسألني عن ذلك كله فأجبته ، فقضى ديني وأمر لي بجائزة ، وقال لي : اطلب العلم فاني أرى لك عيناً حافظة وقلباً ذكياً ، قال : فرجعت إلى المدينة أطلب العلم وأتتبعه ، فبلغني أن امرأة بقباء رأت رؤ يا عجيبة ، فأتيتها فسألتها عن ذلك ، فقالت : إن بعلي غاب وترك لنا خادماً وداجناً ونخيلات ، نشرب من لبنها ، ونأكل من ثمرها ، فبينما أنا بين النائمة واليقظى رأيت كأن ابني الكبير ـ وكان مشتداً ـ قد أقبل فأخذ الشفرة فذبح ولد الداجن ، وقال : إن هذا يضيق علينا اللبن ، ثم نصب القدر وقطعها ووضعها فيه ، ثم أخذ الشفرة فذبح بها أخاه ، وأخوه صغير كما قد جاء ، ثم

(١) في نسخة القسطنطينية : القاسم بن أبي يسرة . وفي المصرية : القاسم بن مرّة .

استيقظت مذعورة ، فدخل ولدي الكبير فقال : أين اللبن ؟ فقلت : يا بني شربه ولد الداجن ، فقال : إنه قد ضيق علينا اللبن ، ثم أخذ الشفرة فذبحه وقطعه في القدر ، فبقيت مشفقة خائفة مما رأيت ، فأخذت ولدي الصغير فغيبته في بعض بيوت الجيران ، ثم أقبلت الى المنزل وأنا مشفقة جداً مما رأيت ، فأخذتني عيني فنمت فرأيت في المنام قائلاً يقول : ما لكِ مغتمة ؟ فقلت : إني رأيت مناماً فأنا أحذر منه فقال : يا رؤ يا يا رؤ يا ، فأقبلت امرأة حسناء جميلة ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ قالت : ما أردت إلا خيراً ، ثم قال يا أحلام يا أحلام ، فأقبلت امرأة دونها في الحُسن والجمال ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت : ما أردت إلا خيراً ، ثم قال : يا أضغاث [1] يا أضغاث ، فأقبلت امرأة سوداء شنيعة فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت إنها امرأة صالحة فأحببت أن أعلمها ساعة ، ثم استيقظت فجاء ابني فوضع الطعام وقال : أين أخي ؟ فقلت : درج الى بيوت الجيران ، فذهبت وراءه فكأنما هدي إليه ، فأقبل به يقبله ، ثم جاء فوضعه وجلسنا جميعاً فأكلنا من ذلك الطعام .

ولد الزهري في سنة ثمانٍ وخمسين في آخر خلافة معاوية ، وكان قصيراً قليل اللحية ، له شعرات طوال خفيف العارضين . قالوا : وقد قرأ القرآن في نحو من ثمانٍ وثمانين يوماً ، وجالس سعيد بن المسيّب ثمانِ سنين ، تمسُّ ركبته ركبته ، وكان يخدم عبيد الله بن عبد الله يستسقي له الماء المالح ، ويدور على مشايخ الحديث ، ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث ، ويكتب عنهم كل ما سمع منهم ، حتى صار من أعلم الناس وأعلمهم في زمانه ، وقد احتاج أهل عصره إليه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهري قال : كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين . وقال أبو إسحاق : كان الزهري يرجع من عند عروة فيقول لجارية عنده فيها لكنة : ثنا عروة ثنا فلان ، ويسرد عليها ما سمعه منه ، فتقول له الجارية : والله ما أدري ما تقول ، فيقول لها : اسكتي لكاع [2] ، فاني لا أريدك ، إنما أريد نفسي . ثم وفد على عبد الملك بدمشق كما تقدم فأكرمه وقضى دينه وفرض له في بيت المال ، ثم كان بعد من أصحابه وجلسائه ، ثم كان كذلك عند أولاده من بعده ، الوليد وسليمان ، وكذا عند عمر بن عبد العزيز ، وعند يزيد بن عبد الملك ، واستقضاه يزيد مع سليمان بن حبيب ، ثم كان حظياً عند هشام ، وحج معه وجعله معلّم أولاده إلى أن توفي في هذه السنة ، قبل هشام بسنة . وقال ابن وهب : سمعت الليث يقول : قال ابن شهاب : ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته ، قال : وكان يكره أكل التفاح وسؤر [3] الفأرة ، ويقول : إنه ينسى ، وكان يشرب العسل ويقول إنه يذكي ، وفيه يقول فايد بن أقرم .

---

١) أضغاث : ما كان مختلطاً لا حقيقة له .

٢) لكاع : لئيم .

٣) سؤر : جمعها أسآر : ما يبقى في الإناء من الماء .

زر ذا واثنِ على الكريمِ محمدٍ | واذكرْ فواضلهُ على الأصحابِ
وإذا يقالُ من الجوادُ بمالهِ | قيلَ الجوادُ محمدُ بنُ شهابِ
أهلُ المدائنِ يعرفونَ مكانهُ | وربيعُ ناديهِ على الأعرابِ
يشري وفاءَ جفانِه ويمدها | بكسورِ انتاجٍ وفتقِ لبابِ

وقال ابن مهدي : سمعت مالكا يقول : حدث الزهري يوماً بحديث فلما قام أخذت بلجام دابته فاستفهمته فقال : أتستفهمني ؟ ما استفهمت عالماً قط ، ولا رددت على عالم قط ، ثم جعل ابن مهدي يقول فتلك الطوال وتلك المغازي .

وروى يعقوب بن سفيان عن هشام بن خالد السلامي عن الوليد بن مسلم عن سعيد - يعني ابن عبد العزيز - أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يكتب لبنيه شيئاً من حديثه ، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث ثم خرج على أهل الحديث فحدَّثهم بها ، ثم إن هشاماً قال للزهري : إن ذلك الكتاب ضاع ، فقال : لا عليك ، فأملى عليهم تلك الأحاديث فأخرج هشام الكتاب الأول فاذا هو لم يغادر حرفاً واحداً ، وإنما أراد هشام امتحان حفظه . وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت أحداً أحسن سوقاً للحديث إذا حدث من الزهري . وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً أنصّ للحديث من الزهري ، ولا أهون من الدينار والدرهم عنده ، وما الدراهم والدنانير عند الزهري إلا بمنزلة البعر . قال عمرو بن دينار : ولقد جالست جابراً وابن عباس وابن عمر وابن الزبير فما رأيت أحداً أسيق للحديث من الزهري .

وقال الامام أحمد : أحسن الناس حديثاً وأجودهم إسناداً الزهري ، وقال النسائي : أحسن الأسانيد الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي عن رسول الله ﷺ . وقال سعيد عن الزهري : مكثت خمساً وأربعين سنة أختلف من الحجاز الى الشام ، ومن الشام الى الحجاز ، فما كنت أسمع حديثاً أستطرفه . وقال الليث : ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب ، ولو سمعته يحدّث في الترغيب والترهيب لقلت : ما يحسن غير هذا ، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن الأعراب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنّة كان حديثه بدعاً جامعاً ، وكان يقول : اللهمّ إني أسألك من كل خير أحاط به علمك وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك في الدنيا والآخرة . قال الليث : وكان الزهري أسخى من رأيت ، يعطي كل من جاء وسأله ، حتى إذا لم يبق عنده شيء استسلف . وكان يطعم الناس الثريد [1] ويسقيهم العسل ، وكان يستمر على شراب العسل كما يستمر أهل الشراب على شرابهم ، ويقول أسقونا وحدثونا ، فاذا نعس أحدهم يقول له : ما أنت من سمّار قريش ، وكانت له قبة

(١) الثريد : طعام من خبز تفتّه وتبلّه بالمرق .

معصفرة (١) وعليه ملحفة معصفرة ، وتحته بساط معصفر ، وقال الليث قال يحيى بن سعيد : ما بقي عند أحد من العلم ما بقي عند ابن شهاب .

وقال عبد الرزاق : أنبأ معمر قال قال عمر بن عبد العزيز : عليكم بابن شهاب فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه ، وكذا قال مكحول . وقال أيوب : ما رأيت أحداً أعلم من الزهري ، فقيل له : ولا الحسن ؟ فقال : ما رأيت أعلم من الزهري ، وقيل لمكحول : من أعلم من لقيت ؟ قال : الزهري ، قيل : ثم من ؟ قال الزهري ، قيل ثم من ؟ قال الزهري . وقال مالك : كان الزهري إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحداً حتى يخرج . وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة : محدثو أهل الحجاز ثلاثة : الزهري ويحيى بن سعيد وابن جريج . وقال علي بن المديني : الذين أفتوا أربعة ، الزهري ، والحكم ، وحماد وقتادة ، والزهري أفقههم عندي . وقال الزهري : ثلاثة إذا كن في القاضي فليس بقاض ، إذا كره الملاوم وأحب المحامد ، وكره العزل . وقال أحمد بن صالح : كان يقال فصحاء زمانهم الزهري وعمر بن عبد العزيز وموسى بن طلحة وعبيد الله ، رحمهم الله . وقال مالك عن الزهري : أنه قال : إن هذا العلم الذي أدب الله به رسول الله ﷺ ، وأدب رسول الله به أمته أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدى إليه ، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل .

وقال محمد بن الحسين عن يونس عن الزهري قال : الاعتصام بالسنة نجاة ، وقال الوليد عن الأوزاعي عن الزهري قال : أمرّوا أحاديث رسول الله ﷺ كما جاءت . وقال محمد بن إسحاق عن الزهري : إن من غوائل(٢) العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه ، وفي رواية أن يترك العالم العمل بالعلم حتى يذهب ، فإن من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه ، ومن غوائله النسيان والكذب ، وهو أشد الغوائل ، وقال أبو زرعة عن نعيم بن حماد عن محمد بن ثور عن معمر عن الزهري قال : القراءة على العالم والسماع عليه سواء إن شاء الله تعالى .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال : إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب ، وقد قضى عنه هشام مرة ثمانين ألف درهم ، وفي رواية سبعة عشر ألفاً ، وفي رواية عشرين ألفا . وقال الشافعي : عتب رجاء بن حيوة على الزهري في الإسراف وكان يستدين ، فقال له : لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانيك ، قال : فوعده الزهري أن يقصر ، فمر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل ، فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر ما هذا بالذي فارقتنا عليه ، فقال له الزهري : انزل فان السخي لا تؤدبه التجارب . وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

---

(١) معصفرة : مصبوغة باللون الأصفر .

(٢) غوائل : الدواهي والمهالك .

لـهُ سحـائبَ جـودٍ فـي أنـامـلهِ أمـطارهـا الفضـةُ البيضـاءُ والـذهبُ
يقـولَ في العسـر إن أيْسـرتَ ثـانيـةٍ أقصرتَ عن بعضِ ما أعطي وما أهبُ
حـتـى إذا عـادَ أيـامَ الـيـسـارِ لـهُ رأيتُ أمـوالـهُ في الـنـاسِ تنتهـبُ

وقال الواقدي : ولد الزهري سنة ثمان وخمسين ، وقدم في سنة أربع وعشرين ومـائة إلى أمواله بثلاث بشعب زبدا ، فأقام بها فمرض هناك ومات وأوصى أن يدفن على قارعـة الطريق ، وكانت وفاتـه لسبع عشـرة من رمضان في هـذه السنة ، وهـو ابن خمس وسبعين سنة ، قـالوا : وكان ثقة كثير الحديث والعلم والرواية ، فقيها جامعاً ، وقال الحسين بن المتوكل العسقـلاني : رأيت قبر الزهري بشعب زَبدا من فلسطين مسنماً مجصصاً ، وقد وقف الأوزاعي يوماً على قبـره فقـال : يا قبـركم فيك من علم ومن حلم * يـا قبـركم فيـك من علم ومن كـرم * وكم جمعت روايات وأحكاماً . وقال الزبير بن بكار : توفي الزهري باموالـه بشعب ثنين ، ليلة الثلاثـاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنـة أربع وعشـرين ومـائـة ، عن اثنتين وسبعين سنـة ، ودفن على قارعة الطريق ليدعو له المارة ، وقيل إنه توفي سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وقال أبو معشر : سنة خمس وعشرين ومائة ، والصحيح الأول والله أعلم .

فصـــل

وروى الـطبراني عن إسحـاق بن إبراهيم حـدّثنـا عبـد الـرزاق عن معمـر قـال : أخبـرني صالح بن كيسان قال : اجتمعت أنـا والزهـري ونحن نطلب العلم فقلنـا : نحن نكتب السنن ، فكتبنا ما جاء عن النبي ﷺ ، ثم قال لي : هلم فلنكتب ما جاء عن أصحابه فانه سنة ، فقلت : إنـه ليس بسنة فـلا نكتبـه قال : فكتب مـا جـاء عنهم ولم أكتب ، فـأنجـح وضيعت . وروى الإمام أحمد عن معمر قال : كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل الوليد ، فإذا الدفاتر قد حملت على الـدواب من خزانتـه يقول : من علم الـزهري . وروى عن الليث بن سعـد قـال : وضـع الطست بين يـدي ابن شهاب فتـذكر حـديثاً فلم تـزل يده في الـطست حتى طلع الفجـر وصححه . وروى اصبغ بن الفرج عن ابن وهب عن يونس عن الـزهري قـال : للعمل وادٍ فـإذا هبطت واديه فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه ، فانك لا تقطعه حتى يقطع بك .

وقال الطبـراني : حدّثنـا أحمد بن يحيى تغلب حـدّثنا الـزبير بن بكـار حدّثني محمـد بن الحسن بن زبالة عن مالك بن أنس عن الزهري قال : خدمت عبيد الله بن عتبة ، حتى أن كـان خادمه ليخرج فيقول : من بالباب ؟ فتقـول الجاريـة : غلامـك الأعيمش : فتظن أني غـلامه ، وإن كنت لأخـدمه حتى أستقي لـه وضوءه . وروى عبـد الله بن أحمـد عن محمـد بن عبـاد عن الثوري عن مالك بن أنس أراه عن الزهري . قال : تبعث سعيد بن المسيب ثلاثة أيام في طلب حديث . وروى الأوزاعي عن الزهري قال : كنـا نأتي العـالم فما نتعلم من أدبـه أحب إلينا من

علمه . وقال سفيان : كان الزهري يقول حدّثني فلان ، وكان من أوعية العلم ، ولا يقول كان عالماً . وقال مالك : أول من دوَّن العلم ابن شهاب . وقال أبو المليح : كان هشام هو الذي أكره الزهري على كتابة الحديث ، فكان الناس يكتبون بعد ذلك . وقال رشيد بن سعد قال الزهري : العلم خزائن وتفتحها المسائل . وقال الزهري : كان يصطاد العلم بالمسألة كما يصاد الوحش . وكان ابن شهاب ينزل بالأعراب يعلمهم لئلا ينسى العلم ، وقال : إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة . وقال : إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة غلبك ولم تظفر منه بشيء ، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به . وقال : ما أحدث الناس مروءة أعجب إلي من الفصاحة . وقال : العلم ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال ويكرهه مؤنثوهم . ومر الزهري على أبي حازم وهو يقول : قال رسول الله ﷺ ، فقال : مالي أرى أحاديث ليس لها خطم ولا أزمة ؟ . وقال : ما عبد الله بشيء أفضل من العلم .

وقال ابن مسلم أبي عاصم : حدّثنا دحيم حدّثنا الوليد بن مسلم عن القاسم بن هزان أنه سمع الزهري يقول : لا يوثق الناس علم عالم لا يعمل به ، ولا يؤمن بقول عالم لا يرضى . وقال ضمرة عن يونس عن الزهري قال : إياك وغلول[1] الكتب ، قلت : وما غلولها ؟ قال : حبسها عن أهلها . وروى الشافعي عن الزهري قال : حضور المجلس بلا نسخة ذل . وروى الأصمعي عن مالك بن أنس عن ابن شهاب قال : جلست إلى ثعلبة بن أبي معين فقال : أراك تحب العلم ؟ قلت : نعم ، قال : فعليك بذاك الشيخ ـ يعني سعيد بن المسيب ـ قال : فلزمت سعيداً سبع سنين ثم تحولت عنه إلى عروة ففجرت ثبج بحره . وقال الليث : قال ابن شهاب : ما صبر أحد على العلم صبري ، وما نشره أحد قط نشري ، فأما عروة بن الزبير فبئر لا تكدره الدلاء [2] ، وأما ابن المسيب فانتصب للناس فذهب اسمه كل مذهب . وقال مكي بن عبدان : حدّثنا محمد بن عبد العزيز بن عبد الله الأوسي حدّثنا مالك بن أنس أن ابن شهاب سأله بعض بني أمية عن سعيد بن المسيب فذكر علمه بخير وأخبره بحاله ، فبلغ ذلك سعيداً فلما قدم ابن شهاب المدينة جاء فسلَّمَ على سعيد فلم يرد عليه ولم يكلمه ، فلما انصرف سعيد مشى الزهري معه فقال : مالي سلمت عليك فلم تكلمني ؟ ماذا بلغك عني وما قلت إلا خيراً ؟ . قال له : ذكرتني لبني مروان ؟ . وقال أبو حاتم : حدّثنا مكي بن عبدان حدّثنا محمد بن يحيى حدّثني عطاف بن خالد المخزومي عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة عن ابن شهاب قال : أصاب أهل المدينة حاجة زمان فتنة عبد الملك بن مروان ، فعمت أهل البلد، وقد خيِّل إليَّ أنه قد أصابنا أهل البيت من ذلك ما لم يصب أحداً من أهل البلد ، وذلك لخبرتي بأهلي ، فتذكرت : هل من أحد أمت إليه برحم أو مودة أرجو إن خرجت إليه أن أصيب عنده شيئاً ؟ فما

(١) وغلول : أطواق من حديد أو جلد لحبس الشيء .

(٢) الدلاء : مفردها الدلو ما يُسْتَقَى به .

علمت من أحد أخرج إليه ، ثم قلت : إن الرزق بيد الله عز وجل ، ثم خرجت حتى قدمت دمشق فوضعت رجلي ثم أتيت المسجد فنظرت إلى أعظم حلقة رأيتها وأكبرها فجلست فيها ، فبينا نحن على ذلك إذ خرج رجل من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، كأجسم الرجال وأجملهم وأحسنهم هيئة ، فجاء إلى المجلس الذي أنا فيه فتحثحثوا[1] له - أي أوسعوا - فجلس فقال : لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله منذ استخلفه الله ، قالوا : ما هو؟ قال : كتب إليه عامله على المدينة هشام بن إسماعيل يذكر أن ابنا لمصعب بن الزبير من أم ولد مات ، فأرادت أمه أن تأخذ ميراثاً منه فمنعها عروة بن الزبير ، وزعم أنه لا ميراث لها ، فتوهم أمير المؤمنين حديثاً في ذلك سمعه من سعيد بن المسيب يذكر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في أمهات الأولاد ، ولا يحفظه الآن ، وقد شذ عنه ذلك الحديث . قال ابن شهاب فقلت : أنا أحدثه به ، فقام إلى قبيصة حتى أخذ بيدي ثم خرج حتى دخل الدار على عبد الملك فقال السلام عليك ، فقال له عبد الملك مجيباً ، وعليك السلام . فقال قبيصة : أندخل ؟ فقال عبد الملك أدخل ، فدخل قبيصة على عبد الملك وهو آخذ بيدي وقال : هذا يا أمير المؤمنين يحدثك بالحديث الذي سمعته من ابن المسيب في أمهات الأولاد . فقال عبد الملك : إيه ، قال الزهري فقلت : سمعت سعيد بن المسيب يذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بأمهات الأولاد أن يقوّمن في أموال أبنائهن بقيمة عدل ثم يعتقن ، فكتب عمر بذلك صدراً من خلافته ، ثم توفي رجل من قريش كان له ابن من أم ولد ، وقد كان عمر يعجب بذلك الغلام ، فمرّ ذلك الغلام على عمر في المسجد بعد وفاة أبيه بليال ، فقال له عمر : ما فعلت يا ابن أخي في أمك ؟ قال : فعلت يا أمير المؤمنين خيراً ، خيَّروني بين أن يسترقوا أمي فقال عمر : أو لست إنما أمرت في ذلك بقيمة عدل ؟ ما أرى رأياً وما أمرت بأمر إلا قلتم فيه ، ثم قام فجلس على المنبر فاجتمع الناس إليه حتى إذا رضي من جماعتهم قال : أيها الناس ! إني قد كنت أمرت في أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم حدث رأي غير ذلك ، فأيما امرىء كان عنده أم ولد فملكها بيمينه ما عاش ، فإذا مات فهي حرة لا سبيل له عليها .

فقال لي عبد الملك : من أنت ؟ قلت أنا محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب ، فقال : أما والله إن كان أبوك لأباً نعاراً[2] في الفتنة مؤذياً لنا فيها . قال الزهري فقلت : يا أمير المؤمنين قل كما قال العبد الصالح : ﴿ لا تَثْرِيبَ عليكُمُ اليَوْم يَغْفِرُ الله لكُمْ ﴾[3] فقال : أجل : ﴿ لا تَثْرِيبَ عليكُمُ اليومَ يَغْفِرُ الله لَكُمْ ﴾[4] . قال فقلت : يا أمير المؤمنين افرض لي فاني منقطع من الديوان ، فقال : إن بلدك ما فرضنا فيه لأحد منذ كان هذا الأمر . ثم نظر إلى

(١) فتحثحثوا : أوسعوا .
(٢) نعَّاراً: صيَّاحاً .
(٣) و (٤) سورة يوسف ، الآية / ٩٢ .

قبيصة وأنا وهو قائمان بين يديه ، فكأنـه أومأ إليـه أن افرض لـه ، فقال : قـد فرض إليـك أمير المؤمنين ، فقلت : إني والله ما خرجت من عنـد أهلي إلا وهم في شدة وحـاجة مـا يعلمها إلا الله ، وقـد عمَّت الحاجـة أهل البلد . قـال : قد وصلك أميـر المؤمنين . قال قلت : يـا أميـر المؤمنين وخادم يخدمنا ، فإن أهلي ليس لهم خادم إلا أختي ، فإنها الآن تعجن وتخبز وتطحن قال : قد أخدمك امير المؤمنين .

وروى الأوزاعي عن الـزهري أنـه روى أن رسول الله ﷺ قـال : « لا يزني الـزاني حين يـزني وهـو مؤمن » . فقلت للزهـري : مـا هـذا ؟ فقـال : من الله العلم ، وعلى رسـولـه البلاغ ، وعلينا التسليم ، أمرّوا أحاديث رسول الله ﷺ كما جـاءت . وعن ابن أخي ابن شهاب عن عمه قال : كان عمر بن الخطاب يأمر برواية قصيدة لبيد بن ربيعة التي يقول فيها:

إن تـقـوى ربـنـا خـيـرُ نَـفَـلْ ... وبـإذنِ الله ريـثـي والـعـجـلْ
أحـمـدِ الله فـلا نـدَّ لـه ... بيـديـهِ الخيـرُ مـا شـاء فعـلْ
من هـداهُ سبلَ الخيـرِ اهتـدى ... نـاعـمَ البـالِ ومـن شـاءَ أضـلْ

وقال الزهـري : دخلت عليّ عبيد الله بن عبـد الله بن عتبة منـزله فـإذا هو مغتـاظ ينفخ ، فقلت : مالي أراك هكذا ؟ فقـال : دخلت على أميركم آنفـاً ـ يعني عمر بن عبـد العزيـز ـ ومعه عبد الله بن عمرو بن عثمان فسلمت عليهما فلم يردا عليَّ السلام ، فقلت :

لا تـعجَبـا أن تُؤتـيـا فتـكـلمـا ... فمـا حشى الأقـوامَ شـراً من الكِبْـرِ
ومسّـا ترابَ الأرضِ مِنـهُ خُلِقْتمـا ... وفيهـا المعادُ والمصيـرُ الى الحشْـرِ

فقلت : يـرحمـك الله !! مثلك في فقهـكَ وفضلك وسنـك تقـول الشعـر ؟ فقـال : إن المصدور إذا نفث برأ . وجاء شيخ إلى الزهري فقال : حدّثني ، فقال : إنك لا تعـرف اللغة ، فقال الشيخ : لعلي أعرفها فقال : فما تقول في قول الشاعر :

صَـريعَ(١) بـدامي يَـرفَـعُ الشربَ رأسـهُ ... وقد ماتَ منـهُ كلُّ عضـوٍ ومفصلِ ؟(٢)

ما المفصل ؟ قال : اللسان ، قال : عد عليَّ أحدثك . وكان الزهري يتمثل كثيراً بهذا :

ذهبَ الشبـابُ فـلا يعـودُ جُمـانـا ... وكـأن مـا قـدْ كـانَ لمْ يـكُ كـانـا
فَـطَوَيْتُ كفي يـا جمـانُ على العصـا ... وكـفي جمـانُ بِـطَيِّهـا حَـدَثـانـا

(١) صريع : قتيل .
(٢) ومفصل : كل ملتقى عظمين من الجسد .

وكان نقش خاتم الزهري : محمد يسأل الله العافية ، وقيل لابن أخي الزهري : هل كان عمك يتطيب ؟ قال : كنت أشم ريح المسك من سوط دابة الزهري . وقال : استكثروا من شيء لا تمسه النار ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وامتدحه رجل مرة فأعطاه قميصه ، فقيل له : أتعطى على كلام الشيطان ؟ فقال : إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر ، وقال سفيان : سُئِلَ الزهري عن الزاهد فقال : من لم يمنع الحلال شكره ، ولم يغلب الحرام صبره . وقال سفيان : قالوا للزهري : لو أنك الآن في آخر عمرك أقمت بالمدينة ، فقعدت إلى مسجد رسول الله ﷺ ، ودرجت وجلسنا إلى عمود من أعمدته فذكرت الناس وعلمتهم ؟ فقال : لو أني فعلت ذلك لوطىء عقبي ، ولا ينبغي لي أن أفعل ذلك حتى أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة . وكان الزهري يحدث أنه هلك في جبال بيت المقدس بضعة وعشرون نبياً ، ماتوا من الجوع والعمل ، كانوا لا يأكلون إلا ما عرفوا ، ولا يلبسون إلا ما عرفوا وكان يقول : العبادة هي الورع والزهد ، والعلم هو الحسنة ، والصبر هو احتمال المكاره ، والدعوة الى الله على العمل الصالح) [1] .

وممن توفي في خلافة هشام بن عبد الملك كما أورده ابن عساكر .

بلال بن سعد

ابن تميم السكوني أبو عمرو ، وكان من الزهاد الكبار ، والعباد الصوام القوام ، روى عن أبيه وكان أبوه له صحبة ، وعن جابر وابن عمر وأبي الدرداء وغيرهم ، وعنه جماعات منهم أبو عمرو الأوزاعي وكان الأوزاعي يكتب عنه ما يفوله من الفوائد العظيمة في قصصه ووعظه ، وقال : ما رأيت واعظاً قط مثله . وقال أيضاً : ما بلغني عن أحد من العبادة ما بلغني عنه ، كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، وقال غيره وهو الأصمعي : كان إذا نعس في ليل الشتاء ألقى نفسه في ثيابه في البركة ، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك فقال : إن ماء البركة أهون من عذاب جهنم . وقال الوليد بن مسلم : كان إذا كبر في المحراب سمعوا تكبيره من الأوزاع . قلت : وهي خارج باب الفراديس ، وقال أحمد بن عبد الله العجلي : هو شامي تابعي ثقة . وقال أبو زرعة الدمشقي : كان أحد العلماء قاصاً حسن القصص ، وقد اتهمه رجاء بن حيوة بالقدر حتى قال بلال يوماً في وعظه : رب مسرور مغرور ، ورب مغرور لا يشعر ، فويل لمن له الويل وهو لا يشعر ، يأكل ويشرب ، ويضحك ، وقد حق عليه في قضاء الله أنه من أهل النار ، فيا ويل لك روحاً ، يا ويل لك جسداً فلتبك ولتبك عليك البواكي لطول الأبد .

وقد ساق ابن عساكر شيئاً حسناً من كلامه في مواعظه البليغة ، فمن ذلك قوله : والله لكفى به ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها ، زاهدكم راغب ، وعالمكم جاهل ،

---

(١) زيادة من المصرية .

ومجتهدكم مقصر ، وقال أيضاً : أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله ، وأخبرك بعيب فيك ، أحب إليك ، وخير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك ديناراً . وقال أيضاً : لا تكن ولياً لله في العلانية وعدوه في السر ولا تكن عدو إبليس والنفس والشهوات في العلانية وصديقهم في السر ، ولا تكن ذا وجهين وذا لسانين فتظهر للناس أنك تخشى الله ليحمدوك وقلبك فاجر . وقال أيضاً : أيها الناس إنكم لم تخلقوا للفناء وإنما خلقتم للبقاء ، ولكنكم تنتقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الجنة أو النار . وقال أيضاً : عبّاد الرحمن إنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال إلى دار مقام ، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، فمن لم يعمل على يقين فلا تنفعن ، عباد الرحمن لو قد غفرت خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون لكم شغلاً ، ولو عملتم بما تعلمون لكان لكم مقتداً وملتجأً ، عباد الرحمن إماماً وكلتم به فتضيعونه ، وأما ما تكفل الله لكم به فتطلبونه ، ما هكذا نعت الله عبادة الموقنين ، أذوو عقول في الدنيا وبله في الآخرة ، وعمي عما خلقتم له بصراء في أمر الدنيا ؟ فكما ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعته ، فكذلك اشفقوا من عذابه بما تنتهكون من معاصيه ، عباد الرحمن ! هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من أعمالكم قد تقبل منكم ؟ أو شيئاً من خطاياكم قد غفر لكم : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أنما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُم إلينا لا تُرْجَعُونَ ﴾[1] والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم ما فرض عليكم . أترغبون في طاعة الله لدار معمورة بالآفات ؟ ولا ترغبون وتنافسون في جنة أكلها دائم وظلها ، وعرضها عرض الأرض والسموات : ﴿ تلكَ عُقْبَى الذِين اتقوا وَعُقْبَىٰ الكَافِرِينَ النَّارَ ﴾[2] وقال أيضاً : الذكر ذكران ذكر الله باللسان حسن جميل ، وذكر الله عندما أحل وحرم أفضل . عباد الرحمن يقال لأحدنا : تحب أن تموت ؟ فيقول : لا ! فيقال له : لم ؟ فيقول : حتى أعمل ، فيقال له : اعمل ، فقول سوف أعمل ، فلا نحب أن تموت ، ولا تحب أن تعمل ، وأحب شيء إليه يحب أن يؤخر عمل الله ، ولا يحب أن يؤخر الله عنه عرض دنياه . عباد الرحمن إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ما سواها ، فما يزال يمينه الشيطان ويزين له حتى ما يرى شيئاً دون الجنة ، مع إقامته على معاصي الله . عباد الرحمن قبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ماذا تريدون بها ، فإن كانت خالصة فامضوها وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً ، فإنه قال : ﴿ إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يُرفعهُ ﴾[3] . وقال أيضاً : إن الله ليس إلى عذابكم بالسريع ،

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية / ١١٦ .

(٢) سورة الرعد ، الآية/٣٥ .

(٣) سورة فاطر ، الآية / ١٠ .

يقبل المقبل ويدعو المدبر ، وقال أيضاً : إذا رأيت الرجل متحرجاً لحوحاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته . وقال الأوزاعي : خرج الناس بدمشق يستسقون فقام بهم بلال بن سعد فقال : يا معشر من حضر ! ألستم مقرين بالاساءة ؟ قالوا : نعم ، فقال : اللهم إنك قلت : ﴿ مَا عَلَىٰ المحسنِينَ مِنْ سبيلٍ ﴾[1] وقد أقررنا بالإساءة فاعف عنا واغفر لنا . قال : فسقوا يومهم ذلك ، وقال أيضاً : سمعته يقول : لقد أدركت أقواماً يشتدون بين الأغراض ، ويضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا جنّهم الليل كانوا رهباناً . وسمعته أيضاً يقول : لا تنظر إلى صغر الذنب وانظر إلى من عصيت . وسمعته يقول : من بادأك بالود فقد استرقك بالشكر . وكان من دعائه : اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب ، ومن تبعات الذنوب ، ومن مرديات الأعمال ومضلات العين . وقال الأوزاعي عنه أنه قال : عباد الرحمن لو أنتم لم تدعوا إلى الله طاعة إلا عملتموها ولا معصية إلا اجتنبتموها ، إلا أنكم تحبون الدنيا لكفاكم ذلك عقوبة عند الله عز وجل ، وقال : إن الله يغفر الذنوب لمن تاب منها ، ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف العبد عليها يوم القيامة .

ترجمة الجعد بن درهم

هو أول من قال بخلق القرآن ، وهو الذي ينسب إليه مروان الجعدي ، وهو مروان الحمار ، آخر خلفاء بني أمية . كان شيخه الجعد بن درهم ، أصله من خراسان ، ويقال إنه من موالي بني مروان ، سكن الجعد دمشق ، وكانت له بها دار بالقرب من القلاسيين الى جانب الكنيسة ، ذكره ابن عساكر . قلت : وهي محلة من الخواصين اليوم غربيها عند حمام القطانين الذي يقال له حمام قلينس . قال ابن عساكر وغيره : وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ، زوج ابنته ، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر رسول الله ﷺ عن يهودي باليمن ، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الخزري ، وقيل الترمذي ، وقد أقام ببلخ ، وكان يصلي مع مقاتل بن سليمان في مسجده ويتناظران ، حتى نفي إلى ترمذ ، ثم قتل الجهم بأصبهان ، وقيل بمرو ، قتله نائبها سَلم بن أحوز رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً وأخذ بشر المريسي عن الجهم ، وأخذ أحمد بن أبي دواد عن بشر ، وأما الجعد فانه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن ، فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة ، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ، ثم إن خالد بن عبد الله القسري قتل الجعد يوم عيد الأضحى بالكوفة ، وذلك أن خالداً خطب الناس فقال في خطبته تلك : أيها الناس ضحّوا يقبل الله ضحاياكم ، فاني مُضحٍ بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً . ولم يكلم

---

(١) سورة التوبة ، الآية/٩١ .

موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه في أصل المنبر .

وقد ذكر هذا غير واحد من الحفّاظ منهم البخاري وابن أبي حاتم والبيهقي وعبد الله بن أحمد وذكره ابن عساكر في التاريخ ، وذكر أنه كان يتردد إلى وهب بن منبه ، وأنه كان كلما راح إلى وهب يغتسل ويقول : أجمع للعقل ، وكان يسأل وهباً عن صفات الله عزّ وجلّ فقال له وهب يوماً : ويلك يا جعد ، أقصِر المسألة عن ذلك ، إني لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يداً ما قلنا ذلك ، وأن له عيناً ما قلنا ذلك ، وأن له نفساً ما قلنا ذلك ، وأن له سمعاً ما قلنا ذلك ، وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك ، ثم لم يلبث الجعد أن صلب ثم قتل . وذكره ابن عساكر ، وذكر في ترجمته أنه قال للحجاج بن يوسف ويروى لعمران بن حطان :

ليثٌ علَيَّ وفي الحروبِ نعامةٌ ... فتخاءُ[1] تَجفلُ من صفيرِ الصافرِ
هلاَّ برزتَ إلى غزالةَ في الوغى ... بلْ كانَ قلبكَ في جناحيْ طائرِ

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدّثنا رزق الله بن موسى ثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب بن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه قال ، قال رسول الله ﷺ :« ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة ، وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن أبي كريب عن ابن أبي فديك عن عبد الملك بن سعيد بن زيد بن نفيل عن مصعب بن مصعب عن الزهري به . قلت : وهذا حديث غريب منكر ، ومصعب بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهري تكلم فيه وضعفه علي بن الحسين بن الجنيد : وكذا تكلم في الراوي عنه أيضاً والله أعلم . وفيها غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفة من بلاد الروم ، وفي ربيع الآخر منها توفي أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان .

ذكر وفاته وترجمته رحمه الله

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقي ، أمير المؤمنين . وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي ، وكانت داره بدمشق عند باب الخواصين ، وبعضها اليوم مدرسة نور الدين الشهيد التي يقال لها النورية الكبيرة ، وتعرف بدار القبابين ـ يعني الذين يبيعون القباب وهي الخيام ـ فكانت تلك المحلة داره والله أعلم . وقد بويع له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك بعهد منه إليه ، وذلك يوم الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة خمس ومائة ، وكان له من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة ،

(١) فتخاء : العُقاب اللينة الجناح .

وكان جميلاً أبيض أحول يخضّب بالسواد ، وهو الرابع من ولد عبد الملك الذين ولوا الخلافة ، وقد كان عبد الملك رأى في المنام كأنه بال في المحراب أربع مرات ، فدسّ إلى سعيد بن المسبب من سأله عنها ففسرها له بأنه يلي الخلافة من ولده أربعة ، فوقع ذلك ، فكان هشام آخرهم ، وكان في خلافته حازم الرأي جماعاً للأموال يبخل ، وكان ذكياً مدبراً له بصر بالأمور جليلها وحقيرها ،وكان فيه حلم وأناة[1] ، شتم مرة رجلاً من الأشراف فقال : أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض ؟ فاستحيا وقال : اقتص مني بدلها أو قال بمثلها ، فقال : إذاً أكون سفيهاً مثلك ، قال فخذ عوضاً قال : لا أفعل ، قال : فاتركها لله ، قال : هي لله ثم لك ، فقال هشام عند ذلك : والله لا أعود إلى مثلها .

وقال الأصمعي : أسمع رجل هشاماً كلاماً فقال لـه : أتقول لي مثـل هذا وأنـا خليفتك ؟ وغضب مرة على رجل فقال له : اسكت وإلا ضربتك سوطاً ، وكان علي بن الحسين قد اقترض من مروان بن الحكم مالاً أربعة آلاف دينار . فلم يتعرض له أحد من بني مروان ، حتى استخلف هشام فقال : ما فعل حقنا قبلك ؟ قال : موفور مشكور ، فقال ! هو لك .

[قلت : هذا الكلام فيه نظر ، ذلك أن علي بن الحسين مات سنة الفقهاء ، وهي سنة أربع وتسعين ، قبل أن يلي هشام الخلافة باحدى عشرة سنة ، فانه إنما ولي الخلافة سنة خمس ومائة ، فقول المؤلف : إن أحداً من خلفاء بني مروان لم يتعرض لمطالبة علي بن الحسين حتى ولي هشام فطالبه بالمال المذكور ، فيه نظر ولا يصح ، لتقدم موت علي على خلافة هشام ، والله سبحـانه وتعالى أعلم] وكان هشام من أكره الناس لسفك الدماء ، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن علي وابنه يحيى أمر شديد وقال : وددت أني افتديتهما بجميع ما أملك . وقال المدائني عن رجل من حيى عن بشر مولى هشام قال : أتى هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط ، فقال : اكسروا الطنبور على رأسه فبكى الشيخ ، قال بشر : فضربه ، قال أتراني أبكي للضرب ، إنما أبكي لاحتقارك البربط حتى سميته طنبوراً ، وأغلظ لهشام رجل يوماً في الكلام فقال : ليس لك أن تقول هذا لإمامك . وتفقد أحد ولده يوم الجمعة فبعث إليه مالك لم تشهد الجمعة ؟ فقال : إن بغلتي عجزت عني ، فبعث إليه أما كان يمكنك المشي ، ومنعه أن يركب سنة ، وأن يشهد الجمعة ماشياً .

وذكر المدائني أن رجلاً أهدى إلى هشام طيرين فأوردهما السفير إلى هشام ، وهو جالس على سرير في وسط داره ، فقال له : أرسلهما في الدار ، فأرسلهما ، ثم قال : جائزتي يا أمير المؤمنين فقال : ويحك وما جائزتك على هدية طيرين ؟ خذ أحدهما ، فجعل الرجل يسعى خلف أحدهما ، فقال : ويحك ما بالك ؟ فقال أختار أجودهما : قال : وتختار أيضاً الجيد وتترك الرديء ؟ ثم أمر له بأربعين أو خمسين درهما . وذكر المدائني عن محرم ، كاتب يوسف بن عمر . قال : بعثني يوسف

---

(١) وأناة : الانتظار والتمهل . الوقار والحلم .

إلى هشام بياقوتة حمراء ولؤلؤة كانتا لرابعة ، جارية خالد بن عبد الله القسري ، مشترى الياقوتة ثلاثة وسبعون ألف دينار ، قال : فدخلت عليه وهو على سرير فوقه فرش لم أرَ رأس هشام من علو تلك الفرش ، فأوريتها له ، فقال : كم زنتها ؟ فقلت : إن مثل هذه لا مثل لها ، فسكت . قالوا : ورأى قوماً يفرطون الزيتون فقال القطوه لقطاً ولا تنفضوه نفضاً ، فتفقأ عيونه وتنكسر غصونه ، وكان يقول : ثلاثة لا يضعن الشريف : تعاهد الصنيعة ، وإصلاح المعيشة ، وطلب الحق وإن قلّ . وقال أبو بكر الخرائطي : يقال إن هشاماً لم يقل من الشعر سوى هذا البيت :

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى ... إلى كـلِ مـا فيـهِ عـليـكَ مـقـالُ

وقد روى له شعر غير هذا ، وقال المدائني عن ابن يسار الأعرجي حدّثني ابن أبي بجيلة عن عقال بن شبة قال : دخلت على هشام وعليه قباء فتك أخضر ، فوجهني إلى خراسان ، ثم جعل يوصيني وأنا أنظر الى القباء ، ففطن فقال : ما لك ؟ قلت : عليك قباء فتك أخضر ، [وكنت رأيت عليك مثله][1] قبل أن تلي الخلافة ، فجعلت أتأمل هذا هو ذاك أم غيره ، قال : والله الذي لا إله غيره هو ذاك ما لي قباء غيره ، وما ترون من جمعي لهذا المال وصونه إلا لكم . قال عقال : وكان هشام محشواً بخلاً .

وقال عبد الله بن عليّ عم السفاح : جمعت دواوين بني أمية فلم أرَ أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام . وقال المدائني عن هشام بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بني مروان أشد نظراً في أصحابه ودواوينه ، ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام ، وهو الذي قتل غيلان القدري ، ولما أحضر بين يديه قال له : ويحك قل ما عندك ، إن كان حقاً اتبعناه ، وإن كان باطلاً رجعت عنه ، فناظره ميمون بن مهران فقال لميمون أشياء فقال له : أيعصى الله كارهاً ؟ فسكت غيلان فقيده حينئذ هشام وقتله . وقال الأصمعي عن أبي الزناد عن منذر بن أبي وقال : أصبنا في خزائن هشام اثني عشر ألف قميص كلها قد أثر بها . وشكى هشام الى أبيه ثلاثاإحداها أنه يهاب الصعود الى المنبر ، والثانية قلة تناول الطعام ، والثالثة أن عنده في القصر مائة جارية من حسان النساء لا يكاد يصل الى واحدة منهن . فكتب إليه أبوه : أما صعودك إلى المنبر فاذا علوت فوقه فارمِ ببصرك الى مؤخر الناس فانه أهون عليك ، وأما قلة الطعام فمُرْ الطباخ فليكثر الألوان فعلك أن تتناول من كل لون لقمة ، وعليك بكل بيضاء بضة [2] ، ذات جمال وحسن . وقال أبو عبد الله الشافعي : لما بنى هشام بن عبد الملك الرصافة قال : أحب أن أخلو بها يوماً لا يأتيني فيه خبر غم [3] ، فما انتصف النهار حتى أتته ريشة دم من بعض الثغور ، فقال : ولا يوماً واحداً ؟! وقال سفيان بن عيينة : كان

---

(١) زيادة من المصرية .

(٢) بضّة : رقيقة الجلد ناعمه في سِمَن .

(٣) غم : حزن وكرب .

هشام لا يكتب إليه بكتاب فيه ذكر الموت . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ثنا حسين بن زيد عن شهاب بن عبد ربه عن عمر بن علي قال : مشيت مع محمد بن علي - يعني ابن الحسين بن علي بن أبي طالب - إلى داره عند الحمام فقلت له : إنه قد طال ملك هشام وسلطانه ، وقد قرب من العشرين سنة ، وقد زعم الناس أن سليمان سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد بعده ، فزعم الناس أنها العشرون ، فقال : ما أدري ما أحاديث الناس ، ولكن أبي حدّثني عن أبيه عن علي عن النبي ﷺ قال : « لن يعمّر الله ملكاً في أمة نبي مضى قبله ما بلغ ذلك النبي من العمر في أمته ، فان الله عمر نبيه ﷺ ثلاث عشرة سنة بمكة وعشراً بالمدينة » . وقال ابن أبي خيثمة : ليس حديث فيه توقيت غير هذا ، قرأه يحيى بن معين على كتابي فقال : من حدّثك به ؟ فقلت : إبراهيم ، فتلهف أن لا يكون سمعه ، وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن أحمد بن زهير عن إبراهيم بن المنذر الحزامي . وروى مسلم بن إبراهيم ثنا القاسم بن الفضل حدّثني عباد بن المعرا الفتكي [1] عن عاصم بن المنذر بن الزبير عن عبد الله بن الزبير أنه سمع علياً يقول : هلاك ملك بني أمية على رجل أحوَل - يعني هشاماً - .

وروى أبو بكر بْن أبي الدنيا عن عمر بن أبي معاذ النميري عن أبيه عن عمرو بن كليع عن سالم كاتب هشام بن عبد الملك : قال خرج علينا يوماً هشام وعليه كآبة وقد ظهر [عليه] الحزن ، فاستدعى الأبرش بن الوليد فجاءه فقال : يا أمير المؤمنين ما لي أراك هكذا ؟ فقال : ما لي لا أكون وقد زعم أهل العلم بالنجوم أني أموت الى ثلاث وثلاثين من يومي هذا . قال : فكتبنا ذلك ، فلما كان آخر ليلة من ذلك جاءني رسوله في الليل يقول : احضر معك دواء للذبحة ، وكان قد أصابته قبل ذلك ، فاستعمل منه فعُوفي ، فذهبت إليه ومعي ذلك الدواء فتناوله وهو في وجع شديد ، واستمر فيه عامة الليل ، ثم قال : يا سالم اذهب الى منزلك فقد وجدت خفة وذر الدواء عندي ، فذهبت فما هو إلا أن وصلت الى منزلي حتى سمعت الصياح عليه ، فجئت فاذا هو قد مات .

وذكر غيره أن هشاماً نظر إلى أولاده يبكون حوله فقال : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ما جمع ، وتركتم له ما كسب ، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له . ولما مات جاءت الخزنة فختموا على حواصله وأرادوا تسخين الماء فلم يقدروا له على فحم حتى استعاروا له ، وكان نقش خاتمه الحكم للحكم الحكيم . وكانت وفاته بالرصافة يوم الاربعاء لست بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو ابن بضع وخمسين سنة ، وقيل إنه جاوز الستين ، وصلى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذي ولي الخلافة بعده ، وكانت خلافة هشام تسع عشرة سنة وسبعة أشهر واحدَ عشر يوماً ، وقيل ثمانية أشهر وأيام فالله أعلم .

وقال ابن أبي فديك : ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد

---

(١) كذا بالأصل .

الرحمن عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة » . قال ابن أبي فديك : زينتها نور الاسلام وبهجته ، وقال غيره - يعني الرجال - والله أعلم .

قلت : لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بني أمية ، وتولى وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحواً من سبع سنين ، ولكن في اختلاف وهيج ، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة كما سيأتي إن شاء الله تعالى ذلك مبسوطاً مقدراً في مواضع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

بحمد الله قد تم الجزء التاسع من البداية والنهاية ويليه الجزء العاشر
وأوله خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

فهرس الجزء التاسع
من البداية والنهاية

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

البداية والنهاية

تأليف

أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هجرية

دقق أصوله وحققه

دكتور أحمد أبو ملحم
دكتور علي نجيب عطوي
الأستاذ فؤاد السيد
الاستاذ مهدي ناصر الدين
الأستاذ علي عبد الساتر

الجزء العاشر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

قال الواقدي : بويع له بالخلافة يوم مات عمه هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة . وقال هشام بن الكلبي : بويع له يوم السبت في ربيع الآخر ، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة . وكان سبب ولايته أن أباه يزيد بن عبد الملك كان قد جعل الأمر من بعده لأخيه هشام ثم من بعده لولده الوليد هذا ، فلما ولي هشام أكرم ابن أخيه الوليد حتى ظهر عليه أمر الشراب وخلطاء السوء ومجالس اللهو ، فأراد هشام أن يقطع ذلك عنه فأمَّره على الحج سنة ست عشرة ومائة ، فأخذ معه كلاب الصيد خفية من عمه ، حتى يقال إنه جعلها في صناديق فسقط منها صندوق فيه كلب فسمع صوته فاحالوا ذلك على الجمال فضرب على ذلك . قالوا : واصطنع الوليد قبة على قدر الكعبة ، ومن عزمه أن ينصب تلك القبة فوق سطح الكعبة ويجلس هو وأصحابه هنالك ، واستصحب معه الخمور وآلات الملاهي وغير ذلك من المنكرات ، فلما وصل إلى مكة هاب أن يفعل ما كان قد عزم عليه ، من الجلوس فوق ظهر الكعبة خوفاً من الناس ومن إنكارهم عليه ذلك ، فلما تحقق عمه ذلك منه نهاه مراراً فلم ينته ، واستمر على حاله القبيح ، وعلى فعله الرديء ، فعزم عمه على خلعه من الخلافة ـ وليته فعل ـ وأن يولي بعده مسلمة بن هشام ، وأجابه إلى ذلك جماعة من الامراء ، ومن أخواله ، ومن أهل المدينة ومن غيرهم ، وليت ذلك تم . ولكن لم ينتظم حتى قال هشام يوماً للوليد : ويحك ! والله ما أدري أعَلَى الأسلام أنت أم لا ، فانك لم تدع شيئاً من المنكرات إلا أتيته غير متحاش ولا مستتر . فكتب إليه الوليد :

يا أيُّها السائلُ عنْ ديننا ... ديني على دينِ أبي شاكرِ
نشربها صِرفاً وممزوجةً ... بالسخن أحياناً وبالفاترِ

فغضب هشام على ابنه مسلمة ، وكان يسمى أبا شاكر ، وقال له : تشبه الوليد بن يزيد وأنا أريد أن أرقيك إلى الخلافة ، وبعثه على الموسم سنة تسع عشرة ومائة فأظهر النسك والوقار ،

وقسم بمكة والمدينة أموالا ، فقال مولى لأهل المدينة .

يـا أيُّهـا السـائـلُ عنْ ديننـا　　نـحنُ عـلى ديـنِ أبـى شـاكـرِ
الـواهبِ الجـردَ بـأرسـانهـا　　لـيسَ بـزنـديـق ولا كـافـرِ

ووقعت بين هشام وبين الوليد بن يزيد وحشة عظيمة بسبب تعاطي الوليد ما كان يتعاطاه من الفواحش والمنكرات ، فتنكر له هشام وعزم على خلعه وتولية ولده مسلمة ولاية العهد ، ففر منه الوليد إلى الصحراء ، وجعلا يتراسلان بأقبح المراسلات ، وجعل هشام يتوعده وعيداً شديداً ، ويتهدده ، ولم يزل كذلك حتى مات هشام والوليد في البـرية ، فلمـا كانت الليلة التي قـدم في صبيحتها عليه البرد بالخلافة ، قلق الوليد تلك الليلة قلقاً شديداً ، وقال لبعض اصحابه : ويحك قد أخذني الليلة قلق عظيم فاركب لعلنا نبسط ، فسارا ميلين يتكلمان في هشام وما يتعلق به ، من كتبه إليه بالتهديد والوعيد ،ثم زأيا من بعد رهجاً (١) وأصواتاً وغباراً ، ثم انكشف ذلك عن بـرد يقصدونه بالولاية ، فقال لصاحبه : ويحـك ! إن هذه رسـل هشام ، اللهم اعـطنا خيـرها ، فلمـا اقتربت البرد منه وتبينوه ترجلوا إلى الارض وجاؤا فسلموا عليه بالخلافة ، فبهت وقال : ويحكم أمات هشام ؟ قالوا : نعم ، قال : فمن بعثكم ؟ قالـوا : سالم بن عبـد الرحمن صـاحب ديوان الرسائل، وأعطوه الكتاب فقرأه ثم سألهم عن أحوال الناس وكيف مات عمه هشام ، فأخبروه . فكتب من فوره بالاحتياط على أموال هشام وحواصله بالرصافة وقال :

ليتَ هشـامـاً عـاشَ حتى يـرى　　مكيـالَـهُ الأوفـرَ قـد طُبّعـا
كلنـاهُ بـالصـاعِ الـذي كـالـهُ　　ومـا ظـلمـنـاهُ بـه إصـبـعـا
ومـا أتـينـا ذاكَ عـن بـدعـةٍ　　أحـلَّه الفـرقـانُ لـي أجمـعـا

وقد كان الزهري يحث هشاماً على خلع الوليد هذا ويستنهضه في ذلك ، فيحجم هشام عن ذلك خوف الفضيحة من الناس ، ولئلا تتنكر قلوب الأجناد من أجل ذلك ، وكان الوليد يفهم ذلك من الزهري ويبغضه ويتوعده ويتهدده ، فيقول له الزهري : ما كان الله ليسلطك عليَّ يا فاسق ، ثم مات الزهري قبل ولاية الوليد ، ثم فر الـوليد من عمـه إلى البريـة فلم يزل بهـا حتى مات ، فاحتاط على أموال عمه ثم ركب من فوره من البرية وقصد دمشق ، واستعمل العمال وجاءته البيعة من الآفاق ، وجاءته الوفود ، وكتب إليه مروان بن محمد ـ وهو إذ ذاك نائب أرمينية ـ يبارك له في خلافة الله له على عباده والتمكين في بلاده ، ويهنئه بموت هشام وظفره به ، والتحكم في أمواله وحواصله ، ويذكر له أنه جدد البيعة له في بلاده ، وأنهم فرحوا واستبشروا بذلك ، ولولا خوفه من الثغر لاستنـاب عليه وركب بنفسه شوقاً إلى رؤ يته ، ورغبة في مشافهته ، ثم إن الوليد سـار في

---

(١) رهجاً : فتنة وشغباً .

الناس سيرة حسنة بادى الرأي وأمر باعطاء الزمنى[1] والمجذومين[2] والعميان لكل إنسان خادماً ، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين ، وزاد في أعطيات الناس ، ولا سيما أهل الشام والوفود ، وكان كريماً ممدحاً شاعراً مجيداً ، لا يسأل شيئاً قط فيقول لا ، ومن شعره قوله يمدح نفسه بالكرم :

ضمنتُ لكم إنْ لم تعقني عوائقٌ   بـأن سمـاءَ الضرِ عنكم ستقلعُ
سيـوشـكُ الحـاقٌ معـاً وزيـادةٌ   وأعـطيـه مـني إليكـمْ تبـرّعُ
محـرَّمكمْ ديـوانكمْ وعـطاؤ كمْ   بـهِ يكتبُ الكتّابُ شهـراً وتطبعُ

وفي هذه السنة عقد الوليد البيعة لابنه الحكم ثم عثمان ، على أن يكونا وليي العهد من بعده ، وبعث البيعة إلى يوسف بن عمر أمير العراق وخراسان ، فأرسلها إلى نائب خراسان نصر ابن سيار ، فخطب بذلك نصر خطبة عظيمة بليغة طويلة ، ساقها ابن جرير بكمالها ، واستوثق للوليد الممالك في المشارق والمغارب ، وأخذت البيعة لولديه من بعده في الآفاق ، وكتب الوليد إلى نصر بن سيار بالاستقلال بولاية خراسان ، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فسأله أن يرد إليه ولاية خراسان فردها إليه كما كانت في أيام هشام ، وأن يكون نصر بن سيار ونوابه من تحت يده ، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يستوفده إلى أمير المؤمنين بأهله وعياله ، وأن يكثر من استصحاب الهدايا والتحف . فحمل نصر بن سيار ألف مملوك على الخيل ، وألف وصيفة[3] وشيئاً كثيراً من أباريق الفضة والذهب ، وغير ذلك من التحف ، وكتب إليه الوليد يستحثه سريعاً ويطلب منه أن يحمل معه طنابير وبرابط ومغنيات وبازات وبراذين[4] فره ، وغير ذلك من آلات الطرب والفسق ، فكره الناس ذلك منه وكرهوه . وقال المنجمون لنصر بن سيار : إن الفتنة قريباً ستقع بالشام ، فجعل يتثاقل في سيره ، فلما أن كان ببعض الطريق جاءته البرد فأخبروه بأن الخليفة الوليد قد قتل وهاجت الفتنة العظيمة في الناس بالشام ، فعدل بما معه إلى بعض المدن فأقام بها ، وبلغه أن يوسف بن عمر قد هرب من العراق واضطربت الأمور ، وذلك بسبب قتل الخليفة على ما سنذكره ، وبالله المستعان .

وفي هذه السنة ولى الوليد يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي ولاية المدينة ومكة والطائف ، وأمره أن يقيم إبراهيم ومحمداً ابني هشام بن إسماعيل المخزومي بالمدينة مهانين لكونهما خالي هشام ، ثم يبعث بهما إلى يوسف بن عمر نائب العراق فبعثهما إليه . فما زال

---

(١) الزمنى : الذين أصيبوا بمرض مزمن .
(٢) المجذومين : المقطوعة أطرافهم .
(٣) وصيفة : الفتاة دون المراهقة .
(٤) براذين : مفردها برذون والبردون : دابّة الحمل الثقيلة .

يعذبهما حتى ماتا وأخذ منهما أموالا كثيرة . وفي هذه السنة ولي يوسف بن محمد بن يحيى بن سعيد الانصاري قضاء المدينة ، وفيها بعث الوليد بن يزيد إلى أهل قبرص جيشاً مع أخيه وقال : خيِّرهم فمن شاء أن يتحول إلى الشام ، ومن شاء أن يتحول إلى الروم ، فكان منهم من اختار جوار المسلمين بالشام ، ومنهم من انتقل إلى بلاد الروم .

قال ابن جرير : وفيها قدم سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم ولاهز بن قريظ وقحطبة بن شبيب فلقوا ـ في قول بعض أهل السير ـ محمد بن علي فأخبروه بقصة أبي مسلم فقال : أحر هو أم لا ؟ فقالوا : أما هو فيزعم أنه حر ، وأما مولاه فيزعم أنه عبده ، فاشتروه فأعتقوه ، ودفعوا إلى محمد بن علي مائتي ألف درهم وكسوة بثلاثين ألفا ، وقال لهم : لعلكم لا تلقوني بعد عامكم هذا ، فإن مت فإن صاحبكم إبراهيم بن محمد ـ يعني ابنه ـ فأنه ابني ، فأوصيكم به . وَمات محمد بن علي في مستهل ذي القعدة في هذه السنة بعد أبيه بسبع سنين . وفيها قتل يحيى بن زيد ابن علي بخراسان . وحج بالناس فيها يوسف بن محمد الثقفي أمير مكة والمدينة والطائف . وأمير العراق يوسف بن عمر ، وأمير خراسان نصر بن سيار ، وهو في همة الوفود إلى الوليد بن يزيد أمير المؤمنين بما معه من الهدايا والتحف ، فقتل الوليد قبل أن يجتمع به . وممن توفي فيها من الأعيان :

محمد بن علي

ابن عبد الله بن عباس أبو عبد الله المدني ، وهو أبو السفاح والمنصور ، روى عن أبيه وجده وسعيد بن جبير وجماعة ، وحدث عنه جماعة منهم ابناه الخليفتان ، أبو العباس عبد الله السفاح ، وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وقد كان عبد الله بن محمد بن الحنفية أوصى إليه بالأمر من بعده وكان عنده علم بالأخبار ، فبشره بأن الخلافة ستكون في ولدك ، فدعا إلى نفسه في سنة سبع وثمانين ، ولم يزل أمره يتزايد حتى توفي في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها ، عن ثلاث وستين سنة ، وكان من أحسن الناس شكلاً ، فأوصى بالأمر من بعده لولده إبراهيم ، فما أبرم الأمر إلا لولده السفاح ، فاستلب من بني أمية الأمر في سنة ثنتين وثلاثين كما سيأتي .

وأما يحيى بن يزيد

ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فإنه لما قتل أبوه زيد في سنة إحدى وعشرين ومائة ، لم يزل يحيى مختفياً في خراسان عند الحريش بن عمرو بن داود ببلخ ، حتى مات هشام ، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى بن زيد ، فكتب نصر بن سيار إلى نائب بلخ مع عقيل بن معقل العجلي ، فأحضر الحريش فعاقبه ستمائة سوط فلم يدل عليه ، حاء ولد الحريش فدلهم عليه فجلس ، فكتب نصر بن سيار إلى يوسف بذلك ، فبعث إلى

الوليد بن يزيد يخبره بذلك ، فكتب الوليد إلى نصر بن سيار يأمره باطلاقه من السجن وإرساله إلى صحبة أصحابه ، فأطلقهم وأطلق لهم وجهزهم إلى دمشق ، فلما كانوا ببعض الطريق توسم نصر منه غدراً ، فبعث إليه جيشاً عشرة آلاف فكسرهم يحيى بن زيد ، وإنما معه سبعون رجلاً ، وقتل أميرهم واستلب منهم أموالاً كثيرة ، ثم جاءه جيش آخر فقتلوه واحتزوا رأسه وقتلوا جميع أصحابه رحمهم الله .

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك وهذه ترجمته

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، أبو العباس الأموي الدمشقي ، بويع له بالخلافة بعد عمه هشام في السنة الخالية بعهد من أبيه كما قدمنا . وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي . وكان مولده سنة تسعين ، وقيل ثنتين وتسعين ، وقيل سبع وثمانين ، وقتل يوم الخميس لليلتين بقيتا في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ، ووقعت بسبب ذلك فتنة عظيمة بين الناس بسبب قتله ، ومع ذلك إنما قتل لفسقه ، وقيل وزندقته . وقد قال الامام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ثنا بن عياش حدثني الأوزاعي وغيره عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : ولد لاخي أم سلمة زوج النبي ﷺ غلام فسموه الوليد ، فقال النبي ﷺ : « سميتموه باسم فراعينكم ، ليكونن : في هذه الأمة رجل يقال له الوليد ، لهو أشد فساداً لهذه الأمة من فرعون لقومه » . قال الحافظ ابن عساكر : وقد رواه الوليد بن مسلم ومعقل ابن زياد محمد بن كثير وبشر بن بكر عن الأوزاعي فلم يذكروا عمر في إسناده وأرسلوه ، ولم يذكر ابن كثير سعيد بن المسيب ، ثم ساق طرقه هذه كلها بأسانيدها وألفاظها . وحكى عن البيهقي أنه قال : هو مرسل حسن ، ثم ساق من طريق محمد عن محمد بن عمر بن عطاء عن زينب بنت أم سلمة عن أمها قالت : « دخل النبي ﷺ وعندي غلام من آل المغيرة اسمه الوليد ، فقال : من هذا يا أم سلمة ؟ قالت : هذا الوليد ، فقال النبي ﷺ : قد اتخذتم الوليد حنانا (حسانا) غيروا اسمه ، فانه سيكون في هذه الأمة فرعون يقال له الوليد » . وروى ابن عساكر من حديث عبد الله ابن محمد بن مسلم ثنا محمد بن غالب الأنطاكي ثنا محمد بن سليمان بن أبي داود ثنا صدقة عن هشام بن الغاز عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة بن الجراح عن النبي ﷺ قال : « لا يزال هذا الأمر قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية » .

مقتله وزوال دولته

كان هذا الرجل مجاهراً بالفواحش مصراً عليها ، منتهكاً محارم الله عز وجل ، لا يتحاشى من معصية . وربما اتهمه بعضهم بالزندقة والانحلال من الدين ، فالله أعلم ، لكن الذي يظهر أنه

كان عاصياً شاعراً ماجناً متعاطياً للمعاصي ، لا يتحاشاها من أحد ، ولا يستحي من أحد ، قبل أن يلي الخلافة وبعد أن ولي ، وقد روى أن أخاه سليمان كان من جملة من سعى في قتله ، قال : أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقا ، ولقد أرادني على نفسي الفاسق . وحكى المعافي بن زكريا عن ابن دريد عن أبي حاتم عن العتبي ان الوليد بن يزيد نظر الى نصرانية من حسان نساء النصارى اسمها سفري فأحبها ، فبعث يراودها عن نفسها فأبت عليه ، فألح عليها وعشقها فلم تطاوعه ، فاتفق اجتماع النصارى في بعض كنائسهم لعيد لهم ، فذهب الوليد إلى بستان هناك فتنكر وأظهر أنه مصاب ، فخرج النساء من الكنيسة إلى ذلك البستان ، فرأينه فأحدقن به ، فجعل يكلم سفري ويحادثها وتضاحكه ولا تعرفه ، حتى اشتفى من النظر إليها ، فلما انصرفت قيل لها : ويحكم أتدرين من هذا الرجل ؟ فقالت : لا ! فقيل لها هو الوليد . فلما تحققت ذلك حنت عليه بعد ذلك وكانت عليه أحرص منه عليها قبل أن تحن عليه . فقال الوليد في ذلك أبياتاً :

أضحكَ فؤادكَ يا وليدُ عميّداً	صباً قديماً للحسانِ صيودا[1]
في حبِّ واضحة العوارضِ طفلةٍ[2]	برزتْ لنا نحوَ الكنيسةِ عيدا
ما زلتُ أرمقها بعينيْ وامقٍ	حتى بصرتُ بها تقبلُ عودا
عودَ الصليب فويحَ نفسي من رأى	منكم صليباً مثلهُ معبودا
فسألتُ ربي أنْ أكون مكانهُ	وأكونَ في لهبِ الجحيمِ وقودا

وقال فيها أيضاً لما ظهر أمره وعلم بحاله الناس . وقيل إن هذا وقع قبل أن يلي الخلافة :

ألا حبذا سفري وإنْ قيلَ إنني	كلفتُ بنصرانيةٍ تشربُ الخمرا
يهونُ علينا أن نظلَ نهارنا	الى الليل لا ظهراً نصلّي ولا عَصْرا

قال القاضي أبو الفرج المعافي بن زكريا الجريري المعروف بابن طرار النهزواني بعد إيراده هذه الأشياء : للوليد في نحو هذا من الخلاعة والمجون وسخافة الدين ما يطول ذكره ، وقد ناقضناه في أشياء من منظوم شعره المتضمن ركيك ضلاله وكفره . وروى ابن عساكر بسنده أن الوليد سمع بخمار صلف بالحيرة فقصده حتى شَرب منه ثلاثة أرطال من الخمر ، وهو راكب على فرسه ، ومعه اثنان من أصحابه ، فلما انصرف أمر للخمار بخمسمائة دينار . وقال القاضي أبو الفرج : أخبار الوليد كثيرة قد جمعها الأخباريون مجموعة ومفردة ، وقد جمعت شيئاً من سيرته وأخباره ، ومن شعره الذي ضمنه ما فجر به من جرأته وسفاهته وحمقه وهزله ومجونه وسخافة

(١) صيودا : صيَّاد .

(٢) طفلة : الناعمة الرقيقة .

دينه ، وما صرح به من الالحاد في القرآن العزيز ، والكفر بمن أنزله وأنزل عليه ، وقد عارضت شعره السخيف بشعر حصيف[1] ، وباطله بحق نبيه شريف ، وترجيت رضاء الله عز وجل واستيجاب مغفرته .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا سليمان بن أبي شيخ ثنا صالح بن سليمان ، قال : أراد الوليد بن يزيد الحج وقال : أشرب فوق ظهر الكعبة الخمر ، فهموا ان يفتكوا به إذا خرج ، فجاؤا إلى خالد بن عبد الله القسري فسألوه أن يكون معهم فأبى ، فقالوا له : فاكتم علينا ، فقال : أما هذا فنعم ، فجاء إلى الوليد فقال : لا تخرج فاني أخاف عليك ، فقال : ومن هؤلاء الذين تخافهم علي ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : إن لم تخبرني بهم بعثت بك إلى يوسف بن عمر ، قال : وإن بعثت بي إلى يوسف بن عمر ، فبعثه إلى يوسف فعاقبه حتى قتله . وذكر ابن جرير أنه لما امتنع أن يعلمه بهم سجنه ثم سلمه إلى يوسف بن عمر يستخلص منه أموال العراق فقتله ، وقد قيل إن يوسف لما وفد إلى الوليد اشترى منه خالد بن عبد الله القسري بخمسين ألف ألف يخلصها منه ، فما زال يعاقبه ويستخلص منه حتى قتله ، فغضبت أهل اليمن من قتله ، وخرجوا على الوليد .

قال الزبير بن بكار : حدثنا مصعب بن عبد الله قال سمعت أبي يقول : كنت عند المهدي فذكر الوليد بن يزيد فقال رجل في المجلس : كان زنديقاً ، فقال المهدي : خلافة الله عنده أجل من أن يجعلها في زنديق . وقال أحمد بن عمير بن حوصاء الدمشقي : ثنا عبد الرحمن بن الحسن ثنا الوليد بن مسلم ثنا حصين بن الوليد عن الأزهري بن الوليد قال : سمعت أم الدرداء تقول : إذا قتل الخليفة الشاب من بني أمية بين الشام والعراق مظلوماً لم يزل طاعة مستخف بها ودم مسفوك على وجه الأرض بغير حق . قال الامام أبو جعفر بن جرير الطبري :

قتلُ يزيد بن الوليد الناقص للوليد بن يزيد

قد ذكرنا بعض أمر الوليد بن يزيد وخلاعته ومجانته وفسقه وما ذكر عن تهاونه بالصلوات واستخفافه بأمر دينه قبل خلافته وبعدها . فانه لم يزدد في الخلافة إلا شراً ولهوا ولذة وركوب للصيد وشرب المسكر ومنادمة الفساق ، فما زادته الخلافة على ما كان قبلها إلا تمادياً وغروراً ، فثقل ذلك على الأمراء والرعية والجند ، وكرهوه كراهة شديدة ، وكان من أعظم ما جنى على نفسه حتى أورثه ذلك هلاكه ، إفساده على نفسه بني عميه هشام والوليد بن عبد الملك مع إفساد اليمانية ، وهي أعظم جند خراسان ، وذلك أنه لما قتل خالد بن عبد الله القسري وسلمه إلى غريمه يوسف بن عمر الذي هو نائب العراق إذ ذاك ، فلم يزل يعاقبه حتى هلك ، انقلبوا عليه

---

(١) حصيف : محكم لا خلل فيه .

وتنكروا له وساءهم قتله كما سنذكره في ترجمته . ثم روى ابن جرير بسنده أن الوليد بن يزيد ضرب ابن عمه سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان فحبسه بها ، فلم يزل هناك حتى قتل الوليد ، وأخذ جارية كانت لآل عمه الوليد بن عبد الملك ، فكلمه فيها عمر بن الوليد فقال : لا أردها ، فقال : إذا تكثر الصواهل[1] حول عسكرك . وحبس الأفقم يزيد بن هشام ، وبايع لولديه الحكم وعثمان ، وكانا دون البلوغ ، فشق ذلك على الناس أيضاً ونصحوه فلم ينتصح ، ونهوه فلم يرتدع ولم يقبل .

قال المدائني في روايته : ثقل ذلك على الناس ورماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر والزندقة وغشيان أمهات أولاد أبيه ، وباللواط وغيره ، وقالوا : قد اتخذ مائة جامعة على كل جامعة اسم رجل من بني هاشم ليقتله بها ، ورموه بالزندقة ، وكان أشدهم فيه قولاً يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان الناس إلى قوله أميل ، لأنه أظهر النسك والتواضع ، ويقول ما يسعنا الرضا بالوليد حتى حمل الناس على الفتك به ، قالوا : وانتدب للقيام عليه جماعة من قضاعة واليمانية وخلق من أعيان الأمراء وآل الوليد بن عبد الملك ، وكان القائم بأعباء ذلك كله والداعي إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وهو من سادات بني أمية ، وكان ينسب الى الصلاح والدين والورع ، فبايعه الناس على ذلك ، وقد نهاه أخوه العباس بن الوليد فلم يقبل ، فقال : والله لولا أني أخاف عليك لقيدتك وأرسلتك إليه ، واتفق خروج الناس من دمشق من وباء وقع بها ، فكان ممن خرج الوليد بن يزيد أمير المؤمنين في طائفة من أصحابه نحو المائتين ، إلى ناحية مشارف دمشق ، فانتظم إلى يزيد بن الوليد أمره وجعل أخوه العباس ينهاه عن ذلك أشد النهي ، فلا يقبل ، فقال العباس في ذلك :

إنـي أعيـذكُـم بـالله مِـنْ فـتـنٍ	مثـلِ الجبالِ تسامى ثم تنـدفـعُ
إن البـريـة قـد ملَّت سياستكم	فـاستمسِكوا بعمـودِ الـدينِ وارتـدعـوا
لا تُلحِمـنَّ ذئـابَ النـاسِ أنفسكم	إن الـذبـابَ إذا مـا ألحمتْ رتعوا[2]
لا تَبْقـرنَّ بـأيـديكُـمْ بـطونَكُـمْ	فـثـم لا حَسْـرةٌ تغـنـي ولا جَـزَعُ

فلما استوثق ليزيد بن الوليد أمره ، وبايعه من بايعه من الناس ، قصد دمشق فدخلها في غيبة الوليد فبايعه أكثر أهلها في الليل ، وبلغه أن أهل المزة قد بايعوا كبيرهم معاوية بن مصاد ، فمضى إليه يزيد ماشياً في نفر من أصحابه ، فأصابهم في الطريق خطر شديد ، فأتوه فطرقوا بابه ليلاً ثم دخلوا فكلمه يزيد في ذلك فبايعه معاوية بن مصاد ، ثم رجع يزيد من ليلته إلى دمشق على طريق القناة وهو على حمار أسود ، فحلف أصحابه أنه لا يدخل دمشق إلا في السلاح ، فلبس

---

(١) الصواهل : الخيول .

(٢) رتعوا : أقاموا وأكلوا وشربوا في مكان فيه خصب وسعة .

سلاحاً من تحت ثيابه فدخلها ، وكان الوليد قد استناب على دمشق في غيبته عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي ، وعلى شرطتها أبو العاج كثير بن عبد الله السلمي ، فلما كان ليلة الجمعة اجتمع أصحاب يزيد بين العشائين عند باب الفراديس ، فلما أذن العشاء الآخرة دخلوا المسجد ، فلما لم يبق في المسجد غيرهم بعثوا الى يزيد بن الوليد فجاءهم فقصدوا باب المقصورة ففتح لهم خادم ، فدخلوا فوجدوا أبا العاج وهو سكران ، فأخذوا خزائن بيت المال ، وتسلموا الحواصل ، وتقووا بالأسلحة ، وأمر يزيد باغلاق أبواب البلد ، وأن لا يفتح إلا لمن يعرف ، فلما أصبح الناس قدم أهل الحواضر من كل جانب فدخلوا من سائر أبواب البلد ، كل أهل محلة من الباب الذي يليهم ، فكثرت الجيوش حول يزيد بن الوليد بن عبد الملك في نصرته ، وكلهم قد بايعه بالخلافة : وقد قال فيه بعض الشعراء في ذلك :

فجاءتهمُ أنصارهمْ حينَ أصبحوا ... سكاسكها أهلَ البيوت الصنادِدِ[1]
وكلبٌ فجاؤهمْ بخيلٍ وعدةٍ ... من البيضِ والأبدانِ ثم السواعدِ
فأكرمْ بها أحياءُ انصارِ سنَّةٍ ... همُ منعوا حرماتها كلَّ جاحدِ
وجاءتهمُ شيبانَ والأزدُ شرعاً ... وعبسٌ ولخمٌ بينَ حامٍ وذائدِ[2]
وغسانٌ والحيّانُ قيسٌ وتغلبٌ ... واحجم عنها كلُّ وانٍ[3] وزاهدِ
فما أصبحوا إلا وهمْ أهلُ ملكها ... قد استوثقوا من كلِ عاتٍ ومارِدِ

وبعث يزيد بن الوليد عبد الرحمن بن مصاد في مائتي فارس إلى قطنا ليأتوه بعبد الملك بن محمد بن الحجاج نائب دمشق وله الأمان ، وكان قد تحصن هناك ، فدخلوا عليه فوجدوا عنده خرجين في كل واحد منهما ثلاثون ألف دينار ، فلما مروا بالمزة قال أصحاب ابن مصاد : خذ هذا المال فهو خير من يزيد بن الوليد ، فقال : لا والله لا تحدث العرب أني أول من خان ، ثم أتوا به يزيد بن الوليد فاستخدم من ذلك المال جنداً للقتال قريباً من ألفي فارس ، وبعث به مع أخيه عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك خلف الوليد بن يزيد ليأتوا به ، وركب بعض موالي الوليد فرساً سابقاً فساق به حتى انتهى إلى مولاه من الليل ، وقد نفق الفرس من السوق ، فأخبره الخبر فلم يصدقه وأمر بضربه ، ثم تواترت عليه الأخبار فأشار عليه بعض أصحابه أن يتحول من منزله ذاك إلى حمص فانها حصينة . وقال الأبرش سعيد بن الوليد الكلبي : انزل على قومي بتدمر ، فأبى أن يقبل شيئاً من ذلك ، بل ركب بمن معه ، وهو في مائتي فارس ، وقصد أصحاب يزيد فالتقوا بثقلة في أثناء الطريق فأخذوه ، وجاء الوليد فنزل حصن البخراء الذي كان للنعمان بن

---

(١) الصنادد : الشجعان .

(٢) ذائد : حامي ومُدَافع .

(٣) وانٍ : ضعيف ، خامل .

بشير ، وجاءه رسول العباس بن الوليد إني آتيك ـ وكان من أنصاره ـ فأمر الوليد بابراز سريره فجلس عليه وقال . أعلي يتوثب الرجال وأنا أثب على الأسد وأتخصَّر الأفاعي ؟ وقدم عبد العزيز بن الوليد بمن معه ، وإنما كان قد خلص معه من الألفي فارس ثمانمائة فارس ، فتصافوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فقتل من أصحاب العباس جماعة حملت رؤ وسهم إلى الوليد ، وقد كان جاء العباس بن الوليد لنصرة الوليد بن يزيد ، فبعث إليه أخوه عبد العزيز فجيء به قهراً حتى بايع لأخيه يزيد بن الوليد ، واجتمعوا على حرب الوليد بن يزيد ، فلما رأى الناس اجتماعهم فروا من الوليد إليهم ، وبقي الوليد في ذل وقل من الناس ، فلجأ إلى الحصن فجاؤ ا إليه وأحاطوا به من كل جانب يحاصرونه ، فدنا الوليد من باب الحصن فنادى ليكلمني رجل شريف ، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي ، فقال الوليد : ألم أدفع الموت عنكم ؟ ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم نساءكم ؟ فقال يزيد : إنما تنقم عليك انتهاك المحارم وشرب الخمور ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله عز وجل . فقال ، حسبك يا أخا السكاسك ، لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل الله لي لسعة عما ذكرته . ثم قال : أما والله لئن قتلتموني لا ترتقن فتنتكم ولا يلم شعثكم[1] ولا تجتمع كلمتكم . ورجع إلى القصر فجلس ووضع بين يديه مصحفاً فنشره وأقبل يقرأ فيه وقال : يوم كيوم عثمان ، واستسلم ، وتسور عليه أولئك الحائط ، فكان أول من نزل إليه يزيد بن عنبسة ، فتقدم إليه وإلى جانبه سيف فقال : نحه عنك ، فقال الوليد : لو أردت القتال به لكان غير هذا ، فأخذ بيده وهو يريد أن يحبسه حتى يبعث به الى يزيد بن الوليد ، فبادره عليه عشرة من الأمراء فأقبلوا على الوليد يضربونه على رأسه ووجهه بالسيوف حتى قتلوه ، ثم جروه برجله ليخرجوه ، فصاحت النسوة فتركوه ، واحتز أبو علاقة القضاعي رأسه ، واحتاطوا على ما كان معه مما كان خرج به في وجهه ذلك ، وبعثوا به الى يزيد مع عشرة نفر ، منهم منصور بن جمهور وروح بن مقبل وبشر مولى كنانة من بني كلب ، وعبد الرحمن الملقب بوجه الفلس ، فلما انتهوا إليه بشروه بقتل الوليد وسلموا عليه بالخلافة ، فأطلق لكل رجل من العشرة عشرة آلاف ، فقال له روح بن بشر بن مقبل : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الوليد الفاسق ، فسجد شكراً لله ورجعت الجيوش إلى يزيد ، فكان أول من أخذ يده للمبايعة يزيد بن عنبسة السكسكي فانتزع يده من يده وقال : اللهم إن كان هذا رضى لك فأعني عليه ، وكان قد جعل لمن جاءه برأس الوليد مائة ألف درهم ، فلما جيء به ـ وكان ذلك ليلة الجمعة وقيل يوم الأربعاء ـ لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة . فأمر يزيد بنصب رأسه على رمح وأن يطاف به في البلد ، فقيل له إنما ينصب رأس الخارجي ، فقال : والله لأنصبنه ، فشهره في البلد على رمح ثم أودعه عند رجل شهراً ثم بعث به إلى أخيه سليمان بن يزيد ، فقال أخوه بعداله : أشهد أنك كنت شروباً للخمر ماجناً فاسقاً ولقد أرادني على نفسي هذا الفاسق وأنا أخوه ، لم يأنف من ذلك . وقد

---

(١) شعثكم : تفرُّقكم .

قيل إن رأسه لم يزل معلقاً بحائط جامع دمشق الشرقي مما يلي الصحن حتى انقضت دولة بني أمية ، وقيل إنما كان ذلك أثر دمه ، وكان عمره يوم قتل ستاً وثلاثين سنة ، وقيل ثمانياً وثلاثين ، وقيل إحدى وثلاثين ، وقيل اثنتان وقيل خمس ، وقيل ست وأربعون سنة . ومدة ولايته سنة وستة أشهر على الأشهر ، وقيل ثلاثة أشهر . قال ابن جرير : كان شديد البطش طويل أصابع الرجلين ، كانت تضرب له سكة الحديد في الأرض ويربط فيها خيط إلى رجله ثم يثب على الفرس فيركبها ولا يمس الفرس ، فتنقلع تلك السكة من الأرض مع وثبته .

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

وهو الملقب بالناقص لنقصه الناس من أعطياتهم ما كان زاده الوليد بن يزيد في أعطياتهم ، وهي عشرة عشرة ، ورده إياهم إلى ما كانوا عليه في زمن هشام ، ويقال إن أول من لقبه بذلك مروان بن محمد ، بويع له بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد ، وذلك ليلة الجمعة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة من هذه السنة ـ حتى سنة ست وعشرين ومائة ـ وكان فيه صلاح وورع قبل ذلك ، فأول ما عمل انتقاصه من أرزاق الجند ما كانت الوليد زادهم ، وذلك في كل سنة عشرة عشرة ، فسمي الناقص لذلك ، ويقال في المثل الأشج والناقص أعدلاً خلفاء بني مروان ـ يعني عمر بن عبد العزيز وهذا ـ ولكن لم تطل أيامه ، فإنه توفي من آخر هذه السنة ، واضطربت عليه الأمور ، وانتشرت الفتن واختلفت كلمة بني مروان فنهض سليمان بن هشام ، وكان معتقلاً في سجن الوليد بعمان فاستحوز على أموالها وحواصلها ، وأقبل إلى دمشق فجعل يلعن الوليد ويعيبه ويرميه بالكفر ، فأكرم يزيد ورد عليه أمواله التي كان أخذها من الوليد ، وتزوج يزيد أخت سليمان ، وهي أم هشام بنت هشام ، ونهض أهل حمص الى دار العباس بن الوليد التي عندهم فهدموها ، وحبسوا أهله وبنيه ، وهرب هو من حمص فلحق بيزيد بن الوليد إلى دمشق ، وأظهر أهل حمص الأخذ بدم الوليد بن يزيد ، وأغلقوا أبواب البلد ، وأقاموا النوائح والبواكي على الوليد ، وكاتبوا الأجناد في طلب الأخذ بالثأر ، فأجابهم إلى ذلك طائفة كبيرة منهم ، على أن يكون الحكم بن الوليد بن يزيد الذي أخذ له العهد هو الخليفة ، وخلعوا نائبهم ، وهو مروان بن عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ثم قتلوه وقتلوا ابنه وأمّروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد كتب إليهم كتاباً مع يعقوب بن هانيء ، ومضمون الكتاب أنه يدعو إلى أن يكون الأمر شورى ، فقال عمرو بن قيس : فإذا كان الأمر كذلك فقد رضينا بولي عهدنا الحكم بن الوليد ، فأخذ يعقوب بلحيته وقال : ويحك ! لو كان هذا الذي تدعو إليه يتيماً تحت حجرك لم يحل لك أن تدفع إليه ماله ، فكيف أمر الأمة ، فوثب أهل حمص على رسل يزيد بن الوليد فطردوهم عنهم وأخرجوهم من بين أظهرهم . وقال لهم أبو محمد السفياني . لو قدمت دمشق لم يختلف علي منهم اثنان، فركبوا معه وساروا نحو دمشق وقد أمروا عليهم السفياني ،

فتلقاهم سليمان بن هشام في جيش كثيف قد جهزهم معه يزيد ، وجهز أيضاً عبد العزيز بن الوليد في ثلاثة آلاف يكونون عند ثنية العقاب ، وجهز هشام بن مصاد المزي في ألف وخمسمائة ليكونوا على عقبة السلمية ، فخرج أهل حمص فساروا وتركوا جيش سليمان بن هشام ذات اليسار وتعدوه . فلما سمع بهم سليمان ساق في طلبهم فلحقهم عند السليمانية فجعلوا الزيتون عن أيمانهم والجبل عن شمائلهم والحيات من خلفهم ، ولم يبق تخلص إليهم إلا من جهة واحدة ، فاقتتلوا هنالك في قبالة الحر قتالاً شديداً ، فقتل طائفة كثيرة من الفريقين ، فبينما هم كذلك إذ جاء عبد العزيز بن الوليد بمن معه فحمل على أهل حمص فاخترق جيشهم حتى ركب التل الذي في وسطهم ، وكانت الهزيمة ، فهرب أهل حمص وتفرقوا ، فاتبعهم الناس يقتلون ويأسرون ، ثم تنادوا بالكف عنهم على أن يبايعوا ليزيد بن الوليد ، وأسروا منهم جماعة ، منهم أبو محمد السفياني ويزيد بن خالد بن معاوية ، ثم ارتحل سليمان وعبد العزيز فنزلا عذراء ومعهم الجيوش وأشراف الناس ، واشراف أهل حمص من الأسارى ومن استجاب من غير أسر ، بعد ما قتل منهم ثلاثمائة نفس فدخلوا بهم على يزيد بن الوليد ، فأقبل عليهم وأحسن إليهم وصفح عنهم ، وأطلق الأعطيات لهم ، لا سيما لأشرافهم ، وولى عليهم الذي اختاروه وهو معاوية بن يزيد بن الحصين ، وطابت عليه أنفسهم ، وأقاموا عنده في دمشق سامعين مطيعين له .

وفيها بايع أهل فلسطين يزيد بن سليمان بن عبد الملك ، وذلك أن بني سليمان كانت لهم أملاك هناك ، وكانوا يتركونها يبذلونها لهم ، وكان أهل فلسطين يحبون مجاورتهم ، فلما قتل الوليد بن يزيد كتب سعيد بن روح بن زنباغ - وكان رئيس تلك الناحية - إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك يدعوهم إلى المبايعة له ، فأجابوه إلى ذلك . فلما بلغ أهل الأردن خبرهم بايعوا أيضاً محمد بن عبد الملك بن مروان ، وأمروه عليهم ، فلما انتهى خبرهم إلى يزيد بن الوليد أمير المؤمنين بعث إليهم الجيوش مع سليمان بن هشام في الدماشقة وأهل حمص الذين كانوا مع السفياني ، فصالحهم أهل الأردن أولاً ورجعوا إلى الطاعة ، وكذلك أهل فلسطين . وكتب يزيد بن الوليد ولاية الامرة بالرملة وتلك النواحي الى أخيه إبراهيم بن الوليد . واستقرت الممالك هنالك ، وقد خطب أمير المؤمنين يزيد بن الوليد الناس بدمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أما بعد أيها الناس ، أما والله ما خرجت أشراً[1] ولا بطراً[2] ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما بي إطراء نفسي إني لظلوم لنفسي ، إن لم يرحمني ربي فإني هالك ، ولكني خرجت غضباً لله ولرسوله ولدينه ، وداعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ ، لما هدمت

---

(١) أشراً : بطراً ومرحاً .

(٢) بطراً : تجبراً وتكبراً .

معالم الدين ، وأطفىء نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة ، والراكب كل بدعة ، مع أنه والله مـا كان مصـدقاً بـالكتاب ، ولا مؤمنـاً بيوم الحسـاب ، وإنه لابن عمي في النسب ، وكفوي في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي ، ودعـوت إلى ذلك من أجـابني من أهل ولايتي ، وسعيت فيـه حتى أراح الله منه العبـاد والبلاد ، بحول الله وقوته لا بحولي ولا بقوتي . أيها الناس ! إن لكم عليَّ أن لا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكري نهراً ولا أكثر ما لا ولا أعطيه زوجة ، ولا ولداً . ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد ثغر ذلك البلد ، وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فإن فضل عز ذلك فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه ، ولا أجمّركم في ثغـوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع سبلهم ، وإن لكم عندي أعطياتكم في كل سنة ، وأرزاقكم في كل شهـر ، حتى تستـدر المعيشة بين المسلمين ، فيكـون أقصاهم كـأدناهم ، فـان أنا وفيت لكم بمـا قلت فعليكم السمـع والطاعـة وحسن المؤازرة[1]، وإن أنـا لم أوف لكم فلكم أن تخلعـوني وإلا أن تستتيبوني ، فإن تبت قبلتم مني ، وإن علمتم أحداً من أهل الصلاح والدين يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعتـه . أيها النـاس ! إنه لا طـاعة لمخلوق في معصية الخالق ، إنما الطاعة طاعة الله فمن أطاع الله فـأطيعوه مـا أطاع الله ، فـإذا عصى أو دعا إلى معصية فهو أهل أن يُعْصَى ولا يطاع ، بل يُقْتل ويُهَان ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

وفي هذه السنة عزل يزيد بن الوليد يوسف بن عمر عن إمرة العراق لما ظهر منه من الحنق على اليمانية ، وهم قوم خالد بن عبد الله القسري ، حتى قتل الوليد بن يزيد ، وكـان قد سجن غالب من ببلاده منهم ، وجعل الأرصاد[2] على الثغور خوفاً من جند الخليفة ، فعزله عنها أميـر المؤمنين يزيد بن الوليد ، وولى عليها منصور بن جمهور مع بلاد السند وسجستان وخراسـان ، وقد كان منصور بن جمهور أعرابياً جلفاً ، وكان يدين بمذهب الغيلانية القدرية ، ولكن كانت له آثار حسنة ، وعناء كثير في مقتل الوليد بن يزيد ، فخظي بذلك عند يزيد بن الوليد ، ويقال إنه لما فرغ الناس من الوليد ذهب من فوره إلى العراق فأخذ البيعة من أهلها إلى يزيد ، وقرر بالأقـاليم نواباً و عمالاً وكر راجعاً الى دمشق في آخر رمضان ، فلذلك ولاه الخليفة ما ولاه والله أعلم .

وأما يوسف بن عمر فانه فر من العراق فلحق ببلاد البلقاء ، فبعث إليه أمير المؤمنين يزيد فأحضره إليه ، فلما وقف بين يديه أخذ بلحيته ـ وكان كبير اللحية جداً ، ربما كانت تجاوز سرته

---

(١) المؤازرة : المناصرة والمساعدة .

(٢) الأرصاد : القوم الذين يرصدون كالحرس والخدم .

وكان قصير القامة ـ فوبخه وأنبه ثم سجنه وأمر باستخلاص الحقوق منه . ولما انتهى منصور بن جمهور الى العراق قرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليهم في كيفية مقتل الوليد ، وأن الله أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وأنه قد ولى عليهم منصور بن جمهور لما يعلم من شجاعته ومعرفته بالحرب ، فبايع أهل العراق ليزيد بن الوليد ، وكذلك أهل السند وسجستان .

وأما نصر بن سيار نائب خراسان فانه امتنع من السمع والطاعة لمنصور بن جمهور ، وأبى أن ينقاد لأوامره ، وقد كان نصر هذا جهز هدايا كبيرة للوليد بن يزيد فاستمرت له . وفي هذه السنة كتب مروان الملقب بالحمار كتاباً إلى عمر بن يزيد أخي الوليد بن يزيد ، يحثه على القيام بطلب دم أخيه الوليد ، وكان مروان يومئذ أميراً على أذربيجان ، وأرمينية ، ثم إن يزيد بن الوليد عزل منصور بن جمهور عن ولاية العراق وولى عليها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقال له : إن أهل العراق يحبون أباك فقد وليتكها ، وذلك في شوال ، وكتب له إلى أمراء الشام الذين بالعراق يوصيهم به خشية أن يمتنع منصور بن جمهور من تسليم البلاد إليه، فسلم اليه وسمع وأطاع وسلم ، وكتب الخليفة الى نصر بن سيار باستمراره بولاية خراسان مستقلاً بها ، فخرج عليه رجل يقال له الكرماني ، لأنه ولد بكرمان ، وهو أبو علي جديع بن علي بن شبيب المغني ، واتبعه خلق كثير بحيث إنه كان يشهد الجمعة في نحو من ألف وخمسمائة ، وكان يسلم على نصر بن سيار ولا يجلس عنده ، فتحير نصر بن سيار وامراؤه فيما يصنع به ، فاتفق رأيهم بعد جهد على سجنه ، فسجن قريباً من شهر ، ثم اطلقه فاجتمع إليه ناس كثير ، وجم غفير ، وركبوا معه ، فبعث إليهم نصر من قاتلهم فقتلهم وقهرهم وكسرهم واستخف جماعات من أهل خراسان بنصر بن سيار وتلاشوا أمره وحرمته ، وألحوا عليه في أعطياتهم وأسمعوه غليظ ما يكره وهو على المنبر ، بسفارة سلم بن أحوز أدى إليه ذلك ، وخرجت الباعة من المسجد الجامع وهو يخطب ، وانفض كثير من الناس عنه ، فقال لهم نصر فيما قال : والله لقد نشرتكم وطويتكم وطويتكم ونشرتكم فما عندي عشرة منكم على دين ، فاتقوا الله فوالله لئن اختلف فيكم سيفان ليتمنين الرجل منكم أن ينخلع من أهله وماله وولده ، ولم يكن رآها ، ثم تمثل بقول النابغة :

فان يغلب شقاؤكم عليكم ... فاني في صلاحكم سعيتُ

وقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن الورد بن المغيرة الجعد :ـ

أبيتُ أرعى النجومَ مرتفقاً ... إذا استقلتْ نحوي أوائلها
من فتنةٍ أصبحت مجللةً ... قدْ عمَّ أهلَ الصلاةِ شاملها
من بخراسانَ والعراقِ ومن ... بالشام كلَ شجاهُ شاغلها
يمشي السفيهُ الذي يعّنفُ بالـ ... جهلِ سواءً فيها وعاقلها

فـالنـاسُ منهـا في لـونِ مـظلمـةٍ	دهـمـاء[1] ملتجـةٍ غيـاطلهـا[2]
والنـاسُ في كـربـةٍ يـكـادُ لـهـا	تـنـبـذُ اولادهـا حـوامـلهـا
يـغـدون منهـا في كـلِ مبهـمـةٍ	عـميـاءَ تـمنـى لـهـمْ غـوائلهـا[3]
لا يـنـظُر النـاس من عـواقبهـا	إلّا الـتـي لا يـبـيـنُ قـائـلهـا
كـرغـوةِ[4] البكـرِ أو كصيحـةِ حبـ	ـلى طـرقتْ حـولهـا قـوابلهـا[5]
فـجـاء فـينـا تـزرى بـوجهـتِـه	فـيـهـا خـطوبُ حـمـرٌ زلازلـهـا

وفي هـذه السنة أخـذ الخليفة البيعـة من الأمراء وغيـرهم بولايـة العهـد من بعـده لأخيـه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، ثم من بعد إبراهيم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان ، وذلك بسبب مرضه الذي مات فيه . وكان ذلك في شهر الحجة منها ، وقد حرضه على ذلك جماعة من الأمراء والأكابر والوزراء . وفيها عزل يزيـد عن إمرة الحجـاز يوسف بن محمـد الثقفي وولي عليها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، فقدمها في أواخر ذي القعدة منها ، وفيها أظهر مروان الحمار الخلاف ليزيد بن الوليد ، وخرج من بلاد أرمينية يظهر أنه يطلب بدم الوليد بن يزيد ، فلما وصل الى حران أظهر الموافقة وبايع لأمير المؤمنين يزيـد بن الوليـد . وفيها أرسـل إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبا هاشم بكـر بن ماهـان إلى أرض خراسـان ، فاجتمع بجماعة من أهل خراسان بمرو ، فقرأ عليهم كتاب إبراهيم بن محمد الامام إليه وإليهم ، ووصيته ، فتلقوا ذلك بالقبول ، وأرسلوا معه ما كان عندهم من النفقات ، وفي سلخ ذي القعدة ، وقيـل في سلخ ذي الحجة ، وقيـل لعشر مضين منـه ، وقيل بعـد الأضحى منها كـان وفاة أميـر المؤمنين .

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

هو يزيـد بن الوليـد بن عبد الملك بن مـروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أميـة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، أبو خالد الأموي ، أمير المؤمنين ، بويع له بالخلافة أول ما بويع بها في قرية المزة ، من قرى دمشق ، ثم دخل دمشق فغلب عليها ، ثم أرسل الجيوش إلى ابن عمه الوليد بن يزيد فقتله ، واستحوذ على الخلافة في أواخر جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان يلقب بالناقص لنقصه الناس العشرات التي زادهم إياها الوليد بن يزيـد ، وقيل إنمـا سماه بـذلك مـروان الحمار ، وكـان يقول : النـاقص ابن اليد ، وأمـه شاهفـر ند بنت فيـروز بن يزدجـرد بن

(١) دهماء : سوداء .
(٢) غياطلها : عقولها .
(٣) غوائلها : دواهيها .
(٤) كرغوة : الرُّغوة من اللبن : ما عليه من الزَّبَد .
(٥) قوابلها : الدايات مفردها داية .

كسرى ، كسروية .

وقال ابن جرير : وأمه شاه آفزيد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار من كسرى ، وهو القائل :

أنـا ابـن كسـرى وأبـي مـروانُ   وقيصـرٌ جـدي وجـدي خـاقـانُ

وإنما قال ذلك لأن جده فيروز ، وأم أمه بنت قيصر ، وأمه شيرويه وهي بنت خاقان ملك الترك ، وكانت قد سباها قتيبة بن مسلم ، هي وأخت لها فبعثهما الى الحجاج ، فأرسل بهذه إلى الوليد واستبقى عنده الأخرى ، فولدت هذه الوليد بن يزيد الناقص هذا ، وهذه اخذها الحجاج فكانت عنده بالعراق ، وكان مولده في سنة تسعين ، وقيل في سنة ست وتسعين ، وقد روى عنه الأوزاعي مسألة السلم . وقد ذكرنا كيفية ولايته فيما سلف في هذه السنة ، وأنه كان عادلاً ديناً محباً للخير مبغضاً للشر . قاصداً للحق . وقد خرج يوم عيد الفطر من هذه السنة إلى صلاة العيد بين صفين من الخيالة والسيوف مسللة عن يمينه وشماله ، ورجع من المصلى إلى الخضراء كذلك ، كان رجلاً صالحاً ، يقال في المثل الأشج والناقص أعدلا بني مروان ، والمراد عمر بن عبد العزيز وهذا . وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا حدّثني إبراهيم بن محمد المروزي عن أبي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد الناقص : يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل المسكر ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فانه داعية الزنا . وقال ابن عبد الحكيم عن الشافعي : لما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الذي يقال له الناقص دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه وقرب غيلان . قاله ابن عساكر . قال : ولعله قرب أصحاب غيلان ، لأن غيلان قتله هشام بن عبد الملك . وقال محمد بن المبارك : آخر ما تكلم به يزيد بن الوليد الناقص واحزناه واشقاآه . وكان نقش خاتمه العظمة لله . وكانت وفاته بالخضراء من طاعون أصابه ، وذلك يوم السبت لسبع مضين من ذي الحجة ، وقيل يوم الأضحى منه ، وقيل بعده بأيام ، وقيل لعشر بقين منه ، وقيل في سلخه ، وقيل في سلخ ذي القعدة من هذه السنة . واكثر ما قيل في عمره ست وأربعون سنة ، وقيل ثلاثون سنة ، وقيل غير ذلك فالله أعلم . وكانت مدة ولايته ستة أشهر على الأشهر ، وقيل خمسة أشهر وأيام . وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد ، وهو ولي العهد من بعده رحمه الله . وذكر سعيد بن كثير بن عفير أنه دفن بين باب الجابية وباب الصغير ، وقيل إنه دفن بباب الفراديس ، وكان أسمر نحيفاً حسن الجسم حسن الوجه . وقال علي بن محمد المديني : كان يزيد أسمر طويلاً صغير الرأس بوجهه خال ، وكان جميلاً ، في فمه بعض السعة وليس بالمفرط . وحج بالناس فيها عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب الحجاز ، وأخوه عبد الله نائب العراق ، ونصر بن سيار على نيابة خراسان ، والله سبحانه أعلم ، وممن توفي في هذه السنة من الأعيان :

خالد بن عبد الله بن يزيد

ابن أسد بن كرز بن عامر بن عبقري ، أبو الهيثم البجلي القسري الدمشقي ، أمير مكة والحجاز للوليد ثم لسليمان ، وأمير العراقين لهشام خمس عشرة سنة . قال ابن عساكر : كانت داره بدمشق في مربعة القز وتعرف اليوم بدار الشريف اليزيدي ، وإليه ينسب الحمام الذي داخل باب توما ، روى عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال له : « يا أسد[1] أتحب الجنة ؟ قال : نعم ! قال : فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك » . رواه أبو يعلى عن عثمان بن أبي شيبة عن هيثم عن سيار من أبي الحكم أنه سمعه على المنبر يقول ذلك . وممن روى عنه إسماعيل بن أوسط وإسماعيل بن أبي خالد ، وحبيب بن أبي حبيب ، وحميد الطويل . وروى أنه روى عن جده عن النبي ﷺ في تكفير المرض الذنوب : وكانت أمه نصرانية ، وذكره أبو بكر بن عياش في الأشراف ، فيمن أمه نصرانية وقال المدائني : أول ما عرف من رياسته أنه وطأ صبياً بدمشق بفرسه فحمله فأشهد طائفة من الناس أنه هو صاحبه ، فإن مات فعليه ديته ، وقد استنابه الوليد على الحجاز من سنة تسع وثمانين إلى أن توفي الوليد ثم سليمان ، وفي سنة ست ومائة استنابه هشام على العراق إلى سنة عشرين ومائة ، وسلّمه إلى يوسف بن عمر الذي ولاه مكانه فعاقبه وأخذ منه أموالاً ثم أطلقه ، وأقام بدمشق إلى المحرم من هذه السنة فسلمه الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر يستخلص منه خمسين ألف ألف ، فمات تحت العقوبة البليغة ، كسر قدميه ثم ساقيه ثم فخذيه ، ثم صدره ، فمات ولا يتكلم كلمة واحدة ، ولا تأوه حتى خرجت روحه رحمه الله .

قال الليثي عن أبيه : خطب خالد القسري يوماً فأرتج[2] عليه فقال : أيها الناس ! إن هذا الكلام يجيء أحياناً ويعزب[3] أحياناً ، فيتسبب عند مجيئه سببه ويتعذر عنه عزوبه مطلبه ، وقد يرد إلى السليط بيانه ويثيب إلى الحصر كلامه ، وسيعود إلينا ما تحبون ، ونعود لكم كما تريدون .

وقال الأصمعي وغيره : خطب خالد القسري يوماً بواسط فقال : « يا أيها الناس تنافسوا في المكارم وسارعوا إلى المغانم واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكتسبوا بالمطل ذما ، ولا تعتدّوا بمعروف لم تعجلوه ، ومهما تكن لأحد منكم نعمة عند أحد لم يبلغ شكرها فالله أحسن له جراء ، وأجزل عطاء ، واعلموا أن حوائج الناس إليكم نعم فلا تملوها فتحول نقماً ، فإن أفضل المال ما كسب أجراً وأورث ذكراً ، ولو رأيتم المعروف لرأيتموه رجلاً حسناً جميلاً يسر الناس إذا نظروا إليه ، ويفوق العالمين . ولو رأيتم البخل لرأيتموه رجلاً مشوهاً قبيحاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار . إنه من جاد ساد ومن بخل ذل ، وأكرم الناس من أعطى من لا يرجوه ، ومن عفا عن قدرة ، وأفضل الناس من وصل عن قطيعة ، ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته ، والفروع عند

---

(١) في تاريخ ابن عساكر (٥ : ٦٧) : « يا يزيد بن أسيد » .

(٢) فارتج : استغلق عليه الكلام .

(٣) ويعزب : يبعد ويغيب .

مغارسها تنمو، وبأصولها تسمو» . وروى الاصمعي عن عمر بن الهيثم أن أعرابياً قدم على خالد فأنشده قصيدة امتدحه بها يقول فيها :

إليكَ ابن كرزِ الخيرِ أقبلتُ راغباً ... لتخبرَ مني ما وها[1] وتبدّدا[2]
إلى الماجد البهلول[3] ذي الحلم والندى ... واكرم خلقِ الله فرعاً ومحتدا
إذا ما أناسٌ قصروا بفعالهمْ ... نهضتَ فلمْ تلقى هنالكَ مفقدا
فيالكَ بحراً يغمرُ الناسَ موجهُ ... إذا يسألَ المعروفُ جاشٍ وأزبدا
بلوتُ ابنَ عبدِ الله في كلِ موطنٍ ... فألفيتُ خيرَ الناسِ نفساً وأمجدا
فلو كانَ في الدنيا مِنَ الناسِ خالدٌ ... لجودٍ بمعروفٍ لكنتَ مخلدا
فلا تحرمني منك ما قدْ رجوتُه ... فيصبحُ وجهي كالحَ اللونِ أربدا[4]

قال : فحفظها خالد ، فلما اجتمع الناس عند خالد قام الأعرابي ينشدها فابتدره إليها خالد فأنشدها قبله وقال : أيها الشيخ إن هذا شعر قد سبقناك إليه . فنهض الشيخ فولى ذاهباً فأتبعه خالد من يسمع ما يقول فاذا هو ينشد هذه الأبيات :

ألا في سبيلِ الله ما كنتُ أرتجى ... لديهِ وما لاقيتُ من نكدِ الجهدِ
دخلتُ على بحرٍ يجودُ بمالهِ ... ويعطي كثيرَ المالِ في طلبِ الحمدِ
فخالفني الجدُ المشومُ لشقوتي ... وقاربني نحسي وفارقني سعدي
فلو كانَ لي رزقٌ لديهِ لنلتهُ ... ولكنهُ أمرٌ مِنَ الواحدِ الفردِ

فرده إلى خالد وأعلمه بما كان يقول فأمر له بعشرة آلاف درهم . وقال الأصمعي : سأل أعرابي خالداً القسري أن يملأ له جرابه دقيقاً فأمر بملئه له دراهم ، فقيل للاعرابي حين خرج : ما فعل معك ؟ فقال : سألته بما أشتهي فأمر لي بما يشتهي هو . وقال بعضهم : بينما خالد يسير في موكبه إذ تلقاه أعرابي فسأله أن يضرب عنقه ، فقال ويحك ولم ؟ أقطعت السبيل ؟ أأخرجت يداً من طاعة ؟ فكل ذلك يقول لا ! قال : فلم ؟ قال : من الفقر والفاقة . فقال : سل حاجتك، قال ثلاثين ألفا . فقال خالد : ما ربح أحد مثل ما ربحت اليوم ، إني وضعت في نفسي أن يسألني مائة ألف فسأل ثلاثين فربحت سبعين . ارجعوا بنا اليوم ، وأمر له بثلاثين ألفاً . وكان إذا جلس يوضع [المال] بين يديه ويقول : إن هذه الأموال ودائع لا بد من تفرقتها. وسَقط خاتم لجاريته رابعة يساوي ثلاثين ألفاً ، في بالوعة الدار ، فسألت أن تؤتى بمن يخرجه ، فقال : إن يدك أكرم على من أن تلبسه بعد ما صار إلى هذا الموضع القذر ، وأمر لها بخمسة آلاف دينار بدله . وقد

---

(١) واها : ضعف .
(٢) وتبددا : تفرّق .
(٣) البهلول : جمعها البهاليل : السيِّد الجامع لكلِّ خير .
(٤) أربدا : بين السواد والبياض .

كان لرابعة هذه من الحلي شيء عظيم ، من جملة ذلك ياقوتة وجوهرة ، كل واحدة بثلاثة وسبعين ألف دينار .

وقد روى البخاري في كتاب أفعال العباد، وابن أبي حاتم في كتاب السنة، وغير واحد ممن صنف في كتب السنة أن خالد بن عبد الله القسري خطب الناس في عيد أضحى فقال : أيها الناس ، ضحوا يقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه في أصل المنبر . قال غير واحد من الأئمة : كان الجعد بن درهم من أهل الشام ، وهو مؤدب مروان الحمار ، ولهذا يقال له مروان الجعدي ، فنسب إليه ، وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية الذين يقولون إن الله في كل مكان بذاته ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وكان الجعد بن درهم قد تلقى هذا المذهب الخبيث عن رجل يقال له أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ، عن خالد لبيد بن اعصم اليهودي الذي سحر النبي ﷺ في مشط وماشطة وجف طلعة ذكر له، وتحت راعوفة ببئر ذي اروان الذي كان ماؤها نقاعة الحناء . وقد ثبت الحديث بذلك في الصحيحين وغيرهما . وجاء في بعض الأحاديث أن الله أنزل بسبب ذلك سورتي المعوذتين .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : حدثنا محمد بن يزيد الرفاعي سمعت أبا بكر بن عياش قال رأيت خالداً القسري حين أتى بالمغيرة وأصحابه ، وقد وضع له سرير في المسجد ، فجلس عليه ثم أمر برجل من أصحابه فضربت عنقه ثم قال للمغيرة : أحيه ـ وكان المغيرة يزعم أنه يحيي الموتى ـ فقال : والله صلحك الله ما أحيي الموتى . قال : لتحيينه أو لأضربن عنقك . قال والله ما أقدر على ذلك . ثم أمر بطن قصب فأضرموا فيه ناراً ثم قال للمغيرة : اعتنقه ، فأبى فعدا رجل من أصحابه فاعتنقه ، قال أبو بكر : فرأيت النار تأكله وهو يشير بالسبابة . قال خالد هذا والله أحق بالرياسة منك . ثم قتله وقتل أصحابه . وقال المدائني : أتى خالد بن عبد الله برجل تنبأ بالكوفة فقيل له ما علامة نبوتك ؟ قال : قد نزل عليَّ قرآن ، قال : إنا أعطيناك الكماهر ، فصل لربك ولا تجاهر . ولا تطع كل كافر وفاجر . فأمر به فصلب وهو يصلب : إنا أعطيناك العمود ، فصل لربك على عود ، فأنا ضامن لك ألا تعود . وقال المبرد : أتى خالد بشاب قد وجد في دار قوم وادعى عليه السرقة ، فسأله فاعترف فأمر بقطع يده فتقدمت حسناء فقالت :

أخـالدُ قـد أوطـأتَ والله عثـرةً	ومـا العاشقُ المسكينُ فينـا بسـارقِ
أقـرَّ بمـا لم يـجنـهِ غيـرَ أنـهُ	رأى القطعَ أولى من فضيحةِ عاشقِ

فأمر خالد باحضار أبيها فزوجها من ذلك العلام وأمهرها عنه عشرة آلاف درهم . وقا

الاصمعي : دخل أعرابي على خالد فقال : إني قد مدحتك ببيتين ولست أنشدهما إلا بعشرة آلاف وخادم ، فقال : نعم ! فأنشأ يقول :

لزمتَ نعمْ حتى كأنكَ لم تكنْ سمعتَ من الأشياءِ شيئاً سوى نعمْ
وأنكرتَ لا حتى كأنكَ لم تكنْ سمعتَ بها في سالف الدهرِ والأممْ

قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم وخادم يحملها . قال : ودخل عليه أعرابي فقال له : سل حاجتك فقال : مائة ألف . فقال : أكثرت حط منها . قال : أضع تسعين ألفاً، فتعجب منه خالد فقال : أيها الأمير سألتك على قدرك ووضعت على قدري ، فقال له :لن تغلبني أبداً، وأمر له بمائة ألف ، قال : ودخل عليه أعرابي ، فقال : إني قد قلت فيك شعراً وأنا أستصغره فيك ، فقال : قل فأنشأ يقول :

تعرضتَ لي بالجودِ حتى نعشتني وأعطيتني حتى ظننتكَ تلعبُ
فأنتَ الندى وابنُ الندى وأخو الندى حليفُ الندى ما للندى عنكَ مذهبُ

فقال : سل حاجتك . قال : على خمسون ألف دينار ، فقال : قد أمرت لك بها وأضعفتها لك ، فأعطاه مائة ألف . قال أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوساي : دخل أعرابي على خالد القسري فأنشده :

كتبتُ نعمْ ببابكَ فهي تدعو اليكَ الناسَ مسفرةً[1] النقابِ[2]
وقلتُ لـلا عليكِ بباب غيري فـإنـكِ لنْ تـرى أبـداً ببـابـي

قال فأعطاه على كل بيت خمسين ألفاً . وقد قال فيه ابن معين : كان رجل سوء يقع في علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وذكر الأصعمي عن أبيه : أن خالداً حفر بئر بمكة ادعى فضلها على زمزم ، وله في رواية عنه تفضيل الخليفة على الرسول ، وهذا كفر إلا أن يريد بكلامه غير ما يبدو منه والله أعلم .

[والذي يظهر أن هذا لا يصح عنه ، فإنه كان قائماً في إطفاء الضلال والبدع كما قدمنا من قتله للجعد بن درهم وغيره من أهل الالحاد ، وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح ، لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيع ومغالاة في أهل البيت ، وربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع ، وقد اغتر به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره][3] .

---

(١) مسفرة : كاشفة عن وجهها .
(٢) النقاب : القناع تجعله المرأة على مارن أنفها وتستر به وجهها .
(٣) وجدت هذه العبارة في نسخة ثانية بالآستانة .

وقد ذكر ابن جرير وابن عساكر وغيرهما أن الوليد بن يزيد كان قد عزم على الحج في إمارته فمن نيته أن يشرب الخمر على ظهر الكعبة ، فلما بلغ ذلك جماعة من الأمراء اجتمعوا على قتله وتولية غيره من الجماعة ، فحذر خالد أمير المؤمنين منهم ، فسأله أن يسميهم فأبى عليه فعاقبه عقاباً شديداً ، ثم بعث به إلى يوسف بن عمر فعاقبه حتى مات شر قتلة وأسوئها ، وذلك في محرم من هذه السنة ـ أعني سنة ست وعشرين ومائة ـ وذكره القاضي ابن خلكان في الوفيات وقال : كان متهماً في دينه ، وقد بنى لأمه كنيسة في داره ، قال فيه بعض الشعراء وقال صاحب الأعيان كان في نسبه يهود فانتموا إلى القرب ، وكان يقرب [من] شق وسطيح . قال القاضي ابن خلكان : وقد كانا ابنى خالة ، وعاش كل منهما ستمائة ، وولدا في يوم واحد ، وذلك يوم ماتت طريفة بنت الحر بعدما تفلت[1] في فم كل منهما وقالت : إنه سيقوم مقامي في الكهانة ، ثم ماتت من يومها .

وممن توفي في هذه السنة جبلة بن سحيم ودراج أبو السمح وسعيد بن مسروق في قول : وسليمان بن حبيب المحاربي ، قاضي دمشق ، وعبد الرحمن بن قاسم شيخ مالك وعبيد الله بن أبي يزيد وعمرو بن دينار . وقد ذكرنا تراجمهم في كتابنا التكميل .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة

استهلت هذه السنة والخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بوصية أخيه يزيد الناقص إليه ، وبايعه الأمراء بذلك ، وجميع أهل الشام إلا أهل حمص فلم يبايعوه ، وقد تقدم أن مروان ابن محمد الملقب بالحمار كان نائباً بأذربيجان وأرمينية ، وتلك كانت لأبيه من قبله ، وكان نقم على يزيد بن الوليد في قتله الوليد بن يزيد ، وأقبل في طلب دم الوليد ، فلما انتهى إلى حران أناب وبايع يزيد بن الوليد ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى بلغه موته ، فاقبل في أهل الجزيرة حتى وصل قنسرين فحاصر أهلها فنزلوا على طاعته ، ثم أقبل إلى حمص وعليها عبد العزيز بن الحجاج من جهة أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد فحاصرهم حتى يبايعوا لابراهيم بن الوليد، وقد أصروا على عدم مبايعته ، فلما بلغ عبد العزيز قرب مروان بن محمد ترحل عنها ، وقدم مروان إليها فبايعوه وساروا معه قاصدين دمشق ، ومعهم جند الجزيرة وجند قنسرين ، فتوجه مروان إلى دمشق في ثمانين ألفاً ، وقد بعث إبراهيم بن الوليد بن هشام بن عبد الملك في مائة وعشرين ألفاً ، فالتقى الجيشان عند عين الجر من البقاع ، فدعاهم مروان الى الكف عن القتال وأن يتخلوا عن ابني الوليد بن يزيد وهما الحكم وعثمان اللذان قد أخذ العهد لهما ، وكان يزيد قد سجنهما بدمشق ، فأبوا عليه ذلك ، فاقتتلوا قتالاً شديداً من حين ارتفاع النهار إلى العصر ، وبعث مروان سرية تأتي جيش ابن هشام من ورائهم، فتم لهم ما أرادوه ، وأقبلوا من ورائهم يكبرون، وحمل

(١) تفلت : بصقت وطرحت التُفْل .

الآخرون من تلقاهم عليهم ، فكانت الهزيمة في اصحاب سليمان ، فقتل منهم أهل حمص خلقاً كثيراً ، واستبيح عسكرهم ، وكان مقدار ما قتل من أهل دمشق في ذلك اليوم قريباً من سبعة عشر ألفاً أو ثمانية عشر ألفاً وأسر منهم مثلهم ، فأخذ عليهم مروان البيعة للغلامين ابني الوليد ، الحكم وعثمان ، وأطلقهم كلهم سوى رجلين وهما يزيد بن العقار والوليد بن مصاد الكلبيان ، فضربهما بين يديه بالسياط وحبسهما فماتا في السجن ، لأنهما كانا ممن باشر قتل الوليد بن يزيد حين قتل . وأما سليمان وبقية أصحابه فانهم استمروا منهزمين ، فما أصبح لهم الصبح إلا بدمشق فأخبروا أمير المؤمنين إبراهيم بن الوليد بما وقع ، فاجتمع معهم رؤوس الامراء في ذلك الوقت وهم عبد العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد بن عبد الله القسري، وأبو علاقة السكسكي، والاصبغ ابن ذؤالة الكلبي ونظراؤهم، على أن يعمدوا إلى قتل ابني الوليد الحكم وعثمان، خشية أن يليا الخلافة فيهلكا من عاداهما وقتل أباهما ، فبعثوا إليهما يزيد بن خالد بن عبد الله القسري ، فعمد إلى السجن وفيه الحكم وعثمان ابنا الوليد وقد بلغا ، ويقال وولد لاحدهما ولد فشدخها بالعمد ، وقتل يوسف بن عمر ـ وكان مسجوناً معهما ـ وكان في سجنهما أيضاً أبو محمد السفياني فهرب فدخل في بيت داخل السجن وجعل وراء الباب ردماً ، فحاصروه فامتنع ، فأتوا بنار ليحرقوا الباب . ثم اشتغلوا عن ذلك بقدوم مروان بن محمد وأصحابه إلى دمشق في طلب المنهزمين .

دخول مروان الحمار دمشق وولايته الخلافة

لما أقبل مروان بمن معه من الجنود من عين الجر واقترب من دمشق وقد انهزم أهلها بين يديه بالأمس ، هرب إبراهيم بن الوليد وعمد سليمان بن هشام إلى بيت المال ففتحه وأنفق ما فيه على أصحابه ومن اتبعه من الجيوش ، وثار موالى الوليد بن يزيد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه فيها وانتهبوها ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية ، ودخل مروان بن محمد دمشق فنزل في أعاليها وأتى بالغلامين الحكم وعثمان وهما مقتولان وكذلك يوسف بن عمر فدفنوه . وأتى بأبي محمد السفياني وهو في حبوله فسلم على مروان بالخلافة فقال مروان : مه ، فقال : إن هذين الغلامين جعلاها لك من بعدهما ثم أنشد قصيدة قالها الحكم في السجن وهي طويلة منها قوله :

ألا من مبلغٍ مروان عني	وعمى الغمرَ[1] طالَ بذا حنينا
باني قد ظلمتُ وصار قومي	على قتلِ الوليدِ متابعينا
فإن أهلكَ أنا وولي عهدي	فمروانٌ أميرُ المؤمنينا

ثم قال أبو محمد السفياني لمروان : ابسط يدك ، فكان أول من بايعه بالخلافة ، فمعاوية بن يزيد بن حصين بن نمير ثم بايعه رؤوس أهل الشام من أهل دمشق وحمص وغيرهم ، ثم قال لهم

(١) الغمر : الماء الكثير . و ـ معظم البحر . و ـ الحقد . وهي الأرجح .

مروان : اختاروا أمراء نوليهم عليكم ، فاختار أهل كل بلد أميراً فولاه عليهم ، فعلى دمشق زامل بن عمرو الجبراني ، وعلى حمص عبد الله بن شجرة الكندي ، وعلى الاردن الوليد بن معاوية بن مروان ، وعلى فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي ، ولما استوت الشام لمروان بن محمد رجع إلى حران وعند ذلك طلب منه ابراهيم بن الوليد الذي كان خليفة وابن عمه سليمان بن هشام الأمان فأمنهما ، وقدم عليه سليمان بن هشام في أهل تدمر فبايعوه ، ثم لما استقر مروان في حران أقام فيها ثلاثة أشهر فانتقض عليه ما كان انبرم له من مبايعة أهل الشام ، فنقض أهل حمص وغيرهم ، فأرسل إلى أهل حمص جيشاً فوافوهم ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، وقدم مروان إليها بعد الفطر بيومين ، فنازلها مروان في جنود كثيرة ، ومعه يومئذ إبراهيم بن الوليد المخلوع ، وسليمان بن هشام ، وهما عنده مكرمان خصيصان لا يجلس إلا بهما وقت الغداء والعشاء ، فلما حاصر حمص نادوه إنا على طاعتك ، فقال : افتحوا باب البلد ففتحوه . ثم كان منهم بعض القتال فقتل منهم نحو الخمسمائة أو الستمائة ، فأمر بهم فصلبوا حول البلد ، وأمر بهدم بعض سورها . وأما أهل دمشق فأما أهل الغوطة فحاصروا أميرهم زامل بن عمرو وأمروا عليهم يزيد بن خالد القسري وثبت في المدينة نائبها ، فبعث إليه أمير المؤمنين مروان من حمص عسكراً نحو عشرة آلاف ، فلما اقتربوا من دمشق خرج النائب فيمن معه والتقواهم والعسكر بأهل الغوطة فهزموهم وحرقوا المزة وقرى أخرى معها ، واستجار يزيد بن خالد القسري وأبو علاقة الكلبي برجل من أهل المزة من لخم ، فدل عليهم زامل بن عمرو فقتلهما وبعث برأسيهما إلى أمير المؤمنين مروان وهو بحمص . وخرج ثابت بن نعيم في أهل فلسطين على الخليفة وأتوا طبرية فحاصروها ، فبعث الخليفة إليهم جيشاً فأجلوهم عنها واستباحوا عسكرهم ، وفر ثابت بن نعيم هارباً إلى فلسطين فاتبعه الأمير أبو الورد فهزمه ثانية وتفرق عنه أصحابه ، وأسر أبو الورد ثلاثة من أولاده فبعث بهم إلى الخليفة وهم جرحى فأمر بمداواتهم ، ثم كتب أمير المؤمنين إلى نائب فلسطين وهو الرماحس بن عبد العزيز الكناني يأمره بطلب ثابت بن نعيم حيث كان ، فما زال يتلطف به حتى أخذه أسيراً ، وذلك بعد شهرين ، فبعثه إلى الخليفة وأمر بقطع يديه ورجليه ، وكذلك جماعة كانوا معه ، وبعث بهم إلى دمشق فأقيموا على باب مسجدها ، لأن أهل دمشق كانوا قد أرجفوا بأن ثابت بن نعيم ذهب إلى ديار مصر فتغلب عليها وقتل نائب مروان فيها ، فأرسل إليهم مقطع اليدين والرجلين ليعرفوا بطلان ما كانوا به أرجفوا . وأقام الخليفة مروان بدير أيوب عليه السلام مدة حتى بايع لابنه عبدالله ثم عبيد الله وزوجهما ابنتي هشام ، وهما أم هشام وعائشة ، وكان مجمعاً حافلاً وعقداً هائلاً ، ومبايعة عامة ، ولكن لم تكن في نفس الأمر تامة . وقدم الخليفة إلى دمشق وأمر بثابت وأصحابه بعدما كانوا تقطعوا أن يصلبوا على أبواب البلد ، ولم يستبق منهم أحداً إلا واحداً وهو عمرو بن الحارث الكلبي . وكان عنده فيما زعم علم بودايع كان ثابت بن نعيم أودعها عند أقوام . واستوسق أمر الشام لمروان ما عدا تدمر ، فسار من دمشق فنزل القسطل من أرض حمص ، وبلغه أن أهل تدمر قد غوروا ما بينه وبينهم من المياه ، فاشتد غضبه عليهم ومعه

جحافل من الجيوش ، فتكلم الأبرش بن الوليد وكانوا قومه فسأل منه أن يرسل إليهم أولاً ليعذر إليهم ، فبعث عمرو بن الوليد أخاً الأبرش ، فلما قدم عليهم لم يلتفتوا إليه ولا سمعوا له قولاً فرجع ، فهم الخليفة أن يبعث الجنود فسأله الأبرش أن يذهب إليهم بنفسه فأرسله ، فلما قدم عليهم الأبرش كلمهم واستمالهم إلى السمع والطاعة ، فأجابه أكثرهم وامتنع بعضهم ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بما وقع ، فأمره الخليفة أن يهدم بعض سورها ، وأن يقبل بمن أطاعه منهم إليه ، ففعل . فلما حضروا عنده سار بمن معه من الجنود نحو الرصافة على طريق البرية ، ومعه من الرؤوس إبراهيم بن الوليد المخلوع ، وسليمان بن هشام ، وجماعة من ولد الوليد ويزيد وسليمان ، فأقام بالرصافة أياماً ثم شخص[1] إلى البرية ، فاستأذنه سليمان بن هشام أن يقيم هناك أياماً ليستريح ويجم ظهره فأذن له ، فانحدر مروان فنزل عند واسط على شط الفرات فاقام ثلاثاً ثم مضى إلى قرقيسيا ، وابن هبيرة بها ليبعثه إلى العراق لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الحروري ، واشتغل مروان بهذا الأمر ، وأقبل عشرة آلاف فارس ممن كان مروان قد بعثهم في بعض السرايا ، فاجتازوا بالرصافة وفيها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان استأذن الخليفة في المقام هناك للراحة ، فدعوه إلى البيعة له وخلع مروان بن محمد ومحاربته ، فاستزله الشيطان فأجابهم إلى ذلك ، وخلع مروان وسار بالجيوش إلى قنسرين ، وكاتب أهل الشام فانفضوا إليه من كل وجه ، وكتب سليمان إلى ابن هبيرة الذي جهزه مروان لقتال الضحاك بن قيس الخارجي يأمره بالمسير إليه ، فالتف إليه نحو من سبعين ألفاً ، وبعث مروان إليهم عيسى بن مسلم في نحو من سبعين ألفاً فالتقوا بأرض قنسرين فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وجاء مروان والناس في الحرب فقاتلهم أشد القتال فهزمهم وقتل يومئذ إبراهيم بن سليمان بن هشام ، وكان أكبر ولده ، وقتل منهم نيفاً وثلاثين ألف ، وذهب سليمان مغلوباً فأتى حمص فالتف عليه من انهزم من الجيش فعسكر بهم فيها ، وبنى ما كان مروان هدم من سورها .

فجاءهم مروان فحاصرهم بها ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقاً ، فمكث كذلك ثمانية أشهر يرميهم ليلاً ونهاراً، ويخرجون إليه كل يوم ، ويقاتلون ثم يرجعون . هذا وقد ذهب سليمان وطائفة من الجيش معه إلى تدمر وقد اعترضوا جيش مروان في الطريق وهموا بالفتك به وأن ينتهبوه فلم يمكنهم ذلك ، وتهيأ لهم مروان فقاتلهم فقتلوا من جيشه قريباً من ستة آلاف وهم تسعمائة ، وانصرفوا إلى تدمر ، ولزم مروان محاصرة حمص كمال عشرة أشهر ، [فلما تتابع عليهم البلاء ، ولزمهم الذل ، سألوه أن يؤمنهم فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، ثم سألوه الأمان على أن يمكنوه من سعيد بن هشام][2] وابنيه مروان وعثمان ومن السكسكي الذي كان حبس معه ، ومن حبشي كان يفتري عليه ويشتمه فأجابهم إلى ذلك فأمنهم وقتل أولئك ، ثم سار إلى الضحاك ، وكان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق قد صالح الضحاك الخارجي على ما بيده من الكوفة وأعمالها ، وجاءت

---

(١) شخص : خرج .

(٢) زيادة من المصرية .

خيول مروان قاصدة إلى الكوفة ، فتلقاهم نائبها من جهة الضحاك ـ ملحان الشيباني ـ فقاتلهم فقتل ملحان ، واستناب الضحاك عليها المثنى بن عمران من بني عائذة ، وسار الضحاك في ذي القعدة الى الموصل ، وسار ابن هبيرة الى الكوفة فانتزعها من أيدي الخوارج ، وأرسل الضحاك جيشاً إلى الكوفة فلم يجد شيئاً .

وفي هذه السنة خرج الضحاك بن قيس الشيباني ، وكان سبب خروجه أن رجلاً يقال له سعيد بن بهدل ـ وكان خارجياً ـ اغتنم غفلة الناس واشتغالهم بمقتل الوليد بن يزيد ، فثار في جماعة من الخوارج بالعراق ، فالتف عليه أربعة آلاف ـ ولم تجتمع قبلها لخارجي ـ فقصدتهم الجيوش فاقتتلوا معهم ، فتارة يَكسرون وتارة يُكسرون ، ثم مات سعيد بن بهدل في طاعون أصابه ، واستخلف على الخوارج من بعده الضحاك بن قيس هذا ، فالتف أصحابه عليه ، والتقى هو وجيش كثير فغلبت الخوارج وقتلوا خلقاً كثيراً ، منهم عاصم بن عمر بن عبد العزيز ـ أخو أمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ـ فرثاه بأشعار . ثم قصد الضحاك بطائفة من أصحابه مروان فاجتاز بالكوفة ، فنهض إليه أهلها فكسرهم ودخل الكوفة فاستحوذ عليها ، واستناب بها رجلاً اسمه حسان ، ثم استناب ملحان الشيباني في شعبان من هذه السنة ، وسار هو في طلب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز نائب العراق ، فالتقوا فجرت بينهم حروب كثيرة يطول ذكرها وتفصيلها .

وفي هذه السنة اجتمعت جماعة من الدعاة إلى بني العباس عند إبراهيم بن محمد الإمام ومعهم أبو مسلم الخراساني ، فدفعوا إليه نفقات كثيرة ، وأعطوه خمس أموالهم ، ولم ينتظم لهم أمر في هذه السنة لكثرة الشرور المنتشرة ، والفتن الواقعة بين الناس . وفي هذه السنة خرج بالكوفة معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فدعا إلى نفسه وخرج إلى محاربة أمير العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، فجرت بينهما حروب يطول ذكرها ، ثم أجلاه عنها فلحق بالجبال فتغلب عليها .

وفي هذه السنة خرج الحارث بن سريج الذي كان لحق ببلاد الترك وما لأهم[1] على المسلمين فمن الله عليه بالهداية ووفقه حتى خرج إلى بلاد الشام ، وكان ذلك عن دعاء يزيد بن الوليد إلى الرجوع إلى الإسلام وأهله فأجابه الى ذلك ، وخرج إلى خراسان فأكرمه نصر بن سيار نائب سورة[2] ، واستمر الحارث بن سريج على الدعوة إلى الكتاب والسنة وطاعة الإمام ، وعنده بعض المناوأة[3] لنصر بن سيار .

قال الواقدي وابو معشر: وحج بالناس في هذه السنة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز أمير

---

(١) وما لأهم : وناصرهم وساعدهم .

(٢) كذا . ولعلَّ فيه تحريفاً صوابه (نائب خراسان) .

(٣) المناوأة : الخصام .

الحجاز ومكة والمدينة والطائف ، وأمير العراق نصر بن سعيد الحرشي ، وقد خرج عليه الضحاك الحروري ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وأمير خراسان نصر بن سيار ، وقد خرج عليه الكرماني والحارث بن سريج . وممن توفي في هذه السنة :

بكر بن الأشج وسعد بن إبراهيم وعبد الله بن دينار وعبد الملك بن مالك الجزري وعمير بن هانيء ومالك بن دينار ووهب بن كيسان وأبو إسحاق السبيعي .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائة

فيها كان مقتل الحارث بن سريج ، وكان سبب ذلك أن يزيد بن الوليد الناقص كان قد كتب إليه كتاب أمان ، حتى خرج من بلاد الترك وصار إلى المسلمين ورجع عن موالاة المشركين إلى نصرة الإسلام وأهله . وأنه وقع بينه وبين نصر بن سيار نائب خراسان وحشة ومنافسات كثيرة يطول ذكرها ، فلما صارت الخلافة الى مروان بن محمد استوحش الحارث بن سريج من ذلك. وتولى ابن هبيرة نيابة العراق ، وجاءت البيعة لمروان ، فامتنع الحارث من قبولها وتكلم في مروان ، وجاءه مسلمة بن أحوز أمير الشرطة ، وجماعة من رؤوس الأجناد والأمراء ، وطلبوا منه أن يكف لسانه ويده ، وأن لا يفرق جماعة المسلمين ، فأبى وبرز ناحية عن الناس ، ودعا نصر بن سيار إلى ما هو عليه من الدعوة إلى الكتاب والسنة فامتنع نصر من موافقته ، واستمر هو على خروجه على الإسلام . وأمر الجهم بن صفوان مولى بني راسب ويكنى بأبي محرز ـ وهو الذي نسبت إليه الفرقة الجهمية ـ أن يقرأ كتاباً فيه سيرة الحارث على الناس ، وكان الحارث يقول أنا صاحب الرايات السود . فبعث إليه نصر يقول : لئن كنت ذاك فلعمري إنكم الذين تخربون سور دمشق وتزيلون بني أمية ، فخذ مني خمسمائة رأس ومائة بعير ، وإن كنت غيره فقد أهلكت عشيرتك . فبعث إليه الحارث بقول : لعمري إن هذا لكائن . فقال له نصر : فابدأ بالكرماني أولاً ، ثم سر إلى الري ، وأنا في طاعتك إذا وصلتها . ثم تناظر نصر والحارث ورضيا أن يحكم بينهما مقاتل بن حيان والجهم بن صفوان «فحكما أن يعزل نصر ويكون الأمر شورى . فامتنع نصر من قبول ذلك ، ولزم الجهم بن صفوان »[1] وغير قراءة سيرة الحارث على الناس في الجامع والطرق ، فاستجاب له خلق كثير ، وجم غفير[2] فعند ذلك انتدب لقتاله جماعات من الجيوش عن أمر نصر بن سيار ، فقصدوه فحارب دونه أصحابه ، فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان ، طعنه رجل في فيه فقتله ، ويقال بل أسر الجهم فأوقف بين يدي سلم بن أحوز فأمر بقتله ، فقال : إن لي أماناً من أبيك، فقال : ما كان لـه أن يؤمنك ، ولو فعل ما أمنتك ، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب ، وأنزلت عيسى بن مريم ، ما نجوت ، والله ولو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك . وأمر ابن ميسر فقتله . ثم اتفق

(١) زيادة من المصرية .
(٢) غفير : كثير .

الحارث بن سريج والكرماني على نصر ومخالفته ، والدعوة الى الكتاب والسنة واتباع ائمة الهدى وتحريم المنكرات الى غير ذلك مما جاءت به الشريعة ، ثم اختلفا فيما بينهما واقتتلا قتالاً شديداً ، فغلب الكرماني وانهزم أصحاب الحارث . وكان راكباً على بغل فتحول إلى فرس فحرنت أن تمشي ، وهرب عنه أصحابه ولم يبق معه منهم سوى مائة ، فأدركه أصحاب الكرماني فقتلوه تحت شجرة زيتون ، وقيل تحت شجرة عبيراً . وذلك يوم الأحد لست بقين من رجب من هذه السنة ، وقتل معه مائة من أصحابه ، واحتاط الكرماني على حواصله وأمواله ، وأخذ أموال من خرج معه أيضاً ، وأمر بصلب الحارث بلا رأس على باب مرو ، ولما بلغ نصر بن سيار مقتل الحارث قال ذلك :

يا مدخلَ الذلِ على قومهِ ... بعداً وسحقاً لك من هالكِ
شؤمكَ أردى مُضَراً كلها ... وغضَّ من قومكَ بالحاركِ
ما كانتْ الأزدُ وأشياعها ... تطمعُ في عمرو ولا مالكِ
ولا بني سعدٍ إذ ألجموا ... كلَ طِمِرٍ[1] لونه حالكِ[2]

وقد أجابه عباد[3] بن الحارث بن سريج فيما قال :

ألا يا نصُر قد برحَ الخفاءُ ... وقد طالَ التمنّي والرجاءُ
وأصبحت المزونُ بأرض مروٍ ... تقضي في الحكومةِ ما تشاءُ
يجوزُ قضاؤها في كلِ حكمٍ ... على مضرٍ وإن جارَ القضاءُ
وحِميرُ في مجالسها قعودٌ ... ترقرقُ في رقابُهم الدماءُ
فإن مضرُ بذا رضيتْ وذلت ... فطالَ لها المذلةَ والشقاءُ
وإن هيَ أعتبتْ فيها وإلا ... فحلَّ على عساكرها العفاءُ

وفي هذه السنة بعث إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبا مسلم الخراساني إلى خراسان وكتب معه كتبا إلى شيعتهم بها : إن هذا أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا ، وقد وليته على ما غلب عليه مَن أرض خراسان ، فلما قدم أبو مسلم خراسان وقرأ على أصحابه هذا الكتاب ، ولم يلتفتوا إليه ولم يعملوا به وأعرضوا عنه ونبذوه وراء ظهورهم ، فرجع الى إبراهيم بن محمد أيام الموسم ، فاشتكاهم اليه وأخبره بما قابلوه من المخالفة ، فقال له : يا عبد الرحمن ! إنك رجل منا أهل البيت ، إرجع إليهم وعليك بهذا الحي من اليمن فأكرمهم وانزل بين أظهرهم فإن الله لا يتمم هذا الأمر إلا بهم . ثم حذره من بقية الأحياء وقال له : إن استطعت أن لا تدع بتلك البلاد لساناً عربياً فافعل ، ومن بلغ من أبنائهم خمسة أشبار واتهمته فاقتله ، وعليك بذاك الشيخ فلا تقصه - يعني

---

(١) طمرٍ : ثوب بالٍ عتيق .
(٢) حالك : أسود .
(٣) في المصرية عتاب وفي نسخة القسطنطينية غياث وصححناه من تاريخ ابن جرير الطبري ٩ : ٧٤ .

سليمان بن كثير ـ وسيأتي ما كان من أمر أبي مسلم الخراساني فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وفي هذه السنة قتل الضحاك بن قيس الخارجي في قول أبي مخنف ، وكان سبب ذلك أن الضحاك حاصر عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط ووافقه على محاصرته منصور بن جمهور ، فكتب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز إليه : إنه لا فائدة لك في محاصرتي ولكن عليك بمروان بن محمد فسر إليه، فان قتلته اتبعتك. فاصطلحا على مخالفة مروان بن محمد أمير المؤمنين، فلما اجتاز الضحاك بالموصل كاتبه أهلها فمال إليهم فدخلها ، وقتل نائبها واستحوذ عليها ، وبلغ ذلك مروان وهو محاصر حمص ، ومشغول بأهلها وعدم مبايعتهم إياه ، فكتب إلى ابنه عبد الله بن مروان ـ وكان الضحاك قد التف عليه مائة ألف وعشرون ألفاً فحاصروا نصيبين ـ وساق مروان في طلبه فالتقيا هنالك ، فاقتتلا قتالاً شديداً فقتل الضحاك في المعركة وحجز الليل بين الفريقين ، وفقد أصحاب الضحاك الضحاك وشكوا في أمره حتى أخبرهم من رآه قد قتل ، فبكوا عليه وناحوا ، وجاء الخبر إلى مروان فبعث إلى المعركة بالمشاعل ومن يعرف مكانه بين القتلى ، وجاء الخبر الى مروان وهو مقتول ، وفي رأسه ووجهه نحو من عشرين ضربة ، فأمروا برأسه فطيف به في مدائن الجزيرة . واستخلف الضحاك على جيشه من بعده رجلاً يقال له الخيبري ، فالتف عليه بقية جيش الضحاك ، والتف مع الخيبري سليمان بن هشام بن عبد الملك وأهل بيته ومواليه ، والجيش الذين كانوا قد بايعوه في السنة الماضية على الخلافة ، وخلعوا مروان بن محمد عن الخلافة لأجله ، فلما أصبحوا اقتتلوا مع مروان ، فحمل الخيبري في اربعمائة من شجعان أصحابه على مروان ، وهو في القلب ، فكر منهزماً واتبعوه حتى أخرجوه من الجيش ، ودخلوا عسكره وجلس الخيبري على فرشه ، هذا وميمنة مروان ثابتة وعليها ابنه عبد الله ، وميسرته أيضاً ثابتة وعليها إسحاق بن مسلم العقيلي . ولما رأى عبد الله العسكر فارين مع الخيبري ، وأن الميمنة والميسرة من جهتهم باقيتان طمعوا فيه فأقبلوا إليه بعمد الخيام فقتلوه بها ، وبلغ قتله مروان وقد سار عن الجيش نحواً من خمسة أميال أو ستة ، فرجع مسروراً وانهزم أصحاب الضحاك ، وقد ولوا عليهم شيبان ، فقصدهم مروان بعد ذلك بمكان يقال له الكراديس فهزمهم .

وفيها بعث مروان الحمار على إمارة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ليقاتل من بها من الخوارج . وفي هذه السنة حج بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو نائب المدينة ومكة والطائف ، وأمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار.

وممن توفي في هذه السنة بكر بن سوادة وجابر الجعفي والجهم بن صفوان ، مقتولاً كما تقدم ، والحارث بن سريج أحد كبراء الأمراء ، وقد تقدم شيء من ترجمته ، وعاصم بن عبدلة ، وأبو حصين عثمان بن عاصم ، ويزيد بن أبي حبيب ، وأبو التياح يزيد بن حميد ، وأبو حمزة

النعنبعي ، وأبو الزبير المكي وأبو عمران الجوني وأبو قبيل المغافري ، وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائة

فيها اجتمعت الخوارج بعد الخيبري على شيبان بن عبد العزيز بن الحليس اليشكري الخارجي فأشار عليهم سليمان بن هشام أن يتحصنوا بالموصل ويجعلوها منزلاً لهم ، فتحولوا إليها وتبعهم مروان بن محمد أمير المؤمنين ، فعسكروا بظاهرها وخندقوا عليهم مما يلي جيش مروان . وقد خندق مروان على جيشه أيضاً من ناحيتهم ، وأقام سنة يحاصرهم ويقتتلون في كل يوم بكرة وعشية ، وظفر مروان بابن أخ لسليمان بن هشام ، وهو أمية بن معاوية بن هشام ، أسره بعض جيشه ، فأمر به فقطعت يداه ثم ضرب عنقه ، وعمه سليمان والجيش ينظرون إليه . وكتب مروان إلى نائبه بالعراق يزيد بن عمر بن هبيرة يأمره بقتال الخوارج الذين في بلاده . فجرت له معهم وقعات عديدة ، فظفر بهم ابن هبيرة ، وأباد خضراءهم ولم يبق لهم بقية بالعراق ، واستنقذ الكوفة من أيدي الخوارج ، وكان عليها المثنى بن عمران العائذي ـ عائذة قريش ـ في رمضان من هذه السنة ، وكتب مروان إلى ابن هبيرة لما فرغ من الخوارج أن يمده بعمار بن صبارة ـ وكان من الشجعان ـ فبعثه إليه في سبعة آلاف أو ثمانية آلاف ، فأرسلت إليه سرية في أربعة آلاف فاعترضوه في الطريق فهزمهم ابن صبارة وقتل أميرهم الجون بن كلاب الشيباني الخارجي ، وأقبل نحو الموصل ، ورجع في الخوارج إليهم . فأشار سليمان بن هشام عليهم أن يرتحلوا عن الموصل ، فإنه لم يكن يمكنهم الاقامة بها ، ومروان من أمامهم وابن صبارة من ورا ئهم ، قد قطع عنهم الميرة[1] حتى لم يجدوا شيئاً يأكلونه ، فارتحلوا عنها وساروا على حلوان الى الأهواز ، فارسل مروان ابن صبارة في آثارهم في ثلاثة آلاف ، فاتبعهم يقتل من تخلف منهم ويلحقهم في مواطن فيقاتلهم ، وما زال وراءهم حتى فرق شملهم شذر مذر[2] ، وهلك أميرهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري بالأهواز في السنة القابلة ، قتله خالد بن مسعود بن جعفر بن خليد الأزدي ، وركب سليمان بن هشام في مواليه وأهل بيته السفن وساروا إلى السند ، ورجع مروان من الموصل فأقام بمنزله بحران وقد وجد سروراً بزوال الخوارج ، ولكن لم يتم سروره ، بل أعقبه القدر من هو أقوى شوكة وأعظم أتباعاً ، وأشد بأساً من الخوارج ، وهو ظهور أبي مسلم الخراساني الداعية إلى دولة بني العباس .

اوّل ظهور أبي مسلم الخراساني

وفي هذه السنة ورد كتاب من إبراهيم بن محمد الإمام العباسي بطلب أبي مسلم الخراساني من خراسان ، فسار إليه في سبعين من النقباء ، لا يمرون ببلد إلا سألوهم إلى أين تذهبون ؟ فيقول

---

(١) الميرة : جمعها مير : الطعام الذي يدّخره الإنسان .

(٢) شذر مذر : في كل ناحية .

أبومسلم : نريد الحج . وإذا توسم أبو مسلم من بعضهم ميلاً إليهم دعاهم إلى ما هم فيه فيجيبه إلى ذلك ، فلما كان ببعض الطريق جاء كتاب ثان من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم : إني بعثت إليك براية النصر فارجع الى خراسان وأظهر الدعوة ، وأمر قحطبة بن شبيب أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الامام فيوافيه في الموسم ، فرجع أبو مسلم بالكتاب فدخل خراسان في أول يوم من رمضان فرفع الكتاب إلى سليمان بن كثير وفيه : أن أظهر دعوتك ولا تتربص . فقدموا عليهم أبا مسلم الخراساني داعياً إلى بني العباس ، فبعث أبو مسلم دعاته في بلاد خراسان ، وأمير خراسان ـ نصر بن سيار ـ مشغول بقتال الكرما ني ، وشيبان بن سلمة الحروري ، وقد بلغ من أمره أنه كان يسلم عليه أصحابه بالخــلافة في طوائف كثيرة من الخوارج ، فظهر أمر أبي مسلم وقصده الناس من كل جانب ، فكان ممن قصده في يوم واحد أهل ستين قرية ، فأقام هناك اثنين وأربعين يوماً ، ففتحت على يديه أقاليم كثيرة . ولما كان ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان في هذه السنة ، عقد أبو مسلم اللواء الذي بعثه إليه الإمام ، ويدعى الظل ، على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً ، وعقد الراية التي بعث بها الامام أيضاً ، وتدعى السحاب ، على رمح طوله ثلاثة عشـر ذراعاً ، وهمـا سـوداوان ، وهو يتـلو قـوله تعـالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمـوا وإنَّ الله عَلَى نَصْـرِهِمْ لقَدِيرٌ ﴾[1] ولبس أبو مسلم وسليمان بن كثير ومـن أجابهم إلى هذه الدعوة ، السواد ، وصـارت شعارهم ، وأوقدوا في هذه الليلة ناراً عظيمة يدعون بها أهل تلك النواحي ، وكانت علامة بينهم فتجمعوا . ومعنى تسمية إحدى الرايتين بالسحاب أن السحاب كما يطبق جميع الأرض كذلك بنو العباس تطبق دعوتهم أهل الأرض ، ومعنى تسمية الأخرى بالظل أن الأرض كما أنها لا تخلو من الظل فكذلك بنو العبـاس لا تخلو الأرض من قائم منهم . وأقبل النـاس إلى أبي مسلم من كل جانب ، ركثر جيشه .

ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالناس ، ونصب له منبراً ، وأن يخالف في ذلك بني أمية ، ويعمل بالسُّنَّة ، فنودي للصلاة الصلاة جامعة ، ولم يؤذن ولم يقم خلافاً لهم ، وبدأ بالصلاة قبل الخطبة ، وكبر ستاً في الأولى قبل القراءة ، لا أربعاً . وخمساً في الثانية لا ثلاثاً ، خلافاً لهم . وابتدأ الخطبة بالذكر والتكبير وختمها بالقراءة ، وانصرف الناس من صلاة العيد وقد أعد لهم أبو مسلم طعاماً فوضعه بين أيدي الناس ، وكتب إلى نصر بن سيار كتاباً بدأ فيه بنفسه ثم قال إلى نصر بن سيار . بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد فان الله غير أقواماً في كتابه فقال : ﴿ وأَقْسِمُوا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُم نَذِيرٌ ليكونُنَّ أَهْدَى مِنْ إحْدَى الأُمَمِ ﴾[2] . إلى قوله : ﴿ تَحْوِيلاً ﴾[3] فعظم على نصر أن قدم اسمه على اسمه ، وأطال الفكر ، وقال : هذا كتاب له جواب .

---

(١) سورة الحج ، الآية / ٣٩ .

(٢) و(٣) سورة فاطر ، الآية / ٤٢ ـ ٤٣ .

قال ابن جرير : ثم بعث نصر بن سيار خيلا عظيمة لمحاربة أبي مسلم ، وذلك بعد ظهوره بثمانية عشر شهراً ، فأرسل أبو مسلم إليهم مالك بن الهيثم الخزاعي ، فالتقوا ، فدعاهم مالك إلى الرضا عن آل رسول الله ﷺ فأبوا ذلك ، فتصافوا من أول النهار إلى العصر ، فجاء إلى مالك مدد فقوي فظفر بهم مالك ، وكان هذا أول موقف اقتتل فيه جند بني العباس وجند بني أمية .

وفي هذه السنة غلب خازم بن خزيمة على مرو الروذ وقتل عاملها من جهة نصر بن سيار ، وهو بشر بن جعفر السعدي ، وكتب بالفتح إلى أبي مسلم ، وكان أبو مسلم إذا ذاك شاباً حدثاً قد اختاره إبراهيم لدعوتهم . وذلك لشهامته وصرامته ، وقوة فهمه وجودة ذهنه ، وأصله من سواد الكوفة ، وكان مولى لادريس بن معقل العجلي ، فاشتراه بعض دعاة بني العباس بأربعمائة درهم ، ثم أخذه محمد بن علي ثم آل ولاؤه لآل العباس ، وزوجه إبراهيم الامام بابنة أبي النجم إسماعيل بن عمران ، وأصدقها عنه وكتب إلى دعاتهم بخراسان والعراق أن يسمعوا منه ، فامتثلوا أمره ، وقد كانوا في السنة الماضية قبل هذه السنة ردوا عليه أمره لصغره فيهم ، فلما كانت هذه السنة أكد الامام كتابه إليهم في الوصاة به وطاعته ، وكان في ذلك الخير له ولهم ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾[1] ولما فشا أمر أبي مسلم بخراسان تعاقدت طوائف من العرب الذين بها على حربه ومقاتلته ، ولم يكره الكرماني وشيبان لأنهما خرجا على نصر وأبو مسلم مخالف لنصر كحالهما ، وهو مع ذلك يدعو إلى خلع مروان الحمار ، وقد طلب نصر من شيبان أن يكون معه على حرب أبي مسلم ، أو يكف عنه حتى يتفرغ لحربه ، فاذا قتل أبا مسلم عادا إلى عداوتهما ، فأجابه إلى ذلك ، فبلغ ذلك أبا مسلم فبعث إلى الكرماني يعلمه بذلك فلام الكرماني شيبان على ذلك ، وثناه[2] عن ذلك ، وبعث أبو مسلم إلى هراة النضر بن نعيم فأخذها من عاملها عيسى بن عقيل الليثي ، وكتب إلى أبي مسلم بذلك ، وجاء عاملها إلى نصر هارباً ، ثم إن شيبان وادع نصر بن سيار سنة على ترك الحرب بينه وبينه ، وذلك عن كره من الكرماني ، فبعث ابن الكرماني إلى أبي مسلم إني معك على قتال نصر ، وركب أبو مسلم في خدمة الكرماني فاتفقا على حرب نصر ومخالفته . وتحول أبو مسلم إلى موضع فسيح وكثر جنده وعظم جيشه ، واستعمل على الحرس والشرط والرسائل والديوان وغير ذلك مما يحتاج إليه الملك عمالاً ، وجعل القاسم بن مجاشع التميمي ـ وكان أحد النقباء ـ على القضاء وكان يصلي بأبي مسلم الصلوات ، ويقص بعض القصص فيذكر محاسن بني هاشم ويذم بني أمية . ثم تحول أبو مسلم الى قرية يقال لها بالين ، وكان في مكان منخفض ، فخشي أن يقطع عنه نصر بن سيار الماء ، وذلك في سادس ذي الحجة من هذه السنة ، وصلى بهم يوم النحر القاضي القاسم بن مجاشع ، وصار نصر بن سيار في جحافل كالسحاب قاصداً قتال أبي مسلم ، واستخلف على البلاد نوابا وكان من أمرهما ما سنذكره في السنة الآتية .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية / ٣٨ .

(٢) وثناه : ردّه وأرجعه .

مقتل ابن الكرماني

ونشبت الحرب بين نصر بن سيار وبين ابن الكرماني ـ وهو جديع بن علي الكرماني ـ فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير ، وجعل أبو مسلم يكاتب كلا من الطائفتين ويستميلهم إليه ، يكتب إلى نصر وإلى ابن الكرماني : إن الامام قد أوصاني بكم خيراً ولست أعدو رأيه فيكم ، وكتب إلى الكور[1] يدعو إلى بني العباس فاستجاب له خلق كثير وجم غفير ، وأقبل أبو مسلم فنزل بين خندق نصر وخندق ابن الكرماني ، فهابه الفريقان جميعاً ، وكتب نصر بن سيار إلى مروان يعلمه بأمر أبي مسلم ، وكثرة من معه ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، وكتب في جملة كتابه :

أرى بينَ الرمادِ وميضَ جمرٍ ... واحرى أن يكونَ لهُ ضرامُ[2]
فإنَّ النارَ بالعيدانِ تذكى[3] ... وإنَّ الحربَ مبدؤها الكلامُ
فقلتُ من التعجّبِ ليتَ شعري ... أأيقاظٌ أميّة أمْ نيامُ

فكتب إليه مروان : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، فقال نصر : إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده . وبعضهم يرويها بلفظ آخر : ـ

أرى خللَ الرمادِ وميضَ نارٍ ... فيوشكُ أن يكونَ لها ضرامُ
فانَّ النارَ بالعيدانِ تذكى ... وإنَّ الحربَ أولها كلامُ
فانّ لم يطفها عقلاءُ قومٍ ... يكونُ وقودها جثثٌ وهامُ[4]
أقولُ من التعجب لِيتَ شعري ... أأيقاظٌ أميّةُ أمْ نيامُ
فانْ كانوا لحينهمُ نياماً ... فقلْ قوموا فقدْ حانَ القيامُ

قال ابن خلكان : وهذا كما قال بعض علوية الكوفة حين خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسين على المنصور أخي السفاح .

أرى ناراً تشبُّ على بقاعِ ... لها في كلِّ ناحيةٍ شعاعُ
وقدْ رقدت بنو العباسِ عنها ... وباتتْ وهي آمنةٌ رتاعُ
كما رقدتْ أميّةُ ثم هبتْ ... تدافعُ حينَ لا يغني الدفاعُ

وكتب نصر بن سيار أيضاً إلى نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة يستمده وكتب إليه :

---

(١) الكور : الأقاليم .

(٢) ضرام : اشتعال .

(٣) تذكى : يشتد لهيبها .

(٤) وهام : مفردها هامة وهي الرأس .

أبلغْ يـزيـدَ وخيـرُ القـولِ أصـدقـهُ ... وقد تحققتُ أنْ لا خيرَ في الكذبِ
بـأنّ أرضَ خـراسـانٍ رأيتُ بهـا ... بيضاً إذا أفرختْ حُدِّثتَ بـالعجبِ
فـراخُ عـامـينِ إلاّ أنـهـا كبـرتْ ... ولم يطرنَ وقدْ سـر بلنَ بالـزغبِ[1]
فـإنْ يـطرنَ ولم يُحتـلْ لهنَّ بهـا ... يلهبنَ نيـرانَ حـربٍ أيّمـا لهـبِ

فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان ، واتفق في وصول الكتاب إليه أن وجدوا رسولا من جهة إبراهيم الامام ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم ، وهو يشتمه فيه ويسبه ، ويأمره أن يناهض نصر بن سيار وابن الكرماني ، ولا يترك هناك من يحسن العربية . فعند ذلك بعث مروان وهو مقيم بحران كتاباً إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، يأمره فيه أن يذهب إلى الحميمة ، وهي البلدة التي فيها إبراهيم بن محمد الامام ، فيقيده ويرسله إليه . فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم الامام جالساً فقيده وأرسل به إلى دمشق ، فبعثه نائب دمشق من فوره إلى مروان ، فأمر به فسجن ثم قتل كما سيأتي .

وأما أبو مسلم فانه لما توسط بين جيش نصر وابن الكرماني ، كاتب ابن الكرماني ، إني معك فمال إليه، فكتب إليه نصر ويحك لا تغتر[2] فانه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك، فهلم حتى نكتب كتاباً بيننا بالموادعة ، فدخل ابن الكرماني داره ثم خرج إلى الرحبة في مائة فارس ، وبعث إلى نصر هلم حتى نتكاتب ، فأبصر نصر غرة ابن الكرماني فنهض إليه في خلق كثير ، فحملوا عليه فقتلوه وقتلوا من جماعته جماعة ، وقتل ابن الكرماني في المعركة ، طعنه رجل في خاصرته فخر عن دابته ، ثم أمر نصر بصلبه وصلب معه جماعة ، وصلب معه سمكة ، وانضاف ولده إلى أبي مسلم الخراساني ومعه طوائف من الناس من أصحاب ابن الكرماني ، فصاروا كتفاً واحداً على نصر .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة تغلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر على فارس وكورها ، وعلى حلوان وقومس واصبهان والري ، بعد حرب يطول ذكرها ، ثم التقى عامر بن ضبارة معه باصطخر فهزمه ابن ضبارة وأسر من أصحابه أربعين ألفا . فكان منهم عبـد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، فنسبه ابن ضبارة وقال له : ما جاء بك مع ابن معاوية وقد علمت خلافه لأمير المؤمنين ؟ فقال : كان عليَّ دَيْن فأتيته فيه . فقام إليه [حرب بن] قطن بن وهب الهلالي فاستوهبه منه وقال : هو ابن أختنا فوهبه له ، وقال : ما كنت لأقدم على رجل من قريش ، ثم استعلم ابن ضبارة منه أخبار ابن معاوية فذمه ورماه هو وأصحابه باللواط ، وجيء من الأسارى بمائة غلام عليهم الثياب المصبغة ، وقد كان يعمل معهم الفاحشة ، وحمل ابن ضبارة عبد الله بن علي على البريد لابن هبيرة ليخبره بما أخبر به ابن ضبارة عن ابن معاوية . وقد كتب الله عز وجل أن زوال ملك بني

---

(١) بالزغب : صغار الريش .
(٢) تغتر : تنخدع .

أمية يكون على يدي هذا الرجل ، وهو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولا يشعر واحد منهم بذلك .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة ولى الموسم أبو حمزة الخارجي فأظهر التحكم والمخالفة لمروان ، وتبرأ منه . فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ أمير مكة والمدينة والطائف ، وإليه أمر الحجيج في هذه السنة ، ثم صالحهم على الأمان إلى يوم النفر ، فوقفوا على حدة بين الناس بعرفات ، ثم تخيزوا عنهم ، فلما كان يوم النفر الأول تعجل عبد الواحد وترك مكة فدخلها الخارجي بغير قتال ، فقال بعض الشعراء في ذلك : ـ

زار الحجيجُ عصابةٌ قد خالفوا ... دينَ الالهِ ففرَّ عبدُ الواحدِ
تركَ الحلائلَ والامارةَ هارباً ... ومضى يخبِّطُ كالبعيرِ الشاردِ
لو كانَ والدهُ تنصَّل عرقهُ ... لصفتْ مواردهُ بعرقِ الواردِ

ولما رجع عبد الواحد إلى المدينة شرع في تجهيز السرايا إلى قتال الخارجي ، وبذل النفقات وزاد في أعطية الأجناد ، وسيرهم سريعاً . وكان أمير العراق يزيد بن هبيرة ، وأمير خراسان نصر بن سيار ، وقد استحوذ على بعض بلاده أبو مسلم الخراساني . وممن توفي فيها من الأعيان :

سالم أبو النضر ، وعلي بن زيد بن جدعان ، في قول ، ويحيى بن أبي كثير . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل ولله الحمد .

سنة ثلاثين ومائة

في يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الأول منها ، دخل أبو مسلم الخراساني مرو ، ونزل دار الامارة بها ، وانتزعها من يد نصر بن سيار ، وذلك بمساعدة علي بن الكرماني ، وهرب نصر بن سيار في شرذمة قليلةٍ من الناس ، نحو من ثلاثة آلاف ، ومعه امرأته المرزبانة ، حتى لحق سرخس وترك امرأته وراءه ، ونجا بنفسه ، واستفحل أمر أبي مسلم جداً ، والتفت عليه العساكر .

مقتل شيبان بن سلمة الحروري

ولما هرب نصر بن سيار بقي شيبان وكان ممالئاً[1] له على أبي مسلم ، فبعث إليه أبو مسلم رسلاً فحبسهم فأرسل أبو مسلم إلى بسام بن إبراهيم مولى بني ليث يأمره أن يركب إلى شيبان فيقاتله . فسار إليه فاقتتلا فهزمه بسام فقتله واتبع أصحابه يقتلهم ويأسرهم ، ثم قتل أبو مسلم عليا وعثمان ابني الكرماني ، ثم وجه أبو مسلم أبا داود إلى بلخ فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة . ثم إن أبا مسلم اتفق مع أبي داود على قتل عثمان بن الكرماني في يوم كذا .

---

(١) ممالئاً : مناصراً ومساعداً .

وفي ذلك اليوم بعينه يقتل أبو مسلم علي بن جديع الكرماني ، فوقع ذلك كذلك .

وفي هذه السنة وجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب إلى نيسابور لقتال نصر بن سيار ، ومع قحطبة جماعة من كبار الأمراء ، منهم خالد بن برمك . فالتقوا مع تميم بن نصر بن سيار وقد وجهه أبوه لقتالهم بطوس ، فقتل قحطبة من أصحاب بنصر نحواً من سبعة عشر ألفاً في المعركة ، وقد كان أبو مسلم بعث إلى قحطبة مدداً نحو عشرة آلاف فارس ، عليهم علي بن معقل ، فاقتتلوا فقتلوا من أصحاب نصر خلقاً كثيراً ، وقتلوا تميم بن نصر ، وغنموا أموالاً جزيلة جداً ، ثم إن يزيد بن عمر ابن هبيرة نائب مروان على العراق بعث سرية مدداً لنصر بن سيار ، فالتقى معهم قحطبة في مستهل ذي الحجة ، وذلك يوم الجمعة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم جند بني أمية ، وقتل من أهل الشام وغيرهم عشرة آلاف ، منهم نباتة بن حنظلة عامل جرجان ، فبعث قحطبة برأسه إلى أبي مسلم .

ذكر دخول ابي حمزة الخارجي المدينة النبوية واستيلائه عليها

قال ابن جرير : وفي هذه السنة كانت وقعة بقديد بين أبي حمزة الخارجي الذي كان عام أول في أيام الموسم ، فقتل من أهل المدينة من قريش خلقاً كثيراً ، ثم دخل المدينة وهرب نائبها عبد الواحد بن سليمان ، فقتل الخارجي من أهلها خلقاً ، وذلك لتسع عشرة ليلة خلت من صفر من هذه السنة ، ثم خطب على منبر رسول الله ﷺ فوبخ أهل المدينة ، فقال : يا أهل المدينة إني مررت بكم أيام الأحول - يعني هشام بن عبد الملك - وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فكتبتم إليه تسألونه أن يضع الخرص[1] عنكم فوضعه ، فزاد غنيكم غنى وزاد فقيركم فقراً ، فكتبتم إليه جزاك الله خيراً ، فلا جزاه الله خيراً . في كلام طويل . فأقام عندهم ثلاثة أشهر بقية صفر وشهرَيْ ربيع وبعض جمادي الأول فيما قال الواقدي وغيره . وقد روى المدائني أن أبا حمزة رقي يوماً منبر رسول الله ﷺ ثم قال : تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من بلادنا بطراً[2] ولا أشراً[3] ، ولا لدولة نريد أن نخوض فيها النار ، وإنما أخرجنا من ديارنا أنا رأينا مصابيح الحق طمست ، وضعف القائل بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، فلما رأينا ذلك ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن ، فأجبنا داعي الله ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾[4] أقبلنا من قبائل شتى ، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاورون[5] لحافاً[6] واحداً قليلون مستضعفون في الأرض ، فآوانا الله وأيدنا بنصره ، فأصبحنا والله بنعمة الله إخواناً ، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بني مروان ، فشتان لعمر الله بين الغي[7] والرشد ، ثم أقبلوا نحونا يهرعون قد ضرب

---

(1) الخرص : الجراب .
(2) بطراً : جهلاً واستخفافاً بالنعمة .
(3) أشراً : بطراً ومرحاً .
(4) سورة الأحقاف ، الآية/ ٣٢ .
(5) يتعاورون : يتبادلون .
(6) لحافاً : جمعها لُحُف : كلُّ ما يُلتَحَف به اي يُتَغَطّى .
(7) الغي : الضلال والفساد .

الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله، وصدق عليهم ظنه فاتبعوه، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب ، بكل مهند ذي رونق ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم ، بضرب يرتاب منه المبطلون ، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدنا ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، يا أهل المدينة أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر ، يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم ، إلا مشركاً عابد وثن أو كافراً أهل الكتاب ، أو إماماً جائراً ، يا أهل المدينة من زعم أن الله يكلف نفساً فوق طاقتها ، أو يسألها ما لم يؤتها ، فهو لله عدو ، وأنا له حرب . يا أهل المدينة أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله في كتابه على القوي والضعيف ، فجاء تاسع ليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذها لنفسه ، مكابراً محارباً لربه ، يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث ، وأعراب جفاة أجلاف[1] ، ويحكم فهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً أحداثاً ، شباباً والله مكتهلون في شبابهم ، غضة[2] عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن السعي في الباطل أقدامهم ، قد باعوا لله أنفساً تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية اصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفاً من النار ، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة . فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت[3] ، وإلى الرماح قد شرعت ، وإلى السهام قد فوقت ، وارعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا والله وعيد الكتيبة لوعيد الله في القرآن، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في مناقير الطير طال ما فاضت في جوف الليل من خشية الله ، وطال ما بكت خالية من خوف الله ، وكم من يد زالت عن مفصلها طال ما ضربت في سبيل الله وجاهدت أعداء الله . وطال ما اعتمدبها صاحبها في طاعة الله . أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيري ، وما توفيقي إلا بالله .

ثم روى المدائني عن العباس عن هارون عن جده قال : كان أبو حمزة الخارجي قد أحسن السيرة في أهل المدينة فمالوا إليه حتى سمعوه [يقول] برح الخفا أين عن بابك نذهب [ثم قال] من زنا فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، فعند ذلك أبغضوه ورجعوا عن محبته . وأقام بالمدينة حتى بعث مروان الحمار عبد الملك بن محمد بن عطية أحد بني سعد في خيل أهل الشام أربعة آلاف ، قد انتخبها مروان من جيشه ، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار وفرساً عربية ، وبغلا لثقله ، وأمره أن يقاتله ولا يرجع عنه ، ولو لم يلحقه إلا باليمن فليتبعه إليها ، وليقاتل نائب صنعاء عبد الله بن يحيى . فسار ابن عطية حتى بلغ وادي القرى فتلقاه أبو حمزة الخارجي قاصداً قتال مروان بالشام ، فاقتتلوا هنالك إلى الليل ، فقال له : ويحك يا ابن عطية ! إن الله قد جعل الليل سكناً فأخر إلى غد ، فأبى عليه أن يقلع عن قتاله ، فما زال يقاتلهم حتى كسرهم فولوا ورجع فلهم إلى المدينة ، فنهض إليهم

(١) أجلاف : غلاظ جُفَاة .

(٢) غضة : مخفوضة ومنحرفة .

(٣) انتضيت : سُلَّتْ ورُفِعَتْ .

أهل المدينه فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ودخل ابن عطية المدينة ، وقد انهزم جيش أبي حمزة عنها . فيقال إنه أقام بها شهراً ثم استخلف عليها ، ثم استخلف على مكة وسار إلى اليمن فخـرج إلي عبد الله بن يحيى نائب صنعاء ، فاقتتلا فقتله ابن عطية وبعث برأسه إلى مروان وجاء كتاب مروان إليه يأمره باقامة الحج للناس في هذه السنة ، ويستعجله في المسير إلى مكة . فخرج من صنعاء في اثني عشر راكباً ، وترك جيشه بصنعاء ، ومعه خرج فيه أربعـون ألف دينار ، فلما كان ببعض الطريق نزل منزلا إذ أقبل إليه أميران يقال لهما ابنا جمانة من سادات تلك الناحية ، فقالوا ويحكم أنتم لصوص . فقال : أنا ابن عطية وهذا كتاب أمير المؤمنين إليَّ بأمرة الحج ، فنحن نعجل السير لندرك الموسم ، فقالوا : هذا باطل ، ثم حملوا عليهم فقتلوا ابن عطية وأصحابه ولم يفلت منهم إلا رجل واحد ، وأخذوا ما معهم من المال .

قال أبو معشر : وحج بالناس في هذه السنة محمد بن عبد الملك بن مروان ، وقد جعلت اليه إمرة المدينة ومكة والطائف ، ونائب العراق ابن هبيرة ،وإمرة خراسان إلى نصر بن سيار ، غيرّ أن أبا مسلم قد استحوذ على مدن وقرى كثيرة من خراسان ، وقد أرسل نصر إلى ابن هبيرة يستمده بعشرة آلاف قبل أن لا يكفيه مائه ألف ، وكتب أيضاً إلى مروان يستمده ، فكتب مروان إلى ابن هبيرة يمده بما أراد .

وممن توفي فيها من الأعيان شعيب بن الحبحاب ، وعبد العزيز بن صهيب ، وعبد العزيز بن رفيع ، وكعب بن علقمة ، ومحمد بن المنكدر . والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائة

في المحرم منها وجه قحطبة بن شبيب ولده الحسن إلى قومس لقتال نصر بن سيار ، وأردفه بالأمداد ، فخامر بعضهم إلى نصر وارتحل نصر فنزل الريّ ، فأقام بها يومين ثم مرض فسار منها إلى همدان . فلما كان بساوه قريباً من همدان توفي لمضي ثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ، عن خمس وثمانين سنة . فلما مات نصر تمكن أبو مسلم وأصحابه من بلاد خـراسان ، وقويت شوكتهم جداً ، وسار قحطبة من جرجان ، وقدم أمامه زياد بن زرارة القشيري ، وكان قد ندم على اتباع أبي مسلم ، فترك الجيش وأخذ جماعة معه وسلك طريق أصبهان ليأتي ابن ضبارة ، فبعث قحطبة وراءه جيشاً فقتلوا عامة أصحابه ، وأقبل قحطبة وراءه فقدم قومس وقد افتتحها ابنه الحسن فأقام بها ، وبعث ابنه بين يديه إلى الري ثم ساق وراءه فوجده قد افتتحها فأقام بها وكتب إلى أبي مسلم بذلك . وارتحل أبو مسلم من مرو فنزل نيسابور واستفحل أمره ، وبعث قحطبة بعد دخوله الري ابنه الحسن بين يديه إلى همدان ، فلما اقترب منها خرج منها مالك بن أدهم وجماعة من أجناد الشام وخراسان ، فنزلوا نهاوند ، فافتتح الحسن همدان ثم سار وراءهم إلى نهاوند ، وبعث إليه أبوه بالأمداد فحاصرهم حتى افتتحها .

وفي هذه السنة مات عامر بن ضبارة ، وكان سبب ذلك أن ابن هبيرة كتب إليه أن يسير إلى قحطبة وأمده بالعساكر، فسار ابن ضبارة حتى التقى مع قحطبة في عشرين ألفاً، فلما تواجه الفريقان رفع قحطبة وأصحابه المصاحف ونادى المنادي : يا أهل الشام، إنا ندعوكم إلى ما في هذا المصحف، فشتموا المنادى وشتموا قحطبة ، فأمر قحطبة أصحابه أن يحملوا عليهم ، فلم يكن بينهم كبير قتال حتى انهزم أصحاب ابن ضبارة واتبعهم أصحاب قحطبة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وقتلوا ابن ضبارة في العسكر [لشجاعته فانه لم يول] وأخذوا من عسكرهم ما لا يحد ولا يوصف .

وفيها حاصر قحطبة نهاوند حصاراً شديداً حتى سأله أهل الشام الذين بها أن يمهل أهلها حتى يفتحوا له الباب ، ففتحوا له الباب وأخذوا لهم منه أماناً ، فقال لهم من بها من أهل خراسان : ما فعلتم ؟ فقالوا : أخذنا لنا ولكم أمانا ، فخرجوا ظانين أنهم في أمان ، فقال قحطبة للامراء الذين معه : كل من حصل عنده أسير من الخراسانيين فليضرب عنقه وليأتنا برأسه ، ففعلوا ذلك ولم يبقَ ممن كان هرب من أبي مسلم أحد ، وأطلق الشاميين وأوفى لهم عهدهم وأخذ عليهم الميثاق أن لا يمالئوا عليه عدواً . ثم بعث قحطبة أبا عون إلى شهر زور ، عن أمر أبي مسلم في ثلاثين ألفاً فافتتحها ، وقتل نائبها عثمان بن سفيان . وقيل لم يقتل بل تحول إلى الموصل والجزيرة وبعث إلى قحطبة بذلك ، ولما بلغ مروان خبر قحطبة وأبي مسلم وما وقع من أمرهما ، تحول مروان من حران فنزل بمكان يقال له الزاب الأكبر .

وفيها قصد قحطبة في جيش كثيف نائب العراق يزيد بن عمر بن هبيرة . فلما اقترب منه تقهقر ابن هبيرة إلى ورائه ، وما زال يتقهقر إلى أن جاوز الفرات ، وجاء قحطبة فجازها وراءه ، وكان من أمرهما ما سنذكره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائة

في المحرم منها جاز قحطبة بن شبيب الفرات ومعه الجنود والفرسان ، وابن هبيرة مخيم على فمّ الفرات مما يلي الفلوجة ، في خلق كثير وجم[1] غفير ، وقد أمده مروان بجنود كثيرة ، وانضاف إليه كل من انهزم من جيش ابن ضبارة . ثم إن قحطبة عدل إلى الكوفة ليأخذها ، فاتبعه ابن هبيرة . فلما كانت ليلة الأربعاء لثمان مضين من المحرم اقتتلوا قتالاً شديداً وكثر القتل في الفريقين ، ثم ولى أهل الشام منهزمين واتبعهم أهل خراسان ، وفقد قحطبة من الناس فأخبرهم رجل أنه قتل وأوصى أن يكون أمير الناس من بعده ولده الحسن ، ولم يكن الحسن حاضراً ، فبايعوا حميد بن قحطبة لأخيه الحسن وذهب البريد إلى الحسن ليحضر . وقتل في هذه الليلة جماعة من الأمراء. والذي قتل قحطبة معن بن زائدة ، ويحيى بن حصين . وقيل بل قتله رجل ممن كان معه آخذاً بثأر ابني نصر

(١) وجم : الكثير من كلِّ شيءٍ .

ابن سيار فالله أعلم . ووجد قحطبة في القتلى فدفن هنالك ، وجاء الحسن بن قحطبة فسار نحو الكوفة ، وقد خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري ودعا إلى بني العباس وسوَّد ، وكان خروجه ليلة عاشوراء المحرم من هذه السنة ، وأخرج عاملها من جهة ابن هبيرة ، وهو زياد بن صالح الحارثي ، وتحول محمد بن خالد إلى قصر الامارة فقصده حوثرة في عشرين ألفاً من جهة ابن هبيرة ، فلما اقترب من الكوفة أصحاب حوثرة يذهبون إلى محمد بن خالد فيبايعونه لبني العباس ، فلما رأى حوثرة ذلك ارتحل إلى واسط ، ويقال بل دخل الحسن بن قحطبة الكوفة ، وكان قحطبة قد جعل في وصيته أن تكون وزارة الخلافة إلى أبي سلمة حفص بن سليمان مولى السبيع الكوفي الخلال ، وهو بالكوفة ، فلما قدموا عليه أشار أن يذهب الحسن بن قحطبة في جماعة من الأمراء إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، وأن يذهب أخوه حميد إلى المدائن ، وبعث البعوث إلى كل جانب يفتتحونها ، وفتحوا البصرة ، افتتحها مسلم بن قتيبة لابن هبيرة ، فلما قتل ابن هبيرة جاء أبو مالك عبد الله بن أسيد الخزاعي فأخذ البصرة لأبي مسلم الخراساني .

وفي هذه السنة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر منها ، أخذت البيعة لأبي العباس السفاح ، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . قاله أبو معشر وهشام بن الكلبي . وقال الواقدي : في جمادى الأولى من هذه السنة فالله أعلم .

ذكر مقتل ابراهيم بن محمد الامام

قد ذكرنا في سنة تسع وعشرين ومائة أن مروان اطلع على كتاب من إبراهيم الامام إلى أبي مسلم الخراساني ، يأمره فيه بأن لا يُبْقِي أحداً بأرض خراسان ممن يتكلم بالعربية إلا أباده ، فلما وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم فقيل له هو بالبلقاء ، فكتب إلى نائب دمشق أن يحضره فبعث نائب دمشق بريداً ومعه صفته ونعته ، فذهب الرسول فوجد أخاه أبا العباس السفاح ، فاعتقد أنه هو فأخذه فقيل له : إنه ليس به ، وإنما هو أخوه ، فدُلَّ على إبراهيم فأخذه وذهب معه بأم ولد له كان يحبها ، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة ، فارتحلوا من يومهم إليها ، منهم أعمامه الستة وهم : عبد الله ، وداود ، وعيسى ، وصالح ، وإسماعيل ، وعبد الصمد ، بنو علي ، وأخواه أبو العباس السفاح ، ومحمد ابنا محمد ابن علي ، وابناه محمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الامام الممسوك ، وخلق سواهم . فلما دخلوا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد ، مولى بني هاشم ، وكتم أمرهم نحواً من أربعين ليلة من القواد والأمراء ، ثم ارتحل بهم إلى موضع آخر ، ثم لم يزل ينقلهم من مكان إلى مكان حتى فتحت البلاد . ثم بويع للسفاح . وأما إبراهيم بن محمد الامام فانه سير به إلى أمير المؤمنين في ذلك الزمان مروان بن محمد وهو بحران فحبسه ، وما زال في السجن إلى هذه السنة ، فمات في صفر منها في السجن ، عن ثمان وأربعين سنة . وقيل إنه غمّ بمرفقة وضعت على وجهه حتى مات

عن إحدى وخمسين سنة ، وصلى عليه رجل يقال له بهلول بن صفوان ، وقيل إنه هدم عليه بيت حتى مات ، وقيل بل سُقِيَ لبناً مسموماً فمات ، وقيل إن إبراهيم الامام شهد الموسم عام إحدى وثلاثين ، واشتهر أمره هنالك لأنه وقف في أبهة عظيمة ، ونجائب كثيرة ، وحرمة وافرة ، فأنهى أمره إلى مروان وقيل له : إن أبا مسلم يدعو الناس إلى هذا ويسمونه الخليفة ، فبعث إليه في المحرم من سنة ثنتين وثلاثين وقتله في صفر من هذه السنة ، وهذا أصح مما تقدم : وقيل إنه إنما أخذه من الكوفة لا من حميمة البلقاء فالله أعلم .

وقد كان إبراهيم هذا كريماً جواداً له فضائل وفواضل ، وروى الحديث عن أبيه عن جده ، وأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وعنه أخواه عبد الله السفاح ، وأبو جعفر عبد الله المنصور ، وأبو سلمة عبد الرحمن بن مسلم الخراساني ، ومالك بن هاشم . ومن كلامه الحسن : الكامل المروءة من أحرز دينه ، ووصل رحمه ، واجتنب ما يلام عليه .

خلافة ابي العباس السَّفاح

لما بلغ أهل الكوفة مقتل إبراهيم بن محمد ، أراد أبو سلمة الخلال أن يحوِّل الخلافة إلى آل علي بن أبي طالب ، فغلبه بقية النقباء والأمراء ، وأحضروا أبا العباس السفاح وسلَّموا عليه بالخلافة ، وذلك بالكوفة ، وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة . وكان أول من سلم عليه بالخلافة أبو سلمة الخلال ، وذلك ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، فلما كان وقت صلاة الجمعة خرج السفاح على برذون[1] أبلق[2] ، والجنود ملبسة معه ، حتى دخل دار الامارة ، ثم خرج إلى المسجد الجامع وصلى بالناس ، ثم صعد المنبر وبايعه الناس وهو على المنبر في أعلاه ، وعمه داود بن علي واقف دونه بثلاث درج ، وتكلَّم السفاح ، وكان أول ما نطق به أن قال : الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه ديناً ، وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه والقوام به والذابين عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، خصنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، ووضعنا بالاسلام وأهله في الموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الاسلام كتاباً يتلى عليهم . فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[3] . وقال : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾[4] . وقال : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[5] . وقال : ﴿ ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ مِنْ أَهلِ القرى فللَّهِ وللرَّسُولِ ولِذِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ ﴾[6] الآية . فأعلمهم عز وجل فضلنا وأوجب عليهم

---

(١) برذون : جمعها بَرَاذين : دابة الحمل الثقيلة .
(٢) أبلق : ما كان في لونه سواد وبياض .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية / ٣٣ .
(٤) سورة الشورى ، الآية / ٢٣ .
(٥) سورة الشعراء ، الآية / ٢١٤ .
(٦) سورة الحشر ، الآية / ٧ .

حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفيء[1] والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا ، وتفضلة علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السبابية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت[2] وجوههم . أيها الناس بنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، ونصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة ، وأتم النقيصة وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين في أخراهم ، فتح الله علينا ذلك منة ومنحة بمحمد ﷺ ، فلما قبضه إليه قام بذلك الأمر بعد أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماصاً منها . ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها لأنفسهم ، وتداولوها . فجاروا فيها واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فانتزع منهم مابأيديهم بأيدينا، ورد الله علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وتولى أمرنا والقيام بنصرنا ليمنّ بنا على الذين استُضْعِفُوا في الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وإني لأرجو [أن] لا يأتيكم الجور من حيث جاءكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، وأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فانا السفاح الهائج والثائر المبير[3] . وكان به وعك[4] فاشتد عليه حتى جلس على المنبر ونهض عمه داود فقال : الحمد لله شكراً الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من بيتنا . أيها الناس الآن انقشعت حنادس[5] الظلمات وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، فطلعت شمس الخلافة من مطلعها ، ورجع الحق إلى نصابه ، إلى أهل نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم ، أيها الناس إنا والله ما خرجنا لهذا الأمر لنكنز لجينا ولا عقياناً ولا لنحفر نهراً ولا لنبني قصراً ولا لنجمع ذهباً ولا فضة ، وإنما أخرجتنا الأنفة من انتزاع حقنا والغضب لبني عمنا ، ولسوء سيرة بني أمية فيكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ، فلكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمة العباس ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله ، تبا[6] تبا لبني أمية وبني مروان ، آثروا العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام ، وارتكبوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار ، وتجلبب الآصار ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغي ، جهلاً منهم باستدارج الله ، وعميا عن أخذ الله ، وأمنا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم الظالمين . وأدان الله من مروان ، وقد غره بالله

---

(1) الفيء : الغنيمة والعطية .
(2) فشاهت : قُبِّحَتْ .
(3) المبير : المهلك .
(4) وَعَكٌ : مرض .
(5) حنادس : مفردها حِنْدِس : الليل الشديد الظلمة .
(6) تباً : قطعاً .

الغرور ، أرسل عدو الله في عنانه حتى عثر جواده في فضل خطامه ، أظن عدو الله أن لن يقدر عليه أحد ؟ فنادى حزبه وجمع جنده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ، ومحق ضلاله ، وأحل دائرة السوء به ، وأحاط به خطيئته ، ورد إلينا حقنا وآوانا . أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً ، إنما عاد إلى المنبر بعد صلاة الجمعة لأنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام شدة الوعك ، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون المتوكل على الله المقتدي بالأبرار الأخيار الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ، ومناهج التقى . قال فعج الناس له بالدعاء ثم قال : واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا ـ وأشار بيده إلى السفاح ـ واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج عنا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . ثم نزل أبو العباس وداود حتى دخلا القصر . ثم دخل الناس يبايعون إلى العصر ، ثم من بعد العصر إلى الليل .

ثم إن أبا العباس خرج فعسكر بظاهر الكوفة واستخلف عليها عمه داود ، وبعث عمه عبد الله ابن علي إلى أبي عون بن أبي يزيد ، وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة . وهو يومئذ بواسط يحاصر ابن هبيرة ، وبعث يحيى بن [جعفر بن] تمام بن العباس إلى حميد بن قحطبة بالمدائن ، وبعث أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمار بن ياسر إلى بسام بن إبراهيم بن بسام بالأهواز ، وبعث سلمة بن عمرو بن عثمان إلى مالك بن الطواف . وأقام هو بالعسكر أشهراً ، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الامارة ، وقد تنكر لأبي سلمة الخلال ، وذلك لما كان بلغه عنه من العدول بالخلافة عن ابن العباس إلى آل علي بن أبي طالب والله سبحانه وتعالى أعلم .

مقتل مروان بن محمد بن مروان

آخر خلفاء بني أمية ، وتحول الخلافة إلى بني العباس مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ والله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يشاءُ ﴾[1] : وقوله : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾[2] الآية . وقد ذكرنا أن مروان لما بلغه خبر أبي مسلم وأتباعه وما جرى بأرض خراسان ، تحول من حران فنزل على نهر قريب من الموصل ، يقال له الزاب من أرض الجزيرة ثم لما بلغه أن السفاح قد بويع له بالكوفة والتفت عليه الجنود ، واجتمع له أمره ، شق عليه جداً ، وجمع جنوده فتقدم إليه أبو عون بن أبي يزيد في جيش كثيف وهو

(١) سورة البقرة ، الآية /. ٢٤٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية/ ٢٦ .

أحد أمراء السفاح ، فنازله على الزاب وجاءته الأمداد من جهة السفاح ، ثم ندب السفاح الناس ممن يلي القتال من أهل بيته ، فانتدب له عبد الله بن علي فقال : سر على بركة الله ، فسار في جنود كثيرة فقدم على أبي عون فتحول له أبو عون عن سرادقه وخلاه له وما فيه ، وجعل عبد الله بن علي على شرطته حياش بن حبيب الطائي ، ونصير بن المحتفز ، ووجه أبو العباس موسى بن كعب في ثلاثين رجلاً على البريد إلى عبد الله بن علي يحثه على مناجزة مروان ، والمبادرة إلى قتاله ونزاله قبل أن تحدث أمور ، وتبرد نيران الحرب . فتقدم عبد الله بن علي بجنوده حتى واجه جيش مروان ، ونهض مروان في جنوده وتصاف الفريقان في أول النهار ، ويقال إنه كان مع مروان يومئذ مائة ألف وخمسون ألفا ، ويقال مائة وعشرون ألفاً ، وكان عبد الله بن علي في عشرين ألفا . فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : إن زالت الشمس يومئذ ولم يقاتلونا كنا نحن الذين ندفعها إلى عيسى بن مريم ، وإن قاتلونا قبل الزوال فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم أرسل مروان إلى عبد الله بن علي يسأله الموادعة ، فقال عبد الله : كذب ابن زريق ، لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله ، وكان ذلك يوم السبت لأحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من هذه السنة ، فقال مروان : قفوا لا تبتدئون بقتال ، وجعل ينظر الى الشمس فخالفه الوليد بن معاوية بن مروان ـ وهو ختن مروان على ابنته ـ فحمل ، فغضب مروان فشتمه فقاتل أهل الميمنة فانحاز أبو عون إلى عبد الله بن علي ، فقاتل موسى بن كعب لعبد الله بن علي ، فأمر الناس فنزلوا ونودي الأرض الأرض ، فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب وقاتلوهم ، وجعل أهل الشام يتأخرون كأنما يُدفعون ، وجعل عبد الله يمشي قُدُما ، وجعل يقول : يا رب حتى متى نقتل فيك ، ونادى : يا أهل خراسان ، باشارات إبراهيم الامام ، يا محمد يا منصور ، واشتد القتال جداً بين الناس ، فلا تسمع إلا وقعاً كالمرازب[1] على النحاس ، فأرسل مروان إلى قضاعة يأمرهم بالنزول فقالوا : قل لبني سليم فلينزلوا ، وأرسل إلى السكاسك أن احملوا فقالوا : قل لبني عامر أن يحملوا ، فأرسل إلى السكون أن احملوا فقالوا : قل إلى غطفان فليحملوا . فقال لصاحب شرطته : انزل فقال لا والله لا أجعل نفسي غرضاً . قال : أما والله لأسوءنك . قال : وددت والله لو قدرت على ذلك .

ويقال : إنه قال ذلك لابن هبيرة . قالوا : ثم انهزم أهل الشام واتبعتهم أهل خراسان في أدبارهم يقتلون ويأسرون ، وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قُتل وكان في جملة من غرق إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع ، وقد أمر عبد الله بن علي بعقد الجسر ، واستخراج من غرق في الماء ، وجعل يتلو قوله تعالى : ﴿ وإذ فَرَقْنَا بِكُمُ البَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وأَنْتُمْ تَنْظُرونَ ﴾[2] . وأقام عبد الله بن علي في موضع المعركة سبعة أيام ، وقد قال رجل من ولد

---

(١) كالمرازب : مفردها المِرْزَبَة وهي عُصَيَّة من حديد .

(٢) سورة البقرة ، الآية / ٥٠ .

سعيد بن العاص في مروان وفراره يومئذ :

لَجَ الفرارُ بمروانَ فقلتُ لَهُ ... عادَ الظلومُ ظليماً همهُ الهربُ
أينَ الفرارَ وتركَ الملكِ إذ ذهبتَ ... عنكَ الهوينا فلا دينٌ ولا حسبُ
فراشةَ الحلمُ فرعونُ العقابِ وإن ... تطلبُ نداهُ فكلبٌ دونهُ كلبَ

واحتاز عبد الله ما في معسكر مروان من الأموال والأمتعة والحواصل ، ولم يجد فيه امرأة سوى جارية كانت لعبد الله بن مروان ، وكتب إلى أبي العباس السفاح بما فتح الله عليه من النصر ، وما حصل لهم من الأموال . فصلى السفاح ركعتين شكراً لله عز وجل ، وأطلق لكل من حضر الوقعة خمسمائة خمسمائة ، ورفع في أرزاقهم إلى ثمانين ، وجعل يتلو قوله : ﴿ فلمَّا فصَلَ طالُوتُ بِالجُنُودِ ﴾[1] الآية .

صفة مقتل مروان

لما انهزم مروان سار لا يلوي على أحد ، فأقام عبد الله بن علي في مقام المعركة سبعة أيام ، ثم سار خلفه بمن معه من الجنود ، وذلك عن أمر السفاح له بذلك ، فلما مر مروان بحران اجتازها وأخرج أبا محمد السفياني من سجنه ، واستخلف عليها أبان بن يزيد ـ وهو ابن أخته ، وزوج ابنته أم عثمان ـ فلما قدم عبد الله على حران خرج إليه أبان بن يزيد مسوداً فأمنه عبد الله بن علي وأقره على عمله ، وهدم الدار التي سجن فيها إبراهيم الامام ، واجتاز مروان قنسرين قاصداً حمص ، فلما جاءها خرج إليها أهلها بالأسواق والمعايش ، فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم شخص منها ، فلما رأى أهل حمص قلة من معه اتبعوه ليقتلوه ونهبوا ما معه ، وقالوا : مرعوب مهزوم ، فأدركوه بواد عند حمص فأكمن لهم أميرين ، فلما تلاحقوا بمروان عطف عليهم فناشدهم أن يرجعوا فأبوا إلا مقاتلته ، فثار القتال بينهم وثار الكمينان من ورائهم ، فانهزم الحمصيون ، وجاء مروان إلى دمشق وعلى نيابتها من جهته زوج ابنته الوليد بن معاوية بن مروان ، فتركه بها واجتاز عنها قاصداً إلى الديار المصرية ، وجعل عبد الله بن علي لا يمر ببلد وقد سودوا فيبايعونه ويعطيهم الأمان ، ولما وصل إلى قنسرين وصل إليه أخوه عبد الصمد بن علي في أربعة آلاف ، قد بعثهم السفاح مدداً له ، ثم سار عبد الله حتى أتى حمص ، ثم سار منها إلى بعلبك ، ثم منها حتى أتى دمشق من ناحية المزة فنزل بها يومين أو ثلاثة ، ثم وصل إليه أخوه صالح بن علي في ثمانية آلاف مدداً من السفاح ، فنزل صالح بمرج عذراء ، ولما جاء عبد الله بن علي دمشق نزل على الباب الشرقي ، ونزل صالح أخوه على باب الجابية ، ونزل أبو عون على باب كيسان ، ونزل بسام على الباب الصغير ، وحميد بن قحطبة على باب توما ، وعبد الصمد ويحيى بن صفوان والعباس بن يزيد على باب الفراديس ، فحاصرها أياماً

---

(١) سورة البقرة ، الآية / ٢٤٩ .

ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان هذه السنة ، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً وأباحها ثلاث ساعات ، وهدم سورها ، ويقال إن أهل دمشق لما حاصرهم عبد الله اختلفوا فيما بينهم ، ما بين عباسي وأموي ، فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً ، وقتلوا نائبهم ثم سلموا البلد ، وكان أول من صعد السور من ناحية الباب الشرقي رجل يقال له عبد الله الطائي ، ومن ناحية الباب الصغير بسام بن إبراهيم ، ثم أبيحت دمشق ثلاث ساعات حتى قيل إنه قتل بها في هذه المدة نحواً من خمسين ألفاً .

وذكر ابن عساكر في ترجمة عبيد بن الحسن الأعرج من ولد جعفر بن أبي طالب ، وكان أميراً على خمسة آلاف مع عبد الله بن علي في حصار دمشق ، أنهم أقاموا محاصريها خمسة أشهر ، وقيل مائة يوم ، وقيل شهراً ونصفاً ، وأن البلد كان قد حصنه نائب مروان تحصيناً عظيماً ، ولكن اختلف أهلها فيما بينهم بسبب اليمانية والمضرية ، وكان ذلك سبب الفتح ، حتى إنهم جعلوا في كل مسجد محرابين للقبلتين حتى في المسجد الجامع منبرين ، وإمامين يخطبان يوم الجمعة على المنبرين ، وهذا من عجيب ما وقع ، وغريب ما اتفق ، وفظيع ما أحدث بسبب الفتنة والهوى والعصبية ، نسأل الله السلامة والعافية . وقد بسط ذلك ابن عساكر في هذه الترجمة المذكورة ، وذكر في ترجمة محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال : كنت مع عبد الله بن علي أول ما دخل دمشق ، دخلها بالسيف ، وأباح القتل فيها ثلاث ساعات ، وجعل جامعها سبعين يوماً اسطبلاً لدوابه وجماله ، ثم نبش قبور بني أمية فلم يجد في قبر معاوية إلا خيطاً أسود مثل الهباء ، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجد جمجمة ، وكان يجد في القبر العضو بعد العضو ، إلا هشام بن عبد الملك فانه وجده صحيحاً لم يبل منه غير أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وهو ميت وصلبه أياماً ثم أحرقه ودق رماده ثم ذره في الريح ، وذلك أن هشاماً كان قد ضرب أخاه محمد بن علي ، حين كان قد اتهم بقتل ولد له صغير ، سبعمائة سوط ، ثم نفاه إلى الحميمة بالبلقاء . قال : ثم تتبع عبد الله بن علي بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فقتل منهم في يوم واحد اثنين وتسعين ألفا عند نهر بالرملة ، وبسط عليهم الأنطاع ومد عليهم سماطاً فأكل وهم يختلجون تحته ، وهذا من الجبروت والظلم الذي يجازيه الله عليه ، وقد مضى ولم يدم له ما أراده ورجاه ، كما سيأتي في ترجمته . وأرسل امرأة هشام بن عبد الملك وهي عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية صاحبة الخال ، مع نفر من الخراسانية إلى البرية ماشية حافية حاسرة عن وجهها وجسدها عن ثيابها ثم قتلوها . ثم أحرق ما وجده من عظم ميت منهم . وأقام بها عبد الله خمسة عشر يوماً .

وقد استدعى بالأوزاعي فأوقف بين يديه فقال له : يا أبا عمرو ما تقول في هذا الذي صنعناه؟ قال فقلت له : لا أدري ، غير أنه قد حدّثني يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم عن علقمة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » فذكر الحديث . قال الأوزاعي : وانتظرتُ رأسي أن يسقط بين رجلّي ثم أخرجت ، وبعث إلي بمائة دينار . ثم سار

وراء مروان فنزل على نهر الكسوة ووجه يحيى بن جعفر الهاشمي نائباً على دمشق ، ثم سار فنزل مرج الروم ، ثم أتى نهر أبي فطرس فوجد مروان قد هرب فدخل مصر ، وجاءه كتاب السفاح : ابعث صالح بن علي في طلب مروان وأقم أنت بالشام نائباً عليها ، فسار صالح يطلب مروان في ذي القعدة من هذه السنة ، ومعه أبو عمرو عامر بن إسماعيل ، فنزل على ساحل البحر وجمع ما هناك من السفن وبلغه أن مروان قد نزل الفرما ، وقيل الفيوم ، فجعل يسير على الساحل والسفن تقاد معه في البحر حتى أتى العريش ، ثم سار حتى نزل على النيل ثم سار إلى الصعيد ، فعبر مروان النيل وقطع الجسر وحرق ما حوله من العلف والطعام ، ومضى صالح في طلبه : فالتقى بخيل لمروان فهزمهم ، ثم جعل كلما التقوا مع خيل لمروان يهزمونهم حتى سألوا بعض من أسروا عن مروان فدلهم عليه ، وإذا به في كنيسة أبو صير ، فوافوه من آخر الليل فانهزم من معه من الجند وخرج إليهم مروان في نفر يسير معه فأحاطوا به حتى قتلوه ، طعنه رجل من أهل البصرة يقال له معود ، ولا يعرفه حتى قال رجل صرع امير المؤمنين . فابتدره رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز[1] رأسه ، فبعث به عامر بن إسماعيل أمير هذه السرية إلى أبي عون ، فبعث به أبو عون إلى صالح بن علي ، فبعث به صالح مع رجل يقال له خزيمة بن يزيد بن هانيء كان على شرطته ، لأمير المؤمنين السفاح .

وكان مقتل مروان يوم الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة ، وقيل يوم الخميس لست مضين منها سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام على المشهور ، واختلفوا في سنة فقيل أربعون سنة ، وقيل ست وقيل ثمان وخمسون سنة ، وقيل ستون وقيل اثنتان وقيل ثلاث وقيل تسع وستون سنة ، وقيل ثمانون فالله أعلم .

ثم إن صالح بن علي سار إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد والله سبحانه أعلم .

وهذا شيء من ترجمة مروان الحمار

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، القرشي الأموي ، أبو عبد الملك أمير المؤمنين آخر خلفاء بني أمية ، وأمه أمة كردية يقال لها لبابة ، وكانت لأبراهيم بن الأشتر النخعي ، أخذها محمد بن مروان يوم قتله فاستولدها مروان هذا ، ويقال إنها كانت أولاً لمصعب بن الزبير ، وقد كانت دار مروان هذا في سوق الأكافين ، قاله ابن عساكر . بويع له بالخلافة بعد قتل الوليد بن يزيد ، وبعد موت يزيد بن الوليد ، ثم قدم دمشق وخلع إبراهيم بن الوليد ، واستمر له الأمر في نصف صفر سنة سبع وعشرين ومائة . وقال أبو معشر : بويع له بالخلافة في ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائة ، وكان يقال له مروان الجعدي ، نسبة الى رأي الجعد بن درهم ،

---

(١) فاحتز : فقطع .

وتلقب بالحمار ، وهو آخر من مَلَك من بني أمية ، وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام ، وقيل خمس سنين وشهراً ، وبقي بعد أن بويع للسفاح تسعة أشهر ، وكان أبيض مشرباً حمرة ، ازرق العينين ، كبير اللحية ، ضخم الهامة ، ربعة ، ولم يكن يخضب . ولاه هشام نيابة أذربيجان وأرمينية والجزيرة ، في سنة أربع عشرة ومائة ، ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً متعددة في سنين كثيرة ، وكان لا يفارق الغزو في سبيل الله ، وقاتل طوائف من الناس الكفار ومن الترك والخزر واللان وغيرهم ، فكسرهم وقهرهم ، وقد كان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي ، لولا أن جنده خذلوه بتقدير الله عز وجل لما له في ذلك من حكمة سلب الخلافة لشجاعته وصرامته . ولكن من يخذل الله يخذل ، ومن يهن الله فماله من مكرم .

قال الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله : كان بنو أمية يرون أنه تذهب منهم الخلافة إذا وليها من أُمُّه أَمَة، فلما وليها مروان هذا أخذت منهم في سنة اثنتين وثلاثين ومائة . وقد قال الحافظ ابن عساكر : أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الحسين أخبرنا سهل بن بشر أنبأ الخليل بن هبة الله بن الخليل أنبأ عبد الوهاب الكلابي حدّثنا أبو الجهم أحمد بن الحسين أنبأ العباس بن الوليد بن صبح ثنا عباس بن يحيى أبو الحارث حدّثني الهيثم بن حميد حدّثني راشد بن داود عن أسماء عن ثوبان قال . قال رسول الله ﷺ : « لا تزال الخلافة في بني أمية يتلقفونها تلقف الغلمان الكرة ، فاذا خرجت من أيديهم فلا خير في عيش » . هكذا أورده ابن عساكر وهو منكر جداً ، وقد سأل الرشيد أبا بكر بن عياش : من خير الخلفاء نحن أو بنو أمية ؟ فقال : هم كانوا أنفع للناس ، وأنتم أقوم للصلاة ، فأعطاه ستة آلاف . قالوا وقد كان مروان هذا كثير المروءة كثير العجب ، يعجبه اللهو والطرب ، ولكنه كان يشتغل عن ذلك بالحرب .

قال ابن عساكر : قرأت بخط أبي الحسين علي بن مقلد بن نصر بن منقذ بن الأمير في مجموع له : كتب مروان بن محمد إلى جارية له تركها بالرملة عند ذهابه إلى مصر منهزماً :

وما زالَ يدعوني إلى الصبرِ ما أرى	فأبى ويدنيني الذي لكَ في صدري
وكانَ عزيزاً أن تبيتي وبيننا	حجابٌ فقد امسيتِ مني على عشرِ
وأنكاهما والله للقلبِ فاعلمي	إذا زدتِ مثليها فصرتِ على شهرِ
وأعظمُ من هذينِ والله أنني	أخاف بأنْ لا نلتقي آخرَ الدهرِ
سأبكيكِ لا مستبقياً فيضَ عبرةٍ	ولا طالباً بالصبرِ عاقبةَ الصبرِ

وقال بعضهم: اجتاز مروان وهو هارب براهب فاطلع عليه الراهب فسلم عليه فقال له : يا راهب هل عندك علم بالزمان ؟ قال : نعم ! عندي من تلونه ألوان ، قال : هل تبلغ الدنيا من الانسان أن تجعله مملوكاً بعد أن كان مالكاً ؟ قال : نعم ! فكيف ؟ قال : بحبه لها وحرصه على نيل شهواتها وتضييع الحزم وترك انتهاز الفرص . فان كنت تحبها فان عبدها من أحبها قال فما السبيل إلى

العتق ؟ قال : ببغضها والتجافي[1] عنها . قال : هذا ما لا يكون . قال الراهب : أما إنه سيكون ، فبادر بالهرب منها قبل أن تسلبها . قال : هل تعرفني ؟ قال : نعم ! أنت ملك العرب مروان ، تقتل في بلاد السودان : وتدفن بلا أكفان ، فلولا أن الموت في طلبك لدللتك على موضع هربك . قال بعض الناس : كان يقال في ذلك الزمان يقتل ع بن ع بن ع م بن م بن م يعنون يقتل عبد الله بن علي بن عباس مروان بن محمد بن مروان .

وقال بعضهم : جلس مروان يوماً وقد أحيط به وعلى رأسه خادم له قائم ، فقال مروان لبعض من يخاطبه : ألا ترى ما نحن فيه ؟ لهفي على أيدٍ ما ذُكرت ، ونعم ما شكرت ، ودولة ما نصرت .. فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين من ترك القليل حتى يكثر ، والصغير حتى يكبر ، والخفي حتى يظهر ، وأخر فعل اليوم لغد ، حل به أكثر من هذا . فقال مروان : هذا القول أشد عليَّ من فقد الخلافة . وقد قيل إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وقد جاوز الستين وبلغ الثمانين . وقيل إنما عاش أربعين سنة . والصحيح الأول . وهو آخر خلفاء بني أمية به انقضت دولتهم .

ما ورد في انقضاء دولة بني أمية وابتداء بني العباس من الأخبار النبوية

قال العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إذا بلغ بنو العاص أربعين رجلاً اتخذوا دين الله دغلاً [2] ، وعباد الله خولاً ، ومال الله دولاً » . ورواه الأعمش عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً بنحوه ، وروى ابن لهيعة عن أبي قبيل عن ابن وهب أنه كان عند معاوية فدخل عليه مروان بن الحكم فتكلم في حاجة فقال : اقض حاجتي فإني لأبو عشرة ، وأخو عشرة وعم عشرة . فلما أدبر مروان قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير : أما تعلم أن رسول الله ﷺ : قال : « إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دولاً ، وعباد الله خولاً ، وكتاب الله دغلاً ، فإذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة ، كان هلاكهم أسرع من لوك تمرة » . فقال ابن عباس : اللهم نعم ؟ فلما أدبر مروان قال معاوية : أنشدك بالله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله ﷺ : ذكر هذا فقال : «ابو الجبابرة الأربعة» . فقال ابن عباس : اللهم نعم . وقال أبو داود الطيالسي : حدّثنا القاسم بن الفضل ثنا يوسف بن مازن الراسبي قال : قام رجل إلى الحسين بن علي فقال : يا مسوِّد وجوه المؤمنين ! فقال الحسين : لا تؤنبني رحمك الله ، فإن رسول الله ﷺ رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فساءه ذلك فنزلت ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر ﴾[3] وهو نهر في الجنة ، ونزلت ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾[4] السورة إلى قوله : ﴿ خيرٌ مِنْ أَلفِ شَهْرٍ ﴾[5]

---

(1) والتجافي : الابتعاد والكراهية .
(2) دغلاً : ريبة وفساداً .
(3) سورة الكوثر ، الآية/ ١ .
(4) سورة القدر ، الآية/ ١ .
(5) سورة القدر ، الآية/ ٣ .

مملكة بني أمية . قال : فحسبنا ذلك فإذا هو كما قال لا يزيد ولا ينقص . وقد رواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن أبي داود الطيالسي ثم قال غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقة يحيى القطان وابن مهدي . قال : وشيخه يوسف بن سعد ويقال يوسف بن مازن ، رجل مجهول ، ولا يعرف هذا بهذا اللفظ إلا من هذا الوجه ، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث القاسم بن الفضل الحداني ، وقد تكلمت على نكارة هذا الحديث في التفسير بكلام مبسوط ، وإنما يكون متجها إذا قيل إن دولتهم ألف شهر بأن نسقط منها أيام ابن الزبير ، وذلك أن معاوية بويع له مستقلاً بالملك في سنة أربعين ، وهي عام الجماعة حين سلم إليه الحسن بن علي الأمر بعد ستة أشهر من قتل علي ، ثم زالت الخلافة عن بني أمية في هذه السنة ، وهي سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وذلك اثنتان وتسعون سنة ، وإذا أسقط منها تسع سنين خلافة ابن الزبير بقي ثلاث وثمانون سنة ، وهي مباينة لما ورد في هذا الحديث ، ولكن ليس هذا الحديث مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، أنه فسر هذه الآية بهذا العدد ، وإنما هذ من قول بعض الرواة ، وقد تكلمنا على ذلك مطولاً في التفسير ، وتقدم في الدلائل أيضاً تقريره والله أعلم .

وقال علي بن المديني عن يحيى بن سعيد عن سفيان الثوري عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت بني أمية يصعدون منبري فشق ذلك عليَّ فأنزلت إنا أنزلناه في ليلة القدر » فيه ضعف وإرسال . وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : ثنا يحيى بن معين ثنا عبد الله بن نمير عن سفيان الثوري عن علي بن يزيد عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾[1] قال: رأى ناساً من بني أمية على المنابر فساءه ذلك، فقيل له: إنما هي دنيا يعطونها وتضمحل عن قليل فسُرِّيَ عنه . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع قال : لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ رأى فلاناً وهو من بعض بني أمية على المنبر يخطب الناس فشق ذلك عليه فأنزل الله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لكمْ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ ﴾[2] وقال مالك بن دينار : سمعت أبا الجوزاء يقول والله لَيُعِزَّنَّ الله ملك بني أمية كما أعز ملك من كان قبلهم ، ثم ليذلنَّ ملكهم كما أذلَّ ملك من كان قبلهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وتلكَ الأيامُ نداولُهَا بينَ النَّاسِ ﴾[3] . وقال ابن أبي الدنيا : حدّثني إبراهيم بن سعيد ثنا أبو أسامة ثنا عمر بن حمزة أخبرني عمر بن سيف مولى لعثمان بن عفان قال سمعت سعيد بن المسيب وهو يقول لأبي بكربن سليمان بن أبي خيثمة ـ وذكروابني أمية ـ فقال: لا يكون هلاكهم إلا بينهم . قالوا كيف ؟ قال : يهلك خلفاؤ هم ويبقى شرارهم فيتنافسونها ، ثم يكثر الناس عليهم فيهلكونهم . وقال يعقوب بن سفيان : أنبأ أحمد بن محمد الأزرقي ثنا الزنجي عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت في النوم بني أبي الحكم أو

(١) سورة الإسراء ، الآية/ ٦٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية/ ١١١ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية / ١٤٠ .

بني أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة: قال فما رؤي رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً بعدها حتى توفي » . قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الداري [لعله الدارمي] : حدثنا مسلم ابن إبراهيم ثنا سعيد بن زيد ـ أخو حماد بن زيد ـ عن علي بن الحكم البناني عن أبي الحسن هو الحمصي عن عمرو بن مرة ـ وكانت له صحبة ـ قال : جاء الحكم بن أبي العاص يستأذن على رسول الله ﷺ فعرف كلامه فقاله : « ائذنوا له صبت عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ما هم ، يشرفون في الدنيا ويوضعون في الآخرة ، ذوو دهاء وخديعة ، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق » .

وقال أبو بكر الخطيب البغدادي : أنبأ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد أنبأ محمد ابن المظفر الحافظ أنبأ أبو القاسم تمام بن خريم بن محمد بن مروان الدمشقي أنبأ أحمد بن إبراهيم ابن هشام بن ملابس ثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم بن يزيد [مولى أم الحكم بنت عبد العزيز، حدثنا يزيد][1] بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث الصنعاني عن ثوبان قال : « كان رسول الله ﷺ نائماً واضعاً رأسه على فخذ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فنحب ثم تبسم ، فقالوا : يا رسول الله رأيناك نحبت ثم تبسمت ، فقال : رأيت بني أمية يتعاورون على منبري فساءني ذلك ، ثم رأيت بني العباس يتعاورون على منبري فسرني ذلك » . وقال يعقوب بن سفيان : حدثني محمد بن خالد بن العباس ثنا الوليد بن مسلم حدثني أبو عبد الله عن الوليد بن هشام المعيطي عن أبان بن الوليد عن عقبة بن أبي معيط . قال: قدم ابن عباس على معاوية وأنا حاضر فأجازه فأحسن جائزته، ثم قال: يا أبا العباس ! هل يكون لكم دولة ؟ فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، فقال : لتخبرني ، قال نعم ! قال فمن انصاركم ؟ قال : أهل خراسان . ولبني أمية من بني هاشم نطحات[2] .

وقال المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير : سمعت ابن عباس يقول : يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح ، والمنصور ، والمهدي . رواه البيهقي من غير وجه ، ورواه الأعمش عن الضحاك عن ابن عبس مرفوعاً . وروى ابن أبي خيثمة عن ابن معين عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي معبد عن ابن عباس قال : كما افتتح الله بأولنا فأرجو أن يختمه بنا . وهذا إسناد صحيح إليه ، وكذا وقع ويقع للمهدي إن شاء الله . وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي معاوية عن الأعمش عن عطية عن أبي سعيد . قال قال رسول الله ﷺ : « يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن ، يقال له السفاح ، يعطي المال حثياً »[3] . وقال عبد الرزاق : حدثنا الثوري عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان قال قال

---

(١) زيادة من المصرية .

(٢) نطحات : قتال وثأر .

(٣) حثياً : شيئاً يسيراً .

رسول الله ﷺ : « يقتتل عند حرتكم هذه ثلاثة كلهم ولد خليفة لا تصير إلى واحد منهم ، ثم تقبل الرايات من خراسان فيقتلونكم مقتلة لم ير مثلها . ثم ذكر شيئاً فاذا كان كذلك فأتوه ولو حبواً على الثلج ، فإنه خليفة الله المهدي » . ورواه بعضهم عن ثوبان فوقفه وهو أشبه والله أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثني يحيى بن غيلان وقتيبة بن سعيد قالا : ثنا راشد بن سعد حدثني يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن قبيصة هو ابن ذؤ يب عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء حتى تنصب بايليا » . وقد رواه البيهقي في الدلائل من حديث راشد بن سعد المصري ، وهو ضعيف . ثم قال : قد روى قريباً من هذا عن كعب الأحبار وهو أشبه . ثم رواه عن كعب أيضاً قال : « تظهر رايات سود لبني العباس حتى ينزلوا الشام ، ويقتل الله على أيديهم كل جبار وعدو لهم » . وروى إبراهيم بن الحسين عن ابن أبي أويس عن ابن أبي ذؤ يب عن محمد بن عبد الرحمن العامري عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ قال للعباس : « فيكم النبوة وفيكم المملكة » . وروى عبد الله بن أحمد عن ابن معين عن عبيد بن أبي قرة عن الليث عن أبي قبيل عن أبي ميسرة مولى العباس قال سمعت العباس يقول : كنت عند رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : « انظر هل ترى في السماء من شيء ؟ قلت : نعم ! قال : ما ترى ؟ قلت : الثريا ، قال : أما إنه سيملك هذه الأمة بعددها من صلبك » . قال البخاري : عبيد بن أبي قرة لا يتابع على حديثه . وروى ابن عدي من طريق سويد بن سعيد عن حجاج بن تميم عن ميمون ابن مهران عن ابن عباس قال : « مررت برسول الله ﷺ ومعه جبريل وأنا أظنه دحية الكلبي ، فقال جبريل لرسول الله ﷺ : إنه لوسخ الثياب ، وسيلبس ولده من بعده السواد » . وهذا منكر من هذا الوجه ، ولا شك أن بني العباس كان السواد من شعارهم ، أخذوا ذلك من دخول رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، فأخذوا بذلك وجعلوه شعارهم في الأعياد والجمع[1] والمحافل[2] . وكذلك كان جندهم لا بد من أن يكون على أحدهم شيء من السواد ، ومن ذلك الشربوش الذي يلبسه الأمراء إذا خلع عليهم . وكذلك دخل عبد الله بن علي دمشق يوم دخلها وعليه السواد ، فجعل النساء والغلمان يعجبون من لباسه ، وكان دخوله من باب كيسان . وقد خطب الناس يوم الجمعة وصلى بهم وعليه السواد . وقد روى ابن عساكر عن بعض الخراسانية قال : لما صلى عبد الله بن علي بالناس يوم الجمعة صلى إلى جانبي رجل فقال : الله أكبر ، سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، أنظروا إلى عبد الله بن علي ما أقبح وجهه وأشنع سواده ؟ ! وشعارهم إلى يومك هذا كما تراه على الخطباء يوم الجمعة والأعياد .

---

(١) الجمع : مفردها الجمعة وهو أحد أيام الأسبوع .

(٢) المحافل : مفردها المحفل أي مكان اجتماع القوم .

استقرار أبي العبّاس السّفاح

واستقلاله بالخلافة وما اعتمده فى ايامه من السيرة الحسنة

قد تقدم أنه أول ما بويع له بالخلافة بالكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الآخر ، وقيل الأول من هذه السنة ، سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، ثم جرد الجيوش إلى مروان فطردوه عن المملكة وأجلوه عنها ، وما زالوا خلفه حتى قتلوه ببوصير من بلاد الصعيد ، بأرض مصر ، في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة على ما تقدم بيانه ، وحينئذ استقل السفاح بالخلافة واستقرت يده على بلاد العراق وخراسان والحجاز والشام والديار المصرية ، خلا بلاد الأندلس ، فانه لم يحكم عليها ولا وصل سلطانه إليها ، وذلك أن بعض من دخلها من بني أمية استحوذ عليها وملكها كما سيأتي بيانه . وقد خرج على السفاح في هذه السنة طوائف ، فمنهم أهل قنسرين بعد ما بايعوه على يدي عمه عبد الله بن علي وأقر عليهم أميرهم مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي ، وكان من أصحاب مروان وأمرائه ، فخلع السفاح ولبس البياض ، وحمل أهل البلد على ذلك فوافقوه ، وكان السفاح يومئذ بالحيرة ، وعبد الله بن علي مشغول بالبلقاء يقاتل بها حبيب بن مرة المزي ومن وافقه من أهل البلقاء والبثنية وحوران على خلع السفاح ، فلما بلغه عن أهل قنسرين ما فعلوا صالح حبيب ابن مرة وسار نحو قنسرين ، فلما اجتاز بدمشق ـ وكان بها أهله وثقله ـ استخلف عليها أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الكناني في أربعة آلاف ، فلما جاوز البلد وانتهى إلى حمص ، نهض أهل دمشق مع رجل يقال له عثمان بن عبد الأعلا بن سراقة فخلعوا السفاح وبيضوا وقتلوا الأمير أبا غانم وقتلوا جماعة من أصحابه وانتهبوا ثقل عبد الله بن علي وحواصله، ولم يتعرضوا لأهله . وتفاقم الأمر على عبد الله وذلك أن أهل قنسرين تراسلوا مع أهل حمص وتزمروا واجتمعوا على أبي محمد السفياني ، وهو أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فبايعوه بالخلافة وقام معه نحو من أربعين ألفاً فقصدهم عبد الله بن علي فالتقوا بمرج الأخرم ، فاقتتلوا مع مقدمة السفياني وعليها أبو الورد فاقتتلوا قتالاً شديداً وهزموا عبد الصمد وقتل من الفريقين ألوف ، فتقدم إليهم عبد الله بن علي ومعه حميد بن قحطبة فاقتتلوا قتالاً شديداً جداً، وجعل أصحاب عبد الله يفرون وهو ثابت هو وحميد . وما زال حتى هزم أصحاب أبي الورد وثبت أبو الورد في خمسمائة فارس من أهل بيته وقومه ، فقتلوا جميعاً وهرب أبو محمد السفياني ومن معه حتى لحقوا بتدمر ، وأمن عبد الله أهل قنسرين وسودوا وبايعوه ورجعوا إلى الطاعة ، ثم كر عبد الله راجعاً إلى دمشق وقد بلغه ما صنعوا؛ فلما دنا منها تفرّقوا عنها ولم يكن منهم قتال فأمنهم ودخلوا في الطاعة . وأما أبو محمد السفياني فانه ما زال مضيعاً ومشتتاً حتى لحق بارض الحجاز فقاتله نائب أبي جعفر المنصور في أيام المنصور ، فقتله وبعث برأسه وبابنين له أخذهما أسيرين فأطلقهما المنصور في أيامه . وقد قيل إن وقعة السفياني يوم الثلاثاء آخر يوم من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة فالله أعلم .

ومـمن خلع السفاح أيضاً أهل الجزيرة حين بلغهم أن أهل قنسرين خلعوا ، فوافقوهم وبيضوا وركبوا إلى نائب حران من جهة السفاح ـ وهو موسى بن كعب ـ وكان في ثلاثة آلاف.قد اعتصم بالبلد ، فحاصروه قريباً من شهرين ، ثم بعث السفاح أخاه أبا جعفر المنصور فيمن كانْ بـواسط مخاصري ابن هبيرة ، فمر في مسيره إلى حران بقرقيسيا وقد بيضوا فغلقوا أبوابها دونه ، ثم مر بالرقة وعليها بكار بن مسلم وهم كذلك ، ثم بحاجر وعليها إسحاق بن مسلم فيمن معه من أهل الجزيرة يحاصرونها فرحل إسحاق عنها إلى الرُّها ، وخرج موسى بن كعب فيمن معه من جند حران فتلقاه المنصور ودخلوا في جيشه ، وقدم بكار بن مسلم على أخيه إسحاق بن مسلم بالرها فوجهه إلى جماعة ربيعة بدارا وماردين ، ورئيسهم حروري يقال له بُريكة ، فصارا حزباً واحداً ، فقصد إليهم أبو جعفر فقاتلهم قتالاً شديداً ، فقتل بُريكة في المعركة ، وهرب بكار إلى أخيه بالرها ، فاستخلفه بها ومضى بمعظم العسكر [حتى نزل] سميساط وخندق على عسكره ، وأقبل أبو جعفر فحاصر بكاراً بالرها ، وجرت له معه وقعات . وكتب السفاح إلى عمه عبد الله بن علي أن يسير إلى سميساط وقد اجتمع على إسحاق بن مسلم ستون ألفاً من أهل الجزيرة، فسار إليهم عبد الله واجتمع إليه أبو جعفر المنصور ، فكاتبهم إسحاق وطلب منهم الأمان فأجابوه إلى ذلك ، على إذن أمير المؤمنين . وولى السفاح أخاه أبا جعفر المنصور الجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، فلم يزل عليها حتى أفضت إليه الخلافة بعد أخيه ، ويقال إن إسحاق بن مسلم العقيلي إنما طلب الأمان لما تحقق أن مروان قد قتل ، وذلك بعد مضي سبعة أشهر وهو محاصـر، وقد كان صاحباً لأبي جعفر المنصور فأمنه

وفي هذه السنة ذهب أبو جعفر المنصور عن أمر أخيه السفاح إلى أبي مسلم الخراساني وهو أميرها ، ليستطلع رأيه في قتل أبي سلمة ، لأنه كان يريد أن يصرف الخلافة عنهم ، فيسأله هل ذلك كان عن ممالأة أبي مسلم لأبي سلمة في ذلك أم لا ؟ فسكت القوم ، فقال السفاح : لئن كان هذا عن رأيه إنا لَبِعَرَ بلاء عظيم ، إلا أن يدفعه الله عنا . قال أبو جعفر فقال لي أخي : ما ترى ؟فقلت : الرأي رأيك . فقال : إنه ليس أحد أحصَّ بأبي مسلم منك ، فاذهب إليه فاعلم لي علمه ، فإن كان عن رأيه احتلنا له ، وإن لم يكن عن رأيه طابت أنفسنا . قال أبو جعفر : فخرجت إليه قاصـداً على وجل . قال المنصور : فلما وصلت إلى الري إذا كتاب أبي مسلم إلى نـائبها يستحثني إليـه في المسير ، فازددت وجلاً[1] ، فلما انتهيت إلى نيسابور إذا كتابه يستحثني أيضاً وقال لنائبها : لا ندعه يقر ساعة واحدة . فإن أرضك بها خوارج ، فانشرحت لذلك فلما صرت من مرو على فرسخين ، خرج يتلقاني ومعه الناس ، فلما واجهني ترجَّل فقبَّل يدي ، فأمرته فركب . فلما دخلت مرو نزلت في داره فمكث ثلاثاً لا يسألني في أي شيء جئت ، فلما كان في اليوم الرابع سألني ما أقدمك ؟ فأخبرته بالأمر . فقال : أفعلها أبو سلمة ؟ أنا أكفيكموه . فدعا مرّار بن أنس الضبي فقال : اذهب

(١) وجلاً : خوفاً .

إلى الكوفة فحيث لقيت أبا سلمة فاقتله ، وانته في ذلك إلى رأي الامام . فقدم مرار الكوفة الهاشمية ، وكان أبو سلمة يسمر عند السفاح ، فلما خرج قتله مرّار وشاع أن الخوارج قتلوه ، وغلقت البلد . ثم صلى عليه يحيى بن حمد بن علي أخو أمير المؤمنين ، ودفن بالهاشمية ، وكان يقال له وزير آل محمد . ويقال لابي مسلم أمير آل محمد . قال الشاعر : ـ

إنَ الوزيرَ وزيرُ آلِ محمدٍ أودى فمنْ يشناكَ كانَ وزيراً

ويقال إن أبا جعفر إنما سار إلى أبي مسلم بعد قتل أبي سلمة وكان معه ثلاثون رجلاً على البريد ، منهم الحجاج بن أرطاة ، وإسحاق بن الفضل الهاشمي ، وجماعة من السادات . ولما رجع أبو جعفر من خراسان قال لأخيه : لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً حتى تقتله ، لما رأى من طاعة العساكر له ، فقال له السفاح : اكتمها فسكت . ثم إن السفاح بعث أخاه أبا جعفر إلى قتال ابن هبيرة بواسط ، فلما اجتاز بالحسن بن قحطبة أخذه معه ، فلما أحيط بابن هبيرة كتب إلى محمد بن عبد الله بن حسن ليبايع له بالخلافة فأبطأ عليه جوابه ، فمال إلى مصالحة أبي جعفر ، فاستأذن أبو جعفر أخاه السفاح في ذلك فأذن له في المصالحة ، فكتب له أبو جعفر كتاباً بالصلح ، فمكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً . ثم خرج يزيد بن عمر بن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلاثمائةمن البخارية ، فلما دنا من سرادق أبي جعفر همّ أن يدخل بفرسه فقال الحاجب سلام : انزل أبا خالد . فنزل . وكان حول السرادق عشرة آلاف من أهل خراسان ، ثم أذن له في الدخول فقال : أنا ومن معي ؟ قال : لا بل أنت وحدك ، فدخل ووضعت له وسادة فجلس عليها ، فحادثه أبو جعفر ساعة ثم خرج من عنده فأتبعه أبو جعفر بصره ، ثم جعل يأتيه يوماً بعد يوم في خمسمائة فارس وثلاثمائة راجل ، فشكوا ذلك إلى أبي جعفر فقال أبو جعفر للحاجب : مره فليأتِ في حاشيته ، فكان يأتي في ثلاثين نفساً ، فقال الحاجب : كأنك تأتي متأهباً[1] ؟ فقال : لو أمرتموني بالمشي لمشيت إليكم ، ثم كان يأتي في ثلاثة أنفس . وقد خاطب ابن هبيرة يوماً لأبي جعفر فقال له في غبون كلامه : يا هناه ـ أو قال يا أيها المرء ـ ثم اعتذر إليه بأنه قد سبق لسانه إلى ذلك ، فأعذره . وقد كان السفاح كتب إلى أبي مسلم يستشيره في مصالحة ابن هبيرة فنهاه عن ذلك ، وكان السفاح لا يقطع أمراً دونه ، فلما وقع الصلح على يدي أبي جعفر لم يحب السفاح ذلك ولم يعجبه ، وكتب إلى أبي جعفر يأمره بقتله ، فراجعه أبو جعفر مراراً لا يفيده ذلك شيئاً ، حتى جاء كتاب السفاح أن أقتله لا محالة لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم كيف يعطي الامان وينكث ؟ هذا فعل الجبابرة وأقسم عليه في ذلك . فأرسل إليه أبو جعفر طائفة من الخراسانية فدخلوا عليه وعنده ابنه داود وفي حجره صبي صغير ، وحوله مواليه وحاجبه ، فدافع عنه ابنه حتى قتل وقتل خلق من مواليه ، وخلصوا إليه ، فألقى الصبي من حجره وخر ساجداً فقتل وهو ساجد ، واضطرب الناس ، فنادى أبو جعفر في الناس

(١) في تاريخ ابن جرير « مباهياً » .

بالأمان إلا عبد الملك بن بشر وخالد بن سلمة المخزومي وعمر بن ذر . فسكن الناس ثم استؤمن لبعض هؤلاء وقتل بعضاً .

وفي هذه السنة بعث أبو مسلم الخراساني محمد بن الأشعث إلى فارس وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة الخلال فيضرب أعناقهم ، ففعل ذلك . وفيها ولى السفاح أخاه يحيى بن محمد الموصل وأعمالها ، وولى عمه داود مكة والمدينة واليمن واليمامة ، وعزله عن الكوفة وولى مكانه عليها عيسى ابن موسى ، وولى قضاءها ابن أبي ليلى ، وكان على نيابة البصرة سفيان بن معاوية المهلبي ، وعلى قضائها الحجاج بن أرطاة ، وعلى السند منصور بن جمهور ، وعلى فارس محمد بن الأشعث . وعلى أرمينية وأذربيجان والجزيرة أبو جعفر المنصور ، وعلى الشام وأعمالها عبد الله بن علي عم السفاح ، وعلى مصر أبو عون عبد الملك بن يزيد . وعلى خراسان وأعمالها أبو مسلم الخراساني ، وعلى ديوان الخراج خالد بن برمك . وحج بالناس فيها داود بن علي .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أبو عبد الملك الأموي ، آخر خلفاء بني أمية ، فقتل في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة كما تقدم ذلك مبسوطاً ، ووزيره عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤي ، الكاتب البليغ الذي يضرب به المثل ، فيقال فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد . وكان إماماً في الكتابة وجميع فنونها ، وهو القدوة فيها . وله رسائل في ألف ورقة ، وأصله من قيسارية ثم سكن الشام ، وتعلم هذا الشأن من سالم مولى هشام بن عبد الملك وكان يعقوب بن داود وزير المهدي يكتب بين يديه ، وعليه تخرج ، وكان ابنه إسماعيل بن عبد الحميد ماهراً في الكتابة أيضاً ، وقد كان أولاً يعلم الصبيان ثم تقلبت به الأحوال أن صار وزيراً لمروان ، وقتله السفاح ومثَّل به ، وكان اللائق بمثله العفو عنه . ومن مستجاد كلامه : العلم شجرة ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤة الحكمة ، ومن كلامه وقد رأى رجلاً[1] يكتب خطاً رديئاً فقال : أطل جلفة قلمك وأسمنها ، وحرِّف قطتك وأيمنها . قال الرجل : ففعلت ذلك فجاد خطي . وسأله رجل أن يكتب له كتاباً إلى بعض الأكابر يوصيه به ، فكتب إليه : حقُّ موصل كتابي إليك كحقه عليَّ إذ رآك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد قضيت أنا حاجته فصدق أنت أمله . وكان كثيراً ما ينشد هذا البيت :-

إذا خرجَ الكتابُ كانَ دويهمْ قسياً وأقلامُ القسي لها نبلاً

وأبو سلمة حفص بن سليمان ، هو أول من وزر لآل العباس ، قتله أبو مسلم بالأنبار عن أمر

---

(١) هو ابراهيم بن جبلة .

السفاح ، بعد ولايته بأربعة أشهر ، في شهر رجب . وكان ذا هيئة فاضلاً حسن المفاكهة ، وكَ السفاح يأنس به ويحب مسامرته لطيب محاضرته ، ولكن توهم ميله لآل علي فدس أبو مسلم عليه مر قتله غيلة[1] كما تقدم ، فأنشد السفاح عند قتله :

إلى النـارِ فليـذهبْ ومن كـانَ مثلهُ على أي شيءٍ فـاتنـا منـهُ نـأسفُ

كان يقال له وزير آل محمد ، ويعرف بالخلال ، لسكناه بدرب الخلالين بالكوفة ، وهو أول من سُمِّي بالوزير ، وقد حكى ابن خلكان عن ابن قتيبة أن اشتقاق الوزير من الوزر وهو الحمل ، فكأن السلطان حمله أثقالاً لاستناده إلى رأيه ، كما يلجأ الخائف الى جبل يعتصم به .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائة

فيها ولى السفاح عمه سليمان البصرة وأعمالها ، وكور دجلة والبحرين وعمان . ووجه عمه إسماعيل بن علي إلى كور الأهواز . وفيها قتل داود بن علي من بمكة والمدينة من بني أمية ، وفيها توفي داود بن علي بالمدينة في شهر ربيع الأول ، واستخلف ابنه موسى على عمله ، وكانت ولايته على الحجاز ثلاثة أشهر ، فلما بلغ السفاح موته استناب على الحـجاز خاله زياد بن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي ، وولى اليمن لابن خاله محمد بن يزيد بن عبيد الله بن عبد الدار ، وجعل إمرة الشام لعميه عبد الله وصالح بَني علي ، وأقر أبا عون على الديار المصرية نـائباً . وفيهـا توجـه محمد بن الأشعث إلى إفريقية فقاتلهم قتالاً شديداً حتى فتحهـا . وفيها خـرج شريـك بن شيخ المهري ببخارى على أبي مسلم وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على سفك الدمـاء وقتل الأنفس ؟ واتبعه على ذلك نحو من ثلاثين ألفاً ، فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله فقتله .

وفيها عزل السفاح أخاه يحيى بن محمد عن الموصل ، وولّى عليه عمه إسماعيل . وفيها ولّى الصائفة من جهته صالح بن علي بن سعيد بن عبيد الله وغزا ما وراء الدروب . وحج بالناس خال السفاح زياد بن عبيد الله بن عبد الدار الحارثي . ونواب البلاد هم الذين كانوا في التي قبلها سوى من ذكرنا أنه عزل .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة

فيها خلع بسام بن إبراهيم بن بسام الطاعة وخرج على السفاح ، فبعث إليه خازم بن خزيمة فقاتله فقتل عامة أصحابه ، واستبّاح عسكره . ورجع فمر بملأ من بني عبد الدار أخوال السفاح فسألهم عن بعض ما فيه نصرة للخليفة ، فلم يردوا عليه ، واستهانوا به ، وأمر بضرب أعناقهم -

---

(١) غيلة : إسم من الاغتيال ، وهي بمعنى الغدر .

وكانوا قريباً من عشرين رجلاً ومثلهم من مواليهم ـ فاستعدى بنو عبد الدار على خازم بن خزيمة إلى السفاح، وقالوا : قتل هؤلاء بلا ذنب ، فهمَّ السفاح بقتله فأشار عليه بعض الأمراء بأن لا يقتله ولكن ليبعثه مبعثاً صعباً ، فان سلم فذاك ، وإن قتل كان الذي أراد . فبعثه إلى عمان وكان بها طائفة من الخوارج قد تمردوا وجهز معه سبعمائة رجل ، وكتب إلى عمه سليمان بالبصرة أن يحملهم في السفن إلى عمان ففعل ، فقاتل الخوارج فكسرهم وقهرهم واستحوذ على ما هنالك من البلاد ، وقتل أمير الخوارج الصفرية وهو الجلندي ، وقتل من أصحابه وأنصاره نحواً من عشرة آلاف ، وبعث برؤ وسهم إلى البصرة، فبعث بها نائب البصرة الى الخليفة . ثم بعد أشهر كتب إليه السفاح أن يرجع فرجع سالماً غانماً منصوراً .

وفيها غزا أبو مسلم بلاد الصغد وغزا أبو داود أحد نواب أبي مسلم بلادكش ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم من الأواني الصينية المنقوشة بالذهب شيئاً كثيراً جداً . وفيها بعث السفاح موسى بن كعب إلى منصور بن جمهور وهو بالهند في اثني عشر ألفاً ، فالتقاه موسى بن كعب وهو في ثلاثة الاف فهزمه واستباح عسكره . وفيها مات عامل اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله بن عبد الدار ، فاستخلف السفاح عليها عمه ، وهو خال الخليفة ، وفيها تحول السفاح من الحيرة الى الأنبار وحج بالناس نائب الكوفة عيسى بن موسى ، ونواب الأقاليم هم هم . وفيها توفي من الأعيان أبو هارون العبدي ، وعمارة بن جوين ، ويزيد بن يزيد بن جابر الدمشقي والله أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائة

فيها خرج زياد بن صالح من وراء نهر بلخ على أبي مسلم فأظفره الله بهم فبدد شملهم واستقر أمره بتلك النواحي . وحج بالناس فيها سليمان بن علي نائب البصرة . والنواب هم المذكورون قبلها . وممن توفي فيها من الأعيان : يزيد بن سنان ، وأبو عقيل زهرة بن معبد ، وعطاء الخراساني .

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائة

فيها قدم أبو مسلم من خراسان على السفاح ، وذلك بعد استئذانه الخليفة في القدوم عليه ، فكتب إليه أن يقدم في خمسمائة من الجند ، فكتب إليه : إني قد وترت[1] الناس ، وإني أخشى من قلة الخمسمائة . فكتب إليه أن يقدم في ألف ، فقدم في ثمانية آلاف ، فرقهم وأخذ معه من الأموال والتحف والهدايا شيئاً كثيراً . ولما قدم لم يكن معه سوى ألف من الجند ، فتلقاه القواد والأمراء الى مسافة بعيدة ولما دخل على السفاح أكرمه وعظمه واحترمه وأنزله قريباً منه ، وكان يأتي إلى الخلافة كل يوم ، واستأذن الخليفة في الحج فأذن له ، وقال : لولا أني عينت الحج لأخي أبي جعفر لأمرتك

---

(١) وترتُ : جعلت شفعهم وِتراً اي افردتهم .

على الحج . وكان الذي بين أبي جعفر وأبي مسلم خراباً وكان يبغضه ، وذلك لما رأى ما هو فيه من الحرمة حين قدم عليه نيسابور في البيعة للسفاح وللمنصور بعده ، فحار في أمره لذلك ، فحقد عليه المنصور وأشار على السفاح بقتله ، فأمره بكتم ذلك . وحين قدم أمره بقتله أيضاً وحرضه على ذلك ، فقال له السفاح : قد علمت بلاءه معنا وخدمته لنا فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين إنما ذلك بدولتنا ، والله لو أرسلت سنوراً لسمعوا لها وأطاعوا ، وإنك إن لم تتعش به تغدى بك هو ، فقال له : كيف السبيل الى ذلك ؟ فقال : إذا دخل عليك فحادثه ثم أجيء أنا من ورائه فأضربه بالسيف . قال : كيف بمن معه ؟ قال : هم أذل وأقل . فأذن له في قتله ، فلما دخل أبو مسلم على السفاح ندم على ما كان أذن لأخيه فيه ، فبعث اليه الخادم يقول له : إن ذاك الذي بينك وبينه ندم عليه فلا تفعله . فلما جاءه الخادم وجده محتبياً بالسيف قد تهيأ لما يريد من قتل أبي مسلم . فلما نهاه عن ذلك غضب أبو جعفر غضباً شديداً . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور عن ولاية أخيه السفاح ، وسار معه إلى الحجاز أبو مسلم الخراساني عن أمر الخليفة ، وأذن له في الحج ، فلما رجعا من الحج وكانا بذات عرق جاء الخبر الى أبي جعفر ـ وكان يسير قبل أبي مسلم بمرحلة ـ بموت أخيه السفاح ، فكتب إلى أبي مسلم أن قد حدث أمر فالعجل العجل ، فلما استعلم أبو مسلم الخبر عجل السير وراءه ، فلحقه إلى الكوفة . وكانت بيعة المنصور على ما سيأتي بيانه وتفصيله قريباً والله سبحانه وتعالى أعلم .

ترجمة ابي العباس السفاح اول خلفاء بني العباس

هو عبد الله السفاح ـ ويقال له المرتضى ، والقاسم أيضاً ـ ابن محمد ابن الامام ابن علي السجاد ابن عبد الله الحبر ابن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أمير المؤمنين ، وأمه ريطة ـ ويقال رايطة ـ بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الدار الحارثي ، كان مولد السفاح بالحميمة من أرض الشراه من البلقاء بالشام ، ونشأ بها حتى أخذ مروان أخاه إبراهيم الامام فانتقلوا الى الكوفة . بويع له بالخلافة بعد مقتل أخيه في حياة مروان يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول بالكوفة كما تقدم . وتوفي بالجدري بالأنبار يوم الأحد الحادي عشر ، وقيل الثالث عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، وكان عمره ثلاثاً ، وقيل اثنتين ، وقيل إحدى وثلاثين سنة ، وقيل ثمان وعشرين سنة . قاله غير واحد . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان أبيض جميلاً طويلاً ، أقنى[1] الأنف ، جعد الشعر ، حسن اللحية ، حسن الوجه ، فصيح الكلام ، حسن الرأي ، جيد البديهة .

دخل عليه في أول ولايته عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ومعه مصحف وعند السفاح وجوه بني هاشم من أهل بيته وغيرهم ، فقال له : يا أمير المؤمنين اعطنا حقنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف . قال : فأشفق عليه الحاضرون أن يعجل السفاح عليه بشيء أو يترك جوابه فيبقى ذلك

(١) أقنى : ما به قنأ ، أي ما ارتفع وسط قصبته وضاق منخره .

مسبة عليه وعليهم . فأقبل السفاح عليه غير مغضب ولا منزعج ، فقال : إن جدك علياً كان خيراً مني وأعدل ، وقد ولي هذا الأمر فأعطى جديك الحسن والحسين وكانا خيراً منك ، شيئاً قد اعطيتكه وزدتك عليه ، فما كان هذا جزائي منك . قال : فما رد عليه عبد الله بن حسن جواباً ، وتعجب الناس من سرعة جوابه وجدته وجودته على البديهة .

وقد قال الإمام أحمد في مسنده : حدّثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن الأعمش عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري . قال قال رسول الله ﷺ : « يخرج عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن رجل يقال له السفاح ، يكون إعطاؤه المال حثياً » وكذا رواه زائدة وأبو معاوية عن الأعمش به . وهذا الحديث في إسناده عطيـة العوفي وقد تكلموا فيه . وفي أن المراد بهذا الحديث هذا السفاح نظر والله أعلم . وقد ذكرنا فيما تقدم عند زوال دولة بني أمية أخباراً وآثاراً في مثـل هذا المعنى . وقال الزبير بن بكار : حدّثني محمد بن سلمة بن محمد بن هشـام أخبرني محمـد بن عبد الرحمن المخزومي حدثني داود بن عيسى عن أبيه عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ـ وهو والد السفاح ـ قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من النصارى فقال له عمر : من تجدون الخليفة بعد سليمـان ؟ قال له : أنت . فأقبل عمر بن عبد العزيز عليه فقال له : زدني من بيانك . فقال ثم آخر ، إلى أن ذكر خلافة بني أمية إلى آخرها . قال محمد بن علي : فلما كان بعد ذلك جعلت ذلك النصراني في بالي فرأيته يوماً فأمرت غلامي أن يحبسه عليّ . وذهبت الى منزلي فسألته عما يكون في خلفاء بني أمية فذكرهم واحداً واحداً ، وتجاوز عن مروان بن محمد . قلت : ثم من ؟ قال : ثم ابن الحارثية ، وهو ابنك . قال : وكان ابني ابن الحارثية إذ ذاك حملاً . قال ووفد أهل المدينـة على السفاح فبـادروا الى تقبيل يـده غير عمـران بن إبراهيم بن عبـد الله بن مطيـع العدوي ، فانه لم يقبِّل يده ، وإنما حيَّاه بالخلافة فقط ، وقال : والله يا أمير المؤمنين لو كان تقبيلها يزيدك رفعة ويزيدني وسيلة إليك ما سبقني اليها أحد من هؤلاء ، وإني لغني عما لا أجر[1] فيه ، وربما قادنا عمله إلى الـوزر[2] ثم جلس . قال : فوالله ما نقصه ذلك عنده حظاً من حظ أصحابه ، بل أحبه وزاده . وذكر القاضي المعافي بن زكريا أن السفاح بعث رجلاً ينادي في عسكر مروان بهذين البيتين ليلاً ثم رجع :

يـا آلَ مـروانَ إنَّ الله مـهلكـكـمْ	ومبـدلٌ أمنَكُمْ خـوفـاً وتشـريـداً
لا عـمَّـر الله مِنْ أنسـالكـم أحـداً	وبثكم في بـلادِ الخـوفِ تـطريـداً

وروى الخطيب البغدادي أن السفاح نظر يوماً في المرآة ـ وكان من أجمـل الناس وجهـاً ـ فقال : اللهم لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك : أن الخليفة الشاب ، ولكن أقول : اللهم

(١) أجر : المكافأة والثواب .
(٢) الوزر : الخطيئة والذنب .

عمرني طويلاً في طاعتك ممتعاً بالعافية . فما استتم كلامه حتى سمع غلاماً يقول لآخر : الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيام . فتطير من كلامه وقال : حسبي الله لا قوة إلا بالله عليه توكلت وبه أستعين فمات بعد شهرين وخمسة أيام . وذكر محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي أن الرشيد أمر ابنه أن يسمع من إسحاق بن عيسى بن علي ما يرويه عن أبيه في قصة السفاح ، فأخبره عن أبيه عيسى أنه دخل على السفاح يوم عرفة بكرة فوجده صائماً ، فأمره أن يحادثه في يومه هذا ثم يختم ذلك بفطره عنده . قال : فحادثته حتى أخذه النوم فقمت عنه وقلت : أقيل في منزلي ثم أجيء بعد ذلك . فذهبت فنمت قليلاً ثم قمت فأقبلت الى داره فاذا على بابه بشير يبشر بفتح السند وبيعتهم للخليفة وتسليم الأمور الى نوابه . قال : فحمدت الله الذي وفقني في الدخول عليه بهذه البشارة ، فدخلت الدار فإذا بشير آخر معه بشارة بفتح إفريقية ، فحمدت الله فدخلت عليه فبشرته بذلك وهو يسرح لحيته بعد الوضوء ، فسقط المشط من يده ثم قال : سبحان الله ، كل شيء بائد سواه ، نعيت والله إلى نفسي ، حدّثني إبراهيم الامام عن أبي هشام عن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه قال: « يقدم عليٌّ في مدينتي هذه وافدان وافد السند والآخر وافد إفريقية بسمعهم وطاعتهم وبيعتهم ، فلا يمضي بعد ذلك ثلاثة أيام حتى أموت . قال : وقد أتاني الوافدان فأعظم الله أجرك يا عم في ابن أخيك . فقلت : كلا ، يا أمير المؤمنين إن شاء الله . قال بلى إن شاء الله ! لئن كانت الدنيا حبيبة إليَّ فالآخرة أحب إليَّ ، ولقاء ربي خير لي ، وصحة الرواية عن رسول الله بذلك أحب الّي منها ، والله ما كُذبت ولا كَذبت . ثم نهض فدخل منزله وأمرني بالجلوس ، فلما جاء المؤذن يعلمه بوقت الظهر خرج الخادم يعلمني أن أصلي عنه ، وكذلك العصر والمغرب والعشاء ، وبتُّ هناك ، فلما كان وقت السحر[1] أتاني الخادم بكتاب معه يأمرني أن أصلي عنه الصبح والعيد ثم أرجع إلى داره ، وفيه يقول : يا عم إذا مت فلا تعلم الناس بموتي حتى تقرأ عليهم هذا الكتاب فيبايعوا لمن فيه . قال : فصليت بالناس ثم رجعت إليه فإذا ليس به بأس ، ثم دخلت عليه من آخر النهار فإذا هو على حاله غير أنه قد خرجت في وجهه حبتان صغيرتان ، ثم كبرتا ، ثم صار في وجهه حب صغار بيض يقال إنه جدري ، ثم بكّرت إليه في اليوم الثاني فإذا هو قد هجر وذهبت عنه معرفتي ومعرفة غيري ، ثم رجعت إليه بالعشي فإذا هو انتفخ حتى صار مثل الزق[2] ، وتوفي اليوم الثالث من أيام التشريق ، فسجيته كما أمرني ، وخرجت إلى الناس فقرأت عليهم كتابه فاذا فيه : من عبد الله أمير المؤمنين إلى الأولياء وجماعة المسلمين ، سلام عليكم أما بعد فقد قلد أمير المؤمنين الخلافة عليكم بعد وفاته أخاه فاسمعوا وأطيعوا ، وقد قلدها من بعده عيسى بن موسى إن كان . قال : فاختلف الناس في قوله «إن كان» قيل إن كان أهلا لها . وقال آخرون إن كان حياً . وهذا القول الثاني هو الصواب . ذكره الخطيب وابن عساكر مطولاً . وهذا ملخص منه . وفيه

(١) السَّحَر : قبل طلوع ضوء الفجر بقليل .

(٢) الزق : وعاء الخمر .

ذكر الحديث المرفوع وهو منكر جداً . وذكر ابن عساكر أن الطبيب دخل عليه فأخذ بيده فأنشأ يقول عند ذلك :

انظر إلى ضعفِ الحرا ... كِ وذلهِ بعدَ السكون
ينبيكَ أنَّ بيانةَ ... هذا مقدمةُ المنونِ[1]

فقال له الطبيب : أنت صالح . فأنشأ يقول :

يبشرني باني ذو صلاحٍ ... يبينُ لهُ ربي داءٌ دفينُ[2]
لقد أيقنتُ أني غيرُ باقٍ ... ولا شكُّ إذا وضحَ اليقينُ

قال بعض أهل العلم : كان آخر ما تكلم به السفاح : الملك لله الحي القيوم ، ملك الملوك ، وجبار الجبابرة . وكان نقش خاتمه الله ثقة عبد الله . وكان موته بالجدري في يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة بالأنبار العتيقة ، عن ثلاث وثلاثين سنة . وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر على أشهر الأقوال . وصلى عليه عمه عيسى بن علي ودفن في قصر الإمارة من الأنبار . وترك تسع جبات وأربعة أقمصة وخمس سراويلات وأربعة طيالسة[3] وثلاثة مطارف خز . وقد ترجمه ابن عساكر فذكر بعض ما أوردناه والله أعلم .

وممن توفي فيها من الأعيان السفاح كما تقدم ، وأشعث بن سوار ، وجعفر بن أبي ربيعة ، وحصين بن عبد الرحمن ، وربيعة الراعي ، وزيد بن أسلم ، وعبد الملك بن عمير ، وعبد الله بن أبي جعفر ، وعطاء بن السائب . وقد ذكرنا تراجمهم في التكميل ولله الحمد .

خلافة ابي جعفر المنصور

واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

قد تقدم أنه لما مات السفاح كان في الحجاز فبلغه موته وهو بذات عرق راجعاً من الحج ، وكان معه أبو مسلم الخراساني ، فعجل السير وعزاه أبو مسلم في أخيه ، فبكى المنصور عند ذلك ، فقال له : أتبكي وقد جاءتك الخلافة ؟ أنا أكفيكها إن شاء الله . فسُرِيّ عنه ، وأمر زياد بن عبيد الله أن يرجع الى مكة والياً عليها، وكان السفاح قد عزله عنها بالعباس بن عبد الله بن معبد بن عباس فأقره عليها. والنواب على أعمالهم حتى انسلخت هذه السنة، وقد كان عبد الله بن علي قدم على ابن أخيه السفاح الأنبار فأمَّره على الصائفة ، فركب في جيوش عظيمة إلى بلاد الروم ، فلما كان ببعض

---

(١) المنون : الموت .
(٢) دفين : مدفون ومستور .
(٣) طَيَالسَة : مفردها طَيْلَسَان كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء وهو من لباس العجم .

الطريق بلغه موت السفاح فكر راجعاً إلى حران ، ودعا إلى نفسه ، وزعم أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى الشام أن يكون ولي العهد من بعده ، فالتفت عليه جيوش عظيمة ، وكان من أمره ما سنذكره في السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائة

ذكر خروج عبد الله بن علي ابن أخيه المنصور

لما رجع أبو جعفر المنصور من الحج بعد موت أخيه السفاح ، دخل الكوفة فخطب بأهلها يوم الجمعة وصلى بهم ، ثم ارتحل منها إلى الأنبار وقد أخذت له البيعة من أهل العراق وخراسان وسائر البلاد سوى الشام ، وقد ضبط عيسى بن علي بيوت الأموال والحواصل للمنصور حتى قدم ، فسلَّم إليه الأمر ، وكتب إلى عمه عبد الله بن علي يعلمه بوفاة السفاح ، فلما بلغه الخبر نادى في الناس الصلاة جامعة ، فاجتمع إليه الأمراء والناس ، فقرأ عليهم وفاة السفاح ، ثم قام فيهم خطيباً فذكر أن السفاح كان عهد إليه حين بعثه إلى مروان أنه إن كسره كان الأمر إليه من بعده ، وشهد له بذلك بعض امراء العراق ، ونهضوا إليه فبايعوه ، ورجع الى حرَّان فتسلمها من نائب المنصور بعد محاصرة أربعين ليلة ، وقتل مقاتل العتكي نائبها . فلما بلغ المنصور ما كان من أمر عمه بعث إليه أبا مسلم الخراساني ومعه جماعة من الأمراء وقد تحصن عبد الله بن علي بحرَّان ، وأرصد عنده مما يحتاج إليه من الأطعمة والسلاح شيئاً كثيراً جداً ، فسار إليه أبو مسلم الخراساني وعلى مقدمته مالك بن هيثم الخزاعي ، فلما تحقق عبد الله قدوم أبي مسلم إليه خشي من جيش العراق أن لا يناصحوه ، فقتل منهم سبعة عشر ألفاً ، وأراد قتل حميد بن قحطبة فهرب منه إلى أبي مسلم ، فركب عبد الله بن علي فنزل نصيبين وخندق حول عسكره ، وأقبل أبو مسلم فنزل ناحية وكتب الى عبد الله : إني لم أومر بقتالك ، وإنما بعثني أمير المؤمنين والياً على الشام فأنا أريدها . فخاف جنود الشام من هذا الكلام فقالوا : إنا نخاف على ذرارينا[1] وديارنا وأموالنا ، فنحن نذهب اليها نمنعهم منه . فقال عبد الله : ويحكم ! والله إنه لم يأت إلا لقتالنا . فأبوا إلا أن يرتحلوا نحو الشام ، فتحول عبد الله من منزله ذلك وقصد ناحية الشام ، فنهض أبو مسلم فنزل موضعه وغوّر ما حوله من المياه - وكان موضع عبد الله الذي تحوَّل منه موضعاً جيداً جداً - فاحتاج عبد الله وأصحابه فنزلوا في موضع أبي مسلم فوجدوه منزلاً رديئاً ، ثم أنشأ أبو مسلم القتال فحاربهم خمسة أشهر ، وكان على خيل عبد الله أخوه عبد الصمد بن علي ، وعلى ميمنته بكار بن مسلم العقيلي ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الأسدي ، وعلى ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة ، وعلى ميسرته أبو نصر خازم بن خزيم ، وقد جرت بينهم وقعات وقتل منهم جماعات في أيام نحسات ، وكان أبو مسلم إذا حمل يرتجز ويقول :

---

(١) ذرارينا : أهلنا .

من كـانَ ينـوي أهلهُ فـلا رجـعْ   فَـر من المـوتِ وفي المـوتِ وقـعْ

وكان يعمل له عرش فيكـون فيه إذا التقى الجيشـان فما رأى في جيشـه من خلل أرسل فأصلحه . فلما كان يوم الثلاثاء أو الأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة التقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فمكر بهم أبو مسلم ! بعث إلى الحسن بن قحطبة أمير الميمنة فأمره أن يتحول بمن معه إلا القليل إلى الميسرة ، فلما رأى ذلك أهل الشام انحازوا الى الميمنة بازاء الميسرة التي تعمرت ، فأرسل حينئذ أبو مسلم الى القلب أن يحمل بمن بقي في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحطموهم ، فجال أهل القلب والميمنة من الشاميين فحمل الخراسانيون على أهل الشام وكانت الهزيمة ، وانهزم عبد الله بن علي بعد تلوم ، واحتاز أبو مسلم ما كان في معسكرهم ، وأمن أبو مسلم بقية الناس فلم يقتل منهم أحداً ، وكتب إلى المنصور بذلك ، فأرسل المنصور مولاه أبا الخصيب ليحصي ما وجدوا في معسكر عبد الله ، فغضب من ذلك أبو مسلم الخراساني . واستوسقت الممالك لأبي جعفر المنصور ، ومضى عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد على وجهيهما ، فلما مرا بالرصافة أقام بها عبد الصمد ، فلما رجع أبو الخصيب وجده بها فأخذه معه مقيداً في الحديد فأدخله على المنصور فدفعه الى عيسى بن موسى فاستأمن له المنصور ،وقيل بل استأمن له إسماعيل بن علي . وأما عبد الله بن علي فانه ذهب الى أخيه سليمان بن علي بالبصرة فأقام عنده زماناً مختفياً ، ثم علم به المنصور فبعث اليه فسجنه [في بيت بني أسامة على الملح ثم أطلق عليه الماء فذاب الملح وسقط البيت على عبد الله فمات . وهذه من بعض دواهي المنصور والله سبحانه أعلم][1] . فلبث في السجن سبع سنين ثم سقط عليه في البيت الذي هو فيه فمات كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

مهلك أبي مسلم الخراساني

في هذه السنة أيضاً لما فرغ أبو مسلم من الحج سبق الناس بمرحلة فجاءه خبر السفاح في الطريق فكتب إلى أبي جعفر يعزيه في أخيه ولم يهنئه بالخلافة ، ولا رجع إليه . فغضب المنصور من ذلك مع ما كان قد أضمر له من السوء إذا أفضت إليه الخلافة ، وقيل إن المنصور هو الذي كان قد تقدم بين يدي الحج بمرحلة ، وأنه لما جاءه خبر موت أخيه كتب إلى أبي مسلم يستعجله في السير كما قدمنا . فقال لأبي أيوب : اكتب له كتاباً غليظاً ، فلما بلغه الكتاب أرسل يهنئه بالخلافة وانقمع[2] من ذلك . وقال بعض الأمراء للمنصور : إنا نرى أن لا تجامعه في الطريق فان معه من الجنود من لا يخالفه ، وهم له أهيب ، وعلى طاعته أحرص ، وليس معك أحد ، فأخذ المنصور

---

(١) زيادة وُجِدَتْ بهامش نسخة الاستانة .

(٢) وانقمع : قُهِرَ وذُلِّل .

برأيه ثم كان من أمره في مبايعته لأبي جعفر ما ذكرنا ، ثم بعثه إلى عمه عبد الله فكسره كما تقدم ، وقد بعث في غبون ذلك الحسن بن قحطبة لأبي أيوب كاتب رسائل المنصور يشافهه ويخبره بأن أبا مسلم متهم عند أبي جعفر ، فانه إذا جاءه كتاب منه يقرأه ثم يلوى شدقيه ويرمي بالكتاب إلى أبي نصر ويضحكان استهزاء ، فقال أبو أيوب : إن تهمة أبي مسلم عندنا أظهر من هذا . ولما بعث أبو جعفر مولاه أبا الخصيب يقطين ليحتاط على ما أصيب من معسكر عبد الله من الأموال والجواهر الثمينة وغيرها ، غضب أبو مسلم فشتم أبا جعفر وهمّ بأبي الخصيب ، حتى قيل له : إنه رسول فتركه ورجع . فلما قدم أخبر المنصور بما كان وبما همّ به أبو مسلم من قتله ، فغضب المنصور وخشي أن يذهب أبو مسلم إلى خراسان فيشق عليه تحصيله بعد ذلك ، وأن تحدث حوادث ، فكتب إليه مع يقطين إني قد وليتك الشام ومصر وهما خير من خراسان . فابعث إلى مصر من شئت وأقم أنت بالشام ، لتكون أقرب إلى أمير المؤمنين ، إذا أراد لقاءك كنت منه قريباً . فغضب أبو مسلم وقال : قد ولاني الشام ومصر ، ولي ولاية خراسان ، فاذاً اذهب إليها وأستخلف على الشام ومصر ، فكتب إلى المنصور بذلك فقلق المنصور من ذلك كثيراً . ورجع أبو مسلم من الشام قاصداً خراسان وهو عازم على مخالفة المنصور . فخرج المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم بالمسير إليه ، فكتب إليه أبو مسلم وهو على الزاب عازم على الدخول إلى خراسان : إنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء[1] . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إراداتها نقضتُ ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسي عن مقامات الذل والاهانة . فلما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم : قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة إلى ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، وإنما راحتهم في تبدد نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة ، وقد حمل أمير المؤمنين عيسى بن موسى إليك رسالة ليسكن إليها قلبك إن أصغيت إليها ، واسأله أن يحول بين الشيطان ونزغاته[2] وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك آوكد عنده من هذا ولا أقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك . ويقال إن أبا مسلم كتب إلى المنصور : أما بعد فاني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه ، وكان في محلة العلم نارلاً وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً ، فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد تعافاه الله إلى خلقه ، وكان كالذي دلى بغرور ، وأمرني أن أجرد السيف وأرفع المرحمة ولا أقبل المعذرة ولا أقيل العثرة ، ففعلت

---

(١) الدهماء : الليلة المظلمة .

(٢) ونزغاته : وسوساته وطعناته .

توطيداً لسلطانكم حتى عرّفكم الله من كان يجهلكم ، وأطاعكم من كان عدوكم ، وأظهركم الله بي بعد الاخفاء والحقارة والذل ، ثم استنقذني الله بالتوبة . فإن يعف عني فقديما عرف به ونسب إليه ، وإن يعاقبني فيما قدمت يداي ، وما الله بظلام للعبيد . ذكره المدائني عن شيوخه .

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي ـ وقد كان أوحد أهل زمانه ـ في جماعة من الأمراء ، وأمره أن يكلم أبا مسلم باللين كلاماً يقدر عليه ، وأن يكون في جملة ما يكلمه به انه يريد رفع قدرك وعلو منزلتك والاطلاقات لك ، فإن جاء بهذا فذاك ، وإن أبى فقل هو بريء من العباس إن شققت العصا وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره ، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك . ولا تقل له هذا حتى تيأس من رجوعه بالتي هي أحسن فلما قدم عليه أمراء المنصور بحلوان دخلوا عليه ولاموه فيما همَّ به من منابذة أمير المؤمنين ، وما هو فيه من مخالفته ، ورغّبوه في الرجوع إلى الطاعة ، فشاور ذوي الرأي من أمرائه فكلهم نهاه عن الرجوع إليه ، وأشاروا بأن يقيم في الري فتكون خراسان تحت حكمه ، وجنوده طوعاً له ، فإن استقام له الخليفة وإلا كان في عزومنعة من الجند . فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم : ارجعوا إلى صاحبكم فلست ألقاه . فلما استيأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذي كان المنصور أمرهم به . فلما سمع ذلك كسره جداً وقال قوموا عني الساعة .

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد ، فكتب إليه المنصور في غيبة أبي مسلم حين اتهم : إن ولاية خراسان لك ما بقيت ، فقد وليتكها وعزلت عنها أبا مسلم . فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبي مسلم حين بلغه ما عليه من منابذة الخليفة : إنه ليس يليق بنا منابذة[1] خلفاء أهل بيت رسول الله ﷺ ، فارجع إلى أمامك سامعاً مطيعاً والسلام . فزاده ذلك كسراً أيضاً فبعث إليهم أبو مسلم : إني سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به . فبعث أبا إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعده بنيابة العراق إن هو رده . فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له : ما وراءك ؟ قال : رأيتهم معظمين لك يعرفون قدرك . فغره ذلك وعزم على الذهاب إلى الخليفة ، فاستشار أميراً يقال له نيزك ، فنهاه ، فصمم على الذهاب ، فلما رآه نيزك عازماً على الذهاب تمثل بقول الشاعر : ـ

مـا للرجـالِ مـعَ القضـاءِ محـالـةٌ   ذهبَ القـضـاءُ بحـيـلةِ الأقـوامِ

ثم قال له : احفظ عني واحدة . قال : وما هي ؟ قال : إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فان الناس لا يخالفونك . وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدومه عليه . قال أبو أيوب كاتب الرسائل : فدخلت على المنصور وهو جالس في خباء شعر جالس في مصلاه بعد العصر ، وبين يديه كتاب فألقاه إليَّ فاذا هو كتاب أبي مسلم يعلمه بالقدوم عليه ، ثم قال الخليفة : والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه . قال أبو أيوب : فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون . وبت تلك الليلة لا يأتيني نوم ، أفكر في هذه الواقعة ، وقلت : إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شر إلى

الخليفة ، والمصلحة تقتضي أن يدخل آمناً ليتمكن منه الخليفة . فلما أصبحت طلبت رجلاً من الامراء وقلت له : هل لك أن تتولى مدينة كسكر فانها مغلة في هذه السنة ؟ فقال : ومن لي بذلك ؟ فقلت له : فاذهب إلى أبي مسلم فتلقاه في الطريق فاطلب منه أن يوليك تلك البلد ، فإن أمير المؤمنين يريد أن يوليه ما وراء بابه ويستريح لنفسه . واستأذنت المنصور أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له ، وقال له : سلم عليه وقل له : إنا بالاشواق إليه . فسار ذلك الرجل ـ وهو سلمة بن فلان ـ[1] إلى أبي مسلم فأخبره باشتياق الخليفة إليه ، فسره ذلك وانشرح ، وإنما هو غرور ومكر به ، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى منيته ، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والامراء أن يتلقوه ، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم ، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤخر قتله في ساعته هذه إلى الغد ، فقبل ذلك منه . فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشيَ أظهر له الكرامة والتعظيم ، ثم قال : اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام ، فاذا كان الغد فأتني . فخرج من عنده وجاءه الناس يسلمون عليه ، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الامراء فقال له : كيف بلائي عندك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها . قال : فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم ؟ قال : فوجم ساعة ثم قال أبو أيوب : مالك لا تتكلم ؟ فقال قولة ضعيفة : أقتله . ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرضهم على قتله ، وقال لهم : كونوا من وراء الرواق[2] فاذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه . ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلاً تترى[3] يتبع بعضها بعضاً ، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتسم ، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة ، فيعتذر عن ذلك كله . ثم قال : يا أمير المؤمنين أرجو أن تكون نفسك قد طابت عليَّ . فقال المنصور : أما والله ما زادني هذا إلا غيظاً عليك . ثم ضرب باحدى يديه على الأخرى فخرج عثمان وأصحابه فضربوه بالسيوف حتى قتلوه ولفوه في عباءة ثم أمر بالقائه في دجلة ، وكان آخر العهد به ، وكان مقتله في يوم الأربعاء لأربع بقين من شعبان سنة سبع وثلاثين ومائة .

وكان من جملة ما عاتبه به المنصور ان قال: كتبت اليَّ مرات تبدأ بنفسك، وأرسلت تخطب عمتي أمينة ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس إلى غير ذلك . فقال أبو مسلم : يا أمير المؤمنين لا يقال لي هذا وقد سعيت في أمركم بما علمه كل أحد . فقال : ويلك ! لو قامت في ذلك أمة سوداء لأتمه الله لجدنا وحيطتنا . ثم قال : والله لأقتلنك . فقال : استبقني يا أمير المؤمنين لأعدائك . فقال : وأي عدو لي أعدى منك . ثم أمر بقتله كما تقدم : فقال له بعض الأمراء : يا أمير المؤمنين الآن صرت خليفة . ويقال إن المنصور أنشد عند ذلك :

---

(١) كذا بالأصلين . وفي الطبري : سلمة بن سعيد بن جابر .

(٢) الرواق : سقف في مقدَّم البيت أو كساء مرسل على مقدَّم البيت من أعلاه إلى الأرض .

(٣) تترى : تتوالى .

فألقتْ عصاها واستقرَ بها النوى[1] كما قرَّ عيناً بالايابِ[2] المسافرِ

وذكر ابن خلكان أن المنصور لما أراد قتل أبي مسلم تحير في أمره هل يستشير أحداً في ذلك أو يستبد هو به لئلا يشيع وينشر ، ثم استشار واحداً من نصحاء أصحابه فقال : يا أمير المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدتَا ﴾[3] فقال له : لقد أودعتها أذناً واعية . ثم عزم على ذلك .

ترجمة ابي مسلم الخراساني

هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم صاحب دولة بني العباس ، ويقال له أمير آل بيت رسول الله ﷺ ، وقال الخطيب : يقال له عبد الرحمن بن شيرون بن اسفنديار أبو مسلم المروزي ، صاحب الدولة العباسية ، يروى عن أبي الزبير وثابت البناني وإبراهيم وعبد الله ابني محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس ، زاد ابن عساكر في شيوخه محمد بن علي وعبد الرحمن بن حرملة وعكرمة مولى ابن عباس. قال ابن عساكر : روى عنه إبراهيم بن ميمون الصائغ ، وبشر والد مصعب بن بشر ، وعبد الله بن شبرمة وعبد الله بن المبارك وعبد الله بن منيب المروزي وقديد بن منيع صهر أبي مسلم .

قال الخطيب : وكان أبو مسلم فاتكا ذا رأي وعقل وتدبير وحزم ، قتله أبو جعفر المنصور بالمدائن . وقال أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان : كان اسمه عبد الرحمن بن عثمان بن يسار ، قيل إنه ولد بأصبهان ، وروى عن السدي وغيره ، وقيل كان اسمه إبراهيم بن عثمان بن يسار ابن سندوس بن حوذون ، من ولد بزرجمهر ، وكان يكنى أبا إسحاق ، ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج ، فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين ، فلما بعثه إبراهيم بن محمد الامام إلى خراسان قال له : غير اسمك وكنيتك . فتسمى عبد الرحمن بن مسلم ، واكتنى بأبي مسلم ، فسار إلى خراسان وهو ابن سبع عشرة سنة راكباً على حمار با كاف ، وأعطاه إبراهيم بن محمد نفقة ، فدخل خراسان وهو كذلك ، ثم آل به الحال حتى صارت له خراسان بأزمتها وحذافيرها ، وذكر أنه في ذهابه إليها عدا رجل من بعض الحانات فقطع ذنب حماره ، فلما تمكن أبو مسلم جعل ذلك المكان دكا فكان بعد ذلك خراباً . وذكر بعضهم أنه أصابه سبي في صغره وأنه اشتراه بعض دعاة بني العباس بأربعمائة درهم ، ثم إن إبراهيم بن محمد الامام استوهبه واشتراه فانتمى إليه وزوجه إبراهيم بنت أبي النجم إسماعيل الطائي ، أحد دعاتهم ، لما بعثه إلى

(١) النوى : الابتعاد والارتحال .

(٢) بالاياب : الرجوع والعودة .

(٣) سورة الأنبياء الآية/ ٢٢ .

خراسان ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم فولد لأبي مسلم بنتان إحداهما أسماء أعقبت ، وفاطمة لم تعقب .

وقد تقدم ذكر كيفية استقلال أبي مسلم بأمور خراسان في سنة تسع وعشرين ومائة ، وكيف نشر دعوة بني العباس، وقد كان ذا هيبة وصرامة وإقدام وتسرع في الأمور. وقد روى ابن عساكر بإسناده أن رجلاً قام إلى أبي مسلم هو يخطب فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك ؟ فقال: حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله « أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء » . وهذه ثياب الهيئة وثياب الدولة . يا غلام اضرب عنقه . وروى من حديث عبد الله بن منيب عنه عن محمد بن علي عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد هوان قريش أهانه الله » . وقد كان ابراهيم بن ميمون الصائغ من أصحابه وجلسائه في زمن الدعوة ، وكان يعده إذا ظهر أن يقيم الحدود ، فلما تمكن أبو مسلم ألح عليه إبراهيم بن ميمون في القيام بما وعده بـه حتى أحرجه ، فأمر بضرب عنقه ، وقال له : لم لا كنت تنكر على نصر بن سيار وهو يعمل أواني الخمر من الذهب فيبعثها إلى بني أمية ؟ فقال له : إن أولئك لم يقربوني من أنفسهم ويعدوني منها ما وعدتني أنت . وقد رأى بعضهم لابراهيم بن ميمون هذا منازل عالية في الجنة بصبره على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فانه كان آمراً ناهياً قائماً في ذلك ، فقتله أبو مسلم رحمه الله .

وقد ذكرنا طاعة أبي مسلم للسفاح واعتناءه بأمره وامتثال مـراسيمه ، فلمـا صار الأمـر إلى المنصور استخف به واحتقره ، ومع هذا بعثه المنصور إلى عمه عبد الله إلى الشام فكسره واستنقذ منه الشام وردها إلى حكم المنصور . ثم شمخت نفسه على المنصور وهم بقتله ، ففطن لذلك المنصور مع ما كان مبطناً له من البغضة ، وقد سأل أخاه السفاح غير مرة أن يقتله كما تقدم ذلك فأبى عليه ، فلما تولى المنصور ما زال يماكره ويخادعـه حتى قدم عليـه فقتله . قال بعضهم : كتب المنصور إلى أبي مسلم : أما بعد فانه يرين[1] على القلوب ويطبع عليهـا المعاصي ، فـعِ أيها الطائش ، وأفق أيها السكران ، وانتبه أيها النائم ، فانك مغرور بأضغاث[2] أحلام كاذبة ، في برزخ دنيا قد غرت من كان قبلك وسم بها سوالف القرون : ﴿ هَلْ تُحِسُّ منهمْ مِنْ أَحَدٍ أَو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾[3] وإن الله لا يعجزه من هرب ، ولا يفوته من طلب ، فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي ، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك ، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله لم تكن تحتسب ، مهلاً مهلاً ، احذر البغي أبا مسلم فانه من بغى واعتدى تخلى الله عنه ، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم ، واحذر أن تكون سنة في الذين قد خلوا من قبلك ، ومثلة لمن يأتي بعدك ، فقد قامت الحجة وأعذرت إليك ، وإلى أهل طاعتي فيك . قال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ

(١) يرين : يسيطر .

(٢) بأضغاث : وهي الأحلام المختلطة والملتبسة التي لا يصحُّ تأويلها لاختلاطها .

(٣) سورة مريم ، الآية ٩٨ .

عليهمْ نبأَ الذي آتَيْنَاهُ آياتِنَا فَانْسَلَخَ منها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فكانَ مِنَ الغاوين ﴾[1] .

فأجابه أبو مسلم : أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانبا ، وعن الحق حائداً إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها ، وكتبت إليَّ فيه آيات منزلة من الله للكافرين ، وما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وإنني والله ما انسلخت من آيات الله ، ولكنني يا عبد الله بن محمد كنت رجلاً متأولاً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة ، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما ، فكنت لهما شيعة متديِّناً أحسبني هادياً مهتدياً ، وأخطأت في التأويل وقِدَماً أخطأ المتأولون ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الذينَ يُؤْمِنُونَ بآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عليكمْ كَتَبَ ربُّكمْ على نفسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَهُ مَنْ عَمِلَ منكمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثم تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2] وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة وأقدم بالشبهة وأرفع الرحمة ولا أقيل العثرة ، فوترت أهل الدنيا في طاعتكم ، وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم الله من كان جهلكم . ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم واستنقذني بالتوبة ، فإن يعف عني ويصفح فانه كان للأوابين غفوراً ، وإن يعاقبني فبذنوبي وما ربك بظلام للعبيد .

فكتب إليه المنصور : أما بعد أيها المجرم العاصي ، فان أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بينة من ربه ، فأوضح لك السبيل ، وحملك على المنهج السديد ، فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائداً ، وعن الشيطان وأوامره صادراً ، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركاً ، ولأغواهما راكباً ، تقتل قتل الفراعنة ، وتبطش بطش الجبابرة، وتحكم بالجور حكم المفسدين ، وتبذر المال وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين ، ثم من خبري أيها الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان ، وأمرته أن يقيم بنيسابور ، فان أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادي وشيعتي ، وأنا موجه للقائك أقرانك ، فاجمع كيدك وأمرك غير مسدد ولا موفق ، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه الله ونعم الوكيل .

ولم يزل المنصور يراسله تارة بالرغبة وتارة بالرهبة ، ويستخف أحلام[3] من حوله من الأمراء والرسل الذين يبعثهم أبو مسلم إلى المنصور ويعدهم ، حتى حسنوا لأبي مسلم في رأيه القدوم عليه سوى أمير معه يقال له نيزك ، فانه لم يوافق على ذلك ، فلما رأى أبا مسلم وقد انطاع لهم أنشد عند ذلك البيت المتقدم ، وهو : ما للرجال مع القضاء محالة * ذهب القضاء بحيلة الأقوام .

وأشار عليه بأن يقتل المنصور ويستخلف بدله فلم يمكنه ذلك ، فانه لما قدم المدائن تلقاه الأمراء عن أمر الخليفة ، فما وصل إلا آخر النهار ، وقد أشار أبو أيوب كاتب الرسائل أن لا يقتله يومه

---

(١) سورة الأعراف ، الآية/ ١٧٤ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية/ ٥٤ .

(٣) أحلام : عقول .

هذا كما تقدم [فلما وقف بين يدي الخليفة أكرمه وعظمه وأظهر احترامه ، وقال : اذهب الليلة فأذهب عنك وعثاء[1] السفر ثم ائتني من الغد] [2]. فلما كان الغد أرصد له من الأمراء من يقتله ، منهم عثمان بن نهيك ، وشبيب بن واج ، فقتلوه كما تقدم . ويقال بل أقام أياماً يظهر له المنصور الإكرام والاحترام ، ثم نشق منه الوحشة فخاف أبو مسلم واستشفع بعيسى بن موسى واستجار به ، وقال : إني أخافه على نفسي . فقال : لا بأس عليك فانطلق فإني آت وراءك ، أنت في ذمتي حتى آتيك ، ـ ولم يكن مع عيسى خبر بما يريد به الخليفة ـ فجاء أبو مسلم يستأذن على المنصور فقالوا له : اجلس ههنا فإن أمير المؤمنين يتوضأ ، فجلس وهو يودّ أن يطول مجلسه ليجيء عيسى بن موسى فأبطأ ، وأذن له الخليفة فدخل عليه فجعل يعاتبه في أشياء صدرت منه فيعتذر عنها جيداً ، حتى قال له : فلم قتلت سليمان بن كثير، وإبراهيم بن ميمون ، وفلاناً وفلاناً ؟ قال : لأنهم عصوني وخالفوا أمري . فغضب عند ذلك المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل إذا عصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني ؟ وصفق بيديه وكانت الاشارة بينه وبين المرصدين لقتله ـ، فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك، فقال : وأي عدّو لي أعدى منك . ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعاً ولفوه في عباءة ، ودخل عيسى بن موسى على إثر ذلك فقال : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا أبو مسلم ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له المنصور : أحمد الله الذي هجمت عليّ نعمة ، ولم تهجم عليّ نقمة ، ففي ذلك يقول أبو دلامة :ـ

أبا مسلم ما غيَّر الله نعمةً ... على عبدهِ حتى يغيرها العبدُ
أبا مسلم خوّفتني القتلُ فانتحى ... عليكَ بما خوفتني الأسدُ الوردُ

وذكر ابن جرير أن المنصور تقدم الى عثمان بن نهيك وشبيب بن واج وأبي حنيفة حرب بن قيس وآخر من الحرس أن يكونوا قريباً منه ، فإذا دخل عليه أبو مسلم وخاطبه وضرب بإحدى يديه على الأخرى فليقتلوه. فلما دخل عليه أبو مسلم قال له المنصور: ما فعل السيفان اللذان أصبتهما من عبد الله بن علي ؟ فقال : هذا أحدهما . فقال : أرنيه ، فناوله السيف فوضعه تحت ركبته ثم قال له : ما حملك على أن تكتب لأبي عبد الله السفاح تنهاه عن الموات ، أردت أن تعلمنا الدين ؟ قال : إنني ظننت أن أخذه لا يحل ، فلما جاءني كتاب أمير المؤمنين علمت أنه وأهل بيته معدن العلم . قال : فلم تقدمت عليَّ في طريق الحج ؟ قال : كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمت التماس الرفق . قال : فلم لا رجعت اليَّ حين أتاك خبر موت أبي العباس ؟ قال : كرهت التضييق على الناس في طريق الحج ، وعرفت أنا سنجتمع بالكوفة ، وليس عليك مني خلاف . قال : فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها لنفسك ؟ قال : لا ! ولكن خفت أن تضيع

---

(١) وعثاء : مشقة وتعب .

(٢) زيادة من المصرية .

فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها . ثم قال له : ألست الكاتب اليَّ تبدأ بنفسك والكاتب الي تخطب آمنة بنت علي ؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ هذا كله ويد المنصور في يده يعركها ويقبلها ويعتذر ، ثم قال له : فما حملك على مراغمتي ودخولك إلى خراسان ؟ قال : خفت أن يكون دخلك مني شيء فأردت أن أدخل خراسان وأكتب إليك بعذري . قال : فلم قتلت سليمان بن كثير وكان من نقبائنا ودعاتنا قبلك ؟ قال : أراد خلافي . فقال : ويحك وأنت أردت خلافي وعصيتني ، قتلني الله إن لم أقتلك . ثم ضربه بعمود الخيمة وخرج إليه أولئك فضربه عثمان فقطع حمائل سيفه ، وضربه شبيب فقطع رجله ، وحمل عليه بقيتهم بالسيوف ، والمنصور يصيح : ويحكم اضربوه قطع الله أيديكم . ثم ذبحوه وقطَّعوه قطعاً قطعاً ، ثم أُلْقِيَ في دجلة . ويروى أن المنصور لما قتله وقف عليه فقال : رحمك الله أبا مسلم ، بايعتنا فبايعناك ، وعاهدتنا وعاهدناك ، ووفيت لنا فوفينا لك ، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه ، فخرجت علينا فقتلناك ، وحكمنا عليك حكمك على نفسك لنا . ويقال إن المنصور قال : الحمد لله الذي أرانا يومك يا عدو الله . قال ابن جرير وقال المنصور عند ذلك :ـ

زعمتَ أن الدِّين لا يُقتضى   فاستوفِ بالكيلِ أبا مجرمِ
سُقيتَ كاساً كنتَ تسقي بها   أمرَّ في الحلقِ مِنَ العلقمِ[1]

ثم إن المنصور خطب في الناس بعد قتل أبي مسلم فقال : أيها الناس ، لا تُنَفِّروا أطيار النعم بترك الشكر ، فتحل بكم النقم ، ولا تُسروا غش الأئمة فإن أحداً لا يسر منكم شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وطوالع نظره وإنا لن نجهل حقوقكم ما عرفتم حقنا ، ولا ننسى الاحسان إليكم ما ذكرتم فضلنا ، ومن نازعنا هذا القميص أوطأنا أم رأسه ، حتى يستقيم رجالكم ، وترتدع عمالكم . وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث[2] بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه ، فنكث وغدر وفجر وكفر ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، وإن أبا مسلم أحسن مبتدياً وأساء منتهياً ، وأخذ من الناس بنا لنفسه أكثر مما أعطانا ، ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره ، وعلمنا من خبث سريرته وفساد نيته ما لو علم اللائم لنا فيه لما لام ، ولو اطلع على ما اطلعنا عليه منه لعذرنا في قتله ، وعنفنا في إمهاله ، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه ، فحكمنا فيه حكمه في غيره ممن شق العصا ، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه ، وما أحسن ما قال النابغة الذبياني للنعمان ـ يعني ابن المنذر ـ:

فمنْ أطاعك فانفعهُ بطاعتهِ   كما أطاعكَ والله على الرشدِ
ومن عصاكَ فعاقبهُ معاقبةً   تنهي الظلومَ ولا تقعد على ضمدِ

---

(١) العلقم : الحنظل

(٢) نكث : أخلف .

وقد روى البيهقي عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك سُئِلَ عن أبي مسلم أهو خير ام الحجاج ؟ فقال : لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ، ولكن كان الحجاج شراً منه ، قد اتهمه بعضهم على الإسلام ، ورموه بالزندقة ، ولم أر فيما ذكروه عن أبي مسلم ما يدل على ذلك ، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه ، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية والله أعلم بأمره .

وقد روى الخطيب عنه أنه قال : ارتديت الصبر ، وآثرت الكفاف ، وحالفت الأحزان والأشجان ، وشامخت المقادير والأحكام ، حتى بلغت غاية همتي ، وأدركت نهاية بغيتي . ثم أنشأ يقول :

قدْ نلتَ بالعزمِ والكتمانِ ما عجزتْ	عنهُ ملوكُ بني مروانَ إذْ حشدوا
ما زلتُ اضربهمْ بالسيفِ فانتبهوا	من رقدةٍ لم ينمها قبلهم أحدُ
وطفتُ أسعى عليهم في ديارهم	والقومُ في ملكهم في الشام قد رقدوا
ومن رعىَ غنماً في أرضِ مسبعةٍ[1]	ونامَ عنها تولى رعيها الأسدُ

وقد كان قتل أبي مسلم بالمدائن يوم الأربعاء لسبع خلون ، وقيل لخمس بقين ، وقيل لأربع ، وقيل لليلتين بقيتا من شعبان من هذه السنة ـ أعني سنة سبع وثلاثين ومائة ـ قال بعضهم : كان ابتداء ظهوره في رمضان من سنة تسع وعشرين ومائة ، وقيل في شعبان سنة سبع وعشرين ومائة ، وزعم بعضهم أنه قتل ببغداد في سنة أربعين ، وهذا غلط من قائله ، فان بغداد لم تكن بنيت بعد كما ذكره الخطيب في تاريخ بغداد ، ورد هذا القول .

ثم إن المنصور شرع في تأليف[2] أصحاب أبي مسلم بالأعطية والرغبة والرهبة والولايات ، واستدعى أبا إسحاق ـ وكان من أعز أصحاب أبي مسلم ـ وكان على شرطة أبي مسلم ، وهمَّ بضرب عنقه فقال : يا أمير المؤمنين والله ما أمنت قط إلا في هذا اليوم ، وما من يوم كنت أدخل عليك إلا تحنطت ولبست كفني . ثم كشف عن ثيابه التي تلي جسده فإذا هو محنط وعليه أدراع أكفان ، فرقَّ له المنصور وأطلقه وذكر ابن جرير أن أبا مسلم قتل في حروبه وما كان يتعاطاه لأجل دولة بني العباس ستمائة ألف صبراً زيادة عن من قتل بغير ذلك . وقد قال للمنصور وهو يعاتبه على ما كان يصنعه : يا أمير المؤمنين لا يقال لي هذا بعد بلائي وما كان مني . فقال له : يا ابن الخبيثة ، لو كانت أمة مكانك لأجزأت ناحيتها ، إنما عملت ما عملت بدولتنا وبريحنا ، لو كان ذلك إليك لما وصلت الى فتيل . ولما قتله المنصور لف في كساء وهو مقطع إرباً إرباً ، فدخل عيسى بن موسى فقال : يا أمير

---

(١) مسبعة : كثيرة السِّباع .
(٢) تأليف : استمالة .

المؤمنين أين أبو مسلم ؟ قال : قد كان ها هنا آنفاً . فقال : يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى إبراهيم الإمام فيه . فقال له : يا أتوك والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لك منه ، ها هو ذاك في البساط . فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال له المنصور : خلع الله قلبك ! وهل كان لكم مكان أو سلطان أو أمر أو نهي مع أبي مسلم ؟ ثم استدعى المنصور برؤوس الأمراء فجعل يستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن يعلموا بقتله ، فكلهم يشير بقتله ، ومنهم من كان إذا تكلم أسر كلامه خوفاً من أبي مسلم لئلا ينقل إليه ، فلما أطلعهم على قتله أفزعهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً ، ثم خطب المنصور الناس بذلك كما تقدم .

ثم كتب المنصور إلى نائب أبي مسلم على أمواله وحواصله بكتاب على لسان أبي مسلم أن يقدم بجميع ما عنده من الحواصل والذخائر والأموال والجواهر ، وختم الكتاب بخاتم أبي مسلم بكماله ، مطبوعاً بكل فص الخاتم ، فلما رآه الخازن استراب[1] في الأمر ، وقد كان أبو مسلم تقدم إلى خازنه أنه إذا جاءك كتابي فان رأيته مختوماً بنصف الفص فامض لما فيه ، فإني إنما أختم بنصف فصه على كتبي ، وإذا جاءك الكتاب مختوماً عليه بكماله فلا تقبل ولا تمض ما فيه . فامتنع عند ذلك خازنه أن يقبل ما بعث به المنصور ، فأرسل المنصور بعد ذلك إليه من أخذ جميع ذلك وقتل ذلك الرجل الخازن ، وكتب المنصور إلى أبي داود إبراهيم بن خالد بأمرة خراسان كما وعده قبل ذلك عوضاً عن أبي مسلم .

وفي هذه السنة خرج سنباذ يطلب بدم أبي مسلم ، وقد كان سنباذ هذا مجوسياً تغلب على قومس وأصبهان ، ويسمى بفيروز اصبهبذ ، فبعث إليه أبو جعفر المنصور جيشاً هم عشرة آلاف فارس عليهم جهور بن مرار العجلي ـ فالتقوا بين همذان والري بالمفازة [2]، فهزم جهور لسنباذ وقتل من أصحابه ستين ألفاً وسبى ذراريهم ونساءهم ، وقتل سنباذ بعد ذلك فكانت أيامه سبعين يوماً . وأخذ ما كان استحوذ عليه من أموال أبي مسلم التي كانت بالري . وخرج في هذه السنة أيضاً رجل يقال له ملبِّد [بن حرملة الشيباني] في ألف من الخوارج بالجزيرة فجهز إليه المنصور جيوشاً متعددة كثيفة كلها تنفر منه وتنكسر ثم قاتله حميد بن قحطبة نائب الجزيرة ، فهزمه ملبد وتحصن منه حميد في بعض الحصون ثم صالحه حميد بن قحطبة على مائة ألف فدفعها إليه وقبلها ملبد وتقلع عنه .

وحج بالناس في هذه السنة عم الخليفة اسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس قاله الواقدي . وكان نائب الموصل ـ يعني عم المنصور ـ وعلى نيابة الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة سليمان بن علي ، وعلى الجزيرة حميد بن قحطبة ، وعلى مصر صالح بن علي، وعلى خراسان أبو داود إبراهيم بن خالد ، وعلى الحجاز زياد بن عبد الله . ولم يكن للناس في هذه السنة

---

(١) استراب : داخلته الريبة والشك .

(٢) بالمفازة : الصحراء .

صائفة لشغل الخليفة بسنباذ وغيره . ومن مشاهير من توفي فيها أبو مسلم الخراساني كما تقدم ، ويزيد بن أبي زياد أحد من تكلم فيه كما ذكرناه في التكميل ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائة

فيها دخل قسطنطين ملك الروم ملطية عنوة فهدم سورها وعفا عمن قدر عليه من مقاتلتها . وفيها غزا الصائفة صالح بن علي نائب مصر ، فبنى ما كان هدم ملك الروم من سور ملطية ، وأطلق لأخيه عيسى بن علي أربعين ألف دينار ، وكذلك أعطى لابن أخيه العباس بن محمد بن علي أربعين ألف دينار . وفيها بايع عبد الله بن علي الذي كسره أبو مسلم وانهزم الى البصرة واستجار بأخيه سليمان بن علي ، حتى بايع للخليفة في هذه السنة ورجع إلى طاعته . ولكن حبس في سجن بغداد كما سيأتي . وفيها خلع جهور بن مرار العجلي الخليفة المنصور بعدما كسر سنباذ واستحوذ على حواصله وعلى أموال أبي مسلم ، فقويت نفسه بذلك وظن أنه لا يقدر عليه بعد ، فأرسل إليه الخليفة محمد بن الأشعث الخزاعي في جيش كثيف فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزم جهور وقتل عامة من معه ، وأخذ ما كان معه من الأموال والحواصل والذخائر ، ثم لحقوه فقتلوه . وفيها قتل الملبد الخارجي على يدي خازم بن خزيمة في ثمانية آلاف ، وقتل من أصحاب الملبد ما يزيد على ألف وانهزم بقيتهم .

قال الواقدي : وحج بالناس فيها الفضل بن علي ، والنواب فيها هم المذكورون بالتي قبلها وممن توفي فيها من الأعيان زيد بن واقد ، والعلاء بن عبد الرحمن ، وليث بن أبي سليم في قول ، وفيها كانت خلافة الداخل من بني أمية إلى بلاد الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الهاشمي . قلت : ليس هو بهاشمي إنما هو من بني أمية ويسمى أموياً ، كان قد دخل إلى بلاد المغرب فراراً من عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، فاجتاز بمن معه من أصحابه الذين فروا معه بقوم يقتتلون على عصبية اليمانية والمضرية ، فبعث مولاه بدراً إليهم فاستمالهم إليه فبايعوه ودخل بهم ففتح بلاد الاندلس واستحوذ عليها وانتزعها من نائبها يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وقتله . وسكن عبد الرحمن قرطبة واستمر في خلافته في تلك البلاد من هذه السنة إلى سنة اثنتين وسبعين ومائة . فتوفي فيها وله في الملك أربع وثلاثون سنة وأشهر . ثم قام من بعده ولده هشام ست سنين وأشهراً . ثم مات فولى بعده الحكم بن هشام ستا وعشرين سنة وأشهراً ثم مات . ثم ولي بعده ولده عبد الرحمن بن الحكم ثلاثاً وثلاثين سنة ثم مات . ثم ولي بعده محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ستا وعشرين سنة . ثم ابنه المنذر بن محمد ، ثم أخوه عبد الله بن محمد بن المنذر . وكانت أيامه بعد الثلاثمائة بدهر ، ثم زالت تلك الدولة كما سنذكره من زوال تلك السنون وأهلها وما قضوا فيها من النعيم والعيش الرغيد والنساء الحسان ثم انقضت تلك السنوات وأهلها كأنهم على ميعاد ، ثم أضحوا كأنهم ورق جف ألوت عليه الصبا والذبول .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة

فيها أكمل صالح بن علي بناء ملطية ثم غزا الصائفة على طريق الحدث ، فوغل في بلاد الروم ، وغزا معه أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا علي ، وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية أن يجاهدا في سبيل الله عز وجل . وفيها كان الفداء الذي حصل بين المنصور وبين ملك الروم، فاستنقذ بعض أسرى المسلمين ثم لم يكن للناس صائفة في هذه السنة الى سنة ست وأربعين ، وذلك لاشتغال المنصور بأمر ابني عبد الله بن حسن كما سنذكره . ولكن ذكر بعضهم أن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة مع عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام سنة أربعين فالله أعلم .

وفيها وسع المنصور المسجد الحرام ، وكانت هذه السنة خصبة جداً ـ أي كثيرة الخصب فكان يقال لها السنة الخصبة ـ وقيل إنما كان ذلك في سنة أربعين . وفيها عزل المنصور عمه سليمان عن إمرة البصرة ، فاختفى عبد الله بن علي وأصحابه خوفاً على أنفسهم ، فبعث المنصور إلى نائبه على البصرة ، وهو سفيان بن معاوية ، يستحثه في إحضار عبد الله بن علي إليه ، فبعثه في أصحابه فقتل بعضهم وسجن عبد الله بن علي عمه ، وبعث بقية أصحابه إلى أبي داود نائب خراسان فقتلهم هناك .

وحج بالناس فيها العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي عمرو بن مجاهد ، ويزيد بن عبد الله بن الهاد ، ويونس بن عبيد ، أحد العباد وصاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة أربعين ومائة

فيها ثار جماعة من الجند على أبي داود نائب خراسان ، وحاصروا داره ، فأشرف عليهم وجعل يستغيث بجنده ليحضروا إليه ، واتكأ على آجرة في الحائط فانكسرت به فسقط فانكسر ظهره فمات ، فخلفه على خراسان عاصم ، صاحب الشرطة حتى قدم الأمير من جهة الخليفة عليها ، وهو عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، فتسلم بلاد خراسان ، وقتل جماعة من الأمراء لأنه بلغه عنهم أنهم يدعون إلى خلافة آل علي بن أبي طالب ، وحبس آخرين ، وأخذ نواب أبي داود بجباية الأموال المنكسرة عندهم .

وفيها حج بالناس الخليفة المنصور أحرم من الحيرة ورجع بعد انقضاء الحج الى المدينة ، ثم رحل الى بيت المقدس فزاره ، ثم سلك الشام الى الرقة ، ثم سار الى الهاشمية ـ هاشمية الكوفة ـ ونواب الأقاليم هم المذكورون في التي قبلها ، سوى خراسان فانه مات نائبها أبو داود ، فخلفه مكانه عبد الجبار الأزدي . وفيها توفي داود بن أبي هند ، وأبو حازم سلمة بن دينار، وسهيل بن أبي صالح ، وعمارة بن غزية بن قيس السكوني .

ثم دخلت سنة إحدى واربعين ومائة

فيها خرجت طائفة يقال لها الراوندية على المنصور : ذكر ابن جرير عن المدائني أن أصلهم من خراسان ، وهم على رأي أبي مسلم الخراساني ، كانوا يقولون بالتناسخ ، ويزعمون أن روح آدم إنتقلت الى عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم أبو جعفر المنصور . وأن الهيثم بن معاوية جبريل ، قبحهم الله .

قال ابن جرير : فأتوا يوماً قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون : هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور الى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، فغضبوا من ذلك وقالوا : علام تحبسهم ؟ ثم عمدوا الى نعش فحملوه على كواهلهم وليس عليه أحد ، واجتمعوا حوله كأنهم يشيعون جنازة ، واجتازوا بباب السجن ، فألقوا النعش ودخلوا السجن قهراً واستخرجوا من فيه من أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور وهم في ستمائة ، فتنادى الناس وغلقت أبواب البلد ، وخرج المنصور من القصر ماشياً ، لأنه لم يجد دابة يركبها ، ثم جيء بدابة فركبها وقصد نحو الراوندية وجاء الناس من كل ناحية ، وجاء معن بن زائدة ، فلما رأى المنصور ترجل وأخذ بلجام دابة المنصور ، وقال : يا أمير المؤمنين ارجع نحن نكفيكهم . فأبى وقام أهل الأسواق إليهم فقاتلوهم ، وجاءت الجيوش فالتفوا عليهم من كل ناحية فحصدوهم عن آخرهم ، ولم يبق منهم بقية . وجرحوا عثمان بن نهيك بسهم بين كتفيه ، فمرض أياماً ثم مات ، فصلى عليه الخليفة ، وقام على قبره حتى دفن ودعا له ، وولى أخاه عيسى بن نهيك على الحرس ، وكان ذلك كله بالمدينة الهاشمية من الكوفة .

ولما فرغ المنصور من قتال الراوندية ذلك اليوم صلى بالناس الظهر في آخر وقتها ، ثم أتى بالطعام فقال أين معن بن زائدة ؟ وأمسك عن الطعام حتى جاء معن فأجلسه إلى جنبه ، ثم أخذ في شكره لمن بحضرته لما رأى من شهامته يومئذ . فقال معن : والله يا أمير المؤمنين لقد جئت وإني لوجل[1] ، فلما رأيت استهانتك بهم وإقدامك عليهم قوي قلبي واطمأن ، وما ظننت أن أحداً يكون في الحرب هكذا ، فذاك الذي شجعني يا أمير المؤمنين . فأمر له المنصور بعشرة آلاف ورضي عنه وولاه اليمن . وكان معن بن زائدة قبل ذلك مختفياً ، لأنه قاتل المسودة مع ابن هبيرة ، فلم يظهر إلا في هذا اليوم . فلما رأى الخليفة صدقه في قتاله رضي عنه . ويقال : إن المنصور قال عن نفسه : أخطأت في ثلاث : قتلت أبا مسلم وأنا في جماعة قليلة ، وحين خرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ، ويوم الراوندية لو أصابني سهم غرب لذهبت ضياعاً . وهذا من حزمه وصرامته .

وفي هذه السنة ولى المنصور ابنه محمداً العهد من بعده ودعاه بالمهدي وولاه بلاد خراسان

---

(١) لوجل : لخائف .

وعزل عنها عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وذلك أنه قتل خلقاً من شيعة الخليفة ، فشكاه المنصور الى أبي أيوب كاتب الرسائل فقال : يا أمير المؤمنين اكتب إليه ليبعث جيشاً كثيفاً من خراسان إلى غزو الروم ، فاذا خرجوا بعثت اليه من شئت فأخرجوه من بلاد خراسان ذليلاً . فكتب إليه المنصور بذلك ، فرد الجواب بأن بلاد خراسان قد عاثت بها الأتراك ، ومتى خرج منها جيش خيف عليها وفسد أمرها . فقال المنصور لأبي أيوب : ماذا ترى ؟ قال : فاكتب اليه : إن بلاد خراسان أحق بالمدد لثغور المسلمين من غيرها ، وقد جهزت اليك بالجنود . فكتب اليه أيضاً : إن بلاد خراسان ضيقة في هذا العام أقواتها [1] ، ومتى دخلها جيش أفسدها . فقال الخليفة لأبي أيوب : ما تقول ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا رجل قد أبدى صفحته وخلع فلا تناظره . فحينئذ بعث المنصور ابنه محمداً المهدي ليقيم بالري ، فبعث المهدي بين يديه خازم بن خزيمة مقدمة إلى عبد الجبار ، فما زال به يخدعه ومن معه حتى هرب من معه وأخذوه هو فأركبوه بعيراً محولاً وجهه إلى ناحية ذنب البعير . وسيروه كذلك في البلاد حتى أقدموه على المنصور ومعه ابنه وجماعة من أهله ، فضرب المنصور عنقه وسير ابنه ومن معه إلى جزيرة في طرف اليمن ، فأسرتهم الهنود بعد ذلك ، ثم فودي بعضهم بعد ذلك . واستقر المهدي نائباً على خراسان ، وأمره أبوه أن يغزو طبرستان ، وأن يحارب الأصبهبذ بمن معه من الجنود وأمده بجيش عليهم عمر بن العلاء ، وكان من أعلم الناس بحرب طبرستان ، وهو الذي يقول فيه الشاعر :

فَقُلْ للخليفةِ إنْ جئتَهُ ... نَصيحاً ولا خيرَ في المتَّهَمْ
إذا أيقظتكَ حروبُ العدى ... فنبِّهْ لها عُمَراً ثم نَمْ
فتىً لا ينامُ على دمنةٍ [2] ... ولا يشربُ الماء إلا بِدَمْ

فلما تواقفت الجيوش على طبرستان فتحوها وحصروا الأصبهبذ حتى الجأوه إلى قلعته فصالحهم على ما فيها من الذخائر ، وكتب المهديّ إلى أبيه بذلك ، ودخل الأصبهبذ بلاد الديلم فمات هناك . وكسروا أيضاً ملك الترك الذي يقال له المصمغان ، وأسروا أمما من الذراري [3] ، فهذا فتح طبرستان الأول .

وفيها فرغ بناءالمصيصةعلى يدي جبريل بن يحيى الخراساني، وفيها رابط محمد بن إبراهيم الامام ببلاد ملطية . وفيها عزل المنصور زياد بن عبيد الله عن إمرة الحجاز وولى المدينة محمد بن خالد القسري وقدمها في رجب . وولى مكة والطائف الهيثم بن معاوية العكي . وفيها توفي موسى ابن كعب وهو على شرطة المنصور . وعلى مصر من كان عليها في السنة الماضية ، ثم ولى مصر

---

(١) أقواتها : أرزاقها وخيراتها .
(٢) دمنة : الحقد القديم الثابت في الصدر .
(٣) الذراري : الأهل .

محمد بن الأشعث ثم عزله عنها وولى عليها نوفل بن الفرات . وحج بالناس فيها صالح بن علي وهو نائب قنسرين وحمص ودمشق ، وبقية البلاد عليها من ذكرنا في التي قبلها والله أعلم .

وفيها توفي أبان بن تغلب ، وموسى بن عقبة ، صاحب المغازي ، وأبو إسحاق الشيباني في قول والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائة

فيها خلع عيينة بن موسى بن كعب نائب السند الخليفة ، فجهز إليه العساكر صحبة عمر بن حفص بن أبي صفرة ، وولاه السند والهند ، فحاربه عمر بن حفص وقهره على الأرض وتسلمها منه . وفيها نكث[1] أصبهبذ طبرستان العهد الذي كان بينه وبين المسلمين ، وقتل طائفة ممن كان بطبرستان ، فجهز إليه الخليفة الجيوش صحبة خازم بن خزيمة ، وروح بن حاتم ، ومعهم مرزوق أبو الخصيب ، مولى المنصور ، فحاصروه مدة طويلة ، فلما أعياهم فتح الحصن الذي هو فيه احتالوا عليه ، وذلك أن أبا الخصيب قال : اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي ، ففعلوا ذلك ، فذهب إليه كأنه مغاضب للمسلمين قد ضربوه وحلقوا لحيته ، فدخل الحصن ففرح به الأصبهبذ وأكرمه وقربه ، وجعل أبو الخصيب يظهر له النصح والخدمة حتى خدعه ، وحظي عنده جداً وجعله من جملة من يتولى فتح الحصن وغلقه ، فلما تمكن من ذلك كاتب المسلمين وأعلمهم أنه في الليلة الفلانية يفتح لهم ، فاقتربوا من الباب حتى أفتحه لكم ، فلما كانت تلك الليلة فتح لهم باب الحصن فدخلوا فقتلوا من فيه من المقاتلة وسبوا الذرية وامتص الأصبهبذ خاتماً مسموماً فمات . وكان فيمن أسروا يومئذ أم منصور بن المهدي ، وأم إبراهيم بن المهدي ، وكانتا من بنات الملوك الحسان .

وفيها بنى المنصور لأهل البصرة قبلتهم التي يصلون عندها بالجبان ، وتولى بناءها سلمة بن سعيد بن جابر نائب الفرات والأبلة .وصام المنصور شهر رمضان بالبصرة وصلى بالناس العيد في ذلك المصلى . وفيها عزل المنصور نوفل بن الفرات عن إمارة مصر وولي عليها حميد بن قحطبة . وحج بالناس فيها إسماعيل بن علي . وفيها توفي سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس عم الخليفة ونائب البصرة . كان ذلك يوم السبت لسبع بقين من جمادى الآخرة ، وهو ابن تسع وخمسين سنة ، وصلى عليه أخوه عبد الصمد . روى عن أبيه وعكرمة وأبي بردة بن أبي موسى . وعنه جماعة منهم بنوه جعفر ، ومحمد ، وزينب والأصمعي . وكان قد شاب وهو ابن عشرين سنة وخضب لحيته من الشيب في ذلك السن ، وكان كريماً جواداً ممدحاً . كان يعتق عشية عرفة في كل سنة مائة نسمة ، وبلغت صلاته لبني هاشم وسائر قريش والأنصار خمسة آلاف ألف واطلع يوماً من قصره فرأى نسوة يغزلن في دار من دور البصرة ، فاتفق في نظره هذا اليهن أن قالت واحدة منهن : لو أن الأمير نظر إلينا

---

(1) نكث : نقض ونبذ .

واطلع على حالنا فأغنانا عن الغزل ؟ فنهض من فوره فجعل يدور في قصره ويجمع من حلي نسائه من الذهب والجواهر وغيرها ما ملأ به منديلاً كبيراً ، ثم دلاه إليهن ونثر عليهن من الدنانير والدراهم شيئاً كثيراً ، فماتت إحداهن من شدة الفرح ، فأعطى ديتها وما تركته من ذلك لورثتها . وقد ولِّي الحج في أيام السفاح ، وولِّي البصرة أيام المنصور ، وكان من خيار بني العباس ، وهو أخو إسماعيل وداود وصالح وعبد الصمد وعبد الله وعيسى ومحمد ، وهو عم السفاح والمنصور .

وممن توفي فيها من الأعيان خالد الحذاء ، وعاصم الأحول ، وعمرو بن عبيد القدري في قول .

وهو عمر بن عبيد بن ثوبان ، ويقال ابن كيسان ،التيمي مولاهم أبو عثمان البصري ، من أبناء فارس ، شيخ القدرية والمعتزلة . روى الحديث عن الحسن البصري وعبيد الله بن أنس ، وأبي العالية وأبي قلابة ، وعنه الحمادان وسفيان بن عيينة والأعمش ـ وكان من أقرانه[1] ـ وعبد الوارث بن سعيد ، وهارون بن موسى ، ويحيى القطان ، ويزيد بن زريع . قال الامام أحمد بن حنبل : ليس بأهل أن يحدث عنه . وقال علي بن المديني ويحيى بن معين : ليس بشيء ، وزاد ابن معين وكان رجل سوء وكان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع . وقال الفلاس : متروك صاحب بدعة[2] . كان يحيى القطان يحدثنا عنه ثم تركه وكان ابن مهدي لا يحدث عنه . وقال أبو حاتم : متروك . وقال النسائي ليس بثقة . وقال شعبة عن يونس بن عبيد : كان عمرو بن عبيد يكذب في الحديث . وقال حماد بن سلمة : قال لي حميد : لا تأخذ عنه فانه كان يكذب على الحسن البصري . وكذا قال أيوب وعوف وابن عون . وقال أيوب : ما كنت أعدله عقلاً ، وقال مطر الوراق : والله لا أصدقه في شيء . وقال ابن المبارك : إنما تركوا حديثه لأنه كان يدعو إلى القدر . وقد ضعفه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل ، وأثنى عليه آخرون في عبادته وزهده وتقشفه . قال الحسن البصري : هذا سيد شباب القراء ما لم يحدث . قالوا : فأحدث والله أشد الحدث . وقال ابن حبان : كان من أهل الورع والعبادة إلى أن أحدث ما أحدث واعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه فسموا المعتزلة ، وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث ، وَهْماً لا تعمداً . وقد روى عنه أنه قال : إن كانت تبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ فما تعد منه على ابن آدم حجة . وروى له حديث ابن مسعود : حدثنا الصادق المصدوق « ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً » حتى قال : « فيؤمر بأربع كلمات . رزقه وأجله ، وعمله ، وشقيٌّ أم سعيد » إلى آخره . فقال : لو سمعت الأعمش يرويه لكذبته ،ولو سمعته من زيد بن وهب لما أحببته ، ولو سمعته من ابن مسعود لما قبلته ، ولو سمعته من رسول الله ﷺ لرددته ،ولو سمعت الله يقول هذا لقلت ما على هذا أخذت

(١) أقرانه : أصحابه .

(٢) بدعة : ضلالة .

علينا الميثاق . وهذا من أقبح الكفر ، لعنه الله إن كان قال هذا . وإذا كان مكذوباً عليه فعلى من كذبه عليه ما يستحقه وقد قال عبد الله بن المبارك رحمه الله :

أيّها الطالبُ علماً * إيتِ حمادَ بنِ زيدْ * فخذِ العلْم بحلمٍ * ثمَّ قيدهُ بقيدْ
وذرِ البدعةَ منْ * آثارِ عمرو بنِ عبيدْ

وقال ابن عدي : كان عمرو يغر الناس بتقشفه ، وهو مذموم ضعيف الحديث جداً ، معلن بالبدع . وقال الدارقطني : ضعيف الحديث . وقال الخطيب البغدادي : جالس الحسن واشتهر بصحبته ثم أزاله [واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة وقال بالقدر ودعا إليه ، واعتزل أصحاب الحديث ، وكان له سمت وإظهار زهد . وقد قيل : إنه][1] وواصل بن عطاء ولدا سنة ثمانين ، وحكى البخاري أن عمراً مات سنة ثنتين أو ثلاث وأربعين ومائة بطريق مكة ، وقد كان عمرو محظياً[2] عند أبي جعفر المنصور ، كان المنصور يحبه ويعظمه لأنه كان يفد على المنصور مع القراء فيعطيهم المنصور فيأخذون ، ولا يأخذ عمرو منه شيئاً ، وكان يسأله أن يقبل كما يقبل أصحابه فلا يقبل منه ، فكان ذلك مما يغر المنصور ويروج به عليه حاله ، لأن المنصور كان بخيلاً وكان يعجبه ذلك منه وينشد :

كلكمْ يمشي رويدْ * كلكم يطلبُ صيد * غير عمرو بن عبيدْ

ولو تبصَّر المنصور لعلم أن كل واحد من أولئك القراء خير من ملء الأرض مثل عمرو بن عبيد ، والزهد لا يدل على صلاح ، فإن بعض الرهبان قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه عمرو ولا كثير من المسلمين في زمانه . وقد روينا عن إسماعيل بن خالد القعنبي قال : رأيت الحسن بن جعفر في المنام بعد ما مات بعبادان فقال لي : أيوب ويونس وابن عون في الجنة . قلت : فعمرو بن عبيد ؟ قال : في النار . ثم رآه مرة ثانية ويروى ثالثة ، فيسأله فيقول له مثل ذلك . وقد رؤيت له منامات قبيحة ، وقد أطال شيخنا في تهذيبه في ترجمته ولخصنا حاصلها في كتابنا التكميل ، وأشرنا ههنا إلى نبذ من حاله ليعرف فلا يغتر به والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث واربعين ومائة

فيها ندب المنصور الناس إلى غزو الديلم[3] ، لأنهم قتلوا من المسلمين خلقا ، وأمر أهل الكوفة والبصرة من كان منهم يقدر على عشرة آلاف فصاعداً فليذهب مع الجيش إلى الديلم ، فانتدب خلق كثير وجم غفير لذلك . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى نائب الكوفة وأعمالها . وفيها

---

(١) زيادة من المصرية .
(٢) محظياً : مكرّماً ومعزَّزاً .
(٣) الديلم : قوم من العجم كانوا في الأصل صنفاً من الأكراد .

توفي حجاج الصواف ، وحميد بن رؤبة الطويل ، وسليمان بن طرخان التيمي ، وقد ذكرناه في التي قبلها ، وعمرو بن عبيد في قول ، وليث بن أبي سليم على الصحيح . ويحيى بن سعيد الأنصاري .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائة

فيها سار محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه المنصور إلى بلاد الديلم ومعه الجيوش من الكوفة والبصرة وواسط والموصل والجزيرة . وفيها قدم محمد بن جعفر المنصور المهدي على أبيه من بلاد خراسان ودخل بابنة عمه رايطة بنت السفاح بالحيرة . وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور واستخلف على الحيرة والعسكر خازم بن خزيمة ، وولى رباح بن عثمان المزني المدينة وعزل عنها محمد بن خالد القسري ، وتلقى الناس أبا جعفر المنصور إلى أثناء طريق مكة في حجه في سنة أربع وأربعين ومائة . وكان في جملة من تلقاه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، فأجلسه المنصور معه على السماط ، ثم جعل يحادثه باقبال زائد بحيث إن المنصور اشتغل بذلك عن عامة غدائه ، وسأله عن ابنيه إبراهيم ومحمد لم لا جاآني مع الناس ؟ فحلف عبد الله بن حسن أنه لا يدري أين صارا من أرض الله . وصدق في ذلك ، وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان ، وكان في جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور ، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس ، فلما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً .

وذلك لأن المنصور توهم منهما أنهما لا بد أن يخرجا عليه كما أرادا أن يخرجا على مروان ، والذي توهم منه المنصور وقع فيه ، فذهبا هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن ، ثم سارا إلى الهند فاختفيا بها ، فدل على مكانهما الحسن بن زيد فهربا إلى موضع آخر ، فاستدل عليه الحسن ابن زيد ودل عليهما ، ثم كذلك . وانتصب إلباً[1] عليهما عند المنصور . والعجب منه أنه من أتباعهما . واجتهد المنصور بكل طريق على تحصيلهما فلم يتفق له ذلك ، وإلى الآن . فلما سأل أباهما عنهما حلف أنه لا يدري أين صارا من أرض الله ، ثم ألح المنصور على عبد الله في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال : والله لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما . فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله ، فلبث في السجن ثلاث سنين ، وأشاروا على المنصور بحبس بني حسن عن آخرهم فحبسهم، وجدَّ في طلب إبراهيم ومحمد جداً ، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين ويكمنان في المدينة في غالب الأوقات ، ولا يشعر بهما من ينمُّ عليهما و لله الحمد . والمنصور يعزل نائباً عن المدينة ويولي عليها غيره ويحرضه على إمساكهما والفحص عنهما ، ويبذل

---

(١) إلباً : عدواً .

الأموال في طلبهما ، وتعجزه المقادير عنهما لما يريده الله عز وجل .

وقد واطأهما على أمرهما أمير من أمراء المنصور يقال له أبو العساكر خالد بن حسان ، فعزموا في بعض الحجات على الفتك بالمنصور بين الصفا والمروة ، فنهاهم عبد الله بن حسن لشرف البقعة . وقد اطلع المنصور على ذلك وعلم بما مالأهما ذلك الأمير ، فعذبه حتى أقر بما كانوا تمالؤا عليه من الفتك به . فقال : وما الذي صرفكم عن ذلك ؟ فقال : عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك ، فأمر به الخليفة فَغُيِّب في الأرض فلم يظهر حتى الآن . وقد استشار المنصور من يعلم من أمرائه ووزرائه من ذوي الرأي في أمر ابني عبد الله بن حسن ، وبعث الجواسيس والقصاد في البلاد فلم يقع لهما على خبر ، ولا ظهر لهما على عين ولا أثر ، والله غالب على أمره . وقد جاء محمد بن عبد الله بن حسن إلى أمه فقال يا أمه ! إني قد شفقت على أبي وعمومتي ، ولقد هممت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي . فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها ، فقالوا : لا ولا كرامة ، بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً ، ونحن نصبر وفرجنا بيد الله إن شاء فرج عنا ، وإن شاء ضيق . وتمالؤا كلهم على ذلك رحمهم الله .

وفيها نقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس بالعراق وفي أرجلهم القيود ، وفي اعناقهم الأغلال[1] . وكان ابتداء تقييدهم من الربذة بأمر أبي جعفر المنصور ، وقد أشخص معهم محمد بن عبد الله العثماني ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن ،وقد حملت قريباً ، فاستحضره الخليفة وقال : قد حلفت بالعتاق والطلاق إنك لم تغشني ، وهذه ابنتك حامل ، فإن كان من زوجها فقد حبلت منه وأنت تعلم به ، وإن كان من غيره فأنت ديوث[2] . فأجابه العثماني بجواب أحفظه به فأمر به فجردت عنه ثيابه فاذا جسمه مثل الفضة النقية ، ثم ضربه بين يديه مائة وخمسين سوطاً ، منها ثلاثون فوق رأسه ، أصاب أحدها عينه فسالت ، ثم رده إلى السجن وقد بقي كأنه عبد أسود من زرقة الضرب ، وتراكم الدماء فوق جلده ، فأجلس إلى جانب أخيه لأمه عبد الله بن حسن ، فاستسقى ماءً فما جسر أحد أن يسقيه حتى سقاه خراساني من جملة الجلاوزة[3] الموكلين بهم . ثم ركب المنصور هودجه وأركبوا أولئك في محامل ضيقة ، وعليهم القيود والأغلال ، فاجتاز بهم المنصور وهو في هودجه ، فناداه عبد الله بن حسن : والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسرائكم يوم بدر ، فأخسأ ذلك المنصور وثقل عليه ونفر عنهم . ولما انتهوا إلى العراق حبسوا بالهاشمية ، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وكان جميلاً فتيا ، فكان الناس يذهبون لينظروا إلى حسنه وجماله وكان يقال له : الديباج الأصفر ، فأحضره المنصور بين يديه وقال له : أما لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً . ثم ألقاه بين اسطوانتين وسد عليه حتى مات . فعلى المنصور ما يستحقه من عذاب الله ولعنته .

---

(١) الأغلال : القيود .

(٢) ديوث : الذي لا يغار على عِرْضه .

(٣) الجلاوزة : مفردها الجِلْوَاز وهو الذي يخفُّ في الذهاب والمجيء بين يدي الأمير .

وقد هلك كثير منهم في السجن حتى فرج عنهم بعد هلاك المنصور على ما سنذكره . فكان فيمن هلك في السجن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، وقد قيل والأظهر أنه قتل صبراً ، وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما ، وقل من خرج منهم من الحبس ، وقد جعلهم المنصور في سجن لا يسمعون فيه أذاناً ، ولا يعرفون فيه وقت صلاة إلا بالتلاوة ، ثم بعث أهل خراسان يشفعون في محمد ابن عبد الله العثماني ، فأمر به فضربت عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان ، لا جزاه الله خيراً ، ورحم الله محمد بن عبد الله العثماني .

وهو محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي رحمه الله ، أبو عبد الله المدني المعروف بالديباج ، لحسن وجهه . وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي ، روى الحديث عن أبيه وأمه وخارجة بن زيد وطاوس وأبي الزناد والزهري ونافع وغيرهم ، وحدث عنه جماعة ، ووثقه النسائي وابن حبان ، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه ، وكانت ابنته رقية زوجة ابن أخيه إبراهيم بن عبد الله ، وكانت من أحسن النساء وبسببها قتله أبو جعفر المنصور في هذه السنة . وكان كريماً جواداً ممدحاً . قال الزبير بن بكار : أنشدني سليمان بن عباس السعدي لأبي وجرة السعدي يمدحه .

وجدنا المحضَ أبيضَ من قريشٍ ... فتىً بينَ الخليفةِ والرسولِ
أتاكَ المجدُ منْ هنَّا وهنَّا ... وكنتَ لهُ بمعتلجِ السيولِ
فما للمجدِ دونكَ من مبيتٍ ... وما للمجدِ دونكَ من مقيلِ
ولا يمضي وراءكَ يبتغيهِ ... ولا هوُ قابلٌ بكَ مِنْ بديلِ

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة

فمما كان فيها من الأحداث مخرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة وأخيه إبراهيم بالبصرة ، على ما سنبينه إن شاء الله . أما محمد فانه خرج على أثر ذهاب أبي جعفر المنصور بأهله بني حسن من المدينة إلى العراق على الصفة والنعت الذي تقدم ذكره ، وسجنهم في مكان ساء مستقراً ومقاماً ، لا يسمعون فيه أذاناً ولا يعرفون فيه دخول أوقات صلوات إلا بالأذكار والتلاوة . وقد مات أكثر أكابرهم هنالك رحمهم الله . هذا كله ومحمد الذي يطلبه مختف بالمدينة، حتى أنه في بعض الأحيان اختفى في بئر نزل في مائه كله إلا رأسه ، وباقيه مغمور بالماء ، وقد تواعد هو وأخوه وقتاً معيناً يظهران فيه ، هو بالمدينة وإبراهيم بالبصرة ، ولم يزل الناس ـ أهل المدينة وغيرهم ـ يؤنبون محمد بن عبد الله في اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج ، وذلك لما أضرَّ به شدة الاختفاء وكثرة إلحاح رياح نائب المدينة في طلبه ليلاً ونهاراً ، فلما اشتد به الأمر وضاق الحال واعد أصحابه على الظهور في الليلة الفلانية ، فلما كانت تلك الليلة جاء بعض الوشاة إلى متولي المدينة فأعلمه بذلك ، فضاق ذرعاً وانزعج لذلك انزعاجاً شديداً ، وركب في جحافله[1] فطاف بالمدينة

---

(١) جحافله : جيوشه وبني قومه .

وحول دار مروان ، وهم مجتمعـون بها ، فلم يشعـر بهم . فلما رجـع إلى منزلـه بعث إلى بني حسين بن علي فجمعهم ومعهم رؤوس من سادات قريش وغيرهم ، فوعظهم وأنّبهم وقال : يا معشر أهل المدينة ، أمير المؤمنين يتطلب هذا الرجل في المشارق والمغارب وهو بين أظهركم ، ثم ما كفاكم حتى بايعتموه على السمع والطاعة ؟ والله لا يبلغني عن أحد منكم خرج معـه إلا ضربت عنقه . فأنكر الذين هم هنالك حاضرون أن يكون عندهم علم أو شعور بشيء من هذا ، وقالوا : نحن نأتيك برجال مسلحين يقاتلون دونك إن وقع شيء من ذلك . فنهضـوا فجاؤه بجمـاعة مسلحين فاستأذنوه في دخولهم عليه ، فقال : لا إذن لهم ، إني أخشى أن يكون ذلك خديعة . فجلس أولئك على الباب ومكث الناس جلوساً حول الأمير وهو واجم[1] لا يتكلم إلا قليلاً حتى ذهبت طائفة من الليل ، ثم ما فجيء الناس إلا وأصحاب محمد بن عبد الله قد ظهروا وأعلنوا بالتكبير ، فانزعج النـاس في جوف الليـل ، وأشار بعض النـاس على الأمير أن يضـرب أعناق بني حسين ، فقـال أحدهم : علام ونحن مقرون بالطاعة ؟ واشتغل الأمير عنهم بما فجأه من الأمر ، فاغتنموا الغفلة ونهضوا سراعاً فتسوروا جدار الدار وألقوا أنفسهم على كناسة هنالك .

وأقبل محمد بن عبد الله بن حسن في مائتين وخمسين ، فمر بالسجن فأخرج من فيه ، وجاء دار الإمارة فحاصرها فافتتحها ومسك الأمير رياح بن عثمان نائب المدينة فسجنه في دار مروان ، وسجن معه ابن مسلم بن عقبة ، وهو الذي أشار بقتل بني حسين في أول هذه الليلة فنجوا وأحيط به . وأصبح محمد بن عبد الله بن حسن وقد استظهر على المدينة ودان له أهلها ، فصلى بالناس الصبح وقرأ فيها سورة إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . وأسفرت هذه الليلة عن مستهل رجب من هـذه السنة . وقد خطب محمد بن عبد الله أهل المدينة في هذا اليوم ، فتكلم في بني العباس وذكر عنهم أشياء ذمهم بها ، وأخبرهم أنه لم ينزل بلداً من البلدان ألا وقد بايعوه على السمع والطاعة ، فبايعه أهل المدينة كلهم إلا القليل .

وقد روى ابن جرير عن الامام مالك أنه أفتى الناس بمبايعته ، فقيل له فإن في أعناقنا بيعة للمنصور ، فقال : إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة . فبايعه الناس عند ذلك عن قول مالك ، ولزم مالك بيته . وقد قال له إسماعيل بن عبد الله بن جعفر حين دعاه إلى بيعته : يا ابن أخي إنك مقتول . فارتدع بعض الناس عنه واستمر جمهورهم معه ، فاستناب عليهم عثمـان بن محمد بن خالد بن الزبير ، وعلى قضائها عبد العزيز بن المطلب بن عبـد الله المخزومي ، وعلى شـرطتها عثمان بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعلى ديـوان العطاء عبـد الله بن جعفر بن عبـد الله بن مسور بن مخرمة ، وتلقب بالمهدي طمعاً أن يكون هو المذكور في الأحاديث فلم يكن به ، ولا تم له ما رجاه ولا ما تمناه ، فأنا لله . وقد ارتحل بعض أهل المدينة عنها ليلة دخلها ، فطوى المراحل

---

(١) واجم : ساكت .

البعيدة الى المنصور في سبع ليال ، فورد عليه فوجده نائماً في الليل ، فقال للربيع الحاجب : استأذن على الخليفة ، فقال : إنه لا يوقظ في هذه الساعة . فقال : إنه لا بد من ذلك فأخبر الخليفة فخرج فقال : ويحك ! ما وراءك ؟ فقال : إنه خرج ابن حسن بالمدينة . فلم يظهر المنصور لذلك اكتراثاً وانزعاجاً ، بل قال : انت رأيته ؟ قال : نعم ! فقال : هلك والله وأهلك معه من اتبعه . ثم أمر بالرجل فسجن ، ثم جاءت الأخبار بذلك فتواترت . فأطلقه المنصور وأطلق له عن كل ليلة ألف درهم فأعطاه سبعة آلاف درهم .

ولما تحقق المنصور الأمر من خروجه ضاق ذرعاً ، فقال له بعض المنجمين : يا أمير المؤمنين لا عليك منه ، فوالله لو ملك الأرض بحذافيرها فانه لا يقيم أكثر من سبعين يوماً . ثم أمر المنصور جميع رؤوس الأمراء أن يذهبوا إلى السجن فيجتمعوا بعبد الله بن حسن ـ والد محمد ـ فيخبروه بما وقع من خروج ولده ويسمعوا ما يقول لهم . فلما دخلوا عليه أخبروه بذلك فقال : ما ترون ابن سلامة فاعلاً ؟ ـ يعني المنصور ـ فقالوا : لا ندري . فقال : والله لقد قتل صاحبكم البخل ينبغي له أن ينفق الأموال ويستخدم الرجال ، فإن ظهر فاسترجاع ما أنفق سهل ، وإلا لم يكن لصاحبكم شيء في الخزائن وكان ما خزن لغيره . فرجعوا الى الخليفة فأخبروه بذلك ، وأشار الناس على الخليفة بمناجزته ، فاستدعى عيسى بن موسى فندبه إلى ذلك ، ثم قال : إني سأكتب إليه كتاباً أنذره به قبل قتاله فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله : ﴿ إنَّما جَزَاءُ الذينَ يُحَارِبُون الله ورسولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرْضِ فَسَاداً ﴾[1] الآية إلى قوله : ﴿ فاعلموا أنَّ الله غَفُورٌ رحيمٌ ﴾[2] . ثم قال : فلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ، إن أنت رجعت إلى الطاعة لأؤمننك ومن اتبعك ، ولأعطينك ألف ألف درهم ، ولأدعنك تقيم في أحب البلاد إليك ، ولأقضين لك جميع حوائجك ، في كلام طويل . فكتب إليه محمد جواب كتابه :

من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله بن حسن : ﴿ بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ طسم تلكَ آياتُ الكتابِ المبينِ ، نتلو عليكَ مِنْ نَبَأ موسَى وفرعِونَ بالحقِّ لقومٍ يؤمنونَ ، إنَّ فرعونَ عَلَا في الأَرْض وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيي نِسَاءَهُمْ إنَهُ كانَ مِنَ المفسدينَ ، ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذينَ اسْتُضْعِفوا في الأرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أئِمةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ ﴾[3] . ثم قال : وإني أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت عليّ ، فأنا أحق بهذا الأمر منكم ، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا ، فإن علياً كان الوصيّ وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده

---

(١) سورة المائدة ، الآية/٣٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية/٣٤ .

(٣) سورة القصص ، الآية / ١ ـ ٥ .

أحياء ؟ ونحن أشرف أهل الأرض نسباً ، فرسول الله خير الناس وهو جدنا ، وجدتنا خديجة وهي أفضل زوجاته ، وفاطمة ابنته أمّنا وهي أكرم بناته ، وإن هاشماً ولد علياً مرتين ، وإن حسناً ولده عبد المطلب مرتين ، وهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة ، وإن رسول الله ﷺ ولد أبي مرتين ، وإني أوسط بني هاشم نسباً ، [وأصرحهم أباً ، لم تعرّق فيّ العجمُ . ولم تنازع فيّ أمهات الأولاد] فانا ابن أرفع الناس درجة في الجنة ، وأخفهم عذاباً في النار . فأنا أولى بالأمر منك ، وأولى بالعهد وأوفى به منك ، فانك تعطي العهد ثم تنكث ولا تفي ، كما فعلت بابن هبيرة فانك أعطيته العهد ثم غدرت به ، ولا أشد عذاباً من إمام غادر ، وكذلك فعلت بعمك عبد الله بن علي ، وأبي مسلم الخراساني . ولو أعلم أنك تصدق لأجبتك لما دعوتني إليه ، ولكن الوفاء بالعهد من مثلك لمثلي بعيد والسلام .

فكتب إليه أبو جعفر جواب ذلك في كتاب طويل حاصله : أما بعد فقد قرأت كتابك فاذا جل فخرك وإدلالك قرابة النساء لتضل به الجفاة[1] والغوغاء[2] ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبية والأولياء ، وقد أنزل الله ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[3] وكان له حينئذ أربعة أعمام ، فاستجاب له اثنان أحدهما جدنا ، وكفر اثنان أحدهما أبوك ـ يعني جده أبا طالب ـ فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينهما إلاّ ولاذمة ، وقد أنزل الله في عدم إسلام أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لا تهدي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكنَّ الله يهدي مَنْ يَشَاءُ ﴾[4] وقد فخرت به وأنه أخف أهل النار عذاباً ، وليس في الشر خيار ، ولا ينبغي لمؤمن أن يفخر بأهل النار ، وفخرت بأن علياً ولده هاشم مرتين . وأن حسناً ولده عبد المطلب مرتين ، فهذا رسول الله ﷺ إنما ولده عبد الله مرة واحدة ، وقولك إنك لم تلدك أمهات أولاد ، فهذا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية ، وهو خير منك ، وعلي بن الحسن من أم ولد وهو خير منك ، وكذلك ابنه محمد بن علي ، وابنه جعفر بن محمد ، جداتهما أمهات أولاد وهما خير منك ، وأما قولك بنو رسول الله ﷺ : فقد قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ محمدٌ أبا أحدٍ مِنْ رجالِكُمْ ﴾[5] وقد جاءت السنة التي لا خلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يورثون ، ولم يكن لفاطمة ميراث من رسول الله ﷺ بنص الحديث ، وقد مرض رسول الله ﷺ وأبوك حاضر فلم يأمره بالصلاة بالناس ، بل أمر غيره . ولما توفي لم يعدل الناس بأبي بكر وعمر أحداً ، ثم قدموا عليه عثمان في الشورى والخلافة ، ثم لما قتل عثمان اتهمه بعضهم به ، وقاتله طلحة والزبير على ذلك ، وامتنع سعد من مبايعته ثم بعد ذلك معاوية ، ثم طلبها أبوك وقاتل عليه الرجال ، ثم اتفق على التحكيم فلم يف به ، ثم صارت إلى الحسن فباعها بخرق ودراهم ، وأقام بالحجاز يأخذ مالا من غير حله ، وسلم الأمر إلى غير أهله ، وترك شيعته في أيدي بني أمية ومعاوية . فان كانت

(١) الجفاة : غِلاظ القلوب .
(٢) والغوغاء : السَّفَلَة من الناس والمتسرِّعين إلى الشرّ .
(٣) سورة الشعراء ، الآية/ ٢١٤ .
(٤) سورة القصص ، الآية/ ٥٦ .
(٥) سورة الأحزاب ، الآية/ ٤٠ .

لكم فقد تركتموها وبعتموها بثمنها . ثم خرج عمك حسين علي بن مرجانة وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وحرقوكم بالنار ، وحملوا نساءكم على الإبل كالسبايا إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم نحن فأخذنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وذكرنا فضل سلفكم ، فجعلت ذلك حجة علينا ، وظننت أنا إنما ذكرنا فضله على أمثاله على حمزة والعباس وجعفر ، وليس الأمر كما زعمت ، فان هؤلاء مضوا ولم يدخلوا في الفتن ، وسلموا من الدنيا فلم تنقصهم شيئاً ، فاستوفوا ثوابهم كاملاً ، وابتلى بذلك أبوك ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلوات المكتوبات ، فأحيينا ذكره وذكرنا فضله وعنفناهم بما نالوا منه ، وقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية بسقاية الحجيج الأعظم ، وخدمة زمزم ، وحكم رسول الله ﷺ لنا بها . ولما قحط الناس زمن عمر استسقى بأبينا العباس ، وتوسل به إلى ربه وأبوك حاضر ، وقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد رسول الله ﷺ ، إلا العباس ، فالسقاية سقايته ، والوراثة وراثته ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف في الجاهلية والاسلام إلا والعباس وارثه ومورثه ، في كلام طويل فيه بحث ومناظرة وفصاحة . وقد استقصاه ابن جرير بطوله والله سبحانه أعلم .

فصـــــــل

مقتل محمد بن عبد الله بن حسن

بعث محمد بن عبد الله بن حسن في غبون ذلك رسولاً إلى أهل الشام يدعوهم الى بيعته وخلافته فأبوا قبول ذلك منه ، وقالوا : قد ضجرنا من الحروب ومللنا من القتال . وجعل يستميل رؤوس أهل المدينة ، فمنهم من أجابه ومنهم من امتنع عليه ، وقال له بعضهم : كيف أبايعك وقد ظهرت في بلد ليس فيه مال تستعين به على استخدام الرجال ؟ ولزم بعضهم منزله فلم يخرج حتى قتل محمد . وبعث محمد هذا الحسين بن معاوية في سبعين رجلاً ونحواً من عشرة فوارس إلى مكة نائباً إن هو دخلها فساروا إليها ، فلما بلغ أهلها قدومهم خرجوا إليهم في ألوف من المقاتلة ، فقال لهم الحسين بن معاوية علام تقاتلون وقد مات أبو جعفر ؟ فقال السري بن عبد الله زعيم أهل مكة : إن برده جاءتنا من أربع ليال وقد أرسلت إليه كتاباً فأنا أنتظر جوابه إلى أربع ، فإن كان ما تقولون حقاً سلمتكم البلد وعليّ مؤونة رجالكم وخيلكم . فامتنع الحسن بن معاوية من الانتظار وأبى إلا المناجزة ، وحلف لا يبيت الليلة إلا بمكة ، إلا أن يموت . وأرسل إلى السري أن أبرز من الحرم إلى الحل حتى لا تراق الدماء في الحرم . فلم يخرج ، فتقدموا إليهم فصافُّوهم[1] فحمل عليه الحسن وأصحابه حملة واحدة فهزموهم وقتلوا منهم نحو سبعة ، ودخلوا مكة . فلما أصبحوا خطب الحسن بن معاوية الناس وأغراهم بأبي جعفر ، ودعاهم الى محمد بن عبد الله بن حسن المهدي .

---

(١) فصافُّوهم : أو قفوهم صفاً .

خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن

وظهر بالبصرة أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، وجاء البريد إلى أخيه محمد فانتهى إليه ليلاً فاستؤذن له عليه وهو بدار مروان فطرق بابها . فقال : اللهم إني أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن . ثم خرج فأخبر أصحابه عن أخيه فاستبشروا جداً وفرحوا كثيراً ، وكان يقول للناس بعد صلاة الصبح والمغرب : ادعوا الله لأخوانكم أهل البصرة ، وللحسين بن معاوية بمكة ، واستنصروه على اعدائكم .

وأما ما كان من المنصور فأنه جهز الجيوش الى محمد بن عبد الله بن حسن ، صحبة عيسى بن موسى عشرة آلاف فارس من الشجعان المنتخبين ، منهم محمد بن أبي العباس السفاح وجعفر بن حنظلة البهراني ، وحميد بن قحطبة ، وكان المنصور قد استشاره فيه فقال : يا أمير المؤمنين ادع بمن شئت ممن تثق به من مواليك فابعث بهم إلى وادي القرى يمنعونهم من ميرة الشام ، فيموت هو ومن معه جوعاً ، فإنه ببلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح . وقدم بين يديه كثير بن الحصين العبدي وقد قال المنصور لعيسى بن موسى حين ودعه : يا عيسى ! إني أبعثك إلى جنبي هذين ، فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك وناد في الناس بالأمان وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به ، فانهم أعلم بمذاهبه . وكتب معه كتباً إلى رؤساء قريش والأنصار من أهل المدينة يدفعها إليهم خفية يدعوهم الى الرجوع الى الطاعة . فلما اقترب عيسى بن موسى من المدينة بعث الكتب مع رجل فأخذه حرس محمد بن عبد الله بن حسن فوجدوا معه تلك الكتب فدفعوها الى محمد فاستحضر جماعة من أولئك فعاقبهم وضربهم ضرباً شديداً وقيدهم قيوداً ثقالا ، وأودعهم السجن . ثم إن محمداً استشار أصحابه بالقيام بالمدينة حتى يأتي عيسى بن موسى فيحاصرهم بها ، أو أنه يخرج بمن معه فيقاتل أهل العراق ؟ فمنهم من أشار بهذا ، ومنهم من أشار بذاك ، ثم اتفق الرأي على المقام بالمدينة، لأن رسول الله ﷺ ندم يوم أحد على الخروج منها ، ثم اتفقوا على حفر خندق حول المدينة كما فعل رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ، فأجاب إلى ذلك كله ، وحفر مع الناس في الخندق بيده اقتداء برسول الله ﷺ ، وقد ظهر لهم لبنة من الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ ، ففرحوا بذلك وكبروا وبشروه بالنصر . وكان محمد حاضراً عليه قباء أبيض وفي وسطه منطقة ، وكان شكلاً ضخماً أسمر عظيم الهامة .

ولما نزل عيسى بن موسى الأعوص واقترب من المدينة ، صعد محمد بن عبد الله المنبر فخطب الناس وحثهم على الجهاد ـ وكانوا قريباً من مائة ألف ـ فقال لهم في جملة ما قال : إني جعلتكم في حل من بيعتي ، فمن أحب منكم أن يقيم عليها فعل . ومن أحب أن يتركها فعل . فتسلل كثير منهم أو أكثرهم عنه ، ولم يبق إلا شرذمة قليلة معه ، وخرج أكثر أهل المدينة بأهليهم نها لئلا يشهدوا القتال بها ، فنزلوا الأعراض ورؤوس الجبال . وقد بعث محمد أبا الليث ليردهم ن الخروج فلم يمكنه ذلك في أكثرهم ، واستمروا ذاهبين . وقال محمد لرجل أتأخذ سيفاً ورمحاً

وترد هؤلاء الذين خرجوا من المدينة ؟ فقال : نعم إن أعطيتني رمحاً أطعنهم وهم بالأعراض ، وسيفاً أضربهم وهم في رؤوس الجبال فعلت . فسكت محمد ثم قال لي : ويحك ؟ إن أهل الشام والعراق وخراسان قد بيضوا ـ يعني لبسوا البياض ـ موافقة لي وخلعوا السواد . فقال : وماذا ينفعني أن لو بقيت الدنيا زبدة بيضاء ـ وأنا في مثل صوفة الدواة ، وهذا عيسى بن موسى نازل بالأعوص .

ثم جاء عيسى بن موسى فنزل قريباً من المدينة : على ميل منها ، فقال له دليله ابن الأصعم : إني أخشى إذا كشفتموهم أن يرجعوا إلى معسكرهم سريعاً قبل أن تدركهم الخيل . ثم ارتحل به فأنزله الجرف على سقاية سليمان بن عبد الملك على أربعة أميال من المدينة ، وذلك يوم السبت لصبح اثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان من هذه السنة ، وقال : إن الراجل إذا هرب لا يقدر على الهرولة أكثر من ميلين أو ثلاثة فتدركه الخيل .

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس فنزلوا عند الشجرة في طريق مكة ، وقال لهم هذا الرجل إن هرب فليس له ملجأ إلا مكة ، فحولوا بينه وبينها . ثم أرسل عيسى الى محمد يدعوه الى السمع والطاعة لأمير المؤمنين المنصور ، وأنه قد أعطاه الأمان له ولأهل بيته إن هو أجابه . فقال محمد للرسول : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك . ثم بعث الى عيسى بن موسى يقول له : إني أدعوك الى كتاب الله وسنة رسوله، فاحذر أن تمتنع فأقتلك فتكون شر قتيل، أو تقتلني فتكون قتلت من دعاك إلى الله ورسوله. ثم جعلت الرسل تتردد بينهما ثلاثة أيام. هذا يدعو هذا، وهذا يدعو هذا . وجعل عيسى بن موسى يقف في كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على الثنية عند سلع فينادي : يا أهل المدينة إن دماءكم علينا حرام فمن جاءنا فوقف تحت رايتنا فهو آمن ، ومن خرج من المدينة فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، فليس لنا في قتالكم أرب ، وإنما نريد محمداً وحده لنذهب به الى الخليفة . فجعلوا يسبونه وينالون من أمه ، ويكلمونه بكلام شنيع ، ويخاطبونه مخاطبة فظيعة ، وقالوا له . هذا ابن رسول الله ﷺ معنا ونحن معه ، نقاتل دونه .

فلما كان اليوم الثالث أتاهم في خيل ورجال وسلاح ورماح لم ير مثلها ، فناداه يا محمد ! إن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أدعوك إلى الطاعة ، فان فعلت أمنك وقضى دينك وأعطاك أموالاً وأراضي ، وإن أبيت قاتلتك فقد دعوتك غير مرة . فناداه محمد : إنه ليس لكم عندي إلا القتال . فنشبت الحرب حينئذ بينهم ، وكان جيش عيسى بن موسى فوق أربعة آلاف ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة ، وعلى ميمنته محمد بن السفاح ، وعلى ميسرته داود بن كرار ، وعلى الساقة الهيثم بن شعبة ، ومعهم عُدد لم ير مثلها . وفرق عيسى أصحابه في كل قطر طائفة ، وكان محمد وأصحابه على عدة أصحاب أهل بدر ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً جداً ، وترجل محمد الى الأرض فيقال إنه قتل بيده من جيش عيسى بن موسى سبعين رجلاً من أبطالهم ، وأحاط بهم أهل العراق فقتلوا طائفة من أصحاب محمد بن عبد الله بن حسن ، فاقتحموا عليهم الخندق الذي كانوا

حفروه وعملوا أبواباً على قدره ، وقيل إنهم ردموه بحدائج الجمال حتى أمكنهم أن يجوزوه ، وقد يكونون فعلوا هذا موضع منه ، وهذا في موضع آخر والله أعلم .

ولم تزل الحرب ناشبة بينهم حتى صليت العصر . فلما صلى محمد العصر نزلوا الى مسيل الوادي بسلع فكسر جفن سيفه وعقر فرسه وفعل أصحابه مثله وصبروا أنفسهم للقتال وحميت الحرب حينئذ جداً ، فاستظهر اهل العراق ورفعوا راية سوداء فوق سلع ، ثم دنوا الى المدينة فدخلوها ونصبوا راية سوداء فوق مسجد رسول الله ﷺ .

فلما رأى ذلك أصحاب محمد تنادوا : أخذت المدينة ، وهربوا وبقي محمد في شرذمة قليلة جداً . ثم بقي وحده وليس معه أحد ، وفي يده سيف صلت يضرب به من تقدم إليه ، فكان لا يقوم له شيء إلا أنامه ، حتى قتل خلقاً من أهل العراق من الشجعان ، ويقال إنه كان في يده يومئذ ذو الفقار ثم تكاثر عليه الناس فتقدم اليه رجل فضربه بسيفه تحت شحمة أذنه اليمنى فسقط لركبتيه وجعل يحمي نفسه ويقول : ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم . وجعل حميد بن قحطبة يقول : ويحكم ! دعوه لا تقتلوه ، فأحجم عنه الناس وتقدم إليه حميد بن قحطبة فحز رأسه وذهب به الى عيسى بن موسى فوضعه بين يديه . وكان حميد قد حلف أن يقتله متى رآه، فما أدركه إلا كذلك . ولو كان على حاله وقوته لما استطاعه حميد ولا غيره من الجيش.

وكان مقتل محمد بن عبد الله بن حسن عند أحجار الزيت يوم الاثنين بعد العصر ، لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة خمس واربعين ومائة ، وقال عيسى بن موسى لأصحابه حين وضع رأسه بن يديه : ما تقولون فيه ؟ فنال منه أقوام وتكلموا فيه ، فقال رجل : كذبتم والله ! لقد كان صواماً قواماً ، ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصى المسلمين فقتلناه على ذلك . فسكتوا حينئذ وأما سيفه ذو الفقار فانه صار إلى بني العباس يتوارثونه حتى جربه بعضهم فضرب به كلباً فانقطع . ذكره ابن جرير وغيره . وقد بلغ المنصور في غبون هذا الأمر أن محمداً فر من الحرب فقال : هذا لا يكون ، فانا أهل بيت لا نفر .

وقال ابن جرير : حدّثني عبد الله بن راشد حدّثني أبو الحجاج قال : إني لقائم على رأس المنصور وهو يسألني عن مخرج محمد ، إذ بلغه أن عيسى بن موسى قد انهزم وكان متكئاً فجلس فضرب بقضيب معه مصلاه وقال : كلا وأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء ؟ ما أني لذلك بعد ، وبعث عيسى بن موسى بالبشارة الى المنصور مع القاسم بن الحسن وبالرأس مع ابن أبي الكرام ، وأمر بدفن الجثة فدفن بالبقيع ، وأمر بأصحابه الذين قتلوا معه فصلبوا صفين ظاهر المدينة ثلاثة أيام ثم طرحوا على مقبرة اليهود عندسلع . ثم نقلوا الى خندق هناك . وأخذ أموال بني حسن كلها فسوغها له المنصور ، ويقال إنه ردها بعد ذلك إليهم ، حكاه ابن جرير . ونودي في أهل المدينة بالأمان فأصبح الناس في أسواقهم ، وترفع عيسى بن موسى في الجيش إلى الجرف من مطر

أصاب الناس يوم قتل محمد ، وجعل ينتاب المسجد من الجرف ، وأقام بالمدينة إلى اليوم التاسع عشر من رمضان ، ثم خرج منها قاصداً مكة وكان بها الحسن بن معاوية من جهة محمد ، وكان محمد قد كتب إليه يقدم عليه ، فلما خرج من مكة وكان ببعض الطريق تلقته الأخبار بقتل محمد ، فاستمر فاراً إلى البصرة إلى أخي محمد إبراهيم بن عبد الله ، الذي كان قد خرج بها ثم قتل بعد أخيه في هذه السنة على ما سنذكره . ولما جيء المنصور برأس محمد بن عبد الله بن حسن فوضع بين يديه أمر به فطيف به في طبق أبيض ثم طيف به في الأقاليم بعد ذلك ، ثم شرع المنصور في استدعاء من خرج مع محمد من أشراف أهل المدينة ، فمنهم من قتله ومنهم من ضربه ضرباً مبرحاً ، ومنهم من عفا عنه . ولما توجه عيسى إلى مكة استناب على المدينة كثير بن حصين ، فاستمر بها شهراً حتى بعث المنصور على نيابتها عبد الله بن الربيع ، فعاث جنده في المدينة فصاروا إذا اشتروا من الناس شيئاً لا يعطونهم ثمنه ، وإن طولبوا بذاك ضربوا المطالب وخوفوه بالقتل ، فثار عليهم طائفة من السودان واجتمعوا ونفخوا في بوق لهم فاجتمع على صوته كل أسود في المدينة ، وحملوا عليهم حملة واحدة وهم ذاهبون إلى الجمعة ، لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة ، وقيل لخمس بقين من شوال منها ، فقتلوا من الجند طائفة كثيرة بالمزاريق[1] وغيرها ، وهرب الأمير عبد الله بن الربيع وترك صلاة الجمعة . وكان رؤوس السودان : وثيق ويعقل ورمقة وحدياً وعنقود ، ومسعر ، وأبو النار . فلما رجع عبد الله بن الربيع ركب في جنوده والتقى مع السودان فهزموه ايضاً فلحقوه بالبقيع فالقى لهم رداءه يشغلهم فيه حتى نجا بنفسه ومن اتبعه ، فلحق ببطن نخل على ليلتين من المدينة ، ووقع السودان على طعام للمنصور كان مخزوناً في دار مروان قد قدم به في البحر فنهبوه ونهبوا ما للجند الذين بالمدينة من دقيق وسويق وغيره ، وباعوا ذلك بأرخص ثمن وذهب الخبر الى المنصور بما كان من أمر السودان ، وخاف أهل المدينة من معرة[2] ذلك فاجتمعوا وخطبهم ابن أبي سبرة ـ وكان مسجوناً ـ فصعد المنبر وفي رجليه القيود ، فحثهم على السمع والطاعة للمنصور، وخوفهم شر ما صنعه مواليهم ، فاتفق رأيهم على أن يكفوا مواليهم ويفرقوهم ويذهبوا الى اميرهم فيردوه الى عمله . ففعلوا ذلك ، فسكن الامر وهدأ الناس وانطفأت الشرور ،ورجع عبد الله بن الربيع الى المدينة فقطع يد وثيق وأبي النار ويعقل ومسعر .

ذكر خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة

كان إبراهيم قد هرب إلى البصرة فنزل في بني ضبيعة من أهل البصرة ، في دار الحارث بن عيسى ، وكان لا يرى بالنهار، وكان قدومه إليها بعد أن طاف بلاداً كثيرة جداً ، وجرت عليه وعلى أخيه خطوب شديدة هائلة ، وانعقد أسباب هلاكهما في أوقات متعددة ، ثم كان آخر ما استقر أمره بالبصرة في سنة ثلاث وأربعين ومائة ، بعد منصرف الحجيج . وقيل إن قدومه إليها كان في مستهل

---

(١) بالمزاريق : الرماح الصغيرة .
(٢) معرّة : مغبّة .

رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، بعثه أخوه إليها بعد ظهوره بالمدينة ، قاله الواقدي . قال : وكان يدعو في السر إلى أخيه ، فلما قتل أخوه أظهر الدعوة إلى نفسه في شوال من هذه السنة ، والمشهور أنه قدمها في حياة أخيه ودعا إلى نفسه كما تقدم والله أعلم .

ولما قدم البصرة نزل عند يحيى بن زياد بن حسان النبطي ، فاختفى عنده هذه المدة كلها ، حتى ظهر في هذه السنة في دار أبي فروة ، وكان أول من بايعه نميلة بن مرة ، وعبد الله بن سفيان ، وعبد الواحد بن زياد ، وعمر بن سلمة الهجيمي ، وعبيد الله بن يحيى بن حصين الرقاشي . وندبوا الناس إليه فاستجاب له خلق كثير فتحول إلى دار أبي مروان في وسط البصرة ، واستفحل أمره ، وبايعه فئام من الناس ، وتفاقم الخطب به ، وبلغ خبره إلى المنصور فازداد غماً إلى غمه بـأخيه محمد ، وذلك لأنه ظهر قبل مقتل أخيه وإنما كان سبب تعجيله الظهور كتاب أخيه إليه فامتثل أمره ودعا إلى نفسه ، فانتظم أمره بالبصرة ، وكان نائبها من جهة المنصور سفيان بن معاوية وكان ممالئاً لإبراهيم هذا في الباطن ، ويبلغه أخباره فلا يكترث بها ، ويكذب من أخبره ويود أن يتضح أمر إبراهيم ، وقد أمده المنصور بأميرين من أهل خراسان معهما ألفا فارس وراجل ، فأنزلهما عنده ليتقوى بهما على محاربة إبراهيم ، وتحول المنصور من بغداد ـ وكان قد شرع في عمارتها ـ إلى الكوفة ، وجعل كما اتهم رجلاً من أهل الكوفة في أمر إبراهيم بعث إليـه من يقتله في الليل في منزله ، وكان الفرافصة العجلي قد هم بالوثوب بالكوفة فلم يمكنه ذلك لمكان المنصور بها ، وجعل الناس يقصدون البصرة من كل فج لمبايعة إبراهيم ، ويفـدون إليها جمـاعات وفـرادى ، وجعل المنصور يرصد لهم المسالح فيقتلونهم في الطريق ويأتونه برؤ وسهم فيصلُبها بالكوفة ليتعظ بهـا الناس . وأرسل المنصـور إلى حربٍ الـراوندي ـ وكـان مرابـطاً بالجـزيرة في ألفي فـارس لقتال الخوارج ـ يستدعيه إليه إلى الكوفة ، فأقبل بمن معه فاجتاز ببلدة بها أنصار لإبراهيم فقالوا له : لا ندعك تجتاز ، لأن المنصور إنما دعاك لقتال إبراهيم . فقال : ويحكم ! دعوني ، فأبوا فقاتلهم فقتل منهم خمسمائة وأرسل برؤ وسهم إلى المنصور . فقال : هذا أول الفتح . ولما كانت ليلة الأثنين مستهل رمضان من هذه السنة ، خرج إبراهيم في الليل إلى مقبرة بني يشكر في بضعة عشر فارساً ، وقدم في هذه الليلة أبو حماد الأبرص في ألفي فارس مدداً لسفيان بن معاوية ، فأنزلهم الأمير في القصر ، ومال إبراهيم وأصحابه على دواب أولئك الجيش وأسلحتهم فأخذوها جميعاً . فتقوّوا بها ، فكان هذا أول ما أصاب . وما أصبح الصباح إلا وقد استظهر جداً ، فصلى بالناس صلاة الصبح في المسجد الجامع ، والتف الخلائق عليه ما بين ناظر وناصر ، وتحصن سفيان بن معاوية نائب الخليفة بقصر الامارة وحبس عنده الجنود فحاصرهم إبراهيم ، فطلب سفيان بن معاوية من إبراهيم الأمان فأعطاه الأمان ، ودخل إبراهيم قصر الامارة فبسطت له حصير ليجلس عليهـا في مقدم إيـوان[1]

---

(١) إيوان : هو المكان المتّسع من البيت يحيط به ثلاثة جدران .

القصر ، فهبت الريح فقلبت الحصير ظهراً لبطن ، فتطير الناس بذلك ، فقال إبراهيم : إنا لا نتطير . وجلس على ظهر الحصير ، وأمر بحبس سفيان بن معاوية مقيداً وأراد بذلك براءة ساحته عند المنصور ، واستحوذ على ما كان في بيت المال فاذا فيه ستمائة ألف ، وقيل ألفا ألف. فقوي بذلك جداً .

وكان في البصرة جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي ، وهما أبنا عم الخليفة المنصور ، فركبا في ستمائة فارس إليه فهزمهما ، وأركب إبراهيمُ المضاءَ بن القاسم في ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلاً فهزم ستمائة فارس كانت لهما . وآمن من بقي منهم ، وبعث إبراهيم إلى أهل الاهواز فبايعوه وأطاعوه ، وأرسل إلى نائبها مائتي فارس عليهم المغيرة فخرج إليه محمد بن الحصين نائب البلاد في أربعة آلاف فارس فهزمه المغيرة واستحوذ على البلاد ، وبعث إبراهيم إلى بلاد فارس فأخذها ، وكذلك واسط والمدائن والسواد ، واستفحل أمره جداً ، ولكن لما جاءه نعي أخيه محمد انكسر جداً ، وصلى بالناس يوم العيد وهو مكسور . قال بعضهم : والله لقد رأيت الموت في وجهه وهو يخطب الناس فنعى إلى الناس أخاه محمداً ، فازداد الناس حنقاً على المنصور وأصبح فعسكر بالناس واستناب على البصرة نميلة وخلف ابنه حسنا معه .

ولما بلغ المنصور خبره تحير في أمره وجعل يتأسف على ما فرق من جنده في الممالك ، وكان قد بعث مع ابنه المهدي ثلاثين ألفا إلى الري ، وبعث مع محمدبن الأشعث إلى إفريقيةأربعين ألفاً والباقون مع عيسى بن موسى بالحجاز ، ولم يبق مع المنصور سوى ألفي فارس . وكان يأمر بالنيران الكثيرة فتوقد ليلاً ، فيحسب الناظر إليها أن ثم جندا كثيراً . ثم كتب المنصور إلى عيسى بن موسى : إذا قرأت كتابي هذا فأقبل من فورك ودع كل ما أنت فيه . فلم ينشب أن أقبل إليه فقال له : اذهب إلى إبراهيم بالبصرة ولا يهولنك كثرة من معه ، فانهم جملا بني هاشم المقتولان جميعاً ، فابسط يدك وثق بما عندك وستذكر ما أقول لك فكان الأمر كما قال المنصور . وكتب المنصور إلى ابنه المهدي أن يوجه خازم بن خزيمة في أربعة آلاف إلى الأهواز ، فذهب إليها فأخرج منها نائب إبراهيم . وهو المغيرة ـ وأباحها ثلاثة أيام ، ورجع المغيرة إلى البصرة ، وكذلك بعث إلى كل كورة[1] من هذه الكور التي نقضت بيعته جندا يردون أهلها إلى الطاعة . قالوا: ولزم المنصور موضع مصلاه فلا يبرح منه ليلاً ونهاراً في ثياب بذلة قد اتسخت ، فلم يزل مقيماً هناك بضعةً وخمسين يوماً حتى فتح الله عليه . وقد قيل له في غبون[2] ذلك : إن نساءك قد خبثت نفسهن لغيبتك عنهن . فانتهر القائل وقال : ويحك ليست هذه أيام نساء ، حتى أرى رأس إبراهيم بين يدي ، أو يحمل رأسي اليه .

وقال بعضهم : دخلت على المنصور وهو مهموم من كثرة ما وقع من الشرور ، وهو لا يستطيع

---

(١) كورة : أقليم .

(٢) غبون : ضعف الرأي .

أن يتابع الكلام من كثرة همه ، وما تفتق عليه من الفتوق والخروق ، وهو مع ذلك قد أعد لكل أمر ما يسد خلله به ، وقد خرجت عن يده البصرة والاهواز وأرض فارس والمدائن وأرض السواد ، وفي الكوفة عنده مائة ألف مغمدة سيوفها تنتظر به صيحة واحدة ، فيثبون مع إبراهيم ، وهو مع ذلك يعرك النوائب ويمرسها ولم تقعد به نفسه وهو كما قال الشاعر :

نفسُ عصامٍ سّودتْ عصاما * وعلمتهُ الكرَّ والإقداما * فصيَّرَتْهُ مَلِكاً هُمَاماً[1]

وأقبل إبراهيم بعساكر من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفاً ، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف . وجاء إبراهيم فنزل في باخمري في جحافل عظيمة ، فقال له بعض الأمراء : إنك قد اقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك لأخذت بقفاه فانه ليس عنده من الجيوش ما يردون عنه . وقال آخرون : إن الأولى أن نناجز هؤلاء الذين بازائنا ، ثم هو في قبضتنا . فثناهم ذلك على الرأي الأول . ولو فعله لتم لهم الأمر . ثم قال بعضهم : خندق حول الجيش . وقال آخرون : إن هذا الجيش لا يحتاج إلى خندق حوله ، فترك ذلك . ثم أشار بعضهم أن يبيت جيش عيسى بـن موسى فقال إبراهيم : أنا لا أرى ذلك ، فتركه . ثم أشار آخرون بأن يجعل جيشه كراديس فإن غلب كردوس ثبت الآخر ، وقال آخرون : الأولى أن نقاتل صفوفاً لقوله تعالى : ﴿ إنَّ الله يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلُونَ فِي سبيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾[2] . والامر لله وما شاء فعل ولو ساروا إلى الكوفة وبيتوا الجيش أو جعل جيشه كراديس لتم له الأمر مع تقدير الله تعالى .

وأقبل الجيشان فتصافوا في باخمري وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتالاً شديداً فانهزم حميد بن قحطبة بمن معه من المقدمة ، فجعل عيسى يناشدهم الله في الرجوع والكرة فلا يلوي عليه أحد ، وثبت عيسى بن موسى في مائة رجل من أهله ، فقيل له : لو تنحيت من مكانك هذا لئلا يحطمك جيش إبراهيم فقال : والله لا أزول منه حتى يفتح الله لي أو أقتل ها هنا . وكان المنصور قد تقدم إليه بما أخبره به بعض المنجمين أن الناس يكون لهم جولة عن عيسى بن موسى ثم يقومون إليه وتكون العاقبة له ، فاستمر المنهزمون ذاهبين فانتهوا إلى نهر بين جبلين فلم يمكنهم خوضه فكروا راجعين بأجمعهم ، وكان أول راجع حميد بن قحطبة الذي كـان أول من انهزم . ثم اجتلدوا[3] هم وأصحاب إبراهيم فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل من كـلا الفريقين خلق كثير ، ثم انهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في خمسمائة ، وقيل في أربعمائة ، وقيل في تسعين رجلاً ، واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه ، وقتل إبراهيم في جملة من قتل واختلط رأسه مـع

(١) هماما : السيد الشجاع السخي وقيل : الملك العظيم الهمَّة .

(٢) سورة الصف ، الآية/ ٤ .

(٣) اجتلدوا : اقتتلوا .

رؤوس أصحابه ، فجعل حميد يأتي بالرؤوس إلى عيسى بن موسى حتى عرفوا رأس إبراهيم فبعثوه مع البشير إلى المنصور ، وكان نيبخت المنجم قد دخل على المنصور قبل مجيء الرأس فأخبره أن إبراهيم مقتول فلم يصدقه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن لم تصدقني فاحبسني فإن لم يكن الأمر كما ذكرت فاقتلني . فبينا هو عنده إذ جاء البشير بهزيمة جيش إبراهيم ، ولما جيء بالرأس تمثل المنصور ببيت مُعَقر بن أوس بن حمار البارقي :

فألقتْ عصاها واستقرَ بها النوى[1] كما قرَّ عيناً بالايابِ[2] المسافرُ

وقيل إن المنصور لما رأى الرأس بكى حتى جعلت دموعه تسقط على الرأس وقال : والله لقد كنت لهذا كارهاً ، ولكنك ابتليت بي وابتليت بك . ثم أمر بالرأس فنصب بالسوق . وأقطع نيبخت المنجم الكذاب ألفي جريب .

فهذا المنجم إن كان قد أصاب في قضية واحدة فقد أخطأ في أشياء كثيرة ، فهم كذبه كفره وقد كان المنصور في ضلال مع منجمه هذا ، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين وذلك ضلال لا يجوز .

وذكر صالح مولى المنصور قال : لما جيء برأس إبراهيم جلس المنصور مجلساً عاماً وجعل الناس يدخلون عليه فيهنئونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور ، والمنصور ساكت متغير اللون لا يتكلم ، حتى دخل جعفر بن حنظلة الهراني فوقف فسلم ثم قال : أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرّط فيه من حقك . قال فاصفر لون المنصور وأقبل عليه وقال له : يا أبا خالد مرحباً وأهلاً ، ههنا فاجلس . فعلم الناس أن ذلك وقع منه موقعاً جيداً . فجعل كل من جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة . قال أبو نعيم الفضل بن دكين : كان مقتل إبراهيم في يوم الخميس لخمس بقين من ذي الحجة من هذه السنة .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

فمن أعيان أهل البيت عبد الله بن حسن وابناه محمد وإبراهيم ، وأخوه حسن بن حسن ، وأخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج . وقد تقدمت ترجمته .

وأما أخوه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي فتابعي ، روى عن أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو صحابي جليل ، وغيرهم . وروى عنه جماعة منهم سفيان الثوري والدراوردي ومالك ، وكان معظما عند العلماء ، وكان عابداً

---

(١) النوى : البعد والارتحال .

(٢) بالاياب : العودة والرجوع .

كبير القدر . قال يحيى بن معين : كان ثقة صدوقاً ، وفد على عمر بن عبد العزيز فأكرمه ، ووفد على السفاح فعظمه وأعطاه ألف ألف درهم ، فلما ولي المنصور عامله بعكس ذلك ، وكذلك أولاده وأهله ، وقد مضوا جميعاً والتقوا عند الله عز وجل ، وأخذه المنصور وأهل بيته مقيدين مغلولين مهانين من المدينة إلى الهاشمية ، فأودعهم السجن الضيق كما قدمنا ، فمات أكثرهم فيه ، فكان عبد الله ابن حسن هذا أول من مات فيه بعد خروج ولده محمد بالمدينة ، وقد قيل إنه قتل في السجن عمداً . وكان عمره يوم مات خمساً وسبعين سنة ، وصلىٰ عليه أخوه لأمه الحسن بن الحسن بن علي . ثم مات بعده أخوه حسن فصلى عليه أخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . ثم قتل بعدهما وحمل رأسه إلى خراسان كما تقدم .

وأما ابنه محمد الذي خرج بالمدينة فروى عن أبيه ونافع ، وعن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة في كيفية الهُويِّ[1] إلى السجود ، وحدث عنه جماعة ، ووثقه النسائي وابن حبان وقال البخاري : لا يتابع على حديثه . وقد ذكر أن أمه حملت به أربع سنين ، وكان طويلاً سميناً أسمر ضخماً ذا همة سامية ، وسطوة عالية وشجاعة باهرة ، قتل بالمدينة في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة ، وله خمس وأربعون سنة . وقد حملوا برأسه إلى المنصور ، وطيف به في الأقاليم .

وأما أخوه إبراهيم فكان ظهوره بالبصرة بعد ظهور أخيه بالمدينة وكان مقتله بعد مقتل أخيه في ذي الحجة من هذه السنة وليس له شيء في الكتب الستة ، وحكى أبو داود السجستاني عن أبي عوانة أنه قال : كان إبراهيم وأخوه محمد خارجين . قال داود : ليس كما قال ، هذا رأى الزيدية . قلت : وقد حكى عن جماعة من العلماء والأئمة أنهم مالوا إلى ظهورهما .

وفيها توفي من المشاهير والأعيان

الأجلح بن عبد الله ، وإسماعيل بن أبي خالد في قول ، وحبيب بن الشهيد ، وعبد الملك بن أبي سليمان ، وعمرو مولى عفرة ، ويحيى بن الحارث الذماري ، ويحيى بن سعيد أبو حيان التيمي ، ورؤبة بن العجاج والعجاج لقب واسمه أبو الشعثاء عبد الله بن رؤبة ، وأبو محمد التميمي البصري ، الراجز بن الراجز ، ولكل منهما ديوان رجز ، وكل منهما بارع في فنه لا يجاري ولا يماري ، عالم باللغة . وعبد الله بن المقفع الكاتب المفوه ، أسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور ، وكتب له ، وله رسائل وألفاظ صحيحة ، وكان متهماً بالزندقة ، وهو الذي صنف كتاب كليلة ودمنة ، ويقال : بل هو الذي عربها من المجوسية[2] إلى العربية . قال المهدي : ما وجد كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع ، ومطيع بن إياس ، ويحيى بن زياد . قالوا ونسى

---

(١) الهُويّ : الانخفاض والسقوط .

(٢) المجوسية : الفارسية .

الجاحظ وهو رابعهم . وكان مع هذا فاضلاً بارعاً فصيحاً . قال الأصمعي : قيل لابن المقفع من أدبك ؟ قال : نفسي ، إذا رأيت من غيري قبيحاً أبيته ، وإذا رأيت حسناً أتيته . ومن كلامه : شربت من الخطب رياً[١] ، ولم أظبط لها رويا ، فغاضت[٢] ثم فاضت ، فلا هي نظاماً ، ولا نسيت غيرها كلاماً .

وكان قتل ابن بالمقفع على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة نائب البصرة ، وذلك أنه كان يعبث به ويسب أمه ، وإنما كان يسميه ابن المعلم ، وكان كبير الانف ، وكان إذا دخل عليه يقول : السلام عليكما ـ على سبيل التهكم ـ وقال لسفيان بن معاوية مرة : ما ندمت على سكوت قط . فقال : صدقت ، الخرس لك خير من كلامك . ثم اتفق أن المنصور غضب على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفيان بن معاوية هذا أن يقتله ، فأخذه فأحمى له تنوراً وجعل يقطعه إرباً إرباً ويلقيه في ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق ، وقيل غير ذلك في صفة قتله . قال ابن خلكان : ومنهم من يقول إن ابن المقفع نسب إلى بيع القفاع وهي من الجريد كالزنبيل[٣] بلا آذان ، والصحيح أنه ابن المقفع وهو أبو دارويه كان الحجاج قد استعمله على الخراج فخان فعاقبه حتى تقفعت[٤] يداه والله أعلم .

وفيها خرج الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة . وحج بالناس في هذه السنة نائب المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي . وعلى الكوفة عيسى بن موسى ، وعلى البصرة مسلم بن قتيبة ، وعلى مصر يزيد بن حاتم .

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة

فيها تكامل بناء مدينة السلام بغداد ، وسكنها المنصور في صفر من هذه السنة ، وكان مقيماً قبل ذلك بالهاشمية المتاخمة للكوفة ، وكان قد شرع في بنائها في السنة الخارجة ، وقيل في سنة أربع وأربعين ومائة فالله أعلم .

وقد كان السبب الباعث له على بنائها أن الراوندية لما وثبوا عليه بالكوفة ووقاه الله شرهم ، بقيت منهم بقية فخشي على جنده منهم ، فخرج من الكوفة يرتاد لهم موضعاً لبناء مدينة ، فسار في الأرض حتى بلغ الجزيرة فلم ير موضعاً أحسن لوضع المدينة من موضع بغداد الذي هي فيه الآن ، وذلك بأنه موضع يغدا إليه ويراح بخيرات ما حوله في البر والبحر ، وهو محصن بدجلة والفرات من ههنا وههنا ، لا يقدر أحد أن يتوصل إلى موضع الخليفة إلا على جسر ، وقد بات به المنصور قبل بنائه ليالي فرأى الرياح تهب به ليلاً ونهاراً من غير انجعار[٥] ولا غبار ، ورأى طيب تلك البقعة وطيب

---

(١) ريا : الريح الطيبة .
(٢) فغاضت : جفّت .
(٣) كالزنبيل : وعاء من الجلد .
(٤) تقفعت : ورمت وتشنجت .
(٥) انجعار : تغوُّط .

هوائها ، وقد كان في موضعها قرى وديور لعباد النصارى وغيرهم ـ ذكر ذلك مفصلاً بأسمائه وتعداده أبو جعفر بن جرير ـ فحينئذ أمر المنصور باختطاطها فرسموها له بالرماد فمشى في طرقها ومسالكها فأعجبه ذلك ، ثم سلم كل ربع منها لأمير يقوم على بنائه ، وأحضر من كل البلاد فعالاً وصناعاً ومهندسين ، فاجتمع عنده ألوف منهم ، ثم كان هو أول من وضع لبنة[1] فيها بيده وقال : بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله . وأمر ببنائها مدورة سمك سورها من أسفله خمسون ذراعاً ، ومن أعلاه عشرون ذراعاً ، وجعل لها ثمانية أبواب في السور البراني ، ومثلها في الجواني ، وليس كل واحد تجاه الآخر ، ولكن جعله أزور[2] عن الذي يليه ، ولهذا سميت بغداد الزوراء ، لازورار أبوابها بعضها عن بعض ، وقيل سميت بذلك لانحراف دجلة عندها . وبنى قصر الإمارة في وسط البلد ليكون الناس منه على حد سواء ، واختط المسجد الجامع إلى جانب القصر ، وكان الذي وضع قبلته الحجاج بن أرطاة . وقال ابن جرير : ويقال إن في قبلته انحرافاً يحتاج المصلي فيه أن ينحرف إلى ناحية باب البصرة ، وذكر أن مسجد الرصافة أقرب إلى الصواب منه لأنه بني قبل القصر ، وجامع المدينة بني على القصر ، فاختلت قبلته بسبب ذلك . وذكر ابن جرير عن سليمان بن مجالد أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء بها فأبى وامتنع فحلف المنصور أن يتولى له ، وحلف أبو حنيفة أن لا يتولى له ، فولاه القيام بأمر المدينة وضرب اللبن ، وأخذ الرجال بالعمل ، فتولى ذلك حتى فرغوا من استتمام حائط المدينة مما يلي الخندق ، وكان استتمامه في سنة أربع وأربعين ومائة . قال ابن جرير : وذكر عن الهيثم بن عدي أن المنصور عرض على أبي حنيفة القضاء والمظالم فامتنع ، فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل له ، فأخبر بذلك أبو حنيفة فدعا بقصبة فعد اللبن ليبر بذلك يمين أبي جعفر ، ومات أبو حنيفة ببغداد بعد ذلك . وذكر أن خالد بن برمك هو الذي أشار على المنصور ببنائها ، وأنه كان مستحثاً فيها للصناع ، وقد شاور المنصور الأمراء في نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد لأجل قصر الإمارة بها ، فقالوا : لا تفعل فإنه آية في العالم ، وفيه مصلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . فخالفهم ونقل منه شيئاً كثيراً فلم يف ما تحصل منه بأجرة ما يصرف في حمله فتركه ، ونقل أبواب قصر واسط إلى أبواب قصر الإمارة ببغداد . وقد كان الحجاج نقل حجارته من مدينة هناك كانت من بناء سليمان بن داود ، وكانت الجن قد عملت تلك الأبواب ، وهي حجارة هائلة . وقد كانت الأسواق وضجيجها تسمع من قصر الإمارة ، فكانت أصوات الباعة وهوسات[3] الأسواق تسمع منه ، فعاب ذلك بعض بطارقة النصارى ممن قدم في بعض الرسائل من الروم ، فأمر المنصور بنقل الأسواق من هناك إلى موضع آخر ، وأمر بتوسعة الطرقات أربعين ذراعاً

---

(١) لبنة : حجر طيني للبناء .

(٢) أزور : يميل ويستنكف .

(٣) وهوسات : اضطراب وفساد .

في أربعين ذراعاً ، ومن بنى في شيء من ذلك هدم .

قال ابن جرير : وذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال : وجدت في خزائن المنصور في الكتب أنه أنفق على بناء مدينة السلام ومسجدها الجامع وقصر الذهب بها والأسواق وغير ذلك ، أربعة آلاف ألف وثمانمائة ألف وثلاثة وثمانين ألف درهم ، وكان أجرة الأستاذ من البنائين كل يوم قيراط فضة ، وأجرة الصانع من الحبتين إلى الثلاثة . قال الخطيب البغدادي : وقد رأيت ذلك في بعض الكتب ، وحكى عن بعضهم أنه قال : أنفق عليه ثمانية عشر ألف ألف فالله أعلم .

وذكر ابن جرير أن المنصور ناقص أحد المهندسين الذي بنى له بيتاً حسناً في قصر الإمارة فنقصه درهماً عما ساومه ، وأنه حاسب بعض المستحثين على الذي كان عنده ففضل عنده خمسة عشر درهماً فحبسه حتى جاء بها وأحضرها وكان شحيحاً . قال الخطيب : وبناها مدورة ، ولا يعرف في أقطار الأرض مدينة مدورة سواها ، ووضع أساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم . ثم ذكر عن بعض المنجمين قال قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد : خذ الطالع لها ، فنظرت في طالعها ـ وكان المشتري في القوس ـ فأخبرته بما تدل عليه النجوم ، من طول زمانها ، وكثرة عمارتها ، وانصباب الدنيا إليها وفقر الناس الى ما فيها . قال : ثم قلت له : وأبشرك يا أمير المؤمنين أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبداً . قال : فرأيته يبتسم ثم قال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً منه :

قضى ربُّها أن لا يموتَ خليفةٌ بها إنَّه ما شاء في خلقه يقضي

وقد قرره على هذا الخطأ الخطيب وسلم ذلك ولم ينقضه بشيء بل قرره مع اطلاعه ومعرفته ، قال : وزعم بعض الناس ان الأمين قتل بدرب الأنبار منها فذكرت ذلك للقاضي أبي القاسم علي بن حسن التنوخي فقال : محمد الأمين لم يقتل بالمدينة ، وإنما كان قد نزل في سفينة الى دجلة ليتنزه فقبض عليه في وسط دجلة وقتل هناك . ذكر ذلك الصولي وغيره .

وذكر عن بعض مشايخ بغداد أنه قال : اتساع بغداد مائة وثلاثون جريباً ، وذلك بقدر ميلين في ميلين ، قال الإمام أحمد : بغداد من الصراة إلى باب التبن . وذكر الخطيب أن بين كل بابين من أبوابها الثمانية ميلاً ، وقيل أقل من ذلك . وذكر الخطيب صفة قصر الإمارة وأن فيه القبة الخضراء طولها ثمانون ذراعاً ، على رأسها تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يدور به فأي جهة استقبلها واستمر مستقبلها ، علم السلطان أن في تلك الجهة قد وقع حدث فلم يلبث أن يأتي الخليفة خبره ، [وهذه القبة وهي على مجلس في صدر إيوان المحكمة وطوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً . وقد سقطت هذه القبة في ليلة برد ومطر ورعد وبرق ، ليلة الثلاثاء لسبع خلون من شهر جمادى

الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة][1] .

وذكر الخطيب البغدادي أنه كان يباع في بغداد في أيام المنصور الكبش الغنم بدرهم والحمل بأربعة دوانق[2] ، وينادي على لحم الغنم كل ستين رطلاً بدرهم ، ولحم البقر كل تسعين رطلاً بدرهم ، والتمر كل ستين رطلاً بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم . ولهذا الأمن والرخص كثر ساكنوها وعظم أهلوها وكثر الدارج في أسواقها وأزقتها ، حتى كان المار لا يستطيع أن يجتاز في أسواقها لكثرة زحام أهلها . قال بعض الأمراء وقد رجع من السوق : طال والله ما طردت خلف الأرانب في هذا المكان .

وذكر الخطيب أن المنصور جلس يوماً في قصره فسمع ضجة عظيمة ثم أخرى ثم أخرى فقال للربيع الحاجب : ما هذا ؟ فكشف فإذا بقرة قد نفرت من جازرها[3] هاربة في الأسواق ، فقال الرومي : يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك ، وفيه ثلاثة عيوب ، بعده من الماء ، وقرب الأسواق منه ، وليس عنده خضرة ، والعين خضرة تحب الخضرة . فلم يرفع بها المنصور رأساً ثم أمر بتغيير ذلك ، ثم بعد ذلك ساق إليها الماء وبنى عندها البساتين ، وحول الأسواق من ثم إلى الكرخ .

قال يعقوب بن سفيان : كمل بناء بغداد في سنة ست وأربعين ومائة ، وفي سنة سبع وخمسين حول الأسواق الى باب الكرخ وباب الشعير وباب المحول وأمر بتوسعة الأسواق أربعين ألفا ، وبعد شهرين من ذلك شرع في بناء قصره المسمى بالخلد ، فكمل سنة ثمان وخمسين ومائة . وجعل أمر ذلك إلى رجل يقال له الوضاح ، وبنى للعامة جامعاً للصلاة والجمعة لئلا يدخلوا إلى جامع المنصور ، فأما دار الخلافة التي كانت ببغداد بعد ذلك فانها كانت للحسن بن سهل ، فانتقلت من بعده الى بوران زوجة المأمون ، فطلبها منها المعتضد ـ وقيل المعتمد ـ فأنعمت له بها ، ثم استنظرته أياماً حتى تنتقل منها فأنظرها ، فشرعت في تلك الأيام في ترميمها وتبييضها وتحسينها ، ثم فرشتها بأنواع الفرش والبسط ، وعلقت فيها أنواع الستور ، وأرصدت فيها ما ينبغي للخلافة من الجواري والخدم ، وألبستهم أنواع الملابس ، وجعلت في الخزائن ما ينبغي من أنواع الأطعمة والمأكل ، وجعلت في بعض بيوتها من أنواع الأموال والذخائر ، ثم أرسلت بمفاتيحها إليه ، ثم دخلها فوجد فيها ما أرصدته بها ، فهاله ذلك واستعظمه جداً ، وكان أول خليفة سكنها وبنى عليها سوراً . ذكره الخطيب .

وأما التاج فبناه المكتفي على دجلة وحوله القباب والمجالس والميدان والثريا وحير الوحوش ،

---

(١) زيادة من المصرية .

(٢) دوانق : مفردها دانق : سُدُس الدرهم (فارسية) .

(٣) جازرها : ذابحها .

وذكر الخطيب صفة دار الشجرة التي كانت في زمن المقتدر بالله ، وما فيها من الفرش والستور والخدم والمماليك والحشمة الباهرة ، والدنيا الظاهرة ، وأنها كان بها إحد عشر ألف طواشي ، وسبعمائة حاجب . وأما المماليك فألوف لا يحصون كثرة ، وسيأتي ذكر ذلك مفصلاً في أيامهم ودولتهم التي ذهبت كأنها أحلام نوم ، بعد سنة ثلثمائة . وذكر الخطيب دار الملك التي بالمخرم ، وذكر الجوامع التي تقام فيها الجمعات ، وذكر الأنهار والجسور التي بها ، وما كان في ذلك في زمن المنصور ، وما أحدث بعده إلى زمانه ، وأنشد لبعض الشعراء في جسور بغداد التي على دجلة :

يومَ سرقنا العيشَ فيه خلسةً ... في مجلسٍ بفناءِ دجلةَ مفردِ
رقَ الهواءُ برقةٍ وقدامةٍ ... فغدوتُ رقاً للزمانِ المسعدِ
فكأن دجلةَ طيلسانٌ[1] أبيضٌ ... والجسرُ فيها كالطرازِ الأسودِ

وقال آخر :

يا حبذا جسرٌ على متنِ دجلةٍ ... باتقانِ تأسيسٍ وحسنٍ ورونقِ
جمالٌ وحسنٌ للعراقِ ونزهةٌ ... وسلوةٌ من أضناهُ[2] فرطُ التشوقِ
تراهُ إذا ما جئتَهُ متأملاً ... كسطر عبيرٍ خط في وسطِ مهرقِ
أو العاجُ فيهِ الأبنوسُ مرقشٌ ... مثال فيولٍ تحتها أرضُ زئبقِ

وذكر الصولي قال : ذكر أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد أن ذرع بغداد من الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب ، وأن الجانب الشرقي ستة وعشرون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً وأن عدة حماماتها ستون ألف حمام ، وأقل ما في كل حمام منها خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء ، وأن بازاء كل حمام خمسة مساجد ، فذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر - يعني إماماً وقيِّماً ومأذوناً ومأمومين - ثم تناقصت بعد ذلك ، ثم دثرت بعد ذلك حتى صارت كأنها خربة صورة ومعنى . على ما سيأتي بيانه في موضعه .

وقال الحافظ أبو بكر البغدادي : لم يكن لبغداد نظير في الدنيا في جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتمييز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ، وكثرة دورها ودروبها ومنازلها وشوارعها ومساجدها وحماماتها وخاناتها ، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد ، ثم ذكرتنا قص أحوالها وهلم جرا إلى زمانه . قلت : وكذا من بعده الى زماننا هذا ، ولا سيما في أيام هولاكو بن تولى بن جنكز بن خان التركي الذي وضع معالمها وقتل خليفتها وعالمها

(١) طيلسان : كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء وهو من لباس العجم .
(٢) أضناه : أتعبه وأشقاه .

وخرب دورها وهدم قصورها وأباد الخواص والعوام من أهلها في ذلك العام ، وأخذ الأموال والحواصل ، ونهب الذراري والأصائل ، وأورث بها حزناً يعدد به في المبكرات والأصائل ، وصيرها مثلة في الأقاليم ، وعبرة لكل معتبر عليم ، وتذكرة لكل ذي عقل مستقيم ، وبدلت بعد تلاوة القرآن بالنغمات والألحان ، وإنشاد الأشعار ، وكان ، وكان . وبعد سماع الأحاديث النبوية بدرس الفلسفة اليونانية ، والمناهج الكلامية والتأويلات القرمطية ، وبعد العلماء بالأطباء ، وبعد الخليفة العباسي بشر الولاة من الأناسي ، وبعد الرياسة والنباهة بالخساسة والسفاهة ، وبعد الطلبة المشتغلين بالظلمة والعيارين ، وبعد العلم بالفقه والحديث وتعبير الرؤ يا ، بالموشح ودو بيت[1] ومواليا[2] . وما أصابهم ذلك إلا ببعض ذنوبهم ﴿ وما ربُّكَ بظَّلامٍ للعبيد ﴾[3] والتحول منها في هذه الأزمان لكثرة ما فيها من المنكرات الحسية والمعنوية ، وأكل الحشيشة ، والانتقال عنها إلى بلاد الشام الذي تكفل الله بأهلها أفضل وأكمل وأجمل . وقد روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام ، وشرار أهل الشام إلى العراق » .

ما ورد في مدينة بغداد من الآثار وما فيها من الأخبار

فيها أربع لغات بغداد وبغداذ باهمال الدال الثانية وإعجامها ، وبغدان بالنون آخره وبالميم مع ذلك أولاً مغدان ، وهي كلمة أعجمية قيل إنها مركبة من بغ وداد فقيل بغ بستان وداد اسم رجل ، وقيل بغ اسم صنم وقيل شيطان وداد عطية أي عطية الصنم ، ولهذا كره عبد الله بن المبارك والأصمعي وغيرهما تسميتها بغداد وإنما يقال لها مدينة السلام ، وكذا أسماها بانيها أبو جعفر المنصور ، لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام ، ومنهم من يسميها الزوراء .

فروى الخطيب البغدادي من طريق عمار بن سيف ـ وهو متهم ـ قال : سمعت عاصم الأحول يحدث عن سفيان الثوري عن ابي عثمان عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تجبى إليها خزائن الأرض ، وملوكها جبابرة ، فهي أسرع ذهاباً في الأرض من الوتد الحديد في الأرض الرخوة » . قال الخطيب : وقد رواه عن عاصم الأحول سيف ابن أخت سفيان الثوري ، وهو أخو عمار بن سيف . قلت : وكلاهما ضعيف متهم يرمى بالكذب ، ومحمد بن جابر اليماني ضعيف ، وأبو شهاب الحناطي ضعيف . وروي عن سفيان الثوري عن عاصم من طرق ثم أسند ذلك كله . وأورد من طريق يحيى بن معين عن يحيى بن أبي كثير عن عمار بن سيف عن الثوري عن عاصم عن أبي عثمان عن جرير عن النبي ﷺ . وقال أحمد ويحيى : ليس لهذا الحديث أصل . وقال أحمد : ما حدّث به إنسان ثقة ، وقد علله الخطيب من

(١) دوبيت : نوع من الشعر لكلٍّ بيتين قافية .
(٢) مواليا : نوع من الشعر شبيه بالزجل .
(٣) سورة فصِّلت ، الآية/ ٤٦ .

جميع طرقه وساقه أيضاً من طريق عمار بن سيف عن الثوري عن أبي عبيدة حميد الطويل،عن أنس بن مالك ، ولا يصح أيضاً . ومن طريق عمر بن يحيى عن سفيان عن قيس بن مسلم عن ربعي عن حذيفة مرفوعاً بنحوه ، ولا يصح . ومن غير وجه عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وثوبان وابن عباس ، وفي بعضها ذكر السفياني «وانه يخر بها » ولا يصح إسناد شيء من هذه الأحاديث . وقد أوردها الخطيب بأسانيدها وألفاظها ، وفي كل منها نكارة ، وأقرب ما فيها عن كعب الأحبار وقد جاء في آثار عن كتب متقدمة أن بانيها يقال له مقلاص وذو الدوانيق لبخله .

فصــــــل

محاسن بغداد ومساويها وما روي في ذلك عن الأئمة

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي : قال لي الشافعي : هل رأيت بغداد ؟ قلت لا ! فقال : ما رأيت الدنيا . وقال الشافعي : ما دخلت بلداً قط إلا عددته سفراً ، إلا بغداد فاني حين دخلتها عددتها وطناً . وقال بعضهم : الدنيا بادية وبغداد حاضرتها . وقال ابن علية : ما رأيت أعقل في طلب الحديث من أهل بغداد ، ولا أحسن دعة منهم . وقال ابن مجاهد : رأيت أبا عمرو بن العلاء في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال لي : دعني من هذا ، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات نقل من جنة إلى جنة . وقال أبو بكر بن عياش : الإسلام ببغداد ، وإنها لصيادة تصيد الرجال ، ومن لم يرها لم ير الدنيا . وقال أبو معاوية : بغداد دار دنيا وآخرة . وقال بعضهم : من محاسن الاسلام يوم الجمعة ببغداد ، وصلاة التراويح بمكة ، ويوم العيد بطرسوس . قال الخطيب : من شهد يوم الجمعة بمدينة السلام عظم الله في قلبه محل الاسلام ، لأن مشايخنا كانوا يقولون يوم الجمعة ببغداد كيوم العيد في غيرها من البلاد . وقال بعضهم : كنت أواظب على الجمعة بجامع المنصور فعرض لي شغل فصليت في غيره فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول : تركت الصلاة في جامع المدينة وإنه ليصلي فيه كل جمعة سبعون ولياً . وقال آخر : أردت الانتقال من بغداد فرأيت كأن قائلاً يقول في المنام : أتنتقل من بلد فيه عشرة آلاف ولي لله عز وجل ؟ وقال بعضهم : رأيت كأن ملكين أتيا بغداد فقال أحدهما لصاحبه : اقلبها . فقد حق القول عليها : فقال الآخر كيف أقلب ببلد يختم فيها القرآن كل ليلة خمسة آلاف ختمة ؟ وقال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز بن سليمان بن موسى قال : إذا كان علم الرجل حجازياً وخلقه عراقياً وصلاته شامية فقد كمل . وقالت زبيدة لمنصور النمري قل شعراً تحبب فيه بغداد إلي . فقد اختار عليها الرافقة فقال :

ماذا ببغداد من طيبِ الأفانينِ [1] ومن منازةَ للدنيا وللدينِ

---

(١) الأفانين : الأغصان .

تحيى الـرياحُ بهـا المرضى إذا نسمتْ وجـوشت[1] بينَ أغصـانِ الـريـاحـينِ

قال : فأعطته ألفي دينار . وقال الخطيب : وقرأت في كتاب طاهر بن مظفر بن طاهر الخازن بخطه من شعره :

سقى الله صـوبَ الغـاديـاتِ محلةً ببغـدادَ بينَ الكـرخِ فـالخلدِ فـالجسـرِ
هي البلدةُ الحسنـاءُ خصتْ لأهـلهـا بـأشيـاء لم يجمعنَ مـذكن في مصـرِ
هـواءٌ رقيقٌ فـي اعتـدالٍ وصحـةٍ ومـاءٌ لـهُ طـعمٌ ألـذُ مـن الـخـمـرِ
ودجلتهـا شـطانِ قـد نـظمـا لنـا بتـاجٍ الى تـاجٍ وقصـرٍ إلى قـصـرِ
تـراهـا كمسـكٍ والميـاهُ كـفضـةٍ وحصبـاؤهـا[2] مثـلُ اليـواقيتِ والـدرِ

وقد أورد الخطيب في هذا أشعاراً كثيرة وفيما ذكرنا كفاية ، وقد كان الفراغ من بناء بغداد في هذه السنة ـ أعني سنة ست وأربعين ومائة ـ وقيل في سنة ثمان وأربعين ، وقيل إن خندقها وسورها كملا في سنة سبع وأربعين ، ولم يزل المنصور يزيد فيها ويتأنق في بنائها حتى كان آخر ما بنى فيها قصر الخلد ، فظن أنه يخلد فيها ، أو أنها تخلد فلا تخرب ، فعند كماله مات ، وقد خربت بغداد مرات كما سيأتي بيانه .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة عزل المنصور سلم بن قتيبة عن البصرة وولي عليها محمد بن سليمان بن علي ، وذلك لأنه كتب إلى سلم يأمره بهدم بيوت الذين بايعوا إبراهيم بن عبد الله بن حسن فتوانى في ذلك فعزله ، وبعث ابن عمه محمد بن سليمان فعاث بهـا فساداً ، وهـدم دوراً كثيرة . وعزل عبد الله بن الربيع عن إمرة المدينة وولِّيَ غليها جعفر بن سليمان ، وعزل عن مكة السـري بن عبد الله وولى عليهـا عبد الصمـد بن علي . قـال : وحـج بـالنـاس في هـذه السنـة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي قاله الواقدي وغيره . قال : وفيها غزا الصائفة من بلاد الروم جعفر بن حنظلة البهراني . وفيها توفي من الأعيان أشعث بن عبد الملك ، وهشام بن السائب الكلبي ، وهشام بن عروة . ويزيد بن أبي عبيد في قول .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

فيها أغار اشترخان الخوارزمي في جيش من الأتراك على ناحية أرمينية فدخلوا تفليس وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة ، وممن قتل يومئذ حرب بن عبد الله الراوندي الذي تنسب إليه الحربية ببغداد ، وكان مقيماً بالموصل في ألفين لمقابلة الخوارج ، فأرسله المنصور لمساعدة المسلمين ببلاد أرمينية ، وكان في جيش جبريل بن يحيى ، فهزم جبريل وقتل حرب رحمه

---

(١) جوشت : دخلت .
(٢) وحصباؤها : حجارتها .

الله . وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن علي عم المنصور .

وهو الذي أخذ الشام من أيدي بني أمية ، كان عليها والياً حتى مات السفاح ، فلما مات دعا الى نفسه فبعث إليه المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه أبو مسلم وهرب عبد الله إلى عند أخيه سليمان بن علي والي البصرة فاختفى عنده مدة ثم ظهر المنصور على أمره فاستدعى به وسجنه ، فلما كان في هذه السنة عزم المنصور على الحج فطلب عمه عيسى بن موسى ـ وكان ولي العهد من بعد المنصور عن وصية السفاح ـ وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وقال له : إن هذا عدوي وعدوك ، فاقتله في غيبتي عنك ولا تتوانى . وسار المنصور إلى الحج وجعل يكتب إليه من الطريق يستحثه في ذلك ويقول له : ماذا صنعت فيما أودعت إليك فيه ؟ مرة بعد مرة . وأما عيسى بن موسى فانه لما تسلم عمه حار في أمره وشاور بعض أهله فأشار بعضهم ممن له رأي أن المصلحة تقتضي أن لا تقتله وابقه عندك وأظهر قتله فانا نخشى أن يطالبك به جهرة فتقول : قتلته ، فيأمر بالقود فتدعي أنه أمرك بقتله بالسر بينك وبينه فتعجز عن إثبات ذلك فيقتلك به ، وإنما يريد المنصور قتله وقتلك ليستريح منكما معاً . فتغير عيسى بن موسى عند ذلك وأخفى عمه وأظهر أنه قتله . فلما رجع المنصور من الحج أمر أهله أن يدخلوا عليه ويشفعوا في عمه عبد الله بن علي ، وألحوا في ذلك فأجابهم الى ذلك ، واستدعى عيسى بن موسى وقال له : إن هؤلاء شفعوا في عبد الله بن علي وقد أجبتهم إلى ذلك فسلمه إليهم . فقال عيسى : وأين عبد الله ؟ ذاك قتلته منذ أمرتني . فقال المنصور : لم آمرك بذلك ، وجحد[1] ذلك وأن يكون تقدم إليه منه أمره في ذلك ، فأحضر عيسى الكتب التي كتبها إليه المنصور مرة بعد مرة في ذلك فأنكر أن يكون أراد ذلك ، وصمم على الانكار ، وصمم عيسى بن موسى أنه قد قتله ، فأمر المنصور عند ذلك بقتل عيسى بن موسى قصاصاً بعبد الله ، فخرج به بنو هاشم ليقتلوه ، فلما جاؤ وا بالسيف قال : ردوني إلى الخليفة ، فردوه إليه فقال له : إن عمك حاضر ولم أقتله ، فقال : هلم به . فأحضره فسقط في يد الخليفة وأمر بسجنه بدار جدرانها مبنية على ملح ، فلما كان من الليل أرسل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فهلك . ثم إن المنصور خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدي ، وكان يجلسه فوق عيسى بن موسى عن يمينه ، ثم كان لا يلتفت إلى عيسى بن موسى ويهينه في الأذن والمشورة والدخول عليه والخروج من عنده ، ثم ما زال يقصيه[2] ويبعده ويتهدده ويتوعده حتى خلع نفسه بنفسه ، وبايع لمحمد بن منصور وأعطاه المنصور على ذلك نحواً من اثني عشر ألف ألف درهم ، وانصلح أمر عيسى بن موسى وبنيه عند المنصور ، وأقبل عليه بعد ما كان قد أعرض عنه ، وكان قد جرت بينهما قبل ذلك مكاتبات في ذلك كثيرة جداً ، ومراودات في تمهيد البيعة لابنه المهدي وخلع عيسى نفسه ، وأن العامة لا يعدلون بالمهدي أحداً . وكذلك الأمراء والخواص . ولم يزل به حتى أجاب إلى ذلك

---

(١) وجحد : كفر وأنكر .

(٢) يقصيه : يبعده .

مكرهاً ، فعوضه عن ذلك ما ذكرنا ، وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً ، وفرح المنصور بذلك فرحاً شديداً ، واستقرت الخلافة في ذريته إلى زماننا هذا ، فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالته ﴿ ذلك تقديرُ العزيزِ العليم ﴾[1] .

وفيها توفي عبيد الله بن عمر العمري ، وهاشم بن هاشم ، وهشام بن حسان صاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

فيها بعث المنصور حميد بن قحطبة لغزو الترك الذين عاثوا[2] في السنة الماضية ببلاد تفليس ، فلم يجد منهم أحداً فإنهم انشمروا[3] إلى بلادهم . وحج بالناس فيها جعفر بن أبي جعفر ، وثواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي جعفر بن محمد الصادق المنسوب إليه كتاب اختلاج الأعضاء وهو مكذوب عليه . وفيها توفي سليمان بن مهران الأعمش أحد مشايخ الحديث في ربيع الأول منها وعمرو بن الحارث ، والعوام بن حوشب ، والزبيدي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى . ومحمد بن عجلان .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

فيها فرغ من بناء سور بغداد وخندقها . وفيها غزا الصائفة العباس بن محمد فدخل بلاد الروم ومعه الحسين بن قحطبة ومحمد بن الأشعث . ومات محمد بن الأشعث في الطريق . وفيها حج بالناس محمد بن إبراهيم بن علي وولاه المنصور على مكة والحجاز عوضاً عن عمه عبد الصمد بن علي . وعمال الأمصار فيها هم الذين كانوا في السنة قبلها . وفيها توفي زكريا بن أبي زائدة ، وكهمس بن الحسن ، والمثنى بن الصباح . وعيسى بن عمر أبوعمرو الثقفي البصري النحوي شيخ سيبويه . يقال إنه من موالي خالد بن الوليد ، وإنما نزل في ثقيف فنسب إليهم . كان إماماً كبيراً جليلاً في اللغة والنحو والقرآات ، أخذ ذلك عن عبيد الله بن كثير وابن المحيصن وعبد الله بن أبي إسحاق ، وسمع الحسن البصري وغيرهم . وعنه الخليل بن أحمد والأصمعي وسيبويه . ولزمه وعرف به وانتفع به ، وأخذ كتابه الذي سماه بالجامع فزاد عليه وبسطه ، فهو كتاب سيبويه اليوم ، وإنما هو كتاب شيخه ، وكان سيبويه يسأل شيخه الخليل بن أحمد عما أشكل عليه فيه ، فسأله الخليل أيضاً عما صنف عيسى بن عمر فقال : جمع بضعةً وسبعين كتاباً ذهبت كلها إلا كتاب

---

(١) سورة الأنعام ، الآية/ ٩٦ .

(٢) عاثوا : أفسدوا وخرَّبوا .

(٣) انشمروا : تراجعوا وانكفأوا .

الاكمال ، وهو بأرض فارس . وهو الذي أشتغل فيه وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ثم أنشد :

ذهبَ النحوُ جميعاً كلُهُ غيرَ ما أحدثَ عيسى بن عمر
ذاكَ إكمالٌ وهذا جامعٌ وهما للناسِ شمسٌ وقمرٌ

وقد كان عيسى يغرب ويتقعّر في عبارته جداً . وقد حكى الجوهري عنه في الصحاح أنه سقط يوماً عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال : مالكم تكاكأتم عليَّ تكأكؤكم[1] على ذي مِرَّة ؟ افرنقعوا[2] عني . معناه : مالكم تجمعتم علي تجمعكم على مجنون ؟ انكشفوا عني . وقال غيره : كان به ضيق النفس فسقط بسببه فاعتقد الناس أنه مصروع . فجعلوا يعودونه ويقرأون عليه ، فلما أفاق من غشيته قال ، ما قال . فقال بعضهم : إني حسبته ـ يتكلم بالفارسية ـ وذكر ابن خلكان أنه كان صاحباًلأبي عمرو بن العلاء ، وأن عيسى بن عمر قال يوماً لأبي عمرو بن العلاء : أنا أفصح من معدّ بن عدنان . فقال له أبو عمرو كيف تقرأ هذا البيت .

قد كنّ يخبأنْ الوجوهَ تستراً فاليومَ حينَ بدأن للنظارِ

أو بدين ؟ فقال بدين . فقال أبو عمرو : أخطأت ، ولو قال : بدأن لأخطأ أيضاً . وإنما أراد أبو عمرو تغليطه ، وإنما الصواب بدون من بدايبد وإذا ظهر ، وبدأ يبدأ إذا شرع في الشيء .

ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة

فيها خرج رجل من الكفرة يقال له أستاذ سيس في بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها ، والتف معه نحو من ثلاثمائة ألف ، وقتلوا من المسلمين هنالك خلقاً كثيراً ، وهزموا الجيوش التي في تلك البلاد ، وسبوا خلقاً كثيراً ، وتحكم الفساد بسببهم ، وتفاقم أمرهم ، فوجه المنصور خازم بن خزيمة إلى ابنه المهدي ليوليه حزب تلك البلاد ، ويضم إليه من الأجناد ما يقاوم أولئك . فنهض المهدي في ذلك نهضة هاشمية ، وجمع لخازم بن خزيمة الامرة على تلك البلاد والجيوش ، وبعثه في نحو من أربعين ألفاً ، فسار إليهم وما زال يراوغهم ويماكرهم ويعمل الخديعة فيهم حتى فاجأهم بالحرب ،وواجههم بالطعن والضرب ، فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً ، وأسر منهم أربعة عشر ألفاً ، وهرب ملكهم استاذ سيس فتحرز في جبل ، فجاء خازم إلى تحت الجبل وقتل أولئك الأسرى كلهم ، ولم يزل يحاصره حتى نزل على حكم بعض الأمراء ، فحكم أن يقيد بالحديد وهو وأهل بيته ، وأن يعتق من معه من الأجناد ـ وكانوا ثلاثين ألفاً ـ ففعل خازم ذلك كله وأطلق لكل واحد ممن كان مع استاذسيس ثوبين ، وكتب بما وقع من الفتح إلى المهدي ، فكتب المهدي بذلك إلى أبيه

---

(١) تكاكؤكم : تجمُّعكم .
(٢) افرنقعوا : تفرّقوا .

المنصور . وفيها عزل الخليفة عن إمرة المدينة جعفر بن سليمان وولاها الحسن بن زيد بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب . وفيها حج بالناس عبد الصمد بن علي عم الخليفة . وتوفي فيها جعفر ابن أمير المؤمنين المنصور ودفن أولا بمقابر بني هاشم من بغداد ، ثم نقل منها الى موضع آخر . وفيها توفي عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أحد أئمة أهل الحجاز ، ويقال إنه أول من جمع السنن . وعثمان بن الأسود ، وعمر بن محمد بن زيد . وفيها توفي الإمام أبو حنيفة .

ذكر ترجمته

هو الإمام أبو حنيفة واسمه النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي ، فقيه العراق ، وأحد أئمة الإسلام ، والسادة الأعلام ، وأحد أركان العلماء ، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتنوعة ، وهو أقدمهم وفاة ، لأنه أدرك عصر الصحابة ، ورأى أنس بن مالك ، قيل وغيره . وذكر بعضهم أنه روي عن سبعة من الصحابة فالله أعلم .

وروي عن جماعة من التابعين منهم الحكم وحماد بن أبي سليمان ، وسلمة بن كهيل ، وعامر الشعبي ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والزهري ، ونافع مولى ابن عمر ، ويحيى بن سعيد الأنصاري وأبو إسحاق السبيعي . وروي عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان ، وإسحاق بن يوسف الأزرق ، وأسد بن عمرو القاضي ، والحسن بن زياد اللؤلؤي ، وحمزة الزيات ، وداود الطائي ، وزفر ، وعبد الرزاق ، وأبو نعيم ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وهشيم ، ووكيع ، وأبو يوسف القاضي . قال يحيى بن معين : كان ثقة ، وكان من أهل الصدق ولم يتهم بالكذب ، ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضياً . وقد كان يحيى بن سعيد يختار قوله في الفتوى ، وكان يحيى يقول : لا نكذب الله ! ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة ، وقد أخذنا بأكثر أقواله . وقال عبد الله بن المبارك : لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان الثوري لكنت كسائر الناس . وقال في الشافعي : رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته : وقال الشافعي : من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن إسحاق ، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك ، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان . وقال عبد الله بن داود الحريبي : ينبغي للناس آن يدعوا في صلاتهم لأبي حنيفة ، لحفظه الفقه والسنن عليهم . وقال سفيان الثوري وابن المبارك : كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه . وقال أبو نعيم : كان صاحب غوص في المسائل . وقال مكي بن إبراهيم : كان أعلم أهل الأرض . وروى الخطيب بسنده عن أسد بن عمرو أن أبا حنيفة كان يصلي بالليل ويقرأ القرآن في كل ليلة ، ويبكي حتى يرحمه جيرانه . ومكث أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعين ألف مرة ، وكانت وفاته في رجب من هذه السنة - أعني سنة خمسين ومائة - وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين . وقال غيره : سنة ثلاث وخمسين .

والصحيح الأول . وكان مولده في سنة ثمانين فتم له من العمر سبعون سنة ، وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام ، وقبره هناك رحمه الله .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عمر بن حفص عن السند وولى عليها هشام بن عمرو التغلبي ، وكان سبب عزله عنها أن محمد بن عبد الله بن حسن لما ظهر بعث ابنه عبد الله الملقب بالأشتر ومعه جماعة بهدية وخيول عتاق إلى عمر بن حفص هذا إلى السند فقبلها ، فدعوه إلى دعـوة أبيه محمـد بن عبد الله بن حسن في السر فأجابهم إلى ذلك ولبسوا البياض . ولما جاء خبر مقتل محمد بن عبد الله بالمدينة سقط في أيديهم وأخذوا في الاعتذار إلى عبد الله بن محمد ، فقال له عبد الله : إني أخشى على نفسي . فقال : إني سأبعثك إلى ملك من المشركين في جوار أرضنا ، وإنه من أشد الناس تعظيماً لرسول الله ﷺ ، وإنه متى عرفك أنك من سلالته أحبك . فأجابه إلى ذلك ، وسار عبد الله ابن محمد إلى ذلك الملك وكان عنده آمناً ، وصار عبد الله يركب في موكب من الزيدية ويتصيد في جحفل من الجنود ، وانضم إليه خلق وقدم عليه طوائف من الزيدية .

وأما المنصور فإنه بعث يعتب على عمر بن حفص نائب السند ، فقال رجل من الأمراء ابعثني إليه واجعل القضية مسندة إلي ، فإني سأعتذر إليه من ذلك ، فإن سلمت وإلا كنت فداءك وفداء من عندك من الأمراء . فأرسله سفيراً في القضية إلى المنصور ، فلما وقف بين يدي المنصور أمر بضرب عنقه ، وكتب إلى عمر بن حفص بعزله عن السند وولاه بلاد إفريقية عوضاً عن أميرها ، ولما وجه المنصور هشام بن عمرو إلى السند أمره أن يجتهد في تحصيل عبد الله بن محمد ، فجعل يتوانى في ذلك ، فبعث إليه المنصور يستحثه في ذلك ، ثم اتفق الحال أن سيفا أخا هشـام بن عمرو لقي عبد الله بن محمد في بعض الأماكن فاقتتلوا فقتل عبد الله وأصحابه جميعاً واشتبه عليهم مكانه في القتلى فلم يقدروا عليه . فكتب هشام بن عمرو إلى المنصور يعلمه بقتله ، فبعث يشكره على ذلك ويأمره بقتال الملك الذي آواه ، ويعلمه أن عبد الله كان قد تسرى بجارية هنالك وأولدها ولداً أسماه محمداً ، فإذا ظفرت بالملك فاحتفظ بالغلام فنهض هشام بن عمرو إلى ذلك الملك فقاتله فغلبه وقهره على بلاده وأمواله وحواصله ، وبعث بالفتح والأخماس وبذلك الغلام والملك إلى المنصور ، ففرح المنصور بذلك وبعث بذلك الغلام إلى المدينة ، وكتب المنصور إلى نائبها يعلمـه بصحة نسبه ، ويأمره أن يلحقه بأهله يكون عندهم لئلا يضيع نسبه ، فهو الذي يقال له أبـو الحسن بن الأشتر .

وفي هذه السنة قدم المهدي بن المنصور على أبيه من خراسان فتلقاه أبوه والأمراء والأكابر إلى أثناء الطريق ، وقدم بعد ذلك نواب البلاد والشام وغيرها للسلام عليه وتهنئته بالسلامة والنصر . وحمل إليه من الهدايا والتحف ما لا يحد ولا يوصف .

بناء الرصافة

قال ابن جرير : وفي هذه السنة شرع المنصور في بناء الرصافة لابنه المهدي بعد مقدمه من خراسان ، وهي في الجانب الشرقي من بغداد ، وجعل لها سوراً وخندقاً ، وعمل عندها ميداناً وبستاناً ، وأجرى إليها الماء من نهر المهدي . قال ابن جرير :

وفيها جدد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده ، ولعيسى بن موسى من بعدهما ، وجاء الأمراء والخواص فبايعوا وجعلوا يقبِّلون يد المنصور ويد ابنه ويلمسون يد عيسى بن موسى ولا يقبِّلونها . قال الواقدي : وولى المنصور معن بن زائدة سجستان .

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي ، وهو نائب مكة والطائف ، وعلى المدينة الحسن بن زيد ، وعلى الكوفة محمد بن سليمان ، وعلى البصرةجابر بن زيد الكلابي ، وعلى مصر يزيد بن حاتم . ونائب خراسان حميد بن قحطبة ، ونائب سجستان معن بن زائدة . وغزا الصائفة فيها عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد .

وفيها توفي حنظلة بن أبي سفيان، وعبد الله بن عون ، ومحمد بن إسحاق بن يسار ، صاحب السيرة النبوية التي جمعها وجعلها علما يهتدى به ، وفخراً يستجلى به ، والناس كلهم عيال عليه في ذلك ، كما قال الشافعي وغيره من الأئمة .

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عن إمرة مصر يزيد بن حاتم وولاها محمد بن سعيد ، وبعث إلى نائب إفريقية وكان قد بلغه أنه عصى وخالف ، فلما جيء به أمر بضرب عنقه . وعزل عن البصرة جابر بن زيد الكلابي وولاها يزيد بن منصور . وفيها قتلت الخوارج معن بن زائدة بسجستان . وفيها توفي عباد بن منصور ، ويونس بن يزيد الايلي .

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة

وفيها غضب المنصور على كاتبه أبي أيوب الموريانى وسجنه وسجن أخاه خالداً وبني أخيه الأربعة سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً ، وطالبهم بالأموال الكثيرة . وكان سب ذلك ما ذكره ابن عساكر في ترجمة أبي جعفر المنصور ، وهو أنه كان في زمن شبيبته قد ورد الموصل وهوفقير لا شيء له ولا معه شيء ، فأجر نفسه من بعض الملاحين حتى اكتسب شيئاً تزوج به امرأة ، ثم جعل يعدها ويمنيها أنه من بيت سيصير الملك إليهم سريعاً ، فاتفق حبلها منه ، ثم تطلبه بنو أمية فهرب عنها وتركها حاملاً ، ووضع عندها رقعة فيها نسبته ، وأنه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأمرها إذا بلغها أن تأتيه ، وإذا ولدت غلاماً أن تسميه جعفراً ، فولدت غلاماً فسمته

جعفراً . ونشأ الغلام فتعلم الكتابة وغوى العربية والأدب ، وأتقن ذلك إتقاناً جيداً ، ثم آل الأمر إلى بني العباس ، فسألت عن السفاح فإذا هو ليس صاحبها ، ثم قام المنصور وصار الولد إلى بغداد فاختلط بكتّاب الرسائل فأعجب به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الانشاء للمنصور ، وحظي عنده وقدمه على غيره ، فاتفق حضوره معه بين يدي الخليفة فجعل الخليفة يلاحظه ، ثم بعث يوماً الخادم ليأتيه بكاتب فدخل ومعه ذلك الغلام ، فكتب بين يدي المنصور كتاباً وجعل الخليفة ينظر إليه ويتأمله ، ثم سأله عن اسمه فأخبره أنه جعفر ، فقال : ابن من ؟ فسكت الغلام ، فقال : مالك لا تتكلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن من خبري كيت وكيت ، فتغير وجه الخليفة ثم سأله عن أمه فأخبره ، وسأله عن أحوال بلد الموصل فجعل يخبره والغلام يتعجب . ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه وقال : أنت ابني . ثم بعثه بعقد ثمين ومال جزيل وكتاب إلى أمه يعلمها بحقيقة الأمر وحال الولد . وخرج الغلام ومعه ذلك من باب سر الخليفة فأحرز ذلك ثم جاء إلى أبي أيوب فقال : ما بطأ بك عند الخليفة ؟ فقال : إنه استكتبني في رسائل كثيرة ، ثم تقاولا ، ثم فارقه الغلام مغضباً ونهض من فوره فاستأجر إلى الموصل ليعلم أمه ويحملها وأهلها إلى بغداد ، إلى أبيه الخليفة . فسار مراحل ، ثم سأل عنه أبو أيوب فقيل سافر فظن أبو أيوب أ نه قد أفشى شيئاً من أسراره إلى الخليفة وفر منه ، فبعث في طلبه رسولاً وقال : حيث وجدته فرده علي . فسار الرسول في طلبه فوجده في بعض المنازل فخنقه وألقاه في بئر وأخذ ما كان معه فرجع به إلى أبي أيوب . فلما وقف أبو أيوب على الكتاب أسقط في يده وندم على بعثه خلفه . وانتظر الخليفة عود ولده إليه واستبطأه وكشف عن خبره فإذا رسول أبي أيوب قد لحقه وقتله . فحينئذ استحضر أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة ، وما زال في العقوبة حتى أخذ جميع أمواله وحواصله ثم قتله ، وجعل يقول : هذا قتل حبيبي . وكان المنصور كلما ذكر ولده حزن عليه حزناً شديداً .

وفيها خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية. فاجتمع منهم ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً ، ما بين فارس وراجل ، وعليهم أبو حاتم الأنماطي ، وأبو عباد . وانضم إليهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفاً ، فقاتلوا نائب إفريقية فهزموا جيشه وقتلوه ، وهو عمر بن عثمان بن أبي صفرة الذي كان نائب السند كما تقدم ، قتله هؤلاء الخوارج رحمه الله . وأكثرت الخوارج الفساد في البلاد ، وقتلوا الحريم والأولاد . وفيها ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً ، حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب ، فقال أبو دلامة الشاعر في ذلك :

وكنا نرجي من إمامٍ زيادة	فزادَ الإمامَ المرتجى في القلانسِ
تراها على هامِ[1] الرجالِ كأنها	دنانٌ يهودٍ جللت بالبرانسِ[2]

---

(١) هام : مفردها هامة أي الرأس .

(٢) بالبرانس : مفردها البُرْنُس كلُّ ثوبٍ يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به .

وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري فأسر خلقاً كثيراً من الروم ينيف على ستة آلاف أسير ، وغنم أموالاً جزيلة . وحج بالناس المهدي بن المنصور [وهو ولي العهد الملقب بالمهدي وكان على نيابة مكة والطائف محمد بن إبراهيم ، وعلى المدينة الحسن بن زيد وعلى الكوفة محمد بن سليمان وعلى البصرة يزيد بن منصور ، وعلى مصر محمد بن سعيد . وذكر الواقدي أن يزيد بن منصور كان ولاه المنصور في هذه السنة اليمن . فالله أعلم] [1].

وفيها توفي أبان بن صمعة ، وأسامة بن زيد الليثي ، وثور بن يزيد الحمصي ، والحسن بن عمارة ، وقطر بن خليفة ، ومعمر وهشام بن الغازي والله أعلم .

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

فيها دخل المنصور بلاد الشام وزار بيت المقدس وجهز يزيد بن حاتم في خمسين ألفا وولاه بلاد إفريقية ، وأمره بقتال الخوارج ، وأنفق على هذا الجيش نحواً من ثلاث وستين ألف درهم ، وغزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالي . وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم . ونواب البلاد والأقاليم هم المذكورون في التي قبلها ، سوى البصرة فعليها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان . وفيها توفي أبو أيوب الكاتب وأخوه خالد ، وأمر المنصور ببني أخيه أن تقطع أيديهم وأرجلهم ثم تضرب بعد ذلك أعناقهم ففعل ذلك بهم . وفيها توفي :

أشعب الطامع

وهو أشعب بن جبير أبو العلاء ، ويقال أبو إسحاق المديني ، ويقال له أبو حميدة . وكان أبوه مولى لآل الزبير ، قتله المختار ، وهو خال الواقدي . روى عن عبد الله بن جعفر « أن رسول الله ﷺ كان يتختم في اليمين » . وأبان بن عثمان ، وسالم وعكرمة ، وكان ظريفاً ماجنا يحبه أهل زمانه لخلاعته وطمعه ، وكان حميد الغناء ، وقد وفد على الوليد بن يزيد دمشق فترجمه ابن عساكر ترجمة ذكر عنه فيها أشياء مضحكة ، وأسند عنه حديثين . وروى عنه أنه سئل يوماً أن يحدث فقال : حدثني عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « خصلتان من عمل بهما دخل الجنة » ثم سكت فقيل له : وما هما ؟ فقال : نسي عكرمة الواحدة ونسيت أنا الأخرى . وكان سالم بن عبد الله بن عمر يستخفه ويستحليه ويضحك منه ويأخذه معه إلى الغابة ، وكذلك كان غيره من أكابر الناس . وقال الشافعي : عبث الولدان يوماً بأشعب فقال لهم : إن ههنا أناساً يفرقون الجوز - ليطردهم عنه - فتسارع الصبيان إلى ذلك ، فلما رآهم مسرعين قال : لعله حق فتبعهم . وقال له رجل : ما بلغ من طمعك ؟ فقال : ما زفت عروس بالمدينة إلا رجوت أن تزف إلي فأكسح داري وأنظف بأبي وأكنس

---

(١) زيادة من المصرية .

بيتي . واجتاز يوماً برجل يصنع طبقاً من قش فقال له : زد فيه طوراً أو طورين لعله أن يهدى يوماً لنافيه هدية . وروى ابن عساكر أن أشعب غنى يوماً لسالم بن عبد الله بن عمر قول بعض الشعراء :

مضينَ بها والبدرُ يشبهُ وجهها ... مطهرةَ الأثوابِ والدينُ وافرُ
لها حسبٌ زاكٍ وعرضٌ مهذّبٌ ... وعن كلِ مكروهٍ من الأمر زاجرُ
من الخفراتِ البيضِ لم تلقَ ريبةً ... ولم يستملها عن تُقى اللّهِ شاعرُ

فقال له سالم : أحسنت فزدنا . فغناه :

ألَّمت بنا والليلُ داجٍ [1] كأنهُ ... جناحُ غرابٍ عنهُ قد نفضَ القطرا
فقلتُ أعطّار ثوى في رحالنا ... وما علمت ليلى سوى ريحها عطرا

فقال له : أحسنت ولولا أن يتحدث الناس لأجزلت لك الجائزة ، وإنك من الأمر لبمكان .

وفيها توفي جعفر بن برقان ، والحكم بن أبان ، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر ، وقرة بن خالد ، وأبو عمرو بن العلاء أحد أئمة القراء ، واسمه كنيته ، وقيل اسمه ريان والصحيح الأول .

وهو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري ، وقيل غير ذلك في نسبه ، كان علامة زمانه في الفقه والنحو وعلم القراآت ، وكان من كبار العلماء العاملين ، يقال إنه كتب ملء بيت من كلام العرب ، ثم تزهد فأحرق ذلك كله ، ثم راجع الأمر الأول فلم يكن عنده إلا ما كان يحفظه من كلام العرب ، وكان قد لقي خلقاً كثيراً من أعراب الجاهلية ، كان مقدماً أيام الحسن البصري ومن بعده . ومن اختياراته في العربية قوله في تفسيره الغرة في الجنين : إنها لا يقبل فيها إلا أبيض غلاماً كان أو جارية . فهم ذلك من قوله عليه السلام : « غرة عبد أو أمة » ولو أريد أي عبد كان أو جارية لما قيده بالغرة ، وإنما الغرة البياض . قال ابن خلكان : وهذا غريب ولا أعلم هل يوافقه قول أحد من الأئمة المجتهدين أم لا . وذكر عنه أنه كان إذا دخل شهر رمضان لا ينشد بيتاً من الشعر حتى ينسلخ ، وإنما كان يقرأ القرآن وأنه كان يشتري له كل يوم كوزاً جديداً وريحاناً طرياً ، وقد صحبه الأصمعي نحواً من عشر سنين .

كانت وفاته في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وخمسين ، وقيل تسع وخمسين فالله أعلم . وقد قارب التسعين ، وقيل إنه جاوزها فالله أعلم ، وقبره بالشام وقيل بالكوفة فالله أعلم .

وقد روى ابن عساكر في ترجمة صالح بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده عبد الله ابن عباس مرفوعاً « لأن يربي أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جرو كلب خير له من أن يربي ولداً لصلبه » . وهذا منكر جداً وفي إسناده نظر . ذكره من طريق تمام عن خيثمة بن سليمان عن محمد

---

(١) داجٍ : مظلم شديد السَّواد .

ابن عوف الحمصي عن أبي المغيرة عبد الله بن السمط عن صالح به ، وعبد الله بن السمط هذا لا أعرفه ، وقد ذكره شيخنا الحافظ الذهبي في كتابه الميزان وقال : روى عن صالح بن علي حديثاً موضوعاً .

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

فيها دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية فافتتحها عودا على بدء، وقتل من كان فيها ممن تغلب عليها من الخوارج ، وقتل أمراءهم وأسر كبراءهم وأذل أشرافهم واستبدل أهل تلك البلاد بالخوف أمنا وسلامة ، وبالاهانة كرامة، وكان من جملة من قتل من أمرائهم أبو حاتم وأبو عباد الخارجيان . ثم لما استقامت له وبه الأمور في البلدان دخل بعد ذلك بلاد القيروان فمهدها وأقر أهلها وقرر أمورها وأزال محذورها والله سبحانه أعلم .

بناء الرافقة وهي المدينة المشهورة

وفيها أمر المنصور ببناء الرافقة على منوال بناء بغداد في هذه السنة ، وأمر فيها ببناء سور وعمل خندق حول الكوفة ، وأخذ ما غرم على ذلك من أموال أهلها، من كل إنسان من أهل اليسار أربعين درهما . وقد فرضها أولا خمسة دراهم، خمسة دراهم ، ثم جباها أربعين أربعين ، فقال في ذلك بعضهم

يا لقومي ما رأينا ... في أمير المؤمنينا
قسم الخمسة فينا ... وجبانا أربعينا

وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي . وفيها طلب ملك الروم الصلح من المنصور على أن يحمل إليه الجزية . وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه أموالا كثيرة . وفيها عزل محمد بن سليمان بن علي عن إمرة الكوفة، فقيل لأمور بلغته عنه في تعاطي منكرات ، وأمور لا تليق بالعمال، وقيل لقتله محمد بن أبي العوجاء ـ وقد كان ابن أبي العوجاء هذا زنديقاً ـ يقال إنه لما أمر بضرب عنقه اعترف على نفسه بوضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم فيها الحلال، ويصوّم الناس يوم الفطر ويفطرهم في أيام الصيام، فأراد المنصور أن يجعل قتله له ذنباً فعزله ، به، وإنما أراد أن يقيده منه ، فقال له عيسى بن موسى : يا أمير المؤمنين لا تعزله بهذا ولا تقتله به ، فإنه إنما قتله على الزندقة، ومتى عزلته به شكره العامة وذموك، فتركه حينا ثم عزله وولى مكانه على الكوفة عمرو بن زهير. وفيها عزل عن المدينة الحسن بن زيد وولى عليها عمه عبد الصمد بن علي ، وجعل معه فليح بن سليمان مشرفا عليه . وعلى إمرة مكة محمد بن إبراهيم بن محمد، وعلى البصرة الهيثم بن معاوية، وعلى مصر محمد بن سعيد، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم . وفيها توفي صفوان بن عمرو وعثمان بن أبي العاتكة الدمشقيان ، وعثمان بن عطاء ، ومسعر بن كدام .

حماد الراوية

وهو ابن أبي ليلى ميسرة ـ ويقال سابور ـ بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي ، مولى بكير ابن زيد الخيل الطائي ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتها ، وهو الذي جمع السبع المعلقات الطوال ، وإنما سمي الراوية لكثرة روايته الشعر عن العرب، اختبره الوليد بن يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين في ذلك فأنشده تسعاً وعشرين قصيدة على حروف المعجم ، كل قصيدة نحواً من مائة بيت، وزعم أنه لا يسمي شاعر من شعراء العرب إلا أنشد له ما لا يحفظه غيره . فأطلق له مائة ألف درهم . وذكر أبو محمد الحريري في كتابه درة الغواص، أن هشام بن عبد الملك استدعاه من العراق من نائبه يوسف بن عمر، فلما دخل عليه إذا هو في دار قوراء مرخمة بالرخام والذهب، وإذا عنده جاريتان حسنتان جداً، فاستنشده شيئاً فأنشده، فقال له: سل حاجتك : فقال : كائنة ما كانت يا أمير المؤمنين ؟ فقال: وما هي؟ فقال: تطلق لي إحدى هاتين الجاريتين . فقال: هما وما عليهما لك، وأخلاه في بعض داره وأطلق له مائة ألف درهم . هذه ملخص الحكاية، والظاهر أن هذا الخليفة إنما هو الوليد بن يزيد، فإنه ذكر أن شرب معه الخمر، وهشام لم يكن يشرب. ولم يكن نائبه على العراق يوسف بن عمر، إنما كان نائبه خالد بن عبد الله القسري ، وبعده يوسف بن عمر بن عبد العزيز. كانت وفاة حماد في هذه السنة عن ستين سنة . قال ابن خلكان: وقيل إنه أدرك أول خلافة المهدي في سنة ثمان وخمسين فالله أعلم .

وفيها قتل حماد عجرد على الزندقة . وهو حماد بن عمر بن يوسف بن كليب الكوفي ، ويقال إنه واسطي ، مولى بني سواد، وكان شاعراً ماجناً ظريفاً زنديقاً متهما على الإسلام ، وقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية، ولم يشتهر إلا في أيام بني العباس، وكان بينه وبين بشار بن برد مهاجاة كثيرة، وقد قتل بشار هذا على الزندقة أيضا كما سيأتي ، ودفن مع حماد هذا في قبره ، وقيل إن حماداً عجرد مات سنة ثمان وخمسين، وقيل إحدى وستين ومائة فالله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة

فيها ظفر الهيثم بن معاوية نائب المنصور على البصرة، بعمرو بن شداد الذي كان عاملاً لابراهيم بن محمد علي فارس، فقيل أمر فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه ثم صلب. وفيها عزل المنصور الهيثم بن معاوية هذا الذي فعل هذه الفعلة عن البصرة وولى عليها قاضيها سوار بن عبد الله، فجمع له بين القضاء والصلاة، وجعل على شرطتها وأحداثها سعيد بن دعلج ، ورجع الهيثم بن معاوية قاتل عمرو بن شداد إلى بغداد فمات فيها فجأة في هذه السنة، وهو على بطن جارية له، وصلّى عليه المنصور ودفن في مقابر بني هاشم ، ويقال إنه أصابته دعوة عمر بن شداد الذي قتله تلك القتلة ، فليتق العبدُ الظلمَ .

وحج بالناس العباس بن محمد أخو المنصور. ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها.

وعلى فارس والأهواز وكور دجلة عمارة بن حمزة ، وعلى كرمان والسند هشام بن عمرو. وفيها توفي حمزة الزيات في قول. وهو أحد القراء المشهورين والعباد المذكورين، وإليه تنسب المدود الطويلة في القراءة اصطلاحاً من عنده ، وقد تكلم فيه بسببها بعض الأئمة وأنكروها عليه. وسعيد بن أبي عروبة ، وهو أول من جمع السنن في قول، وعبد الله بن شوذب، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي ، وعمر بن ذر .

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

فيها بنى المنصور قصره المسمى بالخلد في بغداد، تفاؤلا بالتخليد في الدنيا، فعند كماله مات وخرب القصر من بعده، وكان المستحث في عمارته أبان بن صدقة، والربيع مولى المنصور وهو حاجبه . وفيها حول المنصور الأسواق من قرب دار الإمارة إلى باب الكرخ. وقد ذكرنا فيما تقدم سبب ذلك . وفيها أمر بتوسعة الطرقات . وفيها أمر بعمل جسر عند باب الشعير . وفيها استعرض المنصور جنده وهم ملبسون السلاح وهو أيضاً لابس سلاحاً عظيماً ، وكان ذلك عند دجلة . وفيها عزل عن السند هشام بن عمرو وولى عليها سعيد بن الخليل. وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي فأوغل في بلاد الروم، وبعث سنانا مولى البطال مقدمة بين يديه ففتح حصونا وسبى وغنم . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي . ونواب البلادهم المذكورون في التي قبلها . وفيها توفي الحسين بن واقد ، والامام الجليل علامة الوقت أبوعمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي فقيه أهل الشام وإمامهم . وقد بقي أهل دمشق وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتين وعشرين سنة .

شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله

هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد أبو عمرو الأوزاعي. والاوزاع بطن من حمير وهو من أنفسهم ، قاله محمد بن سعد. وقال غيره : لم يكن من أنفسهم وإنما نزل في محلة الأوزاع ، وهي قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق، وهو ابن عم يحيى بن عمرو الشيباني. قال أبو زرعة : وأصله من سبي السند فنزل الأوزاع فغلب عليه النسبة إليها. وقال غيره: ولد ببعلبك ونشأ بالبقاع يتيماً في حجر أمه ، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد، وتأدب بنفسه ، فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه، ولا أورع ولا أعلم، ولا أفصح ولا أوقر ولا أحلم، ولا أكثر صمتاً منه، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه ، من حسنها ، وكان يعاني الرسائل والكتابة، وقد اكتتب مرة في بعث إلى اليمامة فسمع الحديث من يحيى بن أبي كثير وانقطع إليه فأرشده إلى الرحلة إلى البصرة ليسمع من الحسن وابن سيرين. فسار إليها فوجد الحسن قد توفي من شهرين ووجد ابن سيرين مريضاً ، فجعل يتردد لعيادته، فقوي المرض به ومات ولم يسمع منه الأوزاعي شيئاً . ثم جاء فنزل دمشق بمحلة الأوزاع خارج باب

الفراديس، وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الأسلام. وقد أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين، كمالك ابن أنس والثوري والزهري، وهو من شيوخه. وأثنى عليه غير واحد من الأئمة، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته. قال مالك: كان الأوزاعي إماما يقتدى به. وقال سفيان بن عيينة وغيره: كان الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: افسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه. وقد تذاكر مالك والأوزاعي مرة بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر، ومن العصر حتى صليا المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي، وغمره مالك في الفقه. أو في شيء من الفقه. وتناظر الأوزاعي والثوري في مسجد الخيف في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه. فاحتج الأوزاعي على الرفع في ذلك بما رواه عن الزهري عن سالم عن أبيه «أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه في الركوع والرفع منه». واحتج الثوري على ذلك بحديث يزيد بن أبي زياد. فغضب الأوزاعي وقال: تعارض حديث الزهري بحديث يزيد بن أبي زياد وهو رجل ضعيف؟ فاحمار وجه الثوري، فقال الأوزاعي: لعلك كرهتَ ما قلتُ؟ قال: نعم. قال: فقم بنا حتى نلتعن عند الركن أينا على الحق. فسكت الثوري. وقال هِقْل بن زياد: أفتى الأوزاعي في سبعين ألف مسألة يحدثنا. وأخبرنا. وقال أبو زرعة: روى عنه ستون ألف مسألة. وقال غيرهما: أفتى في سنة ثلاث عشرة ومائة وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، ثم لم يزل يفتي حتى مات وعقله زاك. وقال يحيى القطان عن مالك: اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلت: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعي. وقال محمد بن عجلان: لم أر أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي. وقال غيره: ما رؤي الأوزاعي ضاحكا مقهقها قط، ولقد كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه، وما رأيناه يبكي في مجلسه قط وكان إذا خلى بكى حتى يُرحم. وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري، وأبو حنيفة، ومالك، والأوزاعي. قال أبو حاتم: كان ثقة متبعاً لما سمع. قالوا: وكان الأوزاعي لا يلحن[1] في كلامه، وكانت كتبه ترد على المنصور فينظر فيها ويتأملها ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها. وقد قال المنصور يوماً لأحظى كتّابه عنده ـ وهو سليمان بن مجالد ـ: ينبغي أن نجيب الأوزاعي على ذلك دائماً، لنستعين بكلامه فيما نكاتب به إلى الآفاق إلى من لا يعرف كلام الأوزاعي. فقال: والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على مثل كلامه ولا على شيء منه. وقال الوليد بن مسلم: كان الأوزاعي إذا صلّى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس، وكان يأثر عن السلف ذلك. قال: ثم يقومون فيتذاكرون في الفقه والحديث. وقال الأوزاعي: رأيت رب العزة في المنام فقال: أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقلت: بفضلك أي رب. ثم قلت: يا رب أمتني على الاسلام. فقال: وعلى السنة. وقال محمد بن

(١) يلحن: يخطىء الإعراب ويخالف وجه الصواب في النحو.

شعيب بن شابور: قال لي شيخ بجامع دمشق : أناميت في يوم كذا وكذا. فلما كان في ذلك اليوم رأيته في صحن الجامع يتفلى ، ففال لي: اذهب إلى سرير الموتى فاحرزه لي عندك قبل أن تسبق إليه . فقلت: ما تقول ؟ فقال: هو ما أقول لك، وإني رأيت كأن قائلا يقول فلان قدري، وفلان كذا وعثمان بن العاتكة نعم الرجل، وأبو عمرو الأوزاعي خير من يمشي على وجه الأرض، وأنت ميت في يوم كذا وكذا. قال محمد بن شعيب، فما جاء الظهر حتى مات وصلينا عليه بعدها وأخرجت جنازته . ذكر ذلك ابن عساكر. وكان الأوزاعي رحمه الله كثير العبادة حسن الصلاة ورعاً ناسكاً طويل الصمت ، وكان يقول: من أطال القيام في صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة، أخذ ذلك من قوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيلِ فَاسْجُدْ لهُ وسَبِّحْهُ لَيلاً طَويلاً، إنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمَ يَوماً ثَقِيلاً﴾[1] وقال الوليد بن مسلم: ما رأيت أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي في العبادة. وقال غيره : حج فما نام على الراحلة ، إنما هو في صلاة ، فاذا نعس استند إلى القتب، وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى . ودخلت امرأة على امرأة الأوزاعي فرأت الحصير الذي يصلي عليه مبلولا فقالت لها : لعل الصبي بال ههنا . فقالت: هذا أثر دموع الشيخ من بكائه في سجوده، هكذا يصبح كل يوم . وقال الأوزاعي: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه ، فان الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم. وقال أيضا: اصبرعلى السنةوقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا وكف عماكفوا ،وليسعك ما وسعهم . وقال: العلم ما جاء عن أصحاب محمَّد، وما لم يجيء عنهم فليس بعلم. وكان يقول: لا يجتمع حب عليّ وعثمان إلا في قلب مؤمن . وإذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل وسد عنهم باب العلم والعمل. قالوا: وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم ، وكان له في بيت المال على الخلفاء أقطاع صار إليه من بني أمية وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار، فلم يمسك منها شيئاً ، ولا اقتنى شيئا من عقار ولا غيره ، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، بل كان ينفق ذلك كله في سبيل الله وفي الفقراء والمساكين .

ولما دخل عبد الله بن علي ـ عم السفاح الذي أجلى بني أمية عن الشام ، وأزال الله سبحانه دولتهم على يده ـ دمشق فطلب الاوزاعي فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه. قال الأوزاعي : دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسوّدة عن يمينه وشماله ، معهم السيوف مصلّتة ـ والعمد الحديد ـ فسلمت عليه فلم يرد ونكت بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد ؟ أجهاداً ورباطاً هو ؟ قال: فقلت : أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول سمعت علقمة ابن وقاص يقول سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات

---

(١) سورة الانسان ، الآية/٢٦ ـ ٢٧ .

وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كان هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». قال فنكت بالخيزرانة أشد مماكان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم، ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية ؟ فقلت : قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة». فنكت بها أشد من ذلك ثم قال : ما تقول في أموالهم؟ فقلت : إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي. فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ثم قال: ألا نوليك القضاء ؟ فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليّ في ذلك، وأني أحب أن يتم ما ابتدأوني به من الاحسان . فقال: كأنك تحب الانصراف ؟ فقلت : إن ورائي حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببي. قال: وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف . فلما خرجت إذا برسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال يقول لك الأمير: استنفق هذه . قال: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفاً . قال: وكان في تلك الأيام الثلاثة صائماً فيقال إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده .

قالوا: ثم رحل الأوزاعي من دمشق فنزل بيروت مرابطا بأهله وأولاده، قال الأوزاعي : وأعجبني في بيروت أني مررت بقبورها فاذا امرأة سوداء في القبور فقلت لها: أين العمارة يا هنتاه ؟ فقالت: إن أردت العمارة فهي هذه ـ وأشارت إلى القبور ـ وإن كنت تريد الخراب فأمامك ـ وأشارت إلى البلد ـ فعزمت على الاقامة بها . وقال محمد بن كثير: سمعت الأوزاعي يقول: خرجت يوماً إلى الصحراء فاذا رجل جراد وإذا شخص راكب على جرادة منها وعليه سلاح الحديد، وكلما قال بيده هكذا إلى جهة مال الجراد مع يده ، وهو يقول: الدنيا باطل باطل باطل ، وما فيها باطل باطل باطل. وقال الأوزاعي : كان عندنا رجل يخرج يوم الجمعة إلى الصيد ولا ينتظر الجمعة فخسف ببغلته فلم يبق منها إلا أذناها، وخرج الأوزاعي يوماً من باب مسجد بيروت وهناك دكان فيه رجل يبيع الناطف[1]، وإلى جانبه رجل يبيع البصل وهو يقول: يا بصل أحلى من العسل، أو قال أحلى من الناطف. فقال الأوزاعي : سبحان الله ! أيظن هذا أن شيئا من الكذب يباح ؟ فكأن هذا ما يرى في الكذب بأسا .

وقال الواقدي قال الأوزاعي: كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أما إذا صرنا أئمة يقتدى بنا فلا نرى أن يسعنا ذلك، وينبغي أن نتحفظ . وكتب إلى أخ له : أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب، وإنه يسار بك في كل يوم وليلة، فأحذر الله والقيام بين يديه، وأن يكون آخر العهد بك والسلام .

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس سمعت أبا صالح ـ كاتب الليث ـ يذكر عن

---

(١) الناطف : نوع من الحلوى كالرغوة البيضاء ، سُمِّيَ به لأنه ينطف أي يُقَطِّر قبل استضرابه أي إبيضاضه .

الهقل بن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته : أيها الناس، تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة، التي تطلع الأفئدة[1]، فانكم في دار الثواء فيها قليل، وأنتم عما قليل عنها راحلون، خلائف بعد القرون الماضية الذين استقبلوا من الدنيا آنقها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً، وأعظم أحلاماً، وأكثر أموالاً وأولاداً، فخددوا الجبال وجابوا الصخر بالواد، وتنقلوا في البلاد، مؤيدين ببطش شديد، وأجساد كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوّت آثارهم ، وأخربت منازلهم وديارهم، وأنست ذكرهم، فهل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزا ؟ كانوا بلهو الأمل آمنين، وعن ميقات يوم موتهم غافلين، فآبوا إياب قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون المتخلفون يبصرون في نعمة الله وينظرون في آثار نقمته، وزوال نعمته عمن تقدمهم من الهالكين ينظرون والله في مساكن خالية خاوية، قد كانت بالعز محفوفة، وبالنعم معروفة، والقلوب إليها مصروفة، والأعين نحوها ناظرة، فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى. وأصبحتم بعدهم في أجل منقوص ودنيا منقوصة، في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه وخيره وصفوه، فلم يبق منه إلا جمة شر ، وصبابة كدر، وأهاويل عبر، وعقوبات غير، وإرسال فتن، وتتابع زلازل، ورذالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر، يضيقون الديار ويغلون الأسعار بما يرتكبونه من العار والشنار[2] ، فلا تكونوا أشباها لمن خدعه الأمل، وغاره طول الأجل، ولعبت به الأماني، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن إذا دعى بدر، وإذا نهى انتهى، وعقل مثواه فمهد لنفسه .

وقد اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين دخل الشام ووعظه وأحبه المنصور وعظمه، ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه أن لا يلبس السواد فأذن له ، فلما خرج قال المنصور للربيع الحاجب: الحقه فاسأله لم كره لبس السواد ؟ ولا تعلمه أني قلت لك. فسأله الربيع فقال: لأني لم أر محرماً أحرم فيه، ولا ميتا كفن فيه، ولا عروسا جليت فيه، فلهذا أكرهه. وقد كان الأوزاعي في الشام معظماً مكرماً أمره أعز عندهم من أمر السلطان، وقد هم به بعض الولاة مرة فقال له أصحابه : دعه عنك والله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك. ولما مات جلس على قبره بعض الولاة فقال: رحمك الله، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذي ولاني - يعني المنصور - وقال ابن أبي العشرين: ما مات الأوزاعي حتى جلس وحده وسمع شتمه بأذنه .

وقال أبو بكر بن أبي خيثمة : حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي قال: كنت جالساً عند الثوري فجاءه رجل فقال: رأيت كأن ريحانة من المغرب - يعني قلعت - . قال: إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي. فكتبوا ذلك فجاء موت الأوزاعي في ذلك اليوم . وقال أبو مسهر: بلغنا أن سبب موته أن

---

(١) الافئدة : القلوب .

(٢) الشنار : أقبح العيب .

امرأته أغلقت عليه باب حمام فمات فيه، ولم تكن عامدة ذلك، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعتق رقبة. قال: وما خلف ذهباً ولا فضة ولا عقاراً، ولا متاعاً إلا ستة وثمانين، فضلت من عطائه. وكان قد اكتتب في ديوان الساحل. وقال غيره: كان الذي أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام، أغلقه وذهب لحاجة له ثم جاء ففتح الحمام فوجده ميتا قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة رحمه الله .

قلت: لا خلاف أنه مات ببيروت مرابطاً[1] ، واختلفوا في سنه ووفاته، فروى يعقوب بن سفيان عن سلمة قال قال أحمد: رأيت الأوزاعي وتوفي سنة خمسين ومائة. قال العباس بن الوليد البيروتي: توفي يوم الأحد أول النهار لليلتين بقيتا من صفر سنة سبع وخمسين ومائة، وهو الذي عليه الجمهور وهو الصحيح، وهو قول أبي مسهر وهشام بن عمار والوليد بن مسلم ـ في أصح الروايات عنه ـ ويحيى بن معين ودحيم وخليفة بن خياط وأبي عبيد وسعيد بن عبد العزيز وغير واحد. قال العباس بن الوليد: ولم يبلغ سبعين سنة. وقال غيره: جاوز السبعين، والصحيح سبع وستون سنة، لأن ميلاده في سنة ثمان وثمانين على الصحيح. وقيل إنه ولد سنة ثلاث وسبعين، وهذا ضعيف. وقد رآه بعضهم في المنام فقال له: دلني على عمل يقربني إلى الله. فقال: ما رأيت في الجنة درجة أعلى من درجة العلماء العاملين، ثم المحزونين .

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

فيها تكامل بناء قصر المنصور المسمى بالخلد وسكنه أياماً يسيرة ثم مات وتركه، وفيها مات طاغية الروم . وفيها وجه المنصور ابنه المهدي إلى الرقة وأمره بعزل موسى بن كعب عن الموصل، وأن يولي عليها خالد بن برمك، وكان ذلك بعد نكتة غريبة اتفقت ليحيى بن خالد، وذلك أن المنصور كان قد غضب على خالد بن برمك ، وألزمه بحمل ثلاثة آلاف ألف، فضاق ذرعا بذلك، ولم يبق له مال ولا حال وعجز عن أكثرها، وقد أجله ثلاثة أيام ، وأن يحمل ذلك في هذه الثلاثة الأيام وإلا فدمه هدر فجعل يرسل ابنه يحيى إلى أصحابه من الأمراء يستقرض منهم، فكان منهم من أعطاه مائة ألف، ومنهم أقل وأكثر . قال يحيى بن خالد: فبينا أنا ذات يوم من تلك الأيام الثلاثة على جسر بغداد، وأنا مهموم في تحصيل ما طلب منا مما لا طاقة لنا به، إذ وثب إلَي زاجرٌ من أولئك الذين يكونون عند الجسر من الطرقية، فقال لي : ابشر ، فلم التفت إليه، فتقدم إلَي حتى أخذ بلجام فرسي ثم قال لي : أنت مهموم، ليفرجن الله همك ولتمرن غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك، فان كان ما قلت لك حقاً فلي عليك خمسة آلاف. فقلت: نعم. ولو قال خمسون ألفا لقلت نعم، لبعد ذلك عندي. وذهبت لشأني وقد بقي علينا من الحمل ثلاثمائة ألف فورد الخبر إلى المنصور بانتقاض

---

(١) مرابطاً : الزاهد المنزّه نفسه عن الدنيا والمدافع عن المسلمين في الثغور .

الموصل وانتشار الأكراد فيها، فاستشار المنصور الأمراء من يصلح للموصل ؟ فأشار بعضهم بخالد ابن برمك، فقال له المنصور: أو يصلح لذلك بعد ما فعلنا به ؟ فقال: نعم! وأنا الضامن أنه يصلح لها، فأمر باحضاره فولاه إياها ووضع عنه بقية ما كان عليه، وعقد له اللواء، وولى ابنه يحيى أذربيجان وخرج الناس في خدمتهما. قال يحيى: فمررنا بالجسر فثار لي ذلك الزاجر فطالبني بما وعدته به، فأمرت له فقبض خمسة آلاف.

وفي هذه السنة خرج المنصور إلى الحج فساق الهدي معه، فلما جاوز الكوفة بمراحل أخذه وجعه الذي مات به وكان عنده سوء مزاج فاشتد عليه من شدة الحر وركوبه في الهواجر[1] ، وأخذه إسهال وأفرط به، فقوي مرضه، ودخل مكة فتوفي بها ليلة السبت لست مضين من ذي الحجة، وصلى عليه ودفن بكدا عند ثنية باب المعلاة التي بأعلى مكة، وكان عمره يومئذ ثلاثاً وقيل أربعا وقيل خمساً وستين، وقيل إنه بلغ ثمانياً وستين سنة فالله أعلم. وقد كتم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من القوّاد ورؤوس بني هاشم، ثم دفن. وكان الذي صلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي، وهو الذي أقام للناس الحج في هذه السنة.

ترجمة المنصور

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر المنصور. وكان أكبر من أخيه أبي العباس السفاح، وأمه أم ولد اسمها سلامة. روى عن جده عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه» أورده ابن عساكر من طريق محمد بن إبراهيم السلمي عن المأمون عن الرشيد عن المهدي عن أبيه المنصور به، بويع له بالخلافة بعد أخيه في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وعمره يومئذ إحدى وأربعون سنة، لأنه ولد في سنة خمس وتسعين على المشهور في صفر منها بالحميمة من بلاد البلقاء، وكانت خلافته اثنتين وعشرين سنة الا أياماً، وكان أسمر اللون موفر اللمة[2] خفيف اللحية، رحب الجبهة، أقنى[3] الأنف، أعين كأن عينيه لسانان ناطقان، يخالطه أبهة الملك، وتقبله القلوب، وتتبعه العيون، يعرف الشرف في مواضعه، والعنف في صورته، والليث[4] في مشيته، هكذا وصفه بعض من رآه. وقد صح عن ابن عباس أنه قال: «منا السفاح والمنصور» وفي رواية «حتى نسلمها إلى عيسى بن مريم». وقد روى مرفوعاً ولا يصح ولا وقفه أيضاً. وذكر الخطيب أن أمه سلامة قالت: رأيت حين حملت به كأنه خرج مني أسد فزأر واقفاً على يديه، فما بقي أسد حتى جاء فسجد له. وقد رأى المنصور في صغره

---

(١) الهواجر: مفردها الهاجرة وهي شدّة الحر عند منتصف الظهيرة.
(٢) اللمة: الشفة.
(٣) أقنى: به قنأ، أي ما ارتفع وسط قبضته وضاق منخره.
(٤) الليث: الأسد.

مناماً غريباً كان يقول : ينبغي أن يكتب في ألواح الذهب ، ويعلق في أعناق الصبيان . قال : رأيت كأني في المسجد الحرام وإذا رسول الله ﷺ في الكعبة والناس مجتمعون حولها ، فخرج من عنده مناد : أين عبد الله ؟ فقام أخي السفاح يتخطى الرجال حتى جاء باب الكعبة فأخذ بيده فأدخله إياها ، فما لبث أن خرج ومعه لواء أسود . ثم نودي أين عبد الله ؟ فقمت أنا وعمي عبد الله بن علي نستبق ، فسبقته إلى باب الكعبة فدخلتها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وبلال ، فعقد لي لواء وأوصاني بأمته وعممني عمامة كورها ثلاثة وعشرون كوراً ، وقال : « خذها إليك أبا الخلفاء الى يوم القيامة » .

وقد اتفق سجن المنصور في ايام بني أمية فاجتمع به نوبخت المنجم وتوسم فيه الرياسة فقال له : ممن تكون ؟ فقال : من بني العباس ، فلما عرف منه نسبه وكنيته قال : أنت الخليفة الذي تلي الأرض . فقال له : ويحك ماذا تقول ؟ فقال : هو ما أقول لك ، فضع لي خطك في هذه الرقعة أن تعطيني شيئاً إذا وليت . فكتب له ، فلما ولي أكرمه المنصور وأعطاه وأسلم نوبخت على يديه ، وكان قبل ذلك مجوسياً ، ثم كان من أخص أصحاب المنصور . وقد حج المنصور بالناس سنة أربعين ومائة ، وأحرم من الحيرة ، وفي سنة أربع وأربعين ، وفي سنة سبع وأربعين . وفي سنة اثنتين وخمسين ، ثم في هذه السنة التي مات فيها . وبنى بغداد والرصافة والرافقة وقصره الخلد .

قال الربيع بن يونس الحاجب : سمعت المنصور يقول : الخلفاء أربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . والملوك أربعة معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك ، وأنا . وقال مالك : قال لي المنصور : من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقلت : أبو بكر . وعمر . فقال : أصبت وذلك رأي أمير المؤمنين . وعن إسماعيل البهري قال سمعت المنصور على منبر عرفة يوم عرفة يقول : أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ورشده ، وخازنه على ماله أقسمه بارادته وأعطيه باذنه ، وقد جعلني الله عليه قفلاً فإن شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني عليه قفلني . فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهبكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه ، إذ يقول : ﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لكُمُ الإسْلَامَ دِيناً ﴾[1] . أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والاحسان إليكم ويفتحني لاعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، فانه سميع مجيب .

وقد خطب يوماً فاعترضه رجل وهو يثني على الله عز وجل ، فقال : يا أمير المؤمنين اذكر من أنت ذاكره ، واتق الله فيما تأتيه وتذره . فسكت المنصور حتى انتهى كلام الرجل فقال : أعوذ بالله أن أكون ممن قال الله عز وجل فيه : ﴿ وإذَا قِيلَ لهُ اتَّقِ الله أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ ﴾[2] . أو أن أكون جباراً

---

(١) سورة المائدة ، الآية/٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية / ٢٠٦ .

عصياً ، أيها الناس ! إن الموعظة علينا نزلت ومن عندنا نبتت . ثم قال للرجل : ما أظنك في مقالتك هذه تريد وجه الله ،وإنما أردت أن يقال عنك وعظ أمير المؤمنين ، أيها الناس لا يغرنكم هذا فتفعلو كفعله ثم أمر به فاحتفظ به وعاد إلى خطبته فأكملها ، ثم قال لمن هو عنده : أعرض عليه الدنيا فإن قبلها فأعلمني ، وإن ردها فأعلمني ، فما زال به الرجل الذي هو عنده حتى أخذ المال ومال إلى الدني فولاه الحسبة والمظالم وأدخله على الخليفة في بزة حسنة ، وثياب وشارة وهيئة دنيوية ، فقال له الخليفة : ويحك ! لو كنت محقاً مريداً وجه الله بما قلت على رؤوس الناس لما قبلت شيئاً مم أرى ، ولكن أردت أن يقال عنك إنك وعظت أمير المؤمنين ، وخرجت عليه ، ثم أمر به فضربت عنقه . وقد قال المنصور لابنه المهدي : إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة . والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه . وقال أيضاً : يا بني استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتأليف ، والنصر بالتواضع والرحمة للناس ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله .

وحضر عنده مبارك بن فضالة يوماً وقد أمر برجل أن يضرب عنقه وأحضر النطع [1] والسيف . فقال له مبارك : سمعت الحسين يقول قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم من كان أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » فأمر بالعفو عن ذلك الرجل . ثم أخذ يعدد على جلسائ عظيم جرائم ذلك الرجل وما صنعه . وقال الأصمعي : أتى المنصور برجل ليعاقبه فقال : يا أمي المؤمنين الانتقام عدل والعفو فضل ، وتعوذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين وأدنى القسمين ، دون أرفع الدرجتين . قال فعفا عنه .

وقال الأصمعي : قال المنصور لرجل من أهل الشام : احمد الله يا أعرابي الذي دفع عنكم الطاعون بولايتنا . فقال إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل ، ولايتكم والطاعون . والحكايات في ذكر حلمه وعفوه كثيرة جداً . [ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة ، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده . قال : فأفحم المنصور قوله وأمر له بمال فقال : لو احتجت الى مالك ما وعظتك][2]
ودخل عمرو بن عبيد القدري على المنصور فأكرمه وعظمه وقربه وسأله عن أهله وعياله ، ثم قال له : عظني . فقرأ عليه سورة الفجر إلى ﴿ إنَّ ربَّك لبالمرصاد ﴾[3] فبكى المنصور بكاء شديداً حتى كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل ذلك ، ثم قال له : زدني . فقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صائر لمن بعدك ، واذكر

---

(١) النطع : بساط من الجلد يُفْرَش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس .

(٢) زيادة من المصرية .

(٣) سورة الفجر ، الآية/ ١٤ .

ليلة تسفر عن يوم القيامة . فبكى المنصور أشد من بكائه الأول حتى اختلفت أجفانه . فقال له سليمان بن مجالد : رفقاً بأمير المؤمنين . فقال عمرو : وماذا على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية الله عز وجل . ثم أمر له المنصور بعشرة آلاف درهم فقال : لا حاجة لي فيها . فقال المنصور : والله لتأخذنها . فقال : والله لا آخذنها . فقال له المهدي وهو جالس في سواده وسيفه إلى جانب أبيه : أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت ؟ فالتفت الى المنصور فقال : ومن هذا ؟ فقال : هذا ابني محمد ولي العهد من بعدي ، فقال عمرو : إنك سميته اسماً لم يستحقه لعمله ، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار ، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ثم التفت الى المهدي فقال : يا ابن أخي ! إذا حلف أبوك وحلف عمك فلأن يحنث[1] أبوك أيسر من أن يحنث عمك ، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك . ثم قال المنصور : يا أبا عثمان هل من حاجة ؟ قال : نعم ! قال : وما هي ؟ قال : لا تبعث إلي حتى آتيك . ولا تعطني حتى أسألك . فقال المنصور : إذا والله لا نلتقي . فقال عمرو : عن حاجتي سألتني . فودعه وانصرف . فلما ولى أمده بصره وهو يقول :

كلكمْ يمشي رويد * كلّكم يطلبُ صيدْ * غير عمرو بن عبيدْ

ويقال إن عمرو بن عبيد أنشد المنصور قصيدة في موعظته إياه وهي قوله :

يا أيُّهذا الذي قد غرَّهُ الأملُ	ودونَ ما يأملُ التنغيصُ والأجلُ
ألا ترى أنَّما الدنيا وزينتها	كمنزل الركبِ حلّوا ثمَّت ارتحلوا
حتوفها رصدٌ وعيشها نكدُ	وصفوها كدرٌ وملكها دولُ
تظلُّ تقرعُ بالروعاتِ ساكنها	فما يسوغُ لهُ لينٌ ولا جذلُ
كأنهُ للمنايا[2] والردى[3] غرض	تظلُّ فيهِ بناتُ الدهرِ تنتقل
تديرهُ ما تدورُ به دوائرها	منها المصيبُ ومنها المخطىء الزللُ
والنفسُ هاربةٌ والموتُ يطلبها	وكلُّ عسرةِ رجلٍ عندها جللُ
والمرءُ يسعى بما يسعى لوارثه	والقبرُ وارثُ ما يسعى له الرجلُ

وقال ابن دريد عن الرياشي عن محمد بن سلام قال : رأت جارية للمنصور ثوبه مرقوعاً فقالت : خليفة وقميص مرقوع ؟ فقال : ويحك أما سمعت ما قال ابن هرمة .

قد يدركُ الشرفَ الفتى ورداؤه ... خلقٌ[4] وبعضُ قميصهِ مرقوعُ

وقال بعض الزهاد للمنصور : اذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة مثلها ، واذكر ليلة

---

(١) يحنث : يخلف بوعده وعهده .

(٢) للمنايا : للموت .

(٣) والردى : والموت .

(٤) خلق : رثٌ ، بالٍ .

تمخض عن يوم القيامة لا ليلة بعدها فأفحم المنصور قوله فأمر له بمال. فقال : لو احتجت إلى مالد ما وعظتك . ومن شعره لما عزم على قتل أبي مسلم :-

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرأيِ أنْ يترددا
ولا تُمهل الأعداءَ يوماً لغدرةٍ ... وبادرهُم أنْ يملكوا مثلها غداً

ولما قتله ورآه طريحاً بين يديه قال : ـ

قدْ اكتنفَتْكَ خلّاتٌ ثلاثٌ ... جلبنَ عليكَ محتومَ الحمامِ[1]
خلافكَ وامتناعكَ من يميني ... وقودكَ للجماهيرِ العظامِ

ومن شعره أيضاً :ـ

المرءُ يأملُ أن يعيـ ... ـش وطولُ عمرٍ قدْ يضرُّه
تبلي بشاشتُه ويبـ ... ـقى بعدَ حلوِ العيشِ مُرّه
وتخونهُ الأيامُ حتى ... لا يرى شيئاً يسره
كم شامتٍ بي إن هلكـ ... ـتُ وقائلٍ للّه درُّه

قالوا : وكان المنصور في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل والنظر في مصالح العامة ، فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح الى العصر ، فإذا صلاها جلس لأهل بيته ونظر في مصالحهم الخاصة ، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق ، وجلس عنده من يسامره الى ثلث الليل ، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه الى الثلث الآخر ، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في إيوانه ، وقد ولى بعض العمال على بلد فبلغه أنه قد تصدى للصيد وأعد لذلك كلابا وبزاة[2] ، فكتب إليه ثكلتك أمك وعشيرتك ، ويحك إنا إنما استكفيناك واستعملناك على أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحوش في البراري ، فسلم ما تلي من عملنا الى فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً[3] .

وأتى يوماً بخارجي قد هزم جيوش المنصور غير مرة فلما وقف بين يديه قال له المنصور : ويحك يا ابن الفاعلة ! مثلك يهزم الجيوش ؟ فقال الخارجي : ويلك سوأة لك بيني وبينك أمس السيف والقتل واليوم القذف والسب ، وما يؤمنك أن أرد عليك وقد يئست من الحياة فما أستقبلها أبداً. قال فاستحيى منه المنصور وأطلقه . فما رأى له وجهاً إلى الحول[4] [وقال لابنه لما ولاه العهد : يا بني ائتدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والنصر بالتواضع ، والتألف بالطاعة ، ولا

---

(١) الحِمَام : الموت .
(٢) بزاة : مفردها الباز نوع من الطيور الكواسر .
(٣) مدحوراً : مكسوراً .
(٤) الحول : السَّنة .

تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله][1] .

وقال أيضاً : يا بني ليس العاقل من يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه . وقال المنصور : يا بني لا تجلس مجلساً إلا وعندك من أهل الحديث من يحدثك ، فإن الزهري قال : علم الحديث ذكر لا يحبه إلا ذكران الرجال ، ولا يكرهه إلا مؤنثوهم ، وصدق أخو زهرة . وقد كان المنصور في شبيبته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه فنال جانباً جيداً وطرفاً صالحاً ، وقد قيل له يوماً : يا أمير المؤمنين هل بقي شيء من اللذات لم تنله ؟ قال : شيء واحد ، قالوا : وما هو ؟ قال : قول المحدث للشيخ من ذكرت رحمك الله . فاجتمع وزراؤه وكتّابه وجلسوا حوله وقالوا : ليمل علينا أمير المؤمنين شيئاً من الحديث ، فقال : لستم بهم ، إنما هم الدنسة ثيابهم ، المشققة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، رواد الآفاق وقطاع المسافات ، تارة بالعراق وتارة بالحجاز ، وتارة بالشام ، وتارة باليمن . فهؤلاء نقلة الحديث .

وقال يوماً لابنه المهدي : كم عندك من دابة ؟ فقال لا أدري . فقال: هذا هو التقصير ، فأنت لأمر الخلافة أشد تضييعاً فاتق الله يا بني . وقالت خالصة إحدى حظيات المهدي : دخلت يوماً على المنصور وهو يشتكي ضرسه ويداه على صدغيه فقال لي : كم عندك من المال يا خالصة ؟ فقلت ألف درهم . فقال : ضعي يدك على رأسي وأحلفي ، فقلت : عندي عشرة آلاف دينار . قال : اذهبي فاحمليها إلي . قالت : فذهبت حتى دخلت على سيدي المهدي وهو مع زوجته الخيزران فشكوت ذلك إليه فوكزني برجله وقال : ويحك ! إنه ليس به وجع ولكني سألته بالأمس مالاً فتمارض ، وإنه لا يسعك إلا ما أمرك به . فذهبت إليه خالصة ومعها عشرة آلاف دينار ، فاستدعى بالمهدي فقال له : تشكو الحاجة وهذا كله عند خالصة ؟ وقال المنصور لخازنه : إذا علمت بمجيء المهدي فائتني بخلقان الثياب قبل أن يجيء ، فجاء بها فوضعها بين يديه ودخل المهدي والمنصور يقلبها ، فجعل المهدي يضحك ، فقال : يا بني من ليس له خلق ليس له جديد ، وقد حضر الشتاء فنحتاج نعين العيال والولد . فقال المهدي : عليّ كسوة امير المؤمنين وعياله ، فقال : دونك فافعل .

وذكر ابن جرير عن الهيثم أن المنصور أطلق في يوم واحد لبعض أعمامه ألف ألف درهم . وفي هذا اليوم فرق في بيته عشرة آلاف درهم ، ولا يعلم خليفة فرق مثل هذا في يوم واحد . وقرأ بعض القراء عند المنصور﴿الذينَ ويبخَلُونَ يَأْمُرُون النَّاسَ بالبُخْلِ ﴾[2]. فقال : والله لولا أن المال حصن للسلطان ودعامة للدين والدنيا وعزّهما ما بتُّ ليلة واحدة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهماً

---

(١) زيادة من المصرية .

(٢) سورة النساء ، الآية/٣٧ .

لما جد لبذل المال من اللذة ، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة . وقرأ عنده قارىء آخر ﴿ ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاْ تَبْسُطها كُلَّ البسْطِ ﴾[1] الآية . فقال : ما أحسن ما أدبنا ربنا عز وجل . وقال المنصور : سمعت أبي يقول سمعت علي بن عبد الله يقول : سادة أهل الدنيا في الدنيا الأسخياء ، وسادة أهل الآخرة في الآخرة الأتقياء .

ولما عزم المنصور على الحج في هذه السنة دعا ولده المهدي فأوصاه في خاصة نفسه وبأهل بيته وبسائر المسلمين خيراً ، وعلمه كيف تفعل الأشياء وتسد الثغور ، وأوصاه بوصايا يطول بسطها وحرج عليه أن لا يفتح شيئاً من خزائن المسلمين حتى يتحقق وفاته فإن بها من الأموال ما يكفي المسلمين لو لم يجب إليهم من الخراج درهم عشر سنين ، وعهد إليه أن يقضي ما عليه من الدين وهو ثلاثمائة ألف دينار ، فإنه لم ير قضاءها من بيت المال . فامتثل المهدي ذلك كله . وأحرم المنصور بحج وعمرة من الرصافة وساق بدنه وقال : يا بني إني ولدت في ذي الحجة وقد وقع لي أن أموت في ذي الحجة ، وهذا الذي جرأني على الحج عامي هذا . وودعه وسار واعتراه مرض الموت في أثناء الطريق فما دخل مكة إلا وهو ثقيل جداً ، فلما كان بآخر منزل نزله دون مكة إذا في صدر منزله مكتوب : (بسم الله الرحمن الرحيم) .

أبا جعفرٍ حانت وفاتك وانقضتْ ... سنوكَ وأمرُ الله لا بدَّ واقعُ
أبا جعفر هل كاهنٌ أو منجِّمٌ ... لكَ اليومَ منْ كربِ المنيةِ مانعُ

فدعا بالحجبة فأقرأهم ذلك فلم يروا شيئاً فعرف أن أجله قد نعي إليه . قالوا : ورأى المنصور في منامه ويقال بل هتف به هاتف وهو يقول : ـ

أما وربُّ السكونِ والحركِ ... إن المنايا كثيرةُ الشركِ
عليك يا نفس إن أسأتِ وإنْ ... أحسنتِ يا نفسُ كانَ ذاكَ لك
ما اختلف الليلُ والنهارُ ولا ... دارت نجومُ السماءِ في الفلكِ
إلا بنقل السلطانِ عن ملكٍ ... إذا انقضى ملكهُ إلى ملكِ
حتى يُصيرَ إنه إلى ملكٍ ... ماعزُّ سلطانهِ بمشتركِ
ذاكَ بديع السماءِ والأرض والمر ... سى الجبالِ المسخّرُ الفلكِ

فقال المنصور : هذا أوان حضور أجلي وانقضاء عمري . وكان قد رأى قبل ذلك في قصره الخلد الذي بناه وتأنق فيه مناماً أفزعه فقال للربيع : ويحك يا ربيع ! لقد رأيت مناماً هالني ، رأيت قائلاً وقف في باب هذا القصر وهو يقول :

كأني بهذا القصرِ قد بادَ أهلهَ ... وأوحشَ منهُ أهلهُ ومنازلهُ

(١) سورة الإسراء ، الآية/٢٩ . (١)

وصـار رئيسُ القصرِ من بعــد بهجةٍ إلى جـدثٍ[1] يبنى عليـه جنـادلـه[2]

فما أقام في الخلد إلا أقل من سنة حتى مرض في طريق الحج ، ودخل مكة مدنفاً ثقيلاً . وكانت وفاته ليلة السبت لست وقيل لسبع مضين من ذي الحجة ، وكان آخر ما تكلم به أن قال : اللهم بارك لي في لقائك . وقيل : إنه قال يا رب إن كنت عصيتك في أمور كثيرة فقد أطعتك في أحب الأشياء إليك شهادة أن لا إله إلا الله مخلصاً . ثم مات . وكان نقش خاتمه . الله ثقة عبد الله وبه يؤمن . وكان عمره يوم وفاته ثلاثاً وستين سنة على المشهور ، منها اثنتان وعشرون سنة خليفة . ودفن بباب المعلاة رحمه الله . قال ابن جرير : ومما رثي به قول سلم الخاسر الشاعر :

عـجبـاً لـلذي نـعـى الـنـاعـيـانِ كـيف فـاهـتْ بـمـوتـهِ الـشـفـتـانِ
ملكٌ أن عـدا على الـدهـر يـومـاً أصبـحَ الـدهـرُ سـاقـطاً للجـرانِ
لـيتَ كـفـاً حـثـتْ عـليـهِ تـرابـاً لـم تعـدْ في يمـيـنـهـا ببـنـانِ[3]
حينَ دانـتْ لـه الـبـلاد عـلى العسـ ـفِ وأغـضى مـن خـوفـهِ الـثـقـلانِ
أيـنَ ربُ الـزوراءِ قـد قـلدتـه الـ ـملكَ عشـريـنَ حجـةً واثـنـتـانِ
إنـمـا الـمـرءُ كـالـزنـاد إذا مـا أخـذتـه قـوادحُ الـنـيـرانِ
لـيسَ يـثـني هـواهُ زجـرٌ ولا يـقـ ـدحَ فـي حـبـلهِ ذوو الأذهـانِ
قـلدتـهُ أعـنـةُ الـمـلكِ حـتـى قـادَ اعـداءه بـغـيـرِ عـنـانِ
يـكـسُـر الـطرفُ دونـه وتـرى الأيـ ـديَ مـن خـوفـهِ عـلى الأذقـانِ
ضـم أطـراف مـلكـهِ ثـم أضحى خـلفَ أقصـاهـمُ ودونَ الـداني
هـاشميُّ التشميـرِ لا يحمـلَ الثقـ ـلَ عـلى غـاربِ الشـرودِ الـهـدانِ
ذو أنـاةٍ ينسى لهـا الخـائفُ الخـو فَ وعـزمُ يـلوي بـكـل جـنـانِ
ذهـبـتْ دونـهُ الـنـفـوسُ حـذاراً غـيـرَ أنَّ الأرواح فـي الأبـدانِ

وقد دفن عند باب المعلاة بمكة ولا يعرف قبره لأنه أعمى قبره ، فإن الربيع الحاجب حفر مائة قبر ودفنه في غيرها لئلا يعرف .

أولاد المنصور

محمد المهدي وهو ولي عهده ، وجعفر الأكبر مات في حياته ، وأمهما أروى بنت منصور . وعيسى ، ويعقوب، وسليمان ، وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله . وجعفر

(١) جدث : قبر .
(٢) جنادله : مفردها جَنْدَلة : الصخرة العظيمة .
(٣) بينان : أصابع .

الأصغر من أم ولد كردية ، وصالح المسكين من أم ولد رومية ـ يقال لها قالي الفراشة ـ والقاسم من أم ولد أيضاً ! والعالية من امرأة من بني أمية .

خلافة المهدي بن المنصور

لما مات أبوه بمكة لست أو لسبع مضين من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة أخذت البيعة للمهدي من رؤوس بني هاشم والقواد الذين هم مع المنصور في الحج قبل دفنه ، وبعث الربيع الحاجب بالبيعة مع البرد إلى المهدي وهو ببغداد ، فدخل عليه البريد بذلك يوم الثلاثاء النصف من ذي الحجة ، فسلم عليه بالخلافة وأعطاه الكتب بالبيعة ،وبايعه أهل بغداد ، ونفذت بيعته إلى سائر الآفاق . وذكر ابن جرير أن المنصور قبل موته بيوم تحامل وتساند واستدعى بالأمراء فجدد البيعة لابنه المهدي ، فتسارعوا إلى ذلك وتبادروا إليه . وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن وصية عمه المنصور ، وهو الذي صلى عليه ، وقيل إن الذي صلى على المنصور عيسى بن موسى ولي العهد من بعد المهدي ، والصحيح الأول ، لأنه كان نائب مكة والطائف ، وعلى إمرة المدينة عبد الصمد بن علي ، وعلى الكوفة عمرو بن زهير الضبي ـ أخو المسيب بن زهير أمير الشرطة للخليفة ـ وعلى خراسان حميد بن قحطبة ، وعلى خراج البصرة وأرضها عمارة بن حمزة ، وعلى صلاتها وقضائها عبد الله بن الحسن العنبري ، وعلى أحداثها سعيد بن دعلج .

قال الواقدي : وأصاب الناس في هذه السنة وباء شديد فتوفي فيه خلق كثير وجم غفير ، منهم أفلح بن حميد ، وحيوة بن شريح ، ومعاوية بن صالح بمكة ، وزفر بن الهذيل بن قيس بن سليم ثم ساق نسبه إلى معد بن عدنان ، يقال له التميمي العنبري الكوفي الفقيه الحنفي ، أقدم أصحاب أبي حنيفة وفاة ، وأكثرهم استعمالا للقياس ، وكان عابداً ، اشتغل أولاً بعلم الحديث ثم غلب عليه الفقه والقياس . ولد سنة ست عشرة ومائة ، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة عن ثنتين وأربعين سنة رحمه الله وإيانا .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

استهلت هذه السنة وخليفة الناس أبو عبد الله محمد بن المنصور المهدي ، فبعث في أولها العباس بن محمد إلى بلاد الروم في جيش كثيف ، وركب معهم مشيعاً لهم ، فساروا إليها فافتتحوا مدينة عظيمة للروم ، وغنموا غنائم كثيرة ورجعوا سالمين لم يفقد منهم أحد . وفيها توفي حميد بن قحطبة نائب خراسان ، فولى المهدي مكانه ابا عون عبد الملك بن يزيد ، وولى حمزة بن مالك سجستان ، وولى جبريل بن يحيى سمرقند وفيها بنى المهدي مسجد الرصافة وخندقها . وفيها جهز جيشاً كثيفاً إلى بلاد الهند فوصلوا إليها في السنة الآتية ، وكان من أمرهم ما سنذكره . وفيها توفي نائب السند معبد بن الخليل فولى المهدي مكانه روح بن حاتم بمشورة وزيره أبي عبد الله . وفيها

أطلق المهدي من كان في السجون إلا من كان محبوساً على دم ، أو من سعى في الأرض فساداً ، أو من كان عنده حق لأحد . وكان في جملة من أخرج من المطبق يعقوب بن داود مولى بني سليم ، والحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسين ، وأمر بصيرورة حسن هذا إلى نصير الخادم ليحترز عليه . وكان الحسن قد عزم على الهرب من السجن قبل خروجه منه ، فلما خرج يعقوب بن داود ناصح الخليفة بما كان عزم عليه فنقله من السجن وأودعه عند نصير الخادم ليحتاط عليه ، وحظي يعقوب بن داود عند المهدي جداً حتى صار يدخل عليه في الليل بلا استئذان ، وجعله على أمور كثيرة ، وأطلق له مائة ألف درهم . وما زال عنده كذلك حتى تمكّن المهدي من الحسن بن إبراهيم فسقطت منزلة يعقوب عنده . وقد عزل المهدي نواباً كثيرة عن البلاد . وولّى بدلهم وفي هذه السنة تزوج المهدي بابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي ، وأعتق جاريته الخيزران وتزوجها أيضاً ، وهي أم الرشيد . وفيها وقع حريق عظيم في السفن التي في دجلة بغداد . ولما ولي المهدي سأل عيسى بن موسى ـ وكان ولي العهد من بعده ـ أن يخلع نفسه من الأمر فامتنع على المهدي ، وسأل المهدي أن يقيم بأرض الكوفة في ضيعة له فأذن له ، وكان قد استقر على إمرة الكوفة روح بن حاتم ، فكتب إلى المهدي : إن عيسى بن موسى لا يأتي الجمعة ولا الجماعة مع الناس إلا شهرين من السنة ، وإنه إذا جاء يدخل بدوابه إلى داخل باب المسجد فتروث دوابه حيث يصلي الناس . فكتب إليه المهدي أن يعمل خشباً على أفواه السكك حتى لا يصل الناس إلى المسجد إلا مشاة . فعلم بذلك عيسى بن موسى فاشترى قبل الجمعة دار المختار بن أبي عبيدة من ورثته ـ وكانت ملاصقة للمسجد ـ وكان يأتي إليها من يوم الخميس ، فاذا كان يوم الجمعة ركب حماراً إلى باب المسجد فنزل إلى هناك وشهد الصلاة مع الناس وأقام بالكلية بالكوفة بأهله ، ثم ألح المهدي عليه في أن يخلع نفسه وتوعده إن لم يفعل ، ووعده إن فعل فأجابه إلى ذلك فأعطاه أقطاعاً عظيمة ، وأعطاه من المال عشرة آلاف ألف ، وقيل عشرين ألف ألف ، وبايع المهدي لولديه من بعده موسى الهادي ، ثم هارون الرشيد كما سيأتي .

وحج بالناس يزيد بن منصور خال المهدي ، وكان نائباً على اليمن فولاه الموسم واستقدمه عليه شوقاً إليه ، وغالب نواب البلاد عزلهم المهدي ، غير أن إفريقية مع يزيد بن حاتم ، وعلى مصر محمد بن سليمان أبو ضمرة ، وعلى خراسان أبو عون ، وعلى السند بسطام بن عمرو ، وعلى الأهواز وفارس عمارة بن حمزة ، وعلى اليمن رجاء بن رجاء ، وعلى اليمامة بشر بن المنذر ، وعلى لجزيرة الفضل بن صالح ، وعلى المدينة عبيد الله بن صفوان الجمحي ، وعلى مكة والطائف براهيم بن يحيى ، وعلى أحداث الكوفة إسحاق بن الصباح الكندي ، وعلى خراجها ثابت بن وسى ، وعلى قضائها شريك بن عبد الله النخعي ، وعلى أحداث البصرة عمارة بن حمزة وعلى ملاتها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النميري ، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن العنبري .

وفيها توفي عبد العزيز بن أبي روّاد ، وعكرمة بن عمار ، ومالك بن مغول ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذيب المدني : نظير مالك بن أنس في الفقه ، وربما أنكر على مالك أشياء ترك الأخذ فيها ببعض الأحاديث ، كما يراها مالك من إجماع أهل المدينة وغير ذلك من المسائل .

ثم دخلت سنة ستين ومائة

فيها خرج رجل بخراسان على المهدي منكراً عليه أحواله وسيرته وما يتعاطاه ، يقال له يوسف البرم ، والتف عليه خلق كثير ، وتفاقم الأمر وعظم الخطب به ، فتوجه إليه يزيد بن مزيد فلقيه فاقتتلا قتالاً شديداً حتى تنازلا وتعانقاً، فأسر يزيد بن مزيد يوسف هذا ، وأسر جماعة من أصحابه فبعثهم إلى المهدي فأدخلوا عليه ، وقد حملوا على جمال محولة وجوههم إلى ناحية أذناب الابل ، فأمر الخليفة هرثمة أن يقطع يدي يوسف ورجليه ثم تضرب عنقه وأعناق من معه وصلبهم على جسر دجلة الأكبر مما يلي عسكر المهدي وأطفأ الله ثائرتهم وكفى شرهم .

البيعة لموسى الهَادي

ذكرنا أن المهدي ألحَّ على عيسى بن موسى أن يخلع نفسه وهو مع كل ذلك يمتنع وهو مقيم بالكوفة ، فبعث إليه المهدي أحد القواد الكبار وهو أبو هريرة محمد بن فروخ في ألف من أصحابه لاحضاره إليه ، وأمر كل واحد منهم أن يحمل طبلاً ، فاذا واجهوا الكوفة عند إضاءة الفجر ضرب كل واحد منهم على طبله ، ففعلوا ذلك فارتجت الكوفة ، وخاف عيسى بن موسى ، فلما انتهوا إليه دعوه إلى حضرة الخليفة فأظهر أنه يشتكي ، فلم يقبلوا ذلك منه بل أخذوه معهم فدخلوا به على الخليفة في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة ، فاجتمع عليه وجوه بني هاشم والقضاة والأعيان وسألوه في ذلك وهو يمتنع ، ثم لم ينزل الناس به بالرغبة والرهبة حتى أجاب في يوم الجمعة لأربع مضين من المحرم بعد العصر . وبويع لولدي المهدي موسى وهارون الرشيد صباحة يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم وجلس المهدي في قبة عظيمة في إيوان الخلافة ، ودخل الأمراء فبايعوا ثم نهض فصعد المنبر وجلس ابنه موسى الهادي تحته ، وقام عيسى بن موسى على أول درجة ، وخطب المهدي فأعلم الناس بما وقع من خلع عيسى بن موسى نفسه وأنه قد حلل الناس من الايمان التي له في أعناقهم وجعل ذلك إلى موسى الهادي . فصدق عيسى بن موسى وبايع المهدي على ذلك . ثم نهض الناس فبايعوا الخليفة على حسب مراتبهم وأسنانهم ، وكتب على عيسى بن موسى مكتوباً مؤكداً بالإيمان البالغة من الطلاق والعتاق ، وأشهد عليه جماعة الأمراء والوزراء وأعيان بني هاشم وغيرهم وأعطاه ما ذكرنا من الأموال وغيرها .

وفيها دخل عبد الملك بن شهاب المسمعي مدينة باربد من الهند في جحفل كبير فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق ، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة ، وهلك بشر كثير من أهلها ، وفتحوها

عنوة[1] وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك لاعتلاء البحر ، فأقاموا هنالك فأصابهم داء في أفواههم يقال له حمام قُرّ فمات منهم ألف نفس منهم الربيع بن صبيح ، فلما أمكنهم المسير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح فغرق طائفة أيضاً ، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعهم سبي كثير ، فيهم بنت ملكهم . وفيها حكم المهدي بالحاق ولد أبي بكرة الثقفي إلى ولاء رسول الله ﷺ وقطع نسبهم من ثقيف ، وكتب بذلك كتاباً إلى والي البصرة . وقطع نسبه من زياد ومن نسب نافع ففي ذلك يقول بعض الشعراء وهو خالد النجار : ـ

إنَّ زياداً ونافعاً وأبا بكرةَ عندي مِنْ أعجبِ العجبِ
ذا قرشيٌّ كما يقولُ وذا مولىً وهذا بزعمهِ عربي

وقد ذكر ابن جرير أن نائب البصرة لم ينفذ ذلك .

وفي هذه السنة حج بالناس المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي ، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وخلقاً من الأمراء ، منهم يعقوب بن داود على منزلته ومكانته ، وكان الحسن ابن إبراهيم قد هرب من الخادم فلحق بأرض الحجاز ، فاستأمن له يعقوب بن داود فأحسن المهدي صلته وأجزل جائزته ، وفرق المهدي في أهل مكة مالاً كثيراً جداً ، كان قد قدم معه ثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب ، وجاء من مصر ثلثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتا ألف دينار ، فأعطاها كلها في أهل مكة والمدينة . وشكت الحجبة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة أن تنهدم من كثرة ما عليها من الكساوي[2] ، فأمر بتجريدها ، فلما انتهوا إلى كساوي هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج ثخين جداً ، فأمر بازالتها وبقيت كساوي الخلفاء قبله وبعده ، فلما جردها طلاها بالخلوف وكساها كسوة حسنة جداً ، ويقال إنه استفتى مالكاً في إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير ، فقال مالك : دعها فإني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة . فتركها على ما هي .

وحمل له محمد بن سليمان نائب البصرة الثلج إلى مكة ، وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها . ولما دخل المدينة وسع المسجد النبوي ، وكان فيه مقصورة فأزالها وأراد أن ينقص من المنبر ما كان زاده معاوية بن أبي سفيان فقال له مالك : إنه يخشى أن ينكسر خشبة العتيق إذا زعزع ، فتركه . وتزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية ، وانتخب من أهلها خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرساً بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم أرزاقاً غير أعطياتهم وأقطعهم أقطاعاً معروفة بهم .

وفيها توفي الربيع بن صبيح ، وسفيان بن حسين ، أحد أصحاب الزهري ، وشعبة بن

(١) عنوة : قهراً وقسراً .
(٢) الكساوي : مفردها الكسوة وهي الثوب .

الحجاج بن الورد العتكي الأزدي أبو بسطام الواسطي، ثم انتقل إلى البصرة. رأى شعبة الحسن وابن سيرين، وروى عن أمم من التابعين، وحدث عنه خلق من مشايخه وأقرانه وأئمة الاسلام. وهو شيخ المحدثين الملقب فيهم بأمير المؤمنين قاله الثوري . وقال يحيى بن معين : هو إمام المتقين ، وكان في غاية الزهد والورع والتقشف والحفظ وحسن الطريقة . وقال الشافعي : لولاه ما عرف الحديث بالعراق . وقال الامام أحمد : كان أمة وحده في هذا الشأن ، ولم يكن في زمانه مثله . وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا حجة صاحب حديث . وقال وكيع : إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات بذبه[1] عن حديث رسول الله ﷺ . وقال صالح بن محمد بن حرزة : كان شعبة أول من تكلم في الرجال وتبعه يحيى القطان ثم أحمد وابن معين . وقال ابن مهدي : ما رأيت أعقل من مالك ، ولا أشد تقشفاً من شعبة ، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك ، ولا أحفظ للحديث من الثوري . وقال مسلم بن إبراهيم : ما دخلت على شعبة في وقت صلاة إلا ورأيته يصلي ، وكان أبا للفقراء وأماً لهم . وقال النضر بن شميل : ما رأيت أرحم بمسكين منه ، كان إذا رأى مسكينا لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عنه . وقال غيره : ما رأيت أعبد منه لقد عبد الله حتى لصق جلده بعظمه . وقال يحيى القطان : ما رأيت أرق للمسكين منه ، كان يدخل المسكين في منزله فيعطيه ما أمكنه . قال محمد بن سعد وغيره : مات في أول سنة ستين ومائة في البصرة عن ثمان وسبعين سنة .

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

فيها غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فنزل دابق ، وجاشت الروم عليه فلم يتمكن المسلمون من الدخول إليها بسبب ذلك . وفيها أمر المهدي بحفر الركايا[2] وعمل المصانع وبناء القصور في طريق مكة وولى يقطين بن موسى على ذلك ، فلم يزل يعمل في ذلك إلى سنة إحدى وسبعين ومائة ، مقدار عشر سنين ، حتى صارت طريق الحجاز من العراق من أرفق الطرقات وآمنها وأطيبها . وفيها وسع المهدي جامع البصرة من قبلته وغربه . وفيها كتب إلى الآفاق أن لا تبقى مقصورة في مسجد جماعة ، وأن تقصر المنابر إلى مقدار منبر رسول الله ﷺ ، ففعل ذلك في المدائن كلها . وفيها اتضعت منزلة أبي عبيد الله وزير المهدي وظهرت عنده خيانته فضم إليه المهدي من يشرف عليه ، وكان ممن ضم إليه إسماعيل بن علية ، ثم أبعده وأقصاه وأخرجه من معسكره . وفيها ولي القضاء عافية بن يزيد الأزدي وكان يحكم هو وابن علاثة في عسكر المهدي بالرصافة . وفيها خرج رجل يقال له المقنع بخراسان في قرية في قرى مرو ، وكان يقول بالتناسخ واتبعه على ذلك خلق كثير . فجهز إليه المهدي عدة من أمرائه وأنفذ إليه جيوشاً كثيرة ، منهم معاذ بن مسلم أمير خراسان ، وكان من أمره وأمرهم ما سنذكره .

وحج بالناس فيها موسى الهادي بن المهدي . وفيها توفي إسرائيل بن يونس بن إسحاق

---

(١) بذبه : بدفاعه .

(٢) الركايا : مفردها الركية : البئر ذات الماء .

السبيعي وزائدة بن قدامة وسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أحد أئمة الاسلام وعبادهم والمقتدي به أبو عبد الله الكوفي . روى عن غير واحد من التابعين وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم ، قال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغير واحد : هو أمير المؤمنين في الحديث . وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم. وقال أيوب: ما رأيت كوفياً أفضله عليه . وقال يونس بن عبيد: ما رأيت أفضل منه ، وقال عبد الله : ما رأيت أفقه من الثوري . وقال شعبة: ساد الناس بالورع والعلم. وقال: أصحاب المذاهب ثلاثة : ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه ، والثوري في زمانه . وقال الامام أحمد: لا يتقدمه في قلبي أحد . ثم قال: تدري من الامام ؟ الامام سفيان الثوري . وقال عبد الرزاق : سمعت الثوري يقول: ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانني حتى إني لأمرّ بالحائك يتغنى فأسد أذني مخافة أن أحفظ ما يقول. وقال: لأن أترك عشرة آلاف دينار يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس .

قال محمد بن سعد : أجمعوا أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة ، وكان عمره يوم مات أربعاً وستين سنة ، ورآه بعضهم في المنام يطير في الجنة من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقرأ : ﴿ الحمدُ لله الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾[1] الآية . وقال : إذا ترأس الرجل سريعاً أخر بكثير من العلم . وممن توفي فيها :

أبو دلامة

زيد بن الجون الشاعر الماجن ، أحد الظرفاء ، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وحظي عند المنصور لأنه كان يضحكه وينشده الأشعار ويمدحه ، حضر يوماً جنازة امرأة المنصور ـ وكانت ابنة عمه ـ يقال لها حمادة بنت عيسى ، وكان المنصور قد حزن عليها ، فلما سووا عليها التراب وكان أبو دلامة حاضراً ، فقال له المنصور : ويحك يا أبا دلامة ، ما أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : ابنة عم أمير المؤمنين . فضحك المنصور حتى استلقى ، ثم قال : ويحك فضحتنا . ودخل يوماً على المهدي يهنئه بقدومه من سفره وأنشده :

إني حلفتُ لئنْ رأيتكَ سالماً ... بقرى العراقِ وأنتَ ذو وفرِ
لتصلِّينَّ على النبيِّ محمدٍ ... ولتملأنَّ دراهماً حجري

فقال المهدي : أما الأول فنعم ، نصلي على النبي محمد ، وأما الثاني فلا . فقال : يا أمير المؤمنين هما كلمتان فلا تفرق بينهما . فأمر أن يملأ حجره دراهم ، ثم قال له : قم ! فقال : ينخرق منها قميصي فأفرغت منه في أكياسها ثم قام فحملها وذهب . وذكر عنه ابن خلكان أنه مرض

---

(١) سورة الزمر ، الآية/ ٧٤ .

ابن له فداواه طبيب فلما عوفي قال له : ليس عندنا ما نعطيك ، ولكن ادّع على فلان اليهودي بمبلغ ما تستحقه عندنا من أجرتك حتى أشهد أنا وولدي عليه بالمبلغ المذكور . قال : فذهب الطبيب إلى قاضي الكوفة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى - وقيل ابن شبرمة - فادعى عليه عنده فأنكر اليهودي فشهد عليه أبو دلامة وابنه ، فلم يستطع القاضي أن يرد شهادتهما وخاف من طلب التزكية فأعطى الطبيب المدعي المال من عنده وأطلق اليهودي . وجمع القاضي بين المصالح . توفي أبو دلامة في هذه السنة ، وقيل إنه أدرك خلافة الرشيد سنة سبعين فالله أعلم .

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة

فيها خرج عبد السلام بن هاشم اليشكري بأرض قنسرين واتبعه خلق كثير ، وقويت شوكته فقاتله جماعة من الأمراء فلم يقدروا عليه ، وجهز إليه المهدي جيوشاً وأنفق فيهم أموالاً فهزمهم مرات ثم آل الأمر به أن قتل بعد ذلك . وفيها غزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألفا من المرتزقة سوى المتطوعة ، فدمر الروم وحرق بلداناً كثيرة ، وخرب أماكن وأسر خلقاً من الذراري . وكذلك غزا يزيد بن أبي أسيد السلمي بلاد الروم من باب قاليقلا فغنم وسلم وسبى خلقاً كثيراً .

وفيها خرجت طائفة بجرجان فلبسوا الحمرة مع رجل يقال له عبد القهار ، فغزاه عمرو بن العلاء من طبرستان فقهر عبد القهار وقتله وأصحابه . وفيها أجرى المهدي الأرزاق في سائر الأقاليم والآفاق على المجذَّمين[1] والمحبوسين ، وهذه مثوبة عظيمة ومكرمة جسيمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن جعفر بن المنصور . وفيها توفي من الأعيان :

إبراهيم بن أدهم

أحد مشاهير العباد وأكابر الزهاد . كانت له همة عالية في ذلك رحمه الله . فهو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن عامر بن إسحاق التميمي . ويقال له العجلي ، أصله من بلخ ثم سكن الشام ودخل دمشق ، وروى الحديث عن أبيه والأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبي هريرة وأبي إسحاق السبيعي وخلق . وحدث عنه خلق منهم بقية والثوري وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن حميد . وحكى عنه الأوزاعي . وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجزري عن إبراهيم بن أدهم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة . قال : « دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي جالساً فقلت : يا رسول الله إنك تصلي جالساً فما أصابك ؟ قال : الجوع يا أبا هريرة . قال : فبكيت فقال : لا تبك فإن شدة يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا » . ومن طريق بقية عن إبراهيم بن أدهم حدثني أبو إسحاق الهمداني عن عمارة بن غزية عن أبي هريرة . قال قال رسول الله ﷺ : « إن الفتنة تجيء فتنسف العباد نسفاً ، وينجو العالم منها بعلمه » .

---

(١) المجذَّمين : المقطوعي الأيدي .

قال النسائي : إبراهيم بن أدهم ثقة مأمون أحد الزهاد . وذكر أبو نعيم وغيره أنه كان ابن ملك من ملوك خراسان ، وكان قد حبب إليه الصيد ، قال : فخرجت مرة فأثرت ثعلبا فهتف بي هاتف من قربوس سرجي : ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . قال : فوقفت وقلت : انتهيت انتهيت ، جاءني نذير من رب العالمين . فرجعت إلى أهلي فخليت عن فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت منه جبة وكساء ثم ألقيت ثيابي إليه ، ثم أقبلت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصفُ لي بها الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فأرشدني إلى بلاد الشام فأتيت طرسوس فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد ، وكان يقول : ما تهنيت بالعيش إلا في بلاد الشام . أفر بديني من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل ، فمن يراني يقول هو موسوس . ثم دخل البادية ودخل مكة وصحب الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه مثل الحصاد وعمل الفاعل وحفظ البساتين وغير ذلك . وما روى عنه أنه وجد رجلاً في البادية فعلمه اسم الله الأعظم فكان يدعو به حتى رأى الخضر فقال له : إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم ، ذكره القشيري وابن عساكر عنه باسناد لا يصح . وفيه أنه قال له : إن إلياس علمك اسم الله الأعظم . وقال إبراهيم : أطب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار .

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان أكثر دعائه اللهم انقلني من ذل مصيبتك إلى عز طاعتك . وقيل له إن اللحم قد غلا فقال : ارخصوه أي لا تشتروه فانه يرخص . وقال بعضهم : هتف به الهاتف من فوقه يا إبراهيم ما هذا العبث ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أنما خلقناكُمْ عَبَثاً وأنكُمْ إلينَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[1] اتق الله وعليك بالزاد ليوم القيامة . فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة . وروى ابن عساكر باسناد فيه نظر في ابتداء أمره قال : بينما أنا يوماً في منظرة لي ببلخ وإذا شيخ حسن الهيئة حسن اللحية قد استظل بظلها فأخذ بمجامع قلبي ، فأمرت غلاماً فدعاه فدخل فعرضت عليه الطعام فأبى فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : من وراء النهر . قلت : أين تريد ؟ قال الحج . قلت في هذا الوقت ؟ ـ وقد كان أول يوم من ذي الحجة أو ثانية ـ فقال : يفعل الله ما يشاء . فقلت : الصحبة . قال : إن أحببت ذلك فموعدك الليل ، فلما كان الليل جاءني فقال : قم بسم الله فأخذت ثياب سفري وسرنا نمشي كأنما الأرض تجذب من تحتنا ، ونحن نمر على البلدان ونقول : هذه فلانة هذه فلانة ، فاذا كان الصباح فارقني ويقول : موعدك الليل ، فاذا كان الليل جاءني ففعلنا مثل ذلك . فانتهينا إلى مدينة النبي ﷺ ثم سرنا إلى مكة فجئناها ليلاً فقضينا الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام فزرنا بيت المقدس وقال : إني عازم على المقام بالشام ، ثم رجعت أنا إلى بلدي بلخ كسائر الضعفاء حتى رجعنا إليها ولم أسأله عن اسمه ، فكان ذلك أول أمري .

[وروى من وجه آخر فيه نظر . وقال أبو حاتم الرازي عن أبي نعيم عن سفيان الثوري قال :

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية/١١٥ .

كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل ، ولو كان في الصحابة كان رجلاً فاضلاً له سرائر وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا شيئاً ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يديه][1] .

وقال عبد الله بن المبارك : كان إبراهيم رجلاً فاضلاً له سرائر ومعاملات بينه وبين الله عز وجل وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا شيئاً من عمله ، ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يده . وقال بشر بن الحارث الحافي : أربعة رفعهم الله بطيب المطعم ، إبراهيم بن أدهم ، وسليمان بن الخواص ووهيب بن الورد ، ويوسف بن أسباط . وروى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال : إنما سمع إبراهيم بن أدهم حديثاً واحداً فأخذ به فساد أهل زمانه . قال : حدثنا منصور عن ربعي بن خراش قال : جاء رسول الله ﷺفقال :يا رسول الله دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال : « إذا أردت أن يحبك الله فأبغض الدنيا ، وإذا أردت أن يحبك الناس فما كان عندك من فضولها فانبذه الحافي» وقال ابن أبي الدنيا :حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال : جلس إبراهيم إلى بعض العلماء فجعلوا يتذاكرون الحديث وإبراهيم ساكت ، ثم قال : حدثنا منصور ثم سكت فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس : فعاتبه بعض أصحابه في ذلك ! فقال . إني لأخشى مضرة ذلك المجلس في قلبي إلى اليوم . وقال رشدين بن سعد : مر إبراهيم بن أدهم بالأوزاعي وحوله حلقة فقال : لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم . فقام الأوزاعي وتركهم . وقال إبراهيم بن بشار قيل لابن أدهم : لم تركت الحديث ؟ فقال : إني مشغول عنه بثلاث ، بالشكر على النعم ، وبالاستغفار من الذنوب ، وبالاستعداد للموت ، ثم صاح وغشي عليه فسمعوا هاتفاً يقول : لا تدخلوا بيني وبين أوليائي .

وقال أبو حنيفة يوماً لإبراهيم بن أدهم : قد رزقت من العبادة شيئاً صالحاً فليكن العلم من بالك فإنه رأس العبادة وقوام الدين . فقال له إبراهيم : وأنت فليكن العبادة والعمل بالعلم من بالك وإلا هلكت . وقال إبراهيم : ماذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن جهاد ولا عن صلة رحم ، إنما يسأل ويحاسب هؤلاء المساكين الأغنياء ، وقال شقيق بن إبراهيم : لقيت ابن أدهم بالشام وقد كنت رأيته بالعراق وبين يديه ثلاثون شاكرياً . فقلت له : تركت ملك خراسان ، وخرجت من نعمتك ؟ فقال : اسكت ما تهنيت بالعيش إلا ههنا ، أفر بديني من شاهق إلى شاهق ، فمن يراني يقول هو موسوس أو حمَّال أو ملَّاح ، ثم قال : بلغني أنه يؤتى بالفقير يوم القيامة فيوقف بين يدي الله فيقول له : يا عبدي مالك لم تحج ؟ فيقول : يا رب لم تعطني شيئاً أحج به . فيقول الله : صدق عبدي اذهبوا به إلى الجنة . وقال أقمت بالشام أربعاً وعشرين سنة لم أقم بها لجهاد ولا رباط[2] إنما نزلتها لأشبع من خبز حلال . وقال : الحزن حزنان حزن لك وحزن عليك ،

---

(١) زيادة من المصرية .

(٢) رباط : هي المعاهد المبنية والموقوفة للفقراء .

فحزنك على الآخرة لك . وحزنك على الدنيا وزينتها عليك . وقال الزهد ثلاثة ، واجب، ومستحب ، وزهد سلامة ، فأما الواجب فالزهد في الحرام ، والزهد عن الشهوات الحلال مستحب ، والزهد عن الشبهات سلامة . وكان هو وأصحابه يمنعون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء ولا يجعلون في ملحهم أبزاراً ، وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب رمى بطيبها إلى أصحابه وأكل هو الخبز والزيتون . وقال قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع ، وكثرة الحرص والطمع تورث الغم والجزع . وقال له رجل : هذه جبة أحب أن تقبلها مني . فقال : إن كنت غنياً قبلتها ، وإن كنت فقيراً لم أقبلها . قال : أنا غني . قال : كم عندك ؟ قال ألفان قال : تود أن تكون أربعة آلاف ؟ قال : نعم ، قال فأنت فقير ، لا أقبلها منك . وقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : لو أمكنني أن أطلق نفسي لطلقتها . ومكث بمكة خمسة عشر يوماً لا شيء له ولم يكن له زاد سوى الرمل بالماء ، وصلى بوضوء واحد خمس عشرة صلاة ، وأكل يوماً على حافة الشريعة كُسَيْرَات[1] مبلولة بالماء وضعها بين يديه أبو يوسف الغسولي ، فأكل منها ثم قام فشرب من الشريعة ثم [جاء واستلقى على قفاه وقال : يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش . فقال له أبو يوسف : طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم . فتبسم إبراهيم وقال : من أين لك هذا الكلام ؟ وبينما هو بالمصيصة في جماعة من أصحابه إذ جاءه راكب فقال : أيكم إبراهيم بن أدهم ؟ فأرشد إليه ، فقال : يا سيدي أنا غلامك ، وإن أباك قد مات وترك مالا هو عند القاضي ، وقد جئتك بعشرة آلاف درهم لتنفقها عليك إلى بلخ ، وفرس وبغلة . فسكت إبراهيم طويلاً ثم رفع رأسه فقال : إن كنت صادقاً فالدراهم والفرس والبغلة لك ، ولا تخبر به أحداً . ويقال : إنه ذهب بعد ذلك إلى بلخ وأخذ المال من الحاكم وجعله كله في سبيل الله .

وكان معه بعض أصحابه فمكثوا شهرين لم يحصل لهم شيء يأكلونه ، فقال له إبراهيم : ادخل إلى هذه الغيضة[2] ـ وكان ذلك في يوم شات ـ قال : فدخلت فوجدت شجرة عليها خوخ كثير فملأت منه جرابي ثم خرجت ، فقال : ما معك ؟ قلت : خوخ . فقال : يا ضعيف اليقين ! لو صبرت لوجدت رطباً جنياً ، كما رزقت مريم بنت عمران . وشكا إليه بعض أصحابه الجوع فصلى ركعتين فإذا حوله دنانير كثيرة فقال لصاحبه : خذ منها ديناراً ، فأخذه واشترى لهم به طعاماً . وذكروا أنه كان يعمل بالفاعل ثم يذهب فيشتري البيض والزبدة وتارة الشواء والجوذبان[3] والخبيص فيطعمه أصحابه وهو صائم ، فإذا أفطر يأكل من رديء الطعام ويحرم نفسه المطعم الطيب ليبر به الناس تأليفاً لهم وتحبباً وتودداً إليهم .

---

(١) كسيرات : القطع الصغيرة من الخبز .

(٢) الغيضة : الأجمة .

(٣) الجوذبان : نوع من الحلوى .

وأضاف[1] الأوزاعي إبراهيم بن أدهم فقصر إبراهيم في الأكل فقال : مالك قصرت ؟ فقال : لأنك قصرت في الطعام . ثم عمل إبراهيم طعاماً كثيراً ودعا الأوزاعي فقال الأوزاعي : أما تخاف أن يكون سرفاً ؟ فقال : لا ! إنما السرف ما كان في معصية الله ، فأما ما أنفقه الرجل على إخوانه فهو من الدين . وذكروا أنه حصد مرة بعشرين ديناراً ، فجلس مرة عن حجام هو وصاحب له ليحلق رؤوسهم ويحجمهم ، فكأنه تبرم بهم واشتغل عنهم بغيرهم ، فتأذى صاحبه من ذلك ثم أقبل عليهم الحجام فقال : ماذا تريدون ؟ قال إبراهيم : أريد أن تحلق رأسي وتحجمني[2] ، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم العشرين ديناراً ، وقال : أردت أن لا تحقر بعدها فقيراً أبداً . وقال مضاء بن عيسى[3] : ما فاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا صلاة ولكن بالصدق والسخاء .

وكان إبراهيم يقول : فروا من الناس كفراركم من الأسد الضاري ، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة . وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يحدثه إبراهيم ، وكان إذا حضر في مجلس فكأنما على رؤوسهم الطير هيبة له وإجلالاً . وربما تسامر هو وسفيان الثوري في الليلة الشاتية إلى الصباح . وكان الثوري يتحرز معه في الكلام . ورأى رجلاً قيل له : هذا قاتل خالك ، فذهب إليه فسلم عليه وأهدى له وقال : بلغني أن الرجل لا يبلغ درجة اليقين حتى يأمنه عدوه . وقال له رجل : طوبى لك أفنيت عمرك في العبادة وتركت الدنيا والزوجات . فقال : ألك عيال ؟ قال : نعم . فقال : لروعة الرجل بعياله ـ يعني في بعض الأحيان من الفاقة ـ أفضل من عبادة كذا وكذا سنة . ورآه الأوزاعي ببيروت وعلى عنقه حزمة حطب فقال : يا أبا إسحاق إن أخوانك يكفونك هذا . فقال له : اسكت يا أبا عمرو ! فقد بلغني أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة . وخرج ابن أدهم من بيت المقدس فمر بطريق فأخذته المسلحة في الطريق فقالوا : أنت عبد ؟ قال : نعم . قالوا : آبق ؟ قال نعم . فسجنوه . بلغ أهل بيت المقدس خبره فجاؤوا برمتهم إلى نائب طبرية فقالوا : علام سجنت إبراهيم بن أدهم ؟ قال : ما سجنته . قالوا : بلى هو في سجنك . فاستحضره فقال : علام سجنت . فقال : سل المسلحة ، قالوا : أنت عبد ؟ قلت نعم وأنا عبد الله . قالوا : آبق ؟ قلت نعم وأنا عبد آبق من ذنوبي . فخلى سبيله .

وذكروا أنه مر مع رفقة فإذا الأسد على الطريق فتقدم إليه إبراهيم بن أدهم فقال له : يا قسورة[4] إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فعودك على بدئك . قالوا : فولى السبع ذاهباً يضرب بذنبه ، ثم أقبل علينا إبراهيم فقال : قولوا : اللهم راعنا بعينك التي لا تنام ، واكنفنا بكنفك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله ، يا الله ، يا الله . قال

(١) أضاف : كان ضيفه .

(٢) تحجمني : تداوني بالحجامة .

(٣) سقط من المصرية .

(٤) قسورة : الأسد .

خلف بن تميم . فما زلت أقولها منذ سمعتها فما عرض لي لص ولا غيره .

وقد روى لهذا شواهد من وجوه أخر . وروى أنه كان يصلي ذات ليلة فجاءه أسد ثلاثة فتقدم إليه أحدهم فشم ثيابه ثم ذهب فربض قريباً منه ، وجاء الثاني ففعل مثل ذلك ، وجاء الثالث ففعل مثل ذلك ، واستمر إبراهيم في صلاته ، فلما كان وقت السحر قال لهم : إن كنتم أمرتم بشيء فهلموا ، وإلا فانصرفوا فانصرفوا . وصعد مرة جبلاً بمكة ومعه جماعة فقال لهم : لو أن وليا من أولياء الله قال لجبل زل لزال . فتحرك الجبل تحته فوكزه برجله وقال : اسكن فإنما ضربتك مثلاً لأصحابي . وكان الجبل أبا قبيس . وركب مرة سفينة فأخذهم الموج من كل مكان فلف إبراهيم رأسه بكسائه واضطجع وعج[1] أصحاب السفينة بالضجيج والدعاء ، وأيقظوه وقالوا : ألا ترى ما نحن فيه من الشدة ؟ فقال : ليس هذه شدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . ثم قال : اللهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك . فصار البحر كأنه قدح زيت . وكان قد طالبه صاحب السفينة بأجرة حمله دينارين وألح عليه ، فقال له : اذهب معي حتى أعطيك ديناريك ، فأتى به إلى جزيرة في البحر فتوضأ إبراهيم وصلى ركعتين ودعا وإذا ما حوله قد ملىء دنانير ، فقال له : خذ حقك ولا تزد ولا تذكر هذا لأحد . وقال حذيفة المرعشي : أويت أنا وإبراهيم إلى مسجد خراب بالكوفة ، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئاً ، فقال لي : كأنك جائع . قلت : نعم . فأخذ رقعة فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حا ل ، المشار إليه بكل معنى ،

أنا حامد أنا ذاكر أنا شاكر	أنا جائعٌ أنا حاسرٌ أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها	فكن الضمينَ لنصفها يا باري[2]
مدحي لغيركَ وهج نارٍ خضتها	فأجز عبيدك من دخول النارِ

ثم قال لي : اخرج بهذه الرقعة ولا تعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى ، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه . فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتها إليه فلما قرأها بكى ودفع إلي ستمائة دينار وانصرف ، فسألت رجلاً من هذا الذي على البغلة ؟ فقالوا : هو رجل نصراني . فجئت إبراهيم فأخبرته فقال : الآن يجيء فيسلم . فما كان غير قريب حتى جاء فأكبَّ على رأس إبراهيم وأسلم . وكان إبراهيم يقول : دارنا أمامنا وحياتنا بعد وفاتنا . فأما إلى الجنة وإما إلى النار . مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك وانظر كيف تكون حينئذ ، ومثل له هول المضجع[3] ومساءلة منكر ونكير وانظر كيف تكون . ومثل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب ، وانظر كيف تكون . ثم صرخ صرخة خر مغشياً عليه . ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك فقال له :

---

(١) عج : صاحوا ورفعوا أصواتهم .

(٢) باري : ناحِت السهم .

(٣) المضجع : موضع الاضطجاع .

لا تطمع فيما لا يكون ، ولا تنس ما يكون . فقيل له : كيف هذا يا أبا إسحاق ؟ فقال : لا تطمع في البقاء والموت يطلبك ، فكيف يضحك من يموت ولا يدري أين يذهب به إلى جنة أم إلى نار ؟ ولا تنس ما يكون الموت يأتيك صباحاً أو مساء . ثم قال : أوّه أوّه ! ثم خرّ مغشياً عليه . وكان يقول : ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا ولا نسأل كشفه من ربنا . ثم يقول : ثكلت عبداً أمه أحب الدنيا ونسي ما في خزائن مولاه وقال :إذا كنت بالليل نائماً وبالنهار هائماً وفي المعاصي دائماً فكيف ترضى من هو بأمورك قائماً . ورآه بعض أصحابه وهو بمسجد بيروت وهو يبكي ويضرب بيديه على رأسه ، فقال : ما يبكيك ؟ فقال : ذكرت يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . وقال : إنك كلما أمعنت النظر في مرآة التوبة بان لك قبح شين المعصية .

وكتب إلى الثوري : من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه . وسأله بعض الولاة من أين معيشتك ؟ فأنشأ يقول :

نـرقّـعُ دنيـانـا بتمـزيقِ ديـننـا ... فـلا دينُنـا يبقَى ولا مـا نـرقّـعُ

وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

لمـا توعـد الدنيـا بـهِ منْ شـرورهـا ... يكُـون بكاءُ الـطفلِ سـاعةَ يـوضعُ
وإلّا فـمـا يـبـكيـهُ مـنهـا وإنـهـا ... لأروحُ مـمـا كـانَ فـيـهُ وأوسـعُ
إذا أبصـرَ الـدنيـا استهـلَّ كـأنّما ... يـرى مـا سيلقى من أذاهـا ويسمعُ

وكان يتمثل أيضاً :

رأيـتُ الـذنـوبَ تميتُ الـقـلوب ... ويـورثـهـا الـذلُّ إدمـانـهـا[1]
وتـركُ الـذنـوبِ حيـاةُ القلوبِ ... وخـيـرٌ لـنـفـسـكِ عـصـيـانـهـا
ومـا أفـسـدَ الـدينَ إلّا مـلوك ... وأحـبـارُ سـوء ورهـبـانـهـا
وبـاعـوا النفـوسَ فلم يـربحـوا ... ولـم يغـلُ بـالـبيـعِ أثـمـانـهـا
لـقـد رتـع الـقـومُ فـي جيـفـةٍ ... تـبـيـنُ لـذي الـلبِّ أنـتـانـهـا

وقال : إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك ، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك ، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل، فكر في ذنبك وتب إلى ربك ينبت الورع في قلبك ، واقطع الطمع إلا من ربك . وقال : ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك ، ذمّ مولانا الدنيا فمدحناها ، وأبغضها فأحببناها ، وزهدنا فيها فآثرناها ورغبنا في طلبها ، ووعدكم خراب الدنيا فحصنتموها ، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها ، وأنذركم الكنوز فكنزتموها ، دعتكم إلى هذه الغرارة

---

(١) إدمانها : مداومتها .

دواعيها ، فأجبتم مسرعين مناديها ، خدعتكم بغرورها ، ومنتكم فانقدتم خاضعين لأمانيها تتمرغون[1] في زهراتها وزخارفها ، وتتنعمون في لذاتها وتتقلبون في شهواتها ، وتتلوثون بتبعاتها ، تنبشون بمخالف الحرص عن خزائنها ، وتحفرون بمعاول الطمع في معادنها . وشكى إليه رجل كثرة عياله فقال : ابعث إليَّ منهم من لا رزقه على الله . فسكت الرجل . وقال : مررت في بعض جبال فإذا حجر مكتوب عليه بالعربية :

كـلُ حـيٍّ وإن بـقـي ... فـمـنَ الـعـيشِ يـسـتـقـي
فـاعـمـلِ الـيـومَ واجـهـتـدْ ... واحـذرِ الـمـوتَ يـا شـقـي

قال : فبينا أنا واقف أقرأ وأبكي ، وإذا برجل أشعر أغبر عليه مدرعة من شعر فسلم وقال : مم تبكي ؟ فقلت : من هذا . فأخذ بيدي ومضى غير بعيد فإذا بصخرة عظيمة مثل المحراب فقال اقرأ وابكِ ولا تقصر . وقام هو يصلّي فإذا في أعلاه نقش بين عربي :

لا تبغين جاهاً وجاهكَ ساقطَ ... عند المليك وكنْ لجاهكَ مصلحاً

وفي الجانب الآخر نقش بين عربي :

من لم يثق بالقضاءِ والقدرِ ... لاقى هموماً كثيرة الضَّررِ

وفي الجانب الأيسر منه نقش بين عربي :

ما أزينَ التقى وما أقبَحَ الخنا[2] ... وكلٌ مأخوذٌ بما جنا
وعندَ اللّهِ الجزا

وفي أسفل المحراب فوق الأرض بذراع أو أكثر :

إنـمـا الـفـوزُ والـغِـنـى ... فـي تُـقـى الـلّهِ والـعـمـل

قال : فلما فرغت من القراءة التفت فإذا ليس الرجل هناك ، فما أدري انصرف أم حجب عني . وقال : أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان ، ومن وفى العمل وفى له الأجر ، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير . وقال : كل سلطان لا يكون عادلاً فهو واللص بمنزلة واحدة ، وكل عالم لا يكون ورعاً فهو والذئب بمنزلة واحدة ، وكل من خدم سوى الله فهو والكلب بمنزلة واحدة . وقال : ما ينبغي لمن ذل لله في طاعته أن يذل لغير الله في مجاعته ، فكيف بمن هو يتقلب في نعم الله وكفايته ؟ وقال : أعربنا في كلامنا فلم نلحن ، ولحنا في أعمالنا فلم نعرب ، وقال : كنا إذا رأينا الشاب يتكلم في المجلس أيسنا من خيره . وقال : جانبوا الناس ولا تنقطعوا عن جمعة ولا جماعة .

---

(١) تتمرغون : تتقلّبون .
(٢) الخنا : الفحش والرذيلة .

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسن بن محمد بن زامين الأسترابادي قال : أنبأ عبد الله بن محمد الحميدي الشيرازي أنبأ القاضي أحمد بن خرزاد الأهوازي حدثني علي بن محمد القصري حدثني أحمد بن محمد الحلبي سمعت سريا السقطي يقول سمعت بشر بن الحارث الحافي يقول : قال إبراهيم بن أدهم : وقفت على راهب فأشرف عليَّ فقلت له : عظني فأنشأ يقول :

خـذ عَـنِ الـنـاسِ جـانـبـاً كـن بـعـدوكَ راهـبـاً
إنَّ دهـراً أظـلـنـي قـد أرانـي الـعـجـائـبـا
قـلِّب الـنـاسَ كـيـفَ شئـ ـتَ تـجـدهـم عـقـاربـا

قال بشر فقلت لإبراهيم هذه موعظة الراهب لك ، فعظني أنت . فأنشأ يقول :

توحَّش من الأخوانِ لا تبغِ مونساً ولا تتخذ خلاً ولا تبغِ صاحبا
وكن سامري الفعلِ من نسلِ آدمٍ وكن أو حديا ما قدرتَ مجانبا
فقد فسدَ الاخوان والحب والاخا فلست ترى إلّا مذوقاً وكاذبا
فقلت ولولا أن يقال مدهدة[1] وتنكر حالاتي لقد صرت راهبا

قال سري : فقلت لبشر : هذه موعظة إبراهيم لك فعظني أنت ، فقال : عليك بالخمول ولزوم بيتك . فقلت بلغني عن الحسن أنه قال : لولا الليل وملاقاة الاخوان ما باليت متى مت . فأنشأ بشر يقول :

يـا من يسـرُ بـرؤيـة الاخـوانِ مهـلاً أمنتَ مكـايـدَ الـشيـطانِ
خلت القلوبُ من المعـادِ وذكـرهِ وتشـاغلوا بـالحـرصِ والخسـرانِ
صارت مجالسُ من ترى وحديثهمْ في هتـكِ مستورٍ ومـوت جنـانِ

قال الحلبي فقلت لسري : هذه موعظة بشر فعظني أنت . فقال : عليك بالاخمال[2] فقلت حب ذاك ، فأنشأ يقول :

يـا من يـروم بـزعمـهِ إخمـالاً إن كـانَ حقـاً فـاستعـدَّ خصـالاً
تـرك المجـالس والتـذاكر يـا أخي واجعـل خـروجـكَ للصـلاةِ خيـالا
بـل كن بهـا حيًّـا كـأنّـكَ ميّتٌ لا يـرتجى منه القـريبُ وصـالا

قال علي بن محمد القصري : قلت للحلبي هذه موعظة سري لك فعظني أنت . فقال : يا

---

١) مدهدة : متعبة .

٢) بالأخمال : الإخفاض .

أخي أحب الأعمال إلى الله ما صعد إليه من قلب زاهد في الدنيا ، فازهد في الدنيا يحبك الله . ثم أنشأ يقول :

أنتَ في دار شتاتٍ فتأهبْ لشتاتك
واجعلِ الدنيا كيومٍ صمتَهُ عنْ شهواتكْ
واجعلَ الفطر إذا ما صمتَهُ يومَ وفاتك

قال ابن خرزاد فقلت لعلي: هذه موعظة الحلبي لك فعظني أنت . فقال لي : احفظ وقتك واسخ بنفسك لله عز وجل ، وانزع قيمة الأشياء من قلبك يصفو لك بذلك سرك ويذكر به ذكرك . ثم أنشدني :

حياتكَ أنفاسٌ تعد فكلما مضى نفسٌ منها انتقصتَ به جزءاً
فتصبحُ في نقصٍ وتمسي بمثلهِ ومالكَ معقول تحسُّ به رزءا[1]
يميتكَ ما يحييكَ في كلِّ ساعةٍ ويحدوكَ حادما ما يزيدُ بكَ الهزءا

قال أبو محمد قلت لأحمد : هذه موعظة علي لك فعظني . فقال : يا أخي عليك بلزوم الطاعة وإياك أن تفارق باب القناعة ، وأصلح مثواك ، ولا تؤثر هواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، واشتغل بما يعنيك بترك ما لا يعنيك . ثم أنشدني :

ندمتُ على ما كانَ مني ندامةً ومن يتّبع ما تشتهي النفسُ يندمُ
فخافوا لكيما تأمنوا بعدَ موتكم ستلقونَ ربّاً عادلاً ليسَ يظلمُ
فليسَ لمغرورٍ بدنياهُ زاجرٌ سيندمُ إن زلّتْ به النعلُ فاعلموا

قال ابن زامين فقلت لأبي محمد : هذه موعظة أحمد لك فعظني أنت فقال : اعلم رحمك الله أن الله عز وجل ينزل العبيد حيث نزلت قلوبهم بهمومها ، فانظر أين ينزل قلبك ، واعلم أن الله سبحانه يقرب من القلوب على حسب ما تقرب منه ، وتقرب منه على حسب ما قرب إليها . فانظر من القريب من قلبك . وأنشدني :

قلوبُ رجالٍ في الحجابِ نزولُ وأرواحهم فيما هناكَ حلولُ
تروحُ نعيمُ الأنسِ في عزِّ قربهِ بافرادِ توحيدِ الجليلِ تحولُ
لهم بفناءِ القربِ من محضِ برّهِ عوائدُ بذلٍ خطبهن جليلُ

قال الخطيب : فقلت لابن زامين : هذه موعظة الحميدي لك فعظني أنت . فقال : اتق الله وثق به ولا تتهمه فإن اختياره لك خير من اختيارك لنفسك وأنشدني :

---

(١) رزءاً : نكبة ومصيبة .

اتـخـذِ الـلَّهَ صـاحـبـاً ودعِ الـنـاسَ جـانـبـا
جرّب الـنـاسَ كـيـفَ شئـ ـتَ تـجـدهـمْ عـقـاربـا

قال أبو الفرج غيث الصوري : فقلت للخطيب : هذه موعظة ابن زامين لك فعظني أنت . فقال : احذر نفسك التي هي أعدى أعدائك أن تتابعها على هواها ، فذاك أعضل دائك ، واستشرف الخوف من الله تعالى بخلافها ، وكرر على قلبك ذكر نعوتها وأوصافها ، فإنها الأمارة بالسوء والفحشاء ، والموردة من أطاعها موارد العطب والبلاء ، واعمد في جميع أمورك إلى تحري الصدق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، وقد ضمن الله لمن خالف هواه أن يجعل جنة الخلد قراره ومأواه ثم أنشد لنفسه :

إن كنتَ تبغي الرشادَ محضـا فـي أمـرِ دنيـاكَ والـمعـادِ
فـخـالـف الـنـفسَ فـي هـواهـا إنَّ الـهـوى جـامـعُ الفسـادِ

قال ابن عساكر : المحفوظ أن إبراهيم بن أدهم توفي سنة اثنتين وستين ومائة . وقال غيره : إحدى وستين وقيل سنة ثلاث . والصحيح ما قاله ابن عساكر والله أعلم . وذكروا أنه توفي في جزيرة من جزائر بحر الروم وهو مرابط ، وأنه ذهب إلى الخلاء ليلة مات نحواً من عشرين مرة ، وفي كل مرة يجدد الوضوء بعد هذا ، وكان به البطن[١] ، فلما كانت غشية الموت قال : أوتروا لي قوسي ، فأوتروه فقبض عليه فمات وهو قابض عليه يريد الرمي به إلى العدو رحمه الله وأكرم مثواه .

وقال أبو سعيد بن الأعرابي : حدثنا محمد بن علي بن يزيد الصائغ قال سمعت الشافعي يقول : كان سفيان معجباً به :

أجـاعتهمُ الدنيـا فخـافـوا ولم يـزل كذلك ذو التقوى عن العيش ملجما[٢]
أخــو طـيء داودُ منـهم ومـسـعـرٌ ومنهم وهيبٌ والعـريب ابن أدهمـا
وفي ابنِ سعيـد قـدوة البـرِ والنهي وفي الوارثِ الفاروقِ[٣] صدقا مقدّما
وحسبـكَ منهم بالفضيـلِ مـع ابنـهِ ويـوسف إن لم يـأَلُ أن يتسلمـا
أولئـكَ أصحـابي وأهـلُ مـودتي فصلى عليهم ذو الجـلالِ وسلمـا
فمـا ضـرَّ ذا التقـوى نصـالُ أسنـةٍ ومـا زالَ ذو التقـوى أعـزَّ وأكـرمـا
وما زالت التقوى تـريكَ على الفتى إذا محّصَ التقوى مِنَ العزِّ ميسما[٤]

---

(١) البطن : داء البطن .
(٢) ملجماً : كفّها وأسكتها .
(٣) والفاروق : لقب عمر بن الخطاب ، لُقِّبَ بذلك لأنه فرَّق بين الحق والباطل .
(٤) ميسما : الحسن والجمال .

وروى البخاري في كتاب الأدب عن إبراهيم بن أدهم وأخرج الترمذي في جامعه حديثاً معلقاً في المسح على الخفين . والله سبحانه أعلم[1] .

وفيها توفي أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي الفقيه الزاهد ، أخذ الفقه عن أبي حنيفة . قال سفيان بن عيينة : ثم ترك داود الفقه وأقبل على العبادة ودفن كتبه . قال عبد الله بن المبارك : وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي . وقال ابن معين : كان ثقة ، وفد على المهدي ببغداد ثم عاد إلى الكوفة . ذكره الخطيب البغدادي . وقال : مات في سنة ستين ومائة ، وقيل في سنة ست وخمسين ومائة . وقد ذكر شيخنا الذهبي في تاريخه أنه توفي في هذه السنة ـ أعني سنة اثنتين وستين ومائة فالله أعلم ـ.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة

فيها حصر المقنع الزنديق الذي كان قد نبغ بخراسان وقال بالتناسخ ، واتبعه على جهالته وضلالته خلق من الطغام[2] وسفهاء الأنام ، والسفلة من العوام ، فلما كان في هذا العام لجأ إلى قلعة كش فحاصره سعيد الحريثي فألح عليه في الحصار ، فلما أحس بالغلبة تحسى سما وسم نساءه فماتوا جميعاً ، عليهم لعائن الله . ودخل الجيش الإسلامي قلعته فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى المهدي ، وكان المهدي بحلب . قال ابن خلكان : كان اسم المقنع عطاء ، وقيل حكيم ، والأول أشهر . وكان أولا قصاراً ثم ادعى الربوبية ، مع أنه كان أعور قبيح المنظر، وكان يتخذ له وجهاً من ذهب ، وتابعه على جهالته خلق كثير ، وكان يرى الناس قمراً يرى من مسيرة شهرين ثم يغيب ، فعظم اعتقادهم له ومنعوه بالسلاح ، وكان يزعم لعنه الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً أن الله ظهر في صورة آدم، ولهذا سجدت له الملائكة ، ثم في نوح ، ثم في الأنبياء واحداً واحداً ، ثم تحول إلى أبي مسلم الخراساني ، ثم تحول إليه . ولما حاصره المسلمون في قلعته التي كان جددها بناحية كش مما وراء النهر ويقال لها سنام ، تحسى هو ونساؤه سماً فماتوا واستحوذ المسلمون على حواصله وأمواله .

وفيها جهز المهدي البعوث من خراسان وغيرها من البلاد لغزو الروم ، وأمّر على الجميع ولده هارون الرشيد ، وخرج من بغداد مشيعاً له ، فسار معه مراحل واستخلف على بغداد ولده موسى الهادي ، وكان في هذا الجيش الحسين بن قحطبة والربيع الحاجب وخالد بن برمك ـ وهو مثل الوزير للرشيد ولي العهد ـ ويحيى بن خالد ـ وهو كاتبه وإليه النفقات ـ وما زال المهدي مع ولده

(١) زيادة من المصرية .
(٢) الطغام : أوغاد الناس للواحد والجمع .

مشيعاً له حتى بلغ الرشيد إلى بلاد الروم، وارتاد هناك المدينة المسماة بالمهدية في بلاد الروم، ثم رجع إلى الشام وزار بيت المقدس ، فسار الرشيد إلى بلاد الروم في جحافل عظيمة ، وفتح الله عليهم فتوحات كثيرة، وغنموا أموالاً جزيلة جداً، وكان لخالد بن برمك في ذلك أثر جميل لم يكن لغيره ، وبعثوا بالبشارة مع سليمان بن برمك إلى المهدي فأكرمه المهدي وأجزل عطاءه .

وفيها عزل المهدي عمه عبد الصمد بن علي عن الجزيرة وولى عليها زفر بن عاصم الهلالي ، ثم عزله وولى عبد الله بن صالح بن علي . وفيها ولى المهدي ولده هارون الرشيد بلاد المغرب وأذربيجان وأرمينية ، وجعل على رسائله يحيى بن خالد بن برمك ، وولى وعزل جماعة من النواب . وحج بالناس فيها علي بن المهدي .

وفيها توفي إبراهيم بن طهمان ، وحريز بن عثمان الحمصي الرحبي ، وموسى بن علي اللخمي المصري وشعيب بن أبي حمزة ، وعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وإليه ينسب قصر عيسى ، ونهر عيسى ببغداد ، قال يحيى بن معين : كان له مذهب جميل ، وكان معتزلاً للسلطان . توفي في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة . وهمام بن يحيى ، ويحيى بن أبي أيوب المصري ، وعبيدة بنت أبي كلاب العابدة ، بكت من خشية الله أربعين سنة حتى عميت . وكانت تقول : أشتهي الموت فإني أخشى أن أجني على نفسي جناية تكون سبب هلاكي يوم القيامة .

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة

فيها غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم ، فأقبل إليه ميخائيل البطريق في نحو من تسعين ألفاً ، فيهم طازاذ الأرمني البطريق ففشل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف راجعاً ـ فأراد المهدي ضرب عنقه فكلم فيه فحبسه في المطبق . وفي يوم الأربعاء في أواخر ذي القعدة أسس المهدي قصراً من لبن بعيسا باذ ، ثم عزم على الذهاب إلى الحج فأصابه حمى فرجع من أثناء الطريق ، فعطش الناس في الرجعة حتى كاد بعضهم يهلك ، فغضب المهدي على يقطين صاحب المصانع ، وبعث من حيث رجع المهلب بن صالح بن أبي جعفر ليحج بالناس فحج بهم عامئذ. وفيها توفي شيبان بن عبد الرحمن النحوي، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، ومبارك بن فضالة صاحب الحسن البصري .

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

فيها جهز المهدي ولده الرشيد لغزو الصائفة ، وأنفذ معه من الجيوش خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً ، وكان معه من النفقة مائة ألف دينار ، وأربعة وتسعون ألف دينار ، وأربعمائة وخمسون ديناراً ، ومن الفضة إحدى وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف ، وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم. قاله ابن جرير . فبلغ بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وصاحب الروم

يومئذ أغسطة امرأة أليون ، ومعها ابنها في حجرها من الملك الذي توفي عنها ، فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له سبعين ألف دينار في كل سنة ، فقبل ذلك منها ، وذلك بعد ما قتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسين ألفا وأسر من الذراري خمسة آلاف رأس وستمائة وأربعة وأربعين رأساً ، وقتل من الأسرى ألفي قتيل صبراً ، وغنم من الدواب بأدواتها عشرين ألف فرس ، وذبح من الـ ـ والغنم مائة ألف رأس . وبيع البرذون والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم وعشر ـ سيفا بدرهم . فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :

أطفتَ بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا[1] حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتكَ ملوكها بجزيتها والحرُب تغلي قدورها

وحج بالناس صالح بن أبي جعفر المنصور ، وفيها توفي سليمان بن المغيرة ، وعبد الله بن العلاء بن دبر ، وعبد الرحمن بـن نائب بن ثوبان . ووهب بن خالد .

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة

في المحرم منها قدم الرشيد من بلاد الروم فدخل بغداد في أبهة عظيمة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره . وفيها أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي ، ولقب بالرشيد . وفيها سخط المهدي على يعقوب بن داود وكان قد حظي عنده حتى استوزره وارتفعت منزلته في الوزارة حتى فوض إليه جميع أمر الخلافة ، وفي ذلك يقول بشار بن برد : -

بني أمية هبُّوا طالَ نومكمُ إن الخليفةَ يعقوبَ بنَ داودِ
ضاعت خلافتكم يا قومُ فاطلبوا خليفةَ اللَّهِ بينَ الخمرِ[2] والعودِ

فلم تزل السعاة والوشاة بينه وبين الخليفة حتى أخرجوه عليه، وكلما سعوا به إليه دخل إليه فأصلح أمره معه ، حتى وقع من أمره ما سأذكره ، وهو أنه دخل ذات يوم على المهدي في مجلس عظيم قد فرش بأنواع الفرش وألوان الحرير ، وحول ذلك المكان أصحان مزهرة بأنواع الأزاهير ، فقال : يا يعقوب كيف رأيت مجلسنا هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما رأيت أحسن منه . فقال : هو لك بما فيه ، وهذه الجارية ليتم بها سرورك ، ولي إليك حاجة أحب أن تقضيها . قلت : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : حتى تقول نعم . فقلت : نعم ! وعلى السمع والطاعة . فقال ! ألله ؟ فقلت : الله . قال : وحياة رأسي قلت وحياة رأسك . فقال : ضع يدك على رأسي وقل ذلك ، ففعلت . فقال : إن ههنا رجلاً من العلويين أحب أن تكفينيه ، والظاهر أنه الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب . فقلت : نعم ، فقال : وعجل علي ، ثم أمر

---

(١) القنا : الرمح .

(٢) رواية ابن جرير : بين الدُّفِّ والعود .

بتحويل ما في ذلك المجلس إلى منزلي وأمر لي بمائة ألف درهم وتلك الجارية ، فما فرحت بشيء فرحي بها . فلما صارت بمنزلي حجبتها في جانب الدار في خدرٍ ، فأمرت بذلك العلوي فجيء به فجلس إلي فتكلم ، فما رأيت أعقل منه ولا أفهم . ثم قال لي : يا يعقوب تلقى الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟ فقلت : لا والله ولكن اذهب حيث شئت وأين شئت . قال : إني أختار بلاد كذا وكذا . فقلت : اذهب كيف شئت ، ولا يظهرن عليك المهدي فتهلك وأهلك . فخرج من عندي وجهزت معه رجلين يسفرانه ويوصلانه بعض البلاد ، ولم أشعر بأن الجارية قد أحاطت علماً بما جرى ، وأنها كالجاسوس علي ، فبعثت بخادمها إلى المهدي فأعلمته بما جرى ، فبعث المهدي إلى تلك الطريق فردوا ذلك العلوي فحبسه عنده في بيت من دار الخلافة ، وأرسل إليّ من اليوم الثاني فذهبت إليه ولم أشعر من أمر العلوي بشيء ، فلما دخلت عليه قال : ما فعل العلوي؟ قلت : مات . قال : الله ! قلت الله . قال : فضع يدك على رأسي واحلف بحياته ، ففعلت . فقال : يا غلام أخرج ما في هذا البيت ، فخرج العلوي فأسقط في يدي ، فقال المهدي : دمك لي حلال . ثم أمر به فألقى في بئر في المطبق . قال يعقوب : فكنت في مكان لا أسمع فيه ولا أبصر ، فذهب بصري وطال شعري حتى صرت مثل البوائم ، ثم مضت علي مدد[1] متطاولة ، فبينما أنا ذات يوم إذ دعيت فخرجت من البئر فقيل لي : سلم على أمير المؤمنين . فسلمت وأنا أظنه المهدي ، فلما ذكرت المهدي قال : رحم الله المهدي . فقلت : الهادي ؟ فقال : رحم الله الهادي . فقلت : الرشيد ؟ قال نعم . فقلت : يا أمير المؤمنين قد رأيت ما حل بي من الضعف والعلة ، فإن رأيت أن تطلقني . فقال : أين تريد ؟ قلت : مكة . فقال : اذهب راشداً ، فسار إلى مكة فما لبث بها إلا قليلاً حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد كان يعقوب هذا يعظ المهدي في تعاطيه شرب النبيذ بين يديه ، وكثرة سماع الغناء فكان يلومه على ذلك ويقول : ما على هذا استوزرتني ، ولا على هذا صحبتك ، أبعد الصلوات الخمس في المسجد الحرام يشرب الخمر ويغني بين يديك ؟ فيقول له المهدي : فقد سمع عبد الله بن جعفر ، فقال له يعقوب : إن ذلك لم يكن له من حسناته ، ولو كان هذا قربة لكان كلما داوم عليه العبد أفضل . وفي ذلك يقول بعض الشعراء حثاً للمهدي على ذلك :

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً   وأقبل على صهباءَ[2] طيبةِ النشرِ

وفيها ذهب المهدي إلى قصره المسمى بعيسا باذ - بني له بالآجر بعد القصر الأول الذي بناه باللِّبن - فسكنه وضرب هناك الدراهم والدنانير . وفيها أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يفعل أحد هذا قبل هذه السنة . وفيها خرج موسى الهادي إلى جرجان . وفيها ولي

---

(١) مدد : مفردها مُدَّة وهي البرهة من الزمان يقع على القليل والكثير .

(٢) صهباء : خمرة .

القضاء أبا يوسف صاحب أبي حنيفة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد عامل الكوفة . ولم يكن في هذه السنة صائفة للهدنة التي كانت بين الرشيد وبين الروم . وفيها توفي صدقة بن عبد الله السمين ، وأبو الأشهب العطاردي ، وأبو بكر النهشلي ، وعفير بن معدان .

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

فيها وجه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف لم ير مثله ، وجعل على رسائله أبان بن صدقة . وفيها توفي عيسى بن موسى الذي كان ولى العهد من بعد المهدي : مات بالكوفة فأشهد نائبها روح بن حاتم على وفاته القاضي وجماعة من الأعيان . ثم دفن . وكان قد امتنع من الصلاة عليه فكتب إليه المهدي يعنفه أشد التعنيف ، وأمر بمحاسبته على عمله . وفيها عزل المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل وولاه الربيع بن يونس الحاجب ، فاستخلف فيه سعيد بن واقد وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته . وفيها وقع وباء شديد وسعال كثير ببغداد والبصرة ، وأظلمت الدنيا حتى كانت كالليل حتى تعالى النهار ، وكان ذلك لليال بقين من ذي الحجة من هذه السنة . وفيها تتبع المهدي جماعة من الزنادقة[1] في سائر الآفاق فاستحضرهم وقتلهم صبراً بين يديه ، وكان المتولي أمر الزنادقة عمر الكلواذي . وفيها أمر المهدي بزيادة كثيرة في المسجد الحرام ، فدخل في ذلك دور كثيرة ، وولى ذلك ليقطين بن موسى الموكل بأمر الحرمين ، فلم يزل في عمارة ذلك حتى مات المهدي كما سيأتي . ولم يكن للناس صائفة للهدنة . وحج بالناس نائب المدينة إبراهيم بن محمد . وتوفي بعد فراغه من الحج بأيام . وولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس .

وممن توفي فيها من الأعيان .

بشار بن برد أبو معاذ الشاعر مولى عقيل ، ولد أعمى ، وقال الشعر وهو دون عشر سنين ، وله التشبيهات التي لم يهتد إليها البصراء . وقد أثنى عليه الأصمعي والجاحظ وأبو تمام وأبو عبيدة ، وقال له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر . فلما بلغ المهدي أنه هجاه وشهد عليه قوم أنه زنديق أمر به فضرب حتى مات عن بضع وسبعين سنة . وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات ، فقال : بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي مولاهم ، وقد نسبه صاحب الأغاني فأطال نسبه . وهو بصري قدم بغداد أصله من طخارستان ، وكان ضخماً عظيم الخلق ، وشعره في أول طبقات المولدين ، ومن شعره البيت المشهور :

هــل تـعلمينَ وراءَ الـحبِ مـنـزلـة ... تُـدني إليك فـإنَ الحبَ أقصاني[2]

---

(١) الزنادقة : مفردها زنديق وهو الذي يتظاهر بالاسلام ويبطن الكفر والإلحاد .

(٢) أقصاني : أبعدني .

وقوله :

أنــا والـلّهِ أشتـهي سـحـرَ عينـيـ ـكِ وأخشى مـصـارعَ الـعـشـاقِ

ولـه :

يـا قومُ أذني لبعض الحيِ عـاشقة والأذنُ تعشقُ قبـلَ العينِ أحيـانــاً
قـالوا لمَ لا نـرى عينيكَ قلتُ لهم الأذنُ كالعينِ تروي القلبَ مكاناً[1]

ولـه :

إذا بلغ الـرأيُ التشـاور فـاستعن بحـزم نصيـح أو نصيحـةِ حـازمِ
ولا تجعل الشورى عليكَ غضاضـةً فريش الخوافي[2] قوة للقوادم[3]
وما خيرَ كفٍ أمسكَ الغـلُّ أختهـا ومـا خيـر سيفٍ لم يؤيـد بقـائمِ

كان بشار يمدح المهـدي حتى وشى إليه الوزيـر[4] أنه هجـاه وقذفـه ونسبه إلى شيء من الزندقة ، وأنه يقول بتفضيل النار على التراب ، وعذر إبليس في السجود لآدم ، وأنه أنشد :ـ

الأرضُ مـظلمـةٌ والنـارُ مشرقـةٌ والنـارُ معبـودةٌ مـذ كـانتِ النـارُ

فأمر المهدي بضربه فضرب حتى مات . ويقال : إنه غرق ثم نقـل إلى البصرة في هـذه السنة .

وفيها توفي الحسن بن صالح بن حيي ، وحماد بن سلمة ، والربيع بن مسلم ، وسعيد بن عبد العزيز بـن مسلم ، وعتبة الغلام : وهو عتبة بن أبان بن صمعة أحد العبـاد المشهورين البكائين المذكورين ، كان يأكل من عمل يده في الخوص[5] ، ويصوم الدهر ويفطر على الخبز والملح . والقاسم الحذاء ، وأبو هلال محمد بن سليم ، ومحمد بن طلحة ، وأبو حمزة اليشكري محمد بن ميمون .

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

فيها في رمضان منها نقضت الروم ما بينهم وبين المسلمين من الصلح الذي عقده هارون الرشيد عن أمر أبيه المهدي ، ولم يستمروا على الصلح إلا اثنيـن وثلاثين شهراً ، فبعث نائب الجزيرة خيلاً

---

(١) في هذا البيت تحريف .
(٢) الخوافي : صغار الريش .
(٣) القوادم : وهي إحدى ريشات عشر كبار ، أو إحدى أربع في مُقَدَّم الجناح .
(٤) بهامش التركية :ـ أي نسب الوزير لبشار .
(٥) الخوص : الواحدة خوصة . ورق النخل .

إلى الروم فقتلوا وأسروا وغنموا وسلموا. وفيها اتخذ المهدي دواوين الأزمة[1] ولم يكن بنو أمية يعرفون ذلك . وفيها حج بالناس علي بن محمد المهدي الذي يقال له ابن ريطة . وفيها توفي الحسن بن يزيد بن حسن بن علي بن أبي طالب ، ولا ه المنصور المدينة خمس سنين ، ثم غضب عليه فضربه وحبسه وأخذ جميع ماله . [وحماد عجرد . كان ظريفاً ماجناً شاعراً ، وكان ممن يعاشر الوليد بن يزيد ويهاجي بشار بن برد . وقد م على المهدي ونزل الكوفة واتهم بالزندقة . قال ابن قتيبة في طبقات الشعراء : ثلاثة حمادون بالكوفة يرمون بالزندقة حماد الراوية ، وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان النحوي . وكانوا يتشاعرون ويتماجنون][2] . وخارجة بن مصعب ، وعبد الله بن الحسن ابن الحصين بن أبي الحسن البصري ، قاضي البصرة بعد سوار . سمع خالداً الحذاء وداود بن أبي هند ، وسعيداً الجريري . وروى عنه ابن مهدي . وكان ثقة فقيهاً له اختيارات تعزي إليه غريبة في الأصول والفروع ، وقد سئل عن مسألة فأخطأ في الجواب فقال له قائل : الحكم فيها كذا وكذا . فأطرق ساعة ثم قال : إذا أرجع وأنا صاغر[3] ، لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلي من أن أكون رأساً في الباطل . توفي في ذي القعدة من هذه السنة ، وقيل بعد ذلك بعشر سنين فالله أعلم . غوث بن سليمان بن زياد بن ربيعة أبو يحيى الجرمي ، قاضي مصر ، كان من خيار الحكام ، ولي الديار المصرية ثلاث مرات في أيام المنصور والمهدي . وفليح بن سليمان ، وقيس بن الربيع في قول ، ومحمد بن عبد الله بن علاثة بن علقمة بن مالك ، أبو اليسر العقيلي ، قاضي الجانب الشرقي من بغداد للمهدي ، هو وعافية بن يزيد . وكان يقال لابن علاثة قاضي الجن ، لأنه كانت بئر يصاب من أخذ منها شيئاً فقال : أيها الجن ! إنا حكمنا أن لكم الليل ولنا النهار . فكان من أخذ منها شيئاً في النهار لم يصبه شيء . قال ابن معين : كان ثقة . وقال البخاري : في حفظه شيء .

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

فيها في المحرم منها توفي المهدي بن المنصور بمكان يقال له ماسبذان ، بالحمى ، وقيل مسموماً وقيل عضه فرس فمات .

وهذه ترجمته

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، أبو عبد الله المهدي ، أمير المؤمنين وإنما لقب بالمهدي رجاء أن يكون الموعود به في الأحاديث فلم يكن به ، وإن اشتركا في الاسم فقد افترقا في الفعل ، ذاك يأتي في آخر الزمان عند فساد الدنيا فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت

---

(١) ويسمى واحدها (ديوان الزمام) . وروى أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع تفكّر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الازمة في خلافة المهدي .

(٢) زيادة من المصرية .

(٣) صاغر : المهان ، الراضي بالذُّل والضيم .

جوراً وظلماً . وقد قيل إن في أيامه ينزل عيسى بن مريم بدمشق كما سيأتي ذلك في أحاديث الفتن والملاحم . وقد جاء في حديث من طريق عثمان بن عفان أن المهدي من بني العباس ، وجاء موقوفاً على ابن عباس وكعب الأحبار ولا يصح ، وبتقدير صحة ذلك لا يلزم أن يكون على التعيين ، وقد ورد في حديث آخر أن المهدي من ولد فاطمة فهو يعارض هذا والله أعلم . وأم المهدي بن المنصور أم موسى بنت منصور بن عبد الله الحميري . روى عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس « أن رسول الله ﷺ جهر ببسم الله الرحمن الرحيم » . رواه عنه يحيى بن حمزة النهشلي قاضي دمشق ، وذكر أنه صلى خلف المهدي حين قدم دمشق فجهر في السورتين بالبسملة ، وأسند ذلك عن رسول الله ﷺ ورواه غير واحد عن يحيى بن حمزة ، ورواه المهدي عن المبارك بن فضالة ، ورواه عنه أيضاً جعفر بن سليمان الضبعي ، ومحمد بن عبد الله الرقاشي ، وأبو سفيان سعيد بن يحيى بن مهدي .

وكان مولد المهدي في سنة ست أو سبع وعشرين ومائة ، أو في سنة إحدى وعشرين ومائة ولي الخلافة بعد موت أبيه في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون سنة ، ولد بالحميمة من أرض البلقاء ، وتوفي في المحرم من هذه السنة أعني سنة تسع وستين ومائة عن ثلاث أو ثمان وأربعين سنة ، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وبعض شهر ، وكان أسمر طويلاً جعد الشعر ، على إحدى عينيه نكتة بيضاء ، قيل على عينه اليمنى ، وقيل اليسرى . قال الربيع الحاجب : رأيت المهدي يصلي في ليلة مقمرة في بهوله عليه ثياب حسنة ، فما أدري هو أحسن أم القمر ، أم بهوه ، أم ثيابه . فقرأ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[1] الآية . ثم أمرني فأحضرت رجلاً من أقاربه كان مسجوناً فأطلقه . ولما جاء خبر موت أبيه بمكة كما تقدم ، كتم الأمر يومين ثم نودي في الناس يوم الخميس الصلاة جامعة ، فقام فيهم خطيباً فأعلمهم بموت أبيه وقال : إن أمير المؤمنين دعي فأجاب فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وأستعينه على خلافة المسلمين .ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذ . وقد عزاه أبودلامة وهنأه في قصيدة له يقول فيها : ـ

عينـاي واحـدةٌ تـرى مسـرورة	بـأميرهـا جـذلاً وأخـرى تـذرفُ
تبكي وتضحـكُ تـارةً ويسـوءهـا	مـا أنكـرت ويسـرهـا مـا تعـرف
فيسوءهـا مـوتُ الخليفـةِ محـرمـاً	ويسـرهـا أن قـامَ هـذا الأرأفُ
مـا إن رأيتَ كمـا رأيتُ ولا أرى	شَـعـراً أُرجِّلهُ وآخـرَ يـنـتـفُ
هلكَ الخـليفـة بـالأمّـة أحـمـدٍ	وأتـاكـم مِن بـعـدهِ مـن يـخـلـفُ
أهـدى لهـذا اللّهُ فضـلَ خـلافـةٍ	ولـذاك جنـاتِ النعيمِ تـزخـرفُ

(١) سورة محمد ، الآية/٢٢.

وقد قال المهدي يوماً في خطبة : أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تهنكم العافية ، وتحمدوا العاقبة ، واخفضوا جناح الطاعة لمن ينشر معدلته فيكم ، ويطوي ثوب الأصر[1] عنكم . وأهال عليكم السلامة ولين المعيشة من حيث أراه الله ، مقدماً ذلك على فعل من تقدمه ، والله لأعفين عمري من عقوبتكم ، ولأحملن نفسي على الاحسان إليكم . قال : فأشرقت وجوه الناس من حسن كلامه . ثم استخرج حواصل أبيه من الذهب والفضة التي كانت لا تحد ولا توصف كثرة ، ففرقها في الناس ، ولم يعط أهله ومواليه منها شيئاً ، بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال ، لكل واحدة خمسمائة في الشهر غير الأعطيات وقد كان أبوه حريصاً على توفير بيت المال ، وإنما كان ينفق في السنة ألف درهم من مال السراة . وأمر المهدي ببناء مسجد الرصافة وعمل خندق وسور حولها ، وبنى مدنا ذكرناها فيما تقدم .

وذكر له عن شريك بن عبد الله القاضي أنه لا يرى الصلاة خلفه ، فأحضره فتكلم معه ثم قال له المهدي في جملة كلامه : يا ابن الزانية ! فقال له شريك : مه مه يا أمير المؤمنين . فلقد كانت صوامة قوامة . فقال له : يا زنديق لأقتلنك . فضحك شريك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للزنادقة علامات يعرفون بها ، شربهم القهوات[2] ، واتخاذهم القينات[3] . فأطرق المهدي وخرج شريك من بين يديه . وذكروا أنه هاجت ريح شديدة ، فدخل المهدي بيتاً في داره فألزق خده بالتراب وقال : اللهم إن كنت أنا المطلوب بهذه العقوبة دون الناس فها أناذا بين يديك ، اللهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان . فلم يزل كذلك حتى انجلت . ودخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال : هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك . فقال : هاتها ، فناولها إياها ، فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلما انصرف الرجل قال المهدي : والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ لم يرد هذه النعل ، فضلاً عن أن يلبسها ، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس : أهديت إليه نعل رسول الله ﷺ فردها علي ، فتصدقه الناس ، لأن العامة تميل إلى أمثالها ، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي وإن كان ظالماً ، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم ، ورأينا هذا أرجح وأصلح .

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها ، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم عتاب بن إبراهيم فحدثه بحديث أبي هريرة : « لا سبق إلا في خف أو نعل أو حافر » . وزاد في الحديث « أو جناح » فأمر له بعشرة آلاف . ولما خرج قال : والله إني لأعلم أن عتاباً كذب على رسول الله ﷺ . ثم أمر بالحمام فذبح ولم يذكر عتابا بعدها . وقال الواقدي : دخلت على المهدي يوماً فحدثته بأحاديث فكتبها عني ثم قام فدخل بيوت نسائه ثم خرج وهو ممتلىء غيظاً فقلت : مالك يا

---

(١) الأصر : العهد.

(٢) القهوات : الخمر.

(٣) القينات : مفردها القينة وهي الساقية التي تسقي الخمر .

أمير المؤمنين ؟ فقال : دخلت على الخيزران فقامت إليَّ ومزقت ثوبي وقالت : ما رأيت منك خيراً ، وإني والله يا واقدي إنما اشتريتها من نخاس[1] ، وقد نالت عندي ما نالت ، وقد بايعت لولديهابامرة المؤمنين من بعدي . فقلت : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال : « إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام » . وقال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله ، وقد خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته » . وحدثته في هذا الباب بكلام حضرني . فأمر له بألفي دينار ، فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقني بألفي دينار إلا عشرة دنانير ، وإذا معه أثواب أخر ، وبعثت تشكرني وتثني عليَّ معروفاً .

وذكروا أن المهدي كان قد أهدر دم رجل من أهل الكوفة وجعل لمن جاء به مائة ألف ، فدخل الرجل بغداد متنكراً فلقيه رجل فأخذ بمجامع ثوبه ونادى : هذا طلبة أمير المؤمنين . وجعل الرجل يـريد أن ينفلت منه فلا يقدر ، فبيناهما ، يتجاذبان وقد اجتمع الناس عليهما ، إذ مر أمير في موكبه - وهو معن بن زائدة - فقال الرجل ! يا أبا الوليد خائف مستجير . فقال معن : ويلك مالك وله ؟ فقال هذا طلبة أمير المؤمنين ، جعل لمن جاء به مائة ألف . قال معن : أما علمت أني قد أجرته ؟ أرسله من يدك . ثم أمر بعض غلمانه فترجل وأركبه وذهب به إلى منزله ، وانطلق ذلك الرجل إلى باب الخليفة وأنهى إليهم الخبر ، فبلغ المهدي فأرسل إلى معن فدخل عليه فسلم فلم يرد عليه السلام وقال : يا معن أبلغ من أمرك أن تجير علي ؟ قال : نعم قال : ونعم أيضاً قال : نعم ! قد قتلت في دولتكم أربعة آلاف مصل فلا يجار لي رجل واحد ؟ فأطرق المهدي ثم رفع رأسه إليه وقال : قد أجرنا من أجرت يا معن . فقال : يا أمير المؤمنين إن الرجل ضعيف ، فأمر له بثلاثين ألفاً . فقال : إن جريمته عظيمة وإن جوائز الخلفاء على قدر جرائم الرعية . فأمر له بمائة ألف ، فحملت بين يدي معن إلى ذلك الرجل ، فقال له معن : خذ المال وادع لأمير المؤمنين وأصلح نيتك في المستقبل .

وقدم المهدي مرة البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين مر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ - يعني المؤذنين - فأمرهم بانتظاره ، ووقف المهدي في المحراب لم يكبر حتى قيل له هذا الأعرابي قد جاء . فكبَّر ، فتعجب الناس من سماحة أخلاقه وقدم أعرابي ومعه كتاب مختوم فجعل يقول : هذا كتاب أمير المؤمنين إليَّ ، أين الرجل الذي يقال له الربيع الحاجب ؟ فأخذ الكتاب وجاء به إلى الخليفة وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فإذا هـو قطعـة أديم فيها كتـابة ضعيفة ، والأعرابي يزعم أن هذا خط الخليفة ، فتبسم المهدي وقـال : صدق الأعـرابي ، هذا خطي ، إني خرجت يوماً إلى الصيد فضعت عن الجيش وأقبل الليل فتعوذت بتعويذ رسول الله ﷺ فرفع لي نار من بعيد فقصدتها فإذا هذا الشيخ وامرأته في خباء[2] يوقدان ناراً، فسلمت عليهما فردًا

---

(١) نخاس : بائع الجواري والرقيق .
(٢) خباء : خيمة .

السلام وفرش لي كساء وسقاني مذقة[1] من لبن مشوب بماء ، فما شربت شيئاً إلا وهي أطيب منه ، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر أني نمت أحلى منها . فقام إلى شويهة[2] له فذبحها فسمعت امرأته تقول له : عمدت إلى مكسبك ومعيشة أولادك فذبحتها ، هلكت نفسك وعيالك . فما التفت إليها ، واستيقظت فاشتويت من لحم تلك الشويهة وقلت له : أعندك شيء أكتب لك فيه كتاباً ؟ فأتاني بهذه القطعة فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمسمائة ألف ، وإنما أردت خمسين ألفا ، والله لأنفذنها له كلها ولو لم يكن في بيت المال سواها . فأمر له بخمسمائة ألف فقبضها الأعرابي واستمر مقيماً في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار ، فجعل يقري الضيف ومن مرّ به من الناس ، فعرف منزله بمنزل مضيف أمير المؤمنين المهدي .

وعن سوار ـ صاحب رحبة سوار ـ قال : انصرفت يوماً من عند المهدي فجئت منزلي فوضع لي الغداء فلم تقبل نفسي عليه ، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم ، فاستدعيت بعض حظاياي لأتلهى بها فلم تنبسط نفسي إليها ، فنهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلاً حتى لقيني رجل ومعه ألفا درهم ، فقلت : من أين هذه ؟ فقال : من ملكك الجديد . فاستصحبته معي وسرت في أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر ، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات ، فنزلت لأصلي فيه ، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي فقال : إن لي إليك حاجة ، فقلت : وما حاجتك ؟ فقال : إني رجل ضرير ولكنني لما شممت رائحة طيبـك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة ، فأحببت أن أفضي إليك بحاجتي . فقلت : وما هي ؟ فقال : إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا صغير ، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر ، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي ، فجئت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئاً أتبلغ به لعلي أجتمع بسوار ، فإنه كان صاحباً لأبي ، فلعله أن يكون عنده سعة يجود منها علي . فقلت : ومن أبوك ؟ فـذكر رجـلاً كان أصحب النـاس إلي ، فقلت : إني أنا سوار صاحب أبيك ، وقد منعني الله يومك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك ، وأجلسني بين يديك ، وأمرت وكيلي فدفع له الألفي الدرهم التي معه ، وقلت له : إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا . وركبت فجئت دار الخلافة وقلت : ما أنحف المهدي الليلة في السمر بأغرب من هذا . فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جداً وأمر لذلك الأعمى بألفي دينـار ، وقال لي : هـل عليك دين ؟ قلت نعم ! قـال : كم ؟ قلت : خمسون ألف دينار . فسكت وحادثني ساعة ثم لما قمت من بين يـديه فـوصلت إلى المنزل إذا الحمالون قد سبقوني بخمسين ألف دينار وألفي دينار للأعمى ، فانتظرت الأعمى أن يجيء في ذلك اليوم فتأخر فلما أمسيت عدت إلى المهدي فقال : قد فكرت في أمرك فوجدتك إذا قضيت دينك لم

---

(١) مذقة : اللبن الممزوج بالماء .

(٢) شويهة : تصغير شاة وهي الواحدة من الغنم للذكر والأنثى .

يبق معك شيء ، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى . فلما كان اليوم الثالث جاءني الأعمى فقلت : قد رزقني الله بسببك خيراً كثيراً ، ودفعت له الألفي الدينار التي من عند الخليفة وزدته ألفي دينار من عندي أيضاً .

ووقفت امرأة للمهدي فقالت : يا عصبة رسول الله اقض حاجتي . فقال المهدي : ما سمعتها من أحد غيرها ، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درهم . ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها ابن الخياط وأنشأ يقول : ـ

أخـذتُ بكفي كفـهِ أبتغي الغنى ... ولم أدرِ أنَّ الجـودَ مِنْ كفـهِ يُعْـدِي

فـلا أنـا منـهُ مـا أفـادَ ذوو الغنى ... أفدتَ، وأعداني فبدّدتُ ما عنـدي

قال : فبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً . وبالجملة فإن للمهدي مآثر ومحاسن كثيرة ، وقد كانت وفاته بماسبذان ، كان قد خرج إليها ليبعث إلى ابنه الهادي ليحضر إليه من جرجان حتى يخلعه من ولاية العهد ويجعله بعد هارون الرشيد ، فامتنع الهادي من ذلك ، فركب المهدي إليه قاصداً إحضاره ، فلما كان بماسبذان مات بها . وكان قد رأى في النوم وهو بقصره ببغداد ـ المسمى بقصر السلامة ـ كأن شيخاً وقف بباب القصر ، ويقال إنه سمع هاتفاً يقول : ـ

كـأني بهـذا القصـر قـد بـاذ أهله ... وأوحشَ منـهُ ربعـهُ ومنـازلـه

وصـارَ عميدُ القـوم من بعـد بهجـةٍ ... وملكٍ إلى قبـرٍ عليـهِ جنـادلـه

ولـم يبـق إلاّ ذكـره وحـديثـهُ ... تنـادي عليـهِ معـولاتٍ حـلائله

فما عاش بعدها إلا عشراً حتى مات . وروي أنه لما قال لـه الهاتف : ـ

كـأني بهـذا القصـرِ قـد بـادَ أهله ... وقـد درست أعـلامـهُ ومنـازلـه

فأجابه المهدي :

كـذاكَ أمورُ النـاس يبلى جديـدهـا ... وكـلُ فتىً يـومـاً ستبلى فعـائله

فقال الهاتف :

تـزود من الـدنيـا فـإنـكَ ميتٌ ... وإنـكَ مسؤول فمـا أنتَ قـائـله

فأجابه المهدي :

أقـولُ بـأنَ اللّهَ حـقٌ شـهـدتـه ... وذلـكَ قـولٌ ليسَ تحصى فضـائله

فقال الهاتف :

تـزود مِنَ الـدنيـا فـإنّـكَ راحـلٌ ... وقـد أزفَ الأمـرُ الـذي بـكَ نـازل

فأجابه المهدي :

متى ذاكَ خبّرني هديت فإنني ... سأفعلُ ما قد قلت لي وأعاجله

فقال الهاتف :

تلبّثْ ثلاثاً بعدَ عشرينَ ليلةٍ ... إلى منتهى شهرٍ وما أنت كامله

قالوا : فلم يعش بعدها إلا تسعة وعشرين يوماً حتى مات رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير اختلافاً في سبب موته ، فقيل إنه ساق خلف ظبي والكلاب بين يديه فدخل الظبي إلى خربة فدخلت الكلاب وراءه وجاء الفرس فحمل بمشواره فدخل الخربة فكسر ظهره ، وكانت وفاته بسبب ذلك . وقيل إن بعض حظاياه بعثت إلى أخرى لبنا مسموماً فمر الرسول بالمهدي فأكل منه فمات . وقيل بل بعثت إليهابصينية فيها الكمثري وفي أعلاها واحدة كبيرة مسمومة ، وكان المهدي يعجبه الكمثري ، فمرت به الجارية ومعها تلك الصينية فأخذ التي في أعلاها فأكلها فمات من ساعته ، فجعلت الحظية تندبه وتقول : وا أمير المؤمنيناه ، أردت أن يكون لي وحدي فقتلته بيدي . وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة ـ أعني سنة تسع وستين ومائة ـ وله من العمر ثلاث وأربعون سنة على المشهور ، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وكسوراً ، ورثاه الشعراء بمراثي كثيرة قد ذكرها ابن جرير وابن عساكر .

وفيها توفي عبيد الله بن زياد ، ونافع بن عمر الجمحي ، ونافع بن أبي نعيم القاري .

خلافة موسى الهادي بن المهّدي

توفي أبوه في المحرم من أول سنةتسع وستين ومائة وكان ولي العهد من بعد أبيه ،وكان أبوه قد عزم قبل موته على تقديم أخيه الرشيد عليه في ولاية العهد ، فلم يتفق ذلك حتى مات المهدي بماسبذان . وكان الهادي إذ ذاك بجرجان ، فهم بعض الدولة منهم الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشيد عليه والمبايعة له ، وكان الرشيد حاضراً ببغداد ، وعزموا على النفقة على الجند لذلك تنفيذاً لما رآه المهدي من ذلك . فأسرع الهادي السير من جرجان الى بغداد حين بلغه الخبر ، فساق منها إليها في عشرين يوماً ، فدخل بغداد وقام في الناس خطيباً ، وأخذ البيعة منهم فبايعوه ، وتغيب الربيع الحاجب فتطلبه الهادي حتى حضر بين يديه ، فعفا عنه وأحسن إليه وأقرّه على حجو بيته ، وزاده الوزارة وولايات أخر . وشرع الهادي في تطلب الزنادقة من الآفاق فقتل منهم طائفة كثيرة ، واقتدى[1] في ذلك بأبيه ، وقد كان موسى الهادي من أفكه[2] الناس مع أصحابه في

(١) واقتدى : سار على طريقته وخطاه .

(٢) افكه : أكثر فكاهة ومرحاً .

الخلوة ، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه ، لما يعلوه من المهابة[1] والرياسة ، وكان شاباً حسناً وقوراً مهيباً .

وفيها ـ أعني سنة تسع وستين ومائة ـ خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وذلك أنه أصبح يوماً وقد لبس البياض وجلس في المسجد النبوي ، وجاء الناس إلى الصلاة فلما رأوه ولوا راجعين ، والتف عليه جماعة فبايعوه على الكتاب والسنة والرضى من أهل البيت . وكان سبب خروجه أن متوليها خرج منها إلى بغداد ليهنىء الخليفة بالولاية ويعزيه في أبيه . ثم جرت أمور اقتضت خروجه ، والتف عليه جماعة وجعلوا مأواهم المسجد النبوي ، ومنعوا الناس من الصلاة فيه ، ولم يجبه أهل المدينة الى ما أراده ، بل جعلوا يدعون عليه لانتهاكه المسجد ، حتى ذكر أنهم كانوا يقذرون في جنبات المسجد ، وقد اقتتلوا مع المسودة مرات فقتل من هؤلاء وهؤلاء . ثم ارتحل الى مكة فأقام بها الى زمن الحج ، فبعث اليه الهادي جيشاً فقاتلوه بعد فراغ الناس من الموسم فقتلوه وقتلوا طائفة من أصحابه ، وهرب بقيتهم وتفرقوا شذر مذر . فكان مدة خروجه الى أن قتل تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وقد كان كريماً من أجود الناس . دخل يوماً على المهدي فأطلق له أربعين ألف دينار ففرقها في أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة ، ثم خرج من الكوفة وما عليه قميص ، إنما كان عليه فروة وليس تحتها قميص .

وفيها حج بالناس سليمان بن أبي جعفر عم الخليفة . وغزا الصائفة من طريق درب الراهب معتوق بن يحيى في جحفل كثيف ، وقد أقبلت الروم مع بطريقها فبلغوا الحدث . وفيها توفي الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب قتل في أيام التشريق كما تقدم . والربيع بن يونس الحاجب مولى المنصور ، وكان حاجبه ووزيره ، وقد ورد للمهدي والهادي ، وكان بعضهم يطعن في نسبه . وقد أورد الخطيب في ترجمته حديثاً من طريقه ولكنه منكر ، وفي صحته عنه نظر . وقد ولى الحجوبية بعده ولده الفضل بن الربيع ، ولاه إياها الهادي .

ثم دخلت سنة سبعين ومائة من الهجرة النبوية

وفيها عزم الهادي على خلع أخيه هارون الرشيد من الخلافة وولاية العهد لابنه جعفر بن الهادي فانقاد هارون لذلك ولم يظهر منازعة بل أجاب ، واستدعى الهادي جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك ، وأبت ذلك أمهما الخيزران ، وكانت تميل إلى ابنها هارون أكثر من موسى ، وكان الهادي قد منعها من التصرف في شيء من المملكة لذلك ، بعد ما كانت قد استحوذت عليه في أول ولايته ، وانقلبت الدول الى بابها والأمراء الى جنابها ، فحلف الهادى لئن عاد أمير إلى بابها ليضربن عنقه ولا يقبل منه شفاعة ، فامتنعت من الكلام في ذلك ، وحلفت لا تكلمه أبداً ، وانتقلت عنه الى منزل

---

(١) المهابة : الهيبة والوقار .

آخر . وألح هو على أخيه هارون في الخلع وبعث الى يحيى بن خالد بن برمك ـ وكان من أكا. الأمراء الذين هم في صف الرشيد ـ فقال له : ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر ؟ فقال له خالد : إني أخشى أن تهون الإيمان على الناس ، ولكن المصلحة تقتضي أن تجعل جعفر ولي العهد من بعد هارون ، وأيضاً فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس الى البيعة لجعفر ، لأنه دوز البلوغ ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس . فأطرق ملياً ـ وكان ذلك ليلاً ـ ثم أمر بسجنه ثم أطلقه . وجاء يوماً إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً ، فجعل الهادي ينظر إليه ملياً ثم قال : يا هارون ! تطمع أن تكون ولياً للعهد حقاً ؟ فقال : إي والله ، ولئن كان ذلك لأصلن من قطعت ، ولأنصفن من ظلمت ، ولأزوجن بنيك من بناتي . فقال ذاك الظن بك . فقام إليه هارون ليقبل يده فحلف الهادي ليجلس معه على السرير فجلس معه ، ثم أمر له بألف ألف دينار ، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد ، وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه ، ففعل ذلك كله ورضي الهادي عن الرشيد ، ثم سافر الهادي إلى حديثة الموصل بعد الصلح ، ثم عاد منها فمات بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول ، وقيل لآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة ، وكانت خلافته ستة أشهر[1] وثلاثة وعشرون يوماً . وكان طويلاً جميلاً أبيض ، بشفته العليا تقلص . وقد توفي هذه الليلة خليفة وهو الهادي ، وولي خليفة وهو الرشيد ، وولد خليفة وهو المأمون بن الرشيد . وقد قالت الخيزران أمهما في أول الليل : إنه بلغني أن يولد خليفة ويموت خليفة ويولى خليفة . يقال إنها سمعت ذلك من الأوزاعي قبل ذلك بمدة ، وقد سرها ذلك جداً . وقال : إنها سمت ولدها الهادي خوفاً منه على ابنها الرشيد ، ولأنه كان قد أبعدها وأقصاها وقرب حظيته خالصة وأدناها فالله أعلم .

وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي

هو موسى بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو محمد الهادي . ولي الخلافة في محرم سنة تسع وستين ومائة . ومات في النصف من ربيع الأول أو الآخر سنة سبعين ومائة ، وله من العمر ثلاث ، وقيل أربع ، وقيل ست وعشرون سنة ، والصحيح الأول ، ويقال إنه لم يل الخلافة أحد قبله في سنه ، وكان حسناً جميلاً طويلاً ، أبيض ، وكان قوي البأس يثب على الدابة وعليه درعان ، وكان أبوه يسميه ريحانتي . ذكر عيسى بن دأب قال : كنت يوماً عند الهادي إذ جيء بطست فيه رأس جاريتين قد ذبحا وقطعا ، لم أرَ أحسن صوراً منهما ، ولا مثل شعورهما ، وفي شعورهما اللآلىء والجواهر منضدة ، ولا رأيت مثل طيب ريحهما . فقال لنا الخليفة : أتدرون ما شأن هاتين؟ قلت : لا . فقال : إنه ذكر أنه تركب إحداهما الأخرى يفعلان الفاحشة ، فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءني فقال : إنهما مجتمعتان ، فجئت فوجدتهما في لحاف واحد وهما على

---

(١) في المصرية : سنة وشهراً وثلاثة وعشرين يوماً .

الفاحشة ، فأمرت بحز رقابهما . ثم أمر برفع رؤ وسهما من بين يديه ورجع الى حديثه الأول كأنه لم يصنع شيئاً . وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً ، ومن كلامه : ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني ، والعفو عن الزلات ، ليقل الطمع عن الملك . وغضب يوماً على رجل فاسترضي عنه فرضي ، فشرع الرجل يعتذر فقال الهادي : إن الرضا كفاك مؤنة الاعتذار . وعزى رجلاً في ولده فقال له : سرّك وهو عدو وفتنة ، وساءك وهو صلاة ورحمة . وروى الزبير بن بكار أن مروان بن أبي حفصة أنشد الهادي قصيدة له منها قوله :ـ

تشابه يوماً بأسه ونواله[1] فما أحدٌ يدري لأيهما الفضلُ

فقال له الهادي : أيما أحب إليك؟ثلاثون ألفا معجلة أو مائة ألف تدور في الدواوين ؟ قال : يا أمير المؤمنين أو أحسن من ذلك ؟ قال : وما هو؟ قال : تكون ألفاً معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين . فقال الهادي : أو أحسن من ذلك ، نعجل الجميع لك . فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة . قال الخطيب البغدادي : حدّثني الأزهري ثنا سهل بن أحمد الديباجي ثنا الصولي ثنا الغلابي حدّثني محمد بن عبد الرحمن التيمي المكي حدّثني المطلب بن عكاشة المزني قال : قدمنا على أبي محمد الهادي شهوداً على رجل منا أنه شتم قريشاً وتخطى إلى رسول الله ﷺ فجلس لنا مجلساً أحضر فيه فقهاء أهل زمانه ومن كان بالحضرة على بابه ، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه فتغير وجه الهادي ثم نكس رأسه ثم رفعه ثم قال : إني سمعت أبي المهدي يحدث عن أبيه المنصور عن أبيه علي بن عبد الله بن عباس قال : من أهان قريشاً أهانه الله ، وأنت يا عدو الله لم ترض بأن آذيت قريشاً حتى تخطيت إلى ذكر رسول الله ﷺ اضربوا عنقه . فما برحنا حتى قتل .

توفي الهادي في ربيع الأول من هذه السنة ، وصلى عليه أخوه هارون ، ودفن في قصر بناه وسماه الأبيض بعيساباذ من الجانب الشرقي من بغداد ، وكان له من الولد تسعة ، سبعة ذكور وابنتان ، فالذكور جعفر ، وعباس ، وعبد الله ، وإسحاق ، وإسماعيل ، وسليمان ، وموسى الأعمى ، الذي ولد بعد وفاته فسمى باسم أبيه . والبنتان هما أم عيسى التي تزوجها المأمون ، وأم العباس تلقب توبة .

خلافة هارون الرشيد بن المهدي

بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه ، وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة وكان عمر الرشيد يومئذ اثنتان وعشرين سنة ، فبعث الى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن ،

---

(١) ونواله : عطاؤه.

وقد كان الهادي عزم تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد، وكان الرشيد ابنه من الرضاعة، فولاه حينئذ الوزارة ، وولى يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الانشاء. وكان هو الذي قام خطيباً بين يديه حتى أخذت البيعة له على المنبر بعيساباذ، ويقال إنه لما مات الهادي في الليل جاء يحيى ابن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً فقال : قم يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : كم تروعني[1] . لو سمعك هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنوبي عنده ؟ فقال : قد مات الرجل . فجلس هارون فقال : أشر[2] علي في الولايات . فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرشيد ، فبينما هما كذلك إذ جاء آخر فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد ولد لك الساعة غلام . فقال : هو عبد الله وهو المأمون . ثم أصبح فصلى على أخيه الهادي ، ودفنه بعيساباذ ، وحلفه لا يصلي الظهر إلا ببغداد ، فلما فرغ من الجنازة أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادي ، فزاحموا الرشيد على جسر فقال أبو عصمة : أصبر وقف حتى يجوز ولي العهد . فقال الرشيد : السمع والطاعة للأمير . فجاز جعفر وأبو عصمة ووقف الرشيد مكسوراً ذليلاً . فلما ولي أمر بضرب عنق أبي عصمة ، ثم سار إلى بغداد . فلما انتهى الى جسر بغداد استدعى بالغواصين فقال إني سقط مني ههنا خاتم كان والدي المهدي قد اشتراه لي بمائة ألف ، فلما كان من أيام بعث إليَّ الهادي يطلبه فألقيته إلى الرسول فسقط ههنا . فغاص الغواصون وراءه فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً . ولما ولى الرشيد يحيى بن خالد الوزارة قال له : قد فوضت إليك امر الرعية وخلعت ذلك من عنقي وجعلته في عنقك ، فول من رأيت واعزل من رأيت . ففي ذلك يقول إبراهيم بن الموصلي : ـ

ألم ترأن الشمسَ كانتْ سقيمةً ... فلما ولي هارونُ أشرقَ نورها
بيمنِ أمينِ الله هارونَ ذي الندى[3] ... فهارونُ واليها ويحيى وزيرها

ثم إن هارون أمر يحيى بن خالد أن لا يقطع أمراً إلا بمشاورة والدته الخيزران . فكانت هي المشاورة في الأمور كلها ، فتبرم وتحل وتمضي وتحكم .

وفيها أمر الرشيد بسهم ذوي القربى أن يقسم بين بني هاشم على السواء . وفيها تتبع الرشيد خلقاً من الزنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة . وفيها خرج عليه بعض أهل البيت ، وفيها ولد الأمين محمد بن الرشيد بن زبيدة . وذلك يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة . وفيها كمل بناء مدينة طرسوس على يدي فرج الخادم التركي ونزلها الناس . وفيها حج بالناس أمير المؤمنين الرشيد ، وأعطى أهل الحرمين أموالاً كثيرة ، ويقال إنه غزا في هذه السنة أيضاً. وفي ذلك

---

(١) تروعني : تخوِّفني .
(٢) أشر : اعطني مشورتك ورأيك .
(٣) الندى : الجود والكرم والفضل .

يقول داود بن رزين الشاعر : ـ

بـهــارونَ لاحَ النـورُ فـي كـل بلدةٍ وقـامَ بـه في عـدلِ سيرتـهِ النهـجُ[1]
إمـامٌ بـذاتِ الله أصـبـحَ شـغـلهُ وأكثـرُ مـا يعنى بـه الغـزوُ والحـجُ
تضيقُ عيـونُ النـاسِ عن نـور وجهـهِ إذا مـا بـدا للنـاسِ منـظرهُ البلجُ[2]
وإن أمـيـنَ الله هـارونَ ذا الـنـدا ينيـلُ الذي يـرجوهُ أضعـافَ ما يـرجـو

وغزا الصائفة فيها سليمان بن عبد الله البكائي .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم أبو عبد الرحمن الفراهيدي ، ويقال الفرهودي الأزدي ، شيخ النحاة ، وعنه أخذ سيبويه والنضر بن شميل ، وغير واحد من أكابرهم ، وهو الذي اخترع علم العروض . قسمه الى خمس دوائر وفرعه الى خمسة عشر بحراً ، وزاد الأخفش فيه بحراً آخر وهو الخبب . وقد قال بعض الشعراء :ـ

قـد كـانَ شعـرُ الـورى صحيحـاً مِـنْ قبـلِ أن يـخلق الـخـليـلُ

وقد كان له معرفة بعلم النغم ، وله فيه تصنيف أيضاً ، وله كتاب العين في اللغة ، ابتدأه وأكمله النضر بن شميل وأضرابه من أصحاب الخليل ، كمؤرج السدوسي ، ونصر بن علي الجهضمي ، فلم يناسبوا ما وضعه الخليل . وقد وضع ابن درستويه كتاباً وصف فيه ما وقع لهم من الخلل فأفاد . وقد كان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً وقوراً كاملاً ، وكـان متقللاً من الدنيا جداً ، صبوراً على خشونة العيش وضيقه ، وكان يقول : لا يجاوز همي ما وراء بابي ، وكان ظريفاً حسن الخلق ، وذكر أنه اشتغل رجل عليه في العروض وكان بعيد الذهن فيه ، قال فقلت له يوماً : كيف تقطع هذا البيت؟

إذا لـم تـسـتـطعْ شـيـئـاً فـدعـهُ وجـاوزهُ إلـى مـا تـسـتـطيـعُ

فشرع معي في تقطيعه على قدر معرفته ، ثم إنه نهض من عندي فلم يعد إلي ، وكأنه فهم ما أشرت إليه . ويقال إنه لم يسم أحد بعد النبي ﷺ بأحمد سوى أبيه . روى ذلك عن أحمد بن أبي خيثمة والله أعلم . ولد الخليل سنة مائة من الهجرة ، ومات بالبصرة سنة سبعين ومائة على المشهور ، وقيل سنة ستين ، وزعم ابن الجوزي في كتابه شذور العقود أنه توفي سنة ثلاثين ومائة ،

---

(١) النهج : الطريقة والسنة .
(٢) البلج : صاحب الوجه الطلق .

وهذا غريب جداً . والمشهور الأول .

وفيها توفي الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي مولاهم ، المصري المؤدب راوية الشافعي ، وآخر من روى عنه . وكان رجلاً صالحاً تفرس[1] فيه الشافعي وفي البويطي والمزني وابن عبد الحكم العلم فوافق ذلك ما وقع في نفس الأمر ومن شعر الربيع هذا :

صبراً جميلاً ما أسرع الفرجا مَنْ صدقَ الله في الأمور نجا
من خشيَ الله لم ينلهُ أذى ومن رجا الله كانَ حيثُ رجا

فأما الربيع بن سليمان بن داود الجيزي فانه روى عن الشافعي أيضاً . وقد مات في سنة ست وخمسين ومائتين والله أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة

فيها أضاف الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد مع الوزارة . وفيها قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ نائب الجزيرة صبراً في قصر الخلد بين يديه . وفيها خرج الفضل بن سعيد الحروري فقتل . وفيها قدم روح بن حاتم نائب إفريقية . وفيها خرجت الخيزران الى مكة فأقامت بها الى أن شهدت الحج ، وكان الذي حج بالناس فيها عبد الصمد بن علي عم الخلفاء .

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين ومائة

فيها وضع الرشيد عن أهل العراق العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف ، وفيها خرج الرشيد من بغداد يرتاد له موضعاً يسكنه غير بغداد فتشوش فرجع . وفيها حج بالناس يعقوب بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد . وفيها غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

فيها توفي بالبصرة محمد بن سليمان فأمر الرشيد بالاحتياط على حواصله التي تصلح للخلفاء ، فوجدوا من ذلك شيئاً كثيراً من الذهب والفضة والأمتعة وغير ذلك ، فنضدوه[2] ليستعان به على الحرب وعلى مصالح المسلمين . وهو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأمه أم حسن بنت جعفر بن حسن بن حسن بن علي ، وكان من رجالات قريش وشجعانهم . جمع له المنصور بين البصرة والكوفة ، وزوجه المهدي ابنته العباسة ، وكان له من الأموال شيء كثير ، كان دخله في كل يوم مائة ألف . وكان له خاتم من ياقوت أحمر لم ير مثله . وروى الحديث عن أبيه عن

---

(١) تفرس : نظر اليه نظرة تأمل وإمعان .

(٢) فنضدوه : أمدُّوه وساعدوه .

جده الأكبر ، وهو حديث مرفوع في مسح رأس اليتيم إلى مقدم رأسه ، ومسح رأس من له أب إلى مؤخر رأسه . وقد وفد على الرشيد فهناه بالخلافة فأكرمه وعظمه وزاده في عمله شيئاً كثيراً . ولما أراد الخروج خرج معه الرشيد يشيعه الى كلواذا . توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة عن إحدى وخمسين سنة ، وقد أرسل الرشيد من اصطفى من ماله الصامت فوجد له من الذهب ثلاثة آلاف ألف دينار ، ومن الدراهم ستة آلاف ألف ، خارجاً عن الأملاك .

وقد ذكر ابن جرير أن وفاته ووفاة الخيزران في يوم واحد ، وقد وقفت جارية من جواريه على قبره فأنشأت تقول :

أمسى التـرابُ لمن هـويتَ مبيتـاً	الق التـرابَ فـقـلْ لـهُ حيـيتـا
إنـا نـحبـكَ يـا تـرابُ ومـا بـنـا	إلا كـرامـة مـن عـليـهِ حـثـيـتـا

وفيها توفيت الخيزران جارية المهدي وأم أمير المؤمنين الهادي والرشيد ، اشتراها المهدي وحظيت عنده جداً ثم أعتقها وتزوجها وولدت له خليفتين : موسى الهادي والرشيد . ولم يتفق هذا لغيرها من النساء إلا الولادة بنت العباس العبسية ، زوجة عبد الملك بن مروان ، وهي أم الوليد وسليمان ، وكذلك لشاه فرند بنت فيروز بن يزدجرد ، ولدت لمولاها الوليد بن عبد الملك : مروان وإبراهيم . وكلاهما ولي الخلافة . وقد روي من طريق الخيزران عن مولاها المهدي عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « من اتقى الله وقاه كل شيء » . ولما عرضت الخيزران على المهدي ليشتريها أعجبته إلادقة في ساقيها ، فقال لها : يا جارية إنك لعلى غاية المنى والجمال لولا دقة ساقيك وخموشهما[1] . فقالت : يا أمير المؤمنين إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما فاستحسن جوابها واشتراها وحظيت عنده جداً . وقد حجت الخيزران مرة في حياة المهدي فكتب اليها وهي بمكة يستوحش لها ويتشوق إليها بهذا الشعر :-

نـحنُ فـي غـايـةِ السـرور ولـكـنْ	لـيسَ إلاّ بـكـمْ يـتـمُ السـرورُ
عيبُ مـا نحنُ فـيـهِ يـا أهـل ودّي	أنـكـم غُـيّـبٌ ونـحـنُ حـضـورُ
فـأجـدّوا في السيـر بـل إن قـدرتم	أن تـطيـروا مـع الريـاح فـطيـروا

فأجابته أو أمرت من أجابه :

قـد أتـانـا الـذي وصفت من الشـو	قِ فـكـدنـا ومـا قـدرنـا نـطيـرُ
لـيـتَ أنَّ الـريـاحَ كـنَّ يـؤديـن	إلـيكـم مـا قـد يكـنُّ الـضـمـيـرُ
لـم أزل صبّـة فـان كـنـت بـعـدي	فـي سـرورٍ فـدام ذاك السـرورُ

---

(1) وخموشهما : مفردها : خمش الخدش .

وذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصرة الذي مات في اليوم الذي ماتت فيه مائة وصيفة ، مع كل وصيفة جام[1] من فضة مملوء مسكاً . فكتبت إليه : إن كان ما بعثته ثمناً عن ظننا فيك فظننا فيك أكثر مما بعثت ، وقد بخستنا في الثمن ، وإن كنت تريد به زيادة المودة فقد اتهمتني في المودة . وردت ذلك عليه . وقد اشترت الدار المشهورة بها بمكة المعروفة بدار الخيزران ، فزادتها في المسجد الحرام .

وكان مغلّ [2] ضياعها في كل سنة ألف ألف وستين ألفاً واتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة . وخرج ابنها الرشيد في جنازتها وهو حامل سريرها يخب في الطين . فلما انتهى الى المقبرة أتى بماء فغسل رجليه ولبس خفاً وصلى عليها ، ونزل لحدها[3] . فلما خرج من القبر أتى بسرير فجلس عليه واستدعى بالفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات . وأنشد الرشيد قول ابن نويرة حين دفن أمه الخيزران :

وكنا كندماني جذيمة برهةً ... من الدهرِ حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماعٍ لم نبت ليلة معاً

وفيها توفيت :

غـــادر

جارية كانت لموسى الهادي ، كان يحبها حباً شديداً جداً ، وكانت تحسن الغناء جداً ، فبينما هي يوماً تغنيه إذ أخذته فكرة غيبته عنها وتغير لونه ، فسأله بعض الحاضرين : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أخذتني فكرة أني أموت وأخي هارون يتولى الخلافة بعدي ويتزوج جاريتي هذه . ففدّاه الحاضرون ودعوا له بطول العمر . ثم استدعى أخاه هارون فأخبره بما وقع فعوذه الرشيد من ذلك ، فاستحلفه الهادي بالايمان المغلظة من الطلاق والعتاق والحج ماشياً حافياً أن لا يتزوجها ، فحلف له واستحلف الجارية كذلك فحلفت له ، فلم يكن إلا أقل من شهرين حتى مات ، ثم خطبها الرشيد فقالت : كيف بالايمان التي حلفناها أنا وأنت ؟ فقال : إني أكفر عني وعنك ، فتزوجها وحظيت عنده جداً ، حتى كانت تنام في حجره فلا يتحرك خشية أن يزعجها . فبينما هي ذات ليلة نائمة إذ انتبهت مذعورة تبكي ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين رأيت الهادي في منامي هذا وهو يقول :

أخلفت عهدي بعدَ ما ... جاورتُ سكانَ المقابرْ
ونسيتني وحنثتِ[4] في ... أيمانك الكذب الفواجرْ

---

(١) جام : كأس جمعها جامات (فارسية).
(٢) مغل : موارد وخيرات .
(٣) لحدها : قبرها .
(٤) وحنثت : نكث بوعده وعهده .

ونــكــحــتِ غــادرةً أخــي ... صــدق الــذي ســمــاكِ غــادرْ
أمــســيــتُ فــي أهــل الــبــلى ... وعــددتُ في المــوتـى الغــوابــرْ
لا يــهــنــكِ الألــفَ الــجــديــ ... ــدُ ولا تــدرْ عــنــكِ الــدوائــرْ
ولــحقــتِ بي قــبــل الــصــبــا ... ح وصــرتُ حيثُ غــدوتُ صــائــرْ

فقال لها الرشيد : أضغاث[1] أحلام . فقالت : كلا والله يا أمير المؤمنين ، فكأنما كتبت هذه الأبيات في قلبي . ثم ما زالت ترتعد وتضطرب حتى ماتت قبل الصباح . وفيها ماتت : هيلانة جارية الرشيد ، وهو الذي سماها هيلانة لكثرة قولها هي لأنه . قال الأصمعي : وكان لها محباً ، وكانت قبله لخالد بن يحيى بن برمك ، فدخل الرشيد يوما منزله قبل الخلافة فاعترضته في طريقه وقالت : أما لنا منك نصيب ؟ فقال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ فقالت : استوهبني من هذا الشيخ . فاستوهبها من يحيى بن خالد فوهبها له وحظيت عنده ، ومكثت عنده ثلاث سنين ثم توفيت فحزن عليها حزنا شديداً ورثاها وكان من قوله فيها : -

قــد قــلتُ لــمــا ضــمــنــوكَ الــثــرى ... وجــالــتُ الــحــســرةُ فــي صــدري
اذهــبْ فــلاقِ الله لا ســرنــي ... بــعــدك شــيءٌ آخــرَ الــدهــرِ

وقال العباس بن الأحنف في موتها :

يــا من تبــاشــرتْ القبــورِ بــمــوتهــا ... قــصــدَ الــزمــانُ مســاءتــي فــرمــاكِ
أبـغي الأنـيسَ فمــا أرى لـي مؤنـســاً ... إلا الــتــردَد حــيــثُ كــنــت أراكِ

قال : فأمر له الرشيد بأربعين ألفا ، لكل بيت عشرة آلاف ، فالله أعلم .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة من الهجرة

فيها وقعت عصبية بالشام وتخبيط من أهلها . وفيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضي أبي يوسف وأبوه حي . وفيها غزا الصائفة عبد الملك بن صالح فدخل بلاد الروم . وفيها حج بالناس الرشيد ، فلما اقترب من مكة بلغه أن فيها وباء فلم يدخل مكة حتى كان وقت الوقوف وقف ثم جاء المزدلفة ثم منى ثم دخل مكة فطاف وسعى ثم ارتحل ولم ينزل بها .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

فيها أخذ الرشيد بولاية العهد من بعده لولده محمد بن زبيدة وسماه الأمين ، وعمره إذ ذاك خمس سنين ، فقال في ذلك سلم الخاسر :

---

(١) اضغاث : مفردها الضغث . الذي ما كان مختلطاً لا حقيقة له . وهي الاحلام المختلطة التي لا يصح تأويلها .

قــد وفــقَ اللهُ الـخـلـيـفـةَ إذ بـنـى بيتَ الخـلافـةِ للهجـانِ[1] الأزهـرِ
فـهــوَ الـخـلـيـفـةُ عـن أبيه وجده شـهـدا عليه بـمـنـظرٍ وبـمـخـبـرِ
قـد بـايـعَ الثقـلانِ في مهـدِ الهـدى لـمحـمـدِ بنِ زبيـدةَ ابنـةِ جـعـفـرِ

وقد كان الرشيد يتوسم النجابة والرجاحة في عبد الله المأمون، ويقول: والله إن فيه حزم المنصْور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي. ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت، وإني لأقدم محمد بن زبيدة وإني لأعلم أنه متبع هواه ولكن لا أستطيع غير ذلك. ثم أنشأ يقول :

لقـد بـان وجهُ الـرأيِ لي غيـرَ أنني غلبتُ على الأمرِ الـذي كـانَ أحزمـا
وكيفَ يـردُ الـدَّرَ في الضـرعِ بعـدمـا تـوزَعَ حتى صـارَ نـهـبـاً مقـسـمـا
أخـافُ الـتـواءَ الأمـرِ بعـد اسَتوائه وأن ينقضَ الأمـرُ الـذي كـانَ أبـرمـا

وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح، في قول الواقدي. وحج بالناس الرشيد. وفيها سار يحيى ابن عبد الله بن حسن إلى الديلم وتحرك هناك. وفيها توفي من الأعيان .

شعوانة العابدة الزاهدة

كانت أمة سوداء كثيرة العبادة، روى عنها كلمات حسان، وقد سألها الفضيل بن عياض الدعاء فقالت: أما بينك وبينه ما إن دعوته استجاب لك ؟ فشهق الفضيل ووقع مغشيا عليه. وفيها توفي **الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم**. قال ابن خلكان: كان مولى قيس بن رفاعة وهو مولى عبد الرحمن بن مسافر الفهمي، كان الليث إمام الديار المصرية بلا مدافعة، وولد بقرقشندة من بلاد مصر سنة أربع وتسعين. وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة، ونشأ بالديار المصرية. وقالهابن خلكان: أصله من قلقشندة وضبطه بلامين الثانية متحركة. وحكى عن بعضهم أنه كان جيد الذهن، وأنه وليّ القضاء بمصر فلم يحمدوا ذهنه بعد ذلك، ولد سنة أربع وعشرين ومائة، وذلك غريب جداً . وذكروا أنه كان يدخله من ملكه في كل سنة خمسة آلاف دينار . وقال آخرون :كان يدخله من الغلة في كل سنة ثمانون ألف دينار، وما وجبت عليه زكاة، وكان إماماً في الفقه والحديث والعربية . قال الشافعي: كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه . وبعث إليه مالك يستهديه شيئاً من العصفر لأجل جهاز ابنته، فبعث إليه بثلاثين حملا، فاستعمل منه مالك حاجته وباع منه بخمسمائة دينار، وبقيت عنده منه بقية. وحج مرة فأهدى له مالك طبقا فيه رطب،فرد الطبق وفيه ألف دينار. وكان يهب للرجل من أصحابه من العلماء الألف دينار وما يقارب ذلك. وكان يخرج إلى الاسكندرية في البحر هو وأصحابه في مركب ومطبخه في مركب . ومناقبه كثيرة جداً. وحكى ابن خلكان أنه سمع

---

(١) للهجان : الهجان من كلّ شيء خياره وخالصه .

قائلا يقول يوم مات الليث :

ذهبَ الليثُ فلا ليثَ لكم ومضى العلمُ غريباً وقبرْ

فالتفتوا فلم يروا أحداً . وفيها توفي :

المنذر بن عبد الله بن المنذر

القرشي ، عرض عليه المهدي أن يلي القضاء ويعطيه من بيت المال مائة ألف درهم ، فقال : إني عاهدت الله أن لا ألي شيئاً ، وأعيذ أمير المؤمنين بالله أن أخيس[1] بعهدي . فقال له المهدي : الله ؟ قال : الله . قال : انطلق فقد أعفيتك .

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

فيها كان ظهور يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسنٍ بن علي بن أبي طالب ببلاد الديلم ، واتبعه خلق كثير وجم غفير ، وقويت شوكته ، وارتحل إليه الناس من الكور والأمصار ، فانزعج لذلك الرشيد وقلق من أمره ، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في خمسين ألفاً ، وولاه كور الجبل والري وجرجان وطبرستان وقومس وغير ذلك . فسار الفضل بن يحيى إلى تلك الناحية في أبهة عظيمة ، وكتبُ الرشيد تلحقه مع البرد في كل منزلة ، وأنواع التحف والبر ، وكاتب الرشيد صاحب الديلم ووعده بألف ألف درهم إن هو سهل خروج يحيى إليهم ، وكتب الفضل إلى يحيى بن عبد الله يعده ويمنيه ويؤمله ويرجيه ، وأنه إن خرج إليه أن يقيم له العذر عند الرشيد . فامتنع يحيى أن يخرج إليهم حتى يكتب له الرشيد كتاب أمان بيده . فكتب الفضل الى الرشيد بذلك ففرح الرشيد ووقع منه موقعاً عظيماً . وكتب الأمان بيده وأشهد عليه القضاة والفقهاء ومشيخة بني هاشم ، منهم عبد الصمد ابن علي ، وبعث الأمان وأرسل معه جوائز وتحفاً كثيرة إليهم ، ليدفعوا ذلك جميعه إليه . ففعلوا وسلمه إليه فدخلوا به بغداد ، وتلقاه الرشيد وأكرمه وأجزل له في العطاء ، وخدمه آل برمك خدمة عظيمة ، بحيث إن يحيى بن خالد كان يقول : خدمته بنفسي وولدي : وعظم الفضل عند الرشيد جداً بهذه الفعلة حيث سعى بالصلح بين العباسيين والفاطميين ، ففي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى ويشكره على صنيعه هذا :

ظفرت فلا شلتْ يدُ برمكيةٌ رتقتُ بها الفتقَ الذي بينَ هاشمِ
على حينِ أعيا الراتقينَ[2] التئامه[3] فكفوا وقالوا ليسَ بالمتلائم

---

(١) أخيس : أكذب وأخون .

(٢) الراتقين : المصلحين .

(٣) التئامه : استصلاحه .

فــأصبحتَ قـد فــازتْ يــداكَ بخــطةٍ من المجدِ بـاق ذكـرهـا في المـواسمِ
ومــا زالَ قـدحُ الملكِ يخــرجُ فـائـزاً لكمْ كلمــا ضُمْت قــداحُ المســاهمِ

قالوا: ثم إن الرشيد تنكر ليحيى بن عبد الله بن حسن وتغير عليه، ويقـال: إنه سجنـه ثم استحضره وعنده جماعات من الهاشميين ، وأحضر الأمان الذي بعث به إليه فسأل الرشيد محمد بن الحسن عن هذا الأمان أصحيح هو؟ قال: نعم! فتغيظ الرشيد عليه. وقال أبو البختري: ليس هذا الأمان بشيء فاحكم فيه بما شئت، ومزق الأمان. وبصق فيه أبو البختري، وأقبل الرشيد على يحيى ابن عبد الله فقال: هيه هيه ، وهو يبسم تبسم الغضب، وقال: إن الناس يزعمون أنا سممناك. فقال يحيى: يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ورحماً وحقاً، فعلام تعذبني وتحبسني؟ فرق لـه الرشيـد، فاعترض بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير فقال: يا أمير المؤمنين لا يغرنك هذا الكلام من هذا، فانه عاص شاق، وإنما هذا منه مكر وخبث. وقد أفسد علينا مدينتنا وأظهر فيها العصيان فقال له يحيى: ومن أنتم عافاكم الله؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بآبائي وآباء هذا ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين لقد جاءني هذا حين قتل أخي محمد بن عبد الله فقال: لعن الله قاتله ، وأنشدني فيه نحواً من عشرين بيتاً، وقال لي، إن تحركت إلى هذا الأمر فأنا أول من يبايعك، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك؟ قال: فتغير وجه الرشيد ووجه الزبيري وأنكر وشرع يحلف بالأيمان المغلظة إنه لكاذب في ذلك، وتحير الرشيد. ثم قال ليحيى: اتحفظ شيئاً من المرثية؟ قال: نعم. وأنشده منها جانباً. فازداد الزبيري في الانكار، فقال له يحيى بن عبد الله: فقل: إن كنت كاذبا فقد برئت من حول الله وقوته ، ووكلني الله إلى حولي وقوتي. فامتنع من الحلف بذلك، فعزم عليه الرشيد وتغيظ عليه، فحلف بذلك فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد فرماه الله بالفالج فمات من ساعته. ويقال إن امرأته غمت وجهه بمخدة فقتله الله.

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله وأطلق له مائة ألف دينار، ويقال إنما حبسه بعض يوم وقيل ثلاثة أيام. وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال، وعاش بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله.

وفيها وقعت فتنة عظيمة بالشام بين النزارية ، وهم قيس، واليمانية وهم يمن ، وهذا كان أول بدو أمر العشيرتين بحوران، وهم قيس ويمن، أعادوا ما كانوا عليه في الجاهلية في هذا الآن. وقتل منهم في هذه السنة بشر كثير. وكان على نيابة الشام كلها من جهة الرشيد ابن عمه موسى بن عيسى ، وقيل عبد الصمد بن علي فالله أعلم. وكان على نيابة دمشق بخصوصها سندي بن سهل أحد موالي جعفر المنصور، وقد هدم سور دمشق حين ثارت الفتنة خوفا من أن يتغلب عليها أبو الهيذام المزي رأس القيسية ، وقد كان مزي هذا دميم الخلق. قال الجاحظ: وكان لا يحلف المكاري ولا الملاح ولا الحائك ، ويقول: القول قولهم، ويستخير الله في الحمال ومعلم الكتاب. وقد توفي سنة أربع

ومائتين. فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القواد ورؤوس الكتاب، فأصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة واستقام أمر الرعية ، وحملوا جماعات من رؤوس الفتنة إلى الرشيد فرد أمرهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وأطلقهم، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

قد هاجت الشامُ هيجاً	يشيبُ رأسُ وليده
فصبَّ موسى عليها	بخيله وجنوده
فدانت الشامُ لمّا	أتى بسنحٍ [(١)] وحيده
هذا الجوادَ الذي بُـ	ـذّ [(٢)] كلُّ جودٍ بجوده
أعداه جودُ أبيه	يحيى وجودُ جدوده
فجادَ موسى بن يحيى	بطارفٍ [(٣)] وتليدْه [(٤)]
ونال موسى ذرى المجـ	ـدِ وهوَ حشوُ مُهُوده
خصصتَه بمديحي	منثوره وقصيده
مِنَ البرامكِ عوداً	له فأكرم بعوده
حووا على الشعرِ طراً	خُفيفه ومديده

وفيها عزل الرشيد الغطريف بن عطاء عن خراسان وولاها حمزة بن مالك بن الهيثم الخزاعي الملقب بالعروس. وفيها ولى الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد نيابة مصر، فاستناب عليها جعفر عمر بن مهران، وكان رديء الخلق رديء الشكل زمن الكف أحول، وكان سبب ولايته إياها أن نائبها موسى بن عيسى كان قد عزم على خلع الرشيد. فقال الرشيد: والله لأعزلنه ولأولين عليها أحسن الناس. فاستدعى عمر بن مهران هذا فولاه عليها عن نائبه جعفر بن يحيى البرمكي . فسار إليها على بغل وغلامه أبو درة على بغل آخر، فدخلها كذلك فانتهى إلى مجلس نائبها موسى بن عيسى فجلس في أخريات الناس، فلما انفض الناس أقبل عليه موسى بن عيسى وهو لا يعرف من هو، فقال: ألك حاجة يا شيخ ؟ قال: نعم أصلح الله الأمير . ثم دفع الكتب إليه فلما قرأها قال: أنت عمر بن مهران ؟ قال: نعم ! قال: لعن الله فرعون حين قال: أليس لي ملك مصر ؟ ثم سلم إليه العمل وارتحل منها، وأقبل عمر بن مهران على عمله، وكان لا يقبل شيئاً من الهدايا إلا ما كان ذهباً أو فضة أو قماشا، ثم يكتب على كل هدية اسم مهديها، ثم يطالب بالخراج ويلح في طلبه عليهم، وكان بعضهم يماطله به، فأقسم لا يماطله أحد إلا فعل به وفعل. فجمع من ذلك شيئاً كثيراً، وكان يبعث ما

---

(١) بسنح : اليمن والبركة .
(٢) بذ : فاق .
(٣) بطارف : الأموال الجديدة أو المستحدثة .
(٤) وتليدة : الأموال القديمة الموروثة .

جمعه إلى بغداد، ومن ماطله بعثه إلى بغداد. فتأدب الناس معه . ثم جاءهم القسط الثاني فعجز كثير منهم عن الأداء فجعل يستحضر ما كانوا أدوه إليه من الهدايا، فان كان نقداً أداه عنهم، وإن كان براً باعه وأداه عنهم، وقال لهم: إني إنما ادخرت هذا لكم إلى وقت حاجتكم. ثم أكمل استخراج جميع الخراج بديار مصر ولم يفعل ذلك أحد قبله، ثم انصرف عنها لأنه كان قد شرط على الرشيد أنه إذا مهد البلاد وجبى الخراج، فذاك إذنه في الانصراف . ولم يكن معه بالديار المصرية جيش ولا غيره سوى مولاه أبو درة وحاجبه،وهو منفذ أموره . وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ففتح حصناً. وفيها حجت زبيدة زوجة الرشيد ومعها أخوها، وكان أمير الحج سليمان بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد. وفيها توفي :

إبراهيم بن صالح

ابن علي بن عبد الله بن عباسَ ، كان أميراً على مصر ، توفي في شعبان . وإبراهيم بن هَرمة كان شاعراً . وهو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة أبو إسحاق الفهري المدني ، وفد على المنصور في وفد أهل المدينة حين استوفدهم عليه ، فجلسوا إلى ستر دون المنصور ، يرى الناس من ورائه ولا يرونه ، وأبو الخصيب الحاجب واقف يقول : يا أمير المؤمنين هذا فلان الخطيب ، فيأمره فيخطب ، ويقول : هذا فلان الشاعر فيأمره فينشد . حتى كان من آخرهم ابن هرمة هذا ، فسمعته يقول : لا مرحباً ولا أهلاً ولا أنعم الله بك عيناً . قال : فقلت : هلكت ، ثم استنشدني فأنشدته قصيدتي التي أقول فيها :

سرى ثوبُه عند الصبا المتجابل [1] وقرّب للبينِ الخليط المزايلِ

حتى انتهيت إلى قولي :

فـأمـا الـذي أمنتـه يـأمنُ الـردى وامـا الـذي حـاولتُ بالثكـلِ ثـاكـلُ

قال : فأمر برفع الحجاب فاذا وجهه كأنه فلقة قمر ، فاستنشدني بقية القصيدة وأمر لي بالقرب بين يديه ، والجلوس إليه . ثم قال : ويحك يا إبراهيم ! لولا ذنوب بلغتني عنك لفضلتك على أصحابك ، فقلت : يا أمير المؤمنين كل ذنب بلغك عني لم تعف عنه فأنا مقربه . قال : فتناول المخصرة[2] فضربني بها ضربتين وأمر لي بعشرة آلاف وخلعة وعفا عني وألحقني بنظرائي . وكان من جملة ما نقم المنصور عليه قوله :

ومـهـمـا أُلامُ عـلى حـبّـهـمْ فـإنـي أحبُ بـنـي فـاطـمـة

---

(١) كذا ولعل فيه تحريفاً .

(٢) المخصرة : جمعها مخاصر شيء كالسوط . وهو مايأخذه الملك بيده ليشير به إذا خاطب .

بني بنتٍ من جـاء بـالمحكمـا	ت وبـالدينِ وبـالنسبـةِ القـائمة
فـلستُ أبـالـي بحـبّي لـهـمْ	سـواهم مِنَ النعمِ السـائمـة[1]

قال الأخفش . قال لنا ثعلب قال الأصمعي : ختمت الشعراء بابن هرمة . ذكر وفاته في هذه السنة أبو الفرج بن الجوزي . وفيها توفي الجـراح بن مليح والـدوكيع بن الجـراح ، وسعيد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جميل أبو عبد الله المديني ، ولي قضاء بغداد سبع عشرة سنة لعسكر المهدي ، وثقه ابن معين وغيره وفيها توفي :

صالح بن بشير المرّي

أحد العباد الزهاد، كان كثير البكـاء وكان يعظ فيحضـر مجلسه سفيـان الثوري وغيـره من العلماء، ويقول: سفيان هذا نذير قوم، وقد استدعاه المهدي ليحضر عنده فجاء إليه راكباً على حمار فدنا من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنيه ـ وليي العهد من بعده موسى الهادي وهارون الرشيد ـ أن يقوما إليه لينزلاه عن دابتـه ، فابتدراه فأنزلاه، فأقبل صالح على نفسه فقال: لقد خبت وخسرت إن أنا داهنت ولـم أصدع بالحق في هذا اليوم، وفي هذا المقام. ثم جلس إلى المهدي فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه، ثم قال له: اعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالفه في أمته، ومن كان محمد خصمه كان الله خصمه، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججاً تضمن لك النجاة، وإلا فاستسلم للهلكة، واعلم أن أبطأ الصرعى نهضةً صريع هوى بدعته، واعلم أن الله قاهر فوق عباده، وأن أثبت الناس قدما آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله، وكلام طويل. فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه .

وفيها توفي عبد الملك بن محمد بن محمد بن أبي بكر عمرو بن حزم قدم قاضيا بالعراق. وفرج بن فضالة التنوخي الحمصي، كان على بيت المـال ببغداد في خلافة الرشيد، فتوفي في هذه السنة ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين فمات وله ثمان وثمانون سنة. ومن مناقبه أن المنصور دخل يوماً إلى قصر الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة فقال له وقد غضب عليه: لم لم تقم ؟ قال: خفت أن يسألني اللّه عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك، وقد كره رسول الله ﷺ القيام للناس. قال: فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه . والمسيب بن زهير بن عمرو أبـو سلمة الضبي، كان والي الشرطة ببغداد في أيام المنصور والمهدي والرشيد، وولي خراسان مرة للمهدي. عاش ستا وتسعين سنة. والوضاح بن عبد الله أبو عوانة السري مولاهم، كان من أئمة المشايخ في الرواية . توفي في هذه السنة وقد جاوز الثمانين .

---

(١) السائمة : الماشية والإبل الراعية .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة

فيها عزل الرشيد جعفر البرمكي عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان، وعزل حمزة بن مالك عن خراسان وولى عليها الفضل بن يحيى البرمكي مضافا إلى ما كان بيده من الأعمال بالري وسجستان وغير ذلك. وذكر الواقدي أنه أصاب الناس ريح شديدة وظلمة في أواخر المحرم من هذه السنة ، وكذلك في أواخر صفر منها. وفيها حج بالناس الرشيد وفيها توفي (شريك بن عبد الله) القاضي الكوفي النخعي ، سمع أبا إسحاق وغير واحد، وكان مشكوراً في حكمه وتنفيذ الأحكام، وكان لا يجلس للحكم حتى يتغدى ثم يخرج ورقة من خفه[1] فينظر فيها ثم يأمر بتقديم الخصومة إليه ، فحرص بعض اصحابه على قراءة ما في تلك الورقة فاذا فيها يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته يا شريك بن عبد الله اذكر الموقف بين يدي الله عز وجل. كانت وفاته يوم السبت مستهل ذي القعدة منها . وفيها توفي عبد الواحد بن زيد، ومحمد بن مسلم وموسى بن أعين .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

فيها وثبت طائفة من الحوفية من قيس وقضاعة على عامل مصر إسحاق بن سليمان فقاتلوه وجرت فتنة عظيمة فبعث الرشيد هرثمة بن أعين نائب فلسطين في خلق من الأمراء مدداً لاسحاق، فقاتلوهم حتى أذعنوا بالطاعة وأدّوا ما عليهم من الخراج والوظائف، واستمر هرثمة نائباً على مصر نحواً من شهر عوضاً عن إسحاق بن سليمان، ثم عزله الرشيد عنها وولى عليها عبد الملك بن صالح. وفيها وثبت طائفة من أهل إفريقية فقتلوا الفضل بن روح بن حاتم وأخرجوا من كان بها من آل المهلب ، فبعث إليهم الرشيد هرثمة فرجعوا إلى الطاعة على يديه. وفيها فوض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك. وفيها خرج الوليد بن طريف بالجزيرة وحكم بها وقتل خلقاً من أهلها، ثم مضى منها إلى أرمينية فكان من أمره ما سنذكره. وفيها سار الفضل بن يحيى إلى خراسان فأحسن السيرة فيها وبنى فيها الربط والمساجد، وغزا ما وراء النهر، واتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم له ، وكانوا نحواً من خمسمائة ألف، وبعث منهم نحواً من عشرين ألفاً إلى بغداد، فكانوا يعرفون بها بالكرمينية، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

ما الفضلُ إلاّ شهابٌ لا أفولَ له	عندَ الحروبِ إذا ما تأفلُ الشُّهبُ[2]
حامٍ على مُلكِ قومٍ غُرٌّ سهمهمُ	مِنَ الوراثةِ في أيديهمُ سببُ
أمستْ يدٌ لِبَني ساقي الحجيجِ بها	كتائبٌ[3] ما لها في غيرهمْ أربُ
كتائبُ لبني العباسِ قَدْ عرفتْ	ما ألّفَ الفضلُ منها العجمُ والعربُ

---

(١) خفّه : ما ينتقل بالرجل .

(٢) الشهب : مفردها شهاب وهوالكوكب.

(٣) كتائب : مفردها كتيبة . القطعة من الجيش أو الجماعة من الخيل .

أثبتَ خمسَ مئينٍ في عدادهمُ / من الألوفِ التي أحصتْ لها الكتبُ
يقارعونَ عَنِ القومِ الذينَ همُ / أولى بأحمدَ في الفرقانِ إنْ نسبوا
إن الجوادَ ابنَ يحيى الفضلُ لاورقٌ / يبقى على جودِ كفّيهِ ولا ذهبُ
ما مرَّ يومٌ له مذْ شدَّ مئزره / إلاّ تمولَ أقوامٌ بما يهبُ
كم غايةٍ في الندى والبأسِ أحرزها / للطالبينَ مَداها دُونَها تعبُ
يعطي النهى حينَ لا يعطى الجوادَ ولا / ينبو إذا سُلَّتْ الهنْديَّة القضبُ[1]
ولا الرضى والرضى للهِ غايتهُ / إلى سوى الحقِ يدعوه ولا الغضبُ
قد فاضَ عرفكَ حتى ما يعادلُه / غيثٌ مغيثٌ ولا بحرٌ له حدبُ

وكان قد أنشده قبل خروجه إلى خراسان :

ألمْ ترَ أن الجودَ مِنْ يدِ آدمٍ / تحدرَ حتى صارَ في راحةِ الفضلِ
إذا ما أبو العباسِ سحتْ سماؤه / فيا لكَ مِنْ هطلٍ ويا لكَ من وبلِ

وقال فيه أيضاً :

إذا أم طفلٍ راعها جوعُ طفلها / دعته باسمِ الفضلِ فاعتصمَ الطفلُ
ليحيى بكَ الاسلامَ إنكَ عزه / وإنّكَ مِنْ قومٍ صغيرهمُ كهلُ

قال فأمر له بمائة ألف درهم. ذكره ابن جرير. وقال سلم الخاسر فيهم أيضاً :

وكيفَ تخافُ مِنْ بؤسٍ بدارٍ / يجاورها[2] البرامكةُ البحورُ
وقومٌ منهمُ الفضلُ بنُ يحيى / نفيرٌ ما يوازنه نفيرُ
له يومانِ يومُ ندى وبأسٍ / كأنَّ الدهرَ بينهما أسيرُ
إذا ما البرمكيُّ غدا ابنَ عشرٍ / فهمته أميرٌ أو وزيرُ

وقد اتفق للفضل في هذه السفرة إلى خراسان أشياء غريبة ، وفتح بلاداً كثيرة منها كابل وما وراء النهر، وقهر ملك الترك وكان ممتنعاً، وأطلق أموالاً جزيلة جداً، ثم قفل راجعاً إلى بغداد ، فلما اقترب منها خرج الرشيد ووجوه الناس إليه ، وقدم عليه الشعراء والخطباء وأكابر الناس ، فجعل يطلق الألف ألف ، والخمسمائة ألف ونحوها ، وأنفذ في ذلك من الأموال شيئاً كثيراً لا يمكن حصره إلا بتعب وكلفة ، وقد دخل عليه بعض الشعراء والبدر موضوعة بين يديه وهي تفرق على الناس فقال :

---

(١) القضب : السيوف .

(٢) في المصرية والطبري : تكنفها .

كفى الله بالفضل بن يحيى بنِ خالدٍ وجودِ يديهِ بخلَ كلِ بخيلِ

فأمر له بمال جزيل . وغزا الصائفة في هذه السنة معاوية بن زفر بن عاصم . وغزا الشاتية سليمان بن راشد . وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس نائب مكة .

وفيها توفي جعفر بن سليمان ، وعنتر بن القاسم ، وعبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن عمرو ابن حزم القاضي ببغداد ، وصلى عليه الرشيد ودفن بها ، وقد قيل إنه مات في التي قبلها فالله أعلم .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة

فيها كان قدوم الفضل بن يحيى من خراسان وقد استخلف عليها عمر بن جميل ، فولى الرشيد عليها منصور بن يزيد بن منصور الحميري .وفيها عزل الرشيد خالد بن برمك عن الحجوبة وردها إلى الفضل بن الربيع . وفيها خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستاني ، وكان من أمره ما سيأتي طرف منه . وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدت شوكته وكثر أتباعه ، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فراوغه حتى قتله وتفرق أصحابه ، فقالت الفارعة في أخيها الوليد بن طريف ترثيه :

أيا شجرَ الخابورِ[1] مالكَ مُورِقاً كأنَّكَ لم تجـزَعْ على آبن طَريفِ
فتىً لا يحبُّ الزادَ إلاَّ مِنَ التُّقى ولا المالَ إلاَّ مِنْ قَناً[2] وسُيوفِ

وفيها خرج الرشيد معتمراً من بغداد شكراً لله عز وجل ، فلما قضى عمرته أقام بالمدينة حتى حج بالناس في هذه السنة ، فمشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات ، وشهد المشاهد والمشاعر كلها ماشياً ، ثم انصرف إلى بغداد على طريق البصرة . وفيها توفي :

اسماعيل بن محمد

ابن يزيد بن ربيعة أبو هاشم الحميري الملقب بالسيد ، كان من الشعراء المشهورين المبرزين فيه ، ولكنه كان رافضياً خبيثاً ، وشيعياً غثيثاً ، وكان ممن يشرب الخمر ويقول بالرجعة ـ أي بالدور ـ قال يوماً لرجل : أقرضني ديناراً ولك عندي مائة دينار إذا رجعنا إلى الدنيا . فقال له الرجل : إني أخشى أن تعود كلباً أو خنزيراً فيذهب ديناري .

وكان قبحه الله يسب الصحابة في شعره . قال الأصمعي : ولولا ذلك ما قدمت عليه أحداً في طبقته ، ولا سيما الشيخين وابنيهما . وقد أورد ابن الجوزي شيئاً من شعره في ذلك كرهت أن أذكره

---

(١) الخابور : نوع من الشجر

(٢) قنا : الرمح .

لبشاعته وشناعته ، وقد اسود وجهه عند الموت وأصابه كرب شديد جداً . ولما مات لم يدفنوه لسبه الصحابه رضي الله عنهم . وفيها توفي :

حماد بن زيد

أحد أئمة الحديث . وخالد بن عبد الله أحد الصلحاء ، كان من سادات المسلمين ، اشترى نفسه من الله أربع مرات . ومالك بن أنس الامام ، والهقل بن زياد صاحب الأوزاعي ، وأبو الأحوص . وكلهم قد ذكرناهم في التكميل .

والإمام مالك

هو أشهرهم وهو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فهو مالك بن أنس بن مالك ابن عامر بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيلان بن حشد بن عمرو بن الحارث ، وهو ذو أصبح الحميري ، أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة في زمانه ، روى مالك عن غير واحد من التابعين ، وحدث عنه خلق من الأئمة ، منهم السفيانان ، وشعبة ، وابن المبارك ، والأوزاعي ، وابن مهدي وابن جُريج والليث والشافعي والزهري شيخه ، ويحيى بن سعيد الأنصاري وهو شيخه ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويحيى بن يحيى الأندلسي ، ويحيى بن يحيى النيسابوري . قال البخاري : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر . وقال سفيان بن عيينة : ما كان أشد انتقاده للرجال . وقال يحيى بن معين : كل من روى عنه مالك فهو ثقة ، إلا أبا أمية . وقال غير واحد : هو أثبت أصحاب نافع والزهري . وقال الشافعي : إذا جاء الحديث فمالك النجم . وقال : من أراد الحديث فهو عيال على مالك . ومناقبه كثيرة جداً ، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يحصر في هذا المكان . قال أبو مصعب : سمعت مالكاً يقول : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك . وكان إذا أراد أن يحدث تنظف وتطيب وسرح لحيته ولبس أحسن ثيابه ، وكان يلبس حسناً ، وكان نقش خاتمه حسبي الله ونعم الوكيل ، وكان إذا دخل منزله قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وكان منزله مبسوطاً بأنواع المفارش . ومن وقت خروج محمد بن عبد الله بن حسن لزم مالك بيته فلم يكن يأتي أحداً لا لعزاء ولا لهناء ، ولا يخرج لجمعة ولا لجماعة ، ويقول : ما كل ما يعلم يقال ، وليس كل أحد يقدر على الاعتذار ولما احتضر قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم جعل يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد ، ثم قبض في ليلة أربع عشرة من صفر ، وقيل من ربيع الأول من هذه السنة ، وله خمس وثمانون سنة . قال الواقدي : بلغ سبعين سنة ودفن بالبقيع . وقد روى الترمذي عن سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الأبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة » . ثم قال : هذا حديث حسن . وقد روى عن ابن عيينة أنه قال : هو مالك بن أنس . وكذا قال عبد الرزاق . وعن ابن عيينة رواية أنه عبد العزيز بن عبد الله العمري . وقد ترجمه ابن خلكان في الوفيات فأطنب وأتى بفوائد جمة .

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة

فيها هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمنية ، فانزعج الرشيد لذلك فندب جعفر البرمكي إلى الشام في جماعة من الأمراء والجنود ، فدخل الشام فانقاد الناس له ولم يدع جعفر بالشام فرساً ولا سيفاً ولا رمحاً إلا استلبه من الناس ، وأطفأ الله به نار تلك الفتنة . وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

لقدْ أوقدتْ بالشامِ نيرانُ فتنةٍ ... فهذا أوانُ الشامِ تخمدُ نارها
إذا جاشَ موجُ البحرِ من آلِ بَرْمكٍ ... عليها خبتْ[1] شهبانها وشرارُها
رماها أميرُ المؤمنينَ بجعفرٍ ... وفيهِ تلافى صَدْعَها وانكسارَها
رماها بميمونٍ[2] النّقيبةِ ماجدٍ ... تراضَى بهِ قحطانُها ونزارُها

ثم كر جعفر راجعاً إلى بغداد بعد ما استخلف على الشام عيسى العكي ، ولما قدم على الرشيد أكرمه وقربه وأدناه ، وشرع جعفر يذكر كثرة وحشته له في الشام ، ويحمد الله الذي منَّ عليه برجوعه إلى أمير المؤمنين ورؤيته وجهه . وفيها ولى الرشيد جعفراً خراسان وسجستان فاستعمل على ذلك محمد بن الحسن بن قحطبة ، ثم عزل الرشيد جعفراً عن خراسان بعد عشرين ليلة . وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب كثرة الخوارج ، وجعل الرشيد جعفراً على الحرس ، ونزل الرشيد الرقة واستوطنها واستناب على بغداد ابنه الأمين محمداً وولاه العراقين ، وعزل هرثمة عن إفريقية واستدعاه إلى بغداد فاستنابه جعفر على الحرس . وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة سقط منها رأس منارة الاسكندرية . وفيها خرج بالجزيرة خراشة الشيباني فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي . وفيها ظهرت طائفة بجرجان يقال لها المحمرة لبسوا الحمرة واتبعوا رجلاً يقال له عمرو بن محمد العمركي ، وكان ينسب إلى الزندقة ، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقتل وأطفأ الله نارهم في ذلك الوقت . وفيها غزا الصائفة زفر بن عاصم . وحج بالناس موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان :

إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري

قارىء أهل المدينة ومؤدب علي بن المهدي ببغداد . وقد مات علي بن المهدي في هذه السنة أيضاً . وقد ولى إمارة الحج غير مرة ، وكان أسن من الرشيد بشهور .

حسان بن ابي سنان

ابن أبي أوفي بن عوف التنوخي الأنباري ، ولد سنة ستين ، ورأى أنس بن مالك ودعا له فجاء

(١) خبت : أطفئت .

(٢) بميمون : صاحب اليمن والخير والبركة .

من نسله قضاة ووزراء وصلحاء ، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية . وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية ، وكان يعرب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح الأنبار . وفيها توفي :

عبد الوارث بن سعيد البيروتي أحد الثقات
وعافية بن يزيد

ابن قيس القاضي للمهدي على جانب بغداد الشرقي ، هو وابن علاثة ، وكانا يحكمان بجامع الرصافة ، وكان عافية عابداً زاهداً ورعاً ، دخل يوماً على المهدي في وقت الظهيرة فقال : يا أمير المؤمنين اعفني ، فقال له المهدي : ولم أعفيك ؟ هل اعترض عليك أحد من الأمراء ؟ فقال له : لا ولكن كان بين اثنين خصومة عندي فعمد أحدهما إلى رطب السكر - وكأنه سمع أني أحبه - فأهدى إلي منه طبقاً لا يصلح إلا لأمير المؤمنين ، فرددته عليه ، فلما أصبحنا : وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا عندي في قلبي ولا نظري ، بل مال قلبي إلى المهدي منهما ، هذا مع أني لم أقبل منه ما أهداه فكيف لو قبلت منه ؟ فاعفني عفا الله عنك فأعفاه . وقال الأصمعي : كنت عند الرشيد يوماً وعنده عافية وقد أحضره لأن قوماً استعدوا عليه إلى الرشيد، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب عما يسأله . وطال المجلس فعطس الخليفة فشمته الناس ولم يشمته عافية ، فقال له الرشيد : لم لم تشمتني مع الناس ؟ فقال : لأنك لم تحمد الله ، واحتج بالحديث في ذلك . فقال له الرشيد : ارجع لعملك فوالله ما كنت لتفعل ما قيل عنك ، وأنت لم تسامحني في عطسة لم أحمد الله فيها . ثم رده رداً جميلاً إلى ولايته . وفيها توفي :

سيبويه

إمام النحاة ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر ، المعروف بسيبويه ، مولى بني الحارث ابن كعب ، وقيل مولى آل الربيع بن زياد ، وإنما سمي سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك ، ومعنى سيبويه رائحة التفاح ، وقد كان في ابتداء أمره يصحب أهل الحديث والفقهاء ، وكان يستملي على حماد بن سلمة ، فلحن يوماً فرد عليه قوله فأنف من ذلك ، فلزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو ، ودخل بغداد وناظر الكسائي . وكان سيبويه شاباً حسناً جميلاً نظيفاً ، وقد تعلق من كل علم بسبب ، وضرب مع كل أهل أدب بسهم ، مع حداثة سنة . وقد صنف في النحو كتاباً لا يلحق شأوه ، وشرحه أئمة النحاة بعده فانغمروا في لجج بحره ، واستخرجوا من درره ، ولم يبلغوا إلى قعره . وقد زعم ثعلب أنه لم ينفرد بتصنيفه ، بل ساعده جماعة في تصنيفه نحواً من أربعين نفساً هو أحدهم ، وهو أصول الخليل ، فادعاه سيبويه إلى نفسه . وقد استبعد ذلك السيرافي في كتاب طبقات النحاة . قال : وقد أخذ سيبويه اللغات عن أبي الخطاب والأخفش وغيرهما ، وكان سيبويه يقول : سعيد بن أبي العروبة ، والعروبة يوم الجمعة ، وكان يقول : من قال عروبة فقد أخطأ

فذكر ذلك ليونس فقال أصاب لله دره ، وقد ارتحل إلى خراسان ليحظى عند طلحة بن طاهر فانه كان يحب النحو فمرض هناك مرضه الذي توفي فيه فتمثل عند الموت :

يؤملُ دنيا لتبقى لهُ فماتَ المؤملُ قبلَ الأملْ
يربى فسيلاً ليبقى لهُ فعاشَ الفسيلُ وماتَ الرجلْ

ويقال : إنه لما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فدمعت عين أخيه فاستفاق فرآه يبكي فقال :

وكنا جميعاً فرقَ الدهرُ بيننا إلى الأمدِ الأقصى فمنْ يأمنْ الدهرا

قال الخطيب البغدادي : يقال إنه توفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة . وفيها توفيت .

عفيرة العابدة

كانت طويلة الحزن كثيرة البكاء . قدم قريب لها من سفر فجعلت تبكي ، فقيل لها في ذلك فقالت : لقد ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله ، فمسرور ومثبور ، وفيها مات مسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي ، كان من أهل مكة ، ولقد تكلموا فيه لسوء حفظه .

ثم دخلت سنة احدى وثمانين ومائة

فيها غزا الرشيد بلاد الروم فافتتح حصنا يقال له الصفصاف ، فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة :

إن أميـر المؤمنين المنصفـا قد ترك الصفصاف قاعاً [١] صفصفاً [٢]

وفيها غزا عبد الملك بن صالح بلاد الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة . وفيها تغلبت المحمرة على جرجان . وفيها أمر الرشيد أن يكتب في صدور الرسائل الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الثناء على الله عز وجل . وفيها حج بالناس الرشيد وتعجل بالنفر ، وسأله يحيى بن خالد أن يعفيه من الولاية فأعفاه وأقام يحيى بمكة . وفيها توفي :

الحسن بن قحطبة

أحد أكابر الأمراء ، وحمزة بن مالك ، وليَّ إمرة خراسان في أيام الرشيد ، وخلف بن خليفة شيخ الحسن بن عرفة عن مائة سنة :

---

(١) قاعاً : القاع أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٢) صفصفا : المستوِ المطمئن .

وعبد الله بن المبارك

أبو عبد الرحمن المروزي ، كان أبوه تركياً مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همذان ، وكان ابن المبارك إذا قدمها أحسن إلى ولد مولاهم ، وكانت أمه خوارزمية ، ولد لثمان عشرة ومائة ، وسمع إسماعيل بن خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة ، وحميد الطويل ، وغيرهم من أئمة التابعين. وحدث عنه خلائق من الناس، وكان موصوفاً بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة والشعر ، له التصانيف الحسان ، والشعر الحسن المتضمن حكما جمة ، وكان كثير الغزو والحج ، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يدور يتجر به في البلدان ، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه ، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم ، وربما أنفق من رأس ماله . قال سفيان بن عيينة : نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلون عليه إلا في صحبتهم رسول الله ﷺ . وقال إسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثله ، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك ، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم . وقدم مرة الرقة وبها هارون الرشيد ، فلما دخلها احتفل الناس به وازدحم الناس حوله ، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت : ما للناس ؟ فقيل لها : قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه . فقالت المرأة : هذا هو الملك ، لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة .

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم ، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته ثم أسرعت به إلى الدار ، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فقالت : أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الازار ، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل . فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار . فقال : عد منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو واعطها الباقي . فهذا أفضل من حجنا في هذا العام ، ثم رجع .

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه : من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقته حتى أكون أنا أنفق عليه ، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق ، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب ، وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فاذا قضوا حجتهم فيقول لهم : هل أوصاكم أهلوكم بهدية ، فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها ، فاذا جاؤ ا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية ، فاذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورمم

شعثها[1] ، فاذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل . وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد .

وسأله مرة سائل فأعطاه درهماً فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالوذج ، وقد كان يكفيه قطعة . فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفالوذج والشواء فإنه لا يكفيه درهم . ثم أمر بعض غلمانه فقال : رده وادفع إليه عشرة دراهم . وفضائله ومناقبه كثيرة جداً .

قال أبو عمر بن عبد البر: أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله. توفي عبد الله بن المبارك بهيت في هذه السنة في رمضانها عن ثلاث وستين سنة .

ومفضل بن فضالة

ولي قضاء مصر مرتين، وكان ديناً ثقة ، فسأل الله أن يذهب عنه الأمل فأذهبه، فكان بعد ذلك لا يهنئه العيش ولا شيء من الدنيا، فسأل الله أن يرده عليه فرده فرجع إلى حاله .

ويعقوب التائب

العابد الكوفي ، قال علي بن الموفق عن منصور بن عمار: خرجت ذات ليلة وأنا أظن أني قد أصبحت، فاذا على ليل، فجلست إلى باب صغير وإذا شاب يبكي وهو يقول: وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولكن سولت لي نفسي، وغلبتني شقوتي، وغرني سترك المرخى علي فلآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني ؟ واسوأتاه على ما مضى من أيامي في معصية ربي . يا ويلي كم أتوب وكم أعود ، قد حان لي أن استحي من ربي عز وجل . قال منصور فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ عليها مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّه مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2] قال: فسمعت صوتا واضطراباً شديداً فذهبت لحاجتي ، فلما رجعت مررت بذلك الباب فاذا جنازة موضوعة، فسألت عنه فاذا ذاك الفتى قد مات من هذه الآية .

---

(١) شعثها : تفرقها وتبددها .

(٢) سورة التحريم الآية / ٦ .

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة

فيها أخذ الرشيد لولده عبد الله المأمون ولاية العهد من بعد أخيه محمد الأمين بن زبيدة ، وذلك بالرقة بعد مرجعه من الحج ، وضم ابنه المأمون إلى جعفر بن يحيى البرمكي وبعثه إلى بغداد ومعه جماعة من أهل الرشيد خدمة له، وولاه خراسان وما يتصل بها، وسماه المأمون. وفيها رجع يحيى بن خالد البرمكي من مجاورته بمكة إلى بغداد. وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ابن صالح فبلغ مدينة أصحاب الكهف. وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن اليون وملكوا عليهم أمه ريني وتلقب أغسطْه. وحج بالناس موسى بن عيسى بن العباس .

وفيها توفي من الأعيان إسماعيل بن عياش الحمصي أحد المشاهير من أئمة الشاميين، وفيه كلام . ومروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور المشكور، كان يمدح الخلفاء والبرامكة .

ومعن بن زائدة

حصل من الأموال شيئاً كثيراً جداً، وكان مع ذلك من أبخل الناس، لا يكاد يأكل اللحم من بخله، ولا يشعل في بيته سراجا، ولا يلبس من الثياب إلا الكرباسي والفرو الغليظ، وكان رفيقه سلم الخاسر إذا ركب إلى دار الخلافة يأتي على بردون وعليه حلة تساوي ألف دينار، والطيب ينفح من ثيابه، ويأتي هو في شر حالة وأسوئها. وخرج يوماً إلى المهدي فقالت امرأة من أهله: إن أطلق لك الخليفةَ شيئاً فاجعل لي منه شيئاً . فقال: إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم. فأعطاه ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانيق. توفي ببغداد في هذه السنة، ودفن في مقبرة نصر بن مالك .

والقاضي أبو يوسف

واسمه يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حسنة، وهي أمه، وأبوه بجير بن معاوية ، استصغر يوم أحد، وأبو يوسف كان أكبر أصحاب أبي حنيفة، روى الحديث عن الأعمش وهمام بن عروة ومحمد بن أسحاق ويحيى بن سعيد وغيرهم. وعنه محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى ابن معين. قال علي بن الجعد: سمعته يقول: توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني أمي إلى قصار[1] فكنت أمر على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلما طال ذلك عليها قالت لأبي حنيفة : إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي ، وإنك قد أفسدته علي. فقال لها: سكتي يا رعناء[2] ، ها هوذا يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفيروزج

---

(١) قصَّار : فعَّال للبمالغة .

(٢) رعناء : حمقاء .

فقالت له : إنك شيخ قد خرفت . قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء ـ وكان أول من ولاه القضاء الهادي وهو أول من لقب قاضي القضاة ، وكان يقال له : قاضي قضاة الدنيا، لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة ـ . قال أبو يوسف: فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتي بفالوذج في صحن فيروزج فقال لي: كل من هذا ، فانه لا يصنع لنا في كل وقت . وقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال: هذا الفالوذج . قال فتبسمت فقال: مالك تتبسم ؟ فقلت: لا شيء أبقى الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني. فقصصت عليه القصة فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة . ثم قال: رحم الله أبا حنيفة، فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا ينظر بعين رأسه . وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف: إنه أعلم أصحابه . وقال المزني: كان أبو يوسف أتبعهم للحديث . وقال ابن المديني: كان صدوقا . وقال ابن معين : كان ثقة . وقال أبو زرعة : كان سليما من التجهم . وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرض مباينته، ولا يجوز السلام ولا رده عليه . ومن كلامه الذي ينبغي كتابته بماء الذهب قوله: من طلب المال بالكيميا [1] أفلس، ومن تتبع غرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تزندق. ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضراوات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيعان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم ، وبأنه لم يكن الخضراوات يخرج فيها شيء في زمن الخلفاء الراشدين . فقال أبو يوسف : لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت . وهذا انصاف منه

وقد كان يحضر في مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم، حتى إن أحمد بن حنبل كان شابا وكان يحضر مجلسه في أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون ، وهو مع ذلك يحكم وينصف أيضاً . وقال: وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولا ميل إلى أحد، إلا يوماً واحداً جاءني رجل فذكر أن له بستاناً وأنه في يد أمير المؤمنين، فدخلت إلى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لي اشتراه لي المهدي. فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه. فأحضره فادعى بالبستان فقلت: ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال: هو بستاني. فقلت للرجل: قد سمعت ما أجاب . فقال الرجل: يحلف، فقلت ، أتحلف يا أمير المؤمنين ؟ فقال: لا ، فقلت سأعرض عليك اليمين ثلاثا فان حلفت وإلا حكمت عليك يا أمير المؤمنين. فعرضتها عليه ثلاثا فامتنع فحكمت بالبستان للمدعي. قال: فكنت في أثناء الخصومة أود أن ينفصل ولم يمكني أن أجلس الرجل مع الخليفة . وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان إلى الرجل .

وروى المعافي بن زكريا الجريري عن محمد بن أبي الأزهر عن حماد بن أبي إسحاق عن أبيه عن بشر بن الوليد عن أبي يوسف. قال: بينا أنا ذات ليلة قد نمت في الفراش، إذا رسول الخليفة

(١) بالكيميا : بالكيمياء وعُرف بالكيمياء قديماً عند العرب بانه علم يحوّل جميع المعادن الى ذهب .

يطرق الباب ، فخرجت منزعجا فقال: أمير المؤمنين يدعوك، فذهبت فاذا هو جالس ومعه عيسى ابن جعفر فقال لي الرشيد: إن هذا قد طلبت منه جارية يهبنيها فلم يفعل، أو يبعنيها، وإني أشهدك إن لم يجبني إلى ذلك قتلته . فقلت لعيسى: لم لم تفعل ؟ فقال: إني حالف بالطلاق والعتاق وصدقة مالي كله أن لا أبيعها ولا أهبها. فقال لي الرشيد: فهل له من مخلص ؟ فقلت: نعم يبيعك نصفها ويهبك نصفها. فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار، فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية ، فلما رآها الرشيد قال: هل لي من سبيل عليها الليلة ؟ قلت: إنها مملوكة ولا بد من استبرائها[1] ، إلا أن تعتقها وتتزوجها فان الحرة لا تستبرأ . قال فأعتقها وتزوجها منه بعشرين ألف دينار ، وأمر لي بمائتي ألف درهم وعشرين تختا من ثياب، وأرسلت إليّ الجارية بعشرة آلاف دينار .

وقال يحيى بن معين: كنت عند أبي يوسف فجاءته هدية من ثياب ديبقي وطيب وفانيل ندوغير ذلك ، فذاكرني رجل في إسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه» فقال أبو يوسف: إنما ذاك في الأقط[2] والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ما ترون، يا غلام ارفع هذا إلى الخزائن، ولم يعطهم منها شيئاً . وقال بشر بن غياث المريسي: سمعت أبا يوسف يقول: صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت على الدنيا سبع عشرة سنة، وما أظن أجلي إلا أن اقترب. فما مكث بعد ذلك إلا شهوراً حتى مات .

وقد مات أبو يوسف في ربيع الأول من هذه السنة عن سبع وستين سنة، ومكث في القضاء بعده ولده يوسف. وقد كان نائبه على الجانب الشرقي من بغداد. ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف كما يقوله عبد الله بن محمد البلوى الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي فقد أخطأ في ذلك، إنما ورد [الشافعي] بغداد في أول قدمة قدمها إليها في سنة أربع وثمانين. وإنما اجتمع الشافعي بمحمد بن الحسن الشيباني فأحسن إليه وأقبل عليه، ولم يكن بينهما شنآن كما يذكره بعض من لا خبرة له في هذا الشأن والله أعلم . وفيها توفي :

يعقوب بن داوود بن طهمان

أبو عبد الله مولى عبد الله بن حازم السلمي، استوزره المهدي وحظي عنده جداً، وسلم إليه أزمة الأمور، ثم لما أمر بقتل ذلك العلوي كما تقدم فأطلقه ونمت عليه تلك الجارية سجنه المهدي في بئر وبنيت عليه قبة، ونبت شعره حتى صار مثل شعور الأنعام، وعمي، ويقال بل غشي بصره ، ومكث نحواً من خمس عشرة سنة في ذلك البئر لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً إلا في أوقات الصلوات يعلمونه بذلك، ويدلي إليه في كل يوم رغيف وكوز ماء، فمكث كذلك حتى انقضت أيام المهدي

---

(١) استبرائها : اطلاق سراحها وتبرأتها .

(٢) الأقط : الجبن والواحدة منه أقطة .

وأيام الهادي، وصدر من أيام الرشيد، قال يعقوب: فأتاني آت في منامي فقال:

عسى الكربُ الذي أمسيتُ فيه يكونُ وراءه فرجٌ قريبُ
فيأمنُ خائفٌ ويفكُ عانٍ ويأتي أهلهُ النائي الغريبُ

فلما أصبحت نوديت فظننت أني أعلم بوقت الصلاة، ودلى إليّ حبل وقيل لي: اربط هذا الحبل في وسطك، فأخرجوني، فلما نظرت إلى الضياء لم أبصر شيئاً، وأوقفت بين يدي الخليفة فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين، فظننته المهدي فسلمت عليه باسمه، فقال: لست به، فقلت الهادي؟ فقال: لست به. فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد. فقال: نعم، ثم قال: والله إنه لم يشفع فيك عندي أحد، ولكني البارحة حملت جارية لي صغيرة على عنقي فذكرت حملك إياي على عنقك فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك. ثم أنعم عليه وأحسن إليه. فغار منه يحيى بن خالد ابن برمك، وخشي أن يعيده إلى منزلته التي كان عليها أيام المهدي، وفهم ذلك يعقوب فاستأذن الرشيد في الذهاب إلى مكة فأذن له، فكان بها حتى مات في هذه السنة رحمه الله. وقال يخشى يحيى أن أرجع إلى الولايات لا والله ما كنت لأفعل أبداً، ولو رددت إلى مكاني. وفيها (توفي يزيد ابن زريع) أبو معاوية شيخ الامام أحمد بن حنبل في الحديث، كان ثقة عالماً عابداً ورعاً، توفي أبوه وكان والي البصرة وترك من المال خمسمائة درهم، فلم يأخذ منها يزيد درهما واحداً، وكان يعمل الخوص بيده ويقتات منه هو وعياله. توفي بالبصرة في هذه السنة، وقيل قبل ذلك فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

فيها خرجت الخزر على الناس من ثلمة أرمينية فعاثوا في تلك البلاد فساداً، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مائة ألف، وقتلوا بشراً كثيراً، وانهزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم، فأرسل الرشيد إليهم خازم بن خزيمة ويزيد بن مزيد في جيوش كثيرة كثيفة، فأصلحوا ما فسد في تلك البلاد. وحج بالناس العباس بن موسى الهادي.

وفيها توفي من الأعيان **علي بن الفضيل بن عياض** في حياة أبيه. كان كثير العبادة والورع والخوف والخشية. **ومحمد بن صبيح** أبو العباس مولى بني عجل المذكر. ويعرف بابن السماك. روى عن إسماعيل بن أبي خالد والأعمش والثوري وهشام بن عروة وغيرهم، ودخل يوما على الرشيد فقال: إن لك بين يدي الله موقفاً فانظر أين منصرفك، إلى الجنة أم النار؟ فبكى الرشيد حتى كاد يموت.

وموسى بن جعفر

ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن الهاشمي، ويقال له الكاظم، ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائة، وكان كثير العبادة والمروءة، إذا بلغه عن أحد أنه

يؤذيه أرسل إليه بالذهب والتحف، ولد له من الذكور والاناث أربعون نسمة. وأهدى له مرة عبد عصيدة فاشتراه واشترى المزرعة التي هو فيها بألف دينار وأعتقه ، ووهب المزرعة له . وقد استدعاه المهدي إلى بغداد فحبسه، فلما كان في بعض الليالي رأى المهدي علي بن أبي طالب وهو يقول له : يا محمد : ﴿ فهل عسيتم إنْ توليتُمْ أنْ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1] ، فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأخرج من السجن ليلاً فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده، فقال: والله ما هذا من شأني ولا حدثت فيه نفسي، فقال: صدقت. وأمر له بثلاثة آلاف دينار، وأمر به فرد إلى المدينة، فما أصبح الصباح إلا وهو على الطريق، فلم يزل بالمدينة حتى كانت خلافة الرشيد فحج ، فلما دخل ليسلم على قبر النبي ﷺ ومعه موسى بن جعفر الكاظم، فقال الرشيد: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم. فقال موسى: السلام عليك يا أبت . فقال الرشيد: هذا هو الفخر يا أبا الحسين. ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وستين وسجنه فأطال سجنه، فكتب إليه موسى رسالة يقول فيها: أما بعد يا أمير المؤمنين إنه لم ينقض عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون . توفي لخمس بقين من رجب من هذه السنة ببغداد وقبره هناك مشهور. وفيها توفي :

هاشم بن بشير بن أبي حازم

القاسم بن دينار أبو معاوية السلمي الواسطي ، كان أبوه طباخا للحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان بعد ذلك يبيع الكوامخ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على شغله، فأبى إلا أن يسمع الحديث. فاتفق أن هاشماً مرض فجاءه أبو شيبة قاضي واسط عائداً له ومعه خلق من الناس، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال: يا بني أبلغ من أمرك أن جاء القاضي إلى منزلي ؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث . كان هاشم من سادات العلماء، وحدث عنه مالك وشعبة والثوري وأحمد بن حنبل وخلق غير هؤلاء، وكان من الصلحاء العباد. ومكث يصلي الصبح بوضوء العشاء قبل أن يموت بعشر سنين .

ويحيى بن زكريا

ابن أبي زائدة قاضي المدائن، كان من الأئمة الثقات . ويونس بن حبيب أحد النحاة النجباء ، أخذ النحو عن أبي عمرو بن العلاء وغيره، وأخذ عنه الكسائي والفراء، وقد كانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم والأدب والفصحاء من الحاضرين والغرباء. توفي في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة .

---

(١) سورة محمد ، الآية /٢٢ .

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الرقة إلى بغداد فأخذ الناس بأداء بقايا الخراج الذي عليهم، وولى رجلاً يضرب الناس على ذلك ويحبسهم ، وولى على أطراف البلاد. وعزل وولى وقطع ووصل. وخرج بالجزيرة أبوعمرو الشاري فبعث إليه الرشيد من قبله شهرزور . وحج بالناس فيها إبراهيم بن محمد العباسي . وفيها توفي :

أحمد بن الرشيد

كان زاهداً عابداً قد تنسك ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده في الطين ، كان يعمل فاعلاً فيه، وليس يملك الا مرواً [1] وزنبيلا [2] - أي مجرفة وقفة - وكان يعمل في كل جمعة بدرهم ودانق يتقوت بهما من الجمعة الى الجمعة، وكان لا يعمل إلا في يوم السبت فقط. ثم يقبل على العبادة بقية أيام الجمعة . وكان من زبيدة في قول بعضهم، والصحيح أنه من امرأة كان الرشيد قد أحبها فتزوجها فحملت منه بهذا الغلام، ثم إن الرشيد أرسلها إلى البصرة وأعطاها خاتماً من ياقوت أحمر، وأشياء نفيسة ، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتيه. فلما صارت الخلافة إليه لم تأته ولا ولدها ، بل اختفيا، وبلغه أنهما ماتا ، ولم يكن الأمر كذلك، وفحص عنهما فلم يطلع لهما على خبر، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها، ثم رجع إلى بغداد، وكان يعمل في الطين ويأكل مدة زمانية، هذا وهو ابن أمير المؤمنين، ولا يذكر للناس من هو إلى أن اتفق مرضه في دار من كان يستعمله في الطين فمرضه عنده، فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل: اذهب بهذا إلى الرشيد وقل له: صاحب هذا الخاتم يقول لك: إياك أن تموت في سكرتك هذه فتندم حيث لا ينفع نادماً ندمه، واحذر انصرافك من بين يدي الله إلى الدارين، وأن يكون آخر العهد بك، فان ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك، وسيصير إلى غيرك وقد بلغك أخبار من مضى .

قال: فلما مات دفنته وطلبت الحضور عند الخليفة، فلما أوقفت بين يديه قال: ما حاجتك ؟ قلت: هذا الخاتم دفعه إليَّ رجل وأمرني أن أدفعه إليك ، وأوصاني بكلام أقوله لك، فلما نظر الخاتم عرفه، فقال: ويحك وأين صاحب هذا الخاتم ؟ قال فقلت: مات يا أمير المؤمنين. ثم ذكرت الكلام الذي أوصاني به، وذكرت له أنه كان يعمل بالفاعل في كل جمعة يوماً بدرهم وأربع دوانيق، أو بدرهم ودانق، يتقوت به سائر الجمعة، ثم يقبل على العبادة. قال: فلما سمع هذا الكلام قام فضرب بنفسه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهراً لبطن ويقول: والله لقد نصحتني يا بني، ثم بكى، ثم رفع رأسه إلى الرجل وقال: أتعرف قبره ؟ قلت: نعم ! أنا دفنته . قال: إذا كان العشي فائتني. قال:

---

(١) مرواً : مجرفة .
(٢) زنبيلاً : قفة .

فأتيته فذهب إلى قبره فلم يزل يبكي عنده حتى أصبح ، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم . وكتب له ولعياله رزقاً. وفيها مات :

عبد الله بن مصعب

ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، القرشي الأسدي، والد بكار. ألزمه الرشيد بولاية المدينة فقبلها بشروط عدل اشترطهـا، فأجابه إلى ذلك، ثم أضاف إليه نيابة اليمن، فكان من أعدل الولاة، وكان عمره يوم تولى نحواً من سبعين سنة .

عبد الله بن عبد العزيز العمري

أدرك أبا طوالة، وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد، وكان عابداً زاهداً، وعظ الرشيد يـوماً فأطنب وأطيب. قال له وهو واقف على الصفا[1] : أتنظركم حولها ـ يعني الكعبة ـ من الناس ؟ فقال : كثير. فقال : كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه ، وأنت تسأل عنهم كلهم . فبكى الرشيد بكاء كثيراً، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل ينشف به دموعه . ثم قال له : يا هارون إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسـرف في أموال المسلمين كلهم ؟ ثم تـركهم وانصرف والرشيد يبكي . وله معه مواقف محمودة غير هذه . توفي عن ست وستين سنة .

ومحمد بن يوسف بن معدان

أبو عبد الله الأصبهاني ، أدرك التابعين، ثم اشتغل بالعبادة والزهادة. كان عبد الله بن المبارك يسميه عروس الزهاد، وقال يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت أفضل منه ، كان كأنه قد عاين. وقال ابن مهدي : ما رأيت مثله ، وكان لا يشتري خبزه من خباز واحد، ولا بقله من بقال واحد، كان لا يشتري إلا ممن لا يعرفه ، بقول: أخشى أن يحابوني فأكون ممن يعيش بدينه. وكان لا يضع جنبه للنوم صيفاً ولا شتاء. ومات ولم يجاوز الأربعين سنة رحمه الله .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة

فيها قتل أهل طبرستان متوليهم مهـرويه الـرازي، فولى الـرشيد عليهم عبـد الله بن سعيد الحرشي . وفيها قتل عبد الرحمن الأنباري أبان بن قحطبة الخارجي بمرج العلقة. وفيها عاث حمزة الشاري ببلاد باذغيس من خراسان ، فنهض عيسى بن علي بن عيسى إلى عشرة آلاف من جيش حمزة فقتلهم، وسار وراء حمزة إلى كابل وزابلستان. وفيها خرج أبو الخصيب فتغلب على أبيورد وطوس ونيسابور وحاصر مرو وقوي أمره. وفيها توفي يزيد بن مزيد ببرذعة ، فولى الرشيد مكانه ابنه

---

(١) الصفا : صخرة ملساء .

أسد بن يزيد . واستأذن الوزير يحيى بن خالد الرشيد في أن يعتمر في رمضان فأذن له، ثم رابط بجنده إلى وقت الحج. وكان أمير الحج في هذه السنة منصور بن محمد بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي :

عبد الصمد بن علي

ابن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور. ولد سنة أربع ومائة، وكان ضخم الخلق جداً ولم يبدل أسنانه، وكانت أصولها صفيحة واحدة، قال يوماً للرشيد: يا أمير المؤمنين هذا المجلس اجتمع فيه عم أمير المؤمنين، وعم عمه، وعم عم عمه ، وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد، والعباس بن محمد بن علي عم سليمان، وعبد الصمد بن علي عم السفاح، وتلخيص ذلك أن عبد الصمد عم عم عم الرشيد لأنه عم جده. روى عبد الصمد عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن البر والصلة ليطيلان الأعمار ويعمران الديار، ويثريان الأموال، ولو كان القوم فجاراً». وبه أن رسول الله ﷺ قال: «إن البر والصلة ليخففان الحساب يوم القيامة» ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ والذينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾[1] . وغير ذلك من الأحاديث .

ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، المعروف بالامام، كان على إمارة الحاج، وإقامة سقايته في خلافة المنصور عدة سنين. توفي ببغداد فصلى عليه الأمين في شوال من هذه السنة، ودفن بالعباسية .

وفيها توفي من مشايخ الحديث تمام بن إسماعيل، وعمرو بن عبيد. والمطلب بن زياد. والمعافي بن عمران . في قول: ويوسف بن الماجشون . وأبو إسحاق الفزاري إمام أهل الشام بعد الأوزاعي في المغازي والعلم والعبادة .

ورابعة العدوية

وهي رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك، العدوية البصرية العابدة المشهورة. ذكرها أبو نعيم في الحلية والرسائل، وابن الجوزي في صفوة الصفوة، والشيخ شهاب الدين السهروردي في المعارف، والقشيري. وأثنى عليها أكثر الناس، وتكلم فيها أبو داود السجستاني، واتهمها بالزندقة ؛ فلعله بلغه عنها أمر . وأنشد لها السهروردي في المعارف :-

إني جعلتـك في الفؤادِ محـدثي ... وأبحتُ جسمي من أرادَ جلوسي
فـالجسمُ مني للجليسِ مـوانسٌ ... وحبيبُ قلبي فِي الفؤادِ أنيسي

(١) سورة الرعد ، الآية/٢١ .

وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحة ، وصيام نهار وقيام ليل ، ورؤ يت لها منامات صالحة فالله أعلم . توفيت بالقدس الشريف وقبرها شرقيه بالطور والله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة

فيها خرج علي بن عيسى بن ماهان من مرو لحرب أبي الخصيب إلى نسا فقاتله بها ، وسبى نساءه وذراريه . واستقامت خراسان . وحج بالناس فيها الرشيد ومعه ابناه محمد الأمين ، وعبد الله المأمون ، فبلغ جملة ما أعطى لأهل الحرمين ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار ، وذلك أنه كان يعطي الناس فيذهبون إلى الأمين فيعطيهم ، فيذهبون إلى المأمون فيعطيهم . وكان إلى الأمين ولاية الشام والعراق ، وإلى المأمون من همدان إلى بلاد المشرق . ثم تابع الرشيد لولده القاسم من بعد ولديه ، ولقبه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم ، وكان الباعث له على ذلك أن ابنه القاسم هذا كان في حجر عبد الملك بن صالح ، فلما بايع الرشيد لولديه كتب إليه : ـ

يا أيُّها الملكُ الذي ... لو كانَ نجماً كانَ سعدا
اعقد لقاسمَ بيعةً ... واقدح لهُ في الملكِ زندا[1]
فاللَّهُ فردٌ واحدٌ ... فاجعلْ ولاةَ العهدِ فردا

ففعل الرشيد ذلك ، وقد حمده قوم على ذلك ، وذمه آخرون . ولم ينتظم للقاسم هذا أمر ، بل اختطفته المنون والأقدار عن بلوغ الأمل والأوطار . ولما قضى الرشيد حجه أحضر من معه من الأمراء والوزراء ، وأحضر وليي العهد محمداً الأمين وعبد الله المأمون . وكتب بمضمون ذلك صحيفة ، وكتب فيها الأمراء والوزراء خطوطهم بالشهادة على ذلك ، وأراد الرشيد أن يعلقها في الكعبة فسقطت فقيل : هذا أمر سريع انتقاضه . وكذا وقع كما سيأتي . وقال إبراهيم الموصلي في عقد هذه البيعة في الكعبة :

خيرُ الأمور مغبةً[2] ... وأحقُ أمرٍ بالتمام
أمرُ قضى أحكامُه الر ... حمنُ في البلدِ الحرام

وقد أطال القول في هذا المقام أبو جعفر بن جرير وتبعه ابن الجوزي في المنتظم .

وفيها توفي من الأعيان

أصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبو ريان في رمضان منها . وحسان بن إبراهيم اضي كرمان عن مائة سنة .

[1] زندا : العود الأعلى الذي يقتدح به النار .
[2] مغبة : عاقبة .

وسلم الخاسر الشاعر

وهو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء ، وإنما قيل له الخاسر لأنه باع مصحفا واشترى به ديوان شعر لامرىء القيس ، وقيل لأنه أنفق مائتي ألف في صناعة الأدب . وقد كان شاعراً منطقياً له قدرة على الانشاء على حرف واحد ، كما قال في موسى الهادي :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر كم اعتبر ثم فتر وكم قدر ثم غفر عدل السير باقي الأثر
خير البشر فرع مضر بدرٌ بدر لمن نظر هو الوزر لمن حضر والمفتخر لمن غبر

وذكر الخطيب أنه كان على طريقة غير مرضية من المجون والفسق ، وأنه كان من تلاميذ بشار ابن برد ، وأن نظمه أحسن من نظم بشار ، فمما غلب فيه بشاراً قوله :

من راقب الناسَ لمْ يظفر بحاجتهِ وفازَ بالطيباتِ الفاتكُ اللهجُ

فقال سلم :

مَنْ راقبَ الناسَ ماتَ غماً وفازَ باللذةِ الجسورُ[1]

فغضب بشار وقال : أخذ معاني كلامي فكساها ألفاظاً أخف من ألفاظي . وقد حصل له من الخلفاء والبرامكة نحواً من أربعين ألف دينار ، وقيل اكثر من ذلك . ولما مات ترك ستة وثلاثين ألف دينار وديعة عند أبي الشمر الغساني ، فغنى إبراهيم الموصلي يوماً الرشيد فأطربه فقال له : سل . فقال : يا أمير المؤمنين أسألك شيئاً ليس فيه من مالك شيء ، ولا أرزأوك شيئاً سواه . قال : وما هو ؟ فذكر له وديعة سلم الخاسر ، وأنه لم يترك وارثاً . فأمر له بها . ويقال إنها كانت خمسين ألف دينار .

والعباس بن محمد

ابن علي بن عبد الله بن عباس عم الرشيد ، كان من سادات قريش ، وولي إمارة الجزيرة في أيام الرشيد، وقد أطلق له الرشيد في يوم خمسة آلاف ألف درهم ، وإليه تنسب العباسية ، وبها دفن وعمره خمس وستون سنة ، وصلىَّ عليه الأمين .

ويقطين بن موسى

كان أحد الدعاة إلى دولة بني العباس ، وكان داهية ذا رأي ، وقد احتال مرة حيلة عظيمة لما حبس مروان الحمار إبراهيم بن محمد بحرّان ، فتحيرت الشيعة العباسية فيمن يولون ، ومن يكون

---

(١) الجسور : الشجاع والمقدام .

ولي الأمر من بعده إن قتل ؟ فذهب يقطين هذا إلى مروان فوقف بين يديه في صورة تاجر فقال : يا أمير المؤمنين إني قد بعت إبراهيم بن محمد بضاعة ولم أقبض ثمنها منه حتى أخذته رسلك ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بيني وبينه لأطالبه بمالي فعل . قال : نعم ! فأرسل به إليه مع غلام ، فلما رآه قال : يا عدو الله إلى من أوصيت بعدك آخذ مالي منه ؟ فقال له : إلى ابن الحارثية - يعني أخاه عبد الله السفاح - فرجع يقطين إلى الدعاة إلى بني العباس فأعلمهم بما قال ، فبايعوا السفاح ، فكان من أمره ما ذكرناه .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

فيها كان مهلك البرامكة على يدي الرشيد ، قتل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، ودمر ديارهم واندرست آثارهم ، وذهب صغارهم وكبارهم . وقد اختلف في سبب ذلك على أقوال ذكرها ابن جرير وغيره ، قيل إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن إلى جعفر البرمكي ليسجنه عنده ، فما زال يحيى يترفق له حتى أطلقه ، فنمّ الفضل بن الربيع ذلك إلى الرشيد فقال له الرشيد : ويلك لا تدخل بيني وبين جعفر ، فلعله أطلقه عن أمري وأنا لا أشعر. ثم سأل الرشيد جعفراً عن ذلك فصدقه فتغيظ عليه وحلف ليقتلنه ، وكره البرامكة ، ثم قتلهم وقلاهم[1] بعد ما كانوا أحظى الناس عنده، وأحبهم اليه، وكانت أم جعفر والفضل أم الرشيد من الرضاعة، وقد جعلهم الرشيد من الرفعة في الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيئاً كثيراً لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكابر والرؤساء ، بحيث إن جعفراً بنى داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم ، وكان ذلك من جملة ما نقمه عليه الرشيد . ويقال : إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر ، ويقال إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة . وقيل إنما قتلهم بسبب العباسة . ومن العلماء من أنكر ذلك وإن كان ابن جرير قد ذكره .

وذكر ابن الجوزي أن الرشيد سئل عن سبب قتله البرامكة فقال : لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته . وقد كان جعفر يدخل على الرشيد بغير إذن حتى كان يدخل عليه وهو في الفراش مع حظاياه - وهذه وجاهة ومنزلة عالية - وكان عنده من أحظى العشراء على الشراب المسكر - فإن الرشيد كان يستعمل في أواخر أيام خلافته المسكر - وكان أحب أهله إليه أخته العباسة بنت المهدي ، وكان يحضرها معه ، وجعفر البرمكي حاضر أيضاً معه ، فزوجه بها ليحل النظر إليها ، واشترط عليه أن لا يطأها . وكان الرشيد ربما قام وتركهما وهما ثملان من الشراب فربما واقعها جعفر فحبلت منه فولدت ولداً وبعثته مع بعض جواريها إلى مكة ، وكان يربى بها .

وذكر ابن خلكان أن الرشيد لما زوج أخته العباسة من جعفر أحبها حباً شديداً ، فراودته عن

---

(١) وقلاهم : بغضهم وكرههم .

نفسه فامتنع أشد الامتناع خوفاً من الرشيد ، فاحتالت عليه ـ وكانت أمه تهدي له في كل ليلة جمعة جارية حسناء بكراً ـ فقالت لأمه : أدخليني عليه بصفة جارية . فهابت ذلك فتهددتها حتى فعلت ذلك . فلما دخلت عليه لم يتحقق وجهها فواقعها فقالت له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ وحملت من تلك الليلة ، فدخل على أمه فقال : بعتيني والله برخيص . ثم إن والده يحيى بن خالد جعل يضيق على عيال الرشيد في النفقة حتى شكت زبيدة ذلك إلى الرشيد مرات ، ثم أفشت له سر العباسة ، فاستشاط غيظاً ، ولما أخبرته أن الولد قد أرسلت به إلى مكة حج عام ذلك حتى تحقق الأمر . ويقال : إن بعض الجواري نمَّت عليها إلى الرشيد وأخبرته بما وقع ، وأن الولد بمكة وعنده جوار وأموال وحلي كثيرة . فلم يصدق حتى حج في السنة الخالية ، ثم كشف الأمر عن الحال ، فإذا هو كما ذكر . وقد حج في هذه السنة التي حج فيها الرشيد يحيى بن خالد ، فجعل يدعو عند الكعبة : اللهم إن كان يرضيك عني سلب جميع مالي وولدي وأهلي فافعل ذلك وأبق عليَّ منهم الفضل ، ثم خرج . فلما كان عند باب المسجد رجع فقال : اللهم والفضل معهم فإني راض برضاك عني ولا تستثن منهم أحداً .

فلما قفل الرشيد من الحج صار إلى الحيرة ثم ركب في السفن إلى الغمر من أرض الأنبار ، فلما كانت ليلة السبت سلخ المحرم من هذه السنة أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم ابو عصمة في جماعة من الجند ، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلاً ، فدخل عليه مسرور الخادم وعنده بختيشوع المتطبب ، وأبو ركانة الأعمى المغني الكلوذاني ، وهو في أمره وسروره ، وأبو ركانة يغنيه :

فلا تبعدْ فكلُّ فتى سَيأتي عَلَيهِ الموتُ يَطْرقُ أو يغادي[1]

فقال الخادم له : يا أبا الفضل هذا الموت قد طرقك ، أجب أمير المؤمنين . فقام إليه يقبل قدميه ويدخل عليه أن يمكنه فيدخل إلى أهله فيوصي إليهم ويودعهم ، فقال : أما الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوص . فأوصى وأعتق جميع مماليكه أو جماعة منهم ، وجاءت رسل الرشيد تستحثه فأخرج إخراجاً عنيفاً ، فجعلوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذي فيه الرشيد ، فحبسه وقيده بقيد حمار ، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل ، فأمر بضرب عنقه ، فجاء السياف إلى جعفر فقال : إن أمير المؤمنين قد أمرني أن آتيه برأسك . فقال : يا أبا هاشم لعل أمير المؤمنين سكران ، فإذا صحا عاتبك في ، فعاوده . فرجع الى الرشيد فقال : إنه يقول : لعلك مشغول . فقال : يا ماص بظر أمه ائتني برأسه . فكرر عليه جعفر المقالة فقال الرشيد في الثالثة : برئت من المهدي إن لم تأتني برأسه لأبعثن من يأتيني برأسك ورأسه . فرجع إلى جعفر فحز رأسه وأتى به إلى الرشيد فألقاه بين يديه ، وأرسل الرشيد من ليلته البرد بالاحتياط على البرامكة جميعهم

(١) يغادي : قبل طلوع الشمس .

ببغداد وغيرها ، ومن كان منهم بسبيل . فأخذوا كلهم عن آخرهم . فلم يفلت منهم أحد . وحبس يحيى بن خالد في منزله ، وحبس الفضل بن يحيى في منزل آخر وأخذ جميع ما كانوا يملكونه من الدنيا ،وبعث الرشيد برأس جعفر وجثته فنصب الرأس عند الجسر الأعلى ، وشقت الجثة باثنتين فنصب نصفها الواحد عند الجسر الأسفل ، والآخر عند الجسر الآخر ، ثم أحرقت بعد ذلك . ونودي في بغداد : أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم ، إلا محمد بن يحيى بن خالد فإنه مستثنى منهم لنصحه للخليفة . وأتى الرشيد بأنس بن أبي شيخ كان يتهم بالزندقة ، وكان مصاحباً لجعفر ، فدار بينه وبين الرشيد كلام ،ثم أخرج الرشيد من تحت فراشه سيفا وأمر بضرب عنقه به . وجعل يتمثل ببيت قيل في قتل أنس قبل ذلك :

تلمظَ السيفُ مِنْ شوقٍ إلى أنسٍ فالسيفُ يلحظ والأقدارُ تنتظرُ

فضربت عنق أنس فسبق السيف الدم فقال الرشيد : رحم الله عبد الله بن مصعب ، فقال الناس : إن السيف كان للزبير بن العوام . ثم شحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها ، وزالت عنهم النعمة . وقد كان الرشيد في اليوم الذي قتل جعفراً في آخره ، وهو وإياه راكبين في الصيد في أوله ، وقد خلا به دون ولاة العهود ، وطيبه في ذلك بالغالية بيده ، فلما كان وقت المغرب ودعه الرشيد وضمه إليه وقال : لولا أن الليلة ليلة خلوتي بالنساء ما فارقتك ، فاذهب إلى منزلك واشرب واطرب وطب عيشا حتى تكون على مثل حالي ، فأكون أنا وأنت في اللذة سواء . فقال : والله يا أمير المؤمنين لا أشتهي ذلك إلا معك . فقال : لا ! انصرف إلى منزلك . فانصرف عنه جعفر فما هو إلا أن ذهب من الليل بعضه حتى أوقع به من البأس والنكال ما تقدم ذكره . وكان ذلك ليلة السبت آخر ليلة من المحرم ، وقيل إنها أول ليلة من صفر في هذه السنة ، وكان عمر جعفر إذ ذاك سبعاً وثلاثين سنة ، ولما جاء الخبر إلى أبيه يحيى بن خالد بقتله قال : قتل الله ابنه . ولما قيل له : قد خربت دارك قال : خرب الله دوره . ويقال : إن يحيى لما نظر إلى دوره وقد هتكت ستورها واستبيحت قصورها ، وانتهب ما فيها . قال : هكذا تقوم الساعة . وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزيه فيما جرى له ، فكتب إليه جواب التعزية : أنا بقضاء الله راض ، وباختياره عالم ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم ، وما الله بظلام للعبيد . وما يغفر الله أكثر ولله الحمد . وقد أكثر الشعراء من المراثي في البرامكة فمن ذلك قول الرقاشي ، وقيل إنها لأبي نواس :

الآن استرحْنا واستراحتْ رِكابُنا وأمسكَ مَنْ يحدي ومن كانَ يحتدي[1]
فقلْ للمطايا[2] قد أمنتِ من السُّرى وطيِّ الفيافِي فدفداً بعد فدفدِ[3]

---

(١) يحتدي : يرفع صوته بالحداء .

(٢) للمطايا : مفردها المطية.

(٣) فدفد : الفلاة .

وقـل للمنـايـا قـد ظَفَـرتِ بجعفرٍ ولن تـظفري مِن بعــدهِ بمســوَّدِ
وقـلْ للعطايـا بعـدَ فضـلٍ تعـطلي وقـلْ للرزايـا كـلَّ يـومٍ تجــددي
ودونــكَ سيفـاً بـرمكيـاً مـهنَّـداً أصيبَ بسيفٍ هـاشمي مهنَّــدِ[1]

وقال الرقاشي ، وقد نظر إلى جعفر وهو على جذعه :

أمــا والله لــولا خــوف واش وعــيـن لـلخـلـيـفـة لا تـنـام
لـطفنـا حــول جـذعــك واستلمنا كمــا للنـاس بـالحجـر استـلام
فمـا أبصـرت قبلك يـا ابن يحيى حســامــاً فلّه الـسيـف الحســام
عـلى اللذات والـدنـيـا جميعـاً ودولـة آل بــرمــك الــســلام

قال فاستدعاه الرشيد فقال له : كم كان يعطيك جعفر كل عام ؟ قال : ألف دينار . قال : فأمر له بألفي دينار . وقال الزبير بن بكار عن عمه مصعب الزبيري قال : لما قتل الرشيد جعفراً وقفت امرأة على حمار فاره فقالت بلسان فصيح : والله يا جعفر لئن صرت اليوم آية لقد كنت في المكارم غاية ، ثم أنشأت تقول :

ولمـا رأيتُ السيفَ خـالط جعفـراً ونـادى منادٍ للخليفـةِ في يحيى
بكيتُ على الـدنيـا وأيقنتُ أنمـا قصـارى الفتى يومـاً مفارقـةُ الدنيـا
ومــا هــي إلّا دولـةٌ بـعــدَ دولــةٍ تخـوِّل ذا نعـمى وتعقبُ ذا بلوى
إذا أنــزلـت هــذا منـازلَ رفـعـةٍ من الملكِ حطَّت ذا إلى الغايةِ القصوى

قال : ثم حركت حمارها فذهبت فكأنها كانت ريحاً لا أثر لها ، ولا يعرف أين ذهبت .

وذكر ابن الجوزى أن جعفراً كان له جارية يقال لها فتينة مغنية ، لم يكن لها في الدنيا نظير ، كان مشتزاها عليه بمن معها من الجواري مائة ألف دينار ، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلك ، فلما قتله الرشيد اصطفى تلك الجارية فأحضرها ليلة في مجلس شرابه وعنده جماعة من جلسائه وسماره ، فأمر من معها أن يغنين فاندفعت كل واحدة تغني ، حتى انتهت النوبة إلى فتينة ، فأمرها بالغناء فأسلبت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فغضب الرشيد غضباً شديداً ، وأمر بعض الحاضرين أن يأخذها إليه فقد وهبها له ، ثم لما أراد الانصراف قال له فيما بينه وبينه : لا تطأها . ففهم أنه إنما يريد بذلك كسرها . فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهر أنه قد رضي عنها وأمرها بالغناء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت : أما بعد السادة فلا . فغضب الرشيد أشد من غضبه في المرة الأولى وقال : النطع والسيف ، وجاء السياف فوقف على رأسها فقال له الرشيد : إذا أمرتك ثلاثا وعقدت أصابعي ثلاثاً فاضرب . ثم قال لها غنّ: فبكت وقالت : أما بعد السادة فلا . فعقد أصبعه

---

(١) مهنَّد : سيف.

الخنصر ، ثم أمرها الثانية فامتنعت ، فعقد اثنتين ، فارتعد الحاضرون وأشفقوا غاية الاشفاق وأقبلوا عليها يسألونها أن تغني لئلا تقتل نفسها ، وأن تجيب أمير المؤمنين إلى ما يريد . ثم أمرها الثالثة فاندفعت تغني كارهة :

لما رأيتُ الدُّنيا قَدْ دَرَسَت[1] أيقنتُ أنَّ النعيمَ لم يعدِ

قال فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تكسر ، وأقبلت الدماء وتطايرت الجوار من حولها ، وحملت من بين يديه فماتت بعد ثلاث .

وروى أن الرشيد كان يقول : لعن الله من أغراني بالبرامكة ، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء ، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على حالهم .

وحكى ابن خلكان أن جعفراً اشترى جارية من رجل بأربعين ألف دينار ، فالتفتت إلى بائعها وقالت : اذكر العهد الذي بيني وبينك ، لا تأكل من ثمني شيئاً . فبكى سيدها وقال : اشهدوا أنها حرة ، وأني قد تزوجتها . فقال جعفر : اشهدوا أن الثمن له أيضاً . وكتب إلى نائب له : أما بعد فقد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فأما أن تعدل ، وإما تعتزل . ومن أحسن ما وقع منه من التلطف في إزالة هم الرشيد ، وقد دخل عليه منجم يهودي فأخبره أنه سيموت في هذه السنة ، فحمل الرشيد هماً عظيماً ، فدخل عليه جعفر فسأله : ما الخبر ؟ فأخبره يقول اليهودي فاستدعى جعفر اليهودي فقال له : كم بقي لك من العمر ؟ فذكر مدة طويلة . فقال يا أمير المؤمنين اقتله حتى تعلم كذبه فيما أخبر عن عمره . فأمر الرشيد باليهودي فقتل ، وسري عن الرشيد الذي كان فيه .

وبعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك ، وذلك أنه حزن على البرامكة ، ولا سيما على جعفر ، كان يكثر البكاء عليهم ، ثم خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ بثأرهم ، وكان إذا شرب في منزله يقول لجاريته : ائتني بسيفي ، فيسله ثم يقول : والله لأقتلن قاتله ، فأكثر أن يقول ذلك ، فخشي ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم عن آخرهم ، ورأى أن أباه لا ينزع عن هذا ، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه ، فأخبر الفضل الخليفة ، فاستدعى به فاستخبره فأخبره ، فقال : من يشهد معك عليه ؟ فقال : فلان الخادم فجاء به فشهد ، فقال الرشيد : لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصي ، لعلهما قد تواطآ على ذلك . فأحضره الرشيد معه على الشراب ثم خلا به فقال : ويحك يا إبراهيم إن عندي سراً أحب أن أطلعك عليه ، أقلقني في الليل والنهار . قال : وما هو ؟ قال : إني ندمت على قتل البرامكة ووددت أني خرجت من نصف ملكي ونصف عمري ولم أكن فعلت بهم ما فعلت ، فإني لم أجد بعدهم لذة ولا راحة . فقال : رحمة الله على أبي الفضل - يعني جعفراً - وبكى ، وقال : والله يا سيدي لقد أخطأت

---

(1) درست : إمحت وزالت .

في قتله . فقال له : قم لعنك الله ، ثم حبسه ثم قتله بعد ثلاثة أيام . وسلم أهله وولده .

وفي هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بسبب أنه بلغه أنه يريد الخلافة ، واشتد غضبه بسببه على البرامكة الذين هم في الحبوس ، ثم سجنه فلم يزل في السجن حتى مات الرشيد فأخرجه الأمين وعقد لـه على نيابـة الشام . وفيهـا ثارت العصبيـة بالشـام بين المضريـة والنزارية ، فبعث إليهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم .

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالمصيصة فانهدم بعض سورها ونضب[1] ماؤ ها ساعة من الليل . وفيها بعث الرشيد ولده القاسم على الصائفة ، وجعله قرباناً ووسيلة بين يديه ، وولاه العواصم ، فسار إلى بلاد الروم فحاصرهم حتى افتدوا بخلق من الأسارى يطلقـونهم ويرجـع عنهم ، ففعل ذلك . وفيها نقضت الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين ، الذي كان عقده الرشيد بينه وبين رني ملكة الروم الملقبة أغسطة . وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور ، وكان شجاعاً ، يقال إنه من سلالة آل جفنة ، فخلعوا رني وسملوا عينيها . فكتب نقفور إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها ، وذلك من ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي هذا فأردد إليَّ ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك به ، وإلا فالسيف بيننا وبينك . فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه ، ولا يستطيع مخاطبته ، وأشفق عليه جلساؤه خوفاً منه ، ثم استدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام . ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها ، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً ، وخرب وأحرق ، فطلب نقفور منه الموادعة على خراج يؤديه إليه في كل سنة ، فأجابه الرشيد إلى ذلك . فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق ، وكان البرد قد اشتد جداً ، فلم يقدر أحد أن يجيء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد ، حتى يخرج فصل الشتاء . وحج بالناس فيها عبد الله بن عباس بن محمد بن علي .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

جعفر بن يحيـى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكي الوزير ابن الوزير ، ولاه الرشيد الشام وغيرها من البلاد ، وبعثه إلى دمشق لما ثارت الفتنة العشيران بحوران بين قيس ويمن ، وكان ذلك أول نار ظهرت بين قيس ويمن في بلاد الإسلام ، كان خامداً من زمن الجاهلية فأثـاروه في هذا

(١) ونضب : جفَّ .

الآوان ، فلما قدم جعفر بجيشه خمدت الشرور وظهر السرور ، وقيلت في ذلك أشعار حسان ، قد ذكر ذلك ابن عساكر في ترجمة جعفر من تاريخه منها : ـ

لقد أُوقدتْ في الشام نيرانُ فتنة ... فهذا أوانُ الشامِ تخمدُ نارها
إذا جاشَ موجُ البحرِ من آلِ برمكٍ ... عليها خبتْ[1] شهبانها وشرارها
رماها أميرُ المؤمنينَ بجعفرٍ ... وفيه تلافى صدعها وانجبارها[2]
هوَ الملكُ المأمولُ للبرِ والتقى ... وصولاتهُ لا يستطاعُ خطارها

وهي قصيدة طويلة ، وكانت له فصاحة وبلاغة وذكاء وكرم زائد ، كان أبوه قد ضمه إلى القاضي أبي يوسف فتفقه عليه ، وصار له اختصاص بالرشيد ، وقد وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع ، ولم يخرج في شيء منها عن موجب الفقه . وقد روى الحديث عن أبيه عن عبد الحميد الكاتب عن عبد الملك بن مروان كاتب عثمان عن زيد بن ثا بت كاتب الوحي . قال قال رسول الله ﷺ : « إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السين فيه » . رواه الخطيب وابن عساكر من طريق أبي القاسم الكعبي المتكلم ، واسمه عبد الله بن أحمد البلخي ـ وقد كان كاتباً لمحمد بن زيد ـ عن أبيه عن عبد الله بن طاهر عن طاهر بن الحسين بن زريق عن الفضل بن سهل ذي الرياستين عن جعفر بن يحيى به . وقال عمرو بن بحر الجاحظ قال جعفر للرشيد : يا أمير المؤمنين ! قال لي أبي يحيى : إذا أقبلت الدنيا عليك فاعط ، وإذا أدبرت فاعط ، فإنها لا تبقى ، وأنشدني أبي :

لا تبخلنّ بدنيا وهي مقبلةٌ ... فليسَ ينقصها التبذيرُ والسرفُ
فإن تولّتْ فأحرَى أن تجودَ بها ... فالحمدُ منها إذا ما أدبرت خَلَفُ

قال الخطيب : ولقد كان جعفر من علّو القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد على حالة انفرد بها ، ولم يشاركه فيها أحد . وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر . أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فأشهر من أن يذكر . وكان أيضاً من ذوي الفصاحة والمذكورين بالبلاغة .

وروى ابن عساكر عن مهذب حاجب العباس بن محمد صاحب قطيعة العباس والعباسية أنه أصابته فاقة وضائقة ، وكان عليه ديون ، فألحّ عليه المطالبون وعنده سفط فيه جواهر شراؤه عليه ألف ألف ، فأتى به جعفراً فعرضه عليه وأخبره بما هو عليه من الثمن ، وأخبره بالحاح المطالبين بديونهم ، وأنه لم يبق له سوى هذا السفط[3] . فقال : قد اشتريته منك بألف ألف ثم أقبضه المال وقبض السفط منه ، وكان ذلك ليلاً . ثم أمر من ذهب بالمال إلى منزله وأجلسه معه في السمر تلك

(١) خبت : أطفئت .
(٢) وانجبارها : اصلاحها بعد الكسر .
(٣) السفط : جمعها أسفاط : وعاء كالقفة أو الجوالق .

الليلة ، فلما رجع إلى منزله إذا السفط قد سبقه إلى منزله أيضاً . قال فلما أصبحت غدوت إلى جعفر لأتشكر له فوجدته مع أخيه الفضل على باب الرشيد يستأذنان عليه ، فقال له جعفر : إني قد ذكرت أمرك للفضل ، وقد أمر لك بألف ألف ، وما أظنها إلا قد سبقتك إلى منزلك ، وسأفاوض فيك أمير المؤمنين . فلما دخل ذكر له أمره وما لحقه من الديون فأمر له بثلاثمائة ألف دينار.

وكان جعفر ليلة في سمره عند بعض أصحابه فجاءت الخنفساء فركبت ثياب الرجل فألقاها عنه جعفر وقال : إن الناس يقولون : من قصدته الخنفساء يبشر بمال يصيبه . فأمر له جعفر بألف دينار . ثم عادت الخنفساء ، فرجعت إلى الرجل فأمر له بألف دينار أخرى .

وحج مرة مع الرشيد فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه : انظر جارية أشتريها تكون فائقة في الجمال والغناء والدعابة ، ففتش الرجل فوجد [جارية] على النعت فطلب سيدها فيها مالاً كثيراً على أن يراها جعفر ، فذهب جعفر إلى منزل سيدها فلما رآها أعجب بها ، فلما غنته أعجبته أكثر ، فساومه صاحبها فيها ، فقال له جعفر : قد أحضرنا مالاً فإن أعجبك وإلا زدناك ، فقال لها سيدها : إني كنت في نعمة وكنت عندي في غاية السرور ، وإنه قد انقبض على حالي ، وإني قد أحببت أن أبيعك لهذا الملك ، لكي تكوني عنده كما كنت عندي . فقالت له الجارية : والله يا سيدي لو ملكت منك كما ملكت مني لم أبعك بالدنيا وما فيها، وأين ما كنت عاهدتني أن لا تبيعني ولا تأكل من ثمني . فقال سيدها لجعفر وأصحابه : أشهدكم أنها حرة لوجه الله ، وأني قد تزوجتها . فلما قال ذلك نهض جعفر وقام أصحابه وأمروا الحمال أن يحمل المال . فقال جعفر : والله لا يتبعني ، وقال للرجل : قد ملكتك هذا المال فأنفقه على أهلك ، وذهب وتركه .

هذا وقد كان يبخل بالنسبة إلى أخيه الفضل ، إلا أن الفضل كان أكثر منه مالاً . وروى ابن عساكر من طريق الدارقطني بسنده أنه لما أصيب جعفر وجدوا له في جرّة ألف دينار ، زنة كل دينار مائة دينار ، مكتوب على صفحة الدينار جعفر .

واصفر مِن ضربِ دارِ الملوكِ	يلوح على وجههِ جعفر
يزيد على مائةٍ واحداً	متى تعطهِ معسراً يوسر

وقال أحمد بن المعلى الراوية : كتبت عنان جارية الناطفي لجعفر تطلب منه أن يقول لأبيه يحيى أن يشير على الرشيد بشرائها ، وكتبت إليه هذه الأبيات من شعرها في جعفر : ـ

يا لائمي جهلاً ألا تقصر	من ذا على حرِّ الهوى يصبرُ
لا تلحني إذا شربتُ الهوى	صرفاً فممزوجُ الهوى يسكرُ
أحاطَ بي الحبُ فخلفي له	بحرٌ وقدامي لهُ أبحرُ
تخفقُ راياتُ الهوى بالردى	فوقي وحولي للهوى عسكرُ

سيّانَ عندي في الهوى لائمٌ أقلَّ فيه والذي يكثرُ
أنت المصفى من بني برمكٍ يا جعفرَ الخيراتِ يا جعفرُ
لا يبلغُ الواصفُ في وصفهِ ما فيكَ من فضلٍ ولا يعشرُ
مَنْ وفَّرَ المالَ لأغراضهِ فجعفرٌ أغراضهُ أوفرُ
ديباجةُ الملكِ على وجههِ وفي يديهِ العارضُ الممطرُ
سحّت[1] علينا منهما ديمةٌ[2] ينهلُ منها الذهب الأحمرُ
لو مسحتْ كفّاهُ جلمودةً[3] نضرَ فيها الورقُ الأخضرُ
لا يستتمُ المجدَ إلا فتىً يصبرُ للبذلِ كما يصبرُ
يهتزُ تاجُ الملكِ من فوقهِ فخراً ويزهى تَحتهُ المنبرُ
أشبههُ البدرُ إذا ما بدا أو غرّةٌ في وجههِ يزهرُ
واللّهِ ما أدري أبدرُ الدجى في وجهه أمْ وجههُ أنورُ
يستمطرُ الزوّارُ منكَ الندى وأنتَ بالزوّارِ تستبشرُ

وكتبت تحت أبياتها حاجتها ، فركب من فوره إلى أبيه فأدخله على الخليفة فأشار عليه بشرائها فقال : لا والله لا أشتريها ، وقد قال فيها الشعراء فأكثروا ، واشتهر أمرها وهي التي يقول فيها أبو نواس :

لا يشتر بها إلا ابن زانيةٍ أوقلطبانُ[4] يكونُ من كانا

وعن ثمامة بن أشرس قال : بت ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد ، فانتبه من منامه يبكي مذعوراً فقلت : ما شأنك ؟ قال : رأيت شيخاً جاء فأخذ بعضادتي هذا الباب وقال :

كأن لم يكن بينَ الحجونِ إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ

قال فأجبته :

بل نحنُ كنا أهلها فأبادنا صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

قال ثمامة : فلما كانت الليلة القابلة قتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر ثم خرج الرشيد فنظر إليه فتأمله ثم أنشأ يقول :

تقاضاكَ دهركَ ما أسلفا وكدَّرَ عيشك بعدَ الصفا
فلا تعجبنَّ فإنَّ الزمانَ رهينٌ بتفريقِ ما ألَّفا

---

(١) سحت : هطلت .

(٢) ديمةٌ : المطر الخفيف .

(٣) جلمودة : الصخرة العظيمة .

(٤) قلطبان : كلمة تُقَال في معرض الشتم والسب .

قال : فنظرت إلى جعفر وقلت : أما لئن أصبحت اليوم آية فلقد كنت في الكرم والجود غاية ، قال : فنظر إلي كأنه جمل صؤول[1] ثم أنشأ يقول : ـ

مـا يـعجبُ العـالـمُ مِن جـعـفـرٍ   مـا عـايـنـوهُ فـبـنـا كـانـا
مَـن جـعـفـر أو مـن أبـوهُ ومـنْ   كـانـت بـنـو بـرمـكٍ لـولانـا

ثم حول وجه فرسه وانصرف .

وقد كان مقتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر من سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة ، ومكث وزيراً سبع عشرة سنة . وقد دخلت عبادة أم جعفر على أناس في يوم عيد أضحى تستمنحهم جلد كبش تدفأ به ، فسألوها عن ما كانت فيه من النعمة فقالت : لقد أصبحت في مثل هذا اليوم وإن على رأسي أربعمائة وصيفة ، وأقول إن ابني جعفراً عاق لي . وروى الخطيب البغدادي باسناده أن سفيان بن عيينة لما بلغه قتل الرشيد جعفراً وما أحل بالبرامكة ، استقبل القبلة وقال : اللهم إن جعفراً كان قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة .

حكايـــة غريـــبة

ذكر ابن الجوزي في المنتظم أن المأمون بلغه أن رجلاً يأتي كل يوم الى قبور البرامكة فيبكي عليهم ويندبهم ، فبعث من جاء به فدخل عليه وقد يئس من الحياة ، فقال له : ويحك ! ما يحملك على صنيعك هذا؟ فقال : ياأمير المؤمنين إنهم أسدوا إليَّ معروفاً وخيراً كثيراً . فقال : وما الذي أسدوه إليك ؟ فقال : أنا المنذر بن المغيرة من أهل دمشق ، كنت بدمشق في نعمة عظيمة واسعة ، فزالت عني حتى أفضى بي الحال إلى أن بعت داري ، ثم لم يبق لي شيء ، فأشار بعض أصحابي عليَّ بقصد البرامكة ببغداد ، فأتيت أهلي وتحملت بعيالي ، فأتيت بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة فأنزلتهن في مسجد مهجور ثم قصدت مسجداً مأهولاً أصلي فيه . فدخلت مسجداً فيه جماعة لم أر أحسن وجوهاً منهم ، فجلست إليهم فجعلت أدبر في نفسي كلاماً أطلب به منهم قوتاً للعيال الذين معي ، فيمنعني من ذلك السؤال الحياء ، فبينا أنا كذلك إذا بخادم قد أقبل فدعاهم فقاموا كلهم وقمت معهم ، فدخلوا داراً عظيمة ، فإذا الوزير يحيى بن خالد جالس فيها فجلسوا حوله ، فعقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له ونثروا فلق المسك وبنادق العنبر ، ثم جاء الخدم الى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينار ، ومعها فتات المسك ، فأخذها القوم ونهضوا وبقيت أنا جالساً، وبين يدي الصينية التي وضعوها لي ،وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها في نفسي ،فقال لي بعض الحاضرين : ألا تأخذها وتذهب؟ فمددت يدي فأخذتها فأفرغت ذهبها في جيبي وأخذت الصينية تحت إبطي وقمت ، وأنا خائف أن تؤخذ مني ، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إلي وأنا لا

---

(١) صؤول : الصؤول من الرجال : الذي يضرب الناس ويتطاول عليهم .

أشعر ، فلما بلغت الستارة أمرهم فردوني فيئست من المال ، فلما بلغت الستارة أمـرهم فردوني فيئست من المال ، فلما رجعت قال لي : ما شأنك خائف ؟ فقصصت عليه خبري ، فبكى ثم قال لأولاده : خذوا هذا فضموه إليكم . فجاءني خادم فأخذ مني الصينية والذهب وأقمت عندهم عشرة أيام من ولد إلى ولد ، وخاطري كله عند عيالي ، ولا يمكنني الانصراف ، فلما انقضت العشرة الأيام جاءني خادم فقال : ألا تذهب إلى عيالك ؟ فقلت : بلى والله ، فقام يمشي أمامي ولم يعطني الذهب ولا الصينية ، فقلت : يا ليت هذا كان قبل أن يؤخذ مني الصينية والذهب ، يا ليت عيالي رأوا ذلك . فسار يمشي أمامـي إلى دار لم أر أحسن منها ، فدخلتها فإذا عيالي يتمرغون في الذهب والحرير فيها ، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وكتاباً فيه تمليك الدار بما فيها ، وكتاباً آخر فيه تمليك قريتين جليلتين ، فكنت مع البرامكة في أطيب عيش ، فلما أصيبوا أخذ مني عمرو بن مسعدة القريتين وألزمني بخراجهما ، فكلما لحقتني فاقة قصدت دورهم وقبـورهم فبكيت عليهم . فأمر المأمون برد القريتين ، فبكى الشيخ بكاء شديداً فقال المأمون : مالك ؟ ألم استأنف بك جميلاً ؟ قال : بلى ! ولكن هو من بركة البرامكة . فقال له المأمون : امض مصاحباً فان الوفاء مبارك ، ومراعاة حسن العهد والصحبة من الايمان . وفيها توفي :

الفضيل بن عياض

أبو علي التميمي احد أئمة العباد الزهاد ، وهو أحد العلماء والأولياء ، ولد بخراسان بكورة دينور وقدم الكوفة وهو كبير ، فسمع بها الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب وحصين بن عبد الرحمن وغيرهم . ثم انتقل الى مكة فتعبد بها ، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام ، وكان سيداً جليلاً ثقة من أئمة الرواية رحمه الله ورضي عنه . وله مع الرشيد قصة طويلة ، وقد روينا ذلك مطولاً في كيفية دخول الرشيد عليه منزله ، وما قال له الفضيل بن عياض ، وعرض عليه الرشيد المال فأبى أن يقبل منه ذلك . توفي بمكة في المحرم من هذه السنة . وذكروا أنه كان شاطراً يقطع الطريق ، وكان يتعشق جارية ، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً إذ سمع قارئاً يقرأ : ﴿ أَلَمْ يأنِ للذينَ آمنوا أَنْ تخشَع قلوبهُم لِذِكْرِ الله ﴾[1] فقال : بلى ! وتاب وأقلع عما كان عليه . ورجع الى خربة فبات بها فسمع سفاراً يقولون : خذوا حذركم إن فضيلاً أمامكم يقطع الطريق ، فأمنهم واستمر على توبته حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة ، ثم صار علماً يقتدى به ويهتدى بكلامه وفعاله .

قال الفضيل : لو أن الدنيا كلها حلال لا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه ، وقال : العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل لأجل الناس رياء ، والاخلاص

---

(١) سورة الحديد ، الآية/ ١٦ .

ان يعافيك الله منهما. وقال له الرشيد يوماً: ما أزهدك، فقال: أنت أزهد مني، لأني أنا زهدت في الدنيا التي هي اقل من جناح بعوضة، وأنت زهدت في الآخرة التي لا قيمة لها، فأنا زاهد في الفاني وأنت زاهد في الباقي. ومن زهد في درة أزهد ممن زهد في بعرة. وقد روى مثل هذا عن أبي حازم أنه قال ذلك لسليمان بن عبد الملك.

وقال: لو أن لي دعوة مستجابة لجعلتها للامام، لأن به صلاح الرعية، فإذا صلح أمنت العباد والبلاد. وقال: إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي وامر أتي وفأر بيتي [وقال في قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (1)، قال: يعني أخلصه وأصوبه، إن العمل يجب ان يكون خالصاً لله، وصواباً على متابعة النبي ﷺ] (2) وفيها توفي:

بشر بن المفضل. وعبد السلام بن حرب، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي. وعبد العزيز العمي. وعلي بن عيسى، الأمير ببلاد الروم مع القاسم بن الرشيد في الصائفة. ومعتمر بن سليمان وأبو شعيب البراني الزاهد، وكان أول من سكن براثاً في كوخ له يتعبد فيه، فهويته امرأة من بنات الرؤساء فانخلعت مما كانت فيه من الدنيا والسعادة والحشمة، وتزوجته وأقامت معه في كوخه تتعبد حتى ماتا، يقال إن اسمها جوهرة.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

فيها غزا إبراهيم بن إسرائيل الصائفة فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج النقفور للقائه فجرح النقفور ثلاث جراح، وانهزم، وقتل من أصحابه أكثر من اربعين ألفاً، وغنموا أكثر من أربعة آلاف دابة. وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق. وفيها حج بالناس الرشيد، وكانت آخر حجاته. وقد قال أبو بكر حين رأى الرشيد منصرفاً من الحج ـ وقد اجتاز بالكوفة ـ لا يحج الرشيد بعدها، ولا يحج بعده خليفة أبداً. وقد رأى الرشيد بهلول المولة(3) فوعظه موعظة حسنة، فروينا من طريق الفضل بن الربيع الحاجب قال: حججت مع الرشيد فمررنا بالكوفة فإذا بهلول المجنون يهذي، فقلت: اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين، فسكت. فلما حاذاه الهودج قال: يا أمير المؤمنين حدّثني أيمن بن نائل ثنا قدامة بن عبد الله العامري قال. رأيت النبي ﷺ بمنى على جمل وتحته رجل رث، ولم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك. قال الربيع فقلت: يا أمير المؤمنين إنه بهلول، فقال: قد عرفته، قل يا بهلول فقال:

هبْ ان قدْ ملكتَ الأرض طراً ... ودانَ لكَ العبادُ فكانَ ماذا

(1) سورة هود، الآية/ 7.
(2) زيادة من المصرية.
(3) المولة: المغروم ـ العاشق.

أليس غداً مصيرك جوفَ قبرٍ ويحثو عليكَ التراب هذا ثم هذا

قال : أجدت يا بهلول، أفغيره ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! من رزقه الله مالا وجمالاً فعف في جماله ، وواسى في ماله ، كتب في ديوان الله من الأبرار . قال : فظن أنه يريد شيئاً ، فقال : إنا أمرنا بقضاء دينك . فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا يقضى دين بدين ، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك . قال : إنا أمرنا أن يجري عليك رزق تقتات به . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فانه سبحانه لا يعطيك وينساني . وها أنا قد عشت عمراً لم تجر علي رزقاً ، انصرف لا حاجة لي في جرايتك . قال : هذه ألف دينار خذها . فقال : ارددها على أصحابها فهو خير لك ، وما أصنع أنا بها ؟ انصرف عني فقد آذيتني ، قال : فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا .
وممن توفي فيها من الأعيان .

أبو اسحاق الفزاري

إبراهيم بن محمد بن الحارث بن إسماعيل بن خارجة ، إمام أهل الشام في المغازي وغير ذلك ، أخذ عن الثوري والأوزاعي وغيرهما ، توفي في هذه السنة ، وقيل قبلها .

وابراهيم الموصلي

النديم، وهو إبراهيم بن ماهان بن بهمن أبو إسحاق، أحد الشعراء والمغنين والندماء للرشيد وغيره ، أصله من الفرس وولد بالكوفة وصحب شبانها وأخذ عنهم الغناء ، ثم سافر إلى الموصل ثم عاد إلى الكوفة فقالوا : الموصلي . ثم اتصل بالخلفاء أولهم المهدي وحظي عند الرشيد ، وكان من جملة سماره وندمائه ومغنيه ، وقد أثرى وكثر ماله جداً ، حتى قيل إنه ترك أربعة وعشرين ألف ألف درهم ، وكانت له طرف وحكايات غريبة ، وكان مولده سنة خمس عشرة ومائة في الكوفة ، ونشأ في كفالة بني تميم ، فتعلم منهم ونسب إليهم ، وكان فاضلاً بارعاً في صناعة الغناء ، وكان مزوجاً بأخت المنصور الملقب بزلزل ، الذي كان يضرب معه ، فإذا غنى هذا وضرب هذا اهتز المجلس .
توفي في هذه السنة على الصحيح ، وحكى ابن خلكان في الوفيات أنه توفي وأبو العتاهيةوأبوعمرو والشيباني ببغداد في يوم واحد من سنة ثلاث عشرة ومائتين . وصحح الأول . ومن قوله في شعره عند احتضاره قوله :

مـلَّ والله طبيبي من مقاساةِ الذي بي
سوف أنعى عن قريبٍ لعدوٍ وحبيبِ

وفيها مات جرير بن عبد الحميد ، ورشد بن سعد . وعبدة بن سليمان . وعقبة بن خالد . وعمر بن أيوب العابد أحد مشايخ احمد بن حنبل . وعيسى بن يونس في قول .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الحج وسار الى الري فولّى وعزل، وفيها ردّ علي بن عيسى إلى ولاية خراسان ، وجاءه نواب تلك البلاد بالهدايا والتحف من سائر الأشكال والألوان ، ثم عاد الى بغداد فأدركه عيد الأضحى بقصر اللصوص فضحى عنده ، ودخل الى بغداد لثلاث بقين من ذي الحجة ، فلما اجتاز بالجسر أمر بجثة جعفر بن يحيى البرمكي فأحرقت ودفنت ، وكانت مصلوبة من حين قتل الى هذا اليوم ، ثم ارتحل الرشيد من بغداد الى الرقة ليسكنها وهو متأسف على بغداد وطيبها ، وإنما مراده بمقامه بالرقة ردع المفسدين بها ، وقد قال العباس بن الأحنف في خروجهم من بغداد مع الرشيد :

ما أنخْنا حتى ارتَحلْنا فما نفـ ... رق بينَ المُناخِ [1] والارتحالِ
ساءلونا عَنْ حالنا إذ قدمنا ... فقرنًا وداعهم بالسؤالِ

وفيها فادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم ، حتى يقال إنه لم يترك بها أسيراً من المسلمين ، فقال فيه بعض الشعراء :

وفكّتْ بكَ الأسرى التي شّيدتْ لها ... محابسُ ما فيها حميمٌ يزورها
على حين أعيا المسلمينَ فكاكُها ... وقالوا سجونُ المشركين قبورها

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق يحاصر الروم ، وفيها حج بالناس العباس بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز أبو الحسن الأسدي مولاهم ، الكوفي المعروف بالكسائي لإحرامه في كساء ، وقيل لاشتغاله على حمزة الزيات في كساء ، كان نحوياً لغوياً أحد أئمة القراء ، أصله من الكوفة ثم استوطن بغداد ، فأدب الرشيد وولده الأمين ، وقد قرأ على حمزةبن حبيب الزيات قراءته ، وكان يقرىء بها ، ثم اختار لنفسه قراءة وكان يقرأ بها . وقد روى عن أبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة وغيرهما ، وعنه يحيى بن زياد الفراء وأبو عبيد . قال الشافعي : من أراد النحو فهو عيال على الكسائي . أخذ الكسائي عن الخليل صناعة النحو فسأله يوماً : عن من أخذت هذا العلم ؟ قال : من بوادي الحجاز ، فرحل الكسائي الى هناك فكتب عن العرب شيئاً كثيراً ، ثم عاد الى الخليل فاذا هو قد مات وتصدر في موضعه يونس ، فجرت بينهما مناظرات أقر له

---

(١) المُناخ : النزول . مكان الإناخة .

فيها يونس بالفضل ، وأجلسه في موضعه .

قال الكسائي : صليت يوماً بالرشيد فأعجبتني قراءتي ، فغلطت غلطة ما غلطها صبي ، أردت أن أقول لعلهم يرجعون ، فقلت لعلهم ترجعين ، فما تجاسر الرشيد أن يردها . فلما سلمت قال : أي لغة هذه ، فقلت : إن الجواد قد يعثر . فقال : أما هذا فنعم . وقال بعضهم : لقيت الكسائي فإذا هو مهموم ، فقلت : ما لك؟ فقال : إن يحيى بن خالد قد وجه إليَّ ليسألني عن أشياء فأخشى من الخطأ ، فقلت : قل ما شئت فأنت الكسائي ، فقال : قطعه الله - يعني لسانه - إن قلت ما لم أعلم . قال الكسائي يوماً قلت لنجار : بكم هذان البابان ؟ فقال : بسالجيان يا مصفعان .

توفي الكسائي في هذه السنة على المشهور ، عن سبعين سنة ، وكان في صحبة الرشيد ببلاد الري فمات بنواحيها هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد ، وكان الرشيد يقول : دفنت الفقه والعربية بالري . قال ابن خلكان : وقيل إن الكسائي توفي بطوس سنة اثنتين وثمانين ومائة ، وقد رأى بعضهم الكسائي في المنام ووجهه كالبدر فقال : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي بالقرآن . فقلت ، ما فعل حمزة ؟ قال . ذاك في عليين ، ما نراه إلا كما نرى الكوكب . وفيها توفي :

محمد بن الحسن بن زفر

أبو عبد الله الشيباني مولاهم ، صاحب أبي حنيفة . أصله من قرية من قرى دمشق ، قدم أبوه العراق فولد بواسط سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة ومسعر والثوري وعمر بن ذر ومالك بن مغول ، وكتب عن مالك بن أنس والأوزاعي وأبي يوسف ، وسكن بغداد وحدث بها ، وكتب عنه الشافعي حين قدمها في سنة أربع وثمانين ومائة ، وولاّه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله . وكان يقول لأهله : لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي . وخذوا ما شئتم من مالي فإنه أقل لهمي وأفرغ لقلبي . وقال الشافعي : ما رأيت حبراً سميناً مثله ، ولا رأيت أخف روحاً منه ، ولا أفصح منه . كنت إذا سمعته يقرأ القرآن كأنما ينزل القرآن بلغته . وقال ايضاً : ما رأيت أعقل منه ، كان يملأ العين والقلب ، قال الطحاوي : كان الشافعي قد طلب من محمد بن الحسن كتاب السير فلم يجبه إلى الإعارة فكتب إليه :-

قل للذي لم تر عينايَ مثلهْ	حتى كأن من رآهُ قد رأى من قبلهْ
العلم ينهى أهله ان يمنعوهُ أهله	لعله يبذله لأهلِهِ لعلّهْ

قال : فوجه به إليه في الحال هدية لاعارية ، وقال إبراهيم الحربي : قيل لأحمد بن حنبل : هذه المسائل الدقاق من أين هي لك ؟ قال : من كتب محمد بن الحسن رحمه الله . وقد تقدم أنه مات هو والكسائي في يوم واحد من هذه السنة . فقال الرشيد : دفنت اليوم اللغة والفقه جميعاً . وكان عمره ثمان وخمسين سنة .

ثم دخلت سنة تسعين ومائة من الهجرة

فيها خلع رافع بن ليث بن نصر بن سيار نائب سمرقند الطاعة ودعا إلى نفسه ، وتابعه أهل بلده وطائفة كثيرة من تلك الناحية ، واستفحل أمره ، فسار إليه نائب خراسان علي بن عيسى فهزمه رافع وتفاقم الأمر به . وفيها سار الرشيد لغزو بلاد الروم لعشر بقين من رجب ، وقد لبس على رأسه قلنسوة فقال فيها أبو المعلا الكلابي :

فمَنْ يطلب لقاءكَ أو يردْهُ ... فبالحرمينِ أو أقصى الثغورِ
ففي أرض العدوِ على طمرٍ[1] ... وفي أرض الترفُّه فوق كورِ
وما حازَ الثغور سواكَ خلقٌ ... مِنَ المتخلِّفين على الأمور

فسار حتى وصل الى الطوانة فعسكر بها وبعث إليه نقفور بالطاعة وحمل الخراج والجزية حتى عن رأس ولده ورأسه ، وأهل مملكته ، في كل سنة خمسة عشر ألف دينار، وبعث يطلب من الرشيد جارية قد أسروها وكانت ابنة ملك هرقلة ، وكان قد خطبها على ولده ، فبعث بها الرشيد مع هدايا وتحف وطيب بعث يطلبه من الرشيد ، واشترط عليه الرشيد أن يحمل في كل سنة ثلثمائة ألف دينار ، وأن لا يعمر هرقلة . ثم انصرف الرشيد راجعاً واستناب على الغزو عقبة بن جعفر . ونقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى ، فسبى أهلها وقتل منهن خلقاً كثيراً . وخرج رجل من عبد القيس فبعث اليه الرشيد من قتله . وحج بالناس فيها عيسى بن موسى الهادي .

من توفي فيها من الأعيان والمشاهير

أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلي الكوفي صاحب أبي حنيفة ، حكم ببغداد وبواسط ، فلما انكف بصره عزل نفسه عن القضاء . قال أحمد بن حنبل : كان صدوقاً . ووثقه ابن معين ، وتكلم فيه علي بن المديني والبخاري **وسعدون المجنون** صام ستين سنة فخف دماغه فسماه الناس مجنوناً ، وقف يوماً على حلقة ذي النون المصري فسمع كلامه فصرخ ثم أنشأ يقول :

ولا بدّ من شكوى إذا لمْ يكن صبرٌ ... ولا خير في شكوى الى غير مشتكي

وقال الأصمعي : مررت به وهو جالس عند رأس شيخ سكران يذب عنه ، فقلت له : مالي أراك عند رأس هذا الشيخ ؟ فقال : إنه مجنون . فقلت : أنت مجنون أو هو ؟ قال : لا بل هو ، لأني صلّيت الظهر والعصر في جماعة وهو لم يصلِّ جماعة ولا فرادى . وهو مع هذا قد شرب الخمر وأنا لم أشربها . قلت : فهل قلت في هذا شيئاً ؟ قال : نعم ، ثم أنشأ يقول :-

---

(١) طمر : الثوب البالي .

تـركـتُ الـنـبـيـذَ لأهـلِ الـنـبـيـذْ وأصبحتُ أشـربُ مـاءً قـراحـاً[1]
لأن الـنـبـيـذَ يـذلُّ الـعـزيـزْ ويكسُو السواد الـوجـوه الصبـاحـا
فـإن كـانَ ذا جـائـزاً لـلشـبـابْ فمـا العـذر منـهُ إذا الشيبُ لاحـا

قال الأصمعي : فقلت له : صدقت ، أنت العاقل وهو المجنون :

وعبيدة بن حميد بن صهيب ، أبو عبد الرحمن التيمي الكوفي ، مؤدب الأمين . روى عن الأعمش وغيره ، وعنه أحمد بن حنبل ، وكان يثني عليه . وفيها توفي :

يحيى بن خالد بن برمك

أبو علي الوزير والد جعفر البرمكي ، ضم إليه المهدي ولده الرشيد فرباه وأرضعته امرأته مع الفضل بن يحيى ، فلما ولى الرشيد عرف له حقه ، وكان يقول : قال أبي ، قال أبي . وفوض إليه أمور الخلافة وأزمتها ، ولم يزل كذلك حتى نكبت البرامكة فقتل جعفر وخلد أباه يحيى في الحبس حتى مات في هذه السنة . وكان كريماً فصيحاً ، ذا رأي سديد ، يظهر في أموره خير وصلاح . قال يوماً لولده : خذوا من كل شيء طرفاً ، فإن من جهل شيئاً عاداه . وقال لأولاده : اكتبوا أحسن ما تسمعون ، واحفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون . وكان يقول لهم : إذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، وإذا أدبرت فأنفقوا منها فانها لا تبقى ، وكان إذا سأله سائل في الطريق وهو راكب أقل ما يأمر له بمائتي درهم فقال رجل يوماً : ـ

يـا سـميَّ الـحـصـورِ[2] يـحـيـى أتيحتْ لـكَ مِنْ فضلِ ربِّنا جنتانِ
كلُ منْ مـرَّ في الـطريقِ عـليكـمْ فـلهُ مِنْ نـوالـكـمْ مـائـتـانِ
مـائـتـا درهـمٍ لـمـثـلي قـليـلٌ هِـيَ لـلفـارسِ الـعـجـلانِ

فقال : صدقت . وأمر فسبق به إلى الدار ، فلما رجع سأل عنه فاذا هو قد تزوج وهو يريد أن يدخل على أهله فأعطاه صداقها أربعة آلاف ، وعن دار أربعة آلاف ، وعن الأمتعة أربعة آلاف . وكلفة الدخول أربعة آلاف ، وأربعة آلاف يستظهر بها . وجاء رجل يوماً فسأله شيئاً فقال : ويحك لقد جئتني في وقت لا أملك فيه مالاً ، وقد بعث إلي صاحب لي يطلب مني أن يهدي إلي ما أحب ، وقد بلغني أنك تريد أن تبيع جارية لك ، وأنك قد أعطيت فيها ثلاثة آلاف دينار ، وإني سأطلبها فلا تبعها منه بأقل من ثلاثين ألف دينار . فجاؤ ني فبلغوا معي بالمساومة إلى عشرين ألف دينار ، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها ، وأجبت إلى بيعها ، فأخذها وأخذت العشرين ألف دينار . فأهداها إلى يحيى ، فلما اجتمعت بيحيى قال : بكم بعتها ؟ قلت : بعشرين ألف دينـار . قال : إنـك

---

(١) قراحاً : الماء الخالص .
(٢) الحصور : كاتم السِّرّ .

لخسيس خذ جاريتك إليك وقد بعث إلي صاحب فارس يطلب مني أن أستهديه شيئاً ، وإني سأطلبها منه فلا تبعها بأقل من خمسين ألف دينار . فجاؤ ني فوصلوا في ثمنها إلى ثلاثين ألف دينار ، فبعتها منهم ، فلما جئته لامني أيضاً وردها عليَّ ، فقلت : أشهدك أنها حرة وأني قد تزوجتها ، وقلت : جارية قد أفادتني خمسين ألف دينار لا أفرط فيها بعد اليوم .

وذكر الخطيب أن الرشيد طلب من منصور بن زياد عشرة آلاف درهم ، ولم يكن عنده منها سوى ألف ألف درهم ، فضاق ذرعاً ، وقد توعده بالقتل وخراب الديار إن لم يحملها في يومه ذلك ، فدخل على يحيى بن خالد وذكر أمره فأطلق له خمسة الآف ألف، واستطلق له من ابنه الفضل ألفي ألف ، وقال لابنه : يا بني بلغني أنك تريد أن تشتري بها ضيعة . وهذه ضيعة تغل الشكر وتبقى مدى الدهر . وأخذ له من ابنه جعفر ألف ألف ، ومن جاريته دنانير عقداً اشتراه بمائة ألف دينار ، وعشرون ألف دينار ، وقال للمترسم عليه : قد حسبناه عليك بألفي ألف . فلما عرضت الأموال على الرشيد رد العقد ، وكان قد وهبه لجارية يحيى ، فلم يعد فيه بعد إذ وهبه . وقال له بعض بنيه وهم في السجن والقيود : يا أبت بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال ، فقال : يا بني دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ولم يغفل الله عنها . ثم أنشأ يقول :

ربَّ قـومٍ قـدْ غـدوْا في نعمـةٍ	زمنـاً والـدهـرُ ريـانُ[1] غـدق[2]
سـكـتَ الـدهـرُ زمـانـاً عـنـهـمُ	ثـمَ أبـكـاهـمْ دمـاً حـينَ نـطقْ

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجري على سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم ، وكان سفيان يدعو له في سجوده يقول : اللهم إنه قد كفاني المؤ نة وفرغني للعبادة فاكفه أمر آخرته . فلما مات يحيى رآه بعض أصحابه في المنام فقال : ما فعل الله لك ؟ قال : غفر لي بدعاء سفيان .

وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله في الحبس في الرافقة لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة عن سبعين سنة ، وصلى عليه ابنه الفضل ، ودفن على شط الفرات ، وقد وجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه : قد تقدم الخصم والمدعا عليه بالأثر ، والحاكم الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة . فحملت إلى الرشيد فلما قرأها بكى يومه ذلك ، وبقي أياماً يتبين الأسى في وجهه . وقد قال بعض الشعراء في يحيى بن خالد : ـ

سـألتُ الندا هـلْ أنتَ حرٌ فقـالَ لَا	ولكني عبـدٌ لـيحـيىَ بـنِ خـالـدِ
فقلتَ شـراءً قـالَ لا بـلْ وراثـةٌ	تـوارثَ رقى والـدٌ بـعـدَ والـدِ

---

(١) ريان : ضد العطشان .

(٢) غدق : كَثُرَ قَطْرُه .

ثم دخلت سنة احدى وتسعين ومائة

فيها خرج رجل بسواد العراق يقال له ثروان بن سيف ، وجعل يتنقل فيها من بلد إلى بلد ، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك فهزمه وجرح ثروان وقتل عامة أصحابه ، وكتب بالفتح إلى الرشيد . وفيها خرج بالشام أبو النداء فوجه إليه الرشيد يحيى بن معاذ واستنابه على الشام . وفيها وقع الثلج ببغداد . وفيها غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف ، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس ، وانهزم الباقون ، وولى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين ، وضم إليه ثلاثين ألفاً فيهم مسرور الخادم ، وإليه النفقات .

وخرج الرشيد إلى الحدث ليكون قريباً منهم . وأمر الرشيد بهدم الكنائس والديور[1] ، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيآتهم في بغداد وغيرها من البلاد . وفيها عزل الرشيد علي بن موسى عن إمرة خراسان وولاها هرثمة بن أعين . وفيها فتح الرشيد هرقلة في شوال وخرّبها وسبى أهلها وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة ، والكنيسة السوداء . وكان دخل هرقلة في كل يوم مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر ، ودخل جزيرة قبرص فسبى أهلها وحملهم حتى باعهم بالرافقة ، فبلغ ثمن الأسقف ألفي دينار ، باعهم أبو البختري القاضي .

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدي المأمون . وحج بالناس فيها الفضل بن عباس بن محمد بن علي العباسي ، وكان والي مكة ، ولم يكن للناس بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين . وفيها توفي من الأعيان :

سلمة بن الفضل الأبرش . وعبد الرحمن بن القاسم الفقيه الراوي عن مالك بن يونس بن أبي إسحاق ، قدم على الرشيد فأمر له بمال جزيل ، نحواً من خمسين ألفاً فلم يقبله . والفضل بن موسى الشيباني . ومحمد بن سلمة . ومحمد بن الحسين المصيصي أحد الزهاد الثقات . قال لم أتكلم بكلمة أحتاج إلى الأعتذار منها منذ خمسين سنة . وفيها توفي معمر الرقي .

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة

وفيها دخل هرثمة بن أعين الى خراسان نائباً عليها ، وقبض على علي بن عيسى فأخذ أمواله وحواصله وأركبه على بعير وجهه لذنبه ونادى عليه ببلاد خراسان، وكتب الى الرشيد بذلك فشكره على ذلك ، ثم أرسله الى الرشيد بعد ذلك فحبس بداره ببغداد . وفيها ولى الرشيد ثابت بن نصر بن مالك نيابة الثغور فدخل بلاد الروم وفتح مطمورة . وفيها كان الصلح بين المسلمين والروم على يد ثابت بن نصر . وفيها خرجت الخرمية بالجبل وبلاد

---

(١) الديور : مفردها الدير وهو مقام الرهبان أو الراهبات .

أذربيجان . فوجه الرشيد إليهم عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس فقتل منهم خلقاً وأسر وسبى ذراريهم ، وقدم بهم بغداد فأمر له الرشيد بقتل الرجال منهم ، وبالذرية فبيعوا فيها . وكان غزاهم قبل ذلك خزيمة بن خازم . وفي ربيع الأول منها قدم الرشيد من الرقة إلى بغداد في السفن وقد استخلف على الرقة ابنه القاسم وبين يديه خزيمة بن خازم ، ومن نية الرشيد الذهاب إلى خراسان لغزو رافع بن ليث الذي كان قد خلع الطاعة واستحوذ على بلاد كثيرة من بلاد سمرقند وغيرها ، ثم خرج الرشيد في شعبان قاصداً خراسان ، واستخلف على بغداد ابنه محمداً الأمين ، وسأل المأمون من أبيه أن يخرج معه خوفاً من غدر أخيه الأمين ، فأذن له فسار معه وقد شكا الرشيد في أثناء الطريق إلى بعض أمرائه جفاء بنيه الثلاثة الذين جعلهم ولاة العهد من بعده ، وأراه داء في جسده ، وقال إن لكل واحد من الأمين والمأمون والقاسم عندي عيناً علي ، وهم يعدون أنفاسي ويتمنون انقضاء أيامي ، وذلك شر لهم لو كانوا يعلمون . فدعا له ذلك الأمير ثم أمر له الرشيد بالانصراف إلى عمله وودعه ، وكان آخر العهد به .

وفيها تحرك ثروان الحروري وقتل عامل السلطان بطف البصرة . وفيها قتل الرشيد الهيصم اليماني . ومات عيسى بن جعفر وهو يريد اللحاق بالرشيد فمات في الطريق . وفيها حج بالناس العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور . وفيها توفي:

اسماعيل بن جامع

ابن إسماعيل بن عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة أبو القاسم ، أحد المشاهير بالغناء ، كان ممن يضرب به المثل ، وقد كان أولاً يحفظ القرآن ثم صار إلى صناعة الغناء وترك القرآن ، وذكر عنه أبو الفرج بن علي بن الحسين صاحب الأغاني حكايات غريبة ، من ذلك أنه قال كنت يوماً مشرفاً من غرفة بحران إذ أقبلت جارية سوداء معها قربة تستقي الماء ، فجلست ووضعت قربتها واندفعت تغني :

إلى الله أشكو بخلَها وسماحتي ... لها عَسَلٌ مِني وتبذلُ عَلْقَما[1]
فرِدّي مصابَ القلبِ أنتِ قتلتِهِ ... ولا تتركيهِ هائمَ القلبِ مغرَما

قال : فسمعت ما لا صبر لي عنه ورجوت أن تعيده فقامت وانصرفت ، فنزلت وانطلقت وراءها وسألتها أن تعيده فقالت : إن علي خراجاً كل يوم درهمين ، فأعطيتها درهمين فأعادته فحفظته وسلكته يومي ذلك ، فلما أصبحت أنسيته فأقبلت السوداء فسألتها أن تعيده فلم تفعل إلا بدرهمين ، ثم قالت : كأنك تستكثر أربعة دراهم ، كأني بك وقد أخذت عليه أربعة آلاف دينار . قال فغنيته ليلة للرشيد فأعطاني ألف دينار ، ثم استعادنيه ثلاث مرات أخرى وأعطاني ثلاثة آلاف دينار ، فتبسمت

---

(١) علقما : الحنظل ، وكلُّ شيءٍ مُر .

فقال : مم تبسمت ؟ فذكرت له القصة فضحك وألقى إلي كيساً آخر فيه ألف دينار . وقال : لا اكذب السوداء ، وحكى عنه أيضاً قال : أصبحت يوماً بالمدينة وليس معي إلا ثلاثة دراهم ، فإذا جارية على رقبتها جرة تريد الرَّكي[1] وهي تسعى وتترنم بصوت شجي : -

شكـونـا إلى أحبـابنـا طـولَ ليلنـا ... فقـالـوا لنا مـا أقصـرَ الليـلَ عنـدنـا
وذاكَ لأنَّ الـنـومَ يغشـى عيـونـهـمْ ... سـريعـاً ولا يغشىَ لنـا النـومُ أعينـا
إذا مـادنـا الليل المضرُّ بـذي الهـوى ... جـزعنـا وهم يـستـبشـرونَ إذا دنـا
فلوْ أنَّهـمْ كـانـوا يـلاقـونَ مثلمـا ... نـلاقي لكـانـوا في المضـاجـعِ مثلنا

قال : فاستعدته منها وأعطيتها الدراهم الثلاثة فقالت : لتأخذن بدلها ألف دينار ، وألف دينار وألف دينار . فأعطاني الرشيد ثلاثة آلاف دينار في ليلة على ذلك الصوت . وفيها توفي :

بكر بن النطاح

أبو وائل الحنفي البصري الشاعر المشهور ، نـزل بغداد زمن الـرشيد ، وكـان يخالط أبـا العتاهية . قال أبو عفان : أشعر أهل العدل من المحدثين أربعة ، أولهم بكر بن النطاح . وقـال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول اجتمع جماعة من الشعراء ومعهم بكر بن النطاح يتناشدون ، فلما فرغوا من طوالهم أنشد بكر بن النطاح لنفسه :

مـا ضـرهـا لـو كتبتَ بـالـرضى ... فـجفَّ جفـنُ العـينِ أو أغـمـضـا
شـفـاعـةٌ مـردودةٌ عـنـدهـا ... فـي عاشق يـودُّ لـوْ قـدْ قـضـى
يـا نفسُ صبـراً واعـلمي أنـمـا ... يـأمـلُ منهـا مثلمـا قـدْ مضـى
لـمْ تمـرضِ الأجـفـانُ مِنْ قـاتـلٍ ... بـلحـظهِ إلاّ لأنْ أمـرضـا

قال : فابتدروه يقبلون رأسه . ولما مات رثاه أبو العتاهية فقال :

مـاتَ ابـنُ نـطاحٍ أبـو وائـلٍ ... بكـرٍ فـأمسى الشعـرُ قـدْ بـانـا[2]

وفيها توفي بهلول المجنون ، كان يأوي إلى مقابر الكوفة ، وكان يتكلم بكلمات حسنة ، وقد وعظ الرشيد وغيره كما تقدم .

وعبد الله بن ادريس

الأودي الكوفي ، سمع الأعمش وابن جـريج وشعبـة ومالكاً وخلقاً سـواهم . وروى عنه جماعات من الأئمة ، وقد استدعاه الرشيد ليوليه القضاء فقال : لا أصلح ، وامتنع أشد الامتناع ، وكان قد سأل قبله وكيعاً فامتنع أيضاً ، فطلب حفص بن غياث فقبل . وأطلق لكل واحد خمسة آلاف عوضاً عن كلفته التي تكلفها في السفر ، فلم يقبل وكيع ولا ابن إدريس ، وقبل ذلك حفص ، فحلف

---

(١) الرَّكي : البئر ذات الماء .

(٢) بانا : ظهر .

ابن إدريس لا يكلمه أبداً . وحج الرشيد في بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضي أبو يوسف والأمين والمأمون ، فأمر الرشيد أن يجتمع شيوخ الحديث ليسمعوا ولديه ، فاجتمعوا إلا ابن إدريس هذا ، وعيسى بن يونس . فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما على من اجتمع من المشايخ إلى ابن إدريس فأسمعهما مائة حديث ، فقال له المأمون : يا عم إن أردت أعدتها من حفظي ، فأذن له فأعادها من حفظه كما سمعها ، فتعجب لحفظه ، ثم أمر له المأمون بمال فلم يقبل منه شيئاً ، ثم سارا إلى عيسى بن يونس فسمعا عليه ثم أمر له المأمون بعشرة آلاف فلم يقبلها ، فظن أنه استقلها فأضعفها فقال : والله لو ملأت لي المسجد مالاً إلى سقفه ما قبلت منه شيئاً على حديث رسول الله ﷺ . ولما احتضر ابن إدريس بكت ابنته فقال : علام تبكي ؟ فقد ختمت في هذا البيت أربعة آلاف ختمة .

صعصعة بن سلام

ويقال ابن عبد الله أبو عبد الله الدمشقي ، ثم تحول الى الأندلس فاستوطنها في زمن عبد الملك بن معاوية وابنه هشام ، وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس ، وولي الصلاة بقرطبة ، وفي أيامه غرست الأشجار بالمسجد الجامع هناك كما يراه الأوزاعي والشاميون ويكرهه مالك وأصحابه . وقد روى عن مالك والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز . وروى عنه جماعة منهم عبد الملك بن حبيب الفقيه ، وذكره في كتاب الفقهاء ، وذكره ابن يونس في تاريخه ـ تاريخ مصر ـ والحميدي في تاريخ الأندلس ، وحرر وفاته في هذه السنة . وحكى عن شيخه ابن حزم أن صعصعة هذا أول من أدخل مذهب الأوزاعي الى الأندلس . وقال ابن يونس : أول من أدخل علم الحديث إليها . وذكر أنه توفي قريباً من سنة ثمانين ومائة ، والذي حرره الحميدي في هذه السنة أثبت .

علي بن ظبيان

أبو الحسن العبسي قاضي الشرقية من بغداد ، ولاه الرشيد ذلك ، كان ثقة عالماً من أصحاب أبي حنيفة ، ثم ولاه الرشيد قضاء القضاة ، وكان الرشيد يخرج معه إذا خرج من عنده ، مات بقوميسين في هذه السنة .

العباس بن الأحنف

ابن الأسود بن طلحة الشاعر المشهور ، كان من عرب خراسان ونشأ ببغداد ، وكان لطيفاً ظريفاً مقبولاً حسن الشعر . قال أبو العباس قال عبد الله بن المعتز : لو قيل لي من أحسن الناس شعراً تعرفه ؟ لقلت العباس :ـ

قد سحَبَ الناسُ أذيالَ الظنونِ بنا ... وفرَّق الناسُ فينا قوْلَهم فِرقاً

فكـاذبٌ قـد رمى بـالـظنِّ غيـركم وصـادقٌ ليسَ يـدْري أنـه صـدقـاً

وقد طلبه الرشيد ذات ليلة في أثناء الليل فانزعج لذلك وخاف نساؤه ، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له : ويحك إنه قد عنَّ لي بيت في جارية لي فأحببت أن تشفعه بمثله ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خفت أعظم من هذه الليلة ، فقال : ولم ؟ فذكر له دخول الحرس عليه في الليل ، ثم جلس حتى سكن روعه ثم قال : ما قلت يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

حنانٌ قد رأيناها فلم نر مثلها بشراً يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظراً .

فقال الرشيد : زد . فقال :

إذا ما الليلَ مالَ عليكَ بالاظلام واعتكرا ودجَّ فلم ترَ فجراً فابرزها ترَ قمراً

فقال : إنا قد رأيناها ، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم . ومن شعره الذي أقر له فيه بشار ابن برد وأثبته في سلك الشعراء بسببه قوله :

أبـكي الـذيـن أذاقـوني مـودتـهمْ حتى إذا أيقـظوني لـلهـوى رقـدوا
واستنهضـوني فلمـا قمت منتـصبـاً بثقـل مـا حـملوني منهم قـعـدوا
وله أيضاً وحـدثتني يـا سعـد عنهـا فزدتني جنونـاً فـزدني من حـديثـك يـا سعـدُ
هـواهـا هـوى لم يعـرف القلب غيرهُ فـليس لـه قبـلٌ ولـيس لـه بعـدُ

قال الأصمعي : دخلت على العباس بن الأحنف بالبصرة وهو طريح على فراشه يجود بنفسه وهو يقول :

يـا بـعـيـدَ الـدارِ عـن وطـنـهِ مـفـرداً يـبـكـي عـلى شـجـنـهْ
كـلمـا جـدَّ الـنـحـيـبُ بـه زادتِ الأسـقـامُ فـي بـدنـه

ثم أغمي عليه ثم انتبه بصوت طائر على شجرة فقال :

ولـقـدْ زاد الـفـؤادُ شـجـاً هـاتـفٌ يـبـكي عـلى فـنـنـه[1]
شـاقـهَ مـا شـاقـنـي فـبـكـى كـلنـا يـبـكـي عـلى سـكـنـهْ

قال ثم أغمي عليه أخرى فحركته فاذا هو قد مات . قال الصولي : كانت وفاته في هذه السنة ، وقيل بعدها ، وقيل قبلها في سنة ثمان وثمانين ومائة فالله أعلم . وزعم بعض المؤرخين أنه بقي بعد الرشيد .

---

(١) فننه : غصنه .

عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور

أخو زبيدة ، كان نائباً على البصرة في أيام الرشيد فمات في أثناء هذه السنة . وفيها توفي :

الفضل بن يحيى

ابن خالد بن برمك أخو جعفر وأخوته ، كان هو والرشيد يتراضعان . أرضعت الخيزران فضلاً ، وأرضعت أم الفضل وهي زبيدة بنت بن بريه هارون الرشيد . وكانت زبيدة هذه من مولدات بتبين البرية ، وقد قال في ذلك بعض الشعراء :

كفى لـكَ فضـلاً أن أفضـل حـرّةٍ غـذتـك بثـدي ٍ والخـليفـة واحـدِ
لقـد زنتَ يحيى في المشـاهـدِ كلهـا كمـا زان يحيى خـالـداً في المشـاهـدِ

قالوا : وكان الفضل أكرم من أخيه جعفر ، ولكن كان فيه كبر شديد ، وكان عبوساً ، وكان جعفر أحسن بشراً منه وأطلق وجهاً ، وأقل عطاء . وكان الناس إليه أميل ، ولكن خصلة الكرم تغطي جميع القبائح ، فهي تستر تلك الخصلة التي كانت في الفضل . وقد وهب الفضل لطباخه مائة ألف درهم فعابه أبوه على ذلك ، فقال : يا أبت إن هذا كان يصحبني في العسر واليسر والعيش الخشن ، واستمر معي في هذا الحال فأحسن صحبتي ، وقد قال بعض الشعراء :

إنّ الكـرامَ إذا مـا ايْسَـروا ذكـروا من كـانَ يعتادُهُمْ في المنـزِلِ الخشِنِ

ووهب يوماً لبعض الأدباء عشرة آلاف دينار فبكى الرجل فقال له : مم تبكي ، أستقللتها ؟ قال : لا والله ، ولكني أبكي أن الأرض تأكل مثلك ، أو تواري مثلك .

وقال علي بن الجهم عن أبيه : أصبحت يوماً لا أملك شيئاً حتى ولا علف الدابة . فقصدت الفضل بن يحيى ، فإذا هو قد أقبل من دار الخلافة في موكب من النـاس ، فلما رآني رحب بي وقال : هلم ، فسرت معه ، فلما كان ببعض الطريق سمع غلاماً يدعو جارية من دار، وإذا هو يدعوها باسم جارية له يحبها ، فانزعج لذلك وشكا إلي ما لقي من ذلك ، فقلت : أصابك ما أصاب أخي بني عامر حيث يقول :

وداء دَعـا إذْ نَحْنُ بـالخيفِ مِنْ منىً فـهيَّـج أحـزانَ الـفـؤاد ولا يـدري
دعـا بـاسم ليلى غيـرهـا وكـأنّمـا أطـار بليلي طـائـرًا كـان في صـدري

فقال : اكتب لي هذين البيتين . قال : فذهبت الى بقال فرهنت عنده خاتمي على ثمن ورقة وكتبتهما له ، فأخذهما وقال : انطلق راشداً . فرجعت الى منزلي فقال لي غلامي : هات خاتمك حتى نرهنه على طعام لنا وعلف للدابة ، فقلت : إني رهنته ، فما أمسينا حتى أرسل إلي الفضل بثلاثين ألفاً من الذهب ، وعشرة آلاف من الورق ، أجراه علي كل شهر ، وأسلفني شهراً .

ودخل على الفضل يوماً بعض الأكابر فأكرمه الفضل وأجلسه معه على السرير ، فشكا إليه الرجل ديناً عليه وسأله أن يكلم في ذلك أمير المؤمنين . فقال : نعم ، وكم دينك ؟ قال ثلاثمائة ألف درهم . فخرج من عنده وهو مهموم لضعف رده عليه ، ثم مال إلى بعض إخوانه فاستراح عنده ثم رجع الى منزله فإذا المال قد سبقه إلى داره . وما أحسن ما قال فيه بعض الشعراء :

لك الفضل يا فضلُ بنُ يحيى بنُ خالدٍ ... وما كلُّ من يدعى بفضلٍ لهُ فضلُ

رأى الله فضلاً منك في الناسِ واسعاً ... فسَّماكَ فضلاً فالتقى الاسمُ والفعل

وقد كان الفضل أكبر رتبة عند الرشيد من جعفر ، وكان جعفر أحظى عند الرشيد منه وأخص ، وقد ولي الفضل أعمالاً كباراً ، منها نيابة خراسان وغيرها . ولما قتل الرشيد البرامكة وحبسهم جلد الفضل هذا مائة سوط وخلده في الحبس حتى مات في هذه السنة ، قبل الرشيد بشهور خمسة في الرقة وصلى عليه بالقصر الذي مات فيه أصحابه ، ثم أخرجت جنازته فصلى عليها الناس ، ودفن هناك وله خمس وأربعون سنة ، وكان سبب موته ثقل أصابه في لسانه اشتد به يوم الخميس ويوم الجمعة ، وتوفي قبل أذان الغداة من يوم السبت . قال ابن جرير : وذلك في المحرم من سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقال ابن الجوزي : في سنة ثنتين وتسعين فالله أعلم .

وقد أطال ابن خلكان ترجمته وذكر طرفاً صالحاً من محاسنه ومكارمه ، من ذلك أنه ورد بلخ حين كان نائباًعلى خراسان ، وكان بها بيت النار التي كانت تعبدها المجوس ، وقد كان جده برمك من خدامها ، فهدم بعضه ولم يتمكن من هدمه كله ، لقوة إحكامه ، وبنى مكانه مسجداً لله تعالى . وذكر أنه كان يتمثل في السجن بهذه الأبيات ويبكي :

إلى الله فيما نالنا نرفعُ الشكوى ... ففي يده كشف المضرّة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحنُ من أهلها ... فلا نحنُ في الأمواتِ فيها ولا الأحيا

إذا جاءنا السجانُ يوماً لحاجةٍ ... عجبنا وقلنا جاءَ هذا من الدنيا

ومحمد بن أمية الشاعر الكاتب ، وهو من بيت كلهم شعراء ، وقد اختلط أشعار بعضهم في بعض .

ومنصور بن الزبرقان

ابن سلمة أبو الفضل النميري الشاعر ، امتدح الرشيد ، وأصله من الجزيرة وأقام ببغداد ويقال لجده مطعم الكبش الرخم ، وذلك أنه أضاف قوماً فجعلت الرخم[1] تحوم حولهم ، فأمر بكبش يذبح للرخم حتى لا يتأذى بها ضيفانه ، ففعل له ذلك . فقال الشاعر فيه :

---

(١) الرخم : الواحدة رَخمة : طائر من فصيلة النَّسْريَّات ورتبة الجوارح . ريشه أبيض ممزوج بسواد وشقرة .

أبـوكَ زعـيـمُ بـنـي قـاسطٍ وخـالـكَ ذو الكبشِ يغـذي الـرخمْ

وله أشعار حسنة ، وكان يروى عن كلثوم بن عمرو ، وكان شيخه الذي أخذ عنه الغناء .

يوسف بن القاضي ابي يوسف

سمع الحديث من السري بن يحيى ويونس بن أبي إسحاق ، ونظر في الرأي وتفقه ، وولي قضاء الجانب الشرقي ببغداد في حياة أبيه أبي يوسف ، وصلى بالناس الجمعة بجامع المنصور عن أمر الرشيد . توفي في رجب من هذه السنة وهو قاضي ببغداد .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

قال ابن جرير : في المحرم منها توفي الفضل بن يحيى ، وقال ابن الجوزي توفي الفضل في سنة اثنتين وتسعين كما تقدم . وما قاله ابن جرير أقرب . قال : وفيها توفي سعيد الجوهري ، قال : وفيها وافى الرشيد جرجان وانتهت إليه خزائن علي بن عيسى تحمل على ألف وخمسمائة بعير ، وذلك في صفر منها ، ثم تحول منها إلى طـوس وهو عليل ، فلم يزل بها حتى كانت وفاته فيها . وفيها تواقع هرثمة نائب العراق هو ورافع بن الليث فكسره هرثمة وافتتح بخارى وأسر أخاه بشير بن الليث ، فبعثه الى الرشيد وهو بطوس قد ثقل عن السير ، فلما وقف بين يديه شرع يترقق له فلم يقبل منه ، بل قال : والله لو لم يبق من عمري إلا أن أحرك شفتي بقتلك لقتلتك ، ثم دعا بقصاب فجزأه بين يديه أربعة عشر عضواً ، ثم رفع الرشيد يديه الى السماء يدعو الله أن يمكنه من أخيه رافع كما مكنه من أخيه بشير .

وفاة الرشيد

كان قد رأى وهو بالكوفة رؤ يا أفزعته وغمه ذلك ، فدخل عليه جبريل بن بختيشوع فقال : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : رأيت كفا فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريري وقائلاً يقول : هذه تربة هارون . فهون عليه جبريل أمرها وقال : هذه من أضغاث الأحلام من حديث النفس ، فتناسها يا أمير المؤمنين . فلما سار يريد خراسان ومر بطوس واعتقلته العلة بها ، ذكر رؤ ياه فهاله ذلك وقال لجبريل : ويحك ! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤ يا ؟ فقال : بلى . فدعا مسروراً الخادم وقال : ائتني بشيء من تربة هذه الأرض ، فجاءه بتربة حمراء في يده ، فلما رآها قال : والله هذه الكف التي رأيت ، والتربة التي كانت فيها . قال جبريل : فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفي ، وقد أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها ، وهي دار حميد بن أبي غانم الطائي ، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول : يا ابن آدم تصير الى هذا . ثم أمر أن يقرأوا القرآن في قبره ، فقرأوه حتى ختموه وهو في محفة على شفير القبر ولما حضرته الـوفاة احتبى بمـلاءة وجلس يقاسي سكـرات

الموت ، فقال له بعض من حضر : لو اضطجعت كان أهون عليك . فضحك ضحكاً صحيحاً ثم قال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني من قوم كرامٍ يزيدهم   شماساً وصبراً شدةُ الحدثانِ[1]

مات ليلة السبت ، وقيل ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، عن خمس ، وقيل سبع وأربعين سنة . وكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة .

وهذه ترجمته

هو هارون الرشيد أمير المؤمنين ابن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، القرشي الهاشمي ، أبو محمد ، ويقال أبو جعفر . وأمه الخيزران أم ولد . كان مولده في شوال سنة ست وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعين ومائة ، وقيل إنه ولد سنة خمسين ومائة ، وبويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ، بعهد من أبيه المهدي . روى الحديث عن أبيه وجده ، وحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » . أورده وهو على المنبر وهو يخطب الناس ، وقد حدث عنه ابنه وسليمان الهاشمي والد إسحاق ، ونباتة بن عمرو . وكان الرشيد أبيض طويلاً سميناً جميلاً ، وقد غزا الصائفة في حياة أبيه مراراً ، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية ، وقد لقي المسلمون من ذلك جهداً جهيداً وخوفاً شديداً ، وكان الصلح مع امرأة ليون وهي الملقبة بأغسطة على حمل كثير تبذله للمسلمين في كل عام ، ففرح المسلمون بذلك ، وكان هذا هو الذي حدا أباه على البيعة له بعد أخيه في سنة ست وستين ومائة ، ثم لما أفضت إليه الخلافة في سنة سبعين كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزواً وحجاً ، ولهذا قال فيه أبو السعلي :

فمن يطلبْ لقاءكَ أو يردهْ   فبالحرمينِ أو أقصى الثغورِ
ففي أرضِ العدو على طمرٍ[2]   وفي أرضِ الترفهِ فوق كورِ
وما حازَ الثغورَ سواكَ خلقٌ   من المتخلفينَ على الأمورِ

وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم ، وإذا حج أحج معه مائةمن الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة ، وكان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء ، فانه كان سريع العطاء جزيله ، وكان يحب الفقهاء والشعراء ويعطيهم ، ولا

---

(١) الحدثان : المصايب والنوائب .
(٢) طمر : الثوب البالي .

يضيع لديه بر ومعروف ، وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله . وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعاً ، إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علة ، وكان ابن أبي مريم هو الذي يضحكه ، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها ، وكان الرشيد قد أنزله في قصره وخلطه بأهله . نبهه الرشيد يوماً إلى صلاة الصبح فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ : ﴿ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الذي فَطَرَني ﴾[1] فقال ابن أبي مريم : لا أدري والله . فضحك الرشيد وقطع الصلاة ، ثم أقبل عليه وقال : ويحك اجتنب الصلاة والقرآن وقل فيما عدا ذلك . ودخل يوماً العباس بن محمد على الرشيد ومعه برنية[2] من فضة فيها غالية من أحسن الطيب ، فجعل يمدحها ويزيد في شكرها ، وسأل من الرشيد أن يقبلها منه فقبلها فاستوهبها منه ابن أبي مريم فوهبها له ، فقال له العباس : ويحك ! جئت بشيء منعته نفسي وأهلي وآثرت به أمير المؤمنين سيدي فأخذته . فحلف ابن أبي مريم ليطيبن به استه[3] ، ثم أخذ منها شيئاً فطلى به استه ودهن جوارحه كلها منها ، والرشيد لا يتمالك نفسه من الضحك . ثم قال لخادم قائم عندهم يقال له خاقان : اطلب لي غلامي . فقال الرشيد : ادع له غلامه . فقال له : خذ هذه الغالية واذهب بها إلى ستك فمرها فلتطيب منها إستها حتى أرجع إليها فأنيكها . فذهب الضحك بالرشيد كل مذهب ، ثم أقبل ابن أبي مريم على العباس بن محمد فقال له : جئت بهذه الغالية تمدحها عند أمير المؤمنين الذي ما تمطر السماء شيئاً ولا تنبت الأرض شيئاً إلا وهو تحت تصرفه وفي يده ؟ وأعجب من هذا أن قيل لملك الموت : ما أمرك به هذا فانفذه . وأنت تمدح هذه الغالية عنده كأنه بقال أو خباز أو طباخ أو تمار ، فكاد الرشيد يهلك من شدة الضحك . ثم أمر لابن أبي مريم بمائة ألف درهم .

وقد شرب الرشيد يوماً دواء فسأله ابن أبي مريم أن يلي الحجابة في هذا اليوم ، ومهما حصل له كان بينه وبين أمير المؤمنين ، فولاه الحجابة ، فجاءت الرسل بالهدايا من كل جانب ، من عند زبيدة والبرامكة وكبار الأمراء ، وكان حاصله في هذا اليوم ستين ألف دينار ، فسأله الرشيد في اليوم الثاني عما تحصل فأخبره بذلك ، فقال له : فأين نصيبي ؟ فقال ابن أبي مريم : قد صالحتك عليه بعشرة آلاف تفاحة .

وقد استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث قال أبو معاوية : ما ذكرت عنده حديثاً إلا قال صلى الله وسلم على سيدي ، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبل الثرى ، وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء علي وأنا لا أراه . ثم قال : يا أبا معاوية أتدري من يصب عليك الماء ؟ قلت : لا . قال : يصب عليك أمير المؤمنين . قال أبو معاوية : فدعوت

---

(١) سورة يسٓ ، الآية/ ٢٢ .
(٢) برنية : إناءٌ من خزف .
(٣) استه : السافلة .

له ، فقال : إنما أردت تعظيم العلم . وحدثه أبو معاوية يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى ، فقال عم الرشيد : أين التقيا يا أبا معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً ، وقال : أتعترض على الحديث ؟ علي بالنطع[1] والسيف ، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه فقال الرشيد : هذه زندقة . ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا ، فأقسم عمه بالايمان المغلظة ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها . فأطلقه .

وقال بعضهم : دخلت على الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول ، فقال الرشيد : قتلته لأنه قال القرآن مخلوق ، فقتله على ذلك قربة إلى الله عز وجل . وقال بعض أهل العلم : يا أمير المؤمنين انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بعز سلطانك ، فقال الرشيد : أولست كذلك؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبغضهما . وقال له ابن السماك : إن الله لم يجعل أحداً فوقك فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك . فقال : لئن كنت أقصرت في الكلام لقد أبلغت في الموعظة .

وقال له الفضيل بن عياض - أو غيره - إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك في الدنيا . فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك في الآخرة ، فاكدح لنفسك وأعملها في طاعة ربك . ودخل عليه ابن السماك يوماً فاستسقى الرشيد فأتى بقلة فيها ماء مبرد فقال لابن السماك : عظني . فقال : يا أمير المؤمنين ! بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعتها ؟ فقال : بنصف ملكي . فقال: اشرب هنيئاً ، فلما شرب قال : أرأيت لو منعت خروجها من بدنك بكم كنت تشتري ذلك ؟ قال بنصف ملكي الآخر . فقال : إن ملكاً قيمة نصفه شربة ماء ، وقيمة نصفه الآخر بولة ، لخليق أن لا يتنافس فيه . فبكى هارون .

وقال ابن قتيبة : ثنا الرياشي سمعت الأصمعي يقول : دخلت على الرشيد وهو يقلم أظفاره يوم الجمعة فقلت له في ذلك فقال : أخذ الأظفار يوم الخميس من السنة ، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر . فقلت : يا أمير المؤمنين أوتخشى الفقر ؟ فقال : يا أصمعي وهل أحد أخشى للفقر مني ؟ . وروى ابن عساكر عن إبراهيم المهدي قال : كنت يوماً عند الرشيد فدعا طباخه فقال : أعندك في الطعام لحم جزور ؟ قال : نعم ، ألوان منه . فقال : أحضره مع الطعام فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه فضحك جعفر البرمكي ، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال : مم تضحك ؟ قال : لا شيء يا أمير المؤمنين ، ذكرت كلاماً بيني وبين جاريتي البارحة . فقال له : بحقي عليك لما أخبرتني به . قال : حتى تأكل هذه اللقمة ، فألقاها من فيه وقال : والله

---

(١) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو بقطع الرأس .

لتخبرني . فقال : يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك ؟ قال : بأربعة دراهم . قال : لا والله ، يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم . قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده ، فقلت : لا يخلون المطبخ من لحم جزور ، فنحن ننحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين ، لأنا لا نشتري من السوق لحم جزور . فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم . قال جعفر : فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة . فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف .

قال : فبكى الرشيد بكاء شديداً وأمر برفع السماط[1] من بين يديه ، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول : هلكت والله يا هارون . ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر ، فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر ، وقد أمر بألفي ألف تصرف الى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة ، وأمر بـألفي ألف يتصدق بهـا في جانبي بغـداد الغربي والشرقي ، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة . ثم خرج الى صلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب ، ثم رجع ، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال : ما شأنك يـا أمير المؤمنين باكياً في هذا اليوم ؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته ، وإنما ناله منها لقمة . فقال أبو يوسف لجعفر : هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسد ، أو يأكله الناس ؟ قال : بل يأكله الناس . فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية ، وبما يسره الله عليك من الصدقة ، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[2] فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف . ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غذاؤه في هذا اليوم عشاء .

وقال عمرو بن بحر الجاحظ : اجتمع للرشيد من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده ، كان أبو يوسف قاضيه ، والبرامكة وزراءه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدهم تعاظما ، ونديمه عمر بن العباس بن محمد صاحب العباسية . وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته ، ومضحكه ابن أبي مريم ، وزامره برصوما . وزوجته أم جعفر - يعني زبيدة - وكانت أرغب الناس في كل خير وأسرعهم إلى كل بر ومعروف ، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك ، إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها .

وروى الخطيب البغدادي أن الرشيد كـان يقول : إنـا من قوم عـظمت رزيتهم ، وحسنت بعثتهم ، ورثنا رسول الله ﷺ وبقيت فينا خلافة الله . وبينما الرشيد يطوف يوماً بالبيت إذ عرض له

(١) السماط : ما يُبْسَط ليُوضع عليه الطعام .
(٢) سورة الرحمن ، الآية/ ٤٦ .

رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة ، فقال لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولاً ليناً . وعن شعيب بن حرب قال : رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي : قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فخوفتني فقالت : إنه الآن يضرب عنقك . فقلت : لا بد من ذلك ، فناديته فقلت : يا هارون ! قد أتعبت الأمة والبهائم . فقال : خذوه . فأدخلت عليه وفي يده لت[1] من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي ، فقال : ممن الرجل ؟ فقلت : رجل من المسلمين . فقال ثكلتك أمك ممن أنت ؟ فقلت : من الأنبار . فقال : ما حملك على أن دعوتني باسمي ؟ قال : فخطر ببالي شيء لم يخطر قبل ذلك ، فقلت : أنا أدعو الله باسمه يا الله ، أفلا أدعوك باسمك ؟ وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم : يا آدم ، يا نوح ، يا هود ، يا صالح ، يا إبراهيم ، يا موسى ، يا عيسى ، يا محمد ، وكنى أبغض خلقه إليه فقال : تبت يدا أبي لهب . فقال الرشيد : أخرجوه أخرجوه .

وقال له ابن السماك يوماً : إنك تموت وحدك ، وتدخل القبر وحدك ، وتبعث منه وحدك ، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل ، والوقوف بين الجنة والنار ، حين يؤخذ بالكظم[2] وتزل القدم ، ويقع الندم ، فلا توبة تقبل ، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال . فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته فقال يحيى بن خالد له : يا ابن السماك ! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة . فقام فخرج من عنده وهو يبكي . وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليلة وعظه بمكة - : يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾[3] قال حدثنا ليث عن مجاهد : الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا . فبكى حتى جعل يشهق . وقال الفضيل : استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها ، ثم استدعى أبا العتاهية ، فقال له : صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال :-

عِشْ ما بدا لكَ سالماً	في ظلِ شاهقةِ القصورِ
تسعى عليكَ بما اشتهيـ	ـتَ لدى الرواحِ[4] إلى البكورِ[5]
فإذا النفوسُ تقعقعتْ	عن ضيقِ حشرجةِ الصدورِ
فهناكَ نعلمُ موقناً	ما كنتَ إلَّا في غرورِ

قال :فبكى الرشيد بكاء كثيراً شديداً .فقال له الفضل بن يحيى :دعاك أمير المؤمنين تسر فأحزنته ؟ فقال له الرشيد : دعه فانه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى . ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبي العتاهية : عظني بأبيات من الشعر وأوجز فقال : -

---

(١) لت : الفأس العظيمة (فارسية) .
(٢) بالكظم : مخرج النفس .
(٣) سورة البقرة ، الآية/ ١٦٦ .
(٤) الرواح : العشيّ أو من الزوال إلى الليل ، ويقابله الصباح .
(٥) البكور : باكراً عند الفجر .

لا تـأمنْ المـوتَ في طَـرْفٍ ولا نَفَسٍ   ولـو تمتَّعْتَ بـالحجَّـابِ والحَـرَسِ
واعلمْ بـأنَ سهـامَ المـوتِ صـائبـةٌ   لـكـلِّ مـدَّرعٍ مـنـهـا ومـتَّـرسِ
تـرجـو النَّجـاةَ ولم تسلُكْ مسـالكهَـا   إنّ السَّفينـةَ لا تَـجـري على اليَبَسِ

قال : فخر الرشيد مغشياً عليه . وقد حبس الرشيد مرة أبا العتاهية وأرصد عليه من يأتيه بما يقول ، فكتب مرة على جدار الحبس :

أمـا والله إنَّ الـظلمَ شـومٌ   ومـا زالَ المسـيءُ هـوَ المـظلومُ
إلى ديّـانِ يـومِ الـدينِ نـمضـي   وعـنـدَ الله تجـتـمـعُ الـخـصـومُ

قال : فاستدعاه واستعجله في حل ووهبه ألف دينار وأطلقه . وقال الحسن بن أبي الفهم : ثنا محمد بن عباد عن سفيان بن عيينة قال : دخلت على الرشيد فقال : ما خبرك ؟ فقلت :

بـعـيـنِ الله مـا تـخـفـى الـبـيـوتُ   فـقـد طـالَ التـحمـلُ والسـكـوتُ

فقال : يا فلان مائة ألف لابن عيينة تغنيه وتغني عقبه ، ولا تضر الرشيد شيئاً . وقال الأصمعي كنت مع الرشيد في الحج فمررنا بواد فاذا على شفيره امرأة حسناء بين يديها قصعة وهي تسأل منها وهي تقول : ـ

طحـطحتنا[1] طحـاطـحُ الأعـوامِ   ورمـتـنـا حَـوادثُ الأيـام
فـأتـيـنـاكـمُ نـمـدُ أكـفًّـا   نـائـلاتِ لـزادكـمْ والـطعـام
فـاطلبـوا الأجـرَ والمثـوبـةَ فينـا   أيـهـا الـزائـرونَ بيـتَ الـحـرامِ
مـنْ رآنـي فـقـدْ رآنـي ورحـلي   فـارحـمـوا غـربتي وذلَّ مـقـامـي

قال الاصمعي : فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرحمها وبكى وأمر مسروراً الخادم أن يملأ قصعتها ذهباً ، فملأها حتى جعلت تفيض يميناً وشمالاً . وسمع مرة الرشيد أعرابياً يحدو إبله في طريق الحج :

أيـهـا الـمـجـمـعُ هـمّـاً لاتـهـمْ   أنـتَ تقـضي ولـكَ الـحمّـى تـحـمْ
كـيـفَ تـرقـيـكَ وقـد جفَّ الـقَـلمْ   حـطّتْ الـصحَّـةُ مِـنْـكَ والـسَّـقـمْ

فقال الرشيد لبعض خدمه : ما معك ؟ قال : أربعمائة دينار ، فقال : ادفعها إلى هذا الأعرابي . فلما قبضها ضرب رفيقه بيده على كتفه وقال متمثلاً :

وكـنتُ جـليسَ قعـقـاعِ بـنِ عـمـروٍ   ولا يـشـقَـى بِـقَـعْـقـاعٍ جـلـيسُ

---

(١) طحطحتنا : كسَّرتنا وبدَّدتنا إهلاكاً .

فأمر الرشيد بعض الخدم أن يعطي المتمثل ما معه من الذهب فاذا معه مائتا دينار . قال أبو عبيد إن [أصل] هذا المثل أن معاوية بن أبي سفيان أهديت له هدية جامات[1] من ذهب فرقها على جلسائه والى جانبه قعقاع بن عمرو ، وإلى جانب القعقاع أعرابي لم يفضل له منها شيء . فأطرق الأعرابي حياء فدفع إليه القعقاع الجام الذي حصل له ، فنهض الأعرابي وهو يقول وكنت جليس قعقاع بن عمرو إلى آخره .

وخرج الرشيد يوماً من عند زبيدة وهو يضحك فقيل له مم تضحك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : دخلت اليوم إلى هذه المرأة - يعني زبيدة - فأقلت عندها وبت ، فما استيقظت إلا على صوت ذهب يصب ، قالوا : هذه ثلثمائة ألف دينار قدمت من مصر ، فقالت زبيدة : هبهالي يا ابن عم ، فقلت : هي لك ، ثم ما خرجت حتى عربدت علي وقالت : أي خير رأيته منك ؟ وقال الرشيد مرة للمفضل الضبي : ما أحسن ما قيل في الذئب ، ولك هذا الخاتم ، وشراؤه ألف وستمائة دينار ، فأنشد قول الشاعر :

ينـامُ بـإحـدَى مُـقْلَتَيـهِ ويتّقي   بـأُخْـرى الـرزايـا فَهْـوَ يقـظانُ نـائم

فقال : ما قلت هذا إلا لتسلبنا الخاتم . ثم ألقاه إليه فبعثت زبيدة فاشترته منه بألف وستمائة دينار ، وبعثت به الى الرشيد وقالت : إن رأيتك معجباً به . فرده إلى المفضل والدنانير ، وقال : ما كنا لنهب شيئاً ونرجع فيه .

وقال الرشيد يوماً للعباس بن الأحنف : أي بيت قالت العرب أرق ؟ فقال : قول جميل في بثينة :

ألا لَـيْتَـنـي أعـمـى أصـمُّ تـقـودُني   بُـثَيْـنَـةُ لا يـخـفـى عـليَّ كـلامُـهـا

فقال له الرشيد : أرق منه قولك في مثل هذا :

طـافَ الهـوى في عبـادِ الله كلِّهـمِ   حتى إذا مـرَّ بـي من بـينـهـمْ وَقَـفـا

فقال له العباس : فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذه كله :

أمـا يـكـفـيـكِ أنّـكِ تَـمْـلِكـيـنـي   وأنَّ الـنـاسَ كـلَّهـمْ عـبـيـدي

وأنَّكِ لـو قـطعتِ يـدي ورِجـلي   لـقـلتُ مِـنَ الهـوَى أحسَنْتِ زِيـدي

قال : فضحك الرشيد وأعجبه ذلك . ومن شعر الرشيد في ثلاث حظيات كنَّ عنده من

---

(١) جامات : مفردها جام ، أي الكأس (فارسية) .

الخواص قوله :

مـلكَ الثـلاثُ الـنـاشـآتُ عنـاني | وحللنَ مـن قـلبي بـكـلِّ مكـانِ
مـالي تُـطاوعني البَـرِيَّـةُ كـلُّهـا | وأطيـعُـهـنَّ وهـنَّ في عـصيـانـي
مـا ذاكَ إلّا أنَّ سُـلطانَ الـهـوَى | وبـهِ قَـوِيـنَ أعـزُّ مِـنْ سُـلطانـي

ومما أورد له صاحب العقد في كتابه :

تبـدي الصدودَ وتخفي الحبَ عـاشقـةً | فـالنفسُ راضيـةٌ والـطرفُ غضبـانُ

وذكر ابن جرير وغيره أنه كان في دار الرشيد من الجواري والخطايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلاف جارية ، وأنهن حضرن يوماً بين يديه فغنته المطربات منهن فطرب جداً ، وأمر بمال فنثر عليهن . وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم في ذلك اليوم . رواه ابن عساكر أيضاً .

وروي أنه اشترى جارية من المدينة فأعجب بها جداً فأمر باحضار مواليها ومن يلوذ بهم ليقضي حوائجهم ، فقدموا عليه بثمانين نفساً فأمر الحاجب ـ وهو الفضل بن الربيع ـ أن يتلقاهم ويكتب حوائجهم ؛ فكان فيهم رجل قد أقام بالمدينة لأنه كان يهوى تلك الجارية ، فبعثت إليه فأتى به فقال له الفضل : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن يجلسني أمير المؤمنين مع فلانة فأشرب ثلاثة أرطال من خمر ، وتغنيني ثلاثة أصوات . فقال : أمجنون أنت ؟ فقال : لا ولكن اعرض حاجتي هذه على أمير المؤمنين . فذكر للرشيد ذلك فأمر باحضاره وأن تجلس معه الجارية بحيث ينظر إليهما ولا يريانه فجلست على كرسي والخدام بين يديها ، وأجلس على كرسي فشرب رطلاً وقال لها غنني :

خَليليَّ عُـوجـا[1] بـاركَ الله فيكمـا | وإنْ لمْ تكنْ هنـدٌ بـأرضِكُمـا قَصْـداً
وقـولا لهـا ليسَ الضـلالُ أجـازنـا | ولـكننـا جـزنـا لنـلقـاكُم عَـمـدا
غـداً يكثـر البـادون[2] منّـا ومنكـمْ | وتـزدادُ داري مِـنْ ديـارِكـمُ بُـعـداً

قال : فغنته ثم استعجله الخدم فشرب رطلاً آخر ، وقال : غنني جعلت فداك :

تـكلّمُ مـنّـا في الـوجـوهِ عـيـوننـا | فـنحنُ سكـوتٌ والـهـوى يـتـكـلمُ
ونغضبُ أحيـانـاً ونـرضى بـطرفنـا | وذلـكَ فـيـمـا بـيـنـنـا ليسَ يـعـلمُ

قال : فغنته : ثم شرب رطلاً ثالثاً وقال : غنني جعلني الله فداك :

---

(١) عوجا : ارجعا واعطفا .

(٢) البادون : الظاهرون .

أحسنَ ما كنّا تفرُّقنا وخاننا الدهرُ وما خنّا
فليتَ ذا الدهرَ لنّا مرةً عادَ لنا يوماً كما كُنا

قال : ثم قام الشاب إلى درجة هناك ثم ألقى نفسه من أعلاها على أم رأسه فمات . فقال الرشيد : عجل الفتى ، والله لو لم يعجل لوهبتها له .

وفضائل الرشيد ومكارمه كثيرة جداً . قد ذكر الأئمة من ذلك شيئاً كثيراً فذكرنا منه أنموذجاً صالحاً . وقد كان الفضيل بن عياض يقول : ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد ، لما أتخوف بعده من الحوادث ، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري قالوا : فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات ، وظهر القول بخلق القرآن ، فعرفنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك . وقد تقدمت رؤ ياه لذلك الكف وتلك التربة الحمراء وقائل يقول : هذه تربة أمير المؤمنين فكان موته بطوس . وقد روى ابن عساكر أن الرشيد رأى في منامه قائلاً يقول : كأني بهذا القصر قد باد أهله . الشعر إلى آخره .

وقد تقدم أن ذلك إنما رآه أخوه موسى الهادي . وأبوه محمد المهدي فالله أعلم .

وقدمنا أنه أمر بحفر قبره في حياته ، وأن تقرأ فيه ختمة تامة ، وحمل حتى نظر إليه فجعل يقول : إلى هنا تصير يا ابن آدم . ويبكي ، وأمر أن يوسع عند صدره وأن يمد من عند رجليه ، ثم جعل يقول : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾[1] ويبكي . وقيل : إنه لما احتضر قال : اللهم انفعنا بالاحسان ، واغفر لنا الاساءة ، يا من لا يموت ارحم من يموت . وكان مرضه بالدم ، وقيل بالسل ، وجبريل الطبيب يكتم ما به من العلة ، فأمر الرشيد رجلاً أن يأخذ ماءه في قارورة ويذهب به إلى جبريل فيريه إياه ، ولا يذكر له بول من هو ، فإن سأله قال : هو بول مريض عندنا . فلما رآه جبريل قال لرجل عنده : هذا مثل ماء ذلك الرجل . ففهم صاحب القارورة من عنى به ، فقال له : بالله عليك أخبرني عن حال صاحب هذا الماء . فإن لي عليه مالاً ، فإن كان به رجاء وإلا أخذت مالي منه . فقال : اذهب فتخلص منه فإنه لا يعيش إلا أياماً . فلما جاء وأخبر الرشيد بعث إلى جبريل فتغيب حتى مات الرشيد . وقال قال الرشيد وهو في هذه الحال :

إني بطوسٍ مقيمُ مالي بطوسٍ حميمُ أرجو إلَهي لما بي فإنهُ بي رحيمُ

لقد أتى بي طوساً قضاؤهُ المحتومُ وليسَ إلاّ رضائي والصبرُ والتسليمُ

مات بطوس يوم السبت لثلاث خلوَن من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وقيل إنه

---

(١) سورة الحاقة ، الآية/ ٢٨ ـ ٢٩ .

توفي في جمادى الأولى ، وقيل في ربيع الأول ، وله من العمر خمس ، وقيل سبع ، وقيل ثمان وأربعون سنة . ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية عشر يوماً . وقيل ثلاثة أشهر . وصلى عليه ابنه صالح ودفن بقرية من قرى طوس يقال لها سناباذ . وقال بعضهم : قرأت على خيام الرشيد بسناباذ والناس منصرفون من طوس من بعد موته .

مَنازِلُ العَسْكَرِ مَعْمورةٌ والمَنزِلُ الأعظَمُ مَهْجورُ
خَليفةُ الله بِدارِ البِلى تسعى على أجداثِهِ[1] المورُ[2]
أقبلتْ العيرُ[3] تُباهي بِهِ وانصرفتْ تندبُهُ العيرُ

وقد رثاه أبو الشيص فقال :

غَرَبتْ في الشَّرقِ شمسٌ فلها العَينانِ تَدْمعْ
ما رأينا قطُّ شمساً غَرَبتْ من حيثُ تَطلعْ

وقد رثاه الشعراء بقصائد . قال ابن الجوزي : وقد خلف الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحد من الخلفاء ، خلف من الجواهر والأثاث والأمتعة سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينار ، وخمسة وثلاثون ألف دينار . قال ابن جرير : وكان في بيت المال سبعمائة ألف ألف ونيف .

ذكر زوجاته وبنيه وبناته

تزوج أم جعفر زبيدة بنت عمه جعفر بن أبي جعفر المنصور ، تزوجها في سنة خمس وستين ومائة في حياة أبيه المهدي ، فولدت له محمداً الأمين . وماتت زبيدة في سنة ست عشرة ومائتين كما سيأتي . وتزوج [أمة العزيز] أم ولد كانت لأخيه موسى الهادي فولدت له علي بن الرشيد . وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين ، والعباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر فزفتا إليه في ليلة واحدة سنة سبع وثمانين ومائة بالرقة ، وتزوج عزيزة بنت الغطريف ، وهي بنت خاله أخي أمه الخيزران ، وتزوج ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العثمانية ، ويقال لها الجرُشية ، لأنها ولدت بجرش باليمن . وتوفي عن أربع : زبيدة ، وعباسة ، وابنة صالح ، والعثمانية هذه . وأما الحظايا من الجوار فكثير جداً حتى قال بعضهم : إنه كان في داره أربعة آلاف جارية سراري حسان .

وأما أولاده الذكور فمحمد الأمين بن زبيدة ، وعبد الله المأمون من جارية اسمها مراجل ، ومحمد أبو إسحاق المعتصم من أم ولد يقال لها ماردة ، والقاسم المؤتمن من جارية يقال لها

(١) أجداثه : قبوره .
(٢) المور : الغبار المتردِّد في الهواء و ـ التراب تثيره الريح .
(٣) العير : قافلة الحمير ، واطلقت على كلِّ قافلة .

قصف . وعليّ أمه أمة العزيز . وصالح من جارية اسمها رئم . ومحمد أبو يعقوب . ومحمد أبو عيسى . ومحمد أبو العباس . ومحمد أبو علي كل هؤلاء من أمهات أولاد . وكان من الاناث سكينة من قصف . وأم حبيب من ماردة . وأروى . وأم الحسن . وأم محمد وهي حمدونة وفاطمة وأمها غصص . وأم سلمة . وخديجة . وأم القاسم رملة . وأم علي . وأم الغالية . وريطة كلهن من أمهات أولاد .

خلافة محمد الأمين

لما توفي الرشيد بطوس في جمادى الآخرة من هذه السنة ـ أعني سنة ثلاث وتسعين ومائة كتب صالح بن الرشيد إلى أخيه ولي العهد من بعد أبيه محمد الأمين بن زبيدة وهو ببغداد يعلمه بوفاة أبيه ويعزيه فيه . فوصل الكتاب صحبة رجاء الخادم ومعه الخاتم والقضيب والبردة ، يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الآخرة ، فركب الأمين من قصره الخلد إلى قصر أبي جعفر المنصور ـ وهو قصر الذهب ـ على شط بغداد ، فصلى بالناس ثم صعد المنبر فخطبهم وعزاهم في الرشيد ، وبسط آمال الناس ووعدهم الخير . فبايعه الخواص من قومه ووجوه بني هاشم والأمراء ، وأمر بصرف أعطياتَ الجند عن سنتين ، ثم نزل وأمر عمه سليمان بن جعفر أن يأخذ له البيعة من بقية الناس فلما انتظم أمر الأمين واستقام حاله حسده أخوه المأمون ووقع الخلف بينهما على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

اختلاف الأمين والمأمون

كان السبب في ذلك أن الرشيد لما وصل إلى أول بلاد خراسان وهب جميع ما فيها من الحواصل والدواب والسلاح لولده المأمون ، وجدد له البيعة ، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتمر بكتب في خفية ليوصلها الى الأمراء إذا مات الرشيد ، فلما توفي الرشيد نفذت الكتب الى الأمراء وإلى صالح بن الرشيد ، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة ، فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين ، وارتحل الفضل بن الربيع بالجيش الى بغداد وقد بقي في نفوسهم تحرّج من البيعة التي أخذت للمأمون ، وكتب إليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه ، فوقعت الوحشة بين الأخوين ، ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين ، فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم ، وبعث إليه من هدايا خراسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك ،وهو نائبه عليها ، وقد أمر الأمين في صبيحة يوم السبت بعد أخذ البيعة يوم الجمعة ببناء ميدانين للصيد ، فقال في ذلك بعض الشعراء :ـ

بنى أمينُ الله ميداناً ... وصيّرَ الساحةَ بستاناً
وكانت الغزلانُ فيهِ بانا ... يهدي إليهِ فيهِ غزلاناً

وفي شعبان من هذه السنة قدمت زبيدة من الرقة بالخزائن وما كان عندها من التحف

والقماش من الرشيد ، فتلقاها ولدها الأمين الى الأنبار ومعه وجوه الناس . وأقر الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والري وغير ذلك ، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور ، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم .

وفيها مات نقفور ملك الروم ، قتله البرجان ، وكان ملكه تسع سنين ، وأقام بعده ولده استبراق شهرين فمات ، فملكهم ميخائيل زوج أخت نقفور لعنهم الله . وفيها تواقع هرثمة نائب خراسان ورافع بن الليث فاستجاش[1] رافع بالترك ثم هربوا وبقي رافع وحده فضعف أمره . وحج بالناس نائب الحجاز داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي . وفيها توفي :

إسماعيل بن علية

وهو من أئمة العلماء والمحدثين الرفعاء ، روى عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ، وقد ولي المظالم ببغداد ، وكان ناظر الصدقات بالبصرة ، وكان ثقة نبيلاً جليلاً كبيراً ، وكان قليل التبسم وكان يتجر في البز[2] وينفق على عياله منه ويحج منه ، ويبر أصحابه منه مثل السفيانين وغيرهما ، وقد ولاه الرشيد القضاء فلما بلغ ابن المبارك أنه تولى القضاء كتب إليه يلومه نظماً ونثراً ، فأستعفى ابن علية من القضاء فأعفاه . وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة ، ودفن في مقابر عبد الله بن مالك وفيها مات :

محمد بن جعفر

الملقب بغندر . روى عن شعبة وسعيد بن أبي عروبة وعن خلق كثير ، وعنه جماعة منهم أحمد بن حنبل ، وكان ثقة جليلاً حافظاً متقنا . وقد ذكر عنه حكايات تدل على تغفيله في أمور الدنيا ، كانت وفاته بالبصرة في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها . وقد لقب بهذا اللقب جماعة من المتقدمين والمتأخرين . وفيها توفي :

ابو بكر بن العياش

أحد الأئمة ، سمع أبا إسحاق السبيعي والأعمش وهشام وهمام بن عروة وجماعة . وحدث عنه خلق منهم أحمد بن حنبل . وقال يزيد بن هارون : كان حبراً[3] فاضلاً لم يضع جنبه الى الأرض أربعين سنة ، قالوا : ومكث ستين سنة يختم القرآن في كل يوم ختمة كاملة ، وصام ثمانين رمضاناً ، وتوفي وله ست وتسعون سنة . ولما احتضر بكى عليه ابنه فقال : يا بني علام تبكي ؟ والله ما أتى أبوك فاحشة قط .

---

(١) فاستجاش : فاستعان .

(٢) البز : الثياب من الكتّان أو القطن .

(٣) حبراً : العالم الصالح وهو مأخوذ من تحبير العلم وتحسينه .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

فيها خلع أهل حمص نائبهم فعزله عنهم الأمين وولى عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي فقتل طائفة من وجوه أهلها وحرق نواحيها ، فسألوه الأمان فأمنهم ثم هاجوا فضرب أعناق كثير منهم أيضاً . وفيها عزل الأمين أخاه القاسم عن الجزيرة والثغور ، وولى على ذلك خزيمة بن خازم ، وأمر أخاه بالمقام عنده ببغداد . وفيها أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر في سائر الأمصار ، وبالامرة من بعده ، وسماه الناطق بالحق ، ثم يدعى من بعده لأخيه المأمون ثم لأخيه القاسم ، وكان من نية الأمين الوفاء لأخويه بما شرط لهما ، فلم يزل به الفضل بن الربيع حتى غير نيته في أخويه ، وحسن له خلع المأمون والقاسم ، وصغر عنده شأن المأمون . وإنما حمله على ذلك خوفه من المأمون إن أفضت إليه الخلافة أن يخلعه من الحجابة . فوافقه الأمين على ذلك وأمر بالدعاء لولده موسى وبولاية العهد من بعده ، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة . فلما بلغ المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز ، وتنكر للأمين . وبعث رافع بن الليث إلى المأمون يسأل منه الأمان فأمنه فسار إليه بمن معه فأكرمه المأمون وعظمه ، وجاء هرثمة على إثره فتلقاه المأمون ووجوه الناس وولاه الحرس ، فلما بلغ الأمين أن الجنود التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره ، وكتب إلى المأمون كتاباً وأرسل إليه رسلاً ثلاثة من أكابر الأمراء ، سأله أن يجيبه الى تقديم ولده عليه ، وأنه قد سماه الناطق بالحق ، فأظهر المأمون الامتناع فشرع الأمراء في مطايبته وملاينته ، وأن يجيبهم إلى ذلك فأبى كل الأباء ، فقال له العباس بن موسى بن عيسى : فقد خلع أبي نفسه فماذا كان ؟ فقال المأمون إن أباك كان امرءاً مكروهاً ، ثم لم يزل المأمون يعد العباس ويمنيه حتى بايعه بالخلافة ، ثم لما رجع إلى بغداد كان يراسله بما كان من أمر الأمين ويناصحه ، ولما رجع الرسل إلى الأمين أخبروه بما كان من قول أخيه ، فعند ذلك صمم الفضل بن الربيع على الأمين في خلع المأمون ، فخلعه وأمر بالدعاء لولده في سائر البلاد ، وأقاموا من يتكلم في المأمون ويذكر مساويه ، وبعثوا إلى مكة فأخذوا الكتاب الذي كتبه الرشيد وأودعه في الكعبة ، فمزقه الأمين وأكد البيعة الى ولده الناطق بالحق على ما ولاه من الأعمال ، وجرت بين الأمين والمأمون مكاتبات ورسل يطول بسطها . وقد استقصاها ابن جرير في تاريخه ، ثم آل بهما الأمر إلى أن احتفظ كل منهما على.بلاده وحصنها وهيأ الجيوش والجنود وتألف الرعايا . وفيها غدرت الروم بملكهم ميخائيل فراموا خلعه وقتله فترك الملك وترهب وولوا عليهم اليون . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود بن عيسى ، وقيل علي بن الرشيد . وفيها توفي من الأعيان :

سالم بن سالم ابو بحر البلخي

قدم بغداد وحدث بها عن إبراهيم بن طهمان والثوري . وعنه الحسن بن عرفة . وكان عابداً زاهداً ، مكث أربعين سنة لم يفرش له فراش ، وصامها كلها إلا يومي العيد ، ولم يرفع رأسه الى

السماء ، وكان داعية الارجاء ضعيف الحديث ، إلا أنه كان رأساً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان قد قدم بغداد فأنكر على الرشيد وشنع عليه فحبسه وقيده باثني عشر قيداً ، فلم يزل أبو معاوية يشفع فيه حتى جعلوه في أربعة قيود ، ثم كان يدعو الله أن يرده إلى أهله . فلما توفي الرشيد أطلقته زبيدة فرجع ـ وكانوا بمكة قد جاؤ وا حجاجاً ـ فمرض بمكة . واشتهى يوماً برداً فسقط في ذلك الوقت برد حين اشتهاه فأكل منه . مات في ذي الحجة من هذه السنة .

وعبد الوهاب بن عبد المجيد

الثقفي كانت غلته في السنة قريباً من خمسين ألفاً ينفقها كلها على أهل الحديث . توفي عن أربع وثمانين سنة .

وابو النصر الجهني المصاب

كان مقيماً بالمدينة النبوية بالصفة من المسجد في الحائط الشمالي منه ، وكان طويل السكوت ، فإذا سئل أجاب بجواب حسن ، ويتكلم بكلمات مفيدة تؤثر عنه وتُكْتَب ، وكان يخرج يوم الجمعة قبل الصلاة فيقف على مجامع الناس فيقول : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اتقوا ربكمْ واخْشَوْا يوماً لا يجزِي والدٌ عن ولدِهِ ولا مولودٌ هو جازٍ عنْ والدِهِ شيئاً ﴾[1] . و﴿ يوماً لا تجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقْبَل منها شفاعةٌ ولا يُؤْخَذ منها عَدْلٌ ﴾[2] ثم ينتقل الى جماعة أخرى ثم إلى أخرى ، حتى يدخل المسجد فيصلي فيه الجمعة ثم لا يخرج منه حتى يصلي العشاء الآخرة .

وقد وعظ مرة هارون الرشيد بكلام حسن فقال : اعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فأعد لذلك جواباً ، وقد قال عمر بن الخطاب لو ماتت سخلة[3] بالعراق ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عنها . فقال الرشيد : إني لست كعمر ، وإن دهري ليس كدهره . فقال : ما هذا بمغن عنك شيئاً . فأمر له بثلثمائة دينار ، فقال : أنا رجل من أهل الصفة فمر بها فلتقسم عليهم وأنا واحد منهم .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

فيها في صفر منها أمر الأمين الناس أن لا يتعاملوا بالدراهم والدنانير التي عليها اسم أخيه المأمون و نهى أن يدعى له على المنابر ، وأن يدعى له ولولده من بعده : وفيها تسمى المأمون بامام المؤمنين . وفي ربيع الآخر فيها عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان الإمارة على الجبل وهمذان واصبهان وقم وتلك البلاد ، وأمره بحرب المأمون وجهز معه جيشاً كثيراً ، وأنفق فيهم نفقات

---

(١) سورة لقمان ، الآية/ ٣٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية/ ٤٨ .

(٣) سخلة : ولد الشاة .

عظيمة ، وأعطاه مائتي ألف دينار ، ولولده خمسين ألف دينار وألفي سيف محلى ، وستة آلاف ثوب للخلع . فخرج علي بن موسى بن ماهان من بغداد في أربعين ألف مقاتل فارس ، ومعه قيد من فضة ليأتي فيه بالمأمون . وخرج الأمين معه مشيعاً فسار حتى وصل الري فتلقاه الأمير طاهر في أربعة آلاف ، فجرت بينهم أمور آل الحال فيها أن اقتتلوا ، فقتل علي بن عيسى وانهزم أصحابه وحمل رأسه وجثته الى الأمير طاهر فكتب بذلك إلى وزير المأمون ذي الرياستين ، وكان الذي قتل علي بن عيسى رجل يقال له طاهر الصغير فسمى ذا اليمينين ، لأنه أخذ السيف بيديه الثنتيين فذبح به علي بن عيسى بن ماهان ، ففرح بذلك المأمون وذووه ، وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من دجلة ، فقال : ويحك دعني من هذا فإن كوثراً قد صاد سمكتين . ولم أصد بعد شيئاً . وأرجف[1] الناس ببغداد وخافوا غائلة هذا الأمر ، وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخيه المأمون ، وما وقع من الأمر الفظيع . وكان رجوع الخبر إليه في شوال من هذه السنة . ثم جهز عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في عشرين ألفاً من المقاتلة إلى همذان ليقاتلوا طاهر بن الحسين بن مصعب ومن معه من الخراسانية ، فلما اقتربوا منهم تواجهوا فتقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى بينهم ، ثم انهزم اصحاب عبد الرحمن بن جبلة فلجأوا الى همذان فحاصرهم بها طاهر حتى اضطرهم الى أن دعوا الى الصلح ، فصالحهم وأمنهم ووفى لهم ، وانصرف عبد الرحمن بن جبلة على أن يكون راجعاً إلى بغداد ، ثم غدروا بأصحاب طاهر وحملوا عليهم وهم غافلون فقتلوا منهم خلقاً وصبر لهم أصحاب طاهر ثم نهضوا اليهم وحملوا عليهم فهزموهم وقتل أميرهم عبد الرحمن بن جبلة ، وفر أصحابه خائبين .

فلما رجعوا الى بغداد اضطربت الأمور وكثرت الأراجيف[2] ، وكان ذلك في ذي الحجة من هذه السنة ، وطرد طاهر عمال الأمين عن قزوين وتلك النواحي ، وقوي أمر المأمون جداً بتلك البلاد ، وفي ذي الحجة من هذه السنة ظهر أمر السفياني بالشام ، واسمه علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فعزل نائب الشام عنها ودعا الى نفسه ، فبعث إليه الأمين جيشاً فلم يقدموا عليه بل أقاموا بالرقة ، ثم كان من أمره ما سنذكره . وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود بن عيسى . وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان منهم :

إسحاق بن يوسف الأزرق

أحد أئمة الحديث . روى عنه أحمد وغيره . ومنهم :

---

١) وأرجف : خاضوا في الأخبار السيئة والفِتَن قصد تهييج الناس .

٢) الأراجيف : الأخبار المختلقة الكاذبة .

بكار بن عبد الله

ابن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير ، كان نائب المدينة للرشيد ثنتي عشرة سنة وشهراً ، وقد أطلق الرشيد على يديه لأهلها ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار ، وكان شريفاً جواداً معظماً . وفيها توفي :

أبو نواس الشاعر

واسمه الحسن بن هانيء بن صباح بن عبد الله بن الجراح بن هنب بن داود بن غنم بن سليم ، ونسبه عبد الله بن سعد إلى الجراح بن عبد الله الحكمي ، ويقال له أبو نواس البصري ، كان أبوه من أهل دمشق من جند مروان بن محمد ، ثم صار إلى الأهواز وتزوج امرأة يقال لها خلبان ، فولدت له أبا نواس وابناً آخر يقال له أبا معاذ ، ثم صار أبو نواس الى البصرة فتأدب بها على أبي زيد وأبي عبيدة ، وقرأ كتاب سيبويه ولزم خلفاً الأحمر ، وصحب يونس بن حبيب الجرمي النحوي . وقد قال القاضي ابن خلكان : صحب أبا أسامة وابن الحباب الكوفي ، وروى الحديث عن أزهر بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الواحد بن زياد ومعتمر بن سليمان ، ويحيى القطان . وعنه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي . وحدث عنه جماعة منهم الشافعي وأحمد بن حنبل وغندر ومشاهير العلماء ومن مشاهير حديثه ما رواه محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفي عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ، فإن حسن الظن بالله ثمن الجنة » . وقال محمد بن إبراهيم : دخلنا عليه وهو في الموت فقال له صالح بن علي الهاشمي : يا أبا علي ! أنت اليوم في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة ، وبينك وبين الله هنات ، فتب إلى الله من عملك . فقال : اياي تخوّف ؟ بالله اسندوني . قال : فأسندناه فقال : حدّثني حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن انس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي شفاعة وإني أختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة » . ثم قال : أفلا تراني منهم . وقال أبو نواس : ما قلت الشعر حتى رويت عن ستين امرأة منهن خنساء وليلى ، فما الظن بالرجال ؟ وقال يعقوب بن السكيت ، إذا رويت الشعر عن امرىء القيس والأعشى من أهل الجاهلية ، ومن الاسلاميين جرير والفرزدق ، ومن المحدثين عن أبي نواس فحسبك . وقد أثنى عليه غير واحد منهم الأصمعي والجاحظ والنظام ، قال أبو عمرو الشيباني : لولا ن أبا نواس أفسد شعره بما وضع فيه من الأقذار لاحتججنا به ـ يعني شعره الذي قاله في الخمريات المردان[1] ، وقد كان يميل إليهم ـ ونحو ذلك مما هو معروف في شعره . واجتمع طائفة من لشعراء عند المأمون فقيل لهم : أيكم القائل :

---

[1] المردان : مفردها الأمرد : وهو الشاب طرّ شاربه ولم تنبت لحيته .

فلمّا تحسّاها وقفْنا كأنّنا نرى قمَراً في الأرضِ يبلغُ كوكبا

قالوا : أبو نواس . قال : فأيكم القائل :-

إذا نزلتْ دونَ اللهاة مِن الفتى دعى همَّهُ عن قلبهِ برحيلِ

قالوا أبو نواس . قال : فأيكم القائل :-

فتمشَّتْ في مفاصِلِهِمْ كتمشّي البُرْءِ[1] في السقمِ

قالوا : أبو نواس . قال : فهو أشعركم . وقال سفيان بن عيينة لابن مناذر : ما أشعر ظريفكم أبا نواس في قوله :

يا قمراً أبصرتُ في مأتمٍ يندُبُ شجْواً بينَ أتراب
أبرزَهُ المأتمُ لي كارهاً برغمِ ذي بابٍ وحُجَّاب
يبكي فيذري الدُرَّ من عينه ويلطِمُ الوردَ بعُناب
لا زال موتاً دأبُ أحبابِهِ ولم تزل رؤيتُهُ دابي

قال ابن الأعرابي أشعر الناس أبو نواس في قوله :-

تستَّرتْ من دهري بكلّ جَنَاحِهِ فعيني تَرَى دَهري وليسَ يَراني
فلو تسألِ الأيّام عنّي ما دَرَتْ وأينَ مكاني ما عَرَفْنَ مكاني

وقال أبو العتاهية : قلت في الزهد عشرين ألف بيتِ ، وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وهي هذه، وكانت مكتوبة على قبره :

يا نُواسيُّ توقَّرْ أو تغيَّرْ أو تصبَّرْ
إن يكنْ ساءكَ دهرٌ فلمَا سرَّكَ أكثرْ
يا كثيرَ الذنْبِ عفوُ الله منْ ذنبكَ أكبرْ

ومن شعر أبي نواس يمدح بعض الأمراء :

أوجَدَهُ الله فما مثلُهُ بطالبٍ ذاكَ ولا ناشدِ
ليسَ على الله بمستنْكَرٍ أن يجمعَ العالمَ في واحدِ

وأنشدوا سفيان بن عيينة قول أبي نواس :

ما هوى إلا لهُ سببُ يبتدى منهُ وينْشَعِبُ

---

(١) البُرْء : الشفاء .

فـتَـنَـتْ قـلبـي مـحـجـبـةٌ وجـهُـهـا بـالحسنِ مـنـتـقِـبُ
خِـلتـهُ والـحـسنُ تـأخـذُهُ تَـنْـتـقـي مـنـهُ وتـنـتـخِـبُ
فـاكـتـسـتْ مـنـهُ طـرائـفـهُ واسـتـردَّتْ بـعضَ مـا تهـبُ
فـهـي لـو صـيِّـرتُ فـيـهِ لهـا عـودةً لم يَـثْـنهـا أربُ[1]
صـار جِـدّاً مـا مـزحـتُ بـهِ ربَّ جِـدٍّ جـرَّهُ الـلعـبُ

فقال ابن عيينة : آمنت بالذي خلقها . وقال ابن دريد قال أبو حاتم : لو أن العامة بدلت هذين البيتين كتبتهما بماء الذهب :

ولـو أني استـزدتـكَ فـوقَ مـا بي مِـنَ الـبـلوى لأعـوزَكَ الـمـزيـدُ
ولـو عُـرِضت على المـوتى حياتي بِعيشٍ مـثـل عيشـي لـم يُـريـدوا

وقد سمع أبو نواس حديث سهيل عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قال : « القلوب جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فنظم ذلك في قصيدة له فقال :

إنَّ الـقـلوبَ لأجـنـادٌ مـجـنـدةٌ لله في الأرضِ بـالأهـواءِ تعـتـرفُ
فمـا تنـاكـرَ منهـا فـهـوَ مختلفٌ ومـا تـعـارف منـهـا فهـو مُـؤْتـلفُ

ودخل يوماً أبو نواس مع جماعة من المحدثين على عبد الواحد بن زياد فقال لهم عبد الواحد ليختر كل واحد منكم عشرة أحاديث أحدثه بها ، فاختار كل واحد عشرة إلا أبا نواس ، فقال له : مالك لا تختار كما اختاروا ؟ فأنشأ يقول :

ولـقـدْ كـنـا روَيْـنـا عـنْ سـعـيـد عـن قـتـادة
عـن سـعـيـد بـن المسيَّـ ـبِ ثـمَ سـعـدِ بـنِ عـبـادةْ
وعـن الـشـعـبـي والـشـعـ ـبـيُ شـيـخُ ذو جـلادة[2]
وعـن الأخـيـار نـحـكـيـ ـهِ وعـن أهـلِ الافـادةْ
أنَّ مـن مـاتَ محـبّـاً فـلهُ أجـرُ شـهـادةْ

فقال له عبد الواحد : قم عني يا فاجر ، لا حدثتك ولا حدثت أحداً من هؤلاء من أجلك . فبلغ ذلك مالك بن أنس وإبراهيم بن يحيى فقالا : كان ينبغي أن يحدثه لعل الله أن يصلحه .

قلت : وهذا الذي أنشده أبو نواس قد رواه ابن عدي في كامله عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً «من عشق فعف فكتم فمات مات شهيداً » ومعناه أن من ابتلى بالعشق من غير اختيار منه فصبر وعف

(١) أرب : غاية وحاجة .
(٢) جلادة : القوة ، الشدة ، الصبر .

عن الفاحشة ولم يفش ذلك فمات بسبب ذلك حصل له أجر كثير . فان صح هذا كان ذلك له نوع شهادة والله أعلم .

وروى الخطيب أيضاً أن شعبة لقي أبا نواس فقال له : حدّثنا من طرفك ، فقال مرتجلاً :حدّثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر ومسعر عن بعض أصحابه يرفعه الشيخ الى عامر قالوا جميعاً : أيما طفلة علقها ذو خلق طاهر فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكر ، كانت له الجنة مفتوحة يرتع في مرتعها الزاهر ، وأي معشوق جفا عاشقاً بعد وصال دائم ناصر ! ففي عذاب الله بعداً له نعم وسحقاً دائم ذاخر ، فقال له شعبة : إنك لجميل الأخلاق ، وإني لأرجو لك . وأنشد أبو نواس أيضاً .

يا ساحرَ المقلَتيْنِ والجِيدِ ... وقاتلي منكَ بالمواعيدِ
تُوعِدُني الوصلَ ثم تُخْلِفُني ... ويلايَ من خُلفكَ موعودي
حدّثني الأزرقُ المحدِّث عنْ ... شهرٍ وعوفٍ عن ابنِ مسعودِ
ما يُخلفُ الوعدَ غيرُ كافرةٍ ... وكافرٍ في الجحيم مصفودِ[1]

فبلغ ذلك إسحاق بن يوسف الأزرق فقال : كذب عدو الله علي وعلى التابعين وعلى أصحاب محمد ﷺ . وعن سليم بن منصور بن عمار قال : رأيت أبا نواس في مجلس أبي يبكي بكاء شديداً فقلت : إني لأرجو أن لا يعذبك الله بعد هذا البكاء فأنشأ يقول :

لم أبكِ في مجلسِ منصور ... شوقاً إلى الجنة والحورِ
ولا مِن القبر وأهوالهِ ... ولا من النفخةِ في الصورِ
ولا مِنَ النارِ وأغلالها ... ولا مِن الخذلان والجورِ
لكنْ بكائي لبكا شادنٍ[2] ... تقيهِ نفسي كلَّ محذورِ

ثم قال : إنما بكيت لبكاء هذا الأمرد[3] الذي إلى جانب أبيك ـ وكان صبياً حسن الصورة يسمع الوعظ فيبكي خوفاً من الله عز وجل ـ

قال : أبو نواس : دعاني يوماً بعض الحاكة وألح علي ليضيفني في منزله ، ولم يزل بي حتى أجبته فسار إلى منزله وسرت معه فإذا منزل لابأس به ، وقد احتفل الحائك في الطعام وجمع جمعاً من الحياك ، فأكلنا وشربنا ثم قال : يا سيدي أشتهي أن تقول في جاريتي شيئاً من الشعر ـ وكان مغرماً بجارية له ـ قال فقلت ارنيها حتى انظم على شكلها وحسنها ، فكشف عنها فإذا هي أسمج خلق

---

(١) مصفود : مقيَّد بالقيود .

(٢) شادن : ولد الظبية .

(٣) الأمرد : الشاب طرَّ شاربه ولم تنبت لحيته .

الله وأوحشهم ، سوداء شمطاء[1] ديدانية يسيل لعابها على صدرها . فقلت لسيدها : ما اسمها ؟ فقال تسنيم ، فأنشأت أقول :

أسهر ليل حبُّ تسنيم	جاريةٍ في الحسنِ كالبومِ
كأنما نُكْهَتها [2] كامخٌ[3]	أو حزمةٌ من حزمِ الثومِ
ضرَطتُ من حبّي لها ضَرْطةً	أفزعتُ منها ملكَ الرومِ

قال فقام الحائك يرقص ويصفق سائر يومه ويفرح ويقول : إنه شبهها والله بملك الروم . ومن شعره أيضاً[4] :

أبرمني الناسُ يقولونَ	بزعمهمْ كثرتْ اوزاريهْ[5]
إنْ كنتُ في النارِ أم في جنةٍ	ماذا عليكم يا بني الزانيهْ

وبالجملة فقد ذكروا له أموراً كثيرة ، ومجونا وأشعاراً منكرة ، وله في الخمريات والقاذورات والتشبب بالمردان[6] والنسوان أشياء بشعة شنيعة ، فمن الناس من يفسقه ويرميه بالفاحشة ، ومنهم من يرميه بالزندقة ، ومنهم من يقول : كان إنما يخرب على نفسه ، والأول أظهر ، لما في أشعاره . فأما الزندقة فبعيدة عنه ، ولكن كان فيه مجون وخلاعة كثيرة . وقد عزوا إليه في صغره وكبره أشياء منكرة الله أعلم بصحتها ، والعامة تنقل عنه أشياء كثيرة لا حقيقة لها . وفي صحن جامع دمشق قبة يفور منها الماء يقول الدماشقة قبة أبي نواس ، وهي مبنية بعد موته بأزيد من مائة وخمسين سنة ، فما أدري لأي شيء نسبت إليه فالله أعلم بهذا.

وقال محمد بن أبي عمر : سمعت أبا نواس يقول : والله ما فتحت سراويلي لحرام قط . وقال له محمد الأمين بن الرشيد : أنت زنديق . فقال : يا أمير المؤمنين لست بزنديق وأنا أقول :

أصلي الصلاةَ الخمسَ في حينِ وقتها	وأشهدُ بالتوحيدِ لله خاضعا
وأحسنُ غسلي إنْ ركبتُ جنابةً	وإن جاءني المسكين لم أكُ مانعا
وإني وإنْ حانتْ من الكأسِ دعوةً	إلى بيعةِ الساقي أجبتُ مسارعاً
وأشربها صرفاً على جنب ماعزٍ	وجدي كثيرِ الشحمِ أصبحَ راضعا
وجوذاب[7] حوّاري ولوزٍ وسكّرٍ	وما زالَ للخمارِ ذلكَ نافعا

---

(١) شمطاء : المرأة التي خالط بياض رأسها سواد . (٢) نكهتها : رائحة فمها .

(٣) كامخ : أدام يُؤْتَدَم به . وخصَّه بعضهم بالمخلَّلات التي تُسْتَعْمل لتشهِّي الطعام (فارسية) .

(٤) في البيت تحريف .

(٥) أوزاريه : ذنوبي وآثامي .

(٦) بالمردان : مفردها الأمرد .

(٧) وجوذاب : نوع من الحلوى .

وأجعلَ تخليطَ الروافضِ كلّهم | لنفخة بختيشوعَ في النارِ طائعا

فقال له الأمين : ويحك ! وما الذي ألجأك إلى نفخة بختيشوع ؟ فقال : به تمت القافية . فأمر له بجائزة . وبختيشوع الذي ذكره هو طبيب الخلفاء . وقال الجاحظ : لا أعرف في كلام الشعراء أرق ولا أحسن من قول أبي نواس حيث يقول :

أيّـةُ نـارٍ قـدَحَ الـقـادحُ | وأيَّ جـدٍ بـلـغَ المـازحُ
لله درُّ الـشـيـبُ مِـنْ واعظٍ | ونـاصحٍ لـو خطِىءَ النـاصحُ
يـأبـى الفتَى إلا اتبـاعَ الهـوى | ومـنـهـجُ الحـق لـهُ واضـحُ
فـاسمُ بـعـيـنيـكَ إلى نـسـوةٍ | مُـهـورهـنَّ الـعَـمَـلُ الصـالـحُ
لا يجتلي الحوراءَ[1] في خِدْرِها[2] | إلا امـرؤٌ مـيـزانُـهُ راجـحُ
مَـنْ اتـقـى الله فـذاكَ الـذي | سيقَ إليـهَ الـمـتـجـر الـرابـحُ
فـاغـدُ فمـا في الـدينِ أغلوطـةٌ | وزحْ لـمـا أنـتَ لـهُ رائـحُ

وقد استنشده أبو عفان قصيدته التي في أولها : لا تنس ليلى ولا تنظر إلى هند . فلما فرغ منها سجد له أبو عفان ، فقال له أبو نواس : والله لا أكلمك مدة . قال : فغمني ذلك ، فلما أردت الانصراف قال : متى أراك ؟ فقلت : ألم تقسم ؟ فقال : الدهر أقصر من أن يكون معه هجر .

ومن مستجاد شعره قوله :

ألا ربَّ وجـهٍ في الـتـرابِ عـتـيـقِ | ويـا رب حسنٍ في التـرابِ رقـيـقِ
ويـا ربَّ حـزمٍ في التـرابِ ونجـدةٍ | ويـا ربَّ رأيٍ في الـتـراب وثـيـقِ
فقـلْ لقـريـبِ الـدارِ إنـكَ ظـاعنٌ | إلى سفـرٍ نـائي المحـلِّ سحيقِ[3]
أرى كـل حيٍّ هـالكـاً وابنَ هـالـكٍ | وذا نـسبٍ في الـهـالـكـينَ عـريـقِ
إذا امتحـنَ الـدنيـا لـبيبٌ تكـشفـتْ | لـهُ عـنْ عـدو في لـبـاسِ صـديقِ

وقوله :

لا تَشْـرَهَنَ فـانَّ الـذلَّ فـي الشَّـرَهِ | والعزُّ في الحِلْمِ لا في الطيشِ والسَّفَهِ[4]
وقـلْ لـمغـتبطٍ فـي التيـهِ من حمقٍ | لـو كنتَ تعلمُ مـا في التيهِ لم تتـهِ
التيـهَ مـفسـدةٌ لـلدينِ منـقصـةٌ | للعقـلِ مهلكـةٌ للعـرضِ فـانتبـهِ

---

(١) الحوراء : هي التي اشتد بياض عينها وسواد عينها .
(٢) خدرها : خباؤها .
(٣) سحيق : عميق .
(٤) والسَّفه : الضلالة .

وجلس أبو العتاهية القاسم بن إسماعيل على دكان وراق فكتب على ظهر دفتر هذه الأبيات :

أيـا عـَجبـاً كـيـفَ يُعصـى الالـ ـهَ أمْ كـيفَ يـجحـدهُ الـجـاحـدُ
وفـي كـلِ شـيءٍ لـهُ آيـةٌ تـدلُ عـلى أنـهُ الـواحـدُ

ثم جاء أبو نواس فقرأها فقال : أحسن قائله والله . والله لوددت أنها لي بجميع شيء قلته ، لمن هذه ؟ قيل له : لأبي العتاهية ، فأخذ فكتب في جانبها :

سُبـحـانَ مـن خَـلَقَ الـخَلْـ ـقَ مـن ضـعـفٍ مـهـيـنِ
يـسُـوقـهُ مِـنْ قـرارٍ إلـى قـرارٍ مـكـيـنِ[1]
يـخـلُقُ شـيـئاً فـشـيـئاً في الـحـجـبِ دونَ الـعـيـونِ
حـتـى بـدتْ حـركـاتٌ مـخـلوقـةٌ فـي سـكـونِ

ومن شعره المستجاد قوله :

انقـطعتْ شـدتي فعفتُ المـلاهي إذ رمى الشَّيبُ مفـرقي بـالـدواهي[2]
وَنَهَتْني النُّهى[3] فَمِلْتُ إلى العـذْلِ وأشـفـقـتُ مِـنْ مـقـالـةِ نـاهـي
أيهـا الغـافـلُ المقِـرُّ على السهـوِ ولا عـذرَ في المعـادِ لِسَـاهي[4]
لا بـأعـمـالِنـا نُـطيـقُ خَـلاصـاً يـومَ تبـدو السمـاءُ فـوقَ الجِبـاهِ
عـلى أنّـا عَـلى الاسـاءةِ والـتّـفـ ريطِ نـرجـو من حسنِ عفـوِ الالـهِ

وقوله :

نـمـوتُ ونبـلى غـيـرَ أنَ ذُنـوبَـنـا إذا نـحنُ متنـا لا تـمـوتُ ولا تبـلى
ألا ربَّ ذي عـيـنـيـنِ لا تـنـفـعـانـهِ ومـا تنفـعُ العينـانِ مَنْ قلبـهُ أعمى

وقوله :

لـو أنَّ عـينـاً أوهـمـتـهـا نـفـسـهـا يـومَ الحسـابِ مـمثـلاً لـم تـطرفِ
سبحـانَ ذي الـملكـوتِ أيـة لـيـلةٍ محقتْ صبيحتهـا بـيـومِ الـمـوقـفِ
كـتـبَ الـفـنـاءَ عـلى الـبـرَّيـةِ ربـهـا فـالـنـاسُ بـيـنَ مـقـدمٍ ومـخـلفِ

وذكر أن أبا نواس لما أراد الاحرام بالحج قال :

يـا مالِكـاً مـا أَعْـدلَـكْ مليكَ كلِ منْ ملكَ لبّيكَ إن الحمدَ لَـكْ والملكَ لا شريك لك

---

(١) مكين : هادىء ثابت .

(٢) بالدواهي : المصايب .

(٣) النهى : العقل .

(٤) لساهي : من أخذه الشُّبات بلادةً أو ذهولاً .

عبدُكَ قدْ أهـلَّ لـكَ أنتَ لهُ حيثُ سلكْ لـولاكَ يا ربُّ هَلَكْ لبيكَ إن الحمد لك
والملكْ لا شريكَ لكْ والليلُ لما أنْ حلكْ والسابحاتِ في الفَلكْ على مجاري تنسلك
كـل نـبـيٍ ومـلْك وكـل من أهلّ لـكْ سبـحَ أو صلى فَلَكْ لبيّك إن الحمدَ لك
والملكُ لا شريكَ لكْ يا مخطئاً ما أجهلكْ عصيتَ ربـاً عـدَلـكْ وأقـدَرَكْ وأمهلك
عـجّـلْ وبـادرْ أَمَلكْ واختمْ بخيرٍ عَمَلَكْ لبّيكَ إنَّ الحمدَ لـكْ والملك لا شريك لك

وقال المعافي بن زكريا الحريري : ثنا محمد بن العباس بن الوليد سمعت أحمد بن يحيى بن ثعلب يقول : دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلاً تهمه نفسه لا يحب أن يكثر عليه كأن النيران قد سعرت بين يديه ، فما زلت أترفق به وتوسلت إليه أني من موالى شيبان حتى كلمني ، فقال : في أي شيء نظرت من العلوم ؟ فقلت : في اللغة والشعر . قال : رأيت بالبصرة جماعة يكتبون عن رجل الشعر ، قيل لي هذا أبو نواس . فتخللت الناس ورائي فلما جلست إليه أملى علينا :

إذا مـا خلوتَ الـدهـر يـومـاً فـلا تقـلْ خـلـوتُ ولـكـنْ في الخـلاءِ رقـيـبُ
ولا تحْـسِبـنَّ الله يـغـفـلُ سـاعـةً ولا آثـمـاً يخـفـي عـلـيـهِ يـغـيـبُ
لَهَـونـا عـن الآثـام حتى تـتـابـعـتْ ذنـوبٌ عـلى آثـارهـنَ ذنـوبُ
فـيـا ليـتَ أنَّ الله يغـفـر مـا مضى ويـأذنُ في تَـوْبـاتِـنـا فـنـتـوبُ

وزاد بعضهم في رواية عن أبي نواس بعد هذه الأبيات :

أَقـولُ إذا ضـاقـتْ عـليَّ مـذاهـبي وحـلتْ بقـلبي لـلهـمـومِ نـدوبُ[1]
لـطولِ جنايـاتي وعُـظْمِ خَـطيئتي هَلَكتُ ومـالي في المتـابِ نـصيبُ
واغـرقُ في بحـرِ المخـافـةِ آيسـاً[2] وتـرجـعُ نـفـسـي تـارةً فـتـتـوبُ
وتـذكـرني عفـو الكـريمِ عن الـورى فـأحيـا وأرجـو عفـوه فـأنـيبُ[3]
وأخضـعُ في قـولي وأرغبُ سـائـلاً عسى كـاشـفُ البـلوى عليّ يـتـوبُ

قال ابن طراز الجريري : وقد رويت هذه الأبيات لمن ؟ قيل لأبي نواس وهي في زهدياته . وقد استشهد بها النحاة في أماكن كثيرة قد ذكرناها . وقال حسن بن الداية : دخلت على أبي نواس وهو في مرض الموت فقلت : عظني . فأنشأ يقول :

فَكَثِّرْ مـا استـطعتَ مِنَ الخطايـا فـإنـكَ لاقـيـاً ربـاً غـفـوراً
ستبـصـرُ إن وردتَ عليـهِ عـفـواً وتـلقـى سـيـداً مـلكـاً قـديـراً

---

(١) ندوب : مصايب .
(٢) آيساً : اليأس .
(٣) فأنيب : فاعود وأرجع تائباً .

تعضُ ندامةً كفيكَ مما ... تركتُ مخافةَ النارِ الشرورا

فقلت: ويحك! بمثل هذا الحال تعظني بهذه الموعظة؟ فقال: اسكت حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قال النبي ﷺ : « ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » . وقد تقدم بهذا الاسناد عنه « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » . وقال الربيع وغيره عن الشافعي قال : دخلنا على أبي نواس في اليوم الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فقلنا : ما أعددت لهذا اليوم ؟ فأنشأ يقول :

تعاظمني ذنبي فلما قَرَنْتُهُ ... بعفوكَ ربي كانَ عفوكَ أعظَما

وما زلتَ ذا عفو عن الذنبِ لم تزلْ ... تجودُ وتعفو منَّةً وتكرُّما

ولولاكَ لم يقدرْ لابليسَ عابدٌ ... وكيفَ وقد أغوى صفيكَ آدما

رواه ابن عساكر . وروى أنهم وجدوا عند رأسه رقعة مكتوبا فيها بخطه :

يا ربِّ إن عظمتْ ذنوبي كثرةً ... فلقدْ علمتُ بأن عفوكَ أعظمُ

أدعوكَ ربي كما أمرتَ تضرعاً ... فاذا رددتَ يدي فمن ذا يرحمُ

انْ كانَ لا يرجوكَ إلا محسنٌ ... فمنْ الذي يرجو المسيءُ المجرمُ

مالي إليكَ وسيلةٌ إلا الرجا ... وجميلُ عفوكَ ثم أني مسلمُ

وقال يوسف بن الداية : دخلت عليه وهو في السياق فقلت : كيف تجدك ؟ فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال :

دبَّ فيَّ الفناءُ سفلاً وعلواً ... وأراني أموتُ عضواً فعضواً

ليسَ يمضي مِنَ لحظةٍ بي إلاّ ... نقصتني بمرها فيّ جزواً

ذَهبتْ جِدتي بلذّةِ عَيْشي ... وتذكَّرت طاعة الله نضواً

قدْ أسأنا كلَّ الإساءةِ فاللـ ... ـهمَّ صَفْحاً عنّا وغَفْراً وعَفواً

ثم مات من ساعته سامحنا الله وإياه آمين .

وقد كان نقش خاتمه لا إله إلا الله مخلصاً ، فأوصى أن يجعل في فمه إذا غسلوه ففعلوا به ذلك . ولما مات لم يجدوا له من المال سوى ثلثمائة درهم وثيابه وأثاثه ، وقد كانت وفاته في هذه السنة ببغداد ودفن في مقابر الشونيزي في تل اليهود . وله خمسون سنة . وقيل ستون سنة ، وقيل تسع وخمسون سنة . وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بأبيات قلتها في النرجس :

تفكرْ في نباتِ الأرضِ وانظرْ ... إلى آثارِ ما صنعَ المليكُ

عيــونٌ مِنْ لُـجَيْـنٍ[1] شــاخـصــاتٌ ... بــأبـصــارٍ هيَ الــذهـبُ السـبيــكُ
على قضبِ الــزبـرجــدِ شاهــداتٌ ... بــأنَ الله لــيسَ لــهُ شــريــكُ

وفي رواية عنه أنه قال : غفر لي بأبيات قلتها وهي تحت وسادتي فجاؤ ا فوجدوها برقعة في خطه .

يــا ربِ إنْ عــظمـتْ ذنــوبي كـثـرةً ... فـلقــدْ عـلمــتُ أنَ عـفــوكَ أعــظمُ

الأبيات . وقد تقدمت . وفي رواية لابن عساكر قال بعضهم : رأيته في المنام في هيئة حسنة ونعمة عظيمة فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، قلت : بماذا وقد كنت مخلطاً على نفسك ؟ فقال : جاء ذات ليلة رجل صالح إلى المقابر فبسط رداءه وصلى ركعتين قرأ فيهما ألفي قل هو الله أحد ثم أهدى ثواب ذلك لأهل تلك المقابر فدخلت أنا في جملتهم ، فغفر الله لي . وقال ابن خلكان : أول شعر قاله أبو نواس لما صحب أبا أسامة والبة بن الحباب :

حـامـلُ الهـوى تعبٌ يستخفـهُ الـطربْ ... إن بكى يحقُّ لــهُ ليس مــا بــهِ لعبُ
تضحكينَ لاهيــةً والـمحبُ ينتحبْ ... تعجبينَ مِنْ سقمي صِحَّتى هيَ العَجَبُ

وقال المأمون : ما أحسن قوله :

ومـا النـاسُ إلا هــالـكٌ وابنُ هــالـكٍ ... وذو نـسبٍ فـي الهــالـكيـنَ عــريـقِ
إذا امتحـنَ الــدنيــا لـبيبٌ تكـشفـتْ ... لــهُ عـنْ عــدوٍ في لـبــاسِ صــديقِ

قال ابن خلكان : وما أشد رجاءه بربه حيث يقول :

تحمَّــل مــا استــطعت من الخـطايــا ... فــإنّــكَ لاقـيــاً ربّــاً غــفــوراً
ستـصبــر إن قــدمتَ عـليــه عـفــواً ... وتـلقـى سـيــداً مــلكــاً كـبـيــراً
تــعَضُّ نــدامــةً كــفَّــيــكَ ممــا ... تــركــتَ مخـافــة النــارِ الــشــرورا

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائة

فيها توفي أبو معاوية الضرير أحد مشايخ الحديث الثقات المشهورين . والوليد بن مسلم الدمشقي تلميذ الأوزاعي . وفيها حبس الأمين أسد بن يزيد لأجل أنه نقم على الأمين لعبه وتهاونه في أمر الرعية ، وارتكابه للصيد وغيره في هذا الوقت . وفيها وجه الأمين أحمد بن يزيد وعبد الله بن حميد بن قحطبة في أربعين ألفاً إلى حلوان لقتال طاهر بن الحسين من جهة المأمون ، فلما وصلوا إلى قريب من حلوان خندق طاهر على جيشه خندقاً وجعل يعمل الحيلة في إيقاع الفتنة بين

(١) لجين : الفضّة (مصّغراً لا مُكَبّر له) .

الأميرين ، فاختلفا فرجعا ولم يقاتلاه ، ودخل طاهر إلى حلوان وجاءه كتاب المأمون بتسليم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين ، وأن يتوجه هو إلى الأهواز . ففعل ذلك . وفيها رفع المأمون وزيره الفضل ابن سهل وولاه أعمالاً كباراً وسماه ذا الرياستين . وفيها ولى الأمين نيابة الشام لعبد الملك بن صالح ابن علي ـ وقد كان أخرجه من سجن الرشيد ـ وأمره أن يبعث له رجالاً وجنوداً لقتال طاهر وهرثمة ، فلما وصل إلى الرقة أقام بها وكتب إلى رؤوساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة ، فقدم عليه منهم خلق كثير ، ثم وقعت حروب كان مبدؤها من أهل حمص ، وتفاقم الأمر وطال القتال بين الناس ، ومات عبد الملك بن صالح هنالك فرجع الجيش إلى بغداد صحبة الحسين بن علي بن ماهان ، فتلقاه أهل بغداد بالاكرام ، وذلك في شهر رجب من هذه السنة . فلما وصل جاء رسول الأمين يطلبه فقال : والله ما أنا بمسامر ولا مضحك ، ولا وليت له عملاً ولا جبي على يدي مالاً ، فلماذا يطلبني في هذه الليلة ؟ .

سبب خلع الأمين وكيف افضت الخلافة الى اخيه المأمون

لما أصبح الحسين بن علي بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه ، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الشام ، قام في الناس خطيباً وألّبهم على الأمين ، وذكر لعبه وما يتعاطاه من اللهو وغير ذلك من المعاصي ، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله ، وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس ، ثم حثهم على القيام عليه والنهوض إليه ، وندبهم لذلك ، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير ، وبعث محمد الأمين إليه خيلاً فاقتتلوا ملياً من النهار ، فأمر الحسين أصحابه بالترجل إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيف والرماح ، فانهزم جيش الأمين وخلعه وأخذ البيعة لعبد الله المأمون ، وذلك يوم الأحد الحادي عشر من شهر رجب من هذه السنة ، ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد ، وضيق عليه وقيده واضطهده ، وأمر العباس بن عيسى بن موسى أمه زبيدة أن تنتقل إلى هناك فامتنعت فضربها بالسوط وقهرها على الانتقال فانتقلت مع أولادها ، فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن علي أعطياتهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين ، فرقة مع الأمين وفرقة عليه ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فغلب حزب الخليفة أولئك ، وأسروا الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وقيدوه ودخلوا به على الخليفة ففكوا عنه قيوده وأجلسوه على سريره ، فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحاً من الخزائن ، فانتهب الناس الخزائن التي فيها السلاح بسبب ذلك ، وأمر الأمين فأتى بالحسين بن علي بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك . فعفا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه الخاتم وولاه ما وراء بابه ، وولاه الحرب وسيره إلى حلوان ، فلما وصل إلى الجسر هرب في حاشيته وخدمه فبعث إليه الأمين من يرده ، فركبت الخيول وراءه فأدركوه فقاتلهم وقاتلوه فقتلوه لمنتصف رجب ، وجاؤا برأسه إلى الأمين ، وجدد الناس البيعة للأمين يوم الجمعة ، ولما قتل الحسين بن علي بن عيسى

هرب الفضل بن الربيع الحاجب واستحوذ طاهر بن الحسين على أكثر البلاد للمأمون ، واستناب بها النواب ، وخلع أكثر أهل الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون ، ودنا طاهر إلى المدائن فأخذها مع واسط وأعمالها ، واستناب من جهته على الحجاز واليمن والجزيرة والموصل وغير ذلك ، ولم يبق مع الأمين من البلاد إلا القليل . وفي شعبان منها عقد الأمين أربعمائة لواء مع كل لواء أمير ، وبعثهم لقتال هرثمة ، فالتقوا في شهر رمضان فكسرهم هرثمة وأسر مقدمهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك ، وبعث به إلى المأمون . وهرب جماعة من جند طاهر فساروا إلى الأمين فأعطاهم أموالاً كثيرة ، وأكرمهم وغلف لحاهم بالغالية فسموا جيش الغالية . ثم ندبهم الأمين وأرسل معهم جيشاً كثيفاً لقتال طاهر فهزمهم طاهر وفرق شملهم ، وأخذ ما كان معهم ، واقترب طاهر من بغداد فحاصرها وبعث القصاد والجواسيس يلقون الفتنة بين الجند حتى تفرقوا شيعاً ، ثم وقع بين الجيش وتشعبت الأصاغر[1] على الأكابر[2] واختلفوا على الأمين في سادس ذي الحجة فقال بعض البغاددة[3] :

قل لأمين الله في نفسه	ما شتتَ الجندَ سوى الغاليةْ
وطاهرٌ نفسي فدا طاهرٍ	برسلهِ والعدةِ الكافيةْ
أضحى زمامُ الملكِ في كفهِ	مقاتلاً للفئةِ الباغيةْ
يا ناكثاً أسلمهُ نكثُهُ	عيوبهُ في خبثهِ فاشيةْ
قدْ جاءكَ الليثُ بشداتهِ	مستكلباً في أسدٍ ضاريةْ
فاهربْ ولا مهربَ من مثلهِ	إلا إلى النارِ أوْ الهاويةْ

فتفرق على الأمين شمله ، وحار في أمره ، وجاء طاهر بن الحسين بجيوشه فنزل على باب الأنبار يوم الثلاثاء لثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة ، واشتد الحال على أهل البلد وأخاف الدعار والشطار أهل الصلاح ، وخربت الديار ، وثارت الفتنة بين الناس ، حتى قاتل الأخ أخاه للاهواء المختلفة ، والابن أباه ، وجرت شرور عظيمة ، واختلفت الأهواء وكثر الفساد والقتل داخل البلد .

وحج الناس فيها العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي من قبل طاهر ، ودعا للمأمون بالخلافة بمكة والمدينة ، وهو أول موسم دعي فيه للمأمون .

وفيها توفي بقية بن الوليد الحمصي إمام أهل حمص وفقيهها ومحدثها .

وحفص بن غياث القاضي

عاش فوق التسعين ، ولما احتضر بكى بعض أصحابه فقال له : لا تبك ! والله ما حللت

---

(١) الأصاغر : مفردها الأصغر . وهو إسم التفضيل من الصغير .

(٢) الأكابر : مفردها الأكبر . وهو اسم التفضيل من الكبير .

(٣) البغاددة : أهل بغداد .

سراويلي على حرام قط ، ولا جلس بين يدي خصمان فباليت على من وقع الحكم عليه منهما ، قريباً كان أو بعيداً ، ملكاً أو سوقة .

وعبد الله بن مرزوق أبو محمد الزاهد ، كان وزيراً للرشيد فترك ذلك كله وتزهد وأوصى عند موته أن يطرح قبل موته على مزبلة لعل الله أن يرحمه .

ابو شيص

الشاعر محمد بن رزين بن سليمان ، كان أستاذ الشعراء ، وإنشاء الشعر ونظمه أسهل عليه من شرب الماء ، كذا قال ابن خلكان وغيره . وكان هو وأبو مسلم بن الوليد ـ الملقب صريع الغواني ـ وأبو نواس ودعبل يجتمعون ويتناشدون . وقد عمي أبو الشيص في آخر عمره ، ومن جيد شعره قوله :

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتِ فليس لي ... متأخرٌ عنهُ ولا متقدّمُ
أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حباً لذكركِ فليلمني اللُّوّمُ
أشبهتُ أعدائي فصرتُ أحبّهم ... إذْ كانَ حظي منكِ حظي منهمُ
وأهنتني فأهنتُ نفسي صاغراً ... ما منْ يهونُ عليكِ ممن تكرمُ

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

استهلت هذه السنة وقد ألح طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ومن معهما في حصار بغداد والتضييق على الأمين ، وهرب القاسم بن الرشيد وعمه منصور بن المهدي إلى المأمون فأكرمهما ، وولى أخاه القاسم جرجان ، واشتد حصار بغداد ونصب عليها المجانيق والعرّادات[1] . وضاق الأمين بهم ذرعاً ، ولم يبق معه ما ينفق في الجند ، فاضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير ، وهرب كثير من جنده إلى طاهر ، وقتل من أهل البلد خلق كثير ، وأخذت أموال كثيرة منهم ، وبعث الأمين إلى قصور كثيرة ودور شهيرة مزخرفة وأماكن ومحال كثيرة فحرقها بالنار لما رأى في ذلك من المصلحة ، فعل كل هذا فراراً من الموت ولتدوم الخلافة له فلم تدم ، وقتل وخربت دياره كما سيأتي قريباً ، وفعل طاهر مثل ما فعل الأمين حتى كادت بغداد تخرب بكمالها ، فقال بعضهم في ذلك :

من ذا أصابك يا بغداد بالعينِ ... ألم تكوني زماناً قرةَ العينِ
ألم يكنْ فيكِ قومٌ كان مسكنهمْ ... وكانَ قربهمُ زيناً من الزينِ
صاحَ الغرابُ بهمْ بالبينِ فافترقوا ... ماذا لقيتِ بهمْ من لوعةِ البينِ

---

(١) والعرّادات : مفردها العَرّادة وهي آلة حربية لرمي الحجارة .

استودعُ الله قوماً ما ذكرتهمُ	إلا تحدرَ ماءُ العينِ منْ عيني
كانوا ففرقهمْ دهرٌ وصدعهم	والدهرُ يصدعُ ما بينَ الفريقينِ

وقد أكثر الشعراء في ذلك . وقد أورد ابن جرير من ذلك طرفاً صالحاً ، وأورد في ذلك قصيدة طويلة جداً فيها بسط ما وقع ، وهي هول من الأهوال اقتصرناها بالكلية .

واستحوذ طاهر على ما في الضياع من الغلات والحواصل للأمراء وغيرهم ، ودعاهم إلى الآمان والبيعة للمأمون فاستجابوا جميعهم ، منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ، ويحيى بن علي بن ماهان ، ومحمد بن أبي العباس الطوسي ، وكاتبه خلق من الهاشميين والأمراء ، وصارت قلوبهم معه . واتفق في بعض الأيام أن ظفر أصحاب الأمين ببعض اصحاب طاهر فقتلوا منهم طائفة عند قصر صالح ، فلما سمع الأمين بذلك بطر وأشر وأقبل على اللهو والشرب واللعب ، ووكل الأمور وتدبيرها إلى محمد بن عيسى بن نهيك ، ثم قويت شوكة أصحاب طاهر وضعف جانب الأمين جداً ، وانحاز الناس إلى جيش طاهر ـ وكان جانبه آمناً جداً لا يخاف أحد فيه من سرقة ولا نهب ولا غير ذلك ـ وقد أخذ طاهر أكثر محال بغداد وأرباضها، ومنع الملاحين أن يحملوا طعاماً الى من خالفه ، فغلت الأسعار جداً عند من خالفه ، وندم من لم يكن خرج من بغداد قبل ذلك ، ومنعت التجار من القدوم الى بغداد بشيء من البضائع أو الدقيق ، وصرفت السفن إلى البصرة وغيرها ، وجرت بين الفريقين حروب كثيرة ، فمن ذلك وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأمين ، قتل فيها خلق من أصحاب طاهر كان الرجل من العيارين والحرافشة[1] من البغاددة يأتي عرياناً ومعه بارية[2] مقيرة ، وتحت كتفه مخلاة فيها حجارة ، فإذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم اتقاه ببارية فلا يؤذيه ، وإذا اقترب منه رماه بحجر في المقلاع أصابه ، فهزموهم لذلك . ووقعة الشماسية أسر فيها هرثمة بن أعين ، فشق ذلك على طاهر وأمر بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية ، وعبر طاهر بنفسه ومن معه إلى الجانب الآخر فقاتلهم بنفسه أشد القتال حتى أزالهم عن مواضعهم ، واسترد منهم هرثمة وجماعة ممن كانوا أسروهم من أصحابه ، فشق ذلك على محمد الأمين وقال في ذلك :ـ

منيتُ بأشجعِ الثقلينِ قلباً	إذا ما طالَ ليسَ كما يطولُ
لهُ معَ كلِ ذي بدنٍ رقيبٌ	يشاهدهُ ويعلمُ ما يقولُ،
فليسَ بمغفلٍ أمراً عناداً	إذا ما الأمرُ ضيعهُ الغفولُ

وضعف أمر الأمين جداً ولم يبق عنده مال ينفقه على جنده ولا على نفسه ، وتفرق أكثر أصحابه عنه ، وبقي مضطهداً ذليلاً ، ثم انقضت هذه السنة بكمالها والناس في بغداد في قلاقل

---

(١) والحرافشة : الماجنين العابثين أو الماكرين .

(٢) بارية : حصيرة (فارس معرًب) .

وأهوية مختلفة ، وقتال وحريق ، وسرقات ، وساءت بغداد فلم يبق فيها أحد يرد عن أحدكما هي عادة الفتن .

وحج بالناس فيها العباس بن موسى الهاشمي من جهة المأمون . وفيها توفي شعيب بن حرب أحد الزهاد . وعبد الله بن وهب إمام أهل الديار المصرية . وعبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر . وعثمان بن سعيد الملقب بورش أحد القراء المشهورين الرواة عن نافع بن أبي نعيم . ووكيع بن الجراح الرواسي أحد أعلام المحدثين مات عن ست وستين سنة .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

فيها خامر خزيمة بن خازم على محمد الأمين وأخذ الأمان من طاهر . ودخل هرثمة بن أعين من الجانب الشرقي . وفي يوم الأربعاء لثمان خلون من المحرم وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى على جسر بغداد فقطعاه ونصبا رايتهما عليه . ودعوا الى بيعة عبدِ الله المأمون وخلع محمد الأمين ، ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقي فباشر القتال بنفسه ، ونادى بالأمان لمن لزم منزله ، وجرت عند دار الرقيق والكرخ وغيرهما وقعات ، وأحاطوا بمدينة أبي جعفر والخلد وقصر زبيدة ، ونصب المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة ، ورماه بالمنجنيق ، فخرج الأمين بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر ، وتفرق عنه عامة الناس في الطريق ، لا يلوي أحد على أحد ، حتى دخل قصر أبي جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمي المنجنيق ، وأمر بتحريق ما كان فيه من الأثاث والبسط والأمتعة وغير ذلك ، ثم حصر حصراً شديداً . ومع هذه الشدة والضيق وإشرافه على الهلاك خرج ذات ليلة في ضوء القمر إلى شاطىء دجلة واستدعى بنبيذ وجارية فغنته فلم ينطلق لسانها إلّا بالفراقيات وذكر الموت وهو يقول : غير هذا ، وتذكر نظيره حتى غنته آخر ما غنته :

أمـا وربِّ الـسـكـونِ والـحـركِ	إنَّ الـمـنـايـا كـثـيـرةُ الـشـرَكِ
مـا اخـتـلفَ الـليـلَ والـنـهـارُ ولا	دارت نـجـومُ السـمـاءِ فـي الـفـلكِ
إلا لـنـقـلِ الـسلطانِ مـن مـلكٍ	قـد انـقـضـى مـلكـهُ إلـى مـلكِ
ومـلكُ ذي الـعـرش دائـمٌ أبـداً	لـيسَ بـفـانٍ ولا بـمـشـتـركِ

قال : فسبها وأقامها من عنده فعثرت في قدح كان له من بلور فكسرته فتطير بذلك . ولما ذهبت الجارية سمع صارخاً يقول : ﴿ قُضِيَ الأمر الذي فيهِ تستفتيان ﴾ (١) فقال لجليسه : ويحك ألا تسمع ، فتسمع فلا يسمع شيئاً ، ثم عاد الصوت بذلك فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل في رابع صفر يوم الأحد ، وقد حصل له من الجهد والضيق في حصره شيئاً كثيراً بحيث إنه لم يبق له طعام

(١) سورة يوسف ، الآية/ ٤١ .

يأكله ولا شراب بحيث إنه جاع ليلة فما أتى برغيف ودجاجة إلا بعد شدة عظيمة ، ثم طلب ماء فلم يوجد له فبات عطشاناً فلما أصبح قتل قبل أن يشرب الماء .

كيفية مقتله

لما اشتد به الأمر اجتمع عنده من بقي معه من الأمراء والخدم والجند ، فشاورهم في أمره فقالت طائفة : تذهب بمن بقي معك إلى الجزيرة أو الشام فتتقوى بالأموال وتستخدم الرجال . وقال بعضهم تخرج إلى طاهر وتأخذ منه أماناً وتبايع لأخيك ، فإذا فعلت ذلك فإن أخاك سيأمر لك بما يكفيك ويكفي أهلك من أمر الدنيا ، وغاية مرادك الدعة والراحة ، وذلك يحصل لك تاماً . وقال بعضهم : بل هرثمة أولى بأن يأخذ لك منه الأمان فإنه مولاكم وهو أحنى عليك . فمال إلى ذلك ، فلما كانت ليلة الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخرة واعد هرثمة أن يخرج إليه ، ثم لبس ثياب الخلافة وطيلساناً[1] واستدعى بولديه فشمهما وضمهما إليه وقال : أستودعكما الله ، ومسح دموعه بطرف كمه ، ثم ركب على فرس سوداء وبين يديه شمعة ، فلما انتهى الى هرثمة أكرمه وعظمه وركبا في حراقة في دجلة ، وبلغ ذلك طاهراً فغضب من ذلك وقال : أنا الذي فعلت هذا كله ويذهب الى غيري ، وينسب هذا كله إلى هرثمة ، فلحقهما وهما في الحراقة فأمالها أصحابه فغرق من فيها ، غير أن الأمين سبح إلى الجانب الآخر وأسره بعض الجند . وجاء فأعلم طاهراً فبعث إليه جنداً من العجم فجاؤ وا الى البيت الذي هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له : ادن مني فأني أجد وحشة شديدة ، وجعل يلتف في ثيابه شديداً وقلبه يخفق خفقاناً عظيماً ، كاد يخرج من صدره . فلما دخل عليه أولئك قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول : ويحكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ ، أنا ابن هارون ، أنا أخو المأمون ، الله الله في دمي . فلم يلتفتوا الى شيء من ذلك ، بل تكاثروا عليه وذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه وذهبوا برأسه الى طاهر وتركوا جثته ، ثم جاؤ وا بكرة[2] إليها فلفوها في جل فرس وذهبوا بها . وذلك ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر من هذه السنة .

شيء من ترجمته

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور ، أبو عبد الله ويقال أبو موسى الهاشمي العباسي ، وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، كان مولده بالرصافة سنة سبعين ومائة . [قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدّثنا عياش بن هشام عن أبيه قال : ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد في شوال سنة سبعين ومائة][3] . وأتته الخلافة بمدينة السلام بغداد

---

(١) وطيلساناً : جمعها طَيَالسة وهو كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء وهو من لباس العجم .

(٢) بكرة : غُدْوَة .

(٣) زيادة من المصرية .

لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وقيل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم ، وقتل سنة ثمان وتسعين ومائة ، قتله قريش الدنداني ، وحمل رأسه الى طاهر بن الحسين فنصبه على رمح وتلا هذه الآية : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الملكِ ﴾[١] وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام ، وكان طويلاً سميناً أبيض أقنى الأنف صغير العينين ، عظيم الكراديس بعيداً ما بين المنكبين . وقد رماه بعضهم بكثرة اللعب والشرب وقلة الصلاة . وقد ذكر ابن جرير طرفاً من سيرته في إكثاره من اقتناء السودان والخصيان ، وإعطائه الأموال والجواهر ، وأمره باحضار الملاهي والمغنين من سائر البلاد ، وأنه أمر بعمل خمس حراقات على صورة الفيل والأسد والعقاب والحية والفرس ، وأنفق على ذلك اموالاً جزيلة جداً ، وقد امتدحه أبو نواس بشعر أقبح في معناه من صنيع الأمين فانه قال في أوله :

سَخَّر الله للأمينِ مطايا[٢] ... لم تسخَّرْ لصاحبِ المحرابِ
فإذا ما ركابُهُ سرنَ براً ... سار في الماءِ راكباً ليث غابِ

ثم وصف كلا من تلك الحراقات . واعتنى الأمين ببنايات هائلة للنزهة وغيرها ، وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة جداً . فكثر النكير عليه بسبب ذلك .

وذكر ابن جرير أنه جلس يوماً في مجلس أنفق عليه مالاً جزيلاً في الخلد ، وقد فرش له بأنواع الحرير ، ونضد بآنية الذهب والفضة ، وأحضر ندماءه وأمر القهرمانة أن تهيء له مائة جارية حسناء وأمرها أن تبعثهن إليه عشراً بعد عشر يغنينه ، فلما جاءت العشر الأول اندفعن يغنين بصوت واحد :

هُمو قتلوهُ كي يكونوا مَكانَهُ ... كما غَدَرَتْ يوماً بكسرى مرازبُهْ[٣]

فغضب من ذلك وتبرم وضرب رأسها بالكأس ، وأمر بالقهرمانة أن تلقى إلى الأسد فأكلها . ثم استدعى بعشر فاندفعن يغنين :

من كان مسروراً بمقتل مالكٍ ... فليأتِ نسوتنا بوجهِ نهارِ
يجدُ النساء حواسراً يندبنهُ ... يلطمنُ قبل تبلجِ الأسحارِ

فطردهن واستدعى بعشر غيرهن ، فلما حضرن اندفعن يغنين بصوت واحد :

كليبٌ لعمري كانَ أكثر ناصراً ... وأيسر ذنباً منكَ ضرج[٤] بالدمِ

فطردهن وقام من فوره وأمر بتخريب ذلك المجلس وتحريق ما فيه .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية/ ٢٦ .
(٢) مطايا : مفردها مطيّة وهي الدّابّة التي تُرْكَب .
(٣) مرازبة : مفردها المَرْزُبان : الرئيس عند الفرس (فارسية) .
(٤) ضرج : ملطّخ .

وذكر أنه كان كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر ويعطي عليه الجوائز الكثيرة ، وكان شاعره أبا نواس ، وقد قال فيه أبو نواس مدائح حسانا ، وقد وجده مسجوناً في حبس الرشيد مع الزنادقة فأحضره وأطلقه وأطلق له مالاً وجعله من ندمائه ، ثم حبسه مرة أخرى في شرب الخمر وأطال حبسه ثم أطلقه وأخذ عليه العهد أن لا يشرب الخمر ولا يأتي الذكور من المردان فامتثل ذلك ، وكان لا يفعل شيئاً من ذلك بعد ما استتابه الأمين ، وقد تأدب على الكسائي وقرأ عليه القرآن وروى الخطيب من طريقه حديثاً أورده عنه لما عزّى في غلام له توفي بمكة فقال : حدّثني أبي عن أبيه عن المنصور عن أبيه عن علي بن عبد الله عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات محرما حشر ملبياً » .

وقد قدمنا ما وقع بينه وبين أخيه من الاختلاف والفرقة ، حتى أفضى ذلك إلى خلعه وعزله ، ثم إلى التضييق عليه ، ثم إلى قتله ، وأنه حصر في آخر أمره حتى احتاج الى مصانعة هرثمة ، وأنه ألقى في حراقة ثم ألقى فسبح إلى الشط الآخر فدخل دار بعض العامة وهو في غاية الخوف والدهش والجوع والعرى ، فجعل الرجل يلقنه الصبر والاستغفار ، فاشتغل بذلك ساعة من الليل ، ثم جاء الطلب وراءه من جهة طاهر بن الحسين بن مصعب ، فدخلوا عليه وكان الباب ضيقاً فتدافعوا عليه وقام إليهم فجعل يدافعهم عن نفسه بمخدة في يده ، فما وصلوا إليه حتى عرقبوه وضربوا رأسه أو خاصرته بالسيوف ، ثم ذبحوه وأخذوا رأسه وجثته فأتوا بهما طاهراً ، ففرح بذلك فرحاً شديداً ، وأمر بنصب الرأس فوق رمح هناك حتى أصبح الناس فنظروا إليه فوق الرمح عند باب الأنبار ، وكثر عدد الناس ينظرون إليه ، ثم بعث طاهر برأس الأمين مع ابن عمه محمد بن مصعب ، وبعث معه بالبردة والقضيب والنعل ـ وكان من خوص مبطن ـ فسلمه الى ذي الرياستين ، فدخل به على المأمون على ترس ، فلما رآه سجد وأمر لمن جاء به بألف ألف درهم . وقد قال ذو الرياستين حين قدم الرأس يؤلب على طاهر : أمرناه بأن يأتي به أسيراً فأرسل به إلينا عقيراً . فقال المأمون : مضى ما مضى . وكتب طاهر إلى المأمون كتاباً ذكر فيه صورة ما وقع حتى آل الحال إلى ما آل إليه .

ولما قتل الأمين هدأت الفتن وخمدت الشرور ، وأمن الناس ، وطابت النفس ، ودخل طاهر بغداد يوم الجمعة وخطبهم خطبة بليغة ذكر فيها آيات كثيرة من القرآن ، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأمرهم فيها بالجماعة والسمع والطاعة ثم خرج الى معسكره فأقام به وأمر بتحويل زبيدة من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد ، فخرجت يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، وبعث بموسى وعبد الله ابني الأمين إلى عمهما المأمون بخراسان ، وكان ذلك رأياً سديداً . وقد وثب طائفة من الجند على طاهر بعد خمسة أيام من مقتل الأمين وطلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده إذ ذاك مال ، فتحزبوا واجتمعوا ونهبوا بعض متاعه ونادوا : يا موسى يا منصور ، واعتقدوا أن موسى بن الأمين الملقب بالناطق هناك ، وإذا هو قد سيره إلى عمه . وانحاز طاهر بمن معه من القواد ناحية

وعزم على قتالهم بمن معه ، ثم رجعوا إليه واعتذروا وندموا ، فأمر لهم برزق أربعة أشهر بعشرين ألف دينار اقترضها من بعض الناس ، فطابت الخواطر . ثم إن إبراهيم بن المهدي قد أسف على قتل محمد الأمين بن زبيدة ورثاه بأبيات ، فبلغ ذلك المأمون فبعث إليه يعنفه ويلومه على ذلك . وقد ذكر ابن جرير مراثي كثيرة للناس في الأمين ، وذكر من أشعار الذين هجوه طرفاً ، وذكر من شعر طاهر بن الحسين حين قتله قوله : ـ

ملكتَ الناسَ قسْراً واقتداراً   وقتلتَ الجبابرة الكباراً
ووجهتَ الخلافةَ نحو مروٍ   إلى المأمون تبتدرُ ابتداراً

خلافة عبد الله المأمون بن الرشيد هارون

لما قتل أخوه محمد في رابع صفر من سنة ثمان وتسعين ومائة وقيل في المحرم ، استوسقت البيعة شرقاً وغرباً للمأمون : فولى الحسن بن سهل نيابة العراق وفارس والأهواز والكوفة والبصرة والحجاز واليمن ، وبعث نوابه إلى هذه الأقاليم ، وكتب إلى طاهر بن الحسين أن ينصرف إلى الرقة لحرب نصر بن شبث ، وولاه نيابة الجزيرة والشام والموصل والمغرب . وكتب إلى هرثمة بن أعين بنيابة خراسان . وفيها حج بالناس العباس بن عيسى الهاشمي . وفيها توفي سفيان بن عيينة . وعبد الرحمن بن مهدي . ويحيى القطان . فهؤلاء الثلاثة سادة العلماء في الحديث والفقه وأسماء الرجال .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة

فيها قدم الحسن بن سهل بغداد نائباً عليها من جهة المأمون ، ووجه نوابه الى بقية أعماله ، وتوجه طاهر الى نيابة الجزيرة والشام ومصر وبلاد المغرب . وسار هرثمة الى خراسان نائباً عليها ، وكان قد خرج في أواخر السنة الماضية في ذي الحجة منها ، الحسن الهرش يدعو إلى الرضى من آل محمد ، فجبى الأموال وانتهب الأنعام وعاث في البلاد فساداً فبعث إليه المأمون جيشاً فقتلوه في المحرم من هذه السنة . وفيها خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة ، يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وهو الذي يقال له ابن طباطبا ، وكان القائم بأمره وتدبير الحرب بين يديه أبو السرايا السري بن منصور الشيباني ، وقد اتفق أهل الكوفة على موافقته واجتمعوا عليه من كل فج عميق ، ووفدت إليه الأعراب من نواحي الكوفة ، وكان النائب عليها من جهة الحسن بن سهل سليمان بن أبي جعفر المنصور ، فبعث الحسن بن سهل يلومه ويؤنبه على ذلك ، وأرسل إليه بعشرة آلاف فارس صحبة زاهر بن زهير بن المسيب ، فتقاتلوا خارج الكوفة فهزموا زاهراً واستباحوا جيشه ونهبوا ما كان معه ، وذلك يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة ، فلما كان الغد

من الوقعة توفي ابن طباطبا أمير الشيعة فجأة ، يقال إن أبا السرايا سمه وأقام مكانه غلاماً أمرد يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وانعزل زاهر بمن بقي معه من أصحابه إلى قصر ابن هبيرة ، وأرسل الحسن بن سهل مع عبدوس بن محمد أربعة آلاف فارس ، صورة مدد لزاهر ، فالتقوا هم وأبو السرايا فهزمهم أبو السرايا ولم يفلت من أصحاب عبدوس أحد ، وانتشر الطالبيون في تلك البلاد ، وضرب أبو السرايا الدراهم والدنانير في الكوفة ، ونقش عليه ﴿ إنَّ الله يُحِبُّ الذينَ يُقاتِلُونَ في سبيلِهِ صفّاً ﴾[1] الآية . ثم بعث أبو السرايا جيوشه الى البصرة وواسط والمدائن فهزموا من فيها من النواب ودخلوها قهراً ، وقويت شوكتهم ، فأهم ذلك الحسن بن سهل وكتب إلى هرثمة يستدعيه لحرب أبي السرايا فتمنع ثم قدم عليه فخرج إلى أبي السرايا فهزم أبا السرايا غير مرة وطرده حتى رده إلى الكوفة ووثب الطالبيون على دور بني العباس بالكوفة فنهبوها وخربوا ضياعهم ، وفعلوا أفعالاً قبيحة ، وبعث أبو السرايا الى المدائن فاستجابوا ، وبعث إلى أهل مكة حسين بن حسن الأفطس ليقيم لهم الموسم فخاف أن يدخلها جهرة ، ولما سمع نائب مكة ـ وهو داود بن عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن عباس ـ هرب من مكة طالباً أرض العراق ، وبقي الناس بلا إمام فسئل مؤذنها أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي أن يصلِّي بهم فأبى ، فقيل لقاضيها محمد بن عبد الرحمن المخزومي فامتنع ، وقال : لمن أدعو وقد هرب نواب البلاد . فقدم الناس رجلاً منهم فصلى بهم الظهر والعصر ، وبلغ الخبر الى حسين الأفطس فدخل مكة في عشرة أنفس قبل الغروب فطاف بالبيت ، ثم وقف بعرفة ليلاً وصلَّى بالناس الفجر بمزدلفة وأقام بقية المناسك في أيام منى ، فدفع الناس من عرفة بغير إمام ، وفيها توفي إسحاق بن سليمان ، وابن نمير .وابن سابور . وعمروالعنبري ، والد مطيع البلخي . ويونس بن بكير .

ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة

في أول يوم منها جلس حسين بن حسن الأفطس على طنفسة[2] مثلثة خلف المقام وأمر بتجريد الكعبة مما عليها من كساوي بني العباس ، وقال : نطهرها من كساويهم . وكساها ملاءتين صفراوتين عليهما اسم أبي السرايا ، ثم أخذ ما في كنز الكعبة من الأموال ، وتتبع ودائع بني العباس فأخذها ، حتى أنه أخذ مال ذوي المال ويزعم أنه للمسودة . وهرب منه الناس إلى الجبال ،وسبك ما على رؤوس الأساطين من الذهب . وكان ينزل مقدار يسير بعد جهد ، وقلعوا ما في المسجد الحرام من الشبابيك وباعوها بالبخس ، وأساؤوا السيرة جداً . فلما بلغه مقتل أبي السرايا كتم ذلك وأمرّ رجلاً من الطالبيين شيخاً كبيراً ، واستمر على سوء السيرة ، ثم هرب في سادس عشر المحرم منها ، وذلك لما قهر هرثمة أبا السرايا وهزم جيشه وأخرجه ومن معه من الطالبيين من الكوفة ، ودخلها

---

(١) سورة الصف ، الآية/ ٤ .

(٢) طنفسة : جمعها طنافس وهي البساط والحصير (فارسية) .

هرثمة ومنصور بن المهدي فأمنوا أهلها ولم يتعرضوا لأحد . وسار أبو السرايا بمن معه الى القادسية ، ثم سار منها فاعترضهم بعض جيوش المأمون فهزمهم أيضاً وجرح أبو السرايا جراحة منكرة جداً ، وهربوا يريدون الجزيرة الى منزل أبي السرايا برأس العين ، فاعترضهم بعض الجيوش أيضاً فأسروهم وأتوا بهم الحسن بن سهل وهو بالنهروان حين طردته الحربية ، فأمر بضرب عنق أبي السرايا فجزع من ذلك جزعاً شديداً جداً وطيف برأسه وأمر بجسده أن يقطع اثنتين وينصب على جسري بغداد ، فكان بين خروجه وقتله عشرة أشهر فبعث الحسن بن سهل بن محمد إلى المأمون مع رأس أبي السرايا . وقال بعض الشعراء :

ألم تر ضربه الحسنِ بنِ سهلٍ	بسيفكَ يا أميرَ المؤمنينا
أدارتْ مرو رأس أبي السَّرايا	وأبقت عبرة[1] للعالمينا

وكان الذي في يده البصرة من الطالبيين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ويقال له زيد النار ، لكثرة ما حرق من البيوت التي للمسودة ، فأسره علي بن سعيد وأمنه وبعث به وبمن معه من القواد الى اليمن لقتال من هناك من الطالبيين.

وفيها خرج باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ويقال له الجزار لكثرة من قتل من أهل اليمن ، وأخذ من أموالهم . وهو الذي كان بمكة وفعل فيها ما فعل كما تقدم ، فلما بلغه قتل أبي السرايا هرب الى اليمن ، فلما بلغ نائب اليمن خبره ترك اليمن وسار إلى خراسان واجتاز بمكة وأخذ أمه منها . واستحوذ ابراهيم هذا على بلاد اليمن وجرت حروب كثيرة يطول ذكرها ، ورجع محمد بن جعفر العلوي عما كان يزعمه ، وكان قد ادعى الخلافة بمكة ، وقال : كنت أظن أن المأمون قد مات وقد تحققت حياته ، وأنا استغفر الله وأتوب إليه مما كنت ادعيت من ذلك ، وقد رجعت الى الطاعة وأنا رجل من المسلمين . ولما هزم هرثمة أبا السرايا ومن كان معه من ولاة الخلافة وهو محمد بن محمد وشى بعض الناس إلى المأمون أن هرثمة راسل أبا السرايا وهو الذي أمره بالظهور ، فاستدعاه المأمون الى مرو فأمر به فضرب بين يديه ووطىء بطنه ثم رفع الى الحبس ثم قتل بعد ذلك بأيام ، وانطوى خبره بالكلية . ولما وصل خبر قتله الى بغداد عبثت العامة والحربية بالحسن بن سهل نائب العراق وقالوا : لا نرضى به ولا بعماله ببلادنا ، وأقاموا إسحاق بن موسى المهدي نائباً ، واجتمع أهل الجانبين على ذلك ، والتفت على الحسن بن سهل جماعة من الأمراء والأجناد ، وأرسل من وافق العامة على ذلك من الأمراء يحرضهم على القتال ، وجرت الحروب بينهم ثلاثة أيام في شعبان من هذه السنة . ثم اتفق الحال على أن يعطيهم شيئاً من أرزاقهم ينفقونها في شهر رمضان ، فما زال يمطلهم الى ذي القعدة حتى يدرك الزرع ،

---

(١) عِبْرَة : موعظة .

فخرج في ذي القعدة زيد بن موسى الذي يقال له زيد النار ، وهو أخو أبي السرايا ، وقد كان خروجه هذه المرة بناحية الأنبار ، فبعث اليه علي بن هشام نائب بغداد عن الحسن بن سهل والحسن بالمدائن إذ ذاك فأخذ وأتى به إلى علي بن هشام ، وأطفأ الله ثائرته .

وبعث المأمون في هذه السنة يطلب من بقي من العباسيين ، وأحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ، ما بين ذكور وأناث . وفيها قتلت الروم ملكهم اليون ، وقد ملكهم سبع سنين ، وملكوا عليهم ميخائيل نائبه . وفيها قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل ، لأنه قال للمأمون : يا أمير الكافرين. فقتل صبرا بين يديه . وفيها حج بالناس محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد ، وفيها توفي من الأعيان :

أسباط بن محمد . وأبو ضمرة أنس بن عياض . ومسلم بن قتيبة . وعمر بن عبد الواحد . وابن أبي فديك . ومبشر بن إسماعيل . ومحمد بن جبير . ومعاذ بن هشام .

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين

فيها رواد أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك ، فراودوه على أن يكون نائباً للمأمون يدعو له في الخطبة فأجابهم إلى ذلك ، وقد أخرجوا علي بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين أظهرهم بعد أن جرت حروب كثيرة بسبب ذلك . وفيها عم البلاء بالعيارين والشطار والفساق ببغداد وما حولها من القرى ، كانوا يأتون الرجل يسألونه ما لا يقرضهم أو يضلهم به فيمتنع عليهم فيأخذون جميع ما في منزله، وربما تعرضوا للغلمان والنسوان ، ويأتون أهل القرية فيستاقون من الأنعام والمواشي ويأخذون ما شاؤ وا من الغلمان والنسوان ، ونهبوا أهل قطر بل ولم يدعوا لهم شيئاً أصلاً ، فانتدب لهم رجل يقال له خالد الدريوش ، وآخر يقال له سهل بن سلامة أبو حاتم الأنصاري من أهل خراسان . والتف عليهم جماعة من العامة فكفوا شرهم وقاتلوهم ومنعوهم من الفساد في الأرض ، واستقرت الأمور كما كانت ، وذلك في شعبان ورمضان . وفي شوال منها رجع الحسن بن سهل إلى بغداد وصالح الجند ، وانفصل منصور بن المهدي ومن وافقه من الأمراء . وفيها بايع المأمون لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب أن يكون ولي العهد من بعده ، وسماه الرضى من آل محمد ، وطرح لبس السواد وأمر بلبس الخضرة ، فلبسها هو وجنده ، وكتب بذلك إلى الآفاق والأقاليم ، وكانت مبايعته له يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين ، وذلك أن المأمون رأى أن علياً الرضى خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في عمله ودينه ، فجعله ولي عهده من بعده .

بيعة اهل بغداد لإبراهيم بن المهدي

لما جاء الخبر أن المأمون بايع لعلي الرضى بالولاية من بعده اختلفوا فيما بينهم، فمن مجيب مبايع ، ومن آب ممانع ، وجمهور العباسيين على الامتناع من ذلك ، وقام في ذلك ابنا المهدي

إبراهيم ومنصور ، فلما كان يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة أظهر العباسيون البيعة لإبراهيم ابن المهدي ولقبوه المبارك ـ وكان أسود اللون ـ ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي ، وخلعوا المأمون . فلما كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة أرادوا أن يدعوا للمأمون ثم من بعده لإبراهيم فقالت العامة : لا تدعوا إلا إلى إبراهيم فقط ، واختلفوا واضطربوا فيما بينهم ، ولم يصلّوا الجمعة ، وصلّى الناس فرادى أربع ركعات .

وفيها افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد اللارز والشيرز . وذكر ابن حزم أن سلما الخاسر قال في ذلك شعراً . وقد ذكر ابن الجوزي وغيره أن سلماً توفي قبل ذلك بسنين فالله أعلم .

وفيها أصاب أهل خراسان والري وأصبهان مجاعة شديدة وغلا الطعام جداً . وفيها تحرك بابك الخرّمي واتبعه طوائف من السفلة والجهلة وكان يقول بالتناسخ . وسيأتي ما آل أمره إليه . وفيها حج بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي .

وفيها توفي من الأعيان : أبو أسامة حماد بن أسامة . وحماد بن مسعدة وحرسي بن عمّارة . وعلي ابن عاصم . ومحمد بن محمد صاحب أبي السرايا الذي قد كان بايعه أهل الكوفة بعد ابن طباطبا .

ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين

في أول يوم منها بويع لإبراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخلع المأمون ، فلما كان يوم الجمعة خامس المحرم صعد إبراهيم بن المهدي المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك ، وغلب على الكوفة وأرض السواد ، وطلب منه الجند أرزاقهم فماطلهم ثم أعطاهم مائتي درهم لكل واحد ، وكتب لهم بتعويض من أرض السواد ، فخرجوا لا يمرون بشيء إلا انتهبوه ، وأخذوا حاصل الفلاح والسلطان ، واستناب على الجانب الشرقي العباس بن موسى الهادي ، وعلى الجانب الغربي إسحاق بن موسى الهادي . وفيها خرج خارجي يقال له مهدي بن علوان ، فبعث إليهم إبراهيم جيشاً عليهم أبو إسحاق المعتصم بن الرشيد في جماعة من الأمراء فكسره ورد كيده . وفيها خرج أخو أبي السرايا فبيض بالكوفة فأرسل إليه إبراهيم بن المهدي من قاتله فقتل أخو أبي السرايا وأرسل برأسه إلى إبراهيم ، ولما كان ليلة أربع عشرة من ربيع الآخر من هذه السنة ظهرت في السماء حمرة ثم ذهبت وبقي بعدها عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل ، وجرت بالكوفة حروب بين أصحاب إبراهيم وأصحاب المأمون ، واقتتلوا قتالا شديداً . وعلى أصحاب إبراهيم السواد ، وعلى أصحاب المأمون الخضرة ، واستمر القتال بينهم إلى أواخر رجب .

وفيها ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوع فسجنه ، وذلك أنه التف عليه جماعة من الناس يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكن كانوا قد جاوزوا الحد وأنكروا على السلطان ودعوا إلى القيام بالكتاب والسنة ، وصار باب داره كأنه باب السلطان ، عليه السلاح والرجال وغير ذلك من أبهة الملك ، فقاتله الجند فكسروا أصحابه فألقى السلاح وصار بين النساء

والنظارة ثم اختفى في بعض الدور ، فأخذ وجيء به إلى إبراهيم فسجنه سنة كاملة . وفيها أقبل المأمون من خراسان قاصداً العراق ، وذلك أن علي بن موسى الرضى أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتن والاختلاف بارض العراق ، وبأن الهاشميين قد أنهوا إلى الناس بأن المأمون مسحور ومسجون ، وأنهم قد نقموا عليك ببيعتك لعلي بن موسى ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وبين إبراهيم بن المهدي . فاستدعى المأمون بجماعة من أمرائه وأقربائه فسألهم عن ذلك فصدقوا عليا فيما قال ، بعد أخذهم الأمان منه ، وقالوا له : إن الفضل بن سهل حسن لك قتل هرثمة ، وقد كان ناصحاً لك . فعاجله بقتله ، وإن طاهر بن الحسين مهد لك الأمور حتى قاد إليك الخلافة بزمامها فطردته إلى الرقة فقعد لاعمل له ولا تستنهضه في أمر ، وإن الأرض تفتقت بالشرور والفتن من أقطارها . فلما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ، وقد فطن الفضل بن سهل بما تمالأ[1] عليه أولئك الناصحون ، فضرب قوماً ونتف لحى بعضهم. وسار المأمون فلما كان بسرخس عدا قوم على الفضل بن سهل وزير المأمون وهو في الحمام فقتلوه بالسيوف ، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شوال وله ستون سنة ، فبعث المأمون في آثارهم فجيء بهم وهم أربعة من المماليك فقتلهم ، وكتب إلى أخيه الحسن بن سهل يعزيه فيه ، وولّاه الوزارة مكانه ، وارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر نحو العراق وإبراهيم بن المهدي بالمدائن ، وفي مقابلته جيش يقاتلونه من جهة المأمون .

وفيها تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، وزوج علي بن موسى الرضى بابنته أم حبيب وزوج ابنه محمد بن علي بن موسى بابنته الأخرى أم الفضل . وحج بالناس إبراهيم بن موسى ابن جعفر أخو علي الرضى ، ودعا لأخيه بعد المأمون ، ثم انصرف بعد الحج إلى اليمن ، وقد كان تغلب عليها حمدويه بن علي بن موسى بن ماهان . وفيها توفي : أيوب بن سويد . وضمرة . وعمرو ابن حبيب. والفضل بن سهل الوزير . وأبو يحيى الحماني .

ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين

فيها وصل المأمون العراق ومر بطوس فنزل بها وأقام عند قبر أبيه أياماً من شهر صفر ، فلما كان في آخر الشهر أكل علي بن موسى الرضى عنبا فمات فجأة فصلى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد ، وأسف عليه أسفاً كثيراً فيما ظهر ، وكتب إلى الحسن بن سهل يعزيه فيه ويخبره بما حصل له من الحزن عليه ، وكتب إلى بني العباس يقول لهم : إنكم إنما نقمتم علي بسبب توليتي العهد من بعدي لعلي بن موسى الرضى ، وها هو قد مات فارجعوا إلى السمع والطاعة ، فأجابوه بأغلظ جواب كتب به إلى أحد . وفيها تغلبت الثوار على الحسن بن سهل حتى قيد بالحديد وأودع في بيت ، فكتب الأمراء بذلك إلى المأمون ، فكتب إليهم إني واصل على إثر كتابي هذا. ثم جرت حروب

---

(١) تمالأ عليه : اجتمعوا وتعاونوا عليه .

كثيرة بين إبراهيم وأهل بغداد ، وتنكروا عليه وأبغضوه . وظهرت الفتن والشطار والفساق ببغداد وتفاقم الحال ، وصلوا يوم الجمعة ظهراً ، أمهم المؤذنون فيها من غير خطبة ، صلوا أربع ركعات ، واشتد الأمر واختلف الناس فيما بينهم في إبراهيم والمأمون ، ثم غلبت المأمونية عليهم .

خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي

لما كان يوم الجمعة المقبلة دعا الناس للمأمون وخلعوا إبراهيم ، وأقبل حميد بن عبد الحميد في جيش من جهة المأمون فحاصر بغداد . وطمع جندها في العطاء إذا قدم فطاوعوه على السمع والطاعة للمأمون . وقد قاتل عيسى بن محمد بن أبي خالد في جماعة من جهة إبراهيم بن المهدي ، ثم احتال عيسى حتى صار في أيد المأمونية أسيراً ، ثم آل الحال إلى اختفاء إبراهيم بن المهدي في آخر هذه السنة . وكانت أيامه سنة وإحد عشر شهراً واثني عشر يوماً . وقدم المأمون في هذا الوقت إلى همذان وجيوشه قد استنقذوا بغداد إلى طاعته ، وحج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي . وفيها توفي من الأعيان .

علي بن موسى

ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، القرشي الهاشمي العلوي الملقب بالرضى ، كان المأمون قد هم أن ينزل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك ، فجعله ولي العهد من بعده كما قدمنا ذلك . توفي في صفر من هذه السنة بطوس . وقد روى الحديث عن أبيه وغيره ، وعنه جماعة منهم المأمون وأبو السلط الهروي وأبو عثمان المازني النحوي ، وقال سمعته يقول : الله أعدل من أن يكلف العباد ما لا يطيقون ، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون . ومن شعره :

كلنا يأملُ مداً في الأجلْ ... والمنايا[1] هنَّ آفاتُ[2] الأملْ
لا تغرّنْكَ أباطيلُ المنى ... والزَم القصدَ ودعْ عنك العللْ
إنّما الدنيا كظلٍ زائلٍ ... حلَّ فيهِ راكبٌ ثمَ ارتحلْ

ثم دخلت سنة أربع ومائتين

فيها كان قدوم المأمون أرض العراق ، وذلك أنه مر بجرجان فأقام بها شهراً ، ثم سار منها وكان ينزل في المنزل يوماً أو يومين ، ثم جاء إلى النهروان فأقام بها ثمانية أيام ، وقد كتب إلى طاهر ابن الحسين وهو بالرقة أن يوافيه إلى النهروان فوافاه وتلقاه رؤوس أهل بيته والقواد وجمهور الجيش ، فلما كان يوم السبت الآخر دخل بغداد حين ارتفع النهار لأربع عشرة ليلة خلت من صفر ، في أبهة عظيمة وجيش عظيم ، وعليه وعلى جميع أصحابه وفتيانه الخضرة ، فلبس أهل بغداد وجميع بني

---

(١) والمنايا : مفردها المنية وهي الموت .

(٢) آفات : مفردها آفة وهي النكبة والمصيبة .

هاشم الخضرة ، ونزل المأمون بالرصافة ثم تحول إلى قصر على دجلة ، وجعل الأمراء ووجوه الدولة يترددون إلى منزله على العادة ، وقد تحول لباس البغاددة إلى الخضرة ، وجعلوا يحرقون كل ما يجدونه من السواد ، فمكثوا كذلك ثمانية أيام . ثم استعرض حوائج طاهر بن الحسين فكان أول حاجة سألها أن يرجع إلى لباس السواد ، فانه لباس آبائه من دولة ورثة الأنبياء . فلما كان السبت الآخر وهو الثامن والعشرين من صفر جلس المأمون للناس وعليه الخضرة ، ثم إنه أمر بخلعة سوداء فألبسها طاهراً ، ثم ألبس بعده جماعة من الأمراء السواد ، فلبس الناس السواد وعادوا إلى ذلك ، فعلم منهم بذلك الطاعة والموافقة ، وقيل إنه مكث يلبس الخضرة بعد قدومه بغداد سبعة وعشرين يوماً ، فالله أعلم .

ولما جاء إليه عمه إبراهيم بن المهدي بعد اختفائه ست سنين وشهوراً قال له المأمون : أنت الخليفة الأسود ، فأخذ في الاعتذار والاستغفار ، ثم قال : أنا الذي مننتَ عليه يا أمير المؤمنين بالعفو ، وأنشد المأمونَ عند ذلك :

ليسَ يزري[1] السوادُ بالرجلِ الشهمِ ولا بالفتى الأديبِ الأريبِ
إن يكنْ للسوادِ منكَ نصيبٌ فبياضُ الأخلاقِ منكَ نصيبي

قال ابن خلكان : وقد نظم هذا المعنى بعد المتأخرين وهو نصر الله بن قلانس الاسكندري فقال :

ربَ سوداءَ وهي بيضاءُ فعلٍ حسدَ المسكَ عندها الكافورُ
مثلُ حبِ العيونِ يحسبهُ الناسُ سواداً وإنما هوَ نورُ

وكان المأمون قد شاور في قتل عمه إبراهيم بن المهدي بعض أصحابه فقال له أحمد بن خالد الوزير الأحول : يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء في ذلك ، وإن عفوت عنه فما لك نظير . ثم شرع المأمون في بناء قصور على دجلة إلى جانب قصره ، وسكنت الفتن وانزاحت الشرور ، وأمر بمقاسمة أهل السواد على الخمسين ، وكانوا يقاسمون على النصف . واتخذ القفيز الملحم وهو عشرة مكاكي بالمكوك الأهوازي ، ووضع شيئاً كثيراً من خراجات بلاد شتى ، ورفق بالناس في مواضع كثيرة ، وولّى أخاه أبا عيسى بن الرشيد الكوفة ، وولّى أخاه صالحا البصرة ، وولى عبيد الله ابن الحسين بن عبد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب نيابة الحرمين ، وهو الذي حج بالناس فيها . وواقع يحيى بن معاذ بابك الخرّمي فلم يظفر به . وفيها توفي من الأعيان جماعة منهم :

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي

وقد أفردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا طبقات الشافعيين ، ولنذكر ههنا ملخصاً من ذلك

---

(١) يزري : يحتقر ويذم .

وبالله المستعان .

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، القرشي المطلبي ، والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر ، وابنه شافع بن السائب من صغار الصحابة ، وأمه أزدية . وقد رأت حين حملت به كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصر ، ثم وقع في كل بلد منه شظية . وقد ولد الشافعي بغزة ، وقيل بعسقلان ، وقيل باليمن سنة خمسين ومائة ، ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين لئلا يضيع نسبه ، فنشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر ، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة . وقيل ابن ثماني عشرة سنة ، أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي ، وعني باللغة والشعر ، وأقام في هزيل نحواً من عشر سنين ، وقيل عشرين سنة ، فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها ، وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ والأئمة ، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبته قراءته وهمته ، وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم ابن خالد الزنجي . وروى عنه خلق كثير قد ذكرنا أسماءهم مرتبين على حروف المعجم ، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عز وجل .

وأخذ الشافعي الفقه عن مسلم بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، منهم عمرو بن علي وابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم . وكلهم عن رسول الله ﷺ وتفقه أيضاً على مالك عن مشايخه ، وتفقه به جماعة قد ذكرناهم ومن بعدهم إلى زماننا في تصنيف مفرد . وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي بشر الدولابي عن محمد بن إدريس وراق الحميدي عن الشافعي أنه ولي الحكم بنجران من أرض اليمن ، ثم تعصبوا عليه ووشوا به إلى الرشيد أنه يروم الخلافة . فحمل على بغل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة ، فاجتمع بالرشيد فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد ، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن ، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه ، وأنزله محمد بن الحسن عنده . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة ، وقيل بسنتين ، وأكرمه محمد بن الحسن وكتب عنه الشافعي وقر بعير ، ثم أطلق له الرشيد ألفي دينار وقيل خمسة آلاف دينار . وعاد الشافعي إلى مكة ففرق عامة ما حصل له في أهله وذوي رحمه من بني عمه ، ثم عاد الشافعي إلى العراق في سنة خمس وتسعين ومائة ، فاجتمع به جماعة من العلماء هذه المرة منهم أحمد بن حنبل وأبو ثور والحسين بن علي الكرابيسي ، والحارث بن شريح البقال ، وأبو عبد الرحمن الشافعي ، والزعفراني ، وغيرهم . ثم رجع إلى مكة ثم رجع إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة ، ثم انتقل منها إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في هذه السنة ، سنة أربع ومائتين . وصنف بها كتابه الأم وهو من كتبه

الجديدة لأنها من رواية الربيع بن سليمان ، وهو مصري . وقد زعم إمام الحرمين وغيره أنها من القديم ، وهذا بعيد وعجيب من مثله والله أعلم .

وقد أثنى على الشافعي غير واحد من كبار الأئمة منهم عبد الرحمن بن مهدي وسأله أن يكتب له كتاباً في الأصول فكتب له الرسالة ، وكان يدعو له في الصلاة دائماً ، وشيخه مالك بن أنس وقتيبة ابن سعيد. وقال : هو إمام . وسفيان بن عيينة ، ويحيى بن سعيد القطان ، وكان يدعو له أيضاً في صلاته . وأبو عبيد ، وقال : ما رأيت أفصح ولا أعقل ولا أورع من الشافعي . ويحيى بن أكثم القاضي ، وإسحاق بن راهويه ، ومحمد بن الحسن ، وغير واحد ممن يطول ذكرهم وشرح أقوالهم .

وكان أحمد بن حنبل يدعو له في صلاته نحواً من أربعين سنة ، وكان أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود من طريق عبد الله بن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد عن أبي علقمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . قال فعمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى ، والشافعي على رأس المائة الثانية . وقال أبو داود الطيالسي : حدّثنا جعفر بن سليمان عن نصر بن معبد الكندي - أو العبدي - عن الجارود عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً ، اللهم إنك إذا أذقت أولها عذاباً ووبالاً[1] فأذق آخرها نوالاً [2] » . وهذا غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه . قال أبو نعيم عبد الملك بن محمد الأسفراييني : لا ينطبق هذا إلا على محمد بن إدريس الشافعي ، حكاه الخطيب . وقال يحيى بن معين عن الشافعي : هو صدوق لا بأس به ، وقال مرة : لو كان الكذب له مباحاً مطلقاً لكانت مروءته تمنعه أن يكذب . وقال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول : الشافعي فقيه البدن ، صدوق اللسان . وحكى بعضهم عن أبي زرعة أنه قال : ما عند الشافعي حديث غلط فيه . وحكي عن أبي داود نحوه .

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة - وقد سئل هل سنة لم تبلغ الشافعي ؟ - فقال : لا . ومعنى هذا أنها تارة تبلغه بسندها ، وتارة مرسلة ، وتارة منقطعة كما هو الموجود في كتبه والله أعلم . وقال حرملة : سمعت الشافعي يقول : سميت ببغداد ناصر السنة . وقال أبو ثور : ما رأينا مثل الشافعي ولا هو رأى مثل نفسه . وكذا قال الزعفراني وغيره . وقال داود بن علي الظاهري في كتاب جمعه في فضائل الشافعي : للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره ، من شرف نسبه ،

---

(١) ووبالاً : شدة وسوءُ عاقبة .

(٢) نوالاً : عطاءً.

وصحة دينه ومعتقده ، وسخاوة نفسه ، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه ، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف ، وجودة الأصحاب والتلامذة ، مثل أحمد بن حنبل في زهده وورعه ، وإقامته على السنة . ثم سرد أعيان أصحابه من البغاددة والمصريين ، وكذا عد أبو داود من جملة تلاميذه في الفقه أحمد بن حنبل . وقد كان الشافعي من أعلم الناس بمعاني القرآن والسنة ، وأشد الناس نزعاً للدلائل منهما ، وكان من أحسن الناس قصداً وإخلاصاً ، كان يقول : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إلي شيء منه أبداً فأوجر عليه ولا يحمدوني . وقد قال غير واحد عنه : إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فقولوا به ودعوا قولي ، فأني أقول به ، وإن لم تسمعوا مني . وفي رواية فلا تقلدوني . وفي رواية فلا تلتفتوا الى قولي . وفي رواية فاضربوا بقولي عرض الحائط ، فلا قول لي مع رسول الله ﷺ : وقال : لأن يلقي الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء . وفي رواية خير من أن يلقاه بعلم الكلام . وقال : لو علم الناس مافي الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد . وقال : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويطاف بهم في القبا ئل وينادي عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

وقال البويطي : سمعت الشافعي يقول : عليكم بأصحاب الحديث فانهم أكثر الناس صواباً ، وقال : إذا رأيت رجلاً من أصحاب.الحديث فكأنما رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ : جزاهم الله خيراً ، حفظوا لنا الأصل ، فلهم علينا الفضل . ومن شعره في هذا المعنى قوله :

كُل العلومِ سوى القرآنِ مشغلةٌ	إلا الحديثُ وإلا الفقهُ في الدينِ
العلمُ ما كانَ فيهِ قال حدثنا	وما سوى ذاكَ وسواسُ الشياطينِ

وكان يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر ، وقد روي عن الربيع وغير واحد من رؤوس أصحابه ما يدل على أنه كان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ، على طريقة السلف ، وقال ابن خزيمة : انشدني المزني وقال أنشدنا الشافعي لنفسه قوله :

ما شئتَ كانَ وإنْ لم أشأ	وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ
خلقتَ العبادَ على ما علمتَ	ففي العلمِ يجري الفتى والمسنْ
فمنهمْ شقيٌ ومنهمْ سعيدٌ	ومنهم قبيحٌ ومنهمْ حسنْ
على ذا مننتَ وهذا خذلت	وهذا أعنتَ وذا لم تعنْ

وقال الربيع : سمعت الشافعي يقول : أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي . وعن الربيع قال : أنشدني الشافعي :

قد عوجَ الناسُ حتى أحدثـوا بدعـاً[1] في الدينِ بالـرأي لم تبعثْ بها الـرسلُ
حـتى اسـتخف بحـق الله أكثـرهـمْ وفي الـذي حملوا من حـقـه شغـلُ

وقد ذكرنا من شعره في السنة وكلامه فيها وفيما قال من الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول طبقات الشافعية . وقد كانت وفاته بمصر يوم الخميس ، وقيل يوم الجمعة ، في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين ، وعن أربع وخمسين سنة ، وكان أبيض جميلاً طويلاً مهيباً يخضب بالحناء ، مخالفاً للشيعة رحمه الله وأكرم مثواه .

وفيها توفي : إسحاق بن الفرات . وأشهب بن عبد العزيز المصري المالكي ، والحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي الحنفي ، وأبو داود سليمان بن داود الطيالسي صاحب المسند، أحد الحفاظ . وأبو بدر شجاع بن الوليد . وأبو بكر الحنفي . وعبد الكريم . وعبد الوهاب بن عـطا الخفاف : والنضر بن شميل أحد أئمة اللغة . وهشام بن محمد بن السائب الكلبي أحد علماء التاريخ .

ثم دخلت سنة خمس ومائتين

فيها ولّى المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب نيابة بغداد والعراق وخراسان إلى أقصى عمل المشرق ، ورضي عنه ورفع عنه ورفع منزلته جداً ، وذلك لأجل مرض الحسن بن سهل بالسواد . وولى المأمون مكان طاهر على الرقة والجزيرة يحيى بن معاذ . وقدم عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى بغداد في هذه السنة ، وكان أبوه قد استخلفه على الرقة وأمره بمقاتلة نصر بن شبث . وولّى المأمون عيسى بن يزيد الجلودي مقاتلة الزط . وولّى عيسى بن محمد بن أبي خالد أذربيجان . ومات نائب مصر السري بن الحكم بها . ونائب السند داود بن يزيد ، فولّى مكانه بشر بن داود على أن يحمل إليه في كل سنة ألف ألف درهم . وحج بالناس فيها عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين . وفيهـا توفي من الأعيـان : إسحاق بن منصـور السلولي . وبشر بن بكـر الدمشقي . وأبـو عامـر العقدي . ومحمد بن عبيد الطنافسي . ويعقوب الحضري . وأبوسليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية ، وقيل عبد الرحمن بن أحمد بن عطية ، وقيل عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الداراني ، أحد أئمة العلماء العاملين ، أصله من واسط سكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا .

وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره ، وروى عند أحمد بن أبي الحواري وجماعة . وأسند الحافظ ابن عساكر من طريقه قال : سمعت علي بن الحسن بن أبي الربيـع الزاهـد يقول سمعت إبراهيم بن أدهم يقول سمعت ابن عجلان يذكر عن القعقاع بن حكيم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى قبل الظهر أربعاً غفر الله ذنوبه يومه ذلك » . وقال أبو القاسم

(١) بِدَعاً : ضلالاً وفسقاً .

القشيري : حكى عن أبي سليمان الداراني قال : اختلفت الى مجلس قاصٍ فأثر كلامه في قلبي ، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء ، فعدت إليه ثانية فأثر كلامه في قلبي بعدما قمت وفي الطريق ، ثم عدت إليه ثالثة فأثر كلامه في قلبي حتى رجعت الى منزلي ، فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق ، فحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال : عصفور اصطاد كركيا [1] ـ يعني بالعصفور القاص وبالكركي أبا سليمان ـ وقال أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول : ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر ، فإذا سمع به في الأثر عمل به فكان نوراً على نور . وقال الجنيد قال أبو سليمان ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة . قال : وقال أبو سليمان : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس . وقال لكل شيء علم وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله . وقال : لكل شيء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن . وقال كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو شؤم . وقال : كنت ليلة في المحراب أدعو ويداي ممدودتان فغلبني البرد فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبسوطة أدعو بها ، وغلبتني عيني فنمت فهتف بي هاتف : يا أباسليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها . قال : فآليت على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان ، حراً كان أو برداً . وقال : نمت ليلة عن وردي فإذا أنا بحوراء تقول لي : تنام وأنا أربي لك في الخدور منذ خمسمائة عام ؟ وقال أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول : إن في الجنة أنهاراً على شاطئيها خيام فيهن الحور ، ينشىء الله خلق الحوراء إنشاء ، فإذا تكامل خلقها ضربت الملائكة عليهن الخيام ، الواحدة منهن جالسة على كرسي من ذهب ميل في ميل ، قد خرجت عجيزتها من جانب الكرسي ، فيجيء أهل الجنة من قصورهم يتنزهون على شاطىء تلك الأنهار ما شاؤ وا ثم يخلو كل رجل بواحدة منهن . قال أبو سليمان : كيف يكون في الدنيا حال من يريد افتضاض الأبكار على شاطىء تلك الأنهار في الجنة .

وقال : سمعت أبا سليمان يقول : ربما مكثت خمس ليال لا أقرأ بعد الفاتحة بآية واحدة أتفكر في معانيها ، ولربما جاءت الآية من القرآن فيطير العقل ، فسبحان من يرده بعد . وسمعته يقول : أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل ، ومفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع . وقال لي يوماً : يا أحمد جوع قليل وعرى قليل وفقر قليل وصبر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا . وقال أحمد : اشتهى أبو سليمان يوماً رغيفاً حاراً بملح فجئته به فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي ويقول : يا رب عجلت لي شهوتي ، لقد أطلت جهدي وشقوتي وأنا تائب ؟ فلم يذق الملح حتى لحق بالله عزوجل . قال : وسمعته يقول : ما رضيت عن نفسي طرفة عين ، ولو أن

---

(١) كركياً : جمعها كراكي : طائر كبير من فصيلة الكُرْكِيّات ورتبة طِوَال الساق ، أبتر الذنب ، قليل اللحم . يأوي إلى الماء أحياناً .

أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا . وسمعته يقول : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة . وسمعته يقول : من حسن ظنه بالله ثم لم يخفه ويطعه فهو مخدوع. وقال : ينبغي للخوف ان يكون على العبد أغلب الرجاء ، فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب . وقال لي يوماً : هل فوق الصبر منزلة ؟ فقلت : نعم ـ يعني الرضا ـ فصرخ صرخة غشي عليه ثم أفاق فقال : إذا كان الصابرون يوفون أجرهم بغير حساب ، فما ظنك بالأخرى وهم الذين رضي عنهم . وقال : ما يسرني أن لي الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها أنفقه في وجوه البر ، وإني أغفل عن الله طرفة عين . وقال : قال زاهد لزاهد : أوصني ، فقال : لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ، فقال : زدني . فقال : ما عندي زيادة . وقال من أحسن في نهاره كوفيء في ليله ، ومن أحسن في ليله كوفيء في نهاره ، ومن صدق في ترك شهوة أذهبها الله من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له . وقال : إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة ، وإذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها ، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تراحمها الآخرة ، لأن الدنيا لئيمة والآخرة كريمة ، وما ينبغي لكريم أن يزاحم لئيما .

وقال أحمد بن أبي الحواري : بت ليلة عند أبي سليمان فسمعته يقول : وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك ، ولئن طالبتني ببخلي لأطالبنك بكرمك ، ولئن أمرت بي الى النار لأخبرن اهل النار أني أحبك . وكان يقول : لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي . وكان يقول : ما خلق الله خلقاً أهون علي من إبليس ، ولولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً ، ولو تبدى لي ما لطمت إلا صفحة وجهه وقال : إن اللص لا يجيء الى خربة ينقب حيطانها وهو قادر على الدخول إليها من أي مكان شاء ، وإنما يجيء إلى البيت المعمور ، كذلك إبليس لا يجيء إلا إلى كل قلب عامر ليستنزله وينزله عن كرسيه ويسلبه أعز شيء . وقال : إذا أخلص العبد انقطعت عنه الوساوس والرؤ يا . وقال : الرؤ يا ـ يعني الجنابة ـ وقال : مكثت عشرين سنة لم أحتلم[1] فدخلت سمكة ففاتتني صلاة العشاء جماعة فاحتلمت تلك الليلة . وقال : إن من خلق الله قوماً لا يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون بالدنيا عنه ؟ وقال : الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة فما الزهد فيها ، وإنما الزهد في الجنان والحور العين ، حتى لا يرى الله في قلبك غيره . وقال الجنيد : شيء يروى عن أبي سليمان أنا استحسنته كثيراً قوله : من اشتغل بنفسه شغل عن الناس ، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس . وقال : خير السخاء ما وافق الحاجة . وقال : من طلب الدنيا حلالاً واستغناء عن المسألة واستغناء عن الناس لقي الله يوم يلقاه ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ومن طلب الدنيا حلالاً مفاخراً ومكاثراً لقي الله يوم يلقاه وهو عليه غضبان ، وقد روي نحو هذا مرفوعاً . وقال : إن قوماً طلبوا الغنى في المال وجمعه فأخطأوا من حيث ظنوا ، ألا

---

(١) أحتلم : الاحتلام لا يكون إلا أثناء نوم الإنسان .

وإنما الغنى في القناعة ، وطلبوا الراحة في الكثرة وإنما الراحة في القلة ، وطلبوا الكرامة من الخلق وإنما هي في التقوى ، وطلبوا التنعم في اللباس الرقيق اللين ، والطعام الطيب ، والمسكن الأنيق المنيف ، وإنما هو في الإسلام والإيمان والعمل الصالح والستر والعافية وذكر الله . وقال : لولا قيام الليل ما أحببت البقاء في الدنيا وما أحب الدنيا لغرس الأشجار ولا لكري[1] الأنهار . وإنما أحبها لصيام الهواجر وقيام الليل . وقال : اهل الطاعة في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم . وقال : ربما استقبلني الفرح في جوف الليل ، وربما رأيت القلب يضحك ضحكاً . وقال : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً فأقول : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال أحمد بن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان يقول : بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النوم فإذا أنا بها ـ يعني الحوراء ـ قد ركضتني برجلها فقالت : حبيبي أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم ؟ بؤساً لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز ، قم فقد دنا الفراغ ولقي المحبون بعضهم بعضاً ، فما هذا الرقاد؟! حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أتربى لك في الخدور منذ كذا وكذا ؟ قال : فوثبت فزعاً وقد عرقت حياء من توبيخها إياي ، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي . وقال أحمد : دخلت على أبي سليمان فإذا هو يبكي فقلت : مالك ؟ فقال : زجرت البارحة في منامي . قلت : ما الذي زجرك ؟ قال : بينا أنا نائم في محرابي إذ وقفت على جارية تفوق الدنيا حسناً ، وبيدها ورقة وهي تقول : أتنام يا شيخ ؟ فقلت : من غلبت عينه نام قالت : كلا إن طالب الجنة لا ينام ، ثم قالت : أتقرأ ؟ قلت : نعم ، فأخذت الورقة من يدها فإذا فيها مكتوب :

لهتْ بكَ لذةٌ عنْ حسنِ عيشٍ	معَ الخيراتِ في غرفِ الجنانِ
تعيشُ مخلداً لا موتَ فيها	وتنعمُ في الجنانِ معَ الحسانِ
تيقظ من منامكَ إنْ خيراً	منَ النومِ التهجدِ[2] في القرآنِ

وقال أبو سليمان : أما يستحي أحدكم أن يلبس عباءة بثلاثة دراهم وفي قلبه شهوة بخمسة دراهم ؟ وقال أيضاً : لا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات في قلبه ، فإذا لم يبق في قلبه شيء من الشهوات جاز له ان يظهر الى الناس الزهد بلبس العبا فإنها علم من أعلام الزهاد ، ولو لبس ثوبين أبيضين ليستر بهما أبصار الناس عنه وعن زهده كان أسلم لزهده من لبس العبا . وقال : إذا رأيت الصوفي يتنوق في لبس الصوف فليس بصوفي ، وخيار هذه الأمة أصحاب القطن ، أبو بكر الصديق وأصحابه ، وقال غيره : إذا رأيت ضوء الفقير في لباسه فاغسل يديك من فلاحه . وقال أبو سليمان : الأخ الذي يعظك برؤيته قبل كلامه ، وقد كنت أنظر إلى الاخ من

---

(١) لكري : كرى النهر : حفر فيه حفرة جديدة .

(٢) التهجد : صلاة الليل .

أصحابي بالعراق فأنتفع برؤيته شهراً . وقال أبو سليمان قال الله تعالى : عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت زلاتك من أم الكتاب ولم أناقشك الحساب يوم القيامة . وقال أحمد : سألت أبا سليمان عن الصبر فقال : والله إنك لا تقدر عليه في الذي تحب فكيف تقدر عليه فيما تكره ؟ وقال أحمد : تنهدت عنده يوماً فقال : إنك مسؤول عنها يوم القيامة ، فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك ، وإن كانت على فوت دنيا أو شهوة فويل لك . وقال إنما رجع من رجع من الطريق قبل وصول ، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا . وقال إنما عصى الله من عصاه لهوانهم عليه ، ولو عزوا عليه وكرموا لحجزهم عن معاصيه وحال بينهم وبينها . وقال : جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالاً الكرم والحلم والعلم والحكمة والرأفة والرحمة والفضل والصفح والاحسان والبر والعفو واللطف .

وذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب محن المشايخ أن أبا سليمان الداراني أخرج من دمشق وقالوا : إنه يرى الملائكة ويكلمونه ، فخرج إلى بعض الثغور فرأى بعض أهل الشام في منامه أنه إن لم يرجع إليهم هلكوا . فخرجوا في طلبه وتشفعوا له وتذللوا له حتى ردوه .

وقد اختلف الناس في وفاته على أقوال فقيل : مات سنة أربع ومائتين ، وقيل سنة خمس ومائتين ، وقيل خمس عشرة ومائتين ، وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين فالله أعلم . وقد قال مروان الطاطري يوم مات أبو سليمان : لقد أصيب به أهل الاسلام كلهم . قلت ، وقد دفن في قرية داريا في قبلتها ، وقبره بها مشهور وعليه بناء ، وقبلته مسجد بناه الأمير ناهض الدين عمر النهرواني ، ووقف على المقيمين عنده وقفاً يدخل عليهم منه غلة ، وقد جدد مزاره في زماننا هذا ولم أر ابن عساكر تعرض لموضع دفنه بالكلية ، وهذا منه عجيب ، وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبي الحواري قال كنت أشتهي أن أرى أبا سليمان في المنام فرأيته بعد سنة فقلت له : ما فعل الله بك يا معلم ؟ فقال : يا أحمد دخلت يوماً من باب الصغير فرأيت حمل شيخ فأخذت منه عوداً فما أدري تخللت به أو رميته ، فأنا في حسابه إلى الآن . وقد توفى ابنه سليمان بعده بنحو من سنتين رحمهما الله تعالى .

ثم دخلت سنة ست ومائتين

فيها ولى المأمون داود بن ماسجور بلاد البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ، وأمره بمحاربة الزط. وفيها جاء مد كثير فغرق أرض السواد وأهلك للناس شيئاً كثيراً . وفيها ولّى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين أرض الرقة وأمره بمحاربة نصر بن شبث ، وذلك أن نائبها يحيى بن معاذ مات وقد كان استخلف مكانه ابنه أحمد فلم يمض ذلك المأمون ، واستناب عليها عبد الله بن طاهر لشهامته وبصره بالأمور ، وحثه على قتال نصر بن شبث ، وقد كتب إليه أبوه من خراسان بكتاب

فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع الكتاب والسنة . وقد ذكره ابن جرير بطوله ، وقد تداوله الناس بينهم واستحسنوه وتهادوه بينهم ، حتى بلغ أمره الى المأمون فأمر فقرىء بين يديه فاستجاده جداً ، وأمر أن يكتب به نسخ الى سائر العمال في الأقاليم . وحج بالناس عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين ، وفيها توفي إسحاق بن بشر الكاهلي أبو حذيفة صاحب كتاب المبتدأ . وحجاج بن محمد الأعور . وداود بن المحبر الذي وضع كتاب العقل . وسبابة بن سوار (شبابة) ومحاضر بن المورد. وقطرب صاحب المثلث في اللغة . ووهب بن جرير . ويزيد بن هارون شيخ الامام أحمد .

ثم دخلت سنة سبع ومائتين

فيها خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عك في اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ، وذلك لما أساء العمال السيرة وظلموا الرعايا ، فلما ظهر بايعه الناس فبعث اليه المأمون دينار بن عبد الله في جيش كثيف ومعه كتاب أمان لعبد الرحمن هذا أن هو سمع وأطاع ، ! فحضروا الموسم ثم ساروا الى اليمن وبعثوا بالكتاب إلى عبد الرحمن فسمع وأطاع وجاء حتى وضع يده في يد دينار ، فساروا به الى بغداد ولبس السواد فيها .

وفي هذه السنة توفي طاهر بن الحسين بن مصعب نائب العراق وخراسان بكمالها ، وجد في فراشه ميتاً بعد ما صلَّى العشاء الآخرة والتف في الفراش ، فاستبطأ أهله خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجداه ميتاً ، فلما بلغ موته المأمون قال : لليدين وللفم الحمد لله الذي قدَّمه وأخرنا . وذلك أنه بلغه أن طاهراً خطب يوماً ولم يدع للمأمون فوق المنبر ، ومع هذا ولَّى ولده عبد الله مكانه وأضاف إليه زيادة على ما كان ولَّاه أباه الجزيرة والشام نيابة فاستخلف على خراسان أخاه طلحة بن طاهر سبع سنين ، ثم توفي طلحة فاستقل عبد الله بجميع تلك البلاد ، وكان نائبه على بغداد إسحاق بن ابراهيم وكان طاهر بن الحسين هو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله ، وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له، ثم نظر اليه المأمون واغرورقت عيناه فقال له طاهر ، ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فلم يخبره ، فأعطى طاهر حسيناً الخادم مائتي ألف درهم حتى استعلم له مما بكى أمير المؤمنين فأخبره المأمون وقال لا تخبر به أحداً [وإلا] أقتلك ، إني ذكرت قتله لأخي وما ناله من الاهانة على يدي طاهر ، ووالله لا تفوته مني . فلما تحقق طاهر ذلك سعى في النقلة من بين يدي المأمون ، ولم يزل حتى ولَّاه خراسان وأطلق له خادماً من خدامه ، وعهد المأمون الى الخادم إن رأى منه شيئاً يريبه أن يسمه ، ودفع إليه سما لا يطاق . فلما خطب طاهر ولم يدع للمأمون سمه الخادم في كامخ[1] فمات من ليلته . وقد كان طاهر هذا يقال له ذو اليمينين ، وكان أعور بفرد عين . فقال فيه عمرو بن نباتة :

---

(١) كامخ : جمعها كوامخ : أدام يُؤْتَدَم به . وخصَّه بعضهم بالمخلَّلات التي تُسْتَعمل لتشهِّي الطعام (فارسية) .

يـا ذا الـيـمـيـنـيـن وعـيـنٌ واحـدة نـقـصـانُ عـيـنٍ ويـمـيـنٌ زائـدة

واختلف في معنى قوله ذو اليمينين فقيل لأنه ضرب رجلاً بشماله فقدَّه نصفين ، وقيل لأنه ولّي العراق وخراسان . وقد كان كريماً ممدحاً يحب الشعراء ويعطيهم الجزيل ، ركب يوماً في حرّاقة فقال فيه شاعر :ـ

عـجبـتُ لحـراقـةِ(١) ابـن الحسينِ لا غـرقـتْ كـيـفَ لا تـغـرقُ

وبـحـران مـن فـوقـهـا واحـدٌ وآخـرُ مـن تـحـتِـهـا مُـطبـقُ

وأعـجـبُ مـن ذلـكَ أعـوادهـا وقـد مـسَّـهـا كـيـفَ لا تـورقُ

فأجازه بثلاثة آلاف دينار . وقال إن زدتنا زدناك . قال ابن خلكان : وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في بعض الرؤساء وقد ركب البحر :

ولمـا امتـطَى البحـرَ ابتهلتُ تضـرّعـاً إلى الله يـا مُجـري الـريـاحِ بلطفـهِ

جعلتَ النـدا من كفـه مثـلَ مـوجِـهِ فسلّمـه واجعـلْ مـوجـه مثـل كفـهِ

مات طاهر بن الحسين هذا يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين ، وكان مولده سنة سبع وخمسين ، وكان الذي سار إلى ولده عبد الله إلى الرقة يعزيه في أبيه ويهنيه بولاية تلك البلاد ، القاضي يحيى بن أكثم عن أمر المأمون . وفيها غلا السعر ببغـداد والكوفـة والبصرة ، حتى بلغ سعر القفيز من الحنطة أربعين درهماً . وفيها حج بالناس أبو علي بن الرشيد أخو المأمون .

وفيها توفي بشر بن عمر الزهراني . وجعفر بن عون . وعبد الصمد بن عبد الوارث . وقراد بـن نوح . وكثير بن هشام . ومحمد بن كناسة . ومحمد بن عمر الواقدي قاضي بغداد وصاحب السير والمغازي . وأبو النضر هاشم بن القاسم . والهيثم بن عدي صاحب التصانيف .

يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور

أبـو زكـريـا الكـوفي نـزيـل بغـداد مـولى بني سعـد المشهـور بـالفـراء شيـخ الـنحـاة والـلغـويـين والـقـراء ، كـان يـقـال لـه أمـير المـؤمـنـين في الـنـحـو ، وروى الحـديث عن حـازم بن الحسن البصـري عن مـالـك بن دينـار عن أنس بـن مـالـك . قال : « قرأ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان مالك يوم الدين بألف » رواه الخطيب قال : وكان ثقة إماماً . وذكر أن المأمون أمره بوضع كتاب في النحو فأملاه وكتبه الناس عنه ، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن ، وأنه كان يؤدب ولديه وليـي العهد من بعده ، فقام يوماً فابتدراه أيهما يقدم نعليه ،

(١) حرَّاقة : السفينة فيها مرامي نيران يُرْمى بها العدو .

فتنازعا في ذلك ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما نعلاً ، فأطلق لهما أبوهما عشرين ألف دينار ، وللفراء عشرة آلاف درهم . وقال له : لا أعز منك إذ يقدم نعليك ولدا أمير المؤمنين ووليا العهد من بعده . وروى أن بشر المريسي أو محمد بن الحسن سأل الفراء عن رجل سها في سجدتي السهوفقال : لا شيء عليه . قال : ولم ؟ قال : لأن أصحابنا قالوا المصغر لا يصغر . فقال : ما رأيت أن امرأة تلد مثلك . والمشهور أن محمداً هو الذي سأله عن ذلك وكان ابن خالة الفراء ، وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي : توفي الفراء سنة سبع ومائتين . قال الخطيب : كانت وفاته ببغداد ، وقيل بطريق مكة ، وقد امتدحوه وأثنوا عليه في مصنفاته .

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

فيها ذهب الحسن بن الحسين بن مصعب أخو طاهر فارا من خراسان إلى كرمان فعصى بها ، فسار إليه أحمد بن أبي خالد فحاصره حتى نزل قهراً ، فذهب به إلى المأمون فعفا عنه فاستحسن ذلك منه . وفيها استعفى محمد بن سماعة من القضاء فأعفاه المأمون وولّى مكانه إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة . وفيها ولّى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزومي القضاء بعسكر المهدي في شهر المحرم ، ثم عزله عن قريب وولّى مكانه بشر بن سعيد بن الوليد الكندي في شهر ربيع الأول منها . فقال المخزومي في ذلك : ـ

ألا أيّها الملكُ الموحّدُ ربَّهُ	قاضيك بشرُ بن الوليدِ حمارُ
ينفي شهادةَ من يدين بما بهِ	نطقَ الكتاب وجاءت الأخبارُ
ويعدُ عدلاً من يقول بأنهُ	شيخٌ تحيط بجسمهِ الأقطارُ

وفيها حج بالناس صالح بن هارون الرشيد عن أمر أخيه المأمون .

وفيها توفي من الأعيان : الأسود بن عامر . وسعيد بن عامر . وعبد الله بن بكر أحد مشايخ الحديث . والفضل بن الربيع الحاجب . ومحمد بن مصعب . وموسى بن محمد الأمين الذي كان قد ولَّاه العهد من بعده ولقبه بالناطق فلم يتم له أمره حتى قتل أبوه وكان ما كان كما تقدم . ويحيى بن أبي بكر . ويحيى بن حسان . ويعقوب بن إبراهيم الزهري . ويونس بن محمد المؤدب .

وفاة السيدة نفيسة

وهي نفيسة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، القرشية الهاشمية ، كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنين ، ثم غضب المنصور عليه فعزله عنها وأخذ منه كل ما كان يملكه وما كان جمعه منها ، وأودعه السجن ببغداد ، فلم يزل به حتى توفي المنصور فأطلقه المهدي وأطلق له كل ما كان أخذ منه ، وخرج معه إلى الحج في سنة ثمان

وستين ومائة ، فلما كان بالحاجر توفي عن خمس وثمانين سنة . وقد روى له النسائي حديثه عن عكرمة عن ابن عباس « أن رسول الله ﷺ احتجم وهو محرم » . وقد ضعفه ابن معين وابن عدي ، ووثقه ابن حبان . وذكره الزبير بن بكار وأثنى عليه في رياسته وشهامته . والمقصود أن ابنته نفيسة دخلت الديار المصرية مع زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر ، فأقامت بها وكانت ذات مال فأحسنت إلى الناس والجذمى[1] والزمني[2] والمرضى وعموم الناس، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير . ولما ورد الشافعي مصر أحسنت اليه وكان ربما صلى بها في شهر رمضان . وحين مات أمرت بجنازته فأدخلت إليها المنزل فصلت عليه . ولما توفيت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية فمنعه أهل مصر من ذلك وسألوه أن يدفنها عندهم ، فدفنت في المنزل الذي كانت تسكنه بمحلة كانت تعرف قديماً بدرب السباع بين مصر والقاهرة ، وكانت وفاتها في شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكره ابن خلكان . قال : ولأهل مصر فيها اعتقاد . قلت : وإلى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً جداً ، ولا سيما عوام مصر فإنهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك ، وألفاظاً كثيرة ينبغي أن يعرفوا أنها لا تجوز . وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من سلالته . والذي ينبغي أن يعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات ، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها ، وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها ، والمغالاة في البشر حرام . ومن زعم أنها تفك من الخشب أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك . رحمها الله وأكرمها .

الفضل بن الربيع

ابن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان ، كان الفضل هذا متمكناً من الرشيد ، وكان زوال دولة البرامكة على يديه ، وقد وزر مرة للرشيد ، وكان شديد التشبه بالبرامكة ، وكانوا يتشبهون به ، فلم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكوا كما تقدم . وذكر ابن خلكان أن الفضل هذا دخل يوماً على يحيى بن خالد وابنه جعفر يوقع بين يديه ، ومع الفضل عشر قصص فلم يقض له منها واحدة ، فجمعهن الفضل بن الربيع وقال : ارجعن خائبات خاسئات ثم نهض وهو يقول :

عَسَى وعَسَى يثْني الـزمـانّ عِنـانـهُ	بتصـريـفِ حـالٍ والـزمـانُ عثـورُ
فنقـضى لُبـانـات وتشـفي حـزائـز	وتـحـدثُ مـن بـعـدِ الأمـورِ أمـور

---

(١) الجذمى : مفردها الأَجْذَم المقطوع اليد أو الأنامل .

(٢) الزمنى : مفردها الزمين وهو المصاب بالزَّمَانة .

فسمعه الوزير يحيى بن خالد فقال له : أقسمت عليك لما رجعت ، فأخذ منه القصص فوقع عليها . ثم لم يزل يحفر خلفهم حتى تمكن منهم وتولى الوزارة بعدهم ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

ما رعى الدهرَ آل برمكَ لما أن رمى ملكهم بأمرٍ فظيعِ
إن دهراً لم يرع ذمةَ ليحيى غير راعٍ ذمامَ آلِ الربيعِ

ثم وزر من بعد الرشيد لابنه الأمين فلما دخل المأمون بغداد اختفى فأرسل له المأمون أماناً فخرج فجاء فدخل على المأمون بعد اختفاء مدة فأمنه ، ثم لم يزل خاملاً حتى مات في هذه السنة ، وله ثمان وستون سنة .

ثم دخلت سنة تسع ومائتين

فيها حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شبث بعدما حاربه خمس سنين وضيق عليه جداً حتى ألجأه إلى أن طلب منه الأمان ، فكتب ابن طاهر إلى المأمون يعلمه بذلك ، فأرسل إليه أن يكتب له أماناً عن أمير المؤمنين . فكتب له كتاب أمان فنزل فأمر عبد الله بتخريب المدينة التي كان متحصناً بها ، وذهب شره وفيها جرت حروب مع بابك الخرمي فأسر بابك بعض أمراء الإسلام وأحد مقدمي العساكر ، فاشتد ذلك على المسلمين . وفيها حج بالناس صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو والي مكة . وفيها توفي ملك الروم ميخائيل بن نقفور (جرجس) وكان له عليهم تسع سنين ، فملكوا عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل .

وفيها توفي من مشايخ الحديث : الحسن بن موسى الأشيب ، وأبو علي الحنفي . وحفص بن عبد الله قاضي نيسابور . وعثمان بن عمر بن فارس . ويعلى بن عبيد الطنافسي .

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

في صفر منها دخل نصر بن شبث بغداد ، بعثه عبد الله بن طاهر فدخلها ولم يتلقاه أحد من الجند بل دخلها وحده ، فأنزل في مدينة أبي جعفر ثم حول إلى موضع آخر . وفي هذا الشهر ظفر المأمون بجماعة من كبراء من كان بايع إبراهيم بن المهدي فعاقبهم وحبسهم في المطبق ، ولما كان ليلة الأحد لثلاث عشرة من ربيع الآخر اجتاز إبراهيم بن المهدي ـ وكان مختفياً مدة ست سنين وشهوراً متنقباً في زي امرأة ومعه امرأتان ـ في بعض دروب بغداد في أثناء الليل ، فقام الحارس فقال : إلى أين هذه الساعة ؟ ومن أين ؟ ثم أراد أن يمسكهن فأعطاه إبراهيم خاتماً كان في يده من ياقوت ، فلما نظر إليه استراب[1] وقال : إنما هذا خاتم رجل كبير الشأن ، فذهب بهن إلى متولي الليل فأمرهن أن يسفرن عن وجوههن ، فتمنع إبراهيم فكشفوا عن وجهه فإذا هو هو ، فعرفه فذهب

---

(١) استراب : وقعت في نفسه الريبة والشك .

به إلى صاحب الجسر فسلّمه إليه فرفعه الآخر إلى باب المأمون ، فأصبح في دار الخلافة ونقابه على رأسه والملحفة في صدره ليراه الناس ، وليعلموا كيف أخذ . فأمر المأمون بالاحتفاظ به والاحتراس عليه مدة ، ثم أطلقه ورضي عنه . هذا وقد صلب جماعة ممن كان سجنهم بسببه لكونهم أرادوا الفتك بالموكلين بالسجن ، فصلب منهم أربعة .

وقد ذكروا أن إبراهيم لما وقف بين يدي المأمون أنبَّه على ما كان منه فترقق له عمه إبراهيم كثيراً ، وقال : يا أمير المؤمنين إن تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك . فقال: بل أعفو يا إبراهيم إن القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة وبينهما عفو الله عز وجل ، وهو أكبر مما تسأله ، فكبر إبراهيم وسجد شكراً لله عز وجل .

وقدا متدح إبراهيم بن المهدي ابن أخيه المأمون بقصيدة بالغ فيها، فلما سمعها المأمون قال : أقول كما قال يوسف لأخوته: ﴿ لا تَثْرِيبَ عليكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لكمْ وهو أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] . وذكر ابن عساكر أن المأمون لما عفا عن عمه إبراهيم أمره أن يغنيه شيئاً فقال: إني تركته . فأمره فأخذ العود في حجره وقال :

هـذا مقـام سـرورٍ خـربت منـازلـه ودوره ... نمت عليـهِ عـداتـه كـذبـاً فعـاقبـهُ أميـره

ثم عاد فقال :

ذهبتُ من الـدنيـا وقـد ذهبت عـني ... لـوى الدهـر بي عنهـا وولّى بهـا عني

فـإنْ أبـكِ نفسي أبـكِ نفساً عـزيـزةً ... وإن أحتقـرهـا أحتقـرهـا على ضغنِ

وإنـي وإن كنتُ الـمسـيءَ بِعَيْنِـهِ ... فـإنـي بـربي مُـوقـنٌ حَسَنُ الـظنّ

عَـدَوتُ على نفسـي فـعـادَ بعفـوهِ ... عـليّ فعـادَ العفـوُ مَنًّـا عـلى مـنّ

فقال المأمون : أحسنت يا أمير المؤمنين حقاً . فرمى العود من حجره ووثب قائماً فزعاً من هذا الكلام ، فقال له المأمون : اجلس واسكن مرحباً بك وأهلاً ، لم يكن ذلك لشيء تتوهمه ، ووالله لا رأيت طول أيامي شيئاً تكرهه . ثم أمر له بعشرة آلاف دينار وخلع عليه ، ثم أمر له برد جميع ما كان له من الأموال والضياع والدور فردت إليه ، وخرج من عنده مكرماً معظماً .

عـرس بـوران

وفي رمضان منها بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ، وقيل إنه خرج في رمضان إلى معسكر الحسن بن سهل بفم الصلح ، وكان الحسن قد عوفي من مرضه ، فنزل المأمون عنده بمن

---

(١) سورة يوسف ، الآية/ ٩٢ .

معه من وجوه الأمراء والرؤساء وأكابر بني هاشم ، فدخل ببوران في شوّال من هذه السنة في ليلة عظيمة وقد أشعلت بين يديه شموع العنبر ، ونثر على رأسه الدر والجوهر ، فوق حصر منسوجة بالذهب الأحمر ، وكان عدد الجوهر منه ألف درة ، فأمر به فجمع في صينية من ذهب كان الجوهر فيها فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نثرناه لتتلقطه الجواري ، فقال : لا أنا أعوضهن من ذلك . فجمع كله ، فلما جاءت العروس ومعها جدتها زبيدة أم أخيه الأمين ـ من جملة من جاء معها ـ فأجلست إلى جانبه فصب في حجرها ذلك الجوهر وقال : هذا نحلة مني إليك وسلي حاجتك ، فأطرقت حياء . فقالت جدتها : كلمي سيدك وسليه حاجتك فقد أمرك . فقالت : يا أمير المؤمنين أسألك أن ترضى عن عمك إبراهيم بن المهدي ، وأن ترده إلى منزلته التي كان فيها ، فقال : نعم ! فقالت : وأم جعفر ـ تعني زبيدة ـ تأذن لها في الحج . قال نعم ! فخلعت عليها زبيدة بذلتها الأميرية وأطلقت له قرية مقورة . وأما والد العروس الحسن بن سهل فإنه كتب أسماء قراه وضياعه وأملاكه في رقاع ونثرها على الأمراء ووجوه الناس، فمن وقعت بيده رقعة في قرية منها بعث الى القرية التي فيها نوابه فسلمها إليه ملكاً خالصاً . وأنفق على المأمون ومن كان معه من الجيش في مدة أقامته عنده سبعة عشر يوماً ما يعادل خمسين ألف ألف درهم . ولما أراد المأمون الانصراف من عنده أطلق له عشرة آلاف ألف درهم ، وأقطعه البلد الذي هو نازل بها ، وهو إقليم فم الصلح مضافاً إلى ما بيده من الاقطاعات . ورجع المأمون إلى بغداد في أواخر شوال من هذه السنة . وفي هذه السنة ركب عبد الله بن طاهر إلى مصر فاستنقذها بأمر المأمون من يد عبيد الله بن السري بن الحكم المتغلب عليها ، واستعادها منه بعد حروب يطول ذكرها . وفيها توفي من الأعيان أبو عمرو الشيباني اللغوي واسمه إسحاق بن مراد . ومروان بن محمد الطاطري . ويحيى بن إسحاق والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

فيهاً توفي أبو الجواب . وطلق بن غنام . وعبد الرزاق بن همام الصنعاني صاحب المصنف والمسند . وعبد الله بن صالح العجلي .

أبو العتاهية الشاعر المشهور

واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أصله من الحجاز ، وقد كان تعشق جارية للمهدي اسمها عتبة ، وقد طلبها منه غير مرة فإذا سمح له بها لم ترده الجارية ، وتقول للخليفة : أتعطيني لرجل دميم الخلق كان يبيع الجرار ؟ فكان يكثر التغزل فيها ، وشاع أمره واشتهر بها ، وكان المهدي يفهم ذلك منه . واتفق في بعض الأحيان أن المهدي استدعى الشعراء إلى مجلسه وكان فيهم أبو العتاهية وبشار بن برد الأعمى ، فسمع صوت أبي العتاهية . فقال بشار لجليسه : أثم ههنا أبو العتاهية ؟ قال : نعم . فانطلق يذكر قصيدته فيها التي أولها :

ألا مـا لـسـيّـدتي مـالَـهـا أدلَّتْ فـأجـمـلَ إدلالـهـا

فقال بشار لجليسه : ما رأيتُ أجسرَ من هذا حتى انتهى أبوالعتاهية إلى قوله :

أتـتـهُ الـخـلافة مـنـقـادةً إلـيـهِ تـجـرِّرُ أذيـالـهـا
فـلم تـكُ تـصـلحُ إلاّ لـهُ ولـمَ يـكُ يـصـلحُ إلاّ لـهـا
ولـو رامَـهـا أحـدٌ غـيـرُه لَـزُلْـزلـت الأرضَ زلـزالـهـا
ولو لم تـطعْـهُ بنـاتُ القُلوبِ لـمـا قَبِـلَ الـلّهُ أعمـالـهـا

فقال بشار لجليسه : انظروا أطار الخليفة عن فراشه أم لا ؟ قال : فوالله ما خرج أحد من الشعراء يومئذ بجائزة غيره . قال ابن خلكان : اجتمع أبو العتاهية بأبي نواس ـ وكان في طبقته وطبقة بشار . فقال أبوالعتاهية لأبي نواس : كما تعمل في اليوم من الشعر ؟ قال : بيتاً أو بيتين . فقال : لكني أعمل المائة والمائتين . فقال أبو نواس : لعلك تعمل مثل قولك :

يـا عُـتْـبُ مـالي ولـكْ يـا لـيـتَـنـي لـم أرَكْ

ولو عملت أنا مثل هذا لعملت الألف والألفين وأنا أعمل مثل قولي :

من كفِّ ذاتِ حَرٍ في زيٍّ ذي ذَكَرٍ لـهـا مُحِبّـانِ : لـوطـيٌّ وزنّـاءُ

ولو أردت مثلي لأعجزك الدهر قال ابن خلكان : ومن لطيف شعر أبي العتاهية :

إني صـبـوتُ إلـيـكِ حـ ـتى صـرتُ من فـرطِ الـتـصـابي[1]
يجـدُ الجـليسُ إذا دنـا[2] ريـحَ الـتـصـابي في ثـيـابي

وكان مولده سنة ثلاثين ومائة . وتوفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وقيل ثلاث عشرة ومائتين ، وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد :

إن عـيـشـاً يـكـون آخـرهُ المـو تُ لـعـيش مـعـجَّـلُ الـتـنـغـيصِ

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين

فيها وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي على طريق الموصل لمحاربة بابك الخرمي في أرض أذربيجان ، فأخذ جماعة من المتلفين عليه فبعث بهم إلى المأمون . وفي ربيع الأول أظهر المأمون في الناس بدعتين فظيعتين إحداهما أطم من الأخرى ، وهي القول بخلق القرآن ، والثانية تفضيل علي بن أبي

---

(١) التصابي : العشق والصبوة .

(٢) دنا : اقترب .

طالب على الناس بعد رسول الله ﷺ وقد أخطأ في كل منها خطأ كبيراً فاحشاً ، وأثم إثماً عظيماً . وفيها حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسي . وفيها توفي أسد بن موسى الذي يقال له أسد السنة . والحسن بن جعفر . وأبو عاصم النبيل واسمه الضحاك بن مخلد ، وأبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي الدمشقي . ومحمد بن يونس الفريابي شيخ البخاري .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

فيها ثار رجلان عبد السلام وابن جليس فخلعا المأمون واستحوذا على الديار المصرية ، وتابعهما طائفة من القيسية واليمانية ، فولى المأمون أخاه أبا إسحاق نيابة الشام ، وولى ابنه العباس نيابة الجزيرة والثغور والعواصم ، وأطلق لكل منهما ولعبد الله بن طاهر ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . فلم ير يوم أكثر إطلاقاً منه ، أطلق فيه لهؤلاء الأمراء الثلاثة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار . وفيها ولى السند غسان بن عباد . وحج بالناس أمير السنة الماضية . وفيها توفي عبد الله بن داود الجريني . وعبد الله بن يزيد المقري المصري . وعبد الله بن موسى العبسي . وعمرو بن أبي سلمة الدمشقي ، وحكى ابن خلكان أن بعضهم قال : وفيها توفي إبراهيم بن ماهان الموصلي النديم . وأبو العتاهية . وأبو عمرو الشيباني النحوي في يوم واحد ببغداد ، ولكنه صحح أن إبراهيم النديم توفي سنة ثمان وثمانين ومائة . قال السهيلي : وفيها توفي عبد الملك بن هشام راوي السيرة عن ابن إسحاق . حكاه ابن خلكان عنه ، والصحيح أنه توفي سنة ثمان عشرة ومائتين ، كما نص عليه أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر .

العكوك الشاعر

أبو الحسن بن علي بن جبلة الخراساني يلقب بالعكوك ، وكان من الموالي ولد أعمى وقيل بل أصابه جدري وهو ابن سبع سنين ، وكان أسود أبرص ، وكان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً ، وقد أثنى عليه في شعره الجاحظ فمن بعده . قال : ما رأيت بدوياً ولا حضرياً أحسن إنشاء منه . فمن ذلك قوله :

بأبي من زارني مُتكّتماً ... حذَراً من كل شيء جزعا
زائراً نمّ عليه حُسْنهُ ... كيف يخفي الليلُ بدراً طلعا
رصد الخلوةَ حتى أمكنت ... ورعى السامرَ[1] حتى هجعا[2]
ركبَ الأهوالَ في زَوْرتهِ ... ثمَّ ما سلّمَ حتى رجعا

---

(١) السامر : السّاهر .
(٢) هجعا : نام .

وهو القائل في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي :

إنما الدنيا أبو دلفٍ بينَ مغزاهُ ومُحتَضَرهْ
فإذا ولّى أبو دلفٍ ولّتْ الدنيا على أثرهْ
كلّ من في الأرضِ من عربٍ بينَ باديه الى حضرهْ
يرتجيهِ نيلَ مكرمةٍ يأتيها يومَ مفتخرهْ

ولما بلغ المأمون هذه الأبيات ـ وهي قصيدة طويلة ـ عارض فيها أبا نواس فتطلبه المأمون فهرب منه ثم أحضر بين يديه فقال له : ويحك فضلت القاسم بن عيسى علينا . فقال : يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت اصطفاكم الله من بين عباده ، وآتاكم ملكاً عظيماً ، وإنما فضلته على أشكاله وأقرانه . فقال : والله ما أبقيت أحداً حيث تقول :

بكلّ من في الأرضِ من عَرَبٍ بينَ باديهِ الى حضرهْ

ومع هذا فلا أستحل قتلك بهذا ، ولكن بشركك وكفرك حيث تقول في عبد ذليل :

أنت الذي تنزل الأيامُ منزلها وتنقلُ الدهر من حالٍ إلى حالِ
وما مددتَ طرْفٍ إلى أحدٍ إلا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ

ذاك الله يفعله ، أخرجوا لسانه من قفاه . فأخرجوا لسانه في هذه السنة فمات . وقد امتدح حميد بن عبد الحميد الطوسي :

إنما الدنيا حميدٌ وأياديهِ جسامُ
فاذا ولّى حميدٌ فعلى الدنيا السلام

ولما مات حميد هذا رثاه أبو العتاهية بقوله :

أبا غانم أما ذراك فواسعٌ وقبركَ معمور الجوانبِ محكمٌ
وما ينفع المقبورَ عمرانَ قبرهِ إذا كانَ فيهِ جسمهُ يتهدمُ

وقد أورد ابن خلكان لعكوك هذا أشعاراً جيدة تركناها اختصاراً .

ثم دخلت سنة اربع عشرة ومائتين

في يوم السبت لخمس بقين من ربيع الأول منها التقى محمد بن حميد وبابك الخرمي لعنه الله ، فقتل الخرمى خلقاً كثيراً من جيشه ، وقتله أيضاً وانهزم بقية أصحاب ابن حميد ، فبعث المأمون إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكثم إلى عبد الله بن طاهر يخيرانه بين خراسان ، ونيابة الجبال وأذربيجان وأرمينية ومحاربة بابك ، فاختار المقام بخراسان لكثرة احتياجها الى الضبط ، وللخوف من

ظهور الخوارج . وفيها دخل أبو إسحاق بن الرشيد الديار المصرية فانتزعها من يد عبد السلام وابن جليس وقتلهما . وفيها خرج رجل يقال له بلال الضبابي فبعث إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من الأمراء فقتلوا بلالاً ورجعوا الى بغداد . وفيها ولَّى المأمون علي بن هشام الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان . وفيها حج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وفيها توفي أحمد بن خالد الموهبي .

أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح

أبو جعفر الكاتب ولِّي ديوان الرسائل للمأمون . ترجمه ابنُ عساكر وأورد من شعره قوله :

قد يرزقِ المرءَ من غيرِ حيلةٍ صدرتْ ... ويصرفَ الرزقَ عن ذي الحيلةِ الداهي
ما مسني من غنى يوماً ولا عدم[1] ... إلا وقولي عليهِ الحمدُ لله

وله أيضاً :

إذا قلتَ في شيءٍ نعم فأتمه ... فانّ نعمْ دينٌ على الحرِ واجبُ
وإلا فقلْ لا تستريحَ بها ... لئلا يقولَ الناسَ إنكَ كاذبُ

وله :

إذا المرءَ أفشى سرَه بلسانهِ ... فلامَ عليهِ غيرَه فهوَ أحمقُ
إذا ضاق صدرَ المرءِ عن سرِ نفسهِ ... فصدرُ الذي يستودعُ السرَ أضيقُ

وحسن بن محمد المروزي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الحكم المصري . ومعاوية بن عمر .

أبو محمد عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع المصري

أحد من قرأ الموطأ على مالك وتفقه بمذهبه ، وكان معظماً ببلاد مصر ، وله بها ثروة وأموال وافرة . وحين قدم الشافعي مصر أعطاه ألف دينار ، وجمع له من أصحابه ألفي دينار ، وأجرى عليه وهو والد محمد بن عبد الله بن الحكم الذي صحب الشافعي . ولما توفي في هذه السنة دفن إلى جانب قبر الشافعي . ولما توفي ابنه عبد الرحمن دفن إلى جانب أبيه من القبلة . قال ابن خلكان فهي ثلاثة أقبر الشافعي شاميها . وهما قبلته . رحمهم الله .

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

في أواخر المحرم منها ركب المأمون في العساكر من بغداد قاصداً بلاد الروم لغزوهم .

---

(١) عدم : فقر .

واستخلف على بغداد وأعمالها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلما كان بتكريت تلقاه محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من المدينة النبوية ، فأذن له المأمون في الدخول على ابنته أم الفضل بنت المأمون . وكان معقود العقد عليها في حياة أبيه علي بن موسى ، فدخل بها ، وأخذها معه إلى بلاد الحجاز . وتلقاه أخوه أبو إسحاق بن الرشيد من الديار المصرية قبل وصوله إلى الموصل . وسار المأمون في جحافل كثيرة إلى بلاد طرسوس فدخلها في جمادى الأولى ، وفتح حصناً هناك عنوة وأمر بهدمه ، ثم رجع إلى دمشق فنزلها وعمر دير مرات بسفح قاسيون، وأقام بدمشق مدة ، وحج بالناس فيها عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسي .

وفيها توفي أبو زيد الأنصاري . ومحمد بن المبارك الصوري . وقبيصة بن عقبة. وعلي بن الحسن بن شقيق . ومكي بن إبراهيم .

أبو زيد الأنصاري

فهو سعيد بن أوس بن ثابت البصري اللغوي أحد الثقات الاثبات ويقال إنه كان يرى ليلة القدر . قال أبو عثمان المازني : رأيت الأصمعي جاء إلى أبي زيد الأنصاري وقبَّل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة . قال ابن خلكان : وله مصنفات كثيرة ، منها خلق الانسان ، وكتاب الابل ، وكتاب المياه ، وكتاب الفرس والترس ، وغير ذلك توفي في هذه السنة ، وقيل في التي قبلها أو التي بعدها ، وقد جاوز التسعين ، وقيل إنه قارب المائة . وأما أبو سليمان فقد قدمنا ترجمته .

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

فيها عدا ملك الروم وهو توفيل بن ميخائيل على جماعة من المسلمين فقتلهم في أرض طرسوس نحواً من ألف وستمائة إنسان ، وكتب إلى المأمون فبدأ بنفسه ، فلما قرأ المأمون كتابه نهض من فوره إلى بلاد الروم عوداً على بدء وصحبته أخوه أبو إسحاق بن الرشيد نائب الشام ومصر ، فافتتح بلداناً كثيرة صلحاً وعنوة ، وافتتح أخوه ثلاثين حصناً ، وبعث يحيى بن أكثم في سرية إلى طوانة فافتتح بلاداً كثيرة وأسر خلقاً وحرق حصوناً عدة ، ثم عاد إلى العسكر . وأقام المأمون ببلاد الروم من نصف جمادى الآخرة إلى نصف شعبان ، ثم عاد إلى دمشق وقد وثب رجل يقال له عبدوس الفهري في شعبان من هذه السنة ببلاد مصر ، فتغلب على نواب إبي إسحاق بن الرشيد واتبعه خلق كثير ، فركب المأمون من دمشق يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة إلى الديار المصرية ، فكان من أمره ما سنذكره .

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد يأمره أن يأمر الناس بالتكبير عقيب الصلوات الخمس ، فكان أول ما بدىء بذلك في جامع بغداد والرصافة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان ، وذلك أنهم كانوا إذا قضوا الصلاة قام الناس قياماً فكبّروا ثلاث تكبيرات ، ثم

استمروا على ذلك في بقية الصلوات . وهذه بدعة أحدثها المأمون أيضاً بلا مستند ولا دليل ولا معتمد ، فإن هذا لم يفعله قبله أحد ، ولكن ثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر كان على عهد رسول الله ﷺ ليعلم حين ينصرف الناس من المكتوبة ، وقد استحب هذا طائفة من العلماء كابن حزم وغيره . وقال ابن بطال : المذاهب الأربعة على عدم استحبابه . قال النووي : وقد روى عن الشافعي أنه قال : إنما كان ذلك ليعلم الناس أن الذكر بعد الصلوات مشروع ، فلما علم ذلك لم يبق للجهر معنى . وهذا كما روى عن ابن عباس أنه كان يجهر في الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلم الناس أنها سنة ، ولهذا نظائر والله أعلم .

وأما هذه البد عة التي أمر بها المأمون فانها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف . وفيها وقع برد شديد جداً . وفيها حج بالناس الذي حج بهم في العام الماضي ، وقيل غيره والله أعلم . وفيها توفي حبان بن هلال . وعبد الملك بن قريب الأصمعي صاحب اللغة والنحو والشعر وغير ذلك . ومحمد بن بكار بن هلال . وهوذة بن خليفة .

زبيدة امرأة الرشيد وابنة عمه

وهي ابنة جعفر أم العزيز الملقبة زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسية الهاشمية القرشية ، كانت أحب الناس إلى الرشيد، وكانت ذات حسن باهر وجمال طاهر، وكان له معها من الحظايا[1] والجواري والزوجات غيرها كثيراً كما ذكرنا ذلك في ترجمته ، وإنما لقبت زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور كان يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة ويقول : إنما أنت زبيدة ، لبياضها ، فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به ، وأصل اسمها أم العزيز . وكان لها من الجمال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شيء كثير : وروى الخطيب أنها حجت فبلغت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم ، ولما هنأت المأمون بالخلافة قالت : هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك ، ولئن كنت فقدت ابنا خليفة لقد عوضت ابنا خليفة لم ألده ، وما خسر من اعتاض مثلك ، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك ، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ ، وإمتاعاً بما عوض . توفيت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين .

ثم قال الخطيب : حدثني الحسين بن محمد الخلال لفظا قال : وحدث أبا الفتح القواس قال ثنا صدقة بن هبيرة الموصلي ثنا محمد بن عبد الله الواسطي قال قال عبد الله بن المبارك : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقالت غفر لي في أول معول ضرب في طريق مكة . قلت : فما هذه الصفرة ؟ قالت : دفن بين ظهر انينا رجل يقال له بشر المريسي زفرت عليه جهنم زفرة فاقشعر لها جسدي فهذه الصفرة من تلك الزفرة . وذكر ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية كلهن

---

(١) الحظايا : مفردها الحظية : الجارية صاحبة المنزلة والمكانة .

يحفظن القرآن العظيم ، غير من قرأ منه ما قدر له وغير من لم يقرأ ، وكان يسمع لهن في القصر دوي كدوي النحل ، وكان ورد كل واحدة عشر القرآن ، وورد أنها رؤ يت في المنام فسئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات وما عملته في طريق الحج فقالت : ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله ، وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعهن في السحر . وفيها جرت حوادث وأمور يطول ذكرها .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

في المحرم منها دخل المأمون مصر وظفر بعبدوس الفهري فأمر فضربت عنقه ، ثم كر راجعاً إلى الشام . وفيها ركب المأمون إلى بلاد الروم أيضاً فحاصر لؤلؤة مائة يوم ، ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها عجيفاً فخدعته الروم فأسروه فأقام في أيديهم ثمانية أيام ، ثم انفلت منهم واستمر محاصراً لهم ، فجاء ملك الروم بنفسه فأحاط بجيشه من ورائه ، فبلغ المأمون فسار إليه ، فلما أحس توفيل بقدومه هرب وبعث وزيره صنغل فسأله الأمان والمصالحة ، لكنه بدأ بنفسه قبل المأمون فرد عليه المأمون كتاباً بليغاً مضمونه التقريع والتوبيخ ، وإني إنما أقبل منك الدخول في الحنيفية وإلا فالسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي . وفيها توفي الحجاج بن منهال . وشريح بن النعمان . وموسى بن داود الضبي والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين

في أول يوم من جمادى الأولى وجه المأمون ابنه العباس إلى بلاد الروم لبناء الطوانة وتجديد عمارتها . وبعث إلى سائر الأقاليم في تجهيز الفعلة من كل بلد إليها ، من مصر والشام والعراق ، فاجتمع عليها خلق كثير ، وأمره أن يجعلها ميلاً في ميل ، وأن يجعل سورها ثلاثة فراسخ ، وأن يجعل لها ثلاثة أبواب .

ذكر اول المحنة والفتنة

في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم ، وكتب إليه يستحثه في كتاب مطول وكتب غيره قد سردها ابن جرير كلها ، ومضمونها الاحتجاج على أن القرآن محدث وكل محدث مخلوق ، وهذا احتجاج لا يوافقه عليه كثير من المتكلمين فضلاً عن المحدثين ، فإن القائلين بأن الله تعالى تقوم به الأفعال الاختيارية لا يقولون بأن فعله تعالى القائم بذاته المقدسة مخلوق ، بل لم يكن مخلوقاً ، بل يقولون هو محدث وليس بمخلوق ، بل هو كلام الله القائم بذاته المقدسة ، وما كان قائماً بذاته لا يكون مخلوقاً ، وقد قال الله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ

مُحْدَثٍ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ ولقدْ خَلَقْنَاكُم ثمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثمَّ قلنَا لِلمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾(٢) فالأمر بالسجود صدر منه بعد خلق آدم ، فالكلام القائم بالذات ليس مخلوقاً ، وهذا له موضع آخر . وقد صنف البخاري كتاباً في هذا المعنى سماه خلق أفعال العباد . والمقصود أن كتاب المأمون لما ورد بغداد قرىء على الناس ، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه ، وهم محمد ابن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم المستملي ، ويزيد بن هارون(٣) ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب ، وإسماعيل بن أبي مسعود . وأحمد بن الدورقي . فبعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك واظهروا موافقته وهم كارهون ، فردهم إلى بغداد وأما باشهار أمرهم بين الفقهاء ، ففعل إسحاق ذلك . وأحضر خلقاً من مشايخ الحديث والفقهاء وأئمة المساجد وغيرهم ، فدعاهم إلى ذلك عن أمر المأمون ، وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين له على ذلك ، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم ، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة فانا لله وإنا إليه راجعون . ثم كتب المأمون إلى إسحاق أيضاً بكتاب ثان يستدل به على القول بخلق القرآن بشبه من الدلائل أيضاً لا تحقيق تحتها ولا حاصل لها ، بل هي من المتشابه وأورد من القرآن آيات هي حجة عليه . أورد ابن جرير ذلك كله . وأمر نائبه أن يقرأ ذلك على الناس وأن يدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن ، فأحضر أبو إسحاق جماعة من الأئمة وهم أحمد بن حنبل . وقتيبة . وأبو حيان الزيادي . وبشر بن الوليد الكندي . وعلي بن أبي مقاتل . وسعدويه الواسطي . وعلي بن الجعد . وإسحاق ابن أبي إسرائيل . وابن الهرش ، وابن علية الأكبر ، ويحيى بن عبد الحميد العمري . وشيخ آخر من سلالة عمر كان قاضياً على الرقة ، وأبو نصر التمار ، وأبو معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون . ومحمد بن نوح الجند يسابوري المضروب ، وابن الفرخان ، والنضر بن شميل. وأبو علي ابن عاصم ، وأبو العوام البارد ، وأبو شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق وجماعة . فلما دخلوا على أبي إسحاق قرأ عليهم كتاب المأمون . فلما فهموه قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن؟ فقال : هو كلام الله . قال : ليس عن هذا أسألك . وإنما أسألك أهو مخلوق ؟ قال : ليس بخالق . قال : ولا عن هذا أسألك . فقال : ما أحسن غير هذا . وصمم على ذلك . فقال : تشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه ؟ قال : نعم ! فقال للكاتب : اكتب بما قال : فكتب . ثم امتحنهم رجلاً رجلاً فأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن ، فكان اذا امتنع الرجل منهم امتحنه بالرقعة التي وافق عليها بشر بن الوليد الكندي ، من أنه يقال لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه فيقول : كما قال بشر ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل فقال له : أتقول إن القرآن

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية/٢ . (٢) سورة الأعراف ، الآية/ ١١ .

(٣) قد ذكر المؤلف وفاة يزيد بن هارون في سنة ست ومائتين ، ثم ذكره هنا في المحضرين فلا وجه إلا أن يكون غالطاً هنا أو هناك .

مخلوق ؟ فقال : القرآن كلام الله لا أزيد على هذا . فقال له : ما تقول في هذه الرقعة ؟ فقال أقول : ﴿ لَيْسَ كمثله شَيءٌ وهوَ السَّميعُ البَصِيرُ ﴾[1] فقال رجل من المعتزلة : إنه يقول : سميع بأذن بصير بعين . فقال له إسحاق : ما أردت بقولك سميع بصير ؟ فقال : أردت منها ما أراده الله منها وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك . فكتب جوابات القوم رجلاً رجلاً وبعث بها إلى المأمون . وكان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهاً لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق على بيت المال قطع ، وإن كان مفتياً منع من الافتاء ، وإن كان شيخ حديث ردع عن الاسماع والأداء . ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء [2] وداهية دهياء [3] فلا حول ولا قوة الا بالله .

فصل

فلما وصلت جوابات القوم إلى المأمون بعث إلى نائبه يمدحه على ذلك ويرد على كل فرد فرد ما قال في كتاب أرسله . وأمر نائبه أن يمتحنهم أيضاً فمن أجاب منهم شهر أمره في الناس ، ومن لم يجب منهم فابعثه إلى عسكر أمير المؤمنين مقيداً محتفظاً به حتى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه رأيه ، ومن رأيه أن يضرب عنق من لم يقل بقوله . فعند ذلك عقد النائب ببغداد مجلساً آخر وأحضر أولئك وفيهم إبراهيم بن المهدي ، وكان صاحباً لبشر بن الوليد الكندي ، وقد نص المأمون على قتلهما إن لم يجيبا على الفور ، فلما امتحنهم إسحاق أجابوا كلهم مكرهين متأولين قوله تعالى : ﴿ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وقلبُهُ مطمئِنٌ بِالإيمانِ ﴾[4] الآية . إلا أربعة وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والحسن بن حماد سجاده ، وعبيد الله بن عمر القواريري . فقيدهم وأرصدهم ليبعث بهم إلى المأمون ، ثم استدعى بهم في اليوم الثاني فامتحنهم فأجاب سجاده إلى القول بذلك فأطلق . ثم امتحنهم في اليوم الثالث فأجاب القواريري إلى ذلك فأطلق قيده . وأخر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجند يسابوري لأنهما أصرا على الامتناع من القول بذلك ، فأكد قيودهما وجمعهما في الحديد وبعث بهما إلى الخليفة وهو بطرسوس ، وكتب كتاباً بارسالهما إليه . فسارا مقيدين في محارة على جمل متعادلين رضي الله عنهما . وجعل الأمام أحمد يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين المأمون ، وأن لا يرياه ولا يراهما . ثم جاء كتاب المأمون إلى نائبه أنه قد بلغني أن القوم إنما أجابوا مكرهين متأولين قوله تعالى : ﴿ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وقلبُهُ مطْمَئِنٌ بِالإيمانِ ﴾[5] الآية . وقد أخطأوا في تأويلهم ذلك خطأ كبيراً ، فارسلهم كلهم إلى أمير المؤمنين . فاستدعاهم إسحاق والزمهم بالمسير

---

(١) سورة الشورى ، الآية/ ١١ .

(٢) شنعاء : قبيحة .

(٣) دهياء : كريهة .

(٤) و (٥) سورة النحل ، الآية / ١٠٦ .

إلى طرسوس فساروا إليها ، فلما كانوا ببعض الطريق بلغهم موت المأمون فردوا إلى الرقة ، ثم أذن لهم بالرجوع إلى بغداد . وكان أحمد بن حنبل وابن نوح قد سبقا الناس ، ولكن لم يجتمعا به . بل أهلكه الله قبل وصولهما إليه ، واستجاب الله سبحانه دعاء عبده ووليه الأمام أحمد بن حنبل ، فلم يريا المأمون ولا رآهما بل ردوا إلى بغداد . وسيأتي تمام ما وقع لهم من الأمر الفظيع في أول ولاية المعتصم بن الرشيد ، وتمام باقي الكلام على ذلك في ترجمة الإمام أحمد عند ذكر وفاته في سنة إحدى وأربعين ومائتين وبالله المستعان .

عبد الله المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد العباسي القرشي الهاشمي أبو جعفر أمير المؤمنين ، وأمه أم ولد يقال لها مراجل الباذغيسية ، وكان مولده في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ليلة توفي عمه الهادي ، وولي أبوه هارون الرشيد ، وكان ذلك ليلة الجمعة كما تقدم ، قال ابن عساكر : روى الحديث عن أبيه وهاشم بن بشر ، وأبي معاوية الضرير ، ويوسف بن قحطبة ، وعباد بن العوام ، وإسماعيل بن علية ، وحجاج بن محمد الأعور . وروى عنه أبو حذيفة إسحاق بن بشر ـ وهو أسن منه ـ ويحيى بن أكثم القاضي وابنه الفضل بن المأمون ومعمر بن شبيب وأبو يوسف القاضي وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي وأحمد بن الحارث الشعبي ـ أو اليزيدي ـ وعمرو بن مسعدة وعبد الله بن طاهر بن الحسين، ومحمد بن إبراهيم السلمي ودعبل بن علي الخزاعي . قال: وقدم دمشق مرات وأقام بها مدة ، ثم روى ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي قال : سمعت المأمون في الشماسية وقد أجرى الحلبة فجعل ينظر إلى كثرة الناس فقال ليحيى بن أكثم : أما ترى كثرة الناس ؟ قال : حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال : « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله » . ومن حديث أبي بكر المنايحي عن الحسين بن أحمد المالكي عن يحيى بن أكثم القاضي عن المأمون عن هشيم عن منصور عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: « الحياء من الايمان» . ومن حديث جعفر بن أبي عثمان الطيالسي أنه صلى العصر يوم عرفة خلف المأمون بالرصافة فلما سلم كبر الناس فجعل يقول: لا يا غوغاء، لا يا غوغاء، غداً التكبير سنة أبي القاسم ﷺ. فلما كان الغد صعد المنبر فكبر ثم قال: أنبأ هشيم بن بشير ثنا ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن دينار. قال قال رسول الله ﷺ: «من ذبح قبل أن يصلي فأنما هو لحم قدمه لأهله، ومن ذبح بعد أن يصلي الغداة فقد أصاب السنة». الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً، اللهم اصلحني واستصلحني وأصلح على يدي . تولى المأمون الخلافة في المحرم لخمس بقين منه بعد قتل أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة ، واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر . وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة ، وقد بايع في سنة إحدى ومائتين بولاية العهد من بعده لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وخلع السواد ولبس الخضرة كما تقدم ،فأعظم ذلك

العباسيون من البغاددة وغيرهم ، وخلعوا المأمون وولوا عليهم إبراهيم بن المهدي ، ثم ظفر المأمون بهم واستقام له الحال في الخلافة ، وكان على مذهب الاعتزال لأنه اجتمع بجماعة منهم بشر بن غياث المريسي فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل، وكان يحب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه ، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل ، وراج عنده الباطل . ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً . وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته . وقال ابن أبي الدنيا : كان المأمون أبيض ربعة حسن الوجه قد وخطه الشيب يعلوه صفرة أعين طويل اللحية رقيقها ضيق الجبين ، على خده خال . أمه أم ولد يقال لها مراجل . وروى الخطيب عن القاسم بن محمد بن عباد قال : لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء غير عثمان بن عفان والمأمون ، وهذا غريب جداً لا يوافق عليه ، فقد كان يحفظ القرآن عدة من الخلفاء . قالوا : وقد كان المأمون لـو في شهر رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة ، وجلس يوماً لاملاء الحديث فاجتمع حوله القاضي يحيى بن أكثم وجماعة فأملى عليهم من حفظه ثلاثين حديثاً . وكانت له بصيرة بعلوم متعددة ، فقهاً وطباً وشعراً وفرائض وكلاماً ونحواً وغريبه، وغريب حديث ، وعلم النجوم . وإليه ينسب الزيج[1] المأموني . وقداختبر مقدار الدرجة في وطنه سنجار فاختلف عمله وعمل الأوائل من الفقهاء . وروى ابن عساكر أن المأمون جلس يوماً للناس وفي مجلسه الأمراء والعلماء، فجاءت امرأة تتظلم إليه فذكرت أن أخاها توفي وترك ستمائة دينار ، فلم يحصل لها سوى دينار واحد . فقال لها المأمون على البديهة : قد وصل إليك حقك ، كان أخاك قد ترك بنتين وأما وزوجة واثنى عشر أخاً وأختاً واحدة وهي أنت، قالت: نعم يا أمير المؤمنين . فقال : للبنتين الثلثان أربعمائة دينار ، وللأم السدس مائة دينار ، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون ديناراً ، بقي خمسة وعشرون ديناراً لكل أخ ديناران ديناران ، ولك دينار واحد . فعجب العلماء من فطنته وحدة ذهنه وسرعة جوابه . وقد رويت هذه الحكاية عن علي بن أبي طالب .

ودخل بعض الشعراء على المأمون وقد قال فيه بيتاً من الشعر يراه عظيماً ، فلما أنشده إياه لم يقع منه موقعاً طائلاً ، فخرج من عنده محروماً ، فلقيه شاعر آخر فقال له : ألا أعجبك ! أنشدت المأمون هذا البيت فلم يرفع به رأساً . فقال: وما هو؟ قال قلت فيه :

أضحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغلاً ... بالدين والناسُ بالدنيا مشاغيلُ

فقال له الشاعر الآخر : ما زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها . فهلا قلت كما قال جرير في عبد العزيز بن مروان :

فلا هو في الدنيا مضيعٌ نصيبهُ ... ولا عرض الدنيا عن الدِّينِ شاغله

وقال المأمون يوماً لبعض جلسائه : بيتان اثنان لاثنين ما يلحق بهما أحد ، قول أبي نواس :

(١) الزيج : جدول يُسْتَدَل به على حركة السَّيَّارات (فارسية) .

إذا اختبرَ الدنيا لبيبٌ تكشفت لهُ عن عدوٍّ في لباسِ صديقِ

وقول شريح :

تهونُ على الدنيا الملامةُ إنهُ حريصٌ على استصلاحها منْ يلومها

قال المأمون : وقد ألجأني الزحام يوماً وأنا في الموكب حتى خالطت السوقة فرأيت رجلاً في دكان عليه أثواب خلقة[1] ، فنظر إلي نظر من يرحمني أو من يتعجب من أمري فقال :

أرى كلَّ مغرورٍ تمنّيهِ نفسُهُ إذا ما مضى عامٌ سلامةَ قابِلِ

وقال يحيى بن أكثم : سمعت المأمون يوم عيد خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول ﷺ ثم قال : عباد الله ! عظم أمر الدارين وارتفع جزاء العالمين ، وطالت مدة الفريقين ، فوالله إنه للجد لا اللعب ، وإنه للحق لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والميزان والصراط ثم العقاب أو الثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز. ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار . وروى ابن عساكر من طريق النضر بن شميل قال : دخلت على المأمون فقال : كيف أصبحت يا نضر ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين . فقال : ما الارجاء ؟ فقلت دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم . قال : صدقت . ثم قال : يا نضر أتدري ما قلت في صبيحة هذا اليوم ؟ قلت : إني لمن علم الغيب لبعيد . فقال قلت أبياتاً وهي :

أصبح ديني الذي أدينُ بهِ ولستُ منهُ الغداةَ معتذرا
حبَ عليٍّ بعد النبي ولا أشتمْ صديقاً ولا عمرا
ثم ابن عفانِ في الجنانِ مع الـ أبرارِ ذلك القتيل مصطبراً
ألا ولا أشتمُ الزبير ولا طلحة إن قال قائلٌ غدرا
وعائش الأم لستَ أشتمها من يفتريها فنحن منهُ برا[2]

وهذا المذهب ثاني مراتب الشيعة وفيه تفضيل عليٍّ على الصحابة . وقد قال جماعة من السلف والدارقطني : من فضل علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ـ يعني في اجتهادهم ثلاثة أيام ثم اتفقوا على عثمان وتقديمه على عليّ بعد مقتل عمر ـ وبعد ذلك ست عشرة مرتبة في التشيع ، على ماذكره صاحب كتاب البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم ، وهو كتاب ينتهي به إلى أكفر الكفر . وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : لا أوتي بأحد فضلني على

---

(١) خلقة : بالية ، رثَّة .

(٢) برا : بريئون .

أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري . وتواتر عنه أنه قال : خير الناس بعد النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر . فقد خالف المأمون الصحابة كلهم حتى علي بن أبي طالب . وقد أضاف المأمون الى بدعته هذه التي أزرى فيها على المهاجرين والأنصار ، البدعة الأخرى والطامة الكبرى وهي القول بخلق القرآن مع ما فيه من الانهماك على تعاطي المسكر وغير ذلك من الأفعال التي تعدد فيها المنكر . ولكن كان فيه شهامة عظيمة وقوة جسيمة في القتال وحصار الأعداء ومصابرة الروم وحصرهم ، وقتل رجالهم وسبي نسائهم ، وكان يقول : كان لعمر بن عبد العزيز وعبد الملك حجاب وأنا بنفسي ، وكان يتحرَّى العدل ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل ، جاءته امرأة ضعيفة قد تظلمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه ، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه ، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها ، فتناظرا ساعة فجعل صوتها يعلو على صوته ، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون : اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أسكته ، ثم حكم لها بحقها وأغرم ابنه لها عشرة آلاف درهم . وكتب إليَّ بعض الأمراء : ليس المروءة أن يكون بيتك من ذهب وفضة وغريمك عار ، وجارك طاو والفقير جائع . ووقف رجل بين يديه فقال له المأمون : والله لأقتلنك . فقال : يا أمير المؤمنين تأن علي فان الرفق نصف العفو ، فقال : ويلك ويحك ! قد حلفت لأقتلنك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن تلق الله حانثاً خير من أن تلقاه قاتلاً . فعفا عنه . وكان يقول : ليت أهل الجرائم يعرفون أن مذهبي العفو حتى يذهب الخوف عنهم ويدخل السرور إلى قلوبهم . وركب يوماً في حراقة فسمع ملاحاً يقول لأصحابه : ترون هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه الأمين ـ يقول ذلك وهو لا يشعر بمكان المأمون ـ فجعل المأمون يبتسم ويقول : كيف ترون الحيلة حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل القدر ؟ وحضر عند المأمون هدبة بن خالد ليتغدى عنده فلما رفعت المائدة جعل هدبة يلتقط ما تناثر منها من اللباب وغيره ، فقال له المأمون : أما شبعت يا شيخ ؟ فقال : بلى ، حدّثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ : قال : « من أكل ما تحت مائدته أمن من الفقر » . قال فأمر له المأمون بألف دينار .

وروى ابن عساكر أن المأمون قال يوماً لمحمد بن عباد بن المهلب : يا أبا عبد الله قد أعطيتك الف ألف ، وألف ألف ، و ألف ألف وأعطيك ديناراً . فقال : يا أمير المؤمنين إن منع الموجود سوء ظن بالمعبود . فقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! اعطوه ألف ألف وألف ألف وألف ألف . ولما أراد المأمون أن يدخل ببوران بنت الحسن بن سهل جعل الناس يهدون لأبيها الأشياء النفيسة ، وكان من جملة من يعتز به رجل من الأدباء . فأهدى اليه مزوداً[1] فيه ملح طيب ، ومزوداً فيه أشنان جيد ، وكتب إليه : إني كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر ولا أذكر فيها فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته ، وبالمختوم به لطيبه ونظافته . وكتب إليه :

(١) مزوداً : وعاء الزاد.

بضاعتي تقصرُ عن همتي وهمتّي تقصُر عن مالي
فالمِلحُ والأشنانُ يا سيدي أحسَنُ ما يهديهِ أمثالي

قال : فدخل بها الحسن بن سهل على المأمون فأعجبه ذلك وأمر بالمزودين ففرغا وملئا دنانير وبعث بهما الى ذلك الأديب . وولد للمأمون ابنه جعفر فدخل عليه الناس يهنئونه بصنوف التهاني ، ودخل بعض الشعراء فقال يهنيه بولده :

مدّ لكَ الله الحياةُ مدّا حتى ترى ابنك هذا جداً
ثم يفدّى مثل ما تفدّى كأنهُ انت إذا تبدى
أشبهُ منك قامةً وقداً مؤزّراً بمجده مُرداً

قال فأمر له بعشرة آلاف درهم . وقدم عليه وهو بدمشق مال جزيل بعد ما كان قد أفلس وشكى إلى أخيه المعتصم ذلك ، فوردت عليه خزائن من خراسان ثلاثون ألف ألف درهم ، فخرج يستعرضها وقد زينت الجمال والأحمال ، ومعه يحيى بن أكثم القاضي ، فلما دخلت البلد قال : ليس من المروءة ان نحوز نحن هذا كله والناس ينظرون . ثم فرق منه أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب لم ينزل عن فرسه . ومن لطيف شعره : ـ

لِساني كتومٌ لأسرارِكِمْ ودمعي نمومٌ لسرِّي مذيعْ
فلولا دُموعي كَتَمْتُ الهَوى ولولا الهوى لمْ تَكُنْ لي دُموع

بعث خادماً ليلة من الليالي ليأتيه بجارية فأطال الخادم عندها المكث ، وتمنعت الجارية من المجيء إليه حتى يأتي إليها المأمون بنفسه ، فأنشأ المأمون يقول :

بعثتكَ مشتاقاً ففزتَ بنظرة وأغفلتني حتى أسأتُ بك الظنّا
فناجيتَ من أهوى وكنتَ مباعداً فيا نيت شعري عن دنوِّكَ ما أغنى
وردَّدتَ طرفاً في محاسِنِ وَجْهها ومتَّعْتَ باستماعِ نغمتِها أُذْناً
أرى أثراً منه بعينيكَ بيِّناً لقد سرقتْ عيناكَ من عينها حُسْناً

ولما ابتدع المأمون ما ابتدع من التشيع والاعتزال ، فرح بذلك بشر المريسي ـ وكان بشر هذا شيخ المأمون ـ فأنشأ يقول :

قد قالَ مأمونُنا وسيدُنا قولاً له في الكُتْبِ تصديقُ
إنّ علياً أعني أبا حسنٍ أفضلُ من قد أقلَّتِ النُوقُ[1]
بعد نبيِ الهدى وإنّ لنا أعمالنا ، والقرانُ مخلوقُ

---

(١) النوق : مفردها ناقة . أنثى الجمل .

فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة :

يـا أيّهـا النـاسَ لا قـولٌ ولا عمـلٌ | لـمـنْ يقـولُ: كـلامُ الله مـخـلـوقُ
مـا قـالَ ذاكَ أبـو بكـرٍ ولا عمـرٌ | ولا الـنبـيُ ولـم يـذكـرهُ صـديـقُ
ولـم يقـلْ ذاكَ إلا كـلُ مبتـدعٍ[1] | على الـرسـول وعنـد الله زنـديق[2]
بـشـرٌ أراد بـهِ إمحـاق دينـهـمُ | لأن ديـنـهـمُ والله مـمـحـوقُ
يـا قـومُ أصبـح عقـلُ من خليفتكمْ | مقيـداً وهـو في الاغـلال مـوثـوقُ

وقد سأل بشر من المأمون أن يطلب قائل هذا فيؤدبه على ذلك ، فقال : ويحك لو كان فقيها لأدبته ولكنه شاعر فلست أعرض له . ولما تجهز المأمون للغزو في آخر سفره سافرها إلى طرسوس استدعى بجارية كان يحبها وقد اشتراها في آخر عمره ، فضمها إليه فبكت الجارية وقالت : قتلتني يا أمير المؤمنين بسفرك ثم أنشأت تقول:

سـأدعـوكَ دعـوةَ المضـطرِّ ربـاً | يُثيبُ على الـدّعـاءِ ويستـجيـبُ
لـعـلَ الله أن يكـفيـكَ حَـرْبـاً | ويَجْمَعَنـا كـمـا تـهـوى القـلوبُ

فضمها إليه وأنشأ يقول متمثلاً :ـ

فيـا حسنها إذ يغسـلِ الدمعُ كحلهـا | وإذهي تـذري الـدمعَ منهـا الأنـامـلُ
صبيحـةَ قـالتَ في العتـابِ قتلتني | وقـتلى بـمـا قـالتْ هـنـاكَ تحـاولُ

ثم أمر مسروراً الخادم بالاحسان إليها والاحتفاظ عليها حتى يرجع، ثم قال : نحن كما قال الأخطل :

قـومٌ إذا حـاربـوا شـدوا مـآزرهم | دونَ النسـاءِ ولـو بـاتتْ بـاطهـارِ

ثم ودعها وسار فمرضت الجارية في غيبته هذه ، ومات المأمون أيضاً في غيبته هذه ، فلما جاء نعيه إليها تنفست الصعداء وحضرتها الوفاة وأنشأت تقول وهي في السياق :

إن الـزمـان سقـانـا من مـرارتـهِ | بعـدَ الحلاوةِ كـاسـاتِ فـأروانا[3]
أبـدى لنـا تـارةً منـه فـأضحكنـا | ثـم انثنى تـارةً أخـرى فـأبكـانـا
إنـا إلى الله فيمـا لا يـزالُ بنـا | مـن القـضـاءِ ومـن تـلوينِ دنيـانـا
دنيـا تـراهـا ترينـا من تصـرفهـا | مـا لا يـدومُ مـصـافـاةً وأحـزانـا
ونـحنُ فيـهـا كـأنـا لا يـزايلنـا | للعيش أحيـا ومـا يبكـونَ مـوتـانـا

---

(١) مبتدع : صاحب البدعة والضلالة .

(٢) زنديق : الذي يتظاهر بالاسلام ويبطن الكفر والإلحاد .

(٣) فأروانا : أسقانا .

كانت وفاة المأمون بطرسوس في يوم الخميس وقت الظهر وقيل بعد العصر ، لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة ثماني عشرة ومائتين ، وله من العمر نحو من ثمان وأربعين سنة ، وكانت مدة خلافته عشرين سنة وأشهراً ، وصلّى عليه أخوه المعتصم وهو ولي العهد من بعده ، ودفن بطرسوس في دار خاقان الخادم ، وقيل كانت وفاته يوم الثلاثاء ، وقيل يوم الأربعاء لثمان بقين من هذه السنة . وقيل إنه مات خارج طرسوس بأربع مراحل فحمل إليها فدفن بها ، وقيل إنه نقل إلى أذنة في رمضان فدفن بها فالله أعلم . وقد قال أبو سعيد المخزومي :ـ

هـل رأيتَ النجـومَ أغنت عن المـأ	مـونِ شيئاً أو مُلْكِـهِ المـأسُـوسِ
خـلّفـوهَ بـعـرصـتَي طـرسُـوس	مـثـلَ مـا خـلّفـوا أبـاهُ بـطوسِ

وقد كان أوصى إلى أخيه المعتصم وكتب وصيته بحضرته وبحضرة ابنه العباس وجماعة القضاة والأمراء والوزراء والكتاب . وفيها القول بخلق القرآن ولم يتب من ذلك بل مات عليه وانقطع عمله وهو على ذلك لم يرجع عنه ولم يتب منه ، وأوصى أن يكبر عليه الذي يصلي عليه خمساً ، وأوصى المعتصم بتقوى الله عز وجل والرفق بالرعية ، واوصاه أن يعتقد ما كان يعتقده اخوه المأمون في القرآن ، وأن يدعو الناس إلى ذلك ، وأوصاه بعبد الله بن طاهر وأحمد بن إبراهيم وأحمد بن أبي داود ، وقال شاوره في أمورك ولا تفارقه ، وإياك ويحيى بن أكثم أن تصحبه ، ثم نهاه عنه وذمه وقال : خانني ونفر الناس عني ففارقته غير راضٍ عنه . ثم أوصاه بالعلويين خيراً ، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأن يواصلهم بصلاتهم في كل سنة .

وقد ذكر ابن جرير للمأمون ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة لم يذكرها ابن عساكر مع كثرة ما يورد ، وفوق كل ذي علم عليم .

خلافة المعتصم بالله ابي اسحاق بن هارون

بويع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس يوم الخميس الثاني عشر من رجب من سنة ثماني عشرة ومائتين ، وكان إذا ذاك مريضاً ، وهو الذي صلّى على أخيه المأمون ، وقد سعى بعض الأمراء في ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس فقال : ما هذا الخلف البارد ؟ أنا قد بايعت عمي المعتصم . فسكن الناس وخمدت الفتنة وركب البرد بالبيعة للمعتصم الى الآفاق ، وبالتعزية بالمأمون . فأمر المعتصم بهدم ما كان بناه المأمون في مدينة طوانة ، ونقل ما كان حول إليها من السلاح وغيره الى حصون المسلمين ، وأذن الفعلة بالانصراف إلى بلدانهم ، ثم ركب المعتصم بالجنود قاصداً بغداد وصحبته العباس بن المأمون ، فدخلها يوم السبت مستهل رمضان في أبهة عظيمة وتجمل تام . وفيها دخل خلق كثير من أهل همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان في دين الخرمية ، فتجمع منهم بشر كثير ، فجهز إليهم المعتصم جيوشاً كثيرة آخرهم إسحاق بن إبراهيم بن

مصعب في جيش عظيم ، وعقد له على الجبال ، فخرج في ذي القعدة وقرىء كتابه بالفتح يوم التروية ، وأنه قهر الخرمية وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وهرب بقيتهم إلى بلاد الروم ، وعلى يدي هذا جرت فتنة الامام أحمد وضرب بين يديه كما سيأتي بسط ذلك في ترجمة أحمد في سنة إحدى وأربعين ومائتين . وفيها توفي من الأعيان :

بشر المريسي

وهو بشر بن غياث بن أبي كريمة أبو عبد الرحمن المريسي المتكلم شيخ المعتزلة ، وأحد من اضل المأمون ، وقد كان هذا الرجل ينظر أولاً في شيء من الفقه ، وأخذ عن أبي يوسف القاضي ، وروى الحديث عنه وعن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وغيرهم ، ثم غلب عليه علم الكلام ، وقد نهاه الشافعي عن تعلمه وتعاطيه فلم يقبل منه ، وقال الشافعي : لئن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك أحب إليَّ من أن يلقاه بعلم الكلام . وقد اجتمع بشر بالشافعي عندما قدم بغداد . قال ابن خلكان : جدد القول بخلق القرآن وحُكي عنه أقوال شنيعة ، وكان مرجئياً وإليه تنسب المريسية من المرجئة ، وكان يقول : إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر ، وإنما هو علامة للكفر ، وكان يناظر الشافعي وكان لا يحسن النحو ، وكان يلحن لحناً فاحشاً . ويقال : إن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة ، وكان يسكن درب المريسي ببغداد . والمريس عندهم هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر . قال : ومريس ناحية ببلاد النوبة تهب عليها في الشتاء ريح باردة .

وفيها توفي عبد الله بن يوسف الشيبي . وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي . ويحيى بن عبد الله البابلتي .

وأبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري

راوي السيرة عن زياد بن عبد الله البكائي عن ابن إسحاق مصنفها ، وإنما نسبت إليه فيقال سيرة ابن هشام ، لأنه هذبها وزاد فيها ونقص منها ، وحرر أماكن واستدرك أشياء . وكان إماماً في اللغة والنحو ، وقد كان مقيماً بمصر واجتمع به الشافعي حين وردها ، وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً . كانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة ، قاله ابن يونس في تاريخ مصر . وزعم السهيلي أنه توفي في سنة ثلاث عشرة كما تقدم فالله أعلم .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين

فيها ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان يدعو إلى الرضى من آل محمد ، واجتمع عليه خلق كثير وقاتله قواد عبد الله بن طاهر مرات متعددة ، ثم ظهروا عليه وهرب فأخذ ثم بعث به الى عبد الله بن طاهر فبعث به الى المعتصم فدخل عليه للنصف من ربيع الآخر فأمر به فحبس في مكان ضيق طوله ثلاثة أذرع في ذراعين ، فمكث فيه

ثلاثاً ، ثم حول لأوسع منه وأجرى عليه رزق ومن يخدمه ، فلم يزل محبوساً هناك إلى ليلة عيد الفطر فاشتغل الناس بالعيد فدلى له حبل من كوة كان يأتيه الضوء منها ، فذهب فلم يدر كيف ذهب وإلى أين صار من الأرض .

وفي يوم الأحد لأحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى دخل إسحاق بن إبراهيم إلى بغداد راجعاً من قتال الخرمية ، ومعه أسارى منهم ، وقد قتل في حربه منهم مائة ألف مقاتل . وفيها بعث المعتصم عجيفاً في جيش كثيف لقتال الزط الذين عاثوا فساداً في بلاد البصرة ، وقطعوا الطريق ونهبوا الغلات ، فمكث في قتالهم تسعة أشهر فقهرهم وقمع شرهم وأباد خضراهم . وكان القائم بأمرهم رجل يقال له محمد بن عثمان ومعه آخر يقال له سملق ، وهو داهيتهم وشيطانهم ، فأراح الله المسلمين منه ومن شره .

وفيها توفي سليمان بن داود الهاشمي شيخ الامام أحمد . وعبد الله بن الزبير الحميدي صاحب المسند وتلميذ الشافعي وعلي بن عياش . وأبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري . وأبو بحار الهندي .

ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من الهجرة

في يوم عاشوراء منها دخل عجيف في السفن الى بغداد ومعه من الزط سبعة وعشرون ألفاً قد جاؤوا بالأمان إلى الخليفة ، فأنزلوا في الجانب الشرقي ثم نفاهم الى عين زومة ، فأغارت الروم عليهم فاجتاحوهم عن آخرهم ، فلم يفلت منهم أحد . فكان آخر العهد بهم . وفيها عقد المعتصم للأفشين واسمه حيدر بن كاوس على جيش عظيم لقتال بابك الخرمي لعنه الله ، وكان قد استفحل أمره جداً ، وقويت شوكته ، وانتشرت أتباعه في أذربيجان وما والاها ، وكان أول ظهوره في سنة إحدى ومائتين ، وكان زنديقاً كبيراً وشيطاناً رجيماً ، فسار الأفشين وقد أحكم صناعة الحرب في الأرصاد وعمارة الحصون وإرصاد المدد ، وأرسل إليه المعتصم مع بغا الكبير أموالاً جزيلة نفقة لمن معه من الجند والأتباع ، فالتقى هو وبابك فاقتتلا قتالاً شديداً ، فقتل الأفشين من أصحاب بابك خلقاً كثيراً أزيد من مائة ألف ، وهرب هو الى مدينته فأوى فيها مكسوراً ، فكان هذا أول ما تضعضع من أمر بابك ، وجرت بينهما حروب يطول ذكرها ، وقد استقصاها ابن جرير .

وفيها خرج المعتصم من بغداد فنزل القاطول فأقام بها . وفيها غضب المعتصم على الفضل بن مروان بعد المكانة العظيمة ، وعزله عن الوزارة وحبسه وأخذ أمواله وجعل مكانه محمد بن عبد الملك بن الزيات . وحج بالناس فيها صالح بن علي بن محمد أمير السنة الماضية في الحج .

وفيها توفي آدم بن أبي إياس . وعبد الله بن رجاء . وعفان بن مسلمة . وقالون أحد مشاهير

القراء . وأبو حذيفة الهندي .

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

فيها كانت وقعة هائلة بين بغا الكبير وبابك فهزم بابك بغا وقتل خلقاً من أصحابه . ثم اقتتل الأفشين وبابك فهزمه افشين وقتل خلقاً من أصحابه بعد حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير . وحج بالناس فيها نائب مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى العباسي .

وفيها توفي عاصم بن علي . وعبد الله بن مسلم القعنبي . وعبدان . وهشام بن عبيد الله الرازي .

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين

فيها جهز المعتصم جيشاً كثيراً مدداً للأفشين على محاربة بابك وبعث إليه ثلاثين ألف ألف درهم نفقة للجند ، فاقتتلوا قتالاً عظيماً ، وافتتح الأفشين البذ مدينة بابك واستباح ما فيها ، وذلك يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان . وذلك بعد محاصرة وحروب هائلة وقتال شديد وجهد جهيد ، وقد أطال ابن جرير بسط ذلك جداً . وحاصل الأمر أنه افتتح البلد وأخذ جميع ما فيه من الأموال مما قدر عليه .

ذكر مسك بابك

لمااحتوى المسلمون على بلده المسمى بالبذ وهي دار ملكه وسر سلطته هرب بمن معه من أهله وولده ومعه أمه وامرأته ، فانفرد في شرذمة قليلة ولم يبق معهم طعام ، فاجتازوا بحراث فبعث غلامه إليه وأعطاه ذهباً فقال : اعطه الذهب وخذ ما معه من الخبز ، فنظر شريك الحراث إليه من بعيد وهو يأخذ منه الخبز ، فظن أنه قد اغتصبه منه ، فذهب الى حصن هناك فيه نائب للخليفة يقال له سهل بن سنباط ليستعدي على ذلك الغلام ، فركب بنفسه وجاء فوجد الغلام فقال : ما خبرك ؟ فقال : لا شيء ، إنما أعطيته دنانير وأخذت منه الخبز . فقال : ومن أنت ؟ فأراد أن يعمِّي عليه الخبر فألح عليه فقال : من غلمان بابك ، فقال : وأين هو ؟ فقال : ها هوذا جالس يريد الغداء . فسار اليه سهل بن سنباط فلما رآه ترجل وقبل يده وقال : يا سيدي أين تريد ؟ قال : أريد أن أدخل بلاد الروم ، فقال : إلى عند من تذهب أحرز من حصني وأنا غلامك وفي خدمتك ؟ وما زال به حتى خدعه وأخذه معه الى الحصن فأنزله عنده وأجرى عليه النفقات الكثيرة والتحف وغير ذلك ، وكتب إلى الأفشين يعلمه ، فأرسل إليه أميرين لقبضه ، فنزلا قريباً من الحصن وكتبا إلى ابن سنباط فقال : أقيما مكانكما حتى يأتيكما أمري . ثم قال لبابك : إنه قد حصل لك هم وضيق من هذا الحصن وقد عزمت على الخروج اليوم إلى الصيد ومعنا بزاة وكلاب ، فإن أحببت أن تخرج معنا لتشرح صدرك

وتذهب همك فافعل . قال : نعم ! فخرجوا وبعث ابن سنباط إلى الأميرين أن كونوا مكان كذا وكذا في وقت كذا وكذا من النهار ، فلما كانا بذلك الموضع أقبل الأميران بمن معهما من الجنود فأحاطوا ببابك وهرب ابن سنباط ، فلما رأوه جاؤ وا إليه فقالوا : ترجل عن دابتك ، فقال : ومن أنتما ؟ فذكرا أنهما من عند الأفشين ، فترجل حينئذ عن دابته وعليه دراعة بيضاء وخف قصير وفي يده باز ، فنظر إلى ابن سنباط فقال : قبحك الله فهلا طلبت مني من المال ما شئت كنت أعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء ! ثم أركبوه وأخذوه معهما إلى الأفشين ، فلما اقتربوا منه خرج فتلقاه وأمر الناس أن يصطفوا صفين ، وأمر بابك أن يترجل فيدخل بين الناس وهو ماش ، ففعل ذلك ، وكان يوماً مشهوداً جداً . وكان ذلك في شوال من هذه السنة . ثم احتفظ به وسجنه عنده . ثم كتب الأفشين إلى المعتصم بذلك فأمره أن يقدم به وبأخيه ، وكان قد مسكه أيضاً . وكان اسم أخي بابك عبد الله ، فتجهز الأفشين بهما الى بغداد في تمام هذه السنة ففرغت ولم يصل بهما الى بغداد ، وحج بالناس فيها الأمير المتقدم ذكره في التي قبلها .

وفيها توفي أبو اليمان الحكم بن نافع . وعمر بن حفص بن عياش . ومسلم بن إبراهيم . ويحيى بن صالح الوحاظي .

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

في يوم الخميس ثالث صفر منها دخل الأفشين وصحبته بابك على المعتصم سامرا ، ومعه أيضاً أخو بابك في تجمل عظيم ، وقد أمر المعتصم ابنه هارون الواثق أن يتلقى الأفشين وكانت أخباره تفد إلى المعتصم في كل يوم من شدة اعتناء المعتصم بأمر بابك ، وقد ركب المعتصم قبل وصول بابك بيومين على البريد حتى دخل إلى بابك وهو لا يعرفه ، فنظر إليه ثم رجع ، فلما كان يوم دخوله عليه تأهب المعتصم واصطف الناس سماطين وأمر بابك أن يركب على فيل ليشهر أمره ويعرفوه ، وعليه قباء ديباج وقلنسوة سمور مدورة ، وقد هيّأوا الفيل وخضبوا أطرافه ولبسوه من الحرير والأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً ، وقد قال فيه بعضهم :

قد خُضبَ[1] الفيلُ كعاداتِه ... يحمل شَيْطان خُراسانِ
والفيلُ لا تُخضبَ أعضاؤه ... الا لذي شأنٍ من الشأنِ

ولما أحضر بين يدي المعتصم أمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وشق بطنه ، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصلب جثته على خشبة بسامرّا ، وكان بابك قد شرب الخمر ليلة قتله وهي ليلة الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة . وكان هذا الملعون قد قتل من المسلمين في مدة ظهوره ـ وهي عشرون سنة ـ مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان ـ قاله ابن

(١) خُضبَ : لوّنها بالحنّاء .

جرير ـ وأسر خلقاً لا يحصون ، وكان جملة من استنقذه الأفشين من أسره نحواً من سبعة آلاف وستمائة إنسان ، وأسر من أولاده سبعة عشر رجلاً ، ومن حلائله وحلائل أولاده ثلاثاً وعشرين امرأة من الخواتين ، وقد كان أصل بابك من جارية زرية الشكل جداً ، فآل به الحال إلى ما آل به إليه ، ثم أراح الله المسلمين من شره بعد ما افتتن به خلق كثير وجم غفير من العوام الطغام[1] .

ولما قتله المعتصم توج الأفشين وقلده وشاحين من جوهر ، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم ، وكتب له بولاية السند ، وأمر الشعراء أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من الخير إلى المسلمين ، وعلى تخريبه بلاد بابك التي يقال لها البذ وتركه إياها قيعاناً خراباً . فقالوا في ذلك فأحسنوا ، وكان من جملتهم أبو تمام الطائي وقد أورد قصيدته بتمامها ابن جرير وهي قوله :

بَـذُّ الـجـلادُ الـبـذَّ فـهـو دفـيـنُ ... مـا إن بهـا إلا الـوحـوشَ قـطـينُ[2]
لم يقرِ هـذا السيفُ هـذا الصبرَ في ... هـيـجـاءَ إلا عـزَّ هـذا الـدِّيـنُ
قـد كـان عـذْرة سـودَدٍ فـافتضَّهـا ... بـالسيفِ فَحْـلُ المشـرقِ الأفـشيـنُ
فـأعـادَهـا تَعْـوي الثعـالبُ وسْطَهـا ... ولقـد تُـرى بـالأمسِ وهي عـريـنُ
هَـطَلَتْ عليهـا من جَمـاجِمِ أهلِهـا ... دِيَـمٌ إمـارتُـهـا طُـلًى وشـؤونُ
كَـانتْ مِنَ المُهْجـاتِ قبـلَ مفـازةٍ[3] ... عُسْـراً فـأضحـتْ وهي منـهُ معينُ

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين ـ أوقع ملك الروم توفيل بن ميخائيل بأهل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة ، قتل فيها خلقاً كثيراً من المسلمين ، وأسر ما لا يحصون كثرة ، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات . ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل أعينهم قبحه الله . وكان سبب ذلك أن بابك لما أحيط به في مدينة البذ استوسقت الجيوش حوله وكتب إلى ملك الروم يقول له : إن ملك العرب قد جهز إلي جمهور جيشه ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها ، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض سريعاً إلى ما حولك من بلاده فخذها فإنك لا تجد أحداً يمانعك عنها . فركب توفيل بمائة ألف وانضاف إليه المحمرة الذين كانوا قد خرجوا في الجبال وقاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فلم يقدر عليهم لأنهم تحصنوا بتلك الجبال فلما قدم ملك الروم صاروا معه على المسلمين فوصلوا إلى ملطية فقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وأسروا نساءهم ، فلما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير ، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه . وخرج من بغداد فعسكر غربي دجلة الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى

---

(١) الطغام : الواحدة طغامة : أوغاد الناس للواحد والجمع .
(٢) قطين : ساكن .
(٣) مفازة : الفوز والفلاح .

ووجه بين يديه عجيفاً وطائفة من الأمراء ومعهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة ، فأسرعوا السير فوجدوا ملك الروم قد فعلِ ما فعل وانشمر راجعاً إلى بلاده ، وتفارط الحال ولم يمكن الاستدراك فيه ، فرجعوا إلى الخليفة لإعلامه بما وقع من الأمر ، فقال للأمراء أي بلاد الروم أمنع ؟ قالوا : عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الاسلام ، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية .

فتح عموريّة على يَد المعتصم

لما تفرغ المعتصم من بابك وقتله وأخذ بلاده استدعى بالجيوش إلى بين يديه وتجهز جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء، وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله ، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال ، وبعث الأفشين حيدر بن كاوس من ناحية سروج ، وعبى جيوشه تعبئة لم يسمع بمثلها ، وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب ، فانتهى في سيره إلى نهر اللسي وهو قريب من طرسوس ، وذلك في رجب من هذه السنة . وقد ركب ملك الروم في جيشه فقصد نحو المعتصم فتقاربا حتى كان بين الجيشين نحو من أربعة فراسخ ، ودخل الأفشين بلاد الروم من ناحية أخرى ، فجاؤا في أثره وضاق ذرعه بسبب ذلك إن هو ناجز الخليفة جاءه الأفشين من خلفه فالتقيا عليه فيهلك ، وإن اشتغل بأحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه . ثم اقترب من الأفشين فسار إليه ملك الروم في شرذمة من جيشه واستخلف على بقية جيشه قريباً له فالتقيا هو والأفشين في يوم الخميس لخمس بقين من شعبان منها ، فثبت الأفشين في ثاني الحال وقتل من الروم خلقاً وجرح آخرين ، وتغلب على ملك الروم وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأسرع الأوبة فاذا نظام الجيش قد انحل، فغضب على قرابته وضرب عنقه وجاءت الأخبار بذلك كله إلى المعتصم فسره ذلك وركب من فوره وجاء إلى أنقرة ووافاه الأفشين بمن معه إلى هناك، فوجدوا أهلها قد هربوا منه فتقووا منها بما وجدوا من طعام وغيره ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق فالميمنة عليها الأفشين ، والميسرة عليها اشناس ، والمعتصم في القلب ، وبين كل عسكرين فرسخان ، وأمر كل أمير من الأفشين وأشناس أن يجعل لجيشه ميمنة وميسرة وقلباً ومقدمة وساقة ، وأنهم مهما مروا عليه من القرى حرقوه وخربوه وأسروا وغنموا ، وسار بهم كذلك قاصداً إلى عمورية ، وكان بينها وبين مدينة أنقرة سبع مراحل ، فأول من وصل إليها من الجيش أشناس أمير الميسرة ضحوة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان من هذه السنة ، فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها ، ثم قدم المعتصم صبيحة يوم الجمعة بعده ، فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها ، وقد تحصن أهلها تحصناً شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح ، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة ، وقسم المعتصم الأبراج على الأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي أقطعه وعينه له ، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشد إليه ، أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين ، وكان قد تنصر عندهم وتزوج منهم ، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الإسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه

بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبني بناء ضعيفاً بلا أساس ، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي دلهم عليه ذلك الأسير ، فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألح عليها المنجنيق فجعلوا فوقها البرادع ليردوا حدة الحجر فلم تغن شيئاً ، وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسخ . فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك ، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا بالجيش في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما ممن أنتما ؟ فقالا : من أصحاب فلان ـ لأمير سموه من أمراء المسلمين ـ فحملا إلى المعتصم فقررهما فاذا معهما كتاب مناطس نائب عمورية الى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار ، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائناً في ذلك ما كان . فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما ، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة ، فأسلما من فورهما فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع ، وأن يوقفا تحت حصن مناطس فينثر عليهما الدراهم والخلع ، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما . ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة[1] ، فضاقت الروم ذرعاً بذلك ، وألح عليهم المسلمون في الحصار ، وقد زاد المعتصم في المجانيق والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب . ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها ، أعمل المجانيق في مقاومة السور ، وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويجيء بملء جلده تراباً فيطرحه في الخندق ، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً ، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك . وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب ، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمةفظنها من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة ، فبعث المعتصم من نادى في الناس : إنما ذلك سقوط السور . ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً ، لكن لم يكن ما هدم يسع الخيل والرجال إذا دخلوا . وقوي الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه ، فضعف ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار ، فذهب إلى مناطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا : لا نترك ما نحن موكلون في حفظه .

فلما يئس منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به . فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت من المقاتلة ، فركب المسلمون نحوهافجعلت الروم يشيرون إليهم ولايقدرون على دفاعهم ، فلم يلتفت إليهم المسلمون ، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً وتتابع

---

(١) بغتة : فجأة .

المسلمون إليها يكبرون ، وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم ، وقد حشروهم في كُنيسة لهم هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم ، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب ، وهو مناطس في حصن منيع ، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه مناطس فناداه المنادي ويحك يا مناطس ! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك . فقالوا : ليس بمناطس ههنا مرتين . فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس هذا مناطس هذا مناطس . فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلعت الرسل إليه فقالوا له : ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين . فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشي إلى مضرب الخليفة مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل ، فأوثق هناك . وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله ، وأمر المعتصم باحراق ما بقي من ذلك ، وباحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بها الروم على شيء من حرب المسلمين ، ثم انصرف المعتصم راجعاً إلى ناحية طرسوس في آخر شوال من هذه السنة . وكانت إقامته على عمورية خمسة وعشرين يوماً .

مقتل العباس بن المأمون

كان العباس مع عمه المعتصم في غزوة عمورية ، وكان عجيف بن عنبسة قد ندّمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون بطرسوس حين مات بها ، ولامه على مبايعته عمه المعتصم ، ولم يزل به حتى أجابه إلى الفتك بعمه وأخذ البيعة من الأمراء له ، وجهز رجلاً يقال له الحارث السمرقندي وكان نديماً للعباس ، فأخذ له البيعة من جماعة من الأمراء في الباطن ، واستوثق منهم وتقدم إليهم أنه يلي الفتك بعمه ، فلما كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية ، أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد ، فقال العباس : إني أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة ، فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالمغانم أشار عليه أن يقتله فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا ، فلما رجعوا فطن المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس وأخذ بالحزم واجتهد بالعزم ، واستدعى بالحارث السمرقندي فاستقره فأقرّ له بجملة الأمر ، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسماهم له ، فاستكثرهم المعتصم واستدعى بابن أخيه العباس فقيده وغضب عليه وأهانه ، ثم أظهر له أنه قد رضي عنه وعفا عنه ، فأرسله من القيد وأطلق سراحه ، فلما كان من الليل استدعاه إلى حضرته في مجلس شرابه واستخلى به حتى سقاه واستحكاه عن الذي كان قد دبره من الأمر ، فشرح له القضية ، وذكر له القصة ، فاذا الأمر كما ذكر الحارث السمرقندي . فلما أصبح استدعى بالحارث فأخلاه وسأله عن القضية ثانياً فذكرها له كما ذكرها أول مرة ، فقال : ويحك إني كنت حريصاً على ذلك فلم أجد إلى ذلك سبيلاً بصدقك إياي في هذه القصة . ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيد وسلم إلى الأفشين ، وأمر بعجيف وبقية

الأمراء الذين ذكرهم فاحتفظ عليهم ، ثم أخذهم بأنواع النقمات التي اقترحها لهم ، فقتل كل واحد منهم بنوع لم يقتل به الآخر ، ومات العباس بن المأمون بمنبج فدفن هناك ، وكان سبب موته أنه أجاعه جوعاً شديداً ، ثم جيء بأكل كثير فأكل منه وطلب الماء فمنع منه حتى مات ، وأمر المعتصم بلعنه على المنبر وسماه اللعين . وقتل جماعة من ولد المأمون أيضاً .

وحج بالناس فيها محمد بن داود . وفيها توفي من الأعيان . بابك الخرّمي قتل وصلب كما قدمنا . وخالد بن خراش وعبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد . ومحمد بن سنان العوفي . وموسى بن إسماعيل .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل بآمل طبرستان يقال له مازيار بن قارن بن يزداهرمز ، وكان لا يرضى أن يدفع الخراج إلى نائب خراسان عبد الله بن طاهر بن الحسين ، بل يبعثه إلى الخليفة ليقبضه منه ، فيبعث الخليفة من يتلقى الحمل إلى بعض البلادليقبضه منه ثم يدفعه إلى ابن طاهر، ثم آل أمره إلى أن وثب على تلك البلاد وأظهر المخالفة للمعتصم . وقد كان المازيار هذا ممن يكاتب بابك الخرمي ويعده بالنصر . ويقال إن الذي قوى رأس مازيار على ذلك الأفشين ليعجز عبد الله بن طاهر عن مقاومته فيوليه المعتصم بلاد خراسان مكانه ، فبعث إليه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب ـ أخا إسحاق بن إبراهيم ـ في جيش كثيف فجرت بينهم حروب طويلة استقصاها ابن جرير ، وكان آخر ذلك أسر المازيار وحمله إلى ابن طاهر ، فاستقره عن الكتب التي بعثها إليه الأفشين فأقر بها ، فأرسله إلى المعتصم وما معه من أمواله التي احتفظت للخليفة ، وهي أشياء كثيرة جداً ، من الجواهر والذهب والثياب . فلما أوقف بين يدي الخليفة سأله عن كتب الأفشين إليه فأنكرها ، فأمر به فضرب بالسياط حتى مات وصلب إلى جانب بابك الخرمي على جسر بغداد ، وقتل عيون أصحابه وأتباعه .

وفيها تزوج الحسن بن الأفشين باترجة بنت أشناس ودخل بها في قصر المعتصم بسامرا في جمادى ، وكان عرساً حافلاً ، وليه المعتصم بنفسه ، حتى قيل إنهم كانوا يخضبون لحا العامة بالغالية . وفيها خرج منكجور الأشر وسني قرابة الأفشين بأرض أذربيجان وخلع الطاعة ، وذلك أن الأفشين كان قد استنابه على بلاد أذربيجان حين فرغ من أمر بابك ، فظفر منكجور بمال عظيم مخزون لبابك في بعض البلدان ، فأخذه لنفسه وأخفاه عن المعتصم ، وظهر على ذلك رجل يقال له عبد الله بن عبد الرحمن ، فكتب إلى الخليفة في ذلك فكتب منكجور يكذبه في ذلك ، وهم به ليقتله فامتنع منه بأهل أردبيل . فلما تحقق الخليفة كذب منكجور بعث إليه بغا الكبير فحاربه وأخذه بالأمان وجاء به إلى الخليفة . وفيها مات مناطس الرومي نائب عمورية ، وذلك أن المعتصم أخذه معه أسيراً فاعتقله بسامرا حتى مات في هذه السنة . وفي رمضان منها مات **إبراهيم بن المهدي ابن المنصور** عم المعتصم ويعرف بابن شكله ، وكان أسود اللون ضخماً فصيحاً فاضلاً ، قال ابن

ماكولا : وكان يقال له الصيني ـ يعني لسواده ـ وقد كان ترجمه ابن عساكر ترجمة حافلة وذكر أنه ولي إمرة دمشق نيابةعن الرشيد أخيه مدة سنتين ثم عزله عنها ثم أعاده إليها الثانيةوأقام بها أربع سنين . وذكر من عدله وصرامته أشياء حسنة، وأنه أقام للناس الحج سنة أربع وثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، ولما بويع بالخلافة في أول خلافة المأمون سنة ثنتين ومائتين قاتله الحسن بن سهل نائب بغداد ، فهزمه إبراهيم هذا ، فقصده حميد الطوسي فهزم إبراهيم واختفى إبراهيم ببغداد حين قدمها المأمون ، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه وأكرمه . وكانت مدة ولايته الخلافة سنة واحد عشر شهراً واثنا عشر يوماً ، وكان بدء اختفائه في أواخر ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين ، فمكث مختفياً ست سنين وأربعة أشهر وعشراً . قال الخطيب : كان إبراهيم بن المهدي هذا وافر الفضل غزير الأدب واسع النفس سخي الكف ، وكان معروفاً بصناعة الغناء ، حاذقاً فيها وقد قل المال عليه في أيام خلافته ببغداد فألح الأعراب عليه في أعطياتهم فجعل يسوف بهم . ثم خرج إليهم رسول يقول : إنه لا مال عنده اليوم ، فقال بعضهم : فليخرج الخليفة إلينا فليغن لاهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات . فقال في ذلك دعبل شاعر المأمون يذم إبراهيم بن المهدي :

يـا مـعشـرَ الأعـرابِ لا تـغـلَطوا	خـذوا عـطايـاكمْ ولا تسخَـطوا
فسـوفَ يُـعـطيكـمْ حُـنينـيـةً	لا تـدخـلُ الـكْـيسَ ولا تـربطَ
والـمـعـبـديـاتُ لـقُـوّادكـمْ	ومـا بـهـذا أحـدٌ يُـغـبـطُ[1]
فـهـكـذا يـرزُقُ أصـحـابـهَ	خـليفـةٌ مُـصْـحَـفُـةَ البـر بطُ[2]

وكتب إلى ابن أخيه المأمون حين طال عليه الاختفاء : وليُّ الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل عفو ، كما جعل كل ذي نسب دونه ، فإن عفا فبفضله وإن عاقب فبحقه . فوقع المأمون في جواب ذلك . القدرة تذهب الحفيظة وكفى بالندم إنابة وعفو الله أوسع من كل شيء . ولما دخل عليه أنشأ يقول :

إن أكـن مـذنبـاً فـحـظّي أخـطأتْ	فـدعْ عـنـكَ كـثـرةَ الـتـأنـيـبِ
قـلْ كمـا قـالَ يـوسفَ لِبَني يعقـو	بَ لـمّـا أتـوهُ : لا تـشـريـبِ[3]

فقال المأمون : لا تثريب . وروى الخطيب أن إبراهيم لما وقف بين يدي المأمون شرع يؤنبه على ما فعل فقال : يا أمير المؤمنين حضرت أبي وهو جدك وقد أتى برجل ذنبه أعظم من ذنبي فأمر بقتله فقال مبارك بن فضالة : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تؤخر قتل هذا الرجل حتى أحدثك حديثاً ، فقال : قل . فقال : حدثني الحسن البصري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال ؟

(١) يغبط : يفرح ويُسَر .

(٢) البَرْبَط : العود والمِزْهر (فارسية) .

(٣) تثريب : إفساد وتخليط .

« إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش : ليقم العافون عن الناس من الخلفاء إلى أكرم الجزاء ، فلا يقوم إلا من عفا . فقال المأمون : قد قبلت هذا الحديث بقبوله وعفوت عنك يا عم . وقد ذكرنا في سنة أربع ومائتين زيادة على هذا . وكانت أشعاره جيدة بليغة سامحه الله . وقد ساق من ذلك ابن عساكر جانباً جيداً .

كان مولد إبراهيم هذا في مستهل ذي القعدة سنة اثنتين وستين ومائة ، وتوفي يوم الجمعة لسبع خلون من هذه السنة عن اثنتين وستين سنة .

وفيها توفي سعيد بن أبي مريم المصري . وسليمان بن حرب . وأبو معمر المقعد . وعلي بن محمد المدائني الأخباري أحد أئمة هذا الشأن في زمانه . وعمرو بن مرزوق شيخ البخاري . وقد تزوج هذا الرجل ألف امرأة . **وأبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي** أحد أئمة اللغة والفقه والحديث والقرآن والأخبار وأيام الناس ، له المصنفات المشهورة المنتشرة بين الناس ، حتى يقال إن الإمام أحمد كتب كتابه في الغريب بيده، ولما وقف عليه عبد الله بن طاهر رتب له في كل شهر خمسمائة درهم ، وأجراها على ذريته من بعده. وذكر ابن خلكان أن ابن طاهر استحسن كتابه وقال : ما ينبغي لعقل بعث صاحبه على تصنيف هذا الكتاب أن نحوج صاحبه إلى طلب المعاش . وأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر . وقال محمد بن وهب المسعودي : سمعت أبا عبيد يقول : مكثت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة . وقال هلال بن المعلى الرقي من الله على المسلمين بهؤلاء الأربعة : الشافعي تفقه في الفقه والحديث ، وأحمد بن حنبل في المحنة . ويحيى بن معين في نفي الكذب . وأبو عبيد في تفسير غريب الحديث . ولولا ذلك لاقتحم الناس المهالك .

وذكر ابن خلكان أن أبا عبيد ولى القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة ، وذكر له من العبادة والاجتهاد في العبادة شيئاً كثيراً . وقد روى الغريب عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وابن الأعرابي ، والفراء والكسائي وغيرهم . وقال إسحاق بن راهويه : نحن نحتاج إليه وهو لا يحتاج إلينا . وقدم بغداد وسمع الناس منه ومن تصانيفه . وقال إبراهيم الحربي : كان كأنه جبل نفخ فيه روح ، يحسن كل شيء وقال أحمد بن كامل القاضي : كان أبو عبيد فاضلاً ديناً ربانياً عالماً متقناً في أصناف علوم أهل الإيمان والاتقان والإسلام : من القرآن والفقه والعربية والأحاديث ، حسن الرواية صحيح النقل، لا أعلم أحداً طعن عليه في شيء من علمه وكتبه ، وله كتاب الأموال وكتاب فضائل القرآن ومعانيه ، وغير ذلك من الكتب المنتفع بها رحمه الله . توفي في هذه السنة قاله البخاري . وقيل في التي قبلها بمكة ، وقيل بالمدينة . وله سبع وستون سنة . وقيل جاوز السبعين فالله أعلم .

ومحمد بن عثمان أبو الجماهر الدمشقي الكفرتوتي أحد مشايخ الحديث . ومحمد بن الفضل أبو النعمان السدوسي الملقب بعارم شيخ البخاري ومحمد بن عيسى بن الطباع . ويزيد بن عبد ربه

الجرجسي الحمصي شيخها في زمانه .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

فيها دخل بغا الكبير ومعه منكجور قد أعطى الطاعة بالأمان . وفيها عزل المعتصم جعفر بن دينار عن نيابة اليمن وغضب عليه وولى اليمن ايتاخ . وفيها وجه عبد الله بن طاهر بالمازيار فدخل بغداد على بغل باكاف فضربه المعتصم بين يديه أربعمائة وخمسين سوطاً ثم سُقِيَ الماء حتى مات ، وأمر بصلبه إلى جنب بابك ، وأقر في ضربه أن الأفشين كان يكاتبه ويحسن له خلع الطاعة ، فغضب المعتصم على الأفشين وأمر بسجنه ، فبنى له مكان كالمنارة من دار الخلافة تسمى الكوة ، إنما تسعه فقط ، وذلك لما تحقق أنه يريد مخالفته والخروج عليه ، وأنه قد عزم على الذهاب لبلاد الخزر ليستجيش بهم على المسلمين فعاجله الخليفة بالقبض عليه قبل ذلك كله ، وعقد له المعتصم مجلساً فيه قاضيه أحمد بن أبي داؤد المعتزلي ، ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات ، ونائبه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، فاتهم الأفشين في هذا المجلس بأشياء تدل على أنه باق على دين أجداده من الفرس . منها أنه غير مختتن[1] فاعتذر أنه يخاف ألم ذلك ، فقال له الوزير ـ وهو الذي كان يناظره من بين القوم ـ فأنت تطاعن بالرماح في الحروب ولا تخاف من طعنها وتخاف من قطع قلفة ببدنك ؟ ومنها أنه ضرب رجلين إماماً ومؤذناً كل واحد ألف سوط لأنهما هدما بيت أصنام فاتخذاه مسجداً . ومنها أنه عنده كتاب كليلة ودمنة مصوراً فيه الكفر وهو محلى بالجواهر والذهب ، فاعتذر أنه ورثه من آبائهم . واتهم بأن الأعاجم يكاتبونه وتكتب إليه في كتبها : أنت إلّه الآلهة من العبيد ، وأنه يقرهم على ذلك . فجعل يعتذر بأنه أجراهم على ما كانوا يكاتبون به أباه وأجداده ، وخاف أن يأمرهم بترك ذلك فيتضع عندهم فقال له الوزير : ويحك فماذا أبقيت لفرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ؟ وأنه كان يكاتب المازيار بأن يخرج عن الطاعة وأنه في ضيق حتى ينصر دين المجوس الذي كان قديماً ويظهره على دين العرب ، وأنه كان يستطيب المنخنقة على المذبوحة ، وأنه كان في كل يوم أربعاء يستدعي بشاة سوداء فيضربها بالسيف نصفين ويمشي بينهما ثم يأكلها ، فعند ذلك أمر المعتصم بغا الكبير أن يسجنه مهانا ذليلاً فجعل يقول : إني كنت أتوقع منكم ذلك .

وفي هذه السنة حمل عبد الله بن طاهر الحسن بن الأفشين وزوجته أترجة بنت أشناس إلى سامرا . وحج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيها توفي من الأعيان اصبغ بن الفرج ، وسعدويه ، ومحمد بن سلام البيكندي شيخ البخاري ، وأبو عمر الجرمي . وأبو دلف العجلي التميمي الأمير أحد الأجواد .

---

(١) مختتن : الختن : قطع قُلْفَة الصبي .

وسعيد بن مسعدة

أبو الحسن الأخفش الأوسط البلخي ثم البصري النحوي ، أخذ النحو عن سيبويه وصنف كتباً كثيرة منها كتاب في معاني القرآن ، وكتاب الأوسط في النحو وغير ذلك ، وله كتاب في العروض زاد فيه بحر الخبب على الخيل ، وسُمِّيَ الأخفش لصغر عينيه وضعف بصره ، وكان أيضاً أدلغ ، وهو الذي لا يضم شفتيه على أسنانه ، كان أولا يقال له الأخفش الصغير بالنسبة إلى الأخفش الكبير ، أبي الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد الهجري ، شيخ سيبويه وأبي عبيدة ، فلما ظهر علي بن سليمان ولقب بالأخفش أيضاً صار سعيد بن مسعدة هو الأوسط ، والهجري الأكبر ، وعلي بن سليمان الأصغر . وكانت وفاته في هذه السنة ، وقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين .

الجرمي النحوي

وهو صالح بن إسحاق البصري ، قدم بغداد وناظر بها الفراء ، وكان قد أخذ النحو عن أبي عبيدة وأبي زيد والأصمعي وصنف كتباً منها الفرخ - يعني فرخ كتاب سيبويه - وكان فقيهاً فاضلاً نحوياً بارعاً عالماً باللغة حافظاً لها ، ديناً ورعاً حسن المذهب ، صحيح الاعتقاد وروى الحديث . ذكره ابن خلكان وروى عنه المبرد ، وذكره أبو نعيم في تاريخ اصبهان .

ثم دخلت سنة ست وعشرين ومائتين

في شعبان منها توفي الأفشين في الحبس فأمر به المعتصم فصلب ثم أحرق وذرى رماده في دجلة واحتيط على أمواله وحواصله فوجدوا فيها أصناماً مكللة بذهب وجواهر ، وكتباً في فضل دين المجوس وأشياء كثيرة كان يتهم بها ، تدل على كفره وزندقته ، وتحقق بسببها ما ذكر عنه من الانتماء إلى دين آبائه المجوس . وحج بالناس فيها محمد بن داود .

وفيها توفي إسحاق القروي . وإسماعيل بن أبي أوس . ومحمد بن داود صاحب التفسير . وغسان بن الربيع . ويحيى بن يحيى التميمي شيخ مسلم بن الحجاج ومحمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين .

وأبو دلف العجلي

عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية بن خزاعي بن عبد العزيز بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لحيم الأمير أبو دلف العجلي أحد قواد المأمون والمعتصم وإليه ينسب الأمير أبو نصر بن ماكولا ، صاحب كتاب الاكمال . وكان القاضي جلال الدين خطيب دمشق القزويني يزعم أنه من سلالته ، ويذكر نسبه إليه ، وكان أبو دلف هذا كريماً جواداً ممدحاً ، قد قصده الشعراء من كل أوب ، وكان أبو تمام الطائي من جملة من يغشاه ويستمنح نداه ، وكانت لديه فضيلة

في الأدب والغناء ، وصنف كتباً منها سياسة الملوك ، ومنها في الصيد والبزاة . وفي السلاح وغير ذلك . وما أحسن ما قال فيه بكر بن النطاع الشاعر :

يـا طـالـبـاً لـلْكـيـمـيـاءِ وعِـلمِهِ — مـدح ابن عيسى الكيمياءُ الأعـظـمُ
لـو لـم يـكُن في الارضِ إلا درهـمٌ — ومـدحـتَـهُ لأتـاكَ ذاكَ الـدرهـمُ

فيقال : إنه أعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم ، وكان شجاعاً فاتكاً ، وكان يستدين ويعطي ، وكان أبوه قد شرع في بناء مدينة الكرخ فمات ولم يتمها فأتمها أبو دلف ، وكان فيه تشيع ، وكان يقول : من لم يكن متغالياً في التشيع فهو ولد زنا . فقال له ابنه دلف : لست على مذهبك يا أبة . فقال : والله لقد وطئت أمّك قبل أن أشتريها ، فهذا من ذاك . وقد ذكر ابن خلكان أن ولده رأى في المنام بعد وفاة أبيه أن آتيا أتاه فقال : أجب الأمير ! قال فقمت معه فأدخلني داراً وحشة وعرة سوداء الحيطان مغلقة السقوف والأبواب . ثم أصعدني في درج منها ثم أدخلني غرفة ، وإذا في حيطانها أثر النيران ، وفي أرضها أثر الرماد ، وإذا بأبي فيها وهو عريان واضع رأسه بين ركبتيه فقال لي كالمستفهم : أدلف ؟ فقلت دلف . فأنشأ يقول :

أبـلغـنْ أهـلَنـا ولا تـخـفِ عنـهـم — مـا لَـقينـا في الـبَـرْزخِ[1] الخـنـاقِ
قـد سُئِلْنـا عن كـلِّ مـا قـدْ فَعلنـا — فـآرحمـوا وَحشتي ومـا قـدْ ألاقـي

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم ! ثم أنشأ يقول :

فـلوْ أنّـا إذا مِـتْـنـا تُـرِكـنـا — لـكـانَ الـمـوتُ راحـةَ كـلّ حـيٍ
ولـكـنّـا إذَا مِـتْـنـا بُـعِـثْـنـا — ونُـسـألُ بَـعـدهُ عَـنْ كـلِ شـيء

ثم قال : أفهمت ؟ قلت : نعم . وانتبهت .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل من أهل الثغور بالشام يقال له أبو حرب المبرقع اليماني ، فخلع الطاعة ودعا إلى نفسه . وكان سبب خروجه أن رجلاً من الجند أراد أن ينزل في منزله عند امرأته في غيبته فمانعته المرأة فضربها الجندي في يدها فأثرت الضربة في معصمها . فلما جاء بعلها أبو حرب أخبره فذهب الى الجندي وهو غافل فقتله ثم تحصن في رؤوس الجبال وهو مبرقع ، فإذا جاء أحد دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذم من السلطان ، فاتبعه على ذلك خلق كثير من الحراثين وغيرهم ، وقالوا : هذا هو السفياني المذكور أنه يملك الشام ، فاستفحل أمره جداً ، واتبعه نحو من مائة ألف مقاتل ، فبعث إليه المعتصم وهو في مرض موته جيشاً نحواً من مائة ألف مقاتل ، فلما قدم أمير المعتصم بمن معه وجدهم أمة كثيرة وطائفة كبيرة ، قد اجتمعوا حول أبي حرب ، فخشي أن يواقعه

---

(١) البرزخ : المضيق .

والحالة هذه ، فانتظر إلى أيام حرث الأراضي فتفرق عنه الناس إلى أراضيهم ، وبقي في شرذمة قليلة فناهضه فأسره وتفرق عنه أصحابه ، وحمله أمير السرية وهو رجاء بن أيوب حتى قدم به على المعتصم ، فلامه المعتصم في تأخره عن مناجزته(١) أول ما قدم الشام ، فقال : كان معه مائة ألف أو يزيدون ، فلم أزل أطاوله حتى أمكن الله منه ، فشكره على ذلك .

وفيها في يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة كانت وفاة أبي إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور .

وهذه ترجمته

هو أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي يقال له المثمن لأنه ثامن ولد العباس ، وأنه ثامن الخلفاء من ذريته ، ومنها أنه فتح ثمان فتوحات ، ومنها أنه أقام في الخلافة ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام . وقيل ويومين ، وأنه ولد سنة ثمانين ومائة في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة ، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون سنة ، ومنها أنه خلف ثمانية بنين وثماني بنات ، ومنها أنه دخل بغداد من الشام في مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة بعد موت أخيه المأمون ، قالوا : وكان أمياً لا يحسن الكتابة ، وكان سبب ذلك أنه كان يتردد معه إلى الكتاب(٢) غلام فمات الغلام فقال له أبوه الرشيد : ما فعل غلامك ؟ قال : مات فاستراح من الكتاب ، فقال الرشيد : وقد بلغ منك كراهة الكتاب إلى أن تجعل الموت راحة منه ؟ والله يا بني لا تذهب بعد اليوم إلى الكتّاب . فتركوه فكان أمياً ، وقيل بل كان يكتب كتابة ضعيفة . وقد أسند الخطيب من طريقه عن آبائه حديثين منكرين أحدهما في ذم بني أمية ومدح بني العباس من الخلفاء . والثاني في النهي عن الحجامة يوم الخميس . وذكر بسنده عن المعتصم أن ملك الروم كتب إليه كتاباً يتهدده فيه فقال للكاتب اكتب : قد قرأت كتابك وفهمت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. قال الخطيب : غزا المعتصم بلاد الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، فأنكى نكاية عظيمة في العدو ، وفتح عمورية وقتل من أهلها ثلاثين ألفا وسبى مثلهم ، وكان في سبيه ستون بطريقا ، وطرح النار في عمورية في سائر نواحيها فأحرقها وجاء بنائبها إلى العراق وجاء ببابها أيضاً معه وهو منصوب حتى الآن على أحد أبواب دار الخلافة مما يلي المسجد الجامع في القصر . وروى عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أنه قال : ربما أخرج المعتصم ساعده إلي وقال لي : عض يا أبا عبد الله بكل ما تقدر عليه ، فأقول إنه لا تطيب نفسي يا أمير المؤمنين أن أعض ساعدك ، فيقول : إنه لا يضرني .

---

(١) مناجزته : مبارزته ومقاتلته .

(٢) الكتّاب : جمعها كتاتيب : موضع التعليم .

فأكدم[1] بكل ما أقدر عليه فلا يؤثر ذلك في يده . ومر يوما في خلافة أخيه بمخيم الجند فإذا امرأة تقول : ابني ابني ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : ابني أخذه صاحب هذه الخيمة . فجاء إليه المعتصم فقال له : أطلق هذا الصبي ، فامتنع عليه فقبض على جسده بيده فسمع صوت عظامه من تحت يده ، ثم أرسله فسقط ميتاً وأمر بإخراج الصبي إلى أمه . ولما ولي الخلافة كان شهماً وله همة عالية في الحرب ومهابة عظيمة في القلوب ، وإنما كانت نهمته في الانفاق في الحرب لا في البناء ولا في غيره .

وقال أحمد بن أبي دؤاد : تصدق المعتصم على يدي ووهب ما قيمته مائة ألف ألف درهم . وقال غيره : كان المعتصم إذا غضب لا يبالي من قتل ولا ما فعل . وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : دخلت يوماً على المعتصم وعنده قينة[2] له تغنيه فقال لي : كيف تراها ؟ فقلت له : أراها تقهره بحذق ، وتجتله برفق ، ولا تخرج من شيء إلا إلى أحسن منه ، وفي صوتها قطع شذور ، أحسن من نظم الدر على النحور . فقال : والله لصفتك لها أحسن منها ومن غنائها ، ثم قال لابنه هارون الواثق ولي عهده من بعده : اسمع هذا الكلام . وقد استخدم المعتصم من الأتراك خلقاً عظيماً كان له من المماليك الترك قريب من عشرين ألفاً ، وملك من آلات الحرب والدواب ما لم يتفق لغيره . ولما حضرته الوفاة جعل يقول : ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾[3] . وقال : لو علمت أن عمري قصير ما فعلت . وقال : إني أحدث هذا الخلق ، وجعل يقول : ذهبت الحيل فلا حيلة . وروى عنه أنه قال في مرض موته : اللهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك ، وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي .

كانت وفاته بسر من رأى في يوم الخميس ضحى لسبع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من هذه السنة ـ أعني سنة سبع وعشرين ومائتين ـ وكان مولده يوم الاثنين لعشر خلون من شعبان سنة ثمانين ومائة ، وولي الخلافة في رجب سنة ثمان عشرة ومائتين ، وكان أبيض أصهب[4] اللحية طويلها مربوعاً مشرب اللون ، أمه أم ولد اسمها ماردة ، وهو أحد أولاد ستة من أولاد الرشيد، كل منهم اسمه محمد ، وهم أبو إسحاق محمد المعتصم ، وأبو العباس محمد الأمين ، وأبو عيسى محمد ، وأبو أحمد ، وأبو يعقوب ، وأبو أيوب . قال هشام بن الكلبي . وقد ولي الخلافة بعده ولده هارون الواثق . وقد ذكر ابن جرير أن وزيره محمد بن الملك بن الزيات رثاه فقال :

قد قلتُ إذ غيّبوكَ واصطفقَت[5] عليكَ أيدي التُرابِ والطِّينِ

---

(١) فأكدم : عض .

(٢) قينة : جارية تسقي الخمر .

(٣) سورة الأنعام ، الآية/ ٤٤ .

(٤) أصهب : هو الشعر الذي فيه حمرةٌ أو شقرةٌ .

(٥) واصطفقت : اصطفق العود : تحركت أوتاره . و ـ البحر : تلاطمت أمواجه . و ـ الاشجار : اهتزت بالريح .

إذهْب فنعم الحفيظَ كنت على الـ ـدنيا ونِعْمَ الظهيرُ للدِّينِ
لا جَبرَ اللَّهُ أمّةً فقدت مثلكَ إلا بمثلِ هارونِ

وقال مروان بن أبي الجنوب ـ وهو ابن أخي حفصة ـ:

أبو إسحاق ماتَ ضحىً فمتنا وأمسَيْنا بهارونَ حَيينا
لئنْ جاءَ الخميسُ بما كرَهنا لقد جاءَ الخميسُ بما هَوِينا

خلافة هارون الواثق بن المعتصم

بويع له بالخلافة قبل موت أبيه يوم الأربعاء لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة ـ أعني سنة سبع وعشرين ومائتين ـ ويكنى أبا جعفر ، وأمه أم ولد رومية يقال لها قراطيس ، وقد خرجت في هذه السنة قاصدة الحج فماتت بالحيرة ، ودفنت بالكوفة في دار داود بن عيسى ، وذلك لأربع خلون من ذي القعدة من هذه السنة ، وكان الذي أقام للناس الحج فيها جعفر بن المعتصم .

وفيها توفي ملك الروم توفيل بن ميخائيل ، وكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة ، فملكت الروم بعده امرأته تدورة . وكان ابنها ميخائيل بن توفيل صغيراً . وفيها توفي :

بشر الحافي الزاهد المشهور

وهو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي ، نزيل بغداد . قال ابن خلكان : وكان اسم جده عبد الله الغيور ، أسلم على يدي علي بن أبي طالب . قلت : وكان مولده ببغداد سنة خمسين ومائة ، وسمع بهاشيئاً كثيراً من حماد بن زيد ، وعبد الله بن المبارك ، وابن مهدي ، ومالك ، وأبي بكر بن عياش ، وغيرهم . وعنه جماعة منهم أبو خيثمة ، وزهير بن حرب ، وسري السقطي ، والعباس بن عبد العظيم ، ومحمد بن حاتم . قال محمد بن سعيد : سمع بشر كثيراً ثم اشتغل بالعبادة واعتزل الناس ولم يحدث ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة في عبادته وزهادته وورعه ونسكه وتقشفه . قال الإمام أحمد يوم بلغه موته : لم يكن له نظير إلا عامر بن عبد قيس ، ولو تزوج لتم أمره . وفي رواية عنه أنه قال : ما ترك بعده مثله . وقال إبراهيم الحربي : ما أخرجت بغداد أتم عقلاً منه ، ولا أحفظ للسانه منه ، ما عرف له غيبة لمسلم ، وكان في كل شعرة منه عقل . ولو قسم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء وما نقص من عقله شيء . وذكر غير واحد أن بشراً كان شاطراً في بدء أمره ، وأن سبب توبته أنه وجد رقعة فيها اسم الله عز وجل في أتون حمام فرفعها ورفع طرفه إلى السماء وقال : سيدي اسمك ههنا ملقى يداس ! ثم ذهب إلى عطار فاشترى بدرهم غالية وضمخ تلك الرقعة منها ووضعها حيث لا تنال ، فاحيى الله قلبه وألهمه رشده وصار إلى ما صار إليه من العبادة والزهادة .

ومن كلامه : من أحب الدنيا فليتهيأ للذل . وكان بشر يأكل الخبز وحده فقيل له : أما لك

أدم[1] ؟ فقال : بلى أذكر العافية فأجعلها أدما . وكان لا يلبس نعلاً بل يمشي حافياً ، فجاء يوماً إلى باب فطرقه فقيل من ذا ؟ فقال : بشر الحافي . فقالت له جارية صغيرة : لو اشترى نعلاً بدرهم لذهب عنه اسم الحافي . قالوا : وكان سبب تركه النعل أنه جاء مرة إلى حَذَّاء فطلب منه شراكا لنعله فقال : ما أكثر كلفتكم يا فقراء على الناس ؟ فطرح النعل من يده وخلع الأخرى من رجله وحلف لا يلبس نعلاً أبداً .

قال ابن خلكان : وكانت وفاته يوم عاشوراء ، وقيل في رمضان ببغداد ، وقيل بمرو . قلت : الصحيح ببغداد في هذه السنة ، وقيل في سنة ست وعشرين والأول أصح والله أعلم . وحين مات اجتمع في جنازته أهل بغداد على بكرة أبيهم ، فأخرج بعد صلاة الفجر فلم يستقر في قبره إلا بعد العتمة . وكان على المدائني وغيره من أئمة الحديث يصيح بأعلا صوته في الجنازة: هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة . وقد روي أن الجن كانت تنوح عليه في بيته الذي كان يسكنه . وقد رآه بعضهم في المنام فقال : ما فعل الله بك ؟ فقال غفر لي ولكل من أحبني إلى يوم القيامة . وذكر الخطيب أنه كان له أخوات ثلاث وهن : مخة ، ومضغة ، وزبدة . وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعاً أيضاً . ذهبت إحداهن إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت : إني ربما طفىء السراج وأنا أغزل على ضوء القمر فهل علي عند البيع أن أميز هذا من هذا ؟ فقال : إن كان بينهما فرق فميزي للمشتري . وقالت له مرة إحداهن : ربما تمر بنا مشاغل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فنغزل الطاق والطاقين والطاقات فخلصني من ذلك . فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لما اشتبه عليها من معرفة ذلك المقدار . وسألته عن أنين المريض أفيه شكوى ؟ قال لا ! إنما هو شكوى إلى الله عز وجل . ثم خرجت فقال لابنه عبد الله : يا بني اذهب خلفها فاعلم لي من هذه المرأة ؟ قال عبد الله : فذهبت وراءها فإذا هي قد دخلت دار بشر ، وإذا هي أخته مخة .

وروى الخطيب أيضاً عن زبدة قالت : جاء ليلة أخي بشر فدخل برجله في الدار وبقيت الأخرى خارج الدار ، فاستمر كذلك ليلته حتى أصبح ، فقيل له فيم تفكرت ليلتك ؟ فقال : تفكرت في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي وفي نفسي لأن اسمي بشر، فقلت في نفسي : ما الذي سبق لي من الله حتى خصني بالإسلام من بينهم ؟ فتفكرت في فضل الله عليَّ وحمدته أن هداني للإسلام ، وجعلني ممن خصه به ، وألبسني لباس أحبابه وقد ترجمه ابن عساكر فأطنب وأطيب وأطال من غير ملال ، وقد ذكر له أشعاراً حسنة ، وذكر أنه كان يتمثل بهذه الأبيات :

تعاف القذى في الماءِ لا تستطيعهُ ... وتكرعُ من حوضِ الذنوبِ فتشربُ
وتؤثرُ من أكلِ الطعامِ ألذه ... ولا تذكرُ المختارَ من أينَ يُكسبُ

---

(١) أدم : ما يُؤْتَدَم به .

وتـرقـدُ يـا مسكين فـوقَ نمـارقٍ[1]   وفي حشـوهـا نـارٌ عليـكَ تلهبُ
فحتى متـى لا تسـتفـيق جـهـالـة   وأنتَ ابنُ سبعينَ بـدينـكَ تلعـبُ

وممن توفي فيها أحمد بن يونس ، واسماعيل بن عمرو البجلي ، وسعيد بن منصور صاحب السنن المشهورة التي لا يشاركه فيها إلا القليل . ومحمد بن الصباح الدولابي ، وله سنن أيضاً ، وأبو الوليد الطيالسي ، وأبو الهذيل العلاف المتكلم المعتزلي ، والله أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

في رمضان منها خلع الواثق على اشناس الأمير ، وتوجه وألبسه وشاحين من جوهـر وحج بالناس فيها محمد بن داود الأمير ، وغلا السعر على الناس في طريق مكة جداً ، وأصابهم حر شديد وهم بعرفة ، ثم أعقبه برد شديد ومطر عظيم ، كل ذلك في ساعة واحدة ، ونزل عليهم وهم بمنى مطر لم يُرَ مثله ، وسقطت قطعة من الجبل عند جمرة العقبة فقتلت جماعة من الحجاج .

قال ابن جرير : وفيها مات أبو الحسن المدائني أحد أئمة هذا الشأن في منزل إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وحبيب بن أوس الطائي أبو تمام الشاعر .

قلت أما أبو الحسن المدائني فاسمه علي بن المدائني أحد أئمة هذا الشأن ، وإمام الأخباريين في زمانه ، وقد قدمنا ذكر وفاته قبل هذه السنة . وأما . .

أبو تمام الطائي الشاعر

صاحب الحماسة التي جمعها في فضـل النساء بهمـدان في دار وزيرهـا . فهو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيى أبو تمام الطائي الشاعر الأديب ، ونقل الخطيب عن محمـد بن يحيى الصولي أنـه حكي عن بعض الناس أنهم قـالـوا : أبـو تمـام حبيب بن تـدرس النصراني ، فسماه أبوه حبيب أوس بدل تدرس ، قال ابن خلكان : وأصله من قرية جاسم من عمل الجيدور بالقرب من طبرية ، وكان بدمشق يعمل عند حائك ، ثم سار به الى مصر في شبيبته . وابن خلكان أخذ ذلك من تاريخ ابن عساكر ، وقد ترجم له أبو تمام ترجمة حسنة ، قال الخطيب : وهو شامي الأصل ، وكان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع ، ثم جالس بعض الأدباء فأخذ عنهم وكان فطناً فهماً ، وكان يحب الشعر فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر فأجاد ، وشاع ذكره وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه وهو بسر من رأى ، فعمل فيه قصائد فاجازه وقدمه على شعراء وقته ، قدم بغداد فجالس الأدباء وعاشر العلماء ، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق ، وقد روى عنه

---

(١) نمارق : مفردها نُمْرُق : الوسادة الصغيرة يُتَّكأُ عليها .

أحمد بن أبي طاهر أخباراً بسنده . قال ابن خلكان : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع وغير ذلك ، وكان يقال : في طيء ثلاثة : حاتم في كرمه ، وداود الطائي في زهده ، وأبو تمام في شعره . وقد كان الشعراء في زمانه جماعة فمن مشاهيرهم أبو الشيص ، ودعبل ، وابن أبي قيس ، وكان أبو تمام من خيارهم ديناً وأدباً وأخلاقاً ، ومن رقيق شعره قوله :

يـا حَليفَ النَّدى ويـا معدِنَ الجُـودِ ... ويـا خيـرَ مَن حَـويتَ القَـريضـا [1]

ليتَ حُمَّـاكَ بي وكـانَ لـكَ الأجـ ... ـر فـلا تشتكي وكنتُ المـريضـا

وقد ذكر الخطيب عن إبراهيم بن محمد بن عرفة أن أبا تمام توفي في سنة إحدى وثلاثين ومائتين وكذا قال ابن جرير ، وحكي عن بعضهم أنه توفي في سنة إحدى وثلاثين ، وقيل سنة اثنتين وثلاثين فالله أعلم ، وكانت وفاته بالموصل ، وبنيت على قبره قبة ، وقد رثاه الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فقال :

نـبـأٌ أتـى مِـن أعـظمِ الأنبـاءِ ... لـمـا ألـمَّ مـقـلقـلُ الأحـشـاء

قـالـوا حبيبٌ قـد ثـوى فـأجبتُهم ... نـاشـدتـكم لا تـجعـلوهُ الـطائي

وقال غيره :

فُجِـعَ القَـريض بخـاتَمِ الشعراء ... وغـديـر رَوْضتِهـا حبيبِ الـطائي

مـاتـا معـاً فتجـاوَرا في حُفـرةٍ ... وكـذاكَ كـانـا قبـلُ في الأحْيـاءِ

وقد جمع الصولي شعر أبي تمـام على حروف المعجم ، قـال ابن خلكان : وقـد امتدح أحمد بن المعتصم ويقال ابن المأمون بقصيدته التي يقول فيها :

إقـدامُ عمـروٍ في سَمـاحـةِ حَـاتمٍ ... في حِلمِ أحنفَ في ذكـاءِ إيـاسِ

فقال له بعض الحاضرين : أتقول هذا لأمير المؤمنين وهو أكبر قدراً من هؤلاء ؟ فانك ما زدت على أن شبهته بأجلاف من العرب البوادي ، فأطرق إطراقة ثم رفع رأسه فقال :

لا تُنكِـروا ضَـرْبي لـهُ مَنْ دُونَـهُ ... مَثَـلا شـروداً في النـدى والبـاسِ

فـالله قـد ضَـربَ الأقـلَ لنـورهِ ... مثـلاً من المشكـاةِ والنبـراسِ

قال : فلما أخذوا القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين ، وإنما قالهما ارتجالا . قال : ولم يعش بعد هذا إلا قليلا حتى مات . وقيل إن الخليفة أعطاه الموصل لما مدحه بهذه القصيدة ، فأقام بها أربعين يوماً ثم مات . وليس هذا بصحيح ، ولا أصل له ، وإن كان قد لهج به بعض الناس كالزمخشري وغيره ، وقد أورد له ابن عساكر أشياء من شعره مثل قوله :

(١) القريضا : الشعر .

ولو كانت الأرزاقُ تُجري على الحِجَا [1] هَـلَكنَ إذاً مـن جـهـلهـنَ الـبـهـائـمُ
ولم يجتمـعُ شـرقٌ وغـربٌ لقـاصـدٍ ولا المجدُ في كفِّ امرىءٍ والـدراهم

ومنه قوله :

ومـا أنـا بـالغَيْـرانِ مِن دونِ غَـرْسِهِ إذَا أنـا لم أصْبِـحْ غَيـوراً على العلمِ
طـبيبُ فؤادي مُـذْ ثـلاثـينَ حِجّـةً ومُـذهِـبُ همّـي والـمـفـرّجُ لـلغـمِّ

وفيها توفي أبو نصر الفارأبي ، والعبسي ، وأبو الجهم ، ومسدّد ، وداود بن عمـروالضبي ، ويحيى بن عبد الحميد الحماني .

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

فيها أمر الواثق بعقوبـة الدواوين وضـربهم واستخلاص الأمـوال منهم ، لظهـور خيانـاتهم وإسرافهم في أمورهم ، فمنهم من ضرب ألف سوط وأكثر من ذلك وأقل ، ومنهم من أخذ منه ألف ألف دينار، ودون ذلك، وجاهر الوزير محمد بن عبد الملك لسائر ولاة الشرط بالعداوة فعسفوا وحبسوا ولقوا شراً عظيماً ، وجهداً جهيداً ، وجلس إسحاق بن إبراهيم للنظر في أمرهم ، وأقيموا للناس وافتضحوا هم والدواوين فضيحة بليغة ، وكان سبب ذلك أن الـواثق جلس ليلة في دار الخلافـة وجلسوا يسمرون عنده ، فقال : هل منكم أحد يعرف سبب عقوبة جدي الرشيد للبرامكة ؟ فقال بعض الحاضرين : نعم يا أمير المؤمنين ! سبب ذلك ان الرشيد عرضت له جارية فأعجبه جمالها فساوم سيدها فيها فقال : يا أمير المؤمنين إني أقسمت بكل يمين أن لا أبيعها بأقل من مائة ألف دينار ، فاشتراها منه بها وبعث الى يحيى بن خالد الوزير ليبعث اليه بالمال من بيت المال ، فاعتل بأنها ليست عنده ، فأرسل الرشيد اليه يؤنبه ويقول : أما في بيت مالي مائة ألف دينار ؟ وألح في طلبها فقال يحيى بن خالد : ارسلوها إليه دراهم ليستكثرها ، ولعله يرد الجارية ، فبعثوا بمائة ألف دينار دراهم ووضعوها في طريق الرشيد وهو خارج إلى الصلاة ، فلما اجتاز به رأى كوماً من دراهم ، فقال : ما هذا قالوا : ثمن الجارية ، فاستكثر ذلك وأمر بخزنها عند بعض خدمه في دار الخلافة ، وأعجبه جمع المال في حواصله ، ثم شرع في تتبع أموال بيت المال فإذا البرامكة قد استهلكوها ، فجعل يهم بهم تارة يريد أخذهم وهلاكهم ، وتارة يحجم عنهم ، حتى إذا كان في بعض الليالي سمر عنده رجل يقال له أبو العود فأطلق له ثلاثين ألفا من الدراهم ، فذهب الى الوزير يحيى بن خالد بن برمك فطلبها منه فماطله مدة طويلة ، فلما كان في بعض الليالي في السمر عرض أبو العود بذلك للرشيد في قول عمر بن أبي ربيعة :

وعـدت هـنـدٌ ومـا كـادتْ تـعـد لـيتَ هـنـداً أنـجـزتـنـا مـا تَـعِـدْ

(1) الحِجَا : العقل .

واســتـبـدّت مــرة واحـــــدةً إنـمــا الـعــاجــزُ مــن لا يـسـتـبـد

فجعل الرشيد يكرر قوله : إنما العاجز من لا يستبد ، ويعجبه ذلك . فلما كان الصباح دخل عليه يحيى بن خالد فأنشده الرشيد هذين البيتين وهو يستحسنهما ، ففهم ذلك يحيى بن خالد وخاف وسأل عن من أنشد ذلك للرشيد ؟فقيل له أبو العود . فبعث إليه وأعطاه الثلاثين ألفاً وأعطاه من عنده عشرين ألفا ، وكذلك ولداه الفضل وجعفر ، فما كان عن قريب حتى أخذ الرشيد البرامكة ، وكان من أمرهم ما كان .

فلما سمع ذلك الواثق أعجبه ذلك وجعل يكرر قول الشاعر : إنما العاجز من لا يستبد . ـم بطش بالكتاب وهم الدواوين على إثر ذلك ، وأخذ منهم أموالاً عظيمة جدا . وفيها حج بالناس أمير السنة الماضية وهو أمير الحجيج في السنتين الماضيتين .

وفيها توفي خلف بن هشام البزار أحد مشاهير القراء ، وعبد الله بن محمد السندي ، ونعيم بن حماد الخزاعي أحد أئمة السنة بعد أن كان من أكابر الجهمية ، وله المصنفات في السنن وغيرها ، وبشار بن عبد الله المنسوب إليه النسخة المكذوبة عنه أو منه ، ولكنها عالية الاسناد إليه ، ولكنها موضوعة .

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

في جمادى منها خرجت بنو سليم حول المدينة النبوية فعاثوا في الأرض فساداً ، وأخـافوا السبيل ، وقاتلهم أهل المدينة فهزموا أهلها واستحـوذوا على ما بين المـدينة ومكـة من المناهـل والقرى ، فبعث إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى التركي في جيش فقاتلهم في شعبان فقتل منهم خمسين فارساً وأسر منهم وانهزم بقيتهم ، فدعاهم إلى الأمان وأن يكونوا على حكم أمير المؤمنين ، فاجتمع إليه منهم خلق كثير ، فدخل بهم المدينة وسجن رؤ وسهم في دار يزيد بن معاوية وخرج الى الحج في هذه السنة ، وشهد معه الموسم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب نائب العراق ، وفيها حج بالناس محمد بن دواد المتقدم . وفيها توفي .

عبد الله بن طاهر بن الحسين

نائب خراسان وما والاها . وكان خراج ما تحت يده في كل سنة ثمانية وأربعين ألف ألف درهم ، فولى الواثق مكانه ابنه طاهر . وتوفي قبله أشناس التركي بتسعة أيام ، ويوم الأثنين لأحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقال ابن خلكان : توفي سنة ثمان وعشرين بمرو ، وقيل بنيسابور ، وكان كريما جواداً ، وله شعر حسن ، وقد ولي نيابة مصر بعـد العشرين ومائتين . وذكر الوزير أبو القاسم بن المعـزي ان البطيـخ العبدلاوي الـذي بمصر منسوب الى عبد الله بن طاهر هذا . قال ابن خلكان : لأنه كان يستطيبه ، وقيل لأنه أول من زرعه هناك والله

أعلم . ومن جيد شعره :

اغـتفـرْ زلَّتي لتحـرزَ فَـضْـلَ الـشُّـ ـكْـرِ مـنّي ولا يـفـوتَـك أجـري
لا تَـكِلني الى الـتـوسّـلِ بـالـعـذ رِ لـعـلي ان لا أقـومَ بـعـذري

ومن شعره قوله :

نـحن قـومٌ يُـلينـنـا الـخـدّ والنَّـحْـ ـر عـلى أننـا نُـلـيـنُ الـحـديـدا
طَـوعُ ايـدي الصِّبـا تَصَيَّـدنـا العيـ ـنُ ومـن شـأنـنـا نَـصِـيـدُ الأسـودا
نملكُ الصِّيـدَ (١) ثـم تملِكُنـا البيـ ـضُ الـمضيئـاتُ أعيـنـاً وخُـدودا
تـتقـي سُخْـطَنـا الأسـودُ ونـخشـى سقط الخشفِ حين تُـبـدي القـعـودا
فتـرانـا يـومَ الكـريـهـةِ (٢) أحـرا راً وفي السِّلم للغـواني (٣) عَبـيـدا

قال ابن خلكان : وكان خزاعياً من موالي طلحة الطلحات الخزاعي ، وقد كان أبو تمام يمدحه ، فدخل إليه مرة فأضافه الملح بهمدان فصنف له كتاب الحماسة عند بعض نسائه . ولما ولاه المأمون نيابة الشام ومصر صار إليها وقد رسم له بما في ديار مصر من الحواصل ، فحمل إليه وهو في أثناء الطريق ثلاثة آلاف ألف دينار ، ففرقها كلها في مجلس واحد ، وأنه لما واجه مصر نظر إليها فاحتقرها وقال : قبح الله فرعون ، ما كان أخسه وأضعف همته حين تبجّح وتعاظم بملك هذه القرية ، وقال : أنا ربكم الأعلى . وقال : أليس لي ملك مصر . فكيف لو رأى بغداد وغيرها .

وفيها توفي علي بن جعد الجوهري . ومحمد بن سعد كاتب الواقدي مصنف كتاب الطبقات وغيره . وسعيد بن محمد الجرمي .

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

فيها وقعت مفاداة الأسارى المسلمين الذين كانوا في أيدي الروم على يدي الأمير خاقان الخادم ، وذلك في المحرم من هذه السنة ، وكان عدة الأسارى أربعة آلاف وثلثمائة واثنين وستين أسيراً . وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعي رحمه الله وأكرم مثواه .

وكان سبب ذلك ان هذا الرجل وهو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي وكان جده مالك بن الهيثم من أكبر الدعاة إلى دولة بني العباس الذين قتلوا ولده هذا ، وكان أحمد بن نصر هذا له وجاهة ورياسة ، وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهل الحديث ، وقد بايعه العامة في سنة إحدى ومائتين على القيام بالأمر والنهي حين كثرت الشطار (٤) والدعار (٥) في غيبة المأمون عن بغداد كما

---

(١) الصِّيد : مفردها الأصيد اي الملك .
(٢) الكريهة : الحرب .
(٣) للغواني : مفردها الغانية وهي الفتاة الجميلة المستغنية عن الزينة بجمالها
(٤) الشطار : مفردها الشاطر وهو الخبيث الماكر .
(٥) والدعار : مفردها الداعر وهو الخبيث المفسد .

تقدم ذلك ، وبه تعرف سويقة نصر ببغداد ، وكان أحمد بن نصر هذا من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير ، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، وكان الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن ، يدعو إليه ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً ، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون ، من غير دليل ولا برهان ، ولا حجة ولا بيان ، ولا سنة ولا قرآن . فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله والى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، في أشياء كثيرة دعا الناس إليها . فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد ، والتف عليه من الألوف أعداد ، وانتصب للدعوة الى أحمد بن نصر هذا رجلان وهما أبو هارون السراج يدعو أهل الجانب الشرقي ، وآخر يقال له طالب يدعو أهل الجانب الغربي فاجتمع عليه من الخلائق ألوف كثيرة ، وجماعات غزيرة ، فلما كان شهر شعبان من هذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السر على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن ، ولما هو عليه وأمراؤه وحاشيته من المعاصي والفواحش وغيرها . فتواعدوا على أنهم في الليلة الثالثة من شعبان - وهي ليلة الجمعة - يضرب طبل في الليل فيجتمع الذين بايعوا في مكان اتفقوا عليه ، وأنفق طالب وأبو هارون في أصحابه ديناراً ديناراً ، وكان من جملة من أعطوه رجلان من بني أشرس ، وكانا يتعاطيان الشراب ، فلما كانت ليلة الخميس شربا في قوم من أصحابهم واعتقدا أن تلك الليلة هي ليلة الوعد ، وكان ذلك قبله بليلة ، فقاما يضربان على طبل في الليل ليجتمع اليهما الناس ، فلم يجىء أحد وانخرم النظام وسمع الحرس في الليل فأعلموا نائب السلطنة ، وهو محمد بن ابراهيم بن مصعب ، وكان نائباً لأخيه إسحاق بن إبراهيم ، لغيبته عن بغداد ، فأصبح الناس متخبطين ، واجتهد نائب السلطنة على إحضار ذينك الرجلين فاحضرا فعاقبهما فأقرا على أحمد بن نصر ، فطلبه وأخذ خادماً له فاستقره فأقر بما أقرّ به الرجلان ، فجمع جماعة من رؤوس أصحاب أحمد بن نصر معه وأرسل بهم الى الخليفة بسر من رأى ، وذلك في آخر شعبان ، فأحضر له جماعة من الأعيان وحضر القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ، وأحضر أحمد بن نصر ولم يظهر منه على أحمد بن نصر عتب ، فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الواثق لم يعاتبه على شيء مما كان منه في مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره ، بل أعرض عن ذلك كله وقال له : ما تقول في القرآن ؟ فقال : هو كلام الله . قال : أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله . وكان أحمد بن نصر قد استقتل وباع نفسه وحضر وقد تحنط وتنور وشد على عورته ما يسترها فقال له ، فما تقول في ربك ، أترّاه يوم القيامة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَوهٌ يومئذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (١) وقال

(١) سورة القيامة ، الآية/ ٢٢ - ٢٣ .

رسول الله ﷺ : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته » . فنحن على الخبر . زاد الخطيب قال الواثق : ويحك ! أيرى كما يرى المحدود المتجسم ؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته .

قلت : وما قاله الواثق لا يجوز ولا يلزم ولا يرد به هذا الخبر الصحيح والله أعلم . ثم قال أحمد بن نصر للواثق : وحدثني سفيان بحديث يرفعه « إن قلب ابن آدم بأصبعين من أصابع الله يقلبه كيف شاء » وكان النبي ﷺ يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . فقال له إسحاق بن إبراهيم : ويحك ، انظر ما تقول . فقال : أنت أمرتني بذلك . فأشفق إسحاق من ذلك وقال : أنا أمرتك ؟ قال : نعم ، أنت أمرتني أن أنصح له . فقال الواثق لمن حوله : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فأكثروا القول فيه . فقال عبد الرحمن بن إسحاق ـ وكان قاضياً على الجانب الغربي فعزل وكان مواداً لأحمد بن نصر قبل ذلك ـ يا أمير المؤمنين هو حلال الدم . وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب أحمد بن أبي دؤاد: اسقني دمه يا أمير المؤمنين. فقال الواثق: لا بد أن يأتي ما تريد. وقال ابن أبي دؤاد : هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل . فقال الواثق : إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي ، فإني أحتسب خطاي . ثم نهض إليه بالصمصامة ـ وقد كانت سيفاً لعمرو بن معديكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها مسمورة بمسامير ـ فلما انتهى اليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف على نطع ، ثم ضربه أخرى على رأسه ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط صريعاً رحمه الله على النطع ميتاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . رحمه الله وعفا عنه . ثم انتضى سيما الدمشقي سيفه فضرب عنقه وحز رأسه وحمل معترضاً حتى أتى به الحظيرة التي فيها بابك الخرمي فصلب فيها ، وفي رجليه زوج قيود وعليه سراويل وقميص ، وحمل رأسه إلى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياماً ، وفي الغربي أياماً ، وعنده الحرس في الليل والنهار ، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي ، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ، ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع الى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح ، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر ، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه .

ثم أمر الواثق بتتبع رؤوس أصحابه فأخذ منهم نحواً من تسع وعشرين رجلاً فأودعوا في السجون وسموا الظلمة ، ومنعوا أن يزورهم أحد وقيدوا بالحديد ، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تجري على المحبوسين ، وهذا ظلم عظيم .

وقد كان أحمد بن نصر هذا من أكابر العلماء العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسمع الحديث من حماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، وهاشم بن بشير ، وكانت عنده

مصنفاته كلها ، وسمع من الإمام مالك بن أنس أحاديث جيدة ، ولم يحدث بكثير من حديثه ، وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي ، وأخوه يعقوب بن إبراهيم ويحيى بن معين ، وذكره يوماً فترحم عليه وقال : قد ختم الله له بالشهادة ، وكان لا يحدث ويقول إني لست أهلاً لذلك . وأحسن يحيى بن معين الثناء عليه جداً . وذكره الإمام أحمد بن حنبل يوماً فقال : رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه لله ، لقد جاد بنفسه له . وقال جعفر بن محمد الصائغ : بصرت عيناي وإلا فقئتا وسمعت أذناي وإلا فصمتا أحمد بن نصر الخزاعي حين ضربت عنقه يقول رأسه : لا إله إلا الله . وقد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ : ﴿ آلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتركُوا أَنْ يَقُولُوا آمنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [1] قال : فاقشعر جلدي . ورآه بعضهم في النوم فقال له : ما فعل بك ربك ؟ فقال : ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله عز وجل فضحك إلي ، ورأى بعضهم رسول الله ﷺ في المنام ومعه أبو بكر وعمر ، قد مروا على الجذع الذي عليه رأس أحمد بن نصر ، فلما جاوزوه أعرض رسول الله ﷺ بوجهه الكريم عنه فقيل له : يا رسول الله مالك أعرضت عن أحمد بن نصر ؟ فقال : « أعرضت عنه استحياء منه حين قتله رجل يزعم أنه من أهل بيتي » .

ولم يزل رأسه منصوباً من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان من هذه السنة ـ أعني سنة إحدى وثلاثين ومائتين ـ إلى بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين ، فجمع بين رأسه وجثته ودفن بالجانب الشرقي من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية رحمه الله . وذلك بأمر المتوكل على الله الذي ولي الخلافة بعد أخيه الواثق ، وقد دخل عبد العزيز بن يحيى الكناني ـ صاحب كتاب الحيدة ـ على المتوكل وكان من خيار الخلفاء لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة ، بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون ، فإنهم أساؤوا إلى أهل السنة وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم ، فأمره أن ينزل جثة محمد بن نصر ويدفنه ففعل ، وقد كان المتوكل يكرم الإمام أحمد بن حنبل إكراماً زائداً جداً كما سيأتي بيانه في موضعه . والمقصود ان عبد العزيز صاحب كتاب الحيدة قال للمتوكل : يا أمير المؤمنين ما رأيت أوما رئي أعجب من أمر الواثق ، قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى ان دفن . فوجل المتوكل من كلامه وساءه ما سمع في أخيه الواثق ، فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل : في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر: فقال: يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً ودخل عليه هرثمة فقال له في ذلك فقال: قطعني الله إرباً إرباً إن قتله إلا كافراً. ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي دؤاد فقال له مثل ذلك فقال: ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً. قال المتوكل: فأما ابن الزيات فأنا أحرقته بالنار . وأما هرثمة انه هرب فاجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال : يا معشر خزاعة هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه. فقطعوه إرباً إرباً . وأما ابن

---

(1) سورة العنكبوت الآية ١ ـ ٢ .

أبي دؤ اد فقد سجنه الله في جلده ـ يعني بالفالج ـ ضربه الله قبل موته بأربع سنين ، وصودر من صلب ماله بمال جزيل جداً كما سيأتي بيانه في موضعه .

وروى أبو داود في كتاب المسائل عن أحمد بن إبراهيم الدورقي عن أحمد بن نصر قال : سألت سفيان بن عيينة «القلوب بين إصبعين من أصابع الله ، وإن الله يضحك ممن يذكره في الأسواق » . فقال : اروها كما جاءت بلا كيف .

وفيها أراد الواثق أن يحج واستعد لذلك فذكر له أن الماء بالطريق قليل فترك الحج عامئذ . وفيها تولى جعفر بن[1] دينار نائب اليمن فسار إليها في أربعة آلاف فارس . وفيها عدا قوم من العامة على بيت المال فأخذوا منه شيئاً من الذهب والفضة ، فأُخذُوا وسجنوا . وفيها ظهر خارجي ببلاد ربيعة فقاتله نائب الموصل فكسره وانهزم أصحابه . وفيها قدم وصيف الخادم بجماعة من الأكراد نحو من خمسمائة في القيود ، كانوا قد أفسدوا في الطرقات وقطعوها ، فأطلق الخليفة لوصيف الخادم خمسة وسبعين ألف دينار ، وخلع عليه . وفيها قدم خاقان الخادم من بلاد الروم وقد تم الصلح والمفاداة بينه وبين الروم ، وقدم معه جماعة من رؤ وس الثغور ، فأمر الواثق بامتحانهم بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فأجابوا إلا أربعة فأمر بضرب أعناقهم إن لم يجيبوا بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة . وأمر الواثق أيضاً بامتحان الأسارى الذين فودوا من أسر الفرنج بالقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فمن أجاب [إلى القول بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة فودي وإلا ترك في أيدي الكفار ، وهذه بدعة صلعاء[2] شنعاء عمياء صماء لا مستند لها من كتاب ولا سنة ولا عقل صحيح ، بل الكتاب والسنة والعقل الصحيح بخلافها كما هو مقرر في موضعه . وبالله المستعان][3].

وكان وقوع المفاداة عند نهر يقال له اللامس ، عند سلوقية بالقرب من طرسوس، بدل كل مسلم أو مسلمة في أيدي الروم أو ذمي أو ذمية كان تحت عقد المسلمين أسير من الروم كان بأيدي المسلمين ممن لم يسلم ، فنصبوا جسرين على النهر فإذا أرسل الروم مسلماً أو مسلمة في جسرهم فانتهى الى المسلمين كبر وكبر المسلمون ، ثم يرسل المسلمون أسيراً من الروم على جسرهم فإذا انتهى إليهم تكلم بكلام يشبه التكبير أيضاً . ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام بدل كل نفس نفس ، ثم بقي مع خاقان جماعة من الروم الأسارى فأطلقهم للروم حتى يكون له الفضل عليهم .

قال ابن جرير : وفيها مات الحسن بن الحسين أخو طاهر بطبرستان في شهر رمضان . وفيها مات الخطاب بن وجه الفلس وفيها مات أبو عبد الله بن الأعرابي الراوية يوم الأربعاء لثلاث عشرة

---

(١) في المصرية أحمد بن دينار .

(٢) صلعاء : خالية . .

(٣) زيادة من المصرية .

خلت من شعبان ، وهو ابن ثمانين سنة . وفيها ماتت أم أبيها بنت موسى أخت علي بن موسى الرضا . وفيها مات مخارق المغني . وأبو نصر أحمد بن خاتم راوية الأصمعي . وعمرو بن أبي عمرو الشيباني . ومحمد بن سعدان النحوي . قلت : وممن توفي فيها أيضاً أحمد بن نصر الخزاعي كما تقدم . وإبراهيم بن محمد بن عرعرة . وأمية بن بسطام . وأبو تمام الطائي في قول . والمشهور ما تقدم . وكامل بن طلحة . ومحمد بن سلام الجمحي . وأخوه عبد الرحمن . ومحمد بن منهال الضرير ، ومحمد بن منهال أخو حجاج . وهارون بن معروف. والبويطي صاحب الشافعي مات في السجن مقيداً على القول بخلق القرآن فامتنع من ذلك . ويحيى بن بكير راوي الموطأ عن مالك .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

فيها عاثت قبيلة يقال لها بنو نمير باليمامة فساداً فكتب الواثق الى بغا الكبير وهو مقيم بأرض الحجاز فحاربهم فقتل منهم جماعة وأسر منهم آخرين ، وهزم بقيتهم ، ثم التقى مع بني تميم وهو في ألفي فارس وهم ثلاثة آلاف ، فجرت بينهم حروب ثم كان الظفر له عليهم آخراً ، وذلك في النصف من جمادى الاخرة . ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد ومعهم من أعيان رؤوسهم في القيود و الأسر جماعة ، وقد فقد من أعيانهم في الوقائع ما ينيف على ألفي رجل من بني سليم ونمير ومرة وكلاب وفزارة وثعلبة وطي وتميم وغيرهم . وفي هذه السنة أصاب الحجيج في رجوعهم عطش شديد حتى بيعت الشربة بالدنانير الكثيرة ، ومات خلق كثير من العطش . وفيها أمر الواثق بترك جباية أعشار سفن البحر . وفيها كانت وفاة الخليفة الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد أبي جعفر هارون الواثق . كان هلاكه في ذي الحجة من هذه السنة بعلة الاستسقاء ، فلم يقدر على حضور العيد عامئذ ، فاستناب في الصلاة بالناس قاضيه أحمد بن أبي دؤ ادالأيادي المعتزلي . توفي لست بقين من ذي الحجة ، وذلك أنه قوي به الاستسقاء فأقعد في تنور قد أحمى له بحيث يمكنه الجلوس فيه ليسكن وجعه ، فلان عليه بعض الشيء اليسير ، فلما كان من الغد أمر بأن يحمى أكثر من العادة فأجلس فيه ثم أخرج فوضع في محفة فحمل فيها وحوله أمراؤه ووزراؤه و قاضيه ، فمات وهو محمول فيها ، فما شروا حتى سقط جبينه على المحفة وهو ميت ، فغمض القاضي عينيه بعد سقوط جبينه ، وولي غسله والصلاة عليه ودفنه في قصر الهادي ، عليهما من الله ما يستحقانه . وكان أبيض اللون مشرباً حمرة جميل المنظر خبيث القلب حسن الجسم سيء الطوية[1] ، قاتم العين اليسرى ، فيها نكتة بيضاء ، وكان مولده سنة ست وتسعين ومائة بطريق مكة ، فمات وهو ابن ست وثلاثين سنة ، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل سبعة أيام واثنتي عشرة ساعة . فهكذا أيام أهل الظلم والفساد والبدع قليلة قصيرة . وقد جمع الواثق أصحاب النجوم في زمانه حين

---

(١) الطويّة : السِّرُّ والضمير .

اشتدت علته ، وإنما اشتدت بعد قتله أحمد بن نصر الخزاعي ليلحقه الى بين يدي الله ، فلما جمعهم أمرهم أن ينظروا في مولده وما تقتضيه صناعة النجوم كم تدوم أيام دولته ، فاجتمع عنده من رؤوسهم جماعة منهم الحسن بن سهل والفضل بن إسحاق الهاشمي ، وإسماعيل بن نوبخت ، ومحمد بن موسى الخوارزمي المجوسي القطربلي وسند صاحب محمد بن الهيثم ، وعامة من ينظر في النجوم ، فنظروا في مولده وما يقتضيه الحال عندهم فأجمعوا على أنه يعيش في الخلافة دهراً طويلاً ، وقدروا له خمسين سنة مستقبلة من يوم نظروا وانظر من لم يبصر ، فانه لم يعش بعد قولهم وتقديرهم إلا عشرة أيام حتى هلك . ذكره الامام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله .

قال ابن جرير : وذكر الحسين بن الضحاك أنه شهد الواثق بعد أن مات المعتصم بأيام وقد قعد مجلساً كان أول مجلس قعده ، وكان أول ما غنى به في ذلك المجلس أن غنته شارية جارية إبراهيم بن المهدي :

ما دَرى الحاملون يومَ اسْتقلّوا   نعشهُ للثّواءِ أمْ للقاءِ
فلْيقل فيك باكياتُك ما شئْـ   ـنَ صياحاً في وقت كلِّ مساءِ

قال : فبكى وبكينا حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه . ثم اندفع بعضهم يغني :

ودِّع هريرة إنّ الركب مرتحلُ   وهلْ تُطيقُ وداعاً أيُّها الرَّجُلُ

فازداد بكاؤه وقال : ما سمعت كاليوم قط تعزية بأب وبغي نفس ، ثم ارفض ذلك المجلس .

وروى الخطيب أن دعبل بن علي الشاعر لما تولى الواثق عمد الى طومار[1] فكتب فيه أبيات شعر ثم جاء الى الحاجب فدفعه إليه وقال : أقرأ أمير المؤمنين السلام وقل : هذه أبيات امتدحك بها دعبل فلما فضها الواثق إذا فيها :

الحمدُ لله لا صبرٌ ولا جَلدٌ   ولا عزاءٌ إذا أهلُ الهوى رقدوا
خليفةٌ ماتَ لم يحزنْ له أحدٌ   وآخرٌ قامَ لم يفرحْ بهِ أحدُ
فمرَّ هذا ومرَّ الشؤمُ يتبعهُ   وقامَ هذا فقامَ الويلُ والنكدُ

قال : فتطلبه الواثق بكل ما يقدر عليه من الطلب فلم يقدر عليه حتى مات الواثق . وروى أيضاً أنه لما استخلف الواثق بن أبي دؤاد على الصلاة في يوم العيد رجع إليه بعد أن قضاها قال له : كيف كان عيدكم يا أبا عبد الله ؟ قال : كنا في نهار لا شمس فيه ، فضحك وقال : يا أبا عبد الله أنا مؤيد بك . قال الخطيب : وكان ابن أبي دؤاد استولى على الواثق وحمله على التشديد في المحنة ودعا الناس الى القول بخلق القرآن . قال ويقال : إن الواثق رجع عن ذلك قبل موته فأخبرني عبد الله

---

(١) طومار : جمعها طوامير : الصحيفة .

ابن أبي الفتح أنبأ أحمد بن إبراهيم بن الحسن ثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة حدّثني حامد بن العباس عن رجل عن المهدي أن الواثق مات وقد تاب من القول بخلق القرآن ، وروى أن الواثق دخل عليه يوماً مؤدبه فأكرمه إكراماً كثيراً فقيل له في ذلك فقال : هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني برحمة الله . وكتب إليه بعض الشعراء :-

جَذَبَتْ دواعي النفسِ عن طلبِ الغنى　　وقلتُ لها عُفي عنِ الطلبِ النَّزْرِ[1]
فـإن أمـيـر المـؤمنـينَ بـكفّـهِ　　مـدارُ رحَا الأرْزاقِ دائمـة تجري

فوقع له في رقعته جذبتك نفسك عن امتهانها ، ودعتك الى صونها فخذ ما طلبته هيناً . واجزل له العطاء . ومن شعره قوله :

هـي المقـاديـرُ تجـري في أعنَّتِهـا　　فـاصبـرْ فليسَ لهـا صبرٌ عـلى حـالِ

ومن شعر الواثق قوله :

تـنـحَّ عـنِ الـقـبـيـحِ ولا تُـرِدهُ　　ومـنْ أولـيـتَـهُ حُـسـنـاً فـزدْهُ
ستُكْفى مـن عـدوِّك كـلَّ كيـدٍ　　إذا كـادَ الـعـدوُّ ولـم تـكـدهُ

وقال القاضي يحيى بن أكثم : ما أحسن أحد من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق : ما مات وفيهم فقير . ولما احتضر جعل يردد هذين البيتين :

الموتُ فيهِ جميعُ الخلقِ مشتركُ　　لا سـوقـةٌ منهمُ يبقى ولا مـلكُ
مـا ضر أهـلُ قليلٌ في تفـاقرهمْ　　وليسَ يغني عن الأملاكِ ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت ثم ألصق خده بالأرض وجعل يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه . وقال بعضهم : لما احتضر الوا ثق ونحن حوله غشي عليه فقال بعضنا لبعض :انظروا هل قضي ؟ قال : فدنوت من بينهم إليه لأنظر هل هدأ نفسه ، فأفاق فلحظ إليَّ بعينه فرجعت القهقرى خوفاً منه ، فتعلقت قائمة سيفي بشيء فكدت أن أهلك ، فما كان عن قريب حتى مات وأغلق عليه الباب الذي هو فيه وبقي فيه وحده واشتغلوا عن تجهيزه بالبيعة لأخيه جعفر المتوكل ، وجلست أنا أحرس الباب فسمعت حركة من داخل البيت فدخلت فإذا جرذ قد أكل عينه التي لحظ الي بها ، وما كان حولها من الخدين .

وكانت وفاته بسر من رأى التي كان يسكنها في القصر الهاروني ، في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة من هذه السنة ـ أعني سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ـ عن ست وثلاثين سنة ، وقيل اثنتين

(٢) النزر : اليسير والقليل .

وثلاثين سنة . وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وخمسة أيام ، وقيل خمس سنين وشهران واحد وعشرين يوماً ، وصلى عليه أخوه جعفر المتوكل على الله والله أعلم .

خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم

بويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق وقت الزوال من يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة ، وكانت الأتراك قد عزموا على تولية محمد بن الواثق فاستصغروه فتركوه وعدلوا إلى جعفر هذا ، وكان عمره إذ ذاك ستاً وعشرين سنة ، وكان الذي ألبسه خلعة الخلافة أحمد بن أبي دؤ اد القاضي ، وكان هو أول من سلم عليه بالخلافة وبايعه الخاصة والعامة ، وكانوا قد اتفقوا على تسميته بالمنتصر بالله ، إلى صبيحة يوم الجمعة فقال أبن أبي دؤ اد رأيت أن يلقب بالمتوكل على الله ، فاتفقوا على ذلك ، وكتب الى الآفاق وأمر باعطاء الشاكرية من الجند ثمانية شهور ، وللمغاربة أربعة شهور ، ولغيرهم ثلاثة شهور ، واستبشر الناس به ، وقد كان المتوكل رأى في منامه في حياة أخيه هارون الواثق كأن شيئاً نـزل عليه من السماء مكتوب فيه جعفر المتوكل على الله ، فعبره فقيل له هي الخلافة ، فبلغ ذلك أخاه الواثق فسجنه حيناً ثم أرسله .

وفيها حج بالناس أمير الحجيج محمد بن داود . وفيها توفي الحكم بن موسى . وعمرو بن محمد . الناقد .

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

في يوم الأربعاء سـابع صفـر منها أمـر الخليفة المتـوكل على الله بـالقبض على محمد بن عبد الملك بن الزيات وزير الواثق ، وكان المتوكل يبغضه لأمور ، منها أن أخاه الواثق غضب على المتوكل في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيده غضباً عليه ، فبقي ذلك في نفسه ، ثم كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دؤ اد فحظي بذلك عنده في أيام ملكه، ومنها أن ابن الزيات كانْ قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بعد أبيه ، ولفَّ عليه الناس ، وجعفر المتوكل في جنب دار الخلافة لم يلتفت اليه ولم يتم الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله ، رغم أنف ابن الزيات . فلهذا أمر بالقبض عليه سريعاً فطلبه فركب بعد غدائه وهو يظن أن الخليفة بعث إليه ، فانتهى به الرسول الى دار إيتاخ أمير الشرطة فاحتيط به وقُيِّد وبعثوا في الحال الى داره فأخذ جميع ما فيها من الأموال والـلآليء والجواهر والحواصل والجواري والأثاث : ووجدوا في مجلسه الخاص به آلات الشرب . وبعث المتوكل في الحال أيضاً إلى حواصله بسامرا وضياعه وما فيها فاحتاط عليها ، وأمر به أن يعـذب ومنعوه من الكلام ، وجعلوا يساهرونه كلما أراد الرقاد نخس[1] بالحديد ، ثم وضعه بعد ذلك كله في

(١) نخس : غُرِزَ وضُرِب .

تنور من خشب فيه مسامير قائمة في أسفله فأقيم عليها ووكل به من يمنعه من القعود والرقاد ، فمكث كذلك أياماً حتى مات وهو كذلك . ويقال إنه أخرج من التنور وفيه رمق فضرب على بطنه ثم على ظهره حتى مات وهو تحت الضرب ، ويقال إنه أحرق ثم دفعت جثته الى أولاده فدفنوه ، فنبشت عليه الكلاب فأكلت ما بقي من لحمه وجلده . وكانت وفاته لاحدى عشرة من ربيع الأول منها . وكان قيمة ما وجد له من الحواصل نحواً من تسعين ألف دينار وقد قدمنا أن المتوكل سأله عن قتل أحمد بن نصر الخزاعي فقال : يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن قتله الواثق إلا كافراً . قال المتوكل : فأنا أحرقته بالنار .

وفيها في جمادى الأولى منها بعد مهلك ابن الزيات فلج أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي ، فلم يزل مفلوجاً حتى مات بعد أربع سنين وهو كذلك ، كما دعا على نفسه حين سأله المتوكل عن قتل أحمد بن نصر كما تقدم ، ثم غضب المتوكل على جماعة من الدواوين والعمال ، وأخذ منهم أموالاً جزيلة جداً ، وفيها ولى المتوكل ابنه محمد المنتصر الحجاز واليمن وعقد له على ذلك كله في رمضان منها .

وفيها عمد ملك الروم ميخائيل بن توفيل إلى أمه تدورة فأقامها بالشمس وألزمها الدير وقتل الرجل الذي اتهمها به ، وكان ملكها ست سنين . وفيها حج بالناس محمد بن داود أمير مكة .

وفيها توفي إبراهيم بن الحجاج الشامي . وحيان بن موسى العربي . وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقي وسهل بن عثمان العسكري . ومحمد بن سماعة القاضي . ومحمد بن عائذ الدمشقي صاحب المغازي . ويحيى المقابري . ويحيى بن معين أحد أئمة الجرح والتعديل ، وأستاذ أهل هذه الصناعة في زمانه .

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها خرج محمد بن البعيث بن حلبس عن الطاعة في بلاده أذربيجان ، وأظهر أن المتوكل قد مات والتف عليه جماعة من أهل تلك الرساتيق[1] ، ولجأ إلى مدينة مرند فحصنها ، وجاءته البعوث من كل جانب ، وأرسل إليه المتوكل جيوشاً يتبع بعضها بعضاً ، فنصبوا على بلده المجانيق من كل جانب ، وحاصروه محاصرة عظيمة جداً ، وقاتلهم مقاتلة هائلة ، وصبر هو وأصحابه صبراً بليغاً ، وقدم بغا الشرابي لمحاصرته ، فلم يزل به حتى أسره واستباح أمواله وحريمه وقتل خلقاً من رؤوس أصحابه ، وأسر سائرهم وانحسمت مادة ابن البعيث . وفي جمادى الأولى منها خرج المتوكل إلى المدائن .

---

(١) الرساتيق : القرى وما يحيط بها من الأراضي (فارسية) .

وفيها حج ايتاخ أحد الأمراء الكبار وهو والي مكة ، ودعي له على المنابر ، وقد كان ايتاخ هذا غلاماً خزرياً طباخاً ، وكان لرجل يقال له سلام الأبرش ، فاشتراه منه المعتصم في سنة تسع وتسعين ومائة ، فرفع منزلته وحظي عنده ، وكذلك الواثق من بعده ، ضم إليه أعمالاً كثيرة ، وكذلك عامله المتوكل وذلك لفروسيته ورجلته وشهامته ، ولما كان في هذه السنة شرب ليلة مع المتوكل فعربد عليه المتوكل فهم ايتاخ بقتله ، فلما كان الصباح اعتذر المتوكل إليه وقال له : أنت أبي وأنت ربيتني ، ثم دس إليه من يشير اليه بأن يستأذن للحج فاستأذن فأذن له ، وأمره على كل بلدة يحل بها ، وخرج القواد في خدمته إلى طريق الحج حين خرج ، ووكل المتوكل الحجابة لوصيف الخادم عوضاً عن إيتاخ . وحج بالناس فيها محمد بن داود أمير مكة وهو أمير الحجيج من سنين متقدمة .

وفيها توفي أبو خيثمة زهير بن حرب . وسليمان بن داود الشاركوني أحد الحفاظ . وعبد الله بن محمد النفيلي . وأبو ربيع الزهراني . وعلي بن عبد الله بن جعفر المديني شيخ البخاري في صناعة الحديث . ومحمد بن عبد الله بن نمير . ومحمد بن أبي بكر المقدمي . والمعافا الرسيعني . ويحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك .

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

في جمادى الآخرة منها كان هلاك إيتاخ في السجن ، وذلك أنه رجع من الحج فتلقته هدايا الخليفة ، فلما اقترب يريد دخول سامرا التي فيها المتوكل بعث إليه إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد عن أمر الخليفة يستدعيه اليها ليتلقاه وجوه الناس وبني هاشم ، فدخلها في أبهة عظيمة ، فقبض عليه إسحاق بن إبراهيم وعلى ابنيه مظفر ومنصور وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني فأسلم تحت العقوبة ، وكان هلاك إيتاخ بالعطش ، وذلك أنه أكل أكلاً كثيراً بعد جوع شديد ثم استسقى الماء فلم يسق حتى مات ليلة الأربعاء لخمس خلون من جمادى الآخرة منها . ومكث ولداه في السجن مدة خلافة المتوكل ، فلما ولي المنتصر ولد المتوكل أخرجهما . وفي شوال منها قدم بغا سامرا ومعه محمد بن البعيث وأخواه صقر وخالد ، ونائبه العلاء ومعهم من رؤوس أصحابه نحو من مائة وثمانين إنساناً فأدخلوا على الجمال ليراهم الناس ، فلما أوقف ابن البعيث بين يدي المتوكل أمر بضرب عنقه ، فأحضر السيف والنطع فجاء السيافون فوقفوا حوله ، فقال له المتوكل : ويلك ما دعاك الى ما فعلت ؟ فقال : الشقوة يا أمير المؤمنين ، وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه ، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك ، وهو العفو . ثم اندفع يقول بديهة :

أبى النـاسُ إلا أنك اليومَ قـاتلي	إمامُ الهدى والصفح بالمرء أجملُ
وهـلْ أنـا إلا جبلةٌ من خـطيئةٍ	وعفـوك من نـورِ النبـوةِ يُجْبَـل
فـانكَ خيـرُ السابقين الى العُلى	ولا شـكَّ أن خيرَ الفعـالينِ تفعلُ

فقال المتوكل : إن معه لأدباً ، ثم عفا عنه . ويقال بل شفع فيه المعتز بن المتوكل فشفعه ،

ويقال بل أودع في السجن في قيوده فلم يزل فيه حتى هرب بعد ذلك ، وقد قال حين هرب :ـ

كمْ قد قضيتَ أموراً كانَ أهملهَا | غيري وقد أخذَ الافلاس بالكظم [١]
لا تعـذِلينَي فيمـا ليسَ ينْفَعُني | إليك عنّي جرى المقدورُ بالقلمِ
سأُتلف المالَ في عُسْرٍ وفي يُسْرٍ | إنّ الجوادَ الذي يُعطي علَى العدم [٢]

وفيها أمر المتوكل أهل الذمة أن يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم ، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالقلي وأن يكون على عمائمهم رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم ، وأن يلزموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلاحين اليوم ، وأن يحملوا في رقابهم كرات من خشب كثيرة ، وأن لا يركبوا خيلاً ، ولتكن ركبهم من خشب ، إلى غير ذلك من الأمور المذلة لهم المهينة لنفوسهم ، وأن لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم ، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثة ، وبتضييق منازلهم المتسعة ، فيؤخذ منها العشر ، وأن يعمل مما كان متسعاً من منازلهم مسجد ، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض ، وكتب بذلك الى سائر الأقاليم والآفاق ، والى كل بلد ورستاق .

وفيها خرج رجل يقال له محمود بن الفرج النيسابوري ، وهو ممن كان يتردد الى خشبة بابك وهو مصلوب فيقعد قريباً منه ، وذلك بقرب دار الخلافة بسر من رأى ، فادعى أنه نبي ، وأنه ذو القرنين وقد اتبعه على هذه الضلالة ووافقه على هذه الجهالة جماعة قليلون ، وهم تسعة وعشرون رجلاً ، وقد نظم لهم كلاماً في مصحف له قبحه الله ، زعم أن جبريل جاءه به من الله ، فأخذ فرفع أمره الى المتوكل فأمر فضرب بين يديه بالسياط ، فاعترف بما نسب إليه وما هو معول عليه ، وأظهر التوبة من ذلك والرجوع عنه ، فأمر الخليفة كل واحد من أتباعه التسعة والعشرين أن يصفعه فصفعوه عشر صفعات فعليه وعليهم لعنة رب الأرض والسموات . ثم اتفق موته في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي الحجة من هذه السنة .

وفي يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجة أخذ المتوكل على الله العهد من بعده لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ، ثم أبو عبد الله المعتز ، واسمه محمد ، وقيل الزبير ، ثم لابراهيم وسماه المؤيد بالله ، ولم يل الخلافة هذا . وأعطى كل واحد منهم طائفة من البلاد يكون نائباً عليها ويستنيب فيها ويضرب له السكة بها ، وقد عين ابن جرير ما لكل واحد منهم من البلدان والأقاليم ، وعقد لكل واحد منهم لواءين لواء أسود للعهد ، ولواء للعمالة ، وكتب بينهم كتاباً بالرضى منهم ومبايعته لأكثر الأمراء على ذلك وكان يوماً مشهوداً . وفيها في شهر ذي الحجة ومنها تغير ماء دجلة الى

---

(١) بالكظم : السكوت .
(٢) العدم : الفقر .

الصفرة ثلاثة أيام ثم صار في لون ماء الدردي ففزع الناس لذلك . وفيها أتى المتوكل بيحيى بن عمر بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من بعض النواحي ، وكان قد اجتمع اليه قوم من الشيعة فأمر بضربه فضرب ثماني عشرة مقرعة ثم حبس في المطبق . وحج بالناس محمد بن داود .

قال ابن جرير : وفيها توفي إسحاق بن إبراهيم صاحب الجسر ـ يعني نائب بغداد ـ يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجة وجعل ابنه محمد مكانه ، وخلع عليه خمس خلع وقلده سيفاً . قلت : وقد كان نائباً في العراق من زمن المأمون ، وهو من الدعاة تبعاً لسادته وكبرائه الى القول بخلق القرآن الذي قال الله تعالى فيهم : ﴿ ربَّنَا إنا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنَا فأَضَلُّونا السَّبِيلا ﴾[1] الآية . وهو الذي كان يمتحن الناس ويرسلهم الى المأمون . وفيها توفي :

إسحاق بن ماهان

الموصلي النديم الأديب ابن الأديب النادر الشكل في وقته ، المجموع من كل فن يعرفه أبناء عصره ، في الفقه والحديث والجدل والكلام واللغة والشعر ، ولكن اشتهر بالغناء لأنه لم يكن له في الدنيا نظير فيه . قال المعتصم : إن إسحاق إذا غنى يخيل لي أنه قد زيد في ملكي . وقال المأمون : لولا اشتهاره بالغناء لوليته القضاء لما اعلمه من عفته ونزاهته وأمانته . وله شعر حسن وديوان كبير . وكانت عنده كتب كثيرة من كل فن . توفي في هذه السنة وقيل في التي قبلها ، وقيل في التي بعدها ، وقد ترجمه ابن عساكر ترجمة حافلة وذكر عنه أشياء حسنة وأشعاراً رائقة وحكايات مدهشة يطول استقصاؤها فمن غريب ذلك أنه غنى يوماً يحيى بن خالد بن برمك فوقع له بألف ألف ووقع له ابنه جعفر بمثلها ، وابنه الفضل بمثلها ، في حكايات طويلة .

وفيها توفي شريح بن يونس . وشيبان بن فروخ . وعبيد الله بن عمر الغواريري ، وأبو بكر بن أبي شيبة أحد الأعلام وأئمة الاسلام وصاحب المصنف الذي لم يصنف أحد مثله قط لا قبله ولا بعده :

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين

فيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وما حوله من المنازل والدور ، ونودي في الناس من وجد هنا بعد ثلاثة أيام ذهبت به إلى المطبق . فلم يبق هناك بشر ، واتخذ ذلك الموضع مزرعة تحرث وتستغل . وفيها حج بالناس محمد بن المنتصر بن المتوكل. وفيها توفي

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٧ .

محمد بن إبراهيم بن مصعب سمه ابن أخيه محمد بن إسحاق بن إبراهيم ، وكان محمد بن إبراهيم هذا من الأمراء الكبار . وفيها توفي الحسن بن سهل الوزير والد بوران زوجة المأمون التي تتقدم ذكرها ، وكان من سادات الناس، ويقال إن إسحاق بن إبراهيم المغني توفي في هذه السنة فالله أعلم . وفيها توفي أبو سعيد محمد بن يوسف المروزي فجأة ، فولى ابنه يوسف مكانه على نيابة أرمينية . وفيها توفي إبراهيم بن المنذر الحرابي . ومصعب بن عبد الله الزبيري . وهدبة بن خالد القيسي. وأبو الصلت الهروي أحد الضعفاء .

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

فيها قبض يوسف بن محمد بن يوسف نائب أرمينية على البطريق الكبير بها وبعثه إلى نائب الخليفة ، واتفق بعد بعثه إياه أن سقط ثلج عظيم على تلك البلاد ، فتحزب أهل تلك الطريق وجاؤ وا فحاصروا البلد التي بها يوسف فخرج إليهم ليقاتلهم فقتلوه وطائفة كبيرة من المسلمين الذين معه وهلك كثير من الناس من شدة البرد ، ولما بلغ المتوكل ما وقع من هذا الأمر الفظيع أرسل إلى أهل تلك الناحية بغا الكبير في جيش كثيف جداً فقتل من أهل تلك الناحية ممن حاصر المدينة نحواً من ثلاثين ألفاً وأسر منهم طائفة كبيرة ، ثم سار إلى بلاد ألباق من كور البُسْفُرَّجان وسلك إلى مدن كثيرة كبار ومهد الممالك ووطد البلاد والنواحي . وفي صفر منها غضب المتوكل على ابن أبي دؤ اد القاضي المعتزلي وكان على المظالم ، فعزله عنها واستدعى بيحيى بن أكثم فولاه قضاء القضاة والمظالم أيضاً . وفي ربيع الأول أمر الخليفة بالاحتياط على ضياع ابن أبي دؤ اد وأخذ ابنه أبا الوليد محمد فحبسه في يوم السبت لثلاث خلون من ربيع الآخر ، وأمر بمصادرته فحمل مائة ألف وعشرين ألف دينار ، ومن الجواهر النفيسة ما يقوّم بعشرين ألف دينار ، ثم صولح على ستة عشر ألف ألف درهم . وكان ابن أبي دؤ اد قد أصابه الفالج كما ذكرنا ، ثم نفي أهله من سامرا إلى بغداد مهانين قال ابن جرير فقال في ذلك أبو العتاهية :

لـو كنت في الرأي منسـوبـاً إلى رشـدٍ وكـانَ عـزمـكَ عـزمـاً فيه تـوفيقُ
لكـانَ في الفقهِ شغـلُ لـو قنعتَ به عـنْ أن تقـولَ كـتـابُ اللهِ مـخـلوقُ
مـاذا عليـكَ وأصـلُ الدين يجمعهمْ ما كانَ في الفرع لولا الجهلُ والموقُ[1]

وفي عيد الفطر منها أمر المتوكل بانزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي والجمع بين رأسه وجسده وأن يسلم إلى أوليائه ، ففرح الناس بذلك فرحاً شديداً ، واجتمع في جنازته خلق كثير جداً ، وجعلوا يتمسحون بها وبأعواد نعشه ، وكان يوماً مشهوداً. ثم أتوا إلى الجذع الذي صلب عليه فجعلوا

(١) والموق : الحمق في غباوة .

يتمسحون به، وأرهج[1] العامة بذلك فرحاً وسروراً، فكتب المتوكل إلى نائبه يأمره بردعهم عن تعاطي مثل هذا وعن المغالاة في البشر، ثم كتب المتوكل إلى الآفاق بالمنع من الكلام في مسألة الكلام والكف عن القول بخلق القرآن، وأن من تعلم علم الكلام لو تكلم فيه فالمطبق مأواه إلى أن يموت. وأمر الناس أن لا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير ، ثم أظهر إكرام الامام أحمد بن حنبل واستدعاه من بغداد إليه، فاجتمع به فأكرمه وأمر له بجائزة سنية فلم يقبلها ، وخلع عليه خلعة سنية من ملابسه فاستحيا منه أحمد كثيراً فلبسها إلى الموضع الذي كان نازلاً فيه ثم نزعها نزعاً عنيفاً وهو يبكي رحمه الله تعالى . وجعل المتوكل في كل يوم يرسل إليه من طعامه الخاص ويظن أنه يأكل منه ، وكان أحمد لا يأكل لهم طعاما بل كان صائماً مواصلا طاوياً تلك الأيام، لأنه لم يتيسر له شيء يرضي أكله ، ولكن كان ابنه صالح وعبد الله يقبلان تلك الجوائز وهو لا يشعر بشيء من ذلك، ولولا أنهم أسرعوا الأوبة إلى بغداد لخشي على أحمد أن يموت جوعاً ، وارتفعت السُّنَّة جداً في أيام المتوكل عفا الله عنه ، وكان لا يولي أحداً إلا بعد مشورة الامام أحمد، وكان ولاية يحيى بن أكثم قضاء القضاة موضع ابن أبي دؤ اد عن مشورته، وقد كان يحيى بن أكثم هذا من أئمة السنة، وعلماء الناس، ومن المعظمين للفقه والحديث واتباع الأثر ، وكان قد ولى من جهته حبان بن بشر قضاء الشرقية، وسوار بن عبد الله قضاء الجانب الغربي ، وكان كلاهما أعوراً . فقال في ذلك بعض أصحاب ابن أبي دؤ اد :

رَأَيتُ مِنَ العَجائِبِ قاضِيَيْنِ	هما أحدوثةٌ في الخافِقَينِ
هُما اقتَسما العَمى نِصْفَينِ قَدّاً	كما اقتَسما قَضاءَ الجانِبَيْنِ
ويُحسَبُ منهما منْ هزَّ راساً	لينظرَ في مواريثٍ ودَيْنِ
كأنكَ قد وضعتَ عليه دِناً	فتحتَ بزالهُ من فردِ عينِ
هما فألُ الزمانِ بهلكِ يحيى	إذ افتتحَ القضاءُ بأعورينِ

وغزا الصائفة في هذه السنة علي بن يحيى الأرمني . وحج بالناس علي بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور أمير الحجاز . وفيها توفي حاتم الأصم . وممن توفي فيها عبد الأعلى بن حماد. وعبيد الله بن معاذ العنبري وأبو كامل الفضيل بن الحسن الجحدري .

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

في ربيع الأول منها حاصر بغا مدينة تفليس وعلى مقدمته زيرك التركي، فخرج إليه صاحب تفليس إسحاق بن إسماعيل فقاتله فأسر بغا إسحاق فأمر بغا بضرب عنقه وصلبه ، وأمر بإلقاء النار في النفط إلى نحو المدينة، وكان أكثر بنائها من خشب الصنوبر، فأحرق أكثرها وأحرق من أهلها نحواً

---

(1) أرهج : هيَّج بعضهم على بعض.

من خمسين ألفاً ، وطفئت النار بعد يومين، لأن نار الصنوبر لا بقاء لها. ودخل الجند فأسروا من بقي من أهلها واستلبوهم حتى استلبوا المواشي. ثم سار بغا إلى مدن أخرى ممن كان يمالىء أهلها مع من قتل نائب أرمينية يوسف بن محمد بن يوسف، فأخذ بثأره وعاقب من تجرأ عليه .

وفيها جاءت الفرنج في نحو من ثلثمائة مركب قاصدين مصر من جهة دمياط، فدخلوها فجأة فقتلوا من أهلها خلقاً وحرقوا المسجد الجامع والمنبر، وأسروا من النساء نحواً من ستمائة امرأة ، من المسلمات مائة وخمساً وعشرين امرأة، وسائرهن من نساء القبط ، وأخذوا من الأمتعة والمال والأسلحة شيئاً كثيراً جداً، وفر الناس منهم في كل جهة، وكان من غرق في بحيرة تنيس أكثر ممن أسروه ، ثم رجعوا على حمية ولم يعرض لهم أحد حتى رجعوا بلادهم لعنهم الله . وفي هذه السنة غزا الصائفة علي بن يحيى الأرمني. وفيها حج بالناس الأمير الذي حج بهم قبلها .

وفيها توفي إسحاق بن راهويه أحد الأعلام وعلماء الاسلام، والمجتهدين من الأنام . وبشر بن الوليد الفقيه الحنفي . وطالون بن عباد . ومحمد بن بكار بن الزيات . ومحمد بن البرجاني. ومحمد بن أبي السري العسقلاني .

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

في المحرم منها زاد المتوكل في التغليظ على أهل الذمة في التميز في اللباس وأكد الأمر بتخريب الكنائس المحدثة في الاسلام. وفيها نفى المتوكل علي بن الجهم إلى خراسان . وفيها اتفق شعانين النصارى ويوم النيروز[1] في يوم واحد وهو يوم الأحد لعشرين ليلة خلت من ذي القعدة ، وزعمت النصارى أن هذا لم يتفق مثله في الأسلام إلا في هذا العام. وغزا الصائفة علي بن يحيى المذكور. وفيها حج بالناس عبد الله بن محمد بن داود والي مكة .

قال ابن جرير: وفيها توفي أبو الوليد محمد بن القاضي أحمد بن أبي داؤد الأيادي المعتزلي . قلت : وممن توفي فيها داود بن رشيد. وصفوان بن صالح مؤذن أهل دمشق. وعبد الملك بن حبيب الفقيه المالكي، أحد المشاهير. وعثمان بن أبي شيبة صاحب التفسير والمسند المشهور. ومحمد بن مهران الرازي. ومحمود بن غيلان . ووهب بن نفيه. وفيها توفي :

أحمد بن عاصم الأنطاكي

أبو علي الواعظ الزاهد أحد العباد والزهاد ، له كلام حسن في الزهد ومعاملات القلوب، قال أبو عبد الرحمن السلمي، كان من طبقة الحارث المحاسبي، وبشر الحافي . وكان أبو سليمان الداراني يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته . روى عن أبي معاوية الضرير وطبقته ، وعنه أحمد

(١) النيروز : النيروز عند الفُرْس : أوّل يوم من أيام السنة الشمسية .

ابن الحواري، ومحمود بن خالد، وأبو زرعة الدمشقي. وغيرهم. روى عنه أحمد بن الحواري عن مخلد بن الحسين عن هشام بن حسان قال: مررت بالحسن البصري وهو جالس وقت السحر فقلت: يا أبا سعيد مثلك يجلس في هذا الوقت؟ قال: إني توضأت وأردت نفسي على الصلاة فأبت علي، وأرادتني على أن تنام فأبيت عليها. ومن مستجاد كلامه قوله: إذا أردت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ جوارحك. وقال: من الغنيمة الباردة أن تصلح ما بقي من عمرك فيغفر لك ما مضى منه. وقال: يسير اليقين يخرج الشك كله من قلبك، ويسير الشك يخرج اليقين كله منه وقال: من كان دؤاد بالله أعرف كان منه أخوف. وقال: خير صاحب لك في دنياك الهم، يقطعك عن الدنيا ويوصلك الى الآخرة. ومن شعره:

هممتُ ولم أعـزمْ ولـو كنتُ صـادقاً ... عـزمتُ ولكـنْ الـفـطامَ شـديـد
ولـو كـانَ لي عقـلٌ وإيقـانُ مـوقنٍ ... لمـا كنتُ عن قصدِ الـطريقِ أحيـدُ
ولـوْ كـانَ في غيـرِ السلوكِ مطامعي ... ولكنْ عنِ الأقـدارِ كيفَ أميـدُ[1]

ومن شعره أيضاً:

قـدْ بَقينـا مـذَبْـذَبينَ حيـارَى ... نـطلُبُ الصِّـدقُ مـا إليهِ سبيـلُ
فَـدَواعـي الهـوى تـخفُّ علينـا ... وخـلافَ الهوَى عَـلَينـا ثـقيـلُ
فُقِـدَّ الصـدقُ في الأمـاكنِ حتّى ... وصْـفُه اليـومَ مـا عليه دليـلُ
لا نـرى خـائفـاً فيلزمُنـا الخـوفُ ... ولسْنـا نَـرى صَـادِقاً على مـا يقولُ

ومن شعره أيضاً:

هـوِّنْ عليـكَ فكـلُ الأمـرِ ينقـطعُ ... وخـلِّ عنكَ ضبـابَ الهمِّ ينـدفـعُ
فكـلُّ همٍّ له مِـنْ بعـده فَـرَجٌ ... وكـلُّ كَـرْبٍ[2] إذا مـا ضـاقَ يتسـعُ
إنَ البـلاءَ وإنْ طـالَ الـزمـانَ به ... المـوتُ يقطعه أو سـوفُ ينـقـطعُ

وقد أطال الحافظ ابن عساكر ترجمته ولم يؤرخ وفاته، وإنما ذكرته ههنا تقريباً والله أعلم.

ثم دخلت سنة أربعين ومائتين

فيها عدا أهل حمص على عاملهم أبي الغيث موسى بن إبراهيم الرافقي لأنه قتل رجلاً من أشرافهم فقتلوا جماعة من أصحابه وأخرجوه من بين أظهرهم، فبعث إليهم المتوكل أميراً عليهم وقال للسفير معه: إن قبلوه وإلا فأعلمني. فقبلوه فعمل فيهم الأعاجيب وأهانهم غاية الاهانة. وفيها عزل

---

(١) أميد: أبتعد.
(٢) كرب: ضيق وحزن.

المتوكل يحيى بن أكثم القاضي عن قضاء القضاة وصادره بما مبلغه ثمانون ألف دينار، وأخذ منه أراضي كثيرة في أرض البصرة ، وولى مكانه جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي على قضاء القضاة قال ابن جرير: وفي المحرم منه توفي أحمد بن أبي دؤ اد بعد ابنه بعشرين يوماً .

وهذه ترجمته

هو أحمد بن أبي داؤ د واسمه الفرج - وقيل دعمي ، والصحيح أن اسمه كنيته - الايادي المعتزلي . قال ابن خلكان في نسبه: هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤ اد فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن عبد هند بن عبد نجم بن مالك بن فيض بن منعة بن برجان بن دوس الهذلي بن أمية بن حذيفة بن زهير بن إياد بن أدبن معد بن عدنان. قال الخطيب : ولى ابن أبي دؤ اد قضاء القضاة للمعتصم ، ثم للواثق . وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب، غير أنه أعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن، وأن الله لا يُرَى في الآخرة . قال الصولي: لم يكن بعد البرامكة أكرم منه، ولولا ما وضع من نفسه من محبة المحنة لاجتمعت عليه الانس. قالوا: وكان مولده في سنة ستين ومائة، و كان أسن من يحيى بن أكثم بعشرين سنة. قال ابن خلكان: وأصله من بلاد قنسرين، وكان أبوه تاجراً يفد إلى الشام ثم وفد إلى العراق وأخذ ولده هذا معه إلى العراق، فاشتغل بالعلم وصحب هياج بن العلاء السلمي أحد أصحاب واصل بن عطاء فأخذ عنه الاعتزال، وذكر أنه كان يصحب يحيى بن أكثم القاضي ويأخذ عنه العلم. ثم سرد له ترجمة طويلة في كتاب الوفيات، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال : -

رسولُ اللهِ والخلفاءُ منا ... ومنا أحمدُ بنُ أبي دؤاد

فرد عليه بعض الشعراء فقال :

فقلْ للفاخرينَ على نزارٍ ... وهمْ في الأرضِ ساداتُ العبادِ
رسولُ اللهِ والخلفاءُ منا ... ونبرأ من دعي بني إيادِ
وما منا إيادُ إذا أقرتْ ... بدعوةِ أحمدٍ بنِ أبي دؤاد

قال: فلما بلغ ذلك أحمد بن أبي دؤ اد قال: لولا أني أكره العقوبة لعاقبت هذا الشاعر عقوبة ما فعلها أحد. وعفا عنه. قال الخطيب: حدثني الأزهري ثنا أحمد بن عمر الواعظ حدثنا عمر بن الحسن بن علي بن مالك حدثني جرير بن أحمد أبو مالك قال: كان أبي - يعني أحمد بن أبي دؤ اد - إذا صلى رفع يديه إلى السماء وخاطب ربه وأنشأ يقول :

ما أنتَ بالسبب الضعيفِ وإنما ... نجحُ الأمورِ بقوةِ الأسبابِ

واليومَ حاجتنا إليكَ وإنما		يدعى الطبيبُ لساعةِ الأوصابِ[1]

ثم روى الخطيب أن أبا تمام دخل على ابن أبي دؤاد يوماً فقال له: أحسبك عاتباً، فقال: إنما يعتب على واحد وأنت الناس جميعاً. فقال له: أنى لك هذا؟ فقال: من قول أبي نواس:

وليس على الله بمستنكر		أن يجمع العالم في واحد

وامتدحه أبو تمام يوماً فقال:

لقد أنستْ مساوى كلِ دهرٍ		محاسنَ أحمد بن أبي دؤاد
وما سافرتَ في الآفاقِ إلاَّ		ومنْ جدواكَ راحلتي وزادي
نعم الظن عندكَ والأماني		وإن قلقتْ ركابي في البلادِ

فقال له: هذا المعنى تفردت به أو أخذته من غيرك؟ فقال: هولي، غير أني ألمحت بقول أبي نواس:

وإنْ جرتْ الألفاظُ يوماً بمدحةٍ		لغيركَ إنساناً فأنتَ الذي نعني

وقال محمد بنُ الصولي: ومن مختار مديح أبي تمام لأحمد بن أبي دؤاد قوله:

أأحمدُ إنَ الحاسدينَ كثيرٌ		ومالكُ إن عدَ الكرامُ نظيرُ
حللتَ محلاً فاضلاً متقادماً		من المجدِ والفخرِ القديمِ فخورُ
فكلُ غنيٍ أو فقيرٍ فأنه		إليكَ وإنَ نال السماءَ فقيرُ
إليكَ تناهى المجدُ من كل وجهةٍ		يصيرُ فما يعدوكَ حيثُ يصيرُ
وبدرُ إيادٍ أنتَ لا ينكرونَه		كذاكَ إيادٍ للانامِ[2] بدورُ
تجنبتُ أن تدعى الأميرَ تواضعاً		وأنتَ لمنْ يدعى الأميرُ أميرُ
فما من يدٍ إلا إليكَ ممدّةُ		وما رفعةٌ إلا إليكَ تشيرُ

قلت: قد أخطأ الشاعر في هذه الأبيات خطأ كبيراً، وأفحش في المبالغة فحشاً كثيراً، ولعله إن اعتقد هذا في مخلوق ضعيف مسكين ضال مضل، أن يكون له جهنم وساءت مصيراً. وقال ابن أبي دؤاد يوماً لبعضهم: لما لِم لا تسألني؟ فقال له: لأني لو سألتك أعطيتك ثمن صلتك. فقال له: صدقت. وأرسل إليه بخمسة آلاف درهم.

وقال ابن الأعرابي: سأل رجل ابن أبي دؤاد أن يحمله على عير[3] فقال: يا غلام اعطه عيراً

---

(١) الأوصاب: الأوجاع والأمراض.
(٢) الأنام: البشر والخلق.
(٣) عير: قافلة الحمير.

وبغلاً وبرذونا[1] وفرسا وجارية . وقال له: لو أعلم مركوباً غير هذا لأعطيتك. ثم أورد الخطيب بأسانيده عن جماعة أخباراً تدل على كرمه وفصاحته وأدبه وحلمه ومبادرته إلى قضاء الحاجات ، وعظيم منزلته عند الخلفاء. وذكر عن محمد المهدي بن الواثق أن شيخا دخل يوماً على الواثق فسلم فلم يرد عليه الواثق بل قال: لا سلم الله عليك. فقال: يا أمير المؤمنين بئس ما أدَّبك معلمك. قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بتحيَّةٍ فحيُّوا بِأَحْسَنَ منها أو ردُّوهَا ﴾[2]فلا حييتني بأحسن منها ولا رددتها. فقال ابن أبي دؤاد يا أمير المؤمنين الرجل متكلم. فقال: ناظره . فقال ابن أبي دؤاد: ما تقول يا شيخ في القرآن أمخلوق هو؟ فقال الشيخ: لم تنصفني، المسألة لي . فقال: قل. فقال: هذا الذي تقوله علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ أو ما علموه ؟فقال: ابن أبي داؤد: لم يعلموه. قال: فأنت علمت ما لم يعلموا ؟ فخجل وسكت . ثم قال أقلني بل علموه، قال: فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت ، أما يسعك ما وسعهم ؟ فخجل وسكت وأمر الواثق له بجائزة نحو اربعمائةدينار فلم يقبلها. قال المهدي: فدخل أبي المنزل فاستلقى على ظهره وجعل يكرر قول الشيخ على نفسه ويقول: أما وسعك ما وسعهم ؟ ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار ورده إلى بلاده ، وسقط من عينيه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعده أحداً. ذكره الخطيب في تاريخه باسناد فيه بعض من لا يعرف ، وساق قصته مطولة . وقد أنشد ثعلب عن أبي حجاج الأعرابي أنه قال في ابن أبي دؤاد :

نكستَ الدينَ يا ابنَ أبي دؤاد ... فأصبحَ من أطاعكَ في ارتدادِ
زعمتَ كلامَ ربكَ كان خلقاً ... أما لكَ عندَ ربكَ مِنْ معادِ
كلام الله أنزله بعلمٍ ... على جبريلِ إلى خير العباد
ومن أمسى ببابك مستضيفاً ... كمنْ حلَّ الفلاةَ[3] بغير زادِ
لقدْ أطرفتَ يا ابنَ أبي دؤاد ... بقولكَ إنني رجلٌ إيادي

ثم قال الخطيب: أنبأ القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري قال: أنشدنا المعافي بن زكريا الجريري عن محمد بن يحيى الصولي لبعضهم يهجو ابن أبي دؤاد :

لو كنتَ في الرأي منسوباً إلى رشد ... وكانَ عزمكَ عزماً فيه توفيقُ

وقد تقدمت هذه الأبيات .

وروى الخطيب عن أحمد بن الموفق أو يحيى الجلاء أنه قال: ناظرني رجل من الواقفية في

(١) برذوناً : جمعها براذين : دابّة الحمل الثقيلة .

(٢) سورة النساء ، الآية/٨٦ .

(٣) الفلاة : الصحراء .

خلق القرآن فنالني منه ما أكره ، فلما أمسيت أتيت امرأتي فوضعت لي العشاء فلم أقدر أن أنال منه شيئاً ، فنمت فرأيت رسول الله ﷺ في المسجد الجامع وهناك حلقة فيها أحمد بن حنبل وأصحابه ، فجعل رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية : ﴿ فَإِنْ يكفرْ بها هؤلاءِ ﴾[1] ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد ﴿ فقدْ وكّلنَا بها قوما لَيْسُوابها بكافرين ﴾[2] ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه . وقال بعضهم : رأيت في المنام كأن قائلاً يقول : هلك الليلة أحمد بن أبي دؤاد . فقلت له : وما سبب هلاكه ؟ فقال : إنه أغضب الله عليه فغضب عليه من فوق سبع سموات . وقال غيره : رأيت ليلة مات ابن أبي داؤد كأن الناس زفرت زفرة عظيمة فخرج منها لهب فقلت : ما هذا ؟ فقيل هذا أنجزت لابن أبي دؤاد .

وقد كان هلاكه في يوم السبت لسبع بقين من المحرم من هذه السنة ، وصلى عليه ابنه العباس ودفن في داره ببغداد وعمره يومئذ ثمانون سنة ، وابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقي طريحاً في فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئاً من جسده ، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك .

وقد دخل عليه بعضهم فقال : والله ما جئتك عائداً ، وإنما جئتك لأعزيك في نفسك وأحمد الله الذي سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن ، ثم خرج عنه داعياً عليه بأن يزيده الله ولا ينقصه مما هو فيه ، فازداد مرضاً إلى مرضه . وقد صودر في العام الماضي بأموال جزيلة جداً ، ولو كان يحمل العقوبة لوضعها عليه المتوكل . قال ابن خلكان : كان مولده في سنة ستين ومائة . قلت : فعلى هذا يكون أسن من أحمد بن حنبل ومن يحيى بن أكثم الذي ذكر ابن خلكان أن ابن أكثم كان سبب اتصال ابن أبي دؤاد بالخليفة المأمون ، فحظي عنده بحيث إنه أوصى به إلى أخيه المعتصم ، فولاه المعتصم القضاء والمظالم ، وكان ابن الزيات الوزير يبغضه ، وجرت بينهما منافسات وهجو ، وقد كان لا يقطع أمراً بدونه . وعزل ابن أكثم عن القضاء وولاه مكانه ، وهذه المحنة التي هي أس[3] ما بعدها من المحن ، والفتنة التي فتحت على الناس باب الفتن .

ثم ذكر ابن خلكان ما ضرب به الفالج وما صودر به من المال ، وأن ابنه أبا الوليد محمد صودر بألف ألف دينار ومائتي ألف دينار وأنه مات قبل أبيه بشهر . وأما ابن عساكر فانه بسط القول في ترجمته وشرحها شرحاً جيداً . وقد كان الرجل أديباً فصيحاً كريماً جواداً ممدحاً يؤثر العطاء على دؤاد المنع ، والتفرقة على الجمع وقد روى ابن عساكر باسناده أنه جلس يوماً مع أصحابه ينتظرون خروج الواثق فقال ابن أبي دؤاد انه ليعجبني هذان البيتان :

ولي نـظرةٌ لـو كـانَ يُحبـلُ نـاظـرٌ بـنـظرتِـه أنثى لـقـدْ حَـبـلتْ مـنـي

---

(١) سورة الأنعام ، الآية / ٨٩ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية / ٨٩.

(٣) أسُّ : أساس .

فإنْ ولدتْ بين تسعةٍ أشهرٍ إلى نَظَرٍ ابناً فانَّ ابنَها مني

وممن توفي فيها من الأعيان أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي أحد الفقهاء المشاهير. قال الامام أحمد: هو عندنا في مسلاخ الثوري. وخليفة بن خياط أحد أئمة التاريخ وسويد بن سعد الحدناني وسويد بن نصر. وعبد السلام بن سعيد الملقب بسحنون أحد فقهاء المالكية المشهورين. وعبد الواحد بن غياث. وقتيبة بن سعيد شيخ الأئمة والسنة .وأبو العميثل عبد الله بن خالد كاتب عبد الله بن طاهر وشاعره، كان عالماً باللغة وله فيها مصنفات عديدة أورد منها ابن خلكان جملة، ومن شعره يمدح عبد الله بن طاهر :

يا منْ يحاولُ أن تكونَ صفاتُه	كصفاتِ عبدِ اللهِ أنصتْ واسمعِ
فلأنصحنكَ في خصالٍ والذي	حجَ الحجيجُ إليه فاسمعْ أو دعِ
أصدق وعفَّ وبرَّ واصبرْ واحتمل	واصفحْ وكافىءْ دار واحلم واشجع
والطف ولِن وتأنَ وارفقْ واتئدْ[1]	واحزمْ وجدْ وحامِ واحملْ وادفعِ
فلقد نصحتكَ إن قبلتَ نصيحتي	وهديتَ للنهجِ الأسدِ المهيعِ[2]

أما سحنون المالكي صاحب المدونة

فهو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن جندب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي ، أصله من مدينة حمص ، فدخل به أبوه مع جندها بلاد المغرب فأقام بها ، وانتهت إليه رياسة مذهب مالك هنالك ، وكان قد تفقه على ابن القاسم ، وسببه أنه قدم أسد بن الفرات صاحب الإمام مالك من بلاد العرب إلى بلاد مصر فسأل عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك عن أسئلة كثيرة فأجابه عنها ، فعقلها عنه ودخل بها بلاد المغرب فانتسخها منه سحنون ، ثم قدم على ابن القاسم مصر فأعاد أسئلته عليه فزاد فيها ونقص ، ورجع عن أشياء منها ، فرتبها سحنون ورجع بها إلى بلاد المغرب ، وكتب معه ابن القاسم إلى أسد بن الفرات أن يعرض نسخته على نسخة سحنون ويصلحها بها فلم يقبل ، فدعى عليه ابن القاسم فلم ينتفع به ولا بكتابه ، وصارت الرحلة إلى سحنون ، وانتشرت عنه المدونة ، وساد أهل ذلك الزمان ، ؛ وتولى القضاء بالقيروان إلى أن توفي في هذه السنة عن ثمانين سنة رحمه الله وإيانا .

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

في جمادى الأولى أو الآخرة من هذه السنة وثب أهل حمص أيضاً على عاملهم محمد بن عبدويه فأرادوا قتله ، وساعدهم نصارى أهلها أيضاً عليه ، فكتب إلى الخليفة يعلمه بذلك ، فكتب

---

(١) واتئد : تمهّل .

(٢) المهيع : الواسع .

إليه يأمره بمناهضتهم ، وكتب إلى متولي دمشق أن يمده بجيش من عنده ليساعده على أهل حمص ، وكتب إليه أن يضرب ثلاثة منهم معروفين بالشر بالسياط حتى يموتوا ، ثم يصلبهم على أبواب البلد، وأن يضرب عشرين آخرين منهم كل واحد ثلثمائة ، وأن يرسلهم ألى سامرا مقيدين في الحديد ، وأن يخرج كل نصراني بها ويهدم كنيستها العظمى التي إلى جانب المسجد الجامع ، وأن يضيفها إليه ، وأمر له بخمسين ألف درهم ، وللأمراء الذين ساعدوه بصلات سنية . فامتثل ما أمره به الخليفة فيهم . وفيها أمر الخليفة المتوكل على الله بضرب رجل من أعيان أهل بغداد يقال له عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم ، فضرب ضرباً شديداً مبرحاً ، يقال إنه ضرب ألف سوط حتى مات . وذلك أنه شهد عليه سبعة عشر رجلاً عند قاضي الشرقية أبي حسان الزيادي أنه يشتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم . فرفع أمره إلى الخليفة فجاء كتاب الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين نائب بغداد يأمره أن يضربه بين الناس حد السب، ثم يضرب بالسياط حتى يموت ويلقى في دجلة ولا يصلى عليه ، ليرتدع بذلك أهل الالحاد والمعاندة . ففعل معه ذلك قبحه الله ولعنه . ومثل هذا يكفر إن كان قد قذف عائشة بالاجماع ، وفيمن قذف سواها من أمهات المؤمنين قولان ، والصحيح أن يكفر أيضاً ، لأنهن أزواج رسول الله ﷺ ورضي عنهن .

قال ابن جرير : وفي هذه السنة انقضت الكواكب ببغداد وتناثرت ، وذلك ليلة الخميس لليلة خلت من جمادى الآخرة . قال : وفيها مطر الناس في آب مطراً شديداً جداً . قال : وفيها مات من الدواب شيء كثير ولا سيما البقر . قال : وفيها أغارت الروم على عين زربة فأسروا من بها من الزط وأخذوا نساءهم وذراريهم ودوابهم . قال : وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم في بلاد طرسوس بحضرة قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد ، عن إذن الخليفة له في ذلك ، واستنابته ابن أبي الشوارب . وكانت عدة الأسرى من المسلمين سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً ، ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة ، وقد كانت أم الملك تدورة لعنها الله عرضت النصرانية على من كان في يدها من الأسارى ،وكانوا نحواً من عشرين ألفاً فمن أجابها إلى النصرانية وإلا قتلته ، فقتلت اثني عشر ألفاً وتنصر بعضهم ، وبقي منهم هؤلاء الذين فودوا وهم قريب من التسعمائة رجالاً ونساء .

وفيها أغارت البجة على جيش من أرض مصر ، وقد كانت البجة لا يغزون المسلمين قبل ذلك ، لهدنة كانت لهم من المسلمين ، فنقضوا الهدنة وصرحوا بالخلاف . والبجة طائفة من سودان بلاد المغرب ، وكذا النوبة وشنون وزغرير ويكسوم وأمم كثيرة لا يعلمهم إلا الله . وفي بلاد هؤلاء معادن الذهب والجوهر ، وكان عليهم حمل في كل سنة إلى ديار مصر من هذه المعادن ، فلما كانت دولة المتوكل امتنعوا من أداء ما عليهم سنين متعددة ، فكتب نائب مصر - وهو يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي مولى الهادي وهو المعروف بقوصرة - بذلك كله إلى المتوكل ، فغضب المتوكل من ذلك غضباً شديداً ، وشاور في أمر البجة فقيل له : يا أمير المؤمنين أنهم قوم أهل إبل وبادية ، وإن

بلادهم بعيدة ومعطشة ، ويحتاج الجيش الذاهبون إليها أن يتزودوا لمقامهم بها طعاماً وماءً ، فصده ذلك عن البعث إليهم ، ثم بلغه أنهم يغيرون على أطراف الصعيد ، ويخشى أهل مصر على أولادهم منهم ، فجهز لحربهم محمد بن عبد الله القمي ، وجعل إليه نيابة تلك البلاد كلها المتاخمة لأرضهم ، وكتب إلى عمال مصر أن يعينوه بكل ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك ، فتخلص وتخلص معه من الجيوش الذين انضافوا إليه من تلك البلاد حتى دخل بلادهم في عشرين ألف فارس وراجل ، وحمل معه الطعام الأدام في مراكب سبعة ، وأمر الذين هم بها أن يلجوا بها في البحر فيوافوه بها إذا توسط بلاد البجة ، ثم سار حتى دخل بلادهم وجاوز معادنهم وأقبل إليه ملك البجة ـ واسمه علي بابا ـ في جمع عظيم أضعاف من مع محمد بن عبد الله القمي ، وهم قوم مشركون يعبدون الأصنام ، فجعل الملك يطاول المسلمين لعله تنفد أزوارهم فيأخذونهم بالأيدي ، فلما نفد ما عند المسلمين طمع فيهم السودان فيسر الله وله الحمد بوصول تلك المراكب وفيها من الطعام والتمر والزيت وغير ذلك مما يحتاجون إليه شيء كثير جداً فقسمه الأمير بين المسلمين بحسب حاجاتهم ، فيئس السودان من هلاك المسلمين جوعاً فشرعوا في التأهب لقتال المسلمين ، ومركبهم الإبل شبيهة بالهجن زعرة[1] جداً كثيرة النفار ، لا تكاد ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً إلا جفلت منه . فلما كان يوم الحرب عمد أمير المسلمين إلى جميع الأجراس التي معهم في الجيش فجعلها في رقاب الخيول ، فلما كانت الوقعة حمل المسلمون حملة رجل واحد ، فنفرت بهم إبلهم من أصوات تلك الأجراس في كل وجه ، وتفرقوا شذر مذر ، واتبعهم المسلمون يقتلون من شاؤا ، لا يمتنع منهم أحد ، فلا يعلم عدد من قتلوا منهم إلا الله عز وجل . ثم أصبحوا وقد اجتمعوا رجالة فكبسهم القمي من حيث لا يشعرون فقتل عامة من بقي منهم وأخذ ملكهم بالأمان ، وأدى ما كان عليه من الحمل ، وأخذه معه أسيراً إلى الخليفة . وكانت هذه الوقعة في أول يوم من هذه السنة ، فولاه الخليفة على بلاده كما كان ، وجعل إلى ابن القمي أمر تلك الناحية والنظر في أمرها ولله الحمد والمنة .

قال ابن جرير : ومات في هذه السنة يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة في جمادى الآخرة . قلت : وهذا الرجل كان نائباً على الديار المصرية من جهة المتوكل . وفيها حج بالناس عبد الله بن محر بن داود ، وحج جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأحداث الموسم ، ولم يتعرض ابن جرير لوفاة أحد من المحدثين في هذه السنة ، وقد توفي من الأعيان الإمام أحمد بن حنبل . وجبارة بن المغسل الحماني . وأبو ثوبة الحلبي . وعيسى بن حماد سجادة . ويعقوب بن حميد بن كاسب . ولنذكر شيئاً من

---

(١) زعرة : قليلة الشعرة .

الإمام أحمد بن حنبـل

فنقول وبالله المستعان : هو أحمـد بن محمد بن حنبـل بن هلال بن أسـد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبـة بن عكـابة بن صعب بن علي بن بكـر بن وائل بن قـاسط بن هنب بن أقصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن حمل بن النبت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ـ أبو عبد الله الشيباني ثم المروزي ثم البغدادي ، هكذا ساق نسبه الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي في الكتاب الذي جمعه في مناقب أحمد عن شيخه الحافظ أبي عبد الله الحاكم صاحب المستدرك ، وروى عن صالح ابن الإمام أحمد قال : رأى أبي هذا النسب في كتاب لي فقال : وما تصنع به ؟ ولم ينكر النسب . قالوا : وقدم به أبوه من مرو وهو حمل فوضعته أمه ببغداد في ربيع الأول من سنة أربع وستين ومائة ، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين فكفلته أمه . قال صالح عن أبيه : فثقبت أذني وجعلت فيها لؤلؤتين فلما كبرت دفعتهما إليَّ فبعتهما بثلاثين درهماً . وتوفي أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وله من العمر سبع وسبعون سنة رحمه الله .

وقد كان في حداثته يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف ، ثم ترك ذلك وأقبل على سماع الحديث ، فكان أول طلبه للحديث وأول سماعه من مشايخه في سنة سبع وثمانين ومائة ، وقد بلغ من العمر ست عشرة سنة ، وأول حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة ، ثم سنة إحدى وتسعين . وفيها حج الوليد بن مسلم ، ثم سنة ست وتسعين ، وجاور في سنة سبع وتسعين ، ثم حج في سنة ثمان وتسعين ، وجاور إلى سنة تسع وتسعين سافر إلى عند عبد الرزاق إلى اليمن ، فكتب عنه هو ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه . قال الإمـام أحمد : حججت خمس حجـج منها ثـلاث راجلاً ، أنفقت في إحدى هذه الحجج ثلاثين درهماً . قال : وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش فجعلت أقول : يا عباد الله دلوني على الطريق ، فلم أزل أقول ذلك حتى وقفت على الطريق . قال : وخرجت إلى الكوفة فكنت في بيت تحت رأسي لبنة ، ولو كان عندي تسعون درهماً كنت رحلت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري وخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج لأنه لم يمكن عندي شيء.

وقال ابن أبي حاتم عن أبيه عن حرملة : سمعت الشافعي قال : وعدني أحمد بن حنبل أن يقدم على مصر فلم يقدم . قال ابن أبي حاتم : يشبه أن تكون خفة ذات اليد منعته أن يفي بالعدة . وقد طاف أحمد بن حنبل في البلاد والآفاق ، وسمع من مشايخ العصر ، وكانوا يجلونه ويحترمونه في حال سماعه منهم، وقد سرد شيخنا في تهذيبه أسماء شيوخه مرتبين على حروف المعجم، وكذلك الرواة عنه . قال البيهقي بعد أن ذكر جماعة من شيوخ الإمام أحمد : وقد ذكر أحمد بن حنبل

في المسند وغيره الرواية عن الشافعي ، وأخذ عنه جملة من كلامه في أنساب قريش ، وأخذ عنه من الفقه ما هو مشهور ، وحين توفي أحمد وجدوا في تركته رسالتي الشافعي القديمة والجديدة .

قلت : قد أفرد ما رواه أحمد عن الشافعي وهي أحاديث لا تبلغ عشرين حديثاً ، ومن أحسن ما رويناه عن الإمام أحمد عن الشافعي عن مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ : « نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه إلى جسده يوم بعث » . وقد قال الشافعي لأحمد لما اجتمع به في الرحلة الثانية إلى بغداد سنة تسعين ومائة وعمر أحمد إذ ذاك نيف وثلاثون سنة . قال له : يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني به أذهب إليه حجازياً كان أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً - يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين وينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب - وقول الشافعي له هذه المقالة تعظيم لأحمد وإجلال له وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه . وقد كان الإمام أحمد بهذه المثابة عند الأئمة والعلماء كما سيأتي ثناء الأئمة عليه وإعترافهم له بعلو المكانة في العلم والحديث ، وقد بعد صيته في زمانه واشتهر اسمه في شبيبته في الآفاق .

ثم حكى البيهقي كلام أحمد في الإيمان وأنه قول وعمل ويزيد وينقص ، وكلامه في القرآن كلام الله غير مخلوق ، وإنكاره على من يقول : إن لفظه بالقرآن مخلوق يريد به القرآن . قال : وفيها حكى أبو عمارة وأبو جعفر أخبرنا أحمد شيخنا السراج عن أحمد بن حنبل أنه قال : اللفظ محدث . واستدل بقوله : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عتيدٌ ﴾[1] . قال : فاللفظ كلام الآدميين . وروى غيرهما عن أحمد أنه قال : القرآن كيف ما تصرف فيه غير مخلوق ، وأما أفعالنا فهي مخلوقة . قلت : وقد قرر البخاري في هذا المعنى في أفعال العباد وذكره أيضاً في الصحيح ، واستدل بقوله عليه السلام : «زينوا القرآن بأصواتكم » . ولهذا قال غير واحد من الأئمة : الكلام كلام الباري ، والصوت صوت القاري . وقد قرر البيهقي ذلك أيضاً .

[وروى البيهقي من طريق إسماعيل بن محمد بن إسماعيل السلمي عن أحمد أنه قال : من قال : القرآن محدث فهو كافر . ومن طريق أبي الحسن الميموني عن أحمد أنه أجاب الجهمية حين احتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾[2] . قال : يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث ، لا الذكر نفسه هو المحدث . وعن حنبل عن أحمد أنه قال : يحتمل أن يكون ذكر آخر غير القرآن ، وهو ذكر رسول الله ﷺ أو وعظه إياهم . ثم ذكر البيهقي كلام الإمام أحمد] . في رؤ ية الله في الدار الآخرة ، واحتج بحديث صهيب في الرؤ ية وهي زيادة ، وكلامه في نفي التشبيه وترك الخوض في الكلام والتمسك بما ورد في الكتاب والسنة

(١) سورة ق الآية / ١٨ .

(٢) سورة الانبياء / الآية / ٢ .

عن النبي ﷺ وعن أصحابه . [وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السماك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأول قول الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾[1] . أنه جاء ثوابه . ثم قال البيهقي : وهذا إسناد لا غبار عليه].

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر بن عياش ثنا عاصم عن زر عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء . وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر رضي الله عنه إسناد صحيح . قلت : وهذا الأثر فيه حكاية إجماع عن الصحابة في تقديم الصديق . والأمر كما قاله ابن مسعود ، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة . وقد قال أحمد حين اجتاز بحمص وقد حمل إلى المأمون في زمن المحنة ودخل عليه عمرو بن عثمان الحمصي فقال له : ما تقول في الخلافة ؟ فقال : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، ومن قدم علياً على عثمان فقد أزرى بأصحاب الشورى لأنهم قدموا عثمان رضي الله عنه .

ورعه وتقشفه وزهده رحمه الله

روى البيهقي من طريق المزني عن الشافعي أنه قال للرشيد : إن اليمن يحتاج إلى قاض ، فقال له : اختر رجلاً نوله إياها . فقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه في جملة من يأخذ عنه : ألا تقبل قضاء اليمن ؟ فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً وقال للشافعي : إني إنما اختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدنيا ، فتأمرني أن ألي القضاء ؟ ولولا العلم لما أكلمك بعد اليوم . فاستحى الشافعي منه . وروى أنه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل ، و خلف بنيه ولا يكلمهم أيضاً ، لأنهم أخذوا جائزة السلطان . ومكث مرة ثلاثة أيام لا يجد ما يأكله حتى بعث إلى بعض أصحابه فاستقرض منه دقيقاً فعرف أهله حاجته إلى الطعام فعجلوا وعجنوا وخبزوا له سريعاً فقال : ما هذه العجلة ! كيف خبزتم ؟ فقالوا : وجدنا تنور بيت صالح مسجوراً فخبزنا لك فيه . فقال : ارفعوا ، ولم يأكل وأمر بسد بابه إلى دار صالح . قال البيهقي : لأن صالحاً أخذ جائزة السلطان ، وهو المتوكل على الله . وقال عبد الله ابنه : مكث أبي بالعسكر عند الخليفة ستة عشر يوماً لم يأكل فيها إلا ربع مدسويقاً ، يفطر بعد كل ثلاث ليال على سفة[2] منه حتى رجع إلى بيته ، ولم رجع إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر . وقد رأيت موقيه دخلا في حدقتيه . قال البيهقي : وقد كان الخليفة يبعث إليه المائدة فيها أشياء كثيرة من الأنواع وكان أحمد لا يتناول منها شيئاً . قال : وبعث المأمون مرة ذهباً يقسم على أصحاب الحديث فما بقي منهم أحد إلا أخذ إلا أحمد بن حنبل فإنه أبى .

وقال سليمان الشاذكوني : حضرت أحمد وقد رهن سطلاً له عند فامّي باليمن ، فلما جاءه

---

(١) سورة الفجر الآية / ٢٢ .

(٢) سفة : السُّفَة : ما يُنْسَج من الخوص .

بفكاكه أخرج له سطلين فقال : خذ متاعك منهما . فاشتبه عليه أيهما له فقال : أنت في حل منه ومن الفكاك ، وتركه وذهب . وحكى ابنه عبد الله قال : كنا في زمن الواثق في ضيق شديد، فكتب رجل إلى أبي : إن عندي أربعة آلاف درهم ورثتها من أبي وليست صدقة ولا زكاة ، فإن رأيت أن تقبلها . فامتنع من ذلك ، وكرر عليه فأبى ، فلما كان بعد حين ذكرنا ذلك فقال أبي : لو كنا قبلناها كانت ذهبت وأكلناها ، وعرض عليه بعض التجار عشرةآلاف درهم ربحها من بضاعة جعلها باسمه فأبى أن يقبلها وقال : نحن في كفاية وجزاك الله عن قصدك خيراً . وعرض عليه تاجر آخر ثلاثة آلاف دينار فامتنع من قبولها وقام وتركه . ونفدت نفقة أحمد وهوفي اليمن فعرض عليه شيخه عبد الرزاق ملء كفه دنانير فقال : نحن في كفاية ولم يقبلها . وسرقت ثيابه وهو باليمن فجلس في بيته ورد عليه الباب وفقده أصحابه فجاءوا إليه فسألوه فأخبرهم فعرضوا عليه ذهباً فلم يقبله ولم يأخذ منه إلا ديناراً واحداً ليكتب لهم به فكتب لهم بالأجر رحمه الله . وقال أبو داود . كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا ، وما رأيت أحمد بن حنبل ذكر الدنيا قط . وروى البيهقي أن أحمد سئل عن التوكل فقال : هو قطع الاستشراف باليأس من الناس ، فقيل له : هل من حجة على هذا ؟ قال : نعم ! إن إبراهيم لما رُمِيَ به في النار في المنجنيق عرض له جبريل فقال : هل لك من حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال : فسل من لك إليه حاجة . فقال : أحب الأمرين إليّ أحبهما إليه .

وعن أبي جعفر محمد بن يعقوب الصفار قال : كنا مع أحمد بن حنبل بسر من رأى فقلنا : ادع الله لنا فقال : اللهم إنك تعلم أنك على أكثر مما نحب فاجعلنا على ماتحب دائماً . ثم سكت . فقلنا : زدنا فقال : اللهم إنا نسألك بالقدرة التي قلت للسموات والأرض: ﴿ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كُرْهاً قالتا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[1] . اللهم وفقنا لمرضاتك ، اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ونعوذ بك من الذل إلا لك ، اللهم لا تكثر لنا فنطغى ولا تقل علينا فننسى ، وهب لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغاً لنا في دنيانا ، وغنى من فضلك . قال البيهقي : وفي حكاية أبي الفضل التميمي عن أحمد : وكان يدعو في السجود : أللهم من كان من هذه الأمة على غير الحق وهو يظن أنه على الحق فرده إلى الحق ليكون من أهل الحق . وكان يقول : اللهم إن قبلت عن عصاة أمة محمد ﷺ فداء فاجعلني فداء لهم . وقال صالح بن أحمد : كان أبي لا يدع أحداً يستقي له الماء للوضوء ، بل كان يلي ذلك بنفسه ، فإذا خرج الدلو ملآن قال : الحمد لله . فقلت : يا أبة ما الفائدة بذلك ؟ فقال : يا بني أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ أَرَأَيْتمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُم غَوْراً فمنْ يأْتِيكُمْ بماءٍ مَعِينٍ ﴾[2] . والأخبار عنه في هذا الباب كثيرة جداً . وقد صنف أحمد في الزهد كتاباً حافلاً عظيماً لم يسبق إلى

---

(١) سورة فصلت الآية/ ١١ .

(٢) سورةالملك الآية / ٣٠ .

مثله ، ولم يلحقه أحد فيه . والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه رحمه الله .

وقال إسماعيل بن إسحاق السراج : قال لي أحمد بن حنبل : هل تستطيع أن تريني الحارث المحاسبي إذا جاء منزلك ؟ فقلت : نعم ! وفرحت بذلك ، ثم ذهبت إلى الحارث فقلت له : إني أحب أن تحضر الليلة عندي أنت وأصحابك . فقال : إنهم كثير فأحضر لهم التمر والكسب . فلما كان بين العشاءين جاؤا وكان الإمام أحمد قد سبقهم فجلس في غرفة بحيث يراهم ويسمع كلامهم ولا يرونه ، فلما صلوا العشاء الآخرة لم يصلـوا بعدها شيئاً ، بل جاؤا فجلسوا بين يدي الحارث سكوتاً مطرقي الرؤوس ، كأنما على رؤوسهم الطير ، حتى إذا كان قريباً من نصف الليل سأله رجل مسألة فشرع الحارث يتكلم عليها وعلى ما يتعلق بها من الزهد والورع والوعظ ، فجعل هذا يبكي وهذا يئن وهذا يزعق ، قال : فصعدت إلى الإمام أحمد إلى الغرفة فإذا هو يبكي حتى يكاد يغشى عليه ، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصباح ، فلما أرادوا الانصراف قلت : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما رأيت أحداً يتكلم في الزهد مثل هذا الرجل ، وما رأيت مثل هؤلاء ، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم . قال البيهقي : يحتمل أنه كرِّه له صحبتهم لأن الحارث بن أسد ، وإن كان زاهداً ، فإنه كان عنده شيء من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك ، أو كره له صحبتهم من أجل أنه لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع . قلت : بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر ، ولهذا لما وقف أبوزرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بالرعاية قال : هذا بدعة . ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ، ودع عنك هذا فإنه بدعة . وقال إبراهيم الحربي : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على ما يحب . وقال : الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر . وقال : الفقر أشرف من الغنى ، فإن الصبر عليه مرارة وانزعاجه أعظم حالاً من الشكر . وقال : لا أعدل بفضل الفقر شيئاً . وكان يقول : على العبد أن يقبل الرزق بعد اليأس ، ولا يقبله إذا تقدمه طمع أو استشراف . وكان يحب التقلل من الدنيا لأجل خفة الحساب . وقال إبراهيم قال رجل لأحمد : هذا العلم تعلمتـه لله ؟ فقال له أحمد : هذا شرط شديد ولكن حبب إلي شيء فجمعته . وفي رواية أنه قال : أما لله فعزيز ، ولكن حبب إليَّ شيء فجمعته .

وروى البيهقي أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال : إن أمي زمنة مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتني إليك لتدعو لها ، فكأنه غضب من ذلك وقال : نحن أحوج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها . ثم دعا الله عز وجل لها . فرجع الرجل إلى أمه فدق الباب فخرجت إليه على رجليها وقالت : قد وهبني الله العافية . وروى أن سائلاً سأل فأعطاه الإمام أحمد قطعة فقام رجل إلى السائل فقال : هبني هذه القطعة حتى أعطيك عوضها ، ما تساوي درهماً . فأبى فرقاه إلى خمسين درهماً وهو يأبى وقال : إني أرجو من بركتها ما ترجوه أنت من بركتها . ثم قال البيهقي رحمه الله :

ذكر ما جاء في محنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل

في أيام المأمون ثم المعتصم ثم الواثق بسبب القرآن العظيم وما أصابه من الحبس الطويل والضرب الشديد والتهديد بالقتل بسوء العذاب وأليم العقاب ، وقلة مبالاته بما كان منهم في ذلك إليه وصبره عليه وتمسكه بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم ، وكان أحمد عالماً بما ورد بمثل حاله من الآيات المتلوة ، والأخبار المأثورة ، وبلغه ما أوصى به في المنام واليقظة فرضي وسلم إيماناً واحتساباً ، وفاز بخير الدنيا ونعيم الآخرة ، وهيأه الله بما آتاه من ذلك لبلوغ أعلى منازل أهل البلاء في الله من أوليائه ، وألحق به محبيه فيما نال من كرامة الله تعالى إن شاء الله من غير بلية وبالله التوفيق والعصمة .

قال الله تعالى : ﴿ بسمِ اللَّهِ الرحمنِ الرحيمِ آلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ، ولقد فَتَنَّا الذينَ من قبلِهِمْ فليعلمَنَّ اللَّهُ الذينَ صَدَقُوا وليعلَمَنَّ الكاذِبِينَ ﴾[1] . وقال الله تعالى : ﴿ واصبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[2] في سواها في معنى ما كتبنا . وقد روى الإمام أحمد الممتحن في مسنده قائلاً فيه : حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عاصم بن بهدلة سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : « الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلي الله الرجل على حسب دينه ، فإن كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذلك ، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » . وقد روى مسلم في صحيحه قال : حدثنا عبد الوهاب الثقفي ثنا أيوب عن أبي قلابة عن أنس . قال قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة من كن فيه فقد وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » . أخرجاه في الصحيحين .

وقال أبو القاسم البغوي : حدثنا أحمد بن حنبل ثنا أبو المغيرة ثنا صفوان بن عمرو السكسكي ثنا عمرو بن قيس السكوني ثنا عاصم بن حميد قال : سمعت معاذ بن جبل يقول : « إنكم لم تروا إلا بلاء وفتنة ، ولن يزداد الأمر إلا شدة ، ولا الأنفس إلا شحاً » وبه قال معاذ : « لن تروا من الأئمة إلا غلظة ولن تروا أمراً يهولكم ويشتد عليكم إلاّ حضر بعده ما هو أشد منه » . قال البغوي : سمعت أحمد يقول : اللهم رضنا . وروى البيهقي عن الربيع قال بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل ، فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب فقال : أقرأته ؟ فقلت : لا ! فأخذه فقرأه فدمعت عيناه ، فقلت : يا أبا عبد الله وما فيه ؟ فقال : يذكر أنه رأى رسول الله ﷺ في

---

(١) سورة العنكبوت الآية /١ - ٣ .

(٢) سورة لقمان الآية /١٧ .

المنام فقال : اكتب إلى عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام وقل له : إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم ، يرفع الله لك علما إلى يوم القيامة . قال الربيع : فقلت حلاوة البشارة . فخلع قميصه الذي يلي جلده فأعطانيه ، فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته فقال: إني لست أفجعك فيه ، ولكن بله بالماء وأعطينيه حتى أتبرك له .

ملخص الفتنة والمحنة من كلام أئمة السنة

قد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون كان قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاغوه[1] عن طريق الحق إلى الباطل ، وزينوا له القول بخلق القرآن ونفي الصفات عن الله عز وجل . قال البيهقي : ولم يكن في الخلفاء قبله من بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف ومناهجهم ، فلما ولي هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك وزينوا له ، واتفق خروجه إلى طرسوس لغزو الروم فكتب إلى نائبه ببغداد اسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن ، واتفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهور من سنة ثماني عشرة ومائتين . فلما وصل الكتاب كما ذكرنا استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا ، فتهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مكرهين : واستمر على الامتناع من ذلك الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجند يسابوري ، فحملا على بعير وسيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك ، وهما مقيدان متعادلان في محمل على بعير واحد فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر ، فسلم على الإمام أحمد وقال له : يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة ، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه ، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل ، وإنك إن لم تقتل تمت ، وإن عشت عشت حميداً . قال أحمد : وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه . فلما اقتربا من جيش الخليفة ونزلوا دونه بمرحلة جاء خادم وهويمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول : يعز عليَّ يا أبا عبد الله إن المأمون قد سل سيفا لم يسله قبل ذلك ، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف . قال : فجثى الإمام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال : سيدي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته . قال : فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل . قال أحمد : ففرحنا ، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وقد انضم إليه أحمد بن أبي دؤاد ، وأن الأمر شديد ، فردونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى ، ونالني منهم أذى كثير ، وكان في رجليه القيود ، ومات صاحبه محمد بن نوح في الطريق وصلى عليه أحمد ، فلما رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان ، فأودع في السجن نحواً من ثمانية وعشرين شهراً ، وقيل نيفاً وثلاثين شهراً ، ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم . وقد كان أحمد وهو في السجن هو الذي يصلي في أهل السجن والقيود في رجليه .

---

(١) فأزاغوه : أضلّوه .

ذكر ضربه رضي الله عنه بين يدي المعتصم

لما أحضره المعتصم من السجن زاد في قيوده ، قال أحمد : فلم أستطع أن أمشي بها فربطتها في التكة وحملتها بيدي ، ثم جاؤني بدابة فحملت عليها فكدت أن أسقط على وجهي من ثقل القيود وليس معي أحد يمسكني ، فسلم الله حتى جئنا دار المعتصم ، فأدخلت في بيت وأُغْلِق عليّ وليس عندي سراج ، فأردت الوضوء فمددت يدي فإذا إناء فيه ماء فتوضأت منه ، ثم قمت ولا أعرف القبلة ، فلما أصبحت إذا أنا على القبلة ولله الحمد . ثم دعيت فأدخلت على المعتصم ، فلما نظر إليّ وعنده ابن أبي دؤاد قال : أليس قد زعمتم أنه حدث السن وهذا شيخ مكهل ؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لي : ادنه ، فلم يزل يدنيني حتى قربت منه ثم قال : اجلس ! فجلست وقد أثقلني الحديد ، فمكثت ساعة ثم قلت : يا أمير المؤمنين إلى ما دعا إليه ابن عمك رسول الله ﷺ ؟ قال : إلى شهادة أن لا إلّه إلا الله . قلت : فإني أشهد أن لا إلّه إلا الله . قال : ثم ذكرت له حديث ابن عباس في وفد عبد القيس ثم قلت : فهذا الذي دعا إليه رسول الله ﷺ . قال : ثم تكلم ابن أبي دؤاد بكلام لم أفهمه ، وذلك أني لم أتفقه كلامه ، ثم قال المعتصم : لولا أنك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرض إليك ، ثم قال : يا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع المحنة ؟ قال أحمد : فقلت ، الله أكبر ، هذا فرج للمسلمين ، ثم قال : ناظره يا عبد الرحمن ، كلمه . فقال لي عبد الرحمن : ما تقول في القرآن ؟ فلم أجبه ، فقال المعتصم : أجبه فقلت : ما تقول في العلم ؟ فسكت ، فقلت . القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، فسكت فقالوا فيما بينهم : يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا ، فلم يلتفت إلى ذلك ، فقال عبد الرحمن : كان الله ولا قرآن ، فقلت : كان الله ولا علم ؟ فسكت . فجعلوا يتكلمون من ههنا وههنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين اعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به ، فقال : ابن أبي دؤاد : وأنت لا تقول إلا بهذا وهذا ؟ فقلت : وهل يقوم الإسلام إلا بهما. وجرت مناظرات طويلة،واحتجوا عليه بقوله: ﴿ما يأتيهمْ منْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدثٍ ﴾[1] . وبقوله : ﴿ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شيء ﴾[2] . وأجاب بما حاصله أنه عام مخصوص بقوله : ﴿ تُدَمِّرُ كلَّ شَيءٍ بأَمْرِ رَبِّها ﴾[3] . فقال ابن أبي دؤاد : هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع ، وهنا قضاتك والفقهاء فسلهم ، فقال لهم : ما تقولون ؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد ، ثم أحضروه في اليوم الثاني وناظروه أيضاً في اليوم الثالث ، وفي ذلك كله يعلو صوته عليهم وتغلب حجته حججهم . قال : فإذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دؤاد ، وكان من أجهلهم بالعلم والكلام ، وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة ولا علم لهم بالنقل ، فجعلوا ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها ، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحداً يقولها ، وقد تكلم معي ابن غوث

---

(١) سورة الأنبياء الآية /٢ .
(٢) سورة الرعد الآية/١٦ .
(٣) سورة الأحقاف الآية /٢٥ .

بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه ، فقلت : لا أدري ما تقول ، إلا أني أعلم أن الله أحد صمد ، ليس كمثله شيء ، فسكت عني . وقد أوردت لهم حديث الرؤية في الدار الآخرة فحاولوا أن يضعفوا إسناده ويلفقوا عن بعض المحدثين كلاماً يتسلقون به إلى الطعن فيه ، وهيهات ، وأنى لهم التناوش[1] من مكان بعيد ؟ وفي غبون ذلك كله يتلطف به الحليفة ويقول : يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي . فأقول : يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله أو سنة عن رسول الله ﷺ حتى أجيبهم إليها .

واحتج أحمد عليهم حين أنكروا الآثار بقوله تعالى : ﴿ يا أبةِ لِمَ تعبُدُ مَا لا يسمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْني عنكَ شَيئاً ﴾[2] وبقوله : ﴿ وكلَّم اللَّهُ موسَى تَكْلِيماً ﴾[3] وبقوله : ﴿ إنَّني أنا اللَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أنَا فاعْبُدْني ﴾[4] . وبقوله : ﴿ إنَّما قولنَا لِشَيءٍ إذا أردناهُ أنْ نقولَ له كنْ فيكونُ ﴾[5] ونحو ذلك من الآيات . فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا كافر ضال مضل . وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين ، فعند ذلك حمي واشتد غضبه ، وكان ألينهم عريكة ، وهو يظن أنهم على شيء . قال أحمد فعند ذلك قال لي : لعنك الله ، طمعت فيك أن تجيبني فلم تجيبني ، ثم قال : خذوه واخلعوه واسحبوه . قال أحمد : فأخذت وسحبت وخلعت وجيء بالعاقبين والسياط وأنا أنظر ، وكان معي شعرات من شعر النبي ﷺ مصرورة في ثوبي ، فجردوني منه وصرت بين العقابين ، فقلت : يا أمير المؤمنين الله الله ، إن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إلّه إلا الله إلا بإحدى ثلاث » وتلوت الحديث ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم » . فبم تستحل دمي ولم آت شيئاً من هذا ؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين الله كوقوفي بين يديك ، فكأنه أمسك . ثم لم يزالوا يقولون له : يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر ، فأمر بي فقمت بين العقابين وجيء بكرسي فأقمت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأي الخشبتين فلم أفهم ، فتخلعت يداي وجيء بالضرابين ومعهم السياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له ـ يعني المعتصم ـ : شد قطع الله يديك ، ويجيء الآخر فيضربني سوطين ثم الآخر كذلك ، فضربوني أسواطاً فأغمي عليَّ وذهب عقلي مراراً ، فإذا سكن الضرب يعود عليَّ عقلي ، وقام المعتصم إلي يدعوني إلى قولهم فلم أجبه وجعلوا يقولون : ويحك ! الخليفة على رأسك ، فلم أقبل وأعادوا الضرب ثم عاد إليّ فلم أجبه ، فأعادوا الضرب ثم جاء إليّ الثالثة ، فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب

---

(١) التناوش : التطاعن بالرماح .
(٢) سورة مريم ، الآية / ٤٢ .
(٣) سورة النساء ، الآية/ ١٦٣ .
(٤) سورة طه ، الآية/ ١٤ .
(٥) سورة النحل ، الآية/ ٤٠ .

فذهب عقلي فلم أحس بالضرب وأرعبه ذلك من أمري وأمر بي فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت ، وقد أطلقت الأقياد من رجلي ، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة أحدى وعشرين ومائتين ، ثم أمر الخليفة باطلاقه إلى أهله ، وكان جملة ما ضرب نيفاً وثلاثين سوطاً ، وقيل ثمانين سوطاً ، لكن كان ضرباً مبرحاً شديداً جداً . وقد كان الإمام أحمد رجلاً طوالاً رقيقاً أسمر اللون كثير التواضع رحمه الله .

ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهوصائم ، أتوه بسويق ليفطر من الضـم فامتنع من ذلك وأتم صومه ، وحين حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال له ابن سماعة القاضي . وصليت في دمك ! فقال له أحمد : قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً ، فسكت . ويروى أنه لما أقيم ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشي أن يسقط سراويله فتكشف عورته فحرك شفتيه فدعا لله فعاد سراويله كما كان ، ويروى أنه قال : يا غياث المستغيثين ، يا إلّه العالمين ، إن كنت تعلم أني قائم لك بحق فلا تهتك لي عورة .

ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحي فقطع لحماً ميتاً من جسده وجعل يداويه والنائب في كل وقت يسأل عنه ، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً ، وجعل يسأل النائب عنه والنائب يستعلم خبره ، فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك ، ولما شفاه الله بالعافية بقي مدة وإبهاماه يؤذيهما البرد ، وجعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة ، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى : ﴿ وليَعْفُوا وليَصْفَحُوا ﴾[1] . الآية . ويقول : ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك ؟ وقد قال تعالى : ﴿ فمنْ عَفَا وأَصْلَحُ فأجْرُهُ عَلَى اللّهِ إنهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾[2] . وينـادي المنادي يـوم القيامة : « ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا » وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله » .

وكان الذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلية أربعة[3] : أحمد بن جنبل وهـو رئيسهم ، ومحمد بن نوح بن ميمون الجند يسابوري ، ومات في الطريق . ونعيم بن حماد الخزاعي ، وقد مات في السجن ، وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن . وكان مثقلاً بالحديد . وأحمد بن نصر الخزاعي وقد ذكرنا كيفية مقتله .

---

(١) سورة النور الآية /٢٢ .

(٢) سورة الشورى الآية / ٤٠ .

(٣) هم خمسة كما سيأتي في الأصل .

ثناء الأئمة على الإمام أحمد بن حنبل

قال البخاري : لما ضرب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول : لو كان أحمد في بني إسرائيل كان أحدوثة . وقال إسماعيل بن الخليل : لوكان أحمد في بني إسرائيل لكان نبياً . وقال المزني : أحمد بن حنبل يوم المحنة ، وأبو بكر يوم الردة ، وعمر يوم السقيفة ، وعثمان يوم الدار ، وعلي يوم الجمل وصفين . وقال حرملة : سمعت الشافعي يقول : خرجت من العراق فما تركت رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل . وقال شيخ أحمد يحيى بن سعيد القطان : ما قدم على بغداد أحد أحب إليَّ من أحمد بن حنبل . وقال قتيبة : مات سفيان الثوري ومات الورع ، ومات الشافعي ومات السنن ، ويموت أحمد بن حنبل وتظهر البدع . وقال إن أحمد بن حنبل قام في الأمة مقام النبوة . قال البيهقي ـ يعني في صبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله ـ وقال أبو عمر بن النحاس ـ وذكر أحمد يوماً ـ فقال رحمه الله : في الدين ما كان أبصره ، وعن الدنيا ما كان أصبره ، وفي الزهد ما كان أخبره ، وبالصالحين ما كان ألحقه ، وبالماضين ما كان أشبهه ، عرضت عليه الدنيا فأباها ، والبدع فنفاها . وقال بشر الحافي بعدما ضرب أحمد بن حنبل : أدخل أحمد الكير فخرج ذهبا أحمر . وقال الميموني قال لي علي بن المديني بعدما امتحن أحمد وقيل قبل أن يمتحن : يا ميمون ما قام أحد في الإسلام ما قام أحمد بن حنبل . فعجبت من هذا عجباً شديداً وذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام فحكيت له مقالة علي بن المديني فقال : صدق ، إن أبا بكر وجد يوم الردة أنصاراً وأعواناً ، وإن أحمد بن حنبل لم يكن له أنصار ولا أعوان . ثم أخذ أبو عبيد يطري أحمد ويقول : لست أعلم في الإسلام مثله . وقال إسحاق بن راهويه : أحمد حجة بين الله وبين عبيده في أرضه . وقال علي بن المديني : إذا ابتليت بشيء فأفتاني أحمد بن حنبل لم أبال إذا لقيت ربي كيف كان . وقال أيضاً : إني اتخذت أحمد حجة فيما بيني وبين الله عز وجل ، ثم قال : ومن يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله ؟ وقال يحيى بن معين : كان في أحمد بن حنبل خصال ما رأيتها في عالم قط ، كان محدّثاً ، وكان حافظاً ، وكان عالماً ، وكان ورعاً ، وكان زاهداً ، وكان عاقلاً . وقال يحيى بن معين أيضاً : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، والله ما نقوى أن نكون مثله ولا نطيق سلوك طريقه . وقال الذهلي : اتخذت أحمد حجة فيما بيني وبين الله . وقال هلال بن المعلى الرقي : من الله على هذه الأمة بأربعة : بالشافعي فهم الأحاديث وفسرها ، وبيَّن مجملها من مفصلها ، والخاص والعام والناسخ والمنسوخ . وبأبي عبيد بين غريبها . وبيحيى بن معين نفى الكذب عن الأحاديث ، وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة لولا هؤلاء الأربعة لهلك الناس . وقال أبو بكر ابن أبي داود : أحمد بن حنبل مقدم على كل من يحمل بيده قلما ومحبرة ـ يعني في عصره ـ وقال أبو بكر محمد بن رجاء : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ولا رأيت من رأى مثله . وقال أبو زرعة الرازي : ما أعرف في أصحابنا أسود الرأس أفقه منه . وروى البيهقي عن الحاكم عن يحيى بن محمد العنبري قال :

أنشدنا أبو عبد الله البوسندي في أحمد بن حنبل رحمة الله : ـ

إنّ ابنَ حنبــلَ أن ســألتَ إمــامُنا ... وبــهِ الأئمــةُ في الأنــامِ تـمسّكــوا
خـلف النبـيَ محـمــداً بعــدَ الأُلـى ... خَلَفوا الخــلائفَ بعــدهُ واستهـلكـوا
حَــذْوَ الشـراكِ[1] على الشـراكِ وإنّمـا ... يحـذو المثــالَ مثــالُـهُ المستـمسـكُ

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » . وروى البيهقي عن أبي سعيد الماليني عن ابن عدي عن أبي القاسم البغوي عن أبي الربيع الزهراني عن حماد بن زيد عن بقية بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري ح. قال البغوي : وحدثني زياد بن أيوب حدثنا مبشر عن معاذ عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري ح. قال البغوي قال قال رسول الله ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عـدو له ينفـون عنه تحـريف الغالين وانتحـال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » وهذا الحديث مرسل وإسناده فيه ضعف . والعجب أن ابن عبد البر صححه واحتج به على عدالة كل من حمل العلم ، والإمام أحمد من أئمة أهل العلم رحمه الله وأكرم مثواه .

ما كان من أمر الأمام أحمد بعد المحنة

حـين خرج من دار الخـلافة صـار إلى منزلـه حتى برأ ولله الحـمـد ، ولزم منـزله فـلا يخـرج منه إلى جمعة ولا جماعة ، وامتنع من التحديث ، وكانت غلته من ملك له في كل شهر سبعة عشر درهماً ينفقها على عياله ويتقنّع بذلك رحمة الله صـابراً محتسبـاً . ولم يزل كـذلك مـدة خلافـة المعتصم ، وكذلك في أيام ابنه محمد الواثق ، فلما وُلِّيَ المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته ، فإنه كان محباً للسنة وأهلها ، ورفع المجنة عن الناس ، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن ، ثم كتب إلى نائبه ببغداد ـ وهو إسحاق بن إبراهيم أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه ، فاستدعى إسحاق بالإمام أحمد إليه فأكرمه وعظمه ، لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه ، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن فقال له أحمد : سؤ الك هذا سؤ ال تعنت أو استرشاد . فقال : بل سؤ ال استرشاد . فقال : هو كلام الله منزل غير مخلوق ، فسكن إلى قوله في ذلك ، ثم جهزه إلى الخليفة إلى سر من رأى ثم سبقه إليه .

وبلغه أن أحمد اجتاز بابنه محمد بن إسحاق فلم يأته ولم يسلم عليه ، فغضب إسحاق بن إبراهيم من ذلك وشكاه إلى الخليفة فقال المتوكل : يرد وإن كان قد وطىء بساطي ، فرجع الإمام أحمد من الطريق إلى بغداد . وقد كان الإمام أحمد كارهاً لمجيئه إليهم ولكن لم يهن ذلك على كثير

(١) الشراك : سير النعل على ظهر القدم .

من الناس وإنما كان رجوعه عن قول إسحاق بن إبراهيم الذي كان هو السبب في ضربه . ثم إن رجلاً من المبتدعة يقال له ابن البلخي وشى إلى الخليفة شيئاً فقال : إن رجلاً من العلويين قد أوى إلى منزل أحمد بن حنبل وهو يبايع له الناس في الباطن . فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل أحمد من الليل . فلم يشعروا إلا والمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب حتى من فوق الأسطحة ، فوجدوا الإمام أحمد جالساً في داره مع عياله فسألوه عما ذكر عنه فقال : ليس عندي من هذا علم ، وليس من هذا شيء ولا هذا من نيتي ، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية ، وفي عسري ويسري ومنشطي ومكرهي ، وأثره علي ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق ، في الليل والنهار ، في كلام كثير . ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئاً . فلما بلغ المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه علم أنهم يكذبون عليه كثيراً ، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة ـ وهو أحد الحجبة ـ بعشرة آلاف درهم من الخليفة ، وقال : هو يقرأ عليك السلام ويقول : استنفق هذه ، فامتنع من قبولها . فقال : يا أبا عبد الله إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه ، والمصلحة لك قبولها ، فوضعها عنده ثم ذهب فلما كان من آخر الليل استدعى أحمد أهله وبني عمه وعياله وقال : لم أنم هذه الليلة من هذا المال ، فجلسوا وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم من أهل بغداد والبصرة ، ثم أصبح ففرقها في الناس ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين ، فلم يبق منها درهماً ، وأعطى منها لأبي أيوب وأبي سعيد الأشج ، وتصدق بالكيس الذي كانت فيه ، ولم يعط منها لأهله شيئاً وهم في غاية الفقر والجهد ، وجاء بنو ابنه فقال : اعطني درهماً . فنظر أحمد إلى ابنه صالح فتناول صالح قطعة فأعطاها الصبي فسكت أحمد . وبلغ الخليفة أنه تصدق بالجائزة كلها حتى كيسها ، فقال علي بن الجهم : يا أمير المؤمنين إنه قد قبلها منك وتصدق بها عنك ، وماذا يصنع أحمد بالمال ؟ إنما يكفيه رغيف فقال : صدقت .

فلما مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمد ولم يكن بينهما إلا القريب ، وتولى نيابة بغداد عبد الله بن إسحاق ، كتب المتوكل إليه أن يحمل إليه الإمام أحمد ، فقال لأحمد في ذلك فقال : إني شيخ كبير وضعيف ، فرد الجواب على الخليفة بذلك ، فأرسل يعزم عليه لتأتيني ، وكتب إلى أحمد : إني أحب أن آنس بقربك وبالنظر إليك ، ويحصل لي بركة دعائك . فسار إليه الإمام أحمد ـ وهو عليل ـ في بنيه وبعض أهله ، فلما قارب العسكر تلقاه وصيف الخادم في موكب عظيم ، فسلم وصيف على الإمام أحمد فرد السلام وقال له وصيف : قد أمكنك الله من عدوك ابن أبي دؤاد . فلم يرد عليه جواباً ، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيف . فلما وصلوا إلى العسكر بسر من رأى ، أنزل أحمد في دار إيتاخ ، فلما علم بذلك ارتحل منها وأمر أن يستكري له دار غيرها . وكان رؤوس الأمراء في كل يوم يحضرون عنده ويبلغونه عن الخليفة السلام ، ولا يدخلون عليه حتى يقلعون ما عليهم من الزينة والسلاح . وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الآلات التي تليق بتلك

الدار العظيمة ، وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدث الناس عوضاً عما فاتهم منه في أيام المحنة وما بعدها من السنين المتطاولة، فاعتذر إليه بأنه عليل وأسنانه تتحرك وهو ضعيف وكان الخليفة يبعث إليه في كل يوم مائدة فيها ألوان الأطعمة والفاكهة والثلج ، مما يقاوم مائة وعشرين درهماً في كل يوم ، والخليفة يحسب أنه يأكل من ذلك ، ولم يكن أحمد يأكل شيئاً من ذلك بالكلية ، بل كان صائماً يطوي ، فمكث ثمانية أيام لم يستطعم بطعام ، ومع ذلك هو مريض ، ثم أقسم عليه ولده حتىٰ شرب قليلاً من السويق بعد ثمانية أيام وجاء عبيد الله بن يحيى بن خاقان بمال جـزيل من الخليفة جائزة له فامتنع من قبوله ، فألح عليه الأمير فلم يقبل . فأخذها الأميـر ففرقهـا على بنيه وأهله ، وقال : إنه لا يمكن ردها على الخليفة . وكتب الخليفة لأهله وأولاده في كل شهر بأربعة آلاف درهم ، فمانع أبو عبد الله الخليفة ، فقال الخليفة : لا بد من ذلك ، وما هذا إلا لولدك . فأمسك أبو عبد الله عن ممانعته ثم أخذ يلوم أهله وعمه ، وقال لهم : إنما بقي لنا أيام قلائل ، وكأننا قد نزل بنا الموت ، فأما إلى جنة وإما إلى نار ، فنخرج من الدنيا وبطوننا قد أخذت من مال هؤلاء . في كلام طويل يعظهم به . فاحتجوا عليه بالحديث الصحيح « ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه » . وأن ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان. فقال : وما هذا وذاك سواء . ولو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال .

ولما استمر ضعفه جعل المتوكل يبعث إليه بابن ماسويه المتطبب لينظر في مرضه ، فرجع إليه فقال : يا أمير المؤمنين إن أحمد ليس به علة في بدنه ، وإنما علته من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة . فسكت المتوكل ثم سألت أم الخليفة منه أن ترى الإمام أحمد ، فبعث المتوكل إليه يسأله أن يجتمع بابنه المعتز ويدعو له ، وليكن في حجره . فتمنع من ذلك ثم أجاب إليه رجاء أن يعجل برجوعه إلى أهله ببغداد . وبعث الخليفة إليه بخلعة سنية[1] ومركوب من مراكبه ، فامتنع من ركوبه لأنه عليه ميثرة[2] نمور ، فجيء ببغل لبعض التجار فركبه وجاء إلى مجلس المعتز ، وقـد جلس الخليفة وأمه في ناحية في ذلك المجلس ، ومن وراء ستر رقيق . فلما جاء أحمـد قال : سـلام عليكم . وجلس ولم يسلم عليه بالامرة ، فقـالت أم الخليفة : الله الله يا بني في هذا الرجل ترده إلى أهله ، فإن هذا ليس ممن يريد ما أنتم فيه . وحين رأى المتوكل أحمد قال لأمه : يا أمه قد تأنست الدار . وجاء الخادم ومعه خلعة سنية مبطنة وثوب وقلنسوة وطيلسان ، فألبسها أحمد بيده ، وأحمد لا يتحرك بالكلية . قال الإمام أحمد : ولما جلست إلى المعـتز قال مؤدبه : أصلح الله الأمير هذا الذي أمر الخليفة أن يكون مؤدبك . فقال : إن علمني شيئاً تعلمته ، قال أحمد : فتعجبت من ذكائه في صغره لأنه كان صغيراً جداً فخرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله ويستعيذ بالله من مقته وغضبه .

---

(١) سنية : رفيعة .

(٢) ميثرة : جلد .

ثم بعد أيام أذن له الخليفة بالانصراف وهيأ له حرَّاقة[1] فلم يقبل أن ينحدر فيها ، بل ركب في زورق فدخل بغداد مختفياً ، وأمر أن تباع تلك الخلعة وأن يتصدق بثمنها على الفقراء والمساكين . وجعل أياماً يتألم من اجتماعه بهم ويقول : سلمت منهم طول عمري ثم ابتليت بهم في آخره . وكان قد جاع عندهم جوعاً عظيماً كثيراً حتى كاد أن يقتله الجوع . وقد قال بعض الأمراء للمتوكل : إن أحمد لا يأكل لك طعاماً ، ولايشرب لك شراباً ، ولا يجلس على فرشك ، ويحرم ما تشربه . فقال : والله لو نشر المعتصم وكلمني في أحمد ما قبلت منه . وجعلت رسل الخليفة تفد إليه في كل يوم تستعلم أخباره وكيف حاله . وجعل يستفتيه في أموال ابن أبي دؤاد فلا يجيب بشيء ، ثم إن المتوكل أخرج ابن أبي دؤاد من سر من رأى إلى بغداد بعد أن أشهدعليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلها . قال عبد الله بن أحمد : وحين رجع أبي من سامرا وجدنا عينيه قد دخلتا في موقيه ، وما رجعت إليه نفسه إلا بعد ستة أشهر ، وامتنع أن يدخل بيت قرابته أو يدخل بيتا هم فيه أو ينتفع بشيء مما هم فيه لأجل قبولهم أموال السلطان .

وكان مسير أحمد إلى المتوكل في سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ثم مكث إلى سنة وفاته وكل يوم إلا ويسأل عنه المتوكل ويوفد إليه في أمور يشاوره فيها ، ويستشيره في أشياء تقع له . ولما قدم المتوكل بغداد بعث إليه ابن خاقان ومعه ألف دينار ليفرقها على من يرى ، فامتنع من قبولها وتفرقتها ، وقال : إن أمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره فردها . وكتب رجل رقعة إلى المتوكل يقول : يا أمير المؤمنين إن أحمد يشتم آباءك ويرميهم بالزندقة . فكتب فيها المتوكل : أما المأمون فإنه خلط فسلط الناس على نفسه ، وأما أبي المعتصم فإنه كان رجل حرب ولم يكن له بصر بالكلام ، وأما أخي الواثق فإنه استحق ما قيل فيه . ثم أمر أن يضرب الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط ، فأخذه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم فضربه خمسمائة سوط . فقال له الخليفة : لم ضربته خمسمائة سوط ؟ فقال : مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ، ومائة لكونه قذف هذا الشيخ الرجل الصالح أحمد بن حنبل .

وقد كتب الخليفة إلى أحمد يسأله عن القول في القرآن سؤال استرشاد واستفادة لا سؤال تعنت ولا امتحان ولا عناد . فكتب إليه أحمد رحمه الله رسالة حسنة فيهاآثار عن الصحابة وغيرهم ، وأحاديث مرفوعة . وقد أوردها ابنه صالح في المحنة التي ساقها ، وهي مروية عنه ، وقد نقلها غير واحد من الحفاظ .

وفاة الإمام أحمد بن حنبل

قال ابنه صالح : كان مرضه في أول شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودخلت

---

(١) حرَّاقة : جمعها حَرَّاقات : السفينة فيها مرامي نيران يُرْمَى بها العدو .

عليه يوم الأربعاء ثاني ربيع الأول وهو محموم يتنفس الصعداء وهو ضعيف ، فقلت : يا أبت ما كان غداؤك ؟ فقال : ما الباقلا . ثم إن صالحاً ذكر كثرة مجيء الناس من الأكابر وعموم الناس لعيادته وكثرة حرج الناس عليه ، وكان معه خريقة فيها قطيعات ينفق على نفسه منها ، وقد أمر ولده عبد الله أن يطالب سكان ملكه وأن يكفِّر عنه كفارة يمين ، فأخذ شيئاً من الأجرة فاشترى تمراً وكفر عن أبيه ، وفضل من ذلك ثلاثة دراهم . وكتب الإمام أحمد وصيته :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين ، وأن يحمدوه في الحامدين ، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصى أني قد رضيت بالله رباً . وبالاسلام دينا وبمحمد نبياً ، وأوصى لعبد الله بن محمد المعروف ببوران على نحواً من خمسين ديناراً وهو مصدق فيها فيقضى ماله علي من غلة الدار إن شاء الله ، فإذا استوفى أعطى ولد صالح كل ذكر وأنثى عشرة دراهم .

ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعو لهم ، وكان قد ولد له صبي قبل موته بخمسين يوماً فسماه سعيداً ، وكان له ولد آخر اسمه محمد قد مشى حين مرض فدعاه فالتزمه وقبله ثم قال : ما كنت أصنع بالولد على كبر السن ؟ فقيل له : ذرية تكون بعدك يدعون لك . قال وذاك إن حصل . وجعل يحمد الله تعالى . وقد بلغه في مرضه عن طاووس أنه كان يكره أنين المريض فترك الأنين فلم يئن حتى كانت الليلة التي توفي في صبيحتها أنّ ، وكانت ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، فأنّ حين اشتد به الوجع . وقد رُوِيَ عن ابنه عبد الله ويروى عن صالح أيضاً أنه قال : حين احتضر أبي جعل يكثر أن يقول : لا بعد ، لا بعد ، فقلت : يا أبة ما هذه اللفظة التي تلهج بها في هذه الساعة ؟ فقال : يا بني إن إبليس واقف في زاوية البيت وهو عاض على أصبعه وهو يقول : فتني يا أحمد ؟ فأقول لا بعد لا بعد ـ يعني لا يفوته حتى تخرج نفسه من جسده على التوحيد ـ كما جاء في بعض الأحاديث قال إبليس : يا رب وعزتك وجلالك ما أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله : وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني .

وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضؤه فجعلوا يوضؤ نه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعي وهو يذكر الله عز وجل في جميع ذلك ، فلما أكملوا وضوءه توفي رحمه الله ورضي عنه . وقد كانت وفاته يوم الجمعة حين مضى منه نحو من ساعتين ، فاجتمع الناس في الشوارع ، وبعث محمد بن طاهر حاجبه ومعه غلمان ومعهم مناديل فيها أكفان ، وأرسل يقول : هذا نيابة عن الخليفة ، فإنه لو كان حاضراً لبعث بهذا . فأرسل أولاده يقولون : إن أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته مما يكره وأنوا أن يكفنوه بتلك الأكفان ، وأتى بثوب كان قد غزلته جاريته فكفنوه واشتروا معه

عوز لفافة وحنوطاً ، واشتروا له راوية ماء وامتنعوا أن يغسلوه بماء بيوتهم ، لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكل بها ولا يستعير من أمتعتهم شيئاً ، وكان لا يزال متغضباً عليهم لأنهم كانوا يتناولون ما رتب لهم على بيت المال ، وهو في كل شهر أربعة آلاف درهم . وكان لهم عيال كثيرة وهم فقراء . وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بني هاشم ، فجعلوا يقبلون بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله . وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنسـاء ما لم يعلم عددهم إلا الله ، ونائب البلد محمد بن عبد الله بن طاهر واقف في جملة الناس ، ثم تقدم فعزى أولاد الإمام أحمد فيه ، وكان هو الذي أَمَّ الناس في الصلاة عليه ، وقد أعاد جماعة الصلاة عليه عند القبر وعلى القبر بعد أن دفن من أجل ذلك ، ولم يستقر في قبره رحمه الله إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق .

وقد روى البيهقي وغير واحد أن الأمير محمد بن طاهر أمر بحزر الناس فوجدوا ألف ألف وثلثمائة ألف ، وفي رواية وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن . وقال ابن أبي حاتم : سمعت أبا زرعة يقول بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناس فيه حيث صلوا على الإمام أحمد بن حنبل فبلغ مقاسه ألفي ألف و خمسمائة ألف . قال البيهقي عن الحاكم سمعت أبا بكر أحمد بن كامل القاضي يقول سمعت محمد بن يحيـى الزنجاني سمعت عبد الوهاب الوراق يقول : ما بلغنا أن جمعاً في الجاهلية ولا في الإسلام اجتمعوا في جنازة أكثر من الجمع الذي اجتمع على جنازة أحمد بن حنبل . فقال عبد الرحمن بن أبي حاتم سمعت أبي يقول حدثني محمد بن العباس المكي سمعت الوركاني ـ جار أحمد بن حنبل ـ قال : أسلم يوم مات أحمد عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس ، وفي بعض النسخ أسلم عشرة آلاف بدل عشرين ألفاً فالله أعلم .

وقال الدارقطني : سمعت أبا سهل بن زياد عبد الله بن أحمد يقول سمعت أبي يقول : قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز حين تمر . وقد صدق الله قول أحمد في هذا ، فإنه كان إمام السنة في زمانه ، وعيون مخالفيه أحمد بن أبي دؤاد وهوقاضي قضاة الدنيا لم يحتفل أحد بموته ، ولم يلتفت إليه . ولما مات ما شيعه إلا قليل من أعوان السلطان . وكذلك الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته ، لم يصل عليـه إلا ثلاثـة أو أربعة من الناس . وكذلك بشر بن غياث المريسي لم يصل عليه إلا طائفة يسيرة جداً ، فلله الأمر من قبل ومن بعد . وقد روى البيهقي عن حجاج بن محمد الشاعر أنه قال : ما كنت أحب أن أقتل في سبيل الله ولم أصلِّ على الإمام أحمد . وروى عن رجل من أهل العلم أنه قال يوم دفن أحمد : دفن اليوم سادس خمسة ، وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وأحمد . وكان عمره يوم مات سبعاً وسبعين سنة وأياماً أقل من شهر رحمه الله تعالى .

ذكر ما رئي له من المنامات

وقد صح في الحديث : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . وفي رواية « إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرَى له » . وروى البيهقي عن الحاكم سمعت علي بن محشاد سمعت جعفر بن محمد بن الحسين سمعت سلمة بن شبيب يقول : كنا عند أحمد بن حنبل وجاءه شيخ ومعه عكازة فسلم وجلس فقال : من منكم أحمد بن حنبل ؟ فقال أحمد : أنا ما حاجتك ؟ فقال ضربت إليك من أربعمائة فرسخ ، أريت الخضر في المنام فقال لي : سر إلى أحمد بن حنبل وسل عنه وقل له : إن ساكن العرش والملائكة راضون بما صبرت نفسك لله عز وجل . وعن أبي عبد الله محمد بن خزيمة الاسكندراني . قال : لما مات أحمد بن حنبل اغتممت غماًشديداً فرأيته في المنام وهويتبختر[1] في مشيته فقلت له : يا أبا عبد الله أي مشية هذه ؟ فقال : مشية الخدام في دار السلام . فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : أغفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب ، وقال لي : يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي ، ثم قال لي : يا أحمد ادعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري وكنت تدعوبهن في دار الدنيا ، فقلت : يا رب كل شيء ، بقدرتك على كل شيء اغفر لي كل شيء حتى لا تسألني عن شيء . فقال لي : يا أحمد هذه الجنة قم فادخلها . فدخلت فإذا أنا بسفيان الثوري وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهو يقول : ﴿ الحمدُ للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وأورثنا الأرضَ نَتَبَوأُ مِنَ الجنَّةِ حيثُ نشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ ﴾[2] . قال فقلت له : ما فعل بشر الحافي ؟ فقال بخ بخ ، ومن مثل بشر ؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدة من الطعام والجليل مقبل عليه وهو يقول : كل يا من لم يأكل ، واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ، أو كما قال . وقال أبو محمد بن أبي حاتم عن محمد بن مسلم بن وارة قال : لما مات أبو زرعة رأيته في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال قال الجبار : ألحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله ، مالك والشافعي وأحمد بن حنبل . وقال أحمد بن خرّزاد الأنطاكي : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وقد برز الرب جل جلاله ، لفصل القضاء ، وكأن منادياً ينادي من تحت العرش : أدخلوا أبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله وأبا عبد الله الجنة . قال فقلت لملك إلى جنبي : من هؤلاء ؟ فقال : مالك ، والثوري ، والشافعي وأحمد بن حنبل . وروى أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيى بن أيوب المقدسي قال : رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو نائم وعليه ثوب مغطى به وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين يذبان عنه . وقد تقدم في ترجمة أحمد بن أبي دؤاد عن يحيى الجلاء أنه رأى كأن أحمد بن حنبل في حلقة بالمسجد الجامع وأحمد بن أبي دؤاد في حلقة أخرى وكأن رسول الله ﷺ واقف بين الحلقتين وهو يتلو هذه الآية : ﴿ فإنْ يكفرْ بها هؤلاء ﴾[3] ويشير إلى

---

(١) يتبختر : يمشي مشية المتكبر المعجَب بنفسه .

(٢)سورة الزمر ، الآية / ٧٤.

(٣) سورة الأنعام ، الآية/ ٨٩ .

حلقة ابن أبي دؤاد ﴿ فقدْ وكَّلنا بها قوماً ليسُوا بهـا بِكَافِـرِينَ ﴾[1] . ويشير إلى أحمـد بن حنبل وأصحابه .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين

فيها كانت زلازل هائلة في البلاد ، فمنها ما كان بمدينة قومس ، تهدمت منها دور كثيرة ، ومات من أهلها نحو من خمسة وأربعين ألفاً وستة وتسعين نفساً . وكانت باليمن وخراسان وفارس والشام وغيرها من البلاد زلازل منكرة . وفيها أغارت الروم على بلاد الجزيرة فانتهبوا شيئاً كثيـراً وأسروا نحواً من عشرةآلاف من الذراري . فإنا لله وإنـا إليه راجعـون . وفيها حـج بالنـاس عبد الصمد بن موسى بن إبراهيم الإمام بن محمد بن علي نائب مكة .

وفيها توفي من الأعيان الحسن بن علي بن الجعد قاضي مدينة المنصور .

وأبو حسان الزيـادي

قاضي الشرقية ، واسمه الحسن بن عثمان بن حماد بن حسـان بن عبد الـرحمن بن يزيـد البغدادي ، سمع الوليد بن مسلم ، ووكيع بن الجراح ، والواقدي ، وخلقـاً سواهم . وعنـه أبو بكر بن أبي الدنيا وعلي بن عبد الله الفرغاني الحافظ المعروف بطفل ، وجمـاعة . تـرجمه ابن عساكر في تاريخه . قال : وليس هو من سلالة زياد بن أبيه ، إنما تزوج بعض أجداده بأم ولد لزياد ، فقيل له الزيادي . ثم أورد من حديثه بسنده عن جابر « الحلال بين الحرام بين » . الحديث . وروى عن الخطيب أنه قال : كان من العلماء الأفاضل من أهل المعرفة والثقة والأمانة ، ولي قضاء الشرقية في خلافة المتوكل ، وله تاريخ على السنين ، وله حديث كثير . وقال غيره : كان صالحاً ديناً قد عمل الكتب ، وكانت له معرفة جيدة بأيام الناس ، وله تاريخ حسن ، وكان كريماً مفضالاً . وقد ذكر ابن عساكر عنه أشياء حسنة ، منها أنه أنفذ إليه بعض أصحابه يذكر به أنه قد أصابته ضائقة في عيد من الأعياد ، ولم يكن عنده غير مائة دينار ، فأرسلها بصرتها إليه ، ثم سأل ذلك الرجل صاحب له أيضاً وشكا إليه مثلما شكا إلى الزيادي ، فأرسل بها الآخر إلى ذلك الآخر . وكتب أبو حسان إلى ذلك الرجل الأخير الذي وصلت إليه أخيراً يستقرض منه شيئاً وهو لا يشعر بالأمر، فأرسل إليه بالمائة في صرتها ، فلما رآها تعجب من أمرها وركب إليه يسأله عن ذلك فذكر أن فلاناً أرسلها إليه ، فاجتمعوا الثلاثة واقتسموا المائة الدينار رحمهم الله وجزاهم عن مروءتهم خيراً .

وفيها توفي أبو مصعب الزهري أحد رواة الموطأ عن مالك ، وعبد الله بن ذكوان أحد القراء المشاهير . ومحمد بن أسلم الطوسي . ومحمد بن رمح . ومحمد بن عبد الله بن عمار الموصلي أحد أئمة الجرح والتعديل . والقاضي يحيى بن أكثم .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية/ ٨٩ .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

في ذي القعدة منها توجه المتوكل على الله من العراق قاصداً مدينة دمشق ليجعلها له دار إقامة ومحلة إمامة فأدركه عيد الأضحى بها ، وتأسف أهل العراق على ذهاب الخليفة من بين أظهرهم ، فقال في ذلك يزيد بن محمد المهلبي :

أظنُّ الشامَ تشمتُ بالعراقِ ... إذا عزمَ الإمامُ على انطلاقِ
فإنْ يَدَعِ العراقَ وساكِنيها ... فقدْ تُبْلى المليحةُ[1] بالطلاق

وحج بالناس فيها الذي حج بهم في التي قبلها وهو نائب مكة .

وفيها توفي من الأعيان كما قال ابن جرير :

إبراهيم بن العباس

متولي ديوان الضياع . قلت : هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي الشاعر الكاتب ، وهو عم محمد بن يحيى الصولي ، وكان جده صول بكر ملك جرجان وكان أصله منها ، ثم تمجس ثم أسلم على يدي يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، ولإبراهيم هذا ديوان شعر ذكره ابن خلكان واستجاد من شعره أشياء منها قوله :

ولربَّ نازلةٍ يَضيقُ بها الفتى ... ذَرْعاً وعندَ اللّهِ منها مَخْرَجُ
ضاقت فلما استحكمتْ حلقاتُها ... فَرُجت وكنتَ أظنُّها لا تُفْرجُ

ومنها قوله :

كنتَ السواد لمقلتي ... فبكى عليكَ الناظرُ
منْ شاءَ بعدكَ فليمتْ ... فعليك كنتُ أحاذرُ

ومن ذلك ما كتب به إلى وزير المعتصم محمد بن عبد الملك بن الزيات .

وكنت أخي بإخاءِ الزمانِ ... فلمّا نَبَى صِرْتَ حَرْباً عَوانا
وكنتُ أذمّ إليكَ الزمانَ ... فأصبحتُ منكَ أذمُ الزمانا
وكنتُ أعدّكَ للنائباتِ[2] ... فها أنا أطلبُ منكَ الأمانا

وله أيضاً :

لا يمنعنَّكَ خفضُ العيشِ في دَعَةٍ ... نزوعَ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ

---

(١) المليحة : ذات الملاحة والظرف .

(٢) النائبات : المصايب والمكاره .

تلقى بكل بلادٍ إن حللتَ بها أهلاً بأهلٍ وأوطاناً بأوطانِ

كانت وفاته بمنتصف شعبان من هذه السنة . بسر من رأى . والحسن بن مخلد بن الجراح خليفة إبراهيم بن شعبان . قال : ومات هاشم بن فيجور في ذي الحجة .

قلت : وفيها توفي أحمد بن سعيد الرباطي . والحارث بن أسد المحاسبي . أحد أئمة الصوفية . وحرملة بن يحيى التجيبي صاحب الشافعي . وعبد الله بن معاوية الجمحي . ومحمد بن عمر العدني . وهارون بن عبد الله الحماني . وهناد بن السري .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

في صفر منها دخل الخليفة المتوكل إلى مدينة دمشق في أبهة الخلافة وكان يوماً مشهوداً ، وكان عازماً على الإقامة بها ، وأمر بنقل دواوين الملك إليها ، وأمر ببناء القصور بها فبنيت بطريق داريا ، فأقام بها مدة ، ثم إنه استوخمها ورأى أن هواءها بارد ندي وماءها ثقيل بالنسبة إلى هواء العراق ومائه ، ورأى الهواء بها يتحرك من بعد الزوال في زمن الصيف ، فلا يزال في اشتداد وغبار إلى قريب من ثلث الليل ، ورأى كثرة البراغيث بها ، ودخل عليه فصل الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمراً عجيباً ، وغلت الأسعار وهو بها لكثرة الخلق الذين معه ، وانقطعت الأجلاب بسبب كثرة الأمطار والثلوج ، فضجر منها ثم جهز بغا إلى بلاد الروم ، ثم رجع من آخر السنة إلى سامرا بعد ما أقام بدمشق شهرين وعشرة أيام ، ففرح به أهل بغداد فرحاً شديداً . وفيها أتى المتوكل بالحربة التي كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ . ففرح بها فرحاً شديداً ، وقد كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ يوم العيد وغيره ، وقد كانت للنجاشي فوهبها للزبير بن العوام ، فوهبها الزبير للنبي ﷺ ، ثم إن المتوكل أمر صاحب الشرطة أن يحملهابين يديه كما كانت تحمل بين يدي رسول الله ﷺ . وفيها غضب المتوكل على الطبيب بختيشوع ونفاه وأخذ ماله . وحج بالناس فيها عبد الصمد المتقدم ذكره قبلها . واتفق في هذه السنة يوم عيد الأضحى وخميس فطر اليهود وشعانين النصارى وهذا عجيب غريب .

وفيها توفي أحمد بن منيع . وإسحاق بن موسى الخطمي . وحميد بن مسعدة . وعبد الحميد بن سنان . وعلي بن حجر . والوزير محمد بن عبد الملك الزيات . ويعقوب بن السكيت صاحب إصلاح المنطق .

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

فيها أمر المتوكل ببناء مدينة الماحوزة وحفر نهرها ، فيقال إنه أنفق على بنائها وبناء قصر الخلافة بها الذي يقال له « اللؤلؤة » ألفي ألف دينار . وفيها وقعت زلازل كثيرة في بلاد شتى ، ففيها من ذلك بمدينة إنطاكية سقط فيها ألف وخمسمائة دار ، وانهدم من سورها نيف وتسعون برجاً ،

وسمعت من كوى دورها أصوات مزعجة جداً فخرجوا من منازلهم سراعاً يهرعون ، وسقط الجبل الذي إلى جانبها الذي يقال له الأقرع فساخ في البحر ، فهاج البحر عند ذلك وارتفع دخان أسود مظلم منتن ، وغار[1] نهر على فرسخ منها فلا يُدْرَى أين ذهب . ذكر أبو جعفر بن جرير قال : وسمع فيها أهل تنيس ضجة دائمة طويلة مات منها خلق كثير . قال : وزلزلت فيها الرها والرقة وحران ورأس العين وحمص ودمشق وطرسوس والمصيصة ، وأذنة وسواحل الشام ، ورجفت اللاذقية بأهلها فما بقي منها منزل إلا انهدم ، وما بقي من أهلها إلا اليسير ، وذهبت جبلة بأهلها . وفيها غارت مُشاش ـ عين ـ مكة حتى بلغ ثمن القربة بمكة ثمانين درهماً . ثم أرسل المتوكل فأنفق عليها مالاً جزيلاً حتى خرجت . وفيها مات إسحاق بن أبي إسرائيل وسوار بن عبد الله القاضي . وهلال الرازي .

وفيها هلك **نجاح بن سلمة** وقد كان على ديوان التوقيع . وقد كان حظياً عند المتوكل ، ثم جرت له حكاية أفضت به إلى أن أخذ المتوكل أمواله وأملاكه وحواصله ، وقد اورد قصته ابن جرير مطولة . وفيها توفي أحمد بن عبدة الضبي ، وأبو الحيس القواس مقري مكة ، وأحمد بن نصر النيسابوري . وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وإسماعيل بن موسى ابن بنت السدي . وذو النون المصري ، وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم ، ومحمد بن رافع ، وهشام بن عمار ، وأبو تراب النخشبي .

وابن الراوندي

الزنديق ، وهو أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين بن الراوندي ، نسبة إلى قرية ببلاد قاشان ثم نشأ ببغداد ، كان بها يصنف الكتب في الزندقة ، وكانت لديه فضيلة ، ولكنه استعملها فيما يضره ولا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة . وقد ذكرنا له ترجمة مطولة حسب ما ذكرها ابن الجوزي في سنة ثمان وتسعين ومائتين وإنما ذكرناها ههنا لأن ابن خلكان ذكر أنه توفي في هذه السنة . وقد تلبس عليه ولم يجرحه بل مدحه فقال : هو أبو الحسن أحمد بن إسحاق الراوندي العالم المشهور ، له مقالة في علم الكلام ، وكان من الفضلاء في عصره ، وله من الكتب المصنفة نحو من مائة وأربعة عشر كتاباً ، منها فضيحة المعتزلة ، وكتاب التاج ، وكتاب الزمردة ، وكتاب القصب ، وغير ذلك . وله محاسن ومحاضرات مع جماعة من علماء الكلام ، وقد انفرد بمذاهب نقلها عنه أهل الكلام .

توفي سنة خمس وأربعين ومائتين ، برحبة مالك بن طوق التغلبي ، وقيل ببغداد ، نقلت ذلك عن ابن خلكان بحروفه وهو غلط . وإنما أرخ ابن الجوزي وفاته في سنة ثمان وتسعين ومائتين كما سيأتي له هناك ترجمة مطولة .

---

(۱) غار : نضب وجفَّ .

ذو النـون المصـري

ثوبان بن إبـراهيم ، وقيل ابن الفيض بن إبـراهيم ، أبو الفيض المصـري أحد المشـايخ المشهورين ، وقد ترجمه ابن خلكان في الوفيات ، وذكر شيئاً من فضائله وأحواله ، وأرخ وفاته في هذه السنة ، وقيل في التي بعدها ، وقيل في سنة ثمان وأربعين ومائتين فالله أعلم . وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن مالك . وذكره ابن يونس في تاريخ مصر ، قال : كان أبوه نوبياً ، وقيل إنه كان من أهل أخميم ، وكان حكيماً فصيحاً ، قيل وسئل عن سبب توبته فذكر أنه رأى قُبَّرة عمياء نزلت من وكرها فانشقت لها الأرض عن سكرجتين من ذهب وفضة في إحداهما سمسم وفي الاخرى ماء ، فأكلت من هذه وشربت من هذه . وقد شكى عليه مرة إلى المتوكل فأحضره من مصر إلى العراق ، فلما دخل عليه وعظه فأبكاه ، فرد مكرماً . فكان بعد ذلك إذا ذكر عند المتوكل يثني عليه .

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

في يوم عاشوراء منها دخل المتوكل الماحوزة فنزل بقصر الخلافة فيها ، واستدعى بالقراء ثم بالمطربين وأعطى وأطلق ، وكان يوماً مشهوداً ، وفي صفر منها وقع الفداء بين المسلمين والروم ، ففدى من المسلمين نحو من أربعة آلاف أسير . وفي شعبان منها أمطرت بغداد مطراً عظيماً استمر نحواً من أحد وعشرين يوماً . ووقع بأرض بلخ مطر ماؤه دم عبيط . وفيها حج بالناس محمد بن سليمان الزنيبي ، وحج فيها من الأعيان محمد بن عبد الله بن طاهر وولى أمر الموسم .

وممن توفي فيها من الأعيان أحمد بن إبراهيم الدورقي . والحسين بن أبي الحسن المروزي . وأبو عمرو الدوري . أحد القراء المشاهير . ومحمد بن مصفي الحمصي .

ودعبل بن علـي

ابن رزين بن سليمان الخزاعي ، مولاهم الشاعر الماجن البليغ في المدح ، وفي الهجاء أكثر . حضر يوماً عنـد سهل بن هـارون الكاتب وكـان بخيلاً ، فـاستدعى بغـدائه فـإذا ديك في قصعة[1] ، وإذا هو قاس لا يقطعه سكين إلا بشده ، ولا يعمل فيه ضرس . فلما حضر بين يديه فقد رأسه فقال للطباخ ويلك ، ماذا صنعت ؟ أين رأسه ، قال : ظننت أنك لا تأكله فألقيته ، فقال : ويحك ، والله إني لأعيب على من يلقى الرجلين فكيف بالرأس ، وفيـه الحواس الأربـع ، ومنه يصوت وبه ، فضل عينيه وبهما يضرب المثل ، وعرفه وبه يتبرك ، وعظمه أهنى العظام ، فإن كنت رغبت عن أكله فأحضره . فقال : لا أدري أين هو ؟ فقال : بل أنا أدري ، هو في بطنك قاتلك الله . فهجاه بأبيات ذكر فيها بخله ومسكه .

---

(١) قصعة : الصَّحْفَة .

أحمد بن أبي الحواري

واسمه[1] عبد الله بن ميمون بن عياش بن الحارث أبو الحسن التغلبي الغطفائي ، أحد العلماء الزهاد المشهورين ، والعباد المذكورين ، والأبرار المشكورين ، ذوي الأحوال الصالحة ، والكرامات الواضحة ، أصله من الكوفة وسكن دمشق وتخرج بأبي سليمان الداراني رحمهما الله . وروى الحديث عن سفيان بن عيينة ووكيع وأبي أسامة وخلق . وعنه أبو داود وابن ماجه وأبو حاتم وأبو زرعة الدمشقي ، وأبو زرعة الرازي وخلق كثر . وقد ذكره أبو حاتم فأثنى عليه . وقال يحيى بن معين : إني لأظن أن الله يسقي أهل الشام به . وكان الجنيد بن محمد يقول : هو ريحانة الشام

وروى ابن عساكر أنه كان قد عاهد أبا سليمان الداراني ألا يغضبه ولا يخالفه ، فجاءه يوماً وهو يحدث الناس فقال : ياسيدي هذا قد سجروا التنور فماذا تأمر ؟ فلم يرد عليه أبو سليمان ، لشغله بالناس ، ثم أعادها أحمد ثانية ، وقال له في الثالثة: اذهب فاقعد فيه. ثم اشتغل أبو سليمان ، في حديث الناس ثم استفاق فقال لمن حضره : إني قلت لأحمد : اذهب فاقعد في التنور ، وإني أحسب أن يكون قد فعل ذلك، فقوموا بنا إليه . فذهبوا فوجدوه جالساً في التنور ولم يحترق منه شيء ولا شعرة واحدة . وروى أيضاً أن أحمد بن أبي الحواري أصبح ذات يوم وقد ولد له ولد ولا يملك شيئاً يصلح به الولد ، فقال لخادمه : اذهب فاستدن لنا وزنة من دقيق ، فبينما هو في ذلك إذ جاءه رجل بمائتي درهم فوضعها بين يديه ، فدخل عليه رجل في تلك الساعة فقال : يا أحمد إنه قد ولد لي الليلة ولد ولا أملك شيئاً ، فرفع طرفه إلى السماء وقال : يا مولاي هكذابالعجلة . ثم قال للرجل : خذ هذه الدراهم ، فأعطاه إياها كلها ، ولم يبق منها شيئاً ، واستدان لأهله دقيقاً . وروى عنه خادمه أنه خرج للثغر لأجل الرباط فما زالت الهدايا تفد إليه من بكرة النهار إلى الزوال ، ثم فرقها كلها إلى وقت الغروب ثم قال لي : كن هكذا لا ترد على الله شيئاً ، ولا تدخر عنه شيئاً .

ولما جاءت المحنة في زمن المأمون الى دمشق بخلق القرآن عين فيها أحمد بن أبي الحواري وهشام بن عمار ، وسليمان بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن ذكوان ، فكلهم أجابوا إلا ابن أبي الحواري فحبس بدار الحجارة ، ثم هدد فأجاب تورية مكرها ، ثم أطلق رحمه الله . وقد قام ليلة بالثغر يكرر هذه الآية : ﴿ إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ﴾[2] . حتى أصبح . وقد ألقى كتبه في البحر وقال : نعم الدليل كنت لي على الله وإليه ، ولكن الاشتغال بالدليل بعد معرفة المدلول عليه والوصول إليه محال . ومن كلامه لا دليل على الله سواه ، وإنما يطلب العلم لآداب الخدمة . وقال : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه . وقال :

---

(١) أي اسم أبي الحواري والد احمد .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية/٥ .

من نظر إلى الدنيا إرادة وحب لها أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه . وقال : قلت لأبي سليمان في ابتداء أمري : أوصني ، فقال : اتستوص أنت ؟ فقلت نعم إن شاء الله تعالى . فقال : خالف نفسك في كل مراداتها فإنها الأمّارة بالسوء ، وإياك أن تحقر إخوانك المسلمين ، واجعل طاعة الله دثاراً[1] ، والخوف منه شعاراً ، والاخلاص له زاداً ، والصدق حسنة ، واقبل مني هذه الكلمة الواحدة ولا تفارقها ولا تغفل عنها . من استحيى من الله في كل أوقاته وأحواله وأفعاله ، بلغه الله إلى مقام الأولياء من عباده . قال فجعلت هذه الكلمات أمامي في كل وقت أذكرها وأطالب نفسي بها . والصحيح أنه توفي في هذه السنة ، وقيل في سنة ثلاثين ومائتين ، وقيل غير ذلك فالله أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

في شوال منها كان مقتل الخليفة المتوكل على الله على يد ولده المنتصر ، وكان سبب ذلك أنه أمر ابنه عبد الله المعتز الذي هو ولي العهد من بعده أن يخطب بالناس في يوم جمعة ، فأدّاها أداء عظيماً بليغاً ، فبلغ ذلك من المنتصر كل مبلغ ، وحنق على أبيه وأخيه ، فأحضره أبوه وأهانه وأمر بضربه في رأسه وصفعه ، وصرح بعزله عن ولاية العهد من بعد أخيه ، فاشتد أيضاً حنقه أكثر مما كان . فلما كان يوم عيد الفطر خطب المتوكل بالناس وعنده بعض ضعف من علة به ، ثم عدل إلى خيام قد ضربت له أربعة أميال في مثلها ، فنزل هناك ثم استدعى في يوم ثالث شوال بندمائه على عادته في سمره وحضرته وشربه ، ثم تمالأ ولده المنتصر وجماعة من الأمراء على الفتك به فدخلوا عليه ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال ، ويقال من شعبان من هذه السنة ، وهو على السماط فابتدروه بالسيوف فقتلوه ثم ولوا بعده ولده المنتصر .

ترجمة المتوكل على الله

جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي ، وأم المتوكل أم ولد يقال له شجاع ، وكانت من سروات النساء سنحاً وحزماً . كان مولده بفم الصلح سنة سبع ومائتين ، وبويع له بالخلافة بعد أخيه الواثق في يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة لسنة اثنتين وثلاثين ومائتين . وقد روى الخطيب من طريقه عن يحيى بن أكثم عن محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن الأعمش عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « من حرم الرفق حرم الخير » . ثم أنشأ المتوكل يقول :

الرفق يمن والأناةُ سعادةٌ ... فاستأنِ في رفقٍ تلاقِ نجاحا

(١) دثاراً : غطاء .

لا خيرَ في حَزمٍ بغيرِ رويّةٍ والشكُّ وهن إن أردتَ سَراحا

وقال ابن عساكر في تاريخه: وحدث عن أبيه المعتصم يحيى بن أكثم القاضي . وروى عنه علي بن الجهم الشاعر ، وهشام بن عمار الدمشقي ، وقدم المتوكل دمشق في خلافته وبنى بها قصراً بأرض داريا . وقال يوماً لبعضهم : إن الخلفاء تتغضب على الرعية لتطيعها ، وإني ألين لهم ليحبوني ويطعيوني . وقال أحمد بن مروان المالكي : ثنا أحمد بن علي البصري قال : وجه المتوكل إلى أحمد بن المعذل وغيره من العلماء فجمعهم في داره ثم خرج عليهم فقام الناس كلهم إليه إلا أحمد بن المعذل . فقال المتوكل لعبيد الله : إن هذا لا يرى بيعتنا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين بلى ! ولكن في بصره سوء . فقال أحمد بن المعذل : يا أمير المؤمنين ما في بصري سوء ، ولكن نزهتك من عذاب الله . قال النبي ﷺ : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبّوأ مقعده من النار » . فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه . وروى الخطيب أن علي بن الجهم دخل على المتوكل وفي يده درتان يقلبهما فأنشده قصيدته التي يقول فيها : -

وإذا مررت ببئر عروة فاستقي من مائها

فأعطاه التي في يمينه وكانت تساوي مائة ألف . ثم أنشده :

بِسُرٍّ من رأى أميرٌ تَغْرِفُ من بحره البحارُ
يُرجَى ويُخشَى لكلِّ خطبٍ كأنّهُ جَنّةٌ ونَارُ
الملكُ فيهِ وفي بَنِيهِ ما اختلفَ الليلُ والنهارُ
يَداهُ في الجودِ ضُرَّتانِ عليهِ كلتاهما تَغارُ
لم تأتِ منهُ اليمينُ شيئاً إلا أتَتْ مثلَهُ اليسارُ

قال : فأعطاه التي في يساره أيضاً . قال الخطيب : وقد رويت هذه الأبيات لعلي بن هارون البحتري في المتوكل . وروى ابن عساكر عن علي بن الجهم قال : وقفت فتحية حظية المتوكل بين يديه وقد كتبت على خدها بالغالية جعفر فتأمل ذلك ثم أنشأ يقول :

وكاتبةٍ في الخدِّ بالمِسْكِ جَعفراً بنفسي تَخُطُ المسكَ من حيث أثرا
لئن أودعتْ سَطراً من المسكِ خدَّها لقد أودعْت قلبي من الحبِّ أسْطُرا
فيا مَن مُناها في السّريرةِ جعفرٌ سقا اللّهُ من سُقيا ثناياكِ جعفَرا
ويا من لِمَمْلوكٍ بملكِ يَمينهِ مطيعٌ له فيما أسرَّ وأظهرْا

قال ثم أمر المتوكل عربا فغنت به . وقال الفتح بن خاقان : دخلت يوماً على المتوكل فإذا هو مطرق مفكر فقلت : يا أمير المؤمنين مالك مفكر ؟ فوالله ما على الأرض أطيب منك عيشاً ، ولا أنعم منك بالاً . قال : بلى أطيب مني عيشاً رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة ، لا يعرفنا فنؤذيه ، ولا يحتاج إلينا فنزدريه . وكان المتوكل محبباً إلى رعيته قائماً في نصرة أهل السنة ، وقد

شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الردة ، لأنه نصر الحق ورده عليهم حتى رجعوا إلى الدين . وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية . وقد أظهر السنة بعد البدعة . وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها فرحمه الله . وقد رآه بعضهم في المنام بعد موته وهو جالس في نور قال.فقلت : المتوكل ؟ قال : المتوكل . قلت : فما فعل بك ربك ؟ قال : غفر لي . قلت : بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . وروى الخطيب عن صالح بن أحمد أنه رأى في منامه ليلة مات المتوكل كأن رجلاً يصعد به إلى السماء وقائلاً يقول :

ملكٌ يُقاد إلى مليكٍ عادلٍ ... متفضّلٍ في العفْوِ ليسَ بجائرِ

وروى عن عمرو بن شيبان الحلبي قال : رأيت ليلة المتوكل قائلاًيقول : -

يا نائمَ العينِ في أوطانِ جُثْمانِ ... أفضْ دموعَكَ يا عمرو بن شيبانِ

أما ترى الفئة الأرجاسَ[1] ما فعلوا ... بالهاشميِّ وبالفتحِ بن خاقانِ

وافى الى الله مظْلوماً فضجَّ له ... أهلُ السمواتِ من مثنى ووحدانِ

وسَوْفَ يأتيكم من بعده فتنٌ ... توقَّعوها لها شأنٌ من الشانِ

فابكوا على جعفرٍ وابكوا خليفتكم ... فقدْ بكاهُ جميعُ الإنْسِ والجانِ

قال : فلما أصبحت أخبر الناس برؤ ياي فجاء نعي المتوكل انه قد قتل في تلك الليلة ، قال ثم رأيته بعد هذا بشهر وهو واقف بين يدي الله عز وجل فقلت : ما فعل بك ربك ؟ فقال : غفر لي . قلت بماذا ؟ قال : بقليل من السنة أحييتها . قلت فما تصنع ههنا ؟ قال : أنتظر ابني محمداً أخاصمه إلى الله الحليم العظيم الكريم .

وذكرنا قريباً كيفيةمقتله وأنه قتل في ليلة الأربعاء أول الليل لأربع خلت من شوال من هذه السنة - أعني سنة سبع وأربعين ومائتين - بالمتوكلية وهي الماحوزية ، وصلى عليه الأربعاء ، ودفن بالجعفرية وله من العمر أربعون سنة ، وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام . وكان أسمر حسن العينين نحيف الجسم خفيف العارضين أقرب إلى القصر والله سبحانه أعلم .

خلافة محمد المنتصر بن المتوكل

قد تقدم أنه تمالأ هو وجماعة من الأمراء على قتل أبيه ، وحين قتل بويع له بالخلافة في الليل ، فلما كان الصباح من يوم الأربعاء رابع شوال أخذت له البيعة من العامة وبعث إلى أخيه المعتز فأحضره إليه فبايعه المعتز ، وقد كان المعتز هو ولي العهد من بعد أبيه ، ولكنه أكرهه وخافه فسلم وبايع . فلما أخذت البيعة له كان أول ما تكلم به أنه اتهم الفتح بن خاقان على قتل أبيه ، وقتل الفتح أيضاً ثم بعث البيعة له إلى الآفاق . وفي ثاني يوم من خلافته ولى المظالم لأبي عمرة أحمد بن سعيد

(١) الأرجاس : الأقذار .

مولى بني هاشم فقال الشاعر :

يـا ضَيْـعةَ الإسلامِ لـمـا وَلِي مـظالـمَ الـنـاسِ أبـو عَـمْـرَة
صُـيِّـر مـأمونـاً عـلى أمَّةٍ وليسَ مـأمُـونـاً علىَ بَـعْـره[1]

وكانت البيعة له بالمتوكلية ، وهي الماحوزة ، فأقام بها عشرة أيام ثم تحول هو وجميع قوّاده وحشمه منها إلى سامرا . وفيها في ذي الحجة أخرج المنتصر عمه علي بن المعتصم من سامرا إلى بغداد ووكل به . وحج بالناس محمد بن سليمان الزينبي . وفيها توفي من الأعيان إبراهيم بن سعيد الجوهري . وسفيان بن وكيع بن الجراح ، وسلمة بن شبيب .

وأبو عثمان المازني النحـوي

واسمـه بكـر بن محمـد بن عثمـان البصـري شيـخ النحـاة في زمـانـه ، أخـذه عن أبي عبيدةوالأصمعي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ، وأخذ عنه أبو العباس المبرد وأكثر عنه ، وللمازني مصنفات كثيرة في هذا الشأن . وكان شبيهاً بالفقهاء ورعاً زاهداً ثقة مأموناً . روى عنه المبرد أن رجلاً من أهل الذمة طلب منه أن يقرأ عليه كتاب سيبويه ويعطيه مائة دينار فامتنع من ذلك . فلامه بعض الناس في ذلك فقال : إنما تركت أخذ الأجرة عليه لما فيه من آيات الله تعالى . فاتفق بعد هذا أن جارية غنت بحضـرة الواثق :

أَظَـلومُ إنَّ مُـصـابَـكـم رَجُـلاً ردُّ الـسَّـلامِ تـحـيّـةٌ ظُـلْـمُ

فاختلف من بحضرة الواثق في إعراب هذا البيت ، وهل يكون رجلاً مرفوعاً أو منصوباً ، وبم نصب ؟ أهو اسم أو ماذا ؟ وأصرت الجارية على أن المازني حفَّظها هذا وهكذا . قـال فأرسـل الخليفة إليه ، فلما مثل بين يديه قال له : أنت المازني ؟ قال : نعم . قال من مازن تميم أم مازن ربيعة أمْ مازن قيس ؟ فقلت من مازن ربيعة . فأخذ يكلمني بلغتي ، فقال : باسمك ؟ وهم يقلبون الباء ميماً والميم باء ، فكرهت أن أقول مكر فقلت : بكر ، فأعجبه إعراضي عن المكر إلى البكر ، وعرف ما أردت . فقال : على ما انتصب رجلاً ؟ فقلت : لأنه معمول المصدر بمصابكم فأخذ اليزيدي يعارضه فعلاه المازني بالحجة فأطلق له الخليفة ألف دينار ورده إلى أهله مكرماً . فعوضه الله عن المائة الدينار ـ لما تركها لله سبحانه ولم يمكن الذمي من قراءة الكتاب لأجل ما فيه من القرآن ـ ألف دينار عشرة أمثالها . روى المبرد عنه قال : أقرأت رجلاً كتاب سيبويه إلى آخره ، فلما انتهى إلى آخره قال لي : أما أنت أيها الشيخ فجزاك الله خيراً ، وأما أنا فوالله ما فهمت منه حرفاً . توفي المازني في هذه السنة وقيل في سنة ثمان وأربعين .

---

(1) بعرة : جمعها بَعَرات : رجيع ذوات الخفّ والظِّلْف .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

فيها أغزى المنتصر وصيفاً التركي الصائفة لقتال الروم ، وذلك أن ملك الروم قصد بـلاد الشام ، فعند ذلك جهز المنتصر وصيفاً وجهز معه نفقات وعدداً كثيرة ، وأمره إذافرغ من قتال الروم أن يقيم بالثغر أربع سنين ، وكتب له محمد بن عبد الله بن طاهر نائب العراق كتاباً عظيماً فيه آيات كثيرة في التحريض للناس على القتال والترغيب فيه . وفي ليلة السبت لسبع بقين من صفر خلع أبو عبد الله المعتز والمؤيد إبراهيم أنفسهما من الخلافة ، وأشهدا عليهما بذلك ، وأنهما عاجزان عن الخلافة ، والمسلمين في حل من بيعتهما ، وذلك بعد ما تهددهما أخوهما المنتصر وتوعدهما بالقتل إن لم يفعلا ذلك ، ومقصوده تولية ابنه عبد الوهاب باشارة أمراء الأتـراك بذلك . وخطب بذلك على رؤوس الأشها دبحضرة القواد والقضاة وأعيان الناس والعوام ، وكتب بذلك إلى الآفاق ليعلموا بذلك ويخطبوا له بذلك على المنابر ، ويتوالى على محال الكتابـة ، والله غالب على أمـره ، فأراد أن يسلبهما الملك ويجعله في ولده ، والأقدار تكذبه وتخالفه ، وذلك أنه لم يستكمل بعد قتل أبيه سوى ستة أشهر ، ففي أواخر صفر من هذه السنة عرضت له علة كان فيها حتفه ، وقد كان المنتصر رأى في منامه كأنه يصعد سلماً فبلغ إلى آخر خمس وعشرين درجة . فقصَّها على بعض المعبرين فقال : تلي خمساً وعشرين سنة الخلافة ، وإذا هي مدة عمره قد استكملها في هذه السنة . وقال بعضهم : دخلنا عليه يوماً فإذا هو يبكي وينتحب شديداً ، فسألـه بعض أصحابه عن بكائه فقال : رأيت أبي المتوكل في منامي هذا وهو يقول : ويلك يا محمد قتلتني وظلمتني وغصبتني خلافتي ، والله لا أمتعت بها بعدي إلا أياماً يسيرة ثم مصيـرك إلى النار . قال : فما أملك عيني ولا جزعي . فقال له أصحابه من الغرارين الذين يغرون الناس ويفتنونهم : هذه رؤيا وهي تصدق وتكذب ، قم بنا إلى الشراب ليذهب همك وحزنك . فأمر بالشراب فأحضر وجاء ندماؤه فأخذ في الخمر وهو منكسر الهمة ، وما زال كذلك مكسوراً حتى مات .

وقد اختلفوا في علته التي كان فيها هلاكه ، فقيل داء في رأسه فقطر في أذنه دهن فلما وصل إلى دماغه عوجل بالموت ، وقيل بل ورمت معدته فانتهى الورم إلى قلبه فمات ، وقيل بل أصابته ذبحة فاستمرت به عشرة أيام فمات ، وقيل بل فصده الحجام[1] بمفصد مسموم فمات من يومه . قال ابن جرير : أخبرني بعض أصحابنا أن هذا الحجام رجع إلى منزله وهو محموم فدعا تلميذاً له حتى يفصده فأخذ مبضع أستاذه ففصده به وهو لا يشعر وأنسى الله سبحانه الحجام فما ذكر حتى رآه قد فصده به وتحكم فيه السم ، فأوصى عند ذلك ومات من يومه . وذكر ابن جرير أن أم الخليفة دخلت عليه وهو في مرضه الذي مات فيه فقالت له : كيف حالك ؟ فقال : ذهبت مني الدنيا والآخرة ، ويقال إنه أنشد لما أحيط به وأيس من الحياة :

فمـا فَرِحتْ نفسي بِـدُنيـا أَصَبْتُهـا ... ولكـنْ إلى الـربِّ الكـريـمِ أصيـرُ

. فمات يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر من هذه السنة ، وقت صلاة العصر ، عن خمس وعشرين سنة ، قيل وستة أشهر . ولا خلاف أنه إنما مكث بالخلافة ستة أشهر لا أزيد منها . وذكر ابن جرير عن بعض أصحابه أنه لم يزل يسمع الناس يقولون ـ العامة وغيرهم حين ولي المنتصر ـ إنه لا يمكث في الخلافة سوى ستة أشهر ، وذلك مدة خلافة من قتل أباه لأجلها ، كما مكث شيروية بن كسرى حين قتل أباه لأجل الملك . وكذلك وقع ، وقد كان المنتصر أعين أقنى[1] قصيراً مهيباً جيد البدن ، وهو أول خليفة من بني العباس أبرز قبره باشارة أمه حبشية الرومية .

ومن جيد كلامه قوله : والله ما عز ذو باطل قط ، ولو طلع القمر من جبينه ، ولا ذل ذو حق قط ولو أصفق[2] العالم عليه .

بحمد الله تعالى قد تم طبع الجزء العاشر من البداية والنهاية ويليه الجزء الحادي عشر وأوله خلافة أحمد المستعين بالله . والله نسأل المعونة والتوفيق .

---

(١) الأقنى : من في أنفه احديداب.

(٢) أصفق : اجتمع وأثمر

فهرست الجزء العاشر من كتاب البداية والنهاية

صفحة	
ـ ثم دخلت سنة ثلاث واربعين ومائة	٨٢
ـ ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائة	٨٣
ـ ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة	٨٥
ـ **فصـــل : مقتل محمد بن عبد الله بن حسن**	٨٩
ـ خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن ...	٩٠
ـ ذكر خروج ابراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة	٩٣
ـ ذكر من توفي فيها من الأعيان	٩٧
ـ وفيها توفي من المشاهير والأعيان	٩٨
ـ ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة	٩٩
ـ ما ورد في ميدان بغداد من الآثار وما فيها من الأخبار	١٠٤
ـ **فصـــل : محاسن بغداد ومساويها وما روى في ذلك عن الائمة ....**	١٠٥
ـ ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة	١٠٦
ـ ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة	١٠٨
ـ ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة ..	١٠٩
ـ ذكر ترجمته	١١٠
ـ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة	١١١
ـ بناء الرصافة ـ ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة ـ ثم دخلت سنة ثلاث وخمسون ومائة	١١٢
ـ ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة	١١٤
ـ أشعب الطامع	١١٤
ـ ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة ـ بناء الرافقة وهي المدينة المشهورة	١١٦
ـ حماد الراوية ـ ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة	١١٧
ـ ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة ـ شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله	١١٨
ـ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة	١٢٣

صفحة	
ـ ترجمته المنصور	١٢٤
ـ أولاد المنصور	١٣١
ـ خلافة المهدي بن المنصور ـ ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة	١٣٢
ـ ثم دخلت سنة ستين ومائة ذكر البيعة لموسى الهادي	١٣٤
ـ ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة	١٣٦
ـ أبو دلامـــة	١٣٧
ـ ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة ـ إبراهيم بن أدهم	١٣٨
ـ ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة	١٤٩
ـ ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة ـ ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة	١٥٠
ـ ثم دخلت سنة ست وستين ومائة	١٥١
ـ ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة	١٥٣
ـ ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة	١٥٤
ـ ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة	١٥٥
ـ خلافة موسى الهادي بن مهدي	١٦١
ـ ثم دخلت سنة سبعين ومائة	١٦٢
ـ وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي	١٦٣
ـ خلافة هارون الرشيد بن المهدي	١٦٤
ـ ذكر من توفي فيها من الأعيان	١٦٦
ـ ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة ـ ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة ـ ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة	١٦٧
ـ غادر	١٦٩
ـ ثم دخلت سنة اربع وسبعين ومائة ـ ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة	١٧٠
ـ شعوانة العابدة الزاهدة	١٧١
ـ المنذر بن عبد الله بن المنذر ـ ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة	١٧٢

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

